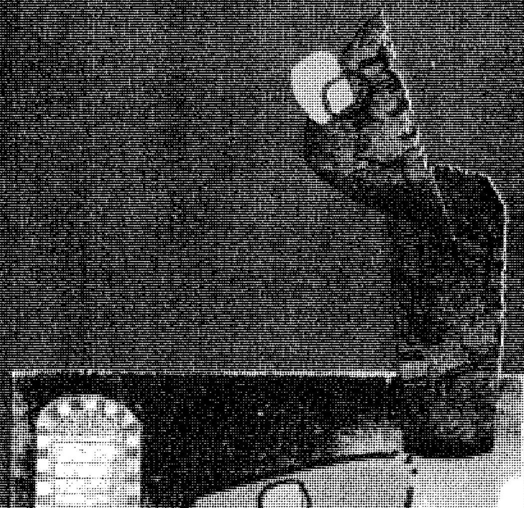
الدكتور محمد العربي الزبيري

تاريخ الجزائر المعاصر

(الجزء الثاني)



دراسة

تاريخ الجزائر المعاصر

(1962-1954).

الجزء الثاني

الدكتور: محمد العربي الزبيري

تاريخ الجزائر المعاصر

(1962-1954)

(الجزء الثاني)

- دراسة -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

1999

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت:

www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنان : اسماعيل نصرة

□□

مقدمة الجزء الثاني

يسعدني أن أضع بين يدي القراء عامة والطلبة خاصة الجزء الثاني من تاريخ الجزائر المعاصر وهو يغطي الفترة الممتدة من سنة 1954 إلى غاية 1962.

لقد حاولتُ بقدر الإمكان أن تكون الدراسة موجزة وقريبة من الموضوعية التي هي صفة أساسية من صفات البحث العلمي وسعيت مجتهداً وصادقاً، أن أقدمّ من خلال هذا العمل المتواضع أقصى مايمكن من المعطيات الضرورية لتتبع أهم أحداث ثورة نوفمبر ولفهم كثير من محطاتها الرئيسية.

كما أنني توقفتُ ملياً عند بعض المصطلحات والمفاهيم والتي اعتبرتها مفاتيح الكتابة التاريخية والتي بدون التمكن منها يستحيل الوصول إلى حقيقة اندلاع الثورة وتقفي سائر مراحلها.

إنني تعمدتُ عدم التوقف طويلاً عند القضايا الشائكة التي عرفتها جبهة التحرير الوطني طيلة سنوات الكفاح المسلح، وذلك لإيماني بأن الإنجاز الكبير لا يزيدها إلا تعقيداً وغموضاً. وهذا الاعتراف لا يعد هروباً من المسؤولية خاصة وأني أنجزت دراسة وافية شملت كل تلك القضايا مع محاولة الربط فيما بينها والكشف عن خباياها وتسليط الأضواء عن الضباب الكثيف، الذي أحيط بها ورجائي أن تجد طريقها إلى النشر في أقرب الأوقات.

والله ولي التوفيق

الدكتور:

محمد العربي الزبيري

□□

الباب الثاني

بناء المجتمع الجزائري الجديد وتطويره

الفصل الأول

الخطوات الأولى في التطبيق الميداني لأهداف الثورة

* التوجهات الأساسية.
* موقف الحكومة الفرنسية من الثورة وتطورها.
* مواجهة الصعوبات الأولى.
* هجوما العشرين من أغسطس1955م.

■■

التوجهات الأساسية:

عندما أشعلت جبهة التحرير الوطني فتيل الثورة، ليلة الفاتح من نوفمبر سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف، فإنها إنما فعلت ذلك لتجسيد إيديولوجية حزب الشعب الجزائري، لأجل ذلك حددت تحركاتها الأولى في إطار توجهات ثلاث.

1 – التوجه السياسي:

ويهدف إلى استرجاع السيادة المغتصبة عن طريق الكفاح المسلح الذي يجب أن يتحول إلى انتفاضة عامة تضعف الجيوش المعتدية، وتخرب الاقتصاد الاستعماري وتفرض جو الحرب الساخنة على فرنسا فتنقاد إلى تفاوض كما حدده نداء الفاتح من نوفمبر سنة 1954.

وفي إطار هذا التوجه السياسي، دعت جبهة التحرير الوطني كافة التشكيلات السياسية إلى الإعلان عن حل نفسها رسمياً[1]، ودفع مناضليها ومريديها إلى الالتحاق، فرادى، بالصفوف، وأكدت من خلال النداء الأول وفي مناسبات عديدة، أن التفاوض لا يكون إلا معها بصفتها قائداً للكفاح المسلح وممثلاً وحيداً للشعب الجزائري.

وكان قادة جبهة التحرير الوطني يطمحون، بصدق وإخلاص، إلى استرجاع استقلال الجزائر ضمن الوحدة الشاملة للمغرب العربي الكبير، وذلك تماشياً مع إيديولوجية نجم شمال إفريقيا، وإيماناً منها بأن تلك هي الطريقة الوحيدة لقطع خط الرجعة على الاستعمار بجميع أشكاله وألوانه.

(1) مازال هذا الموضوع يسيل كثيراً من الجدل، فمفجروا الثورة يصفون قيادات التشكيلات السياسية في ذلك الوقت بالانتهازية ويتهمونهم بعدم الإستجابة للنداء في الوقت المناسب، لأن الحزب الشيوعي حل من طرف السلطات الفرنسية في سبتمبر سنة 1955 ورغم ذلك ظل ينشط سرياً في الداخل وفي الخارج إلى أن استرجعت الجزائر استقلالها. أما جمعية العلماء والاتحاد الديمقراطية للبيان الجزائري فإنهما أعلنا عن حل نفسيهما وانضمام قيادتيهما فرادى إلى جبهة التحرير الوطني في شهر أفريل سنة ست وخمسون وتسعمائة وألف.

2 - التوجه الاقتصادي والاجتماعي:

ويرمي إلى استرجاع الأراضي المغتصبة وإخضاع مجالات الإنتاج والتسويق والاستثمار إلى التخطيط الذي يأخذ بعين الاعتبار واقع البلاد وإمكانياتها واحتياجات الجماهير الشعبية الواسعة.

وبواسطة هذا التوجه كانت جبهة التحرير الوطني تسعى إلى تغيير هيكلة اقتصادية واجتماعية وضعها الاستعمار الاستيطاني طيلة الفترة التي بقيها في ديارنا لتكون دعامة للاقتصاد في (الوطن الأم) ولتبقي الإنسان الجزائري في حالة تبعية دائمة تمنعه من الشعور بذاته وتحول بينه وبين مسؤولياته ككائن له حق التصرف في شؤونه.

صحيح أن جبهة التحرير الوطني لم تبدأ، في عامها الأول، ببرنامج اقتصادي، واضح لكنها كانت واعية بأن السلطات الاستعمارية قد اغتصبت ملكيات الجزائريين الزراعية والصناعية خاصة إلى الكولون يستغلونها ويوظفون ثرواتها لتحقيق الثراء الفاحش وللتمكن من ممارسة الاستبداد والاضطهاد على السكان الأهالي، ومن شراء الذمم والأحلاف سواء في أوساط الحكام الفرنسيين بمختلف أنحاء الجزائر أو في فرنسا ذاتها. ولقد تحول ذلك الوعي، في خضم المعركة، إلى رغبة ملحة في استرجاع كل ما أخذ بالقوة. وفي نهاية مرحلة الكفاح المسلح، ظهر التفكير جدياً في إرساء قواعد التسيير الذاتي الذي يعد، بحق، واحدة من الطرق المؤدية إلى انتصار الاشتراكية، والذي هو، في خطوطه العريضة، مأخوذ من تقاليدنا في الإنتاج والتسيير الاقتصادي قبل الاحتلال الفرنسي.

3 - التوجه الحضاري:

ويشمل مجالي الدين والثقافة انطلاقاً من مجموعة من الحقائق أهمها:

أ - إن الاستعمار لاقى مقاومة بطولية دعامتها المسجد ومصدرها في غالب الأحيان إحدى الزوايا التي كانت منتشرة عبر مختلف أنحاء البلاد لأجل ذلك وجه ضربات قاسية إلى الدين ساعدت على تشويهه وتزييف تعاليمه وإغراقه في متاهات الشعوذة والدروشة. نقول ساعد لأن الأرضية اللازمة للقيام بذلك العمل إنما كانت متوفرة، شأن الجزائر في ذلك هو شأن باقي البلاد الإسلامية التي كانت تعيش جواً يسوده الظلم والاستبداد اللذين لا علاقة لهما بالإسلام، ويخضع للخرافات التي أبعدت الناس عن الدين الصحيح. أما المساجد

فإنه أفرغها من محتواها الثوري الذي وجدت من أجله، وحولها إلى شبه كنائس، وذلك إذا سلمت من الهدم ولم تحول مادياً إلى مقرات لمؤسسات أخرى دينية أو اقتصادية أو سياسية أو عسكرية.

إن هذه الحقيقة التاريخية هي التي جعلت الجزائر تلجأ إلى الدين:

تخلصه من بعض ماعلق به من شوائب، وفي ذات الحين ترتكز عليه لتزويد المجاهدين بالطاقة الضرورية لهم في مواجهتهم لأعتى قوة استعمارية تفوقهم عدة وعتادا، ولتعبئة الجماهير الشعبية الواسعة وتوعيتها بالوضع الجديد الذي يجب أن تتكيف معه حتى تتمكن من المشاركة الفعلية في معركة التحرير.

وبالفعل، فإن الذي يرجع، بتأمل، إلى تاريخ ثورة نوفمبر يرى أن التكبير والترغيب في الشهادة قد أديا دوراً أساسياً في تثبيت العزائم وتقوية النفوس وتجنيد أغلبية المواطنين حول جبهة التحرير الوطني.

ب - إن الاستعمار كان وما زال يدرك أن شعباً بلا ثقافة شعب ميت، وأن الاحتلال الحقيقي لا يتم إلا عندما يقضي على ثقافة الشعب المعتدى عليه. فانطلاقاً من هذه القناعة عمدت السلطات الاستعمارية، في بلادنا، إلى تجهيل الجماهير، وتزييف التراث الوطني وطمس معالم الثقافة ومصادرها. بادرت إلى صنع ثقافة جديدة لا علاقة لها بواقعنا، ومثقفين، من نوع جديد، زودتهم بالقيم والأخلاق الاستعمارية. وهنا، أنبه إلى أن التعليم ليس هو الثقافة، وأن هناك من الحصول على الثقافة، وأن هناك من المتعلمين باللغة الفرنسية من تمكنوا من الحصول على ثقافة وطنية واسعة.

إن جبهة التحرير الوطني لم تكن تجهل هذا المسعى الاستعماري، ومن ثمة، فإنها إلى جانب الكفاح المسلح، كانت تنظم، في الأرياف خاصة وفي أوساط المجاهدين بصفة عامة، حملات متواصلة لمحو الأمية، وتغيير الذهنيات الجامدة ولرفع مستوى الوعي لدى الفلاحين والعمال، كما أنها كانت تعمل، جاهدة على دعم الأخلاق الثورية المرتكزة على قيمنا العربية الإسلامية، تلكم القيم التي سيكون منها المنطلق لبلورة عناصر الشخصية الوطنية، ولتكوين الإنسان الجزائري الجديد القادر على الإسهام بفعالية في معركة البناء والتشييد من أجل استرجاع السيادة الوطنية وإقامة الدولة القوية المستقلة.

وحينما اتخذت القيادة العليا لجبهة التحرير الوطني قرارها التاريخي الخاص بتفجير الثورة ليلة الفاتح من نوفمبر عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف، قسمت البلاد إلى ست مناطق عينت على رأس كل واحدة منها مسؤولاً،

ماعدا منطقة الجنوب.

وتم الاتفاق في نفس الوقت، على ضرورة عقد ندوة وطنية في منتصف شهر جانفي سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف تتولى تقييم المرحلة المقطوعة وإعداد برنامج العمل المستقبلي على ضوء التجربة المعيشة وما يكون قد تخللها من مستجدات.

إن الندوة المذكورة لم تعقد ولم يتمكن القادة التاريخيون من التلاقي لأسباب كلها موضوعية يأتي في مقدمتها استشهاد مراد ديدوش قائد المنطقة الثانية[1] واعتقاد رابح بيطاط قائد المنطقة الرابعة [2] ومصطافه بن بولعيد قائد المنطقة الأولى[3] وعدم تمكن محمد بوضياف[4] من إحكام عملية التنسيق بين الداخل والخارج وهو ما أدى إلى عدم تمكين مختلف المناطق بالأسلحة والذخائر اللازمة لاستمرار المعركة وتطورها. وبالإضافة إلى ذلك هناك حالة الطوارئ[5] وميلاد الحركة الوطنية الجزائرية[6] التي أرادها السيد مصالي الحاج تنظيماً منافساً لجبهة التحرير الوطني.

ولم يبق في الميدان من القيادة السداسية سوى كريم بلقاسم قائد المنطقة الثالثة الذي ظل يبذل أقصى مافي وسعه للتصدي إلى هجمات القوات الاستعمارية، والعربي بن المهيدي الذي صار يسعى للتوفيق بين مهامه كقائد للمنطقة الخامسة وواجبات جديدة فرضت عليه نتيجة اعتقال قائد المنطقة الرابعة.

إن هذا التعثر، على الرغم مما كان يمثله من خطر ماحق على مصير الثورة، لم يمنع جبهة وجيش التحرير الوطني من الانتشار بسرعة فائقة خاصة في أوساط مناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية الذين كانوا ينتظرون هذه الظروف الجديدة بفارغ الصبر.

---

(1) استشهد في معركة بوكركر على مقربة من مدينة زيغود يوسف حالياً يوم 1955/01/18.

(2) تم اعتقاله على إثر وشاية يوم 1955/02/25.

(3) تم اعتقاله في شهر فيفري سنة 1955 عندما كان يحاول اجتياز الحدود التونسية الليبية بحثاً عن الأسلحة والذخيرة.

(4) الأسباب التي منعته من ذلك كثيرة منها: مرض السل وعدم اعتراف المندوبية الخارجية بسلطته.

(5) إجراء قانوني اتخذته السلطات الاستعمارية بدلاً عن حالة الحصار وكان ذلك يوم 1955/02/19.

(6) هناك اختلاف كبير حول تاريخ ميلادها بالضبط لكننا نرجح أن يكون في يوم 1955/12/22 على إثر حل حركة الانتصار يوم 1954/11/15 لأن الحركة الوطنية التي يتزعمها الحاج مصالي عودتنا على أنها تلجأ إلى اسم جديد كلما تعرضت لإجراءات الحل، أما التشكيلة فتبقى بدون تغيير.

ومن الغريب أن المناطق التي أصابتها أعنف الهزات هي التي طورت أكثر من غيرها.

ونحن نعرف، اليوم، أن عدد المجاهدين الذين لم يكن يتجاوز الأربعمائة ليلة أول نوفمبر قد ارتفع عشية انتفاضة العشرين أوت سنة 1955 إلى حوالي أربعة آلاف، بالإضافة إلى التنظيم المدني السري الذي عم أغلبية أنحاء المناطق الأولى والثانية والثالثة.

ولم يكن تزايد عدد المقاتلين، رغم أهميته كافياً، لأن الأسلحة لم تكن متوفرة لا نوعاً ولا كماً، ناهيك عن الذخيرة وسائر معدات الحرب.

فرجال جيش التحرير الوطني، استطاعوا، في هذه الأشهر الأولى، أن يجمعوا حوالي ألف قطعة سلاح[1] مابين بنادق الصيد والمسدسات العادية والبنادق الحربية الموروثة عن الحرب الامبريالية الثانية ولم يكن هذا هو المتوقع عندما تفرقت القيادة العليا عشية أول نوفمبر، بل أن آمالاً كبيرة كانت معلقة على نشاطات المندوبية في الخارج[2] ومجهودات السيد محمد بوضياف الذي كلف بتعبئة الجزائريين في فرنسا حيث سهولة الاتصال بباعة الأسلحة ومهربيها.

غير أن مندوبية الخارج لم تحصل، رغم الجهود المبذولة والوعود المحصل عليها، على مايمكنها من شراء الأسلحة وإدخالها إلى المناطق. ذلك[3] أن الدول العربية الشقيقة لم تكن تصدق أن يكون للشعب الجزائري،في يوم من الأيام، طليعة تستطيع تفجير الثورة على واحدة من أعظم القوات الاستعمارية في العالم، خاصة وأن الجزائر كانت ملحقة، قانونياً، بفرنسا[4].

أما السيد بوضياف، فإن مهمته في فرنسا قدتعقدت بسبب سيطرة مصالي شبه الكلية على هياكل حركة الانتصار للحريات الديمقراطية[5] لأجل ذلك، فإنه

---

(1) – حــزب جبهة التحرير الوطني(المنظمة الوطنية للمجاهدين)، من معارك ثورة التحرير، منشورات قسم الإعلام والثقافة، الجزائر بدون تاريخ، ص 14، ومابعدها.

(2) – كانت المندوبية مكونة من السيدمحمد خيضر رئيساً وعضوية السيد أحمدبن بلة وآيت أحمد وكلهم يعيشــون في القاهرة بتفويض من قيادة حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وكانوا ملاحقين من طرف السلطات الاستعمارية بسبب ما تحملوه من مسؤوليات في إطار المنظمة الخاصة.

(3) Aurcre, Editions Garnier, P. 68. Une Guerre.1. ABBAS (Ferhat) Autopsie d

(4) ـ خيضر (محمد)، "بدايات الثورة"، المجاهد، العدد، 12- بتاريخ 1962/4/30.

(5) HARBI (Mohamed), Le FLN Mirage et réalité, des origines àla prise du pouvoir- (1945-19620 P. 151.

ترك فكرة التسليح مؤقتاً، وراح يقوم بحملة توعية واسعة النطاق في أوساط مناضلي الحركة المذكورة إلى أن تمكن من استمالة عدد كبير منهم سمح له بإنشاء هياكل جبهة التحرير الوطني وإرساء قواعدها الثابتة التي ستبرهن على نجاعتها فيما بعد.

وأمام هذه الظروف الطارئة، فإن قيادات المناطق، حيث تأجج لهيب الثورة قد لجأت إلى الاعتماد على النفس وراحت تأمر بمضاعفة الجهود في مجال صنع المتفجرات التقليدية وجمع ما أمكن من الذخيرة والأسلحة التي كانت بين أيدي المواطنين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى رفعت شعار:

"سلاحنا نفتكه من عدونا"، وهو شعار أتى بنتائج إيجابية معتبرة."[1]

وإلى جانب هذين الإجرائين الحكيمين قام كل من الشهيدين العربي بن المهيدي ومصطفى بن بولعيد، الأول في اتجاه المغرب الأقصى والثاني في اتجاه ليبيا عن طريق تونس، بمحاولة لربط الاتصال بمندوبية الخارج. لكن المحاولتين لم تأتيا بثمار يذكر إذ عاد ابن بولعيد إلى سجن الكدية كما هو معروف.

كل هذه الصعوبات والمشاكل غير المتوقعة لم تمنع المجاهدين من خوض كثير من المعارك الناجحة ضد القوات الاستعمارية المسلحة، كماتم تمنع أعداداً كبيراً من الخونة والعملاء من نيل الجزاء الذي يستحقونه.

إن الدارس لا يستطيع في صفحات قليلة أو حتى في مجلد، أن يتعرض بجد لكل العمليات العسكرية والحملات التأديبية والكمائن القاتلة التي قام بها أو أقامها جيش التحرير الوطني خلال تلك الأشهر الأولى من الثورة.

ولكن كانت الثورة قد حققت كثيراً من التقدم، وأحرزت على العديد من الانتصارات في المجالين السياسي والعسكري، فإن مشاكل التسليح ستظل مطروحة بحدة إلى نهاية عام 1955. وإن هذا النقص في التسليح هو الذي سيسمح للسلطات الاستعمارية بأن تجمع قواها وتوظف إمكانات حربية هائلة لقمع المناطق الثائرة.

---

(1) - *من معارك ثورة التحرير، ص 16.*

*موقف الحكومة الفرنسية من الثورة وتطورها:

وفي صباح اليوم الثاني من شهر نوفمبر، ظهرت الصحافة الاستعمارية بعناوين ترمي إلى هدفين مختلفين: فهي تدعو، من جهة، إلى التزام الهدوء، ومنح الثقة للسلطات المختصة التي تملك من الوسائل ماسيمكنها، في ظرف قصير جداً، من القضاء على الأعمال الإجرامية[1] والدعوة إلى الهدوء والثقة معناها منع الفوضى والاضطراب اللذين من شأنهما أن يخلقا مايحتاجه الثوار من ظروف ملائمة، فتضطرب نيران الحرب، وتعم الثورة التي تحقق المسؤولون من وقوعها رغم تنكرهم لها في الظاهر، وعدم اعترافها بشرعيتها. ومن جهةأخرى. فإن تلك العناوين جاءت عبارة عن ترهيب ووعيد موجهين لقادة وأعضاء الحركة الجديدة، مذكرة بقوة فرنسا وعظمتها وقدرتها على رد الفعل، وعلى استعمال العنف والقمع من أجل التوصل إلى استتباب الأمن وإرجاع المياه إلى مجاريها..

وبهذا الصدد، صرح الوالي العام بأنه يملك وسائل إضافية سوف لن يدخر استعمالها، وأنه سيتخذ كل مايجب اتخاذه من إجراءات لحماية مصالح فرنسا والفرنسيين وللدفاع عنها[2]

وفي اليوم الثالث من الشهر، تعددت التعاليق وتكاثرت الآراء التي أجمعت، رغم اختلاف الاتجاهات السياسية لأصحابها، بأن جذور ماوقع في الجزائر، يجب البحث عنها في الخارج، لأن الدقة التي ميزت الأحداث"أكبر من عقول الأهالي"[3]

وبالطبع، فإن أول من وجهت إليه التهم الثقيلة هي الجامعة العربية التي لم تكن،آنذاك تخفي دفاعها عن حقوق أبناء المغرب العربي إلى درجة أنها أنشأت، في القاهرة، مباشرة بعد تأسيسها، مكتباً يمثل الحركات الوطنية العاملة في كل من تونس والجزائر والمغرب الأقصى[4]، وبالإضافة إلى ذلك فإن إذاعة صوت

---

(1) انظر جريدة "صدى الجزائر" Echo d ' Alger، الصادرة بتاريخ 2 نوفمبر سنة 1954.

(2) جريدة "Echo d' Oran" الصادرة بتاريخ 3 نوفمبر سنة 1954.

(3) نفس المصدر.

(4) مكـــي (الشـــاذلي)، "مكتب تحرير المغرب العربي، الشعب، العدد 1092، الصادر بتاريخ 17/03/1966. يذكـــر الكـــاتب الذي كان يمثل حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في المكتب المذكور برئاسة الأمير عبد الكريم الخطابي أن الجماعة العربية خصصت لها ميزانية لتكوين وتدريب جيش تحرير شمال إفريقيا.

العرب هي أول محطة أعلنت عن ميلاد جبهة التحرير الوطني، وبشرت بالنصر المبين، ودعت إلى اللحاق بركب المقاتلين، منددة بالقاعدين والمترددين، ثم أن مصر كانت، سنة 1954، ما زالت تعيش في هيجان الثورة وحماسها، تلك الثورة التي رفعت كشعار لها، منذ البداية، خدمة القومية العربية والدفاع عنها أينما وجد أبناؤها.

ومن جهته، فإن السيد ميسكاتلي، ممثل ولاية الجزائر العاصمة في مجلس الشيوخ الفرنسي، قد صرح بأن الأحداث التي تهز المستعمرة منذ ثلاثة أيام ماهي إلا دلالة واضحة على التضامن الوطيد بين مختلف الحركات الوطنية التي تشوش شمال إفريقيا بأسره، بل أن مايتم في واحد من أقطار المغرب، إنما هو باتفاق الجميع ومن تخطيط كل القيادات المتمردة على السيادة الفرنسية[1].

أما الوالي العام، السيد روجي ليونار، فإنه أبدى اندهاشه أمام التناسق الذي تمت به العمليات عبر مختلف أنحاء البلاد، وراح يؤكد أن كل القرائن تثبت بأن عناصر أجنبية هي التي خططت وهي تقود التمرد قصد تجنيد الرأي العام بمناسبة انعقاد الدورة العادية للأمم المتحدة، والتمكن من فتح ملف المغرب العربي أمام تلك الهيئات الدولية.

وعلى العكس من الوالي العام، فإن السيد مارسيل أدموند نايجلن السابق الذكر، لم يندهش لما وقع، بل ذكر أنه كان دائماً يقول: "إن الجزائر لا يمكن أن تبقى غريبة عما يجري في المغرب الأقصى وتونس"[2]، ثم حدد خطة للعمل تهدف إلى خنق الثورة في مهدها، وحصرها في نقطتين: تتمثل الأولى في الشروع في تطبيق قانون الجزائر الذي سبقت الإشارة إليه، وتتعلق الثانية بتنمية الخدمات الاجتماعية، وخاصة محاربة البطالة في أوساط الأهالي لصدهم عن الانضمام إلى صفوف جبهة التحرير الوطني.

وخارج الجزائر، فإن "بريد المغرب" قد علق على أحداث الفاتح من نوفمبر بمايلي:

إن الوطنيين يعتقدون أنهم سيسيطرون على عمليات الإرهاب، ولكنهم غالطون، لأن ذلك سوف يتعداهم لفائدة الشيوعيين.[3]

وكانت الجملة الأخيرة بمثابة الإيحاء، لأن الشيوعية سوف تصبح من

(1) *Ladépêche de Constantine: العدد الصادر بتاريخ 1954/11/02.*

(2) *نفس المصدر.*

(3) *"بريدالمغرب"، الصادر بتاريخ 2 نوفمبر 1954.*

خلال وسائل الإعلام، هي المتهم الثاني الذي ستركز سلطات الاستعمار مجهوداتها لتلقي عليه مسؤولية اندلاع الثورة.

وليس معنى الاتهام أن المخابرات الفرنسية لم تكن تعرف الحقيقة، ولكن كان لابد من إيجاد العوامل التي تنفر الجماهير من الحركة الجديدة، وتمنعها من الالتحاق بصفوف المكافحين. ذلك أن الشعب الجزائري مسلم، وإذا كانت الثورة مدعمة، حقاً، من قبل الشيوعية، فإنها تكون، بلا شك، مناهضة للإسلام خاصة وأن هناك سوابق في التاريخ المعاصر:شعوب إسلامية سيطرت عليها الشيوعية، فأخرجتها من الإيمان ورمت بها في أحضان الكفر والإلحاد بحجة مسايرة العلم والتقدم.

ولئن كانت المسؤولية قد ألقيت هكذا جزافاً على كل من الجامعة العربية والشيوعية، هروباً من الواقع المر الذي لم يكن يخفي على الولاية العامة، فإن حركة الانتصار للحريات الديمقراطية هي الأخرى قد تعرضت لقمع أعمى باعتبارها المسؤول الرئيسي عما وقع[1]..

وهكذا صدر مرسوم بتاريخ الخامس من شهر نوفمبر، ونشر على أعمدة الجريدة الرسمية التي تحمل تاريخ السابع من نفس الشهر، يقضي بحل حركة الانتصار للحريات الديمقراطية وكل المنظمات والهيئات التابعة لها وتحريم نشاطها في كافة أنحاء تراب الجمهورية الفرنسية بما في ذلك مايسمى بعمالات الجزائر. وأعطيت الأوامر لمصالح الأمن في مختلف أنحاء البلاد، فألقت القبض، خلال الأسبوع الأول من نوفمبر وحده، على أكثر من ألفي رجل من مناضلي ومسؤولي الحركة المصالية وزجت بهم في السجون تستنطقهم، بحثاً عن الحقيقة ومن أجل التوصل إلى القيادة العاملة في كل منطقة.

وأمام تلك الأعداد الضخمة من الإيقافات وبعد قنبلة جبال الأوراس بالنابالم الذي أتلف الأخضر واليابس في جزء كبير منها، عنونت الجرائد الاستعمارية في صحافتها الأولى: "بأن المنظمة الإرهابية قد قضي عليها نهائياً في الشرق الجزائري".[2].

ومما لاشك فيه أن تصرفات السلطات الاستعمارية، أثناء هذا الأسبوع

---

(1) روبارت مارل؛ أحمد بن بلة، قالي مار باريس سنة 1960، ص 96-97، يقول المؤلف أن أحمد بن بلة ذكر له أن قيادة الثورة كانت تراهن على ارتكاب فرنسا كل هذه الأخطاء.

(2) ص Echo D'Oran La dépêche de constantine du 09/11/1954. Alger- Echo d Echod

الأول من الثورة قد ساهمت مساهمة فعالة،وبطريقة عفوية، في تزويد جبهة التحرير الوطني بالكثير من المنخرطين الجدد، كما أنها ساعدت على نشر الرعب في نفوس الأوربيين والتشكيك في كل مايمكن أن يصدر عن الهيئات الرسمية.

وبالفعل، فإن حملة الإيقافات العشوائية قد دفعت الكثير من المترددين إلى تغيير مواقفهم والالتحاق بالجبال، هروباً من السجون ومراكز الاستنطاق[1]. ومن الجانب الآخر، فإن المعمرين لم تعد لهم أدنى ثقة فيما تصدره صحافتهم من بيانات رسمية، خاصة، وأن تلك البيانات كانت قد ذكرت، في البداية بأن عدد المتمردين لا يتجاوز ثلاثمائة أو أربعمائة شخص، يوجد جلهم في منطقة الأوراس.

وبعد نهاية الأسبوع الأول من نوفمبر أفادت بأنه ألقي القبض على حوالي ألف من "الإرهابيين"[2] وبأن العمليات العسكرية الحقيقية سوف تدخل مرحلتها الحاسمة في الأيام المقبلة.

*على هذا الأساس، صار الأوروبيون والذين يقرأون الجرائد بصفة عامة يتساءلون عمن هم هؤلاء الذين تم اعتقالهم.وهل السلطات الاستعمارية تعرف العدد الحقيقي للثوار العاملين في سائر أنحاء الجزائر؟وإذا كانت السلطات الرسمية لا تستطيع الإجابة المقنعة عن هذين السؤالين، فهل يحق للمعمرين أن يثقوا بقدرتها على حمايتهم والدفاع عن ممتلكاتهم، فضلاً عن ثقتهم بقدرتها على تخليص البلاد من ذلك السرطان الذي يهدد الكيان الاستعماري في أساسه؟

ولاسترجاع تلك الثقة المفقودة والضرورية لخوض المعركة، ركزت السلطات الفرنسية على جانبين رئيسيين من جوانب الإعلام والتوجيه: فمن ناحية سلطت الأضواء على حياة بعض الثوار ممن لهم "ماض إجرامي أو علاقات مشبوهة مع القضاء" وذلك للتقليل من قيمة جبهة التحرير الوطني، وحتى يتخلف أبناء العائلات الكريمة عن الالتحاق بصفوف المجاهدين، ومن جملة ما نشرته جريدة "صدى الجزائر": أن جيش التحرير المزعوم يضم من بين قيادات أركانه شخصيات بارزة يمكن أن نذكر من جملتها: الشهير قرين بلقاسم بن بشير الذي يبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة ويجر وراءه سوابق عدلية لا تقوى الجبال على حملها. لأجل ذلك، فإنه لا مجال للدهشة عندما نعلم

(1) *المنظمة الوطنية للمجاهدين، أشغال المؤتمر لكتابة التاريخ، الجزائر 1981، ج1، ص 107.*
(2) *نفس المصدر، ص 109.*

أنه فضل الالتحاق بأصدقائه المحكوم عليهم. ترأس عصابة من الإرهابيين بدلاً من أن يستسلم للعدالة ويقضي في السجن سنوات الأشغال الشاقة التي حكم بها عليه سنة 1950".[1]

ومن ناحية ثانية، ركزت وسائل الإعلام، بأمر من المسؤولين طبعاً، على التدخل الأجنبي والإمدادات الخارجية"، التي بدونها لا يمكن للجزائريين أن يقفوا في وجه قوات الأمن الفرنسية[2] وبهذا الصدد، ذكر أن خمس مائة "إرهابي" تونسي التحقوا بجبال الأوراس في الأيام الأولى من شهر نوفمبر لتنظيم وحدات القتال، وتدريب الأهالي على استعمال الأسلحة وعلى خوض حرب العصابات. كما ذكر أن السلطات العسكرية قد لاحظت بأن بعض الطائرات تأتي، ليلاً، بدون أدنى ضوء فتفرغ حمولاتها بمنطقة الأوراس، وتضيف نفس المصادر أن تلك الطائرات قد يكون منطلقها من المملكة الليبية[3]

وبالإضافة إلى كل ذلك، فإن الصحافة الفرنسية راحت تعمل على تعميم الفكرة القائلة بأن الثوار إنما هم جماعات معزولة ومنبوذة من الجماهير التي لا ترغب سوى في أن تبقى فرنسية كاملة الحقوق والواجبات. وبهذا الصدد نشرت "صدى الجزائر" خبراً مفاده أن سكان تيزي غنيف قد حاولوا الاعتداء على اثنين وثلاثين إرهابياً وقعوا أسرى أثناء عملية قامت بها "قوات الأمن"[4]..

وقد أدت هذه الأوضاع، متظافرة، إلى تذبذب السلطات الاستعمارية التي لم تعد تعني مايصدر عنها من أقوال وتصرفات وصارت تتخبط في عدد لا حصر له من التناقضات.

ففي ظرف يومي، الثامن والتاسع من شهر ديسمبر، أعلن السيد ميتران وزير الداخلية آنذاك، "أن سبعين ألف جندي يعملون في المناطق المشوشة للتدليل على أن فرنسا محمية في الجزائر"[5]، وصرح السيد ليونار الوالي العام، في حفل رسمي "أن المتمردين لا يزيد عددهم عن أربعمائة شخص"، وعنونت "صدى الجزائر: إن قوات الأمن ألقت القبض على سبعمائة وخمسين وقتلت وجرحت سبعين من "الإرهابيين"[6] .

---

[1] انظر "صدى الجزائر"، عددها الصادر بتاريخ 5 نوفمبر سنة 1954.

[2] صدى الجزائر، العدد الصادر بتاريخ 1954/11/8 ص2.

[3] المنظمة الوطنية للمجاهدين، أشغال المؤتمر الأول لكتابة التاريخ، الجزائر 1981، ص 111.

[4] – صدى الجزائر، عددها الصادر بتاريخ 1954/12/9.

[5] – نشر الخبر على أعمدة كل الصحافة التي صدرت بالجزائر يوم 1954/12/09.

[6] – صدى الجزائر، العدد الصادر بتاريخ 1954/12/9.

ومع حلول السنة الجديدة، تغيرت الأوضاع كلية، حيث أدركت السلطات الاستعمارية أن لافائدة في مواصلة الكذب والمخادعة العاريين، فراحت قرار بتصعيد العمليات العسكرية للقضاء على مايسمى في تطبيق برنامج إصلاحي في الجزائر وعن اتخاذ قرار بتصعيد العمليات العسكرية للقضاء على مايسمى في ذلك الحين بجيوب التمرد[1].

فبالنسبة للنقطة الأولى. فإن السلطات الاستعمارية لم تجهد نفسها كثيراً. وإنما اكتفت بنفض الغبار عن قانون الجزائر الذي أودع رفوف المحفوظات منذ تاريخ صدوره سنة 1947. وأضيف إلى مواد ذلك القانون، لكي يبدو أن هناك تجديداً، إجراء خاص بإعطاء المرأة الجزائرية حق الانتخاب.

ولقد رأى المعمرون خطراً ماحقاً في تمكين المرأة العربية المسلمة من سلاح يخشى أن يستعمله المناضلون للاستحواذ على كافة المؤسسات السياسية المسيرة للبلاد. كما أنهم اعتبروا تفكير حكومتهم في تطبيق قانون الجزائر، والمعارك قائمة، تعتبر تنازلاً للذين حملوا البنادق، وخطوة عملاقة في طريق التخلي عن العمالات الثلاث المكونة للجزائر الفرنسية. لأجل ذلك، فإنهم رفعوا شعاراتهم المعادية لسياسة الحكومة المركزية، وجندوا كل طاقاتهم للإطاحة بها، خاصة وأن السيد منداس فرانس، يعد في نظرهم، واهب الاستقلالات ومخرباً للامبراطورية الاستعمارية[2].

وكان المعمرون أقوياء فعلاً، بالإضافة إلى أن تحركاتهم وقعت في ظرف كانت الحكومة فيه معرضة للهجومات مع جميع الجهات. وتزعم حركة المعمرين، تلك، رؤساء بلدياتهم الذين أوفدوا جماعة منهم إلى فرنسا، تشرح وجهة نظرهم، وتشتري الأنصار من بين كبار الشخصيات الفرنسية المسيطرة على المسرح الفرنسي.

ويتضمن مخطط كفاح رؤساء البلديات ثلاثة مطالب مركزية، نستخرجها من الندوة الصحفية التي عقدها الناطق الرسمي بأسمائهم: السيد إيزلا، بتاريخ الخامس والعشرين من شهر جانفي سنة 1955.

ويأتي على رأس تلك المطالب: المعارضة الشديدة لكل الإصلاحات المقترحة والتي ستجعل من الجزائر، حسب رأيهم، تونس ثانية، ولكي لا يظهر

---

(1) *La dépéche de constantine du 1954/12/11*

(2) *لأن حكومة منداس فرانس هي التي وقعت اتفاقيات جنيف التي أنهت حرب الهند الصينية، وأعطت الاستقلال الداخلي لتونس وفتحت المفاوضات مع سلطان المغرب الأقصى قصد إعادته إلى العرش.*

رؤساء البلديات في زي الطغاة المستبدين، صرح إيزلا "أن تطبيق الإصلاحات سينظر فيه بعدعودة السلام، واستتباب الأمن في البلاد"[1].

أما المطلب الثاني، فيدعو إلى التعجيل بإرسال الجيوش المدربة القادرة على خوض المعارك، لأن الأجناد المتواجدين في الميدان غير مهيئين لحرب العصابات. ولذلك، فإن اللفيفا الأجنبي[2]والطوابير المغربية[3] هي التي يجب أن تخصص لقتال الجزائريين. ولقد طرحت هذه الفكرة لأنها تمنع أبناء فرنسا من الموت المحقق، خاصة وأن أبناء المعمرين يؤدون الخدمة العسكرية كغيرهم، كما أنها تجعل الحرب تدور بين الأجانب فقط.

وأما المطلب الثالث، فهو اقتصادي محض يدعو إلى تزويد الجزائر بقروض من ميزانية "الوطن الأم".

ومن الجدير بالذكر أن الحكومة الفرنسية لم تبق مكتوفة الأيدي أمام كل تلك التحركات، فأصدر مجلس الوزراء بتاريخ الخامس والعشرين من شهر جانفي، هو نفس اليوم الذي عقد فيه السيد إيزلا ندوته الصحفية، بياناً يتضمن تعيين السيد جاك سوستال والياً عاماً للجزائر، والإعلان عن دمج شرطة الجزائر في شرطة فرنسا[4].

وإذا كان الإجراء الأول يهدف إلى التخلص من السيد ليونار الذي أصبح أسير كمشة من المعمرين المتطرفين، فإن دمج الشرطة يخرج قوات الأمن الأساسية من قبضة الشرذمة، ويسمح للسلطة المركزية بتعيين ضباط تستطيع الاعتماد عليهم، لأن ضباط ذلك الحين كانوا يأتمرون بأوامر الكولون.

إن مبادرات الحكومة سليمة، في حد ذاتها، وكان من الممكن أن تكون لها نتائج إيجابية، ولكنها جاءت مختلفة، ولذلك، فإنها أدت إلى عكس ماكان ينتظر، فسقطت حكومة مانديس في اليوم الخامس من شهر فيفري سنة 1955، أي بعد

---

(1) صدى الجزائر بتاريخ 28 ديسمبر 1954.

(2) جيش أنشأته فرنسا في الجزائر سنة 1831، وهو مكون من المتطوعين القادمين من جميع البلاد المسيحية بهدف تكريس احتلال دار الجهاد، وقد ظل يتجدد بنفس الطريقة إلى أن استرجعت الجزائر استقلالها، وكانت قاعدته الأساسية هي مدينة سيدي بلعباس الكائنة على بعد ثمانين كلم جنوبي وهران.

(3) – هي لفيف مكون من مقاتلين ينتمون إلى قبائل مختلفة من المغرب الأقصى استعملوا لقمع الحركة الوطنية في مراكش ثم جيء بهم إلى الجزائر حيث ظلوا يقاتلون جيش التحرير الوطني إلى مابعد استقلال بلادهم، وهكذا الاستعمار،

(4)*(Alistair) Histoire de la Guerre d'Algérie , traduit de l'anglais par Yves de Guermy, Editions Albin Michel, Paris 1980 p 109*

عشرة أيام فقط من صدور البيان المذكور.

أما بالنسبة للنقطة الثانية، فإن القيادة العسكرية، في الجزائر، قد شرعت منذ اليوم التاسع عشر من شهر جانفي، في تنظيم عمليات واسعة النطاق استهلتها بقنابل مكثفة لجبال الأوراس، ثم ألقت بآلاف الجنود المزودين بجميع أنواع الأسلحة لتمشيط المنطقة، وسمي ذلك بعملية "فيرونيك" تشبيهاً بحركة القديسة التي تحمل نفس الاسم عندما مسحت وجه المسيح. والمقصود من ذلك التشبيه أن الجيوش الفرنسية تلقت الأمر "بتفتيش المنطقة شبراً شبراً حتى لا يبقى فيها متمرد واحد"[1].

لقد نسي الاستعمار مقولة ماوتسي تونغ الشهيرة: "أن الثورة أسماك مياهها الجماهير الشعبية"[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن السيد ليونار هو الذي أشرف على انطلاق عملية فيرونيك التي ستتبعها في اليوم الثالث والعشرين من نفس الشهر عملية "فيوليت" الموجهة لتطهير الجبال المحيطة بمدينة بسكرة والممتدة على حوالي مائتين وخمسين كيلو متراً مربعاً". [3]

إن هزيمة مانديس فرانس، التي كانت أكبر دليل على قدرة الكولون وسعة سلطانهم، قد أغرقت فرنسا في أزمة سياسية تركتها بدون حكومة مدة تسعة عشر يوماً، ظهرت خلالها عدة محاولات فاشلة قامت بها شخصيات ذات انتماءات سياسية وعقائدية مختلفة. ويبدو أن الملل، من جهة، واطمئنان المعمرين على مصالحهم الخاصة، من جهة ثانية، هما اللذان سمحا للسيد ادقار فور أن يفوز بالثقة التي مكنته من تشكيل حكومته يوم 24 فيفري 1955م.

ولا يمكن أن تكون مجرد صدفة تلك التي جعلت سوستيل الوالي العام الجديد، يعلن، بنفس التاريخ، إن فرنسا لن تتخلى عن الجزائر، إلا كما تتخلى عن مقاطعة بريتاني[4].

وليس ذلك فقط هو الدليل الوحيد على انتصار الطغمة الاستعمارية، بل إن

---

[1]*Courrière (Yves) . Les Fils de la toussaint, Fayard Paris 1968.P550..*

[2]*Documents chinois, Troisiéme session de la6éme assemblée de la république populaire de chine, Beying 1985.p77.*

[3] – *إيفكوربار، ص 551.*

[4] – *انظر عدد –"صدى الجزائر" الصادر بتاريخ 24 فبراير 1955، أما مقاطعة بريطانيا فهي منطقة مكونـــة مـــن أربع ولايات تقع غرب فرنسا كانت دولةمستقلة انضمت إلى فرنسا في عهد فرانسوا الأول سنة 1534.*

هناك تصريحات أخرى، سيدلي بها سوستيل في مختلف أنحاء البلاد، يؤكد فيها بقوة أن فرنسا قد أدركت أهمية الجزائر، لذلك فهي مستعدة للذهاب إلى أبعد الحدود قصد الحفاظ عليها، وبعد الإعلانات ومختلف التصريحات جاءت الإجراءات[1] التي قيل، في ذلك الحين، إنها تشكل مرحلة أولى تتجاوب مع ثلاثة اهتمامات هي:

1 – ضرورة توفير الأمن للسكان، بواسطة استعمال الوسائل العسكرية المكثفة.

2 – الشروع في سياسة اقتصادية جديدة تأخذ بعين الاعتبار ثروات الصحراء التي من شأنها أن تغير مصير فرنسا.

3 – تبني فكرة "الجيوش الإفريقية" التي كان بيجو قد استعملها في بداية الاحتلال والتي هي عبارة عن استعمال نفس الأسلحة التي يقاتل بها رجال المقاومة.

لكن أخطر إجراء هو ذلك الذي نشرته الصحافة الصادرة بتاريخ التاسع عشر مارس في شكل بيان من وزارة الداخلية يحمل اسم: حالة الطوارئ.

وحالة الطوارئ إجراء قانوني جديد، اتخذته السلطات الفرنسية تجنباً للجوء إلى حالة الحصار التي تدعو إليها أحكام الدستور أثناء الدخول في حرب أو عندما يتمرد الجيش.

وقد جاء في بيان وزارة الداخلية أن حالة الطوارئ تشكل حلاً وسطاً بين الحالة العادية حيث الاحترام لجميع الحريات، وحالة الحصار التي تؤدي حتماً إلى تفكيك الهياكل التقليدية الإدارية، لأنها تنقل الحكم إلى السلطات العسكرية. ذلك أن حالة الطوارئ تبقي للسلطات المدنية حق ممارسة الحكم، ولكنها تعمل على تركيزه وتدعيمه.

ليصبح أكثر ملاءمة مع أحداث تعد كارثة عمومية، من شأنها أن تعرض الأمن للخطر وأن تمس بالسيادة الوطنية[2].

---

[1] إليستر هورن، ص 111.

[2] La dépeche de constontine عددها الصادر بتاريخ 1956/03/19 والحقيقة من حالة الطوارئ، هي ذاتها حالة الحصار، لأنها تتضمن إجراءات تقضي على الحريات الفردية التي يتمتع بها كل مواطن فرنسي والتي لا تمس ولا تنتهك إلا في حالة تطبيق المادة السابقة من دستور 1947، وهي نفس المادة المتعلقة بحالة الحصار ومن جملة تلك الإجراءات:

1 – النفي أو الإقامة الجبرية.

2 – تفتيش في الليل والنهار.

وتنص المادة الأولى من وثيقة حالة الطوارئ على أن الإجراء الجديد "يمكن تطبيقه على كل أو على جزء من تراب "الوطن الأم" والجزائر أو عمالات ماوراء البحار، ويكون ذلك سواء في حالة وقوع خطر داهم نتيجة اضطراب الأمن العام، أو في حالة وقوع حوادث تتسم بطابع الكارثة العمومية نظراً لنوعها وخطورتها"(1).

ومامن شك أن الغموض والتقييم في هذه المادة مقصودان لتتمكن الحكومة من ممارسة الظلم والاضطهاد في كل مكان يمكن أن ترتفع فيه أصوات الدفاع عن الديمقراطية والحرية.

وبمجرد ما وضعت حالة الطوارئ حيز التنفيذ، دخلت الجزائر مرحلة جديدة من حياتها وأهم ماطبعت به تلك المرحلة: ظهور المحتشدات التي توخي في إنشائها اختيار المناطق النائية ليصعب الاتصال بالمجبرين على الإقامة فيها.

وكان اللجوء إلى إنشاء المحتشدات أمراً منطقياً يندرج في إطار المادة السابعة من وثيقة حالة الطوارئ، والتي تشير إلى أنه في استطاعة وزير الداخلية في جميع الحالات والوالي العام في الجزائر. أن ينفيا إلى أية دائرة ترابية، أو إلى أي مكان محدد كل شخص يبدو نشاطه خطيراً على الأمن والنظام العام.

وعلى الرغم من أن الوثيقة تنص في مكان آخر على أن النفي لا يؤدي إلى إنشاء المحتشدات، إلا أن ذلك لم يحترم ولم يكن بالإمكان احترامه لأن نفي مئات الأشخاص إلى مكان واحد يتطلب إمكانيات جبارة للقيام بالرقابة اليومية ولتوفير الأكل والسكن.

لأجل ذلك كانت السلطات الاستعمارية مضطرة لإقامة المعسكرات، متبعة في ذلك أساليب النازيين أثناء الحرب الامبريالية الثانية.

ولئن كانت المحتشدات في ظاهرها نقمة على الجزائريين فإنها في الحقيقة قد ساعدت، كثيراً، على نشر مبادئ وأهداف جبهة التحرير الوطني. إذ سرعان ما تحولت إلى منابع لاتنضب تزود روافد الكفاح المسلح سواء في الريف أو في المدينة.

وقد استغلت الإطارات السياسية تلك التجمعات الهائلة لتنظيم الدروس

---

3 – مراقبة الصحافة والنشر الثقافي.

4 – إحلال القضاء العسكري محل القضاء المدني في بعض الحالات.

(1) *Comité de vigilance des étudiants, les pouvoirs spéciaux Lyon 1955.04*

الاستعجالية في كافة الميادين، ولتعد الذهنية الجزائرية للتكيف مع الأوضاع الجديدة المفروضة على البلاد.

ومن الأكيد أن مستوى الوعي والإدراك لدى الجماهير الجزائرية قد ارتفع بنسبة عالية، جداً بفضل ماقدمته المحتشدات من معرفة، ماكان بالإمكان نقلها بمثل تلك السرعة، إلى مثل تلك الجموعات الهائلة.[1]. ذلك أن كل من يخلى سبيله، ويرجع إلى ذويه، يتحول، تلقائياً، إلى داعية متشبع بالعقيدة، قادر على الإقناع.

وهكذا، نستطيع القول إن حالة الطوارئ التي كان المقصود منها شل الحركة النضالية وإخماد النشاط الثوري، قبل استفحاله، قد أتت بنتائج عكسية سيكون لها مفعول كبير في صقل روح المقاومة، خاصة عند النخبة من أبناء الشعب الجزائري.

أما السلطات الاستعمارية، فإنها لم تكتف بسن حالة الطوارئ، ولكنها راحت تبذل كل مافي وسعها لخلق الظروف الملائمة لتطبيقها على أكبر عدد ممكن من دوائر وبلديات الوطن الجزائري.

ففي هذا النطاق، افتعلت الأخبار والإشاعات التي مفادها "أن المتمردين، في جبال أوراس، قد تلقوا، عن طريق الجو، الأسلحة التي أرسلتها دول أجنبية قصد إغراق البلاد في بحر من الفوضى والاضطراب وانعدام الأمن، ومن أجل زرع الشقاق بين الأشقاء وتوسيع هوة الخلاف بينهم"[2].

ومثل هذا الوضع يشكل، بالطبع، سبباً متيناً لتطبيع حالة الطوارئ.

ونشرت الصحافة أن المملكة الليبية ومصر هما اللتان تحركان التشويش وتدعمان التمرد من أجل الانفصال عن "الوطن الأم"، لأنهما غير راضيتين عما حققته الجزائر الفرنسية من تقدم وازدهار.

ونقلت الصحافة، كذلك، نبأ إلقاء القبض على الملازم العراقي: محمد حمادي عبد العزيز، وهو يحارب إلى جانب الثوار بالقرب من بوغني. ثم خصصت أهم الأعمدة لنشر تصريحاته التي تحذر الجزائريين مما تبثه إذاعة "صوت العرب" من أكاذيب حول الوجود الفرنسي في الجزائر، مؤكداً أن حالة

---

[1] هناك أعداد كبيرة من المعتقلين الشباب تمكنوا من التحصيل العلمي واستطاعوا الاستقلال أن يشاركوا في المسابقات الخاصة بالدخول إلى الثانويات والجامعات.

[2] انظر، صدى الجزائر، بتاريخ 1955/04/09 ومابعد.

سكان منطقة القبائل التي يعرفها أفضل بكثير من حالة أحسن المصريين[1].

وكانت هذه الأخبار المكذوبة كافية لفرض تطبيق حالة الطوارئ على نواحي الشرق الجزائري في بادئ الأمر، ثم تعميم ذلك، بالتدريج، على سائر المناطق التي بدا فيها تمركز الثوار بكيفية مقلقة. ولكي يكون للإجراء الجديد فعالية أكبر، قررت السلطات الاستعمارية تعيين الجنرال غاستون بارلنج[2] على رأس القيادة الموحدة للعمليات العسكرية والمدنية في الأوراس، ولقد تم التعيين بسبب ما حاز عليه ذلك الضابط السامي من شهرة في المغرب الأقصى حيث كان يشرف على منطقة أغادير ذات المراس الصعب، ونشرت الصحافة آنذاك، أنه وضع تحت تصرفه الفيلق الأكثر أوسمة من فيالق الجيش الفرنسي"[3].

وبالإضافة إلى بارلنج، تم تعيين العقيد ديكورنو قائداً لناحية السمندو[4]، المحاذية لمنطقة الأوراسي، وأوردت الأنباء، في ذلك الحين، بأن ديكورنو هو بطل الهند الصينية، دون أن تبين في أي مجال: أي في الهجوم أو في الانسحاب، لأن نتائج تلك الحرب غير القتلى والأسرى والمعطوبين.

وكانت هذه التحركات مدعمة بتصريحات سياسية ومبادرات ميدانية، ففي المجال السياسي التأكيد على أنها ستبقى كذلك رغم تدخلات الأجانب[5] أما المبادرات الميدانية، فتتمثل في إقدام بعض المسؤولين أمثال المتصرف هرتز [6] على تكوين فرق الحركة، وفي أوامر الجنرال بارلنج المتعلقة بجعل المسؤولية جماعية على سكان المناطق الريفية التي تكون مسرحاً للمعارك مع الثوار، أو تتهم بالتعاون معهم.

إن كل هذه المجهودات الحربية قد ترجمت، في النهاية، برفع عدد أفراد الجيش النظامي العامل بالجزائر إلى مائة ألف عسكري، بالإضافة إلى تعزيز مايسمى بقوات الأمن والمتمثلة في رجال الشرطة والدرك الوطني الذين كانوا، في تلك الأشهر الأولى من الثورة في المناطق، يقومون مقام الأجانب.

غير أن تلك الإعدادات والمساعي لم تحقق لسلطات الاستعمار ماكانت

---

(1) *صدى الجزائر ، عددها الصادر بتاريخ 1955/04/09.*

(2) *وقع تعيين الجنرال بارلنج يوم 29 أفريل سنة 1955.*

(3) *وصل هذا القلق إلى قلب الأوراس يوم 3 مارس سنة 1955.*

(4) *وهي مسقط رأس العقيد الشهيد زيغود يوسف، وهي اليوم تحمل اسمه، وتقع المدينة على بعد خمسة وعشرون كلم شمال قسنطينة.*

(5) *انظر صدى الجزائر في عدديها الصادرين يوم 1955/04/30، ويوم 1952/05/12.*

(6) *هو حاكم بسكرة والمشرف على ناحية توقرت العسكرية.*

تصبو إليه، ولم تخمد نار الثورة الملتهبة خاصة في المناطق الأولى والثانية والثالثة من أرض الوطن[1].

ولقد نشرت يوم 27 يونيو سنة 1955، على أعمدة الصحافة، نتائج المعارك التي دارت رحاها في تلك الأشهر الأولى،ولم تكن مشجعة بالمقارنة مع ما بذل من جهد، خاصة في الميدان العسكري.

لقد ورد في الإحصاءات المنشورة: أن القوات الفرنسية في الشمال القسنطيني قد قتلت ثلاثمائة متمرد، وأسرت ثلاثمائة وسبعة وأربعين، في حين قتل من أفرادها تسعة وسبعون وجرح تسعة وأربعون، وقتل من المدنيين الفرنسيين مائة وتسعة وعشرون وجرح مائة وتسعة وأربعون[2].

وبتعبير أسهل، فإن الخسائر الفرنسية قد بلغت، إلى غاية التاريخ المذكور أعلاه، ثلثي الخسائر الجزائرية، وأنها لنتيجة جد مشجعة بالنسبة للثورة الفتية التي لم تكن تطمح إلى مثل ما توصلت إليه.

ومن الممكن أن السيد سوستال قد انتبه إلى هذه الحقيقة، واعترف في قرارة نفسه بأن القتال لن يؤدي إلى النصر المنتظر، لأن الجماهير الجزائرية قد بدأت تتبنى الثورة. لأجل ذلك، فإنه رمى في الميدان بمحاولة خاصة أطلق عليها اسمه، وهي عبارة عن برنامج إصلاحي موجه إلى كافة ميادين الحياة، ويشتمل على عشر نقاط..[3]

---

[1] المنطقة في ذلك الوقت هي اسم الولاية مؤتمر الصومام يوم 20 يوليوسنة 1956.

[2] انظر "صدى الأخبار" في عددها الصادر بتاريخ 27 يونيوسنة 1955.

[3] النقاط المكونة لبرنامج سوستيل هي:

1 – تقسيم إداري جديد لإنشاء عمالات ودوائر أخرى، وفي اعتقاد سوستال فإن هذا الإجراء سيسهل عملية المراقبة ويضبط حركة المواطنين.

2 – تعصير الفلاحة، وذلك عن طريق الكنكة، لعل الأسلوب الحديث يلهي الجزائريين ويشدهم إلى الأرض، فلا يلتحقون بصفوف جبهة التحرير الوطني.

3 – توسيع الصناعة الخفيفة، قصد خلق الوظائف ومناصب الشغل التي تمتص طوابير العاطلين قبل أن تمتد إليهم يد الثورة الزاحفة.

4 – تحويل البلديات المختلطة قصد الانسجام الإداري، ومن أجل الاستجابة لأحد مطالب النخبة في الجزائر.

5 – استقلال الدين الإسلامي عن الإدارة الفرنسية، وذلك يكون استجابة لأحد المطالب الأساسية التي تنادي بها جمعية العلماء.

6 – تعليم اللغة العربية في المدارس الحكومية، مع العلم أن هذه النقطة تشكل مطلباً تنادي به كافة التشكيلات الوطنية في الجزائر.

7 – محاربة الأمية بواسطة اللغة الفرنسية، لعل ذلك يقرب الجزائريين أكثر إلى الأمة الفرنسية.

إن هذه التحركات المخططة والمدعومة بنشاط سياسي مكثف قد جاءت بالنتائج المرتقبة، ففي خلال السداسي الأول من سنة 1955، ارتفع عدد الأجناد الفرنسيين من حوالي أربعين ألفاً، قبل فاتح نوفمبر، إلى مايزيد عن مائة ألف، تدرب جزء كبير منهم في مدن وأرياف الهند الصينية، وزود السلاح الجوي بمجموعة من الطائرات المطاردة والطائرات العمودية والطائرات المقنبلة، كما أن سلاح المدفعية قد تلقى عدداً من المدرعات والمدافع الثقيلة والمصفحات المختلفة الأنواع، في حين تم تعزيز القوات البحرية العامة في الجزائر بوحدة من البوارج الحربية[1].

وإلى جانب الجهد العسكري الكبير نظمت السلطات الاستعمارية حملة دعائية واسعة لتمجيد المظليين وإرهاب الأهالي[2].

ومن جهة أخرى، صدرت تعليمات برفع عدد المحتشدات والتجمعات، ونشطت الرقابة السياسية في ميداني الثقافة والإعلام، حيث صودرت مجموعة من الكتب لأنها تتعرض لحرب العصابات وحروب التحرير بصفة عامة، ومنعت من العرض بعض الأفلام الأمريكية مثل "قنطرة وادي كواى" و"الجنرال" وغيرهما مما له صلة بالمقاومة والكفاح المسلح.

رغم كل هذه الاحتياطات ومضاعفة الإمكانيات الحربية، ورغم مشاكل التسليح التي لاقتها جبهة التحرير الوطني في السنة الأولى، فإن الجنرال شاريار لم يتردد، فإن أحد تقاريره، عن القول إن (مايجري في الجزائر، حالياً، يمكن أن تكون له عواقب وخيمة، وعليه ينبغي، في نظره، ألا تنسى بأن التأني والضعف لا ينفعان في البلاد الإسلامية[3].

---

8 – فتح أبواب التكوين المهني للجزائريين حتى يشعر الشباب خاصة بأن هناك مساواة بينهم وبين المعمرين.

9 – تمكين الفرنسيين المسلمين من الالتحاق بالوظيف العمومي حتى لا يبقى ذلك السلك حكراً على المستعمرين، وحتى تحضر الشروط الضرورية لخلق طبقة جديدة تستفيد من الحياة الرغدة التي تمنعها من الانتباه لصيحة الجهاد.

10– مطالبة الوطن الأم بتكثيف المساعدة للمشاريع الاجتماعية التي من شأنها أن تخلق جواً من الارتياح والرضى لدى أغلبية سكان الجزائر.

[1] محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المؤسسة الوطنية للكاتب، الجزائر 1984 ، ص 119. وما بعدها.

[2] جاء في أحد المنشورات العديدة التي كانت تلقى بالطائرات على قرى المنطقتين ومداشرهما: "عما قريب سينزل السخط على رؤوس المتمردين، بعد ذلك سيحل السلم الفرنسي من جديد".

[3] ديشمان، جاك: تاريخ جبهة التحرير الوطني، بتريس 1962، ص 184.

وعندما قطعت الثورة نصف عام من حياتها، كتب المارشال جوان [1] إلى رئيس الحكومة الفرنسية السيد إيدكارفونر [2] يحرضه على اتخاذ الإجراءات الصارمة. ومن جملة ماجاء في كتابه: إن الوضع في الجزائر خطير جداً، والمعلومات الأخيرة التي وصلتنا تنبئ بأننا نسير نحو انتفاضة معممة تحت لواء الجهاد، وذلك في سائر عمالة قسنطينة[3].

إن هذا التشكي الصادر عن القادة الفرنسيين، العسكريين منهم والسياسيين، إنما يهدف إلى حمل الحكومة الفرنسية على الاستجابة، بدون مناقشة، لكل الطلبات المتعلقة برفع ميزانية الحرب وعدد المقاتلين، وبسن القوانين الجديدة التي من شأنها أن تساعد على خنق الثورة في مهدها.

ومع مرور الزمن، واتساع النشاط الثوري وافقت الحكومة الفرنسية على تطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية وإعطاء التعويض المطلق للقادة العسكريين يفسرون ذلك المبدأ كيفما شاؤوا.

كل هذه التدابير التعسفية كان الهدف من اتخاذها الحد من روح المقاومة لدى الجماهير الشعبية وكذلك تسليط أنواع القمع على المناضلين الوطنيين قصد إبعادهم عن جبهة التحرير الوطني، ولكن النهاية كانت عكسية، اعترف بذلك، بعد استرجاع الاستقلال، كل الذين عالجوا تاريخ ثورة نوفمبر العظيمة.

* مواجهة الصعوبات الأولى:

ولئن كانت جبهة التحرير الوطني قد استفادت في مجال العدد من كل هذه التصرفات الاستعمارية، فإن جيش التحرير الوطني، في الواقع، لم يستفد كثيراً بسبب نقص الأسلحة والذخيرة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، لأجل ذلك، فإن العمليات العسكرية وعمليات التمشيط المكثفة واستعمال العتاد الحربي وآلاف

---

(1) ألفونس جوان، مارشال فرنسي من مواليد عنابة سنة 1888. شارك في احتلال المغرب الأقصى، حيث جرح سنة 1915، عين مساعداً للمرشال ليوتي، ألقي عليه القبض على رأس وحداته سنة 1940، أطلق سراحه بطلب من بيتان بعد عام واحد قضاه في الأسر. رئيس أركان الجيش الفرنسي 1944-1946. والي عام في المغرب الأقصى 1947 -1951 ثم مفتش عام للجيش إلى غاية عام 1953. عين على رأس قوات الحلف الأطلسي لوسط أوروبا من 1951 إلى 1956، أعلن سنة 1961، عن مناهضته لسياسة الجنرال ديغول في الجزائر.

(2) من السياسيين الاشتراكيين في فرنسا، ولد سنة 1908، ترأس الحكومة الفرنسية مرتين سنة 1952 وسنة 1955. اختار في الأخير تدريس القانون بكلية الحقوق في ديجون.

(3) رسالة تحمل تاريخ: 18 ماي سنة 1955.

الأجناد المجلوبة من فرنسا، كلها، قد شكلت مضايقة رهيبة، وخناقاً على الوحدات الأولى المكونة لجيش التحرير الوطني في الشرق الجزائري، وعلى وجه الخصوص في المنطقة الأولى[1] وجنوب المنطقة الثانية[2].

وكان المسؤولون، في المنطقتين، يدركون جيداً ذلك الوضع القاسي، ويقدرون كل الصعوبات المتمثلة في تفوق العدو، عدداً وعدة، وفي عدم توفر الأسلحة والذخيرة لدى جيش التحرير الوطني، كما أنهم كانوا يعرفون أن الاستمرار على تلك الحالة يسيء إلى الثورة. وعليه صار لابد من إيجاد طريقة تمكن من فك الحصار المضروب على قمم الجبال والأرياف، ومن جعل القرى والمدن تشعر بأنها طرف أساسي في المعركة التي ينبغي أن تنتشر بسرعة وتتسع ليضطرب العدو، فتتمزق وحدته وتتشتت قوته الضاربة، وفكر الشهيد يوسف زيغود[3] ومساعدوه المقربون طويلاً للوصول إلى حل ناجح، صار يسمى منذ ذلك التاريخ "انتفاضة العشرين يوليو سنة 1955.

وقبل أن نسترسل في الحديث عن العشرين من يوليو، ينبغي أن نقول إن تركيز فرنسا على المنطقتين الأولى والثانية لم يكن يعني أن الثورة قد خبت نيرانها في المناطق الأخرى من البلاد. لكن المنطقة الأولى كان لها وضع خاص يتمثل فيما يلي:

1 - لقد كانت، قبل نوفمبر سنة 1954، مأوى لمناضلي ومسؤولي المنظمة الخاصة الملاحقين من طرف السلطات الاستعمارية وبالتالي ميداناً للتدريبات العسكرية ومخزناً للأسلحة والذخائر التي تحصلت عليها مختلف أجهزة حركة الانتصار للحريات الديمقراطية من جميع الجهات وبجميع الوسائل.

2 - إن مسؤولها الأول، الشهيد مصطفى بن بولعيد. كان معروفاً كمسؤول

---

[1] *هي منطقة الأوراس التي ستصبح بعد مؤتمر الصومام هي للولاية الأولى.*

[2] *هي التي ستصبح فيما بعد نواة القاعدة الشرقية.*

[3] *من مواليد عام 1921 في القرية التي تحمل اسمه حالياً بولاية سكيكدة، نال الشهادة الابتدائية ثم اشتغل حداد وهو لم يبلغ بعد سن الرشد، انضم إلى صفوف حزب الشعب الجزائري سنة 1942، وعندما أنشئت المنظمة الخاصة صار واحد من قادتها البارزين، شارك في اجتماع الاثنين والعشرين خلف ديدوش مراد في قيادتها الأولى يوم 1955/05/18 ثناء، قام بدور أساسي في التحضير لمؤتمر وادي الصومام في توفير الشروط اللازمة لإنجاحه، استشهد أثناء معركة قرب بلدة سيدي مزغيش (ولاية سكيكدة حالياً)، يوم 1956/09/23 بينما كان في طريقه إلى الأوراس في مهمة كلفه بها المؤتمر الأول لجبهة التحرير الوطني.*

في الأوساط السياسية، إذ كان، عشية الثورة، عضواً في اللجنة المركزية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، ومن ثم، فإنه كان يحظى بثقة معظم المناضلين بما في ذلك أعضاء المنظمة الخاصة للمتواجدين هناك.

وبالإضافة إلى شهرته السياسية، فإن مصطفى كان ثرياً ومن رجال الأعمال الناجحين، استطاع أن يوظف رؤوس أمواله في خدمة الجماهير الشعبية التي منحته، بالمقابل، حبها وثقتها.

هذان السببان، خاصة، قد ساعدا على انطلاق الأعمال الثورية بسرعة فائقة، ومكنا المسؤولين عن جبهة وجيش التحرير الوطني من العمل بحرية في أوساط الأهالي من سكان المدن والأرياف.

وإذا كانت المنطقة الثانية لم تعطِ قائداً له نفس وضع إمكانيات الشهيد ابن بولعيد، فإنها كانت تشتمل على عدد كَبير من أعضاء المنظمة الخاصة [1] ومن مناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية المحنكين والمؤيدين للإسراع بالدخول في مرحلة الكفاح المسلح، لأجل ذلك فإن عملية الهيكلية وتنصيب الخلايا وتجنيد المجاهدين الأوائل لم تعترضها صعوبات كثيرة، الأمر الذي ساعد على إنجاز نسبة كبيرة من البرنامج الذي وضعته القيادة العليا بالنسبة للأشهر الأولى من الثورة.

فهذه الأوضاع الخاصة التي كانت للمنطقتين هي التي جعلت الثورة تكون فيهما قوية ومنتشرة، وفي نفس الوقت جعلت السلطات الاستعمارية تخصص معظم إمكانياتها المادية والعسكرية والسياسية لمحاربة جبهة التحرير الوطني هناك.

أما في المناطق الأخرى، فقد اهتمت القيادة، في الأشهر الأولى بتنظيم حملة شرح واسعة في أوساط مناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية الذين كانوا، في معظمهم، موالين للسيد مصالي في خلافه مع اللجنة المركزية؛ وفي نفس الأثناء كانت هيكلة جبهة التحرير الوطني تجري على جميع المستويات في حين كان التجنيد يتم ببطء نتيجة عدم وجود الأسلحة الكافية.

---

(1) عندما وقع اجتماع الاثنين والعشرين كان حوالي نصف المشاركين من تلك التي ستصبح المنطقة الثانية وهم: زيغود يوسف، ابن طوبال، ابن عودة، ناجي بوصوف، عبد مالك، مشاطي، حباشي، ببطاط وبوضياف.

ولم تبدأ العمليات العسكرية في تلك المنطقة إلا في ربيع عام 1955. وكانت في شكل كمائن تنصب أساساً للحصول على الأسلحة، وبالإضافة إلى ذلك كانت نشاطات جيش التحرير الوطني توجه لإعدام أعوان الشرطة وحراس الغابات، و"القياد" وغيرهم من دعائم السلطات الاستعمارية، وكلما أعدم خائن استفاد مجاهد من سلاحه.

وإلى جانب هذه العمليات العسكرية البسيطة، كان على جيش التحرير الوطني في المنطقة الثالثة، أن يجابه المجموعات المسلحة التابعة للحركة الوطنية الجزائرية.

أما المنطقة الرابعة، فإنها كانت أسوأ حظاً، لأن السلطات الاستعمارية التي كانت تتابع تحركات مناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية قد تمكنت، في خلال الشهر الأول، من إلقاء القبض على أغلبية العناصر الذين بدأوا مع السيد بيطاط بما في ذلك نوابه في العاصمة. وبيطاط نفسه سيقع أسيراً في منتصف شهر فبراير 1955.

ونتيجة لذلك النجاح الذي حققته مصالح الأمن الفرنسية، فإن المنطقة الرابعة كادت تختنق بعد حوالي سبعين يوماً فقط من اندلاع الثورة ويعود الفضل في بقائها وانتعاشها إلى ابن المهيدي والعقيد واعمران[1]، الذي تمكن، رغم كل العراقيل، من إعادة تنظيم الهياكل ثم ساعدته الظروف على اختيار الرجال الأكفاء الذين عرفوا كيف يندمجون بسرعة وكيف يسيطرون على الأوضاع بعد أن كادت تفلت من جبهة التحرير الوطني لفائدة العدو.

ومن جملة الإطارات البارزة تجدر الإشارة إلى عبان رمضان [2] الذي خرج من السجن في النصف من شهر فبراير، ووضع نفسه تحت تصرف جبهة التحرير الوطني. مع العلم أنه من مسؤولي حركة الانتصار للحريات

---

(1) من مواليد 1919/01/10 لجأ إلى الحياة السرية منذ سنة 1945. نائب السيد كريم بلقاسم في المنطقة الثالثة ثم قاد المنطقة الرابعة بعد أن ألقي القبض على السيد بيطاط، عين نائباً عسكرياً للسيد الأمين دباغين ثم قائداً أعلى للقوات المسلحة يوم 25 مارس 1957.

(2) خبا نجمه مع نهاية عام 1958. يعيش حالياً من التجارة.

من مواليد 1920 بالأربعاء نايث ايراثن (ولاية تيزي وزو) ألقي عليه القبض عندما اكتشف أمر المنظمة الخاصة التي كان واحداً من أبرز قادتها. خرج من السجن في نهاية فبراير عام 1955. تولى تنسيق قيادة منطقة الجزائر. قام بدور أساسي في عقد وإنجاح مؤتمر واد الصومام. اغتاله رفاقه بلقاسم كريم ولخضر بن طوبال وعبد الحفيظ بوصوف يوم 1957/12/27. ثم أعلنوا على أعمدة المجاهد الذي كان يشرف عليه أنه استشهد في ميدان الشرف في شهر افريل سنة 1958.

الديمقراطية: قاد ولاية بجاية ثم ولاية عنابة إلى غاية سنة 1950 عندما ألقي عليه القبض وحكم عليه بالحبس لمدة خمس سنوات.

وبسرعة كبيرة، وبفضل تكوينه السياسي والإيديولوجي ومستواه الثقافي، استطاع أن يحتل الصدارة أمام مسؤول العقيد واعمران، وحتى أمام قائد المنطقة الثالثة كريم بلقاسم الذي كان يأتي إلى العاصمة يأخذ رأيه حول القضايا السياسية.

وأول عمل قام به السيد عبان رمضان هو صياغة بيان مطول يحمل تاريخ فاتح من ابريل سنة 1955 وموجه إلى الشعب الجزائري، جاء فيه على الخصوص:

"إن السلطات العسكرية الفرنسية تبذل كل مافي وسعها لإخفاء الحقيقة، فمثلاً، عندما تنصب قواتنا كميناً لسيارة مصفحة، ويصيب سائقها الهلع فيلقي بمركوبه إلى حيث لا رجعة، فإن الصحافة الاستعمارية تكتب عن حادث تنسب سببه إلى الجليد".

"أيها الشعب الجزائري، بعدأن حققت نجاحات كثيرة، لا ينبغي أن يخفى عليك بأن المهمة الباقية مهمة جبارة. لأجل ذلك، فإن جيش التحرير الوطني يدعوك لتساعده وتمد له يد المعونة في جميع الميادين... إن النصر مرهون بما يقدمه كل الجزائريين من مساهمة إلى جانب قواتنا المحاربة والعازمة على مواصلة المعركة إلى أن تنتصر القضية الجزائرية".

"أيها الجزائريون، تعالوا جميعاً لتعزيز صفوف جبهة التحرير الوطني. وتخلصوا من التردد، واتركوا الصمت.. وسعوا دائرة نشاطكم كل يوم أكثر حتى تتمكنوا من إرضاء ضمائركم ومن تسديد الدين الذي عليكم لبلدكم[1]".

وقد استعمل عبان رمضان كل الإمكانيات المتوفرة لديه لسحب المنشور وتوزيعه على أكبر عدد ممكن من المواطنين. وفي نفس الوقت ضاعف اتصالاته بالشخصيات الجزائرية مركزاً على قادة التشكيلات السياسية.

وإذا كانت مجهودات المستشار السياسي للمنطقة الرابعة لم تسفر عن نتيجة تذكر في مجال التفاوض مع ممثلي الحزب الشيوعي والاتحاد الديمقراطي

---

[1] *Jeanson (Cet F) l'Algerie hors la loi , le seuil 1955 ., p 310*

انظر كذلك للاطلاع على منشور كامل:

*tract du FL N'Manduze (Andre) Numero special du 15 juin 1955.*ش *Conscience maghrebine*

وجمعية العلماء، فإن عملية التعبئة والتنظيم في أوساط مناضلي حركة الانتصار المحلولة قد قطعت خطوة عملاقة بعد يوم 13 مايو سنة 1955 الذي أطلق فيه سراح أعضاء اللجنة المركزية الذين التحق معظمهم بجبهة التحرير الوطني في داخل البلاد وفي خارجها على حد سواء، ومن أبرز أولئك الأعضاء السيد ابن يوسف بن خدة[1] الذي سيلعب دوراً حاسماً في معركة الجزائر وعلى رأس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية فيما بعد.

*لكن التنظيم وحده لا يكفي ولا يكون ناجحاً إلا إذا توافر السلاح والمال، ولئن كان واعمران قد استطاع أن يحل المشكل الأخير بفضل حملة الاكتتاب التي نظمها في أوساط الصناعة والتجارة خاصة، فإن عبان، لمعالجة المشكل الأول، قد أرسل مبعوثاً إلى جنيف عن طريق باريس، ولم تسفر العملية عن أية إيجابية إذا استثنينا تأكيد قيادة المنظمة من ضرورة الاعتماد على النفس.

وبالفعل، لقد شرع في تكوين فرقتين مسلحتين، تتحرك إحداهما داخل حي بلكور وتكون تحت إشراف الشهيد ذبيح الشريف، وتتحرك الثانية في حي القصبة فتكون تحت إشراف السيد ياسف سعدي. ويتولى التوجيه السياسي مسؤول جهوي يأخذ تعليماته مباشرة من الشهيد عبان الذي يعمل بتنسيق مع العقيد واعمران، السيد بلقاسم كريم.

غير أن التنظيم العسكري، في العاصمة، لم يعرف أي نجاح يذكر في هذه السنة الأولى من الثورة، وذلك بسبب سيطرة المخابرات الاستعمارية وعدم وجود الإمكانيات المادية التي تسمح بالعمل الفوري.

وعلى العكس من ذلك، فإن التنظيم السياسي قد عرف تطوراً ملموساً:فأنشئ العديد من الخلايا، وتكاثرت المنشورات الداعية إلى عدم التعامل مع الإدارة الاستعمارية: "لأن غضب الثورة سينصب بلا شفقة ولا رحمة على كل مخالف للتعليمات" وتضاعفت الاتصالات مع قادة التشكيلات السياسية المقيمين بالعاصمة ومع معظم الجزائريين المنتخبين الذين قدم

---

[1] من مواليد عام 1920 بالبرواقية ولاية المدية حالياً. عضو اللجنة المركزية لحركة الإنتصارات للحريات الديمقراطية. ألقي عليه القبض في الأيام الأولى من شهر نوفمبر أطلق سراحه يوم 13 ماي 1955، ومباشرة التحق بصفوف جبهة التحرير الوطني إلى جانب عبان رمضان، شارك في معركة الجزائر وعين عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ سنة 1956 ثم وزيراً للشؤون الإجتماعية في أول الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.ترأس الحكومة الالثة ابتداء من شهر أوت سنة 1961، رفض الدخول في صراع دموي مع المكتب السياسي بعد الإستقلال، فانسحب من الميدان ولجأ إلى الحياة المدنية، يشرف على صيدلية بحيدرة في ضواحي العاصمة.

عدد كبير منهم استقالته.

وبالنسبة للمنطقة الخامسة، فإن الأمر كان مغايراً تماماً، ذلك أن عمليات ليلة الفاتح من نوفمبر لم تكن ناجحة في معظمها، وتمكنت القوات الاستعمارية من إلحاق خسائر فادحة بتلك المجموعات الأولى من المجاهدين الذين كان يقودهم الشهيد العربي بن المهيدي. ومن جملة القتلى الأول من الثورة: الشهيد ابن عبد المالك رمضان النائب الأول لقائد المنطقة.

ولقد تأثر الشهيد ابن المهيدي بتلك النتائج السلبية التي عرفتها منطقته فحاول الاتصال بالعاصمة، تارة وبالمغرب الأقصى تارةأخرى، يبحث عن الأسلحة وعن أحسن الوسائل التي تمكنه من تجاوز المحنة.

وإذا كان مشكل الأسلحة سيظل قائماً طوال تلك السنة الأولى من الثورة تقريباً، فإن ابن المهيدي قد وجد في السيد عبد الحفيظ بو الصوف[1] نائباً توفرت فيه كل الشروط المطلوبة في القائد الناجح، لقد كان ذكياً متعلماً ومثقفاً، كما أنه كان رهيف الحس يتمتع بمقدرة كبيرة على فهم الآخرين وعلى ربط العلاقات الإنسانية اللازمة خاصة في مثل تلك الظروف.

ومن الجدير بالذكر، أن بوصوف استطاع، بفضل حركته وبفضل المجهودات الجبارة التي كان يبذلها في جميع الأوقات وبكل المناسبات، أن يعيد تنظيم المنطقة، ويوفر لها الوسائل والإمكانيات المادية والبشرية التي ستسمح لها بالانطلاقة من جديد بمناسبة العيد الأول لميلاد الثورة.

وعلى الرغم من أن المنطقة الخامسة قد قضت كل تلك السنة الأولى في التأهب والاستعداد، فإن السلطات الاستعمارية لم تسرح، وظلت تتابع، عن كثب تحركات المناضلين لعلها تتمكن من القضاء على الحركة قبل ميلادها. وفي هذا الإطار، أراد الوالي العام: السيد جاك سوستيل أن يفرض على مدينتي مغنية

---

[1] يعتبر من القادة الأساسيين للثورة الجزائرية، تكون خاصة في إطار المنطقة الخاصة التي كان يحتل مكانة مرموقة في صفوفها واحد من الاثنين والعشرين سبر دائرة سكيكدة للحزب سنتي 1952-1953، ثم عين على رأس دائرة تلمسان، عندما اندلعت الثورة عين نائباً أول للشهيد العربي بن مهيدي الذي خلفه سنة 1956 على رأس الولاية الخامسة التي قادها إلى غاية 1958، تولى مسؤولية تسليح الثورة وتنظيم المخابرات التي بلغت، في عهده، أعلى المستويات، هو الذي وفر لهواري بومدين شروط ارتقاء سلم المسؤوليات قبل أن يتركه على رأس الولاية الخامسة. اعتزل عن السياسة بعد وقف اطلاق النار ومات بسكتة قلبية .....

وسبدو نفس حالة الطوارئ التي كانت مفروضة على الشرق الجزائري[1].

ولتنظيم العمال الجزائريين في فرنسا، وإشراكهم في الكفاح المسلح، اتجه السيد محمد بوضياف إلى زوريخ حيث استدعى السيد مراد تربوش[2] وزوده بالتعليمات اللازمة لبعث جبهة التحرير الوطني بفرنسا في مرحلة أولى وبأوربا في مرحلة ثانية.

ولقد كانت المهمة صعبة ومعقدة، خاصة وأن مصالي الحاج كان يسيطر، كلية، على كافة المناطق هناك، وأن مناضلي، حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في فرنسا كانوا يقدسون الزعيم ولا يرضون بغيره بديلاً، كما أنهم أخبروا في تلك الأيام الأولى من نوفمبر بأن القيادة العليا للحزب هي التي أشعلت فتيل الثورة، ومن ثم لا يمكن أن يصدقوا ماقد يأتي به تربوش حتى لو كان من المسؤولين الموثوق بهم.

وعلى الرغم من كل الصعوبات، استطاع القائد الأول لفدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا أن يجند مجموعة أولى من خمسة أشخاص، كان كل منهم مسؤولاً عن واحدة من قسمات حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وأمرهم بالبدء، في تكوين الخلايا التي ينبغي أن يزيد عدد أعضائها عن الخمسة مناضلين، كما أمرهم بنسخ نداء الفاتح من نوفمبر وتعميمه وماكاد يحل شهر مايو سنة 1955 حتى صارت جبهة التحرير الوطني تضم في صفوفها حوالي مائتي مناضل كلهم مستعدون للشروع في العمل الفدائي، لكن الحركة الوطنية الجزائرية كانت وماتزال متواجدة في معظم النواحي، لذلك قرر السيد محمد بوضياف الاستمرار في عملية الهيكلة. وحتى هذه الأخيرة، فإنها سوف تتعثر لأن مصالح الأمن الفرنسية ستلقي القبض على تربوش وبعض أعضاء اللجنة العاملين معه. تم ذلك يوم 26 ماي من نفس السنة.

وفي القاهرة، فإن المندوبية، المكونة في بداية الأمر، من ثلاثة أشخاص[3]

---

(1) *انظر البرقية التي تحمل رقم 00686 والتي وجهها سوستيل إلى القائد الأعلى للجيوش الفرنسية العاملة في الجزائر لقد جاء في تلك البرقية، أؤكد موافقتي على تمديد حالة الطوارئ إلى كافة عمالة قسنطينة، وكذلك إضافة البلدتين المختلطتين في غنية وسبدو وبعمالة وهران على الحدود المغربية: انظر: SOUSTELLE (J) Aimée et souffrante Algérie . Paris 1956, p 98.*

(2) *إذا ما استثنينا السيد محمد بوضياف، فإن مراد تربوش هو أول مسؤول لاتحادية جبهة التحرير الوطني في فرنسا، ظل يقودها أكثر من عام كامل، ويعود الفضل إليه في إرساء قواعدها، وتوفير الشروط الموضوعية لتطورها.*

(3) *محمد خيضر، حسين آيت أحمد، واحمد بن بلة.*

قد تدعمت بالتحاق السيد محمد يزيد [1] عضو اللجنة المركزية لحركة الانتصار ومسؤول فدرالية فرنسا لنفس الحركة قبل اندلاع الثورة، ونظراً لثقافته الواسعة، وتكوينه السياسي وخبرته النضالية فإنه سيصبح واحداً من أعلام السياسة الخارجية لجبهة التحرير الوطني، ولا أظن أن رجال الإعلام الذين كانوا يمارسون المهنة في مستويات عالية، آنذاك مستعدون اليوم، لنسيان ماكان يمتاز به الرجل من ديناميكية وذكاء على استغلال الأحداث والظروف.

وكان حضور مؤتمر باندونغ أول انتصار دولي تحرزت عليه جبهة التحرير الوطني التي استطاع ممثلوها أن يتحركوا بحرية مطلقة ضمن وفد المغرب العربي الكبير، وأن يتمكنوا من إقناع أغلبية الوفود المشاركة بعدالة القضية الجزائرية. وقد تجسدت المجهودات المبذولة من طرف السيدين آيت أحمد ومحمد يزيد في تأكيد المؤتمر الأفرو آسيوي على تأييده لشعوب الجزائر والمغرب الأقصى وتونس في تقرير مصيرها وفي عملها من أجل حصولها على الاستقلال[2]. إن موقف مؤتمر باندونغ[3] هذا قد فتح أبواب المنظمات الدولية وفي مقدمتها الأمم المتحدة أمام جبهة التحرير الوطني. لأجل ذلك صار على هذه الأخيرة أن تثبت وجود الثورة الشاملة، ولم يكن ثمة للقيام بذلك أفضل من انتفاضة العشرين أوت سنة 1955.

* هجومات العشرين من أغسطس 1955 أهدافها ونتائجها:

والحديث عن انتفاضة العشرين أغسطس، بعد حوالي ثلاثين سنة، ليس بالموضوع السهل، خاصة وأن الذين هيأوا لها ونفذوها لم يتركوا لنا مذكراتهم، ولم يكتب الأحياء منهم، حتى الآن، مايسمح بالحكم على صحة أو عدم صحة

---

[1] من مناضلي حزب الشعب القدامى، انتخب عضو اللجنة المركزية (1950-1954)) عين لتمثيل جبهة التحرير الوطني في نيويورك من سنة 1955 إلى سنة 1958، تولى وزارة الأخبار في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى غاية وقف إطلاق النار. عين سفيراً في لبنان، ثم سفيراً للجامعة العربية في باريس، انتخب عضواً للجنة المركزية على إثر المؤتمر الرابع. عين عضواً بالأمانة الدائمة للجنة المركزية سنة 1984.

[2] آيت ، أحمد (حسين)، الحرب بعد وبعدالحرب، ص 127.

[3] باندونغ: مدينة كبيرة في أندونيسية، تقع جنوب جزيرة جافة. ضمت الندوة المذكورة ثلاثين بلداً من آسيا وإفريقيا، واشتهرت بقراراتها المدينة للاستعمار والعنصرية والداعية إلى التعاون الإيجابي والمكثف بين كل البلدان النامية والنضال من أجل تمكين الشعوب من حقها في تقرير المصير.

ماورد حول هذه المسألة في عشرات المؤلفات.

وعلى سبيل المثال، فإن السيد الستار هورن، في كتابه "تاريخ حرب الجزائر" يذكر بأن "أحداث عشرين أوت" كانت نتيجة اليأس القاتل الذي يسيطر على كل من زيغود ومساعده الأول السيد لخضر بن طوبال[1]وكما سنرى فإن هذا الرأي لا يختلف كثيراً عن الذي جاء به السيد فرحات عباس الذي يضيف إلى اليأس، شعور الشهيد زيغود بالذنب والتقصير تجاه قائد المنطقة: الشهيد ديدوش مراد. أما الملازم أيف كوريار، فإنه، على غرار جرجي زيدان، يطلق العنان لخياله، فيسمع زيغود وهو يحدث أحد أعوانه "إن الخسارة ستكون مرتفعة، ولكن حتى إذا قضي على نصف السكان، فإن الثورة ستربح لأن الجزائر ستتحرك... وعلى أية حال، فإن حال الثورة لن يكون (بعد الأحداث) أسوأ مما هو عليه الآن[2].

في استطاعة أي قارئ أن يواصل تعداد الأمثلة وهي معظمها متقاربة. لكننا نتوقف عند رأي السيد إيدوارد باهر الذي يقول: (لقد كانت أحداث العشرين من آب تعبيراً عن الاحتفال بالذكرى الثانية لإلقاء القبض على سلطان المغرب الأقصى. وبينما شاهدت مدينة وادي زم، في البلد الأخير، تقتيل حوالي تسعين، أوربياً، فإن العملية قد أخذت نفس الحجم، تقريباً، في ناحية سكيكدة والعالية....).

غير أن هناك شيئاً لابد من الإشارة إليه، وهو أن الصحافيين والدارسين والباحثين والهواة الذين تعرضوا في كتاباتهم إلى الانتفاضة قد اعتمدوا على ما سمعوه من أخبار ثم تولى كل واحد توجيهها كيفما شاء، وحسب الأغراض التي حددها لنفسه. ومعظم تلك الأخبار، حتى يومنا هذا متأتية عن مصادر استعمارية من جرائد ونشريات وتقارير أمن ودراسات ميدانية إلى غير ذلك من الوثائق التي أعدتها، في ذلك الحين، مختلف السلطات الفرنسية، أما محفوظات جبهة وجيش التحرير الوطني، فإنها قد ضاعت، ولم يبق منها الشهادات الحية وهي لم تستنطق بعد بطريقة علمية وجدية.

كثير من الكتاب يذكرون أن السيد لخضر بن طوبال وهو أساسي في هذا الموضوع، قد قال لهم كذا وكذا، أو أكد لهم هذه الحقيقة أو تلك، أو زودهم

---

(1) *الستير هورن: تاريخ حرب الجزائر، ترجمه عن الإنكليزية أيف كارلي وفيليب بورديل، باريس سنة 1980، ص 123.*

(2) *أيف كوريار، عهد الفهود، فايار باريس سنة 1969، ص 182.*

بوثائق شخصية لم تنشر، في حين أن المعني بالأمر لم يقدم سوى شهادة واحدة[1]، ولم ينشر أي شيء في الموضوع.

إن المسؤولين الذين عاشوا تلك الفترة يجمعون على أن زيغود يوسف هو صاحب فكرة الانتفاضة، وعندما اختمرت في ذهنه نقلها إلى مساعديه الأقربين وفي مقدمتهم لخضر بن طوبال. ولقد كان زيغود من قدماء المنظمة الخاصة، ومن المناضلين البارزين في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، لأجل ذلك، وعلى عكس من يزعم بأنه لم يكن يعرف مايمكن أن تنتهي إليه الانتفاضة من عواقب وخيمة، فإننا نستطيع التأكيد بأنه كان مقداراً لكل الاحتمالات.

فالمشرفون على المنظمة الخاصة كانوا يركزون على نظرية حرب العصابات، وعلى كل المناهج التي من شأنها تعبئة الجماهير وجعلها تتحمل مسؤولياتها كاملة. وفي هذا الإطار، كان يوسف زيغود يقول دائماً أن القمع الأعمى يولد القمع الأعمى، والعنف يدعو إلى العنف، وعلى هذا الأساس، فإذا تمكنت جبهة التحرير الوطني من إقناع السكان العزل بضرورة الانضمام إلى أفراد جيش التحرير الوطني في عملية هجومية ضد الاستعمار وقواته بجميع أنواعها، فإنها ستتسبب في رد فعل عنيف يقطع خط الرجعة على المترددين، ويوقظ الحس الوطني لدى عامة المواطنين.

ومهما يكن من أمر، فإن جميع المعلومات المختلفة من مصادرها المتعددة وإخضاعها للنقد والتحليل، يسمحان لنا بحصر أهداف انتفاضة العشرين آب فيمايلي:

1 – مضاعفة عدد مراكز التوتر في أماكن كثيرة من المنطقة الثانية ليرفع الحصار المضروب على منطقة الأوراس التي كانت تعاني من عمليات التمشيط المبكرة آنذاك.

2 – نقل الحرب الساخنة من الجبال والأرياف إلى المدن والقرى، وبذلك يتم ضرب عصفورين بحجر واحد. فمن جهة يخفف الضغط المفروض على الريف من أجل محاولة خنق التنظيم الثوري في مهده، ومن جهة أخرى ليتأكد الاستعمار من أن الثورة في كل مكان ولكي تتسع الهوة بين السلطات الاستعمارية والجزائريين الذين كانوا مايزالون مترددين.

---

[1] *بمناسبة الندوة الوطنية الأولى لكتابة تاريخ الثورة أيام 29–31 أكتوبر سنة 1981.*

3 - إقناع الرأي العام الفرنسي والرأي العام العالمي بأن الشعب الجزائري قد تبنى جبهة التحرير الوطني، وهو مستعد لمجابهة الرشاشات والدبابات حتى بالحجارة والفؤوس والعصي من أجل تحرير البلاد.

4 - تدويل القضية الجزائرية، وذلك بحمل الجمعية العامة للأمم المتحدة على تسجيلها في جدول أعمال دورة 55.

5 - لتكون تلك الأحداث الدامية تعبيراً صادقاً عن تضامن الجماهير الجزائرية مع الشعب المغربي الشقيق.

وبالفعل، فإن معظم هذه الأهداف قد تحقق، وعلى سبيل المثال، نذكر يقظة الحس الوطني لدى منتخبي الدرجة الثانية من الجزائريين الذين سيصدرون اللائحة المشهورة بعد حوالي شهر من وقوع الانتفاضة[1]، كما تشير إلى أن المجلس الوطني الفرنسي قد خصص، نتيجة لذلك، ثلاثة أيام في منتصف شهر أكتوبر للتداول حول القضية الجزائرية[2]. أما الجمعية العامة للأمم المتحدة، فإنها بفضل موقف بلدان العالم الثالث، قد سجلت المسألة الجزائرية في جدول أعمال دورة سنة 1955. وكان ذلك بأغلبية صوت واحد. واكتفى الوفد الفرنسي لدى الأمم المتحدة بالانسحاب[3] بينما في الجزائر، صرح سوستيل: إن ماوقع في نيويورك أثمن من قافلة أسلحة توجه إلى جبهة التحرير الوطني[4].

أما السيد فرحات عباس، فيرى أن ما أسماه بفظائع أوت هي نتيجة أزمة الضمير التي كان زيغود يجتازها في ذلك الوقت. وتتمثل الأزمة، حسب رأيه، في شعور قائد المنطقة الثانية بأن السبب في استشهاد ديدوش مراد إنما يرجع إلى الأخطاء التي ارتكبها هو، كدليل يعرف المنطقة وسمح للفرقة بأن تجتاز أرضاً مكشوفة[5].

وبالإضافة إلى أزمة الضمير، يزعم عباس بأن أحداث العشرين من أغسطس سنة 1955، كانت تقنية اتخذها زيغود ليصفي حسابات قديمة مثل انتقامه من علاوة عباس الذي كان قبل الثورة قد انتصر في الانتخابات على

---

(1) *انظر اللائحة التي تحمل تاريخ 1955/09/26 في ABBAS Ferhat, Autopsie d'une guerrep.143.*

(2) *اوبرمان، ص 67.*

(3) *الشقيري (أحمد)، قصة الثورة الجزائرية، دار العودة بيروت بدون تاريخ، ص 20.*

(4) *صدى الجزائر، في عددها الصادر بتاريخ 1955/12/29.*

(5) *عباس (فرحات) تشريح حرب، ص106 ومابعدها.*

مرشح حركة الانتصار للحريات الديمقراطية[1].

وإذا استثنينا غلاة الاستعماريين الذين كتبوا عن انتفاضة العشرين أوت لتشويهها، وهم معذورون لأنهم في حالة الدفاع عن أنفسهم وتبرير جرائمهم، فإن عباس هو الوحيد الذي قلل من قيمتها مؤكداً بأن قيادة المنطقة الثانية كانت قصيرة النظر، ومشيراً إلى أن مؤتمر الصومام نفسه قد أدان الأحداث ولو كانت فيها فائدة لما فعل ذلك.

نحن نعتقد أن عباس عندما أصدر هذا الحكم، لم يكن قد أطلع على رأي السيد جاك سوستيل الذي قال بعد الأحداث بأسابيع: هناك تاريخان يفرضان نفسيهما على الذهن وهما: فاتح نوفمبر و20 أغسطس وهذا الأخير أكثر لأن سلسلة الحوادث بعده قد تكاثرت وأخذت بعداً آخر[2].

ويذكر المؤرخون جميعهم أن انتفاضة العشرين أغسطس وقعت عند منتصف النهار لكن واحداً منهم لم يحاول أن يصل إلى الدافع الذي جعل زيغود يختار تلك الساعة من النهار.

والحقيقة أنها كانت، يومها، هي وقت آذان صلاة الظهر، وأراد أن تمتزج الدعوة للصلاة بالدعوة إلى الجهاد، وهو ماحدث في أغلبية القرى والمدن.

وهناك أسباب أخرى من جملتها، مثلاً، كون منتصف النهار هو موعد وجبة الغذاء عند الأوروبيين المدنيين، لأن العسكريين يتغذون قبل ذلك بساعة كاملة أو نصف ساعة، ثم أن الوقت صيف، وبعد الظهر تشتد الحرارة، ومعظم أفراد الجيش الفرنسي غير معتادين على ذلك.

المهم أن الهجوم قد بدأ في الوقت المضبوط ولكن ليس في كل الجهات المحددة، بل يمكن الجزم أن الجهة التي كان يشرف عليها الشهيد زيغود مباشرة هي التي نفذت الخطة بكل دقة، لأجل ذلك وقع كل الثقل تقريباً على الشريط الممتد بين سكيكدة، القل وقسنطينة، شاملاً على الخصوص: مدينة سكيكدة وضواحيها، مدينة رمضان جمال حالياً مدينة صالح بوشعور، مدينة الحروش، مدينة مزاج الدشيش، مدينة سيدي مزغيش، مدينة زيغود يوسف حالياً، مدينة وادي زناتي، ثم مدن القل والميلية وقسنطينة والخروب.

ولقد كانت عمليات القمع وحشية، استهدفت كل المواطنين بدون تمييز وإن

---

[1] نفس المصدر.

[2] SOUSTELLE (J) *Aimée et souffrante Algérie*. p 137.

الفصل الثاني

المجتمع الجزائري الجديد وكيفية تنظيمه

أ - في مجال السياسة الداخلية.

ب - في المجال العسكري.

ج - في مجالي الثقافة والاقتصاد.

د - خلاصة الفصل.

■■

لقد اغتنمت جبهة التحرير الوطني أول فرصة أتيحت لها، في اليوم العشرين من شهر أوت ست وخمسين وتسعمائة وألف، لعقد المؤتمر الذي كان منتظراً جمعه في بداية عام خمسة وخمسين وتسعمائة وألف[1] وضبطت جدول أعماله في نقطتين اثنتين هما:

1 – إثراء بيان الفاتح من نوفمبر عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف.

2 – تعيين القيادة العليا التي تناط بها مسؤولية مواصلة الكفاح من أجل استرجاع السيادة الوطنية. فبيان الفاتح من نوفمبر كان إعلاناً عن ميلاد جبهة التحرير الوطني، وتحديداً للخطوط العريضة التي يشتمل عليها برنامجها السياسي والعسكري. أما التسمية فيعود سببها إلى رغبة المجموعة التي أشعلت فتيل الثورة في التدليل على أنها لا تنتمي إلى أي من الجناحين المتصارعين داخل حزب الشعب الجزائري وأنها تتجاوز كل الصراعات الشكلية التي لا تفيد سوى الاستعمار، لترجع النضال إلى الطريق السوي المتمثل في الكفاح المسلح.

فالكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة التي ظل حزب الشعب الجزائري يستعد للوصول إليها، إيماناً منه بأنها اللغة التي يفهمها غلاة الاستعمار الفرنسي.[2]

*وعندما يتأمل الدارس مختلف النقاط التي عالجها بيان أول نوفمبر سنة 1954، يتأكد أن ماحدث في تلك الليلة لم يكن إعلاناً عن مجرد حرب تحريرية تنتهي بوقف إطلاق النار بل كان بداية ثورة ترمي في ذات الوقت إلى تحرير الأرض وتحرير الإنسان.

لأجل ذلك فإن القيادة العليا مطالبة، بالإضافة إلى سهرها على توفير الشروط اللازمة لإنجاح المعركة المسلحة، بوضع تصور إجمالي للمجتمع الذي ينتظر بناؤه بعد القضاء على السيطرة الأجنبية.

---

(1) *محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، ص 123.*
وكذلك حربي (محمد) جبهة التحرير الوطني، ص 172.

(2) *MTLD, Résolution générale Adoptée par le deuxiéme congrés du MTLD, d' Avril 1953 p(3-2).*

من هنا جاء اهتمام مؤتمر وادي الصومام بالنقطتين المشار إليهما أعلاه، ولقد ناقش المؤتمرون مشروع وثيقة شاملة[1] نجد اليوم مقتطفات منها، ونعرف من الذين شاركوا في وضعها أن بعض أجزائها ظلت بعيدة عن متناول القارئ ويتحمل في نهاية الأمر، أنها ضاعت رغم الإيماءات والإشاعات[2].

ومن وجهة النظر الإيديولوجية، فإن وثيقة وادي الصومام تعتبر ميثاقاً تضمن، بكثير من الدقة والتفاصيل، تقييم المرحلة المقطوعة من حياة الثورة وآفاق المجتمع الجزائري بعد استرجاع السيادة الوطنية، بالإضافة إلى تنظيم مختلف جوانب الكفاح المسلح وتصور المشروع السلمي لتسوية القضية الجزائرية. وإذا كنا قد أعطينا للنقطة الأولى حقها في الفصل الأول فإننا نخصص هذا الفصل الثاني لدراسة المجتمع الجزائري الجديد وكيفية تنظيمه:

أ - في مجال السياسة الداخلية:

لقد كان حزب الشعب الجزائري يسعى، بالدرجة الأولى، إلى تنظيم الطليعة المتشبعة بإيديولوجيته قصد تكليفها بالنفاذ إلى أوساط الجماهير حيثما وجدت توعيها بالواقع الذي تعيشه وتجندها لخوض المعركة عندما يحين الأوان، لأجل ذلك كان المناضلون يستعملون جميع الوسائل لإقناع أكبر عدد ممكن من المواطنين بضرورة الخلاص من كل أنواع السيطرة الأجنبية.

كان الهدف الأول، إذن، يرمي إلى جعل الإنسان الجزائري يدرك أنه يعيش وضعاً مختلفاً كلياً عن وضع الأوربي، وأن من الواجب عليه العمل على إحداث التغيير.

فالمستعمر الدخيل استطاع، بوسائل متعددة، أن يستولي على الأراضي

---

[1] أوزقان (عمار) ذكر لي في لقاء أجريته معه بمقر حزب جبهة التحرير الوطني في ساحة الأمير عبد القادر بالعاصمة يوم 1964/04/10 انه كان المحرر الرئيسي لمشروع الميثاق الذي عرض للمناقشة على مؤتمر وادي الصومام.

[2] هناك عدد من المسؤولين يقولون أنهم يملكون بعض المخطوطات وانهم سينشرونها في الوقت المناسب، ولكن بعضهم طبع مذكراته ونيلها بملاحق دون ان ينقل للقراء أشياء جديدة عن وثيقة وادي الصومام التي يبدو أن ماهو منشور منها كامل ولا ينبئ بأن ثمة أجزاء ناقصة، لقد أتيحت لي فرصة الحديث في الموضوع مع السيد عمار أوزقان بعد تعيينه رئيساً للجنة المنبثقة عن المؤتمر الأول لحزب جبهة التحرير الوطني فأكد لي أن مايعتبره بعضهم قد ضاع إنما هي مجموعة من الاقتراحات المقدمة من جهات مختلفة ولم ير المؤتمرون ضرورة لتبليها، وهناك أيضاً عدد من الفقرات التي تعالج موضوعات متنوعة حذفت أثناء المناقشة العامة.

الخصبة والمناجم الغنية بالثروات المعدنية وأن يسخر، لاستغلالها، كل السواعد القادرة على العمل كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الباب الأول من هذه الدراسة.

ولكي تتمكن السلطات الاستعمارية من تأييد حالة التبعية في أوساط الجماهير الجزائرية ومن إبقائها في دائرة التخلف، فإنها كانت تطبق بكل دقة مبدأ "فرق تسد".

"فالجزائر لم تعرف الاستقلال في تاريخها، ولم يكن فيها شعب واحد، ولا هي قادرة على العيش بدون وصاية أجنبية. أما سكانها فأجناس مختلفة وقبائل متنافرة متناحرة"[(1)]

لقد استطاع المؤرخون أن يعرفوا المكتبات بما مفاده أن العناية الاستعمارية قد جعلت من الجزائريين أمة في طور التكوين أهم عناصرها هم العرب واليهود والأوروبيين، ولأنها لم تكن موجودة من قبل، فإنه لا يحق لأبنائها أن يموتوا لكي تبعث من جديد كما أكد ذلك السيد فرحات عباس عندما قال: لو اكتشفت الأمة الجزائرية لكنت وطنياً دون أن أخجل من ذلك خجلي من ارتكاب الجريمة، لكنني لن أموت من أجل الوطن الجزائري لأنه غير موجود. إنني لم أعثر عليه. لقد سألت التاريخ واستنطقت الأحياء والأموات وزرت المقابر ولم أجد من يعرف ذلك. إن البناء لا يكون على رأس من الريح[(2)].

وفي نفس هذا المعنى كتب السيد بيار مونتانيون "أن فحص ألفي سنة من تاريخ المغرب الأوسط يجعلنا نؤكد عجز الشعب الجزائري عن بناء أمة وإنشاء حضارة. لقد تساءل المؤرخون حول ذلك فلم يجدوا أثراً للدولة الجزائرية ولا لثقافة خاصة تتميز بمؤلفاتها الأدبية وآثارها الفنية. إن تاريخ الجزائر فارغ مثل أرضها التي ليس فيها سوى آثار الآخرين"[(3)]

ولم يقف السيد مونتانيون عند مجرد الادعاء، بل إنه حاول إيجاد أسباب للفراغ وللموت المذكورين: وفي نظره، فإن ذلك يرجع إلى كون الجزائر لم

---

(1) مجموعة من المؤرخين الفرنسيين، تاريخ شمال إفريقيا الفرنسي بدون معلومات حول الطباعة والنشر. ص: 17 ومن الجدير بالذكر أن هذه أيضاً، هي نظرية الحزب الشيوعي الجزائري التي ظل يدافع عنها إلى نهاية الأربعينات وكتابات موريس توريس وأقواله في الموضوع معروفة وكثيرة.

(2) فرحات عباس، جريدة الوفاق الصادرة يوم 1936/02/23.

(3) PIERRE MONTAGNONS, LA GUERRE D'ALGERIE. GENESE ET ENGRENAGEE D'UNE TRAGEDIE EDITIONS PYMALION- PARIS 1984. P.29.

تنجب أبطالاً يوحدون شعبها ولا بين شخصيات علمية وثقافية وسياسية قادرة على إحداث التغيير والتطور التارخيين. يقول في هذا الصدد" إن هذا البلد الذي أنجب أمثال القديسين أوغستين[1] وتارتليان[2] والقدس سيبريان[3] قد أصبح بعد الفتح العربي مفترقون إلى عظماء باستثناء الأمير عبد القادر. ومن الواضح أن في ذلك تكمن أسباب التبعية التي عاش فيها الجزائريون والتي دامت مدة ألفي سنة[4].

لأنه كان يعتبر الأمة الجزائرية غير موجودة ولا مجال لبعثها، فإن الاستعمار لم يجعل لنفسه حدوداً في تعامله مع الجزائر. فقد أعلن مبكراً عن ضمها إدارياً إلى التراب الفرنسي[5] ولجأ إلى كثير من المحاولات لتحقيق فرنسة الجماهير وتنصيرها قصد دمجها نهائياً في الشعب الفرنسي، ومن خلال كل تلك المحاولات كان يتفنن في سن القوانين المساعدة على إنجاح عملية السلخ و التشويه، نذكر على سبيل المثال: قانون الأهالي الذي لم يبلغ إلا سنة 1944[6] والقانون البلدي الصادر يوم الخامس من شهر أفريل سنة أربع وثمانين وثمانمائة وألف والقاضي بإعطاء حق التصويت للمالكين والمزارعين والموظفين والمتقاعدين والحاصلين على الأوسمة بهدف فصلهم عن جماهيرهم الشعبية. وهناك، أيضاً، القانون الخاص بإنشاء الفوضويات المادية[7] الذي وقع إصلاحه يوم 1919/02/04 بواسطة القانون الذي يحمل اسم صاحبه الوالي

---

(1) مـن مواليـد سوق أهراس سنة 354 توفي بعنابة سنة 0430، يعتبر من آباء الكنيسة الكاثوليكية له مؤلفـات كثيرة أهمها: مدينة الله، اهتم في حياته، بموضوعات متعددة لكنه ركز كل مجهوداته في السـنوات الأخيرة على معالجة موضوع الآلة وموضوع الإنسان، يحتفل به يوم 280 أوت من كل سنة.

(2) من كبار رجال الكنيسة، ولد بقرطاج سنة 155 وتوفي فيها بعد ذلك بخمس وستين سنة، له مؤلفات عديدة في اللاهوت وفي الفلسفة.

(3) مـن مشـاهير آباء الكنيسة، ولد مع مطلع القرن الثالث بقرطاج وتوفي فيها سنة 258. قام بأدوار سياسية كبيرة وترك مؤلفات كثيرة. يحتفل به يوم 16 سبتمبر من كل سنة.

(4) بيار مونتانيون، ص : 30.

(5) انظر المرسوم الملكي الذي يحمل تاريخ 1843/7/22.

(6) وفـي الحقيقـة، فإن الإلغاء لم يكن سوى شكلياً لأن محتوى القانون ظل ساري المفعول حتى اندلاع الثورة.

(7) صدر هذا القانون لتحديد وضع الجزائريون بالنسبة إلى الجلسية الفرنسية والحقوق المدنية والسياسية الـتي تعـود إلى المواطـن. وأهـم ما جاء فيه الشروط التي لابد أن يتوفر واحد منها في الإنسان الجزائـري كـي يصـبح مواطـناً فرنسياً وهي سبعة: الخدمة العسكرية- القراءة والكتابة باللغة الفرنسـية- الملكية- الوظيف- أن يكون قد انتخب لمنصب سياسي- حيازة الأوسمة الفرنسية-- أن يكون من أب متجلس.

العام جونار إلى غير ذلك من الأمريات والقرارات والمراسيم.

إن كل هذه الأوضاع اللاطبيعية هي التي استهدفت سياسة جبهة التحرير الوطني تغييرها جذرياً واستبدالها لما يمكن شعب الجزائر ليس من استرجاع الاستقلال الوطني فحسب ولكن، وفي المقام الأول، من استعادة مقومات الشخصية الوطنية التي لابد منها لبناء صرح الدولة الجزائرية التي قوضت أركانها جيوش الاحتلال عام ثلاثين وثمانمائة وألف.

لأجل ذلك أكدت وثيقة وادي الصومام[1] على أن الكفاح المسلح يبقى مستمراً، وأن كل الطاقات الوطنية يجب أن تعبأ لتدعيمه وتطويره بجميع الوسائل إلى أن تتحقق الأهداف التالية:

1 - الاعتراف بالشعب الجزائري شعباً واحداً لا يتجزأ، معنى ذلك أن خرافة "الجزائر فرنسية" و"الشعب الفرنسي المسلم" و"الأمة التي في طور التكون" كل ذلك يجب أن يزول من القاموس الاستعماري.

2 - الاعتراف بالسيادة الوطنية على كافة الميادين بما في ذلك الدفاع الوطني والسياسة الخارجية. وهذا يعني أن الحلم الذي بدأ يراود فئة من المستعمرين وعدداً ممن يسمون بالمعتدلين الجزائريين يجب أن يتبخر، لأن أي نوع من الاستقلال الذاتي لا يمكن إلا أن يكرس الهيمنة الأجنبية وتثبيت الاستعمار الجديد.

3 - الاعتراف بجبهة التحرير الوطني كممثل وحيد للشعب الجزائري، لها وحدها حق التفاوض وحق الأمر بوقف إطلاق النار وينجر عن هذا الاعتراف إجبار السلطات الاستعمارية على إطلاق سراح جميع الجزائريين والجزائريات الأسرى المعتقلين والمنفيين بسبب نشاطهم الوطني قبل وبعد اندلاع الثورة.

إن استرجاع السيادة الوطنية على هذا الأساس من إلغاء الواقع الاستعماري الذي من المفروض أن تزول بزوال كل علاقات العسف والتبعية، وتبنى من جديد على قواعد ثابتة ومتينة، أركان الدولة الجزائرية المتخلصة نهائياً من الرواسب التي من شأنها تسهيل عودة الاستعمار الجديد.

فالسيادة الوطنية التي ترمي جبهة التحرير الوطني إلى استرجاعها لا

---

[1] *FRONT DE LIBERATION NATIONAL- EL MOUDJAHIS, IMPRIME EN-YOUGOUSLAVIE, JUIN 1962 TOME I.P 58 ET SUIVANTES.*
يجد القارئ عدداً خاصاً يتضمن أكبر جزء من ميثاق وادي الصومام.

تخص ميداناً دون آخر، بل إنها تشمل جميع مجالات الحياة وتمتد على كافة التراب الوطني حسب الحدود المرسومة من قبل السلطات الاستعمارية نفسها. لأجل ذلك. فإن ميثاق وادي الصومام قد عالج مسألة التفاوض مع العدو بكيفية دقيقة ومفصلة لا تترك أي منفذة للتحاليل وللمناورات.

وعندما ينظر الدارس بتمعن إلى الأهداف المذكورة أعلاه يجد أنها مترابطة فيما بينها ومتكاملة، ذلك أن السيادة الوطنية تفقد كل معناها إذا كان الشعب مطعوناً في وحدته مصاباً بداء التقسيم والفرقة اللذين يكونان نتيجة لو فتح المجال لأطراف أخرى تتحدث باسم الشعب الجزائري. مع العلم أن التمثيل مطلقاً في مثل هذه الحالة لا يكون مجدياً. إلا إذا كان الممثل قوياً ويملك بين يديه وسائل حقيقية ولتوجيه الأحداث في الاتجاه الذي يقطع على العدو خطوط الرجعة، ويفرض عليه الالتزام بالإطار المرسوم للتفاوض.

على هذا الأساس، أكدت وثيقة وادي الصومام ضرورة مضاعفة الجهد من أجل إعادة تنظيم الجماهير الشعبية في الأرياف وفي المدن وإعدادها عن طريق التوعية والترشيد لتجاوز دائرة التخلف التي وضعها فيها الاستعمار وللتخلص من الذهنيات المتحجرة التي ألصقها بها وأنماط الحياة التي فرضت عليها والتي تهدف فقط إلى إبقائها في حالة الغيبوبة والتبعية الدائمتين.

فالمجالس الشعبية التي شرع في إنشائها منذ الأشهر الأولى لاندلاع الثورة[1] يجب أن يتم تدعيمها وتوسيع شبكتها بحيث تشمل كافة أنحاء الوطن وأن تسند إليها مسؤوليات تجعلها أكثر فعالية وأكثر اتصالاً بالجماهير الشعبية. فالمجلس الشعبي الواحد أصبح يتكون قانونياً من خمسة أعضاء بما في ذلك الرئيس، ويشرف على تسيير الحالة المدنية والمالية والاقتصادية والشرطة.

وبعابرة أدق، فإن المجلس الشعبي حيث ما وجد يحل محل الإدارة الاستعمارية التي يجب أن تزول نهائياً وتزول إتصالاتها بالأوساط الشعبية[2].

لقد نجحت المجالس فعلاً في أداء مهمتها إذ استطاعت خاصة أن تقضي قضاءً مبرماً على النزاعات التي كانت قائمة بين الأعراش والأفراد والتي كانت السلطات الاستعمارية تحبذها كي تبقى دائماً مصدر ضعف بالنسبة للمتنازعين ومنفذاً يسمح للمحتل وأعوانه بالتمركز أكثر لمواصلة العبث بمصير المواطنين.

---

(1) المنظمة الوطنية للمجاهدين، أشغال المؤتمر الأولى لكتابة التاريخ، ص 185.
(2) نفس المصدر.

ولم يكن ذلك النجاح ليخفى على الإدارة الاستعمارية التي كانت تقابله بمحاولات يائسة تتمثل في الترهيب والترغيب وفي الإعلان عن عدم اعترافها بالصلاح الذي يحدث والتآخي الذي يتم[1]. ويندرج الإشراف على المجالس الشعبية ضمن اختصاصات المحافظين السياسيين الذين يتولون كذلك، مهام تربية الجماهير وتنظم التعليم والإعلام والدعايةإلى جانب القيام بتوجيه الحرب النفسية على مختلف الجبهات[2].

فالاستعمار الذي لم يفته التطور السريع الذي تعيشه الثورة في كافة المجالات لم يعد مكتفياً بالعمليات العسكرية التي ينظمها في سائر أرياف الوطن ويوفر لها ماتحتاج إليه من عدة وعتاد وحينما رأى تلك العمليات تعداها إلى التركيز على تسخير الإمكانيات المادية والبشرية لمحاولة تحييد الجماهير في مرحلة أولى قبل الدفع بها في معسكره تساعده على إخماد أنفاس الثورة. وقد كان المحافظون السياسيون يتصدون إلى هذه المساعي قصد إحباطها بجميع الوسائل. فقد كانوا يعتمدون على وسائل الإقناع، وعندما يشعرون أنها لم تعد تجدي نفعاً، فإنهم يلجأون إلى الترهيب الذي كثيراً مايكون مصحوباً بالتنفيذ الفعلي. وفي بعض الأحيان توظف الخرافة واللامعقول إذا كان ذلك ضرورياً لرفع معنويات الجماهير الشعبية أو لتنشيط عزائم العدو أو لتحقيقهما معاً[3].

وهكذا فإن مؤتمر الصومام لم يكتف بترسيم وظيفة المحافظ السياسي، ولكنه جعلها أساسية بالنسبة لمسار الثورة. فالمحافظ مسؤول متجول، يقضي كل أوقاته في التنقل بين المداشر والمشاتي يراقب المجالس الشعبية ويجمع ما أمكن من المواطنين يكونهم سياسياً وينشر بينهم إيديولوجية جبهة التحرير الوطني.وفي ذات الوقت، كان يزور وحدات جيش التحرير الوطني يزودها بالأخبار ويحلل أمامها المعطيات السياسية في داخل البلاد وفي خارجها، ويسجل الاحتياجات والمطالب التي يناقشها مع المسؤولين الأعلى ويعمل على الاستجابة لها بقدر الإمكان وفي حدود المستطاع.

---

[1] صدى الجزائر، عددها الصادر بتاريخ 1955/06/21.

[2] حول اختصاص المحافظ السياسي انظر المجاهد، العدد 11 الصادر بتاريخ 1957/11/01، ص 146.

[3] من ذلك أن المحافظين السياسيين كانوا يشيعون في أوساط الجماهير أن الملائكة، عندما تشتد المعارك، تنزل من السماء لنصرة المجاهدين، وأن الله أعطى للمجاهد قدرة للتحول بكل سهولة وسرعة فائقة إلى الهيأة التي يريدها. من ثمة فإنه يستطيع الدخول إلى ثكنات العدو أو التجول في شوارع المدينة و القرية دون أن يشعر بوجوده أحد باستثناء المناضلين.

ويعتبر هذا الاهتمام البالغ الذي أولاه المؤتمر للجماهير الشعبية دليلاً على التحول الجذري الذي حدث في إيديولوجية الثورة التي كانت تعتمد على الطليعة لتحقيق الأهداف المرسومة فصارت تركز على الشعب وتثق على إحداث المعجزة التي لم تكن في الحسبان. ويبدو أن هذا التحول قد بدأ يفرض نفسه مع انتفاضة العشرين من شهر أغسطس سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف. ففي ذلك التاريخ حدث انقلاب لا مثيل له في موازين القوى إذ تخلص جيش التحرير الوطني الفتي من عقد الخوف التي كانت تفرض عليه التحرك ليلاً والنشاط خفية فصار أفراده ينتقلون في وضح النهار بينما انتقل الرعب إلى نفوس الأجناد الفرنسيين الذين أصبحوا، بفعل دعاية الكولون، يرون في كل واحد من الجزائريين مجاهداً أو مناضلاً مستعداً للانقضاض عليهم.

ولم يكن ذلك هو التحول الوحيد الذي عرفته إيديولوجية الثورة الجزائرية، بل هناك نقاط أخرى اختلفت حولها الآراء كثيراً واشتد فيها إلا عن طريق التصويت بأغلبية الثلثين. ومن بين تلك النقاط الحساسة التي سيكون لها أثر بالغ على سير أحداث الثورة مايلي:

1 - هيئات قيادة الثورة:

لقد كانت الحاجة الماسة إلى قيادة واحدة وموحدة للثورة الجزائرية هي الدافع الأول الذي جعل المنطقة الثانية تسعى، منذ شهر مارس عام ست وخمسين وتسعمئة وألف[1]، إلى جمع مؤتمر وطني يضم الإطارات القيادية في داخل البلاد وخارجها[2]. لكن ذلك لم يمنع المؤتمرين من التوقف طويلاً عند مناقشة هذه النقطة. وعلى الرغم من أن محضر الجلسات لم ينشر كاملاً إلى يومنا هذا حتى يطلع الباحث على حقيقة مادار من حوار يقال أنه كان صريحاً إلى أبعد الحدود وعنيفاً إلى درجة التهديد بتفجير المؤتمر، إلا أن الشهادات التي أدليت خاصة بمناسبة انعقاد ندوة التاريخ الخاصة بالولاية الثانية في اليومين الأخيرين من شهر جانفي سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألف كافية لأخذ صورة مجملة عن المداولات التي جرت يومها فتصريحات السيد لخضر بن

(1) لقاء أجريته مع العقيد لخضر بن طوبال في بيته يوم1985/04/16 بحضور السيد محمد الصالح بوسلامة.

(2) شهادة خاصة قدمها لي العقيد بن طوبال الذي يجزم أن الشهيد يوسف زيغود يوسف بذل كل مافي وسعه ليجمع مختلف المناطق من أجل تقييم المرحلة المقطوعة والتخطيط للمستقبل، وقد ظل يسعى إلى أن أظهرت نفس الفكرة عند الشهيد العربي بن المهيدي وتباعاً الشهيد رمضان عبان.

طوبال[1] الذي كان من المشاركين الأساسيين تدل على أن ممثلي المنطقة الثانية وعدداً من ممثلي المنطقتين الثالثة والرابعة كانوا كلهم يطالبون بأن تكون القيادة التي تنبثق عن المؤتمر مكونة فقط من الإطارات الأساسية التي ساهمت في تفجير الثورة والتي هي متشعبة بإيديولوجية واحدة، وذلك حفاظاً على التوجهات الثورية وتجنباً للانزلاق في شتى أنواع الانحراف، لكن الأغلبية من المؤتمرين وفي مقدمتهم السيدان العربي بن مهيدي وعبان رمضان كانوا يرون أن الثورة قد توسعت وصارت تضم في صفوفها فئات اجتماعية مختلفة وتيارات إيديولوجية متعددة، وهي مدعوة لأن تتطور أكثر مضطر لأن يأخذ بعين الاعتبار كل هذه المعطيات الجديدة ويخرج بقيادة تكون ممثلة لكافة الاتجاهات الوطنية.

لقد انتصرت الأغلبية في ذلك الوقت وتدخل مبدأ المركزية الديمقراطية ليمنع الانقسام الفعلي ويضمن للقيادة الجديدة استمرارية وحدتها ويوفر لها شروط النجاح[2]. ولكن، اليوم، بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على تلك العملية فإن الآراء ماتزال مختلفة حول جدواها.

*إن التحليل المعمق للقرار الذي صدر عن مؤتمر الصومام حول ضرورة إشراك جميع التيارات الوطنية في هيئات قيادة الثورة يقودنا حتماً إلى القول بأن العملية كانت أخطاءً إيديولوجية لأنها لم تشترط على الإطارات الملحقة سواء بالمجلس الوطني للثورة الجزائرية أو بلجنة التنسيق والتنفيذ تخليها، نهائياً عن قناعاتها الفلسفية وتبنيها المطلق للإيديولوجية التي يعود الفضل إليها في تهيئة الأرضية الصلبة التي انطلقت منها الشرارة الأولى المعلنة عن بدء الكفاح المسلح الذي لن يتوقف إلا عندما تسترجع السيادة الوطنية إن هذا لم يحدث وذلك

---

[1] وهو واحد من الاثنين والعشرين الذين فجروا الثورة، كان عضواً في المنطقة الخاصة، احتمى بغابات الأوراس مدة طويلة قبل ليلة الفاتح من نوفمبر، شارك، فعلاً، في مؤتمر وادي الصومام كنائب أول للشهيد يوسف زيغود، قادالولاية الثانية سنتي 1956 و1957 عين عضو لجنة التنسيق والتنفيذ سنة 1958 وزير الداخلية 1958 -1960 ثم وزير دولة إلى غاية. 1962. اشتهر بالدعوة إلى الانضباط والعنف الثوري والتأثر بالتقنيات الفيتنامية في حرب العصابات. يعتبره السياسيون أحد الباءات الثلاث الذين سيطروا على التسيير الخارجي للثورة إلى غاية استرجاع الاستقلال.

[2] كان السيد عمار بن عودة من الرافضين الداعين بحماس إلى الخط الإيديولوجي. ويعتقد شخصياً أنه عوقب على ذلك عندما قرر المؤتمر إرساله إلى تونس للإشراف مع السيد واعمران على تسليح الثورة. لكنه وهو في طريقه إلى تونس بذل كل مافي وسعه ونجح في إقناع مجموعات كبيرة من القادة والمجاهدين الذين أرادوا التنكر لنتائج المؤتمر احتجاجاً على وجود بعض الأشخاص من إيديولوجيات أخرى داخل الهيئات القيادية.

لسببين أساسيين في نظرنا هما:

أ - إن قادة جبهة التحرير الوطني الذين كانوا يدافعون عن فكرة منح المناصب القيادية للإطارات السامية الآتية من التشكيلات السياسية الأخرى دون احترام التدرج النظامي الذي تخضع له إطارات الثورة منذ ليلة الفاتح من نوفمبر، إنما كانوا يرمون، من خلال ذلك إلى ترغيب الإطارات السامية المذكورة وجعلها تسارع إلى الالتحاق بالصف، معتقدين أن بقاءهم خارج إطار جبهة التحرير الوطني قد يشجع الاستعمار على استعمالهم لخلق قوة ثالثة للضغط بها عند الحاجة[1] لقد كان هذا الإجراء ممكناً لكنه لم يكن أكيداً. لكن الذي لاشك فيه هو أن المشكل الإيديولوجي لم يطرح على المسؤولين الجدد الذين سيظلون محتفظين بقناعاتهم الفكرية والثقافية إلى غاية وقف إطلاق النار.

ب- إن الإطارات القيادية التي جاءت من التشكيلات السياسية الأخرى لم تكن قادرة، في ذلك الوقت، على المبادرة لطرح المشكل الإيديولوجي لأنها، في معظمها، إنما التحقت حتى لا يفوتها الركب من جهة، ولأنها أصبحت خائفة من الموت الذي بدأ يطرق باب الشخصيات المترددة[2] من جهة ثانية.

هكذا، إذن، فإن خوف البعض من الموت ومن فوات الأوان، وخوف البعض الآخر من ظهور القوة الثالثة خاصة بعد المحاولات التي قام بها سوستيل على أصعدة مختلفة هو الذي لم يسمح بتسوية المشكل الإيديولوجي من البداية. وبقاؤه معلقاً على النحو الذي كان عليه هو الذي سيسهل تفجير الوضع السياسي في الجزائر مباشرة بعد استرجاع السيادة الوطنية.

قد يقال: لكن الأزمة السياسية التي أخرجت قطار الثورة من سكتة كانت كل أطرافها متشبعة بإيديولوجية واحدة، لأن رئيس الحكومة المؤقتة، يومها، أغلبية وزرائه ورئيس أركان جيش التحرير الوطني وكل قادة الولايات في داخل الوطن وكذلك مسؤولي اتحادية جبهة التحرير الوطني في فرنسا كلهم كانوا، قبل اندلاع الثورة، مناضلين في صفوف حركة الانتصار للحريات

---

[1] يذكر السيد مصطفى بن عودة أن الشهيد عبان قال له: إن الانحراف الإيديولوجي أفسح من المجال لفرحات عباس إلى باوداي جزائري انظر شريط الفيديو الخاص بندوة قسنطينة حول كتابة تاريخ الثورة المنعقدة يومي 30 و31 جانفي سنة 1985، وهو موجود ضمن محفوظاتي الخاصة.

[2] نذكر على سبيل المثال إعدام علاوة عباس ومحاولة التنفيذ في بعض الشخصيات التي ماتزال على قيد الحياة والتي تابت فيما بعد والتحقت بصفوف جبهة التحرير الوطني.

الديمقراطية. لقد كان ذلك صحيحاً، لكن المحيط الذي تدخل بعنف وقام بالدور الرئيسي في إذكاء نار الفتنة إنما كان يعمل لإيجاد الفرص الملائمة لعودة الإيديولوجيات المختلفة إلى الميدان، وليس ثمة لتحقيق ذلك، أفضل من الصراع الدموي على السلطة، لأن إراقة الدماء واللجوء إلى العنف على حساب الحوار يؤديان حتماً إلى تشتيت الصف واختفاء الأمن والاستقرار وشيوع الفوضى والاضطراب وكلها آفات تنخر جسم المجتمع وتفسح المجال للتعددية بجميع أنواعها.

ورغم كل ذلك، فإن الدارس المتمعن للأوضاع السائدة يومها في الجزائر لا يسعه إلا أن يقول: إن مؤتمر وادي الصومام كان مصيباً في قراره، لكن الخطأ يكمن في كون القيادة الثورية لم تول كل العناية للتطور الإيديولوجي الذي كان يحدث بفعل نمو جبهة التحرير الوطني واتساع شبكة منظماتها الجماهيرية. ولو أنها فعلت ذلك لوجدت نفسها متشبعة بفكر واحد، تتكلم لغة واحدة ومستعدة لمواجهة كل الطوارئ بنفس العزيمة، ونفس الحزم اللذين تميزت بهما طيلة فترة الكفاح المسلح.

ولأن أغلبية المؤتمرين صادقت على القرار، فإن المجلس الوطني للثورة الجزائرية قد جاء مكوناً من 34 عضواً نصفهم أساسي ونصفهم إضافي الصنفين ومشتملاً في الصنفين، على أقلية قليلة من الإطارات التي كانت تقود مختلف التشكيلات السياسية الوطنية التي قررت أخيراً، الالتحاق بجبهة التحرير الوطني ومايقال عن المجلس الوطني للثورة الجزائرية لا يمكن تطبيقه على لجنة التنسيق والتنفيذ التي اشتملت على خمسة أعضاء كلهم من قدامى حركة الانتصار للحريات الديمقراطية.[1]

2 – أولوية السياسي على العسكري:

لقد لاقى معارضة شديدة من طرف عدد من القادة المشاركين في المؤتمر لاعتقادهم بأن عبان و أعضاء لجنة الصياغة الذين كانوا معه وهم من السياسيين إنما يريدون احتواء الثورة والسيطرة عليها، خاصة وأن المبدأ المذكور جاء مقروناً بآخر نص على أولوية الداخل على الخارج. وإذا عرفنا أن المسؤولين غير العسكريين هم قادة العاصمة التي استقلت عن الولاية الرابعة وأعضاء

[1] المقصود هنا هم السادة: بلقاسم كريم، ابن يوسف بن خدة، العربي بن المهيدي، وعبان رمضان وزيغود يوسف الذي سيترك مكانه بعد الاستشهاد إلى السيد: سعد دحلب.

مندوبية الخارج واتحادية جبهة التحرير الوطني في فرنسا أدركنا شرعية تخوف المعارضين للمبدأين.

لكن السيد عمار بن عودة[1] يذكر أن التخوف المشار إليه سرعان ما تبدد عندما أعطيت التفسيرات التي مفادها أن المقصود بأولوية السياسي العسكري هو التركيز على التفاوض مع العدو لضبط شروط وقف إطلاق النار، لأن الانتصار العسكري على واحدة من أكبر الدول الاستعمارية في العالم يُعد من باب المستحيلات تقريباً خاصة إذا كانت تلك الدولة عضواً فاعلاً في منظمة الحلف الأطلسي[2].

والحقيقة أن التفسيرات المذكورة إنما تم اللجوء إليها فقط للتهدئة ولتقديم التبريرات اللازمة لكبح النفوس وعدم الانقياد لما قد لا يحمد عقباه. فالسياسي والعسكري سواء كان عملاً أو شخصاً، شيء واحد، لأن العمل السياسي يبرمج له الرجل السياسي كما أن القائدالعسكري هو الذي يشرف على تنفيذ العمليات العسكرية التي يكون قد خطط لها. فإذا كانت الأولوية للعمل السياسي، فذلك يعني أن قرار الرجل العسكري يأتي في الدرجة الثانية كوسيلة لدعم مواقف المسؤول السياسي.

وفيما يخص أولوية الداخل على الخارج، فإن المؤتمر قد لجأ إلى إقرارها لأسباب عدة يمكن استخلاص أهمها من العرض الذي قدمه الشهيد العربي بن المهيدي إلى المؤتمرين عن المهمة التي قام بها إلى القاهرة في مستهل عام ستة وخمسين وتسعمائة وألف[3].

فالعرض المذكور يؤكد بصريح اللفظ أن مصر لا يمكن الاعتماد عليها مطلقاً في الحصول على الأسلحة لأن موقفها من الثورة الجزائرية يخضع بقسط

(1) مـن أسرة عريقة في ولاية عنابة، التحق بالجبال منذ مايسمى بمؤامرة سنة 1950. تقلد مسؤوليات كـثيرة أثـناء الثورة آخرها: المشاركة باسم جيش التحرير الوطني في مفاوضات إيفيان. عيّن بعد اســترجاع الاستقلال سفيراً في طرابلس. عضو اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني منذ سنة 1979. هو الآن رئيس اللجنة الوطنية لمصاف الاستحقاق.

(2) انظر الندوة.

(3) في مستهل تلك السنة كان ابن المهيدي قد اتصل ببرقية من مندوبية الخارج مفادها أن باخرة محملة بالســلاح ستغادر القاهرة في اتجاه مدريد، وعليه أن يتكفل بتحويل حمولتها إلى المغرب ومنه إلى مختـلف مـناطق الوطن. ولما طال انتظاره في العاصمة الإسبانية، رحل إلى القاهرة وهناك وجد قيادة مقسمة إلى كتل يستحيل الاعتماد عليها.

وافر إلى نشاطها الديبلوماسي[1] كما أن مندوبية جبهة التحرير الوطني غير قادرة على أن تكون قيادة موحدة بفعل الانقسام السائد بين أفرادها الذين مازال كل منهم يبحث عن الزعامة لنفسه. ومما لا ريب فيه أن ثمة خلافات أخرى كثيرة ظهرت أثناء أشغال المؤتمر لكن أصالة ثورة نوفمبر وضعت حداً لكل مامن شأنه أن يتجاوز الخط الأحمر. وظل العمل على تعبئة كل الطاقات الحية قصد القضاء المبرم على النظام الاستعماري هو المهمة الأساسية التي تحجب جميع المهام الأخرى، لأجل ذلك، فإن المؤتمرين صادقوا بالإجماع على الخطوط العريضة التالية:

1 – إن وحدة الشعب الجزائري مقدسة وكذلك وحدة التراب الوطني، وأي تنازل عن جزء من هذه أو تلك يعد خيانة عظمى. وتعتبر جبهة التحرير الوطني هي الممثل الشرعي للشعب والقائد الوحيد للثورة التي ستظل مستمرة إلى أن يتم بكيفية مطلقة تحرير الأرض وتحرير الإنسان.

وعلى جبهة التحرير الوطني، كي تكون في مستوى المهمة المسطورة لها، أن تواصل ضرب جذورها في أعماق الجماهير الشعبية الواسعة لأن بذلك تكمن القوة التي هي في حاجة إليها لمواجهة عدة الامبريالية وعتادها.

فمن هذا المنطلق تعمل جبهة التحرير الوطني بجميع الوسائل المتوفرة لديها، على محاربة الآفات الاجتماعية مثل الرشوة والجهوية والقبلية والعشائرية والانتهازية التي تشكل مصادر ضعف قاتل وحواجز تعرقل عملية التجنيد من جهة ومساعي بناء المجتمع الثوري من جهة ثانية.

والنجاح في الارتقاء إلى ما تطلبه مستواها كحركة تحررية شاملة يحتم على جبهة التحرير الوطني أن ترسم مجموعة من الضوابط تلتزم بها في سعيها الدائب من أجل تحويل الجماهير الشعبية إلى طاقة خلاقة تتعدى وقف إطلاق النار لتهز أركان التخلف وتشق طريق الانتصار لعملية البناء والتشييد في كافة المجالات وعلى جميع الأصعدة. ومن جملة الضوابط التي صادق عليها مؤتمر وادي الصومام تجدر الإشارة إلى سياسة الإطارات وسياسة الإعلام وسياسة تنظيم الشرائح الاجتماعية المختلفة.

فبالنسبة لإطارات الثورة يرى المؤتمر ضرورة تمكينهم من تكوين سياسي وإيديولوجي يتسلحون به لقيادة الجميع، كل حسب قدرته واختصاصه، في

---

[1] نفس زيارة ابن المهيدي إلى القاهرة كشفت له بأن باخرة الأسلحة لم تبحر الزيارة التي يؤديها وزير الخارجية الفرنسي إلى مصر في شهر مارس سنة 1956.

معركة حاسمة ضد واحدة من أعتى القوات الاستعمارية في العالم.

وإذا كان الإطار يعرف أنه القدوة الحسنة للذين يسعى إلى تعبئتهم في شتى الميادين، فأنه مطالب بأن يكون مضرب المثل في التحلي بروح المسؤولية والامتثال للقوانين السائدة في صفوف جبهة التحرير الوطني، وبأن يكون سباقاً إلى التضحية، دقيقاً في تطبيق المبادئ ومنضبطاً في تأدية الواجب، وزيادة على ذلك، فإنه لا يعرف التهاون ولا يركن إلى ما تقوم به. لكن الثورة، لكي تحميه من الانحراف، تفرض عليه رقابة مشددة وتحتم عليه أن يكون يقظاً في جميع الحالات.

أما عن الإعلام، فإن ميثاق وادي الصومام يرى أن وسائله يجب أن تكون قادرة على الرد بسرعة عن مناورات العدو إلى تأبيد التقسيم ونشر أسباب الخلاف والنزاع في أوساط الجماهير قصد عزلها عن جبهة التحرير الوطني. ذلك فإن رجل الإعلام ينطلق من كون الدعاية "ليست مجرد تهريج يتميز بعنف الكلمة العقيمة في غالب الأحيان والتي تذهب هباء منثورا، وبما أن الشعب الجزائري أصبح ناضجاً للقيام بالعمل المسلح الإيجابي والمثمر، فإن لغة جبهة التحرير الوطني يجب أن تكون معبرة عن رشدها وذلك بجعلها تتخذ شكلاً جدياً ومتزناً دون التجرد من الحزم والصراحة والحماس الثوري"[1]، إن رجل الإعلام، في منظور جبهة التحرير الوطني، لا يقتصر على تلقي الأخبار وصياغتها ونشرها في أوساط الشعب ولكنه يجب أن يكون سريع البديهة واسع المعرفة وذا قدرة فائقة على الاستيعاب والتحليل والتميز.

فالأخبار تأتيه مواد خام وهو يسهر على فرزها وقولبتها حسب ما تطلبه الظروف وتقتضيه المصلحة. ومن هذه الناحية فهو عبارة عن موجه للرأي العام وصانع للأجواء السياسية خاصة، لأجل ذلك يجب أن تتوفر فيه شروط أساسية أهمها التشبع بإيديولوجية جبهة التحرير الوطني والاستعداد للتضحية بكل شيء من أجل تجسيدها على أرض الواقع.

لقد لاحظ مؤتمر الصومام أن الثورة قطعت خطوات حاسمة في تاريخها، وأنها أصبحت في حاجة إلى تعميم فلسفتها عن طريق التعليمات والشعارات، وعليه قرر مضاعفة عدد المراكز الإعلامية وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من إمكانيات مادية وبشرية حتى تكون قادرة على تأدية الرسالة المنتظر منها

---

[1] *EL. MOUDGAHID, Organe central du FLN (Une revolution democratique) No 12 du 15.11.1957.*

تبليغها، ومن جهة أخرى، وكتتمة للجهد الذي قد تبذله المراكز، قرر إصدار أكبر عدد ممكن من النشريات الداخلية والدوريات العلمية والثقافية بالإضافة إلى تطوير "المقاومة الجزائرية" و"المجاهد" اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني[1].

وأعطى المؤتمرون تلك، توجيهات خاصة بمضاعفة الجهد من أجل رفع مستوى الدعاية الثورية بحيث تتجاوز رسالتها الوطنية وتشق طريقها نحو الرأي العام العالمي الذي بدأ، فعلاً، يهتم بما يجري في الجزائر ويسعى إلى متابعة تطور كفاحها المسلح. فبهذا الصدد، جاء في محاضرة جلسات المؤتمر: "أن كل منشور أو تصريح أو استجواب أو بيان يصدر عن جبهة التحرير الوطني يجب أن يكون له، اليوم، صدى عالمياً. لأجل ذلك يجب أن يكون مطبوعاً بروح المسؤولية التي تشرف السمعة التي اكتسبتها الجزائر السائرة بثبات في طريق الحرية والاستقلال"[2].

2 – وفيما يخص تنظيم الشرائح الاجتماعية، فإن المؤتمر قد ركز على الحركة الفلاحية وذلك تقديراً للدور الأساسي الذي تقوم به المناطق الريفية في حياة الثورة وتحسباً للمناورات التي تحيكها السلطات الاستعمارية قصد التوغل في تلك المناطق من أجل تحييدها على الأقل.

لقد أدركت قوات الاحتلال أن جيش التحرير الوطني ضرب جذوره في أعماق الجماهير الريفية التي احتضنت الثورة بكل قوة لأنها وجدت فيها منفذاً لها من حالة البؤس التي كانت مفروضة عليها، لأجل ذلك، ولأول مرة في تاريخ الاستعمار، أعلنت الحكومة الفرنسية عن استعدادها للقيام بإصلاح زراعي يستهدف تحسين أوضاع الفلاحين الجزائريين عن طريق إعادة توزيع بعض المساحات التي قد تقتطع من المزارع الكبرى أو من أراضي الشركات الخاصة ومؤسسات الدولة. كما أنها قررت في ذات الوقت تعديل نظام الخماسة الذي كان سائد في أرياف الجزائر خاصة.

إن المقصود من هذه المناورات المفضوحة، كما جاء ذلك في ميثاق وادي الصومام، هو مغالطة أبناء الريف الجزائري وصدهم عن تبني الثورة، لكن

[1] للتذكير "المقاومة تصدر خارج الوطن، وهي ثلاثة من المنشورات: نشرة باريس في فرنسا، نشرة المغرب الأقصى ونشرة تونس. أما المجاهد فإنه ظهر إلى الوجود في مدينة الجزائر، وصدر العدد الأول منه في شهر جوان سنة 1956.

[2] المجاهد العدد الخاص، ص67

الفلاح الجزائري الذي عرف، في الوقت المناسب، كيف يفشل سياسة الأهالي التي حاول المستعمر تطبيقها لتقسيم المواطنين إلى عرب وبربر متنافرين ومتماقتين، لن ينخدع لهذه المحاولة الجديدة خاصة وأنه يدرك بأن "الإصلاح الزراعي الحقيقي لا ينفصل عن الهدم الكلي للنظام الاستعماري".[1]

فهذا الوضع الجديد الذي آل إليه الريف الجزائري هو الذي جعل المؤتمرين يدعون جبهة التحرير الوطني لبذل أكبر مايمكن من الجهد لمساعدة الفلاحين على تنظيم أنفسهم في إطار سياسة وطنية عادلة ترمي إلى:

أ - تغذية الحقد الشديد على الاستعمار الفرنسي وإدارته وجيشه وشرطته وعلى الخونة المتعاونين معه.

ب - تكوين احتياطي بشري يتزود منه جيش التحرير الوطني والمقاومة بصفة عامة.

ج - نشر عدم الاستقرار في البوادي والعمل على خلق الشروط الموضوعية اللازمة لدعم المناطق المحررة وافتكاك مناطق جديدة من العدو.

3 - وإذا كانت الأرياف قد اندمج سكانها، منذ البداية، في صفوف جبهة التحرير الوطني محرزة بذلك على مكانة خاصة في تركيبة الثورة، فإن عمال المدن قد أسسوا تنظيماً نقابياً وطنياً أسموه الاتحاد العام للعمال الجزائريين، وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر فيفري سنة ستة وخمسين وتسعمائة وألف.

إن مؤتمر الصومام قد بارك، في محاضره، ميلاد الاتحاد الذي رأى فيه "تعبيراً عن رد فعل سليم قام به العمال الجزائريون ضد التأثير المُشِل الذي يصدر عن مسيري الكونفدرالية العامة للشغل والقوات الشغيلة والكونفدرالية الفرنسية للعمال المسيحيين"[2] وأوصى بأن تولي جبهة التحرير الوطني عناية خاصة بالمولود الجديد حتى يشتد عوده وتتدعم هياكله.

لقد كانت حقوق العمال الجزائريين في بلادهم مهدورة، ولم يكن في مقدور أغلبيتهم المطالبة بأكثر مما يتكرم به أرباب العمل من الكولون الذين كانوا يقومون بالتوظيف وبالفصل كيفما يشاؤون ولم يكن في وسع التنظيمات النقابية الوقوف في وجه تلك التصرفات الاستبدادية نظراً لما كان للمعمرين من نفوذ

---

[1] *المجاهد، العدد الخاص، ص 68.*

[2] *المجاهد، العدد الخاص، ص 68.*

التي تستطيع الصمود في وجه آليات الحرب الاستعمارية، ولمنع ماقد يحدث من انقسام في أوساط عشرات آلاف العمال الذين سارعوا للانضمام إلى الاتحاد العام للعمال الجزائريين مباشرة بعد ميلاده[1].

إن جبهة التحرير الوطني لم تعد تكتفي بوجودالاتحاد واستقلاليته عن التنظيمات النقابية الفرنسية، بل أصبحت تطمح إلى أن يقوم التنظيم الجديد بدور أساسي في عملية تكوين العمال وتوعيتهم وتعبئتهم المستمرة وفي استمالة التنظيمات المماثلة في فرنسا أو في مختلف أنحاء العالم لمساندة كفاح الشعب الجزائري، لأجل ذلك فإن تعلق الأمر بمواجهة التحديات والصعوبات، هذا من جهة، ومن جهة ثانية أوصى باحترام الديمقراطية في أوساط العمال ومراعاة التقاليد السائدة داخل الحركات العمالية المعروفة في العالم.

وبالإضافة إلى كل هذه التوجيهات السياسية والإجراءات التنظيمية التي سيكون لها أثر فعال في حياة الاتحاد العام للعمال الجزائريين، حذر المؤتمر الإطارات النقابية من مغالطات الحزب الشيوعي الجزائري الذي "لايمكن لعجزه في الميدان السياسي إلا أن يتحول إلى فشل ذريع في المجال النقابي"[2]وأكد أن عالم الشغل في الجزائر سيعرف تطوراً هاماً تحت إشراف جبهة التحرير الوطني خاصة وأن "المركزية النقابية الجديدة تختلف كلية عن المنظمات الفرنسية المماثلة سواء بالنسبة لاختيار قيادتها أو للتضامن الأخوي الذي تغذيه ثورة التحرير الوطني والذي يجد سنداً قوياً لدى عمال شمال إفريقيا والعالم أجمع[3].

فمن خلال كل ماتقدم، ترى جبهة التحرير الوطني أن الطبقة العاملة تستطيع، في خضم المعركة التحريرية الشاملة أن تسهم فعلياً في إحداث ديناميكية قادرة على تمكين الثورة من التطور بسرعة فائقة ومن اكتساب القوة الكافية لتحقيق النصر النهائي.

4 – ودائماً في إطار تنظيم الفئات الاجتماعية المختلفة، قرر المؤتمر ضرورة إنشاء اتحاد عام للتجار الجزائريين يسند الإشراف عليه إلى وطنيين يكونون إضافة إلى تسيير شؤون التنظيم الجديد، مكلفين بإيجاد أفضل السبل

---

[1] جـاء في مؤتمر وادي الصومام أن الاتحاد العام للعمال الجزائريين قد سجل انضمام اثنتين وسبعين نقابة في أقل من شهرين وأصبح يشتمل على 110.000 منخرط، انظر المجاهد، ص 357.

[2] نفس المصدر، ص: 68.

[3] نفس المصدر.

لكسر الاحتكارات الأوربية التي تخنق التاجر الجزائري الصغير وتجعل منه مجرد آلة لا تتحرك إلا كيفما شاء المستغل لها. ويقوم الاتحاد من جهة أخرى، بنشر الوعي الثوري في أوساط كافة التجار الجزائريين الذين يجب أن يتنجندوا للإسهام فعليا وبقسط وافر في تمويل الثورة إلى جانب المهمة الأساسية الأخرى التي حددها المؤتمر للاتحاد عندما أكد أن جبهة التحرير الوطني التي تسعى إلىجعل الاتحاد العام للعمال الجزائريين يتطور بسرعة في أجواء سياسية ملائمة، تنتظر منه القيام بمحاربة كافة أنواع التغريم والضرائب وبمقاطعة تجار الجملة المستعمرين وكل التنظيمات التجارية التي نشاطاتها في إطار الحرب الامبريالية الدائرة رحاها ضد الشعب الجزائري[1].

5 – وحظيت المرأة كذلك باهتمام مؤتمر وادي الصومام. ولم يكن ذلك الأمر الغريب خاصة عندما نرجع إلى تاريخ المقاومة الشعبية الذي عرف من النساء اللاتي قدن الكفاح المسلح أو شاركن فيه بما أصبح مضربا للمثل في الشجاعة والإقدام.

ولقد برهنت الفتيات الجزائريات؛ منذ اندلاع ثورة نوفمبر، على أنهن أهل لحمل مشعل لالة فاطمة أنسومر[2]، وأن شجاعتهن لا تقل عن شجاعة الرجل سواء في ميدان المعارك والسلاح في أيديهن أو في المستشفيات والمستوصفات حيث يبدعن في التمريض وتضميد الجراح أو في القرى والمداشر ينشرن الوعي الثوري ويشاركن بقسط وافر في تربية الجماهير سياسياً وإيديولوجياً.

فالفتاة الجزائرية غادرت صفوف الثانويات ومدرجات الجامعات تماماً كما فعل أخوها التلميذ والطالب، عندما وجهت لهم النداء جبهة التحرير الوطني[3]، وعلى غرار إخوانها، أعربت عن استعدادها للانضمام إلى الصفوف وأصبح من الواجب على قيادات الثورة أن تهتم بتخصيص تنظيم لها شبيه بالاتحادات الأخرى يمكنها من النشاط اليومي لفائدة الكفاح المسلح[4].

وفي انتظار ذلك، قرر المؤتمر إيجاد الصيغ العملية التي توفر للمرأة

---

[1] نفس المصدر، ص 68.

[2] قائدة الكفاح المسلح في المجانة ومنطقة القبائل في الفترة مابين 1853 و1856.

[3] المقصـــود هنا هو النداء الخاص بالإضراب عن الدروس والإلتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني وقد استجيبت بالإجماع وتوقفت الدراسة قبل شهر فقط من الامتحانات وذلك يوم 1956/05/19.

[4] سيبدأ هذا التنظيم يتجسد بالتدريج خاصة عندما تظهر على الساحة النضالية السيدات: مامية شلتوف، خيرة مصطفاوي ونفيسة حمود الاتي سيمثلن النساء الجزائريات في كثير من التظاهرات الدولية.

الجزائرية حيثما وجدت شروط المشاركة في المعركة مع الأخذ بعين الاعتبار إمكانياتها المادية والأدبية، وعلى سبيل المثال، فإنها ريفية كانت أو مدنية، تستطيع الإسهام في رفع معنويات المقاتلين[1] وفي جمع المعلومات الخاصة بالعدو، والقيام بالاتصال بين المراكز كما أنها تستطيع القيام بالتمويل وتهريب المشبوهين وبمساعدة عائلات المجاهدين والمعتقلين، كل ذلك بالإضافة إلى مهامها كجندية عندما يقتضي الحال.

ولتمكين المرأة من تأدية هذه المهمة النبيلة في وسط اجتماعي كان إلى قبل اندلاع الثورة لا يولي اهتماماً كبيراً للأنثى، أمرت جبهة التحرير الوطني بأن تعامل النساء وفقاً للشريعة الإسلامية التي تكبرهن أمهات وزوجات وأخوات، وسنرى في الحديث عن الوضع الاجتماعي والاقتصادي كيف أن هذا الأمر قدأحدث تغييراً جذرياً في أوضاع الأسرة الجزائرية.

6 - ولم تكن حركة الشباب غائبة عن أذهان المؤتمرين خاصة وأن أغلبية مفجري الثورة لم يكونوا قد خرجوا بعد من طور الشباب[2] وأن الشباب، في الجزائر، كانوا يمثلون أكثر من نصف السكان الإجمالي، زيادة على كون معظم الجزائريين ينضجون في سن مبكرة وينتقلون مباشرة من الطفولة إلى الكهولة نتيجة الفاقة والاملاق والحاجة إلى مصارعة الظروف الصعبة التي يتفنن في خلقها المستعمر الجشع.[3]

وليس النضج المبكر هو الصفة الوحيدة التي تميز الشباب الجزائري، ولكنه يمتاز كذلك بالحيوية وبالشجاعة والإقدام والتفاني في إنجاح ما تسند له من مهام، وعندما ينظر إليه من خلال الحياة اليومية، يكتشف أنه يتحلى بخصال أخرى كثيرة مثل روح المبادرة والصبر على المكروه والإرادة القوية والرغبة في الانعتاق والتحرير من كابوس الظلم والاستبداد.

ولقد كانت قيادة جبهة التحرير الوطني تعرف جيداً أبناء شعبها. ولأنها تؤمن بأنهم يشكلون مشتلة أصيلة لتزويد جيش التحرير الوطني، فإنها خصصت لهم مكانة يستحقونها في ميثاق وادي الصومام.

---

(1) تجدر الإشارة، بهذا الصدد، إلى أن الفتاة الجزائرية صارت في كثير من الأحيان، ترفض الزواج إذا لم يكن من مجاهد.

(2) كانت أعمار ثلثي أعضاء القيادة السداسية لا تتجاوز اثنتين وثلاثين سنة. في حين كان مصطفى بن بولعيد أكبرهم سناً يبلغ من العمر سبع وثلاثون سنة، وكريم بلقاسم خمساً وثلاثين سنة.

(3) معظم الذين فجروا الثورة كانوا قد التحقوا بصفوف الحزب قبل بلوغهم سن الرشد.

أما شباب الأرياف وشباب المدن غير المتمدرسين وهم الأغلبية الساحقة، فإن المؤتمر أوصى باعدادهم للمعركة وذلك بتطوير حسهم الوطني وتنمية استعداداتهم للتضحية القصوى في سبيل استرجاع الاستقلال الوطني.

وأما تلاميذ الثانويات وطلبة الجامعة فإن نضالهم يجب أن يكون على الجبهة العسكرية ككتاب في مستوى هياكل الثورة أو على الجبهة السياسية في إطار الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي كان قد تأسس بباريس على إثر مؤتمر انعقد في الفترة مابين الثامن والرابع عشر من شهر تموز سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف.

وبتوجيه من جبهة التحرير الوطني، كان للاتحاد المذكور نشاط مكثف في داخل البلاد وفي خارجها وعلى سبيل المثال ذلك القرار التاريخي الذي تم اتخاذه يوم 20 / ك2 سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف والقاضي بتنظيم أسبوعين للتضامن مع إخوانهم المعتقلين على أن يكون اليوم الأول الذي هو يوم القرار ذاته، يوم الاضطراب عن الدروس والطعام[1].

وصادق المضربون على لائحة وجهوها لكافة السلطات الاستعمارية يطالبون فيها بإطلاق سراح الطلبة المسجونين، وإجراء تحقيق فعلي حول اغتيال زميلهم زدور[2] ومعاقبة المجرمين المسؤولين عن ذلك، كما أنهم طالبوا بوقف عمليات القمع الأعمى، والاعتراف بوجود الأمة الجزائرية وحق الشعب في تقرير مصيره والتفاوض مع ممثله الشرعي والوحيد: جبهة التحرير الوطني.

ومع تطور الكفاح المسلح ازداد الطلبة وعياً وتبلور التزامهم بمبادئ جبهة التحرير الوطني. يستخلص ذلك من خلال اللائحة السياسية التي اختتمت بها أشغال مؤتمرهم الثاني الذي انعقد بباريس في الفترة ما بين الرابع والعشرين والثلاثين مارس سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف[3].

---

[1] يقول السيد كي بارفيلي: إن القرار تم تطبيقه بالإجماع في جامعة الجزائر، بل إن جزءاً من الطلبة الأوروبيين إلى أن كفاح الشعب الجزائري عادل وشرعي وبالتالي فهو لن ينتهي إلا باسترجاع السيادة.

[2] تم اعتقال زدور في مدينة وهران يوم 1955/12/6.

[3] جاء في اللائحة ما يلي:

- نظراً إلى أن الاستعمار هو مصدر الفاقة والأمية والاعتداء على كرامة الشعوب.

- نظراً إلى أن كفاح الشعب الجزائري عادل وشرعي وبالتالي فهو لا ينتهي سوى باسترجاع السيادة.

وعندما وجهت جبهة التحرير الوطني نداءها إلى الطلبة الزيتونيين خاصة للإضراب عن الدراسة والالتحاق فوراً بصفوف جيش التحرير الوطني في مختلف أنحاء الوطن وفي الحدود، اغتنم أعضاء الاتحاد المتواجدين بالعاصمة تلك الفرصة فقرروا الإضراب عن الدروس والامتحانات إلى أجل غير مسمى ووجهوا نداء إلى الطلبة يدعوهم إلى الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني وجبهة التحرير الوطني.

ومن خلال دعوتها إلى الإضراب العام، فإن جبهة التحرير الوطني لم تكن تقصد مجرد الوصول إلى إخلاء الثانويات ومدرجات الجامعات، كما أنها لم تكن ترمي إلى جعل كل تلك الأعداد الغفيرة من التلاميذ والطلبة يلتحقون بصفوف جبهة التحرير الوطني. لقد كان كل ذلك ثانوياً بالنسبة للهدف الأسمى الذي يتمثل من جهة في الإعلان للعالم أجمع بأن أغلبية الشعب الجزائري تدرك الواقع الاستعماري وهي مع الكفاح المسلح من أجل استرجاع السيادة الوطنية، وفي تحسيس آلاف الشباب والمراهقين ومن خلالهم الأولياء بكون أبواب الحرية التي سدها الاستعمار لا يفتح إلا بالإقدام على التضحية في جميع الميادين.

ولقد ألح المؤتمر على مواصلة الاهتمام بمصير الشباب عامة والمعتقلين على وجه الخصوص حيث دعى إلى توفير كل الشروط التي تمكن من توظيف الطاقات الحية بكيفية عقلانية وإلى بذل قصارى الجهد في سبيل التخطيط لعمليتي التجنيد والتعبئة، لأجل ذلك، فإن المؤتمرين قرروا، بالنسبة للطلبة والطالبات، أن تحصر المهام التي تسند إليهم خاصة في المجالات السياسية والإدارية والثقافية والصحية والاقتصادية إلى غير ذلك من الميادين التي يكونون فيها أكثر مردودية، وتكون مجهوداتهم أكثر فعالية، وعندما يكونون خارج التراب الوطني أو يتم تمريرهم، في حالة الاكتفاء، بواسطة جيش التحرير الوطني إلى تونس والمغرب فإنهم يتوجهون إلى مختلف الجامعات

- نظراً إلى أن سياسة العنف، وحرب الإبادة والقمع قد تضاعفان عدد الضحايا دون القضاء على حركة التحرير، وتجعلان.

فإن المؤتمر يطالب بالآتي:

1- الإعلان عن استقلال الجزائر.

2- إطلاق أنفسهم قد استجاب للنداء وعبر، عنه تلقائياً، عن إدانته للإجراءات التعسفية المسلطة على الطلبة المسلمين.

- نظراً إلى أن الاستعمار هو مصدر الفاقة والأمية والاعتداء على كرامة الشعوب.

- اطلاق سراح الوطنيين المعتقلين.

3- التفاوض مع جبهة التحرير الوطني.

الكائنة في البلدان الشقيقة والصديقة ينهلون من ينابيع المعرفة بشتى أنواعها، ويستعدون للدور الذي ينتظر منهم القيام به بعد استرجاع السيادة الوطنية[1].

7- وعلاوة على تنظيم الفئات الاجتماعية الأصيلة، رأى مؤتمر وادي الصومام أن من فائدة الثورة أيضاً الاهتمام بالأقليات الأوربية سواء منها التي جاءت غازية في ركاب الاستعمار أو التي جاءت إلى الجزائر تطلب العيش بوسائل مختلفة[2]. لقد كانت تلك الأقليات تمثل، من حيث العدد، أكثر من عشر السكان وتسيطر، فعلياً، على ثلثي الاقتصاد، ولها في باريس نفوذ على أكثر من واحدة من الجهات التي بيدها سلطة القرار. لأجل ذلك، فإن إهمالها قد يحولها إلى قوة مناهضة وتجعلها تقبل على توظيف إمكانياتها لدعم المجهود الحربي الاستعماري.

ولم يكن المؤتمرون يجهلون أن الأوربيين، في الجزائر، ليسوا صنفاً واحداً، بل الجميع كان يدرك أن من بينهم الغلاة الذين لا ينتظر منهم شيء بإيمانهم الراسخ بأنهم من جنس أعلى وبأن نسبة كبيرة من أبناء جلدتهم إنما ولدوا ليكونوا وسيلة لهم تمكنهم من تسخير الجزائريين واستغلال ثرواتهم على اختلاف أنواعها. لكن الجزء الأكبر من المسيحيين واليهود قبل التعاون مع الثورة إما لطمع في حماية المصالح الخاصة واكتساب امتيازات أخرى نتيجة المستوى الثقافي العالي نسبياً والتكوين العلمي والمهنيٰ خاصة، وإما لقناعة فكرية نتيجة الانتماء إلى تشكيلات سياسية تقدمية متعددة. فعلى هذا الجزء قرر المؤتمر تركيز الجهد، وأوصى جبهة التحرير الوطني بإعطاء اهتمام خاص للجانب النفساني الذي يتعرض للضغط الاستعماري المكثف[3].

إن الثورة الجزائرية لا تهدف إلى رمي الأوربيين في البحر كما أنها تدين الشعار الذي حمله أمثال "كريفو" لترهيب الأقليات وتنفيرهم من جبهة التحرير الوطني والذي يقول: "الحقيبة أو التابوت"[4] لكنها تريد فقط استرجاع الاستقلال الوطني الذي اغتصب سنة ثلاثين وثمان مائة وألف، وإقامة جمهورية

---

[1] المنظمة الوطنية للمجاهدين، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ الثورة، ص. 175.

[2] هناك عدد كبير من الجالية اليهودية خاصة جاؤوا إلى الجزائر من جنود أوليفرنة قبل الغزو الاستعماري بكثير واستقروا في مناطق من البلاد يتعاطون التجارة والصناعة، ومن هؤلاء بكرى وبوجناح لا يمكن فصل اسميها عن تاريخ احتلال الجزائر.

[3] المجاهد، العدد الخاص رقم 4 ص67 وما بعدها.

[4] نفس المصدر، ص70.

ديمقراطية واجتماعية تضمن المساواة الحقيقية بين جميع المواطنين[1] ولأجل ذلك اختارت الكفاح المسلح وهي مصممة على مواصلته إلى أن يتجسد كل ما تصبو إليه، وتدعو كافة السكان، أياً كان أصلهم، للانضمام إلى صفوفها حتى تتظافر الجهود من أجل القضاء النهائي على النظام الاستعماري في الجزائر.

إن النظر إلى الأقلية الأوربية بهذا المنظار هو الذي جعل المؤتمر يوصي جبهة التحرير الوطني بتشجيع كل المساعي التي من شأنها أن توصل إلى تكوين لجان وحركات جماهيرية تضم ما أمكن من الأوربيين الذين يرفعون شعار الدعوة إلى:

- *إيقاف الحرب التي يشنها الاستعمار ضد الشعب الجزائري.*
- *فتح المفاوضات المباشرة من أجل إعادة السلم وتمكين الجزائر من استرجاع استقلالها الوطني.*
- *مساعدة ضحايا القمع والإرهاب.*
- *الدفاع عن الحريات الديمقراطية وتجريد الميليشيات الأوربية من السلاح.*
- *توعية نساء الأجناد الفرنسيين وتنظيمهن للمطالبة بتسريح رجالهن من صفوف الجيش المقاتل في الجزائر.*

ومن خلال كل تلك اللجان والحركات ستتمكن جبهة التحرير الوطني من الوصول إلى الأوساط التقدمية في فرنسا ذاتها وانطلاقاً من تلك الأوساط يكون النفاذ إلى عامة الشعب قصد توعيته بالأخطاء التي قد تجرها إليه استمرارية الحرب، وتحسيسه بأعمال القمع والإرهاب التي تمارس باسمه من طرف الجيش الفرنسي في أرياف الجزائر وفي مدنها وقراها.

وعندما يدرك الشعب الفرنسي كل ذلك، فإنه يسخط ويتحول إلى قوة ضاغطة يكون التعبير عنها بواسطة التظاهرة ضد إرسال الأجناد بدفعات متتالية يدعمون قوات الدمار في الجزائر ويموتون في سبيل قضية ظالمة، وستنظم المظاهرات أيضاً لحمل الحكومة الفرنسية على التفاوض مع جبهة التحرير الوطني وللمطالبة بإلغاء عمليات التعذيب التي يتعرض لها المعتقلون السياسيون والأبرياء الذين غصت بهم المحتشدات والمعتقلات والتجمعات التي صارت تقام هنا وهناك بلا عد ولا حصر في مختلف أنحاء البلاد.

وإذا كان دور جبهة التحرير الوطني لا يتعدى هذه الأهداف المتواضعة

---

[1] *نفس المصدر.*

بالنسبة لما يمكن انتظاره من الشعب الفرنسي الذي يمول الحرب مادياً وبشرياً عن وعي أو عن غير وعي، فإن هذا الدور يتغير تماماً عندما يكون الأمر متعلقاً بالمغتربين الجزائريين الذين يعيشون في أوربا. فهناك تنظيم محكم لا يختلف عما هو معروف ومطبق في سائر مناطق الجزائر وفي كل من الحدود الغربية والشرقية[1].

لقد أنشئت اتحادية جبهة التحرير الوطني بفرنسا في نفس الوقت الذي تأسست فيه باقي مناطق الجزائر، وحددت لها مهام أساسية، في بداية الأمر، لإرساء قواعد نضالية تكون قادرة على استئصال جذور الحركة الوطنية الجزائرية التي يتزعمها السيد الحاج مصالي من جهة وعلى جمع الأموال الضرورية لتسير الثورة وتجهيزها من جهة ثانية[2]. واستطاعت، رغم كل الصعوبات والعراقيل، أن تقطع في الاتجاه المذكور، أشواطاً بعيدة. لكن مؤتمر وادي الصومام أضاف إلى تلك المهام ما يلي[3].

1- العمل على توسيع الحركة الفرنسية المتحررة وتشجيعها على تنوير مختلف الطبقات الشعبية التي يجب أن تطلع على الفظائع والجرائم التي ترتكب ضد الشعب الجزائري الأعزل من ناحية، وعلى مساعدة جبهة التحرير الوطني خاصة في مجالات الإعلام والدعاية .وتنقل المسؤولين والإطارات ونقل الوثائق من جهة ثانية.

2- تنظيم المغتربين الجزائريين في أوربا بأكملها مع التركيز على فرنسا وذلك لتحقيق غرضين رئيسيين هما:

أ- تجنيد الطاقات وتوعيتها قصد إعدادها لتزويد جيش التحرير الوطني عن طريق تونس والمغرب الأقصى اللذين أنشئت على حدودهما مع الجزائر مراكز خاصة للتدريب العسكري. ونظراً إلى ارتفاع عدد المغتربين وصغر سنهم وانتشار الوعي السياسي في أوساطهم نتيجة الجهد الذي كانت بذلته حركة الانتصار للحريات الديمقراطية من ناحية وبفضل نشاط الحركات النقابية المختلفة من ناحية أخرى، فإن اتحادية جبهة التحرير الوطني في فرنسا سرعان ما تحولت إلى خزان بشري لا ينضب.

---

[1] المنظمة الوطنية للمجاهدين، إشغال المؤتمر الأول لكتابة التاريخ، ص

[2] boudiaf (Mohamed) La picparation du LER NOVEMBRE, EL Djarida 1968, P. 06

[3] المجاهد، العدد الخاص، ص. 68.

ب- مواصلة عملية استئصال التنظيم المصالي، وتكثيف الاتصال مع الوسط العمالي قصد التخطيط لإلحاق ما يمكن من أضرار بالاقتصاد الاستعماري، وفي نفس الوقت الذي يتم فيه تنظيم العمال الجزائريين بصفة شبه عسكرية محكمة، توجه العناية إلى المنظمات والتشكيلات السياسية قصد استمالتها بالتدريج وجعلها تنفصل شيئاً فشيئاً عن النظام الاستعماري لتصبح في النهاية قوة داعمة للثورة الجزائرية.

ج- في المجال العسكري:

إن التنظيم الذي بدأت به الثورة ليلة الفاتح من نوفمبر سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف يدل دلالة قاطعة على أن جيش التحرير الوطني امتداد طبيعي للمنظمة الخاصة التي كانت قد تأسست عام سبعة وأربعين وألف في إطار حزب الشعب الجزائري والتي سبقت الإشارة إليها في الفصل الثالث من الباب الأول.

وإذا قررت القيادة الأولى للثورة تقسيم الجزائر إلى مناطق.[1] فإنها فعلت ذلك تقليداً للمنظمة الخاصة التي كانت قد قسمت البلاد إلى تسع مناطق. وعلى غرار المنظمة الخاصة أيضاً، بدأ جيش التحرير الوطني ينظم نفسه على أساس الفوج ونصف الفوج. وكان المجاهدون الأوائل كلهم من أعضاء المنظمة الخاصة، لأجل ذلك اتسمت الانطلاقة بالسرية المطلقة وتميزت العمليات الأولى بكثير من الدقة والتنظيم المحكم حتى أن السلطات الاستعمارية التي اندهشت لذلك، أشاعت بأن ثمة تقنيين أجانب يسيرون المعركة ويوجهون الثورة في داخل البلاد وفي خارجها.

ولاحظ المؤتمرون أن جيش التحرير الوطني قد برهن على قدرة فائقة في تنظيم عمليات عسكرية ناجحة مكنته من اكتساب الثقة في النفس ومن افتكاك أسلحة حربية جديدة وعديدة استعملت لدعم القدرة الحربية ولتجنيد أعداد وافرة من المجاهدين الذين بدأوا يتوافدون من مختلف الفئات الاجتماعية واجدين في قدماء المنظمة الخاصة إطارات مكونة ومدبرة على القتال.

ولقد كانت الانتصارات التي أحرز عليها جيش التحرير الوطني[2] حافزاً قوياً بالنسبة لمجموعة من الجزائريين الذين كانوا يمارسون في صفوف الجيش الفرنسي سواء كجنود بسطاء أو كضباط وضباط صف، فهربوا محملين بالأسلحة والذخيرة، من ثكنتاهم والتحقوا بإخوانهم المجاهدين.

---

[1] *YOUSFI (Mohamed) I, Algerie en marche Tome ENAL 1985, P. et Suivantes.*

[2] *من معارك جيش التحرير الوطني ص8، وما بعدها.*

ورأى بعض المؤتمرين أن ثبات جيش التحرير الوطني أمام قوات الجيش الاستعماري مدعاة إلى تطوير كيفية القتال وذلك بالتخلي عن حرب العصابات والتركيز على تنظيم المجاهدين في وحدات نظامية لا تختلف عما هو متعارف عليه في سائر الجيوش العالمية. ففي إطار إعادة التنظيم، قرر المؤتمر الإبقاء على تقسيم الجزائر إلى ستة أقسام يسمى كل واحد منها ولاية بدلاً من منطقة، معنى ذلك أن جبهة التحرير الوطني رجعت من جديد إلى الهيكلة التي كانت المفعول في عهد حركة الانتصار للحريات الديمقراطية. وإذا كان المؤتمرون قد وافقوا بالإجماع على هذا التغيير الشكلي، فإن عدداً منهم وخاصة ممثلي المنطقة الثانية[1] قد أبدوا تحفظاً شديداً بالنسبة للتخلي عن حرب العصابات واستبدال المجموعات الصغيرة بالوحدات النظامية. لكن مبدأ المركزية الديمقراطية حسم الموقف في هذه المرة كذلك وسجل في محضر جلسات المؤتمر أن الولاية تقسم إلى مناطق والمنطقة إلى نواحي والناحية إلى أقسام[2].

وإضافة إلى الولايات، استحدث المؤتمر منطقة جديدة تشمل الجزائر العاصمة وضواحيها اسماها المنطقة المستقلة واتخذ منها مقراً لقيادة جبهة التحرير الوطني المتمثلة في لجنة التنسيق والتنفيذ.

أما القيادة فجماعية بالنسبة لجميع المستويات وتتكون فيما يخص أركان جيش التحرير الوطني من قائد عام يساعده ثلاثة نواب يشرفون على القطاعات السياسية والعسكرية والاتصال والاستعلامات.

وقد حدد المؤتمر كذلك أنواع الرتب العسكرية وضبط الوحدات المكونة للجيش. ففي مستوى الولاية يتولى القيادة العامة ضابط برتبة صاغ ثاني يتميز بثلاث نجوم حمراء وينوبه ثلاثة رجال برتبة صاغ أول يتميز الواحد منهم بنجمتين حمراوين وثالثة بيضاء. ويسمى قائد الناحية ملازماً ثانياً تميزه نجمة حمراء وينوبه ضابط برتبة ملازم أول يتميز الواحد منهم بنجمة بيضاء. أما القسم فيقوده مساعد يميزه رقم ثمانية الهندي(٨) عليه خط أبيض، وكل من نوابه يسمى عريفاً أول ويميزه رقم سبعة الهندي(٧) بلون أحمر ومكرر ثلاث

---

(1) يقـول السـيد عمـار بن عودة في ندوة قسنطينية المنعقدة يومي 30- 31 ك2 سنة 1985 "إن قادة المنطقة الثانية المشاركين في المؤتمر قد رفضوا تبني الحرب الكلاسيكية وأكدوا أنهم لن يتخلوا عن حرب العصابات إلا إذا توفرت شروط ممارسة حرب المواجهة".

(2) المجاهد، العدد الخاص، ص 72

- تشكلت أول لجنة للتنسيق والتنفيذ من السادة: محمد العربي بن المهيدي بلقاسم كريم، يوسف زيغوت، رمضان عبان وبن يوسف بن خدة.

مرات. وهناك رتبتان لا تسند لصاحبهما مسؤولية على رقعة جغرافية محددة وهما:

الجندي الأول وعلامته رقم ثمانية الهندي(٨) بلون أحمر والجندي الثاني وعلامته رقم ثمانية الهندي(٨) بلون أحمر ومكرر مرتين.

أما الوحدات فتعرف كالآتي:

نصف الفوج يتكون من أربعة جلود يقودهم جندي أول. الفوج ويتكون من عشرة رجال يقودهم جندي ثان. الفرقة وتتكون من ثلاثة أفواج يقودهم قائد الفرقة ونائبه. الكتيبة وتتكون من ثلاث فرق ويقودها خمسة إطارات. الفيلق ويتكون من ثلاث كتائب ويقودها عشرون إطاراً.

إن التنظيم العسكري وحده لا يكفي، كما التنظيم مهما كانت قيمته، يظل ضرباً من الخيال ما لم يدعم هذا وذلك بالتسليح الذي يحتاج إليها المقاتلون. ولقد بدأت الثورة الجزائرية بقطع قليلة نسبياً من الأسلحة الحربية وبنادق الصيد التي كانت المنظمة الخاصة قد استوردتها من ليبيا وتونس بعد تأسيسها مباشرة، وخزنتها بوادي سوف في مرحلة أولى ثم إلى جبال الأوراس في مرحلة ثانية[1].

وكانت التعليمات التي أعطيت للمجاهدين الأوائل تتمثل خاصة في حثهم على استعمال كل الوسائل لجلب الأسلحة من العدو أولاً وعن طريق السوق أو المساهمة الشعبية ثانية. وحظيت التعليمات المذكورة بتطبيق واسع في مختلف أنحاء البلاد[2]. لكن ذلك لم يكن كافياً بسبب تزايد التجنيد الذي فاق كل توقع من جهة ونتيجة قرار الحكومة الفرنسية الخاص بمضاعفة عدد أسلحتهم المتطورة بما هو أحسن وأثقل من جهة ثانية.

ولقد كان من الممكن التقليص من الفارق في العتاد لو أن السيد بوضياف

---

[1] يذكر السيد عجول أن المنظمة الخاصة اشترت ثلاث مائة قطعة حربية من بقايا الحرب الإمبريالية الثانية، وتم نقلها عبر الصحراء الليبية. وفي وادي سوف وضعت داخل براميل من الزيت يحفظها ويقيها. بعد إلى الأوراس وقع خزنها. وعشية اندلاع الثورة خصم من هذه الكمية ثلاثون قطعة للمنطقة الثانية وعشرون للمنظمة الأولى، وعدد مماثل تقريباً للمنطقتين الرابعة والخامسة، وظل الباقي في حوزة المنطقة الثانية وهو ما يفسر كثرة الأسلحة الغربية نسبياً في الأوراس (حديث أجريته مع محافظة جبهة التحرير الوطني بباتنة يوم 1985/3/24.

[2] بلغ عدد الأسلحة عشية انعقاد مؤتمر وادي الصومام حوالي ثلاث آلاف قطعة سلاح حربي وما يزيد عن عشرة آلاف بندقية صيد. ورغم الزيادة الكبيرة بالنسبة لما كان عليه الوضع ليلة الفاتح نوفمبر إلا أن الكمية كانت قليلة جداً بالمقارنة مع الاحتياج الحقيقي.

ومندوبية الخارج استطاعا تأدية الدور المحدد لكل منهما على أحسن وجه. فالأول وجد صعوبة كبيرة في دخول السوق الأوربية للأسلحة بالإضافة إلى المشاكل الجمة التي اعترضت سبيله عندما بدأ يرسي قواعد جبهة التحرير الوطني في فرنسا، والثانية لم تتمكن من إقناع مصر وباقي البلاد العربية بضرورة الالتزام المطلق مع الثورة الجزائرية بحيث توفر لها كل ما تحتاج إليه من إمكانيات مادية، لأجل ذلك، وعندما طال انتظار الإمدادات، قام العربي بن المهيدي بمحاولات: الأولى في اتجاه تونس وليبيا والثانية في اتجاه المغرب بواسطة الباخرة "آتوس" التي تم شحنها في ميناء الإسكندرية.

فانطلاقاً من كل هذه المحاولات وما أسفرت عنه من نتائج، قرر المؤتمر تعيين السيدين مصطفى بن عودة وعمار واعمران يتوجهان إلى الحدود الشرقية للبحث عن مصادر جدية للتسليح. وكانت تونس والمغرب الأقصى في ذلك الوقت قد اتفقا مع الحكومة الفرنسية على وقف إطلاق النار، لكن جيش التحرير الوطني[1] في كل من البلدين الشقيقين اشترط لقبول الاتفاق عدم التخلي عن جبهة التحرير الوطني. وقد وجد مبعوثا مؤتمر وادي الصومام سنداً قوياً في قائد الجيشين عبد الكريم الفاسي وعز الدين عزوز اللذين كانا، مثل جبهة التحرير الوطني، يؤمنان بأن استمرارية المعركة المسلحة وتوحيدها وتعميمها على كافة أنحاء بلاد المغرب العربي الموحد.

ونظراً إلى العلاقات المتميزة مع جيش التحرير الوطني في تونس والمغرب الأقصى، ورغم تردد الحكومتين الجديدتين في البلدين الشقيقين بالنسبة لما ينبغي أن يكون عليه موقفهما من جبهة التحرير الوطني بعد قبولهما وقف إطلاق النار، فإن المؤتمر أوصى بإنشاء مراكز حدودية للتدريب العسكري وأخرى لاستقبال اللاجئين وتنظيمهم[2].

ج- في مجال الثقافة والاقتصاد:

لم يخصص ميثاق وادي الصومام فصلاً مستقلاً لمعالجة الواقع الاقتصادي والثقافي في الجزائر أو لضبط آفاق المستقبل بالنسبة للمجالين المذكورين. لكننا عندما نقرأ مختلف فقرات الوثيقة التي صادق عليها المؤتمرون وكلفوا هيئات الثورة بالعمل على متابعة تطبيقها، فإننا نستطيع جمع ما يلزم من معلومات للتعرف على حقيقة الوضع الذي آل إليه الجزائريون بفعل الاستعمار

---

(1) حربي (محمد) جبهة التحرير الوطني، ص. 210

(2) المنظمة الوطنية للمجاهدين، المؤتمر الأول لكتابة التاريخ، ص306

الاستيطاني ولتصور النهج الذي لابد من اتباعه للقضاء على آثار السيطرة الأجنبية ولبناء المجتمع الذي يكون في مستوى ثورة نوفمبر.

صحيح أن التركيز، في وثيقة وادي الصومام، كان على المجالين السياسي والعسكري لأن الهدف الرئيسي المستعجل كان هو استرجاع السيادة المغتصبة، لأن البناء الاقتصادي والثقافي مرهون بالتخلص من الوجود المادي للاستعمار الذي لا يزيله سوى العنف في الداخل والعمل الديبلوماسي المكثف في الخارج، لكن، رغم ذلك، فإن المتفحص للوثيقة، يجد أن المؤتمرين يؤكدون على أن السياسة الزراعية في الجزائر ظلت، منذ بداية الاحتلال قائمة على اغتصاب الأراضي الخصبة من أصحابها الخواص أو من المؤسسات الدينية والإدارية وتمليكها للكولون ولشركات الاستغلال الأوربية بصفة عامة لأجل ذلك فإن الهدف الأول، بعد التخلص من السيطرة الأجنبية يكون متمثلاً في إيجاد طريقة مثلى لإعادة المياه إلى مجاريها وجعل المغتصبة حقوقهم يسترجعون بعض ما أخذ منهم بالقوة.

ولأن السلطات الاستعمارية مدركة لهذا المصير الحتمي الذي يأتي نتيجة عملية استرجاع السيادة الوطنية، على انتهاج سياسة الترغيب والمرونة تجاه سكان الريف الذين لم يكن يخفى عليهم أنهم سيشكلون القاعدة الأساسية لانتشار الكفاح المسلح ونجاحه. وفي إطار تلك السياسة أعلنت الحكومة الفرنسية عن عزمها على إجراء إصلاح زراعي قد يصل إلى حد توزيع جزء من الأراضي المسقية على المعدمين من الجزائريين. وذهب السيد لاكوست إلى أبعد من ذلك عندما صرح أنه يفكر في الإقدام على انتزاع مساحات هامة من المزارع الكبرى وتقسيمها على الفلاحين الجزائريين[1].

ومن المعلوم أن كل تلك التصريحات لم تتعد حدود الكلام الذي سرعان ما اختفى عندما ارتفعت أصوات غلاة الكولون الداعية إلى استبدال ما أسمته لينا بالقمع وبتطبيق سياسة الأرض المحروقة.

فأمام إعراض أولئك الكولون، تراجعت السلطات الاستعمارية التي وجدت، في الواقع، لخدمتهم. وللحفاظ على ماء الوجه أصدرت قراراً يقضي بإصلاح نظام الخماسة[2] الذي كان الفلاحون قد أصلحوه مجبرين نتيجة انتشار الكفاح المسلح.

---

[1] *Echo d ' Alger, du 14.02.1975*

[2] *Soustelle (J) aimée et souffrante Algérie , p . 1952.*

فالخماسة التي زعم لاكوست أنه يدخل عليها إصلاحات من شأنها أن تحسن أوضاع أبناء الريف الجزائري لا علاقة لها بالنهج الاستغلالي المتبع من طرف الأوربيين الذين كانوا يعاملون العمال معاملة البهائم، وحينما أحس المزارعون الجزائريون أنهم لا يستطيعون التصدي لتجاوزات الغزاة وعملائهم، صاروا يبحثون عن الفلاح الذي يقبل استثمار الأرض بالمناصفة ولم يكن لسلطات الاحتلال أي دخل في الموضوع لأن الأمر كان يتعلق بإيجاد من يعرض نفسه للخطر مقابل ناتج غير مضمون[1] وعلى هذا الأساس، فإن تطور الخماسة وتحولها إلى مناصفة إنما جاء نتيجة حتمية لانعدام الاستقرار والأمن في الأرياف ولقيام الجيش الفرنسي بتعميم سياسة الأرض المحروقة مما جعل مالك الأرض يوكل فلحها لمن تكون لهم الشجاعة الكافية لمواجهة التحدي بكل أنواعه.

أما الأوربيون الكولون، فإنهم كانوا يستنجدون بالأجناد، يدفعون لهم ما يستحقون، لمواصلة خدمة أراضيهم بواسطة اليد العاملة الجزائرية. ولم يتغير في طريقة الاستغلال سوى سلوك الأفراد الذين صاروا يحجمون عن إهانة العمال ليس تأدباً ولكن خوفاً من انتقام المجاهدين.

من هذا المنطلق، نستطيع القول إن تحليل المؤتمرين لسياسة الاستعمار الزراعية كان مصيباً حيث ركز على أن "سلطات الاحتلال لم تلجأ إلى مخادعة الفلاحين الجزائريين إلا لتصرفهم عن الثورة[2] لكن هذه المخادعة رغم ما أحيطت به من عناية، لا يمكن إلا أن تفشل مثل ما فشلت سابقتها التي استعملت لتطبيق مقولة "فرق تسد" ومخططات التجزئة التي تبقي المجتمع الجزائري في حالة الضعف الذي يمنعه من النهوض لاسترجاع الكرامة.

إن الجزائر بلد زراعي ما في ذلك شك، وإذا كان ريفها قد تعرض للاستغلال بجميع أنواعه لنهب ما فيه من خيرات طيلة أكثر من قرن من الاحتلال[3] فإنه بمجرد الإعلان عن الثورة، لم يتردد في احتضانها بصدق وإخلاص. وقد كان أبناؤه وهم يعلنون عن التزامهم بجبهة التحرير الوطني، يدركون أن الاستعمار الاستيطاني أخذ منهم كل شيء بما في ذلك الأرض التي هي أعز ما يملكون. ونظراً لتمسك المحتل بما أحرز عليه من مغنم، وإصراره

---

[1] المنظمة الوطنية للمجاهدين، أشغال المؤتمر الأول لكتابة التاريخ. ص 410.

[2] المجاهد، العدد الخاص، ص 71.

[3] أنظر: الفصل الأول من الباب الأول.

على عدم التنازل عن أي جزء من الممتلكات التي اغتصبها، فإن مؤتمر وادي الصومام قد ثبت في وثائقه أن الإصلاح الزراعي الحقيقي هو الحل الوطني لمشكلة البؤس الذي تتخبط فيه البوادي[1].

لقد كانت الزراعة هي المجال الاقتصادي الوحيد الذي حظي بمعالجة تكاد تكون مفصلة نظراً لما له من أهمية وللمكانة التي يحتلها أبناء الريف في صفوف الثورة، لكن ذلك لا يعني أن المجالات الأخرى قد أهملت أو أبعدت عن اهتمامات المؤتمر.

فالدارس لوثيقة وادي الصومام يرى بكل بساطة أن الأهداف الأساسية التي أعلنت عنها جبهة التحرير الوطني في ندائها الأول لم تتغير، بل على العكس، فإن المؤتمرين قد أضافوا عليها، نتيجة الخبرة المكتسبة طيلة حوالي عامين من الكفاح المسلح، كثيراً من التفاصيل والتوضيحات التي تقربها إلى فهم الجماهير الشعبية الواسعة[2].

ومن المعلوم، لدى كل الباحثين المهتمين بتاريخ ثورة نوفمبر، أن الأهداف الرئيسية التي ضبطتها جبهة التحرير الوطني وأعلنت عنها في أول بيان لها تتمحور كلها حول نقطة واحدة هي هدم النظام الاستعماري حيثما وجد وبكل الوسائل التي يمكن الحصول عليها. معنى ذلك أن الشرارة الأولى التي انطلقت يجب أن تنتشر بكل سرعة لتشمل كافة أنحاء الوطن وأن يظل اللهب مستعراً إلى أن يتم تحرير الأرض وتحرير الإنسان.

ففي إطار التحرير المذكور يمكن أن ندرج برنامج الثورة في المجالين الثقافي والاقتصادي.

فالاستعمار الفرنسي الذي أصاب بلادنا في نهاية الثلث الأول من القرن الماضي كان من أبشع أنواع الاستعمار وأكثرها شراسة لأنه كان استيطانياً، ولأنه كان من منطلق ديني واقتصادي وحضاري في آن واحد.

ولقد كان الذي وقع ليلة الفاتح من نوفمبر سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف بداية ثورة شهد التاريخ أنها من أعظم ما عرف العالم المعاصر، ولأنها كانت ثورة، فإنها استهدفت تحرير الأرض وتحرير الإنسان في ذات الوقت وهما مهمتان تتطلبان أكثر من وقف إطلاق النار.

---

(1) *المجاهد- العدد الخاص، ص 68.*

(2) *لقد كانت تلك الأهداف، في الحقيقة، هي نفس الأهداف التي تضمنها البرنامج السياسي الذي صادق عليه نجم شمال إفريقيا سنة. 1933 انظر الملحق رقم 3.*

إن تحرير الأرض، في منظور ثورة نوفمبر، لا يتوقف عند تخليصها من السيطرة بل يتعدى ذلك إلى إعادة تأهيل مساحاتها الشاسعة وإعادة النظر في طرق التعامل معها بحيث تستعيد وظيفتها التي كانت تقوم بها قبل أن يفرض عليها الاحتلال.

من هذا المنطلق، فإن تحرير الأرض يشمل، في ذات الوقت، استرجاع السيادة الوطنية على كافة المساحات المغتصبة والمستغلة سواء في طرف المستعمرين الفرادى والشركات الإمبريالية أو من طرف العملاء من المواطنين، وتخليصها من أنواع الزراعة التي أدخلت إلى بلادنا لتلبية بعض حاجات الفلاحة في فرنسا[1]، ومن جهة أخرى، يتطلب تحرير الأرض إعادة صقل ذهنية الفلاح الجزائري والتركيز على استصلاح المساحات الشاسعة في الهضاب العليا وفي الصحراء[2]، لأن الجزائر ليست هي الشريط الساحلي فقط ولأنها تتلقى، سنوياً كميات هائلة من مياه الأمطار التي يضيع أكثر من خمسة أسداسها في البحر[3]، كما أن باطن أراضيها يحتوي على مليارات الأمتار المكعبة القابلة للتجديد.

وبهذا المفهوم، فإن عملية تحرير الأرض كان يتوقف تحقيقها على ظهور ونجاح حركتين أساسيتين أولهما عسكرية واعية تستعمل العنف المتنور وتضم في صفوفها طلائع مؤمنة برسالتها وقادرة ليس على الاستشهاد فحسب، بل كذلك، وفي المقام الأول، على ربح ثقة الجماهير التي هي ضرورية لربح المعركة ضد المستعمر الذي يملك العدة والعتاد، وثانيتها ثقافية وطنية تستعمل التخطيط العقلاني ولا تتردد في اللجوء إلى العنف الثوري للقضاء على دابر التبعية بكافة أنواعها. هاتان الحركتان متلازمتان ومترابطتان أشد الارتباط بحيث يظل انتصار الواحدة لا شيء ما لم تتمكن الأخرى من تجسيد جل أهدافها على الأقل.

لقد أدرك المؤتمرون أن تحرير الإنسان يكتسي نفس أهمية تحرير الأرض، لأن المواطن الحر لا يعيش على أرض مستعمرة، ولا يكون الإنسان حراً إلا إذا استطاع تخليص أرضه من كل أنواع العبودية لأجل ذلك فإنهم دعوا

---

[1] مثال ذلك زراعة الكروم المنتجة لعنب الخمور التي حلت محل حقول الأرز خاصة، وزراعة التبغ التي احتلت مساحات كبيرة من الأراضي التي كانت تنتج القمح.

[2] إن الاستعمار الفرنسي، طيلة المدة التي بقيها في الجزائر، لم يهتم باستصلاح أراضي الجنوب التي تعتبر من أخصب الأراضي وأشخاصها في العالم.

[3] المجاهد العدد الخاص، ص73.

إلى ضرورة هدم النظام الاستعماري حتى يتسنى لجبهة التحرير الوطني أن ترسي قواعد الحركتين الثقافية والاقتصادية وبعثها إلى الوجود في وقت واحد[1].

خلاصة الفصل:

إن الدراسات التاريخية الموجهة للإحاطة بسير أحداث مؤتمر وادي الصومام ونتائجه ستتكاثر في المستقبل ما في ذلك شك. وبكثرتها ستزداد اختلافات المؤرخين حولها بسبب تباين وجهات نظر البقية من المخططين للمؤتمر والمشاركين الفعليين فيه ولأن الأرشيف لم يحفظ لنا كثيراً من التفاصيل التي لابد منها لقتل الموضوع بحثاً.

ففي الآونة الأخيرة[2]، مثلاً، تعددت الأصوات وأثيرت الأقلام في مناسبات مختلفة تهدف كلها إلى إيهام الناس بأن أصحابها يملكون الحقيقة دون سواهم. لكننا، عندما نخضع كل ما يصلنا إلى مجهر البحث العلمي، نجد أن الواقع غير ذلك مطلقاً.

فالذي رافق المؤتمرين أو آواهم أو تولى حراستهم في أي مستوى كان، لا يمكن اعتماده اليوم كمصدر أساسي قادر على تنفيذ المعلومات المكتوبة التي نشرت أثناء فترة الكفاح المسلح. إنه قد يأتي، في حديثه أو مقاله، بعض الأفكار المكملة التي قد يكون استقاها في وقتها من مصدرها الحقيقي، لكن ذلك لا يعطيه حق الخوض في موضوعات أخرى عاشها بالسماع أو بالاستنتاج الشخصي فقط.

إن النسيان لصيق الإنسان، وإذا كان ذلك الإنسان لا يؤرخ للأحداث التي يسمع عنها أو يشارك في صناعتها، وإذا كان لا يرعى ما حُفظ بالمذاكرة، فإن السرعة التي تمر بها السنون تتسبب، حتماً في إتلاف كثير من العناصر الرئيسية اللازمة لإعادة تشكيل الموضوع في الذهن قبل نقله إلى القارئ والسامع. لأجل ذلك، فإن المصادر الحية الجامعة في ذاكرتها بعض تفاصيل تاريخ ثورة نوفمبر، مطالبة من قبل الأجيال الصاعدة التي لها حق العلم الصادق الوافر، بالتلاقي فيما بينها للتأكد من صحة ما عندها من معلومات تكون كفيلة بتسهيل مهمة المؤرخين الوطنيين.

إن الحساسيات الزائدة، والأنانية المزدوجة باللاشعور هي التي تدفع كثيراً

[1] المجاهد، العدد الخاص، ص72.

[2] المنظمة الوطنية للمجاهدين، أشغال المؤتمر الأول(1981) والثاني (1982) والثالث (1983) لكتابة التاريخ.

من صانعي التاريخ إلى تزييفه وهم لا يعلمون أنهم بذلك يقزمون أنفسهم معه، فالمهم ليس أن يكون المرء الواحد وراء كل الأحداث فذلك من باب المستحيلات بل المهم هو أن يكون شريكاً في التخطيط للأحداث العظيمة وفي إنجاحها.

إن الكتابة أو الحديث من منطق ذاتي وبدون معطيات كافية قد نتج عنها كثير من الغموض حول مؤتمر الصومام كمنعرج تاريخي في حياة الثورة وحول الوثيقة التي صادق عليها بالإجماع كمرجع أيديولوجي للتمكن من هدم النظام الاستعماري وبناء المجتمع الجزائري الجديد.

لقد كان المؤتمر ضرورة لتقييم المرحلة المقطوعة لوضع الخطوط العريضة لمواصلة الكفاح المسلح والتخطيط للحل السلمي من أجل استرجاع السيادة الوطنية. كما أنه كان إجراءاً حتمياً لتزويد الثورة بقيادة وطنية موحدة مجددة، ولتوحيد التنظيم العسكري وتحديد المنطلقات التي تتحكم في مسار المعركة وتوجهها[1].

وإذا كان المؤتمر، يومها، قد أدى دوره الإيجابي واستطاع أن يكون المنطلق لمرحلة جديدة في تاريخ ثورة نوفمبر، فإن مجموعة من العوامل ومن المستجدات التي سنتعرض لها في الفصل القادم، قد دفعت بعض المسؤولين إلى الطعن في كثير من مقوماته الأساسية لكن الذي ينبغي أن يبقى راسخاً لدى الباحث هو أن كل الطعون مهما كان مصدرها لن تقلل من قيمة النتائج التي توصل إليها المؤتمرون.

وبعد أكثر من ثلاثين سنة من انعقاد مؤتمر الصومام ونشر الجزء الأكبر من الوثيقة الإيدويولوجية التي صادق عليها، فإن الدارس الموضوعي لا يسعه إلا القول، رغم كل الضغوطات والنواقص التي ستتعرض لها في حينها، إن المؤتمر كان ناجحاً، وإن نتائجه كانت مفيدة وصحية بالنسبة لاستمرارية الثورة، ويكفي للتدليل على صحة ادعائنا أن النصوص الأساسية للثورة كلها مازالت حتى اليوم تلتقي مع وادي الصومام في كل الخطوط العريضة التي اشتملت عليها.(2)

■■■

---

[1] *المجاهد: العدد الخاص، ص54 وما بعدها.*

[2] *انظر برنامج طرابلس، ميثاق الجزائر، والميثاق الوطني بصياغته.*

الفصل الثالث

التطبيق العملي لأهداف جبهة التحرير الوطني بعد مؤتمر وادي الصومام

- تقييم آخر لنتائج وادي الصومام
- التطبيق الميداني لمقررات الصومام
- الدورة الأولى للمجلس الوطني للثورة
- من حرب العصابات إلى حرب المواقع
- التخطيط للعمل السياسي
- الخلاصة

■■

تقييم أخر لنتائج وادي الصومام:

لقد كان مؤتمر وادي الصومام انتصاراً للثورة الجزائرية في نظر العديد من المحللين السياسيين الوطنيين على وجه الخصوص. لكن بعض المسؤولين الجزائريين في الخارج اعتبروا إنعقاده نوعاً من الخيانة التي ستكون عواقبها وخيمة على مصير الكفاح المسلح في الجزائر. فضابط المخابرات المصري فتحي الديب أورد في كتابه "عبد الناصر وثورة الجزائر"[1] أن السيد أحمد بن بلة أكد" أن المؤتمر شكل نقطة تحول خطيرة في مسيرة الثورة للأسباب التالية:

أ- إن اعتراض الولايات الشرقية والغربية التي تغيبت عن المؤتمر لن يتوقف عن حد الاعتراض على القرارات، بل ينتظر أن يتطور إلى صدام في إطار من محاولات التصفية بين القيادات في نطاق صراع داخلي.

ب- أن الولايات المجاورة للحدود ستقوم بحجب السلاح عن الولايات الداخلية لإرغامها على التراجع عن قرارات المؤتمر. وقد وصلته رسائل تفيد بذلك.

ج- احتمال انتقال صورة الصراع الداخلي المتوقعة إلى الخارج بعد خروج المجموعة الموالية لعبان رمضان، الأمر الذي سيزعزع ثقة الرأي العام العربي والعالمي في الصورة المشرفة التي أمكن تحقيقها لثورة الجزائر.

د- بدء مرحلة الصراع بين السياسيين والعسكريين وما تحمله من آثار ضارة بالمسيرة الثورية خاصة بعد انتشار نغمة، سياسي وعسكري، في أوساط جيش التحرير الوطني[2].

---

[1] كـتـاب ضـخـم مكون من 736ص من الشكل الكبير، صدر عن دار المستقبل العربي، القاهرة. سنة 1984 ألفه السيد فتحي الديب الذي كان مكلفاً من قبل الرئيس عبد الناصر بمتابعة تطورات الثورة الجزائـرية يشـتمل الكتاب على كثير من المعلومات الثمينة لكنه يتضمن كذلك كثيراً من الأخبار المدسوسة والمعلومات المزيفة لسبب أو لآخر.

[2] عبد الناصر وثورة الجزائر، ص: 248.

ليس من السهل على الدارس المحقق أن يأخذ كتابة السيد فتحي الديب على أنها حقيقة تاريخية مسلم بها كتلك التي يرويها الثقاة الذين يتولون بأنفسهم إخضاع المعلومات إلى المقاييس والمعايير المعروفة لجمهور المؤرخين.

وعلى الرغم من أن "عبد الناصر والثورة الجزائرية" صدر عن دار المستقبل العربي سنة 1984 ونشر أيضاً مترجماً إلى اللغة الفرنسية، وأن السيد بن بلة لم يعارض، قولاً أو كتابة، ما جاء في الكتاب من المعلومات منسوبة إليه حول المؤتمر، فإننا نعتبر أن الفصل الرابع عشر كله مغلوط ولا يمكن اعتماده في تقييم نتائج أشغال وادي الصومام.

إن حكمنا بهذه القسوة على هذا الفصل مستخلص خاصة من النقطة العاشرة التي توهم القارئ الخالي الذهن بأن مرحلة الصراع الداخلي والتصفية الجسدية المذكورين من بين الأسباب التي اعتمد عليها السيد أحمد بن بلة لإصدار حكمه الآنف الذكر قد بدأت فعلاً وأن "أول ضحاياها هو المناضل القائد البطل مصطفى بن بو لعيد.. ولحق به المناضل الجسور والوطني المخلص يوسف زيغود قائد ولاية شمال قسنطينة الذي صاحبت ظروف وقوعه في كمين أعده الفرنسيون له بعد خروجه من مخبئه علامات استفهام تشير بإصبع الاتهام بالخيانة والغدر إلى مساعديه في القيادة إبراهيم مزهودي وعلى كافي"[1].

إن هذين الخبرين لا أساس لهما من الصحة: أولاً لأن الشهيد مصطفى بن بولعيد لم يكن من المعارضين لقرارات مؤتمر وادي الصومام لسبب واضح وبسيط يتمثل في كونه استشهد قبل انعقاد المؤتمر بحوالي خمسة أشهر. أما يوسف زيغود فإن استشهاده كان في نهاية الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر في حين أن الذيب يذكر أنه تلقى الخبرين في نهاية الأسبوع الثاني من شهر سبتمبر سنة 1956. وبالإضافة إلى ذلك فإن السيدين على كافي وإبراهيم مزهودي كانا من أكثر القادة ارتباطاً بالشهيد، بل إن مزهودي، عندما وقع الاستشهاد، كان قد وصل إلى الحدود التونسية في إطار تنفيذ مقررات المؤتمر.

وإن الرجوع إلى المصادر الحية واستنطاق الوثائق المتوفرة للباحثين يدلان، بما لامجال للشك فيه، على أن جل المعارضين لنتائج المؤتمر لم يفعلوا ذلك من منطلقات أيديولوجية لكنهم كانوا، فقط، مدفوعين بأغراض شخصية بعضها يتعلق بالجري وراء السلطة وبعضها الآخر ناتج عن الانحياز لأشخاص دون التمعن في الموضوع.

---

(1) نفس المصدر، ص249.

هكذا نرى أن السيد بن بلة يجعل في مقدمة مأخذه على المؤتمر أنه لم يجمع سوى قادة الولايات الرابعة والثالثة والثانية مؤكداً أن باقي القادة قد تخلفوا عن الحضور وهم ممثلو وهران والأوراس وسوق أهراس والصحراء والخارج[1].

إن هذا المأخذ مرفوض في أساسه لأن المنطقة الخامسة أي الغرب الجزائري كانت ممثلة في شخص قائدها الأول الشهيد العربي بن مهيدي الذي ترأس المؤتمر. أما المنطقة الأولى فإن عدم حضورها يرجع فقط لكون ضباطها السامين لم يتفقوا على تعيين خليفة الشهيد مصطفى بن بولعيد.

وفيما يخص سوق أهراس والصحراء فإنهما لم تكونا من ضمن المناطق الخمس التي تأسست وانطلقت في الكفاح ليلة الفاتح من نوفمبر سنة 1954.

ودائماً حسب السيد فتحي الديب[2]، فإن بن بلة يرفض نتائج مؤتمر وادي الصومام لأن السياسيين هم الذين سيطروا على أشغاله دون العسكريين الذين تنقصهم الخبرة في مجال المناورات من جهة، ولأن عبان اختار بالفعل الدكتور محمد الأمين دباغين لتمثيل الثورة الجزائرية بالقاهرة وللتحقيق مع أعضاء المندوبية حول تقصيرهم في أداء مهمتهم المتمثلة خاصة في تزويد الداخل بما يحتاج إليه من سلاح وذخيرة من جهة أخرى.

. إن هذين السببين مختلفان فقط وليس ثمة في الواقع ما يعمها، لأن عبان رمضان نفسه لم يكن محترفاً سياسياً بل كان، كغيره، مناضلاً يؤمن بضرورة انتهاج الكفاح المسلح استرجاع السيادة الوطنية، وقبل أن ينخرط في حزب الشعب الجزائري الذي تقلد في صفوفه مسؤوليات هامة، كان جندياً في الجيش الفرنسي على غرار بن بلة ذاته.

أما الدكتور محمد الأمين دباغين، فإن أعضاء مندوبية الخارج هم الذين طالبوا بإرساله إلى القاهرة ليكون عليهم رئيساً[3]. وليس ذلك بالشيء الغريب إذا

---

[1] *نفس المصدر، ص245.*

[2] *نفس المصدر، ص247.*

[3] *حدثني الدكتور دباغين نفسه عن الموضوع وتوقف طويلاً عند الكلام عن الرسائل التي كانت تأتي من القاهرة من نهاية عام 1953 والتي تسببت في إلقاء القبض عليه، لأن السلطات الفرنسية التي كانت تراقب المراسلات عرفت رغم استعمال الرموز أن الشخص المطلوب لقيادة المندوبية هو دباغين. ودعماً لهذا القول يذكر السيد فرحات عباس في "تشريح حزب" ص:180 أنه عندما وصل*

علمنا أن النواة الأولى التي قررت الدخول في مرحلة الكفاح المسلح كانت قد لجأت إليه ليقود الثورة بعد أن رفض ذلك الشرف مصالي الحاج لأسباب ليس هذا محل التعرض إليها. فالدكتور، إذن، لم يعين من طرف عبان الذي اقتصر دوره على تبليغه رسائل المندوبية. وحتى عندما وصل مصر، فإنه رفض ممارسة المسؤولية المسندة إليه دون قرار رسمي يوافق عليه الجميع وقد صدر ذلك القرار بالفعل عن مؤتمر وادي الصومام، ويبدو أن بعضهم تقبل ذلك بكثير من التردد والحذر.

ولقد كان هناك نوع آخر من التردد لكنه، هذه المرة، خاص بقرار أساسي اتخذه المؤتمر ويتعلق بفتح أبواب قيادة جبهة التحرير الوطني إلى عدد من السياسيين الذين لم يتكونوا في صفوف حزب الشعب الجزائري وما تفرع عنه من تنظيمات سرية أو علنية على حد سواء. إن هذا القرار قد أثار أثناء أشغال المؤتمر معارضة عدد من المسؤولين الذين وصفوه بالانحراف الذي يعرض الثورة إلى خطر الموت لأنه يقضي على وحدة التصور ووحدة التفكير الضروريين للاستمرارية الثورية، لكن مبدأ المركزية الديمقراطية حسم الموقف كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

هكذا، إذن، يمكن القول أن نتائج مؤتمر وادي الصومام قد استقبلت، ظاهرياً، بارتياح كبير من طرف المسؤولين في جميع المستويات، لكنها، في الواقع تسببت في ميلاد صراع داخلي على السلطة كان يمكن أن يغذى وينتشر لو لم يحدث اختطاف الطائرة التي كانت تنقل القادة الأربعة من المغرب إلى تونس في اليوم الثاني والعشرين من شهر أكتوبر سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف.

ولقد كانت لجنة التنسيق والتنفيذ تتوقع حدوث بعض التصدع في الصف، لأجل ذلك تقرر إيفاد السادة عمار بن عودة وعمار واعمران وإبراهيم مزهودي إلى تونس قصد شرح النتائج التي توصل إليها المؤتمر، وإيجاد الحلول اللازمة للمشاكل العديدة التي تعترض سبيل تزويد الداخل بالأسلحة والذخيرة.

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الأخوة لاقوا صعوبات كثيرة وهم يؤدون هذه المهمة الصعبة. ومن جملة الصعوبات التي اعترضت سبيلهم فإن السيد فتحي الديب قد أشار إلى تمرد ما يسمى بقيادة مناطق جيش التحرير الوطني الذين

إلى القاهـرة وذلـك قـبل انعقاد المؤتمر، كان الدكتور دباغين على رأس المندوبية وكان تنظيمه محكماً".

اجتمعوا "في مكان ما"[1] وقرروا عدم الاعتراف بقرارات مؤتمر وادي الصومام لأنهم لم يشاركوا في وضعها، وأجمعوا على ضرورة إبعاد موقدي المؤتمر باعتبار أن وجودهم في تونس يشكل مصدراً للقلاقل ويتسبب في تعطيل عملية التسليح[2].

وعلى الرغم من أن السيد فتحي الديب قد نشر ضمن ملحقات كتابه وثيقة تحمل توقيعات عدد من مسؤولي جيش التحرير الوطني في أقصى شرق الجزائر لتدعيم زعمه وإعطائه نوعاً من المصداقية، إلا أن فحص الوثيقة المذكورة يبين بوضوح تام أن هناك خلطاً كبيراً في المصطلحات ترتب عليه ذلك الغموض الذي استند عليه الكاتب لإصدار حكمه. فمحضر الاجتماع المنعقد، فعلاً، بتاريخ الخامس عشر من شهر ديسمبر سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف يذكر أن الموقعين عليه قرروا، بادئ ذي بدء، عدم الاعتراف بقرارات وادي الصومام لكن المحضر لم يذكر أن الجهات التي يمثلونها لا يمكن أن تكون مناطق لأنها في مجملها تابعة لمنطقتين اثنتين هما: الشمال القسنطيني والأوراس.

وعندما يرجع الدارس إلى شخصية الموقعين على الوثيقة، فإنه يتأكد من أنهم لم يكونوا مؤهلين لتقييم نتائج المؤتمر خارج هياكلهم النظامية، ولقد كان عليهم إبداء كل آرائهم في إطار اجتماعات الولاية[3] التي ينتمون إليها. أما خارج ذلك، فإنهم إنما يكونون قد شقوا عصى الطاعة ويطبق عليهم النظام الداخلي لجيش التحرير الوطني.

وحينما يطرح الدارس كل هذه التعليقات النظرية جانباً، ويعود إلى ميدان، يجد، بكل موضوعية، أن مؤتمر وادي الصومام أثرى بالفعل أيديولوجية جبهة التحرير الوطني، وزود الثورة بالأدوات التي كانت تنقصها لمواصلة المسيرة ولتوفير أسباب استمرارية الكفاح المسلح والنضال السياسي من أجل استرجاع الاستقلال الوطني.

ويتمثل الإثراء خاصة في إعطاء جبهة التحرير الوطني نفسها مفهوماً آخر إذا لم تبق ذلك التنظيم الذي يعمل على لم شمل نزعات سياسية مختلفة نتجت

---

[1] *عبد الناصر ثورة الجزائر، ص673.*

[2] *نفس المصدر. ص: 674.*

[3] *فالولاية هي التسمية الجديدة التي خصصها المؤتمر للمنطقة السابقة. وبذلك أصبحت الجزائر مقسمة إلى ست ولايات مقسمة إلى عدد من المناطق وكل منطقة إلى مجموعة من النواحي وكل ناحية إلى أقسام.*

عن الأزمات الداخلية التي مر بها نجم شمال إفريقيا ومن بعده حزب الشعب الجزائري ثم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وعن الصراعات التي وقعت بين المشرفين على الجناح السياسي والمسؤولين عن المنظمة الخاصة من جهة وبين دعاة الشرعية السياسية وأنصار الكفاح المسلح من جهة ثانية. بل تحولت إلى حركة مفتوحة أبوابها ليس فقط لمناضلين صهرتهم أيديولوجية واحدة ولكن لمواطنين وإطارات ومناضلين ظلوا حتى ذلك التاريخ متمسكين بأيديولوجية مختلفة وقرروا تجميد تمسكهم ذلك للالتحاق بالمسار الثوري دون أن يقدموا الدليل على أن التحاقهم نهائي وبدون رجعة[1].

وإذا كان ذلك الالتحاق الذي سمح به مؤتمر وادي الصومام قد جاء نتيجة نوع من التنازل عن واحد من الشروط الأساسية الواردة في نداء الفاتح من نوفمبر، ويتمثل في إعلان الملتحق عن تخليه النهائي عن أيديولوجيته، فإنه، في واقع الأمر، قد حقق انتصاراً لجبهة التحرير الوطني التي استطاعت، تفضل ذلك، أن تضم إلى صفوفها عدداً كبيراً من الإطارات السياسية والثقافية التي ستؤدي دوراً لا يستهان به خلال ما تبقى من سنوات الكفاح المسلح، وقد كان من الممكن أن يكون انتصاراً أكبر، لو لم تتعرض البلاد إلى أزمة صائفة اثنين وستين تسعمائة وألف التي فتحت شهية المحترفين السياسيين على حساب المصلحة الوطنية.

ومجرد انتهاء أشغال المؤتمر، رجعت لجنة التنسيق والتنفيذ إلى العاصمة وتوجه العقيد يوسف زيغود إلى الأوراس مكلفاً بالإشراف على عملية إنهاء الخلافات القائمة بين مختلف القيادات المحلية، وتعيين القائد الموحد الذي يكون أهلاً لخلافة الشهيد مصطفى بن بوالعيد، غير أن هذه المهمة الصعبة والنبيلة في ذات الوقت لم يكتب لها النجاح على يد قائد الولاية الثانية الذي استشهد قبل حتى أن يخرج من ولايته[2].

إن هذه المهمة قد أسالت كثيراً من الحبر وحاول العديد من المؤرخين إعطائها تأويلاً غير الذي وجدت من أجله. فزيغود يوسف كان مشهوراً بقدرته على التنظيم وكانت له خبرة واسعة بالعمل العسكري بالإضافة إلى معرفته بإطارات الولاية الأولى الذين كانوا يكنون له كل الاحترام نظراً للعلاقات

---

[1] *أيـن طوبـال (الخضر) "من أهداف مؤتمر وادي الصومام" محاضرة ألقاها في إطار النشاط الثقافي الذي نظمه اتحاد الكتاب الجزائريين بقاعة الكابري في العاصمة يوم 1982/8/20.*

[2] *المنظمة الوطنية للمجاهدين، من شهداء ثورة التحرير، مطبعة جريدة الوحدة بدون تاريخ ص،50.*

النضالية والودية التي كان يقيمها مع قائدهم بلا منازع الشهيد مصطفى بن بو العيد.

ومن الممكن أن زيغود كان ينجح في توحيد مختلف الفرق المتنازعة على السلطة في الأوراس، ولو تم ذلك لربحت الثورة وقتاً ثميناً واستفادت من طاقات وطنية ضاعت بلا سبب يذكر.

وشكل استشهاد زيغود أول امتحان اجتازته القيادة العليا بنجاح حيث تم تعويضه بسرعة وبدون أي مشكل[1] واستمرت لجنة التنفيذ والتنسيق تواصل تطبيق الأيديولوجية التي صادق عليها المؤتمر.

ففي المجال العسكري، تكيف جيش التحرير الوطني بسرعة فائقة مع التنظيم الجديد، وبدا يعمل طبقاً للقوانين المختلفة المشار إليها في محلها، وينطبق هذا القول حتى على المناطق التي أبدت تحفظها وعبرت عنه بممارسات وصلت إلى حد استعمال العنف.

وكان لتمركز لجنة التنسيق والتنفيذ في عاصمة البلاد أثر بالغ الأهمية على معنويات القوات الجزائرية المقاتلة داخل المدن وفي الجبال والأرياف عامة. فوحدة القيادة وتواجدها في ميادين المعركة زاد المجاهدين حماساً، وقرب المواطنين أكثر من صفوف جبهة التحرير الوطني.

---

(1) لقد كان يوسف زيغود من قدماء المنظمة الخاصة والمناضلين البارزين في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية تولى قيادة المنظمة الثانية على إثر استشهاد مراد ديدوش يوم 18 ك2 سنة 1955. يعتبر واحداً من المنظرين العسكريين الأساسيين في ثورة نوفمبر التي أعطاها دفعاً كبيراً بفضل الهجوم الشامل الذي نظمه ابتداء من يوم 20 أغسطس سنة 1955 على مراكز العدو بكامل تراباً لشمال القسنطيني. بدأ الدعوة إلى عقد مؤتمر وطني للثورة الجزائرية منذ أول عهده بقيادة المنظمة الثانية واقترح أن تجري أشغاله في ناحيتها الغربية، ويذكر المقربون إليه أنه كان متشدداً في عملية اختيار القيادة العليا للثورة إذ رفض أن تفتح أبوابها للمتشبعين بغير إيديولوجية الحركة الوطنية المتمثلة في النجم ومن بعده حزب الشعب ثم حركة الانتصار والمنظمة الخاصة.

في أثناء مؤتمر وادي الصومام عين الشهيد يوسف زيغود عضواً بلجنة التنسيق والتنفيذ ثم كلف بالمهمة التي كان من المفروض أن تقودها إلى الولاية الأولى. وعلى أثر استشهاده تمّ تعويضه للسيد سعد دحلب.

وإذا كان بعض المؤرخين يهملون عن قصد أو غير قصد، تعيين العقيد يوسف زيغوت كعضو أساسي في لجنة التنسيق والتنفيذ، فإن الدارسين الجديين الذين أعطيت إمكانية الإطلاع على وثائق الثورة الجزائرية لا يترددون في إدراج اسمه ضمن التشكيلية الأولى. وعلى سبيل المثال يمكن الرجوع إلى كتاب السيد فيليب تريبيي Philippe Tripier "تشريح لحرب الجزائر" ص: 121.

علماً بأن الكتاب صدر في باريس سنة 1972 ويشتمل على 680ص من القطع الكبير.

وبمجرد العودة إلى العاصمة، شرعت القيادة العليا في الإعداد لتطبيق قرار المؤتمر المتعلق بدعم العمل الفدائي وتعميمه حتى يتمكن سكان المدن من القيام بواجبهم الوطني في إطار الكفاح المسلح الذي أصبح حقيقة ملموسة في كافة أرياف البلاد.

وتضاعف العمل الفدائي ابتداء من شهر سبتمبر سنة ست وخمسين من العمليات الجريئة التي استهدفت تفجير أشهر النوادي والمقاهي التي يرتادها الفرنسيون العسكريون والمدنيون على حد سواء[1]. وخارج العاصمة يمكن الإشارة إلى ما اصطلح على تسميته بعملية "العصفور الأزرق[2] التي مكنت الثورة من الإستحواذ، دفعة واحدة على خمسين وثلاثمائة قطعة من أحسن أنواع السلع واستفادة من عدد مائل من الجنود المناضلين الذين عملت القوات الاستعمارية على تدريبهم عسكرياً في ظرف قصير وملائم للغاية.

وفي نفس الفترة، عرفت كبريات المدن، خاصة في الولايات الأولى والثانية والثالثة، نشاطاً فدائياً كبيراً بقصد تطهير صفوف الشعب من الخونة، ونشر جو الثقة في أوساط المواطنين الذين أرهقهم العنف الاستعماري الذي بلغ قمته في تطبيق ما يسمى بالمسؤولية الجماعية. هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان العمل الفدائي يهدف إلى تفكيك شبكات العدو الاستعلامية، وضرب مصالحه الحيوية المتمثلة سواء في المحلات العمومية أو في المؤسسات الاقتصادية التي يستغلها غلاة الكولون. ومن حين لآخر، كان الفدائيون يوجهون رصاصهم

---

[1] نشرت جريدة "لوملد" الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ 29/28 نوفمبر سنة 1971 مقالاً كتبته الآنسة جارمان تيون التي كانت عضواً بديوان جاك سوستيل سنتي 1955- 1956 تعلق فيه على كتاب الجنرال ماسي: "معركة الجزائر الحقيقية" ومن جملة ما ورد في المقال أن السلطات الاستعمارية هي التي بدأت بتفجير الأهداف المدنية أقدمت يوم 1956/8/10 على تلغيم المبنى الكائن برقم 3 نهج طيبة انتقاماً من الشهيد عاشور الذي كان واحداً من قادة العمل الفدائي في العاصمة".

[2] بدأت هذه العملية في شكل مؤامرة خطط لها السيد جاك سوستيل قصد اختراق صفوف جيش التحرير الوطني وتفجير الثورة من الداخل. تتمثل العملية في قيام المصالح الاستعمارية في العاصمة بالاتصال بأشخاص جزائريين يسكنون مدينة العزازقة الكائنة بولاية تيزيوزو حالياً، فعرضت عليهم تكوين أفواج من المسلحين الذين تسلد إليهم مهمة تخريبية واسعة النطاق. لكن الأشخاص المعنيين اتصلوا بقيادة جبهة التحرير الوطني التي أمرتهم بقبول العرض. وشرع على الفور في تكوين الأفواج من المناضلين المخلصين. وبسرعة فائقة بلغ عددهم 350 دربهم الجيش الفرنسي وزودهم بأحدث أنواع الأسلحة. بعد ذلك جاءت الأوامر، فالتحقوا جميعاً بصفوف جيش التحرير الوطني.

وقنابلهم لضباط الأمن الفرنسيين وقادة الأقسام الإدارية المختصة[1] والقواد والآغوات والباشوات[2] الذين لم يستجيبوا لنداءات الثورة وتعليماتها الداعية إياهم إلى الاستقالة والانضمام إلى التنظيم المدني لجبهة التحرير الوطني.

ولئن كان من الصعب، اليوم، تقديم إحصاء دقيق لكل العمليات الفدائية التي تم تنفيذها في الفترة الفاصلة ما بين مؤتمر وادي الصومام والدورة التي عقدها المجلس الوطني للثورة الجزائرية بالقاهرة ابتداءا من يوم عشرين آب سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف[3]، فإن الرجوع إلى الجرائد الاستعمارية التي كانت تصدر في ذلك الوقت يمكننا من تقديم نظرة إجمالية عن الموضوع[4]. ولقد حاولنا حصر عدد العمليات بالنسبة لمدينة قسنطينة وحدها، فوجدنا معدلها يزيد عن خمس في كل يوم بالنسبة للفترة المذكورة أعلاه.

وإلى جانب تكثيف العمل الفدائي، قامت مختلف الولايات بإعادة هيكلة نفسها طبقاً لمقررات وادي الصومام وكما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل الثاني. وبمجرد أن فرغت من تكوين اللجان النظامية وتنصيبها قصد تكليفها بالإشراف على شؤون المواطنين الإدارية والتعليمية ولأجل توعية الجماهير وإنقاذها من براثن العدو الذي بدأ يزرع "الأقسام الإدارية المختصة"[5] في

---

(1) هذه المصالح من اختراع السيد جاك سوستيل الذي اعتبرها عنصراً أساسياً في مشروع الإصلاحات التي جاء بها معتقداً أنها كافية لخلق الثورة في المهد. ومن مهام المصالح الإدارية المختصة تسيير شؤون المواطنين والعمل على تقديم المعونة للمعوزين وتنظيم الحركة التعليمية في الأرياف خاصة، لكن المهمة الرئيسية لتلك المصالح تبقى هي الاستعلامات وتوظيفها لدعم العمليات العسكرية التي يقوم بها الجيش الاستعماري. ولقد أسند تسيير المصالح الإدارية المختصة إلى ضباط من الجيش متعلمين يشاركون إجبارياً في مهمات خاصة.

(2) لأن عدداً كبيراً منهم قد أدركه الوعي بسرعة وأبدى استعداداً للنشاط في صفوف جبهة التحرير الوطني.

(3) انظر الملحق رقم 10.

(4) انظر جريدتي لا دباش قسنطينة (la depêches de contantine ler trimestre 1957) وصدى الجزائر نفس الفترة.

(5) كان جاك سوستيل الذي عين والياً عاماً للجزائر من طرف الرئيس مانديس فرانس بتاريخ 1/25/ 1955، يعتقد أن الإصلاح في المجالات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية وحده كاف لجعل الجزائريين ينفضون من حول جبهة التحرير الوطني، ولذلك وضع مخططاً شاملاً يسمى باسمه ضمنه فتح أبواب التوظيف للأهالي وإفادة الفلاحين الجزائريين من القروض على غرار الفلاحين الأوربيين ومحاولة التفاوض مع جهات مختلفة تمثل تشكيلات سياسية متعددة كان يظن أنها تستطيع وقف إطلاق النار، ولكن الأهم من كل ذلك هو إنشاء ما يسمى بالمصالح الإدارية المختصة التي أراد أن يجعل منها همزة وصل السلطتين المدنية والعسكرية، أسند لها مهمة الإشراف على شؤون

المناطق الريفية و"المصالح الإدارية العمرانية"[1] في المدن.

ولقد كان المؤتمرون الذين قرروا تأسيس المجالس الشعبية يعلمون علم اليقين أن التنظيم الشعبي هو القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها العمل الفدائي، ويتوقف عليها نجاح العمليات العسكرية ذلك أن المجالس هي التي تتولى تحسيس الجماهير بأهمية الكفاح المسلح وبضرورة الإسهام فيه مباشرة أو بطريقة غير مباشرة[2]. فالفدائيون والمجاهدون يمكن تجنيدهم بكل سهولة، لكن وجودهم حتى بأعداد كثيرة لا يكون له معنى إلا إذا وجدت القاعدة التي تراقب العدو وتجمع أخباره والتي تحضر المؤن وتعد مراكز الراحة والانطلاق والتي تشرف على جمع الاشتراكات والتبرعات وشراء ما يحتاج إليه الجيش من معدات ومستلزمات مختلفة.

وإن عودة سريعة إلى ذلك الوقت، وبالذات طريقة تأسيس المجالس الشعبية، تكفي للتدليل على أن الثورة كانت تتبع الأسلوب الديمقراطي لتعيين المسؤولين عن تلك المجالس. فالمسؤولون على المستوى الأعلى كانوا يستشيرون أكبر عدد ممكن من أبناء القرية قبل اختيار رئيس المجلس والأعضاء الأربعة الذين يساعدونه. وعندما تكون الظروف الأمنية مواتية، فإن السكان الراشدين هم الذين يدعون للانتخاب بكل حرية. وعلى الرغم من أن وثيقة وادي الصومام لم تتعرض بالتفصيل للمجالس الشعبية، فإن المشروع على مستوى الولاية، قد وضع نوعاً من القانون الداخلي الذي حددت بمقتضاه مهام كل واحد من الأعضاء المكونين للمجلس.

فالرئيس مسؤول عن التنسيق ومكلف بتنفيذ التعليمات والتوجيهات وبتنشيط الهياكل النظامية ومراقبتها، وكذلك السهر على تطبيق القرارات التي يتخذها

الجزائريين خاصة في القرى والأرياف، ومسؤولية استعمال كل الوسائل من أجل ربح ثقة المواطنين والأهالي وجعلهم يقبلون التعاون مع الجيش الاستعماري ضد جبهة التحرير الوطني.

قاد كل واحد من هذه المصالح ضابط برتبة ملازم أم نقيب يختار من بين المثقفين الضالعين في علم النفس. وعندما يكون غير عارف باللغة العربية واللهجات المحلية يعين له مترجم. ولقد قامت هذه المصالح بتأدية دور خطير، وفي كثير من الأحيان شكلت تهديداً جدياً على حسن سير الثورة. ومن الجدير بالذكر أن آثار النشاط التخريبي الذي أنجزته تلك المصالح ما تزال قائمة إلى أيامنا هذه وتتجلى خاصة في مظاهر الاستلاب ومناهضة الثورة.

[1] تقوم هذه المصالح في المدن بنفس الدور المناط بالمصالح الإدارية المختصة، ولكن أعمالها ظلت محدودة نظراً للوعية السكان الذين تتعامل معهم.

[2] نعني بالطريقة غير مباشرة، هنا، ما يعبر عنه بأضعف الإيمان وهو التعاطف مع الثورة مع فقدان الشجاعة الضرورية لدخول الميدان.

المجلس نفسه، وبالإضافة إلى ذلك، فإنه يرأس الاجتماعات ويراقب أعمال الشرطة. أما مسؤول المال فيستقبل كل المدخولات التي يضع بشأنها تقريراً شهرياً. ويتولى تسديد نفقات الهياكل النظامية وصرف المنح لعائلات الشهداء والمجاهدين. وبينما يقوم مسؤول الدعاية والأخبار بتنظيم مراكز البريد وجمع المعلومات وتبليغها في شكل تقارير منتظمة إلى القيادة، فإن مسؤول الأمن يشرف مباشرة على رجال الشرطة ويحدد الأماكن الملائمة لتمركز الجيش، كما أنه يضبط المسالك والطرقات التي يتبعها الأفراد والجماعات والقوافل. وأما مسؤول التموين فتنحصر مهمته في الجمع والتخزين والتوزيع، ولديه يجد المسؤولون الجرد الشامل لممتلكات الثورة من الحبوب والمواد الغذائية والثروة الحيوانية.

وتعتمد المجالس الشعبية في تأدية مهامها على مسؤولي المشاتي[1] والمداشر[2] الذين تسند إليهم صلاحيات واسعة في ميادين التنظيم والمراقبة وإعداد المأوى والمأكل وتسجيل الحالة المدنية وغيرها من الأعمال الضرورية لضمان التسيير الحسن وإبقاء الجماهير الشعبية في حالة اليقظة الدائمة والاستعداد المستمر.

ومع مر الأيام فإن الإشراف على شؤون المواطنين والعمل على تنظيم حياتهم في جميع مجالاتها قد أدى بقيادات الثورة إلى اصطدام بالواقع المعيشي الذي تراكمت مساوئه بفعل الوجود الاستعماري الذي كان يهدف بالدرجة الأولى إلى زرع الشقاق في أوساط الجماهير وإغراقها في بحور المشاكل الزائفة التي تنغص حياة المواطن وتمنعه من الاهتمام بالقضايا الحقيقية والتي هي قضايا التحرير والتحرر والرقي والتقدم. ومع اندلاع الثورة، وجدت الجماهير الشعبية نفسها في مواجهة وضع جديد يعنيها مباشرة ويمس جميع الميادين الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية. وإذا كان هذا الوضع الجديد قد أحدث تغييراً

---

(1) المشتى هي مجموعة من الديار المبنية بناءاً خفيفاً حتى تكون قابلة للتعدين بسهولة. ويبدو أن الاسم مأخوذ من الشتاء لأن هذا الفصل يلزم الناس بالبقاء في مكان واحد على خلاف الفصول الأخرى التي يتميز كل منها بنشاط خاص يتطلب كثيراً من الحركة والتنقل. ومن الجدير بالذكر أن التسمية أصبحت متداولة وهي مستعملة في اللغة الفرنسية. ومما زادها شهرة ارتباطها بإنسان كرومانيون الذي اكتشفت آثاره سنة 1912 بمشتى العربي الكائنة على مقربة من مدينة قسنطينة. ومن الجدير بالذكر أن نظام المشاتي هذا خاص بشمال إفريقيا.

(2) جمع دشرة وهي مجموعة من المنازل المبنية بالطوب أو بالحجر على خلاف منازل المشتى التي هي في أغلبها من الديس وأغصان الشجر التي تغطى بالطين وأحياناً ببراز البقر. وتبنى المداشر عادة حول المزارع الكبرى ومنابع المياه.

جذرياً يعمل جاهداً، على إبقائها لأنها تضمن ديمومة تبعية أغلبية الشعب الجزائري وقبولها السيطرة الاستعمارية باعتبارها الحتمية التي لا مرد لها سوى القدرة الإلهية ، فإن العلاقات الإنسانية الجديدة التي أوجدها والمسؤوليات المختلفة التي صاحبته منذ ظهوره ثم راحت تكبر وتتسع وترسخه وتطوره، كل ذلك قد دفع قيادة الثورة إلى أن تدرج مسألة تنظيم القضاء ضمن الأولويات التي تحظى بالعناية الكبرى.

ولأجل ذلك، فإن الثورة التي كانت تهدف، قبل كل شيء، إلى تحرير الإنسان[1] قد عملت، منذ الساعات الأولى، على إنشاء لجان للصلح أو كانت لها مهمة البث في القضايا العالقة بين الناس، وحل المشاكل التي من شأنها أن تعرقل عملية بناء المجتمع الجديد المزمع بناؤه بعد تقويض أركان الاستعمار.

وعلى إثر أشغال مؤتمر وادي الصومام، استبدلت لجان الصلح بلجان العدل التي أصبح من صلاحياتها النظر في كل المنازعات الشخصية والمدنية والجزئية المنشورة بين الأطراف الجزائرية أمام العدالة الاستعمارية التي لم تخف اندهاشها الكبير أمام الإحجام المفاجئ للمتخاصمين[2].

وعلى الرغم من أن وثيقة وادي الصومام قد أهملت التركيز على البعد الإسلامي لثورة نوفمبر، فإن قيادات الولايات قد حرصت كل الحرص على أن تكون الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي لكل الأحكام التي تصدر باسم الشعب الجزائري.[3]

وعندما كانت لجنة العدل تسند إلى مناضل أمي، فإنه يلجأ إلى المتفقهين في الدين يستشيرهم قبل الفصل في القضايا المنشورة أمامه.

أما عن الاختصاص المحلي، فإن لكل واحدة من هيئات الثورة لجنتها للعدل التي تنظر في قضايا المواطنين التابعين لها. وتتشكل كل لجنة من رئيس

---

(1) *لقد أشرنا في مناسبات عديدة وفي كتابنا "الغزو الثقافي في الجزائر من 1962 إلى 1982" إلى أن تحرير الإنسان مرتبط أشد الارتباط بتحرير الأرض، وإن تحرير الإثنين يشكل حجر الزاوية بالنسبة لأيديولوجية الثورة الجزائرية.*

(2) *انظر سجلات كتابات الضبط لدى مختلف محاكم الصلح للتأكد من أن الجزائريين استجابوا استجابة مطلقة لأوامر جبهة التحرير الوطني المتعلقة بمقاطعة القضاء الفرنسي ونشر قضاياهم أمام لجان العدل.*

(3) *من الجدير بالذكر أن أحكام لجان العدل لا تقبل الإستئناف. ومع ذلك فإن تقصيات قمنا بها عبر عدد من نواحي البلاد قد أثبتت لنا أن المتخاصمين على كثرتهم لم يطعنوا في تلك الأحكام، بل أن الذين اتصلنا بهم لم يخفوا رضاهم سواء كان الحكم لهم أو عليهم.*

وأربعة أعضاء يشترك جميعهم في دراسة الموضوع المعروض عليهم وفي المداولة حوله، وعندما يتعذر الإجماع يلجأ إلى بعض الشخصيات التي لها إلمام بالقضية فيطلب رأيها على سبيل الاستشارة والتوضيحات الإضافية.

وإذا كان الأمر يتعلق بجريمة أو بقضية أحد أطرافها من مناضلي جبهة التحرير الوطني أو أعضاء جيش التحرير الوطني، فإن لجنة العدل تتخلى عن الموضوع[1] وتحوله إلى هيئات قضائية أخرى تسمى المحكمة الثورية. وفي جميع الحالات، فإن تنفيذ الأحكام يخضع لإجراءات مضبوطة ضمن القانون الداخلي لجيش التحرير الوطني.

وبالموازاة مع العمل على تنظيم القواعد الشعبية ووضع أسس النظام القضائي، كانت قيادات الثورة في مستوى الولايات تولي أهمية خاصة بإقامة المنشآت الصحية عبر مختلف أنحاء الوطن وتبذل جهوداً جبارة لتقديم أدنى ما يمكن من التعليم لأبناء الريف الجزائري ولتنظيم حملات محو الأمية بالنسبة للكبار.

أما في مجال الصحة، فإنها لم تكتف بإعداد مراكز الاستشفاء (المستشفيات) والتخطيط لمواقعها حتى تكون قادرة على تلبية حاجات جيش التحرير الوطني والمواطنين المقيمين بالمناطق المحررة على وجه الخصوص[2] بل إنها زودت المراكز المذكورة بقانون داخلي موحد يحدد شروط القبول فيها ويضبط المقاييس التي يجب أن تتوفر في هيأة المشرفين عليها من أطباء وممرضين وكيفية جلب الأدوية اللازمة وما ينبغي القيام به لضمان أمنها في جميع الحالات.

ولقد أدت مراكز الاستشفاء دوراً كبيراً، وليس في معالجة المرضى والجرحى فحسب ولكن كذلك في تكوين الممرضات والممرضين الذين كانوا

---

[1] يستخلص من ذلك النظام الداخلي أن الأحكام تنفذ من طرف الهيأة العليا مباشرة باستثناء الحكم بالإعدام الذي لا بد من الرجوع فيه إلى محكمة الولاية.

[2] في الحقيقة أن مراكز الاستشفاء كانت مفتوحة لجميع المواطنين الذين كانوا يجدون فيها حسن الاستقبال والمعاملة، وكانت تقدم لهم علاجاً أفضل من ذلك الذي يخصص لأمثالهم في مستشفيات العدو، ويبدو أن هذا الأخير كان يقدر ذلك، وعليه فإنه أمر المصالح الإدارية المختصة التي سبقت الإشارة إليها بالتركيز على جانب المداواة لربح ثقة الجماهير الشعبية في الأرياف.

يختارون من بين الشباب المتعلم قليلاً[1]، وعلى الرغم من قلة الأدوية والعتاد الطبي، نظراً للمراقبة الشديدة التي تفرضها سلطات الاستعمار على الصيدليات والمستشفيات التي تشغل جزائريين، فإن المراكز الصحية التابعة لجيش التحرير الوطني كانت تستقبل، للمداواة العاجلة والضرورية، أعداداً كبيرة من المواطنين العاديين.

وأما في ميدان التعليم، فإن جيش التحرير الوطني قد نظم بنجاح حملات واسعة النطاق لمحو الأمية في صفوفه[2] قبل أن يشرع في تأسيس المدارس اللازمة لتعليم أبناء الريف، وتمكينهم من الدخول إلى عالم القراءة والكتابة. وكلما كانت الفرصة مواتية كان الأطفال، في سن المراهقة خاصة، يهجرون إلى الحدود الشرقية والغربية حيث الدراسة منتظمة تحت إشراف جبهة التحرير الوطني[3].

وإلى جانب كل هذه الأعمال الموجهة إلى تغيير صورة المجتمع الجزائري تغييراً جذرياً، وإلى إرساء قواعد الكفاح المسلح وتزويده بالأرضية الصلبة التي تضمن له النجاح، فإن النشاط العسكري والسياسي قد تضاعف بكيفية لم يعد الاستعمار قادراً على إخفاء نتائجها سواء في داخل الوطن أو في خارجه.

• فبالنسبة إلى الخارج، استطاعت جبهة التحرير الوطني أن تفرض القضية الجزائرية على الساحة الدولية، خاصة بعد أن احتضنها مؤتمر باندونغ[4] وتعهد السيد شوان لاي بوقوف الصين إلى جانبها حتى يتحقق لها النصر.

وفيما يتعلق بالداخل، فإن جيش التحرير الوطني قد ارتفعت أعداده من حوالي 400 مناضل مسلح ليلة الفاتح من نوفمبر إلى حوالي 23000 مجاهد ما بين مسبل وجندي غداة مؤتمر وادي الصومام.

---

[1] ان عدداً كبيراً من الممرضين خاصة قد اجتازوا الحدود الشرقية والغربية، وبعد أن علموا في المستشفيات التونسية والمغربية أرسلوا إلى بلدان المعسكر الاشتراكي حيث تعلموا لغاتها والتحقوا بمعاهد الطب هناك وتمكنوا بفضل إرادتهم القوية من التخصص في مختلف فنون الطب.

[2] يجب الأخذ في الاعتبار كون أعضاء جيش التحرير كانوا من أبناء الريف حيث كانت الأمية تزيد عن 95 ولقد استطاعت حملات محو الأمية المتتالية أن تحقق الأهداف المحددة لها، إذ نقصت هذه النسبة إلى أقل من 10% عند وقف إطلاق النار. 1962.

[3] تجدر الإشارة إلى أن أغلبية تلاميذ تلك المدارس قد أرسلوا إلى مختلف أقطار الوطن العربي، وبلدان المعسكر الاشتراكي فأتموا دراستهم، وبعد وقف إطلاق النار عادوا..........

[4] المجاهد، العدد الخاص، ص69.

كما أن الأسلحة التي كان أغلبها من بنادق الصيد وبقايا الحرب الإمبريالية الثانية، قد أصبحت تتضمن أكثر من ثلاثة آلاف قطعة حربية وأكثر من عشرة آلاف بندقية صيد. وصارت ميزانية الثورة قريبة من مليار فرنك قديم بينما كانت عشية نوفمبر لا تكاد تذكر.

وعلى الرغم من أن الثورة قد تلقت ضربتين قاسيتين في شهر أكتوبر سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف، تتمثل الأولى في تمكن الجيش الاستعماري من الاستيلاء على الباخرة "أتوس س"[1] المقلة لحوالي مائة طن من الأسلحة والذخيرة الحربية كانت في طريقها إلى منطقة الناظور الغربية، وتتعلق الثانية بإجبار طائرة الخطوط الملكية المغربية على النزول بمطار الجزائر وعلى متنها أربعة من أعضاء القيادة التساعية التي تحملت مسؤولية تفجير الثورة، فإن العدو قد تزعزع من أعماقه نتيجة التغيير الكمي والنوعي الذي أدخل على طرائق القتال في مدينة الجزائر وضواحيها وفي سائر كبريات مدن البلاد وقراها.

وقد عبرت القيادة المدنية الفرنسية عن عجزها في مواجهة نشاط جبهة التحرير الوطني في المجالين السياسي والعسكري عندما أقدم السيد روبير لاكوست في اليوم السابع من شهر ك2 سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف على استدعاء الجنرال صالان وماسي وأسند لهما مهمة "إعادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة"[2].

وواجهت قيادة جبهة التحرير الوطني في العاصمة دخول المظليين بقوة إلى المعركة بتنظيم عدد كبير من العمليات الفدائية وبإضراب شامل انطلق في نهاية الأسبوع الرابع من نفس الشهر[3].

---

(1) كانت الباخرة لصاحبها البريطاني سان بريليز وقد اشتراها السيد أحمد بن بله باسم إبراهيم النيال السوداني الجنسية يوم 1956/7/21، وأبحرت من الإسكندرية ليلة الرابع من شهر أكتوبر محملة بأنواع كثيرة من الأسلحة والذخيرة إلا أنها احتجزت من طرف البحرية الاستعمارية يوم 16 من نفس الشهر. لكن السيد عباس في كتابه "تشريح الثورة ص:184، يرى أن مسؤول فرع شمال إفريقيا بالمخابرات المصرية: السيد فتحي الديب هو الذي سلم الباخرة إلى الفرنسيين عن طريق سفارة فرنسا بالقاهرة.

(2) هؤلاء القادة هم: أحمد بن بله، محمد خيضر، محمد بوضياف وحسين آيت أحمد، أما عملية القرصنة فقد تمت بموافقة السيد ماكس لوجين Max Lejeunne نائب كاتب الدولة للدفاع الوطني الفرنسي.

(3) عندما أمر بالإضراب العام، قال الشهيد ابن المهيدي: "أن نجاحه سيبين بما لا يدع أي مجال للشك أن الشعب الجزائري يساند جبهة التحرير الوطني ممثله الشرعي والوحيد، وسيعطي حجة للمندوبين الجزائريين في الأمم المتحدة لإقناع الديبلوماسيات المترددة، من لقاء أجريته مع رئيس ابن يوسف بن خدة في بيته يوم 1986/6/16، وكان ذلك بحضور السيد محمد الصالح بوسلامة.

إن مختلف المصادر التي بين أيدينا اليوم تركز على العمل الفدائي الذي عرفته العاصمة ولا تعير إلا اهتماماً متواضعاً للعمليات التي أنجزها الفدائي في باقي مدن الجزائر وقراها وذلك على الرغم من أن تلك العمليات كانت في كثير من الأحيان تكاد تكون خيالية. فالإعلام العالمي، عندما لا يكون منحازاً، فإنه يستقي معلوماته من وسائل الإعلام الفرنسي وهذه الأخيرة موجهة للتقليل من أهمية التزايد الذي عرفه الكفاح المسلح مباشرة بعد مؤتمر الصومام ولتعميم الواقع الذي من شأنه أن يظهر للرأي العام العالمي أن قيادات الثورة تبذل جهوداً مكثفة لتطبيق مقررات المؤتمر المذكور. أما الأجهزة الإعلامية التي كانت في حوزة الثورة، فإنها، رغم كل المحاولات، لم ترق إلى المستوى الذي يجعلها قادرة على الاستجابة للحاجة، وحتى الإعلام العربي الذي كان متعاطفاً مع الثورة بالضرورة، فإنه لم يكن من حيث الإمكانيات المادية والتقنية، قادراً على تأدية الدور الذي يسمح بتقديم العمل الثوري في صورته الحقيقية التي يعمل العدو على إخفائها بكل ما أوتي من قوة[1].

وسيظل إضراب الأسبوع، كما اصطلح على تسميته، مادة غزيرة للمؤرخين السياسيين وللمسؤولين الجزائريين الذين عايشوا الحدث أو شاركوا في الإعداد له من قريب أو من بعيد.

أما الشهيد العربي بن المهيدي وأنصاره فموقفهم لا غبار عليه. فالإضراب، بالنسبة إليهم، امتحان عسير مطلوب منه تحقيق نتيجتين إيجابيتين مقابل تضحيات جسام لا يمكن تقييمها مسبقاً. فالنتيجة الأولى تتكتل في توسيع الهوة بين جماهير الشعب الجزائري، وقوى الاحتلال الفرنسي وفي هز النفوس المترددة والمتشككة وجعلها تقتنع بأن التضامن الوطني هو الضمان الوحيد لتوفير الشروط اللازمة للقضاء على النظام الاستعماري واسترجاع السيادة الوطنية، وتكمن النتيجة الثانية في تنبيه الرأي العام العالمي إلى أن شعار الجزائر الفرنسية خرافة لم يعد لها وجود بفعل إجماع الجزائريين على طاعة أوامر جبهة التحرير الوطني.

---

[1] ولســد هذا في تاريخ ثورة فإن منظمة المجاهدين تقيم دورياً سنوات ندوات جبهوية وأخرى وطنية، تحاول، من خلالها، إقامة جرد واف بقدر الإمكان لمختلف العمليات العسكرية والفدائية دون إهمال جــانب التنظيم السياسي والاجتماعي والثقافي والقضائي للثورة. غير أن هذا الجهد، رغم ضخامته ورغــم قيمــته العلمية، سيظل ضائعاً ما لم تتحد الأقلام المختصة الى تحويله إلى تاريخ ما أحوج الأجيال الصاعدة إليه.

ويرى كبار العسكريين الفرنسيين أن تنظيم الإضراب وتمديده لمدة أسبوع كان خطأ ارتكبته لجنة التنسيق التنفيذية، إذ أن إغلاق المحلات التجارية وبقاء السكان في منازلهم سهل على المصالح الاستعمارية المختصة مهمتها فيما يتعلق بمراقبة تحركات المشبوهين، أعطاها فرصة التدخل السريع للمطاردة ولتطويق الأماكن التي تمركزت فيها القيادات السياسية واللجان الشعبية ومجموعات الفدائيين.

ويلح بعض المسؤولين ممن لم يكونوا محبذين للإضراب على أن نظرتهم كانت الصائبة، لأن الكلفة، في حسابهم، كانت أكثر بكثير من الأهداف التي تحققت ومهما اختلفت وجهات النظر وتعددت الأحكام، فإننا نرى *فيما يخصنا، وانطلاقاً من تحليلنا لكل المعطيات والنتائج، أن إضراب الأسبوع كان شبيهاً في أكثر من قطعة بانتفاضة الشمال القسنطيني التي وقعت في اليوم العشرين من شهر آب سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف، ومن ثم وعلى غرار العشرين أوت فهو عملية ناجحة رغم كل ما ترتب عنها من نتائج سلبية ورغم كل ما كلفته من أثمان باهظة في جميع الميادين.

لكن الاعتراف بالنجاح لا يمنع أبداً من القول: "إن الإضراب هو الذي أدى إلى استشهاد العربي بن المهيدي وإلى خروج لجنة التنسيق والتنفيذ من التراب الوطني وبذلك وضعت نفسها أمام امتحان عسير يتعلق بممارسة.مبدأ أولوية الداخل على الخارج خاصة.

لقد كانت قيادة مؤتمر وادي الصومام، عندما أبرزت المبدأ المذكور، تهدف إلى استعماله قصد إبعاد مندوبية الخارج عن السلطة وجعلها مجرد مصلحة من جملة مصالح أخرى كثيرة وذلك على الرغم من أن المبدأ في حد ذاته مصيب لأن القيادة الحقيقية للثورة إنما هي تلك التي تكون على اتصال دائم بالقوات المقاتلة، ومن الصعب جداً أن تخضع إلى خارج الولايات، تقود كفاحاً يحتاج إلى أوامر يومية تتوقف نجاعتها على مدى معرفة الميدان معطياته. لكن عبان رمضان الذي لم يكن يخفي عليه ذلك أراد توظيف المنطق والفعالية لتحقيق شيء في نفسه يمكن أن نسميه اليوم حب المسؤولية أو حسابات الماضي.

فالشهيد العربي بن المهيدي، من بين أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ، هو الوحيد الذي ظل وفياً للمبادئ التي صادق عليها المؤتمر عندما رفض الخروج وصرح في آخر اجتماع عقدته اللجنة بتاريخ 1957/2/15 أنه "يفضل الموت

في ساحة المعركة[1] حتى يكون وقوداً جيداً وكافياً لثورة لن تتوقف حتى تسترجع الجزائر سيادتها.

أما في الخارج، ومن غياهب السجن، فإن السيدين، بن بلة وبوضياف قد عبرا عن تضامنهما مع ابن المهيدي الذي أُلقي عليه القبض يوم 23 فيفري وأعدم في ظروف أحاط بها كثير من الغموض[2].

ويعتبر خروج لجنة التنسيق والتنفيذ تجسيداً للهزيمة التي منيت بها جبهة التحرير الوطني في مدينة العاصمة وذلك على الرغم من كل العمليات العسكرية التي نفذت خلال الأشهر الستة جاءت بعد انعقاد مؤتمر وادي الصومام.

وبمجرد الالتحاق بالعاصمة التونسية اجتمعت لجنة التنسيق والتنفيذ لتقييم المرحلة المقطوعة، لكن السيد بلقاسم كريم الذي كان من المقررين الأساسيين في وادي الصومام أبدى رغبة ملحة في التخلي عن المبادئ الرئيسية، وراح يلوح بضرورة إسناد القيادة للمسؤولين التاريخيين علماً بأنه الوحيد، من بينهم الذي ظل طليقاً وعلى قيد الحياة[3]، كما أنه رفع شعار التصالح مع رفاق الدرب المعتقلين لسد الطريق أمام المركزيين المعتدلين ولتمكين العسكريين من شغل مناصب الحل والربط في أجهزة الثورة.

وإذا كان السيدان دحلب وابن خدة لم يظهرا معارضتهما للأفكار الجديدة التي جاء بها السيد كريم بلقاسم، فإن عبان رمضان قد بذل كل ما في وسعه للتصدي لها، لكن الظروف تغيرت، فلم يعد هو الآمر الناهي، ولم يعد كريم هو ذلك المنبهر أمام شخصيته الفذة، وتبين أن حساباته التي جعلته يختار ابن خدة ودحلب لعضوية اللجنة كانت خاطئة. كل ذلك سوف يكون له بالغ الأثر على مسيرة الثورة وسوف يكون عبان أول من يدفع ثمن سوء التقدير.

الدورة الأولى للمجلس الوطني للثورة الجزائرية:

رغم كل الخلافات التي بدأت تلوح في الآفاق، فإن أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ قد أنهوا اجتماعهم المشار إليه أعلاه بالتصديق على ورقة عمل تضمنت

---

(1) من شهداء التحرير، ص71 وكذلك المجاهد، العدد 9 الصادر بتاريخ 1957/8/20.

(2) لكـن الأكيد هو أنه عذب تعذيباً لم يعرفه أحد ثم أعدم شنقاً. ولقد أورد الكتّاب والمؤرخون روايات متعددة حول الموضوع.

(3) حربي محمد جبهة التحرير الوطني، ص 215.

تقييماً مفصلاً وموضوعياً للمراحل التي قطعتها الثورة، ومجموعة من الاقتراحات العلمية التي من شأنها أن تكون أساساً لبرنامج العمل المستقبلي الذي سوف يصدر عن الهيئة العليا للثورة في دورتها االرسمية الأولى التي تقرر، بعد استشارات واسعة، عقدها بمدينة القاهرة في الفترة من 20 إلى 27 أوت سنة سبع وخمسين وتسعمئة وألف[1].

ولقد كانت الدورة، بالفعل منعرجاً خطيراً في تاريخ ثورة نوفمبر، وكان من الممكن أن يتحول اللقاء إلى مأساة دموية، لكن الروح الوطنية تغلبت في النهاية، وتوصل المشاركون إلى مجموعة من الحلول الوسطى التي ساعدت على تجاوز الحساسيات الشخصية وأوجدت السبيل لتواصل الكفاح المسلح مع الحفاظ على مظهر القيادة ووحدة التوجه رغم كل ما وقع من مشادات ونزاعات واختلافات تجاوزت حد اللياقة في كثير من الأحيان.

---

[1] نظـــراً إلى أن المورخين والصحافيين، في ذلك الوقت لم يولوا اهتماماً كبيراً بتلك الدورة التي عقدها المجلس الوطني للثورة الجزائرية ونظراً إلى أن أعضاء المجلس المذكور لم يهتموا، في الستينات أو حـتى في السبعينات بكتابة مذكراتهم، فإن الاختلافات قد جاءت فيما يتعلق بتاريخ بدء الأشغال وكذلك المدة التي استغرقتها. وعلى سبيل المثال:

- يذكـــر السيد فيليب تريبي في كتابه: تشريح لحرب الجزائر الصفحة 198 أن المجلس الوطني للثورة الجزائرية اجتمع بالقاهرة في دورة سرية يوم 23 أوت سنة 1957.
- أمـــا الســـيد إدوارد باهـــر الصحافي الإنكليزي الذي صدر كتابه: "مأساة الجزائر" سنة 1961، فإنه تحاشى تقديم تاريخ محدد واكتفى في الصفحى 127 بالقول أن الدورة انعقدت في سنة 1957.
- وأمـــا السيد جاك ديمشان "تاريخ جبهة التحرير الوطني" الذي صدر في بارس سنة 1962، فإنه ذكر في الصفحة 265 من كتابه "إن الدورة انعقدت في شهر أوت" وبعد ذلك بفقرتين أشار إلى أنها يوم اختتمت يوم 27 من نفس الشهر.
- ويذكـــر السيد فتحي الديب في كتابه: "عبد الناصر وثورة الجزائر" الصفحة 355، "المؤتمر انعقد في أول سبتمبر سنة 1957. أما نحن فإننا استقينا معلوماتنا مباشرة من السيدين عبد الحفيظ بو الصوف والأخضـــر بن طوبال وقد وجدنا تأييداً لهذه المعلومات في بعض الكتب التي عالجت تاريخ الكفاح المسلح في الجزائر وفي مقدمتها: "حرب الجزائر لصاحبه العقيد بيارلو كويي Pierre le Goyet رئيـــس مصلحة الأرشيف المعاصر لدى رئاسة الحكومة الفرنسية إلى غاية عام 1957 وهو عضو لجنة تاريخ الحرب العالمية الثانية ولجنة التاريخ العسكري المقارن.

أمـــا السيد فرحات عباس لا يذكر تاريخ ابتداء الأشغال لكنه يؤكد في كتابه "تشريح الحرب ص210 أنه كان في بيونس آرس عندما استدعيْ إلى القاهرة 17 آوت، وفي الصفحة 212 يضيف قائلاً: "وفي يوم 24 أوت، وبعد اجتماعات عديدة مع العقداء، واقفنا على أن نكون أعضاء بلجنة التنسيق والتنفيذ الـــتي أصبحت يوم 28 من نفس الشهر، أي غداة اختتام المؤتمر مكونة كالآتي: العقيد كريم، العقيد واعمـــران، العقيـــد محمـــد شريف، العقيد بو الصوف، العقيد ابن طوبال، عبان، دباغين، مهري وعـــباس ولســـي المؤلف أن يضيف أسماء المعتقلين وهم: أحمد بن بلة، محمد خيضر، حسين آيت أحمد، محمد بوضياف ورابح بيطاط.

وإذا كان المجلس الوطني قد اختار بعد نقاش عدم تأييد السيد كريم بالنسبة لطرحه المتعلق بضرورة إسناد مسؤولية الثورة لأقدم العناصر القيادية، وفضل مواصلة السير طبقاً لأسلوب العمل الذي دشنه السيد عبان أثناء مؤتمر وادي الصومام عندما فتح أبواب المسؤولية إطارات متشبعة بإيديولوجية غير التي وضعها نجم شمال إفريقيا، فإنه قد أبدى كثيراً من المرونة عندما تعلق الأمر بمراجعة مبدأي أولوية الداخل على الخارج والسياسي على العسكري.

هكذا، قرر المجلس الوطني وتوسيع نفسه بحيث انتقل عدد أعضائه من أربعة وثلاثين إلى أربعة وخمسين، وقرر كذلك رفع عدد أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ إلى أربعة عشر. وفي الحالتين لم يبق التعيين مقصوراً على العناصر الملتزمة في صفوف حزب الشعب الجزائري وما تفرع عنه بعد الحرب الإمبريالية الثانية. وعلى سبيل المثال، تجدر الإشارة إلى لجنة التنسيق تضمنت السيدين فرحات عباس ومحمود شريف[1] وهما من الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري.

إن الانفتاح على العناصر القيادية الوافدة من الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ومن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان إجراء طبيعياً ومنطقياً في ذات الوقت رغم أنه كان مرفوضاً بدرجات متفاوتة من معظم إطارات حركة الانتصار للحريات الديمقراطية.

أما الصفة الطبيعية للإجراء فمتأتية من كون جبهة التحرير الوطني حركة سياسية مسلحة تهدف أساساً إلى تقويض أركان الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ولذلك فهي في حاجة إلى جميع الطاقات الحية بدون استثناء، وليس من المعقول أبداً أن توصد أبواب النضال بجميع أنواعه في وجه المتطوعين له. ولو لم تفعل لتركت *مفتوحة لأبواب المناورات الدنيئة للسلطات الاستعمارية التي كانت تستطيع توظيف الأبواب المغلقة لإنشاء حركات تتناحر فيما بينها وتسهل مهمة العدو الرامية إلى خنق أنفاس الثورة.

---

(1) من مواليد سنة 1914 بضواحي مدينة تبسة. تخرج من مدرسة تكوين الضباط في فرنسا وشارك في الحـــرب العالمية الثانية كواحد من الضباط الشباب الفرنسي الذي استقال منه على إثر مجازر ماي ســنة 1945 وهـــو برتبة لقيب. وفي سنة 1946في صفوف الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري واصبح ملاحقاً من طرف الإدارة الاستعمارية. التحق بصفوف جيش التحرير الوطني في نهاية عام 1955 وتســلق سلم المسؤوليات إلى أن أصبح قائد للولاية الأولى ثم عضواً بلجنة التنسيق والتنفيذ قبل أن يعين وزيراً للتسليح والتموين. لم يؤدي أي دور سياسي أو غيره بعد استرجاع الاستقلال.

وأما منطقية الإجراء فمتأتية من كون الإيديولوجية كلها كانت ترمي إلى تغيير وضع المجتمع الجزائري في اتجاه الأفضل. فالاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري كان يهدف إلى تحقيق المساواة في المواطنة بين الفرنسيين والجزائريين معتقداً أن النضال السياسي وحده يكفي للوصول إلى تلك الغاية، ومع مر السنين ثبت لقيادات الحزب والمناضلين الواعين أن الكولون لن يسمحوا للإنسان الجزائري بالانعتاق من عبودية الاستعمار وما يترتب عليها من أنواع الاستغلال والعسف والاضطهاد، لأجل ذلك فإنهم غيروا قناعتهم وصاروا يؤمنون بتمايز الشعب الجزائري وبضرورة إقامة دولته ((المتعاونة مع فرنسا لاالتابعة لها أو المنفصلة عنها. وبالمؤازرة مع تغيير القناعات ظهرت محاولات متعددة لتطوير مشروع المجتمع وتغيير أسلوب النضال، وتواصلت إلى أن وجد الاتحاد نفسه مندمجاً في جبهة التحرير الوطني سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف.

إذن، وانطلاقاً مما سبق، يجب التأكيد على أن تغييراً نوعياً قد تجسد على الميدان خلال تلك الدورة الأولى التي عقدها المجلس الوطني للثورة الجزائرية مستهدفاً المنطلقات الأيديولوجية بحيث لم يعد يشترط الانتماء العضوي لحزب الشعب الجزائري والتشبع المطلق بأيديولوجيته للتمكن من ممارسة المهام القيادية العليا.

وفيما يتعلق بأولوية السياسي على العسكري والداخل على الخارج، فإن المجلس الوطني قد ألغى قرار مؤتمر وادي الصومام وأكد في لائحته النهائية أن الأولوية لا تكون إلا حيث الفعالية وحيث مصلحة الثورة. وفي الحقيقة، فإن هذا التأكيد لم يكن إلا شكلياً، ولأن الواقع لم يكن كذلك بالنسبة للنقطتين على حد سواء.

ففيما يخص النقطة الأولى، تجدر الإشارة إلى أن السلطة كلها قد انتقلت إلى القادة العسكريين الذين بدأوا يجنحون إلى الاستبداد رغم معارضة عبان الذي أصبح شبه وحيد نظراً لسكوت من كانوا يسمون بالسياسيين الذين رضوا بدور المنفذ. وقد كان الفرنسيون يدعون هؤلاء العسكريين: "الباءات الثلاث وهم يعنون: بلقاسم كريم، وبن طوبال لخضر وبالصوف عبد الحفيظ[1].

[1] تسمية العسكريين والسياسيين هي فقط اختراعات السلطات الاستعمارية، لأن قادة الثورة وخاصة منهم الأوائل كانوا جميعاً متساوين تقريباً من حيث التكوين العسكري والسياسي، وعلى سبيل المثال فإن عبان رمضان الذي ينعت بكونه سياسياً لا يختلف في شيء عن آيت أحمد وبن بلة أو من

وفيما يخص النقطة الثانية، وباستثناء العلاقات مع الخارج، فإن الداخل كان مستقلاً وسيظل كذلك إلى غاية وقف إطلاق النار.

من حرب العصابات إلى حرب الواقع:

لقد كان اندلاع الثورة ليلة الفاتح نوفمبر سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف تطبيقاً ميدانياً للمبدأ القائل بضرورة استعمال الكفاح المسلح من أجل استرجاع الاستقلال الوطني، لأجل ذلك، فإن جل مناضلي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية هللوا للشرارة الأولى قبل أن تبدأ المشادات الكلامية ثم الصراعات الدموية من انتصار الزعيم مصالي ومناضلي الوليد الجديد: جبهة التحرير الوطني[1].

وإذا كانت الفترة الممتدة إلى نهاية شهر أوت سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف قد امتازت بممارسة حرب العصابات ضد العدو بالموازرات مع التركيز على توعية الجماهير الشعبية وتنظيمها في إطار مواجهة عمليات التمشيط الواسعة التي كانت القوات الاستعمارية تقوم بها من أجل السيطرة على جبال وغابات المناطق الأولى والثانية والثالثة وافتكاكها من جيش التحرير الوطني الذي تمكن خلال وقت قصير جداً من تجنيد جموع غفيرة من الشباب المؤمن بقضية التحرير المستعد للاستشهاد من أجلها، وإذا كان مؤتمر وادي الصومام قد قرر تنشيط العمل الفدائي في المدن والقرى من أجل تعميم حالة الحرب وتخفيف الضغط على المجاهدين في الجبال، فإن المجلس الوطني للثورة الجزائرية في دورته الأولى المنعقدة بالقاهرة، قد ثبت قرار المؤتمرين في وادي الصومام وأيده بقرار آخر يدعو إلى تجاوز حرب العصابات من أجل تحويل كبير من جيش التحرير الوطني مفهوم الولايات من جهة، ولتوفير الظروف الملائمة لإنجاز "ديان بيان فو " جزائرية من جهة ثانية.

يسمونه بالباءات الثلاثة فقد كان مناضلاً في صفوف حزب الشعب الجزائري قبل الانتهاء من دراسته الثانوية. وفي داخل الحزب، وعلى مر السنين تقلد مسؤوليات متعددة وكان عضواً بارزاً في هيئات المنظمة الخاصة عندما ألقي عليه القبض 1950. فتكوينه إذن، كان سياسياً وعسكرياً مثل الآخرين لكنه كان يمتاز عن آرائه في تلك المرحلة الأولى بمستواه التعليمي والثقافي.

[1] لقد كان حزب الشعب الجزائري ينادي بانتهاج الكفاح المسلح كوسيلة وحيدة لاسترجاع السيادة الوطنية، وكان مصالي الحاج يعمل في مقدمة القيادة السياسية على توفير الشروط اللازمة لانطلاق الأولى، لأجل ذلك فإن أعداداً كبيرة من المناضلين لم يصدقوا أن يكون مصالي أجنبياً عما وقع ليلة الفاتح من نوفمبر.

إن اتخاذ هذا القرار يرجع في أساسه إلى تأثر بعض أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ[1] بأدبيات كل من ماوتسي تونغ وتروتسكي، لكنه لم يأخذ في الاعتبار الواقع الجزائري الذي كان، يوماً، يختلف كلية عن الواقع الصيني أو الهند الصينية إذ، رغم الانتصارات العديدة التي أحرزها جيش التحرير الوطني، ورغم سيطرته، ليلاً خاصة على مناطق عديدة، ورغم المساندة الشعبية التي كان يحظى بها، فإن جبهة التحرير الوطني لم تتمكن، إلى غاية ذلك التاريخ، من تحرير مناطق يمكن الاحتفاظ بها لتكوين منطلقات لوحدات أكبر من الفيالق[2]، لأجل ذلك، فإن القرار ظل حبراً على ورق سوف لن تتزود الثورة الجزائرية بفرقتها العسكرية المتخصصة ولن تفرض على فرنسا ديان بيان فو ثانية.

وفي إطار نفس التوجه الخاص بالعمل من أجل تجاوز مفهوم الولايات، قرّر المجلس الوطني للثورة الجزائرية ضرورة الإسراع بإنشاء قيادة موحدة لجيش التحرير الوطني، لكن تنفيذ هذا القرار تعثر في بداية الأمر نتيجة الصراع الذي صاحب خروج لجنة التنسيق والتنفيذ من الجزائر والذي قام في أساسه بين السيدين بلقاسم كريم وعبان رمضان[3]. وبعد التخلص من هذا الأخير[4] ظهرت إلى الوجود، في شهر أفريل سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف، لجنة التنظيم العسكري مقسمة إلى فرعين لكن بدون رأس موحد في

---

[1] تجدر الإشارة خاصة إلى السيدين لخضر بن طوبال المدعو: سي عبد الله، وعبد الحفيظ بو الصوف المدعو: سي مبروك، وقد كان كل منهما عقيداً مسؤولاً عن ولاية قبل أن يعين عضواً بلجنة التنسيق والتنفيذ.

[2] لقد كانت هناك مناطق محررة بالفعل، لكن جيش التحرير الوطني لم يكن قادراً على الاحتفاظ بها خاصة عندما يجلد العدو إمكانياته البرية والجوية.

[3] هناك أقاويل كثيرة حول علاقات الرجلين اللذين يعتبران القدامى في صفوف حزب الشعب الجزائري. لكن بثقافة عبان رمضان كان سيتصغر كريم ويرى أنه أقل بكثير من المسؤولية المسندة إليه أما كريم فإنه كان معجباً بثقافة عبان وتكوينه السياسي. لكن إعجابه لم يمنعه من الاستكاء من الأصدقاء المشتركين، وقد وظف عبان انبهار كريم أمام شخصيته القوية لمحاولة السيطرة على كافة أجهزة الثورة، وظل كريم، المدرك لذلك، يتحين الفرص للتخلص من نفوذ عبان وقد تحقق له ذلك في شهر ديسمبر سنة 1957.

[4] إن الثابت اليوم أن بلقاسم كريم ولخضر بن طوبال وعبد الحفيظ بو الصوف كانوا مجمعين على ضرورة إعدام عبان رمضان قصد التخلص من هيمنته الفكرية. لكن الحقيقة حول تنفيذ الإعدام سوف تظل مغيبة لأن الباءات الثلاث قرروا ذلك ولأن اثنين منهما قد انتقلا إلى رحمة الله ولم يبوحا بشيء من التفاصيل. يبقى فقط من المعلوم أنه اغتيل بالمغرب في شهر ديسمبر سنة 1957.

الظاهر على الأقل[1].

أما الفرع الأول فيترأسه العقيد هواري بومدين[2] ومقره الحدود الجزائرية التونسية التي تتخذ منطلقاً للإشراف على الكفاح المسلح في شرقي البلاد الذي يشمل في هذه الحالة، الولايات الأولى والثانية والثالثة.[3]

وبمجرد التنصيب وانطلاق العمل، تمكن العقيد هواري بومدين من تنظيم الفرع الذي أسندت إليه مسؤوليته، تنظيماً عصرياً تميز، في ذلك الوقت، بالدقة في التخطيط والانضباط في ممارسة النشاط العسكري، واستطاع، في ظرف قصير، أن يثبت ويطور أجهزة الاستعلامات والإمدادات التي أنشأها سلفه ومعلمه العقيد عبد الحفيظ بو الصوف، وتجاوز بدون كثير عناء مسألة الأشخاص .إذ عرف كيف يختار محيطه الضيق ويفرض جو الأخوة والتعاون بين الجميع بما في ذلك النائب الذي كان يراهن عليه السيد بلقاسم كريم للسيطرة على غربي البلاد.

لكن العقيد محمدي السعيد لم يحالفه النجاح في تأدية مهمته إذ وجد صعوبة جمة في إقناع نوابه بمسؤوليته عليهم، ولذلك راح كل واحد منهم يعمل مستقلاً ومباشرة مع الولاية التي جاء منها أو كان يشرف عليها[4] ومع واحد وأكثر من الباءات الثلاث الذين سبقت الإشارة إليهم. وبالتدريج تأزم الوضع في الحدود الشرقية وبدأ المرض يسري إلى هيئات الثورة بداخل الوطن وخاصة منه الولاية الأولى والقاعدة الشرقية. وأمام هذا التطور الخطير اجتمعت لجنة

---

(1) ذلك لأن لجنة التنسيق والتنفيذ قيادة جماعية المسؤوليات فيه موزعة بحيث لا يمكن لواحد فقط أن ينفرد بقيادة لجنة التنظيم العسكري. فكريم مكلف بمرفق الحرب، وبو الصوف بالاستعلامات والمواصلات العامة واعمران بالتسليح والتموين وبن طوبال بالداخلية والتنظيم الإداري. وكل هذه المرافق تتحكم مباشرة في واقع الجيش وتسييره.

(2) اسمه الحقيقي: محمد بو خروبة، جنده أحمد بن بله في القاهرة ثم أرسله بعد تدريب عسكري إلى منطقة الخامسة حيث اتخذه بو الصوف نائباً له قبل أن تسند له كريم من جهته ليعين العقيد الصادق دهليس نائباً لبومدين على رأس الفرع المذكور. وقد كان دهليس قائد للولاية الرابعة سنة 1957.

(3) هو قائد الولاية الثالثة بعد بلقاسم كريم الذي بذل كل ما في وسعه ليجعله على رأس الفرع الشرقي. وحرصاً على ترضية جميع الأطراف عين كنواب له: العقيد العموري عن الولاية الأولى والعقيد بن عودة عن الولاية والعقيد عمارة بوقلاز على القاعدة الشرقية.

(4) العقيد العموري كان يشرف على الولاية الأولى ولم يكن يطمئن لأي واحد من الباءات الثلاث الذين كان يرى أنهم أقل بكثير من المسؤولية المسندة إليهم. وكذلك الأمر بالنسبة للعقيد بوقلاز الذي كان يشرف على القاعدة الشرقية. أما العقيد محمدي السعيد فإنه كان يشرف على الولاية الثالثة لكنه كان يأتمر بأوامر السيد كريم بلقاسم. وأما العقيد ابن عودة فإنه كان عضواً بقيادة الولاية الثانية وتابعاً للسيد عبد الله بن طوبال.

التنسيق والتنفيذ في اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف، فأقرت عجز القائد ونوابه وقررت ضد كل واحد منهم عقوبات مختلفة[1].

وفي نفس الاجتماع، أطلعت لجنة التنسيق والتنفيذ على التقارير المقدمة من طرف أعضاء اللجنة[2] التي كانت عينتها لدراسة إمكانية إنشاء حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية. وبدلاً من استدعاء المجلس الوطني للاجتماع بصفته الهيئة العليا للثورة الجزائرية التي يحق لها اتخاذ القرار، في مثل هذه الحالات، لجأ السادة: بلقاسم كريم ولخضر بن طبال وعبد الحفيظ بوصوف إلى القيام بأول انقلاب عسكري وأعلنوا عن تكون حكومة برئاسة السيد فرحات عباس على أن يظلوا هم السلطة المرجعية الوحيدة التي بيدها الحل والربط[3].

ولقد كان الانقلاب هروباً إلى الأمام لأن الباءات الثلاث -على حد التعبير الفرنسي- كانوا متأكدين أن أغلبية أعضاء المجلس الوطني أصبحوا مقتنعين بعدم قدرتهم على تسيير شؤون الثورة الجزائرية. وتسربت معلومات مفادها أن قادة الداخل عازمون على إبعادهم واستبدالهم بمن هم أكثر منهم كفاءة. وكانت الأنظار قد بدأت تتجه إلى العقيدين محمد لعموري ومصطفى لكحل اللذين كانا، منذ مدة، يحذران من الانحراف ويطالبان بعدم الابتعاد عن الخط الإيديولوجي كما ورد تحديده في بيان الفاتح من نوفمبر. ويبدو أن هذه الدعوة التي رفع لواءها العقيدان محمد ومصطفى قد وجدت أنصاراً كثيرين من بين إطارات جميع الولايات، ويبدو كذلك أن اتصالات أولية مباشرة قد وقعت مع الداخل وعلى أثرها عاد لعموري من منفاه خفية ليترأس في منطقة الكاف[4] اجتماعاً

---

[1] لقــد أصــدرت اللجنة عقوباتها كالآتي: أ- العقيد محمد لعموري ينزل إلى رتبة رائد ويمنع من كل نشاط رسمي مع تحديد إقامته بالقاهرة. ب-العقيد عمارة بوقلاز ينزل إلى رتبة جندي ويمنع من كل نشــاط رســمي مــع تحديد إقامته بالعراق ج- العقيد عمار بن عودة يعلق نشاطه لمدة ثلاثة أشهر يقضيها في سوريا. د- العقيد محمدي السعيد يعلق نشاطه لمدة شهر واحد يقضيه في القاهرة.
وبديهــي أن العقوبات موجهة خاصة ضد الولاية الأولى والقاعدة الشرقية وسوف يكون ذلك واحداً من الأســباب التي قادت إلى محاولة قلب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في إطارها ما أصبح يعرف بمؤامرة العقداء.

[2] أعضاء هذه اللجنة أربعة وهم: بلقاسم كريم، لخضر بن طوبال، فرحات عباس وعمار واعمران، وقد اشــتغل كل واحد منهم مع جماعته وقدم تقريراً مفصلاً حول المراحل المقطوعة والعمل المستقبلي انطلاقاً من القطاع الذي كان يشرف عليه.

[3] هــؤلاء القادة هم الذين اصطلح على تسميتهم بالباءات الثلاث باعتبار أن اسم كل واحد منهم أو لقبه يبدأ بحرف الباء.

[4] حيث مقر قيادة أركان جيش التحرير الوطني.

سرياً انعقد بتاريخ 1958/11/16 ويشارك فيه عدد كبير من إطارات الثورة العسكرية والسياسية من أجل إطاحة الحكومة المؤقتة وإعادة تأهيل المجلس الوطني للثورة الجزائرية وتطهيره من العناصر التي دبرت الانقلاب أو شاركت فيه من قريب أو بعيد، وكان من الممكن أن تنجح المبادرة لو لم يتفطن. الباءات الثلاث إلى اللجوء إلى السلطات التونسية وإلى الضباط الجزائريين القادمين من الجيش الاستعماري عبر ألمانيا وإيطاليا.

أما الحكومة التونسية فقد أوهموها بأن قادة الداخل إذ يدعون إلى الالتزام بنداء أول نوفمبر، فإنهم يهدفون إلى جر تونس والمغرب الأقصى إلى إعلان الحرب على فرنسا وعدم القبول بإيقافها إلا عندما يسترجع شمال إفريقيا سيادته التي تكون منطلقاً لوحدته في إطار المبادئ العربية الإسلامية. وأحيط الرئيس بورقيبة علماً بأن أنصار صالح بن يوسف وراء الاجتماع المنعقد بالكاف، وأن إطارات سامية من بينهم متواجدة بالقاعة. وأما الضباط الجزائريون القادمون من الجيش الفرنسي[1] فقد أقنعوهم بأن الحركة تستهدفهم لأن ضباط جيش التحرير الوطني يرفضون تواجدهم على الحدود الجزائرية التونسية ويعتبرونهم عيوناً تعمل لفائدة الجيش الاستعماري.

بعض هؤلاء الضباط اشتغل في صفوف الجيش الفرنسي ضد جيش التحرير الوطني داخل الجزائر في السنوات الأولى للثورة، وبعضهم ظل في فرنسا أو في ألمانيا داخل الثكنات، وقد التحقوا بالحدود الجزائرية الشرقية والغربية عن طريق اتحادية جبهة التحرير الوطني بأوربا في فترات متتالية ابتداءاً من سنة 1957. وكان يمكن أن يشكلوا دعماً كبيراً لقدرة الولايات العسكرية لكنهم لم يدخلوا إلى التراب الوطني سوى بعد وقف إطلاق النار، الأمر الذي جعل أبناء جيش التحرير الوطني يستاؤون ويطالبون بتسريحهم غير أن العقيد هواري بومدين كان متمسكاً بهم، وبدأ الصراع بين الطرفين محتداً خاصة ابتداءً من المؤتمر التأسيسي لحزب جبهة التحرير الوطني المنعقد في الفترة ما بين 16 و 21 أفريل سنة 1964. وتجدر الإشارة إلى أن دعم بو مدين لهم قد مكنهم بالتدريج من السيطرة على الجيش. ويعتبر العقيد الشاب محمد

---

[1] هؤلاء الضباط من الجزائريين الذين ينتمون إلى عائلات كانت تحظى بمكانة مرموقة لدى سلطات الاستعمار نتيجة خدماتها في شتى المجالات. وقد تم اختيارهم صغاراً ثم أرسلوا إلى ما يسمى بمدرسة "أبناء الجيش" قصد مواصلة الدراسة العامة وتلقي المبادئ الأولى للفنون العسكرية. وعندما بلغوا سن الرشد حولوا إلى المدارس العسكرية فتخرجوا منها برتبة مرشح أو ملازم.

شعباني أول ضحايا ذلك الصراع[1].

فبهذه الكيفية تمكن الباءات الثلاث من تعبئة الضباط من غير أبناء جيش التحرير الوطني، ومن جعل الجيش التونسي يتحرك بقوة في اتجاه مكان الاجتماع، ولأن المجتمعين لم يكن لهم أي حساب مع الحكومة التونسية، فإنهم انخدعوا وبسهولة استسلموا للأسر. ولما علم أن تسلمت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية مجموع المتمردين أقامت لهم محكمة أصدرت على عجل أحكاماً مختلفة ضدهم[2].

ومن الجدير بالذكر أن المحاكمة كانت صورية فقط. وفي الواقع فإن الأمر يتعلق باغتيالات جماعية استهدفت مجموعة من خيرة إطارات الثورة قصد الاستجابة لطموحات شخصية[3]، تماماً مثل ما وقع قبل ذلك بحوالي سنة عندما أعدم عبان رمضان بدون محاكمة. ومما لا شك فيه أن العمليتين كانتا انحرافاً أيديولوجياً خطيراً سوف يكون له تأثيره البالغ على مسار الثورة في الخارج لأنه سيدخلها عالم الإرهاب وانعدام الثقة.

التخطيط للعمل السياسي:

إن أشغال الدورة الأولى للمجلس الوطني لم تتوقف عند قضايا التسيير والمسؤولية، لكنها امتدت لتشمل كافة الموضوعات الأساسية التي تؤثر مباشرة على مصير الثورة وقد سعى المشاركون في الدورة لتعطي الأولوية في التنفيذ لكل ما من شأنه أن يدعم صفوف الثورة وطنياً، ويخدم العلاقات المغاربية

---

(1) مساعدية (محمد الشريف) لقاء أجريته معه في مكتبه بقصر الحكومة يوم 1988/9/18 وذكر لي فيه أن الرئيس بورقيبة اتصل بقيادة الحركة الإنقلابية في السجن وعرض عليهم إخراجهم بواسطة الجيش التونسي وتسفيرهم إلى سويسرا حيث يظلون على السفارة التولسية إلى أن تسترجع الجزائر استقلالها، لكن العقيد لعموري، ومن معه رفضوا، علماً بأن السيد مساعدية كان رائداً في ذلك الوقت وواحداً من أعضاء القيادة المذكورة.

(2) ترأس المحكمة العقيد هواري بومدين وقام الرائد علي منجلي بدور النائب العام بينما تولى العقيد الصادق دهيلس مهمة الدفاع. أما الأحكام فكانت كالآتي: الإعدام بالنسبة للعقيدين: محمد لعموري وأحمد نواورة للرائدين عواشرية ومصطفى الأكحل وقد تم التنفيذ في شهر مارس سنة 1959. أما باقي الضباط وفي مقدمتهم الرواد: عبد الله بلهوشات، أحمد دراية، محمد الشريف مساعديه ولخضر بلحاج فقد حكم بالسجن المؤبد ثم استفادوا من العفو وأطلق سراحهم سنة 1960 وأعيدوا إلى صفوف جيش التحرير الوطني فنظموا الجبهة الجنوبية.

(3) لقد كان السيد كريم يريد الاستحواذ على قيادة الثورة، ولذلك فإنه كان يستعمل جميع الحيل للتخلص من ذوي الكفاءات الذين قد يمنعونه من تحقيق طموحاته وأطماعه.

ويثبت جبهة التحرير الوطني على الساحة الدولية وخاصة في حظيرة الأمم المتحدة.

فبالنسبة للعلاقات المغاربية، لاحظت الدورة أنها أصبحت تشكو نوعاً من الفتور، خاصة بعد أن استرجعت كل من تونس والمغرب الأقصى استقلالها، وانتهت، بعد مناقشات واسعة وثرية، إلى أن قرار وادي الصومام في هذا الشأن، وهو تجسيد لما جاء في بيان أول نوفمبر، قد ظل حبراً على ورق نتيجة عدم وجود التجارب لدى الشقيقين المستقلين حديثاً.

لقد كان وادي الصومام قد دعا إلى تنسيق العمل السياسي وإنشاء لجنة للتنسيق تشارك فيها جميع الأحزاب الوطنية التونسية والمغربية إلى جانب جبهة التحرير الوطني وذلك من أجل إنشاء لجان شعبية تساند الثورة الجزائرية، وإيجاد سبل التضامن والتوحيد بين المنظمات الجماهيرية والنخبوية في الأقطار الثلاثة[1] لكن مشاغل المغرب الأقصى وتونس قد تغيرت وأصبح البلدان يعملان على توطيد سيادتهما في إطار الحدود التي وضعها الاستعمار. ومما لا شك فيه أن، انحرافاً عن البرنامج الأساسي الذي كان يدعو إلى استمرار الكفاح المسلح حتى يتمكن شمال إفريقيا بأكمله من استرجاع سيادته وطرد المغتصب من أراضيه[2].

أما عن دعم الصف الوطني فلا بد من الذكر بأن الفلاحين الجزائريين هم أول من تحمل عبئ الثورة وشكل عمودها الفقري، وذلك طبيعي عندما نعرف أن سكان الريف في الجزائر كانوا، قبل عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف، يمثلون أكثر من ثلثي الشعب، وعندما قرر مؤتمر وادي الصومام تكثيف العمل الفدائي في الحواضر[3] أصدر في ذات الوقت، توجيهات واضحة للاهتمام بتنظيم القوى الوطنية الحية، قصد تمكينها من الارتباط، عضوياً بجبهة التحرير الوطني وجعل المدن تقوم بدورها الحقيقي في معركة التحرير، وكانت فئات

---

[1] انظر وثيقة وادي الصومام المنشورة على أعمدة المجاهد، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، المجلد الأول، ص: 72.

[2] في هذا الموضوع ينبغي الرجوع إلى المؤتمر الرابع لطلاب شمال إفريقيا الذي انعقد بتونس سنة 1934 والذي تبنى عقيدة التوحيد إلى وضعها مفدي زكريا والتي جاء في بلدها الأول: آمنت بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبمحمد نبياً ورسولاً وشمال إفريقيا وطناً واحداً لا يتجزأ- أما البند العاشر فيقول: وطننا شمال إفريقيا جزء لا يتجزأ من جسم الشرق العربي نفرح لفرحه ونتألم لآلامه ونتحرك لتحركه ونسكن لسكونه تربطنا به إلى الأبد روابط اللغة والعروبة والإسلام (انظر في هذا الموضوع كتابنا المثقفون الجزائريون والثورة، ص: 36 وما بعدها).

[3] انظر الفصل الخامس.

العمل والتجار والطلبة في طليعة من حظي بعناية القيادة السياسية التي تمكنت، في وقت قصير جداً، من إبراز تنظيماتها الوطنية وتزويدها بالعناصر المناضلة القادرة على تنشيطها في جميع المجالات، وتوظيفها، عقلانياً، لخدمة الكفاح المسلح.

ففيما يخص العمال الجزائريين الذين كانوا ينشطون نقابياً في مختلف المنظمات الفرنسية[1].

فإن جبهة التحرير الوطني قد توصلت[2] بعد دراسات ومشاورات، إلى تقديم ملف قانوني كامل تم، بموجبه، إنشاء الاتحاد العام للعمال الجزائريين في اليوم الرابع والعشرين من شهر فيفري شباط سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف وعينت أميناً عاماً له السيد عيسات إيدير[3] ثم رصدت له الميزانية اللازمة للانطلاقة بالكيفية التي تمكن من مغالبة وإلغاء منافسيه: الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين[4] والاتحاد العام للنقابات الجزائرية[5].

وبالفعل، استطاع الاتحاد العام للعمال الجزائريين أن تقطع خطوات جبارة في مجالي التجنيد والعلاقات مع المنظمات المماثلة العاملة خاصة في البلدان الغربية، وبذلك أصبح قادراً على تعبئة الجماهير الشعبية لتلبية نداء جبهة التحرير الوطني كما كان الأمر بالنسبة لإضراب الأسبوع الذي سبقت الإشارة

---

[1] أهــم هذه المنظمات كانت: CGT أو الكونفدرالية العامة للعمال التي كانت مرتبطة عضوياً بالحزب الشــيوعي الفرنســي، ثم CFTC أو الكونفدرالية الفرنسية للعمال المسيحيين وكانت تابعة للحركة الجمهوريــة الشــعبية، ثم OF أو القوة العمالية وكانت تابعة للفرع الفرنسي اللممية العمالية وهي التسمية القديمة للاشتراكي الفرنسي، ثم CFDT أو الكونفدرالية الفرنسية الديمقراطية للعمل.

[2] حدثني الرئيس ابن خدة في الموضوع وقال لي أنه اشتغل في بيت النقابي بوعلام بوروبية ليلة كاملة مــع عــبان رمضــان، عيســات إيدير لوضع القانون الأساسي للاتحاد وإعداد كل عناصر الملف القانونية.

[3] كــان عــاملاً بالورشات الصناعية للطيران ثم موظفاً بصندوق المنح العائلية لقطاع البناء وفي نفس الوقــت كــان عضواً باللجنة المركزية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية ومسؤولاً عن اللجنة العمالـيـة التابعة للحزب. ألقي عليه القبض بأمر من ميتران نفسه يوم 5 نوفمبر وأطلق سراحه في ديســمبر 1954 ليــلقي عليه القبض من جديد أثناء انعقاد مؤتمر وادي الصومام الذي عينه عضواً بلجــنة التنســيق والتنفيذ. ولما وصل لنبأ اعتقاله استبدل بالسيد ابن يوسف بن خدة. قامت السلطات الاستعمارية بإخراجه من المحتشد واغتالته سنة 1958.

[4] هو التنظيم النقابي الذي أسسته الحركة الوطنية الجزائرية يوم 6 فيفري 956 والذي سوف لن يصمد أمام الاتحاد العام للعمال الجزائريين.

[5] لقــد كــان هذا الاتحاد تابعاً للحزب الشيوعي الجزائري وحل نفسه في نوفمبر 957 ثم دعا أعضاء الالتحاق بالاتحاد النقابي للعمال الجزائريين دون الاتحاد العام للعمال الجزائريين.

إليه، وسهلت أمامه مهمة النفاذ إلى الأوساط النقابية الدولية التي لم تعد تخفي تعاطفها مع الثورة الجزائرية.

وبالتدريج، صار الاتحاد يضع الكفاح التحريري في مقدمة نشاطه ويعلن في جميع المناسبات أن أهدافه هي نفس أهداف جبهة التحرير الوطني وهي تتمثل في العمل بجميع الوسائل من أجل تقويض أركان الاستعمار حتى يتسنى للعمال الجزائريين أن يمارسوا الديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية[1]. غير أن وضع الكفاح التحريري في مقدمة الإنشغالات لم يصرف المركزية النقابية الجزائرية عن تأدية مهامها الأساسية في الدفاع عن حقوق العمال وحماية مصالحهم وفي التخطيط للمستقبل بواسطة تكوين الإطارات[2] إعداد الدراسات التقنية الكفيلة بترقية الاقتصاد الجزائري وتنميته بعد استرجاع السيادة الوطنية[3].

وأمام هذا النشاط المتزايد لجأت السلطات الاستعمارية إلى اعتقال آلاف المناضلين والإطارات النقابية قبل أن تعمد إلى إصدار قرار بحل الاتحاد رسمياً بحجة ارتباطه بحزب سياسي، وردت الأمانة العامة للاتحاد على هذا الإجراء التعسفي مؤكدة أن جبهة التحرير الوطني "ليست حزباً، ولكنها تجمع وطني يضم كل القوى الحية في البلاد. وفي جبهة التحرير الوطني تنصهر كل النزاعات السياسية والاجتماعية في سبيل تحقيق التحرير السياسي والاقتصادي والاجتماعي"[4].

وبالإضافة إلى ذلك استشهدت باللائحة الخامسة والثلاثين الصادرة عن الندوة العالمية للشغل التي تنص على أن "الهدف الأساسي والدائم لكل حركة نقابية هو تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي لفائدة العمال، ولبلوغ ذلك، تستطيع النقابات، وفقاً للقوانين الجاري بها العمل، إقامة علاقات مع الأحزاب السياسية"[5].

وبالدخول إلى السرية، تضاعف نشاط الاتحاد العام للعمال الجزائريين في سبيل تجسيد برامج جبهة التحرير الوطني ولم تلبث صفوفه أن تعززت بانضمام

---

(1) المجاهد اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، العدد 15، ص:257.

(2) نذكر خاصة التربص الذي دام ثلاثة أشهر في بلجيكا والذي تضمنته الكونفدرالية العمالية للنقابات الحرة من 20 سبتمبر إلى 30 ديسمبر 1957 لفائدة نقابات شمال إفريقيا.

(3) المجاهد، العدد 19 ص: 358.

(4) نفس المصدر، العدد 16: 277.

(5) نفس المصدر، العدد 28: 268.

أغلبية أعضاء بفرنسا في اليوم الثالث عشر من شهر مارس سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف، وصرح أمينه العام المساعد قائلاً: "أن هذا القرار قد جاء نتيجة اقتناعنا بأنه "لا يمكن أن يوجد سوى تمثيل واحد للعمال الجزائريين"[1].

أما الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي تأسس في الفصل الأخير من السنة الأولى للثورة[2]، فإن نشاطه الفعلي لم يظهر إلاّ في مستهل السنة الثانية بعدما وقع اعتقال الطالبين الشهيدين: بلقاسم زدور وعمارة رشد.

فعلى إثر ذينك الاعتقالين اللذين وقعا في وقت واحد تقريباً[3] لكن في مدينتي وهران بالنسبة للأول والجزائر بالنسبة للثاني، أصدر الاتحاد منشوراً يندد فيه بأعمال القمع التي تمارسها السلطات الاستعمارية ويطالب بالمصالح الفرنسية المعينة باحترام للإجراءات القانونية خاصة فيما يتعلق بمدة الحبس الاحتياطي الذي لا ينبغي أن تفوق ثمان وأربعين ساعة بمحلات الشرطة، ويندد بعمليات التعذيب الجسماني التي يتعرض لها السجناء الجزائريون[4].

وكان المنشور كافياً ليثير رد فعل الغلاة من قادة الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين وفي مقدمتهم السيد جاك لابورت الذي صرح بأن موقف الهيئات القيادية للطلبة المسلمين الجزائريين يعتبر فعلاً سياسي ومن ثم فهو عبارة عن ممارسة غير شرعية ومبادرة من شأنها تشجيع الخارجين عن القانون والمعتدين على العدالة الفرنسية.

لكن الاتحاد، منذ تأسيسه، لم يخف توجهاته الوطنية والتزامه بالعمل من أجل تحقيق أهداف الثورة بقيادة جبهة التحرير الوطني حتى أن رئيسه[5] صرح رسمياً قائلاً: "فإذا كان المقصود بالمتمردين والخارجين عن القانون هم أولئك الرجال الذين يطالبون بحريتهم وهم لا يطالبون بها مسلحين إلا لأن كل الأبواب الأخرى قد سدت أمامهم، ويكافحون في سبيل كرامتهم وحقهم في الوجود

---

[1] نفس المصدر، العدد 21: 403 وعليها تصريح مطول للأمين العام المساعد السيد: ابن غازي الشيخ.

[2] انعقد المؤتمر التأسيسي بباريس في الفترة ما بين 8 و 14 جويلية سنة 1955.

[3] تم اعتقال زدور في وهران يوم 1955/12/6، بينما اعتقل عمارة رشيد في الجزائر العاصمة يوم 7 /1955/12.

[4] صدر المنشور ووزع على وسائل الإعلام بتاريخ 1955/12/15.

[5] كـان في ذلك الوقت هو السيد أحمد طالب الإبراهيمي نجل الشيخ البشير الإبراهيمي الذي أصبح في الثمانينات وزير خارجية الجزائر.

وخارجون عن القانون"[1].

وفي شهر أفريل سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف عقد الاتحاد مؤتمره الثاني في باريس واعتمد نداء الفاتح من نوفمبر لصياغة وثائقه النهائية، وقد جاء في لائحته السياسية: "أن كفاح الشعب الجزائري لا يمكن أن ينتهي بغير استرجاع السيادة الوطنية، وعليه فإن الطلبة المسلمين الجزائريين يلحون على المطالبة بالتفاوض مع جبهة التحرير الوطني الممثل الوحيد والشرعي للشعب الجزائري"[2].

وفي أثناء دورته الأولى المنعقدة بالقاهرة، درس المجلس الوطني للثورة الجزائرية مسألة الإضراب اللامحدود، ولما أجمع الأعضاء على أنه أدى المهمة المنتظرة منه، فإنهم قرروا آمر اللجنة المديرة للاتحاد بأن تضع له حداً لمهمة افتتاح السنة الدراسية 58/57[3]، وقد تم ذلك بالفعل على إثر الاجتماع الذي عقد بباريس في اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف.

ثم جاءت الخطوة الحاسمة في نهاية نفس السنة إذ عقد الاتحاد مؤتمره الثالث بضواحي باريس في الفترة ما بين الثالث والعشرين والثامن والعشرين من شهر ديسمبر، وصادق بالإجماع على اللائحات السياسية العامة التي لفت فيها انتباه الرأي العام الفرنسي والعالمي إلى ضرورة الضغط على الحكومة الفرنسية كي تحترم مبدأ الحق الطبيعي للشعوب في الاستقلال، وبالإضافة إلى ذلك أكد ما جاء في مقررات المؤتمر الثاني المشار إليها أعلاه[4].

وتجدر الاشارة، هنا، إلى أن المؤتمر نجح نجاحاً باهراً إذ حضر جلسته الختامية مندوبو اتحادات طلابية غفيرة إلى جانب ممثلي الاتحاد العالمي للطلبة والاتحاد العام لطلبة الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تدخل هذان الأخيران بكلمتين قويتين كلفتهما الاستنطاق والطرد من التراب الفرنسي[5]. وبعد شهر

---

(1) وقــع التصريح يوم 20 جانفي 1956 بمناسبة إعلان قيادة الاتحاد عن تنظيم أسبوعين للتضامن مع المعتقــلين عــلى أن يكون اليوم الأول وهو يوم الإعلان عن القرار يوم توقف عن الدروس وعن الطعام.

(2) المجاهد، العدد 18 ص: 333.

(3) المجاهد، العدد 11: ص160.

(4) المجاهد، العدد 18: ص333.

(5) أمــا الســيد تــنكه (Tanaka) مــندوب الاتحاد العالمي للطلبة فإنه احتجز لمدة ساعات في مكاتب الاســتعلامات الفرنسية، وأما السيد كليم مور (Cliem Moore) المندوب الدائم في أوربا للاتحاد

واحد من انتهاء أشغال المؤتمر ونشر نتائجها، أصدرت الحكومة الفرنسية قراراً يحمل تاريخ الثامن والعشرين من شهر جانفي سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف ويقضي بحل الاتحاد بحجة انتمائه لجبهة التحرير الوطني، وبذلك دخل التنظيم الطلابي الجزائري مرحلة السرية إلى جانب باقي المنظمات الجماهيرية العاملة في صفوف الثورة، ويستعمل جميع الوسائل لتجسيد أيديولوجيتها على أرض الواقع.

وإذا كان التنظيمان العمالي والطلابي قد وقعت هيكلتها قبل مؤتمر وادي الصومام، فإن الاتحاد العام للتجار الجزائريين لم يتأسس إلا بعد أن رجعت لجنة التنسيق والتنفيذ إلى العاصمة. وقد انعقد مؤتمر الأول يومي الثالث عشر والرابع عشر من شهر سبتمبر سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف، وقام بدور أساسي في إنجاح إضراب الأسبوع المسطور أعلاه.

قبل ذلك، وبأمر من قيادة الثورة، أعلن الاتحاد عن إضراب تجريبي بمناسبة الذكرى الثانية لانطلاق الكفاح المسلح، ولقد استجاب التجار الجزائريون بالإجماع للإعلان المذكور مما جعل السلطات الاستعمارية ترد بعنف كبير فتأمر بإغلاق المتاجر[1] ولمدد تتراوح ما بين شهر وشهرين وتلقي القبض على عشرة من القيادة المنتخبة حديثاً[2] وتزج بهم في محتشد البرواقية[3] وفي نهاية شهر نوفمبر من نفس السنة شارك الاتحاد، بمدينة طرابلس، في أشغال المؤتمر السادس لغرف التجارة والصناعة والفلاحة عن البلدان العربية[4] وقدم بالمناسبة، عرضاً وافياً عن الإمكانيات الاقتصادية التي تتوفر عليها الجزائر، ومنذ ذلك التاريخ دخل السرية هو أيضاً وراح يعمل بكل ما في وسعه على تعبئة عالم التجارة إلى جانب الكفاح الذي يخوضه الشعب الجزائري بقيادة جبهة التحرير الوطني.

العام لطلبة الأمريكية فإنه طرد من التراب الفرنسي بسبب كلمته التي جاء فيها: "إن الحرية لا تتجزأ، وإن الطلبة الأمريكان قد فهموا حقيقة الاستعمار الفرنسي. وكما انهزم العنصريون في مدينة ليتل روك، فإن المستعمرين الفرنسيين مضطرون للاعتراف باستقلال الجزائر". علماً بأن ليتل روك هي عاصمة الأركانزاس التي عرفت في تلك السنة أحداثاً خطيرة لنتيجة المعارضة السياسية الاندماجية.

[1] المجاهد، العدد11، ص158.

[2] في مقدمة المعتقلين كان رئيس الاتحاد السيد عباس التركي.

[3] مدينة تقع بولاية المدينة على بعد حوالي 100 كلم جنوب العاصمة في طريق الجلفة والأغواط.

[4] وقع تأسيس هذه الهيئات العربية في بيروت سنة 1952، وكان من أهدافها المستعجلة إنشاء سوق عربية مشتركة لمواجهة ما قد يترتب عن إنشاء السوق الأوربية المشتركة.

ولم يكتف المغرب الأقصى وتونس بالتوقف عن الكفاح وقبول الحل الفرنسي تاركين جبهة التحرير الوطني وحدها في الميدان، بل إن السلطات الرسمية، في كل من البلدان قد أصبحت، خوفاً من فرنسا، تشد الخناق على الثورة الجزائرية فتعترض سبيل الإمدادات الواردة إليها من مختلف أنحاء العالم وتحاول، بشتى الوسائل، التدخل في شؤون جيش التحرير الوطني المقيم على حدودها، وفي كثير من الأحيان تتحول تلك المحاولات إلى معارك دامية بين الأشقاء.

من هذا المنطلق قررت الدورة تكثيف الاتصال بسلطات البلدان وحددت لذلك مجموعة من الأهداف تندرج كلها في إطار التوجه الوحدوي كما جاء التنصيص عليه في بيان الفاتح من نوفمبر[1]، وفي مقدمة هذه الأهداف يأتي ما يلي:

1- فتح مفاوضات عسكرية لتسوية أوضاع الأسرى من جميع الأطراف ثم التعرض لنقاط الخلاف والعمل على إزالتها. وفي هذا السياق وقعت في تونس لقاءات متعددة بين ممثلين عن جبهة التحرير الوطني وممثلين عن الجيش التونسي ولقاءات أخرى مماثلة في المغرب الأقصى.

وعلى الرغم من أن تلك اللقاءات قد ساعدت على تلطيف الأجواء وحل بعض المشاكل الثانوية إلا أن التحفظات ظلت قائمة ولم تتمكن الأطراف المتفاوضة من تجاوز عقد الإقليمية التي غرستها فيهم سلطات الاستعمار، ولم تتوقف القوات التونسية والقوات المغربية، كل واحدة على حدودها، عن مهاجمة مراكز جيش التحرير الوطني الجزائري وحجز كميات كبيرة من الأسلحة الموجهة إليه عن طريق البحر، ولم تنج حتى المؤن والأغطية والملابس والأدوية المخصصة للاجئين.

2- العمل على إعادة إحياء الاتفاق المبرم بتاريخ الواحد والعشرين من شهر جانفي سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف بين جيش تحرير المغرب وجيش التحرير الوطني الجزائري والذي مفاده أن الطرفين لن يتوقفا عن الكفاح المسلح حتى يسترجع المغرب العربي كله

---

[1] انظر الملحق رقم 8.

استقلاله التام. ويؤكد الاتفاق أن قضية شمال إفريقيا قضية شعب واحد "غلب على أمره على يد مستعمر واحد في ظروف واحدة ولو اختلف التاريخ"[1].

3- العمل بجميع الوسائل على تحميس الشعب العربي في كل من تونس والمغرب الأقصى حتى يستمر في ضغطه على السلطات الرسمية من أجل إبقائها ملتزمة بمساندة الكفاح المسلح في الجزائر وعدم الرضوخ للتهديدات الصادرة عن الحكومة الفرنسية.

4- العمل على إقناع الطرفين المغربي والتونسي بسلامة موقف جبهة التحرير الوطني الذي يطرح الاعتراف بالاستقلال شرطاً مسبقاً للدخول في أي تفاوض مع السلطات الاستعمارية.

5- تشجيع المغرب وتونس على مواصلة العمل، الدولي من أجل بلورة الحل المغاربي للقضية الجزائرية وذلك في إطار التوصية التي صادقت عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 1957/12/11[2].

أما بالنسبة للعلاقات الخارجية، وفي إطار تدويل القضية الجزائرية كما جاء ذلك في بيان الفاتح من نوفمبر، لاحظت الدورة الأولى للمجلس الوطني أن فرنسا لم تغير سياستها التي تجعل الجزائر مجموعة من العملات الفرنسية لا يحق لأي تنظيم خارجي، بما في ذلك الأمم المتحدة، أن تتدخل في شؤونها.

وعلى الرغم من المناورات الديبلوماسية الهادفة إلى تخدير الرأي العام العالمي بواسطة إبداء الاستعدادات الوهمية للتفاوض مع ممثلي جبهة التحرير الوطني[3]، فإن الحكومة الفرنسية لم تقطع أية خطوة من شأنها التدليل على نيتها في التوصل إلى حل يأخذ في الاعتبار طموحات الشعب الجزائري في استرجاع

---

(1) حربي، جبهة التحرير الوطني، ص212

(2) كانت بالإجماع المصادقة وتغيب فرنسا وجنوب إفريقيا عن التصويت وجاء في هذه اللائحة: أن الأمم المتحدة تسجل بارتياح الوساطة التونسية المغربية وتدعو إلى مفاوضات مباشرة.

(3) بدأت الاتصالات بين جبهة التحرير الوطني وحكومة في مولي ببلغراد عاصمة يوغسلافيا في نهاية شهر جويلية سنة 1956 ثم استمرت بروما في شهر سبتمبر من نفس السنة. وقد كان يمثل جبهة التحرير الوطني في كل هذه اللقاءات وإلى غاية يوم 5 سبتمبر: السيد محمد خيضر مرفوقاً بالسيدين محمد يزيد وكيوان. أما الجانب الفرنسي فكان يمثله السيدان: بيار كومين وبيار هاربو وكلاهما أمين عام مساعد للفرع الفرنسي للدولة العمالية التي كان مولي نفسه هو أمينها العام. وأما آخر لقاء بين الطرفين فقد كان في بلغراد بتاريخ 1956/9/22 وكان رئيس وفد جبهة التحرير الوطني هو الدكتور محمد الأمين دباغين وفي جويلية سنة 1957 استؤنفت هذه الاتصالات عن طريق الآنسة جرمان تبون رئيسة دوان السيد جاك ستيل.

استقلاله، لأجل ذلك، أصدرت الدورة لائحة تدعو، من خلالها، إلى تكثيف النشاط الخارجي الذي أوصت بأن يكون في اتجاهات ثلاثة:

1- في اتجاه الأمم المتحدة:

لقد أثبت مجلس الأمن أنه قادر على التدخل لتسوية القضايا المعقدة عندما وضع حداً للاحتلال الهولندي في أندونيسيا سنة تسع وأربعين وتسعمائة وألف. لكن فيما يخص الجزائر، فإن فرنسا تملك حق الفيتو، وعليه فإن جبهة التحرير الوطني مضطرة للتركيز على الجمعية العامة معتمد على نص المادة العاشرة من ميثاق الأمم المتحدة الذي يؤكد المسطور في الميثاق المذكور. وإقناع الجمعية العامة للأمم المتحدة بعدالة القضية الجزائرية ليس بالأمر الهين خاصة إذا علمنا أن الولايات المتحدة الأمريكية تقف وراء الدبلوماسية الفرنسية، يكفي للتدليل على ذلك نص الفقرة التالية المقتطفة من الندوة الصحفية التي عقدها السيد جون فوستر دلاس[1] يوم 11957/2/4 بمناسبة أشغال الدورة الحادية عشر للأمم المتحدة:

"إن الولايات المتحدة الأمريكية مقتنعة بأن الجمعية العامة للأمم المتحدة لا يمكن أن تقدم أية لائحة عملية حول القضية الجزائرية. أتمنى أن لا تحاول ذلك الوضع في الجزائر معقد جداً، ولا أدري إذا كان يمكن التوصل إلى صياغة نص ذي قيمة في الموضوع، بل إني أشك حتى في جدوى العمل على إيجاد مثل ذلك". وأمام اللجنة السياسية التي كانت مجتمعة عشية انعقاد الدورة الموالية. صرح هنري كابت لودج قائلاً: "ينبغي، في الوقت الراهن، إعطاء فرنسا إمكانية إرساء قواعد التطور السياسي الذي يضمن لسكان الجزائر تحقيق طموحاتهم في السلام والاستقرار[2].

ولم تستسلم جبهة التحرير الوطني لذلك التحيز المعلن، بل إن لجنة التنسيق والتنفيذ قد جندت أكثر الإطارات كفاءة من أجل النفاذ إلى أوساط الطبقات الحاكمة في جميع الدول الغربية وفي مقدمتها بريطانيا، أمريكا، إيطاليا، وألمانيا واستطاعت في بداية الأمر، أن تستميل رجال الأعمال وتجار الأسلحة ثم تمكنت، بالتدريج من ربح ثقة في التشكيلات السياسية التي لم تلبث أن تبنت

---

(1) من مواليد واشنطن سنة 1888 وقد توفي بها سنة 1959 كان محامياً وسياسي، عينه الرئيس ايزنهاور كاتباً للدولة سنة 1952.

(2) انظر المجاهد، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، العدد 18 الصادر بتاريخ 1958/2/15. ص:3 وما بعدها.

القضية الجزائرية وصارت تناضل في سبيل تسويتها على أساس الاستقلال الوطني.

2- في اتجاه المنظمة الأفرو آسيوية:

لقد وجدت الثورة الجزائرية، منذ الأسابيع الأولى لاندلاعها، سنداً قوياً في دول إفريقيا وآسيا. ويرجع الفضل في ذلك، بادئ الأمر، إلى روابط العروبة والإسلام التي وظفت إلى أبعد الحدود من أجل تدويل القضية الجزائرية وفتح المجال الديبلوماسي العالمي أمام جبهة التحرير الوطني.

ففي شهر جانفي سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف[1] تحركت المملكة العربية السعودية بواسطة الرسالة إلى مجلس الأمن تطالبه فيها بالتدخل السريع لإيقاف الحملات القمعية التي تمارسها فرنسا الاستعمارية في الجزائر. وبعد ذلك بحوالي ثلاثة أسابيع طلبت مجموعة من الدول الأفرو آسيوية إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة العاشرة للأمم المتحدة[2].

وفي سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف. وفي اليوم الثالث عشر من شهر جوان، طلبت ثلاث عشرة دولة إفريقية آسيوية من مجلس الأمن أن يعقد جلسة عاجلة لإنهاء الحرب الدائرة رحاها في الجزائر. رفض ذلك، فإن مجموعة أخرى من البلدان الأفرو آسيوية قد طلبت، في الأول من أكتوبر عام ستة وخمسين وتسعمائة وألف إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمالها الحادية عشر[3].

وفي السادس عشر من شهر جويلية سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف طلبت إدراجها في جدول أعمال الدورة الثانية عشرة.

وفي كل واحدة من هذه المرات كانت الجمعية تتخذ قرارات إجماعية تعرب فيها عن أملها في أن تتوقف الحرب في الجزائر بواسطة التفاوض بين فرنسا وجبهة التحرير الوطني. لكن، في كل مرة، كانت فرنسا تضرب عرض

(1) تلقى مجلس الأمن الرسالة لكنه أهملها ولم يتخذ أي إجراء من شأنه المساعدة على تسوية القضية الجزائرية.

(2) لقد درست اللجنة العامة هذا الطلب لكنها رفضت إدراج القضية في جدول أعمال الدورة العاشرة، وعلى الرغم من ذلك فإن الجمعية العامة تجاوزت قرار لجنتها وشرع الأعضاء في مناقشة المشكل الجزائري، ثم تدخلت أطراف متعددة في مقدمتها أمريكا وبريطانيا وسحب الموضوع ترضية لفرنسا.

(3) بعد البحث والدراسة الوافية للموضوع صادقت الجمعية العامة على لائحة تعرب فيها عن أملها في أن تحل القضية الجزائرية حلاً ديمقراطياً وعادلاً يتماشى مع قرارات الأمم المتحدة.

الحائط بتوصيات الجمعية العامة مستغلة عضويتها في مجلس الأمن وما يتبع ذلك من حق استعمال الفيتو.

ولقد درست الدورة الأولى للمجلس الوطني للثورة الجزائرية هذا الوضع، وإذ ثمنت الجهد المبذول من طرف عدد كبير من الدول الأفرو آسيوية، فإنها قررت تشكيل وفود متعددة تتحرك في جميع المناسبات ولا يبقى العمل مقصوراً على دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن وكان لنشاط تلك الوفود أثر فاعل لم يلبث أن تجسد في مؤتمر التضامن الأفرو آسيوية المنعقد في القاهرة بتاريخ السادس والعشرين من شهر ديسمبر سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف[1].

3- في اتجاه الحلف الأطلسي:

تنص المادة الرابعة من ميثاق الحلف الأطلسي على أن المنظمة "تجتمع كلما بدا لواحد من أطرافها أن سلامة ترابه الوطني واستقلاله السياسي أو أمنه مهدد". ولقد تمكنت فرنسا أثناء وضع الميثاق المذكور سنة تسع وأربعين وتسعمائة وألف من أن تجعل المادة السادسة تنص بصريح العبارة على أن الاعتداء على الجزائر يعتبر اعتداء على فرنسا. ولقد استغل بعض السياسيين والبرلمانيين الفرنسيين وجود هذين النصين فراحوا يدفعون حكومتهم إلى المطالبة بتدخل الحلف مباشرة لخنق أنفاس الثورة في الجزائر.

وكان أعضاء المنظمة يعرفون حقيقة ما يجري في الجزائر، ويدركون أنه يتنافى مع روح المادة السابقة من ميثاقهم التي تمنع المساس بالحقوق المنصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة وفي مقدمتها حق الشعوب في تقرير مصيرها، لكنهم، رغم ذلك، كانوا متعاطفين مع فرنسا بسبب ما يجمع بينهم من منطلقات استعمارية وإمبريالية، ولقد جاء التعاطف المذكور مجسداً في مواقف كل من أمريكا وبريطانيا على مستوى مجلس الأمن وكذلك في غض الطرف عن تحويل فرنسا لقواتها العسكرية من قواعد الحلف الأطلسي إلى داخل التراب الجزائري وهي محملة بأرقى ما أنتجته المصانع الحربية في الولايات المتحدة

---

[1] قـرر المؤتمر أن يكون يوم 30 مارس من كل سنة هو يوم التضامن مع الشعب الجزائري وأوصى بأن يعمل كل بلد على:

-تأسيس اللجان الوطنية من أجل تحرير الجزائر بواسطة جمع الأموال والأدوية والأغذية

-توجيه نداء إلى شعوب العالم كله من أجل مساعدة الجزائر بجميع الوسائل

- توجيه نداء إلى جميع الحكومات الأفرو آسيوية قصد تذكيرها بضرورة الدفاع عن القضية الجزائرية أمام سائر الهيئات الدولية.

الأمريكية وفي إنكلترا.

فأمام هذا الوضع المتحيز الصارخ، قرر المجلس الوطني للثورة الجزائرية تعبئة أقصى ما في حوزة جبهة التحرير الوطني من إمكانيات من أجل النفاذ إلى مختلف مستويات القرار في البلاد الغربية عامة وفي أمريكا وبريطانيا على وجه الخصوص، وبفضل تحركات الكتلة الأفرو آسيوية وبعض مواقف المعسكر الاشتراكي، استطاعت القضية الجزائرية أن تفرض نفسها على الساحة الدولية وبالتدريج أصبحت الشعوب الغربية نفسها تتحدى حكومة فرنسا وتعلن عن مواقفها المساندة لكفاح الشعب الجزائري بقيادة جبهة التحرير الوطني[1].

خلاصة الفصل:

هكذا، إذن، يتضح من خلال هذا الفصل أن جبهة التحرير الوطني حاولت بالتوجيهات الرئيسية الواردة في مشروع المجتمع الذي تضمنته وثيقة وادي الصومام، وعلى الرغم من الصعوبات التي ظهرت في الميدان بالنسبة لجناحيها السياسي والعسكري، وعلى الرغم من أن فرنسا ألقت بكل ثقلها المادي والبشري في ميدان المعركة، فإن الثورة قد تجذرت في أوساط الجماهير الشعبية التي اطمأنت للتنظيم المحكم وللانتصارات الكثيرة والمتنوعة التي اطمأنت لم يعد قادراً على إخفائها.

وأمام ذلك الوضع الجديد، ونظراً لقرار وادي الصومام المتعلق بإمكانية إسناد المناصب القيادية العليا إلى الإطارات القادمة من التشكيلات السياسية التي لم تكن تؤمن بضرورة انتهاج الكفاح المسلح كطريقة وحيدة لاسترجاع السيادة المغتصبة ونظراً، كذلك، للتكوين العالي والخبرة الواسعة التي كان يتمتع بها هؤلاء الإطارات بالمقارنة مع نظرائهم المكونين في صفوف حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، فإن نوعاً من الانحراف قد بدأ يتسرب إلى المنطلقات الأيديولوجية نفسها[2]، وساعد على ذلك ظهور التنافس على المسؤولية في أعلى

---

(1) *تجلت هذه المواقف خاصة في نشاط الصليب الأحمر العالمي والحركات النقابية، وأهم ما تجدر الإشارة إليه نداء اتحادية نقابة العمال.*

(2) *مثل التخلي بالتدريج، عن الإطار الإسلامي والعروبي الذي كان حزب الشعب الجزائري قد ضبطه وظل ملتزماً به لبناء الدولة الجزائرية المستقلة، ومثل اللجوء إلى بعض المصطلحات والمفاهيم المركزية التي سوف نتعرض لها بالتفصيل في الباب التالي، ومثل عدم السهر على تكوين إطارات جبهة وجيش وطني طبقاً لما تقتضيه أيديولوجية الحركة المصالية التي سبقت الإشارة إليها في الفصل الثالث.*

هرم السلطة بالإضافة إلى تمكن الثقافة الغربية من ذهنيات عدد كبير من المسؤوليين القياديين في جبهة التحرير الوطني في الخارج لأن الداخل سيظل سليم التوجه بفعل تأثير القواعد التي لا يمكن أن ترضى بأي بديل عن عروبتها وإسلامها.

وبالفعل، فإن أدبيات جبهة التحرير الوطني التي كانت تنشر على أعمدة لسانها المركزي أو في شكل منشورات وكتيبات قد تتلون بألوان مختلفة وتجندت جهتان على الأقل للتأثير في أيديولوجية الثورة الجزائرية، فمن ناحية، هناك ما يسمى بالتيار التحرري في فرنسا، فأصحاب هذا التيار هم الذين أطلقوا على أنفسهم هذه التسمية لإيهام الوطنيين الجزائريين والرأي العام العالمي بأن ثمة، في صفوف الشعب الفرنسي، من يرفض الاستعمار ويناهض ممارساته اللاإنسانية ولذلك فهم يساندون الكفاح الذي يخوضه الشعب الجزائري في سبيل استرجاع استقلاله الوطني، وفي الواقع فإنهم إنما يخططون لمستقبل بلادهم بواسطة العمل بجميع الوسائل على احتواء العناصر الأكثر تأثيراً في قيادات الثورة وجعلهم ينبهرون أمام شعارات جوفاء مثل الديمقراطية واللائكية والمبادئ الجمهورية وحقوق الإنسان وغيرها مما هو مستنبط من التاريخ الأوربي ولا علاقة له بالمجتمع العربي الإسلامي في الجزائر.

أما الجهة الثانية فتتمثل في المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفياتي الذي أدرك أن الحزب الشيوعي الجزائري قد أخفق في أن يجد لنفسه مكانة محترمة في قيادة الثورة فراح يجند الديمقراطيات الشعبية التي تدور في فلكه لمواجهة التوسع الرأسمالي في المنطقة.

لقد كان من المفروض، في نظر الاتحاد السوفياتي، أن يكون الحزب الشيوعي الجزائري هو قائد الثورة أو، على الأقل، هو طليعتها التي بيدها التخطيط والتوجيه. لكن الحزب الشيوعي الجزائري عجز عن الإلتحام بالجماهير الشعبية وربح ثقتها وذلك بسبب الفكر الماركسي الذي ينطلق منه والذي يتنافى، في كثير من المواطن، مع الدين الإسلامي الذي هو دين الشعب الجزائري من جهة، وبسبب تبعية الشيوعيين الجزائريين للحزب الشيوعي الفرنسي الذي ينكر وجود الأمة الجزائرية بمفهومها الوطني ويرفض، عن قناعة، استقلال الجزائر عن الإمبراطورية الفرنسية[1].

---

thorez (Maurice) textes choisis sur l,algerie, paris [1]

لأن تحرك هذين التيارين من أجل النفاذ بقوة في أوساط الثورة الجزائرية بالخارج قد ولد بالتدريج مجموعة من المصطلحات والمفاهيم الغربية التي سوف تكون منطلقاً لكثير من الغموض الذي سيجعل الانحراف يبلغ أوجه في مؤتمر طرابلس سنة اثنين وستين وتسعمائة وألف. ومن جملة تلك المصطلحات والمفاهيم التي انتشرت بسرعة كبيرة كان لها مفعول سيئ على مسار الثورة نذكر على سبيل المثال: الباءات الثلاثة، العسكريون، المحافظون، المعتدلون، التقدميون، المتشددون الرجعيون العرب والقبائل[1].

ومما لا شك فيه أن تداول هذه المصطلحات وهذه المفاهيم المزيفة في وسائل الإعلام الفرنسية والغربية بصفة عامة قد رسخها في الأذهان وجعلها، شيئاً فشيئاً، تتحول إلى نوع من المعتقدات التي نخرت جسم الثورة وساعدت على تشتيت قواها الحقيقية بالإضافة إلى فتح أبواب واسعة أمام جحافل المخترقين من الأعداء والانتهازيين. لكن أول خطوة في طريق الانحراف الأيديولوجي القاتل تبقى هي إلغاء مبدأ العمل الجماعي من طرف أقوى عناصر لجنة التنسيق والتنفيذ عندما قرروا ثم نفذوا إعدام رفيقهم الشهيد عبان رمضان دون محاكمة وسبب معلوم وخاصة دون الرجوع إلى المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي هو وحده مؤهل للنظر في مثل هذه القضية. ولم تبق هذه الخطوة يتيمة بل تكررت بالنسبة لقرارين حاسمين في تاريخ الكفاح المسلح وهما: نقل الحرب إلى فرنسا وتأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية[2].

إن الأمر هنا، لا يتعلق بتقييم القرارين في حدهما إيجابيان ومفيدان للثورة ما في ذلك شك، وقد أثبت التاريخ ذلك، ولكن الطريقة المستعملة في اتخاذهما تشكل انتهاكاً صارخاً لصلاحيات المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وسوف

هـناك نصان على الأقل يوضحان الموقف الشيوعي من جبهة التحرير الوطني ومن استرجاع الجزائر استقلالها. ففي الأول موريس توريز: إن الوسائل التي تستعملها جبهة التحرير الوطني في فرنسا لا تخـدم قضـية الشعب الجزائري، و إذا كانت جبهة التحرير الوطني تهدف إلى تثوير الرأي العام، فإنها قد أخطأت في الحساب لأنها إنما تثير العداوة ضدها"، توزير إلى الشيوعيين وأنصارهم ليقولوا "لا" للسـؤال المطـروح بواسطة استفتاء يوم 1961/1/8 والذي يقول: "هل توافقون على مشروع القانون المتعلق بتقرير الشعب الجزائري لمصيره: انظر كذلك اليتسر هورن تاريخ حرب الجزائر، ص. 333 وص.450.

[1] لقد سبقت الإشارة إلى هذه المصطلحات والمفاهيم الزائفة في هذا الفصل.

[2] اتخذ هذان القرارن أثناء اجتماع لجنة التنسيق والتنفيذ بتاريخ 1958/9/9.

تتحول بالتدريج إلى قاعدة يلجأ إليها الأقوى كلما أراد الانفراد بالسلطة. وعندما نرجع الأمور إلى حقيقتها نقول بكل بساطة، إن الذين استعملوا هذه الطريقة أول مرة[1] هم الذين فتحوا باب الانقلابات العسكرية في تاريخ الثورة الجزائرية وقد كانوا هم أنفسهم ضحية لها سنة اثنين وستين وتسعمائة وألف..

■■■

[1] هم الباءات الثلاث أو: ابن طبال لخضر المدعو سي عبد الله، بلقاسم كريم وعبد الحفيظ بو الصوف

الباب الثالث

التحولات الفكرية الكبرى

الفصل الأول

الإثراء الثالث لنصوص جبهة التحرير الوطني

- *الضباط الجزائريون القادمون من الجيش الاستعماري*
- *مناورات الجنرال ديغول وحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه.*
- *المجلس الوطني للثورة الجزائرية في دورته الثانية.*

■■

- الضباط الجزائريون القادمون من الجيش الاستعماري

خط موريس من أخطاء تجسدت، بالتدريج، في منع الإمدادات المادية والبشرية من الوصول إلى داخل الوطن حيث أصبحت كل الولايات في حاجة ماسة إليها نظراً للعمليات المكثفة[1]التي جند لها الجنرال شارل أكثر من نصف مليون جندي لتمشيط الجزائر من الغرب إلى الشرق.

فهذان المبرران هما اللذان جعلا كريم يفصل لصالح أولئك الضباط في صراعهم مع خصومهم المشار إليهم أعلاه، وقد عبر في تحيزه لهم بواسطة تعيين الرائد مولود ايدير[2] رئيساً لديوانه العسكري وتكليفه بإعداد مشروع بناء نظامي على الحدود يتولى الإشراف عليه الضباط الجزائريون المكونون في صفوف الجيش الإستعماري.

وعلى الرغم من أن الرائد مولود إيدير قدم مشروعه[3] إلى لجنة التنسيق والتنفيذ بتاريخ التاسع عشر من تاريخ جويلية سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف، فإن كريم بلقاسم لم يتمكن من تمريره وجعله يحظى بالموافقة الجماعية، بل أن ضباط جيش التحرير الوطني قد وجدوا في ذلك عاملاً أساسياً للتضامن والتوحد اللذين مكنا في إجهاض المشروع وسدّ طريق المسؤولية الحقيقية في وجه الضباط القادمين من الجيش الفرنسي[4] وسوف يظل هذا الخلاف قائماً إلى

---

(1) تعرف هذه العمليات إجمالاً بمخطط شال، وكانت في تفرعها تأخذ أسماء مختلفة مثل: اكلار (البرق) وجيمال (التوأمان) وقد استمرت من ديسمبر 1985 إلى فيفري 1960.

(2) كان رائد في الجيش الفرنسي عندما التحق بجبهة التحرير الوطني وعين مسؤولاً عسكرياً عن الحدود الجزائرية الليبية ثم استدعاه كريم ليكون رئيساً لمكتبه العسكري سنة 1958. وعندما قوي جانب خصوم كريم عين سفيراً لدى الباكستان سنة 1960.

(3) يحدد هذا المشروع رجال جيش التحرير بعدد 160000 جندي منهم 5000 ضابط و 16000 ضابط صف و 25000 عريف، وفي جميع مستويات الجيش يطبق الإنضباط العسكري المعروف في صفوف الجيش الفرنسي. أما القادة المناضلون فيسرحون باعتبارهم ينطوون على بذور الفوضى.

(4) حربي (محمد) جبهة التحرير الوطني، ص 232و ما بعدها.

- أن يقع الإنقلاب التاسع عشر من شهر جوان سنة خمس وستين وتسعمائة وألف ويقوم العقيد هواري بومدين بترجيح كفة هؤلاء الأخيرين وتمكينهم من السلطة الفعلية التي ستساعدهم بالتدريج على تصفية الإطارات الذين قامت الثورة على أكتافهم[1].

ولقد كان الفصل في الموضوع بالكيفية التي لجأ إليها بلقاسم كريم. قد أفقد هذا الأخير سمعته الطيبة التي يتمتع بها في أوساط مختلف ولايات الوطن بالإضافة إلى أنه حول معظم ضباط جيش التحرير الوطني على الحدود الشرقية والغربية إلى خصوم صاروا يعملون بكل الوسائل على طرده ومن معه من القيادة العليا ودخلت الثورة في الأراضي التونسية خاصة مرحلة حرجة تميزت بالفوضى وعدم الإنضباط وبالاستعداد الفعلي للإنقلاب لكن الباءات الثلاث، وفي جو من التضامن بينهم، سبقوا الأحداث فتمردوا على المجلس الوطني للثورة وأعلنوا، باسم لجنة التنسيق والتنفيذ، عن ميلاد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كما أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق.

وعلى الرغم من تمكن الباءات الثلاث من إجهاض المحاولة التصحيحية التي قام بها كل من العقداء محمد[2] لعموري ومصطفى لكحل، فإن قيادات الداخل قد عقدت ندوة بأراضي الولاية استمرت من اليوم السادس إلى اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف[3] وصادقت على محضر جلساتها ثم أرسلته إلى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بواسطة الرائد عمر أو صديق[4].

ومن الجدير بالذكر أن هذا المحضر قد تضمن نقداً لاذعاً للطريقة التي تم

---

(1) استطاع عبد القادر شابو الذي عينه بومدين أميناً عاماً لوزارة الدفاع أن يصفي صفوف الجيش الوطني الشعبي من ضباط جيش التحرير الوطني في ظرف خمس سنوات فقط وأسند كل مناصب الحل والربط لرفاقه القادمين من الجيش الفرنسي. لقاء مطول مع الرائد عبد المجيد كحل الرأس في بيته يوم 1972/04/12.

(2) أنظر التفاصيل في الفصل السابق.

(3) حضر هذه الندوة العقيد عميروش قائد الولاية الثالثة وهو صاحب الدعوة، والعقيد العبيدي الحاج لخضر قائد الولاية الأولى والعقيد أحمد بن عبد الرزاق، قائد الولاية السادسة، والعقيد بوقرة سي امحمد قائد الولاية الرابعة، حين لم يستجب للدعوة العقيد لطفي قائد الولاية الخامسة واعتذر عن المشاركة العقيد علي كافي قائد الولاية الثانية المستضيفة للندوة.

(4) كان عضواً بمجلس الولاية الرابعة عندما تأسست الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وعين بها كاتب للدولة.

بها تأسيس الحكومة، واشتمل على توبيخ للقيادة على تقاعسها وتهاونها بالنسبة لعملية التسليح التي توقفت نهائياً بسبب خطي موريس وشال. وورد في المحضر، دعوة إلى العودة للمبادئ التي وضعها مؤتمر وادي الصومام وخاصة منها أولوية الداخل على الخارج والقيادة الجماعية. وفي النهاية أعلن الحاضرون عن تأسيس لجنة التنسيق فيما بين الولايات لأن (الثورة لا يمكن تسيّرها بقيادة أركان مقرها خارج الحدود)[1].

ففي الثاني عشر من شهر مارس سنة تسع وخمسين وتسعمائة وألف تسلمت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية المحضر المذكور واستمعت إلى شروح وافية في الموضوع قدمها كاتب الدولة الرائد عمر أو صديق[2]. بعد ذلك بدأت المهمات في إتجاه عواصم الوطن العربي وآسيا وبعض البلدان الأوربية[3]. وفي التاسع والعشرين من شهر جوان عادت كل الوفود إلى القاهرة حيث اجتمعت الحكومة برئاسة السيد فرحات عباس، وفي أثناء الإجتماع وقع إصطدام حاد بين العقيدين كريم ومحمود شريف[4] كاد أن يقود إلى استعمال الأسلحة ثم رفعت الجلسة وتقرر إستدعاء المجالس التي أصبحت تعرقل حسن سير الثورة.

مناورات الجنرال ديغول وحق الشعب الجزائري في تقرير المصير:

لقد مرت الثورة الجزائرية بمرحلة حرجة خلال سنة ثمان وخمسين

---

(1) فرحات عباس، تشريح حرب، الفجر، باريس 1980 ص: 256. يذكر الكاتب أن عمر أو صديق أسر له بأن عميروش عازم على أن لاتبقى في الخارج سوى مندوبية يسيرها شخص واحد هو فرحات عباس، أما في قيادة جبهة التحرير الوطني فإنهم سيجبرون على العودة إلى أرض الوطن وتسند القيادة العليا إلى ضباط برتبة جنرال قد يكون عميروش نفسه.

(2) نفس المصدر، ص: 258، يذكر عباس أن عرض أو صديق أدخل الرعب على النفوس وحير قدماء قادة الولايات بإخبار مزعجة تتعلق بمخطط شارل وبعمليات التعذيب والتقتيل التي استهدفت إطارات الثورة خاصة في الولايتين الثالثة والرابعة نتيجة النشاط الذي قامت به مصالح الإستعملات الفرنسية.

(3) بدأت هذه المهام بوفد رئاسي توجه إلى تونس يوم 59/03/22 ثم عاد إلى القاهرة ليقابل عبد الناصر قبل أن يتوجه إلى الهند والباكستان والعراق وغيرها من البلدان الشقيقة والصديقة وانتهت بزيارة يوغسلافيا حيث كان اللقاء مع المارشال تيتو يوم 1959/02/12.

(4) فرحات عباس، تشريح حرب، ص 268 وما بعدها.

وتسعمائة وألف، وبدأ ذلك بالإعتداء على مبادئ التسيير التي وضعها مؤتمر وادي الصومام وخاصة مبدأ القيادة الجماعية عندما قرر ثلاثة من أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ إعدام رفيق لهم دون، الرجوع إلى باقي أعضاء اللجنة ودون تقديم أي مبرر غير الجري وراء السلطة.

إن إغتيال عبان رمضان في شهر ديسمبر عام 1957 قد تسبب في تجميد نشاط لجنة التنسيق و التنفيذ لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر، وفي زرع بذور الشك في أذهان مختلف العناصر القيادية إلى درجة أن الثقة المتبادلة اختفت نهائياً. وقد إنعكس ذلك سلباً على سائر نشاطات جبهة التحرير الوطني و جعل معظم الطاقات تتصرف إلى الإحتراس من الآخر والتفنن في إيجاد وسائل الأمن الفردية، وفي نفس الوقت كانت السلطات الاستعمارية تقيم حاجز موريس[1] وتعمل على دعمه بخط شال.

وإبتداء من الفصل الأول لسنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف أصبح الحاجز مستحيل الإجتياز إلا إذا وافقت وحدات جيش التحرير الوطني على ترك ثلاثة أرباعها في الميدان مقابل ربع قد يصل إلى الأراضي الجزائرية، ورغم كل ذلك فإن السيد كريم بلقاسم ظل يوهم القيادة بأن الأسلاك المكهربة لا تشكل صعوبة تذكر في وجه قواتنا المقاتلة.[2]

لكن ذلك لم يكن هو رأي مسؤول التسليح العقيد وأعمران الذي وجه إلى لجنة التنسيق والتنفيذ تقريراً يحمل تاريخ الثامن من شهر جويلية سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف جاء فيه: "أن جيش التحرير الوطني الذي بلغ أوجه قوته من حيث العدد والسلاح يصاب حالياً بخسائر فادحة، إذ فقد في ظرف شهرين فقط أكثر من ستة آلاف مجاهد في منطقة عنابة وحدها. وإذا كنا في العام الماضي قد أوصلنا إلى الداخل أسلحة كثيرة، فإن تجديدها وتزويدها بالذخيرة قد أصبح الآن صعباً جداً بسبب الأسلاك المكهربة وما تتضمنه

---

(1) شرع في بناء خط موريس في شهر جوان 1957 وهو مزدوج من الأسلاك الشائكة المكهربة يمتد من البحر الشرقي في مدينة عنابة إلى قرية نقرين بوادي سوف على بعد حوالي عشرين كلم فقط من الأراضي التونسية ويهدف إلى سد المنافذ الجبلية المقابلة لقواعد جيش التحرير الوطني. وأما على الحدود الغربية فهو مقسم إلى شمالي بسد الأطلس التلي في مواجهة مدينة وجدة وجنوبي بسد الأطلس الصحراوي في مواجهة فقيق.

(2) المجاهد، العدد 23 ص439 وما بعدها.

فجواتها من حقول الألغام"[1].

وإلى جانب خط موريس كانت هناك الظاهرة الديغولية التي عم مفعولها البسيكولوجي مختلف أنحاء الجزائر ابتداءً من الثالث عشر من ماي سنة ثمانٍ وخمسين وتسعمائة وألف. فالدعاية الإستعمارية إستطاعت في ظرف قصير جداً أن تثبت في أذهان المواطنين الجزائريين عظمة الجنرال ديغول وقدرته على تسوية المشكل الجزائري واستعداده لتحقيق السلم في ربوع البلاد، ولم ينجوا من تأثير هذه الغاية حتى بعض كبار المسؤولين في جبهة التحرير الوطني وفي التنسيق والتنفيذ بالذات[2].

إن الجنرال ديغول يعدّ من أعظم الرؤوساء الذين عرفتهم فرنسا، ما في ذلك شك، و عظمته هي بالضبط ما يكذب الدعاية الاستعمارية المذكورة، وقد أورد هو نفسه في مذكراته ما يدعم قولنا هذا عندما توقف طويلاً عند المسألة الجزائية مؤكداً ((رجالاً تاريخيين أمثال دوبرمون[3]وبيجو[4] وكلوزيل[5] وهم الذين بذلوا جهوداً جبارة من أجل إلحاق الجزائر بفرنسا. وليس من المعقول أن تضيع هذه المستعمرة في عهد حكومتنا))[6]. لأجل ذلك فإنه فكر وقدر ثم وضع بنفسه خطة للقضاء على الثورة ترتكز على دعائم أساسية هي:

أ- التنمية الإقتصادية قصد تشغيل المواطنين وعزلهم عن جبهة التحرير الوطني وقد وظف لذلك أرصدة مالية كبيرة في إطار مايسمى بمشروع قسنطينة الذي أعلن عن ميلاده والشروع في تجسيده يوم الثالث من شهر أكتوبر سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف.

---

(1) نجد تأكيداً لهذا التبرير في كتاب فليب ترييي: تشريح حرب الجزائر، ص 205 وما بعدها.

(2) تشريح حرب، ص 241، يقول عباس فرحات: "من وجهة نظري فإن الجنرال كان قادراً على تسوية مشاكلنا إلا أنه لم يكن يمينياً ولا يسارياً، بل كان هو ضمير فرنسا.

(3) من مواليد 1773. عين وزير للحربية الفرنسية سنة 1846 ثم قاد الحملة إلى الجزائر ووقع مع الداي وثيقة الإستسلام ورقي إلى رتبة مرشال فرنسا سنة 1832 وتوفي عام 1846 أنه لم يكن يمينياً ولا يسارياً بل هو ضمير فرنسا.

(4) جنيرال فرنسي ارسل إلى الجزائر لمحاربة الأمير عبد القادر سنة 1836، وقع معاهدة التافنة سنة 1837 وفي سنة 1840 عين حاكماً عاماً للجزائر فمارس فيها سياسة الأرض المحروقة وإستقال من الجيش سنة 1847. ومات بعد ذلك بقليل مصاباً بمرض الطاعون.

(5) عين حاكماً للجزائر بعدما أن خرج منها ديمون سنة 1830:هزيمة أحمد باي أمام قسنطينة 1836. توفي بعد أن عين مرشال فرنسا سنة 1842.

(6) مذكرات الجنرال ديغول، الأمل، ص71.

ب- إيهام الرأي الفرنسي والعالمي بالجنوح إلى السلم قصد الحد من الإنتصارات التي حققتها وتحققها جبهة التحرير الوطني في حظيرة الأمم المتحدة ولدى منظمات الجمهورية المختلفة.

ففي هذا الإطار أعلن، في اليوم الرابع من أكتوبر من نفس السنة أنه يأمر العسكريين بمغادرة لجان السلامة العامة(1) وفي اليوم الثالث والعشرين من ذات الشهر عرض على جيش التحرير الوطني ما يسمى بسلام الشجعان.

ج- إعادة تنظيم الجيش وتزويده بأحدث أنواع الأسلحة مع أمره بتكثيف العمليات العسكرية الهجومية، وبهذا الصدد استدعى الجنرال صالان إلى باريس واستبدله في اليوم الثاني من شهر ديسمبر بالجنرال شال كقائد عام للقوات المسلحة وبول دولوفريبي كمندوب عام لفرنسا في الجزائر.

وإذا كان الجنرال ديغول في العلانية يبدي نفس الإهتمام بالدعائم الثلاث المذكورة، فإنه في الواقع، كان يراهن فقط على الدعامة الثالثة معتقداً أن الإستراتيجية الجديدة[2] التي بشربها الجنرال شال قادرة على إنهاء الثورة في أجل قريب.

وبالفعل، لقد وضع تحت تصرف قائد القوات المسلحة الجديد إمكانيات ضخمة في المجالين المادي والبشري، ولمساعدته تم تعيين وترقية مجموعة من الجنرالات والعقداء الذين تخرجوا من المدارس العسكرية العليا أو الذين اكتسبوا

---

(1) تأسست هذه اللجان على أثر الحركة الثالث عشر من ماي سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف، بمبادرة من غلاة المعمرين والمتطرفين من الضباط في الجيش: وكان الهدف منها تجنيد الرأي العام في الجزائر وفي فرنسا من أجل الحفاظ على الجزائر فرنسية، تشكلت لجنة أم في الجزائر العاصمة ثم تلتها لجان محلية في جميع المستويات متضمنة أعضاء من الأوربيين.ومن الجيش وآخرين من الجزائريين المتمردين على سلطة جبهة التحرير الوطني. وفي نظر فرحات عباس، فإن هذه اللجان كانت في بداية الأمر ضد الجزائريين وضد فرنسا اللبرالية، تشريح حرب ص: 240.

(2) لقد عبر شال عن هذه الإستراتيجية الجديدة بقوله: ((أن تطويق الأماكن وتمشيطها لم يعد كافياً لأن الفلاقة)) يعرفون الأرض جيداً وهم يتنقلون بسرعة كبيرة، ولذلك يجب علينا، عندما نحتل منطقة أن نبقى فيها أطول مدة ممكنة حتى ندفع العدو إلى المجهول، فتواجدنا بالليل والنهار في الجبال وفي الأودية سيجعل المترددين يختفون، ونظراً إلى أنهم لا يستطيعون ذلك، لأنهم في حاجة ماسة إلى الإتصال بالسكان، فإن حياتهم ستتحول إلى جحيم وهذا ما ينبغي أن نحققه)).

في الميدان، خبرة واسعة في حرب الفيتنام وفي الجزائر نفسها[1].

ولم تكن استراتيجية شال مجرد حبر على ورق، بل أن كل المصادر تؤكد على أن كل العمليات العسكرية التي انطلقت مع بداية العام الجديد قد شكلت خطراً كبيراً على جبهة التحرير الوطني خاصة في الولايتين الثالثة والرابعة. أن هذه العمليات قد تواصلت إلى غاية عام ستين وتسعمائة وألف ملحقة اضراراً بالمدنيين وخسائر بجيش التحرير الوطني لم يعرف لها مثيل لا من قبل ولا من بعد[2]، وهو الأمر الذي جعل فرحات عباس يقول في كتابه ((تشريح حرب)) ((إن الجزائر لم تعرف ثقل الحرب مثل ما عرفت ذلك في عهد الجنرال ديغول))[3]لكن، على الرغم من كل هذه الجهود، فإن الجنرال شال لم يحقق الإنتصارات العسكرية التي طلبها منه رئيس الدولة الفرنسية الذي اضطره الواقع إلى الحل المبني على التفاوض وهو الحل الذي شرع في تطبيقه منذ 16/ 1959/05 عندما صرح، باسم فرنسا، أنه يعترف للشعب الجزائري بحقه في تقرير مصيره.

سياسة ديغول للقضاء على الثورة (عسكرياً) وقبل ذلك، كان الجنرال ديغول، في اليوم السابع عشر من شهر أفريل، أي بعد المعركة التي استشهد فيها قائد الولاية الثالثة والولاية السادسة بحوالي أسبوعين فقط، قد وجه رسالة تهنئة إلى الجنرال شال جدد له فيها ثقته المطلقة في نجاح برنامجه الذي قال عنه إنه يستحق التهنئة الكاملة في الجزائر،[4]وزادت هذه التهاني من غرور الجنرال شال الذي أدلى بعدها بأيام فقط إلى جريدة لومند الفرنسية بحديث أكد فيه أنه "آخذ بزمام الأمور وأن الإنتصار العسكري لا شك فيه وهو قريب"[5].

---

(1) *من جملة الضباط السامين تجدر الإشارة خاصة إلى الجنرالات: ألار، فراسيو، قامبياز، فور، ماسي، موست، وغيرهم وإلى العقداء: بويس، بيجار، ترانكي، بروزا، ديكتس، جيرا، كوستو، كوداز، قادر، سيكالدي وغيرهم.*

(2) *عرفت هذه العمليات نجاحاً كبيراً بفعل المحافظة على مناطق الطريق كما جاء ذلك في تعليمات الجنرال شارل وبفعل تكثيف الطلعات الجوية الموجهة للمراقبة والقصف، وليس أدل على ثقل خسائر جيش التحرير الوطني في هذه العمليات من كونها أدت في معركة واحدة إلى استشهاد قائدي الولاية الثالثة والسادسة العقيدين عميروش وسي الحواس والنائب الأول لقائد الولاية السادسة الرائد عمر ادريس ومجموعة كبيرة من مرافقيهم وقد حدث ذلك يوم 1959/03/29.*

(3) *تشريح حرب، ص 252.*

(4) *انظر جريدة: ليكون الجي العدد الصادر بتاريخ 1959/04/17، فإن البرقية قد نشرت على أعمدة الصفحة الأولى تحت عنوان: الجنرال ديغول يهنئ القادة العسكريين وتفوقهم.*

(5) *انظر جريدة لوموند، الصفحة الثانية من العدد الصادر بتاريخ 26/ 04/ 1959.*

ولم يلجأ الجنرال ديغول إلى تقرير المصير إلا عندما تأكد بنفسه من أن مخطط شال استهلك ولم يعد قادراً على التوصيل بسبب المقاومة غير المنتظرة التي أبدتها وحدات جيش التحرير الوطني التي عرفت كيف تتكيف مع الوضع الجديد من جهة[1] ونتيجة ظهور معارضة شديدة للمخطط المذكور في صفوف الضباط السامين في الجيش الفرنسي نفسه من جهة ثانية[2]فمن المعلوم أن شال أسس مخططه على النتائج المستخلصة من تجربة الجيش الاستعماري في الهند الصينية، محاولاً توظيف أساليب الحرب الثورية والدعاية النفسية التي طبقها القائد "هوشي منه" بعد أن اقتبسها من الزعيم الصيني "ماوتسي تونغ". لكنه لم يأخذ في الاعتبار شيئاً أساسياً هو أن تلك الأساليب الثورية والدعاية النفسية ما كانت لتنجح في تقويض أركان الاستعمار الفرنسي بالهند الصينية لولانبل الهدف المقصود وطبيعة التيار التحريري وتفاعل الشعب مع قيادته كلها عوامل لا يمكن للجنرال شال أن يتوفر عليها لإنجاز مخططه الذي لم يكن مصيره أحسن من مصير مخطط الجنرال نافار[3]في الهند الصينية.

دوافع رضوخ ديغول للتفاوض مع G.P.R.A

وفي مذكراته التي نشرت مطبوعة سنة سبعين وتسعمائة وألف، تعرض

---

[1] *بمجرد الشروع في تطبيق مخطط شال أعطيت الأوامر إلى فيالق جيش التحرير الوطني وكتائبه للإنقسام على وحدات خفيفة تخزن أسلحتها الثقيلة لتتمكن من التنقل بسرعة ومن خرق صفوف العدو بسهولة. وقد كان لهذا التكتيك مفعول جيد في الحفاظ على الأرواح والعتاد معاً.*

[2] *من جملة هؤلاء الضباط العقيد بيجار الذي وجه تقريراً إلى الجنرال جاء فيه على الخصوص: "مخططكم لا يمكن أن يكتب له النجاح لأسباب كثيرة منها: إننا نسير أربع كلم في الساعة بينما يقطع الجزائريون سبعة كلم وفي هذه الحالة سيظل اللحاق بهم من باب المستحيلات، ثم أن كثرة السيارات والدبابات تعرقل الجيش وتعوقه في سرعة التنقل، بالإضافة إلى أننا نخصص لحراستها حوالي مائة ألف جندي من بين النصف مليون عسكري المعبئين لإنجاح هذا المخطط". أما العقيد قادر فيرى أن المخطط مصيره الفشل ويختم تقريره قائلاً" مافائدة الطائرات والدبابات في محاربة مقاومين مدربين على حرب العصابات ويختفون في الأحراش ووراء الصخور في الجبال؟ إنني أطرح هذا السؤال وأنا أعرف أن الطيران الفرنسي يقوم كل يوم بثلاثمائة عملية". أنظر هذه الوثائق المجاهد، العدد 41، ص: وما بعدها.*

[3] *جنرال فرنسي من مواليد 1898. عين قائداً أعلى للقوات المسلحة في الهند الصينية في شهر ماي 1953 وضع هو أخر مخططاً عسكرياً وأدلى بتصريحات كثيرة يؤكد فيها قرب الإنتصار الذي تحقق له بطريقة أخرى في ديان بيان فو نشر كتاباً بعنوان "إختصار في الهند الصينية 1953/ 95415، صدر في باريس سنة 1956.*

الجنرال ديغول إلى الأسباب الحقيقية التي جعلته يختار تقرير المصير كحل نهائي للمسألة الجزائرية فقال: "كما هي العادة، فإن الاتصال المباشر مع الناس في مواطن نشاطهم قد وضع في ذهني معطيات ما كانت جميع التقارير لتستطيع تبيانها، لقد تأكدت الآن أن الثورة قادرة وستبقى قادرة إلى ما نهاية على إبقاء المقاومة في المناطق خاصة وذلك بمساعدة السكان. ففي هذا الصدد لفتت انتباهي مجموعة من المؤشرات منها أنني، حينما حللت بالأرياف، فإن الفلاحين الذين يسوقهم العسكر للتحية، يقفون باحترام على حافتي الطريق لكنهم يفعلون ذلك في صمت رهيب. أما في تيزي وزو، مثلاً، حيث كثافة السكان لا تسمح للجيش بإجبار الناس على التجمع، فإنهم لم يأتوا للقائي رغم مكبرات الصوت التي كانت تعلن عن مقدمي، وفي قرية من قرى منطقة القبائل حاولت السلطات أن يكون الإستقبال نموذجياً، فحييت بحرارة عند مدخل البلدية واستمعت للأطفال ينشدون النشيد الوطني الفرنسي. لكن، عندما هممت بالخروج، تقدم مني كاتب البلدية المسلم منحنياً، مرتعشاً وقال لي: أيها الجنرال، لا تنخدعوا أن الجميع هنا يريدون الإستقلال، وفي مدينة سعيدة[1] حيث قدم لي البطل بيجار فرقة جورة "المكونة من الفلاقة المعتقلين والمستسلمين، وكان من بينهم طبيب عربي فسألته: "مارأيكم يا طبيب 'أجابني قائلاً وعيناه مغرورقتان بالدموع: أن ما نريده، وما نحن بحاجة إليه هو أن نكون مسؤولين عن أنفسنا وأن لا يسأل عنا أحداً". إذن، أصبحت متأكداً أكثر من أي وقت مضى ورغم أننا نضيع الرجال والمال سدى في محاولتنا فرض الجزائر الفرنسية، وإن السلم لن يأتي إلا بمبادرات سياسية في اتجاه آخر وعلى فرنسا أن تفعل ذلك".

*** ومن جهة أخرى، استطعت أن تحقق من مواصلة حرب مستحيلة إلى ما لانهاية ستعرض جيشنا ومن خلال وحدتنا الوطنية إلى خطر، لأن طبيعة العمليات تؤدي حتماً إلى انقسام قواتنا".**

"لأجل ذلك، فإنني تعمدت مخاطبة الضباط المسؤولين عن العمليات قائلاً: إذا كان نجاح العمليات الجارية أساسي، فإن المشكل الجزائري لن يجد حله إلا إذا حصلنا على موافقة الجزائريين... وأن عهد الإدارة بواسطة الأوربيين قد انقضى... وإننا نواجه هذه الدراما في "الوقت الذي يتم فيه تحرير جميع

---

(1) هي اليوم عاصمة واحدة من ولايات الجزائر الثماني والأربعين. تقع جنوب غربي العاصمة على بعد حوالي 600 كلم، مشهورة بنبات الحلفاء ويكونها منطقة رعوية غنية وبها منبع يحمل نفس الإسم وله شهرة عالمية، تقع سعيدة على سفح سلسلة من الجبال التي دوخت فرنسا أثناء ثورة التحرير.

الشعوب المستعمرة... أما أنتم، فاسمعوني جيداً إنكم لستم الجيش من أجل الجيش. إنكم جيش فرنسا. لا وجود لكم إلا بها ولها وأنتم في خدمتها. وإن المسؤولية التي أتقلدها لتوجب على الجيش طاعتي لتحيا فرنسا. وأني لمتأكد من أنكم تفعلون ذلك وباسم فرنسا فإنني أشكركم عليه"[1].

أن اعتراف فرنسا بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه يعد إنتصاراً كبيراً بالنسبة لجبهة التحرير الوطني، لأنه يسحب ورقة أساسية من أيدي الديبلوماسية الفرنسية التي ما فتئت تشهر في وجه الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة واقع الجزائر كجزء لا يتجزأ من الجمهورية الفرنسية، أما الآن وقد اعترف رئيس الدولة الفرنسية بتمايز الشعب الجزائري عن الشعب الفرنسي، فإن الأمر قد تغير، وسهلت مهمة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية قصد تحقيق المزيد من الإنتصارات في المجال الديبلوماسي، بل أن طريق التفاوض قد أصبح مفتوحاً وخالياً من كل العراقيل.

ولقد كان هذا هو رأي جبهة التحرير الوطني نفسها إذ في افتتاحية لسانها المركزي، العدد السادس والخمسين: "إن القضية التي حاربنا من أجلها خمس سنوات والتي سجلها أول بيان للثورة وهي قضية تقرير المصير قد حلت بموقفين متكاملين اتخذ أحدهما يوم 16 سبتمبر عندما أعلن رئيس الجمهورية الفرنسية، لأول مرة، عن اعتراف فرنسا بحق تقرير المصير للشعب الجزائري، واتخذ ثانيهما يوم 28 من نفس الشهر عندما أعلنت الحكومة الجزائرية قبولها لهذا المبدأ كأساس لتسوية المشكلة"[2].

لكن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كانت، في هذه الأثناء، تعاني أزمة السلطة والنفوذ نتيجة الأحداث التي سبق أن تعرضنا لها في بداية هذا الفصل وبسبب موقف، كريم بلقاسم الذي أصبح، أكثر من أي وقت مضى، يعمل على الإنفراد بالقيادة العليا شاهراً في وجه الجميع كونه الوحيد المتبقي طليقاً وعلى قيد الحياة من بين أعضاء القيادة التي أشعلت فتيل الثورة[3]ويذكر السيد

(1) شارل ديغول، مذكرات الأمل، التجديد 1958-1962، باريس 1970 ص: 78 وما بعدها.

(2) المجاهد، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، وزارة الإعلام، الجزائر 1980، الجزء الثاني ص: 3 من العدد 56.

(3) خمسة أعضاء من تلك القيادة كانوا بالسجن وهم: رابح بيطاط، محمد بوضياف، محمد خيضر، أحمد بن بلة، وحسين أيت أحمد، وثلاثة استشهدوا وهم: مراد يدوش في معركة بوكركر يوم 18/01/

فرحات عباس أن هذا الشعور بالتعالي الذي كان يحرك بلقاسم كريم قد قوبل بآخر لا يختلف عنه من طرف العقيدين بو الصوف وابن طوبال اللذين" لم يترددا في التذكر بأنهما شاركا في إجتماع الإثنين والعشرين عندما كان كريم ما يزال متعلقاً باهداب مصالي" وخوفاً من أن يشتد الصراع ويتحول إلى مالا يحمد عقباه يتحمل رئيس الحكومة.[1] مسؤولياته ووجه إستدعاء إلى مجلس الولايات للإجتماع من أجل الحلول اللازمة للمشاكل التي تراكمت ولكي تضع حداً للنزاعات الشخصية القائمة ليس بين الباءات الثلاثة فقط ولكن بينهم فرادى ومجتمعين وبين عدد آخر من الأعضاء الأساسين في القيادة[2].

وعندما ألقى الرئيس خطابه التاريخي في اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر، كان بعض قادة الولايات قد وصلوا إلى تونس التي حددت كمرحلة أولى قبل الذهاب إلى طرابلس[3]ولم يكن بالإمكان تنقل مجالس الولايات لأسباب أمنية وعملية، ولذلك تم الإتفاق على أن تسند المهمة المحددة من طرف رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى خمس عقداء الولايات بالإضافة إلى العقيدين المسؤولين عن قيادة الأركان والباءات الثلاث.[4]

المجلس الوطني للثورة الجزائرية في دورته الثانية:

كان الإجتماع ماراتونيا ومطبوعاً بكثير من الحدة والصراحة[5]، أثيرت أثناءه جميع القضايا الأساسية مثل تمرير الأسلحة والذخيرة عبر خطي موريس

1957. مصطفى بن بولعيد نتيجة إنفجار راديو ملغم يوم 27 مارس 1975، فلم يبق سوى كريم بلقاسم طليقاً وعلى قيد الحياة.

[1] تشريح حرب، ص:269.

[2] تجدر الإشارة هنا إلى خاصة الصراع الحاد بين كريم بلقاسم ومحمود شريف الذي أتهم وزير الحرب بالعجز والتقصير وبأنه السبب في كل المشاكل التي تعرفها الثورة في الخارج وفي الداخل.

[3] من بين هؤلاء القادة: العقيد لطفي قائد الولاية الخامسة والعقيد لعبيدي لخضر المدعو الحاج لخضر، قائد الولاية الأولى والعقيد علي كافي قائد الولاية الثانية.

[4] أما مسؤولا قيادة الأركان فهما: العقيد هواري بومدين والعقيد محمدي السعيد، وأما قادة الولايات فهم العقيد علي كافي عن الثانية والعقيد الحاج لخضر عن الأولى والعقيد لطفي عن الخامسة، وعين لتمثيل الرابعة العقيد دهيلس سليمان.ولتمثيل الثالة الرائد يازورن لأن قائدي الولايتين لم يتمكنا من الخروج.

[5] المجاهد، العدد 59 الصادر بتاريخ 1960/02/05 ص635 وما بعدها، حيث يقرأ أن الإجتماع إنعقد في طرابلس ودام من يوم 1959/12/16 ص إلى يوم 18/ 01/ 1960 من الخروج.

وشال وضرورة دخول جيش الحدود وقيادته لتعزيز الولايات وكذلك رجوع القيادة العليا للثورة إلى أرض الوطن كما تقتضي ذلك المبادئ التنظيمية المنصوص عليها في وثيقة وادي الصومام. وعلى الرغم من أن أعضاء الحكومة كلهم في المجلس الوطني للثورة الجزائرية إلا أنه لم يسمح لهم حضور الإجتماع الذي أعتبر عسكرياً بحتاً. ويذكر السيد فرحات عباس أن العقيد لطفي لم يرض، في بداية الأمر، حتى بمشاركة من يسمون بالباءات الثلاث[1] نظراً لكونهم طرف في النزاعات القائمة ولكونهم أعضاء في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

وبعد كثير من الأخذ والرد وتدخل العديد من الأوساط[2] لإصلاح ذات البين ولتقريب وجهات النظر، وبعد توقف الاجتماع مرات متعددة، توصل المجتمعون إلى الإتفاق على تركيبة جديدة للمجلس الوطني للثورة الجزائرية وحددوا له اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر كبداية لأعماله في طرابلس.

أستمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية إلى البيانات المتعلقة بنشاط الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ثم انصرف إلى بحث عميق ومستفيض للوضعية العسكرية، وأتخذ مجموعة من القرارات الرامية إلى جعل الأجهزة النظامية للثورة تتلاءم مع الأوضاع الجديدة كما أجري تعديلاً خفيفاً على تركيبة الحكومة وأوصى بتكوين لجنة وزارية، داخلها، تكون مسؤولة عن شؤون الحرب وتشرف مباشرة على هيئات الأركان[3].

ولئن كانت أشغال المجلس قد مكنت من التغلب على كل المشاكل الداخلية واتسمت بالحكمة التي ساعدت على تجاوز الحساسيات الشخصية وتحقيق المصالح بين سائر النزعات وإقناع السيد كريم على التخلي، بمحض إرادته،

---

[1] لقد قال لهم العقيد لطفي في أولّ إجتماع: إننا سننظر في مشاكل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وسلقيّم اعمالها وانتم أعضاء في الهيئات: فكيف سيكون موقفكم وإذا وافقنا على مشاركتكم ألا يكون من العدل أن نسمح بذلك لباقي أعضاء الحكومة، وقد تسببت هذه الملاحظة المعقولة والملطقية في إغضاب السيد كريم الذي كان يعتقد أنه الزعيم بلا منازع، وكاد اللقاء أن يتحول إلى ازمة أخرى لولا تدخل العديد من الضباط السامين لجيش التحرير الوطني ولولا ما كان للعقيد بو الصوف من سلطة أدبية على العقيد لطفي.

[2] اهمهم كان هو السيد ابن يوسف بن خدة الذي كان بعيداً عن كل الشبهات في ذلك الحين نظراً لثباته على المبدأ واستمراره في المطالب بدخول الحكومة إلى أرض الوطن.

[3] يذكر السيد عباس فرحات أن تاريخ انعقاد المجلس هو 13 ديسمبر ((انظر تشريح ص: 279)) لكن ذلك خطأ لأن محاضر جلسات الدورة تحمل تاريخ 16 ديسمبر 1959.

عن مشروعه الخاص بقيادة الثورة[1]، فإن كل ذلك يبقى بسيطاً بالمقارنة مع الأهمية البالغة التي يكتسبها النصان الأساسيان اللذان تمت المصادقة عليهما بالإجماع واللذان يعتبران مكسباً إيديولوجياً جديداً[2]لقد وضع مشروع الوثيقتين من قبل لجنة ترأسها السيد ابن يوسف بن خده اشتغلت مدة أسبوعين بعضوية السادة عمر أو صديق[3] وفرانتز فانون (أو عمر فانون كما كان يسمى نفسه) ومحمد الصديق بن يحيى وعبد الرزاق شنتوف، منطلقة من بيان أول نوفمبر ووثيقة وادي الصومام وموظفة التجربة الواسعة المكتسبة خلال خمس سنوات من ممارسة الكفاح المسلح والنضال السياسي والنشاط الديبلوماسي. [4]

أما الوثيقة الأولى فتتعلق بمؤسسات الدولة الجزائرية أثناء فترة الكفاح المسلح وبعد استرجاع السيادة الوطنية، ولمن يقرأ بتمعن، فإنه لا يجد مفراً من التوقف عند مجموعة من الملاحظات يمكن حصر أهمها بالآتي:

1- إن تراجعاً جوهرياً قد وقع بالنسبة لمفهوم الدولة الجزائرية التي تتعهد جبهة التحرير الوطني بإقامتها بعد وقف إطلاق النار واسترجاع الإستقلال الوطني للثورة الجزائرية قد صادق، من خلال الوثيقة المذكورة، على أن تكون الدولة الجزائرية ديمقراطية وإجتماعية وأن لا تكون مؤسساتها متناقضة مع المبادئ الإسلامية، أما بيان الفاتح من نوفمبر فيذكر بصريح العبارة إن إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الإجتماعية ستكون "ضمن إطار المبادئ الإسلامية".

من الواضح أن التعبيرين متناقضان ولا يمكن ايعاز ذلك إلى مجرد خطأ في الصياغة، عندما نعرف أن المجموعة التي أشرفت على التحرير مكونة، رغم قلة عددها، من أفضل ما في صفوف جبهة

---

[1] مقابلة أجريتها مع عبد الحفيظ بو الصوف، في بيته 1978، 02، 23. وما زال موضوعها مركوناً ينتظر النشر، وحسب السيد بو الصوف وهو ثقة في الموضوع، فإن المشروع المذكور يتخلص في إستبدال الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بقيادة ثلاثة يرأسها هو بإعتباره أقدم الباءات مسؤولية.

[2] أنظر نص الوثيقتين في الملحق رقم 10.

[3] كان أو صديق سنة 1949 قد طرد من حركة الإنتصار للحريات الديمقراطية بسبب بربريته وتشيعه، الأمر الذي جعله ينضم إلى قيادة الحرب الشيوعي الجزائري، وبعد إندلاع الثورة إلتحق بالولاية الرابعة وقد كان مجلس الولاية بعد محاكمته عندما عين كاتب دولة في حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية (انظر لمزيد من التفاصيل حول المسألة البربرية.

[4]Les origines du 1er novembre 1954 Editions Dahlefeb, Alger 1989, P169 et suivante. (Ben Youcef) Ben Khedda.

التحرير الوطني من فرسان القلم المسلم لها، في ذلك الوقت، بالقدرة الفائقة على ممارسة الكتابة باللغة الفرنسية، والمعروفين بكونهم الدماغ المفكر والمسؤول عملياً عن إعلام الثورة. وإذا كان جمهور المناضلين لا يعرفون عنهم سوى صفة الجهاد التي اكتسبوها بفضل مواقعهم في دواليب الثورة وبواسطة بعض السلوكات الفردية، فإن معظم المسؤولين السامين لم يكونوا يجهلون النزعة اليسارية والميولات الماركسية بالنسبة لأغلبيتهم، وكان من المفروض أن تكون هناك يقظة في إنشغال المؤتمرين بتسوية المشاكل الميدانية التي كانت تهدد الثورة بالإنفجار.

ومما لا شك فيه أن تلك الغفلة أو تلك الثقة التي لم تكن في محلها قد أدت إلى تجسيد واحد من الإنحرافات الخطيرة التي ستكون أساساً للانزلاقات التي سوف تقود بالتدريج إلى الخروج نهائياً عن الخط الأيديولوجي الذي سطرته جبهة التحرير الوطني ليلة الفاتح من نوفمبر.

2- إن الوثيقة، قد أهملت، في عرضها للمبادئ الأساسية، التوقيف عند إبعاد الثورة المغربية والعربية والإسلامية طبقاً لما جاء في بيان أول نوفمبر، ومن أجل تجاوز النقص الذي تضمنته في المجال، وثيقة وادي الصومام والذي نددت به مجموعة كبيرة من أعضاء القيادة في مقدمتهم الرئيس أحمد بن بلة.

هنا، أيضاً، نلحظ لمسات عمر أو صديق وفرانتز ومحمد الصديق بن يحيى الذين يرون أن مستقبل الجزائر لن يكون زاهراً في دائرة العروبة والإسلام التي تمثل، في نظرهم، بؤرة الرجعية والعصور المظلمة، وحتى المغرب العربي الذي ظل مركزاً إهتمامات الرواد من المناضلين، فإنه لا يؤمنون به إلا عندما نجرده من صفة العروبة ونحصره في إطار شمال إفريقيا الذي يربط بين أقطاره قاسم اللغة الفرنسية والثقافة الغربية اللتين أعتمد عليهما الاستعمار لتأييد حالة الإنسلاخ عن الذات الضرورية لديمومته.

3- إن التطهير السياسي، في منظور جبهة التحرير الوطني، يعني إعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي بواسطة القضاء على مخلفات الفساد وروح الإصلاح التي تتناقض مع الروح الثورية وبواسطة إلغاء الروح

الحزبية التي تقود فقط إلى التعصب وإلى تكريس التقسيم الذي يعمل الإستعمار على تحقيقه بجميع الوسائل. وبهذا المفهوم، فإن الجماعة المذكورة لا يمكن أن تكون راضية عن التطهير السياسي لأن الحزب الشيوعي الجزائري لا يعد من الحركة الوطنية نتيجة تبعية العضوية للحزب الشيوعي الفرنسي وانضوائه، إيديولوجياً، تحت لواء الشيوعية الأممية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فلأن الحزب الشيوعي الجزائري ظل دائماً يرفض حل نفسه لصالح جبهة التحرير الوطني، ويعتبر بقاءه كتنظيم سياسي مستقل مسألة أساسية مازال يدافع عنها إلى يومنا هذا[1].

إن هذه الملاحظات الثلاث تدل بما لا يدع أي مجال للشك على أن المباشرين لصياغة هذه الوثيقة لم يطبقوا توجيهات المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي ألزمهم بعدم الخروج عن الخطوط العريضة التي حددها نداء الفاتح من نوفمبر مع الأخذ في الإعتبار للتطورات التي عرفتها وتعرفها القضية الجزائرية في الداخل وفي الخارج. ويقول السيد ابن يوسف بن خده الذي سألناه في الموضوع[2]أنه لم ينتبه في حين إلى "هذه الأخطاء الفادحة "لأنه كان يعرف كفاءة أعضاء اللجنة ويعتقد أنهم تخلوا عن معتقداتهم الأيديولوجية بعد إلتحاقهم طوعاً بجبهة التحرير الوطني ولأنه هو الأهم في نظره كان مركزاً كل طاقاته الفكرية وموظفاً جميع إمكانياته المادية والأدبية من أجل إقناع أعضاء المجلس بضرورة تبني إقتراحه القاضي بحتمية رجوع القيادة العليا للثورة إلى أرض الوطن وهو الإقتراح الذي لم يتوقف عن الدفاع عنه منذ أكثر من ستة أشهر أي منذ الصراعات الشخصية على السلطة والتي بدأت تطغى على العمل في سبيل تطوير المعركة الوطنية وتوفير أسباب نجاحها.

وأما الوثيقة الثانية فتتعلق بالقانون الأساسي لجبهة التحرير الوطني وهي مكونة من مدخل وثمانية فصول اشتملت على أربعين مادة ومن خلال القراءة الأولى يستطيع الباحث أن يستخرج مجموعة من الملاحظات أهمها.

---

(1) إن الحزب الشيوعي نفسه لا يخفي ذلك ولمن يريد التأكد هناك مختلف الرسائل التي وجهها مكتبه السياسي في فترات مختلفة إلى الحكومات المؤقتة للجمهورية الجزائرية أنظر خاصة: Buy (Francois) La republique Algerienne Democ- ratique et populaire- paris 1965, p. 217 et suivantes.

(2) لقاء أجريناه معه يوم 1983/03/31 عندما كنا نستعد لإنجاز الطبعة الثانية من: الثورة الجزائرية في عامها الأول وكان ذلك في بيته بحي حيدرة في الجزائر العاصمة.

1- أن المشرفين على الصياغة قد اجتهدوا لبلورة الإنسجام بين الوثيقتين فيما يتعلق بمفهوم الدولة الجزائرية المنتظر إقامتها بعد إسترجاع الإستقلال الوطني. فهي طبقاً للمادة الثانية من القانون الأساسي "جمهورية ديمقراطية وإجتماعية لا تكون في تناقض مع المبادئ الإسلامية"[1] تماماً مثلما جاء التنصيص على ذلك في الوثيقة الأولى كما رأينا.

2-إن المشرفين على الصياغة قد اضطروا لتكريس هذا الإنجراف في الوثيقتين إلى السكوت عن تثبيت مبدأ أساسي تألق بغيابه في الوثيقة الأولى وجاء في مدخل القانون الأساسي: "إن الجزائر جزء من المغرب العربي وهي تنتمي إلى الوطن العربي الذي تربطها به أربعة عشر قرناً من التاريخ والثقافة العربية الإسلامية وكذلك الكفاح ضد الظلم الإستعماري والامبريالية"[2].

ومن الجدير بالذكر أن هذا التعبير سيبقى كما هو ملازماً لجميع مواثيق الثورة الجزائرية إلى غاية أكتوبر سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وألف.

5- إن الوثيقة قد تضمنت، لأول مرة منذ إندلاع الثورة، تأكيداً بصريح العبارة على أن جبهة التحرير الوطني لا تكافح من أجل إسترجاع الإستقلال الوطني فحسب بل أنها ستواصل مهمتها التاريخية بعد ذلك، كقائد ومنظم للأمة الجزائرية من أجل بناء الديمقراطية الحقة وتحقيق الإزدهار الإقتصادي والعدالة الاجتماعية"(3)إن هذا التنصيص الذي جاء ضمن المبادئ العامة يعتبر بداية القواعد الثابتة لما سيسمى فيما بعد بالمجتمع الاشتراكي، وسوف نرى أن المؤدلجين سوف لن يستقروا على صفة واحدة للديمقراطية(4) وذلك نظراً لعجزهم عن تبليغ مفهومها الصحيح للجماهير الشعبية الواسعة إن الوثيقة، ولأول مرة، أيضاً، لم

---

(1) انظر المادة الثالثة من القانون الأساسي (الملحق رقم7)

(2) مدخل القانون الأساسي (الملحق رقم7).

(3) المادة الرابعة من القانون الأساسي (الملحق رقم7)

(4) لقد عرفت الجزائر المستقلة أنواعاً من الديمقراطيات منها: الديمقراطية المسؤولة، الديمقراطية الثورية، الديمقراطية المباشرة، الديمقراطية الشعبية إلخ....

تخف استعمال جبهة التحرير الوطني للأدبيات الماركسية. فالجماعية ومحاربة عبادة الشخصية ورفض الحكم الفردي كلها تجسدت في مبدأ المركزية الديمقراطية(1) الذي صارت جبهة التحرير الوطني تعتمد عليه في التسيير والتنظيم.

وبالإضافة إلى هذين النصين، الذين حظيا بإجماع المشاركين في أشغال المجلس الوطني للثورة الجزائرية، فإن هذا الأخير قد أعاد النظر في تشكيل الحكومة للجمهورية الجزائرية وضبط الخطوط العريضة، لبرنامج عملها بالنسبة للفترة المقبلة.

ففيما يتعلق بالحكومة رفض المجلس مشروع السيد بلقاسم كريم الرامي إلى إستبدالها بقيادة ثلاثية على غرار ماهو موجود في الإتحاد السوفياتي، ولم يكن الرفض وحده كافياً، بل أن أعضاء المجلس قد جددوا ثقتهم للرئيس فرحات عباس[2] وزحزحوا صاحب المشروع من وزارة الحربية بعد أن عبروا له عن لجنة مكونة من ثلاثة وزراء[3] على أن تتولى تسيير جيش التحرير الوطني بواسطة قيادة للأركان[4]تعينها الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية على هذا الأساس، فإن المجلس قد أثر وثيقة وادي الصومام التي نظمت جيش التحرير الوطني إلى غاية الولاية لكنها لم تزوده بقيادة عليا. ولم يبق إلا وضع هذه الوثيقة ولذلك، فإن العلاقة سرعان ما تدهورت بين قيادة الأركان واللجنة الوزارية.

إن اللجنة الوزارية هي التي اقترحت، للتعيين، رئيس قيادة الأركان، وقد كان الباءات يعتقدون أن العقيد هواري بومدين المعروف بإنغلاقه على نفسه لن يخرج عن طاعتهم وسيكون مجرد منفذ لقراراتهم[5]أما أعضاء القيادة فقد روعيت في تعينهم مسألة التمثيل الجمهوري بحيث جاء الرائد أحمد قائد عن الغرب والرائد علي منجلي عن الشرق والرائد رابح زراري "عز الدين" عن الوسط ولم يعين أحد عن الجنوب لأن الولاية السادسة لم تكن ممثلة على أعلى

---

(1) هذا المبدأ ماخوذ من المادة 19 من القانون الأساسي للحزب الشيوعي السوفياتي في ذلك الحين.

(2) تكونت هذه الحكومة من الرئيس والباءات ومن وزير الإعلام السيد محمد السعيد الذي كان يطمح أن يكون قائداً للأركان.

(3) أهم الباءات الثلاث.

(4) يذكر السيد فرحات عباس في تشريح حرب، ص: 281 أن الحكومة عينت العقيد هواري بومدين قائداً للأركان في أول مجلس لها 60/02/22. وفي نفس المجلس عينت نوابه.

(5) مساعدية (محمد الشريف) من جيش التحرير الوطني إلى الجيش الوطني الشعبي، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1968، ص21.

مستوى في جيش الحدود.

وبمجرد التعيين والتنصيب تحركت قيادة الأركان لإعادة تنظيم الجيش على الحدود الشرقية والغربية، وكان أول إجراء لها إستدعاء الضباط القدامى وتسريح المعتقلين على إثر حركة العقيد محمد لعموري واستبعاد الضباط القادمين من الجيش الفرنسي عن الوحدات القتالية وقيادة الفيالق[1]. وحزت هذه التدابير في نفس الباءات الذين اعتبروا ذلك تحدياً لهم فلجأوا إلى المناورة واستصدروا من الحكومة أمراً لقيادة الأركان بالدخول إلى أرض الوطن للأشراف، هناك، على سير المعركة[2].

أما عن برنامج عمل الحكومة الذي ضبطه المجلس الوطني للثورة الجزائرية فيشتمل على مجموعة من النقاط أهمها مايلي:[3]

- *تكثيف العمليات العسكرية على الحدود الشرقية والغربية من أجل تخفيف الضغط على الولايات وتدويل الحرب، وبالموازات مع ذلك، أوصى المجلس بتصعيد العمل العسكري في فرنسا وباستهداف المؤسسات الإقتصادية الحساسة.*
- *تخفيف الجهاز الإداري ووضع الإطارات المُسرّحة تحت تصرف جيش التحرير الوطني.*
- *إنشاء لجنة للمحاسبة من أجل السهر على حسن سير مالية جبهة التحرير الوطني وعلى تطبيق توجيهات المجلس المتعلقة بالتقشف في مستوى المصالح الإدارية والديبلوماسية ورفع ميزانية التسيير بالنسبة للولايات.*
- *العمل على تجسيد مبدأ تقرير المصير تحت رقابة الأمم المتحدة مع مواصلة المساعي من أجل إنجاح التفاوض مع فرنسا طبقاً لما جاء في نداء الفاتح من نوفمبر. .*
- *مواصلة العمل من أجل تحقيق الوحدة المغاربية وتجسيد التضامن الإفريقي وإقناع الصين والإتحاد السوفياتي بضرورة تقديم المعونة التقنية*

---

[1] لقائي مع عبد الحفيظ بو الصوف في بيته يوم 23/02/ 1978.

[2] على أثر هذا الأمر دخلت مجموعة من الضباط السامين من بينهم العقيد لطفي والرواد: الطاهر الزبيري وأحمد بن الشريف وسواحي مبارك. ويذكر فرحات عباس في تشريح حرب ص: 283 أن العقيد لطفي مبارك استشهد يوم 30/03/1960 في نواحي بشار.

[3] المجاهد، العدد 59 الصادر بتاريخ 05/02/1960 ص635 وما بعدها.

وإرسال المتطوعين لمساعدة جبهة التحرير الوطني على نسف خط موريس الذي صار يشكل سدادة منيعة يخشى أن تتحول إلى مخنقة لجيش التحرير الوطني في الداخل.

■■■■

الفعل ورد الفعل قبل التفاوض:

بعد إنتهاء أشغال المجلس الوطني في اليوم الثامن عشر من شهر جانفي سنة ستين وتسعمائة وألف. دخلت الثورة الجزائرية مرحلتها المتمثلة في تثوير الجماهير الشعبية ودفعها في اتجاه الانتفاضة الشاملة قصد إرغام العدو على قبول التفاوض كما حدده بيان الفاتح من نوفمبر أي على أساس الإعتراف بالسيادة الوطنية ووحدة التراب الوطني مع إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، ولإنجاز هذه المرحلة بنجاح وضع البرنامج الذي أوردنا أهم خطوطه العريضة في نهاية الفصل السابق.

وقبل الإسترسال في الحديث عن المرحلة الثالثة لا بد من الإشارة إلى أن المجلس الوطني، أثناء مداولاته التي دامت أكثر من شهر كامل[1] كان قد أبدى عدداً من الملاحظات حول المرحلة الثانية التي كانت تعني إقامة مناطق محررة على الحدود الجزائرية كمنطلق لإنهاك قوات العدو ولتوفير الإسناد الضروري لجبهة التحرير الوطني في عملية جر الجماهير الشعبية إلى خوض المعركة الحاسمة في شوارع كافة المدن الجزائرية.

إن هذه المناطق قد تأسست بالفعل على الحدود الشرقية والغربية، لكن المجلس لاحظ أن ثمة تقصيراً يتمثل في عدم التركيز على الجزء الداخلي من المنطقة، وقد كان من المفروض أن تمركز القيادات في أرض الوطن بدلاً من الأراضي التونسية والمغربية. ففي هذا الصدد أعطيت التعليمات لقيادة الأركان الجديدة كي تتدارك الوضع بجميع الوسائل. وقد فعلت ذلك بواسطة قرارين أساسين، يتعلق الأول منهما بإعطاء الأوامر الصارمة للضباط بتكوين وحدات طلائعية وتدريبها .بطريقة مكثفة من أجل إجتياز خطي موريس وشال الجهنميين. أما القرار الثاني فخاض بتأسيس منطقتين محررتين في الجنوب تمتد إحداهما على الحدود المالية الجزائرية والثانية على الحدود الليبية الجزائرية.

وإذا كانت قيادة الأركان قد لقت صعوبات جمة في تطبيق القرار الأول لأن عدداً قليلاً جداً فقط من الضباط استطاع إجتياز خط موريس بنجاح في حين

---

(1) *انظر الفصل السابق.*

فشلت معظم المحاولات رغم أن بعض من قاموا بها كانوا ممن سبقت لهم تجربة الدخول مرات متعددة[1]، فإن القرار الثاني قد تم تطبيقه بسهولة كبيرة، قد يكون ذلك راجعاً لكون الضباط الذين أسندت لهم مهمة الإنجاز ممن أطلق سراحهم حديثاً[2] فأرادوا الدليل على خطأ سجانيهم، ومن، الممكن أيضاً، أن سبب ذلك يعود لكون الحدود الجنوبية غير محصنة بالأسلاك الشائكة المكهربة وبحقول الألغام المحروسة ليلاً ونهاراً بالرادار والطيران.

فبالنظر إلى هذه الظروف وتقديراً للحملة الواسعة التي تقرر الشروع في القيام بها على الحدودين الشرقية والغربية من أجل إعادة لمّ وحدات وفيالق جيش التحرير الوطني التي كانت قد بدأت تتشتت بفعل الأزمات المتتالية التي تعرضنا إليها في الفصلين السابقين ولكي يعود الإنضباط من جديد إلى صفوف المجاهدين قررت قيادة الأركان المتمركزة بغار الدماء على الحدود التونسية وتأجيل الدخول لأرض الوطن إلى وقت لاحق وبالموازات مع هذا القرار شرعت قيادة الأركان في ربط العلاقات الطبيعية مع الولايات كخطوة أساسية في طريق توحيد جيش التحرير الوطني بفرنسا من أجل التخطيط والتنسيق للعمل الفدائي هناك.

كل هذه القرارات والتحركات التي تدل على وجود خطة مدروسة، لم ترضي اللجنة الوزارية لشؤون الحرب، التي خشيت أن يقود ذلك إلى تهميشها، فسارعت إلى الإتصال بمسؤولي الولايات واللإتحادية تحذرهم من التعامل مباشرة مع قيادة الأركان ثم أصدرت إلى هذه الأخيرة، باسم الحكومة، أمرها بالدخول إلى الأراضي الجزائرية قبل نهاية شهر مارس سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف.

وعندما أثرت هذا الموضوع مع الرئيس الراحل هواري بومدين[3]أكد لي أن تصرفات اللجنة لم تكن إلا لتحقيق رغبة أعضائها في الإحتفاظ بالسلطة مهما

---

(1) مقابلة أجريتها 1984/03/07 مع الرائد مصطفى بن نوي وهي ما تزال مخطوطة ومحفوظة لديّ جاء في تلك المقابلة أن: من جملة الذين حاولوا ولم يحالفهم النجاح العقيد على كافي قائد الولاية الثانية سابقاً والرائد مصطفى بن لوي. عضو مجلس الولاية الأولى، علماً بأن الإثنين سبق لهما أن خرجا ودخلا مرات عديدة.

(2) أسندت هذه المهمة لمرافقة العقيد الشهيد محمد لعموري الرواد: عبد الله بن الهوشات وأحمد دراية ومحمد الشريف مساعدية الذين أطلق سراحهم وأرسلوا مع النقيب عبد العزيز بوتفليقة إلى الحدود الجزائرية- المالية.

(3) وخاصة منهم بلقاسم كريم وعبد الله بن طوبال أجريت الحديث معه يوم 17 أكتوبر سنة 1976 عندما كنت مسؤولاً عن الأمانة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني.

كان الثمن، وقد كان هؤلاء الأعضاء يعتقدون أن دخول قيادة الأركان إلى الجزائر سيؤدي إلى إلغائها عملياً إما وهي تجتاز الأسلاك المكهربة وحقول الألغام أو بواسطة تكتل الولايات التي لن توافق على الإنضواء تحت لوائها، لأجل ذلك، فإن قيادة الأركان لم تطبق أوامر اللجنة في الموضوع، وراحت تواصل النشاط المكثف في سبيل إنجاز برنامج العمل الذي صادق عليه المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

في هذه الأثناء، وبينما كانت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تواصل نشاطها من أجل إيجاد أفضل السبل للدخول في مفاوضات مع حكومة الجنرال ديغول على أساس حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه خاصة بعد أن تبنى ذلك المجلس الوطني للثورة الجزائرية كانت فرنسا تعيش أزمة في جميع المجالات بسبب الإنتصارات التي ما فتئت الثورة الجزائرية تحرز عليها في الميدانين العسكري والسياسي.

فتزايد العمليات في المدن، وإستمرار الجنرال ديغول في طريق التسوية على أساس تقرير المصير أغاظا دعاة الجزائر الفرنسية، إنصارها المدنيين والعسكريين على حد سواء، وقادا إلى ظهور بوادر التمرد على أعلى المستويات وخاصة في الجيش إذ تجرأ الجنرال ماسي على التصريح لإحدى الجرائد الألمانية بأنه يعارض هذه السياسة وهو على إستعداد لمقاومتها بجميع الوسائل عندما يقتضي الحل ذلك[1].

ومما لاشك فيه أن تصريح ماسي لم يكن بريئاً ولا عفوياً ولكنه جاء نتيجة تشاور وتفاهم مع غلاة المعمرين الذين كان النائب لاقيارد يتزعم نشاطهم.

وفي الحقيقة، فإن ديغول لم يكن راضياً عن سياسته المفروضة عليه بواسطة ضغوطات الثورة السياسية العسكرية، نستخلص ذلك من مذكراته عندما يـــتألم لسياستي، ولكن هل أنا سعيد بممارستها؟"[2]

رغم ذلك وحفاظاً على سمعته أمر ديغول بنقل ماسي إلى فرنسا يوم 22/ 1960/01 وكان الإجراء سبباً مباشراً ليعلن لاقيالارد (LA GAILLARDE) يوم 1960/01/22 عن احتلاله لجامعة الجزائر على رأس مجموعات غفيرة من الأرجل السوداء ووحدات الدفاع المحلي. ووجه نداء إلى السكان الأوربيين ليتظاهروا عشية اليوم الذي بعده وهو يوم أحد للتدليل على تضامنهم مع

---

(1) مذكرات الجنرال، الجزء الأول، ص: 85 وكذلك المجاهد، العدد60 ص:5 وما بعدها.

(2) مذكرات الجنرال، الجزء الأول، ص ك 83.

المتمردين ولإرغام الحكومة الفرنسية على تغيير سياستها.

وبالفعل، فإن المظاهرات التي جرت صاخبة لكنها لم تمنع ديغول من توجيه أوامره إلى كل من دولوفريي وشال لإستعمال العنف في سبيل إسترجاع الهدوء ثم أخذ الكلمة، عن طريق الإذاعة، في اليوم الثالث للتمرد فوصف الأحداث بالعصيان الذي لا يمكن أن يثنيه عن الطريق التي اختارها لفرنسا في تعاملها مع القضية الجزائرية ولما أحس بأن ثمة ترددا في موقف القائد الأعلى للقوات المسلحة نفسه وخشي أن تسري العدوى إلى فرنسا ذاتها، ارتدى زيه العسكري في اليوم التاسع والعشرين من شهر جانفي ووجه خطاباً متلفزاً إلى الشعب الفرنسي للتأكيد على أن تقرير المصير "قرار حكومي صادق عليه البرلمان ووافقت الأمة الفرنسية على أنه المخرج الوحيد الذي بقي ممكناً"[1]. وبعد هذا الخطاب الذي كان شديد اللهجة تدخل الجيش بقوة في اليوم الموالي وقضى على التمرد برفع الحواجز وتنظيف الطرقات وإعتقال رؤوس الفتنة وفي مقدمتهم لاقيارد ودوسيزيني ودو ماركي في حين تمكن أورتيز من الفرار إلى إسبانيا في إنتظار تكوين منظمة الجيش السري (المنظمة السرية المسلحة).

صحيح أن رئيس الدولة الفرنسية قد واجه، بحزم، هذا التمرد منذ بدايته[2]لكنه لم يفعل ذلك حباً في الجزائر أو رغبة في تمكين شعبها من ممارسة حقه في تقرير مصيره. لقد كان بإمكانه أن يفعل ذلك عندما كان قائد فرنسا بلا منازع خلال الحرب الإمبريالية الثانية، لكن قناعته الإستعمارية ووطنيته الضيقة منعته، في ذلك الوقت من القيام بأعمال العظماء الأحرار، وجعلته، في سنة ستين، يشتت صفوف المتمردين على سلطته ويعمل في ذات الوقت على تلبية مطالبهم لأنها هي نفس مطالبه وهي تتمثل، رغم التظاهر بالجنوح إلى السلم والتصريحات المتتالية الداعية جبهة التحرير الوطني إلى التفاوض، في التعجيل بإعدام أسرى الحرب والمعتقلين السياسيين وفي تكثيف العمل العسكري من أجل القضاء على جيش التحرير الوطني وإبراز قوة ثالثة تقبل بالحلول التي تمليها فرنسا والتي لا تكون متناقضة مع مصالحها في جميع الميادين.

إن الجنرال ديغول الذي يريد الحفاظ، بشتى الوسائل، على السمعة التي أكتسبها عالمياً، يقدم تفسيراً خاصاً لأوامره القاضية بتكثيف العمل العسكري في الوقت الذي كان يدعو فيه إلى السلم عن طريق التفاوض، ففي هذا الصدد يؤكد

---

(1) نفس المصدر، ص: 86.

(2) *HORNE (ALISTAITR) HISTORI DE GUERRE DALGERIRE, P. 370 ET*

في مذكراته أنه مقتنع فعلاً، بضرورة إخراج فرنسا من هذه الحرب لكنه يريد قبل ذلك "أن تتمكن القوات الفرنسية من السيطرة على الميدان وتبقى كذلك إلى أن أرى الوقت مناسباً لأمرها بالإنسحاب[1].

ففي هذا السياق قام بزيارة إلى الجزائر دامت من الثالث إلى السابع من مارس سنة ستين وتسعمائة وألف، تفقد خلالها، معظم المناطق التي تتمركز بها قواته المسلحة ثم جمع الضباط السامين المكونين لقيادات الأركان وخاطبهم قائلاً: "إن المعركة لم تنته، إنها قد تستمر أشهر وأشهراً، ومادامت مستمرة فإن الواجب يدعوكم إلى مغالبة العدو والتغلب عليه[2].

ومن جهة أخرى، وجه رئيس الدولة الفرنسية اهتمامات بالغة بعملية زرع الشقاق في صفوف الثورة الجزائرية ومحاولة عزل بعض الولايات من أجل التفاهم معها في القوة الثالثة التي كان يعمل على إيجادها من أجل الضغط على جبهة التحرير الوطني. وسوف لن ينسى التاريخ زيارة مجالس الولاية الرابعة إلى فرنسا وإستقباله في قصر الإليزية من قبل الجنرال ديغول نفسه. لقد تم ذلك في سباق ما يسمى بسلام الشجعان وبواسطة المساعدين المقربين للجنرال وفي مقدمتهم الوزير الأول ميشال دويري وبانار تريكو والعقيد ماتهون.

ويذكر السيد فرحات عباس أن المقابلة مع الجنرال ديغول لم تكن من أجل إيجاد حل للقضية الجزائرية بل إن فرنسا كانت تهدف إلى ضرب وحدة الصف الجزائري[3].

وقد أنتبه الرائد سي محمد بوعمامة إلى الخديعة، ولذلك، وبمجرد الرجوع، إلى الجزائر وتوجه العقيد سي صالح إلى الولاية الثالثة قصد إطلاع قائدها العقيد محمد أو الحاج على ما دار بينه وبين رئيس الدولة الفرنسية، فإنه أقدم على إعتقال جميع أعضاء الوفد ونفذ فيهم حكم الإعدام بتهمة المشاركة في الخيانة العظمى. وبما أن الحكومة المؤقتة هي التي تعين مسؤولي الولايات، فإنه أوفد العقيد سي صالح إلى تونس من أجل المحكمة[4]، ثم راح يعيد تنظيم ولايته وينشط سائر مناطقها ونواحيها وأقسامها مركزاً على الكمائن والهجومات الخفيفة وعلى العمل الفدائي في المدن والقرى. ومن بين المدن كانت مدينة

---

(1) الجنرال مذكرات، ص 92.

(2) نفس المصدر، ص:90.

(3) تشريح حرب، ص: 286.

(4) عندما وصل إلى مقربة من مدينة الأخضرية إشتبك سي صالح مع دورية للجيش الإستعماري فقاتل واستشهد يوم 1960/07/08.

الجزائر التي استعادت أنفاسها وراحت تستعد للإنتفاضة الشعبية التي سوف تعم البلاد إبتداء من العاشر من ديسمبر سنة ستين وتسعمائة وألف.

إن هذه الهزيمة التي منيت بها سياسة الجنرال ديغول، مضافة إلى النتائج السلبية. التي توجت الإنتخابات الجهوية التي جرت في شهر ماي والتي كانت السلطات تراهن عليها لإبراز عناصر القوة الثالثة، كل ذلك قد فرض على رئيس الدولة الاستعمارية العودة إلى مبدأ حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وقد جاء ذلك في خطاب توجه به إلى الأمة الفرنسية بتاريخ الرابع عشر من شهر جوان قال فيه على الخصوص.

"في السادس عشر من شهر ديسمبر فتحت طريق مستقيمة وواضحة، الطريق الموصلة إلى السلم... فحق الجزائريين في تقرير مصيرهم هو الوحيد ومن الدوامة المعقدة والمؤلمة... أنني، مرة أخرى، التفت باسم فرنسا إلى قادة الثورة إننا ننتظرهم هنا لنجد معهم نهاية مشرفة للمعارك التي تتواصل حتى الآن. بعد ذلك، سيتم كل شيء لكي تعطى الكلمة إلى الشعب الجزائري وهو مطمئن البال وسوف لن يكون القرار إلا ما يقرره هو بنفسه.[1]

بعد هذا الخطاب بأقل من أسبوع وصل إلى مولان[2] وفد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية مكوناً من السيدين أحمد بومنجل[3]ومحمد الصديق بن يحيى[4]، غير أن اللقاءات بين الطرفين لم تؤدِ سوى إلى كسر الحواجز النفسية

---

(1) مذكرات الجنرال، ص: 94.

(2) مدينة صناعية في فرنسا تقع على نهر السين جنوب شرقي باريس التي تبعد عنها بحوالي 45 كلم عدد سكانها حالياً لا يزيد عن أربعين ألف نسمة.

(3) من المحامين الجزائريين الأوائل، دافع عن مصالي الحاج في الثلاثينات ثم أصبح سنة 1944 واحداً من المسؤولين البارزين في الحركة أحباب البيان والحرية. وفي سنة 1946 أصبح نائباً لفرحات عباس على رأس الإتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري وقد ظل كذلك إلى غاية إندلاع الثورة فلازم الحياد ثم التحق بصفوف فدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا والتي أصبح عضواً قيادياً فيها سنة 1957 وهي نفس السنة التي عين فيها عضواً بالمجلس الوطني للثورة الجزائرية. قام بدور أساسي في الميدان الديبلوماسي وفي سنة إثنتين وستين وتسعمائة وألف عين وزيراً للأشغال العمومية بأولى حكومة للجزائر المستقلة.

(4) من مواليد مدينة جيجل بالشرق الجزائري، ناضل في صفوف حركة الإنتصار للحريات الديموقراطية التي أسندت إليه مهمة تنظيم الطلبة إلتحق بجبهة التحرير الوطني سنة 1955 وعين عضواً بأول مجلس وطني للثورة الجزائرية. لمع كواحد من التقنيين الماهرين في فن المفاوضات أشتغل رئيساً لديوان السيد فرحات عباس في الحكومة الأولى. كان من المفاوضين في إيفيان، وفي سنة ثلاث وستين وتسعمائة وألف عين سفيراً للجزائر في الإتحاد السوفياتي ثم سفيراً في لندن سنتي 66/65 قبل أن يستدعيه هواري بومدين كوزير للإعلام ثم للتعليم العالي فالمالية.

وفتح الباب واسعة أمام المفاوضات الحقيقية التي سوف تنطلق بعد إستفتاء الشعب الفرنسي بتاريخ الثامن من شهر جانفي سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف.

الثورة الجزائرية في مرحلتها الثالثة:

لقد كان الإستفتاء في الواقع تبريرياً فقط، أراد ديغول بواسطته إضفاء طابع الشرعية على سياسة مافتئ يمارسها بمفرده وبعيداً عن كل ديمقراطية، وقبل ذلك الإستفتاء بأقل من شهر واحد كانت جبهة التحرير الوطني قد أنزلت الجماهير الشعبية الواسعة إلى شوارع ومدن الجزائر وقراها معلنة عن بلوغ المرحلة الثالثة من الثورة أوجها ومؤكدة صحة التخطيط الذي وضعته القيادة التي قررت إشعال الفتيل لليلة أول نوفمبر[1].

فالمجلس الوطني للثورة الجزائرية عندما أمر بالإنتقال إلى المرحلة الثالثة من الكفاح المسلح كان قد أسند إلى اللجنة الوزارية المكلفة بشؤون الحرب مهمة التنسيق بين الولايات من أجل تكوين لجان التحريض وإعداد الأعمال التحضيرية وإعداد فرق التأطير والتدخل السريع التي ستوكل لها مسؤولية تعبئة الجماهير الشعبية وتنظيمها في مظاهرات جبارة أيذانا بانطلاق الإنتفاضة الشعبية العارمة. ودامت الأعمال التحضيرية أشهراً كاملة ثم جاءت الفرصة في ذلك اليوم التاسع من شهر ديسمبر سنة ستين وتسعمائة وألف. ففي ذلك التاريخ الذي أختاره رئيس الدولة الفرنسية لبدء زيارة أخرى للجزائر، قررت جبهة الجزائر الفرنسية،[2]شن إضراب عام في مدينة الجزائر ودعت الأوروبين إلى

وفي سنة 1979 عين عضواً بالمكتب السياسي ووزيراً للخارجية، توفي على إثر حادث طائرة كانت تنقله إلى طهران سنة 1980.

[1] *قبل إنطلاق الرصاصة الأولى حددت قيادة جبهة التحرير الوطني مراحل الثورة بثلاث هي على التوالي: مرحلة تعفن الأوضاع ونشر الوعي، مرحلة إنشاء المناطق المحررة على حدود الجزائر لضمان تزويد جيش التحرير الوطني، ومرحلة الإنتفاضة الشعبية (مقتطف من الحديث الذي أجريته مع العقيد عبد الحفيظ بو الصوف يوم 23/02/ 1978).*

[2] *على إثر هزيمة المتطرفين الفرنسيين في الأسبوع الأخير من شهر جانفي سنة 1960 وإعتقال عدد من مسؤوليهم ظهرت إلى الوجود حركة سرية تحت إسم: "جبهة الجزائر الفرنسية" وبدأت تنشط رسمياً في شهر جوان من نفس السنة تحت الزعامة السياسية لكل من: JEAN MARIE LEPEN, SOUSTELLè BIDAULT LEPEN بمساعدة الباشاغة بوعلام الذي كان يقود حوالي 6000 من الجزائريين المسلحين ضد الثورة في منطقة الورشنيس. إنضم إلى هذه الجبهة كل من الجنرال SALAN و الجنرال JOUHAUD .*

التظاهر في الشوارع للتعبير عن رفضهم للجزائر الجزائرية، ويذكر السيد فرحات عباس أن المظاهرات قد وقعت بالفعل وتميزت بمشادات عنيفة بين المتظاهرين والقوات الفرنسية التي لم تستعمل سوى القنابل المسيلة للدموع[1].

وفي مساء ذلك اليوم، أصدرت جبهة الجزائر الفرنسية بياناً وصفت فيه المظاهرات بالإنتصار ودعت إلى الاستمرار في الإضراب العام وإلى مواصلة التظاهر بالنسبة لليوم العاشر من شهر ديسمبر[2]. ولم تكن تلك الجبهة تعرف أن إطارات جبهة التحرير الوطني قد حددت نفس ذلك اليوم لإحتلال الشارع الجزائري في كافة المدن والقرى ووزعت، للمناسبة، آلاف الأعلام الوطنية واللافتات المعبرة عن إلتحام الشعب بثورته وإستعداده للسير وراء القيادة الثورية حتى النصر أو الإستشهاد.

إن الشيوعيين اليوم، يحاولون التقليل من قدرات جبهة التحرير الوطني على التخطيط والتنظيم فيزعمون أن الإنتفاضة الشعبية التي بدأت في اليوم العاشر من شهر ديسمبر إنما كانت تلقائية وهي عبارة عن إنفجار الإحساس لدى الجماهير التي ملت المعاناة وكرهت إستمرار الحرب المدمرة. وهذا الزعم هو نفس إدعاء المؤرخين الفرنسيين وتلامذتهم من الجزائريين أنفسهم.

إنه نتاج العقدة بالنسبة للأولين ونتاج الحقد فيما يخص الأخيرين. فالشيوعيون بقلم دانيال مين، يقولون على سبيل المثال: "وفي ديسمبر سنة ستين وتسعمائة وألف، قامت نساء جزائريات غير منخرطات في جبهة التحرير الوطني بالمساهمة جماعياً في مظاهرات شعبية جاءت للتعبير عن نداء يائس من أجل إنهاء الحرب ولتحقيق الإستقلال... وفي يوم الإثنين، تواصلت المظاهرات بأهمية أقل.

ويبدو أن كل هذه المظاهرات كانت انفجاراً تلقائياً للإحساس الشعبي حتى ولو حاول مسؤولون محليون من جبهة التحرير الوطني تنظيمها والإشراف عليها"[3].

أما الفرنسيون فآخذ عينة منهم السيد تريبي وهم أكثرهم إعتدالاً إذ يقول: "ومن جهة أخرى، فإن التجمعات والمظاهرات التي ضمت حشوداً غفيرة من

---

[1] *تشريح حرب، ص: 296.*

[2] *نفس المصدر.*

[3] *دانيال جميلة عمران، حرب الجزائر (1954-1962) النساء في معركة الجزائر 1993ص: 203 وما بعدها.*

المسلمين خاصة في العاصمة وفي وهران، قد شكلت مفاجأة بالنسبة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية التي لم تكن تتوقع ذلك ولم تكن على علم بما في داخل الجزائر... ونستطيع القول، على أية حال، إن ظاهرة الحرب التي ظلت مستمرة منذ سنوات قد تجلت عن وجود قوة جديدة هي قوة الجماهير المسلمة التي أصبحت قابلة للتنظيم والتي صار يحسب لها ألف حساب"[1].

ومن بين تلامذة المؤرخين الفرنسيين نشير مع الأسف الشديد إلى الرئيس فرحات عباس الذي كتب: "أن بعض ضباط الأقسام الإدارية الحضرية الذين ساءتهم تجاوزات الأوربيين وهجوماتهم على رجال الشرطة والدرك قد أذنوا للمسلمين بالتظاهر لمساندة الجنرال ديغول"[2].

إن قراءة متمعنة في هذه النماذج الثلاثة من الكتابة حول الإنتفاضة الشعبية التي بدأت، فعلاً، في شهر ديسمبر تقودنا حتماً إلى إبداء الملاحظات التالية:

1- إن دانيال مين لم تنتبه إلى أنها تكتب إلى جمهور قادر على التفكير وغير مستعد للتلقي دون فحص أو تمحيص، ولذلك فهي تزعم أن الجزائريات لم تكن منخرطات في جبهة التحرير الوطني لكنها لم تتساءل عن كيف وصلت أولئك النساء إلى الشارع ومن دفعهن للخروج وكيف تحصلن على الإعلام الوطنية التي كانت ترفرف بالآلاف النساء إلى الشارع ومن جاء باللافتات ووضع الشعارات المعبرة؟ وفوق كل هذا فإن الحزب الشيوعي الجزائري والحركة الوطنية الجزائرية تشكيلتان سياسيتان تنشطان بالتوازن مع جبهة التحرير الوطني وغير معترفين بتمثلها للشعب الجزائري، فلماذا لم ترفع المشاركات في المظاهرات سوى شعارات جبهة التحرير الوطني ولم يشرن في حماسهن إلى التشكيلتين المذكورتين؟

2- تذكر دانيال مين أن المظاهرات الشعبية جاءت للتعبير عن نداء يائس من أجل إنهاء الحرب ولتحقيق الاستقلال، وهي في ذلك تتناقض مع الجنرال ديغول الذي تعرض لموضوع الحرب في ندوة صحفية عقدها شهراً واحد قبل الإنتفاضة فقال: "لقد أنخفضت العمليات وكذلك عدد الضحايا المدنيين شهرياً إلى نصف ما كانت عليه قبل سنتين".

وفي ميدان الإستثمارات التي تمولها الخزينة الفرنسية، فإن الأرقام قد بلغت

---

[1] *تريبي، ص: 506 وما بعدها.*
[2] *تشريح حرب، ص: 297.*

هذه السنة مائة مليار فرنك قديم وستكون ثلاثة مليارات في العام القادم.

وفيما يتعلق بتطوير البلاد بالمقارنة مع ماكانت عليه قبل التمرد، فإن الإنتاج الزراعي قد ازداد بنسبة 50% وتضاعف إستهلاك الكهرباء، وكذلك المبادلات الخارجية والتمدرس، وضرب في أربع عدد السكنات المبنية وفي خمس عدد الطرقات المشقوقة وفي عشر بناء المصانع ثم وصل أنبوب البترول الصحراوي الذي سيضمن مستقبلاً للجزائر مدخولات مالية معتبرة"[1]. إن عرض الجنرال هذا يدل على أن الحرب لم تعد ذلك الواقع الذي يدفع إلى اليأس، أما من وجهة النظر الجزائرية، فإن الحرب قد تطورت إيجابياً بفضل تمكن قيادة الأركان من إعادة تنظيم وحدات فيالق جيش التحرير الوطني في الخارج، وفتح جبهة الجنوب التي استطاعت سنة ستين وحدها، قلب الأوضاع في الصحراء وربطت قواعدها بمناطق الولايات المجاورة.

ومن جهة أخرى كيف يمكن أن تكون المظاهرات الشعبية تعبيراً عن نداء يائس لتحقيق هدفين متكاملين، ما في ذلك شك، ولكنهما لا يتحققان إلا بفعل قوي منتصر، لأن نداء اليائس إذا كان يستطيع إيقاف الحرب فإنه لا يستطيع أبداً إسترجاع الحق المغتصب.

3- *إن دانيال مين تتناقض مع نفسها عندما تدعى أن المظاهرات كانت تلقائية وفي نفس الفقرة تذكر أنها امتدت إلى العديد من المدن والقرى، وتؤكد جميع المصادر[2] أن الإنتفاضة الشعبية قد تواصلت إلى غاية نهاية شهر جانفي سنة واحد وستين وتسعمائة وألف حيث هدأت لتستأنف من جديد في منتصف السنة وتبلغ أوجها في شهر أكتوبر بالنسبة لفرنسا ونوفمبر بالنسبة للجزائر.*

4- *يزعم السيد فيلب تريبي أن المظاهرات باغتت الحكومة المؤقتة التي كانت تعيش معزولة عن الداخل، وفي نفس الوقت يقرر أن تلك المظاهرات كشفت عن ظاهرة جديدة هي قوة الجماهير المسلمة "التي أصبحت قابلة للتنظيم وصار يحسب لها ألف حساب". ولو كان هذا الإدعاء صحيحاً أو فيه على الأقل جزء من الصحة لما ترك الجنرال ديغول الفرصة تمر دون توظيفها خاصة ونحن نعرف أنه كان، في تلك الفترة، يبحث عن القوة الثالثة التي تمكنه من الضغط على جبهة*

---

[1] *مذكرات الجنرال، الجزء الأول، 81 وما بعدها.*

[2] *انظر دراستنا حول هذا الموضوع في مجلة الجيش، العدد 19 الصادر بتاريخ 18/03/ 1972.*

التحرير الوطني كي تتنازل عن بعض الشروط التي وضعتها كأساس لبدء المفاوضات.

5- إن السيد فرحات عباس، رغم تواجده على رأس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لم يكن مدركاً لحقيقة الثورة التي كانت تتواصل طبقاً لإيديولوجية كانت غريبة عنه ولم يتمكن من الإرتقاء إليها. ومن جهة أخرى، يبدو أن رئيس الحكومة لم يستفد من التحاقه بجبهة التحرير الوطني للتخلص من التبعية الذهنية التي سوف تظل ملازمة له إلى آخر رمق من حياته وأكبر دليل على ذلك كتابه الأخير الذي ألفه عندما بلغ سن الثمانين[1]. فالإنبهار أمام المستعمر هو الذي جعله يكتب دون تحليل، وإلّا كيف يصف أمر ضباطاً صغاراً يأخذون على عاتقهم مسؤولية الترخيص للمسلمين بالتظاهر لصالح ديغول ولصالح جبهة التحرير الوطني. ألم يكن يعرف أن ثمة إنضباطاً عسكرياً وأن فعلاً من هذا النوع يدخل في إطار الخيانة العظمى؟

إلى جانب كل هذه الملاحظات هناك حقيقة بسيطة يجب التوقف عندها لفهم واقع الإنتفاضة وتفسير كل ما أحاط بها من غموض. وتتمثل هذه الحقيقة في كون المجلس الوطني للثورة الجزائرية، عندما وافق على الإنتقال إلى المرحلة الثالثة من مراحل الكفاح المسلح عين لجنة عليا[2]وأسند لها مهمة التحضير للإنتفاضة الشعبية التي كان من المفروض أن تبدأ بمناسبة إحياء ذكرى أول نوفمبر.

ولقد اشتغلت اللجنة مع جميع هيئات الثورة بعيداً عن الأضواء كما يتطلب ذلك العمل السري إذا أريد له النجاح. ووضع المخطط أولاً، وكان يشتمل على النقاط التالية:

1- تشكيل لجان التأطير والشروع، حيناً، في تكوين أعضائها سياسياً وعسكرياً.

2- تشكيل لجان الإسناد التي تتولى صناعة الأعلام الوطنية وإعداد اللافتات ثم خزنها في الأماكن القريبة من ساحات التجمع ومراكز الإنطلاق.

وبعد الاتفاق على هذا المخطط جرى الإتصال مع قيادات الولايات في

---

[1] *ABBAS (FE RHAT) LINDEPENDANCE CONFISQUEE, FLAMMARION LE 20/09/1984*

[2] *تكونت هذه اللجنة من السادة عبد الحفيظ بو الصوف ولخضر بن طوبال، المدعو سي عبد الله وعبد الحميد مهري وكريم بلقاسم.*

الداخل وكذلك مع فيدرالية جبهة التحرير الوطني في أوربا وأنطلق العمل بثبات وجدية، وما كاد ينتهي شهر أوت حتى وضعت اللجنة تقريرها الإجمالي الذي ضمنته إستعداد مدن الجزائر وقراها لبدء المظاهرات الشعبية، لكن الإنتفاضة سوف تتأجل بسبب تصريحين صدرا عن الجنرال ديغول، الأول بتاريخ الخامس من شهر سبتمبر عندما قال: "أعتقد أن الجزائريين حينما يستشارون سوف يبدون رغبتهم في أن تكون الجزائر جزائرية. ويبقى فقط أن نعرف هل ستكون تلك الجزائر ضد فرنسا أو متعاونة معها[1]. أما التصريح الثاني فكان بتاريخ الرابع من شهر نوفمبر عندما قال في خطاب إلى الأمة الفرنسية: "لقد قررت، باسم فرنسا، أن أواصل الطريق الموصلة ليس إلى الجزائر التي تقودها فرنسا ولكن إلى جزائر جزائرية بحكومتها ومؤسساتها وقوانينها[2].

المفاوضات ووقف إطلاق النار:

وفي نهاية شهر جوان سنة ستين وتسعمائة وألف فشل اللقاء الذي جرى في مدينة مولان بين وفد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ووفد الحكومة الفرنسية برئاسة السيد روجي موريس الأمين العام لوزارة الشؤون الخارجية. وعن ذلك الفشل كتب الجنرال ديغول مايلي: "إن شروط التفاوض التي نقلها الوفد الجزائري تتضمن ضرورة تنظيم محادثة مباشرة بين فرحات عباس والجنرال ديغول، والسماح للمتفاوضين الجزائريين بالإقامة في التراب الفرنسي وإستقبال ومقابلة من يريدون، والإدلاء بجميع التصريحات، وكذلك إطلاق سراح ابن بلة ورفاقه المعتقلين بجزيرة إيكس لينضموا إلى المتفاوضين، بالطبع، قيل للوفد الجزائري إن كل ذلك لن يكون مقبولاً إلا إذا توقفت المعارك والحوادث. وبصفة خاصة، فإن الجنرال ديغول لن يتحدث مع قائد المتمردين مادام الرصاص يطلق على جنوده في الجزائر ومادام المدنيون من مواطنيه يغتالون حتى في شوارع بباريس"[3].

إن الإنتفاضة الشعبية قد غيرت هذه الغطرسة وجعلت الجنرال ديغول في شهر جانفي سنة واحد وستين وتسعمائة وألف يكتب: "أن الجزائر تكلفنا أكثر مما تدره علينا... ولذلك فإنني أكرر أن فرنسا تعمل على إيجاد حل يخلصها

---

(1) *مذكرات الجنرال، ص: 95.*
(2) *نفس المصدر، ص: 96.*
(3) *مذكرات الجنرال، الجزء الأول ص: 94.*

منها نهائياً. وسوف لن ترى مانعاً في أن يقرر السكان الجزائريون إقامة دولة تتولى تسيير شؤون بلادهم[1].

لقد كان الجنرال ديغول، قبل هذا التاريخ، يراهن على إمكانية إخماد صوت الثورة بواسطة العمل العسكري حتى يعيد للجيش الفرنسي إعتباره بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت به في ديان بيان فو، ولذلك رأيناه يختار الجنرال شال قائداً أعلى للقوات المسلحة ويأتي إلى الجزائر بأكبر عدد ممكن من الجنود تحت قيادة أفضل ما لفرنسا من ضباط سامين. ولتسهيل مهمة الجيش عمل جبهتين سياسيتين لإضعاف جبهة التحرير الوطني وليجعلها تنشغل بموضوعات أخرى غير التي تستلزمها المعركة. فمن جهة، جند كل أنواع المخابرات الفرنسية والمصالح السيكلوجية من أجل التوصل إلى زرع الشقاق في الأوساط القيادية للثورة وزعزعت الثقة السائدة على جميع المستويات. ومن جهة ثانية لم يترك محاولة واحدة دون إستعمالها لإيجاد قوة ثالثة بواسطة تشجيع الحركة الوطنية الجزائرية التي يتزعمها مصالي الحاج أو عن طريق دفع المنتخبين الجزائريين وبعض الشخصيات البارزة إلى تشكيل هيئات يمكن اللجوء إليها لأحكام الضغط على الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

كل هذه المساعي التي قام بها الجنرال ديغول مدة ثلاثين شهراً لم تحقق له ماكان ينتظر من نتائج، بل جعلته يلمس بنفسه أن الإنتصار مستحيل وأن مواصلة الحرب مستحيلة إلى مالا نهاية ستعرض الجيش الفرنسي إلى الإنقسام والوحدة الوطنية إلى الزوال كما أكد بنفسه في مذكراته[2]. وعليه، وخدمة لفرنسا، قرر الإلتفات إلى جهبة التحرير الوطني من أجل التفاوض الجدي وراح يبحث عن مبررات موقفه الجديد، وليلبسه الثوب الذي لا يشين سمعة الجنرال وسمعة فرنسا معاً.

وكانت أول خطوة في الطريق الجديد هي إستفتاء الشعب الفرنسي حول موافقته أو عدم موافقته على تمكين الجزائريين من تقرير مصيرهم، ولم يكن ذلك في الحقيقة سوى تمثيل لأن الإعلان عن حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه قد تم باسم فرنسا في اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر سنة تسع وخمسين وتسعمائة وألف. ويومها أعطى الجنرال ديغول شرحاً وافياً لمعنى تقرير المصير إذ قال: إن الجزائريين بممارستهم لهذا الحق سيفضلون فيما إذا

[1] نفس المصدر، ص: 110.
[2] مذكرات الجنرال، ص: 97.

كانوا يريدون الإنفصال الكلي عن فرنسا التي هي في هذه الحالة ستتوقف عن تزويد الجزائر بالخير العميم وبمليارات الفرنكات وعن فعل أي شيء لتجنيبها الفاقة والفوضى. أو هم يريدون الفرنسة التي يصبحون بموجبها جزءاً لا يتجزأ من الشعب الفرنسي يتمتعون بكامل المساواة في ممارسة الحقوق السياسية والإقتصادية والإجتماعية(1).

وتتمثل الخطوة الثانية في فتح التفاوض مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بعد أن فشلت جميع محاولات الجنرال ديغول الرامية إلى إيجاد مسلك آخر يجنبه ذلك. فمن ناحية التوصيل إلى القضاء عسكرياً على جبهة التحرير الوطني وجد الجنرال نفسه، كما رأينا، مضطراً للإعتراف بالواقع الذي أثبت تجذر جيش التحرير الوطني وإنتشاره في مختلف أنحاء الوطن بحيث لم يعد في مقدور أية قوة التغلب عليه(2). وفيما يتعلق بتكوين القوة الثالثة.

أيقن الجنرال ديغول أن كل بناء ينجزه في هذا المجال يتحول تلقائياً لفائدة جبهة التحرير الوطني(3)، ومن ذلك أن البرلمانيين الجزائريين المسلمين الذي شجعوا على تأسيس حزب وطني يكون بديلاً لجبهة التحرير الوطني قد شكلوا، بالفعل، التجمع الديمقراطي الجزائري، ولكن ليطالبوا الحكومة الفرنسية بفتح مفاوضات عاجلة ومباشرة مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

أما الخطوة الثالثة فقد قطعها الجنرال ديغول في شهر أفريل(4) عندما وجه خطاباً للأمة الفرنسية ذكرها فيه بمواقفه الهادفة لإزالة الإستعمار وهي مواقف ظلت تلازمه من أكثر منذ عشرين سنة ولم يكن متمسكاً بها بسبب حركة التحرير التي تولدت عن الحرب العالمية الثانية بل لأنها تخدم مصلحة فرنسا وتساعدها على التخلص من الكوابح التي تمنعها من التقدم والتطور، وعندما تطرق للقضية الجزائرية قال: "وبهذا الصدد، فإن أي تصور أو أي إنتخاب لن يكون واقعياً إلا إذا ساهم فيه، بالمقام الأول، الذين يحاربون من أجل الإستقلال

---

(1) *نفس المصدر، ص: 80.*

(2) *السيتر هورن، تاريخ حرب الجزائر، ص 430 وما بعدها.*

(3) *CAHLLES (MAURICE) NOTRE REVOLTE. PARIS 1968, P. 46 يقول المؤلف أن الحكومة الفرنسية والتشكيلة السياسية المساندة لها قد حاولتها طلبة سنة ستين بأكملها، تأسيس حزب حيادي يتبنى السياسة الديغولية المبنية على المشاركة. ورغم كل المجهودات المعتبرة المبذولة من طرف الإدارة، فإن القوة الثالثة لم تقف على رجليها بل ولم ترى النور بالكيفية التي كان يدعو إليها الجنرال ديغول.*

(4) *ألقي هذا الخطاب يوم 11 أفريل سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف.*

وذلك لأن الأغلبية الساحقة من الجزائريين، في الوقت الحاضر، يجدون فيهم تعبيراً عن أنفسهم. وعليه أصبح الأمر اليوم، يتعلق بحمل جبهة التحرير الوطني على الإتفاق معنا. وحينما تتوقف المعارك يقترح على مواطني البلدين أن يقرروا، بواسطة الإقتراع، بناء الجزائر المستقلة وتنظيم علاقاتها مع فرنسا[1].

هكذا، إذن، جعل الجنرال ديغول اللجوء إلى التفاوض مطلباً حيوياً لم تفرضه عليه الثورة الجزائرية، ولكنه يندرج ضمن مبادئ التحرر والإنعتاق التي زعم أنها ظلت دائماً ملازمة له، وفي إطار تلبية رغبة السكان الجزائريين وتمشياً مع إرادة الشعب الفرنسي التي عبر عنها بواسطة استفتاء الثامن من شهر جانفي سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف.

ولقد وجد من بين المؤرخين ورجال السياسة من صدق هذا الإدعاء نسي الجميع مختلف التصريحات التي كان الجنرال يدلي بها والتي كان ينكر فيها على جبهة التحرير الوطني حق التفاوض باسم الشعب الجزائري ويلوح بضرورة إشراك أطراف أخرى لتسوية المشكل الجزائري على أساس "التهدئة والتحول الإقتصادي والعمل من أجل تكوين الشخصية الجزائرية الجديدة[2]. أما مسألة إسترجاع الإستقلال الوطني فلم تكن مطروحة على الإطلاق. ففي اليوم التاسع والعشرين من شهر جانفي سنة ستين وتسعمائة وألف قال ديغول: "إن منظمة المتمردين تزعم أنها لا توقف القتال إلا إذا تحادثت معها حول مصير الجزائر، وذلك يعني أننا نعترف بها المنظمة الوحيدة التي تمثل الشعب الجزائري، ونعترف بها مسبقاً كحكومة للجزائر. وهذا ما لن أفعله أبداً". وقبل الإنتفاضة الشعبية بحوالي شهر فقط[3] كرر ذلك بصيغة أخرى إذ صرح: "إنهم يزعمون أن وقف القتال لن يتم إلا إذا ضبطوا معنا شروط الإستفتاء كأنهم يمثلون الجزائر جميعها".

ومهما يكن من أمر، فإن الإتصالات السرية قد أستؤنفت جدية بين الطرفين مباشرة بعد إستفتاء الثامن من جانفي سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف ثم تعثرت بسبب محاولة الحكومة الفرنسية من جديد إقحام أطراف أخرى في المحادثات[4] وبسبب الإنقلاب[1] العسكري الفاشل الذي وقع ليلة الثاني

---

(1) *مذكرات الجنرال الجزء الأول، ص103.*

(2) *مذكرات الجنرال، ص: 75.*

(3) *المقصود هنا هو الخطاب الذي ألقاه الجنرال ديغول يوم 1960/11/04.*

(4) *كان الطرفان الفرنسي بواسطة جورج بومبيدو والجزائري بواسطة أحمد بومنجل قد أعلنا يوم 30/ 1961/03 أن المفاوضات ستنطلق بإيفيان يوم 1961/04/07، لكن الحكومة الجزائرية أجلت*

والعشرين من شهر ماي سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف ثم تعثرت بسبب محاولة الحكومة الفرنسية من جديد اقحام أطراف أخرى في المحادثات وبسبب الانقلاب العسكري الفاشل الذي وقع ليلة الثاني والعشرين من شهر ماي سنة واحد وستين وتسعمائة وألف، إنما كان ذلك بالنسبة لجبهة التحرير الوطني على أساس الشروط الواردة في نداء الفاتح من نوفمبر عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف وهي حرفياً كما يلي[2]:

1- الإعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية، ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري.

2- فتح مفاوضات مع الممثلين المفاوضين من طرف الشعب الجزائري على أساس الإعتراف بالسيادة الجزائرية للشعب واحدة لا تتجزأ.

3- خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ورفع كل الإجراءات الخاصة وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة.

من هذا المنطلق، وفي نفس اليوم الذي بدأت فيه المفاوضات أعلنت الحكومة الفرنسية عن إطلاق سراح ستة آلاف معتقل سياسي ونقل القياديين الخمسة إلى قصر توركان وعن هدنة عسكرية من طرف واحد لأن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية اعتبرت ذلك في غير أوانه، ولأنها لو فعلت لوقعت في الفخ المنصوب لها وتم وقف إطلاق النار قبل كل تسوية سياسية وهو ما ظلت تدعو إليه الحكومات الفرنسية منذ سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف.

وكان التفاوض صعباً. فالجانب الفرنسي رغم الضمانات الشكلية المذكورة أعلاه لم يغير موقفه الأساسي المتناقض تماماً مع جبهة التحرير الوطني. لم يكن الجانب الجزائري، فيما يخصه، قادراً على تجاوز الشروط الوارد ذكرها ضمن

ذلك التاريخ بسبب تصريح السيد لوس جوكس الذي جاء فيه أن فرنسا ستتفاوض كذلك مع الحركة الوطنية الجزائرية التي يتزعمها السيد الحاج مصالي.

[1] *هو الإنقلاب الذي تزعمه الجنرال شال بمعية الجنرالات جوهر، زلروسالان وبمشاركة مجموعة من العقداء أمثال قارد، آركو وكان الهدف من الإنقلاب فصل الجزائر عن فرنسا لمدة ثلاثة أشهر يتولى خلالها القضاء على جيش التحرير الوطني وعلى شبح الجزائر المستقلة كي لا يبقى في التاريخ سوى الجزائر الفرنسية. لكن الجنرال ديغول قاوم المتآمرين واستطاع أن يفشل حركتهم في ثلاثة أيام (اليستر مورن، ص464 وما بعدها).*

[2] *انظر الملحق رقم: 8.*

النصوص الأساسية للثورة. وبقيت المحادثات تدور في حلقة مفرغة مدة خمسة وعشرين يوماً وقد توقفت بطلب من الحكومة الفرنسية في اليوم الثالث عشر من شهر جوان سنة واحد وستين وتسعمائة وألف.

وعلى الرغم من تمسك كل طرف بموقفه، فإن الوفدين قررا مواصلة الإتصال فيما بينهما ولم يكن من السهل، في ذلك الوقت، التكهن بإمكانات التوصل بسرعة إلى تقريب وجهات النظر.

فالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تريد من فرنسا أن تعترف للجزائر بالسيادة المطلقة وبسلامة التراب الوطني وبوحدة الشعب ذي الثقافة العربية والإسلامية إلى جانب أقلية أوروبية وبجبهة التحرير الوطني كممثل وحيد للشعب الجزائري. أما فرنسا فتزيد حسب الترتيب الإستقلال الداخلي، وفصل الصحراء عن الجزائر وتجزئة الشعب على أساس عرقي وتنظيم طاولة مستديرة تشارك فيها أطراف أخرى وهدنة فقط، وأدى تواصل الإتصالات السرية بين الطرفين إلى تنظيم لقاء جديد في مدينة لوقران الفرنسية دام أسبوعاً كاملاً ولم تدرس فيه سوى مسألة الصحراء التي أقترح الوفد الفرنسي تسويتها بواسطة ندوة مشتركة بين جميع البلدان المجاورة لها. وأمام الوفد الجزائري علقت المفاوضات من جديد وكان ذلك في اليوم الثامن والعشرين من شهر جويلية سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف.

في كل هذه الأثناء كانت الساحة الجزائرية قد عرفت تطوّرات خطيرة تتمثل خاصة في ظهور المنظمة السرية المسلحة[1] إبتداء من مستهل شهر مارس وشروعها في العمل التخريبي بواسطة التقتيل ونسف المؤسسات الإقتصادية، وقد توج ذلك بإنقلاب الجنرالات الأربعة صبيحة اليوم الثاني والعشرين من شهر أفريل. وفي داخل قيادة الثورة توترت العلاقات بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وبين قيادة الأركان التي قدمت إستقالتها بواسطة رسالة تحمل تاريخ الخامس عشر من شهر جويلية، ضمنتها مآخذ كثيرة في مقدمتها التهاون والفوضى والرشوة.

---

[1] اول بيان نشر يوم 1961/03/05، قد ذكر فيه أنها تعمل من أجل الحفاظ على الجزائر فرنسية وهي مستعدة لتجنيد مائة ألف رجل ولها من الإمكانيات المادية ما يكفي لتحقيق أهدافها. (ويذكر السيد محمد حربي في جبهة التحرير الوطني، ص 321 أن هذه المنظمة تأسست في شهر جانفي سنة 1961 لكن السيد اليستر هورن ص 456 يؤكد أن المحامي PIERRE POPIE قد أغتيل يوم 1961/01/25 من طرف المتطرفين الكولون وأن ذلك الإغتيال هو الذي أوحى لكل من لاقيارد وسورزيلي بتكوين منظمة سرية مسلحة هي التي عرفت خطأ بمنظمة الجيش السري.

وأمام هذه الأوضاع كلها، ونظراً لكون المجلس الوطني للثورة الجزائرية لم يجتمع في دورته العادية فإنه إستدعى لذلك، وأنطلقت إشغاله بطرابلس في اليوم الخامس من شهر أوت سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف.

تواصلت أشغال المجلس مدة بين أعضاء قيادة الأركان وأعضاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وخاصة منهم السيدين فرحات عباس وكريم بلقاسم، فبالنسبة للأول، يرى قادة الجيش أنه غير متشبع بإيديولوجية الثورة وأنه معتدل أكثر مما ينبغي وغير قادر على مواجهة الحكومة الفرنسية، ويرون بالنسبة للثاني أنه لم يحسن الدفاع عن الملف الجزائري في مختلف اللقاءات مع الجانب الفرنسي، وأنه قدم كثيراً من التنازلات بدون فائدة تذكر. ورداً على هذه الإتهامات التي لا تستند على دليل مادي، وزعت على المشاركين في الدورة محاضر جلسات التفاوض، وعمل رئيس الحكومة ونائبه على التشهير بقيادة الأركان التي "اتصلت بكل الأموال التي طلبتها وجلبنا لها كميات هائلة من الأسلحة المتطورة والذخيرة. وبدلاً من إمداد الداخل بما يحتاج إليه راحت تشغل نفسها بأمور سياسية لاناقة لها فيها ولا جمل[1].

ويبدو للوهلة الأولى أن المجلس الوطني للثورة الجزائرية إنتصر لقيادة الأركان إذ صادق بالإجماع على إستبدال السيد ابن يوسف بن خدة الذي كان واحداً من القادة الأساسيين للحركة الثورية وواحداً من المساعدين الرئيسيين للشهيد العربي بن المهدي أثناء توليه إعادة تنظيم المنطقة الرابعة[2]والإعداد لمؤتمر وادي الصومام. وتجدر الإشارة إلى أن الرئيس ابن خدة الذي عين عضواً بأول لجنة التنسيق والتنفيذ قد ظل وفياً للخط الإيديولوجي ولم يفتأ ينادي بضرورة عودة القيادة العليا للثورة إلى أرض الوطن، عملاً بأولوية الداخل على الخارج. لكن السيد فرحات عباس لم ينظر إلى عملية إستبداله بهذا المنظار، بل رأى في الأمر إنحرافاً خطيراً لجبهة التحرير الوطني التي بعد هذا التعديل الجديد، قد أصبحت حكراً على عناصر حركة الإنتصار للحريات الديمقراطية يقول: "يظهر جلياً، بعد التحليل أن الحكومة المؤقتة الجديدة لم تعد تمثل جبهة التحرير الوطني في مجموعها، بل حركة الإنتصار للحريات الديمقراطية وحدها، فالمؤامرات التي حيكت في تونس قد أدت إلى إبعاد ممثلي الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ومع إقتراب

---

[1] *فرحات عباس، تشريح الحرب، ص: 317.*

[2] *كان ذلك بعد إعتقال قائدها السيد رابح بيطاط.*

موعد الإستقلال تجمع المركزون[1]واعتلوا الصدارة متهمين إيانا بالإنتهازيين والمتطفلين في حين أن الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري قد إنضم قبلهم إلى جبهة التحرير الوطني[2]. إن فرحات عباس، في تحليله هذا، لم يكن واقعياً ولا منطقياً، فمن جهة يؤكد إنضمام الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري إلى جبهة التحرير الوطني سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف وطبقاً للشروط المعمول بها في ذلك الوقت أي حل التنظيم والإلتحاق الفردي والتخلي عن الإيديولوجية السابقة، ومن جهة أخرى يعلل إبعاده عن رئاسة الحكومة بكونه فقط من الإتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري، أما جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فإن ممثلهم، أن صح هذا التعبير، قد أزيح عن التشكيلة الثانية التي كان يرأسها عباس نفسه، ولم ير داعياً يومها، للتعليق على الإجراء الذي اعتبر عملاً طبيعياً.

وبالنسبة للسيد كريم بلقاسم، فإن المجلس الوطني للثورة الجزائرية قد أبقاه نائباً للرئيس وعوضه عن الخارجية بوزارة الداخلية التي تركها، لخضر بن طوبال ليتولى، من منصب وزير الدولة، مهمة إعادة تنظيم جبهة التحرير الوطني وتحضيرها لقيادة الشعب بعد إسترجاع الإستقلال الوطني. وقد أسندت وزارة الشؤون الخارجية إلى السيد دحلب وهو الوزير الوحيد الذي يعين لأول مرة رغم عضويته للجنة التنسيق والتنفيذ منذ أشهرها الأولى[3].

وإلى جانب تعديل الحكومة، قام المجلس الوطني للثورة الجزائرية بدراسة أوضاع جيش التحرير الوطني في الخارج وفي الداخل وأمر قيادة الأركان بالتراجع عن إستقالتها وأوصاها بمضاعفة الجهود من أجل تزويد الولايات بكل ما تحتاج إليه قصد تمكينها من الإستجابة لمتطلبات المرحلة الثالثة من مراحل الثورة، كما أنه ناقش الرسالة التي وجهها له القياديون المعتقلون الخمسة وتوقف، ملياً، عند مختلف المراحل التي قطعتها المفاوضات وأصدر تعليمات لمواجهة المراحل المقبلة.

وبينما كان المجلس الوطني للثورة الجزائرية يراجع إمكانياته، ويعيد ترتيب صفوفه، كان الجنرال ديغول يستمع إلى مستشاريه وفي مقدمتهم السيد

---

(1) هم أعضاء اللجنة المركزية لحركة الإنتصار للحريات الديمقراطية المنشقة عن المكتب السياسي والمتمردة زعيمها مصالي.

(2) فرحات عباس، ص 318.

(3) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني حول إستخلاف الشهيد زيغود بالسيد سعد دحلب.

بارنادر تريكو[1]الذي تجرأ على مصارحته بما يجري في الجزائر وما ترتب عنه من عواقب وخيمة بالنسبة للشعب الفرنسي، أما عن الجزائر، فقد توقف تريكو طويلاً عند المظاهرات الشعبية التي نظمتها جبهة التحرير الوطني بمناسبتي الفاتح والخامس من شهر جويلية سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف، وقدم شروحاً وافية عن اللافتات والشعارات التي كانت كلها تنادي بوحدة الشعب ووحدة التراب الوطني، وتعبر عن مساندة الجماهير لسياسة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وتطالب بالتفاوض معها على أساس الإستقلال لكامل الوطن بما في ذلك الصحراء. ولم ينس المستشار تذكير الجنرال بأن تلك المظاهرات قد كلفت الشعب الجزائري حوالي مئة قتيل وأزيد من أربعمائة جريح[2]، كما أنهى إلى مسامعه تصاعد العمل العسكري والفدائي الذي تقوم به جبهة التحرير الوطني التي أصبحت بالفعل تسيطر على كافة التراب الجزائري.

ومن جهة أخرى، فإنه لم يخف عليه تزايد النشاط التخريبي الذي تقوم به منظمة الجيش السري (المنظمة السرية المسلحة) وأما عن فرنسا، فإن التقارير كلها أجمعت على أن أغلبية الشعب فيها أصبحت لا تخفي تذمرها من سياسة الجنرال ديغول التي طغت عليها حرب الجزائر بما فيها من تقتيل وتعذيب وتمرد الجنرالات ومن إدانات صادرة عن الأمم المتحدة وعن غيرها من المنظمات الدولية، كل ذلك في الوقت الذي تزيد فيه الأوضاع تدهوراً في المجالين الإقتصادي والإجتماعي خاصة.

لم يكن الجنرال متعوداً على سماع مثل هذه الحقائق المزعجة التي تجب إضافتها إلى الإنفجارات التي تستهدف، يومياً حياة الفرنسيين وممتلكاتهم في العاصمة الفرنسية نفسها ثم تلك الحادثة التي كادت تذهب بحياته ليلة التاسع من شهر سبتمبر سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف[3]وما كان قبلها موجها ضد شخصيات فكرية وسياسية بارزة مثل أندري مالرو[4]وكنيل بلان رئيس بلدية

---

(1) اليستار هورن تاريخ حرب الجزائر، ترجمة عن الإنكليزية أيف دي قارني، باريس 1980، ص: 495.

(2) نفس المصدر، ص: 490 وكذلك المجاهد، العدد 83 الصادر بتاريخ 19/07/ 1961، ص: 535 وما بعدها.

(3) مذكرات الجنرال، الجزء1، ص: 129.

(4) ضابط عسكري ورجل فكر وسياسة فرنسي من مواليد سنة 1901، له مؤلفات عديدة وحائز على جائزة قانكور، شارك كطيار في صفوف الجيش الجمهوري أثناء الحرب الأهلية في إسبانيا، قاوم الإحتلال الألماني تحت قيادة الجنرال ديغول الذي قربه إليه وتصادق معه. وفي سنة 1947

إيفيان[1]. وتتويجاً للكل، تناقلت وكالات الأنباء في اليوم السابع والعشرين من شهر أوت تعيين السيد ابن يوسف بن خدة "الإرهابي" على رئاسة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية خلفاً للسيد فرحات عباس المعتدل".

لقد قضى الجنرال ديغول أربعين شهراً في الحكم الذي ماكان يحلم بالعودة إليه لو لم تكن هناك ثورة الجزائر.

وخلال كل هذه الفترة لجأ إلى سائر الحيل، وإستعمل جميع الوسائل للقضاء، بقوة السلاح، على جبهة التحرير الوطني. عزز خط موريس بخط شال وأقام بينهما حقول الألغام، وعين الجنرال شال قائد أعلى للقوات المسلحة ووضع تحت تصرفه جميع إمكانيات الجيش الفرنسي لتطبيق مخططه المشتمل على العديد من العمليات التي قيل إنها ستمسح جبال الجزائر مسحاً لا يبقي ولا يذر، وإستعمل سلام الشجعان وحاول تكوين قوة ثالثة بواسطة مجموعة من المنتخبين الجزائريين وبعض التشكيلات السياسية، لكنه في النهاية إكتشف أن كل هذه المساعي لم تمكنه من إيجاد السبيل إلى الإحتفاظ بالجزائر الفرنسية، وأيقن أن الحال الوحيد للأزمة القاتلة التي تتخبط فيها فرنسا يكمن في التفاوض مع قيادة الثورة الجزائرية على أساس الشروط المسطورة في بيان الفاتح من نوفمبر.

فعلى هذا الأساس، ورغبة منه في طمأنة الحكومة الجزائرية الجديدة ودعوتها إلى إستئناف المفاوضات، شرع الجنرال ديغول في سلسلة من الزيارات إلى مختلف قطاعات فرنسا وفي كل مناسبة كان يتطرق إلى الحوار. وفي مستهل شهر سبتمبر عقد ندوة صحفية تعرض فيها لمسألة الصحراء بكيفية لم تكن متوقعة إذا أعترف، علنا، بسيادة الجزائر عليها، واعتبر ذلك من البديهيات التي لاتقبل المناقشة. ومما جاء في تلك الندوة الصحفية" أن سياستنا لن تكون إلا إستغلال البترول والغاز اللذين اكتشفناهما، وفي أن تكون لنا مطارات وحقوق للتنقل، وأما الواقع فإنه لا يوجد جزائري واحد لا يفكر في كون الصحراء جزء لا يتجزأ من الجزائر... معنى ذلك أن مسألة السيادة على الصحراء أمر مفروغ منه"[2].

إنتخب أميناً عاماً للتشكيلة السياسية الجديدة المسماة بجمع الشعب الفرنسي، عينة الجنرال ديغول وزيراً ملتدباً لدى الرئاسة سنة 1985 وبعد ذلك بسنة عينه وزيراً للدولة مكلفاً بشؤون الثقافة.

[1] *اغتالته منظمة الجيش السري يوم 1961/05/19 عشية إنطلاق مفاوضات إيفيان الأولى.*

[2] *مذكرات الجنرال، ص: 130.*

هكذا، إذن، لم يعد هناك ما يحول دون تقديم المفاوضات ولما يمنع إستئنافها خاصة وأن ديغول أكد في نفس الندوة الصحفية "ان الإستفتاء سيقود إلى تأسيس الدولة الجزائرية، بعد ذلك الإنتخابات التي ستنبثق عنها الحكومة النهائية... ومن الممكن أن تتولى سلطة جزائرية مؤقتة تسيير البلاد الى أن يتحقق تقرير المصير وتتم الإنتخابات المذكورة"[1].

ولقد درست الحكومة المؤقتة جيمع تصريحات الجنرال ديغول، وحينما لمست فيها جدية ورغبة في وضع حد للحرب، قدمت له إقتراحاً عملياً يهدف إلى تحقيق ذلك مع إختصار الطريق.

وبالفعل فإن الرئيس ابن يوسف بن خدة أعلن في اليوم الرابع والعشرين من شهر أكتوبر "أن جبهة التحرير الوطني مستعدة لوقف إطلاق النار فوراً مقابل تخلي فرنسا عن فكرة تقرير المصير وإعلانها عن إستقلال الجزائر. وتحال القضايا المختلفة مثل وضع الأقلية الأوروبية وإجلاء القوات الفرنسية والتعاون الإقتصادي والتقني والثقافي على الحكومة الجزائرية المستقلة"[2].

وبعد هذا الإقتراح بأربعة أيام فقط وقع اللقاء بين الوفدين[3]في مدينة بال السويسرية ودام يومي الثامن والتاسع والعشرين من شهر أكتوبر درست خلالهما ورقة عمل صادرة عن الحكومة الفرنسية تتضمن مجموعة من النقاط الأساسية تتمثل في الآتي:

- *إحتفاظ فرنسا بمنشآت عسكرية تمكنها من الإبقاء على إتصالها بإفريقيا ومن مواصلة تجاربها الفضائية والنووية.*
- *إنشاء هيآت مشتركة لإستغلال الثروات الطبيعية الجزائرية مع تأكيد الحقوق المكتسبة في مجال التنقيب عن البترول والغاز.*
- *بالنسبة للأقلية الأوروبية: مبدأ إزدواجية الجنسية، إحترام دينهم ولغتهم وحالتهم الشخصية، حق تأسيس الجمعيات، مساهمتهم في المجالس السياسية بنسبة 10% وكذلك في المجالس البلدية والمهنية، حق تأسيس البعثات الثقافية وتحويل رؤوس الأموال لمدة معينة.*
- *الضمانات التقنية المتعلقة بتقرير المصير تتولاها الهيئات التنفيذية*

---

[1] *نفس المصدر.*

[2] *ابن يوسف بن حدة، إتفاقيات إيفيان، الجزائر 1986، ص: 26.*

[3] *كان الوفد الجزائري مكوناً من محمد الصديق بن يحي ورضا مالك، أما الوفد الفرنسي فشارك فيه: برينو دولاس وكلود ساي.*

المؤقتة التي كانت تكلف بوضع قوائم المنتخبين وتشرف على سير الإنتخابات بواسطة لجان للرقابة.

- *ضمان إستثمار الفرنسيين وملكياتهم.*
- *وضع المرسى الكبير لمدة غير محددة تحت تصرف الجيش الفرنسي وكذلك قاعدة رقان.*
- *عدم متابعة الجزائريين الذين تعاونوا مع السلطات الفرنسية.*

بعد هذا اللقاء استمرت الإتصالات بين الطرفين إلى أن تم الإتفاق على أهم النقاط ثم إلتقى الوفدان في ليروس[1]من اليوم الحادي عشر إلى اليوم التاسع عشر من شهر فيفري سنة إثنتين وستين وتسعمائة وألف، حيث نوقشت جميع المواضيع وحررت الوثيقة المشتركة التي تقدم لمصادقة الحكومة الفرنسية والمجلس الوطني للثورة الجزائرية قبل التوقيع عليها[2].

وفي إيفيان الثانية التقى الوفدان في اليوم السابع من شهر مارس، ويقول السيد ابن خدة: أن المناقشات كانت حادة ومتواصلة إلى اليوم الثامن عشر من نفس الشهر حيث تم التوقيع على الوثيقة النهائية، وفي ذات اليوم وباسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية المفوضة من طرف المجلس الوطني للثورة الجزائرية، أعلنت عن وقف إطلاق النار بالنسبة لكامل التراب الجزائري ابتداء من يوم الإثنين التاسع عشر من مارس سنة إثنتين وستين تسعمائة وألف"[3]. وقبل ذلك كان الجنرال ديغول قد وجه نفس الأوامر إلى جميع القوات الفرنسية.

وفي الخامس والعشرين من شهر ماي، إجتمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية بطرابلس لتقييم المرحلة المقطوعة ولتوظيف التجربة من أجل التخطيط للمستقبل إعتماداً على الإمكانيات الوطنية ودون إهمال طموحات الجماهير الشعبية. واستهل المؤتمر أشغالهم بقراءة متأنية لإتفاقيات إيفيان التي كانت قيادة الأركان قد شنت عليها حملة واسعة النطاق واصفة إياها بالعمل الخياني الذي قدم للإستعمار تنازلات بدون مقابل. وبعد تمحيص وتدقيق، وبعد الرجوع إلى بيان أول نوفمبر ووثيقة وادي الصومام، وقع الإجماع على

---

(1) قرية صغيرة تقع بجبال الجورة الفرنسية لا تبعد إلا قليلاً عن الحدود السويسرية... مشهورة كمحطة للرياضة الشتوية.

(2) اجتمع المجلس الوطني الجزائري بطرابلس من يوم 27 إلى يوم فيفري، فدرس كافة عناصر الإتفاقية وأعطى موافقته عليها وفوض الوفد المفاوض للتوقيع بإسمه.

(3) ابن يوسف بن خدة، إتفاقيات إيفيان، ص: 34.

الملاحظات التالية:

1- إن إتفاقيات إيفيان قد وضعت حداً لحرب إبادية لما عرف التاريخ مثلها.

2- إن هذه الإتفاقيات قد مكنت الشعب الجزائري من إسترداد سيادته كاملة مع الحفاظ على وحدته وسلامة التراب الوطني رغم كل المناورات التي لجأت إليها الحكومة الفرنسية لتقسيم البلاد أو فصل الصحراء عنها.

3- إن هذه الإتفاقيات قد شكلت بالنسبة للشعب الجزائري، إنتصاراً سياسياً أهم نتائجه تقويض أركان النظام الإستعماري والتخلص من الهيمنة الأجنبية التي دامت مدة إثنتين وثلاثين ومائة سنة.

وعلى الرغم من الإشادة بهذه النقاط وإعتبارها مكسباً عظيماً تطلب تحقيقه ثمناً غالياً، فإن المؤتمرين قد أكدوا، بما فيه الكفاية، على أن التعاون المنصوص عليه في إتفاقيات إيفيان يستلزم إبقاء قيود التبعية في الميدانين الإقتصادي والثقافي وهو بذلك "يكرس سياسة الإستعمار الجديد التي تتوخاها فرنسا"[1].

ومن جهة أخرى أعرب المؤتمرون عن قلقهم إزاء الضمانات التي أعطيت للمستوطنين الفرنسيين وجعلت منهم أقلية محظوظة يجب على الدولة الجزائرية الفتية "أن تحفظ أمنهم وتحافظ على ممتلكاتهم وتمكنهم من المشاركة في الحياة السياسية على جميع المستويات"[2]. وذلك للإعتقاد بأن بقائهم في الجزائر ضروري لإستمرار الحياة الإقتصادية الإدارية وتطورها.

المؤتمرون كذلك عددّوا الأخطار التي يشكلها بقاء القوات الفرنسية في المرسى الكبير وفي بعض المطارات العسكرية والقواعد المخصصة للتجارب النووية في أقصى جنوب البلاد، ورأوا في ذلك إحتلالاً سيحُد من حرية الدولة الجزائرية ويعرض سيادتها الوطنية لكثير من الأخطار.

وبعد أن عبر أعضاء المجلس عن أملهم في أن تتولى سلطات الجزائر المستقلة بحث كل هذه القضايا من جديد نظراً لما لها من تأثير على عملية البناء والتشييد، خصصوا وقتاً كافياً لتقسيم الأوضاع التي آلت إليها الجزائر بعد إثنين وتسعين شهراً من الكفاح المسلح، وفي هذا الإطار تجدر الملاحظة إلى مايلي:

1- إن الجراحات التي تثخن جسم الشعب الجزائري عميقة ولا يمكن أن تلتئم

---

[1] حزب جبهة التحرير الوطني، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني (1954-1962) نشر وتوزيع قطاع الإعلام والثقافة والتكوين ص: 26.

[2] نفس المصدر، ص: 27.

إلا بعد عشرات السنين، ومن بين هذه الجراح ماهو خطير جداً وقد يتسبب في عرقلة المجتمع من السير إلى أمام، وعلى سبيل المثال، توقف المؤتمرون عند الآتي:

أ- *أن الجزائر لم تعد تدفع مقابل إسترجاع السيادة الوطنية مليوناً ونصف مليون شهيد فحسب، بل لقد ترتب عن ذلك وجود مئات آلاف الأرامل والأيتام والمعطوبين والمصابين بأمراض نفسية وعقلية مختلفة، ومما لا شك فيه أن وضع هؤلاء جميعاً يتطلب عناية خاصة من الحكومة الجزائرية الجديدة.*

ب- *أن جيش الإستعمار لم يكتف بمحاربة جيش التحرير الوطني وأعضاء المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني، بل أنه أقام في سائر أنحاء البلاد معسكرات ومحتشدات حبس فيها، بدون محاكمة، أكثر من مليونين من الجزائريات والجزائريين. وبالإضافة إلى ذلك هناك عشرات آلاف المعتقلات والمعتقلين المحكوم عليهم بأحكام تتراوح ما بين الإعدام والسجن المؤبد والسنة الواحدة، فتسريح كل هؤلاء دفعة واحدة سيؤدي إلى خلق العديد من المشاكل الإقتصادية والإجتماعية التي يجب على الحكومة الجديدة أن تبحث لها عن الحلول الناجحة.*

ج- *إن الجيش الإستعماري، بعد تهجير المواطنات والمواطنين من الأرياف ونقلهم إلى المحتشدات، قد أقدم على تهديم مئات القرى وحرق آلاف الهكتارات بالنابالم. أما وقد توقف إطلاق النار وفتحت أبواب المعتقلات والمحتشدات، فإن الحكومة الجزائرية الجديدة مطالبة بتوفير إمكانيات إعادة التعمير والبناء.*

د- *إن سنوات الكفاح المسلح قد قادت إلى هجرة مئات آلاف الجزائريات والجزائريين الذين تمركزوا خاصة على الشريط الحدودي في تونس والمغرب الأقصى، بعد أن تركوا أموالهم وجميع ممتلكاتهم، ومما لا ريب فيه أن عودة هؤلاء اللاجئين تتطلب إمكانيات مادية كبيرة وقدرة على التوزيع والتنظيم لأن جل النواحي التي هجروها قد أحرقت وزرعت بالألغام.*

هـ- *أن المناطق الشرقية والغربية، وعلى شريط عرضه يزيد عن كيلو مترين، لم تعد قابلة للشغل بجميع أنواعه نظراً لما فيها من أسلاك شائكة وحقول ألغام فردية ونظراً لما يتطلب مسحها من إمكانيات*

تقنية وبشرية.

و- إن الإستعمار، إضافة إلى المحتشدات والمعتقلات، قد جمع أكثر من ثلاثة ملايين من الجزائريين في أحياء قصديرية قريبة من المدن والقرى الكبيرة حتى يتمكن من عزلها عن جبهة التحرير الوطني ومنعها من الإسهام في سائر نشاطات الثورة. فهؤلاء السكان طردوا من أراضيهم وجردوا من ممتلكاتهم وثرواتهم الحيوانية، مع وقف إطلاق النار أصبح من الضروري على الحكومة الجزائرية الجديدة مساعدتهم على إعادة مرافق الحياة إلى المناطق التي هجروا منها قبل سنوات.

ز- أن كل هذه الأوضاع قد ولدت مشاكل إقتصادية وإجتماعية وثقافية كثيرة مثل البطالة والأمية والمرض وضرورة مواجهة موسمين حيويين بالنسبة لمستقبل البلاد وهما: الموسم الزراعي والموسم الدراسي.

2- إن الإدارة الإستعمارية قائمة في الجزائر ومسؤولوها هم نفس مسؤولي منظمة الجيش السري، أما الجزائريون المتواجدون بها، على جميع المحتويات، فمعظم ممن كان الفرنسيون يسمونهم "أبناء العائلات" أي القابلين للسيطرة الأجنبية، الرافضين للعنف وغير المستعدين للإلتحاق بصفوف الثورة. وإذا كانت أقليتهم من المناضلين، فإن أغلبية هذه الأقلية لا تشغل سوى مناصب ثانوية، وبالإضافة إلى ذلك، فإن إتفاقيات إيفيان قد تضمنت بنداً ينص على إلتزام سلطات الجزائر المستقلة بعدم محاسبة أو ملاحقة جميع الذين تعاونوا مع العدو وكذلك عدم التعرض لهم في الطريق أو أماكن شغلهم.

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن جبهة التحرير الوطني مطالبة بتطهير الإدارة وإعادة تنظيمها بالكيفية التي تضمن للثورة حيويتها وإستمرارها وقد لاحظ المؤتمرون أن هذه المهمة دقيقة جداً نظراً لإتساع رقعة البلاد وحدة المشاكل اليومية وقلة الإطارات الجزائرية من المناضلين الأكفاء(1).

3- إن منظمة الجيش السري تمارس منذ تأسيسها، عملاً تخريبياً أدى، شيئاً فشيئاً، إلى شل الحياة الإقتصادية بواسطة تهديم مئات المحلات التجارية

---

(1) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص 56.

وحرق الوحدات الإنتاجية وكثير من المعامل والورشات خاصة في العاصمة وفي كبريات المدن.

4- إن الحكومة الفرنسية، بعد أن أستنفذت كل إمكانياتها المادية والبشرية لخنق الثورة الجزائرية لم تنجح ولم تتمكن من الحفاظ على الجزائر الفرنسية، وقد قررت العمل بجميع الوسائل على إفراغ الثورة من محتواها الحقيقي(1) وذلك انطلاقاً من إتفاقيات إيفيان التي ضمنتها مجموعة من الفقرات أقل ما يقال عنها أنها ألغام قوية المفعول في الطريق المؤدية إلى إسترجاع الإستقلال الكامل كما جاء التنصيص عليه في مواثيق جبهة التحرير الوطني.

وبالفعل، لقد جاء في الفصل الثاني من البيان العام: "أنه لا يمكن لأي كان أن يتعرض لإجراءات بوليسية أو متابعات عن طريق العدالة، أو أن تسلط عليه عقوبات إنضباطية أو غيرها بسبب ما أبداه من أراء حول الحوادث التي جرت في الجزائر قبل يوم الإستفتاء حول تقرير المصير، أو بسبب ما قام به من أعمال الحوادث المذكورة قبل وقف إطلاق النار[2].

ومن الواضح أن هذه الفقرة تهدف بالدرجة الأولى إلى حماية نوعين من الناس: المعمرين الذين شاركوا في أعمال التخريب التي قامت بها منظمة الجيش السري أو عملوا كمسلحين في صفوف جيش الإستعمار بشكل أو بآخر من أجل إبقاء السيطرة الأجنبية ومنع جبهة التحرير الوطني من إسترجاع السيادة الوطنية، علماً بأن هذين الصنفين كانا حوالي خمس السكان.

وكان الوفد الفرنسي، عندما أدرج هذه الفقرة، يعتقد أن كثيراً من المعمرين سيبقون في الجزائر لحمل لواء الإستعمار الجديد بمساعدة الأهالي الذين خانوا وطنهم أثناء حرب التحرير والذين تجعلهم الفقرة المذكورة في مأمن من القصاص ومن غضب الجماهير.

وعلى الرغم من إحترام جبهة التحرير الوطني لهذا الشرط التعسفي، فإن جميع المعمرين الذي أظهروا العداء للثورة قد فرّوا، وفرّ معهم معظم من حمل السلاح ضدها من الجزائريين.

ولكن الجماهير الشعبية التي لم يندمل جرحها، لم ترض بهذا القرار،

---

(1) الرؤيا، مجلة فصلية تعني بشؤون الفكر، يصدرها إتحاد الكتاب الجزائريين، العدد2 ، ص27، وما بعدها.

(2) نفس المصدر، ص13 وما بعدها.

واتهمت قيادتها بالتواطؤ، وبدأت تفقد الثقة التي لابد منها لإستمرارية الثورة. وهكذا وجهت الضربة الأولى للثورة بعد وقف إطلاق النار مباشرة.

ودائماً في الفصل الثاني من البيان العام، ورد أن كلا من فرنسا والجزائر تستطيعان إنشاء مراكز جامعية وثقافية في تراب الثانية تكون مفتوحة لجميع الراغبين في ذلك، ومن جهة أخرى تقدم مساعدة لتكوين التقنيين الجزائريين[1].

هكذا، جعل الوفد الفرنسي وفد جبهة التحرير الوطني يبارك سياسة الإستعمار الثقافي التي ستكون عائقاً يمنع بناء الدولة المستقلة في الجزائر، ولمزيد من التوضيح نشير إلى أن فرنسا كانت تدرك بأن الجزائر المستقلة حديثاً لا يمكن أن تسمح لنفسها ببناء مراكز جامعية خارج ترابها، وحتى لو فرضنا أنها أقدمت على ذلك، فإن المراكز لن يقبل عليها غير المغتربين من أبنائها، في حين أن جميع الإمكانيات متوفرة لدى فرنسا لفتح عدد من المراكز الجامعية والثقافية يكون روداها كثيرون من الأهالي الذي نهلوا من ينبوع الثقافة الفرنسية أثناء وجود الإستعمار، وهم عادة من أنصاره ومحبيه رغم الإنسان الذي يتشبع بثقافته يصبح لا ينظر إلا من خلال النوافذ التي تفتحها لها الثقافة.

ولايمكن للسلطات الجزائرية الفتية أن تنتقي رواد هذه المراكز لأن ذلك يتنافى مع النص الصريح الذي يؤكد أنها مفتوحة لجميع الراغبين في أمها.

أما تكوين التقنين في المدارس الفرنسية بواسطة أساتذة فرنسيين تختارهم الدولة الفرنسية، فمعناه تكوين إطارات مشبعة بمبادئ الإستعمار الجديد لتطبيق سياسة جبهة التحرير الوطني الرامية إلى تجسيد إيديولوجيتها على أرض الواقع.

واستفادت فرنسا من محتوى هذه الفقرة إذ ما يزال مركزها الثقافي مفتوحاً للشباب الجزائري إلى يومنا هذا. بالإضافة إلى أن مدارسها وثانوياتها في العاصمة وفي كبريات المدن ظلت تستقبل أبناء الموظفين السامين في الدولة إلى غاية عام 1975، يدرسون فيها البرامج الفرنسية على يد أساتذة معظمهم من غلاة الإستعماريين. وبديهي أن معظم المتخرجين من هذه المدارس والثانويات سيكونون -بحكم وضعهم الإجتماعي- إطارات المستقبل الذين يأخذون بيد

---

[1] *يقول السيد لخضر بن طوبال في المقابلة التي أجريتها معه يوم 21 أفريل سنة 1984: "لقد كان المفاوضون الجزائريون مدركون خطورة مثل هذه الفقرات، لكنهم وافقوا عليه تكتيكياً فقط... إنهم لم يكونوا يحسبون مع الأزمة السياسية لصائفة إثنين وستين وتسعمائة وألف التي أبعدتهم جميعاً عن مناصب الحل والربط وبذلك يمكن القول: إن الجانب الفرنسي قد نجح".*

العامل والفلاح لتحقيق أهداف الثورة في جميع الميادين. وليس هذا من الأمور السهلة في نظري، ولا يمكن على تدعيم موقف[1] الرفض الذي يستحيل تحقيق الإستقلال الكامل بدونه.

وبالإضافة إلى هذه السيطرة الثقافية التي شرعها البيان العام الموقع عليه من الطرفين، فإن الجانب الفرنسي قد أدرج في البيان الخاص بالضمانات في بعض الفقرات التي تسمح لفرنسا بالتدخل مباشرة أو بوسيط في شؤون البلاد الداخلية والخارجية. مع ذلك فإن الجزائريين الذين يغادرون التراب الوطني قصد الإستيطان في بلد آخر، يسمح لهم بإخراج جميع منقولاتهم، وأن الفرنسيين والأهالي، في مرحلة التفكير قبل إختيار الجنسية، يمثلون جميع المجالس السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية يجب أن يأخذ بعين الإعتبار مصالحها المادية والأدبية"[2].

أما البند الثامن والتاسع، فإنهما يشكلان تدخلاً صريحاً في الشؤون القضائية، وذلك بالتنصيص على أنه يحق للمتمردين الآنفي الذكر أن يرفضوا القانون الإسلامي، وأن يمتثلوا فقط للقانون الفرنسي إلى أن يصدر القانون المدني الجزائري الذي "يجب أن يساهموا في وضعه"[3].

وفي نفس البيان، البند الثالث من الجزء الثالث، فإن للمتمردين الحق في إستعمال اللغة الفرنسية، في علاقاتهم مع العدالة ومع سائر الإدارات، كما أن لهم الحق في فتح مدارس خاصة لتعليم الفرنسية وللقيام بالبحوث وفقاً للبيان الخاص بالتعاون الثقافي.

وفي المجال الإقتصادي، فإن البيان يفتح الباب على مصراعيه للسيطرة الأجنبية إذ ينص في البنود التاسع والعاشر والحادي عشر من الجزء الثالث على أن الشركات المدنية والتجارية الفرنسية التي يكون مقرها الإجتماعي في فرنسا، ولها أن يكون لها في المستقبل نشاط إقتصادي في الجزائر، تتمتع بجميع الحقوق الواردة في سائر البيانات الحكومية المتعلقة بوقف إطلاق النار.

أما في الميدان العسكري، فإن البيان الخاص بالقضايا العسكرية يترك لفرنسا، ولمدة تتراوح ما بين ثلاث وخمس عشرة سنة، عدداً من القواعد الهامة

---

[1] *محمد العربي الزبيري، محاضرات في تاريخ العالم الثالث، الجزائر 1977 وما بعدها، يجد القارئ تفاصيل حول موقفي والقبول في البلدان المستقلة حديثًا.*

[2] *ابن يوسف بن خده، إتفاقيات إيفيان، ص28.*

[3] *نفس المصدر.*

مثل المرسى الكبير وعين إكرورقان ومجموعة "بشارهما غير" وبعض الأماكن في بلديات "العنصر" و "بوتليليس وميسرغين إلخ... ويخضع البيان هذه المناطق لإجراءات تعسفية تذكرنا بتلك التي كانت تطبق على سكان ما كان يسمى قبيل الإحتلال بالمؤسسات الفرنسية في الجزائر[1].

ولم يفطن المواطنون إلى أخطار التعاون التقني والثقافي على كثرتها نظراً لكونها لم تظهر إلا بعد مدة، ولأنها تحدث بدون ضجيج تحت جناح الحضارة وفي ظلمة الجهل والأمية، وعلى العكس من ذلك، فإن وجود القواعد الإستعمارية، بعد الإعلان عن الإستقلال، قد أحدث سخطاً كبيراً في أوساط الجماهير، خاصة عندما بدرت بعض التصرفات السيئة من الجنود الفرنسيين وعدد من قادتهم، ثم تحول السخط إلى ضغط صامت أدى إلى الإسراع بالجلاء الذي تم قبل الموعد المحدد بكثير.

ولو كان هؤلاء السكان يدركون أن التعاون المشروط يصبح على مر السنين، كابحاً يمنع الثورة من مواصلة سيرها الطبيعي، وخطراً يهدد شخصيتهم بالمسخ والذوبان، لو كانوا يدركون ذلك لما سكتوا، ولا يبدوا لهذا التيار الجارف مقامتهم التي سبق أن برهنت على نجاحها.

وكلفنا عدم التفطن هذا ثمناً باهظاً، فغزت المدارس الفرنسية قرانا ومدارسنا في حين أغلقت المدارس الحرة التي كانت تعلم اللغة العربية بحجة العمل على التوحيد والرغبة في إعداد جيل العلم والتكنولوجيا، لأن الإستعمار الجديد يؤكد بأن اللغات الوطنية عاجزة عن نقل المعارف العصرية[2]، وأن لغة "الوطن الأم" وحدها هي التي يمكن أن تشكل النافذة التي يطل منها الإنسان المتخلف على دنيا الإختراع والإبداع.

واقتحمت اللغة والعقلية الفرنسيتان منازل الجزائريين والشخصيات منهم على وجه الخصوص، وصارت اللغة الأجنبية في الإدارة وفي سائر دواليب الدولة حتى أصبح ذو الثقافة الوطنية يشعر بالعزلة وينعت بالأصبع على أنه

---

(1) *محمد العربي الوبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري (1729- 1830) ط2، الجزائر، 1984 تشمل هذه المؤسسات جميع الإمتيازات التي حصلت عليها فرنسا سنة 1520 على يد خير الدين بربروس في عهد الملك فرانسوا الأول وقد ظلت قائمة إلى غاية سنة 1827 ومقرها الرئيسي بمدينة القالة الساحلية الواقعة على مقربة من مدينة عنابة، ونظراً لأهمية هذا الموضوع خصصنا له فصلاً كاملاً، ص 191 وما بعدها.*

(2) *هو مجموع النصوص التي صادق المجلس الوطني عليها في دورة جوان من أجل تحقيق الثورة الديمقراطية الشعبية.*

ممثل للتخلف والرجعية.

والغريب أن هذه النتيجة التي تحققت في فترة وجيزة بعد إسترجاع الإستقلال الوطني، لم تتمكن سلطات الإحتلال من تحقيق ولو جزء بسيط منها خلال مائة وإثنين وثلاثين سنة من الظلم والإضطهاد، وتجربة العديد من السياسات الرامية إلى جعل الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا.

كل هذه المشاكل زادت مع الإستقلال السياسي، ووجدت اطاراً قانونياً لها في البيانات الحكومية المتعلقة بوقف إطلاق النار، وكان على السلطات الوطنية الفتية أن تتحداها لتتمكن من سلوك الرفض الذي يستطيع وحده سد المنافذ في وجه الإستعمار الجديد.

لقد توقف المؤتمرون، ملياً، عند كل هذه الملاحظات، وبعد أن درسوها دراسة وافية عبروا عن موقفهم منها بدقة بواسطة المقتطفات التالية من برنامج طرابلس: "إن الحكومة الفرنسية تحاول توجيه استقلال بلادنا حسب مقتضيات سياستها الإستعمارية... وتمثل إتفاقيات إيفيان قاعدة للإستعمار الجديد تريد فرنسا إستعمالها لتمكن هيمنتها وتنظيمها في شكل جديد، إن المستعمرين الفرنسيين يحاولون أن يجعلوا من قبولنا التكتيكي لإتفاقيات إيفيان نكسة إيديولوجية تنتهي إلى التخلي عن أهداف الثورة".

"والحكومة الفرنسية لا تعتمد فقط على قواتها العسكرية وعلى الأقلية الفرنسية لتخريب تطور الجزائر بل إنها تستغل التناقضات السياسية والإجتماعية داخل جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وتحاول أن تجد ضمنها حلفاء موضوعيين قد ينسلخون عن الثورة وينقلبون ضدها، وهذا التكتيك الإستعماري يمكن تلخيصه كمايلي: بعث قوة ثالثة في صفوف جبهة التحرير الوطني تتكون من الوطنيين المعتدلين الذين يقتنعون بالإستقلال ولكنهم يعارضون كل عمل ثوري حقيقي ثم ترك عناصر القوة الثالثة تتصارع مع المناضلين والإطارات التي تبقى وفية للمصالح "الشعبية ولمقاومة الإستعمار... إن رغبة الحكومة الفرنسية هي أن تتغلب النزعة المعتدلة على القوى الثورية وهذا ما يجعل ممكناً قيام تجربة تشترك فيها فرنسا مع جبهة التحرير الوطني في نطاق الإستعمار الجديد".

"وإننا نكون بعيدين عن الواقع إذا ظننا أن الثورة سوف تتواصل بدون عائق لأن القاعدة الاستعمارية الجديدة التي تدعونا إليها، فرنسا هي في الواقع ملتقى جميع القوات المعادية للثورة... إن فرنسا تريد أن تجذب إليها، بواسطة

المليارات، فئة كاملة من الناس الذين يوحدهم الجشع والطموح الشخصي أي الذين تربوا على المنافع القذرة المنجرة لهم من الحرب الاستعمارية".

إن فرنسا ستحاول استغلال نقائصنا وأخطائنا لقلب تيار الثورة وتنظيم القوى المعارضة، وإن توضيح أهدافنا والتحليل السليم والدقيق لنواقصنا وما بقي غامضاً من مطامحنا وأفكارنا هو الذي سوف يجعل قوى الشعب الجزائري الثورية حقيقة واعية منظمة ومتفتحة على المستقبل".[1].

ولمواجهة التخطيط الإستعماري الجديد، رأت قيادة الثورة أن من الضروري تجاوز الهدف الرئيسي الذي كانت الحركة الوطنية ترمي إلى تحقيقه، فالإستقلال لم يعد كافياً لأن الكفاح المسلح قد ولد مستلزمات وتطورات في الوعي الشعبي وفي داخل التركيبة البشرية نفسها، وتباعاً، أصبح حتماً على جبهة التحرير الوطني أن تتكيف مع الوضع الجديد فتهيء الظروف الملائمة لمواصلة الثورة في جميع الميادين.

إن جبهة التحرير الوطني، حسب تحاليل المجلس الوطني، عندما أعلنت عن بدء الكفاح المسلح، لم تكن تتوقع حدوث كل ذلك الإنقلاب الإيجابي الذي أصاب الريف والمدينة على حد سواء، كما أنها لم تضع في حسبانها إنزلاق الجالية الأوروبية في الطريق الذي اختطته لها منظمة الجيش السري والذي قادها مباشرة للهجرة الجماعية إلى فرنسا، لأجل ذلك فإنها لم تفكر في صياغة مشروع المجتمع الذي يأخذ في الإعتبار كل هذه المعطيات الجديدة.

لقد كان نداء الفاتح من نوفمبر الذي أكده ميثاق وادي الصومام يدعو جبهة التحرير الوطني إلى أن تظل هي المرشد الوحيد للثورة الجزائرية، ولكي يتسنى لها ذلك، يجب أن تكون قوية بتجذرها في أوساط جميع فئات الشعب وأن تسعى بجميع الوسائل إلى نشر الوعي السياسي في صفوف الجماهير الشعبية الواسعة وتكوين الإطارات والمناضلين إيديولوجياً وسياسياً. لكن المجلس الوطني للثورة الجزائرية المنعقد بطرابلس في شهر جوان سنة إثنتين وستين وتسعمائة وألف، يرى أن الوعي الجماعي قد نضج نتيجة الإحتكاك بالواقع بينما تقهقرت ممارسات جبهة التحرير الوطني في جميع المستويات، وينسب ذلك إلى أن قيادة الثورة لم تتمكن من تجاوز هدف استرجاع الاستقلال إلى فكرة الثورة الشاملة التي لا تتوقف والتي أصبحت مطلباً لا يمكن فصله عن التحرير الوطني.

---

[1] *النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، 57 وما بعدها.*

ويرى المجلس الوطني للثورة الجزائرية كذلك، من خلال تحليله، أن المرحلة الموالية لوقف إطلاق النار تتطلب ضبطاً دقيقاً للمفاهيم والمصطلحات التي سوف تكون في أساس التحرك من أجل إنجاح الثورة.

وفي هذا السياق، يؤكد أن جبهة التحرير الوطني التي هي في جوهرها حركة مناهضة للإقطاع ومحاربة له لم تنج من تأثيره على بعض جوانب نظامها لأنها أهملت الثقافة السياسية التي من شأنها التصدي للروح الإقطاعية أو لبعثها من جديد. والروح الإقطاعية في نظر المجلس، لا تتعلق فقط بطبقة اجتماعية معينة "ذات سيطرة تقليدية تستمدها من ملكية الأراضي واستغلال الغير، بل أنها أشكال مختلفة قد نجدها حتى في الثورات الشعبية التي ينقصها الوعي العقائدي"[1]

وإذا كان الناس يعرفون الإقطاعية الزراعية ويقدرون مساوئها ومضارها فيعملون على إزالتها بكل ما يمكن من وسائل، فإن الإقطاعية السياسية تكاد تكون مجهولة رغم ما تمثله من خطورة على حسن سير الثورة فيما يتعلق بالجزائر لأنها بما تخلقه من تكتلات وتحيزات ودكاكين مرتبطة بمصالح شخصية وآنية، تقضي على الديمقراطية في صفوف المناضلين وفي أوساط الجماهير الشعبية بصفة عامة.

إن جبهة التحرير الوطني، حسب تقييم المجلس، قد بذلت جهداً كبيراً للتخلص من هذه الروح الهدامة، لكنها لم تتمكن من إجتثاث جذورها فبقيت سائدة في الميادين الاقتصادية والإجتماعية والثقافية والدينية[2]، وتولدت عنها آفة أخرى هي ما يمكن تسميته بالروح المبادرة الخلاقة عند المناضل والمواطن[3].

وإلى جانب الروح الإقطاعية بالمفهوم المشار إليه أعلاه. ندد المجلس بآفة أخرى أعقب أنها أضرت المجتمع الجزائري في الماضي، وإذا لم يقض عليها فإنها سوف تتمكن بالتدريج من إجهاض الثورة. هذه الآفة هي الروح البورجوازية الصغيرة التي يؤكد المؤتمرون أنها "تفشت وانتشرت بسبب التجمع الإيديولوجي الناتج عن الإنحراف الأول الذي كرسه وادي الصومام والمتمثل

---

(1) نفس المصدر، ص60.

(2) لقد كان المجلس الوطني قياساً في هذا الحكم المستند إلى مصادر أجنبية ما أبعدها عن فهم الواقع الجزائري. انظر معالجتنا لهذا الموضوع في مجلة الجيش، العدد ص:

(3) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص: 61.

في إسناد بعض مناصب الحل والربط إلى إطارات تكونت في صفوف أحزاب لا علاقة لها بالتكوين الثوري[1].

ويرى المجلس الوطني للثورة الجزائرية أن الطابع للبورجوازية الصغيرة هو روح الفردية والتشبث بالمنفعة الخاصة والسلوك المتكبر إزاء الفلاحين والمناضلين المتواضعين وهي كلها صفات تتنافى مع ما ينبغي أن تتخلى به القيادات الثورية وتعود، عندما لا تستأصل في أساسها، إلى تعميق الهوة الفاصلة بين القمة والقاعدة، وتهيئة الأرضية الهشة التي تنمو فيها وتترعرع البيروقراطية التافهة المعادية للشعب والعاملة على تدعيم مناهضة الثورة.

وبالإضافة إلى كل هذه الآفات الفتاكة، توقف المجلس الوطني للثورة الجزائرية عند الآثار السلبية التي تركها في الميدان الإيديولوجي بقاء القيادة العليا للثورة خارج التراب الوطني رغم مقررات وادي الصومام ورغم أنه كان نتيجة لمقتضيات الظروف في ذلك الوقت، فاستمرار القيادة في الخارج منذ السنة الثالثة للثورة قد تسبب في إيجاد قطيعة بينها وبين الواقع الوطني وكان يمكن أن تكون عواقبه وخيمة على الحركة التحريرية كلها، ومما لا شك فيه أن هذه القطيعة هي التي سمحت بميلاد تيارات سياسية متنافرة في داخل جبهة التحرير الوطني كما أنها قادت بالتدريج إلى إعطاء مفهوم خاطئ للدولة وللحزب، الأمر الذي أنجز عنه تداخل المؤسسات فيما بينها وتحول جبهة التحرير الوطني إلى مجرد أداة إدارية للتسيير بدل أن تهتم بالتطهير الإيديولوجي.

انطلاقاً من هذه التحاليل تحددت المعالم الكبرى لمشروع، المجتمع الجديد فيما سيعرف ببرنامج طرابلس، وقبل الشروع في تقديمه والتعليق عليه لا بد من إبداء بعض الملاحظات التي من شأنها أن تساعد القارئ على فهم كثير من الخلفيات ومن تسليط الأضواء على مجموعة من النقاط التي ظلت غامضة في إيديولوجية جبهة التحرير الوطني.

1- إن الحكومة المؤقتة عندما عينت مجموعة العمل التي أسندت لها مهمة تحضير المشروع التمهيدي لها سيعرف ببرنامج طرابلس، لم تراع مقياس التجانس بين أعضائها ولم تأخذ في الإعتبار ضرورة تعيينهم من بين المناضلين المتشبعين بإيديولوجية الحركة المصالية فقط، ولأنها لم تفعل جاءت المجموعة ثلاثة أقسام متباينة، إثنان منها على

نفس المصدر.

الأقل ، وهي الأغلبية متشبعة بالفكر الماركسي وليس لها أية تجربة ميدانية، بالإضافة إلى ذلك كان الأعضاء كلهم متشبعين بالثقافة الغربية ولادراية لهم بالحضارة العربية الإسلامية التي يجب الرجوع إليها عندما يتعلق الأمر بتحديد مصير الشعب الجزائري العربي المسلم.

2- إن الحديث عن الإقطاع في الجزائر في غير محله وهو فقط من باب التقليد الأعمى للغير، فالإقطاع كنظام للحكم ظهر في فرنسا ثم انتشر إلى باقي أنحاء أوربا في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر وقد قضي عليه نهائياً بفضل الثورة الفرنسية، وبما أن الجزائر كانت مستعمرة إستيطانية ألحقت إدارياً بفرنسا مع بداية الثلث الثاني من القرن التاسع عشر، ومن جهة ثانية فجزائر ما قبل الاستعمار كانت تمارس النظام الإسلامي في الحكم وهو أبعد ما يكون عن الإقطاع. لأجل ذلك فإن مجموعة العمل عندما اتخذت نظام الإقطاع كمنطلق لها في تحليل الواقع الإقتصادي في الجزائر قد أخطأت الطريق من البداية، والطريق الخطأ لا يؤدي إلى نتائج إيجابية سليمة.

وقد كان على المجموعة، لتكون مصيبة في تحاليلها، أن تنطلق من أن النظام الاستعماري الذي كان مفروضاً بالقوة على الشعب الجزائري والذي كان وحيداً من نوعه سواء، فيما يتعلق باستغلال الأرض أو باضطهاد الإنسان.

3-إن اعتماد النظريات الماركسية لتقييم المراحل التي قطعتها الثورة الجزائرية، ولإعداد البرنامج المستقبلي لم يكن فعلاً منطقياً، لأن جبهة التحرير الوطني، عندما أعلنت عن بدء الكفاح المسلح، توجهت إلى جماهير الشعب الجزائري وإلى كل الأحزاب السياسية بهدف وتوحيد صفها لخوض المعركة من أجل تقويض أركان النظام الاستعماري. ولقد أثبت التاريخ منذ اللحظات الأولى التي وقع فيها العدوان الفرنسي على الجزائر أن الإسلام وحده هو القادر على تجنيد الطاقات الشعبية في وجه القوات الاستعمارية(1).

---

(1) إن جميع الثورات والانتفاضات الشعبية التي وقعت خلال ليل الاستعمار الطويل كلها قد انطلقت من الزوايا واعتمدت طريقة أو مجموعة من الطرق الصوفية.

وعلى الرغم من تنكر بعض قادة الثورة(1) للدور الأساسي الذي أداه الإسلام في جعل الجزائريات والجزائريين يستجيبون لنداء نوفمبر ويتفاعلون مع مخططات جبهة التحرير الوطني طيلة كل الفترة التي استغرقها الكفاح المسلح، فإن الحقيقة التاريخية تدل، بما لايدع أي مجال للشك، على أن الإسلام ظل دائماً هو القلب النابض للثورة، وأن مفاهيمه ومصطلحاته(2) هي التي دفعت المواطنات والمواطنين إلى التضحية القصوى. لأجل ذلك فإن من الخطأ الفادح أن يقدم منظرون يجهلون واقع الشعب الجزائري وتاريخه ولايعرفون من الإسلام سوى الاسم للثورة التي عرفت كيف تعيد للجهاد وظيفته.

4- على عكس ادعاءات مجموعة العمل، فإن جبهة التحرير الوطني قد نجحت نجاحاً باهراً في أدلجة معظم جماهير الشعب الجزائري وتمكنت، خلال فترة الكفاح المسلح، من إدخال تغيرات جذرية على ذهنية المواطنين ومن وضع نمط للحياة جديد يختلف كلية عن النمط الاستعماري.

فالشعب الجزائري الذي كان قبل سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف يرفض في معظمه حتى التصديق بإمكانية الانفصال عن فرنسا ويجهل كل شيء عن هويته، أصبح بفضل نشاط جبهة التحرير الوطني، في الأرياف وفي المدن، يمارس السياسة ويشارك مشاركة فعلية سلبياً أو إيجابياً، فيما يجري في الجزائر، ولايتحدث إلا عن الاستقلال، وجهة أخرى، فإن مجرد الرجوع إلى وثيقة وادي الصومام وماجاء بعدها من نصوص أساسية وضعتها قيادات الثورة المختلفة ليدل، دلالة قاطعة على أن ثمة تطوراً أيديولوجياً ملموساً، وأن جبهة التحرير الوطني كانت تتوقف من حين لآخر تقيم المراحل المقطوعة وعلى ضوء ذلك تقوم بالإجراءات اللازمة.

وفي سنة اثنتين وستين وتسعمائة وألف، عندما وقعت الأزمة الداخلية التي كانت تحمل في طياتها بذور الحرب الأهلية وقف الشعب الجزائري موقفاً حكيماً ما كان ليكون لولا نجاح جبهة التحرير في نشر الوعي السياسي داخل صفوفه

---

(1) بوضياف (محمد) لقاء أجريته معه في بيته بالقنيطرة يوم 1984/03/16 لقد ظل رغم كل الحجج التي قدمتها له متمسكاً برأيه ومؤكداً أن الإسلام لم يؤدي أي دور في ثورة التحرير وبالنسبة إليه، فإن الحركة المصالية كانت ديمقراطية ولائكية. ولقد بقي ذلك هو موقفه حتى عندما جاء به قادة الجيش الوطني الشعبي وأسندوا له رئاسة الدولة في شهر جانفي 1992.

(2) منذ البداية استعملت الثورة الجهاد للتدليل على الكفاح المسلح والمجاهد لتسمية المكافح والشهيد القتيل الخ...

وبدون تمكنها من إعداد الإطارات والمناضلين إعداداً إيديولوجياً كافياً، لكن هناك ملاحظة لابد منها وهي واقع الجماهير الشعبية في داخل الوطن كان يختلف اختلافاً مطلقاً عن واقع الإطارات والمغتربين الذي قد يكون أعضاء مجموعة العمل اعتمدوا عليه في تقييمهم الذي أخذوا منه لإعداد برنامج طرابلس.

5-إن اعتماد النصوص الأساسية للثورة واستنطاق تاريخ غير التاريخ الجزائري(1) وتوظيف ثقافة غير الثقافة العربية الإسلامية حتى لانقول الثقافة الاستعمارية وعدم الرجوع إلى الواقع الحقيقي للشعب الجزائري في داخل البلاد، كل ذلك جعل مجموعة العمل تقدم للمجلس الوطني للثورة الجزائرية نصوصاً نظرية غير قادرة للتنفيذ وبعيدة كل البعد عن مشروع المجتمع الذي مافتئت الحركة الوطنية تدعو إلى إقامته.

بعد هذه الصورة المجملة يعود برنامج طرابلس إلى التأكيد على "أن حرب التحرير التي قام بها الشعب الجزائري قد أعادت للجزائر سيادتها الوطنية واستقلالها، لكن المعركة لم تنته، بل العكس، يجب أن تستمر لتوسيع ودعم الانتصارات[2] وذلك بواسطة الثورة الديمقراطية الشعبية التي هي تشييد واع للبلاد في إطار المبادئ الاشتراكية والسلطة للشعب[3].

فالثورة الديمقراطية الشعبية مصطلح جديد وكذلك الأهداف المحددة لها. لأن الفاتح من نوفمبر وغيره من النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني تتحدث، (عن)الثورة الجزائرية كحركة جهادية ترمي إلى بناء دولة ديمقراطية اجتماعية في إطار (غايته) الإسلامية.

وعلى هذا الأساس، فإن تحولاً خطيراً قد وقع في إيديولوجية جبهة التحرير الوطني وهو ماجعل السي فرحات عباس يقول عن برنامج طرابلس بأكمله "إنه تعبير غير مهضوم"[4].

وعلى الرغم من كون الأغلبية الساحقة من أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية، ترفض الشيوعية ولاتحبذ المبادئ الاشتراكية، فإن مشروع برنامج

---

(1) لقد كان أعضاء مجموعة العمل جميعهم ينطلقون من تاريخ الثورة الفرنسية.
(2) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص
(3) محمد حربي، *جبهة التحرير الوطني.*
(4) تشريح حرب، ص173.

طرابلس لم يناقش بل تمت المصادقة عليه بالإجماع لأن اهتمام المؤتمرين كان منصرفاً إلى مسألة تشكيل المكتب السياسي، ولقد كان ذلك خطأ فادحاً جعل الثورة الجزائرية، تدخل مرحلة ما بعد الكفاح المسلح بمشروع مجتمع بعيد كل البعد عن واقع الشعب الجزائري، ومستحيل التنفيذ بسبب عدم تهيئة الظروف الموضوعية والمتمثلة خاصة في تثقيف الجماهير الشعبية الواسعة ثقافة اشتراكية.

لقد كان واضعو المشروع يعرفون جيداً أن الشعب الجزائري مسلم، وأن نسبة الأمية فيه تزيد عن ثمانين بالمائة، وأن تمسك أفراده بمبدأ الملكية الخاصة لا جدال حوله، ومع ذلك فإنهم تبنوا تحليل الدكتور فرانتزفانون الذي قال: "إن الثورة الجزائرية لايمكن إلا أن تكون ثورة اشتراكية يشكل الفلاحون قواها المسيِّرة، وترتكز استراتيجيتها على دور الإسلام الذي هو حصن الفقراء ضد الأغنياء والذي يعطي للأصالة الجزائرية طابعها المتميز"[1] ولكي لايستعملوا نفس المصطلحات الماركسية[2] اخترعوا تسمية جديدة هي الثورة الديمقراطية الشعبية وحددوا مهامها الأساسية كالآتي:

1-إقامة الدولة الجزائرية على أساس مناهضة الامبريالية ومعاداة الإقطاع، وذلك يتطلب بالضرورة تحلي الطاقات الحية في البلاد بروح المبادرة واليقظة وممارسة الرقابة المباشرة في جميع الميادين، بإلغاء أشكال الذاتية المتمثلة في الارتجال وسوء التقدير وعدم الوضوح الفكري والنظرة المثالية للواقع وفي القيم الأخلاقية الفردية التي لايمكن أن تكون حاسمة في بناء المجتمع.

2-إلغاء الهياكل الاقتصادية والاجتماعية التي أوجدها الإقطاع واستبدالها بهياكل جديدة ومؤسسات يكون هدفها الأول هو تحرير الإنسان وتمكينه من ممارسة حرياته، وتوفير الشروط اللازمة لضمانها. وحتى تكون التنمية الشاملة سريعة ومنسجمة وقادرة على الاستجابة لحاجيات الجميع يجب أن تصاغ في منظار اشتراكي بالضرورة.

3-استرجاع القيم المكبوتة أو تلك التي قضى عليها الاستعمار، والعمل على صياغتها وتنظيمها وفقا للحداثة والعصرنة، وفي نفس الوقت إدراج الفكر الديمقراطي وترسيخه في سائر مؤسسات الدولة والعمل على نشر

---

[1] فرانتز فانون، المعذبون في الأرض.

[2] الأدبيات الماركسية تقول: الثورة البورجوازية.

روح المسؤولية وجعلها تحل محل مبدأ السلطة الذي هو في جوهره إقطاعي وتسلطي. ولايجب أن تتوقف الديمقراطية عند تفتح الحريات الفردية بل ينبغي أن تكون تعبيراً جماعياً عن المسؤولية الشعبية.

4- حمل الطبقة البرجوازية على أن تخضع مصالحها الخاصة بوحدة الشعب، تعدل عن إدارة التحكم في مصير البلاد، وتتخلص من ميزاتها الأساسية التي تدفعها إلى الارتباط بالاستعمار الجديد والتي هي: الانهزامية والديماغوجية وروح التهويل والاستخفاف بالمبادئ، وضعف الإيمان الثوري.

5- نشر الوعي في أوساط الجماهير الشعبية الواسعة التي يجب أن تدرك بأن عملية البناء والتشييد لايمكن إنجازها بواسطة طبقة اجتماعية واحدة مهما كانت درجة قوتها واستنارتها، بل لابد من إسناد هذه المهمة إلى الشعب نفسه، والشعب هو: الفلاحون والعمال والشباب والمثقفون الثوريون.

6- وضع فكر سياسي واجتماعي يعكس بوفاء مطامح الجماهير، وذلك بواسطة طليعة واعية تتكون من عناصر تنحدر من الفلاحين والعمال والشباب والمثقفين الثوريين. فهذا الفكر الجديد هو الذي سوف يكون في أساس بناء الدولة العصرية وتنظيم المجتمع الثوري في الجزائر، وهو يتطلب روح بحث منهجي متطورة، ومجهودات معتبرة في مجال التنقيب، لأن الإيديولوجية الجاهزة غير موجودة، بل هناك فقط المجهود الإيديولوجية المتواصل والخلاق.

7- إحداث تصور جديد للثقافة التي يجب أن تكون وطنية وثورية وعلمية. فدورها كثقافة وطنية يتمثل في إعطاء اللغة العربية كرامتها كلغة حضارة وكمعبّر حقيقي عن قيم الشعب الجزائري، ويرمي كذلك إلى إعادة بناء التراث الوطني وتقييمه والتعريف بإنسانيته، وإلى محاربة الهيمنة الثقافية والتأثير الغربي اللذين ساهما في تلقين الكثير من الجزائريين احتقارهم لغتهم وقيمهم الوطنية.

وبصفتها ثقافة ثورية، فإنها ستساهم في تحرير الشعب الجزائري وتمكينه من تصفية مخلفات الإقطاع والخرافات المعادية للمجتمع، كما أنها ستنير كفاح الجماهير السياسي والاجتماعي وتساعد على تطوير الوعي الثوري وتعكس باستمرار طموحات الشعب وواقعه بجميع أنواعه.

وكثقافة علمية في وسائلها وأبعادها، فإنها تتميز بطابع عقلاني وتجهيزات تقنية عالية وهي ضرورية للتحكم في العلوم وتطوير البحث العلمي والاهتمام بالتكوين التقني من أجل إدخال الجزائر عهد الإبداع العصري الذي يتوقف عليه نجاح التنمية الشاملة.

ولقد كانت باستطاعة مجموعة العمل أن تتدارك أخطاءها الفادحة لو جعلت في مقدمة المهام الأساسية المذكورة تحريك الصحوة الإسلامية في الجزائر باعتبار أن الإسلام دعوة لتحرير الإنسان وتطبيق العدالة الاجتماعية وهو أيضاً دين المعاملات الكفيلة بإقامة الدولة القوية. ولأن ذلك لم يحدث، فإن بعض التيارات السياسية قد ركبت الموجة وراحت تنشر في أوساط الجماهير الشعبية كون النظام الجزائري الجديد شيوعي لاعلاقة له بواقع الشعب العربي المسلم.

وبعد تحديد المهام الأساسية، انتقل برنامج طرابلس إلى تعداد الوسائل الواجب استعمالها لتجسيد الثورة الديمقراطية على أرض الواقع، وحصر هذه الوسائل في ثلاثة رئيسية هي: "بناء اقتصاد وطني وانتهاج السياسة الاجتماعية التي ترمي إلى إفادة الجماهير ورفع مستوى معيشة العمال والقضاء على الأمية وتحسين الأوضاع السكنية والصحية وتحرير المرأة ثم انتهاج سياسة دولية أساسها الاستقلال الوطني ومناهضة الامبريالية.

فيما يخص بناء الاقتصاد الوطني. وانطلاقاً من كون فرنسا كانت تسيطر كلية على الاقتصاد الجزائري، وبأن هذا الأخير مختل التوازن وغير متناسق[1]، فإن برنامج طرابلس قد أوصى بالعدول عن أساليب الليبرالية التقليدية حتى يتسنى للثورة إجراء تحول حقيقي في المجتمع وانقلاب جذري في الهياكل الاقتصادية الموجودة وتطويرها بالكيفية التي تتماشى مع متطلبات التنمية وإنجاز مهام الثورة الديمقراطية الشعبية وتدعيماً لهذه التوصية تضمن البرنامج التوضيحات التالية:[2]

"إن الأساليب الليبرالية تزيد في خطورة فوضى السوق وتدعيم التبعية

---

[1] *يشير برنامج طرابلس إلى أن الاقتصاد الجزائري في ذلك الوقت كان يتضمن قطاعين تربط بينهما شبكة تجارية هشة، أما القطاع الأول فرأسمالي عصري ونشيط وهو يشكل موقعاً للاقتصاد الفرنسي ويشمل الفلاحة ومختلف وعي أنواع الصناعة والنقل والتجارة الكبيرة والخدمات. أما القطاع الثاني فتقليدي يعيش منه السواد الأعظم من الجزائريين وهو لم يبرح ويحتفظ بالهياكل الموروثة عن الماضي ويسيطر عليه الاقتصاد الاستهلاكي وعلاقات الإنتاج التي كانت تميز عصر ما قبل الرأسمالية.*

[2] *النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص78، ومابعدها.*

الاقتصادية للامبريالية وتجعل من الدولة مؤسسة تنقل الثروات وتضعها في أيدي الأغنياء والمحظوظين، وتغذي نشاط الفئات الاجتماعية الطفيلية المرتبطة بالامبريالية. فالبرجوازية المحلية ستعمل على خلافة الأجانب تدريجياً في القطاعات الاقتصادية غير المنتجة، وبينما تحقق ثراءها سيظل الشعب أسيراً للبؤس والجهل".

"إن ضعف الدخل القومي والادخار الخاص، وهروب الجزء الأكبر من الأرباح المحققة من البلاد، وتوجيه الرأسمال المحلي نحو المضاربات كالربح الجشع والريع والربا وعدم استعمال المصدر الهائل لليد العاملة، كلها عوامل توجب محاربة الطريقة الرأسمالية للتنمية".

"إن متطلبات التنمية الاقتصادية في البلاد تستوجب القضاء على تسلط الاحتكارات وذلك بمراجعة العلاقات الاقتصادية مع الخارج ومع فرنسا أولاً، وبإزالة العراقيل الداخلية عن طريق إدخال تغيير جذري على هياكل الحياة الريفية وتصنيع البلاد من أجل توفير حاجيات الشعب".

ولن تتحقق هذه الغايات إلا بانتهاج سياسة التخطيط وتولي الدولة شؤون الاقتصاد بمشاركة العمال. فالتخطيط ضرورة حيوية تمكن وحدها تراكم الرأسمال اللازم لتحقيق التصنيع خلال فترة قصيرة. نسبياً وتركيز أهم قرارات الاستثمار والقضاء على أنواع التبذير.. وسوف تمكن مساهمة العمال في تسيير الاقتصاد من مراقبة التخطيط وتنفيذه وتكييفه التدريجي مع الإمكانيات المتوفرة".

وبعد هذه الشروحات، حدد برنامج طرابلس المحاور الكبرى للثورة الديمقراطية الشعبية وحصرها.

1-الثورة الزراعية التي تشتمل على الإصلاح الزراعي المرتكز على شعار: الأرض لمن يخدمها، وعلى تحديث الفلاحة بواسطة توزيع التقنيات العصرية على أوسع نطاق وتنويع الزراعات الغنية وإحلالها محل الزراعات الفقيرة وإعادة جمع الثروة الحيوانية والعمل على تنميتها وتطويرها ثم المحافظة على الثروة العقارية وتوسيعها بواسطة استصلاح الأراضي المنجرفة وتشجير الغابات المحروقة وتوسيع المساحات المروية بالإضافة إلى التركيز على استصلاح مساحات جديدة.

2-تطوير المنشآت بواسطة تأميم وسائل النقل وتحسين وتجديد شبكات

الطرق والسكك الحديدية وإقامة شبكات جديدة للمواصلات البرية قصد الربط بين المدن الكبرى والأسواق القروية.

3-تأميم البنوك والتجارة الخارجية، لأن السيطرة على هذين القطاعين ضروري لممارسة الرقابة الوطنية وللتمكن من توجيهها في الاتجاه الذي يضمن القضاء على النظام الامتيازي بين فرنسا والجزائر ويسمح للدولة بالإشراف المباشر على التصدير والاستيراد وبمراقبة الأسعار على جميع المستويات.

إن هذه المهمة التي تبدو تقنية تكتسي في الواقع طابعاً سياسياً لأنها تهدف إلى جعل البلاد تسلك موقف الرفض المتمثل في العمل على قطع علاقات الامتيازات مع المستعمر السابق واستبدالها بعلاقات حرة مع البلدان التي تعرض أفضل الأسعار ويضمن التعامل معها مبادلات متوازية أساسها المنفعة المتبادلة.

4-تأميم الثروات المعدنية والطاقة، وإذا كان التأميم ينتظر تحقيقه على الأمد الطويل، فإن إدراجه في البرنامج يعني أن مصالح الدولة مطالبة بتوفير مايحتاج إليه من شروط مثل تكوين المهندسين والتقنيين وتوسيع شبكات الكهرباء والغاز إلى كافة أنحاء البلاد.

5-تطوير الصناعة وتنميتها، وقد حدد برنامج طرابلس مهمة الدولة في العمل على توسيع القطاع العمومي الموجود ليشمل المناجم ومصانع الإسمنت وفي الإعداد لإنشاء صناعات قاعدية لابد منها للفلاحة العصرية وصناعات نفطية وحديدية في انتظار الصناعات التحويلية والثقيلة التي توفر للجزائر امكانيات إنشائها بالتدريج. أما ميادين الاقتصاد الأخرى، فإن الدولة تتركها للمبادرة الخاصة التي ينبغي تشجيعها وتوجيهها في إطار المخططات العامة، كما أن على الدولة تحسين الصناعة التقليدية وإنشاء صناعات صغيرة محلية وجهوية لاستثمار المواد الأولية ذات الطابع الفلاحي خاصة.

وفيما يتعلق بالسياسة الاجتماعية، فإن برنامج طرابلس قد ضبط فيما يلي:

1-رفع مستوى المعيشة بواسطة العمل على جبهتين أساسيتين هما محاربة البطالة قصد إلغائها نهائياً ومحاربة مظاهر الترف والإسراف والتبذير من جهة، وتعبئة الجماهير الشعبية لمضاعفة العمل وإتقانه وحمل الدولة والأغنياء على اللجوء إلى التقشف سواء في الحياة اليومية أو

بالنسبة لتحديد الأجور والمرتبات من جهة ثانية.

2-محو الأمية وتطوير الثقافة الوطنية، انطلاقاً من تعلق الشعب بقيمه الوطنية التي صيغت في إطار الحضارة العربية الإسلامية ومن تعطشه إلى العلم والمعرفة اللذين هما ضروريان لإخراجه من دائرة التخلف.

3-السكن وهو ميدان خاص بحياة ملايين الجزائريين الذين هدمت منازلهم في الأرياف واضطروا للعيش في أكواخ المجمعات والمعسكرات أو في الأحياء القصديرية التي تكاثرت عند مداخل المدن والقرى التي سلمت من الهدم والتخريب. لأجل ذلك، فإن توفر السكن اللائق للمواطنين يعتبر من الإجراءات المستعجلة التي يجب اتخاذها طبقاً لما تقتضيه دورة النشاط الاقتصادي وعملية إعادة تأهيل الريف.

4-الصحة العمومية، والاهتمام بهذا القطاع يبدأ بتأميم الطب والمنشآت الصحية من أجل ضمان مجانية العلاج. ولكي يكون الإجراء ناجحاً، لابد من مصاحبته بتكوين سريع للإطارات ومن تعبئة الجيش والمنظمات الجماهيرية لتحقيق إنجازات جديدة في الميدان ولمحاربة الأوبئة والأمراض المعدية.

5-تحرير المرأة باعتبارها نصف المجتمع. ونظراً لمشاركتها الفعلية في تقويض أركان الاستعمار، لإنجاز هذه المهمة يدعو برنامج طرابلس إلى محاربة الأحكام الاجتماعية السابقة والمعتقدات الرجعية وإلى توفير الشروط الموضوعية التي تسمح بإشراف النساء في تسيير الشؤون العامة وتنمية البلاد.

وبالنسبة للسياسة الخارجية وهي الوسيلة الثالثة لإنجاز مهام الثورة الديمقراطية الشعبية، فإن برنامج طرابلس قد أشار إلى أنها عامل أساسي في تدعيم الاستقلال الوطني وبلورة الشخصية الدولية للجزائر. ومن ثم، فهي تنطلق من موقف الرفض الذي يدعو البلدان المستقلة حديثاً إلى قطع كل مايربطهم بالمستعمر السابق وتتمحور حول مجموعة من المبادئ الثابتة وأبرزها:

1-مناهضة الاستعمار والامبريالية باعتبارهما آفة العصر وقوة الشر التي تمنع الشعوب من تقرير مصيرها بنفسها، وتبني مصالحها على الاستبداد بجميع أنواعه وعلى استغلال الإنسان للإنسان.

ولتحقيق هذا المبدأ، يرى برنامج طرابلس أن الجزائر مطالبة بالتضامن

مع حركات التحرير في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وبالتعاون مع البلدان الاشتراكية ومع قوى التحرر في البلدان الاستعمارية والامبريالية نفسها من أجل تفكيك النظام الذي يقوم عليه الاستعمار والامبريالية. وينبه البرنامج إلى أن النظام المذكور يعمل باستمرار على تغير أساليبه وتلبينها قصد التكيف مع الأوضاع الجديدة من أجل إبقاء سيطرته على الشعوب والمحافظة على مصالحه الاستراتيجية في جميع الميادين، ومن جهة ثانية يوظف حكومات في إفريقيا وأمريكا اللاتينية كقواعد ومنطلقات لضرب قوى العدالة والتحرر في العالم. لأجل ذلك كله. فإن واجب الثورة الجزائرية يحتم عليها دعم حركة عدم الانحياز الإيجابي وتدعيم التحالف مع البلدان التي نجحت في بناء استقلالها الوطني وتحررت من السيطرة الأجنبية.

2-مساندة حركات النضال من أجل الوحدة في المغرب والوطن العربي وفي أفريقيا. وبهذا الصدد يدعو برنامج طرابلس إلى الاستفادة من التجارب الفاشلة وخاصة منها مؤتمر طنجة والوحدة السورية المصرية ومجموعة الدار البيضاء.

ونظراً إلى أن العمل الوحدوي هام وأساسي لتوسيع نطاق محاربة الامبريالية، فإنه ينبغي إدراجه في إطار الاختيارات الإيديولوجية والسياسية والاقتصادية، وجعله ينبثق عن القوى الطلائعية والمنظمات الجماهيرية ويهدف قبل كل شيء إلى عزل الطبقات الحاكمة التي تشكل أكبر العراقيل والتي أصبحت متخصصة في تحويل مساعي الوحدة إلى شعارات ديماغوجية توظفها للإبقاء على مصالحها الخاصة التي هي في نفس الوقت مصالح الاستعمار والامبريالية.

فمن هذا المنطلق، يؤكد برنامج طرابلس التقدم بخطوات ثابتة على طريق مرهون بمدى القدرة على تطوير المبادلات وتنفيذ المشاريع الاقتصادية المشتركة والسياسية الخارجية المبنية على التشاور والتضامن المطلق.

3-دعم حركات التحرير باعتبارها الامتداد الطبيعي لثورة التحرير في الجزائر إذ أن هدفها هو تصفية الاستعمار في جميع أنحاء العالم، لأجل ذلك فإن الثورة الجزائرية مطالبة بتقديم المساعدة الكاملة لجميع الشعوب التي تناضل فعلاً في سبيل تحرير بلدانها وعلى وجه الخصوص شعوب

أنغولا وجنوب أفريقيا وشرق أفريقيا.

4-النضال من أجل التعاون الدولي باعتباره أمراً ضرورياً لتوظيف كافة المصادر المادية والبشرية من أجل التقدم وتحقيق السلام في العالم، وبهذا الصدد يرى برنامج طرابلس أن "دعم الروابط مع بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وتطوير المبادلات في كل الميادين مع البلدان الاشتراكية وإقامة علاقات مع كل الدول على أساس المساواة والاحترام المتبادل للسيادة الوطنية والعمل المشترك مع القوى الديمقراطية في فرنسا خاصة سيؤهل الجزائر للقيام بمسؤوليتها على الصعيد الدولي ويجعلها قادرة على الإسهام بصفة إيجابية في مقاومة السباق نحو التسلح والتجارب النووية وفي العمل على تصفية الأحلاف العسكرية والقواعد الأجنبية"[1].

الحزب والمنظمات الجماهيرية:

وبعد تحديد المهام الأساسية للثورة الديمقراطية الشعبية وضبط محاوره الكبرى وحصر أساليب إنجازها، انتقل المؤتمرون إلى أداة التخطيط والتوجيه والمراقبة. وإذا كان الجميع متفقاً على أن هذه الأداة لايمكن إلا أن تكون هي جبهة التحرير الوطني[2]التي قادت الكفاح المسلح وحققت جميع الانتصارات التي قادت إلى اتفاقيات إيفيان، فإن الخلافات قد بدت واضحة عندما تعلق الأمر بتعريفها كتنظيم سياسي تسند إليه هذه المهمة الجديدة.

فحسب النصوص الأساسية السابقة لوقف إطلاق النار، فإن جبهة التحرير الوطني "مرشد الشعب ومحرك الثورة، وهي المنظمة التي تقوم بالكفاح المسلح من أجل محو النظام الاستعماري وبعث الدولة الجزائرية ذات السيادة وإقامة جمهورية ديمقراطية اجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية، أو لاتكون مؤسساتها متناقضة مع المبادئ الإسلامية[3].

---

[1] *النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص90.*

[2] *لقد رجع المؤتمرون حول هذا الموضع إلى الوثيقة التي صادق عليها المجلس الوطني في دورته المنعقدة بطرابلس في الفترة مابين 1959/12/16 و 1960/01/13 والتي جاء في مادتها الرابعة: "بعد استقلال البلاد، فإن جبهة التحرير الوطني ستواصل مهمتها التاريخية كقائدة ومنظم للأمة الجزائرية من أجل الديمقراطية الحقة وتحقيق الازدهار الاقتصادي والعدالة الاجتماعية.*

[3] *انظر نفس المصدر وكذلك نداء أول نوفمبر.*

إن جبهة التحرير الوطني، في ميثاق وادي الصومام، هي الهيئة الوحيدة التي تمثل الشعب الجزائري والمؤهلة للتفاوض باسمه ولإقرار وقف القتال[1]، ولذلك فهي تنظيم ثوري وحركة جهادية مفتوحة لجميع الجزائريين الذين يتبنون برنامجها ويبدون، عملياً، استعدادهم للتضحية القصوى من أجل تجسيده على أرض الواقع.

ولقد كان برنامج جبهة التحرير الوطني، في بداية الأمر، بسيطاً وواضحاً إذ يتمثل في ممارسة الكفاح المسلح والعمل السياسي، بهدف استرجاع السيادة الوطنية وإقامة الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية. وهذه البساطة وهذا الوضوح جعلا أغلبية الشعب الجزائري تتعاطف مع الثورة وتزودها بما تحتاج إليه من إمكانيات بشرية ومادية.

وبعد حوالي عام من انطلاق الرصاصة أعلنت أهم التشكيلات السياسية الوطنية عن حل نفسها وأمرت مريديها ومناضليها بالانضمام فرادى إلى صفوف جبهة التحرير الوطني التي تحولت، نتيجة لذلك، إلى حركة جماهيرية ترفع لواء الجهاد في سبيل الله وفي سبيل الوطن.

لكن السنوات الأخيرة من الكفاح المسلح عرفت تطوراً غير معهود ولا منتظر خارج حدود الجزائر، إذ تجمع عدد من المثقفين المعروفين بنزعتهم اليسارية في إطار أسرة تحرير اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني وراحوا يفلسفون الثورة انطلاقاً من مشاربهم الماركسية والغربية غير آبهين بواقع الشعب العربي المسلم الذي يخوض المعركة الحقيقية في داخل الوطن. وبينما كان جيش التحرير الوطني في مختلف الولايات يمارس الجهاد ويطبق الشريعة الإسلامية حسب المستطاع، كان أولئك المثقفون يكتبون على الورق أن الثورة الجزائرية لا يمكن إلا أن تكون اشتراكية، وأنها ديمقراطية شعبية، وأن جبهة التحرير الوطني منظمة لائكية إلى غير ذلك من الانحرافات التي ستكون بعد سنة اثنتين وستين وتسعمائة وألف، سبباً رئيسياً في تشتيت الصف وحرمان الثورة من العديد من طاقتها الحية.

وأثناء صياغة برنامج طرابلس اختلف أولئك المثقفون فيما بينهم حول مستقبل جبهة التحرير الوطني كتنظيم. فهناك من نادى بها منظمة جاهرية

---

[1] *النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص ك 22 وما بعدها.*

تتشكل صفوفها من الفلاحين والعمال والطلبة والشباب والمثقفين الثوريين[1]، وهناك من دعا إلى جعلها حزباً طلائعياً يضم في صفوفه فقط العناصر الواعية والمؤمنة بمهام الثورة الديمقراطية الشعبية ومحاورها الكبرى وأساليب إنجازها ونظراً إلى أن الوقت لم يكن كافياً للفصل في الموضوع، ولأن المسؤولين الذين بيدهم سلطة القرار كانوا مشغولين بمسألة تشكيل المكتب السياسي، وحيث أن مجموعة العمل رغم يسارية أعضائها لم تكن قادرة على تجاوز خلافاتها المذهبية[2]، فإن التعريف الذي تضمنه برنامج طرابلس قد جاء غامضاً وغير من مضمونه الإيديولوجي.

هكذا، وبدون سابق إنذار، أضيف إلى الوثيقة الأساسية المقدمة للمجلس الوطني للثورة الجزائرية ملحق بعنوان: الحزب. وكأنما للإجابة على تساؤلات القارئ الخالي الذهن استهل الملحق المذكور بما يلي: "لتحقيق أهداف ثورة ديمقراطية شعبية لابد من حزب جماهيري واع"[3].

إن الحزبية في ذلك الوقت تتناقض جوهرياً مع حقيقة جبهة التحرير الوطني التي تأسست على أنقاض الأحزاب التي برهنت على فشلها في قيادة الشعب نحو توحيد واسترجاع الاستقلال الوطني، ولقد كان أعضاء المجموعة يعرفون ذلك ويعرفون، أيضاً أن الحزب الشيوعي هو من بين التشكيلات السياسية التي كانت تنشط في الجزائر قبل الفاتح من نوفمبر عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف، وهو التشكيلة الوحيدة التي رفضت حل نفسها وظلت تنافس جبهة التحرير الوطني وتتحداها إلى غاية وقف إطلاق النار، وعليه فإن اعتبار جبهة التحرير الوطني حزباً يقلل كثيراً من أخطاء القيادة الشيوعية ويفتح لها الأبواب واسعة للعودة إلى العمل كتنظيم مستقل بعد الاستفتاء والإعلان عن بعث الدولة الجزائرية من جديد.

وزيادة في الإبهام، جاء في الملحق أن "حزب جبهة التحرير الوطني ولد في خضم المعركة وهو ليس تجمعاً، لكنه تنظيم يضم كل الجزائريين الواعيين

---

[1] مازالت جبهة التحرير الوطني محافظة على التعريف إلى غاية اليوم ورغم كل ماوقع من أحداث وتغيير.

[2] بعض أعضاء المجموعة مثل السيد محمد حربي، كانو تروسكيين، بينما كان بعضهم الآخر مثل مصطفى الأشرف ورضا مالك ومحمد بن يحيى ماركسيين ومتأثرين بفرانتز فانون، والوحيد الذي كان متشبعاً بأيديولوجيا الحركة الوطنية فهو عبد المالك تمام الذي لم يطلق سراحه إلا بعد وقف إطلاق النار.

[3] النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص93.

الذين يناضلون لصالح الثورة الديمقراطية الشعبية"[1]. وإذ هو يشتمل على طليعة القوى الثورية في البلاد، فإنه مطالب بأن يبعد من صفوفه كل تواجد أيديولوجي مخالف معنى ذلك أن المناضلين المسلحين وغير المسلحين الذين يظلون أوفياء لأيديولوجية الحركة الوطنية التي هي في أساس أيديولوجية جبهة التحرير الوطني يقصون من الصوف ويستبدلونك بآخرين يكونون متشبعين بالأيديولوجية الماركسية.

من هذا المنطلق نؤكد أن إعداد الملحق بهذه الصيغة كان مقصوداً من أجل دفع الثورة في طريق الانحراف بواسطة عزل القواعد النضالية والمنظمات الجماهيرية عن أيديولوجية الحزب وبالفعل، فإن الملحق يذكر أن التركيبة الاجتماعية للحزب تتكون من الفلاحين والعمال والشباب والمثقفين الثوريين، وأن الأغلبية الساحقة لهذه التركيبة من الأمنيين الذين ليس من السهل جعلهم يفهمون حقيقة الثورة الديمقراطية الشعبية كما هو محددة في الوثيقة المصادق عليها وعندما يتعذر عليهم الفهم كيف يمكن أن تطالبهم بالالتزام وبالعمل الميداني على تجسيد مشروع المجتمع الجديد.

ولأن مجموعة العمل كانت تعرف كل ذلك، فإنها لجأت إلى خلط الأوراق وتأجيل التوضيح الأيديولوجي إلى مابعد الدخول إلى أرض الوطن للتمكن من الاستحواذ على المرافق الأساسية في الحزب وخاصة منها مرافق التكوين والثقافة والإعلام.

وعلى الرغم من الغموض المقصود والتذبذب الناتج عن ذلك، فإن الملحق قد ضبط المبادئ الميسرة للحزب وفي مقدمتها المركزية الديمقراطية وانتخاب المسؤولين على جميع المستويات وتنظيم الاجتماعات دورياً وبانتظام والإكثار من اللقاءات بين القاعدة والقمة حتى يسهل فتح القنوات في اتجاه الجماهيرية الشعبية بعد ذلك حدد العلاقة بين الغرب والدولة وهي نقل يكاد يكون حرفياً عما كان موجوداً في الاتحاد السوفياتي.

أما عن المنظمات الجماهيرية، فإنها تعبر عن تنوع احتياجات الوطن وهي تتكفل بتنظيم الشباب والطلبة والنساء والعمال وتدافع عن مصالحهم الخاصة، وفي نفس الوقت تضمن مشاركتهم الفعلية في إنجاز مهام الثورة. ومهمة الحزب في هذا المجال تنحصر في المساعدة على إنشاء هذه المنظمات وتنشيطها في إطار برنامجه الشامل. ومما لاشك فيه أن نجاح هذه المهمة يتوقف نجاح تعبئة

---

(1) *نفس المصدر.*

الجماهير الشعبية التي هي شرط لابد منه لجعل الجزائر قوية وعصرية.

وفيما يخص القانون الأساسي للحزب، فإن المجلس الوطني للثورة الجزائرية قد تبنى الوثيقة التي صادق عليها في دورته المنعقدة بطرابلس في الفترة مابين السادس عشر من شهر ديسمبر سنة تسع وخمسين وتسعمائة وألف والثامن عشر من شهر جانفي سنة ستين وتسعمائة وألف. وبهذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن هذه الوثيقة كانت خاصة بجبهة التحرير الوطني وليس بحزب جبهة التحرير الوطني. ولكن يبدو أن ضيق الوقت هو الذي جعل المجموعة تكتفي بنقلها كماهي على القيام بالتغيير اللازم في المستقبل وسوف يكون ذلك المستقبل هو المؤتمر الأول للحزب في شهر أبريل سنة أربع وستين وتسعمائة وألف.

■■■■

الفصـــل الثالـث

أوضاع الجزائر غداة استرجاع السيادة الوطنية

- 1 المنافذ الاستعمارية
- 2 التسابق إلى السلطة
- 3 مواجهة الأوضاع الموروثة عن الاستعمار
- 4 قراءة متأنية لميثاق الجزائر

■■■

المنافذ الاستعمارية:

لقد تعرضنا، في الفصل السابق، إلى تقييم الانتصارات التي حققتها اتفاقيات إيفيان بالنسبة لجبهة التحرير الوطني، وذكرنا أن الأهداف التي سطرتها هذه الأخيرة أنجزت في مجملها، وإذا كان المتفاوضون الفرنسيون لم يتمكنوا من المس بسلامة التراب الوطني ووحدة الشعب الجزائري رغم محاولاتهم المتعددة وإمكانياتهم المتنوعة فإنهم توصلوا، في نهاية الأمر، إلى فتح بعض المنافذ لإرساء قواعد الاستعمار الجديد ومنع الثورة من التواصل في الطريق المؤدية إلى استكمال تحرير الإنسان وأهم هذه المنافذ، في نظرنا، هي:

1)-تمكين الأوربيين من وضع خاص يجعلهم يستفيدون من الجنسيتين الجزائرية والفرنسية لمدة ثلاث سنوات، تحترم خلالها خاصيتهم الغربية واللغوية والدينية. وتباعاً لذلك، فإن المدن ذات الأغلبية الأوربية تكون متميزة عن سائر المدن الجزائرية، وتتعهد السلطات الجزائرية بعدم الاقتصاص من الفرنسيين والجزائريين الذين ناهضوا الثورة بأشكال وطرائق مختلفة.

لقد كانت السلطات الفرنسية تعتقد أن هذا البند، من اتفاقيات إيفيان، سوف يبقي الجزائر في أسر فرنسا لأن الأوربيين والعملاء من الجزائرين كانوا يشغلون على الأقل تسعين بالمائة من مناصب المسؤولية في مجالات الإدارة والاقتصاد والقضاء، وبالتالي فإن جبهة التحرير الوطني لن تتمكن من بناء المجتمع وإقامة الدولة المذكورين في نصوصها الأساسية، إذ من المستحيل مواصلة العمل الثوري بواسطة الإمكانيات البشرية التي أعدتها السلطات الاستعمارية بهدف الإبقاء على مصالحها وإلا كانت الثورة والاستعمار شيئاً واحداً.

ودائماً في إطار هذه النقطة، تشير اتفاقيات إيفيان إلى أن الجزائر المستقلة ملزمة باحترام ملكيات هذا الصنف من السكان وبعدم اتخاذ أي إجراء يجردهم من أملاكهم بتعويض عادل يحدد مسبقاً ويكون مقبولاً. معنى ذلك أن الأوربيين والعملاء يظلون محتفظين بكل ماهو بحوزتهم من مكتسبات بجميع أنواعها، وإذ أرادت جبهة التحرير الوطني أن تكون وفية للأهداف المنصوص عليها في المواثيق القديمة والجديدة فإنها تكون مجبرة على تقديم أموال طائلة لايمكن للخزينة العامة توفيرها.

ويحاول بعض المؤرخين والسياسيين الذين عالجوا هذا الموضوع التقليل من أهمية هذا المنفذ معتمدين على كون الأغلبية من الأوربيين قد رحلوا بمحض إرادتهم وتخلوا عن ممتلكاتهم بما في ذلك أراضيهم الخصبة الشاسعة. فرحيل الأوربيين هو في واقع الأمر، قرار لم يحل المشكل بل زاده تعقيداً لأنه أوجد وضعاً قانونياً جديداً لم تتعرض له اتفاقيات إيفيان وسوف تتخذ منه فرنسا وسيلة ضاغطة إلى أبعد الحدود من أجل تثبيت قواعد الاستعمار الجديد.

إن الأملاك الشاغرة في جميع الميادين ستظل موضوع نزاع الجزائر وفرنسا إلى غاية الثمانينات، بل إن بعض السياسيين الفرنسيين مازالوا حتى الآن ينادون بضرورة إعادة فتح ملف التعويضات، بينما لم تلجأ السلطات الجزائرية إلى المطالبة بالتعويض عن الإهمال المقصود الذي لايختلف في الحقيقة، عن عمليات التخريب المنظمة.

وإضافة إلى هذا الوضع القانوني الجديد، فإن رحيل الأوربيين قد أفاد العملاء الجزائريين الذين انشغلت عنهم السلطات الجزائرية بالعمل على سد الفراغ المهول الذي أحدثه ذلك الفرار المفاجئ، وسوف يستفيد الاستعمار الجديد كثيراً من السكوت عن هؤلاء العملاء وإحلالهم، فيما بعد، محل الفرنسيين الفارين.

هكذا، إذن، فإن جبهة التحرير الوطني التي اعترفت بها فرنسا ممثلاً وحيداً شرعياً للشعب الجزائري والتي أجمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية على إبقائها قائداً ومرشداً للثورة الجزائرية، سوف تكون مضطرة للاعتماد على إدارة استعمارية يسيرها، عملياً، إطارات وموظفون جزائريون، ما في ذلك شك، ولكنهم معدون لمناهضة الثورة وليس لخدمتها. ولقد كان قبول هذا الوضع المحتوم تنازلاً خطيراً لأنه سوف يمكن أعداء الثورة من توظيف الإجراء الإداري بجميع أنواعه لعرقلة القرار الثوري ومنعه من التطبيق.

2)- تشكيل القوة المحلية من الجنود الجزائريين الذين يسرحون من صفوف الجيش الفرنسي أو من وحدات الحركة[1] و "القومية"[2] ويبلغ عدد أفرادها أربعين ألف رجل يقودهم ضباط جزائريون ينتقون من داخل الجيش

---

[1] الحركة هم الجزائريون سلحهم الجيش الفرنسي ونظمهم في وحدات صغيرة وضع على رأسها ضباطاً وصف ضباط من الفرنسيين قصد استعمالهم لمحاربة جيش التحرير الوطني. ولقد أدت الحركة ادوراً خطيرة خاصة في الأرياف حيث كانوا أكثر شراسة من الاستعماريين أنفسهم.

[2] القومية هم الجزائريون الذين جندهم القواد والباشغوات لمحاربة جيش التحرير الوطني. وفي كثير من الأحيان فإنهم لم يكونوا مدركين لخيانتهم.

الاستعماري، وتكلف هذه القوة بالحفاظ على الأمن وتوضع تحت تصرف الهيئات التنفيذية المؤقتة التي اتفق الطرفان الجزائري والفرنسي على إسناد رئاستها إلى الموثق الجزائري السيد عبد الرحمن فارس[1].

لقد كانت الحكومة الفرنسية تراهن أن تكون القوة المحلية نواة الجيش الجزائري بعد الإعلان عن الاسترجاع للسيادة الوطنية، ولعلها تتحول بالتدريج إلى واحدة من المصادر الأساسية للسلطة نظراً للصراع القائم بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية المدعوة ببعض الولايات[2]وبين قيادة الأركان العامة التي أصبحت تستفيد من مساندة أحمد بن بلة وجماعته[3]ومن دعم الولايتين الأولى والسادسة.

إن فرنسا لم تعد ترتكب خطأ كبيراً في تقديراتها لأن الصراع القائم بين الحكومة المؤقتة وأفراد القوة المحلية يلتحقون بها جماعات ووحدانا، جنوداً وضباطاً وبذلك ضاعت إلى الأبد إمكانية المحاسبة، واختلط الحابل بالنابل وأصبح من المستحيل اعتماد الجيش كقوة وطنية متجانسة، خاصة وأن ضباط القوة المحليون لم يجدوا أية صعوبة في الربط مع زملائهم الذين سبقوهم إلى الحدود الشرقية والغربية ابتداء من مجيء الجنرال ديغول إلى الحكم.

إن اختراق جيش التحرير الوطني بهذه الطريقة وعلى مراحل مختلفة هو الذي مهد، شيئاً فشيئاً إلى إقصاء الضباط الوطنيين الذين لن يتكونوا في صفوف الجيش الاستعماري. فكلما أبعدت مجموعة كانت جبهة التحرير الوطني تخسر معركة وتفقد سنداً، ولقد كانت الأسباب كثيرة حتى لاتبدو عملية التصفية مقصودة. فأحياناً تثار مسألة التشبيب[4] وأحياناً أخرى تستعمل الترقية وسائر

---

(1) من المواليد أقبوا منطقة مايسمى بالقبائل الصغرى سنة 1911. أنهى دراسته الابتدائية في بجاية ثم في مسابقة الدحضرين القضائيين واشتغل ككاتب ضبط في سبدو بالغرب الجزائري ثم عمل موثقاً في القل على الساحل الشمالي الشرقي. وعندما عاد إلى العاصمة التحق بصفوف الحزب الاشتراكي الفرنسي وانتخب سنة 1945 نائباً بالمجلس التأسيسي. وفي سنة 1948 الإذاعة يدعو فيه الهدوء ويطالب بالاندماج الكامل، وعلى إثر ذلك حكمت عليه جبهة التحرير الوطني بالإعدام. أنضم إلى جبهة التحرير الوطني سنة 1957 ويذكر أنه رفض المشاركة في حكومة الجنرال ديغول سنة 1958. ألقي عليه القبض سنة 1961 ولم يطلق سراحه إلا ليرأس الهيئة التنفيذية المؤقتة.

(2) الولايات التي تدعم الحكومة المؤقتة هي: الثانية، الثالثة، الرابعة، والخامسة بالإضافة إلى فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا.

(3) تتكون هذه المجموعة خاصة من: محمد خيضر. رابح بيطاط، فرحات عباس والحاج بن علة.

(4) علماً بأن الذين كانوا يحالون على التقاعد، كانوا في كثير من الأحيان أقل سناً وأكثر علماً من الآمرين بإحالتهم على المعاش.

الإغراءات والاعتراف بالجهد المبذول إلى غير ذلك من الحجج التي في ظاهرها العفوية والنية الصادقة وفي باطنها يمكن التخطيط للتخلص من جميع الضباط المتشبعين بأيديولوجية الثورة حتى ينفرد بالسلطة المكونون في صفوف الجيش التي تتناقض تماماً مع الأهداف المسطورة الأساسية للثورة.

وإلى جانب القوة المحلية عمل بعض الضباط الساميون في الجيش الفرنسي، بالتعاون مع قيادة منظمة الجيش السري، على تشجيع عدد من الضباط الجزائريين العاملين في الجيش الاستعماري على التمرد بجنودهم وتكوين جيوش مستقلة من أجل محاربة جيش التحرير الوطني وإشعال نار الحرب الأهلية في الجزائر. وعلى سبيل المثال، تجدر الإشارة إلى حركة العقيد سي الشريف علي رأس حوالي ألف مقاتل بناحية عين بوسيف الكائنة في ولاية المدية[1] وحركة عبد الله المصالي على رأس ثمانمائة مقاتل بناحية بوسعادة الكائنة في ولاية المسيلة[2].

3)-ازدواجية اللغة في التعليم والإدارة والقضاء فصل الجزائر عن عروبته وإبقائها في دائرة الفرانكفونية التي هي مذهب سياسي يرمي إلى نشر الفكر الاستعماري في البلدان التي لها استعداد طبيعي لقبول التبعية بجميع أنواعها، ومما شك فيه أن نشر الفكر الاستعماري في حد ذاته، وسيلة لقولبة الذهنيات طبقاً لمتطلبات الاستعمار الجديد من جهة ولتعميم أنماط الحياة المؤدية إلى سلخ المجتمع عن أصالته وربطه بظروف الحياة السائدة في فرنسا التي هي مصدر ذلك الفكر من جهة ثانية.

إن هذه المهمة التي تبدو ثقافية في ظاهرها، أخطر بكثير من العمل العسكري الذي يهدف إلى فرض الاستعمار الاستيطاني. ولقد كانت فرنسا تدرك هذه الحقيقة وأبعادها، وتعرف أيضاً أن اللغة لايمكن أن تكون محايدة كما أنها لايمكن أن تكون مجرد وسيلة تبليغ، بل إنها وعاء حضاري وثقافي وعنصر أساسي من مقومات الشخصية بالإضافة إلى كونها أداة فعالة لاكتساب المعرفة ولصياغة نمط الحياة المميز للفرد والمجتمع على حد سواء.

ففي هذا السياق عملت اتفاقيات إيفيان على تكريس اللغة الفرنسية ضرة للغة العربية تحجبها عن الظهور متى شاءت، وتمنعها من التطور الحقيقي الذي

---

(1) كانت هذه الولاية الإدارية للولاية الرابعة. وتقع المدية على بعد حوالي سبعين كلم جلوبي العاصمة.

(2) تقع مدينة بوسعادة على بعد مئتين وخمسين كلم جلوبي شرقي العاصمة، وفي أثناء الثورة تابعة للولاية السادسة.

يسمح لها بأن ترقى في وطنها على الأقل، إلى مصاف لغات العلم والتكنولوجية، وبأن تؤدي دورها الطبيعي في بناء الدولة المستقلة استقلالاً كاملاً.

وإذا كان المفاوضون الفرنسيون لم يتمكنوا من تثبيت اللغة الفرنسية كلغة رسمية في الجزائر فإنهم عملياً قد أعطوها مكانة أفضل، إذ جاء في البند الحادي عشر من وثيقة الضمانات: إن النصوص الرسمية تنشر أو تبلغ باللغة الفرنسية كما هو الشأن باللغة الوطنية وتستعمل اللغة الفرنسية في التعامل مع المصالح العمومية للجزائريين، من أصل أوربي، الحق في استعمالها خاصة في الحياة السياسية والإدارية القضائية[1]. وفي مجال التعليم تنص نفس المادة على أن الجزائريين من أصل أوربي أحرار في فتح وتسيير مؤسسات التعليم. وفي المادة الثانية من الوثيقة بالتعاون الثقافي تنص اتفاقيات إيفيان على كل واحد من البلدين يستطيع أن تفتح في البلد الثاني المدارس والمعاهد الجامعية التي يجري فيها التعليم طبقاً لبرامجه الخاصة ولتوقيته ومناهجه البيداغوجية. وتكون كل هذه المؤسسات مفتوحة لمواطني البلدين[2]. أما المادة التاسعة فهي تجعل كل واحد من البلدين يسهل دخول ونشر وتوزيع وسائل التعبير والتفكير القادمة من البلد الثاني، ويشجع، في كامل ترابه تعليم لغة البلد الآخر وتاريخه وحضارته وكذلك تنظيم التظاهرات الثقافية.

هكذا، إذن، تكون اتفاقيات إيفيان قد مهدت لتكريس الغزو الثقافي في الجزائر. ولقد كانت فرنسا تدرك أن الجزائر المسترجعة حديثاً لاستقلالها لايمكن أن تسمح لنفسها ببناء المؤسسات التعليمية والمراكز الثقافية والمعاهد الجامعية خارج ترابها الوطني. وحتى لو فرضنا أنها تستطيع ذلك فإن الذين يقبلون هذه المنشآت لن يكونوا سوى من أبناء المغتربين، في حين أن جميع الإمكانيات متوفرة لدى فرنسا لفتح ماتريد من المدارس والمعاهد والمراكز الثقافية التي ترتادها أعداد غفيرة من الجزائريين الذين نهلوا من ينبوع الثقافة الفرنسية أثناء ليل الاستعمار الطويل.

وتطبيقاً لاتفاقيات إيفيان فإن التعليم في الجزائر، لم يكن مزدوجاً رغم التنصيص على ذلك ولكنه بدأ فرنسياً محضاً لأن جميع المواد كانت تدرس

---

[1] *عبد الرحمن فارس، الجزائر من سنة 1945 إلى الاستقلال، باريس 1982، الملحق رقم4 ص185 ومابعدها.*

[2] *انظر الملحق رقم 12 الوثيقة المتعلقة بالتعاون الثقافي.*

باللغة الفرنسية حسب البرامج الفرنسية وبمعلمين وأساتذة إن لم يكونوا فرنسيين فممن تكونوا بواسطة مختلف الترقيات الاستعمارية وزودوا بذهنيات ترفض فكرة السيادة لأنها تفصلها عن (الوطن الأم). أما اللغة الوطنية، فكانت تدرس شكلياً وكلغة فقط، الأمر الذي جعل السلطات المختصة تستغني عن وضع برنامج علمي لتدريسها ومخطط مضبوط يهدف بالتدريج إلى إحلالها محل لغة المغتصب السابق[1].

ونظراً إلى المجهودات الجبارة التي بذلتها الدولة الجزائرية الفتية في قطاع التربية والتعليم، نستطيع القول إن اتفاقيات إيفيان قد رسخت اللغة الفرنسية ومكنت من نشرها عبر مختلف أنحاء الوطن ولم تترك حتى الأرياف والصحاري القاحلة وهي الأماكن التي عجز الاستعمار عن إيصال سمومه إليها أثناء ليله المظلم الطويل.

التسابق إلى السلطة:

كل هذه المنافذ وغيرها وظفت إلى أبعد الحدود من طرف فرنسا الاستعمارية التي وجدت لتأدية مهامها مساعدة غير منتظرة في تسابق القيادات الجزائرية نحو السلطة وفي تناقض تلك القيادات من حيث التكوين الأيديولوجي والمنطلقات الحضارية والفكرية والثقافية.

فالتسابق نحو السلطة لم يكن جديداً كما أنه لم يكن وليد وقف إطلاق النار، بل إنه بدأ مباشرة مع تكوين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني، وبلغ أوجه عندما تشكلت الحكومة الجديدة برئاسة السيد بن يوسف بن خدة الذي أقدم في السابع والعشرين من شهر سبتمبر سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف على أمر الولايات بقطع جميع العلاقات مع قيادة الأركان العامة التي رغم استقالتها، لم تفقد سيطرتها الفعلية على جيش التحرير الوطني المرابط على الحدودين الشرقية والغربية[2].

ولقد ازداد الخلاف حدة مع مطلع السنة الجديدة عندما عادت قيادة الأركان العامة إلى نشاطها وهي أكثر قوة من أي وقت مضى وعندما فشل السيد بلقاسم

---

(1) المعهد التربوي، برنامج التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي، وزارة التربية الوطنية، مديرية البرامج، سبتمبر 1972.

(2) حربي (محمد) جبهة التحرير الوطني، ص286.

كريم في مسعاه المتعلق بتقسيم أعضائها[1]ثم عندما تقدمت المفاوضات مع فرنسا ولاح في الأفق تحالف محتمل بين أحمد بن بلة وقيادة الأركان العامة. صحيح أن السلطة كانت هي الهدف الأسمى الذي كانت جميع الأطراف تسعى إلى تحقيقه، ولكن المتصارعين عليها كانوا في جريهم وراءها ينطلقون من مواقف أيديولوجية مختلفة يمكن حصر أهمها في الآتي:

1-الموقف الرافض الذي يرى أن حل القضية الجزائرية يكمن، أولاً، في إلحاق هزيمة عسكرية بالجيش الاستعماري، وعليه فإن التفاوض مع العدو يعد تنازلاً خطيراً ونوعاً من الخيانة التي يجب التصدي لها بكل حزم وصرامة. وصاحبة هذا الموقف هي قيادات الأركان العامة التي تعتبر اتفاقيات إيفيان إجهاضاً للثورة وإرساء لقواعد الدولة الليبرالية في الجزائر[2].

2-موقف القبول يرى أن الحل العسكري مستحيل، وأن التفاوض مع فرنسا هو الطريق الأوحد والأسلم لوقف إطلاق النار وتمكين البلاد من استرجاع استقلالها وبالطبع، فإن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية هي صاحبة هذا الموقف وهي تعترف أن اتفاقيات إيفيان، على ما فيها من نواقص، صالحة لأن تكون قاعدة متينة لبناء الدولة الجزائرية كما هي محددة في النصوص الأساسية للثورة[3].

وإذا كان الموقف الأول متأثراً بالثورية التي تريد أن تكون محصلة للتجربتين الكوبية والصينية وهو، من ثم، يشترط أن تنتقل السيادة الجزائرية مباشرة من الحكومة الفرنسية إلى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، ويدعو إلى بناء مجتمع اشتراكي في الجزائر متمايز عن المجتمعات الاشتراكية الأخرى بارتكازه على أبناء الريف ورفضه لمبدأ الصراع الطبقي، فإن الموقف الثاني، في الظاهر، بنداء أول نوفمبر الذي اكتفى بالتفاوض مع فرنسا على أساس اعتراف هذه الأخيرة باستقلال الجزائر وبأن لا يتوقف إطلاق النار إلا بعد تسوية جميع القضايا السياسية. وفي الحقيقة فإن هذا الموقف متأثر برغبة ملحة لدى أعضاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في إنهاء حالة الحرب

---

(1) ذكر السيد عبد الحفيظ بو الصوف أن كريم عرض على بومدين رتبة جنرال. وأن هذا الأخير سجل عرضه على غير علم منه ووزعه على إطارات جيش التحرير الوطني للتقليل من شأنه.

(2) ابن بلة (أحمد) حديث في بيته يوم 1991/06/24 ويؤكد الرئيس بن بلة تأييده لهذا الموقف وهو مابعد يقبل التحالف مع قيادة الأركان ضد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

(3) بن يوسف بن خدة، اتفاقيات إيفيان، ص26.

"خوفاً من أن تعطي لفرنسا فرصة توظيف[1] الخلافات الداخلية لإجهاض الثورة". كما جاء في التفسيرات التي قدمها السيد ابن يوسف بن خدة.

وعلى الرغم من أن ثورية الموقف الأول إلا أن أصحابه لم يكونوا معروفين على الساحة السياسية، ولذلك توجهوا إلى قصر أولنوي[2]ووقع اختيارهم في بادئ الأمر، على السيد محمد بوضياف لما اشتهر عنه من قدرة التنظيم على محاربته لعبادة الشخصية وتشبع بالمبادئ اليسارية لكن بوضياف رفض عرض مبعوث قيادة الأركان العامة السيد عبد العزيز بوتفليقة نظراً لارتباطه مع الحكومة المؤقتة وبالضبط مع السيد بلقاسم كريم الذي كان قد تحالف معه من قبل ضد السيد أحمد بن بلة. ولقد تبنى هذا الأخير موقف قيادة الأركان العامة بدون أدنى تردد وأعلن عن انضمامه إليها من أجل فرض حلها للأزمة والمتمثل في تشكيل مكتب سياسي يكون مسؤولاً عن الحكومة المؤقتة وفي وضع مشروع جديد للمجتمع الجزائري[3].

ومما لاشك فيه أن قبول السيد أحمد بن بلة هذا التحالف مدفوع في جزء منه بمصالح الشخصية ولكنه، أيضاً جاء نتيجة تكوينه السياسي والأيديولوجي خاصة عندما نعرف أن فكرة الثورة بواسطة الأرياف تحتل مكانة رئيسية في برنامج نجم شمال إفريقيا ومن بعده حزب الشعب الجزائري وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، في هذا الجو المكهرب اجتمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية وصادق، كما ذكرنا على برنامج طرابلس ثم لم ينه أشغاله، بل توقف عند مسألة تشكيل الهيئات العليا التي تسند إليها مسوؤلية تسيير شؤون البلاد بعد اتفاق الجميع على أن "جبهة التحرير الوطني ستواصل مهمتها التاريخية في قيادة الثورة[4].

وتعبيراً عن الموقفين المذكورين أعلاه تبلورت في داخل المجلس نزعتان رئيسيتان. إحداهما بزعامة السيد أحمد بن بلة وهي ترى أن المكتب السياسي المزمع انتخابه يجب أن يتكون من سبعة أعضاء وأن تعطى له كل الصلاحيات اللازمة لقيادة البلاد إلى أن يتم تزويدها بالمؤسسات الشرعية المنتخبة، واقترح

---

(1) *المصدر نفسه.*

(2) *حيث كان القادة الأربعة معتقلين وهو كائن ببلدية أولنوي في شمال فرنسا.*

(3) *بوتفليقة (عبد العزيز) حديث أجريته معه يوم 1991/04/16 في بيت السيد محمد الشريف مساعديه.*

(4) *حزب جبهة التحرير الوطني، الأمانة الدائمة للجنة المركزية، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني 1954-1962. نشر وتوزيع قطاع الإعلام والثقافة، الجزائر 1987 ص53. ومابعدها.*

السيد أحمد بن بلة إلى جانب اسمه كلاً من السادة: محمد خيضر، محمد بوضياف، حسين آيت أحمد، رابح بيطاط، محمدي السعيد والحاج بن عله. أما النزعة الثانية فقد تزعمها السيد كريم بلقاسم، الذي اقترح مكتباً سياسياً من تسعة أشخاص وهم بالإضافة إلى اسمه: حسين أحمد، محمد بوضياف، محمد خيضر، رابح بيطاط، عبد الله بن طوبال، عبد الحفيظ بوالصوف، أحمد بن بلة، وسعد دحلب.

وعلى إثر مشاورات فردية قامت بها لجنة[1]عينها المجلس لهذا الغرض، تبين أن قائمة ابن بلة تحظى بتأييد ثلاثة وثلاثين عضواً بينما لم يؤيد قائمة السيد كريم سوى واحد وثلاثون عضواً فالفارق إذن، كان ضئيلاً جداً وهو معرضاً للزوال لأن من المؤتمرين لم يعبرا عن رأيهما. وزيادة على ذلك، فإن تشكيليتين لم يراع فيهم التجانس، بل أن آيات أحمد ومحمد بوضياف قد صرح أنهما يرفضان مشاركة في هيئة عليا يشرف عليها السيد أحمد بن بلة، وذلك بحجة أنهما لم يتفقا معه طيلة سنوات السجن وأن نظرتهما للجزائر تختلف كلية عن نظرته.

وعندما نراجع قائمة التشكليتين نستثني الحاج بن علة، فإننا نجد كل العناصر المقترحة لعضوية المكتب السياسي كانوا وزراء في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ووقعوا قبل غيرهم، على اتفاقيات إيفيان وبالتالي فهم يكادون يمثلون توجه واحد ولاتفارق بينهم سوى الحساسيات الشخصية والحزازات التي لاعلاقة لها بأيديولوجية جبهة التحرير الوطني. وإذا تعمقنا أكثر في التحليل، فإننا نجد أن الخلاف بين السيدين أحمد بن بلة وبلقاسم كريم لايعود إلى أشياء جدية ولكنه، فقط، ينطلق من اعتقاد كل واحد منهما أنه أحق من الآخر لقيادة الثورة.

فالسيد بلقاسم كريم يرى أنه التاريخي الوحيد من بين مفجري الثورة الذي ظل طليقاً وعلى قيد الحياة، ولم يتوقف لحظة واحدة عن نشاطه كمسؤول في أعلى قمة الهرم القيادي، وعليه فهو أولى من غيره وخاصة من ابن بلة الذي لم يعش الثورة من الداخل ولم ينشط لفائدتها في الخارج سوى أشهر معدودة اعتقل بعدها ولم يستعمل السلاح الذي كان معه يوم اعتقاله ثم ظل يتابع الأحداث وفي مأمن من أخطارها[2].

أما السيد ابن بلة فيرى أنه أولى بقيادة الثورة لأنه كان مسؤولاً عن

---

[1] تشكلت هذه اللجنة من العقيد محمد يزوران والرائد أحمد ومحمد بن يحيى والحاج بن عله.
[2] بو الصوف (عبد الحفيظ) اللقاء المشار إليه سابقاً.

المنظمة الخاصة التي كانت في أساس اندلاعها في حين أن السيد كريم من أنصار الكتلة المصالية إلى غاية الأيام الأخيرة التي سبقت بدء الكفاح المسلح، وإضافة إلى ذلك، فإن السيد كريم يتحمل مسؤولية كبرى في عقد مؤتمر وادي الصومام الذي يصفه السيد أحمد بن بلة بالمنعطف الخطير في طريق انحراف الثورة.

ومهما يكن الأمر، وأمام عدم ظهور أغلبية حقيقية لصالح واحد من الاقتراحيين فإن أطرافاً كثيرة قد حاولت تقريب وجهات النظر وكان من الممكن أن يتفق الجميع على مكتب سياسي مكون من أحد عشر عضواً ويكون متضمناً لكل الأسماء الواردة في القائمتين. لكن ذلك لم يحدث بسبب تعنت السيد أحمد بن بلة الذي رفض عضوية الباءات الثلاث. ويقول السيد ابن يوسف بن خدة أنه خشي على الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، المسؤولة مباشرة على توقيع اتفاقيات إيفيان، وخشي أيضاً، أن يقود استمرار الخلاف إلى تفجير الأوضاع، فتحمل مسؤولية كاملة وغادر طرابلس إلى تونس في اليوم السابع من شهر جوان مرفوقاً بالسيد محمد بوضياف وآخرين[1].

هكذا، فإن المجلس الوطني للثورة الجزائرية لم يختتم أشغاله رسمياً ولم ينتخب أية هيئة سياسية عليا أو دنيا كما أنه لم يجدد ثقته للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، معنى ذلك أن الأزمة ازدادت حدة وأن الأمل في تسويتها بالطرق السلمية لم يعد وارداً، وراح كل طرف يبحث عن أنصار أقوياء يستعين بهم للاستيلاء على السلطة، ومعلوم أن الأنصار الأقوياء موجودين فقط على رأس القوات المسلحة.

أما أحمد بن بلة، فإنه ضمن، تأييد قيادة الأركان العامة والولايتين الأولى والسادسة ثم راح يجمع، حوله، الإطارات السياسية التي تريد تصفية حساباتها مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أو مع الباءات الثلاث. وأما ابن يوسف بن خدة، فإنه استمال الولايات الرابعة والخامسة والثانية والثالثة بالإضافة إلى منطقة العاصمة وفيدرالية جبهة التحرير الوطني في أوربا ثم أعلن، باسم الحكومة، عن حل قيادة الأركان العامة وراح يبحث في الحدود الشرقية والغربية عن بديل لها[2].

وفي نفس هذا الإطار، ومخالفة للاتفاق المبرم مع فرنسا، دخل السيدان محمد بوضياف وبلقاسم كريم إلى الجزائر خفية في اليوم التاسع من شهر

---

(1) *ابن خدة (ابن يوسف) اتفاقيات إيفيان، ص21.*
(2) *حربي (محمد) جبهة التحرير الوطني، ص288.*

جوان[1]. لقد كان دخولهما بالاتفاق مع رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من أجل حمل الولايات على تنسيق حركتها وتكوين هيئة موحدة لمواجهة قيادة الأركان العامة التي رفضت الامتثال لقرار حلها وشرعت في الإعداد لإدخال جيش التحرير الوطني إلى أرض الوطن. وكما كان منتظراً انعقد في زموره بالولاية الثالثة، اجتماع دام يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين من نفس الشهر وشارك فيه ممثلون عن الولايات الثانية والثالثة والرابعة وعن منطقة العاصمة وفيدرالية فرنسا. وبعد التداول حول مجمل القضايا المطروحة على الساحة الوطنية، لاحظ المجتمعون أن الحكومة فقدت هيبتها ولجنة التنسيق تسند إليها مهمة وضع قوائم المرشحين للمجلس التأسيسي، وضبط الشروط الموضعية اللازمة لعقد المؤتمر الوطني، وتنظيم عملية إدماج وحدات جيش التحرير الوطني المرابطة على الحدود في ولايتها الأصلية وتوفير الوسائل الضرورية لإدخال الأسلحة والذخيرة المخزونة في الخارج[2].

ولقد كان من الممكن أن تؤدي هذه اللجنة التنسيقية دوراً بالغ الأهمية في تغيير موازين القوة لو أنشأت قبل إطلاق النار، وحظيت بمشاركة باقي الولايات. لكن ظهورها عشية الاستفتاء أضفى عليها طابع المحاولة اليائسة لسد الطريق في وجه قيادة الأركان العامة التي لم تكن بحاجة إلى أراضي كل الولايات لإدخال الجيوش المرابطة على الحدود.

فالولايات التي لم تستجب لنائبي رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية هي التي كانت تتحكم في جميع البوابات الحدودية المعينة لتحقيق العودة إلى البلاد. فالحدود الغربية كلها تقع في أراضي الولاية الخامسة بينما تمتد معظم الحدود الشرقية على أراضي الولاية الأولى والقاعدة الشرقية أما اللجنة التنسيقية التي أدانت أعضاء قيادة الأركان العامة قد طلبت من الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أن تبقى موحدة وأن تستمر في التحضير لما بعد الثاني من شهر جويليه سنة اثنتين وستين وتسعمائة وألف، كما أنها شرعت في تنظيم الحملات الدعائية ضد مناورات السيد بن بلة وجماعته، لكن مجرد الكلام لم يعد يجدي نفعاً بل لابد للتخطيط النظري أن يكون مدعوماً بالقوة العسكرية وهو ماكان ينقص الحكومة المؤقتة.

أما السيد أحمد بن بلة الذي تأكد من أن الوضع العسكري كان لصالحه وأن قيادة الأركان العامة تتحكم في الميدان كما ينبغي، فإنه تفرغ للتعبئة السياسية

---

(1) Fares (Abderrahmune) la Cruelle veise, L'Agerie 1954 a l,inaependance plon, paris 1982 p.126

(2) Ben Khedda (Ben Youcef) Historique FLN, Alger, 1964. P.197.

واستطاع في ظرف قصير جداً أن يجمع حوله عدداً كبيراً من المسؤولين الممثلين فعلاً، لتوجيهات مختلفة لكنهم موحدون من أجل إسقاط الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وتجاوز المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

ومن بين المسؤولين البارزين الذين أضفوا على حركة ابن بلة طابع الشمولية والشرعية والوحدة تجدر الإشارة إلى السيد فرحات عباس الذي كان محاطاً بالإطارات القيادية في الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري[1]. ولو كان الأمر يتعلق بصراع أيديولوجي لتموين عباس في الجانب الآخر الذي يعود إلى احترام اتفاقيات إيفيان التي خططت للنظر الليبرالي في الجزائر. وهناك أيضاً مجموعة من الإطارات الذين شاركوا في اجتماع الاثنين والعشرين والذين تم اعتقالهم في فترات متفاوتة وأهملوا مدة حبسهم من طرف القيادة العليا ممثلة في شخص الباءات الثلاث[2].

وإذا كان السيد بن خدة قد طار إلى تونس حيث استأنف مهامه كرئيس للحكومة المؤقتة المسؤولة تجاه فرنسا عن تطبيق اتفاقيات إيفيان، فإن السيد أحمد بن بلة قد توجه إلى القاهرة معلناً عن شق عصى الطاعة مدعياً فيما بعد، أن الحكومة المؤقتة التي كان هو أحد نواب رئيسها قد حلت بمجرد انعقاد المجلس الوطني للثورة الجزائرية، لكن ذلك غير صحيح، لأن المجلس رفض بالإجماع استقالة الحكومة ولم يعين أخرى بديلة لها. وحينما ألح السيد ابن خدة على تقديم استقالته، فإن السيد ابن بلة قد قاد حملة واسعة النطاق من أجل إرغامه على سحبها[3]. ويبدو أنه إنما فعل ذلك، فقط، ليسد طريق الرئاسة في وجه السيد بلقاسم كريم الذي كان يسعى جاهداً للحصول عليها.

فذهاب ابن بلة إلى القاهرة بدون استشارة أحد كان، إذن، دليلاً على بدء الصراع العلني. وقد كان من المفروض أن يلتحق بتونس من أجل اجتماع توضيحي ومن أجل لم شمل الحكومة وإجراء التحليلات اللازمة بحثاً عن عدم قدرته على الارتقاء إلى مستوى عظمة الحركة الجهادية في الجزائر.

وبينما كانت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تواصل نشاطها كسلطة تنفيذية عليا لجبهة التحرير الوطني، كان ابن بلة في القاهرة يدعو إلى عدم الاعتراف بقراراتها ويندد بسلوكات أعضائها الذين هم في الواقع زملاؤه في

---

(1) خاصة منهم أحمد فرانسيس وأحمد بومنجل بالإضافة إلى السيد قائد أحمد.

(2) من بين هؤلاء الإطارات تجدر الإشارة إلى: الزبير بوعجاج، أحمد بوشعيب، محمد مرزوقي، وعثمان بلوزاداد.

(3) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص49.

النضال ولهم فضل البقاء خارج المعتقلات لضمان مواصلة الكفاح المسلح.

ولقد كانت الثورة الجزائرية تستفيد أكثر لو أن أعضاء الحكومة كلهم اجتمعوا في تونس برنامج طرابلس على ضوء وثيقة وادي الصومام ومن أجل الاستعداد ميدانياً لما بعد الإعلان عن استرجاع السيادة الوطنية ولمواجهة آثار التخريب الذي قامت به منظمة الجيش السري[1].

وبفضل وساطات متعددة قامت بها جهات مختلفة وخاصة منها الحكومة المصرية وفي مقدمتها الرئيس جمال عبد الناصر رجع ابن بلة إلى تونس وعقدت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية اجتماعاً مطولاً في اليوم السادس والعشرين من شهر جوان. لكن الأمور ازدادت تعقيداً عندما حضر الاجتماع المذكور ممثلون عن اللجنة التنسيقية للولايات[2]، ومعهم اقتراح بفصل رئيس وأعضاء قيادة الأركان العامة.

يقول السيد محمد حربي: (إن الاقتراح كان من وحي السيدين كريم بلقاسم ومحمد بوضياف)[3] لكنه لايقدم أي دليل على ذلك. وقد اعتبره السيد أحمد بن بلة إجراءاً استفزازياً ورفض حتى مجرد مناقشته ثم غادر قاعة الاجتماع. أما السيدان آيت أحمد وبوضياف فإنهما وجدا فيه حلاً صائباً للأزمة القائمة بين الحكومة وقيادة الأركان العامة في حين أبدى السيد محمد خيضر معارضة شديدة له، وعلى سبيل الاحتجاج قدم استقالته التي كانت إيذاناً بانتهاء الحكومة وإعلاناً عن وقوفه رسمياً إلى جانب ابن بلة وقيادة الأركان العامة.

لم تكن لهذا الصراع أسس أيديولوجية، ولم يكن من أجل الدفاع عن مصالح الثورة، ولذلك فإن المساعي باءت بالفشل، واليوم، وبعد أكثر من ثلاثين سنة من وقوع الحادث نستطيع الجزم بأنه، في لحظة من اللاوعي واللاشعور، تمكن من القضاء على مكتسبات وطنية تطلب تحقيقها كثير من التضحية، وفي مقدمة تلك المكتسبات وجود وحدة الشعب الجزائري التي لم يجبر كسرها بعد ذلك الحين. ومن جهة ثانية أن الصراع على السلطة قد أهمل الجانب الأيديولوجي وحرم الجماهير الشعبية الواسعة من المشاركة الفعلية في مناقشة مشروع المجتمع المزمع تجسيده على أرض الواقع.

إن المعتقلين التاريخيين الأربعة[4]يتحملون أكبر قسط من المسؤولية فيما

---

[1] ابن طوبال (لخضر) الحديث المذكور سابقاً.

[2] هؤلاء الممثلون هم الدكتور سعيد حرموش، الرائد رابح زراري والرائد عبد المجيد كحل الرأس.

[3] حربي، ج ت والسراب والواقع، ص352.

[4] لأن الخامس وهو السيد رابح بيطاط كان معتقلاً في الجزائر ولم ينضم إليهم إلا في الأشهر الأخيرة.

وقع من مشاكل زائفة أفرغت الثورة من محتواها الحقيقي وفتحت أبواب القيادة واسعة للخونة والانتهازيين على اختلاف أنواعهم. وأول مايعاب على أولئك التاريخيين عجزهم عن التفاهم فيما بينهم وهم في سجن واحد وأمام عدو واحد ومصير واحد ورغم تشبعهم بأيديولوجية واحدة.

أما عيبهم الثاني فيتمثل في عدم قدرتهم على توظيف فترة اعتقالهم التي بلغت خمسة وستين شهراً لوضع مشروع مجتمع متكامل وبرنامج عمل شامل قصد مواجهة الفترة الموالية لوقف إطلاق النار واسترجاع الاستقلال الوطني، وإذ لم يفعلوا كل ذلك فإنه كان عليهم أن يتعففوا ويتركوا مسؤولية القيادة لمن برهنوا على أنهم أهل لها.

وعلى إثر انفضاض اجتماع الحكومة المؤقتة بالطريقة المشار إليها أعلاه، توجه السيد محمد خيضر في اليوم السابع والعشرين من شهر جوان إلى الرباط، وفي اليوم الموالي طار ابن بلة إلى القاهرة التي لن يغادرها إلا ليلتحق بصاحبه في اليوم التاسع من شهر جويلية. أما الحكومة المؤقتة فإنها دخلت إلى العاصمة يوم الإعلان عن استرجاع الاستقلال الوطني وهي مبتورة الأعضاء بفعل تمرد بعضهم واستقالة بعضهم الآخر[1].

وبعد ذلك التاريخ بأسبوع، شرع السيد أحمد بن بلة في تنفيذ انقلابه الذي كلف الجزائر آلاف القتلى والجرحى بالإضافة إلى تهميش مئات الإطارات ممن دللوا، في الميدان وفي وقت الشدة، على تحليهم بالكفاءة والنزاهة والالتزام. وكانت أول محطة هي تلمسان التي بدأت تستقبل أنصاره منذ اليوم الحادي عشر من شهر جويلية والتي وقع عليها الاختيار لكونها الولاية التي بها مسقط رأسه[2] ولأن واليها السيد أحمد مدغري الذي يعتبر من العناصر الأكثر وفاء للعقيد هواري بومدين. وفي اليوم السابع عشر من نفس الشهر اجتمع بقادة الولايات في مدينة الشلف الحالية وطلب منهم تزكية المكتب السياسي الذي إقترحه على المجلس الوطني ولم يحصل إلا على واحد وثلاثين صوتاً من جملة ستة وستين.

ومن الجدير بالذكر أن الولاية الثالثة أعطت موافقتها شريطة استبدال السيد محمدي سعيد بالسيد بلقاسم كريم[3]. وبينما اقترحت الولاية الرابعة تكوين المكتب السياسي مؤقتاً من قادة الولايات وتكليفها فقط بتحضير المؤتمر الوطني

---

[1] فارس (عبد الرحمن)، ص135.
[2] السيد أحمد بن بلة من مواليد مدينة مغنية الواقعة في ولاية تلمسان على الحدود الجزائرية المغربية.
[3] حربي (محمد) جبهة التحرير الوطني، ص359.

الذي ينتخب المؤسسات والهيئات الوطنية القارة، فإن الولايات الأولى والخامسة والسادسة قد طلبت مهلة للتشاور مع مجالسها. لكن ابن بلة الذي استجاب لرغبتهم لم ينتظر عودتهم إلى تلمسان وفاجأ الجميع في اليوم الثاني والعشرين من الشهر ذاته بالإعلان عن تأسيس المكتب السياسي مشكل من سبعة أعضاء هم: أحمد بن بلة، محمد خيضر، رابح بيطاط، حسين آيت أحمد، محمد بوضياف، محمدي السعيد والحاج بن عله.

ورغم المفاجأة والإعلان الأحادي، فإن موقف الحكومة المؤقتة والولايات كان متزناً إلى أبعد الحدود إذ لم يشترط سوى استدعاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية وإنهاء حالة الحصار المفروضة على قسنطينة. لكن ابن بلة كان يعرف عواقب ذلك الشرط، وعليه فإنه أمر باحتلال قسنطينة بواسطة جيش الحدود وقرر أن المكتب السياسي هو البديل للمجلس الوطني للثورة الجزائرية[1].

وفي اليوم الموالي وهو اليوم السادس والعشرون من شهر جويلية أعلن السيدان محمد بوضياف وبلقاسم كريم عن معارضتهما، وشكلا، في تيزي أوزور، اللجنة الوطنية للدفاع عن الثورة محددين لها مهمة التحضير للمؤتمر وللانتخابات التشريعية.

وترتب عن الإعلان المذكور دخول الطرفين في مفاوضات تخللتها أحداث كثيرة وقادت في النهاية إلى إبرام اتفاق بين المعنيين في اليوم الثاني من شهر أوت. وبمقتضى ذلك الاتفاق تراجع السيد بوضياف عن استقالته من المكتب السياسي الذي كلف، دون غيره، بإعداد قوائم الانتخابات وبتولي المهام التي كانت مسندة إلى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. وفي اليوم العشرين من شهر سبتمبر توجه الشعب الجزائري إلى صناديق الاقتراع وزكى القوائم المقدمة له والمكون لأول مجلس تأسيسي ترأسه السيد فرحات عباس، وانبثقت عنه أول حكومة برئاسة السيد أحمد بن بلة.

مواجهة الأوضاع الموروثة عن الاستعمار:

إن مائة واثنتين وثلاثين سنة من الاستعمار الاستيطاني لاتمحي آثارها بكل سهولة ولا تمحي آثارها السلبية سوى ثورة مستمرة لاتتوقف حتى بعد وقف إطلاق النار لأن الأمر لم يكن يتعلق بتحرير الأرض ولكنه كان يعني الإنسان

---

[1] بوبنيدر (صالح صوت العرب) مقابلة أجريتها معه في بيته يوم 1985/05/21.

فوق كل شيء. فتحرير الإنسان أكثر أهمية ويتطلب مجهوداً ونفساً أطول.

فالاستعمار الفرنسي، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول من الباب الأول، قد ركز، منذ العشرينات من هذا القرن خاصة، على تكوين إنسان متشبع بالثقافة الغربية ومجرد من كل عناصر الشخصية الوطنية. وتضاعف ذلك التركيز بعد أن وضعت الحرب الامبريالية الثانية أوزارها، وكذلك أثناء فترة الكفاح المسلح ليصل إلى أوج مايمكن أن يصل إليه عند وقف إطلاق النار. وصحب هذه العملية توسيع شبكة تعليم اللغة الفرنسية وتمكين متعلميها من التمتع بكثير من الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية. ولا يخفى على أحد أن اللغة ليست مجرد ناقل محايد أو وسيلة تبليغ لاغير، لكنها وعاء حضاري وأيديولوجي من الطراز الأول.

وعندما أعلن المجلس الوطني التأسيسي عن ميلاد الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية في اليوم الخامس والعشرين من شهر سبتمبر سنة اثنين وستين وتسعمائة وألف كان الوضع في الجزائر يتميز بخاصيات من أهمها مايلي:

1-نسبة مرتفعة من الأمية قدرت بأكثر من 80%[1]. أما الخمس الباقي فجله من انصاف المتعلمين الذين صنعهم الاستعمار على عجل ليكونوا امتداده الطبيعي الذي يعتمد عليه في مواصلة عملية المسخ والتشويه والتنزيف.

2-إسلام مشوه غلبت عليه الخرافة والدروشة[2] ولم يبق منه سوى جانب العبادات الذي تعرض بدوره إلى كثير من التحريف بحيث لم تعد الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، ولا شهادة تسمح بتوحيد الإله ولا الصوم قادر على أداء وظيفته الاجتماعية. أما الحج فحدث ولاحرج، وأقل مايقال عنه أنه أصبح وسيلة تجارية وسياحية في أحسن الحالات.

3-تقاليد وعادات ونمط وسلوكات يومية لاعلاقة لها بشخصيتنا الوطنية.

4-لغة وطنية مهملة، ممقوتة ومطاردة على الرغم من حيويتها وقدرتها على التكيف وتمكنها من استيعاب العلوم بأنواعها والتقنيات المختلفة.

5-علاقات اجتماعية مهلهلة أساسها الخوف والنفاق والمراوغة والمداهنة.

---

[1] الزبيري (محمد العربي) الغزو الثقافي في الجزائر من سنة 1962 إلى سنة 1982، الطبعة الأولى المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1983، ص21.

[2] الإبراهيمي (محمد البشير) عيون البصائر، ص128، ومابعدها.

6-إدارة معظم إطاراتها فطموا على لبان الاستعمار الجديد الذي بدأ يستعد للمرحلة التالية من السيطرة، وتعلموا أن فنون التسيير التي قد تأتي من غير الوطن الأم لايمكن أن تكون في المستوى الحضاري الذي استولى على عقليتهم. أما الموظفون البسطاء والعمال، فإن سذاجتهم وانخفاض مستواهم التعليمي الذي لايتجاوز الأمية المركبة في غالب الأحيان قد يعتقدون أن الاستقلال عن فرنسا العظمى لايمكن أن يكون مصحوباً إلا بكافة أنواع التخلف والهمجية. وأما الإدارة التي كونتها جبهة التحرير الوطني خلال فترة الكفاح واستطاعت أن تقدم الدليل على نجاعتها في الميدان، فإنها استبعدت وفقاً لما نصت عليه اتفاقيات إيفيان.

7-اقتصاد تابع للاقتصاد في فرنسا. مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة التي كانت قبل الاحتلال، تنتج أجود أنواع الأرز وكميات هائلة من الحبوب التي كانت تصدر لبلدان كثيرة مثل أوروبا وأفريقيا والوطن العربي، وتحولت إلى مغارس كروم تعطي الخمور الممتازة التي يخصص جزء كبير منها لتحسين الخمور الفرنسية أو لتزويد السوق العالمية. وكانت الصناعة التقليدية فقط فروعاً مكملة لبعض المصانع المتناثرة في مختلف أنحاء فرنسا[1].

لم تكن في الجزائر، غداة استرجاع السيادة الوطنية، هياكل اقتصادية ثابتة[2] ولم تكن فيها نواة صالحة للتنمية الدائمة التي تأخذ في الاعتبار تطور الزمان وتطور السكان. وزيادة على ذلك، فإن الامكانيات القليلة -وهي بالمقارنة مع حاجيات الكولون- قد تعرضت لتخريب مهول بسبب الغلاة عندما اقترب أجل الاستعمار.

8-تصاعد ديمغرافي مخيف.زاد من حدته، عشية استرجاع السيادة الوطنية، رجوع حوالي مليون من الجزائريين الذين لجأوا إلى تونس والمغرب الأقصى أثناء فترة الكفاح المسلح، وكذلك تسريح حوالي مليونين من المواطنين الذين كانوا يقيمون بالمعسكرات والمحتشدات[3].

9-انتشار البطالة الناتجة عن قلة التنظيم والإهمال الاقتصادي الذي فرض

---

(1) *حزب جبهة التحرير الوطني، المسيرة، من مطبوعات قسم النشر والتوثيق، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1980، ص113، ومابعدها.*

(2) *Abbas (Ferhat) I'inedpendanc confisque Flammarion, Paris 1948? P.117 et suivantes.*

(3) *المنظمة الوطنية للمجاهدين، المؤتمر الأول لكتابة التاريخ، ج2 ص175.*

على الجزائريين بسبب الخوف وعمليات التخريب.

10-تزايد أعداد المغتربين في أوربا وفرنسا على وجه الخصوص. ولقد ازداد هذا المشكل خطورة عندما بدأت الأسر الجزائرية، لأسباب مختلفة ترحل للإقامة هناك[1].

هذا الوضع عشية استرجاع الاستقلال الوطني وغداته مباشرة هو الذي كان على أول حكومة جزائرية أتت تواجهه. وكان نجاح تلك المواجهة مرهونا بمدى قدرة الرئيس الجديد على جمع كل الطاقات الحية في البلاد وعدم الانسياق للأحقاد الدفينة التي ظلت تتراكم منذ انعقاد مؤتمر وادي الصومام، وكان النجاح، أيضا، يتوقف على مراجعة برنامج طرابلس بحيث يظهر من تشكل مواطن اختلاف من شأنها إضعاف المد الثوري وتعريضه للإنقسام والتصادم بين المعركة الوحيدة.

المفاهيم والمصطلحات التي لا علاقة لها بالواقع الجزائري إن المكتب السياسي الذي استولى على مهام الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بالطريقة التي أشرنا إليها أعلاه، لم يعرف كيف يحافظ على الوحدة الوطنية، بل إنه عندما وضع قوائم الانتخابات التشريعية التي جرت في اليوم العشرين من شهر سبتمبر قد ألغى كل من اشتم فيهم رائحة المعارضة لما يسمى بمجموعة تلمسان[2]. وبذلك أعطى الإشارة لبدء الصراع بجميع أنواعه في الوقت الذي كانت الثورة في أحوج ماتكون إلى تضافر الجهود وتوحيد الصفوف.

وبالإضافة إلى كثير من القياديين الذين كانوا مازالوا قادرين على العطاء في مجالات التعبئة والتوجيه نظرا لما كانت لهم من سلطة أدبية في أوساط المناضلين والإطارات، فإن الحكومة الجديدة قد جاءت في تشكيلتها البشرية عبارة عن خليط من تيارات سياسية يستحيل توحيدها ولايمكن أن ينتظر منها تطبيق برنامج طرابلس الذي كان يتناقض تماما مع المشارب الأيديولوجية لمعظم أعضائها.

وإذا استثنينا الرئيس أحمد بن بلة، ووزير العمل السيد بومعزة، فإن حركة الانتصار للحريات الديمقراطية التي هي مصدر الثورة لم تكن ممثلة في تلك الحكومة بينما أعطيت للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري أربع وزارات

---

(1) *الزبيري (محمد العربي) "أوضاع المغتربين الجزائريين" أشغال ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد بتيزي وزو سنة 1973، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر 1973 ج3، ص175.*

(2) *عباس (فرحات) الاستقلال، المصادر، ص86.*

ووزارة واحدة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ووزعت باقي الحقائب على إطارات شابة لم يسبق لها أن تشبعت بواحدة من الأيديولوجيات الوطنية[1].

لهذه الأسباب مجتمعة، فإن برنامج طرابلس قد وضع على الرف وراحت الحكومة تطبق سياسة ارتجالية تخضع في مجملها إلى تطور الأحداث وإلى تأثير المحيط وفي كثير من الأحيان إلى مزاج الرجل الأول في الدولة الذي لم يكن هو الأمين العام لجبهة التحرير الوطني ولكن فقط رئيس الحكومة أحمد بن بلة.

إن برنامج طرابلس ينص بصريح العبارة أن جبهة التحرير الوطني ستظل هي مصدر السلطة الوحيد في البلاد لأنها كلفت من طرف المجلس الوطني للثورة الجزائرية بمواصلة مهمتها التاريخية[2]. لكن المكتب الذي تشكل في تلمسان لم يكن شرعياً، بل أتفقت جميع الأطراف على أن يكون هيئة سياسية وتنفيذية تقوم مقام الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في توفير الشروط الموضوعية اللازمة لإجراء الانتخابات التشريعية وتحضير المؤتمر الوطني، وفي أثناء توزيع المهام أسندت الأمانة العامة لجبهة التحرير الوطني إلى السيد محمد خيضر في حين تكفل السيد محمد بوضياف بالعلاقة الخارجية والعقيد محمدي السعيد[3] بالتربية الوطنية والحاج بن علة بالجيش الوطني الشعبي ورابح بيطاط برئاسة الحزب وأحمد بن بلة بمراقبة الهيئة التنفيذية المؤقتة. أما السيد حسن آيت أحمد، فإنه رفض الالتحاق بالمكتب السياسي.

وعلى الرغم من صعوبة العمل في هذه الظروف، فإنه تم تنصيب اتحادية لجبهة التحرير الوطني في كل واحدة من عمالات الوطن[4] كما تم تنصيب جميع الدوائر والقسمات في ظروف قصيرة جداً ودون أن يقع الحسم فيما يتعلق بالأولوية والسلطة هل تكونان للهيئات السياسية أم للهيئات التنفيذية، ولقد قاد الخلاف حول هذه المسألة إلى استقالة الأمين العام في شهر ماي سنة ثلاث وستين وتسعمائة وألف[5].

إن رئيس الحكومة لم يكن يجهل أهمية التنظيم السياسي بل إنه كان يدرك

---

[1] *نفس المصدر، انظر قائمة أعضاء الحكومة في الصفحة 87.*

[2] *النصوص، الأساسية لجبهة التحرير الوطني (1954-1962)، ص53.*

[3] *حديث أجريته يوم 1984/07/04 مع العقيد محمدي السعيد في بيته بالقبة.*

[4] *العمالة هي الترجمة العربية لكلمة D'epartement وقد أصبحت فيما بعد استرجاع الاستقلال تسمى الولاية.*

[5] *خيضر (محمد) الحديث المشار إليه سابقاً.*

جيداً أن إقامة الدولة لن يكون متأنياً إلا بوجود حزب قوي بمناضليه المهيكلين والمتواجدين على رأس جميع المناصب الحساسة، وإيمانه بهذه الضرورة هو الذي جعله يقول ذات يوم لوزير الدفاع العقيد هواري بومدين: إنك لن تكون كل شيء بفضل الحزب، ولن تكون شيئاً بدونه[1].

لكن هذه الأداة التي يتوقف عليها مصير الحكم لايجب أن تكون بأيادي أخرى وعليه، فإن الرئيس بن بلة لم يتردد في صنع الظروف التي أدت، بالتدريج، إلى استقالة رئيس جبهة التحرير الوطني وأمينها العام وفي نفس الوقت أسندت مسؤولية المنظمات الوطنية إلى السيد الحاج بن عله الذي تم تعيينه وزيراً للدولة حتى يسهل ابتلاعه.

إن الرغبة في جمع كل السلطات قد حجبت عن الرئيس أحمد بن بلة مخاطر ماكان يقوم به. لقد أدت قراراته الارتجالية إلى إبقاء المكتب السياسي محصوراً في شخصيتين اثنتين[2]لم يسبق لهما أن مارسا مسؤوليات سياسية ودفعت برفاق النضال والمعتقل إلى المعارضة التي سوف تتخذ أشكالاً متعددة، كما أنها همشت نظام الولايات الذي برهن على فعاليته أثناء المعركة[3]وجعلت من الإدارة منافساً قوياً رغم أن معظم إطاراتها كانوا من نتاج الترقيات الاستعمارية المختلفة وبالتالي فهم أقرب إلى مصالح الاستعمار منهم إلى المصلحة الوطنية.

ففي مثل هذا الجو المكهرب شرع في تجنيد القواعد النضالية لمناقشة مشروع الدستور الذي أعدته الحكومة والذي يعطي لرئيس الجمهورية جميع السلطات بما في ذلك القيادة العليا للجيش. وكانت أربعة أيام كافية للاثراء ولإجراء جميع التعديلات ثم صادقت الإطارات السياسية على المشروع وقدم للتزكية إلى المجلس الوطني مما أثار سخط مجموعة من النواب وقاد إلى تقالة الرئيس فرحات عباس في مستهل شهر أوت[4].

وبعد أسبوع من الاستفتاء الذي جرى في اليوم الثامن من شهر سبتمبر، ستدعى المواطنون من جديد لانتخاب المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية.

هكذا، إذن، استطاع السيد أحمد بن بلة، في ظرف عام واحد، أن يقضي

---

[1] فرانكوس (أنيا) وسيريني (جب) جزائري يسمى بومدين، باريس 1976، ص154.

[2] .هما العقيد محمدي العيد والسيد الحاج بن علة.

[3] انظر الباب الثاني وخاصة منه الفصل الثاني

[4] الاستقلال المصادر ص62 لقد نشر السيد فرحات عباس ابتداء من هذه الصفحة نص الرسالة التي ضمنها أسباب استقالته من رئاسة المجلس الوطني التأسيسي،وهي مؤرخة بيوم 12 آوت 1963.

على كل خصومه وأن ينفرد للحكم، لكنه في نفس الوقت أحدث حوله فراغا سياسياً وأيديولوجياً مهولاً وشتت الطاقات الحية في البلاد وأرغمها على اللجوء إلى تشكيل معارضات سياسية وأخرى مسلحة، وبذلك يكون قد تسبب من حيث لايدري في إيقاف قطار الثورة وأرسى قواعد الفوضى والاضطراب في الجزائر وفتح فيها الأبواب للانقلابات تتواصل متشابهة إلى أن وقع إجهاض الثورة في اليوم الخامس من شهر أكتوبر سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وألف.

وكان الحزب الشيوعي الجزائري هو المستفيد الوحيد من كل هذه الأوضاع إذ تمكن، رغم عدم الانصهار في الثورة طيلة فترة الكفاح المسلح ورغم معارضته الشديدة لمنطلقاتها الأيديولوجية، أن يظل محتفظاً بوجوده طبقاً لتوجيهات لينين[1]. وأن يعود للنشاط العلني كقوة دافعة تقف إلى جانب الرئيس أحمد بن بلة. وحتى عندما منع في اليوم التاسع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ثلاث وستين وتسعمائة وألف عن الظهور ولم تتعرض إطاراته لأية ملاحقة أو مكروه، وهو الأمر الذي جعل أمينه العام السيد العربي بوهالي يصرح بأنه لايوجد أي نص رسمي فيما يتعلق بحله أو بمنعه من مواصلة تحركاته السياسية.

لقد كان الحزب الشيوعي الجزائري يدفع إلى التعفن في الجزائر كما صرح بذلك السيد آيت أحمد عندما لاحظ في شهر أكتوبر[2]أن مواقفه من المعارضة مزدوجة وغير واضحة، وبالفعل، فإنه كان يعلن عن مساندته لجبهة التحرير الوطني وفي نفس الوقت يَعِدُ، سراً، بالوقوف إلى جانب القوات المعارضة لها والعاملة على تغيير نظام الحكم.

وكانت أهم القوات المعارضة وأخطرها متجمعة حول اثنين ويدعو إلى إقامة نظام ديمقراطي وثوري في الجزائر، وكلاهما، أيضاً، عين لعضوية المكتب السياسي.

أما الرفيق الأول فهو السيد محمد بوضياف الذي كان من المفروض أن يشرف على العلاقات الخارجية ضمن تشكيلة المكتب السياسي لكنه لم يلبث أن قدم استقالته وأعلن غداة انتخاب المجلس التأسيسي عن ميلاد حزب الثورة الاشتراكية معللاً إقدامه على ذلك بانتشار الفوضى وانعدام الأمن وإفلاس جبهة التحرير الوطني التي لايمكن أن تكون حزباً ثورياً بسبب تركيبتها البشرية

---

[1] بوي (فرانسوا) الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، باريس 1965، ص47.
[2] نفس المصدر، ص54.

ونتيجة تحالفها مع الرأسمالية العالمية[1].

لقد ذكر مؤسسوا حزب يناضل من أجل القضاء على استغلال الإنسان ابن بلة مجانب للديمقراطية والشعبية والاشتراكية في آن واحد، ودعا إلى التنكر لاتفاقيات إيفيان باعتبارها مجهضة للثورة الجزائرية. وقد قابل رئيس الحكومة نشر هذا المشروع باعتقال السيد محمد بوضياف في اليوم السادس من شهر جوان 1963 ومعه مجموعة من الإطارات السياسية.

وأما الرفيق الثاني فهو السيد آيت أحمد الذي رفض عضوية المكتب السياسي من البداية لكنه قبل المشاركة في أعمال المجلس التأسيسي، وفي إطار هذا الأخير أعرب عن استنكاره للاعتقال المذكور أعلاه وقرر الانسحاب إلى عين الحمام[2] مسقط رأسه استعداداً للمرحلة المقبلة التي استهلها في اليوم التاسع والعشرين من شهر أوت سنة 1963 بالإعلان عن ميلاد جبهة القوى الاشتراكية التي قررت حمل السلاح لإسقاط النظام القائم وبذلك اندلعت حرب أهلية فيما يسمى بمنطقة القبائل، ولم تتوقف إلا بعد إلقاء القبض على آيت أحمد في اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر.

وعلى عكس هاتين التشكيلتين السياسيتين، فإن الحزب الشيوعي الجزائري قد أعلن عن وقوفه إلى جانب الحكومة لكنه ظل متمسكاً بآرائه واستقلاليته ومن الغريب في الأمر أن كل من هذه الأطراف الأربعة يدعي لنفسه الثورية هذه التشكيلات لم تكن سوى منابر مستعملة لأغراض شخصية وبقصد الوصول إلى الحكم أو المحافظة عليه. ولو لم تكن كذلك لاستطاعت أن تجد أرضية للتفاهم فيما بينها من أجل إقامة جبهة وطنية تتضافر جهودها لتجسيد ما يمكن من تحسين برنامج طرابلس على أرض الواقع في انتظار المؤتمر الوطني الذي من حقه التعديل والتغيير.

ولأن الصراع لم يكن سياسياً ولا أيديولوجياً، فإن الشعب ظل ينظر إليه من بعيد، ووظفت الحكومة قوات الجيش الوطني الشعبي، فظهرت جبال القبائل من مراكز التمرد وقررت منع جميع الأحزاب من النشاط، معتمدة على قرارات طرابلس الأخيرة ولكون "الاشتراكية التي تعني انصهار جميع الفئات الاجتماعية في واحدة، تتطلب الحزب الواحد كأداة، وإذا كان هناك معارضون فيكون عليهم

---

(1) *Boudefa (Mohamed) Ou val'Algerie? Librairie de I etoile, Paris 1964. P172.*

(2) *مدينة صغيرة تقع على قمة جبل جرجرة على بعد 40 من مدينة تيزي وزو بدورها إلى بعدها 30 كلم شمال شرقي العاصمة.*

أن يتحركوا في إطار ذلك الحزب، والمطالبة بالتعددية الحزبية جزء من عقلية البرجوازية الليبرالية".

الانزلاق نحو الحكم الفردي:

إن القيادة الجماعية مبدأ في التسيير يحتل مكانة رئيسية في أيديولوجية الحركة الوطنية، ولقد أدى عدم احترامه والتهاون في تطبيقه إلى تمرد اللجنة المركزية لحركة الانتصار والحريات الديمقراطية على زعيم الحركة السيد مصالي الحاج وإلى انقسام جبهة التحرير الوطني.

وإذا كانت جبهة التحرير الوطني قد أحرزت على مجموعة الانتصارات قادت بالتدريج إلى تحقيق الأهداف المسطورة في بيان أول نوفمبر، فلأن القيادة المختلفة قد وقعت في أزمة ووجدت نفسها مضطرة لأن تقدم تضحيات جساماً من أجل تجاوزها[1]. إن الزعماء الخمسة لم يستفيدوا من هذه التجربة، ربما لبقائهم مدة طويلة في المعتقل بعيداً عن ممارسة المسؤولية على أرض الواقع وتحت تأثير الإشهار الإعلامي الغربي الذي لم يتأخر عن استعمال شتى الوسائل لتغذية روح الانقسام بينهم. وفي تلك الصائفة من سنة اثنين وستين وتسعمائة وألف، ضاعفت وسائل الإعلام المذكورة حملاتها المسمومة التي قادت شيئاً فشيئاً، إلى توسيع الهوة بين الأشقاء الذين أصبح كل واحد منهم يبحث عن أنصار يستعين بهم ضد الآخرين حتى ولو كان أولئك الأنصار من بين أعداء الأمس وطلقاء اليوم.

فالتخلي عن مبدأ القيادة الجماعية هو الذي دفع ابن بلة إلى العمل من أجل الانفراد بالمكتب السياسي، وجعل محمد بوضياف يؤسس حزب الثورة الاشتراكية وآيت أحمد يتزعم واحداً من أخطر التمردات المسلحة في الجزائر، وحتم على فرحات عباس الاستقالة من رئاسة المجلس الوطني التأسيسي وأخطر من كل ذلك شتت أفضل الطاقات الحية في البلاد والمتمثلة في إطارات وجنود جيش التحرير الوطني الذين لم يغادروا ولاياتهم طيلة فترة الكفاح المسلح معبرين بذلك عن إخلاصهم للوطن وتفانيهم في الدفاع عنه.

لأجل كل ذلك، فإن انتصار الحكومة برئاسة السيد بن بلة، كان في الواقع،

---

[1] إن عودة سريعة إلى سائر الأزمات التي عرفتها جبهة التحرير الوطني خلال فترة الكفاح المسلح تدل بما لا يدع المجال للشك على أن التخلي عن مبدأ القيادة الجماعية هو الأساس في جميع الخلافات مهما كان شأنها.

هزيمة بالنسبة لجبهة التحرير الوطني وللجزائر بصفة عامة، وتتمثل هذه الهزيمة، بالإضافة إلى ماذكرنا أعلاه، في تمكين الإطارات المتشبعة بالفكر الماركسي والبعيدة كل البعد عن واقع الشعب، من اختراق الصفوف والارتقاء إلى مناصب الحل والربط في سائر قطاعات الدولة الجزائرية الفتية، ومع تمكن تلك الإطارات ظهرت قوات سياسية جديدة لاعلاقة لها بأيديولوجية الثورة وهي نفس القوات التي سوف تستولي بالتدريج على زمام السلطة في البلاد.

وهناك وجه آخر للهزيمة التي منيت بها جبهة التحرير الوطني ويتمثل في فتح الأبواب واسعة للانقلابات العسكرية التي سوف تتواصل في جزائر مابعد إجهاض الثورة. وفي الحقيقة، فإن الإطاحة بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لايوجد له اسم آخر غير الانقلاب العسكري، لأن القيادة العليا الشرعية التي هي المجلس الوطني للثورة الجزائرية لم يسمح لها بالاجتماع للنظر في شأنها قانونياً.

هكذا، إذن، فإن الحكومة المنبثقة عن المجلس الوطني التأسيسي المنتخب في اليوم العشرين من شهر سبتمبر سنة اثنين وستين وتسعمائة وألف، لايمكن أن نقول عنها أنها حكومة جبهة التحرير الوطني ولايمكن أن تحظى بتأييد المناضلين الحقيقيين الذين يرفضون الصراعات والانقسامات من أجل السلطة. ولأنها لم تكن حكومة جبهة التحرير الوطني، فإنها وضعت برنامج طرابلس على الرفوف وأدارت الظهر لنصوص الثورة الأساسية ثم راحت ترتجل البرامج المتناقضة وتقضي جل الوقت في سد الثغرات ومغازلة المشاكل العويصة التي تكمن حلولها في وحدة الصف وفي الالتزام بأيديولوجية أثبتت، على الميدان، نجاعتها وجدواها.

ومن سوء حظ الجزائر أن هذه الحكومة هي التي استطاعت أن تستولي على السلطة بعد أن ألغت كل من حاول معارضة سياستها. ولم يكن الإلغاء مقصوراً على الشخصيات والتشكيلات السياسية، بل تعداها إلى المنظمات الوطنية التي صيغت، بمختلف الوسائل، من جميع العناصر التي أبدت بطريقة أو بأخرى، مناهضتها لسلوكيات ابن بلة وتصرفاته.

ومن جديد، أقيمت المحتشدات في الجنوب الجزائري لاستقبال المخلصين من أبناء الشعب، وفتحت السجون أبوابها لإيواء المئات من المناضلات والمناضلين، وعادت عمليات القمع والتعذيب ضد الوطنيين بواسطة نفس الجلادين الذين كانوا يعملون في إطار الأجهزة الاستعمارية. ولم يكن ذلك

غريباً، لأن الحكومة الجزائرية أسندت مهمة تكوين ضباط شرطتها لقيادة الشرطة الفرنسية كما أنها في اليوم السادس والعشرين من شهر سبتمبر، أي مباشرة بعد تشكيلها، طلبت من الجنرال الفرنسي قائد الجندرمة أن يسرح جميع الضباط وصف الضباط الجزائريين ليشكلوا النواة الأولى لسلك الدرك الوطني في الجزائر، ثم التمست منه اتخاذ الإجراءات اللازمة لتكوين أعداد كبيرة من الدرك الجزائريين.

وإذا أضفنا إلى تنظيم الشرطة وتكوين ضباطها وإنشاء سلك الدرك الوطني من أوله إلى آخره، واستقدام مجموعة من الضباط السامين في الجيش الفرنسي لاستكمال تكوين ضباط الجيش الوطني الشعبي ومباركة الرئيس أحمد بن بلة لكل ذلك، أصبح جلياً أن الجزائر قد تخلت نهائياً عن خطها الثوري الذي يدعو إلى ضرورة قطع جميع العلاقات مع المستعمر السابق[1]، وصارت تطبق سياسة الاستعمار الجديد التي ترمي إلى إسناد المناصب الأساسية في الدولة إلى إطارات كونتهم المدرسة الاستعمارية من أجل الحفاظ على مصلحة فرنسا.

ففي هذه الأجواء المشحونة بالضغائن والأحقاد والمليئة بالتناقضات ومختلف أنواع اللامعقول، والمتميزة بالفوضى وانعدام الأمن والاستقرار، أعطت الإشارة الخضراء لتكوين اللجنة الوطنية لتحضير المؤتمر الأول لجبهة التحرير الوطني، وأُطلقت نفس الأيادي الماركسية تعبث من جديد بالنصوص الأساسية للثورة.

ومرة أخرى تكونت لجنة صياغة مشروع المجتمع تحت إشراف أهم العناصر الماركسية التي كانت هي أساس الانحرافات الأيديولوجية الأولى. ورغم مقاومة العناصر الوطنية، صادق المؤتمر الذي أنهى أشغاله في اليوم الواحد والعشرين من شهر أبريل سنة أربع وستين وتسعمائة وألف على ميثاق الجزائر الذي اعتبر تعميقاً لبرنامج طرابلس ومرجعاً أيديولوجياً وحيداً للثورة الجزائرية.

إن المؤتمرين الذين دامت أشغالهم ستة أيام قد حللوا أوضاع البلاد التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية، ثم صادقوا على عدد من المقررات: تحويل جبهة التحرير الوطني إلى حزب طلائعي في الحكم يسير وفقاً لمبدأ

---

[1] ليس هذا رأي الدكتور بوريلا أستاذ القانون بكلية حقوق الجزائر الذي شارك يوم 1963/01/24 في ملتقى تصنيع شمال أفريقيا وأكد على ضرورة تعامل البلد المستقل حديثاً مع البلد المستعمر سابقاً لأنه الوحيد الذي يفهمه جيداً انظر: الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، ص79.

المركزية الديمقراطية ويهدف إلى بناء الدولة الاشتراكية في الجزائر، وينتهج سياسة عدم الانحياز ويعمل على تدعيم القضايا العادلة ومساندة حركات الشعوب المناضلة في العالم أجمع.

إن تحويل جبهة التحرير إلى حزب طلائعي في مثل هذه الظروف يُعَدّ انقلاباً سياسياً لامبرر له، خاصة وأن الحزب لايمكن أن يكون في الحكم بإدارة موروثة عن الاستعمار وإطارات مسيَّرين مكوَّنين وفقاً لبرامج استعمارية وبواسطة مكونين لاعلاقة لهم بالأيديولوجية الثورية، وحتى العناصر التي تكونت في صفوف جبهة التحرير الوطني فإنها، في معظمها كي لانقول في مجملها، ترفض بناء الدولة الاشتراكية لأنها لم تنته بعد من إقامة الدولة الديمقراطية الاجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية التي حددها بيان أول نوفمبر كهدف رئيسي.

فالحزب الطلائعي بدون إمكانيات بشرية يظل حبراً على ورق بل يتحول بالتدريج، إلى مجرد جهاز يوظف لخدمة الأغراض الشخصية ولمنع الشرائح الوطنية في المجتمع من التصدي بحزم وجد للقوات المناهضة للثورة.

قراءة فاحصة لميثاق الجزائر:

وعندما نعود، اليوم، إلى ميثاق الجزائر، نلاحظ بكل سهولة أنه مليء بالمغالطات التاريخية والتناقضات السياسية والطموحات اللامشروعة، غير أن كل ذلك لايعني أنه خال من بعض التحاليل الصحيحة والمقررات الموضوعية التي تأخذ في الاعتبار الإمكانيات الحقيقية من أجل تغيير الواقع.

فالجزائر بلد إسلامي، هذه حقيقة تضمنتها كل الوثائق الأساسية لجميع الأيديولوجيات الوطنية. لكن الذي يشكل مغالطة تاريخية هو تأكيد ميثاق الجزائر على أن الجماهير الجزائرية كانت عميقة الإيمان وأنها "قاومت بصلابة لتخليص الإسلام من كل الشوائب والخرافات التي شوهته أو خنقته، كما أنها لم تناهض الدجالين الذين كانوا يريدون أن يجعلوا منه مذهباً للخشوع والتوكل، وتسعى لربطه بإرادتها في إنهاء استغلال الإنسان للإنسان"[1]والواقع، أن الذي قام بهذا الدور هم العلماء سواء كأفراد منذ أن وضعت الحرب الامبريالية

---

[1] جبهة التحرير الوطني، اللجنة المركزية للتوجيه، ميثاق الجزائر، مجموع النصوص المصادق عليها من طرف المؤتمر الأول لحزب جبهة التحرير الوطني 16-21 أبريل 1964، الجزائر 1965، ص35.

ـرها أو كتنظيم بعد أن تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ـامس من شهر ماي سنة واحد وثلاثين وتسعمائة وألف. ولم يكن الخفي على الذين صاغوا الميثاق، لكنهم كتبوا بعواطفهم فضيعوا فرصة ثمينة كان يمكن أن تكون منطلقاً لتحقيق مصالحة وطنية الثقة إلى شريحة واسعة من المجتمع الجزائري في تلك الظروف وج ما يكون فيها إلى وحدة وتجاوز الحزازات السياسية.

ـاف بدور العلماء في تخليص الإسلام من الشوائب التي علقت به الإنسان الجزائري من المعتقدات الفاسدة كان من شأنه أن يقود إلى ـح الديني في الجزائر وهو إصلاح يختلف كلية عن الإصلاح الديني العربي وفي العالم الإسلامي عامة، وبعد التقييم الموضوعي، كان جبهة التحرير الوطني أن تخصص مكانة مرموقة للجانب الروحي ـل بدونه التوصل إلى تعبئة جماهير الشعب الجزائري. لكن ميثاق ـد عدم الاعتراف بأهمية ذلك الدور، وراح ينسبه، تعسفاً، لغير ـى يهمش الإسلام ويمنع الفكر الإسلامي من الانتشار في جميع مؤثرة في عمليات البناء والتشييد، وبذلك تعطى الغلبة للنظام ـي بناء الدولة[1].

ـطأ ميثاق الجزائر في تقديره، لأن تحييد العلماء وتهميش دورهم في ، قد جعلهم يجنحون، شيئاً فشيئاً، إلى العمل السري دفاعاً عن العقيدة من الاعتداءات التي تريد محاصرتها في المسجد وإبقائها مقصورة ـة بين الإنسان وربه كما هو الأمر بالنسبة للديانات الأخرى، ووفاء ـهداء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل إقامة الدولة الديمقراطية في إطار المبادئ الإسلامية[2].

ـلطة التاريخية الثانية تتمثل بأن الكفاح من أجل انتصار المبادئ قد تغلغل في أوساط الجماهير الشعبية وحفز عملها وحدد سلوكها وفي الحقيقة، فإن اندلاع الثورة من نوفمبر إنما كان من أجل

ـحات) الاستقلال المصادر، ص124، يقول السيد عباس: إنني، فيما يخصني، آمل أن ـجزائر عن النهج الاشتراكي حتى تتمكن من أن تستعيد شخصيتها وتبني من جديد وحدتها والاقتصادية والاجتماعية. وسوف يكون ذلك أفضل الحلول لأنه يتلاءم مع مفهومها الواحد كما وضعت معالمه ندوتا طنجة وتونس سنة 1958.

ـي رقم 8.

ـير الوطني، اللجنة المركزية للتوجيه، ميثاق الجزائر، ص36.

التحرير الوطني الذي يشمل تحرير الإنسان وهو أكثر قيمة من انتصار المبادئ الديمقراطية التي أراد ميثاق الجزائر أن يجعلها منطلقاً أساسياً لبناء الدولة الاشتراكية.

إن جبهة التحرير الوطني لم تقرر الكفاح من أجل انتصار المبادئ الديمقراطية ولكنها أعلنت عن ميلاد حركة جهادية دعت إليها جماهير الشعب من أجل استرجاع السيادة الوطنية المغتصبة، وعلى هذا الأساس يجب على الدارس أن يتوقف عند الملاحظات التالية:

1-إن جماهير الشعب التي وجه إليها النداء لم تتجاوب معه في اللحظات الأولى، بل كان لابد من مرور وقت يتفاوت من حيث الطول بين منطقة وأخرى وحسب وعي الفئات الاجتماعية المختلفة[1]. وهناك شرائح واسعة من الشعب الجزائري قد ظلت موالية للنظام الاستعماري وتتعامل معه بكل ثقة إلى أن تأكد من عجزه عن حمايتها ولاحظت أنه اعترف لجبهة التحرير الوطني بحق تقرير المصير على أساس الاستقلال الوطني. إن هذه الشرائح الواسعة جزء من الجماهير الشعبية ولايمكن أن نقول أن المبادئ الديمقراطية قد تغلغلت إلى أوساطها أثناء فترة الكفاح المسلح وإلا أصبح الاستعمار هو داعية الحرية والديمقراطية.

2-إن الكفاح من أجل انتصار المبادئ الديمقراطية لايكون إلا بعد استرجاع الاستقلال الوطني ولذلك فإن جبهة التحرير الوطني لم تجعله من أهدافها الرئيسية أثناء فترة الكفاح المسلح خاصة وأن متطلبات الحرب كثيراً ماتتناقض مع الممارسة الديمقراطية.

3-لقد كانت السيادة الوطنية المغتصبة مبنية على مجموعة من الثوابت أهمها الإسلام ولغة القرآن.

وأن الكفاح من أجل استرجاعها يعني بالدرجة الأولى السعي بجميع الوسائل لإعادة تأهيل تلك الثوابت التي عملت السلطات الاستعمارية على تشويهها أو إلغائها تماماً كما كان الأمر للغة العربية، وبدلاً من أن يهتم ميثاق الجزائر بدين الجزائريين ولغتهم باعتبارهما أفضل وسيلة لتكوين الإنسان، فإنه انطلق من النظرة الماركسية للديانات السماوية وراح يخطط لتهميش الإسلام، ولعزل اللغة العربية عن ميادين الإدارة والعلم والتكنولوجيا.

---

[1] *عباس (فرحات) الاستقلال المصادر، ص31، ومابعدها.*

4-إن ميثاق الجزائر لم يزد عن تقليد الحلول النظرية التي أوجدتها الثورة الروسية لمشاكل المجتمع السوفياتي. ولو أن المشرفين على الصياغة لم يكونوا متشبعين بالفكر الماركسي دون غيره، لانطلقوا، في تحليلاتهم، من الفكر السياسي الإسلامي ومن الواقع الجديد الذي أحدثته الثورة في الجزائر ثم أوجدوا نظاماً للحكم مستقلاً ومتطابقاً مع المنطلقات الأيديولوجية لجبهة التحرير الوطني.

أما المغالطة التاريخية الثالثة فتتعلق بمجموعة من التفسيرات للمراحل التي قطعتها ثورة نوفمبر منذ اندلاعها. وهذه التفسيرات تبدأ من برنامج طرابلس الذي أشار إلى أن وعي الجماهير قد جعل الثورة تتحول من ديمقراطية اجتماعية إلى ديمقراطية شعبية وأن هذه الأخيرة عبارة عن تشييد واع للبلاد في إطار المبادئ الاشتراكية[1].

إن برنامج طرابلس، إذن جعل المبادئ الاشتراكية تحل محل المبادئ الإسلامية، ولقد فعل ذلك خلسة ولم يطلب رأي الجماهير الشعبية التي ما كانت لتوافق لو استشيرت. ثم جاء ميثاق الجزائر ليؤكد أن "الكفاح من أجل تدعيم الاستقلال والكفاح من أجل انتصار الخيار الاشتراكي لا انفصام بينهما، والفصل بينهما يعد تذويباً للدور القيادي لجماهير العمال والفلاحين[2].

فبهذه الكيفية تجاهل ميثاق الجزائر المكانة التي مافتئ الإسلام يحتلها في مسيرة الجزائر التاريخية، وكذلك الدور الحاسم الذي أداه في تشكيل الشخصية الوطنية أولاً، وصيانتها ضد محاولات المسخ والتشويه ثانياً، وتمكينها في نهاية المطاف من أن تتحرك من جديد لتقويض الأركان الاستعمارية وتؤكد الهوية الوطنية وتطلق العنان لثورة أصيلة إسلامية الروح عربية اللسان وإنسانية المسعى.

إن الربط بين الكفاح من أجل تدعيم الاستقلال والكفاح من أجل انتصار التيار الاشتراكي عمل نظري ينطلق من دوغمائية عميقة ولا يأخذ في الاعتبار بعدين أساسيين لابد منهما لكل حركة تريد أن تصل إلى مداها دون انحراف ولاجمود، وهما بعد الاستمرارية وبعد التجديد والإبداع.

وإذا كانت الاستمرارية تعني المحافظة على خيوط التواصل التي ظلت تنظم مسيرة الشعب الجزائري، فإن التجديد والإبداع يعطيان للمسؤول والمناضل قدرة التحلي بالمرونة اللازمة لتكييف عملية الانتقال من المجال النظري إلى

---

[1] النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني 1954-1962، ص71.
[2] ميثاق الجزائر، ص36.

دائرة الفعل حسب الظروف والإمكانيات التي تتحكم في تشكيل الواقع.

ومغالطة تاريخية رابعة وتتمثل في اعتبار أن البؤس المدقع الذي كانت تعيش فيه الأغلبية الساحقة من الفلاحين والعمال كافة لجعل هذه الأخيرة "تناضل من أجل تحويل المجتمع تحويلاً جذرياً"[1]في اتجاه البناء الاشتراكي. ولو كان هذا الادعاء صحيحاً لما انتظرت الجزائر سنة أربع وخمسين لإشعال فتيل الثورة ولما لاقت في فترتها الأولى تلك الصعوبات الكبيرة في جعل جماهير الشعب تقبل فكرة التغيير وتساهم بأشكال مختلفة في الكفاح المسلح.

ويزعم ميثاق الجزائر، أيضاً، أن التسيير الذاتي الذي لجأت إليه الثورة الجزائرية في العام الأول بعد استرجاع الاستقلال هو تعبير عن إرادة الفئات الكادحة في البلاد في الصعود إلى المسرح السياسي الاقتصادي وفي أن تتشكل كقوة قيادية. وهذا التعبير يدل، مرة أخرى، على أن الذين تولوا صياغة ،ميثاق الجزائر لم يكونوا يعرفون الواقع الجزائري، لأن التسيير الذاتي في الواقع لم يكن نتيجة تخطيط مدروس، ولكنه فرض على السلطات الجزائرية الفتية بسبب رحيل الجالية الأوربية التي كانت تمتلك وسائل الانتاج وفي مقدمتها المساحات الشاسعة من الأراضي الخصبة، ولكي لاتبقى تلك الوسائل مهملة، وحتى تتم عمليات الحرث والبذر في خريف تلك السنة والتي أعطيت الإشارة الخضراء إلى الفلاحين والعمال فانتظموا في لجان للتسيير الذاتي ثم جاءت قرارات مارس ثلاث وستين وتسعمائة وألف لتجعل من المبادرة إجراءات رسمية[2].

إن لجان التسيير الذاتي لم تكن، كما توهم المنظرون الماركسيون، استمرارية للثورة ولا واحدة من الخاصيات الرئيسية للانفتاح نحو الاشتراكية، لكنها كانت حتمية وكانت من البداية مبنية على أسس غير سليمة لأن تركيبتها البشرية لم تكن لتساعد على تحويله إلى أداة ثورية، ذلك أن أعضاء لجان التسيير لم يكونوا سوى نفس العمال والفلاحين الذي ظلوا في معظمهم أوفياء للكلون الذين كانوا يستغلون الجزائر، إذا كانت جبهة التحرير الوطني، لم تتمكن، طيلة سنوات الكفاح المسلح، من فصلهم نهائياً عن مستغليهم ومؤيدي السيطرة الأجنبية في بلادهم، فإن من المستحيل على قرارات مارس المرتجلة أن تحولهم إلى قوة قيادية.

وإلى جانب هذه المغالطات التاريخية وغيرها هناك التناقضات السياسية

---

[1] المصدر نفسه، ص40.

[2] Benamrane (Djillai) *Agriculture et debeloppement en Algerie*, SNED, Alger 1980-101 et suivantes.

التي لم تتفطن إليها لجنة صياغة ميثاق الجزائر والتي سوف تكون هي أساس جزء من الانحرافات التي وقعت فيه أيديولوجية جبهة التحرير الوطني والتي شكلت بالتدريج، واحداً من العراقيل الرئيسية التي منعت الثورة من التقدم في انتظار إجهاضها. ومن جملة هذه التناقضات مايلي:

1-إن ميثاق الجزائر، عندما يتحدث عن بنية المجتمع واتجاهه، يذكر أن "نواة برجوازية أكثر أهمية قد تشكلت في نهاية مائة وثلاثين سنة من الاستعمار، من كبار التجار وبالأخص من كبار ومتوسطي ملاك الأراضي، ولم تكن الفئات البرجوازية بمعناها الحقيقي تتجاوز 2.5% من عدد السكان العاملين[1] ويرى أن هذه البرجوازية كانت مؤثرة في الميدان الاقتصادي" وكان لها نفوذ أيديولوجي وثقافي وسياسي في أوساط العمال والفلاحين[2].

إن هذا الكلام يتناقض في جوهره مع ماورد في الباب الخاص بالأسس الإيديولوجية للثورة الجزائرية والذي جاء فيه "إن الكفاح من أجل انتصار المبادئ الديمقراطية قد تغلغل بين الجماهير وحفز عملها وحدد سلوكها وآفاقها ومن خلال المقاومة المسلحة ضد الامبريالية الفرنسية أصبحت الجماهير واعية بقوتها وقدرتها على حل مشاكلها بنفسها[3]. فإذا كان الأمر قد وصل فعلاً إلى هذا الحد، فإن تأثير البرجوازية غير ذي بال خاصة وأن التحليل يتعلق بفترة زمنية واحدة هي نهاية النظام الاستعماري.

2-إن ميثاق الجزائر يؤكد على ضرورة إبراز الديمقراطية الاشتراكية بواسطة الإدارة الفعالة التي تراقبها الجماهير، وفي نفس الوقت يعترف أن الدولة الجزائرية "احتفظت بالهياكل الإدارية التي أقامها الاستعمار من أجل تأطير اقتصاد ليبرالي تترك فيه الوظيفة الاقتصادية لمالكي وسائل الإنتاج والمقاولين ومثقفي المهن الحرة[4].

وإذا كان ميثاق الجزائر يعترف للبرجوازية، على ضآلة نسبتها، بتأثيرها البالغ أيديولوجياً وسياسياً وثقافياً في أوساط الجماهير الشعبية، فكيف يمكن التصديق بأن هذه الأخيرة سوف تتمكن من مراقبة الإدارة التي أنشئت في أساسها لتكوين أداة مناهضة للسياسة الاشتراكية.

---

[1] نفس المصدر، ص38.

[2] نفس المصدر، ص39.

[3] نفس المصدر، ص36.

[4] نفس المصدر، ص39.

3-يرى ميثاق الجزائر أن إبراز الديمقراطية الاشتراكية يكون، كذلك "بواسطة هيئات شعبية حميمية تسيّر بلديات ديمقراطية[1]. لكن هذه الهيئات الشعبية مدعوة، لتأدية دورها، إلى استعمال البيروقراطية الإدارية التي تشكل أكبر حكر على التكور الاشتراكي والديمقراطي للثورة[2] وذلك بوصفها قوة اجتماعية سهر الاستعمار على تكوينها لتأبيد سيطرته وللقيام بدور اقتصادي يتلاءم فقط مع مصالحه.

4-يؤكد ميثاق الجزائر أن "الجماهير الكادحة في المدن والأرياف قادرة على قهر الصعوبات الناشئة على مقاومة وتخريب القوى المناهضة للاشتراكية[3]. ومما لاشك فيه أن هذا التأكيد يعبر عن مدى الوعي الذي تتحلى به تلك الجماهير لتكون في مستوى المهمة المسطورة لها. لكن الميثاق يذكر في نفس الصفحة "أن الكفاح من أجل انتصار الاشتراكية لايجري بطريقة منسجمة وأن التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ناجمة عن المستوى المنخفض للقوى الإنتاجية وتأخر الوعي الاجتماعي للعمال والتشويهات البيروقراطية لجهاز الدولة وضعف تمركز النقابات والحزب[4]. فكيف يمكن للجماهير الكادحة أن تقهر الصعوبات وهي تعاني من تأخر الوعي الاجتماعي ومن التشويهات البيروقراطية التي يقوم بها جهاز الدولة.

5-إن ميثاق الجزائر يجعل في مرتبة واحدة الحزب والحكم الثوري في الجزائر، وإذا كان الحزب معرفاً بواسطة نظامه الداخلي وقانونه الأساسي ومن خلال مشروع المجتمع الذي يعمل على تجسيده على أرض الواقع، فإن الميثاق اكتفى بالنسبة للحكم الثوري بقوله: "إنه المدافع عن مصالح الفئات الكادحة المشكلة لقواعده الاجتماعية، ولذلك فهو لابد أن يصطدم بالفئات ذات الامتيازات التي تضم من جهة، أولئك الذين يملكون وسائل الإنتاج ومن جهة ثانية البرجوازية البيروقراطية[5].

فإذا كانت الفئات الكادحة هي القواعد الاجتماعية للحكم الثوري، فما هي القواعد الاجتماعية لحزب جبهة التحرير الوطني الذي تنص المادة الثانية من نظامه الداخلي على أنه "يستمد قوته من الجماهير الفلاحية، والجماهير العاملة

---

(1) نفس المصدر، ص41.
(2) نفس المصدر
(3) نفس المصدر، ص42.
(4) نفس المصدر، ص43.
(5) نفس المصدر، ص41.

ومن المادة الثانية من نظامه الداخلي على قائد الشعب في المعركة من أجل الاستقلال التام والاشتراكية والديمقراطية ومن أجل السلم الذي هو مربوط بمقتضيات تحرير الشعوب[1].

وبالإضافة إلى هذه المغالطات التاريخية والتناقضات السياسية، فإن ميثاق الجزائر قد عبر عن طموحات غير مشروعة لأنها طموحات لجنة صياغته لاغير. ولأنه يدعو، لتحقيقها إلى اعتماد أداة لم يوفق في تعريفها بالوضوح اللازم.

أما عن الطموحات اللامشروعة فإن الميثاق يذكر أن الشعب الجزائري "وجد نفسه، قبيل الاستقلال وبعد حرب تحريرية طويلة، مدعواً إلى اختيار النظام الأنسب لخصائصه من أجل تنظيم حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وبما أن ثورتنا كانت، منذ ميلادها، ديمقراطية وشعبية بأوسع معاني الكلمة، فإن الجماهير الكادحة قد فتحت الطريق الموصلة إلى بناء مجتمع قائم على المبادئ الاشتراكية[2]. فإن هذا المؤتمر الأول للحزب "يجب أن يكون أول نوفمبر جديد، أول نوفمبر الاشتراكية[3].

كل هذه التنصيصات غير صحيحة، لأن الشعب لم يشترك في عملية اختيار النظام الأنسب لتنظيم حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولأن إقرار الثورة الاشتراكية لم ينطلق من تحليل معمق للواقع الذي كان عليه الشعب الجزائري، ولا من تقييم موضوعي لمختلف المراحل التي قطعتها ثورة أول نوفمبر.

وأما عن الأداة التي لابد منها لانتصار الثورة الاشتراكية في الجزائر، فإن ميثاق الجزائر يحصرها في حزب جبهة التحرير الوطني الذي ينبغي أن يكون طلائعياً ومن تركيبة اجتماعية قوامها الفلاحون والعمال والمثقفون الثوريون.

وإذا كان هناك اختلاف في التسمية بين الحزب في برنامج طرابلس وفي ميثاق الجزائر، إذ الأول جماهيري والثاني طلائعي، فإن التركيبة الاجتماعية لم تتغير وفي ذلك أكبر دليل على عدم جدية المنظرين، وسوف نرى أن عدم الحسم في مثل هذه الموضوعات الهامة هو الذي سيمنع حزب جبهة التحرير الوطني من تأدية دوره على الوجه الأكمل وهو الذي سيؤدي به إلى التحول

---

(1) *نفس المصدر، ص121.*
(2) *نفس المصدر، ص14.*
(3) *نفس المصدر، ص171.*

شيئاً فشيئاً إلى جهاز إداري تابع للإدارة في أحسن الحالات.

وبعد اختتام المؤتمر الأول للحزب ودراسة مختلف اللوائح والمقررات الصادرة عنه، يحق لنا القول: إن الأيديولوجية لجبهة التحرير الوطني قد جمدت عملياً غداة استرجاع البلاد سيادتها الوطنية، وأن الجزائر قد انطلقت، في جمع عملية البناء، بأيديولوجية جديدة هي، نظرياً، الأيديولوجية الاشتراكية.

الخاتمة

إن الذين تعاملوا ويتعاملون مع تاريخ الثورة الجزائرية، حتى الآن، لم يفعلوا ذلك إلا وكأنهم يؤرخون لحرب تحريرية أو لأحداث دموية، أو لشكل من أشكال الحرب الأهلية التي ليست لها منطلقات أيديولوجية واضحة، بل إن معظم من كتب إلى يومنا هذا، لايقرون بوجود ايديولوجية خاصة بجبهة التحرير الوطني، وأكثر من كل ذلك، فإن ثلة من إطارات الدولة الجزائرية أنفسهم وممن تقلدوا مناصب سياسية عليا يسيرون في هذا الاتجاه ويدعمون هذا الادعاء.

وإذا كان يقبل من المؤرخين والمفكرين والسياسيين أن ينكروا على جبهة التحرير الوطني كونها حركة سياسية أصيلة تمتلك مشروع مجتمع متكامل، مغاير، تماماً لصورة المجتمع الذي أقامته فرنسا الاستعمارية، فإن ذلك مرفوض من الجزائريين الذين يفترض فيهم أن يكونوا أكثر إدراكاً لحقيقة مايجري في بلادهم وأقرب إلى فهم غيرهم خاصة إذا كان هؤلاء ينطلقون من موقع المدافع عن المصلحة العليا لوطنهم.

فالمثقفون الفرنسيون وفي مقدمتهم المؤرخون يعرفون في قرارة أنفسهم، إن الحركة الوطنية الجزائرية قبل سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف، كانت تنطلق من أيديولوجيات متقاربة جداً وأنها جميعاً تتناقض مع الواقع الاستعماري، لكن مصلحة فرنسا لاتمكن في العمل على بلورة ذلك التقارب حتى لاتتشكل الوحدة التي تقود إلى تعبئة الجماهير الشعبية من أجل استرجاع السيادة الوطنية، ولذلك، فإنهم كانوا، بكتاباتهم المتنوعة، يهدفون، بدلاً من البلورة، إلغاء ذلك التقارب بإبراز الاختلاف الصارخ الذي يميز الوسائل المعتمدة من طرف كل تشكيلة سياسية وطنية لتقويض أركان الاستعمار، وبالتركيز على توسيع الهوة بين التيارات السياسية الوطنية العاملة على الساحة الجزائرية، لايثنيهم شيء عن العمل من أجل تحقيق ذلك، ونظراً لسيطرتهم على مختلف الكليات التي تستقبل الإطارات الجزائرية في مرحلة مابعد التدرج

الجامعي، فإنهم قد ضمنوا استمرارية فكرهم بواسطة الأقلام الوطنية.

ولقد شاهدنا، في الربع الأخير من هذا القرن، تقاسم الأدوار بين العسكريين والسياسيين الفرنسيين، الذين جردوا أقلامهم لتقديم تاريخ فترة الكفاح المسلح في شكل مذكرات وشهادات حية تحاول تجريد الحركة الجهادية في الجزائر من كل مقوماتها، وبين المؤرخين الذين أصبحوا يوظفون تلامذتهم الجزائريين لتقرير آرائهم التي لاتختلف في جوهرها عن آراء العسكريين والسياسيين المذكورين آنفاً.

هكذا وقع غزو المكتبات الجزائرية بمطبوعات تتفق في معظمها على أن ماوقع في الجزائر ابتداء من ليلة الفاتح من نوفمبر سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف لم يكن ثورة بل مجرد حرب تحريرية استهدفت الحصول على الاستقلال الوطني[1]. وإذا كان هذا التعبير يبدو بريئاً، في ظاهره، فإنه، في الواقع، يتجاوب مع أهداف المدرسة الاستعمارية التي ترمي إلى إجهاض الثورة التحريرية من جهة وإلى تبرير الغزو الاستعماري من جهة ثانية. وبالفعل. ورغم مقاومة بعض الأقلام الوطنية، فإن التعبير المذكور قد أصبح هو السائد سواء في معظم الأبحاث العلمية أو حتى في أغلبية الوثائق الرسمية، وأكثر من ذلك، فإن استرجاع الاستقلال الوطني، وهو التعبير الصحيح[2]، لم يتحقق، في منظور تلك الكتابات، بفضل ماقدمه الشعب الجزائي من تضحيات جسام في إطار حركة جهادية شاملة قادتها جبهة التحرير الوطني، لكنه جاء نتيجة حتمية تاريخية وبفضل تفهم الجنرال ديغول، ومن ناحية أخرى، فإن "العروبة والإسلام لا دخل لهما في تحرير الجزائر"، ومن هذا المنطلق فإن الدولة الجزائرية التي تقام بعد "الحصول" على الاستقلال يجب أن تكون لائكية ومتوجهة نحو الغرب المسيحي عبر حضارة البحر الأبيض المتوسط.

فلدحض كل هذه المزاعم الزائفة، شرعنا في إنجاز هذه الدراسة التي قادتنا بالتدريج إلى تسليط الأضواء على العديد من المواضع الغامضة وإلى الخروج للقراء بمجموعة من الاستنتاجات التي لاتثبت وجود مشروع مجتمع خاص

---

[1] *TRIPPER (PHILIPPE) AUTOPSIEDE LA GUERRE D'ALGERIE. P.54 et suivantes.*

[2] *إن استعمال: الحصول على الاستقلال يثبت الموقف الاستعماري القائل: إن فرنسا في الجزائر لم تعتد على دولة قائمة بذاتها ولكنها جاءت لإنقاذ مجموعة من القبائل كانت تعاني من سيطرة الاحتلال التركي. والاستعمار الفرنسي هو الذي ساعد على تكوين الأمة الجزائرية من مجموعة من العناصر أهمها: العرب والبربر والأوربيون واليهود.*

بجبهة التحرير الوطني فحسب ولكنها تكشف، أيضاً، عن وجود مؤامرة كبرى شرع في تنفيذها منذ ماقبل وقف إطلاق النار قصد إجهاض الثورة وإفراغها من محتواها الحقيقي، وفيما يلي نوجز أهم هذه الاستنتاجات:

1-أن جبهة التحرير الوطني بنت شرعية لنجم شمال أفريقيا[1]، ولم تكن أيديولوجيتها، عشية بدء الكفاح المسلح سوى نفس أيديولوجية النجم التي راجعتها وآثرتها مؤتمرات حزب الشعب الجزائري وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية.

ولقد كانت هذه الأيديولوجية، منذ صياغتها الأولى، بينة، واضحة المعالم تنطلق من واقع الشعب الجزائري فتضبطه بدقة ثم تحدد سبل تغييره وتضع الخطوط العريضة للمجتمع الجديد المزمع بناؤه بعد التخلص من الهيمنة الأجنبية.

أما واقع الشعب الجزائري المشار إليه فتميزه أوضاع الظلم والتعسف والاستبداد والاستغلال المفروضة على الجماهير الشعبية بواسطة قوانين و أوامر لاتخضع لأي منطق[2]، بل همها فقط خدمة مصلحة غلاة المعمرين الذين يجمعون بين أيديهم الأراضي الخصبة والأموال الطائلة والسلطة المطلقة، ويتميز ذلك الواقع، أيضاً، بوجود أصناف من الجزائريين فطموا على حب الاستعمار، وتشبع جزء منهم بأفكاره فصاروا يطالبون بالمساواة الموهومة مع الأوربيين تارة أخرى، ولإبقاء هذه الأصناف تعيش على الأوهام وتجري وراء الأحلام، كانت السلطات الاستعمارية تصدر من حين لآخر قانوناً إصلاحياً يبقى حبراً على ورق بسبب معارضة الكولون له.

وزيادة على كل ماتقدم، فإن واقع الشعب الجزائري يعني كذلك أمية أكثر من 90% من السكان، وتجهيلاً منظماً من أجل فصل المجتمع الجزائري عن أسسه التاريخية ومنطلقاته الحضارية، وبطالة فعلية بالنسبة للأغلبية الساحقة من المواطنات والمواطنين، واغتصاباً متواصلاً لملكية الأعراش والأفراد.

وإذا كان هذا هو الواقع، فإن سبل تغييره تمر حتماً بضرورة العمل على تقويض أركان الاستعمار الذي يؤبد حالة التبعية ويسد طريق التطور والتقدم في وجه الشعب الجزائري، وفي هذا المجال، فإن توجيه نجم شمال أفريقيا واضح للغاية إذ تدعو إلى استعمال جميع الوسائل الممكنة للقضاء على النظام

---

(1) الملحق رقم3.

(2) انظر الباب الثالث، حيث تفاصيل الأسس التاريخية لجبهة التحرير الوطني.

الاستعماري، ويرى أن الكفاح المسلح يأتي في مقدمة هذه الوسائل، لأن التاريخ القريب أثبت أن غلاة المعمرين لايفهمون سوى لغة العنف لكن الكفاح المسلح وحده لايكفي، ولذلك يجب أن يكون مشفوعاً بعمليات واسعة النطاق لتوعية الجماهير الشعبية بحقيقة الواقع المفروض عليها ولتكوينها سياسياً بحيث تسهل تعبئتها في الوقت المناسب ففي هذا الإطار، تجدر الإشارة إلى فتح المدارس الحرة لاستقبال ماأمكن من أبناء المواطنين قصد تعليمهم مبادئ اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا ومن أجل غرس الروح الوطنية في نفوسهم[1]، وإلى تكوين فروع الكشافة الإسلامية في مختلف أنحاء الوطن وإنشاء الجمعيات الخيرية لمواساة الفقراء والمساكين ولتكوين قنوات مفتوحة في اتجاه الجماهير الشعبية الواسعة، أما أكبر إنجاز فيبقى هو تأسيس المنظمة الخاصة التي أسندت لها مهمة تكوين المناضلين الشباب تكويناً عسكرياً وأيديولوجياً استعداداً لخوض المعركة الحاسمة.

وعلى إثر استرجاع الاستقلال الوطني وإجلاء قوات الاحتلال، فإن الجزائر تشكل حكومة ثورية وتنشئ جيشاً وطنياً مباشرة بعد انتخاب المجلس التأسيسي بواسطة الاقتراع العام، وفي الجزائر المستقلة تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية وتستعيد الدولة جميع البنوك والمناجم والسكك الحديدية والموانئ والمصالح العمومية التي كانت مغتصبة من طرف الغزاة، كما أنها تصادر الملكيات الكبيرة التي استحوذ عليها الإقطاعيون والمعمرون والجمعيات المالية، وتوزعها على الفلاحين الصغار مع احترام الملكية الصغيرة، والمتوسطة واسترجاع الأراضي والغابات التي استولت عليها الدولة الفرنسية، وفي مجال آخر، يكون التعليم مجانياً وإجبارياً وعربياً في جميع المراحل، وتعترف الدولة الجزائرية لمواطنيها بالحقوق النقابية وتكوين التنظيمات العمالية وتنظيم الإضرابات وتسن القوانين الاجتماعية، وتقدم المساعدات الفورية للفلاحين وذلك في شكل قروض معفاة من دفع الفوائد تخصص لشراء الآلات والبذور والأسمدة ولتنظيم الري وتحسين المواصلات إلى غير ما تحتاج إليه الزراعة العصرية لأن الجزائر بلد زراعي بالدرجة الأولى.

وخلاصة القول، فإن مشروع المجتمع الذي وضعه نجم شمال أفريقيا والذي جاءت جبهة التحرير الوطني لتجسيده على أرض الواقع، يحمل في طياته دعوة إلى العمل من أجل القضاء على واقع يثقل كاهل الشعب الجزائري

---

(1) انظر الفصل الثالث من الباب الأول.

وذلك دون التوقف عندما يسمى بالقواعد الأخلاقية أو الشرعية الوسائل أو عند أية حقيقة غير حقيقة العمل، وإلى استرجاع الاستقلال الوطني ليس كحادث متوقع ومرغوب فيه وكاف ولكن كحادث أكيد وضروري يندرج في إطار تسلسل تاريخي من أجل إنجاز ثورة شاملة تؤدي إلى تغيير الجزائر تغييراً جذرياً في هياكلها وهيآتها وفي ثرواتها الطبيعية والبشرية، وتستهدف تحرير الأرض وتحرير الإنسان باعتبار العمليتين متكاملتين ولايمكن لإحداهما أن تتم بدون الأخرى.

2-إن أيديولوجية الحركة المصالية تلتقي في خطوطها العريضة مع باقي الأيديولوجيات الوطنية التي كانت سائدة في الجزائر قبل سنة أربع وخمسين وتسع مائة وألف، لكنها تختلف معها حول مجموعة من النقاط الجوهرية التي يأتي في مقدمتها الكفاح المسلح كوسيلة لابد منها لاسترجاع السيادة الوطنية.

3-إن الحزب الشيوعي الجزائري لم يكن حركة وطنية، بل تنظيماً تابعاً للحزب الشيوعي الفرنسي وحريصاً على تطبيق تعاليم الذين تدعو الأممية الشيوعية إلى عدم الانضمام إلى الحركات الثورية في المستعمرات. وعلى هذا الأساس، ظل محافظاً على كيانه المستقل ورافضاً الذوبان في جبهة التحرير الوطني حتى كان وقف إطلاق النار.

ومما لاشك فيه أن ثمة عوامل كثيرة منعت الحزب الشيوعي الجزائري من أن يصبح تشكيلة سياسية وطنية وفي مقدمتها سيطرة العنصر الأوروبي على الهيئات القيادية ثم أيديولوجيته التي ترفض الاعتراف بثورية الفلاحين الجزائريين وتؤمن باستحالة تحرير الجزائر قبل انتصار البروليتاريا في فرنسا.

إن هذه الحقيقة لم تمنع بعض الشيوعيين الجزائريين من، الالتحاق فرادى بصفوف جبهة التحرير الوطني، قد جاء في وثيقة وادي الصومام أن ذلك الالتحاق لم يكن بريئاً في غالب الأحيان، إذ كانت القيادة الوطنية تهدف إلى توظيف أولئك العناصر في فترة مابعد استرجاع الاستقلال الوطني، ولقد تبين، بعد اتفاقيات أيفيان، أن تحليل مؤتمري وادي الصومام كان صحيحاً، لأن الشيوعيين الذين شاركوا في الثورة سرعان ما انفصلوا عن جبهة التحرير الوطني وراحوا يعملون مع رفاقهم على التآمر ضدها مما جعل الرئيس أحمد بن بلة يصرح قائلاً "إننا لانريد اتخاذ إجراءات المنع ضد الحزب الشيوعي الجزائري لكننا نرى أن نشاطه يتناقض مع مصلحة البلاد ولايعتمد إلا على الديماغوجية" إننا لانعترف للشيوعيين بحق التقييم لأنهم لم يقوموا بشيء يذكر

في سبيل تحريرنا"[1].

وعلى الرغم من عدم المشاركة الفعلية في ثورة التحرير، فإن الحزب الشيوعي الجزائري قد تمكن، بواسطة مجموعة من إطاراته المندسين في صفوف جبهة التحرير الوطني في الخارج، من العبث بالنصوص الأساسية وجعل الانحراف الأيديولوجي يصبح حقيقة ملموسة ابتداء من الدورة الثانية للمجلس الوطني للثورة الجزائرية[2].

4- إن مؤتمر وادي الصومام لم يكن انحراف كما يدعي البعض، بل كان منعطفاً حاسماً في تاريخ الثورة. وقد تمكن بحكمة وذكاء كبيرين من إثراء أيديولوجية جبهة التحرير الوطني انطلاقاً من تقييم واقعي للمرحلة المقطوعة منذ أول نوفمبر عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف، واعتماداً على الإمكانيات الوطنية بالدرجة الأولى. وكانت أهم عناصر الإثراء هي:

أ-إقرار مبادئ القيادة الجماعية وأولوية الداخل على الخارج والسياسي على العسكري.

ب-تزويد الثورة بهيآت قيادية عليا وموحدة.

جـ-فتح المجال أمام الإطارات المتشبعة بأيديولوجيات وطنية أخرى غير أيديولوجية جبهة التحرير الوطني لتولي مسؤوليات قيادية على جميع المستويات، وذلك حتى يحال بينها وبين السلطات الاستعمارية التي قد تلجأ إلى توظيفها ضد الثورة. ولكي يتحقق الإجماع الوطني حول مبدأ الكفاح المسلح من أجل استرجاع السيادة الوطنية المغتصبة.

د-توحيد النظام العسكري بالنسبة لجميع الولايات.

هـ-وضع الخطوط العريضة لهيكلة جميع شرائح المجتمع الجزائري قصد ضمان مشاركتها الفعلية في العمل الثوري بجميع أنواعه وعلى كل مستوياته.

و-ضبط السياسة الخارجية للثورة.

ز-تأكيد شروط التفاوض مع العدو، وهي نفس الشروط المنصوص عليه في بيان أول نوفمبر مع توضيحات بالنسبة لتعيين المفاوضين الذين

---

[1] *BUY (francoid) LA REPUBLIIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIOQUE ET POPULAIRE DIFFUSION LA LIBRAIRIE FRANCAISE. PARIS 1965.P 50 ET SUIVANTES.*

[2] *لمزيد من التفاصيل حول الموضوع، انظر الفصلين الثاني والثالث من الباب الثالث.*

لايمكن أن يكونوا من غير جبهة التحرير الوطني الممثل الوحيد الشرعي للشعب الجزائري، وبالنسبة لوحدة التراب الوطني التي تحتفظ بالحدود المسطورة عشية اندلاع الثورة بما في ذلك الصحراء.

5-إن الحكومة الفرنسية المتتالية قد حاولت، بجميع الوسائل، إرغام جبهة التحرير الوطني على تعديل مواقفها الأساسية لكنها لم تفلح. وبهذا الصدد تجدر الإشارة إلى مساعي قيمولي وإيكارفوز وأخيراً الجنرال ديغول.

6-إن جزءاً هاماً من أيديولوجية جبهة التحرير الوطني قد تجسد على أرض الواقع خلال فترة الكفاح المسلح ويتمثل ذلك في الانقلاب الجذري الذي حصل في ذهنية المواطنين والمواطنات وفي التمكن من توعية الجماهير الشعبية وتعبئتها من أجل تحقيق الأهداف المسطورة في النصوص الأساسية للثورة.

7-إن جبهة التحرير الوطني قد تمكنت من تزويد الشعب الجزائري بمؤسسات قارة وهياكل اقتصادية ثابتة وإدارة وطنية وتسيرها مجالس شعبية منتخبة ديمقراطياً كما أنها أنشأت مجالس القضاء والصحة والتعليم بالطريقة التي تضمن الثورة لكن اتفاقيات إيفيان حملت في طياتها بذور الإجهاض لكل ذلك.

8-إن الانحرافات الأيديولوجية قد ظهرت عندما أعطيت لمجموعة من المثقفين المعروفين بنزعتهم الماركسية فرصة التجمع بتونس في إطار أسرة تحرير اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني،، فراحوا يفلسفون الثورة انطلاقاً من مشاربهم الفكرية والثقافية غير آبهين بواقع الشعب العربي المسلم في الجزائر.

وإذا كانت تلك الانحرافات قد ظهرت بكيفية محتشمة سنة ستين وتسعمائة وألف من خلال النصوص التي صادق عليها المجلس الوطني للثورة الجزائرية خلال الدورة التي دامت أشغالها في طرابلس من يوم 1959/12/16 إلى يوم 1960/1/18، فإنها تجذرت بواسطة برنامج طرابلس الذي أعلن على الورق انتقال الثورة الجزائرية من ديمقراطية اجتماعية في إطار المبادئ العربية الإسلامية إلى ديمقراطية شعبية لاتكون متناقضة مع المبادئ الإسلامية.

9-إن برنامج طرابلس قد حافظ على كثير من الخطوط العريضة لأيديولوجية جبهة التحرير الوطني، لكنه وضع إلى جانبها مفاهيم ومصطلحات جديدة منقولة عن الأيديولوجية الماركسية ولا علاقة لها بحقيقة الثورة وواقعها

في الجزائر. ولقد أدى ذلك بالتدريج لجعل الجماهير الشعبية تتخلى شيئاً فشيئاً عن التزاماتها تجاه جبهة التحرير الوطني إذ لم تعد تجد نفسها في مشروع المجتمع المعبر عنه بواسطة البرنامج المذكور.

10- إن انتقال الثورة الجزائرية من ديمقراطية اجتماعية في إطار المبادئ العربية الإسلامية إلى ديمقراطية شعبية اشتراكية لم يحصل إلا على الورق ولم يأخذ في الاعتبار ضرورة أولوية الجماهير الشعبية الواسعة واشتراكها في اتخاذ القرار حتى تشعر بمسؤوليتها على الإسهام بفعالية في تطبيقه.

11-إن ميثاق الجزائر، بدلاً من أن يضع حداً للانحراف، فإنه عمل على تعميقه بواسطة ما أضافه من مغالطات تاريخية وفكرية وانطلاقه، في إثراء برنامج طرابلس من تقييم سطحي للواقع الجزائري غداة استرجاع الاستقلال الوطني، ومن اعتماد دراسات نظرية لاعلاقة لها بطموحات الشعب العربي المسلم في الجزائر.

فالقرار المتعلق ببعث الثورة الاشتراكية في الجزائر والذي صادق عليه المؤتمر الأول لحزب جبهة التحرير الوطني المنعقد في فترة مابين السادس عشر والواحد والعشرين من شهر أبريل سنة أربع وستين وتسعمائة وألف لم يكن متوقعاً من طرف المناضلين ولامنتظراً من قبل الجماهير الشعبية الواسعة، لقد كان، فقط، استجابة لرغبة بعض المثقفين المتشبعين بالفكر الماركسي والبعيدين كل البعد عن واقع الشعب.

12-إن ترسيخ الانحراف الأيديولوجي قد ترتب عليه تجميد القواعد المناضلة وتحييد الجماهير الشعبية. ولقد كان على القيادة السياسية لجبهة التحرير الوطني أن تعتمد قبل كل شيء، إلى تكوين الإطارات والمناضلين فكرياً وثقافياً ثم تسند إليهم مهمة رفع مستوى الوعي لدى الإنسان الجزائري قصد إعداده للدخول إلى مرحلة جديدة من مراحل البناء ذلك أن المواطن لايعرف نوع وطبيعة البناء المطلوب منه المساهمة في تشييده فإنه يكون عاجزاً عن القيام بدوره وغير مهتم بما يجري من تغيير حوله.

13-إن عدم التصدي للانحراف الأيديولوجي وعدم التفطن إلى ضرورة تزويد إطارات جبهة التحرير الوطني ومناضليها بالتكوين الفكري والسياسي اللازم لتأدية مهامهم في ميادين التوجيه والتخطيط والرقابة والتوعية هما اللذان أديا بالتدريج إلى تهميش الجماهير الشعبية وإلى إجهاض ثورة نوفمبر بواسطة الأحداث التي وقعت في اليوم الخامس من شهر أكتوبر سنة ثمان وثمانين

وتسعمائة وألف.

14-على الرغم من انعقاد المؤتمر الأول للحزب وانتخاب اللجنة المركزية والمكتب السياسي، والمصادقة على القانون الأساسي والداخلي، وعلى كثير من المقررات واللوائح القيمة: وعلى الرغم كذلك، من إيجاد برنامج عمل دقيق وواسع، وتسليط كثير من الأضواء على بعض المفاهيم الغامضة، ومحاولة وضع سلّم إجمالي لتوضيح العلاقات بين مختلف هيئات الدولة وأجهزتها، رغم كل ذلك فإن الوضع لم يتغير؛ إطلاقاً، بل إن انفضاض المؤتمر كان منطلقاً جديداً لمزيد من التناقضات والمشاكل الوطنية التي ترجع في أساسها إلى مجموعة من الأسباب التي يمكن تلخيصها كالآتي:

أ-إن التشكيلة البشرية للهيئات المنبثقة عن المؤتمر لم تكن قادرة على التغيير، فكرياً خاصة، عن مطامح الجماهير الشعبية، بالإضافة إلى كونها، رغم كل ماوقع، لم تتخلص من تناقضات الماضي وسلبياته التي كانت من الأسباب الرئيسية التي فجرت الأزمة السياسية التي عرفتها البلاد بعد الاستقلال مباشرة.

فالتشكيلة على هذا الأساس، تحملت مسؤولية قيادة الثورة قبل أن تتمكن من حل مشاكلها الخاصة، التي لها صلة متينة بالقضايا الوطنية، وزيادة على هذا الداء العضال فإن الأمين العام للحزب كان ضعيفاً جداً أمام جاذبية الزعامة والحكم الفردي، لأجل ذلك، وبمجرد أن تم تنصيب الهيئات المنتخبة، راح يدير المبادئ ويتعسف في تصرفاته مع المؤسسات والإطارات، فاتحاً المجال من جديد لأشباح الخوف وعدم الاستقرار ومستحوذاً على صلاحيات الحزب والدولة من القاعدة إلى القمة، الأمر الذي انتهى، بدون إطالة ومن جديد إلى تكريس سياسة الارتجال في جميع الميادين، وإلى تمييع نتائج المؤتمر وإيجاد كافة المبررات للتغيير بجميع الوسائل.

ب-إن المعارضة، رغم مشاركتها فعلياً في المؤتمر، ورغم كل ماقامت به من مناورات على جميع الأصعدة، وعندما لم تحرز على ماكانت تتأمله من مكاسب في جميع الميادين، وعوضاً عن أن تخضع لمبدأ المركزية الديمقراطية الذي يخضع الأقلية لرأي الأغلبية، فتتخلى عن النزاع لتناضل داخل الأطر الشرعية التي حدّدها المؤتمر، بدلاً من كل ذلك، فإنها لم تلق السلاح وستظل المعارك المتقطعة تهدّد بنشوب الحرب

الأهلية إلى نهاية عام 1964م حيث تمكن الجيش الوطني الشعبي من السيطرة على المناطق المشوّشة.

ج- إن تمكين بعض الماركسيين من الاستيلاء على مناصب حساسة في الحزب وفي الدولة لم يكن من شأنه أن يحدث الثقة والاطمئنان في نفوس مناضلي حزب جبهة التحرير الوطني الذين بدأوا يتذمرون من الوضع وينادون بالتغيير منذ الساعات الأولى التي تلت اختتام أشغال المؤتمر.

د- إن المنظمات الجماهيرية، على الرغم من التغيير، لم تتحول نهائياً، إلى هيئات تستجيب فقط للخاصيات المميزة لكل فئة من السكان، ولضرورة مضاعفة إمكانيات حركة الحزب في عمله الهادف لتعبئة الجماهير من أجل إنجاح الثورة الاشتراكية في الجزائر.

فبدلاً من ذلك، استمرت تلك المنظمات في اعتبار نفسها كياناً سياسياً يمكن أن يستقل بذاته، ومن حين لآخر، صارت تقوم كثيراً ما تخدم أغراض المعارضة، مساهمة بذلك في عملية كبح إدارة المناضلين في التصدي لكل التناقضات المشار إليها أعلاه.

هـ- تعرض العديد من الشخصيات السياسية إلى أنواع من الظلم والاضطهاد، ابتداء من المضايقات والملاحقات وانتهاءً بالوضع تحت الرقابة الجبرية والسجن أو النفي إلى الصحراء، وتدهور الحالة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الأمر الذي أدى إلى تكاثر البطالة وانتشار الفوضى والفساد في جميع المجالات، وانعدام الأمن والاستقرار.

وخلاصة القول، فإن أيديولوجية جبهة التحرير الوطني قد أثريت مرات عديدة خلال الفترة التي حددناها لهذه الدراسة لكنها، تعرضت إلى مجموعة من الاعتداءات التي قادت إلى انحرافها بالتدريج وإلى تجميدها الفعلي من طرف المؤتمر الأول للحزب الذي انعقد بالجزائر في الفترة مابين 16 و 21 أبريل سنة 1964م، وكما لايخفى على أحد، ليس هناك مثل التجميد خنقاً للإبداع وإجهاضاً للتجربة وإفراغاً للنصوص من مضامينها الإيجابية.

وعلى الرغم من كل ذلك، وبعد كل الوقت الذي قضيناه مع النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ونؤكد أن المشروع الذي وضعته ثم أثرته هذه الأخيرة مازال صالحاً لتحقيق المستقبل الأفضل بالنسبة للجزائر، وأن الأهداف

الرئيسية المسطورة فيه لم تتحقق بعد رغم مرور أكثر من ثلاثين سنة على استرجاع الاستقلال الوطني. وبالفعل، فإن الثورة الجزائرية قد استهدفت "محو النظام الاستعماري في الجزائر" بواسطة تحرير الأرض وتحرير الإنسان. ولأن الإنسان الجزائري لم يتحرر بعد، ولأن الأرض في الجزائر مازالت تشكو آثار العدوان الاستعماري عليها، فإننا نعتبر أن نظام الاستعمار الجديد قد وظف عناصره في مجالات التربية والإعلام والثقافة من أجل تكوين إنسان جزائري تابع وعاجز عن الارتقاء إلى مستوى أيديولوجية جبهة التحرير الوطني التي أدار لها ظهره في أول فرصة أتيحت له، وكان ذلك بمناسبة أحداث الخامس من شهر أكتوبر سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وألف

■■■

الفهرس

■■■

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

تاريخ الجزائر المعاصر : دراسة/ محمد العربي الزبيري- دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1999- ج(1)، ج(2)؛ 24سم.

1- 961.5 ز ب ي ت 2- العنوان

3- الزبيري

ع- 2000/8/1338- **مكتبة الأسد**

□□

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

هذا الكتاب

دراســة جادة موحية تبعث على التفكير في مجمل معطيات التاريخ، فــي قطعــة هامــة مــن الوطــن العــربي تحمل تاريخاً نضالياً حافلاً بالانتصارات والتضحيات لتحقيق الديموقراطية، بعد الحرية والاستقلال.

ثمن النسخة ٢٧٥ ل.س في القطر
٣٢٥ ل.س في أقطار الوطن العربي

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشــق

مركز دراسات الوحدة العربية

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري

الدكتور عبد العزيز الدوري

تاريخ العراق الاقتصادي

في القرن الرابع الهجري

مركز دراسات الوحدة العربية

تاريخ العراق الاقتصادي
في القرن الرابع الهجري

الدكتور عبد العزيز الدوري

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
الدوري، عبد العزيز
تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري/
عبد العزيز الدوري.
٣٢٥ ص.
ببليوغرافية: ص ٣٠٥ ـ ٣٢٠.
يشتمل على فهرس.
١. العراق ـ الوضع الاقتصادي ـ التاريخ أ. العنوان
956.702

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ برقياً: «مرعربي»
فاكسيميلي: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الطبعة الأولى: بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٨
الطبعة الثانية: بيروت، دار المشرق، ١٩٧٤
الطبعة الثالثة: بيروت، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

إلى ذكرى وَالدَيّ

المحتويات

مُقَدِّمَة الطَّبعَةِ الثَّانِيَة

كُتبت هذه الدراسة خلال الأعوام ١٩٤٠ - ١٩٤٢، رسالة للدكتوراه، وعُرّبت عام ١٩٤٨، ونُشرت ببغداد دون تغيير.

وفي السنوات التي تلت بدأ الاهتمام يتزايد بتاريخ الإسلام الاقتصادي، وظهرت بحوث علمية تتناول موضوعاً أو آخر، جلّها في هيئة مقالات مع قليل من الكتب الجدية. ومن ناحية أخرى نُشرت بعض المصادر الأولية، كما تيسّر الاطلاع على بعض المخطوطات.

وقد أُجريت على الدراسة تعديلات محدودة عند الضرورة، وأضيفت معلومات جديدة، وأشير إلى المصادر والدراسات الحديثة. ولكنّ الدراسة بقيت في الأساس كما وُضعت.

ولم تبقَ ضرورة للتأكيد على أهمية دراسة الحياة الاقتصادية كجانب حيوي من تاريخ الحضارة وقاعدة لفهم الحركات الاجتماعية ولتوضيح الكثير من التطورات العامة، سياسية وفكرية.

وإن وجد المشتغلون بالتاريخ والاقتصاد في هذه الدراسة ما يحفز على العناية بتاريخنا الاقتصادي فذلك أفضل ما نتوخاه.

عبد العزيز الدوري

١٩٧٤/١/١

تصدير

كان القرن الرابع الهجري فترة حاسمة في تطور الحياة الاقتصادية في العراق في العصور المتوسطة. فقد أدى التغلب البويهي، بالإضافة إلى الاتجاه الطبيعي في التطور، إلى إحداث تبدلات وبدع كثيرة، إذ اتخذ الإقطاع، لأول مرة، صفة عسكرية، وتكاثرت المكوس أو الضرائب غير المشروعة، وحصل التلاعب بالعملة كوسيلة للتوفير، ووصل النظام الصيرفي أوجه في التطور، وظهرت طبقة رأسمالية مهمة، ونشأت حركة منظمة بين الطبقة العاملة.

وقد كان نصيب هذا القسم من التاريخ العربي من العناية ضئيلاً. وما هذه الدراسة إلاّ محاولة لإلقاء بعض الضوء على ناحية معقّدة من نواحي الحياة في فترة مهمة وغامضة.

ويسرني أن أعرب عن شكري لأستاذي البروفسور مينورسكي لارشاداته القيّمة ومساعداته طوال فترة إعداد هذه الرسالة. كما وأشكر الدكتور برنارد لويس، والأستاذ هـ.ا.ر.جب على كثير من الاقتراحات المفيدة.

كمبرج، أيار/ مايو ١٩٤٢

الفصل الأول

العوامل الجغرافية التي تؤثر في تاريخ العراق

«ايه ذا النهر الذي أنتج كل شيء، لقد نشرت الآلهة الخصب على جنباتك حين شقتك».

[دعاء سومري]

أولاً: حدود[1] ما بين النهرين في القرن الرابع الهجري

يقسم الجغرافيون العرب بلاد ما بين النهرين إلى منطقتين: المنطقة الجنوبية ويسمونها «العراق»، والمنطقة الشمالية ويسمونها «الجزيرة»، إلاّ أن معلوماتهم عنهما ليست كافية لدرجة تمكننا من تعيين حدود كل منهما بدقة تامة.

١ ــ العراق، السواد

فهناك ارتباك كثير بشأن مدلول كلمة «العراق» نتيجة وجود كلمة تكاد تكون مرادفة لها وهي «السواد» وتشير إلى منطقة تكاد تساوي العراق. فكلمة سواد تشير في الحقيقة إلى الأراضي الغرينية التي تكوّن عامة أراضي منطقة العراق. ويمكننا أن نقول، استناداً إلى ابن خرداذبه (٢٧٢ هـ/ ٨٨٥ م)، والاصطخري (٣١٨ - ٣٢١ هـ/ ٩٣٠ - ٩٣٣ م)، وابن رسته (حوالى ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م)،

(*) جرى وضع هوامش الكتاب وقائمة المصادر فيه كما وردت في الطبعة الثانية من الكتاب، الصادرة عن دار المشرق عام ١٩٧٤، وذلك بموافقة المؤلف. (المحرر).

(١) لا يقصد بكلمة (حدود) في الأدب الجغرافي العربي، المعنى الحديث (Frontiers) لهذه الكلمة، بل تعني (نهايات) بمعنى الاتساع التام لمنطقة ما (انظر Minorsky, H. A., p. 30) وكانت تستعمل من قبل الجغرافيين العرب لوصف نهايات قطر من الأقطار (ابن خرداذبه، ص ١، H.A., p. 99 and p. 101) أو نهايات منطقة ما. H.A., folio 7a، ابن حوقل، ص ٢٠٩، ص ٢١٠، ص ٢٣٥. ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣٥.

والمسعودي (٣٣٢ هـ/ ٩٤٣ م)، وابن حوقل (٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م)، إن السواد يمتد من العلث وحربى شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً ومن حلوان شرقاً إلى العذيب بجوار القادسية غرباً[٢]. ويتفق سهراب (حوالى ٩٠٠ م) مع الجغرافيين المذكورين، حين يعدد طساسيج السواد، ويضع حده الشمالي ما بين ثلاثة وأربعة فراسخ فوق العلث[٣].

ويتفق المؤلفون في تحديد العراق من الشرق والجنوب والغرب، ويعتبرون حدوده عين حدود السواد، إلاّ أنهم يختلفون في حدوده الشمالية. فالمسعودي يجعلها منطبقة على حدود السواد[٤]. ويحدد الاصطخري وابن حوقل العراق كما يلي: من تكريت شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً، ومن حلوان شرقاً إلى القادسية غرباً، كما أنهما يجعلان حدية في القسم الوسطي بين واسط والطيب، وفي القسم الجنوبي بين البصرة وجُبّى[٥]. ويعتبر المقدسي (٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م) الخط من الأنبار إلى السن حد العراق الشمالي[٦]. ويعرف الماوردي (٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م) السواد بأنه القسم الذي تغطيه «الزروع والأشجار» من العراق. ثم يقع في الخطأ حين يعطي العراق حدود السواد[٧]. ويتابعه في هذا الخطأ كل من الخطيب البغدادي (توفي ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م)[٨] وياقوت الحموي (توفي ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م)[٩]. ولكننا ان صلحنا الماوردي، بتنظيم معلوماته، كان حد العراق الشمالي بلدة الحديثة التي تقع على مسافة اثني عشر فرسخاً[١٠] شمال السن[١١].

٢ ــ الجزيرة

والجزيرة تعني عادة الأراضي التي تحيط بها المياه، ومن هنا فإن المنطقة التي

---

(٢) ابن خرداذبه، ص ١٤، ابن رسته، ص ١٠١ ـ ٥ وص ١٠٧، الاصطخري، ص ٧٨ ـ ٩، المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٣٨ وقد كتبه ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦ م، ابن حوقل، ص ٢٣٤.

(٣) Le Strange, I, p. 20.

(٤) المسعودي ـ التنبيه، ص ٣٨.

(٥) الاصطخري، ص ٧٨ ـ ٩، ابن حوقل، ص ٢٣١.

(٦) المقدسي، ص ١٣٤.

(٧) الماوردي، ص ١٦٦.

(٨) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد، ج ١ (دار الكاتب العربي، بيروت)، ص ١١ ـ ١٢.

(٩) معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧٥.

(١٠) ابن خرداذبه، ص ٩٣.

(١١) الماوردي، ص ١٦٦.

يحدها دجلة والفرات شمال العراق يشملها هذا الاسم. ولكن مفهوم الجزيرة تاريخياً وإدارياً يشمل أراضي تتجاوز النهرين، وهذا يوضح الاختلاف في المصادر حول حدود الجزيرة.

يذكر مؤلف **حدود العالم**، بشكل عام، ان منطقة الجزيرة يحيط بها دجلة والفرات، وهي لذلك تسمى الجزيرة[١٢]. ويبدو الاصطخري أكثر تحفظاً، فهو يبين أن الجزيرة يحدها خط يمر من الانبار إلى تكريت في الجنوب، ثم يسير شمالاً إلى السن والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر حتى آمد، ثم يتجه غرباً إلى سميساط فالفرات الذي يكوّن حدها الغربي. ويضيف إلى ذلك قوله: «وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب إلى الجزيرة وهي خارجة عنها لقربها منها»[١٣]، وهو بهذا يشير إلى الفرق بين المفهوم الشائع للجزيرة وبين المفهوم الفعلي. أما ابن حوقل الذي يتابع الاصطخري عادة، فإنه هنا أكثر وضوحاً من سلفه، إذ يعطي حدود الجزيرة كما يذكرها الاصطخري، ثم يشير إلى قرى ومدن «خارجة عنها ونائية منها»، ويذكر انها تحسب على الجزيرة، ليبين انها تشمل الأراضي بين النهرين ووراءهما[١٤].

ويُدخل ابن حوقل الأراضي على الزابين في الجزيرة[١٥]. ويجعل ابن خرداذبه مدينتي ارزن وميافارقين ـ شمال دجلة ـ من الجزيرة[١٦] بينما يضيف ابن رسته ملطية إليها[١٧]. أما المقدسي فيجعل آمد ثغر الجزيرة الشمالي[١٨].

وهكذا يتبين أن الجزيرة لا تقتصر على الأراضي بين دجلة والفرات، بل تشمل جهات تقع شمال الدجلة ـ ارزن وميافارقين وسعرت[١٩] وأراضٍ تمتد على الضفة الغربية للفرات[٢٠]، وبعض المناطق شرق دجلة على شرقي الخازر وفي ما بين الزابين[٢١].

---

(١٢) حدود العالم، ص ١٤٠.
(١٣) الاصطخري، ص ٧١ ـ ٢.
(١٤) ابن حوقل، ص ٢٠٩، وطبعة كرامرز، ص ١٨٩، وانظر ص ١٥٤.
(١٥) ن. م. طبعة كرامرز، ص ٢٠٥، قارن الاصطخري، ص ٧٦ ـ ٧٨، وانظر ابن جبير، ص ٢٤٨.
(١٦) ابن خرداذبه، ص ٩٧، المقدسي، ص ١٣٦.
(١٧) ابن رسته، ص ١٠٦، قارن بالاصطخري، ص ٧٥.
(١٨) المقدسي، ص ١٣٦.
(١٩) يذكر الشابشتي (الديارات) أن سعرت مدينة كبيرة من ديار ربيعة قرب ارزن. ط ١، ص ١٢٦.
(٢٠) انظر أيضاً: Dillemann, p. 103، المقدسي، ص ١٣٧ ـ ٨.
(٢١) انظر قدامة بن جعفر ـ الخراج، ص ٢٤٦.

والخلاصة، فإن بلاد ما بين النهرين، بمنطقتيها العراق والجزيرة يحدها خط يبدأ من عبادان على الخليج العربي، ويسير شمالاً إلى جُبى فالطيب فحلوان، ثم يتجه وجهة شمالية غربية إلى تكريت ثم السن ثم حديثة ثم الموصل ثم جزيرة ابن عمر ثم ارزن، وبعد ذلك يسير غرباً إلى ميافارقين وآمد وملطية، ثم جنوباً مع الفرات إلى العذيب، ثم شرقاً بعد أن يدور حول البطيحة إلى البصرة فالخليج العربي.

ثانياً: طبيعة بلاد ما بين النهرين

تؤثر البيئة الطبيعية في مصير سكانها، فسكان الجبال يختلفون عن فلاحي السهول، وهؤلاء يختلفون عن الرعاة في الفيافي.

١ ـ الجزيرة

أما أرض ما بين النهرين، فترتفع تدريجياً في الاتجاه الشمالي. فالجزيرة، أو المنطقة الشمالية، سهل تلولي يتراوح ارتفاعه بين مائتين وألف قدم[٢٢]، وتغطي أكثره المراعي[٢٣]. ومع أنها تحوي أراضٍ قاحلة[٢٤]، إلاّ أن مراعيها أوفر من مراعي السواد، وأقدر على إعاشة عدد أكبر من المواشي[٢٥]. وإذا ما قورنت الجزيرة بالسواد، تبين أنها أكثر أمطاراً، وأن زراعتها أقل اعتماداً من زراعة السواد على مياه القنوات[٢٦]. وتجري كل روافد دجلة، باستثناء ديالي، في هذه المنطقة. وتجري الأنهار في وديان عميقة وصخرية على الأكثر، ولكن يمكن بوسائل بسيطة سحب الماء من الروافد إلى الحقول[٢٧]. وهكذا يتضح أن الماء موزّع في أنحاء المنطقة، وهذا هو سبب انتشار القرى والمدن في مختلف أنحاء الجزيرة[٢٨].

إن القسم الأعلى من الجزيرة، شمال سنجار وجبل عبد العزيز، هو في الغالب سهل يصلح للزراعة والرعي، ولذا كان أبداً مسرحاً للتداخل بين البدو والفلاحين. أما

---

(٢٢) طه الهاشمي، ص ٣٢.
(٢٣) Le Strange, II, p. 24.
(٢٤) ابن حوقل، ص ٢٢٧ - ٢٢٩.
(٢٥) سعيد حمادة، ص ١٩.
(٢٦) ن.م.
(٢٧) طه الهاشمي، ص ٣٤ - ٣٥.
(٢٨) ن.م.

البادية جنوب سنجار فكانت مصدر إغراء للقبائل وخاصة في الشتاء، في حين أن منطقة قرجا داغ لا تصلح للزراعة، ولكن مراعيها الصيفية تجتذب البدو وبذلك تهدد القارين.

ولم تكن للجزيرة حدود طبيعية، فالجبال يسهل عبورها في بعض الأماكن، والأنهار والجداول كانت سبل اتصال لا موانع، ولم تكن هناك حدود واضحة بين السهوب والأراضي المزروعة. لذا كانت الجزيرة مفتوحة دائماً لضغط القبائل العربية من الجنوب والغرب. وهناك خط آخر للهجرة إلى الجزيرة من الجبال الكردية والأرمنية في الخريف والشتاء وهذا فتح الباب لهجرة كردية إلى أعلى الجزيرة[٢٩].

٢ ــ السهل الغريني والبطيحة

وتتكون المنطقة الجنوبية، باستثناء البطيحة، من سهل غريني غني يتراوح ارتفاعه بين خمسين ومئة قدم فوق سطح البحر[٣٠]. ولا تكفي الأمطار للزرع، كما أنها تسقط في غير مواسمها[٣١]، وهذا ما يستوجب حفر القنوات، وبنتيجة ذلك اقتصرت السكنى على ضفاف الأنهار وتبع ذلك توزيع المدن والقرى[٣٢]. ثم ان المراعي ليست وافرة، وفترة الخضرة فيها قصيرة، ولذا كانت الظروف غير مشجعة على تربية المواشي[٣٣]. ومن أهم ظواهر هذه المنطقة، انخفاض ضفاف الأنهار مما يؤدي إلى تكرار الفيضانات[٣٤].

أما البطائح (أو البطيحة) فإنها تغمر مساحات واسعة بين واسط والبصرة، إذ تبتدىء في فترتنا من القطر[٣٥] على دجلة ومن جنوب شرق الكوفة وتغمر المجرى

(٢٩) كانت المنطقة الواقعة في النهاية الشرقية من الجزيرة العليا تدعى قبل الإسلام باسم «بيت عربايا» و«باعربايا». ويسمي المقدسي المناطق الرئيسية للجزيرة باسم القبائل العربية الكبرى الثلاثة ـ ديار ربيعة (شرقاً) وديار مضر (غرباً) وديار بكر (شمالاً). انظر .Dillemann, pp. 72 - 88, p. 133 ff، المقدسي، ص ١٣٧، دائرة المعارف الإسلامية، (ط. ١) مادة Kurds، ابراهيم شريف ـ الجغرافية التاريخية للعراق بغداد، جزآن، بلا تاريخ.

(٣٠) Le Strange, II, p. 24، طه الهاشمي، ص ٣٤.

(٣١) سعيد حمادة، ص ١٩، طه الهاشمي، ص ٣٤.

(٣٢) طه الهاشمي، ص ٣٥.

(٣٣) ن.م.، ص ٣٥، قدامة، ص ٢٤٠، ياقوت ـ معجم البلدان، ج ١، ص ٦٦٩، ابن حوقل، ص ٢٣٨.

(٣٤) ياقوت ـ معجم البلدان، ج ١، ص ٦٦٩.

(٣٥) وتقع القطر جنوب واسط مسافة ٢٢ فرسخاً. قدامة، ص ١٩١.

السفلي لكل من دجلة والفرات[٣٦]. ويكثف فيها القصب عدا بعض البقع، ولا يمكن الانتقال فيها إلاّ خلال قنوات ضيّقة بين القصب[٣٧]. وقد كانت مياه البطيحة ضحلة لا تسمح بمرور القوارب النهرية فيها، ولذا استعملت المشاحيف التي تدفع بالمرادي للتنقل فيها[٣٨]. وكان الجو حاراً رطباً[٣٩] موبوءاً بالملاريا[٤٠]. وهناك بعض البقع من الأرض اليابسة مبعثرة في البطيحة، وهي غنية مزروعة تعمرها القرى والأكواخ[٤١].

ويشير ابن رسته إلى الأراضي المرتفعة في البطيحة وإلى بعض الآثار تحت الماء[٤٢]. ويذكر المقدسي بعض مدن البطيحة وقراها مثل العليق والجامدة والحدادية والزبيدية[٤٣]. وفي فترة تالية يذكر ياقوت بعض المدن[٤٤] والقنوات [٤٥] في المنطقة.

وتدعى البقعة الصافية من الماء الخالية من القصب في البطيحة بـ «الهول» أو «الهور»[٤٦]. ويعدد سهراب أربعة أهوار بين القطر ونهر أبي الأسد وهي: بحصّى وبكمصى وبصرياثا والمحمدية. وتوجد قناة تصل هور المحمدية بنهر أبي الأسد الذي يصب في دجلة العوراء[٤٧] ويعطي ياقوت أسماء مختلفة للاهوار الأربع[٤٨].

وتمتد البطيحة في الشمال الغربي إلى جوار الكوفة ونفّر[٤٩]. ويجري الفرات إلى البطيحة جنوبي واسط وإلى الشمال من البصرة[٥٠]. ويتحدث ابن حوقل عن

---

(٣٦) ابن رسته، ص ١٨٥، المسعودي، ج ١ ص ٢٨٨، سهراب، ص ١١٨ - ١١٩؛ Le Strange I, p.1, pp. 28. ويبين سهراب (ص ١١٨) ان دجلة يجري إلى البطيحة في القطر، وان الفرات يجري إليها في نقطة مقابلة، أما ابن رسته (ص ٩٤) فيذكر أن الفرات يجري إلى البطيحة في كسكر.

(٣٧) ابن رسته، ص ١٨٥، Le Strange I, p. 28، المقدسي، ص ١٩، طه الهاشمي، ص ٥١١.

(٣٨) ابن حوقل، ص ٢٣٨.

(٣٩) المقدسي، ص ١١٩.

(٤٠) Le Strange, II, p. 41، طه الهاشمي، ص ٥١١.

(٤١) ياقوت - معجم البلدان، ج ١، ص ٦٦٩، Le Strange, II, p. 41, I, p. 20.

(٤٢) ابن رسته، ص ٩٥.

(٤٣) المقدسي، ص ١٣٤.

(٤٤) ياقوت - معجم البلدان، ج ١، ص ٥٩٤، ج ٢، ص ٣٢، وج ٤، ص ٦٦٤، وص ٩٣٤، وص ٩٧٠.

(٤٥) ن.م.، ج ٢، ص ٩٣٠، ج ٤، ص ٨٤٠، وص ١٠٢٦.

(٤٦) ابن رسته، ص ١٨٥، Le Strange I, p. 28.

(٤٧) سهراب، ص ١٣٥.

(٤٨) ياقوت - معجم، ج ٢، ص ٥٦، وص ١٣٤، ج ٣، ص ٣١١، وص ٥٨١.

(٤٩) ابن حوقل، ص ٢٣٨، الاصطخري، ص٨١ - ٢.

(٥٠) سهراب، ص ١١٨، مروج الذهب، ج ١، ص ٢١٥.

بطائح البصرة[٥١]. ويشير مؤلف حدود العالم إلى بطيحتين في العراق: بطيحة الكوفة وبطيحة البصرة[٥٢]، ويظهر أن هذه المعلومات تشير إلى نهايتي البطيحة[٥٣].

وليس يسيراً تقدير مساحة البطيحة. فيقول ابن رسته (حوالي ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م) أن البطيحة تغمر مساحة من الأرض طولها ثلاثون فرسخاً، أي حوالى مئة ميل، وعرضها مثل ذلك. ويقدر المسعودي أبعادها بخمسين فرسخاً في الطول، ومثلها في العرض[٥٤]. ويقول المقدسي (٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م) في حديثه عن الصليق، وهي من مدن البطيحة المهمة، أنها تقع على هور طوله أربعون فرسخاً[٥٥]. ويكتفي ياقوت (توفي ٦٢٩ هـ/ ١٢٢٩ م) بالقول بأن البطائح تمتد من واسط إلى البصرة[٥٦]. ويقول لسترنج ـ الذي يلخص معلومات الجغرافيين العرب ـ أن البطيحة كانت في العصور المتوسطة تغمر أرضاً طولها مائتا ميل وعرضها خمسون ميلاً[٥٧]. وعلى كل فإن مساحة البطيحة لم تكن ثابتة، لأنها كانت تتوقف على مستوى الفيضانات، وعلى مشاريع تجفيف المستنقعات التي تقوم بها الدولة[٥٨].

إن طبيعة البطيحة وظروف الحياة فيها جعلتها معزولة لدرجة ملحوظة عن الحضارة المجاورة، وجعلت التغلغل فيها عسيراً. لذا كانت ملجأ للصوص وللثوار، ولنا في أخبار الزط (أوائل القرن الثالث/ التاسع) وثورة الزنج (أواسط القرن الثالث/ التاسع) وتمرد عمران ابن شاهين (القرن الرابع/ العاشر) أمثلة واضحة على ذلك[٥٩].

---

(٥١) ابن حوقل، ص ٢٣٨.

(٥٢) H. A., p. 56.

(٥٣) وهذا ما يفهم من ابن رسته، ص ٩٤ ـ ٩٥، سهراب، ص ١١٨ وص ١٢٤، والمقدسي، ص ١٣٤.

(٥٤) المسعودي ـ مروج الذهب، ج ١، ص ٢٢٦.

(٥٥) المقدسي، ص ١١٩.

(٥٦) ياقوت ـ معجم البلدان، ج ١، ص ٦٦٩.

(٥٧) Le Strange, II, p. 26.

(٥٨) انظر قدامة، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، E. I, 2 Art. «Batiha», Le Strange, I, p. 20، والبلاذري ـ فتوح، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤.

(٥٩) البلاذري ـ فتوح، ص ٣٧٥ ـ ٦، ابن الجوزي ـ المنتظم، ج ٥، ص ٨، الدوري ـ العصر العباسي الأول، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠، ودراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ٨٠ وما بعدها، مسكويه، ج ٢، ص ١١٩ ـ ١٢٠، ص ١٣٠ ـ ١٣١ وص ٤٠٩ ـ ٤١٢، ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٦٢ وص ٣٦٨ ـ ٩.

ثالثاً: توزيع المياه في بلاد ما بين النهرين

١ ــ ملاحظات عامة

ويعتبر وجود النهرين ـ دجلة والفرات ـ عاملاً حاسماً في تاريخ العراق. فبرواسبهما الغرينية كوّنا تدريجياً هذه الأرض الغنية التي نسميها السواد. ومنذ أقدم العصور حفزا القبائل الرحالة إلى الانتقال من حياة الرعي إلى حياة الاستقرار وإلى تكوين حضارات جديدة(٦٠). وعليهما يعتمد ارواء المزارع وخاصة في الجنوب، كما أن نظام القنوات يعتمد على مجاريهما وعلى مستوى ضفافهما(٦١).

٢ ــ طبيعة النهرين: تكوين السهل، السواد

يجري دجلة، من منبعه إلى سامراء في مناطق جبلية أو تلولية، وضفافه عالية لدرجة لا يخشى فيها من خطر الفيضان، إلاّ أنها لا تسمح بحفر القنوات(٦٢). ويجري الفرات، بين منبعه والرمادي الحالية في منطقة تلولية أو في صحراء، وقاع النهر واطئة لا تسمح بشق القنوات(٦٣). ولكن دجلة والفرات، يجريان بعد بغداد والرمادي في السهل الغريني المنخفض، فيغمران مساحات واسعة منه في كثير من الأحيان أثناء الفيضانات(٦٤).

وتوجد بعض الاشارات إلى فيضانات في القرن الرابع الهجري. فيذكر ابن العبري أن نهر دجلة فاض سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠ م وغمر الأراضي(٦٥). وفي سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م ارتفعت مياه دجلة وغمرت جزءاً واسعاً من الجانب الشرقي في بغداد، وباب التبه من غربي بغداد(٦٦). وفي سنة ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠ م خربت مياه الفرات سد (قُبين) وطغت على سواد الأنبار وبادوريا حتى المحول(٦٧). ويذكر ابن

---

(٦٠) H. Field, *A. J. Ph. An.*, 1936, p. 51 - 2, East, p. 57.

(٦١) طه الهاشمي، ص ١٢٥.

(٦٢) ن.م.، ص ١٢٩.

(٦٣) ن.م.، ص ١٤٤، و H. Field, *Anthropology of Irak*, 1940, p. 17.

(٦٤) H. Field, *Anth. of Irak*, p. 17; Willcocks, p. 27 - 8، طه الهاشمي، ص ١٣٦ وص ١٤٦.

(٦٥) Bar Hebraeus, p. 162.

(٦٦) ابن الأثير، ج ٨، ص ٥١٠.

(٦٧) الصابي، ص ٤٤٤.

الأثير في حوادث سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١٠ م أن مياه دجلة ارتفعت إحدى وعشرين ذراعاً وغمرت قسماً كبيراً من بغداد والعراق وبثقت بثوقاً كثيرة في السدود(٦٨). ويجمع كافة الجغرافيين العرب على أن البطائح تكونت نتيجة فيضانات النهرين(٦٩). وعلى كلّ فإن البطائح قديمة نسبياً، فالعوامل الجغرافية إضافة إلى النهرين وإلى الأوضاع العامة كانت سبب تكوينها(٧٠).

وتحمل الأنهار كميات كبيرة من الغرين في موسم الفيضان، تاركة قسماً منها في مجاريها(٧١) مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى تلك المجاري. ثم إن ضفاف الأنهار تكون أحياناً أعلى من مستوى السهول المحيطة بها، فإذا ما حصل بثق كبير فيها فقد يؤدي إلى تبديل في مجرى النهر علاوة على فيضان الماء على السهول(٧٢). وتوجد اشارة واحدة إلى تبدل في مجرى دجلة في القرن الرابع الهجري، يذكرها المسعودي في معرض حديثه عن دعوى بين الملاكين على الضفة الشرقية لدجلة وبعض ملاكي الضفة الغربية بين قطربل وبغداد نتيجة تحوّل مجرى النهر. فيقول ان نهر دجلة حوّل مجراه بمقدار سبع ميل خلال ثلاثين سنة(٧٣).

وإلى انخفاض ضفاف دجلة والفرات يعود الفضل في وجود شبكة من القنوات في العراق في القرن الرابع الهجري. فمستوى مياه الفرات بين الفلوجة الحالية(٧٤) وبين الديوانية أعلى من مستوى ماء دجلة بين بغداد وكوت العمارة (أو مادرايا في القرن الرابع الهجري)، وهذا هو سبب وجود عدد من القنوات التي تأخذ مياهها من الفرات وتصب في دجلة في هذه المنطقة(٧٥).

---

(٦٨) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٥٩.

(٦٩) البلاذري (طبعة دي خويه ١٨٦٦)، ص ٢٩٢، قدامة، ص ١٤٠ - ١، ياقوت - معجم البلدان، ج ١، ص ٦٦٩، المسعودي - مروج، ج ١، ص ٢٢٣ - ٦، E. I. Streck, *Art: Batiha*.

(٧٠) انظر E. I. Streck, *Art: Batiha.*

(٧١) Willcocks, p. XII.

(٧٢) *ibid.*, p. XIII، طه الهاشمي، ص ١٤٦، وص ١٤٧، Streck, *Art: Maisan,* in E.I.; Le Strange, II, p. 20 ff and p. 50 - 1.

(٧٣) المسعودي - مروج، ج ١، ص ٢٢٧. وفي القرن الرابع كان نهر دجلة يجري في مجرى الدجيلة الحالية، بينما كان الجزء الأكبر من الفرات يجري في فرعه الشرقي الذي يسميه سهراب سورا الأعلى والذي يسمى الآن شط الحلة. Le Strange, I, p. 16 and p. 9 - 10.

(٧٤) تقع الفلوجة قرب الأنبار العباسية التي تسمى آثارها الآن (العقر).

(٧٥) انظر طه الهاشمي، ص ١٤٧و Willcocks, p. XIII.

ويقسم ابن خرداذبه (٢٧٢ هـ/ ٨٨٥ م) مناطق السواد إلى ثلاث مناطق ريّ، وهي:

١ ـ المنطقة الأولى: وتقع شرق نهر دجلة وكانت تروى من مياه دجلة والنهروان. وتمتد من (الدور) في الشمال إلى النهروان في مادرايا في الجنوب(٧٦).

٢ ـ المنطقة الثانية: وترويها مياه دجلة والفرات، وتتألف من الأراضي الواقعة بين مادرايا في الشمال والبطيحة في الغرب والخليج العربي في الجنوب.

٣ ـ المنطقة الثالثة: وهي أوسع المناطق وأكثرها انتاجاً(٧٧)، وتقع بين النهرين بين الأنبار والدور في الشمال والبطيحة في الجنوب. وكانت تروى بالقنوات المتفرعة عن الفرات، وبنهر الدجيل الآخذ من دجلة(٧٨).

وينفرد سهراب أو ابن سرابيون (حوالي ٩٠٠ م)(٧٩) في الأدب الجغرافي العربي بأوسع وصف وأدقه لأنهار وقنوات العراق. أما الجغرافيون الآخرون، فلا يذكرون ـ باستثناء ياقوت(٨٠) ـ إلاّ معلومات عابرة(٨١).

رابعاً: الموقع الجغرافي

إذا تجاوزنا النطاق الخصب الذي يكونه الدجلة والفرات، وجدنا العراق محاطاً بالصحارى والجبال. فإلى الغرب تمتد بادية الشام، وإلى الجنوب والجنوب الغربي تقع الصحراء العربية، وفي الشمال تقوم جبال طوروس وانتي طوروس، وإلى الشرق تقوم سلسلة زاكروس(٨٢). وقد أدى خصب العراق وغناه إلى أن يكون دائماً مطمح أنظار جيرانه. كما أن عدم وجود موانع طبيعية تحميه جعل البلاد مفتوحة أمام أي هجوم أو تخلّل.

---

(٧٦) ابن خرداذبه، ص ٦ ـ ٧.

(٧٧) انظر ن.م.، ص ٨ ـ ١٤.

(٧٨) ن. م.، ص ٧ ـ ٨.

(٧٩) Le Strange, I, p. 1 - 76, pp. 215 - 335، سهراب، ص ١١٨ ـ ١٣٨.

(٨٠) ياقوت ـ معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٥١ وما يليها، ص ٥٥٥، ج ٣، ص ٨٦٠ وما بعدها، ج ٤، ص ٨٣٠ ـ ٨٥١.

(٨١) ابن حوقل، ص٢٣٥ ـ ٢٣٧، ص٢٤٢ ـ ٣، ابن رسته، ص ٩٣ ـ ٦، N.Kh., p.234-5، الخطيب البغدادي، ص ٦١ ـ ٧١، اليعقوبي، ص٢٣٣ ـ ٢٥٤، ابن الجوزي ـ مناقب بغداد، ص ١٨ وما بعدها.

(٨٢) طه الهاشمي، ص ٣٧، Field, *Arabs of Cent. Irak (Anth Mem.)*, 1935, p. 77.

١ ـ ضغط البادية

والظاهرة الرئيسية في وضع العراق هي ضغط البداوة على المناطق الزراعية، وهي ظاهرة تستند أساساً إلى الظروف المناخية وإلى توزيع المطر. فهناك خطان للمطر في الشرق الأدنى، خط ٢٥٠ ملم وخط ١٠٠ ملم، ويعبر الخط الأول الفرات ماراً جنوب حرّان ثم يعبر الخابور سائراً مع جبل سنجار وينحني إلى الجنوب الشرقي ليعبر نهر دجلة جنوب الموصل ويتابع خط الجبال شرق العراق. وهذا الخط يعد نقطة التقاء عالمي الفلاحين والرعاة وهو يؤشر حد السهوب. أما خط مطر ١٠٠ ملم فيعبر الفرات جنوب دير الزور، ثم يسير باتجاه جنوبي شرقي إلى دجلة بين نهري الزاب الصغير وديالي، ليسير جنوباً فيمر غرب بغداد عابراً وسط السواد إلى الخليج العربي، ويؤشر هذا الخط بداية الصحراء.

إن توزيع المطر كوّن منطقتين خصبتين في الجزيرة(٨٣): الهضبة الشمالية الواقعة جنوب جبال الأناضول وهي منطقة زراعة دائمة(٨٤)، والسهول الممتدة بين جبل سنجار ونهر ديالي عند خانقين وهي غنية بالمراعي وتجذب البدو باستمرار. أما السواد فأكثره خارج هذا الحزام الرطب، ولكن وجود النهرين يمكن ـ عند توفر حكومة قوية ـ من إقامة زراعة نشطة، وذلك بحفر شبكة من القنوات.

وهذا يعني أنه توجد في العراق منطقتان، منطقة زراعية مستقرة، ومنطقة رعوية ريفية، وكلما سرنا نحو خط المئة ملم تخف الزراعة ويتحدد نطاقها، وقد تقتصر على بقع محدودة، حتى لا يبقى مجال إلاّ للرعي وتربية الماشية، وتصبح البيئة شبه بدوية. وهذه الأراضي كانت دوماً تجذب البدو.

إن الظروف المناخية، إذن، تفسّر الدور الكبير للبداوة. فالأراضي الزراعية تكون هلالاً خصيباً ضخماً يحيط ببادية الشام من جهات ثلاث. وهذه البادية ليست صحراء مجردة، فهناك سهوب ووديان وينابيع تنشر الحياة الرعوية النشيطة فيها. ويمتد عالم البدو إلى الجنوب عبر النفوذ والدهناء إلى نجد والجزيرة العربية عامة. وهذه

---

(٨٣) See H. Field, *Am. J. of phys. Anthrop.*, 1956, pp. 45 - 56; J. Weulersse, *Paysans de Syrie et du Proche Orient*, 6e éd., Paris 1946, pp. 31 - 32, pp. 33 - 34, pp. 61 - 66; J.R. Kupper, *Le Rôle des Nomades dans l'Histoire de la Mésopotamie Ancienne*, J.E.S.H.O., II, pp. 113 ff; id. *Les Nomades en Mésopotamie au Temps des Rois de Mari*, Paris 1957. See also G. East, *Geography*, Ch. III, esp., pp. 56 - 7.

(٨٤) طه الهاشمي، ص ٩٠ ـ ٩٥. ابراهيم شريف ـ الجغرافية التاريخية للعراق (جزآن).

الظروف تؤدي إلى ضغط بدوي مستمر على الأراضي الزراعية.

وتبدو العلاقة بين البداوة والأراضي الزراعية في صورة صراع دام. فالجفاف الشديد الذي يهدد بالمجاعة يدفع القبائل الجائعة إلى المناطق المزروعة في حين أن ضعف الدول في هذه البلاد يفتح باب الوادي الخصيب أمام البدو، إلاّ انه يوجد في الظروف الاعتيادية شيء من تبادل البضائع والخدمات بين البدو والزراع. وبالإضافة، هناك تغلغل سلمي مستمر إلى عالم الفلاحين من قبل البدو. فالمجتمع البدوي يتكاثر باستمرار ويعضده في ذلك جوّ الصحراء الصحي، وهذا يجعل موارد الصحراء الضئيلة غير كافية، ويؤدي إلى نزاع بين القبائل الرحالة على الماء والمرعى، مما يحتم على المجموعات الضعيفة أن تترك البادية إلى المناطق الريفية.

وحين تكون الدولة قوية، فإنها تسيطر على طرق التجارة، وتحمي الزراعة والفلاحين، وتوسع نطاق الأرض المزروعة على حساب المراعي، وتحد من حرية البدو ومن مجالهم الحياتي، ولذا يتحتم على البدو أن يلجأوا إلى المناطق الريفية. وبالمقابل فإن الفوضى في السهول تيسّر للبدو حرية الحركة، فتزداد فعالياتهم، وتتقلص الأراضي المزروعة، وقد يتخلى الفلاحون المستقرون حديثاً عن الأرض ليعودوا طوعاً إلى البداوة، فيرتفع المد البدوي ليهدد السهول.

وهكذا نرى، عبر التاريخ، أن ضغط البدو على السهول بشكل هجوم خارجي أو تغلغل داخلي هو الظاهرة الكبرى. وقد كانت هناك فترات هجرات كبيرة أو فترات قتال واشتباك، ولكن البداوة لم تتحرك في موجات متعاقبة على فترات زمنية إلى الهلال الخصيب[٨٥]. فالضغط البدوي كان قائماً في كل وقت، ولكن آثاره لا تظهر قوية إلاّ حين تضعف الدولة، ويتدهور نظام الريّ وترتبك التجارة ويأتي الانهيار، وعندئذ يطغى طوفان البداوة فيتجاوز الحدود ويغمر السهول.

ولم تحدث في القرن الرابع الهجري موجة بدوية كبيرة. ولا تشير المصادر إلى هجرات قبائل جديدة من الجزيرة العربية، ولكن بعض القبائل تظهر أهميتها على مسرح الحوادث خلال هذا القرن، مما يدلّ على أحد أمرين: فاما أن تكون تلك القبائل تضخمت بمجيء جماعات جديدة، أو أن تكون قد دخلت العراق حديثاً.

---

(٨٥) انظر، Caetani, *Studi di storia Orientale*, 2vols, Milano 1911; Becker, *Cambridge Med. Hist.*, 1st ed., II, pp.331-2.

ففي عام ٣٧٨ هـ[٨٦] برزت قبائل المنتفك لأول مرة في الشؤون المحلية، بينما بدأت قبيلة خفاجة دورها الفعال في العراق سنة ٤٠٢ هـ[٨٧]. وكانت حركة قرامطة البحرين مثلاً رائعاً في القرن الرابع لضغط البادية على العراق، فقد نهبوا الكوفة[٨٨] والبصرة[٨٩] وسببوا الكثير من الخراب للسواد حتى الأنبار[٩٠]. واستمر بنو شيبان على غزواتهم المخربة في هذا القرن حتى العشرة السابعة منه في كل من الجزيرة والسواد[٩١]. ولم ينته تخريبهم حتى سنة ٣٦٩ هـ حين حطم عضد الدولة قوتهم وانقذ البلاد من شرهم[٩٢]. وهناك قبائل أخرى كثيرة مثل خفاجة وبني أسد وبني عقيل لعبت دورها في تخريب الأراضي الخصبة وفي نشر الرعب[٩٣].

٢ ــ هجمات الجبليين

ولم يقتصر الأمر على البدو، بل ان القبائل الكردية في التلول والجبال في الشمال الشرقي كانت تنقض على العراق كلما وجدت في نفسها القابلية على ذلك. ومع أن جماعات كردية صغيرة استقرت في السهول[٩٤]، إلاّ أن عامة الكرد بقوا في الجبال، وكانوا ينتشرون منها ويهاجمون الجزيرة باستمرار[٩٥]. وقد توسعت حركتهم في النصف الثاني للقرن الرابع الهجري، ووصلت أوجها في انشاء إمارة المروانين في ديار بكر (بين سنة ٣٨٠ ـ ٤٨٩ هـ/ ٩٩٠ ـ ١٠٩٦ م)[٩٦]. وعلى كل، فإن تخريب الكرد كان يقل خطورة عن تخريب البدو.

---

(٨٦) ابن الأثير، ج ٩، ص ٤٠، ابن حوقل، ص ٢٢٨.
(٨٧) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦٥ ـ ١٦٧.
(٨٨) ن.م.، ج ٨، ص ١٠٥.
(٨٩) ن.م.، ج ٨، ص ١١٥.
(٩٠) ن.م.، ج ٩، ص ٣٤٥.
(٩١) ن.م.، ج ٧، ص ٣٤٢، ص ٣٢٠، ج ٨، ص ٦٧ وص ٥١٦.
(٩٢) مسكويه، ج ٢، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.
(٩٣) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦٥ ـ ١٦٧، الصابي، ص ٤٧٢ وص ٤٤٥ ـ ٤٥٣.
(٩٤) مسكويه، ج ٢، ص ١٠.
(٩٥) ن.م.، ج ٢، ص ١٥٥، ج ٣، ص ٨٣ ـ ٧ وص ١٤٤ ـ ١٤٥، ص ١٧٦ ـ ١٧٧، لصولي، ص ١٣٦ وص ١٩٢.
(٩٦) انظر Minorsky (Art. Kurds), in *E. I.*, vol. II, pp. 1137 - 8; Lane - Poole, *Muhammadan Dynasties*, p. 118.

٣ ــ الموقع

وكان غنى البلاد الطبيعي يلفت أنظار كل الدول التي تظهر في الشرق الأدنى والأوسط. ويمكننا اعتبار التغلب البويهي عام (٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م) مثلاً واضحاً لهذا الاتجاه.

ثم إن وضع العراق التجاري له أهمية كبيرة. فالطريق التاريخي الذي يصل حوض البحر الأبيض المتوسط بإيران وما وراء النهر يمر ببغداد[٩٧]. كما كان العراق سوقاً للبدو الذين يقدمون من الجزيرة ليبادلوا بضائعهم مع سكان الوادي[٩٨]. وكان ساحله على الخليج العربي نهاية الطرق البحرية الآتية من الصين والهند من جهة، ومن جهة البحر الأحمر وجنوبي الجزيرة من جهة أخرى. يضاف إلى ذلك أن نهر الفرات يصل بينه وبين الشام[٩٩].

وهكذا، قدر للعراق أن يكون في وضعه الطبيعي مركز تطور ثقافي وساحة نضال لشعوب كثيرة[١٠٠].

خامساً: التركيب الاثنولوجي لسكان ما بين النهرين

كانت المدن على العموم أممية يسكن فيها مزيج من أناس تختلف لغاتهم وتتباين ألوانهم وطباعهم وثقافاتهم وأديانهم ومهنهم وعاداتهم[١٠١]. أما الريف فسكانه أكثر تجانساً.

وسنكتفي هنا بالإشارة إلى العناصر المستقرة في البلاد دون نظر إلى الجماعات الصغيرة من التجار الغرباء القادمين لمدة موقتة[١٠٢].

١ ــ العرب: البدو والحضر

ويأتي العرب في المقدمة. وهم يسكنون المدن أو يعيشون في الريف، ولكن

---

(٩٧) ابن خرداذبه، ص ١٨ وما يليها.
(٩٨) سعيد الأفغاني، ص ٣٥٧ وما بعدها، المقدسي، ص ٢٤.
(٩٩) ابن الجوزي ـ مناقب، ص ٤، اليعقوبي، ص ٢٣٤، وص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(١٠٠) اليعقوبي، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ و H. Field, *Anth. Mem.*, IV, 1935, p. 37.
(١٠١) رسائل اخوان الصفا، ج ١، ص ١٤٩.
(١٠٢) انظر مثلاً: اليعقوبي، ص ٢٤٢ ـ ٢٥٤.

قسماً كبيراً منهم بقي بدوياً[١٠٣]. فالبدو كانوا، كما هي عادتهم، يحتقرون الزراعة والصناعة والتجارة ويعتزون بحريتهم، ولهم قابليات لغوية ممتازة، ويكثرون من الغزو والغارات القبلية[١٠٤]. وقد استقرّ البدو على هيئة قبائل في المدن الجديدة كالكوفة والبصرة، وعاشوا في محلات خاصة بهم[١٠٥]. وقد استمرت الخصومات القبلية في بعض المدن كالبصرة، فأصلح عضد الدولة ـ مثلاً ـ سنة ٣٦٦ هـ بين ربيعة ومضر بعد أن دامت الخصومة بينهما مئة وعشرين سنة[١٠٦].

وان نحن بدأنا من الشمال، نجد في الجزيرة قبائل ربيعة ومضر من عرب الشمال، وبعض اليمانيين أو عرب الجنوب ولا سيما قبيلة كلب.

ولا تذكر ديار ربيعة في الأدب الجغرافي حتى أواسط القرن الرابع. ومع أن ابن خرداذبه وقدامة وابن رسته والاصطخري يتحدثون عن ديار ربيعة وديار مضر فقط في الجزيرة[١٠٧] إلا أن بكراً كانت في القسم الشمالي مما يسمونه ديار ربيعة[١٠٨]. وكانت ديار ربيعة حسب ابن خرداذبه (٢٧٢ هـ/ ٨٨٥ م) تمتد من بازبدى (جزيرة ابن عمر) إلى رأس العين، ومن سنجار والخابور إلى آمد وأرزن، بينما كانت ديار مضر بين الخابور والفرات وتشمل الرقة والرّها وحران وسميساط[١٠٩]. ولكن قدامة يحذف آمد وأرزن من ديار ربيعة[١١٠].

ويرد ذكر ديار بكر عند ابن حوقل (٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م)[١١١]. أما عند الهمداني (٣٣٢ هـ/ ٩٤٣ م) فتصل ديار ربيعة رأس العين ونصيبين وجبل الجودي في الشمال، في حين أن منطقة جبل طور كانت أول ديار بكر وتعود لبني شيبان[١١٢]. وأخيراً يقسم المقدسي (٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م) الجزيرة بين القبائل الثلاثة،

---

(١٠٣) الجاحظ ـ مناقب الترك، ص ٥ ـ ٦.

(١٠٤) ن.م.، ص ٤٢ ـ ٤٣، ابن الأثير، ج ٩، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(١٠٥) الصولي، ص ٢١٥.

(١٠٦) الذهبي ـ دول الإسلام (خط) ورقة ١٢ أ.

(١٠٧) ابن خرداذبه، ص ٩٥ وص ٧٣، ابن رسته، ص ١٠٦ ـ ١٠٧، قدامة، ص ٢٤٥، الاصطخري، ص ٧١ (ط. الحيني، ص ٦٣).

(١٠٨) انظر ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٢٠.

(١٠٩) ابن خرداذبه، ص ٧٣ وص ٨٥.

(١١٠) قدامة، ص ٢٤٥.

(١١١) ابن حوقل (ط. كرامرز) ص ٢٠٣، وانظر ص ١٢٩.

(١١٢) الهمداني ـ صفة جزيرة العرب (باعتناء ابن بليهد) ص ١٣٣. وهو يعطي تفاصيل طريفة عن منازل العشائر من ربيعة ومضر، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

كما يلي: (١) ديار ربيعة، ومركزها الموصل؛ وتمتد من الحديثة إلى سنجار، ثم نصيبين، ثم جزيرة ابن عمر. (٢) ديار مضر إلى الغرب، ومركزها الرقة، ومن مدنها حرّان والرّها. (٣) ديار بكر إلى الشمال، ومدينتها الأولى آمد[١١٣]. وكان بعض هذه القبائل مستقراً بينما بقي البعض منها رعوياً[١١٤].

ويذكر ابن حوقل أن قبائل جديدة من قيس عيلان جاءت في زمنه (٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م) إلى الجزيرة، فزحزحت القبائل الموجودة قبلها في تلك المنطقة، أو بسطت نفوذها عليها. ويذكر (بني قُشير) و(بني نمير) و(بني كلب) بين القادمين الجدد[١١٥]. ولكن يظهر أن بعض القبائل حافظت على مواطنها في الجزيرة، كما هو حال القبائل التي تسكن مدينة الجزيرة وحواليها[١١٦].

لقد سكن (بنو شيبان) في الجزيرة، وكانوا مصدر اضطراب في الزاوية الشمالية الشرقية منها في شهرزور، في النصف الأول للقرن الرابع الهجري[١١٧]. وعاش (بنو نمير) قرب حرّان وانتشروا إلى الموصل[١١٨]. وقوي (بنو عقيل) وتنفذوا في الجزيرة وفي وسط العراق في النصف الثاني للقرن الرابع[١١٩]. أما بنو تغلب فكانوا ساكنين قرب الموصل وإلى الغرب منها[١٢٠].

وظهرت (خفاجة) في أواخر القرن الرابع الهجري، واستمرت تقوم بدور مهم في شؤون العراق الاوسط[١٢١]، وقد انتشروا في نواحي الجنوب الغربي من الفرات بين الكوفة والبصرة[١٢٢]. ويعزو ابن جبير (٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م) خراب الكوفة بالدرجة الأولى إلى خفاجة التي سكنت جوارها[١٢٣]. وكانت ديرة (بني أسد) قرب

---

(١١٣) المقدسي، ص ١٣٣.

(١١٤) الاصطخري، ص ٧٧ وص ٢٣، ابن حوقل (ط. كرامرز) ص ٢٩٢.

(١١٥) ابن حوقل، ص ٢٢٨. وقد احتلوا الأراضي حول حران وجسر منبج والخابور وخانوقة وعربان وقرقيسيا والرحبة.

(١١٦) ن.م.، ص ١٤٤.

(١١٧) ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٢٠ وص ٣٤٢.

(١١٨) مسكويه، ج ٣، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(١١٩) انظر الصابي، ص ٤٤٥ - ٤٥٣.

(١٢٠) ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٢٧.

(١٢١) انظر الصابي، ص ٤٧٢، ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦٥ - ١٦٧.

(١٢٢) الصابي، ص ٤٧٢، ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦٧.

(١٢٣) ابن جبير، ص ٢١١.

الكوفة وعين التمر. وهي حسب رواية الاصطخري في المنطقة الكائنة بين القادسية والشقوق والسماوة وبادية البصرة. أما (طي) فكانت ديرتها وراء الشقوق[١٢٤].

وكان في الكوفة سنة ٣١٤ هـ/ ٩٢٧ م خمسون ألف عائلة من ربيعة ومضر، وستة آلاف عائلة يمانية وأربعة وعشرون ألف عائلة من قبائل أخرى[١٢٥]. ويخصص الصولي القبائل الآتية في الكوفة: بني أسد، وبني الأشعث، والمقيّثين، وبني حمان[١٢٦].

وكان في البصرة قبائل ربيعة[١٢٧] ومضر المشهورة بخصوماتها[١٢٨]. ويشير الصولي إلى وجود قبائل المهالبة والمسامعة والجارودية وباهلة وحمان في البصرة[١٢٩].

وأشهر القبائل في البادية غرب البصرة بنو تميم[١٣٠]. ويرد ذكر بني دبيس في خوزستان سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م[١٣١]، ولا تزال بقاياهم إلى الآن.

وقد كان العرب، يتعالون على الأعاجم، ولكنهم تسامحوا كثيراً وأبدوا رغبة في الزواج بالإماء[١٣٢]. ويعلل الجاحظ ذلك باحتجاب الحرائر، وسهولة الاتصال بالإماء[١٣٣]. وقد وصل هذا الاتجاه حداً أن كل خلفاء القرن الرابع كانوا أولاد إماء[١٣٤].

وأخذ العرب يشعرون أن انقسامهم إلى بدو وحضر من جهة وإلى قبائل من جهة ثانية كان مصدر ضعف لهم. وهذا أدى ببعض الكتّاب، ولا سيما الجاحظ، إلى تأكيد أن العرب أمة واحدة تربطها ثقافة مشتركة وعادات متشابهة ولغة واحدة، وأن الفوارق الناتجة من اختلاف الموطن أو القبيلة هي ضئيلة وسطحية[١٣٥]. وذهب

---

(١٢٤) الاصطخري، ص ٢٢.
(١٢٥) البراقي، ص ١٢٢ - ١٢٣.
(١٢٦) الصولي، ص ٢١٥.
(١٢٧) الذهبي، ورقة ١٢ أ.
(١٢٨) ابن الأثير، ج ٨، ص ٢٨٠، مسكويه، ج ٢، ص ٣٦٩ - ٣٧٠.
(١٢٩) الصولي، ص ٢١٥ ولعلها كانت فروعاً من قبائل.
(١٣٠) الاصطخري، ص ٢٢.
(١٣١) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٥٧.
(١٣٢) مجلة المشرق سنة ١٩٣٤، ص ٤١٣.
(١٣٣) رسائل الجاحظ، باعتناء السندوبي، ص ٢٧٤.
(١٣٤) المشرق ١٩٣٤، ص ٤١٣ - ٤١٤.
(١٣٥) الجاحظ - مناقب الترك، ص ٦ - ٧.

آخرون، كالثعالبي والهمداني، إلى أبعد من ذلك في تمجيد العرب وعدهم أشراف الأمم وفي اعتبار لغتهم أحسن اللغات[١٣٦].

٢ ـــ الفرس والديلم

أما الديالمة فهم شعب إيراني جبلي كان يسكن جنوبي شرقي بحر قزوين[١٣٧]، وقد جاء بعضهم إلى العراق قبل التغلب البويهي سنة ٣٣٤ هـ[١٣٨]. وبعد ذلك التغلب، صار الديالمة يكوّنون الجزء المهم من الجيش، والجماعة الرئيسية بين السادة الإقطاعيين ملاّك الأراضي[١٣٩].

وقد كان في العراق ـ إضافة إلى الديلم ـ كتلة من الفرس المتحضرين، ولعلّ بعض هؤلاء كانوا أحفاد من بقي في العراق بعد الساسانيين، بينما تسلل آخرون إلى العراق بعد ظهور العباسيين وخصوصاً في عصر المأمون. وقد كانت لهم أهمية خاصة في حقل الثقافة والسياسة، ثم خلفهم الأتراك في الأهمية السياسية[١٤٠].

٣ ـــ الترك

ظهر الترك في عصر المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) وصارت لهم الكلمة العليا في البلاد، وحافظوا على سلطتهم حتى الفتح البويهي[١٤١]. وقد كتب الجاحظ رسالة في مدح الأتراك، بعنوان **مناقب الترك**، أثنى فيها على شجاعتهم وصبرهم وأمانتهم وعلى قابلياتهم العسكرية عامة. ولقد ذهب إلى تسميتهم بـ (بدو العجم)، وأوضح بأنهم لا يميلون للصناعة أو للزراعة أو للعلوم[١٤٢]. ثم كان الجيش البويهي يتألف من شقين: الرجالة الديالمة، والفرسان الترك[١٤٣].

---

(١٣٦) الثعالبي ـ فقه اللغة، ص ١، رسائل بديع الزمان الهمداني، باعتناء الطرابلسي ـ بيروت ١٩٢١، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٤.

(١٣٧) Minorsky, *Dailamites*, pp. 2 - 3.

(١٣٨) مسكويه، ج ٢، ص ٤١.

(١٣٩) ن.م.، ج ٢، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(١٤٠) Minorsky, *op. cit.* pp. 11 -12، المشـــــرق ١٩٣٤، ص ٤٠٩، وص ٤١٥ ـ ٤٢٢، الطبري، س ٣، ص ٤٣٩، الجاحظ ـ مناقب الترك، ص ١٥.

(١٤١) الفخري، ص ١٨١، الجاحظ ـ البيان والتبيين، ج ٣، ص ٢٠٦، الصابي، ص ١١ وما بعدها.

(١٤٢) الجاحظ ـ مناقب الترك، ص ٤٣.

(١٤٣) مسكويه، ج ٢، ص ٢٣٤ وما بعدها، Minorsky, *op. cit.* pp. 20 -21.

٤ ــ النبط والآراميون

ويستعمل لفظ (النبّط) للإشارة إلى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق، وخصوصاً في منطقة البطيحة(١٤٤). وقد أوضح ابن الكلبي أن العرب كانوا يطلقون لفظ (النبط) على سكان العراق الذين لم يكونوا رعاة ولا جنوداً(١٤٥). ويسمّي المسعودي فلاحي العراق (النبط) و(السريان)(١٤٦). ويصيب المسعودي حين يعتبر النبط سكان العراق القدماء، وأن الفرس اضعفوهم. ثم يذكر أن النبط دخلوا في جملة الفرس «وانتسبوا إليهم»، وأنه لما حصلت الفتوحات الإسلامية ذهب بعض النبط إلى الانتساب إلى الفرس «وأنفوا من النبطية لزوال العز الذي كان فيهم، وانتمى جلّهم إلى ملوك الفرس». ثم يقتبس شاعراً يتساءل:

«وأهل القرى كلهم يدعون   بكسرى قباذ فأين النبط؟»(١٤٧)

ليظهر بذلك أن عامة القرويين من النبط. وأخيراً يتحدث عن قرى نبطية قرب سامراء(١٤٨).

ولقد قامت الطبقة المتوسطة من الآراميين بدور مهم في الحركة الثقافية في العراق وأخرجت عدداً من الأطباء الكبار، والفلكيين والعلماء والمترجمين(١٤٩). وقد كانت حرّان المركز الأول للثقافة الآرامية وفيها بقية الدين الصابئي القديم الذي يدور حول عبادة الكواكب(١٥٠). وكانت هناك مجموعات كبيرة نسبياً من الآراميين المسيحيين في تكريت(١٥١) والرقة وقرب الموصل(١٥٢).

٥ ــ الأكراد

أما الكرد فكانوا يسكنون في القسم الأعلى من الجزيرة في الجهات الشرقية

---

(١٤٤) المقدسي، ص ١٠٨، *E.I.*, vol. I, p. 802.
(١٤٥) ياقوت ـ معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٣٤.
(١٤٦) المسعودي ـ التنبيه، ص ٧ وص ٣٧ ـ ٣٩.
(١٤٧) ن.م.، ص ٣٧ ـ ٣٨.
(١٤٨) المسعودي ـ مروج، ج ٧، ص ١١٩.
(١٤٩) انظر المشرق سنة ١٩٣٤، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٨.
(١٥٠) ابن حوقل، ص ٢٢٦.
(١٥١) ن.م.، ص ٢٢٦ وص ٢٢٨، الاصطخري، ص ٧٧.
(١٥٢) ابن حوقل، ص ٢١٧.

والشمالية الشرقية منها. وكان أكثرهم رعاة أو في مرحلة تلي مرحلة الرعي. واستقر بعضهم في قرى قرب الموصل وفي بعض المدن كالموصل(١٥٣). وأشهر قبائلهم في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) هم قبائل حُميد وهذباني(١٥٤) وحكاري. وتفيض المصادر بالإشارة إلى أن الأكراد كثيراً ما كانوا السبب في قطع المواصلات(١٥٥).

٦ ــ مجموعات صغيرة

وكانت في العراق عدة مجموعات يهودية. وكانت بغداد موطن رئيس الطائفة الإسرائيلية (رأس الجالوت) ومركز اليهود الأول(١٥٦). وكان فيها شارع خاص يدعى (درب اليهود)(١٥٧). واحتوت البصرة على كتلة يهودية مهمة. وسكن اليهود أيضاً في حلوان وفي مدينتي النهروان ونصيبين. وكان لهم معهدان مشهوران في سورا (بجوار الحلّة) وفومبديثة (بجوار الأنبار)، وكان على رأس كل منهما عميد (غاؤن). وكان عامة اليهود في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) صباغين وصفارين وقصابين، إلاّ أن وضعهم تبدل في القرن الرابع الهجري، فكان منهم التجّار والصرّافون، كما كان منهم الموظفون الإداريون أيضاً(١٥٨).

ومن الجماعات القليلة التي كانت في العراق في القرن الرابع الهجري، الزّطّ، وهم في الأصل هنود نقل بعضهم الحجاج من السند إلى البطيحة. وكان الزط يشتغلون بتربية الجاموس. ولما كان الجاموس لا يخاف الأسود فقد اعتقد الحجاج أن الزط هم خير من يقوم بالحراسة في منطقة البطيحة. وقد نفي الزط في القرن الثالث الهجري في خلافة المعتصم، على أثر عصيان قاموا به على الخلافة، فتشتتوا، إلاّ أن

---

(١٥٣) ن.م.، ص ٢١٧.

(١٥٤) يرى البروفسور مينورسكي ـ أستاذ الأدب والتاريخ الفارسي بجامعة لندن ـ انه يحتمل أن يكون الاسم منسوباً إلى منطقة Adiabene القديمة.

(١٥٥) انظر الصولي، ص ١٣٦، ص ١٩٢، ابن جبير، ص ٢٤٦، مسكويه، ج ٢، ص ١٥٥. (ولأجل معرفة دور الأكراد السياسي في القرن الرابع الهجري انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة Kurds ومسكويه، ج ٣، ص ٨٣ ـ ٨٧ وص ١٤٤ ـ ١٤٥ وص ١٧١ ـ ٧ وسليمان، الصائغ: تاريخ الموصل، ج ١، وتاريخ الكرد وكردستان لمحمد أمين زكي، والعشائر الكردية للمحامي عباس العزاوي).

(١٥٦) Mann, J.Q.R. n. s., II, pp. 465 - 6.

(١٥٧) ياقوت ـ معجم البلدان، ج ٤، ص ١٠٤٥.

(١٥٨) المشرق ١٩٣٤، ص ٤٢٩ ـ ٤٣١، الجاحظ ـ ثلاث رسائل باعتناء فنكل ص ١٧، انظر رحلة بنيامين (تعريب عزرا حداد)، الملحق ٣.

بعضهم استمر يسكن قرب خانقين[١٥٩].

وأخيراً نشير إلى وجود «الجرامقة» ولعلهم من الآراميين[١٦٠]، وإلى «الزنج» وهم في الأصل من السواحل الشمالية الشرقية لافريقية وكانوا يجلبون للخدمة أو للعمل في المزارع والمعامل[١٦١].

* * *

وهكذا يتبين من تعداد عناصر العراق الصفة المعقدة المختلطة لسكانه؛ إذ لم تكن تلك العناصر مختلفة في أجناسها فقط بل في مهنها أيضاً. فعرب المدن كانوا يشتغلون بالتجارة والمهن الحرة، والنبط كانوا يشتغلون بالزراعة، بينما كان البدو يشتغلون بتربية المواشي والرعي، وكان الترك والديلم جنوداً. وكان بين المسيحيين من يشتغل بالترجمة والطب، وبين اليهود من يشتغل بالتجارة والصيرفة. وهكذا كان تنوّع السكان يتناسب مع تقسيم العمل والإنتاج. وقد ساعد هذا على تنظيم المجتمع وجعله وحدة اقتصادية. ومن ناحية أخرى كان اختلاف المهن يقوي الشعور بالنفرة الاجتماعية بين مختلف العناصر. وبالنتيجة أدى التقارب والتنافس في المجتمع العراقي إلى أن يصبح هذا المجتمع مليئاً بالحيوية وبالمفرقعات في آن واحد.

---

(١٥٩) Baladhuri, *Origins*, II, pp. 105 - 111.

(١٦٠) المسعودي، ج ٧، ص ١١٩.

(١٦١) انظر الطبري، س ٣، ص ١٧٤٢، الجاحظ ـ رسالة في فضل السودان.

الفصل الثاني

الزّراعة

أولاً: نظام الأراضي

١ ـ أساسه

كان العراق قبل كل شيء قطراً زراعياً، تعتمد اقتصادياته على الزراعة في الدرجة الأولى، وكانت الأرض أهم حقل للإنتاج.

ومهما اختلف الفقهاء في كيفية استيلاء العرب على العراق، وهل كان ذلك صلحاً، أم عنوة، فالمهم هو أن أراضيه اعتبرت ملكاً مشتركاً للأمة الإسلامية. فقد كتب الوزير علي بن عيسى إلى عامله على منطقة الصلح والمبارك ليخبره أن السواد أخذ عنوة، وانه ليس ملك الخليفة أو الدولة، بل انه فيء المسلمين، وانه بمثابة وقف لهم وان زرّاعه بمنزلة مزارعين يدفعون الخراج إيجاراً للأراضي التي يزرعونها[١]. ويؤيد مسكويه والاصطخري هذا الرأي، ويضيفان إلى ذلك أن الأراضي حول البصرة هي عشرية لأنها أراضي موات تمّ إحياؤها بعد الفتح الإسلامي[٢].

ومع ذلك فقد وجدت في العراق أنواع مختلفة من الملكية، دون أن تكون هناك خطوط واضحة تميّز بينها، كما كان يوجد كثير من التنوع في شروط الملكية في كل نوع، إذ كانت شروط استغلال الأراضي تعتمد عادة على أشخاص أصحابها ومراكزهم. وكانت الأراضي مسجلة في ديوان الخراج المركزي في بغداد، كما كانت

(١) الصابي ـ الوزراء، ص ٣٣٨ ـ ٩ وص ٣٤٠ ـ ٣٤٣.
(٢) الاصطخري، ص ٨٠، ابن حوقل، ص ٢٣٩، مسكويه، ج ٢، ص ١٢٧.

مسجلة في الدواوين المحلية كل في منطقتها[٣].

٢ ـ أنواع الأراضي

ويمكننا أن نصنّف الأراضي بصورة عامة إلى خمسة أصناف رئيسية:

أ ـ الأراضي السلطانية، وهذه تعود إلى الخليفة أو الأمير البويهي.

ب ـ الاقطاعات.

ج ـ أراضي الملك.

د ـ أراضي الوقف.

هـ ـ الأراضي المشاعة.

أ ـ الأراضي السلطانية

ترجع أراضي هذا الصنف في أصلها إلى الأراضي التي صادرها العباسيون من الأمويين[٤]. وقد توسعت تدريجياً عن طريق الشراء، أو بمصادرة ضياع موظفين ماتوا أو موظفين فصلوا من وظائفهم لأسباب مختلفة[٥]، أو عن طريق الالجاء[٦]. وكانت الضياع السلطانية منتشرة في مختلف أنحاء العراق: في السواد، وبجوار بغداد والكوفة والبصرة وواسط[٧]، وفي الأراضي المسترجعة من البطيحة[٨]، وحول الموصل[٩]، وكذلك في الأهواز وإيران[١٠]. وقد أطلقت على هذه الضياع أسماء مختلفة، تشير إلى أصنافها، مثل الضياع الخاصة، والفراتية، والمستحدثة، والمرتجعة. فالمستحدثة ضياع أضيفت حديثاً[١١]، والمرتجعة هي ضياع أقطعت من قبل، ثم ألغى الخليفة إقطاعها، لسبب ما[١٢]. ولا يوجد في المصادر المعاصرة ما يوضح معنى الأسماء الأخرى. ويبدو أن (الخاصة) هي ضياع الخليفة التابعة لبيت مال الخاصة، وأن (العباسية) هي ضياع

---

(٣) القلقشندي ـ صبح الأعشى، ج ١٤، ص ١٢٤.

(٤) قدامة ـ الخراج، ص ٢٤١، الجهشياري، ص ٩٠.

(٥) قدامة، ص ٢٤١، الجهشياري، ص ٩٠.

(٦) سيوضح الإلجاء فيما بعد.

(٧) مسكويه، ج ١، ص ٦٠ ـ ١، قدامة، ص ٢٤١، ابن الأثير، ج ٨، ص ٤٣.

(٨) قدامة، ص ٢٤١.

(٩) مسكويه، ج ١، ص ٤٠٥.

(١٠) الطبري، س ٣، ص ٢١٤٠، اليعقوبي، ص ٢٧١ ـ ٢، مسكويه، ج ١، ص ٦١.

(١١) مسكويه، ج ١، ص ٢٤٤.

(١٢) عريب، ص ١٤٥.

ترجع إلى بيت المال، وأن (الفراتية) هي الضياع التي تقع على ضفاف الفرات[١٣].

وقد أنشئت عدة دواوين لإدارة الضياع السلطانية[١٤]. فكان لأم المقتدر مثلاً ديوان خاص لإدارة ضياعها[١٥]. وكانت كل ضيعة أو مجموعة ضياع توكل إلى عامل يضمن خراجها، أو يعطيها بالضمان إلى شخص آخر[١٦]. وكان المعتاد أن تضمن ضياع الخلافة[١٧].

ويظهر أن ضياع الخلافة كانت واسعة. ففي جريدة علي بن عيسى لسنة ٣٠٦ هـ/ ٩١٨م، نرى مقدار خراجها كما يلي:

- الخاصة[١٨] ٥١٦,٤٤٧ ديناراً.
- الفراتية ٦١٧,١٢٦ ديناراً.
- العباسية[١٩] ١٤٤,٧٦٠ ديناراً.
- المستحدثة ٢٨٩,٠٣٦ ديناراً[٢٠].

وكان خراج الضياع السلطانية في الأهواز، حسب قول العامل، يساوي خراج بقية الأراضي[٢١]. ولأجل أن نحصل على فكرة معقولة عن سعة الضياع السلطانية علينا أن نتذكر أن العمال كانوا يتغاضون عن خراج بعض الضياع، كما كانوا يأخذون نسبة مخفضة من البعض الآخر[٢٢]. وكان أهم، وربما أوسع جزء من الضياع السلطانية يقع على الفرات (الفراتية)[٢٣].

ثم تقلصت ضياع الخلافة بسرعة بعد سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م نتيجة إفلاس

---

(١٣) انظر زيدان ـ التمدن، ج ٢، ص ١٣٢.
(١٤) مسكويه، ج ١، ص ١٥٢.
(١٥) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٣.
(١٦) التنوخي، ج ١، ص ١٠٢، الطبري، س ٣، ص ٢٢٢٤.
(١٧) مسكويه، ج ١، ص ١٥٢، التنوخي، ج ١، ص ١٠٢، ابن الأثير، ج ٨، ص ٦٨.
(١٨) باستثناء الضياع السلطانية بجوار واسط.
(١٩) باستثناء ما حول واسط.
(٢٠) Von Kremer, *'Ali b. 'Isa,* p. 31.
(٢١) انظر التنوخي، ج ٢، ص ١٤٤.
(٢٢) Von Kremer, *op. cit.,* p. 80.
(٢٣) *Ibid.,* p. 31.

الخزينة، وشغب الجند للحصول على الرواتب. وقد اضطر الوزير ابن مقلة سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م إلى بيع كثير من هذه الضياع نتيجة أزمة الخزينة(٢٤). وباع الوزير الحسين ابن القاسم سنة ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م ـ نتيجة استمرار هذه الأزمة ـ ضياعاً سلطانية بخمسمئة ألف دينار(٢٥). واستمر على نطاق واسع خلال خلافة القاهر. وفي سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٣١ م فوّض القاهر أبا العباس النوبختي ليتخذ التدابير اللازمة لبيع الضياع السلطانية بصورة منظمة، فباع أبو العباس ضياعاً بخمسمئة ألف دينار في اليوم الأول(٢٦). وفي عام ٣٢١ هـ/ ٩٣٣ م باع الوزير ابن مقلة ضياعاً سلطانية بمبلغ مليونين وأربعمئة ألف دينار (٢,٤٠٠,٠٠٠)(٢٧). ورغم تكرر البيع فقد بقيت ـ بعد خلع القاهر سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣ م ـ أراضٍ واسعة من ضياع خاصة ومستحدثة وعباسية وفراتية(٢٨). ثم كانت خاتمة ضياع الخلافة، بعد التغلب البويهي، إذ استولى عليها معز الدولة سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م، وأعطى الخليفة اقطاعاً صغيراً محلها(٢٩).

ب ـــ الإقطاعات

وتقع أكثر الأراضي المزروعة في هذا الصنف. ويقول الخوارزمي (توفي سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م) في تعريف الاقطاع: «ان يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبتها»(٣٠)، أي أن الأرض تصبح ملكاً لصاحب الاقطاع. ولكن حق الملكية لم يراعَ دائماً، فيذكر عريب أن المقتدر اضطر، لحصول أزمة مالية، إلى استرجاع اقطاعات سابقة وأنشأ لها ديواناً خاصاً هو «ديوان المرتجعات»(٣١).

ولا يحق للخليفة ـ نظرياً ـ منح الاقطاعات إلاّ من أراضيه الخاصة(٣٢)، ولكن هذه القاعدة أهملت في الغالب(٣٣). ولم تكن على أصحاب الاقطاع واجبات

---

(٢٤) مسكويه، ج ١، ص ٢٠٠.
(٢٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٦.
(٢٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٥.
(٢٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٠.
(٢٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٥.
(٢٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٦.
(٣٠) الخوارزمي ـ مفاتيح العلوم، ص ٣٩.
(٣١) عريب ـ صلة الطبري، ص ١٤٥.
(٣٢) الماوردي ـ الأحكام السلطانية، ص ١٨٣.
(٣٣) مسكويه، ج ١، ص ١٣٦، الطبري، س ٣، ص ٢١٥٣.

عسكرية، ولكن عليهم دفع بعض الضرائب[٣٤]، وتصليح القنوات والجسور التي تقع في أراضيهم[٣٥].

وكان الخليفة مانح الإقطاع الأول، ثم شاركه أمير الأمراء بين سنة ٣٢٤ - ٣٣٤ هـ/ ٩٣٥ - ٩٤٥ م في هذا الامتياز وأخذ يمنح الاقطاعات. وأخيراً أصبح الأمير البويهي، بعد سنة ٣٣٤ هـ، ينفرد بمنح الإقطاعات[٣٦].

وتصنّف الإقطاعات نظرياً إلى صنفين، وذلك بالنسبة إلى ما يصحبها من حقوق:

١ - **إقطاع التمليك**: وبموجبه تكون لصاحبه ملكية تامة، وقد تكون وراثية أيضاً. وعلى صاحب هذا الاقطاع دفع العشر. ويعطى اقطاع التمليك عادة من الأرض الموات لإحيائها، أو من أرض توفي صاحبها دون وارث[٣٧].

٢ - **إقطاع الاستغلال**: وقد يبدو انه تطور لإعطاء الأرض بالإيجار أو بالضمان أو بالمزارعة[٣٨]. وكان يعطى عادة من الصوافي مقابل نسبة من الحاصل أو دفع مبلغ نقدي محدود[٣٩]. ولكن اقطاع الاستغلال يختلف عن ذلك فهو ناشيء عن تسلط الجند (في العصر البويهي)، وكان يعطى لرجال الجيش من أرض الخراج، ويفترض فيه أن يفيد المقطع من الوارد ويدفع شيئاً منه للدولة، ولكن الجند لم يدفعوا في الغالب شيئاً. وهذا الاقطاع لا يورث مطلقاً[٤٠].

إلاّ أن نوع الإقطاع، كان يعتمد في الواقع على مركز صاحبه، لا على ما

---

(٣٤) القلقشندي - صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٣٩ - ١٤٣.

(٣٥) الصابي - تاريخ الوزراء، ص ٢٥٧.

(٣٦) مسكويه، ج ١، ص ١٣٦، وص ٣٧٤.

(٣٧) الخوارزمي، ص ٦٠، الماوردي، ص ١٨٦ - ٧، القلقشندي، ج ١٣، ص ١١٣ - ١١٥، قدامة - الخراج (خط) ورقة ٨٤ ب - ٨٦ أ، Lokkegaard, *Islamic Taxation*, pp. 58 - 9.

(٣٨) انظر يحيى بن آدم - الخراج، ص ٥٩، الماوردي، ص ١٨٣.

(٣٩) أبو يوسف - الخراج (القاهرة ١٣٨٢ هـ)، ص ٥٨، ابن رجب الحنبلي - الاستخراج لأحكام الخراج، ص ١٤، قدامة بن جعفر - الخراج (خط) ص ٨٥ ب - ٨٦ أ.

(٤٠) الماوردي، ص ١٨٦ - ١٨٧، القلقشندي - صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١١٣ - ١١٥، قدامة - الخراج (خط)، ص ٩٠ ب - ٩١ أ. وانظر **Lokkegaard**, *op. cit.*, pp. 59-60. **Cahen**, *L'Evolution de l'Iqtâ'*, pp. 33 - 34.

يصحبه من حقوق نظرية. وعلى هذا الأساس العملي، يمكننا تمييز الأنواع التالية:

(١) اقطاعات مدنية.

(٢) اقطاعات خاصة.

(٣) اقطاعات الخليفة.

(٤) اقطاعات عسكرية.

فـ **الإقطاعات المدنية** كانت تمنح للموظفين بدل الرواتب، وكانت أكثر أنواع الإقطاع شيوعاً في مفتتح القرن الرابع الهجري. فعندما يتسلم الوزير مقاليد الوزارة، يعطى الاقطاعات، فإذا ما عزل، أخذت منه وسلمت إلى خلفه في الوزارة[٤١]. وكانت اقطاعات الوزراء واسعة[٤٢]، يديرها ديوان خاص يسمى «ديوان اقطاع الوزراء»[٤٣].

ويعطى لبقية الموظفين الكبار إقطاعات أيضاً. ففي عام ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦ م قدم ابن رائق أمير الأمراء لبجكم، ضامن ولاية الأهواز، اقطاعات يبلغ واردها خمسين ألف دينار في السنة[٤٤]. وفي ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م اقطع معز الدولة البويهي حاشيته اقطاعات واسعة[٤٥]، كما أنه اقطع خازنه[٤٦]. وفي سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م أثبت عضد الدولة اقطاع أبي اسحاق الصابي كاتب ديوان الرسائل[٤٧]. ولا يفرض هذا النوع من الاقطاع أية مسؤولية على صاحبه.

أما **الإقطاعات الخاصة** فكانت تمنح إلى أفراد لهم خدمات خاصة، أو قابليات خاصة، دون أن يكونوا موظفين كالشعراء والمحدثين والمغنين[٤٨]. ويكون لصاحبها

---

(٤١) مسكويه، ج ١، ص ١٥٥، ص ١٣٣، التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ١٣٧، الصابي، ص ٢٣.

(٤٢) ولا يقل واردها عادة عن ٥٠,٠٠٠ دينار في السنة. انظر الصابي، ص ٢٣، مسكويه، ج ١، ص ١٥٩، ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ٥، ص ٢٧٨، مسكويه، ج ٢، ص ٢٤١.

(٤٣) عريب، ص ١٣٥.

(٤٤) مسكويه، ج ١، ص ٣٧٤.

(٤٥) مسكويه، ج ٢، ص ٩٦.

(٤٦) مسكويه، ج ٢، ص ١٨٨.

(٤٧) ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ١، ص ٣٣٢.

(٤٨) الأغاني، ج ٥ (بولاق)، ص ١٦٨ وما بعدها، ج ٩، ص ٣٤٨ ـ ٩، الخطيب البغدادي، ج ٦، ص ٣٦٨.

الملكية التامة وحق توريثها من بعده. فهناك اشارة إلى اقطاع كانت تتمتع به حفيدة الشاعر البحتري في خلافة الراضي وكان قد منح لجدها(٤٩).

ويدخل في هذا الصنف اقطاع الأرض (المتروكة) والموات لغرض إحيائها. وكانت الطريقة المتبعة هي أن يجلب صاحب الاقطاع الفلاحين لاستغلال الأرض ويجهزهم بالبذور والمال، كما أنه يقوم بكري القنوات، ويدفع للخزينة مقداراً معيناً من المال كل سنة. ويتمتع صاحب الإقطاع، مقابل ذلك، بملكية رقبة الأرض وبحق توريثها، ويعفى من كل ضريبة أخرى ومن أي تدخل حكومي(٥٠) ابتداءً ولعدة سنين لغرض النماء ثم يدفع العشر.

ولما استولى معز الدولة على ضياع الخلافة، خصص للخليفة اقطاعاً خاصاً به. وكان هذا الاقطاع يشبه الاقطاع المدني، وفوق ذلك كان هذا الإقطاع في حماية الأمير البويهي(٥١). وكان للخليفة كاتب يقوم بإدارة هذا الاقطاع(٥٢).

وهناك اقطاع يشبه هذا الاقطاع، وهو إقطاع الأمراء. ففي سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م اتفق صمصام الدولة وبهاء الدولة بأن يكون لكل منهما اقطاعات في أراضي الآخر(٥٣). وربما كان هذا الاقطاع ملكاً دائماً لصاحبه.

ويكون تقدير الإقطاعات والضياع حسب معدل للوارد من الضرائب يعرف بالعبرة(٥٤). وتقدر العبرة بأن يؤخذ معدل الوارد لسنين عدة من سني الرخاء والقلّة(٥٥). وقد تتبدل أحوال الزراعة والأسعار وتختلف العبرة عن الواقع، وقد يعاد

---

(٤٩) التنوخي، ج ٨، ص ٢٨ (الترجمة الانكليزية)، وج ٨، ص ٢٠ (ط. الشالجي)؛ انظر الصابي، ص ١٦٣ - ٤، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٥٠) انظر عهود المطيع في القلقشندي، ج ١٣، ص ١٢٣ - ١٣١، وص ١٣٩ - ١٤٣. والأراضي (المتروكة) هي الأراضي التي أهملت فخربت. وانظر الصولي - أدب الكتاب، ص ٢١٢؛ والخطيب البغدادي، ج ٨، ص ٤٩٣.

(٥١) مسكويه، ج ٢، ص ٣٤١، ابن الأثير، ج ٨، ص ٤٧٨.

(٥٢) ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٣٩.

(٥٣) مسكويه، ج ٣، ص ٢٧١ - ٢. وكان صمصام الدولة أمير (أرّجان) وفارس، وكان بهاء الدولة أمير العراق وخوزستان.

(٥٤) انظر الصابي - وزراء (ط. القاهرة)، ص ١٨٥ وص ٣٦٣، التنوخي - نشوار (ط. الشالجي)، ج ٨، ص ١٢٧.

(٥٥) الخوارزمي - مفاتيح، ص ٤٠. Bosworth, *Abu Abdallah al-Khawarizmi*, JESHO, XII, 1969, pp. 155 - 6; Lokkegaard, *op. cit.*, p. 61.

النظر عندئذ في العبرة في منطقة أو ولاية بإعادة المسح والتقدير، وهذا هو «التعديل»(٥٦).

وبمجيء البويهيين، مرّ الإقطاع بمرحلة عسكرية، إذ وزعت الأراضي على الجند بنطاق واسع. وحصل هذا التبدل نتيجة أمرين: أزمة الخزينة من جهة ونظرة البويهيين من جهة ثانية. برزت أزمة الخزينة في أوائل القرن الرابع نتيجة إسراف القصر في النفقات، وانقسام الجهاز الإداري في المركز وجشعه، وطمع الجند القلق بالمال وضغطهم المستمر، وتقلّص أراضي الخلافة. وقد جرت محاولات لمواجهة الأزمة كبيع ضياع الخلافة، وعقد القروض المحدودة، ثم إنشاء مصرف رسمي، والتدقيق في الحسابات مع محاولة التوفير، دون أن يُلجأ إلى الإقطاع(٥٧). ولكن البويهيين بخلفيتهم الاقطاعية(٥٨) ونظرتهم القبلية إلى الأرض كغنيمة، وإهمالهم المفهوم الإسلامي لها، خطوا هذه الخطوة الجديدة.

ويلاحظ أن الخلفاء، وخاصة بعد ادخال المماليك الأتراك في الجيش من قبل المعتصم، صاروا يقطعون القادة أحياناً(٥٩). اقطع الواثق ايتاخ قطيعة على القاطول، وكانت لبغا اقطاعات ولوصيف ضياع في اصبهان والجبل(٦٠)، وكان لباغر اقطاع من عدة قرى في سواد الكوفة(٦١). واقطع محمد بن عبد الله بن طاهر (سنة ٢٥٠/ ٨٦١) من صوافي طبرستان(٦٢).

توسّع العباسيون في منح الإقطاعات للقادة الأتراك بتأثير ضغط هؤلاء، وأدى هذا التوسع إلى أن الجند الأتراك شغبوا ضد هذا الاتجاه لأن القادة كانوا يستأثرون بالفيء(٦٣). ولكن هذه الاقطاعات لم تكن بدل الرواتب بل كانت امتيازات ومنحاً

---

(٥٦) انظر الجهشياري ـ الوزراء، ص ١٣٤، قدامة، الخراج (دي خويه)، ص ٢٣٦ ـ ٧، وانظر:
Cahen, *L'Evolution de l'Iqtâ'* - Annales E.S.C., 1953, pp. 35 - 6, p. 46; Lambton, *Reflexions on the iqtâ'* (*Arabic and Islamic Studies to Gibb*, 1965), p. 368.

(٥٧) انظر M. Shimizu, *Les finances publiques de l'Etat Abbaside*, Der Islam, 1965, pp. 1 - 24; والدوري ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٥٨) انظر البيروني ـ الآثار الباقية، ص ٢٢٤.

(٥٩) اليعقوبي ـ بلدان، ص ٢٥٨، ص ٢٧٧.

(٦٠) الطبري، س ٣، ص ١٤٥٢، ص ١٤٣٨، ابن الأثير، ج ٧، ص ٣٣.

(٦١) الطبري، س ٣، ص ١٥٣٥، ابن الأثير، ج ٧، ص ٥٢.

(٦٢) الطبري، س ٣، ص ١٥٤٢.

(٦٣) الاصطخري، ص ١٤٢، الطبري، س ٣، ص ١٧٩٦.

اضافية. ولعل هذا الاقطاع تلاشى بعد فشل الأتراك في مواجهة الأخطار وانتعاش الخلافة، ولكنه لم يتوقف، إذ نجد بجكم أمير لأمراء يقطع سنة ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦ م اقطاعاً وارده ٥٠,٠٠٠ دينار[٦٤]. إن هذا الاقطاع لم يكن وراثياً وللخليفة أن يلغيه، أي انه سار وفق أساليب معتادة[٦٥].

وكانت الحاجة العاجلة إلى المال لدفع رواتب الجند والموظفين سبباً في انتشار الضمان في الربع الأخير للقرن الثالث/ التاسع[٦٦]. وأعطيت مناطق ومقاطعات بالضمان حتى في السواد. ويتولى الضامن جباية الضرائب بمساعدة الحكومة أو بدونها، ولكنه يخضع لإشراف الدواوين. وقد يكون الضامن موظفاً أو قائداً أو تاجراً أو وزيراً[٦٧]. ومع منع الضمان للعسكريين والوزراء سنة ٣٠٧ هـ/ ٩١٩ م[٦٨] فإن ذلك اهمل وتولى قادة ورؤساء أقوياء مثل بجكم والبريدي الضمان[٦٩]. وكان الضمان محدوداً في الوقت ولا تصحبه امتيازات، وإن كان أثره سلبياً في الوارد والزرع[٧٠].

إلاّ أن الوضع تغيّر بعد مجيء البويهيين، وكانت السنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م حاسمة في شمول الصفة العسكرية للإقطاع، إذ إن معز الدولة أعطى الإقطاعات لقادته وخاصته ثم توسع بحيث شمل قسماً من الجند. واتجه الإقطاع ليكون البديل العادي للعطاء[٧١]. وفي بعض الحالات أعطيت مناطق للجند ليأخذوا عطاءهم من واردها فاستأثروا بالوارد وامتلكوا الأراضي عن طريق الإلجاء وغيره[٧٢]. وتوسّع نطاق الإقطاع العسكري زمن بختيار ابن معز الدولة[٧٣] واستمر زمن عضد الدولة رغم قوة سلطانه[٧٤]، ثم توسّع بعده حتى ان الأراضي الزراعية حول بغداد أعطيت بالإقطاع

---

(٦٤) الهمداني - تكملة، ص ١٣٠ - ١.

(٦٥) انظر الطبري، س ٣، ص ١٤٥٢، وص ١٣٧٧ وص ١٤٤٢.

(٦٦) انظر الصابي - وزراء، ص ٩ وما بعدها.

(٦٧) انظر مسكويه، ج ١، ص ٢٥، ص ٦٩، ابن الجوزي - المنتظم، ج ٦، ص ١٢٥ - ٦، الهمداني - تكملة، ص ٢٩، الصابي (ط. القاهرة)، ص ١٤ - ١٥، ص ٣٧ - ٣٨.

(٦٨) مسكويه، ج ١، ص ٦٠ وص ٧٤ - ٥، عريب - صلة، ص ٨٤ - ٥.

(٦٩) الهمداني - تكملة، ص ١٣٠ - ١٣١ وص ١٤٠، مسكويه، ج ١، ص ٣٧٤،

(٧٠) انظر مسكويه، ج ١، ص ٢٥، الصابي، ص ٩ وما بعدها.

(٧١) مسكويه، ج ٢، ص ٩٦ - ٩٩.

(٧٢) ن.م.، ج ٢، ص ١٧٣ - ٤ وص ٢٦٧.

(٧٣) ن.م.، ج ٢، ص ٢٣٥ - ٧.

(٧٤) ابو شجاع، ص ٤٧.

زمن جلال الدولة(٧٥). وقد توسعت الإقطاعات العسكرية على حساب الأنواع الأخرى للأراضي، مثل الضياع الخاصة، وضياع الخلافة، وأراضي الخراج. وقد تطرف عضد الدولة فمنح الجند إقطاعات من أراضي الوقف(٧٦).

ولم تكن الإقطاعات العسكرية وراثية، كما أنها لا تدوم مدى الحياة(٧٧). وهي لا تعتبر ملكاً لصاحبها، لأن الأمير البويهي يحتفظ بحق إلغائها متى أراد(٧٨). وهي إذ تمنح للجند، إنما ليعوّض واردها عن الراتب الذي لا تستطيع الخزينة البويهية المرتبكة دفعه. وكان يصحب المنح اتفاق يفرض على صاحب الإقطاع دفع كمية من النقود أو ما يعادلها من الغلّة، دفعة واحدة أو بأقساط متعددة(٧٩). كما كان ينتظر منه العناية بالقنوات المارة بأرضه(٨٠). أما السلطة داخل إقطاعه فيفترض أن تبقى بيد الإدارة المركزية(٨١).

ولكن الاقطاعيين من الجند، كانوا في الواقع لا يدفعون للخزينة شيئاً يذكر(٨٢). ولم يتركوا للإدارة المركزية أي نفوذ في اقطاعاتهم، وتحكموا بزراعها كما يشاؤون(٨٣). واعتادوا أن يديروا اقطاعاتهم بواسطة وكلائهم. ولم يحتفظوا في عهد معز الدولة بأي سجل بواردهم، ويظهر انهم ساروا على ذلك طيلة العهد البويهي حتى في زمن عضد الدولة(٨٤).

وكانت الاعتبارات العسكرية مسؤولة أحياناً عن منح الإقطاع العسكري. ففي

---

(٧٥) ابن الجوزي ـ المنتظم، ج ٨، ص ٦٠، ابن الأثير، ج ٩، ص ٣٠٤ وص ٤٢٨؛ وانظر عن نشأة الاقطاع العسكري: الدوري ـ نشأة الاقطاع في المجتمعات الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد العشرون ١٩٧٠.

(٧٦) Cahen, *L'Evolution de l'Iqtâ' du IXe au XIIIe siècle,* Annales E.S.C. (1953), pp. 25 -52; Lambton, *Reflexions on the iqtâ',* (in *Arabic, and Islamic Studies to Gibb,* 1965), pp. 358 - 376.

(٧٧) ابو شجاع، ص ١٣٧، ص ٢٤٥، الصابي، ص ٤٦٨.

(٧٨) مسكويه، ج ٢، ص ٩٧، ابو شجاع، ص ١٦٥.

(٧٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٨٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨.

(٨١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٩.

(٨٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨.

(٨٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨ ـ ٩٩ وص ٩٧.

(٨٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨، ابو شجاع، ص ٤٧ ـ ٥٠.

سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م جوبه أبو نصر خواشاده، وزير شرف الدولة، بثورة الشيخ الكردي باذ، ولما لم يكن لديه المال اللازم لدفع الرواتب لجنده، فإنه أقطع القبائل العربية إقطاعات حول حران، آملاً بذلك أن يجعلهم يقفون بوجه باذ بقوة دفاعاً عن أراضيهم، وبذلك كوّن منطقة عسكرية على الحدود الشمالية للدولة.

صار الإقطاع العسكري مسؤولية ديوان الجيش، وعليه أن يحدد عبرة كل إقطاع وصنفه، وان ينظر في تخصيص القطائع الخالية. ولم تعترف الحكومة بوضع المقطعين ونفوذهم، وكانت تتدخل إن توفر لها المجال لتحد من سلطانهم(٨٥). ولم يكن للمقطعين من حيث المبدأ سلطة قانونية على الزرّاع، ولكنهم في الواقع تحكّموا بهم، وكثر التجاوز والمصادرة وفرض رسوم اضافية(٨٦). وكثر الجاء الأراضي من قبل الملاّكين إلى المقطعين العسكريين تجنباً للإبتزاز والإرهاق، كما هرب البعض وتركوا الأراضي لهم(٨٧). وفي المناطق التي خصصت لرؤساء الديلم، كان هؤلاء يتصرفون بها وكأنها ملك خاص بهم، يتمتعون به طيلة حياتهم، واستمر ذلك حتى زمن عضد الدولة الذي فرض سلطته في الاقطاعات الكبيرة وحقق جباية الضرائب اللازمة منها(٨٨).

وسنناقش سعة بعض الاقطاعات العسكرية في حديثنا عن «مستوى المعيشة» في فصل تال.

ج ـ أراضي الملك

كانت الملكيات الخاصة في الأراضي من أصول متنوعة. فمن الناحية التاريخية، كانت الملكيات الأولى من اقطاع الخلفاء لبعض الأفراد والجماعات(٨٩)، وهو ما يسميه الماوردي «إقطاع التمليك»(٩٠). ثم إن إحياء الأرض الموات، واستخلاص الأرض من المستنقعات لاقى تشجيع الحكومة وتأييدها(٩١).

---

(٨٥) ابو شجاع، ص ١٦٥، وص ٢٩٤ ـ ٥، وص ٣٢٧ ـ ٨، والصابي (تاريخ)، ص ٤٦٨.
(٨٦) مسكويه، ج ٢، ص ٩٧ وص ٩٨ ـ ٩٩، ابو شجاع، ص ٤٧ ـ ٨.
(٨٧) مسكويه، ج ٢، ص ٩٧ ـ ٩٩، ص ١٧٣ ـ ٤.
(٨٨) مسكويه، ج ٢، ص ٩٨، ابو شجاع، ص ٤٧ ـ ٥٠.
(٨٩) انظر أبي عبيد ـ الأموال، ص ٦١، زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ٣٥ وما بعدها، و Wellhausen, pp. 267 - 311.
(٩٠) الماوردي ـ الأحكام السلطانية، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٩١) مسكويه، ج ٢، ص ٨٨، قدامة، ص ٢٤١، الماوردي، ص ١٧٣.

ومن أمثلة الأرض الموات التي تم إحياؤها في العصر الإسلامي الأراضي المحيطة بالبصرة(٩٢). وحصلت محاولات عديدة من الحكومات والأفراد لتجفيف أجزاء من البطيحة لاستخلاص الأرض الخصبة من الماء، وكانت الأراضي المستخلصة تسمى بـ «الجوامد»(٩٣). وكان إحياء الأرض الموات، أو استخلاص الأرض من المستنقعات وزرعها يعطي صاحبها حق الملكية التامة(٩٤).

وهناك مصدر آخر لأراضي الملك، وهو بيع أراضي الخزينة أو (الصوافي)(٩٥)، وضياع الخلافة كلما وجد الخليفة نفسه في أزمة مالية(٩٦).

وقد اقتنى الموظفون، وغير الموظفين الذين كانت حالتهم المالية حسنة(٩٧)، الضياع لأنها كانت تعتبر ملكية مستقرة، وموردها نسبياً أكيد(٩٨). فلما صودرت ملكيات ابن الجصاص التاجر سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م، كان أهم ما لم تشمله المصادرة ضياعه الواسعة(٩٩). ولما ورث أحدهم ثلاثين ألف دينار، اشترى ضياعاً بعشرة آلاف(١٠٠). وكان الوزراء عادة يقتنون ضياعاً واسعة(١٠١)، تكون على الأغلب متفرقة في عدد من المناطق. فمثلاً كانت للوزير علي بن عيسى ضياع في ديار ربيعة، والموصل والسواد، ودمشق ومصر(١٠٢).

وكانت على الملاكين واجبات هامة، بالإضافة إلى دفع الضرائب. فكان عليهم أن يساهموا في نفقات إصلاح القنوات المارة بأراضيهم(١٠٣).

أما أهم الملاكين فهم الخليفة وكبار الموظفين. وكان ذلك يعود لدرجة غير قليلة

---

(٩٢) الاصطخري، ص ٨٠، ابن حوقل، ص ٢٣٩.

(٩٣) الماوردي، ص ١٧٣.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٩٥) ابن رسته، ص ١٥٠.

(٩٦) انظر فقرة «الضياع السلطانية».

(٩٧) مسكويه، ج ١، ص ٢٥٣ - ٤، ص ٢٣٨- ٢٤١، ابو شجاع، ص ٧٢، التنوخي، ج ١، ص ٩٣.

(٩٨) التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ٩١.

(٩٩) التنوخي، ج ١، ص ١٧.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(١٠١) الصابي، ص ١٣٧، ص ٣٢٢، ياقوت - معجم الأدباء، ج ٥، ص ٢٧٨، وانظر فصل (مستوى المعيشة)، قسم (الوارد).

(١٠٢) الصابي، ص ٣٢١ وص ٣٠٤.

(١٠٣) ن.م.، ص ٢٥٧، الطبري، سلسلة ٣، ص ٢١٥٣.

إلى عادة (الإلجاء) التي كان صغار الملاّكين يسيرون عليها. إذ إن ضغط الجباة واضطراب الوضع جعل هؤلاء الملاّكين يضعون أراضيهم في كثير من الأحيان في حماية الخليفة أو أحد الأمراء أو الموظفين الكبار، بتسجيل تلك الأراضي بأسمائهم في الديوان(١٠٤)، وذلك مقابل دفع جزء من الحاصل إلى الحامي(١٠٥).

وقد يكون الإلجاء للتخفيف من الضرائب المفروضة(١٠٦). وكان الإلجاء مألوفاً في أواسط العصر الأموي، وقد الجأ الكثيرون أراضيهم أو قراهم إلى مسلمة بن عبد الملك ومروان بن محمد(١٠٧). وتكثر الإشارات إلى ضغط العمّال وتجاوزهم على الزرّاع في العصر العباسي، مما زاد الإلجاء. وساعد الإلجاء بدوره على توسع الملكيات الكبيرة وعلى ظهور سادة ملاّكين شبه اقطاعيين(١٠٨). ولدينا أمثلة لذلك في زنجان والجبال وفارس اضافة إلى العراق. وكانت ملكية الأراضي تنتقل عادة إلى الحماة، ويتحول الملاّكون الأصليون إلى مزارعين عندهم(١٠٩).

ويبدو ان الإلجاء للقادة الأتراك كثر في أواسط القرن الثالث الميلادي/ التاسع الهجري، لدرجة قللت الوارد، مما دفع الأجناد الأتراك إلى المطالبة (٢٥٦/ ٨٦٩) بإلغاء الملاجىء(١١٠).

ويشير الاصطخري إلى أرضين في ولاية فارس كانت مسجلة بأسماء بعض رجال الحاشية المتنفذين مقابل ربع الحاصل، إلاّ انه يبين أن بعض الملاّكين الأصليين كانوا يستطيعون التصرف بأراضيهم كما يشاؤون(١١١). ويذكر مسكويه أن كثيراً من الملاّكين في العراق جعلوا أراضيهم سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م (ملاجىء) لابن شيرزاد.

---

(١٠٤) انظر زيدان، ج ٢، ص ١٣٠.

(١٠٥) يذكر التنوخي أن أحد الملاّكين شكا إلى المنصور سوء معاملة العمال له لضعفه، وقدم للخليفة ربع حاصل الأرض ان رضي الخليفة بتسجيلها باسمه. التنوخي، ج ٨، ص ٧٦. وقدم ملاّك آخر من أهل الأهواز ١٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً لوزير المنصور ان رضي بتسجيل الأرض باسمه لينقذه من ظلم الجباة وتعديهم. الجهشياري، ص ١١٨.

(١٠٦) الاصطخري، ص ١٢٨.

(١٠٧) البلاذري ـ فتوح، ص ١٥١، ص ٢٠٧، ص ٢٩٤ وص ٣٢٩ ـ ٣٣٠، قدامة ـ الخراج (دي خويه) ص ٢٤١، وانظر ابن الفقيه، ص ٢٨٢ وص ٢٨٤.

(١٠٨) الجهشياري ـ وزراء، ص ٤٨، التنوخي ـ نشوار، ج ٨، ص ٧٦.

(١٠٩) انظر البلاذري ـ فتوح، ص ٣١١، ص ٣٢٣، ص ٣٧١.

(١١٠) الطبري، س ٣، ص ١٨٠١. وانظر س ٣، ص ١٧٨٦.

(١١١) الاصطخري، ص ١٥٨، وابن حوقل، ص ٣٠٣.

وكان ابن شيرزاد شديد الحظوة لدى الأمير البويهي صمصام الدولة وذا كلمة مسموعة عنده(١١٢). وامتلك رؤساء الديلم الكثير من الضياع والأراضي عن طريق الإلجاء(١١٣).

وهكذا كان نظام (الإلجاء) وسيلة للتخلّص من عبث الجباة والعمّال ومن إرهاقهم، كما أن نفوذ الحامي قد يجعل الجباة والعمال يتغاضون عن جباية جزء من الضرائب المستحقة(١١٤). وبمرور الزمن، كان الحامي يصبح المالك الحقيقي للأرض، بينما يتبدل وضع المالك الأصلي إلى حالة مزارع في الأرض(١١٥).

وهناك صنف آخر من الملكية يسمى «الإيغار»، إلا أن المعلومات عنه قليلة وغامضة. جاء في حاشية قديمة في كتاب **تحفة الأمراء بتاريخ الوزراء** للصابي ان «الإيغار تسويغ السلطان الأرض من شاء، من غير أن يؤدي عليها»(١١٦). ويذكر قدامة أن العباسيين اقطعوا (يقطين) أراضٍ في السواد في أول دولتهم وعرفت بـ «إيغار يقطين»(١١٧)، وهذا يعني أن «الإيغار» كان معروفاً قبل العباسيين، وبهذا المعنى يكون الإيغار بأن يهب الخليفة أرضاً يعفي مستلمها من الضريبة، وبذلك يكون في وضع ممتاز. ثم صار المألوف أن يطلق الإيغار على ضياع يتمتع صاحبها بتخفيف كبير في الضرائب، وهنا يتداخل الإيغار بالتسويغ(١١٨). يذكر أن المقتدر أوغر ابن الفرات في وزارته الثانية ضياعه ولم يكن عليه إلا دفع مبلغ اسمي هو ألف درهم سنوياً(١١٩). ويذكر الصابي محاورة الوزير الجديد حامد بن العباس لابن الفرات بعد تنحيته. قال حامد: «نريد أن نحاسبك على ما أغللت في ثمانية عشر شهراً من ارتفاعك وما انضاف إلى ذلك من رزقك وحق بيت المال، التي قد رفعت عن نفسك لنفسك

---

(١١٢) مسكويه، ج ٢، ص ٢٥٧.

(١١٣) مسكويه، ج ٢، ص ٩٧ - ٩٩ وص ١٧٣- ٤.

(١١٤) انظر قدامة، ص ٢٤١، ويذكر الثعالبي انذاراً للملاّكين الصغار بألاّ يتشاركوا مع الملاّكين الكبار، «لأنهم إذا دخلوا قرية أفسدوها» خاص الخاص، ص ١٦٨.

(١١٥) مسكويه، ج ٦، ص ١٧٣ - ٤ وص ٢٦٧.

(١١٦) الصابي، ص ٤٢، الهامش، ويعطي لسان العرب نفس التعريف، ج ٧، ص ١٥٠.

(١١٧) قدامة - الخراج (دي خويه)، ص ٢٤١.

(١١٨) يعرف قدامة التسويغ بقوله: «والتسويغ هو أن يسوغ الإنسان من خراجه شيئاً في السنة». الخراج (خط) ٨٦ أ. ويذكر الصابي (ط. القاهرة) ان سيف الدولة أعطى منطقة المدار إلى جحجخ، والجامدة إلى توزون، بالتسويغ، ص ٣٦ - ٧ وانظر ص ١٤٠ ومسكويه، ج ٢، ص ٣٩.

(١١٩) المنتظم، ج ٥، ص ٥٢ - ٣، الصابي - وزراء (ط. القاهرة)، ص ٣٦ - ٣٧.

بأنك أوغرته...». فقال ابن الفرات: «أما استغلال ضيعتي فلا مطالبة تتوجه عليّ به وقد ردّها أمير المؤمنين عليّ. وأما حق بيت المال الذي اوغرنيه فالحال واحدة فيه»[١٢٠]. ومن هذا يتضح أن الخليفة تجاوز عن جلّ الضرائب على ضياع ابن الفرات، واقتصر على مبلغ محدد. ويبدو أن هذا الأسلوب استمر عبر القرن الرابع، وان الايغارات كانت تدفع مبلغاً محدداً كما يذكر البوزجاني[١٢١].

وكان للإيغار معنى آخر. يقول قدامة: «والإيغار هو أن تحمي الضيعة من أن يدخلها أحد من العمال وأسبابهم بما يأمر الامام من وضع شيء عليها يؤدي في السنة إما في بيت المال أو في غيره من الأمصار»[١٢٢]. ويعطي الخوارزمي مفهوماً مماثلاً للإيغار، وهو «الحماية»، وذلك بأن يضمن صاحب ضيعة، أو رجل من قرية، خراجها برضاهم فيدفع مبلغ الضمان إلى الحكومة على أن لا يدخلها عامل أو جاب[١٢٣].

ويظهر أن هذا النوع من الإيغار كان شائعاً في العصر العباسي الأول. يقول أبو يوسف: «وإن جاء أهل طسوج (منطقة زراعية) أو مصر من الأمصار ومعهم رجل من البلد المعروف موسر فقال أنا اتضمن عن أهل هذا الطسوج أو أهل هذا البلد خراجهم ورضوا بذلك فقالوا هذا أخف علينا، نظر في ذلك... الخ»[١٢٤]. ويظهر أن الغرض من هذا الإيغار حماية صاحب الأرض أو أصحاب المنطقة من تعسّف الولاة والجباة.

د ـ أراضي الوقف

ويدخل في هذا الصنف مجموعة هامة من الأراضي. ويقصد عادة بالوقف الأراضي التي يخصصها المسلمون لأغراض دينية. فيكون واردها للأراضي المقدسة (مكة والمدينة)، أو للمجاهدين، أو للفقراء والمحتاجين، أو لليتامى، أو لفكّ رقاب العبيد، أو لبناء المساجد والحصون، أو للمنافع العامة الأخرى[١٢٥].

ويكون الوقف خاصاً أو رسمياً. فالأوقاف الخاصة، يوقفها بعض الأتقياء من

(١٢٠) الصابي - وزراء، ص ٩١.
(١٢١) كتاب المنازل (خط) ورقة ٢٠٣ أ - ب.
(١٢٢) قدامة - الخراج (خط) ورقة ٨٦ أ.
(١٢٣) الخوارزمي - مفاتيح، ص ٦٠.
(١٢٤) الخراج، ص ٦٠.
(١٢٥) الصابي، ص ٢٨٦، ابن الأثير، ج ٨، ص ١٨٢، الفخري، ص ٣٦٤، هلال الرأي، ص ١٠- ١٢.

الأمة[١٢٦]. فمثلاً أوقف نقيب الطالبيين أبو أحمد الموسوي قبيل وفاته (سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م) كل أملاكه للفقراء[١٢٧]. وكان الوقف أحياناً يوضع لفائدة الأقرباء والذرية، وفي الحقيقة كان الغرض من الوقف أحياناً ضمان تمتع الذرية بوارد الأملاك بصورة دائمة[١٢٨].

أما الوقف الرسمي، فقد بدأ به الخليفة بصفته حامي الحرمين الشريفين، وحارس الحدود[١٢٩]. وقد أوقف المقتدر، بناءً على مشورة الوزير علي بن عيسى، ضياعاً حول بغداد وكان واردها السنوي ثلاثة عشر ألف دينار، وضياعاً في السواد بلغ واردها ثمانين ألف دينار[١٣٠]. وقد أوقفت أم المقتدر أراضي واسعة[١٣١]. وانفق الوزير ابن مقلة عام ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م عشرين ألف دينار على أراضٍ وأوقفها على الطالبيين[١٣٢].

ولا يكون الوقف إلاّ من الأملاك الخاصة[١٣٣]. ومتى ما تم وقف الأرض، لم يعد بالإمكان بيعها أو مصادرتها[١٣٤]. فلما أرادت أم المقتدر أن تتصرف ببعض أراضي الوقف، رفض القاضي أبو جعفر بن البهلول الإفتاء بذلك، وأيد المقتدر القاضي في موقفه[١٣٥]. ولكن توجد حالات شاذة أهملت فيها هذه القاعدة. ففي سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م سمح القاهر ببيع بعض أراضي الوقف[١٣٦]. وكانت أجرأ خطوة في هذا الاتجاه ما عمله الأمير البويهي عضد الدولة. ففي سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٢ م صادر كل أراضي الوقف في السواد لتستفيد منها الدولة، وعوض الذين مسّهم ذلك برواتب[١٣٧]. إلاّ أن أخلافه لم يسيروا على نهجه[١٣٨].

---

(١٢٦) عريب، ص ١٣١.
(١٢٧) الذهبي ـ تاريخ دول الإسلام (مخطوط) ورقة ٦٨ أ.
(١٢٨) الجاحظ ـ البخلاء، ص ٧٧، انظر هلال الرأي، ص ٣٨ ـ ٤٦، طيفور، ص ١٠٤.
(١٢٩) الصابي، ص ٢٨٦، الفخري، ص ٣١٧، ٣٦٤.
(١٣٠) الصابي، ص ٢٨٦، ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ٥، ص ٢٧٩، انظر عريب، ص ١٣١.
(١٣١) مسكويه، ج ١، ص ٢٤٥.
(١٣٢) ن.م.، ص ٢٢٥.
(١٣٣) انظر الصابي، ص ٢٨٦، الفخري، ص ٢٦٤، عريب، ص ١٣١.
(١٣٤) هلال الرأي، ص ٩٥.
(١٣٥) التنوخي، ج ١، ص ١١٩ ـ ١٢٠.
(١٣٦) مسكويه، ج ١، ص ٢٤٥، ابن الأثير، ج ٨، ص ١٨٢، التنوخي، ج ٨، ص ١٦.
(١٣٧) ابو شجاع، ص ٧١.
(١٣٨) الذهبي ورقة ٦٨ أ.

وكان الإشراف على إدارة الأوقاف الخاصة إلى القاضي، وينتظر منه أن يصلح الأوقاف وينميها، وأن يتأكد من أن واردها يجمع كاملاً وبصورة صحيحة، وأنه يصرف في أوجهه المخصص لها(١٣٩). أما الأوقاف فكان الإشراف عليها ـ نظرياً ـ إلى القاضي، ولكنها كانت في الواقع تدار بواسطة ديوان خاص يدعى (ديوان البر)(١٤٠).

ثانياً: السياسة الزراعية للدولة

كانت الحكومة تدرك تماماً العلاقة القوية بين حالة الزرع وبين الوارد. ولما كانت ضريبة الأرض أهم مورد للخزينة فإن النشاط الزراعي معناه ازدياد الوارد، ولذا كانت مساعدة الفلاحين تعتبر سياسة مالية مستنيرة(١٤١). ومن ناحية أخرى لم يؤخذ خير الفلاح دائماً بعين الاعتبار(١٤٢). ولم تنشأ سياسة زراعية موحّدة، وإنما كانت التدابير فردية تعتمد على شخص الحاكم (وهو الخليفة أو وزيره أولاً، ثم الأمير البويهي في ما بعد)، وعلى مشورة حاشيته.

١ ـــ سياسة المعتضد

لقد شهد أواخر القرن الثالث الهجري إصلاحاً مهماً قام به الخليفة المعتضد. ففي سنة ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م أخرّ الخليفة موعد جباية الخراج من ١١ نيسان/ ابريل وهو النوروز الفارسي إلى السابع عشر من حزيران/ يونيو، وأصبح التاريخ الجديد يدعي بالنوروز المعتضدي. كما أنه قام بنقل ٢٧٨ هـ إلى ٢٧٩ هـ، أي إلغاء السنة الأولى واعتبار الخراج عن السنة الثانية تخفيفاً عن الزرّاع. وهذا عائد إلى الفرق بين السنتين الشمسية والفارسية في الحالة الأولى وبين السنتين الشمسية والهلالية في الحالة الثانية.

وللتوضيح نبيّن أن الفرق بين السنة الشمسية والسنة الهلالية يبلغ حوالي أحد

---

(١٣٩) رسائل الصابي، ص ١٢٣، الماوردي، ص ٦٧، التنوخي، ج ٨، ص ١٦، التنوخي، ج ١، ص ١١٩ ـ ١٢٠، الجاحظ، البخلاء، ص ٧٧.

(١٤٠) الصابي، ص ٢٨٦، مسكويه، ج ١، ص ٢٩٥، ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ٥، ص ٢٧٩ ومع ذلك كان للقاضي حق الاشراف. انظر التنوخي، ج ١، ص ١١٩ ـ ١٢٠، ورسائل الصابي، ص ١٢٣.

(١٤١) التنوخي، ج ٨، ص ٨٩.

(١٤٢) انظر مسكويه، ج ١، ص ٢٧.

عشر يوماً وربع يوم، فإذا مرّت ثلاث وثلاثون سنة كان الفرق بين التقويمين سنة هلالية كاملة ووجب حذف سنة هلالية لئلا يؤخذ الخراج مرتين، وقد حصل هذا الكبس في خلافة المتوكل، إذ كانت سنة ٢٤١ هـ هي الثالثة والثلاثون، ولذا قرر المتوكل أخذ خراج واحد عن السنتين ٢٤١ هـ و٢٤٢ هـ بنقل الأولى إلى الثانية وصدر الأمر بذلك في محرم سنة ٢٤٣ هـ(١٤٣).

أما إصلاح موعد النوروز فيتصل بالفرق بين السنة الفارسية والسنة الشمسية وهو ربع يوم. ولما كان افتتاح الخراج عادة في النوروز، وفق السنة الفارسية، فإنه كان يتقدم باستمرار، ويتطلب التوفيق إضافة يوم إلى السنة الفارسية كل أربع سنين، أو شهر كل ١١٦ سنة. وقد أدى منع النسيء، وربما قلّة الخبرة واعتبارات مالية، إلى ايقاف ذلك، فتقدم النوروز - وافتتاح الخراج - عن موعده حتى بلغ شهراً زمن هشام ابن عبد الملك «فأضّر ذلك بالناس»(١٤٤)، ورغم مراجعات الدهاقين لتأخيره، إلا أن الخليفة لم يأمر بشيء. وجدد الدهاقين المحاولة مع يحيى البرمكي - أيام الرشيد - فأبدى استعداداً لتأخير موعد النوروز ثم توقف خوف الاتهام بالميل إلى المجوسية. واستمر تقدم النوروز إلى أن لاحظ المتوكل أن موعد افتتاح الخراج كان في نيسان والزرع أخضر، فاستفسر عن الحال «فقيل له ان هذا قد أضرّ بالناس فهم يقترضون ويتسلفون ويجلون عن أوطانهم وكثرت شكاياتهم وظلمهم»، لأن الناس يضطرون لدفع الخراج قبل ادراك الغلاّت بحوالي شهرين. فأمر المتوكل بإصلاح الوضع ليتلاءم مع موعد افتتاح الخراج وموسم نضج الغلات، وتقرر بالتالي تأخير النوروز إلى ١٧ حزيران/ يونيو. وقد أطرى البحتري هذا الاجراء بأبيات يقول فيها «فللأمة في ذاك مرفق مشكور»(١٤٥). ويورد الطبري - وهو معاصر - هذا الاجراء سنة ٢٤٥(١٤٦)،

---

(١٤٣) يورد المقريزي (بولاق) ج ١، ص ٢٧٧، والقلقشندي في صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٦٣ - ٥ وفي مآثر الانافة في معالم الخلافة (باعتناء عبد الستار فراج الكويت ١٩٦٤)، ص ٢٢٣ - ٢٢٧، وثيقة يفترض فيها أنها مرسوم المعتضد، وهي صادرة - كما يبدو من نصها - زمن المقتدر. وفيها يرد تاريخ ما عمله المتوكل والمعتضد.

(١٤٤) أبو هلال العسكري - كتاب الأوائل ص ٢٢٠ وهو يورد رواية مفصلة عن تطور قضية النوروز وعن النقاش الذي رافق اجراء المعتضد، وكان المؤرخ البلاذري حاضراً المجلس. ورواية أبي هلال مأخوذة عن الصولي وبعض الحديث عن الكاتب ابراهيم بن المدبر.

(١٤٥) انظر المقريزي - الخطط، ج ١، ص ٢٧٤ - ٥، البيروني - الآثار الباقية، ص ٣١ - ٣، أبو هلال العسكري، ص ٢٢٠. ويجعله المقريزي في ٥ حزيران.

(١٤٦) الطبري، س ٣، ص ١٤٤٨، ابن الأثير، ج ٧، ص ٣٤. اما البيروني الذي أخذ معلوماته عن كتاب الأوراق للصولي فيعطي محرم سنة ٢٤٣ هـ تاريخاً للإصلاح ويبدو أنه يشير إلى نقل سنة ٢٤١هـ=

ويؤيده أبو هلال العسكري الذي يذكر أن المتوكل «قتل قبل دخول السنة الجديدة»، ولما جاء المنتصر «احتيج إلى المال وطولب به الناس على الرسم الأول وانتقض ما رسمه المتوكل»[١٤٧]. وبقي الوضع إلى أن ولي المعتضد فلاحظ شدّة التذمر، و«كثر ضجيج الناس من أمر الخراج». وكان النوروز يحل في ١١ نيسان/ ابريل، فتقرر تأخيره ستين يوماً وجعله في ١١ حزيران/ يونيو، وهو تاريخ النوروز المعتضدي[١٤٨].

وقد اعتنى المعتضد عناية خاصة بحفظ نظام الريّ. ومن الأمثلة المهمة على ذلك كريه لقناة الدجيل وتطهيرها من الرواسب[١٤٩]. ويذكر الصابي قصة تدل على مدى اهتمام الخليفة بالإشراف على توزيع المياه. فقد شكا بعض زرّاع منطقة بادوريا إلى الخليفة بأن بعض أصحاب الضياع التي تروى من الفرات تآمروا مع مهندسي الحكومة على تضييق أبواب قنطرة (دِمّا) الواقعة على صدر نهر عيسى ـ الآخذ من الفرات ـ ليستطيعوا بذلك الاستئثار بالماء. فأرسل الخليفة وزيره مع بعض المهندسين لدرس القضية في محلها، واستجوبت اللجنة زرّاع المنطقة، وقررت توسيع الباب الوسطي للقنطرة وجعل سعته اثنين وعشرين ذراعاً[١٥٠].

٢ ــ سياسة علي بن عيسى

وحاول المعتضد مساعدة الزرّاع بتسليفهم النقود لشراء البذور والبقر[١٥١].
وكان علي بن عيسى أكثر وزراء المقتدر عناية بخير الزرّاع، فقد كتب كتاباً دورياً إلى عماله يوصيهم فيه «بإنصاف الرعية والعدل عليها» على أن تدفع الضرائب، ويأمرهم فيه «بالجد والاجتهاد في العمارة (أي إعمار الأراضي الزراعية)»[١٥٢].

= الخراجية إلى سنة ٢٤٢ هـ. اما المقريزي، فقد أخذ معلوماته عن أبي الحسين بن عبد الله بن أحمد بن أبي طاهر في كتاب أخبار أمير المؤمنين المعتضد بالله ـ وهو كتاب لم يصلنا (ج ١، ص ٢٧٣) نقلاً عن البيروني (ج ١، ص ٢٧٥).

(١٤٧) أبو هلال العسكري، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(١٤٨) الطبري، س ٣، ص ٢١٤٣، ابن الأثير، ج ٧، ص ١٨٦، أبو هلال العسكري، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١. وانظر: Samarraie, *Agriculture in Iraq*, pp. 121-7.

(١٤٩) الطبري، س ٣، ص ٢١٥٣.

(١٥٠) الصابي، ص ٢٥٦ ـ ٧.

(١٥١) التنوخي، ج ٨، ص ٦٦.

(١٥٢) انظر كتب ورسائل علي بن عيسى لعماله في الصابي، ص ٣٣٦ ـ ٨ ومسكويه، ج ١، ص ٢٧. وقد أرسل علي، عند مجيئه للوزارة سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م، كتاباً دورياً إلى عماله جاء فيه: «وتمكن في =

واعتقد علي بن عيسى أن حفظ نظام الريّ هو العامل الرئيسي في رفاه البلاد، فلما استشاره معز الدولة البويهي سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م عن سبب خراب البلاد آنئذ، أجاب: «ومن أوْلى ما نظر فيه الأمير وقدّمه سد هذه البثوق (في الأنهار) وهي أصل الفساد وخراب السواد»(١٥٣).

وكان يسلف فقراء الزرّاع البذور ثم يسترجع ذلك منهم في موسم الحصاد(١٥٤).

٣ ــ فترة إمارة الأمراء

وفي فترة (إمارة الأمراء) بين ٣٢٤ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٤٥ م أهملت القنوات وخربت البلاد نتيجة المنازعات والحروب بين الأمراء الطامحين ونتيجة فوضى الجند. ففي النزاع بين الأميرين التركيين (بجكم) و(ابن رائق)، «خرّب ابن رائق نهر ديالى، وفعل أفعالاً كانت سبباً لبثق النهروان»، مما دمّر المزروعات(١٥٥). وفي سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠ م «انبثق نهر الرفيل ونهر بوق فلم يقع عناية بتلافيهما حتى خربت بادوريا بهذين البثقين بضعة عشر سنة»(١٥٦). وفي سنة ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م انبثق النهروان نتيجة سوء تصرف ابن رائق وجنده، ويصف الصولي أثر ذلك بأنه «خرّب الدنيا، وغلبت الأسعار (أي ارتفعت لدرجة خطرة) إلى وقتنا هذا»، أي إلى حوالى سنة ٣٣٤ هـ(١٥٧). وفي سنة ٣٣٣ هـ/ ٩٣٤ م انبثق نهر عيسى، ولم يستطع أمير الأمراء إصلاحه(١٥٨). وأخيراً انبثق نهر الخالص سنة ٣٣٤ هـ(١٥٩). ولم يتم أي إصلاح سوى ما فعله الخليفة من سد بثق في نهر الصراة سنة ٣٢٧ هـ/ ٩٣٨م(١٦٠).

= نفسك انه لا رخصة عندي ولا هوادة في حق من حقوق أمير المؤمنين اغضي عنه ولا درهم من ماله أسامح فيه، ولا تقصير في شيء من أمور العمل اصبر لقريب أو بعيد عليه. ولا تكن باظهار اثر جميل في ذلك أشد عناية منك بانصاف الرعية والعدل عليها، ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها، فإني أطالبك بذلك كما أطالبك بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطتها». مسكويه، ج ١، ص ٢٧.

(١٥٣) مسكويه، ج ٢، ص ١٠٦ هامش.

(١٥٤) الصابي، ص ٣٣٨.

(١٥٥) الصولي، ص ١٠٨.

(١٥٦) مسكويه، ج ٢، ص ٩.

(١٥٧) الصولي، ص ١٠٦ وص ٢٢٥.

(١٥٨) ن.م.، ص ٢٧٨.

(١٥٩) مسكويه، ج ٢، ص ٩٦ هامش.

(١٦٠) الصولي، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

وقد ختمت هذه الفترة السوداء بالغزو البويهي سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م.

٤ ـ سياسة معز الدولة

وبعد أن فتح البويهيون العراق، فحص معز الدولة (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٦٦ م) أسباب الأزمة الزراعية، ووجد أن الرفاه لن يعود إلاّ بعد سد البثوق وإصلاح القنوات فقال: «وقد نذرت لله عند حضوري في هذه الحضرة ألاّ أقدم شيئاً على ذلك (أي سد البثوق) ولو أنفقت فيه جميع ما أملك»(١٦١).

وقد برَّ معز الدولة ببعض وعده. ففي سنة ٣٣٤ ـ ٣٣٥ هـ سدّ بثق نهر الرفيل، وسد بثق نهر الروبانية ببادوريا، ثم خرج إلى النهروانات فسدّ بثقاتها(١٦٢)، وحفر لنهر الخلاص محوله.

ويتضح أثر سد البثوق في قول مسكويه: «وكانت النهروانات قد بطلت وكذلك بادوريا، فلما سدّ بثوقها عمرت بغداد وبيع الخبز النقي عشرين رطلاً بدرهم»(١٦٣).

وحاول معز الدولة إعمار الضياع الخراب بالسواد، وكلّف أبا الفرج بن أبي هشام بتنفيذ ذلك سنة ٣٣٤ هـ(١٦٤). واهتم بمشكلة موعد جباية الخراج وعالجها. ففي سنة ٣٥١ هـ/ ٩٦٢ م نقل وزيره المهلبي سنة ٣٥٠ هـ الخراجية إلى سنة ٣٥١ هـ ليوفق بين السنة الخراجية وبين السنة الهلالية(١٦٥).

ولكن عناية معز الدولة بالريّ تلاشت أمام سياسته الهدامة تجاه الأراضي، تلك السياسة التي ألجأته إليها مشكلة إعالة جيشه، وفراغ الخزينة. ويعطي مسكويه معلومات قيّمة ومفصّلة عن تدابيره المتعلقة بالأراضي. فيذكر أنه، سنة ٣٣٤ هـ، «أقطع قوّاده وخواصه وأتراكه ضياع السلطان، وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد، وحق بيت المال في ضياع الرعية»(١٦٦). ثم يزداد وضوحاً حين يقول: «إنه أقطع أكثر

---

(١٦١) مسكويه، ج ٢، ص ١٠٦ هامش.
(١٦٢) ن.م.، ج ٢، ص١٦٥، وص ١٦١ هامش.
(١٦٣) مسكويه، ج ٢، ص ١٦٥.
(١٦٤) ن.م.، ج ٢، ص ٨٨.
(١٦٥) ن.م.، ص ١٨٩. يخبرنا الصابي (أبو اسحاق) أن الطريقة التي اتبعها المهلبي هي اعتبار كل ٣٣ سنة قمرية معادلة لـ ٣٢ سنة شمسية. انظر المرسوم في رسائل الصابي، ج ١، ص ٢٠٩ ـ ٢١٦.
(١٦٦) مسكويه، ج ٢، ص ٩٦ يقصد بحق بيت المال هنا الضرائب على الزرع.

أعمال السواد في حال خرابه ونقصان ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته. ثم سامح الوزراءُ المقطعين[١٦٧]، وقبلوا منهم الرشى، وأخذوا المصانعات في البعض، وقبلوا الشفاعات في البعض، فحصلت الإقطاعات لهم بعبر[١٦٨] متفاوتة. وزاد الارتفاع في بعضها بانحطاط الأسعار ـ وذلك أن الوقت الذي أقطع فيه الجند الإقطاعات كان السعر مفرط الغلاء للقحط الذي ذكرناه ـ فتمسّك الرابحون بما حصل في أيديهم من إقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء عليهم في العبرة[١٦٩]. وردّ الخاسرون إقطاعاتهم فعوّضوا عنها وتممت لهم نقائصها[١٧٠]، واتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون، ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح[١٧١]. وقلّدت الإقطاعات المرتجعة (أي المردودة) من كان غرضه تناول ما يجده فيها ورفع الحساب ببعضه «وترك الشروع في عمارتها». هذا مع إهمال تام للزرع إذ «اقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجري على أيديهم ولا يهتدون إلى وجه تثمير ومصلحة»[١٧٢].

وكنتيجة لهذه السياسة «انصرف عمال المصالح (أي موظفو الريّ) عنها (أي عن الضياع) لخروج الأعمال عن يد السلطان، ووقع الاقتصار في عملها على أن يقدر ما يحتاج إليه (لريها) ويقسط على المقطعين تقسيطات يتقاعدون بها وبأدائها وإن أدوها وقعت الخيانة فيها فلم تنصرف إلى وجوهها». فأدى ذلك إلى أن «فسدت المشارب (أي نظام الريّ) وبطلت المصالح (أي منشآت الريّ) وأتت الجوائح (أي النكبات) على التنّاء (الزراع) ورقّت أحوالهم (أي ضعفت)»، حتى صاروا «بين هارب جالٍ (أي نازح عن أرضه)، وبين مظلوم صابر لا ينصف، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه». وهكذا «بطلت العمارات وأغلقت الدواوين»[١٧٣].

---

(١٦٧) أي تساهلوا في تقدير ما يلزم أصحاب الاقطاع دفعه.

(١٦٨) العبر جمع (عبرة) أي معدل الجباية.

(١٦٩) أي لم يمكن محاسبتهم على الفرق الواسع بين ما يطلب من المقطعين بموجب العبر الرسمية وبين حقيقة الإنتاج.

(١٧٠) أي اعطوا اقطاعات جديدة حسنة الوارد.

(١٧١) أي انهم يختارون بدلها من الأراضي ما يريدون فيربحون الفرق بين ما ارجعوا وما أُخذوا، ويفوزون بوارد جيد.

(١٧٢) مسكويه، ج ٢، ص ٩٨.

(١٧٣) ن.م.، ج ٢، ص ٩٨ - ٩٩.

ومن الناحية الأخرى، أعطيت الأراضي الباقية، بعد فصل الإقطاعات، إلى «طبقتين من الناس، إحداهما أكابر القواد والجنود، والأخرى أصحاب الدراريع (أي الكتّاب) والمتصرفون. فأما القواد فإنهم حرصوا على جمع الأموال وحيازة الأرباح ودعوى المظالم والتماس الحطائط (أي التخفيف)، فإن استقصى (العمال) عليهم صاروا أعداءهم». وأما الكتّاب والمدنيون «فكانوا أهدى من الجندي إلى تغريم السلطان والحيلة عليه في كسب الأموال». وحال الطرفان دون تدخل موظفي الحكومة في شؤون ضياعهم وشؤون زراعها، «فبطل... أن يسمع لأحد ظلامة أو يقبل من كاتب نصيحة... وبقي (المقطعون) من غير تفتيش مما عوملت به الرعية وأجريت عليه أحوالها من جور أو نصفة، ومن غير إشراف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد إلى العمارة»[١٧٤].

وهكذا زالت العناية بالزراعة في جميع أنحاء السواد، وترك الزرّاع تحت طمع المقطعين، واستغلال الضمناء.

والخلاصة فإن معز الدولة أراد إصلاح نظام الريّ وتحسينه، والعناية بالأرض الخراب والمتروكة وزرعها. ومن ناحية أخرى أراد بهذه السياسة تكوين قطائع عسكرية بربط جنده بالأرض. فكانت النتيجة خراب نظام الريّ ودمار الزراعة لأن الحكومة المركزية عجزت عن السيطرة على الجند، ولم تستطع إثبات سلطانها إلاّ سنة ٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ م عند مجيء عضد الدولة.

٥ ــ سياسة الحمدانيين في الموصل

وقبل الحديث عن سياسة عضد الدولة، يلزمنا تحليل سياسة الحمدانيين في الجزيرة. لقد اتبع الحمدانيون في الفترة (٣١٧ - ٣٦٨ هـ/ ٩٢٩ - ٩٧٨ م) في الجزيرة، وخاصة في الموصل ونصيبين وبلد، سياسة تهدف إلى تعبئة جميع الموارد المالية للبلاد في سبيل خدمة الأمراء. وربما كانت هذه السياسة من وحي الوضع الجغرافي للحمدانيين، الذين كانوا محصورين بين البيزنطيين في الشمال الغربي، وبين حكومة بغداد المعادية في الجنوب الشرقي.

وكان لسياسة ناصر الدولة وجهتان: **الأولى**، أنه «استولى على الناحية (الموصل

---

(١٧٤) ن.م.، ج ٢، ص ٩٨ - ٩.

وأعمالها) ملكاً ومُلكاً»[١٧٥]. وقد توصل إلى ذلك بطريقة التشدد والمضايقة، فقد «كان رسمه أن يضايق أصحاب المعاملات من التنّاء وأصحاب العقار من أهل البلد ويخاشنهم ويتأوّل عليهم[١٧٦] حتى يلجئهم إلى البيع ويشتري أملاكهم بأوكس (أي أبخس) الأثمان»[١٧٧]. وقد حاول بعض الملاّكين التخلّص من ظلمه بالهرب، ولكنه صادر أراضيهم. وعلى كل حال، فما جاءت سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م حتى صارت أراضي الموصل وأكثر عمالاتها من ممتلكات الحمدانيين[١٧٨].

والوجهة الثانية، هي أن ناصر الدولة اتخذ تدبيراً يمكنه من الحصول على أكبر ربح من أراضيه، بزرع مزروعات مربحة فيها. فقد زرع القطن والرز والسمسم والحنطة بدل البساتين[١٧٩]. وأخذ من الزرّاع الأصليين في الحالات التي سمح لهم فيها بزرع أراضيهم ثلاثة أخماس الحاصل. وقد سار أخلاف ناصر الدولة بعده على هذه السياسة، التي أوصلت الزراع إلى حافة الدمار[١٨٠].

وهكذا يتضح أن مصلحة الزرّاع أهملت في الفترة ٣٣٤ ـ ٣٦٨ هـ/ ٩٤٥ ـ ٩٧٨ م وأشغلت الحكومة نفسها بسد حاجاتها المالية، بأي وسيلة كانت، فأهملت السدود والقنوات[١٨١]. كما أن الفيضانات وجفاف بعض القنوات أدت إلى تخريب بعض أقسام السواد[١٨٢].

٦ ـــ سياسة عضد الدولة

وفي سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م صار عضد الدولة سيّد العراق. وفي الفترة التالية، ٣٦٧ ـ ٣٧٢ هـ/ ٩٧٧ ـ ٩٨٢ م، أظهرت الحكومة النية الحسنة، والقابليات الإدارية

(١٧٥) ن.م.، ص ٣٨٤.
(١٧٦) أي يدعي عليهم ادعاءات باطلة.
(١٧٧) مسكويه، ج ٢، ص ٣٨٤.
(١٧٨) نفس المصدر والصحيفة، وابن حوقل، ص ١٤٢ وص ١٤٣، وص ٢٢٠ والصولي، ص ١٣١.
(١٧٩) ابن حوقل، ص ١٤٢.
(١٨٠) يقول الصولي (سنة ٣٢٧ هـ/ ٩٣٨ م) عن الأراضي حول الموصل «إن هذه الناحية إنما عمرت بعناية بني حمدان بها، ونزولهم فيها ولو قد صارت إلى غيرهم لصارت تراباً» ص ١٣١. انظر ابن حوقل، ص ١٤٢.
(١٨١) انظر مسكويه، ج ٢، ص ٤٠٦، ابو شجاع، ص ٦٨ ـ ٩، الذهبي (خط) ورقة ١٨ ب.
(١٨٢) انظر بصورة خاصة مسكويه، ج ٢، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦، وابن الأثير، ج ٨، ص ٥١٠.

اللازمة التي اختفت منذ زمن معز الدولة. فقد استعادت الحكومة سلطانها في العراق وأظهرت فهماً أحسن من قبل لحاجات البلاد، وكان لها الخبرة اللازمة لتطبيق إصلاحاتها.

بدأ عضد الدولة إصلاحاته الزراعية سنة ٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ م، وكانت غاياته الأساسية إصلاح نظام الريّ، وتحسين طرق الجباية. ففي بغداد اندفنت مجاري الكثير من القنوات التي تروي المدينة والأراضي المحيطة بها، مثل نهر عيسى ونهر الدجاج ونهر مسجد الأنباريين ونهر القلايين ونهر طابق ونهر البزّازين، فأمر بحفرها وبتنظيف مجاريها[١٨٣]. وكان لسده بثق السهلية في النهروان قرب بغداد أهمية خاصة[١٨٤]. كذلك أعاد القنوات التي أصابها الخراب في السواد، وأعاد بناء كثير من السدود ومن القناطر التي على أفواه الأنهار بالآجر والجص والنوّرة. وطالب الرعية بالعمارة «مطالبة رفيقة» وأكد عليهم العناية بمنشآت الريّ بصورة خاصة، ووضع الحرّاس لحراسة تلك المنشآت ليل نهار[١٨٥]. ثم انه وسّع مجرى نهر بيان الذي يصل دجلة العوراء بدجيل الأهواز[١٨٦].

ووضع طريقة منتظمة للجباية. ففي عهده «أمضيت للرعية الرسوم الصحيحة، وحذفت عنها الزيادات والتأويلات» وأخر موعد جباية الخراج إلى النوروز المعتضدي ليناسب موسم نضوج الغلات[١٨٧]. كما أخذ بيد الزرّاع وشجعهم على عرض مظالمهم وشكاويهم وحاول إجابتها ولو كانت ضد المقطعين العسكريين[١٨٨].

ولكن فترة الهدوء هذه وما صحبها من رفاه نسبي كانت قصيرة. فحين توفي عضد الدولة، شجر النزاع بين الأمراء البويهيين، ولم يكن لأحد منهم الوقت الكافي أو القابلية للسير بموجب سياسة سلفه القدير. يذكر ياقوت أنه في ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م سدّ فخر الملك بثقاً في النهروان[١٨٩]. وفي سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م حفر أبو العباس

---

(١٨٣) مسكويه، ج ٢، ص ٤٠٦، والذهبي ورقة ١٨ ب.
(١٨٤) ابو شجاع، ص ٦٩.
(١٨٥) مسكويه، ج ٢، ص ٤٠٦ ـ ٧؛ ابن الأثير، ج ٨، ص ٥١٨، ابو شجاع، ص ٦٩.
(١٨٦) يسمي الذهبي (ورقة ٦٠ أ) هذه القناة بـ (النهر العضدي). ويرى المقدسي أن عضد الدولة نفسه حفر هذه القناة، ص ٤١٩. انظر أيضاً J.R.A.S. (1895), p. 307, pp. 308 - 9.
(١٨٧) مسكويه، ج ٢، ص ٤٠٧.
(١٨٨) نفس المصدر والصحيفة. انظر ابو شجاع، ص ٤٧ ـ ٥٠.
(١٨٩) ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ١، ص ٢٣٩.

بن واصل قناة بين البصرة والأهواز بموازاة نهر بيان[١٩٠]. أما في ما عدا ذلك، فلا تحمل المصادر إلاّ أنباء الخراب والفقر. كما شهدت السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع فيضانين جارفين[١٩١].

* * *

ويمكننا الآن تلخيص ما مرّ. ففي القرن الرابع الهجري حاول الحكّام القديرون والوزراء البعيدو النظر المحافظة على نظام الريّ في وضع حسن. وساعدوا الزرّاع المحتاجين بتسليفهم النقود والبذور. كما أنهم سعوا لوضع الجباية على أساس عادل، وأكّدوا بصورة خاصة على تأجيل موعدها حتى موسم نضوج الغلات. وحاول الأمراء القديرون في العصر البويهي حماية الزرّاع من ظلم رجال الجيش.

وكانت الملكيات الخاصة هي النوع السائد من الأراضي قبل التغلب البويهي. أما الإقطاع فكان شأنه ثانوياً، والنوع الشائع منه هو الإقطاع المدني، أما بعد الغزو البويهي فشاع الإقطاع العسكري حتى غمر أنواع الملكية الأخرى.

ثالثاً: النظام الزراعي

١ ــ وضع القرى

كان نصيب القرية من التقدم الذي شمل المدن ضئيلاً[١٩٢]. فلم يكن هناك تبدل يذكر في عنصر الفلاحين أو في الأساليب الزراعية. فسكان السواد كانوا بالدرجة الأولى من النبط الذين أسلموا وكانوا يتكلمون بلغة عربية ركيكة، ولكنهم تمسكوا في الغالب بتقاليدهم السابقة للإسلام[١٩٣]. وقد استقر بينهم بعض البدو من العرب وبذلك أصبحوا سواديين[١٩٤]. ولكن كلمة النبط بقيت تطلق على عامة فلاّحي السواد[١٩٥].

كان بعض الفلاحين مستقراً على الأرض، وهناك مجموعة من الفلاحين

---

(١٩٠) الذهبي ورقة ٦٠ أ، وابن الأثير، ج ٩، ص١٣٠.
(١٩١) انظر الصابي، ص ٤٤٤، وابن الأثير، ج ٩، ص ١٥٩.
(١٩٢) زيدان ـ التمدن، ج ٢، ص ١٧٩.
(١٩٣) التنوخي، ج ٨، ص ١٠٠، المقدسي، ص ١٠٨.
(١٩٤) مسكويه، ج ٢، ص ١٦٠ هامش.
(١٩٥) ن.م.، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.

والعمال الزراعيين الذين يتنقلون حسب ظروف الفلاحة ومواسم الزرع. وفي القرى صنّاع للضرورات الأولية كالحدادة والنجارة[196].

واستخدم العبيد للعمل في مزارع أسيادهم، وخاصة في الفرات الأوسط. ومن هؤلاء الزنج في منطقة البصرة، وهم يقومون عادة بأعمال شاقة ووضعهم المعاشي سيّيء تماماً[197]. وكانت النظرة إلى النبط تقرب أحياناً من النظرة إلى العبيد[198]، وكان بعضهم يرتبط عملياً بالأرض[199]، وهكذا ترد الإشارة إلى «انباط القرى وعبيدها»[200]. وربما أشير إلى النبط أحياناً بـ «علوج أهل القرى».

ولما فتح العرب السواد تركوا تنظيم القرية على ما كان عليه. فكان لكل قرية رئيس يدعى (دهقان)، ويشتغل أهالي القرية له. ثم ظهر بالتدريج ملاكون عرب جدد بجنب الدهاقين الذين هبطت منزلتهم إلى مجرد جباة[201]. وكمكافئة لهم على هذه الخدمة، أخذ الدهاقين يجبون من الزراع ضريبة اضافية تسمى (حق الدهقنة) كانت مبعثاً لكثير من التعدي والإساءة أحياناً[202].

وفي القرن الرابع، صار الدهاقين بمنزلة الشيوخ والأشراف[203]، يستشارون عادة في مشاكل الريّ والأراضي الواقعة في مناطقهم[204]. ويطلق على الزرّاع عادةً اسم الأكرة والفلاحين[205].

وكان الملاّكون، باستثناء القليل منهم، يقيمون في المدن، ويتركون وكلاء عنهم في القرى لإدارة ضياعهم[206]. ولعلّ هذا الوضع جعل ابن وحشية يؤكد على أهمية تعهد أرباب الضياع لها وتفقدهم لأعمال الأكرة فيها، لما في ذلك من استغلال

---

(١٩٦) ابن وحشية ـ مخطوط (مكتبة أحمد الثالث) ورقة ٦٢ أ وورقة ٤٥ أ.

(١٩٧) انظر الطبري، س ٣، ص ١٧٤٢، ص ١٧٤٨، ص ١٧٥٠ ـ ١.

(١٩٨) يروى عن المأمون انه قال: «اما ان عمر ابن الخطاب (رح) كان يقول: من كان جاره نبطياً واحتاج إلى ثمنه فليبعه». طيفور: تاريخ بغداد، ج ٦، ص ٧٣، انظر الطبري ـ اختلاف الفقهاء، ص ٢٢٥.

(١٩٩) انظر الطبري، س ٣، ص ٢٣٠٦.

(٢٠٠) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٨٧.

(٢٠١) الخطيب البغدادي (طبعة القاهرة) ج ١، ص ١٢ ـ ١٣.

(٢٠٢) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ٥٥.

(٢٠٣) زيدان، ج ٢، ص ١٨٢ ـ ٣، الصابي، ص ٢٥٦ ـ ٧، اليعقوبي، ص ٢٧٣.

(٢٠٤) الصابي، ص ٢٥٦ ـ ٧.

(٢٠٥) التنوخي، ج ١، ص ٤، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد الثاني، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٢٠٦) الصابي، ص ٢١٦، الذهبي في سنة ٣٦٢ هـ، ورقة ١ ب.

حسن وربح وفير[٢٠٧]، وكان دور الوكلاء مهماً وشاملاً، حتى خصص ابن وحشية فصلاً لهم عنوانه «في أمر الوكلاء» لبيان مهامهم، ومن هذه تنظيم العمل اليومي والاشراف عليه، وتهيئة البذور والآلات، واستخدام عمال زراعيين اضافيين بالأجرة عند الضرورة[٢٠٨]. وينتظر من الوكلاء ملاحظة منشآت الريّ المتصلة بالأرض[٢٠٩].

وينتظر من الملاكين أحياناً جلب الفلاحين إلى أراضيهم وتزويدهم بالبذور وتقديم المساعدات المالية لهم. ويشار إلى أصحاب الأراضي بـ «أرباب الضياع»[٢١٠]. وهناك ملاّكون صغار يزرعون أراضيهم ويقيمون في القرى، ويشار إليهم عادة بـ «التُنّاء» (م: تانيء)[٢١١]، ولكن وضعهم كان يتدهور أحياناً فيهبطون إلى سوية الفلاحين[٢١٢].

وليس بين أيدينا ما يدلنا على حصة الفلاح من الإنتاج[٢١٣]. وسنفصل قليلاً في وضع الفلاحين في الفصل الثالث.

٢ ــ طرق الزراعة

كانت طريقة المناوبة في الزراعة شائعة. فكان يزرع نصف الأرض، ويترك الثاني دون زرع[٢١٤]. وكانت الأرض تحرث بالمحراث البسيط، تجرّه الثيران[٢١٥]، «فلا مندوحة للفلاح من البقر» كما يقول الدمشقي[٢١٦]. ومن أدوات الفلاح آنئذٍ المسحاة والكرك، وكان يستعمل المنجل للحصاد[٢١٧].

---

(٢٠٧) ابن وحشية (مكتبة أحمد الثالث) ورقة ٤٣ ب.

(٢٠٨) ن.م. ورقة ٤٥ أ ـ ٤٨ أ.

(٢٠٩) انظر القلقشندي، ج ١٣ ص ١٢٣ وما بعدها وص ١٣٩ وما بعدها، والصابي (ط. القاهرة) ص ٢٣٩.

(٢١٠) ابن وحشية ورقة ٥٦ ب وما بعدها.

(٢١١) صرح ابن الفرات انه يمكن عقد الضمان على «تانيء غني». الصابي (ط. القاهرة) ص ٨٢، وانظر ص ٣٩، والتنوخي ـ نشوار (ط. الشالجي) ج ٢، ص ١٦، وج ٨، ص ٢٧٠.

(٢١٢) مسكويه، ج ٢، ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٢١٣) يذكر الصابي أن ابن الفرات كتب إلى وكيل في ضيعته «استكثر من غلة المقاسمة فإنها لنا دون الاكار وتوسط في الشتوي فإنه لنا وللاكار وقلل الصيفي فإنه للاكار دوننا»، ص ٢١٦.

(٢١٤) الماوردي، ص ١٦٧.

(٢١٥) الجاحظ ـ الدلائل، ص ٢٨، رسائل اخوان الصفا، ج ١، ص ٢١٧.

(٢١٦) الاشارة إلى محاسن التجارة، ص ٣٨.

(٢١٧) الثعالبي ـ خاص الخاص، ص ١١٨، ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ١، ص ٨٥، اخوان الصفا، ج ١، ص ٢١٧.

وكان للتسميد أهمية خاصة في الزراعة[٢١٨]. يقول الجاحظ: «إن كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو إلاّ بالزبل والسماد»[٢١٩]. ويقترح ابن وحشية في كتابه **الفلاحة النبطية** أن خير وسيلة لتسميد البساتين هو أن يوضع السماد قرب جذور الأشجار ثم تروى بعد ذلك[٢٢٠]. وكانوا يستعملون الرماد وفضلات البشر والبعر والزبل للسماد، وكان الزبل يباع بالحمل[٢٢١].

وكانت النخيل، حسب قول ابن وحشية، تزرع من الفسيل أو من النوى، وأنسب المواسم لذلك هو ما بين آذار وحزيران[٢٢٢]. وكان تلقيح النخيل يتم بواسطة فلاحين مختصين[٢٢٣]. وكانت الأشجار المثمرة تزرع من البذور أو من الأقلام، ويرى ابن وحشية أن خير وسيلة للإسراع بنموها هو أن تغمس البذور أو أطراف الأقلام في الزيت[٢٢٤].

وكمثل على الأساليب الراقية للزرع الاصطناعي، نذكر ما رواه الثعالبي من أن بنت ناصر الدولة ذهبت للحج عام ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م، وحملت معها على ظهور الجمال أواني فخار زرعت فيها الخضروات[٢٢٥].

لم يكن للفلاحين وسيلة لمكافحة الجراد والأوبئة التي تهدد مزارعهم. وكان البلاء الأكبر من الجراد، فقد أضرّ كثيراً بالزروع في السنوات ٣١١ هـ[٢٢٦] و٣٤٦ هـ[٢٢٧] و٣٤٨ هـ[٢٢٨] و٣٥١ هـ[٢٢٩] و٣٩٣ هـ[٢٣٠] و٤٠١ هـ[٢٣١]. وكان الفلاح مكتوف الأيدي تجاه الجراد. ولا نسمع عن مكافحة فعلية للجراد إلا في سنة

---

(٢١٨) ابن وحشية «خط» ورقة ٧٢ ب.
(٢١٩) الجاحظ ـ الدلائل، ص ٢٥.
(٢٢٠) ابن وحشية ورقة ٥ أ، يؤيده ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٠٦.
(٢٢١) ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٠٦، ابن وحشية ٩ أ وما بعدها وورقة ٦٠.
(٢٢٢) ابن وحشية ورقة ٤٥ ب.
(٢٢٣) ن.م.، ورقة ٤٧ ب ـ ٤٨ أ.
(٢٢٤) ن.م.، ورقة ٥ ب.
(٢٢٥) الثعالبي ـ لطائف المعارف، ص ٥٥.
(٢٢٦) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٠٦.
(٢٢٧) ابن العبري «س»، ص ١٦٥.
(٢٢٨) ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٩٣ ـ ٤.
(٢٢٩) ابن العبري «س»، ص ١٦٧.
(٢٣٠) ن.م.، ص ١٨٣.
(٢٣١) ن.م.، ص ١٨٥.

٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م، حين حاول الفلاحون دفعه عن المزروعات بالطبول والأبواق[٢٣٢]. ولا ندري فيما إذا حاولوا طريقة أخرى أكثر أثراً من الناحية العملية، وهي قتل الجراد قبل أن يستطيع الطيران، كما كان يعمل في الأندلس[٢٣٣].

ولم تكن خطورة الحشرات كبيرة. ففي سنة ٣٣٤ هـ، هددت الحشرات المزارع والحدائق، إلاّ أن طيراً من الطيور أكلها وأنقذ الزروع[٢٣٤]. ويقترح ابن وحشية بعض الأدوية لأمراض الأشجار، وليس ما يدل على أن أحداً استعملها بصورة جدية.

وكان الزراع يستخدمون الأطفال لإفزاع الطيور وإبعادها عن الزرع.

٣ ــ وسائل الريّ

كانت الحكومة تشرف على توزيع المياه، وكانت مسؤولة بالدرجة الأولى عن إنشاء القنوات والسدود وخزانات المياه والمسنيات، ويتولى ذلك ديوان الخراج. وكانت تستخدم لذلك الغرض عدداً كبيراً من المهندسين[٢٣٥].

وتطلب الحكومة من الملاكين أحياناً أن يشاركوا في تطهير القنوات. ففي سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م أمر المعتضد بكري الدجيل، وطلب من أصحاب الإقطاع والضياع على هذه القناة أن يقدموا ٤٠٠٠ دينار للنفقة على ذلك[٢٣٦].

وكانت المزروعات تروى سيحاً أو بواسطة الآلات الرافعة. وتذكر المصادر مسميات عدة لآلات الري، بعضها مترادف كالدلو والغرب، والسانية والناضح[٢٣٧]، وأكثرها شيوعاً النواعير والدواليب والدوالي والشواديف، وقد وصفها البوزجاني في كتابه **الحاوي للأعمال السلطانية**.

---

(٢٣٢) ن.م.، ص ١٨٥.

(٢٣٣) عريب بن سعيد «باعتناء دوزي»، ص٤١.

(٢٣٤) سبط ابن الجوزي، ج ١٢، ورقة ٢١ ب (خط).

(٢٣٥) انظر الصابي، ص ٢٥٦ - ٧. Cl. Cahen, *Les services de l'irrigation en Irak*, B.E.O., XI, 1949 - 51, p.119 et seq.

(٢٣٦) ابن الجوزي - المنتظم، ج ٥، ص ١٦٢. انظر رأي أبي يوسف في كتابه الخراج (القاهرة ١٩٣٣)، ص ١١٠.

(٢٣٧) قدامة - الخراج (خط) ورقة ٨٦ ب - ٨٧ أ. انظر أبو يوسف - الخراج (القاهرة ١٩٣٣)، ص٥٠، ص ٥١.

ف الناعور دولاب يديره تيار النهر، وهو أسرع من «الدولاب». ويحمل الناعور كيزان لرفع الماء، وللناعور الكامل ثمانون كوزاً، يسع كل منها خمسة عشر رطلاً (الرطل = ٧,٦٥٠ لتراً)، ويصب في كل دورة (١٢٠٠) رطل، ويروي جريباً كل ساعة. وهكذا يمكن للناعور أن يروي (٣٥٠ ـ ٤٠٠) جريب من غلات الشتاء و(٨٠) جريباً من غلات الصيف(٢٣٨).

أما **الدولاب** فهو عجلة مائية مثل الناعور إلاّ أنه أكثر تعقيداً. وهو نوعان: الأول يديره ثور (أو حصان أو جمل)، والثاني يديره ثوران. ويروي النوع الأول (٧٠) جريباً من المزروعات الشتوية و(٣٠) جريباً من مزروعات الصيف. أما النوع الثاني فيروي سبعين جريباً من غلات الصيف و(١٥٠) جريباً من مزروعات الشتاء.

و**الدالية** هي دولاب يشغله الرجال. ويذكر البوزجاني ثلاثة أنواع منها حسب طول زرنوقها وحجم دولابها، وهي: (١) الفارسية وطول زرنوقها (٢٤) ذراعاً (الذراع = ٥٤,٠٤ سم)(٢٣٩) ويشغلها ستة رجال، (٢) والكوفية وطول زرنوقها (٢٢ ـ ٣٠) ذراعاً ويشغلها سبعة رجال، (٣) والدالية المحدثة وطول زرنوقها (٧ ـ ٩) أذرع ويديرها رجلان أو ثلاثة. ويروي كل من النوعين الأولين بين (٦ ـ ٨) جريب في اليوم. وتختلف مساحة الأرض المروية حسب توفر الماء، إذ يمكن أن تروي الدالية بين (١٣٠ و٨٠) جريباً من الشتوي و(٥٣ و٦٠) جريباً من الصيفي، ويتوقف ذلك على وجود معونة لها من السيح أو عدم وجود ذلك. ويحمل كل دلو من دوالي النوعين المذكورين (٦٠٠ ـ ٤٠٠) رطل ماء. أما الدالية المحدثة فقدرتها على الري تبلغ حوالى ثلث مقدرة الداليتين السابقتين. وتعمل دلاء الدوالي من بواري تخاط بصورة مضاعفة.

أما **الشادوف** فهو «دلو لطيف من بواري مثل دلو الدالية» ويحتاج إلى أربعة رجال لتشغيله، ويسقي أربعة أجربة في اليوم ويزرع عليه في الشتوي (٧٠) جريباً وفي الصيف (٣٠) جريباً.

ويذكر البوزجاني البكرات (م: بكرة) وعليها الدلاء تجرها البقر، ويحمل الدلو حوالي ٢٠٠ رطل، ويمكن نصب بكرتين على بئر واحد.

ويبدو أن الخلاف بين المساحات المروية في الشتاء والصيف يعود إلى الأحوال

---

(٢٣٨) الجريب = ١٥٩٢ م^2. انظر فالتر هنتس ـ المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٦.
(٢٣٩) ن.م.، ص ٨٣.

الجوية وارتفاع الماء في الأنهار والقنوات، وإلى أن البقر تعمل في الشتوي نهاراً وفي الصيفي ليل نهار(٢٤٠).

وكانت النواعير تستعمل في منطقة النهروان(٢٤١)، وفي غربي بغداد(٢٤٢). وكانت الدواليب تستعمل في الجانب الغربي من بغداد لري الحدائق(٢٤٣)، وفي المنطقة الكائنة بين بغداد والأنبار حيث كان الأهلون أحياناً يستعملون الجمال لتدويرها(٢٤٤). وكانت مزارع حران تسقى من الآبار(٢٤٥)، ويحتمل أن الماء كان يرفع بالزرانيق(٢٤٦). وكانت الدوالي والشواديف تستعمل في منطقة قناة صرصر من السواد(٢٤٧).

وفي كثير من أنحاء العراق كانت المزارع تسقى سيحاً(٢٤٨). وقد شقّ عضد الدولة قنوات صغيرة من نهر الخالص ليسقي حدائقه في الجانب الشرقي من بغداد(٢٤٩). وبنيت «القناطر» على كثير من أفواه القنوات لتنظيم توزيع الماء ولرفع مستواه في القنوات الفرعية لتسهيل السقي سيحاً. وكانت هذه القناطر تبنى عادةً بالجص والنورة والآجر(٢٥٠).

أما في منطقة البطيحة، فقد كان الماء ضحلاً ومناسباً لزراعة الرز(٢٥١). وكانت السداد تبنى من الطين والقصب لاستخلاص بعض الأراضي من الماء، أو لإيقاف الماء عند فيضانه من أن يغمر حقولها(٢٥٢).

---

(٢٤٠) البوزجاني - كتاب الحاوي للأعمال السلطانية ورسوم الحساب الديوانية (خط). المكتبة الوطنية، باريس. العربية ٢٤٦٢ ورقة ١٦٤ أ و١٦٥ أ، Cahen, *les services de l'irrigation en Irak*, B.E.O., XI, 1949 - 51, pp. 118 - 119, pp. 130 - 131، النويري - ج ١، ص ٢٨٨ وص ٢٨٩، الخوارزمي، ص ٧٠ - ٧١.

(٢٤١) ابن رسته، ص ١٦٣.

(٢٤٢) ابن الجوزي - تلبيس ابليس، ص ٢٠٤.

(٢٤٣) ابن الجوزي - مناقب بغداد، ص ٢٧، الثعالبي - يتيمة الدهر، ج ٢، ص ١٢.

(٢٤٤) التنوخي، ج ٨، ص ١٣٩.

(٢٤٥) المقدسي، ص ١٤١.

(٢٤٦) Mez, p. 451.

(٢٤٧) سهراب، ص ١٢٤.

(٢٤٨) انظر الخطيب البغدادي، ج ١، ص ٥٩ وسهراب، ص ١٢٤.

(٢٤٩) الخطيب البغدادي، ص ٥٩.

(٢٥٠) مسكويه، ج ٢، ص ٤٠٧.

(٢٥١) المقدسي، ص ١١٩.

(٢٥٢) مسكويه، ج ٢، ص ٢٩٧.

وكان لمنطقة البصرة نظام خاص للري. فقد كان فيها شبكة من القنوات تأخذ ماءها نتيجة دفع مياه المد التي تدخلها مرتين كل أربع وعشرين ساعة، فتروى الحقول والبساتين المحيطة بها بصورة ميكانيكية[٢٥٣].

وكان الري من مياه العيون متبعاً في الجزيرة. فقد كان في مدينة رأس العين ثلثمئة وستين عيناً للماء العذب يستفاد منها في ري البساتين[٢٥٤]. وكانت حقول وبساتين نصيبين تروى من عين ماء في التلال المجاورة[٢٥٥].

وكانت الأمطار مهمة للزراعة في منطقة الجزيرة، وكان موسمها بين تشرين الأول ونيسان[٢٥٦]. ويذكر الجاحظ أن حقولاً واسعة في البراري وعلى سفوح الجبال كانت تعتمد على مياه المطر وتغلّ غلّة كبيرة[٢٥٧]. وكان لنصيبين حقول واسعة ترويها مياه الأمطار[٢٥٨]. وبلغت أهمية المطر درجة أن تأخر نزوله سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠ م وسنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م أدى في الحالتين إلى حصول غلاء[٢٥٩].

٤ ـ مناطق الزراعة

اقتصرت الزراعة في الجنوب على الأراضي المحيطة بالأنهار والممتدة على ضفاف القنوات، أما في الشمال فكانت المزارع مجاورة للضفاف، أو في الأماكن التي يكثر فيها نزول الأمطار. وقد اعتمدت كثافة المزروعات على وفرة المياه وعلى مجال الاستفادة منها.

ولهذا كانت الأراضي المحيطة بالبصرة والأراضي بين دجلة والفرات إلى الجنوب من بغداد أكثف المناطق بالمزروعات[٢٦٠]. وتقل كثافة الزروع كلّما اقتربنا من الصحراء[٢٦١].

---

(٢٥٣) المقدسي، ص ١٢٥، والاصطخري، ص ٨١.
(٢٥٤) المقدسي، ص ١٤٠.
(٢٥٥) الاصطخري، ص ٧٢ - ٧٣.
(٢٥٦) ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٨٢.
(٢٥٧) الجاحظ ـ الدلائل والاعتبار، ص ١٧.
(٢٥٨) الاصطخري، ص ٧٢ - ٧٣.
(٢٥٩) ابن الأثير، ج ٨، ص ٢٨٢، ج ٩، ص ٣٩.
(٢٦٠) الاصطخري، ص ٨٠، وص ٨٥، ابن حوقل، ص ٢٤٣.
(٢٦١) الاصطخري، ص ٨٢، وابن حوقل، ص ٢٣٩.

وكانت بساتين النخيل في منطقة البصرة تمتد من عبدسي إلى عباдان، على مسافة تتجاوز الخمسين فرسخاً[٢٦٢]. وكانت حدائق نهر الأبلة، الذي يبلغ طوله أربعة فراسخ، جميلة وفسيحة لدرجة أن منطقة الأبلة كانت تعتبر إحدى جنات الدنيا الأربع[٢٦٣]. وكانت على ضفاف نهر معقل جنات فسيحة وحقول غناء[٢٦٤]. هذا مع أن المنطقة الخصبة حول البصرة كانت ضيّقة لأن الصحراء العربية تكاد تصل نهاية الابلة[٢٦٥].

وتقع منطقة البطيحة شمال منطقة البصرة، وكانت الزراعة هناك تقتصر على الأماكن الضحلة والبقع اليابسة في الأهوار. وقد جعلتها كثرة المياه وحرارة الجوّ منطقة ممتازة لزراعة الرز[٢٦٦]. وكانت بعض مزارع البطيحة مجاورة لريف واسط. وتكثر في واسط بساتين النخيل الواسعة، والحدائق، والحقول الفسيحة[٢٦٧]. ويذكر ابن جبير أن الجهة الشرقية للفرات، بجوار الكوفة، كثيفة البساتين[٢٦٨]. وإلى غرب الفرات تمتد المزارع وبساتين النخيل حتى الحيرة والقادسية على حدود الصحراء[٢٦٩].

ويبين الاصطخري أن الأراضي بين بغداد في الشمال والكوفة في الجنوب ودجلة في الشرق والفرات في الغرب كانت كثيفة الزروع لدرجة يصعب معها التمييز بين المزارع المختلفة[٢٧٠]. وكانت عامرة بالمدن والقرى، ومن أهمها «قصر ابن هبيرة»[٢٧١].

وقد اعتمد ازدهار الزراعة وكثافتها في المناطق المذكورة على شبكة واسعة من القنوات، ويتضح ذلك من وصف سهراب لها، فنهر دجيل «يسقي ضياع مسكن وقطربل وما يليها من الرساتيق»، ونهر عيسى يسقي طسوج فيروز سابور «ويمر بقرى

---

(٢٦٢) الاصطخري، ص ٨١، ابن حوقل، ص ٢٣٦.

(٢٦٣) المقدسي، ص ٥٣، الاصطخري، ص ٨١، N-kh., p. 235 and p. 243 ff.

(٢٦٤) ابن حوقل، ص ٢٣٧.

(٢٦٥) N-kh., p. 235.

(٢٦٦) المقدسي، ص ١١٩، قارن اخوان الصفا، ج ٢، ص ١٣٧.

(٢٦٧) المقدسي، ص ١١٨ - ١١٩، الاصطخري، ص ٨٢.

(٢٦٨) ابن جبير، ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٢٦٩) الاصطخري، ص ٨٢، ابن حوقل، ص ٢٣٩.

(٢٧٠) الاصطخري، ص ٨٥، ابن حوقل، ص ٢٤٣.

(٢٧١) ابن حوقل، ص ٢٤٣.

وضياع على جانبيه». وأما نهر صرصر، فهو «نهر كبير... وعليه... ضياع وقرى ويمر ببعض بادوريا». ثم نهر الملك «وهو نهر كثير الضياع خصب، وعليه جسر وقرى كثيرة وعمارات وتتفرع منه أنهار كثيرة». ثم نهر كوثى «وهو نهر كثير الضياع والقرى... ويتفرع منه أنهار تسقي طسوج كوثى، من كورة آردشير بابكان، وبعض طسوج نهر جوبر». ويأتي إلى نهر سورا الأعلى (الفرع الشرقي للفرات) وهو «يمر بقرى وضياع وتتفرع منه أنهار كثيرة تسقي طسوج سورا وبربيسما وباروسما». ثم نهر سورا الأسفل و«يمرّ هذا النهر بقرى وعمارات وتتفرع منه أنهار كثيرة تسقي طسوج بابل وخطرنية والجامعين والفلوجة العليا والسفلى». ثم تتفرع منه أنهار تسقي طسوج جنبلاء وما والاها. ويحمل منه نهر النرس وهو «يمر بقرى وضياع ويتفرع منه أنهار تسقي سواد الكوفة». ويتحدث عن نهر الصراة الكبيرة (امتداد نهر سورا الأعلى)، ويبين أنه يمر بالعقر وبقرى وضياع ثم يمر إلى صابرنيثا ويتفرع منه هناك أنهار تسقي الضياع التي في غربه». ويتفرع من الصراة نهر صراة جاماس الذي «يمر فيسقي الضياع». وبعد أن تجاوز الصراة الكبيرة مدينة النيل تمر بقرى وعمارات[٢٧٢]. وبهذا يرسم سهراب صورة لشبكة كثيفة من القنوات تروي ضياعاً وقرى متصلة وكثيفة. ثم يذكر سهراب بعض الأنهار التي تأخذ من دجلة أسفل واسط وتصب في البطيحة وهي شبكة مرصعة بالقرى والضياع[٢٧٣].

وهكذا يصف سهراب مدى التشابك والاتصال في القنوات والقرى والضياع.

وكان طسوج بادوريا من أهم طساسيج بغداد وأغناها بالمزارع. وفية ضياع خاصة للأمراء والوزراء والقواد[٢٧٤]. وتتمتع بادوريا بمزايا خاصة، إذ تجمع بين الخصوبة والري المنظّم والقرب من العاصمة. وإلى الغرب من بادوريا، على الفرات، تقع الأنبار، التي يدل اسمها (المخزن) على خصوبتها، إلاّ أن الزراعة فيها تدهورت في القرن الرابع الهجري[٢٧٥].

وكانت المنطقة بين جنوبي تكريت وسامراء وإلى الغرب من دجلة خضراء يرويها نهر الاسحاقي الذي يبدأ أسفل تكريت و«عليه ضياع وعمارات» ويجيء إلى

---

(٢٧٢) عجائب الأقاليم السبعة، ص ١٢٣ - ١٢٥.
(٢٧٣) ن.م.، ص ١٢٨ - ٩.
(٢٧٤) التنوخي، ج ٨، ص ١٦ - ١٧ والصابي، ص ٧٦.
(٢٧٥) ابن حوقل، ص ٢٢٧.

سامراء «ويسقي الضياع التي هناك في غربي مدينة سر من رأى»[٢٧٦].

وهناك نطاق أخضر من الزروع عرضه بضعة أميال، يمتد على الضفة الشرقية لدجلة بين تكريت في الشمال وجنوبي واسط في الجنوب، وتوجد المراعي شرقه. ويعطي سهراب صورة للعمارة في هذه المنطقة عند حديثه عن القنوات الآخذة من دجلة إلى الشرق منه. فيذكر أن القاطول الكسروي يمر بمنطقة كلها «قرى عامرة وضياع متصلة» - وهي تمتد حتى بعقوبا -، ويأتي جسر النهروان (حيث يسمى النهروان) ويمر بـ «قرى وضياع جليلة بين عبرتا واسكاف بين الجنيد». ثم يمر النهروان «بين قرى وضياع مادة إلى أن يصب في دجلة أسفل ماذرايا بشيء يسير في الجانب الشرقي». ثم يتحدث سهراب عن القواطيل - إلى الجنوب من سامراء -، فيذكر القاطول المأموني الذي «يمر بقرى وضياع» ونهر أبي الجند «وهو أجلّها وأعمرها شاطئاً، يمر بين قرى وضياع، ويتفرع منه أنهار تسقي الضياع التي على جانب دجلة الشرقي». ثم يشير إلى نهري الخالص وديالي المتفرعين من النهروان ليمرا بين قرى وضياع. وهكذا يتبين أن المنطقة بين النهروان ودجلة من تكريت إلى ماذرايا كانت عامرة بقراها ومزارعها. أما الأرض بين تكريت والأنبار فكانت، باستثناء ضفاف الأنهار، قاحلة[٢٧٧].

وتقل المزروعات إلى الشرق من النهروان على الطريق إلى الدسكرة. أما وراء الدسكرة حتى حلوان، فكانت الأرض قاحلة، باستثناء حلوان نفسها فقد كانت تحيطها الحدائق[٢٧٨].

ونشطت الزراعة في منطقة الجزيرة على ضفاف النهرين وروافدهما. وكانت الزروع كثيفة في منطقة الخابور، حول مدينة الخابور وعلى ضفتي نهر الخابور[٢٧٩]. وامتدت بساتين وحقول رأس العين على أرض واسعة يبلغ طولها حوالى عشرين فرسخاً[٢٨٠]. وكانت عامة مدن الجزيرة محاطة بمزارع واسعة[٢٨١].

---

(٢٧٦) سهراب، ص ١٢٧.

(٢٧٧) سهراب، ص ١٢٧ - ٨، الاصطخري، ص ٨٥ وص ٨٨، المقدسي، ص ١٢٢، ابن حوقل، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢٧٨) المقدسي، ص ١٢٣.

(٢٧٩) المقدسي، ص ١٤١، الاصطخري، ص ٧٤.

(٢٨٠) ابن حوقل، ص ٢٢٢، المقدسي، ص ١٤٠.

(٢٨١) المقدسي، ص ١٣٩ وص ١٤١، ابن حوقل، ص ٢٢٣؛ وانظر سهراب، ص ١٣١ وفيه اشارة إلى الضياع والبساتين حول نصيبين ورأس العين وشمال قرقيسيا.

كانت الزراعة تعتمد على الاستقرار السياسي. وهذا ابن حوقل يندب خراب بعض الأراضي في الجزيرة، قرب الحدود البيزنطية خاصة، نتيجة الغزوات والحروب المستمرة مع البيزنطيين[٢٨٢].

٥ ـ الحاصلات الزراعية ومناطقها

كانت الحنطة والشعير والتمر والرز، أهم الحاصلات الزراعية في البلاد. وهناك حاصلات أخرى من الحبوب والفواكه، ولكن أهميتها ثانوية بين المنتوجات الزراعية.

وكانت منطقة البصرة أهم مركز لزراعة النخيل في العراق، وكانت تنتج أنواعاً مختلفة من التمور لا مثيل لها في أي مكان. فيذكر ابن وحشية أن أنواع التمور العراقية لا تحصى[٢٨٣]، بينما يقول الجاحظ ان مدينة البصرة تنتج ثلاثمئة نوع من التمور[٢٨٤]. وكانت النخيل تزرع في السواد وتمتد زراعتها غرباً حتى القادسية[٢٨٥]، وشمالاً حتى الأنبار وهيت[٢٨٦]. وكان الرطب العراقي يتمتع بشهرة واسعة[٢٨٧]. وكانت توجد بعض بساتين النخيل بجوار سنجار، أما عدا ذلك فلا توجد نخيل في الجزيرة.

وتوجد أنواع مختلفة من الحبوب في العراق. وقد أورد البوزجاني (ت ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م) قائمة بأجناس الحبوب (والبذور والكرز) في نواحي السواد مصنّفة (لأغراض الضرائب) إلى أربع مجموعات. وعلى رأس المجموعة الأولى السمسم ويرد معه الكمون والشونيز والخردل والكراوية والخشخاش وبذر الرطبة. وتبدأ المجموعة الثانية بالحنطة، وفيها الحمص واللوبيا والعدس وبذر الكتان والحلبة والقرطم وحبة الخضرا والزبيب والسمّاق واللوز بقشره والبندق والشهدانج. أما المجموعة الثالثة فأولها الشعير، ويأتي معه الأرز بقشره والجاورس والذرة والدخن والهرطمان والباقلا والكسبرة. ويكوّن الجهجندم وحده الصنف الرابع، وهو نصف كر حنطة مع نصف كر شعير. ثم يشير البوزجاني إلى مجموعة خارجة عن هذا التصنيف، يذكر فيها

---

(٢٨٢) ابن حوقل، ص ٢٣٠ وص ٢٢٣.

(٢٨٣) ابن وحشية (خط نسخة بودليان باكسفورد) ورقة ٤٥ أ.

(٢٨٤) ابن الفقيه، ص ٢٥٣.

(٢٨٥) الاصطخري، ص ٨٣، ابن حوقل، ص ٢٤٠.

(٢٨٦) الاصطخري، ص ٧٣.

(٢٨٧) النويري، ج ١، ص ٣٦٩ ـ ٣٧١، الثعالبي: لطائف المعارف، ص ١٣٢، المقدسي، ص ١١٨.

الجوز والفستق والشهبلوط والنبق والكمثرى اليابس والخوخ المقدد[٢٨٨].

وكانت الحنطة والشعير تزرع في كافة أنحاء العراق. ويظهر من جرائد الواردات في ابن خرداذبه وقدامة، أن الحنطة والشعير كانا يزرعان في كل طسوج من طساسيج السواد، باستثناء منطقة البطيحة، وأن خراج السواد كان يدفع على الأغلب حنطة وشعيراً[٢٨٩]. ويذكر قدامة أن زراع السواد كانوا يدفعون في الخراج ١٧٧,٢٠٠ كُرّ[٢٩٠] حنطة، و٩٩,٧٢٢ كر شعير سنوياً[٢٩١]. وكانت منطقة واسط مركزاً هاماً لزراعة الشعير[٢٩٢]. وتزرع الحنطة والشعير بكثرة في الجزيرة وخاصة حول الموصل[٢٩٣]. لذا كانت الجزيرة المخزن الذي يموّن العراق، لا سيما بغداد بالحبوب، في أوقات الشدة خاصة[٢٩٤].

يزرع الرز في منطقة البطيحة، وفي الجامدة شمالها إلى الجنوب من واسط[٢٩٥]. وقد تعهد ضامن ضرائب واسط ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م بدفع عشرة آلاف كر من الرز في جملة ما يدفع إلى الحكومة[٢٩٦]. ويشير التنوخي إلى حقول الرز في الأراضي الواطئة والأهوار قرب الكوفة وعلى قنوات الفرات السلفى مثل سورا ونهر الصراة ونهر النيل، ويشير إلى حقول أخرى في منطقة جَبُّل على دجلة، وقدر حصة الحكومة من الرز الحاصل من السيبين وقسين وجبّل بحوالى ثلاثة آلاف كر، مما يشير إلى وفرة إنتاجه[٢٩٧]. أما الجزيرة فلا يوجد ما يدل على توفر زراعته في أي جزء منها.

وإليك أسماء المناطق التي كانت تدفع الرز جزءاً من خراجها، حسب ما نجده في جريدة ابن خرداذبه:

(٢٨٨) كتاب المنازل (خط، دار الكتب) ورقة ٢٢٩ ب - ٢٣٠ ب، سعيدان - الحساب العربي، ص ٣٠٧ - ٨.
(٢٨٩) ابن خرداذبه، ص ٨ - ١٤، قدامة، ص ٢٣٧ - ٢٣٩.
(٢٩٠) يبلغ وزن الكر المعدل ٦٠٩,٣٧٥ كغم. هنتس - المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٦٩.
(٢٩١) قدامة، ص ٢٣٩.
(٢٩٢) مسكويه، ج ١، ص ٢٩٤.
(٢٩٣) المقدسي، ص ١٤٥، ابن حوقل، ص ٢١٦.
(٢٩٤) المقدسي، ص ١٣٦.
(٢٩٥) المقدسي، ص ١١٣، ص ١١٩، التنوخي، ج ٨، ص ٩٢، اخوان الصفا، ج ٢، ص ١٣٧.
(٢٩٦) مسكويه، ج ١، ص ٢٩٤.
(٢٩٧) التنوخي، ج ٨، ص ٦٧، وانظر Canard, *Le Riz dans le Proche Orient aux Premiers siècles de l'Islam,* Arabica VI, 1959, pp. 113 et seq.

(١) سورا وبربيسما، أي الأراضي التي تمتد إلى الجنوب والجنوب الغربي من نهر كوثى. (٢) فرات بادقلى. (٣) نستر. (٤) كسكر، وهي تمتد شرق نهر دجلة من كوت العمارة إلى ملتقى دجلة بالفرات. وتستعمل هذه الكلمة أحياناً مرادفة لكلمة ميسان[٢٩٨].

أما الاشارات إلى الحبوب الأخرى فضئيلة. ومنها السمسم، ويذكر المقدسي أن تكريت كانت مركز زراعته[٢٩٩]. ويروى أن ضامن ضرائب واسط لسنة ٣٢٢ هـ تعهد بدفع ٤٠٠ كر من السمسم سنوياً[٣٠٠]، مما يدل على أنه كان يزرع في السواد. وكانت الذرة والماش والعدس تزرع أيضاً[٣٠١].

وكانت زراعة الفواكه منتشرة في مختلف الجهات. ويظهر أن العنب كان يزرع بكثرة، حتى ان عمر بن الخطاب رأى من الضروري تخصيص الخراج الذي يؤخذ من الأعناب لوفرتها[٣٠٢]. وكانت تزرع أنواع متعددة من العنب[٣٠٣]، ومنها الرازقي الذي أدخله العرب إلى العراق من الطائف[٣٠٤]. وهناك أنواع مشهورة تنسب إلى محلات معروفة في العراق مثل أعناب (عكبرا) و(دير العاقول) و(معلثايا) و(سروج) و(حلوان)[٣٠٥] و(بغداد)[٣٠٦].

وأدخلت أشجار البرتقال والليمون إلى العراق لأول مرة في القرن الرابع الهجري. إذ نفهم من المسعودي انها جلبت من الهند بعد سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م إلى عمان، ومن هناك جلبت إلى البصرة ثم إلى أنحاء العراق[٣٠٧]. وكان القاهر يحب أشجار البرتقال، فغرسها في حدائق قصره[٣٠٨]. وكانت البصرة مشهورة بجودة برتقالها وليمونها[٣٠٩]، ولكن يظهر أن البرتقال والليمون كان لا يزال قليلاً في القرن

---

(٢٩٨) ابن خرداذبه، ص ٨ ـ ١٤، وانظر قدامة ـ الخراج (دي خويه) ص ٢٣٦ ـ ٧.
(٢٩٩) المقدسي، ص ١٢٣.
(٣٠٠) مسكويه، ج ١، ص ٢٩٤.
(٣٠١) ابن خرداذبه، ص ١٤، الجاحظ ـ الدلائل، ص ١٩، اخوان الصفا، ج ٢، ص ١٣٨.
(٣٠٢) الماوردي، ص ١٦٨.
(٣٠٣) ابن الفقيه، ص ١٢٥.
(٣٠٤) Mez, p. 432 والدينوري ـ كتاب النبات، ص ١٣١، ص ٤٤ ـ ٥، ص ٢٠٧.
(٣٠٥) المقدسي، ص ١٢٢ وص ١٢٣ وص ١٢٥، ابن حوقل، ص ٢٣٠.
(٣٠٦) النويري، ج ١، ص ٣٧١، الثعالبي ـ لطائف المعارف، ص ١٣٣.
(٣٠٧) المسعودي، ج ٢، ص ٤٣٨.
(٣٠٨) ن.م.، ج ٨، ص ٣٦٦.
(٣٠٩) المقدسي، ص ١٤٥، النويري، ج ١، ص٣٧١، الثعالبي ـ يتيمة الدهر، ج ٢، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

الرابع الهجري[٣١٠].

وكان لرمّان سنجار شهرة خاصة[٣١١]. وكان الخوخ يزرع في البصرة[٣١٢]. واشتهرت الرحبة وسنجار بزيتونها[٣١٣]. وهناك نوع ممتاز من السفرجل يزرع في الرحبة[٣١٤]. وكان تين حلوان مضرب المثل، ويذكر الدينوري عشرة أنواع منه[٣١٥]. أما الرقي والبطيخ فكانت من الفواكه المحبوبة، وكانت سوق الفواكه تسمى عادة «دار البطيخ»[٣١٦]. هذا وكان الأجاص والمشمش والسفرجل والتفاح والتوت واللوز والجوز والبطيخ والبلوط والسماق يزرع في العراق[٣١٧]. كما كان الزيتون يزرع في المناطق الشمالية[٣١٨].

وكان القطن من الحاصلات المهمة خاصة في منطقة الخابور. وكانت (عربان) تصدر القطن إلى الموصل وإلى أنحاء أخرى من العراق[٣١٩]. ومن المراكز المهمة الأخرى لزراعة القطن مجدل ورأس العين[٣٢٠] وحران في الجزيرة، والبصرة في السواد[٣٢١]. وهكذا كان القطن يزرع في السواد وفي الجزيرة.

وكان قصب السكر يزرع حوالى البصرة وفي سنجار[٣٢٢]. ويحتمل أنه كان يزرع في البطيحة[٣٢٣]. ويخبرنا الثعالبي أن قصب السكر كان ينتج بوفرة في العراق[٣٢٤].

---

(٣١٠) Mez, p. 432 - 3.

(٣١١) ابن حوقل، ص ٢٢٠ - ٢٢١، الثعالبي - لطائف المعارف، ص ١٣٣.

(٣١٢) الجاحظ - البخلاء، ص ٢٠١.

(٣١٣) المقدسي، ص ١٤١؛ ابن حوقل، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٣١٤) المقدسي، ص ١٢٣، النويري، ج ١، ص ٣٧١، الثعالبي - لطائف المعارف، ص ١٣٣.

(٣١٥) الدينوري - كتاب النبات، ص ٦١ - ٧١.

(٣١٦) مسكويه، ج ٣، ص ٥١، الجاحظ - الدلائل، ص ٢٣، Mez, p. 437.

(٣١٧) رسائل اخوان الصفا، ج ٢، ص ١٤٠ - ١٤١، ابن حوقل، ص ٢٢٧، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(٣١٨) ابن حوقل، ص ٢٠٠ - ٢٠١، المقدسي، ص ١٤١، الدينوري - النبات، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٣١٩) الاصطخري، ص ٧٤، ابن حوقل، ص ٢٢٢، الدينوري - النبات، ص ٢٢٠.

(٣٢٠) الاصطخري، ص ٧٤.

(٣٢١) المقدسي، ص ١١٨ وص ١٤١.

(٣٢٢) الماوردي، ص ١٦٨، الثعالبي - يتيمة الدهر، ج ٢، ص ١٣٠ - ١٣١، البيهقي، ص ٦٢٣، المقدسي، ص ١٤٥.

(٣٢٣) انظر اخوان الصفا، ج ٢، ص ١٣٧.

(٣٢٤) الثعالبي - لطائف المعارف، ص ١٠٧.

وكانت معلثايا تصدر القنّب. وكان القت يزرع بصورة خاصة في القادسية ويستفاد منه لإطعام جمال ورواحل الحجاج[٣٢٥].

وكانت الخضروات تزرع في العراق، وترد الإشارة إلى القرع والقثاء[٣٢٦]، والفاصوليا[٣٢٧]، والباقلاء والبزاليا[٣٢٨]، والجزر، والباذنجان، والقرنبيط والشلغم[٣٢٩]، والفجل[٣٣٠].

وكانت تزرع أنواع الأزهار والرياحين، مثل النرجس والياسمين والورد الجوري، والقرنفل[٣٣١].

وهناك نباتات طيبة، تزرع أو تنمو برية في العراق مثل البابونج والحرمل والآنسون والخشخاش والخروع وورد الحمار[٣٣٢].

---

(٣٢٥) ابن حوقل، ص ٢٤٠.
(٣٢٦) الجاحظ - الدلائل، ص ٢٣.
(٣٢٧) ابن الجوزي - تلبيس ابليس، ص ٢٢١، الثعالبي - يتيمة الدهر، ج ٢، ص ١٤٠.
(٣٢٨) الجاحظ - الدلائل، ص ١٩.
(٣٢٩) اخوان الصفا، ج ٢، ص ١٣٨.
(٣٣٠) الجاحظ - البخلاء، ص ٢٤١.
(٣٣١) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٨٩، اليعقوبي، ص ٢٦٤، النويري، ج ١، ص ٣٧١.
(٣٣٢) انظر Samarraie, *op. cit.*, p. 92 ff، ابن وحشية (خط أحمد الثالث) ورقة ٦٠ أ، ٦٦ ب، ٢٥ أ - ب.

الفصل الثالث

الصّناعة

أولاً: العمل

١ ـ أصناف العمّال: الأحرار، الرقيق

كان في العراق صنفان رئيسيان من العمال: **الأحرار**، والرقيق.

فالعمال **الأحرار** كانوا يعيشون في المدن أو يسكنون في الريف. ففي المدن كانوا يكوّنون عامة أصحاب الصناعات. ويقرب منهم في الواقع أصحاب الحوانيت والبيوعات البسيطة كالبقالين والزيّاتين والقصّابين. ويطلق على هؤلاء بمجموعهم اسم «العامة». ومع أن أكثرهم كان من غير العرب، أي من «الموالي» إلاّ أنه لم يكن تمييز عنصري في ما بينهم[١]. وكان العامة في بغداد خليطاً من أجناس مختلفة، إذ إن فيهم الفرس والترك والزنوج والديالمة، والروم، والنبط، والأرمن، والكرج، والسلاف، والأكراد، والبربر، والعرب، وتربطهم جميعاً اللغة العربية التي كانوا يتكلمون بها[٢].

وكان الفلاحون في القرى في صنف الأحرار نظرياً، إلاّ أنهم في الواقع لم يكونوا دائماً كذلك[٣]. وكانوا يؤلفون جزءاً كبيراً من الشعب ويتكلمون الآرامية مع العربية[٤].

---

(١) Massignon, *Enquête*, p. 42.

(٢) زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ٤٥؛ وانظر بدري محمد فهد ـ العامة ببغداد (بغداد ١٩٦٧)، ص ١١ ـ ١٤.

(٣) انظر مسكويه، ج ٢، ص ٩٧، طيفور ـ تاريخ بغداد، ص ٧٣.

(٤) زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ٤٤؛ *E. I., Nabateans?*.

وكان أصحاب الحرف يكونون عادةً أوطأ طبقة بين الأحرار[٥]. ويظهر أن واردهم المالي كان يكفي لضروريات عيشهم فقط. وخير تقدير لحالتهم الاقتصادية قول أبي الفضل الدمشقي «وأما الصنائع العملية، وهي المهن، فقد قيل قديماً الصناعة في الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى. وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن إقامة ما لا بد له منه، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة أو عقد نعمة، وأيضاً فإنه مع ذلك إذا ميّز الناس دخل في أدون طبقاتهم»[٦].

وكان فلاحو السواد فقراء جداً[٧]. يقول المقدسي في معيشة أهل البطيحة: «عيش ضيق، أدامهم السمك، وماؤهم حميم». ثم يصف النظرة الاجتماعية إليهم فيقول: «وعقلهم سخيف ولسانهم قبيح»[٨].

الطبقة الثانية من العمال، هي طبقة **العبيد** التي تعتبر أوطأ من طبقة العمال الأحرار. ويحصل على العبيد بالطرق التالية:

أ ـ بطريق الحرب. فإذا فتحت بلدة، جاز للمسلمين أن يسترقوا سكانها[٩]. كما أنه يحق للإمام إذا شاء أن يسترق الأسرى[١٠]. وفي القرن الرابع الهجري، تضاءل مجال توسع الإسلام عسكرياً، وزال تقريباً مجال الحصول على الرقيق عن طريق الفتوحات[١١].

ب ـ وكان بعض الولاة يرسل الرقيق ضمن الواردات. فمثلاً اعتاد بعض البربر أن يقدموا أطفالهم بدل الجزية[١٢]. وكان عبد الله بن طاهر، أمير خراسان (٨٢٨ ـ ٨٤٤ م) يرسل إلى الخليفة ألفين من الأتراك الغزّية سنوياً[١٣].

---

(٥) الدمشقي ـ الاشارة إلى محاسن التجارة، ص ٤٣.
(٦) ن.م.، ص ٤٣.
(٧) انظر تفصيل ذلك في الفصل الخاص بـ «مستوى المعيشة».
(٨) المقدسي، ص ١١٩.
(٩) زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٤٢.
(١٠) ن.م.، ج ٤، ص ٤٣، Mez, p. 166. ويحق للإمام بالإضافة إلى ذلك: ١ ـ قتل الأسرى، ٢ ـ قبول الفدية، ٣ ـ العفو.
(١١) يذكر أنه بعد فتح المعتصم لعمورية نودي على الأسرى للبيع، خمسة خمسة وستة وستة، لكثرة عددهم.
(١٢) زيدان، ج ٤، ص ٤٣.
(١٣) ابن خرداذبه، ص ٣٩.

ج ـ طريق الشراء، وكانت هذه هي الوسيلة الرئيسية للحصول على الرقيق في القرن الرابع الهجري، وكانت توجد تجارة واسعة للرقيق، وكان في أكثر المدن الرئيسية أسواق خاصة لبيع الرقيق[١٤]. واعتاد بعض التجار أن ينظموا حملات خاصة للحصول على الرقيق[١٥].

وكانوا يحصلون على الرقيق من الجنسين، سوداً وبيضاً. فالرقيق الأسود يجلب من الحبشة والسودان، عن طريق مصر[١٦]، أو من زنزبار بطريق البحر[١٧]. ويصف مؤلف حدود العالم بلاد السودان ـ وهي البلاد الواقعة بين النيل والمحيط الأطلسي ـ بأنها «البلاد التي يأتي منها الخصيان... فالتجار يسرقون أطفالهم... ويخصونهم ثم يجلبونهم إلى مصر للبيع»[١٨].

وبين الرقيق الأبيض الروم، والكرج، والأرمن، إلاّ أن أكثرهم من الترك والسلاف (الصقالبة)[١٩]. فالترك، والخزر خاصة، وبعض السلاف كانوا يجلبون عن طريق خوارزم. وكانت سمرقند السوق الأعظم والمركز الرئيسي لتدريبهم[٢٠]. ومن صادرات مدينة بلغار ـ وهي عاصمة البلغار الذين يسكنون على نهر الفولكا ـ الرقيق الذين يؤخذون إلى خوارزم وإلى جهات جيحون[٢١]. ويجلب من خراسان رقيق أبيض غالي الأثمان، يصل سعر الواحد منه إلى خمسة آلاف دينار[٢٢]. أما الرقيق الأوروبي فأكثره من أهالي شرقي أوروبا، ويجلب عادة عن طريق ألمانيا إلى الأندلس ومنها إلى موانىء البحر الأبيض المتوسط[٢٣].

---

(١٤) البيهقي، ص ٦١٦، رسائل الصابي، ج ١، الرسالة الأولى والثالثة. ويصف اليعقوبي (البلدان ص ٢٦٠) سوق الرقيق في سر من رأى، التي بنيت في القرن الثالث الهجري، قائلاً: «وسوق الرقيق في مربعة فيها طرق متشعبة فيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق».

(١٥) *E.I.*, art Zanj, H.A., p. 165.

(١٦) زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ٣٩، Mez, p. 157, H.A., p. 169; Noldeke, *Sketches*, p. 169.

(١٧) المروزي، ص ٥٤.

(١٨) H.A., p. 169.

(١٩) زيدان، ج ٥، ص ٣٩، ابن حوقل ص ٤٨٣، Mez, p. 158-9.

(٢٠) زيدان، ج ٥، ص ٣٩، ابن حوقل، ص ٤٨٢ وص ٤٩٤.

(٢١) Mez, p. 159.

(٢٢) زيدان، ج ٥، ص ١٣٩.

(٢٣) ن.م.، و Mez, p. 159.

د ـ وكان أبناء الإماء يعتبرون رقيقاً إذا كان الأب عبداً، أو كان حراً ولم يكن مالكاً للأمة، أو إذا كان مالكاً للأمة ولم يعترف بأبوّة الطفل(٢٤).

وكان الرقيق، بصورة عامة، يستخدمون في المهن التالية:

أ ـ في خدمة البيوت، وذلك بعد شيء من التدريب. فكان منهم الطباخون، والخزانون، والبوابون، والملاحون في القوارب، وسواس الخيل، وحتى أمناء في المكتبات الخاصة(٢٥). وكان الخصيان يقومون بحراسة الحرم وخدمتهن(٢٦).

ب ـ واستخدم بعضهم في أعمال أدبية كالغناء وإلقاء الشعر وحفظ القرآن والحديث وتلاوتهما(٢٧). ولما كان المجتمع كثير التقدير للشعر والغناء، فقد كان الطلب عالياً على ذوي المواهب الفنية من الرقيق. لذا كان النخّاسون (تجار الرقيق) يقومون بتعليم الغلمان والجواري فنون الشعر والموسيقى ويربحون من وراء ذلك أرباحاً طائلة(٢٨). وقد كان أكثر المغنين في بغداد سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م من الرقيق(٢٩).

ج ـ وهناك عدد كبير من الرقيق يستخدم حرساً خاصاً أو يدرّب للجيش. فقد استخدم المقتدر أحد عشر ألف مملوكٍ في قصره(٣٠). وكان في الجيش فرق كاملة من المماليك(٣١).

وقد يشتغل العبد بالتجارة، بإذن سيده، وهو العبد المأذون، ويمكنه في هذه الحالة أن يتاجر ويتعاقد في نطاق رأسماله لحساب سيده. ويمكنه أن يتاجر لحسابه وأن يساهم في شركة، ولكنه يرتبط عادة بسيده(٣٢). وربما كان دور العبيد في التجارة في صدر الإسلام أوسع منه في فترتنا نتيجة تبدل أوضاع العرب وخبرتهم(٣٣).

---

(٢٤) انظر Mez, add. note p. 166.

(٢٥) البيهقي، ص ٦١٣، زيدان ـ مختارات، ج ٢، ص ١٠٤، حكاية أبي القاسم، ص ١٠١، Mez, p. 165.

(٢٦) البيهقي، ص ٦٠٩.

(٢٧) انظر زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٤٤.

(٢٨) الأغاني، ج ١٢ ص ٤٣.

(٢٩) حكاية أبي القاسم، ص ٨٧، انظر زيدان، ج ٤، ص ٣٣ ـ ٣٨.

(٣٠) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ٥١.

(٣١) الصابي، ص ١١ وما يليها. يذكر الصابي فرقة من الزنج كونها الموفق، وأخرى من العبيد كونها المعتضد، ص ١٢.

(٣٢) السرخسي ـ المبسوط، ج ٢٥، ص ٢ وما بعدها وص ٩٩ وما بعدها، المدونة، ج ١٢، ص ٧٠.

(٣٣) انظر صالح العلي ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص ٢٧١ ـ ٢٧٣.

د ـ وهناك العبيد الذين يشتغلون في الحقول. وهؤلاء كانوا على قسمين: فالقسم **الأول** عبيد لا حقوق لهم مطلقاً، كالزنج الذين كانوا يشتغلون في بطيحة البصرة وفي بساتينها[٣٤]. ويتحدث ربيعة الرأي عن العبيد الذين يشتغلون في فلاحة الأرض ويعاملون كالماشية[٣٥]. واستخدم بعض الرقيق في الرعي[٣٦].

والقسم **الثاني** هم الأقنان الذين كانوا يعيشون في القرى ويعتبرون جزءاً من الأرض. وكان هؤلاء في الأصل من الفلاحين النبط الأحرار، وليس لهم ما يملكون إلاّ مقدرتهم على العمل. وعندما تنتقل ملكية الأراضي التي يشتغلون عليها، سواء أكان ذلك بالفتح أو بالشراء، كانوا يبقون على الأرض، وكان السادة الجدد يعتبرونهم جزءاً من ملكيتهم الجديدة ويعاملونهم معاملة العبيد. وقد حصل هذا قبل الإسلام، وجاء الإسلام فألغى الفوارق الطبقية بين المغلوبين، وحرّر العاملين في الأرض، إلاّ أن قسماً منهم بقوا عبيداً في الواقع[٣٧]. وربما أمكن اعتبار الزطّ الذين جاء بهم الحجاج من السند من الأقنان[٣٨]. ولم يكن بالإمكان تحرير الأقنان أو بيعهم، لأنهم ليسوا عبيداً من الوجهة القانونية ـ وإن كانوا كذلك في الواقع ـ ولكنهم بقوا مربوطين بالأرض[٣٩].

وأوصى الإسلام بحسن معاملة العبيد[٤٠]، إلا أنه من المنتظر أن يشذّ الكثيرون عن هذه التوصية. وكثيراً ما هرب العبيد من أسيادهم، ولذا تؤكد عهود الخليفة على ضرورة إرجاع العبيد الهاربين (الأبّاق) إلى أسيادهم[٤١].

٢ ـ حركة العمّال: أسبابها، بدايتها

ولم يكن استخدام العبيد على نطاق واسع، ولا فقر أهل الصنائع والحرف

---

(٣٤) الطبري، س ٣، ص ١٧٤٢.

(٣٥) ربيعة الرأي، ص ١٧.

(٣٦) البيهقي، ص ٦١٣.

(٣٧) يذكر أبو القاسم البغدادي «أنباط القرى وعبيدها». ويقول شريك، وهو فقيه: «أهل السواد أرقاء». اختلاف الفقهاء للطبري، ص ٢٢٢.

(٣٨) Baladhuri, *Origin*, II, p. 109 - 10.

(٣٩) زيدان ـ مختارات، ج ٢، ص ١٠٤ ـ ١٠٥. انظر صالح العلي ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص ٦٣ ـ ٧٦.

(٤٠) زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ٤٤؛ Mez, p. 106 ff.

(٤١) الطبري، س ٣، ص ١٧٥٠. ويتهم البلاذري (ص ٣٧٥) اباق العبيد وموالي بأهلة بأنهم حرضوا الزط على الثورة على العباسيين. وانظر رسائل الصابي ـ الرسالتين الأولى والثانية.

وانحطاط مركزهم الاجتماعي، بالأمر الجديد، ولكن القرن الرابع شهد مؤثرات جديدة أثارت العمال لدرجة لا سابق لها، وزلزلت الخلافة بصورة عنيفة. وأهم هذه المؤثرات، ثلاثة:

أولاً: ظهور طبقة رأسمالية، تمتلك رؤوس أموال كبيرة وتشجع الصيرفة ووسائل الائتمان وإنشاء المصارف[٤٢]. ويتكون أفرادها من: (أ) الموظفين الكبار كالوزراء والقواد، ورؤساء الكتّاب، وكلهم يستلم رواتب ضخمة تتجاوز رواتبهم في أية فترة سابقة[٤٣]؛ و(ب) التجار المثرين مثل ابن الجصاص[٤٤].

ثانياً: تجمع العمال أكثر من ذي قبل، كما هو وضع الزنوج في جنوب العراق. كما أن مجموعات أهل الحرف في المدن تنظمت كثيراً[٤٥]. وهذا ساعد على تكوين الشعور بالمصلحة المشتركة، وأصبح العمال يشعرون بقوتهم.

ثالثاً: ظهور دعاية قوية تبث باسم العدل الديني، إلاّ أنها كانت في الواقع تؤكد بصورة خاصة على إصلاح الأحوال المادية. هكذا كانت الدعاية التي أنتجت ثورة الزنج، والدعاية التي بثّها القرامطة وإخوان الصفا. وقد أضيفت هذه الدعاية الجديدة إلى بذور التذمر الموجودة بين الطبقات الفقيرة وأثارت الوعي فيها.

وقد بانت بوادر الاضطراب منذ القرن الثالث الهجري. وكانت نتيجة مباشرة للانحطاط السياسي، ولارتفاع الأسعار دون حصول ارتفاع مماثل في الأجور، ولاحتكار المواد الغذائية من قبل التجار والمثرين[٤٦].

ففي أواخر القرن الثاني الهجري، وأوائل القرن الثالث، ظهر **العيّارون والشطّار** في بغداد. وكانوا في الظاهر عصابات من اللصوص جعلت هدفها نهب الحوانيت والأسواق وبيوت الأغنياء. ولكن جذور الحركة هي رغبة الطبقة المنكوبة مالياً في أخذ ثأرها من المثرين. وتظهر الأهمية الاجتماعية للحركة من انتشارها، ففي خلال النزاع بين الأمين والمأمون ارتفع عدد العيّارين إلى خمسين ألفاً، يرتدون لباساً خاصاً يميزهم[٤٧].

---

(٤٢) انظر فصل: «الجهبذة والصيرفة».
(٤٣) انظر فصل: «مستوى المعيشة».
(٤٤) انظر فصل: «التجارة».
(٤٥) انظر قسم (ج) من هذا الفصل.
(٤٦) انظر زيدان، ج ٥، ص ٤٧.
(٤٧) انظر المسعودي، ج ٦، ص ٤٥٢ ـ ٧، ومختارات زيدان، ج ٢، ص ٨٧، والأغاني، ج ٦، ص ٩١.

وفي خلال القرن الرابع الهجري، استمر العيّارون والشطّار مصدر بلاء لبغداد[٤٨]؛ ففي سنة ٣٩٤ هـ/١٠٠٣ م جبوا الضرائب من أسواق بغداد[٤٩]. وفي سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م تسلّطوا على بغداد، فنهبوا سكانها وعيّنوا عريفاً في كل محلة[٥٠]. ومما يجلب الانتباه أن كثيراً من العلويين والعباسيين كانوا في صفوف العيّارين الذين نهبوا بغداد سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠١ م[٥١]. ويمكننا فهم هذه الحالة إذا تذكرنا أن التغلب البويهي أفقر أشراف أهل البلاد وجعلهم في منزلة اجتماعية اقتصادية ثانوية[٥٢].

وترد الإشارة إلى عصابات اعتيادية من اللصوص، تتجول في البلاد وتهاجم القوافل. ولسان حال البعض منها يظهر في قول ابن سيار الكردي، رئيس إحدى هذه العصابات، حين برّر عمله قائلاً: «إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها وتجرّدوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة، واللصوص فقراء إليها. فإذا أخذوا أموالهم ـ وإن كره التجار أخذها ـ كان ذلك لهم مباحاً لأن عين المال مستهلكة بالزكاة، وهم يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا»[٥٣].

في مثل هذه التربة بذرت الدعاية الجديدة، وولّدت حركتين كبيرتين: ثورة الزنج وحركة القرامطة. وقد درست هاتان الحركتان لحد الآن من الناحيتين الاجتماعية والسياسية. ومهمتنا أن نفحص أسسهما الاقتصادية، ففيهما تختفي جذور الحركتين.

أ ـ ثورة الزنج سنة ٢٥٥ هـ ـ ٢٧٠ هـ/٨٦٩ م ـ ٨٨٣ م

مهما كانت نوايا وأهداف صاحب الزنج ـ الذي ادّعى أنه علوي ـ فإن دوافع اتباعه من الزنوج كانت اقتصادية واجتماعية. فالثوار، وهم عبيد من زنوج الصومال، وزنجبار، كانوا يشتغلون للمثرين من أصحاب المصالح في السهول الملحية قرب البصرة (في فرات البصرة) في كسح السباخ لجعل الأرض قابلة للزراعة وللاستفادة من

---

(٤٨) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٢، ص ٨٣ وص ٢٤٤، ج ٩، ص ١٤٥ ـ ١٥٠. وفي مسكويه معلومات كثيرة.

(٤٩) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (خط)، مجلد ١٢ ورقة ٨٤ أ.

(٥٠) ن.م.، ورقة ١٠٥ أ ـ ب.

(٥١) ن.م.، ورقة ١١٦ ب ـ ١١٧ أ.

(٥٢) الصابي، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٥٣) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٠٦.

الأملاح المتجمعة[٥٤]. وانضمت إليهم جماعات من العبيد الهاربين (الأباق) من القرى والمدن المجاورة تخلّصاً من وضعهم السيىء[٥٥].

وكان الزنوج يشتغلون عادة في جماعات كبيرة تتراوح بين ألف وخمسة آلاف[٥٦]. بل قد يصل عددهم إلى أكثر من هذا بكثير، فقد بلغ عدد إحدى هذه الجماعات في منطقة دجيل الأهواز خمسة عشر ألفاً[٥٧]. وهكذا يظهر كثرة عدد الزنوج، ومدى تمركز العمل بينهم.

وكان هؤلاء الزنوج يشتغلون دون أجور، في سبيل عيش نكد. فلم يكن أسيادهم يعطونهم إلاّ قوتاً يومياً يتكوّن من قليل من الطحين والتمر والسويق[٥٨]. لذا كان أي وعد بتحسين وضعهم المعاشي مصدر إغراء لهم. وقد فهم صاحب الزنج حالتهم، بعد أن تحرّى الوضع وسأل: «عن... ما يجرى لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر»[٥٩]. ولم يكن في المثل والمبادىء ما يؤثر في هؤلاء المناكيد، خاصة وأن أكثرهم همج لا يفهمون حتى اللغة العربية[٦٠]. ولذا أكد صاحب الزنج على النواحي المادية. ففي سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م ألقى فيهم خطبة «ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملّكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلى الأمور»[٦١].

ومن هذا يتضح أن صاحب الزنج هدف إلى إجراء تعديلات محلية في أوضاع العبيد الاجتماعية ولم يرد إلغاء الرق. وكانت دعوته موجهة إلى جماعة معيّنة من العبيد. وقد حرر العبيد كلما سنحت له الفرصة، ولكنه كان يسترق أسرى المسلمين[٦٢]. ولهذا فشلت دعوته (سنة ٢٥٤ هـ/٨٦٨ م) في البصرة رغم انقسام أهلها الأحرار إلى حزبين متخاصمين الباهلية والسعدية[٦٣]. ولهذا أيضاً نجد أهل

---

(٥٤) الطبري، س ٣، ص ١٧٤٢، Noldeke *Sketches*, p. 144.

(٥٥) الطبري، س ٣، ص ١٧٥٠، Noldeke, *op. cit.*, p. 153.

(٥٦) Massignon, Art. Zanj *E.I.*, IV, p. 1212.

(٥٧) الطبري، س ٣، ص ١٧٥٠ - ١٧٥١.

(٥٨) ن.م.، س ٣، ص ١٧٤٨.

(٥٩) ن.م.، س ٣، ص ١٧٤٨.

(٦٠) ن.م.، س ٣، ص ١٧٥١.

(٦١) ن.م.، س ٣، ص ١٧٥٠.

(٦٢) ن.م.، س ٣، ص ١٧٧٣ وص ١٧٧٦ وص ٢٠٤٥.

(٦٣) ن.م.، س ٣ ص ١٧٤٥ - ١٧٤٦ وص ١٧٧٧.

القرى المجاورة، إضافة إلى أسياد الزنج، يعدون (رميس) قائد الخليفة سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م بمكافئات مادية كبيرة إن هو أخمد الحركة وأرجع العبيد إلى أسيادهم[٦٤].

ولم يرد الزنج إلاّ تحرير أنفسهم وتحسين وضعهم المادي، دون أن يهدفوا إلى إنشاء نظام اشتراكي عام كما اعتقد الوزير السلجوقي نظام الملك[٦٥]. ولعلّ عدم وجود برنامج اقتصادي اجتماعي شامل في حركة الزنج يفسّر فشل حركتي الزنج والقرامطة في التعاون ضد العباسيين، رغم الجهود التي بذلها حمدان قرمط، زعيم قرامطة العراق[٦٦].

ب ـ حركة القرامطة[٦٧]

بدأت الدعوة المنظمة لقرامطة العراق حوالى سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤ م، وأنتجت أول حركة مسلحة سنة ٢٧٨ هـ/٨٩١ م[٦٨]. ثم تراخت الحركة بعد سنة ٢٨٦ هـ/٨٩٩ م حين اختفى رئيس دعاتها حمدان قرمط، وقتل عضده الأيمن عبدان، نتيجة اختلافهما مع (الإمام) أحمد بن عبد الله بن ميمون. وأخمدت الحركة فعلاً بعد فشلها العسكري سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٧ م[٦٩]، وحلّت بها الضربة الأخيرة سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م[٧٠].

ولقد تأثرت الحركة القرمطية في العراق، في النواحي السياسية والاجتماعية، بالوضع المحلي. وكان منظمها الأكبر حمدان قرمط قروياً عارفاً بنقاط الشكوى عند أهل السواد. ولفهم معنى وأهمية الحركة القرمطية يلزمنا أن نعرف الجماعات التي تأثرت بها، والمبادىء التي دعت إليها.

---

(٦٤) ن.م.، س ٣، ص ١٧٥٩.

(٦٥) ورد في سياست نامة (الترجمة الفرنسية) ص ٢٨٥ «كانت مبادؤه عين مبادىء مزدك». وقد دعا مزدك إلى «أن الثروات... يجب أن توزع بين الناس حسب حاجتهم، بشكل لا يدع أحد محروماً من وسائل العيش وغير قادر على حصول ما يلزمه، ولأجل أن تحصل المساواة بين الجميع»، ص ٢٨٤.

(٦٦) يذكر الطبري (س ٣، ص ٢١٣٠) أن حمدان قرمط قابل صاحب الزنج، وقال له: «إني على مذهب، وورائي مائة ألف سيف فناظرني فإن اتفقنا على المذهب ملت بمن معي إليك وان تكن الأخرى انصرفت عنك... فناظرته إلى الظهر فتبين لي في آخر مناظرتي إياه أنه على خلاف أمري».

(٦٧) انظر تعريف ماسينيون للكلمة في E.I. II, p. 767.

(٦٨) انظر De Sacy, vol. I, p. CLXVIII; De Goeje, *Memoirs*, p. 16, p. 31 والطبري، س ٣، ص ٢١٣٠.

(٦٩) De Sacy, I, p. CC-CCX.

(٧٠) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٣٧.

انتشرت الدعوة القرمطية بين الفلاحين الجهلة الذين كانوا يئنون من جشع الجباة واستغلال الملاكين(٧١). فلما أخمدت ثورة القرامطة سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١ م توقف قائد الخليفة عن التنكيل بالثوار «خوفاً على السواد أن يخرب إذ كانوا (أي الثوار) فلاحيه وعماله»(٧٢). وهناك حادث كان له أثر خاص في توسيع الحركة، وهو ثورة الزنج وما أورثته من خراب في السواد(٧٣).

وانتشرت الحركة بين أهل الحِرَف وعوام المدن، وقد كان مستوى معيشتهم واطئاً، وفيهم يقول الغزالي: والعامي الجاهل يظن أنَّ التلبيس بالأديان والعقائد مثل المواصلات والمعاقدات الاختيارية، فيصلها مرة بحكم المصلحة ويقطعها أخرى»(٧٤). فقلّة ثقافة العامة جعلتهم يجهلون دقائق العقيدة، وينجرفون بسهولة في تيار الدعوة القرمطية الماهرة(٧٥).

ونجحت الدعوة القرمطية كذلك مع قبائل العراق الجنوبي(٧٦). وقد كان فقر البدو مضرب المثل. فلما قال بدوي: «الغناء زاد المسافر» علّق عليه بعضهم بأنه يقول ذلك لأنه لا يعرف خبز السميذ، ولا شواء باب الكرخ (ببغداد) ولا الخضر ولا الفالوذج المصري(٧٧).

هذه هي أهم الجماعات التي انتشرت بينها الدعوة، مع أنها كانت عامة وأثرت في جميع الطبقات والأصناف(٧٨). ولا يمكن وصفها بأنها حركة فارسية تهدف إلى إرجاع ملك الفرس(٧٩)، لأنها ضمّت إلى صفوفها بعضاً من الفقراء العرب، بينما

---

(٧١) البغدادي ـ الفرق بين الفرق، ص ١٤١.

(٧٢) الطبري، س ٣، ص ٢٣٠٦، انظر أيضاً De Sacy, I, p. CLXVIII and CLXXV.

(٧٣) De Goeje, *op. cit*. p. 26.

(٧٤) الغزالي ـ فضائح الباطنية، ص ٥٣.

(٧٥) انظر البغدادي، ص ١٤١. ويقول الغزالي في فضائح الباطنية ص ٥٣: «إن العامي متقلب».

(٧٦) البغدادي، ص ١٤٢، De Sacy, I, p. CLXXV.

(٧٧) أبو القاسم البغدادي، ص ٩٤.

(٧٨) يقول المعري:

كيف لا يشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم النعماء

ويقول:

يقال ان زماناً يستقيد لهم حتى يبدل من بؤس بنعماء

(٧٩) البغدادي، ص ١٤١ ـ ١٤٢.

وقفت الأرستقراطية الفارسية على الضد منها[٨٠].

أما من حيث المبادىء فقد نادى القرامطة، كما يقول الغزالي: «بالطعن في السلاطين وعلماء الزمان... ويذكرون أن الفرج منتظر من كل ذلك»[٨١]. وظهروا أمام الناس بمظهر أبطال السلم والرفاه اللذين وعد بهما العباسيون ولم يحققوهما[٨٢]. وأكدوا على أهمية الناحية المادية. قال الديلمي: «ومنهم ـ أي القرامطة ـ رجل أصابه فقر ومسكنة فيطمعونه في سد الخلة وجبر الفاقة»[٨٣]. وقد أوضح الحسين الأهوازي ـ وهو أول داع اسماعيلي في العراق ـ مهمته حين وصل سواد الكوفة سنة ٢٦٤ هـ/ ٨٧٧ م إذ قال لحمدان قرمط: «أمرت أن أدعو أهلها (قرية قرب الكوفة) من الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة، واستنقذهم من ورطات الذل والفقر، وأملّكهم مالاً يستغنون به من التعب والكد»[٨٤]. وهكذا أعطيت الناحية المادية أهمية خاصة.

وقد تطرف القرامطة إلى حد أن اعتبروا الدين سبب استعباد الجماهير. وتنسب إلى عبيد الله بن الحسن القيرواني رسالة أرسلها إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي، حلل فيها أثر الإسلام، جاء فيها: «ما وجه ذلك إلاّ أن صاحبهم (أي الرسول) حرّم عليهم الطيبات، وخوّفهم بغائب لا يعقل وهو الإله الذي يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته ولذريته خولا، واستباح بذلك أموالهم بقوله: «لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى»[٨٥]. فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة. وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون. وهل الجنة إلاّ هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلاّ ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج؟». ثم قال سليمان بن الحسن في

---

(٨٠) Barthold, *Mussulman Culture*, pp. 72 - 77, pp. 100 - 102; Lewis, *Islamic Guilds*, E.H.R. 1937, p. 22.

(٨١) الغزالي ـ فضائح الباطنية، ص ٤.

(٨٢) De Goeje, *op. cit.* p. 42.

(٨٣) الديلمي، ص ٢٠.

(٨٤) ابن الجوزي ـ المنتظم، ج ٥، ص ١١٣. ويذكر النويري أن الأهوازي قال ما معناه: «امرت أن أروي هذه القرية وأن أغني أهلها، وأن أنقذهم وأسلطهم على ثروة أسيادهم».
De Sacy, vol. I, p. CLXVIII.

(٨٥) سورة الشورى (٤٢) آية ٢٣.

هذه الرسالة: «وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس. وفي هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس. فهنيئاً لكم ما نلتم من الراحة عن أمرهم»[٨٦]. ولا تخفى اللهجة التجارية لهذه الفترة في الرسالة، كما تتبين النظرة المادية للحياة فيها.

وقد اتخذ القرامطة الموقف نفسه من بقية الأديان، فقالوا: «إن المسمّين بالأنبياء كنوح وابراهيم وموسى وعيسى... وكل من ادعى النبوة، كانوا أصحاب نواميس ومخاريق، أحبوا الزعامة على العامة فخدعوهم بنيرنجات واستعبدوهم بشرائعهم»[٨٧].

والخلاصة فإن القرامطة قالوا بأن الأنبياء والسلاطين أنزلوا الجماهير إلى مستوى العبودية الاجتماعية والشقاء المادي، وأعلنوا بأنهم يريدون إرجاع العدل الاجتماعي، وإنشاء الرفاه المادي. وقد حاول حمدان قرمط إنجاز ذلك بتأسيس مجتمع اشتراكي لاتباعه في السواد. وقد سجّل النويري تدابيره، رواية عن ابن رزام.

فبعد أن نشر حمدان مبادئه في بعض القرى، أخذ يفرض على أتباعه سلسلة متزايدة من الضرائب والفروض. وأخيراً فرض عليهم سنة ٢٧٦ هـ نظام (الألفة)، وبموجبه تجمع أموال القرية في محل واحد ليشترك الجميع في التمتع بها. ويختار الداعي من أهل القرية رجلاً ثقة يتسلم كل ما يملكه أهل القرية من مال ومتاع وحلي ودواب. وعلى هذا الثقة أن يكسو العريان ويسد حاجات الناس الأخرى حتى لا يبقى فقير بينهم.

وأخذ كل فرد يشتغل بجد وإخلاص لخير المجموع، وذلك ليحتل المركز الذي يليق بخدماته. فالنساء يأتين بما يحصلن عليه من الغزل، وحتى الأطفال يقدمون الجعل الذي يحصلون عليه من نظارة الحقول، وليس لأحد ملك عدا سيفه وسلاحه. وقد قال حمدان لأتباعه إنهم في غنى عن المال لأن الأرض لهم[٨٨].

وهكذا يتبين أن حمدان اعتقد أن سبب التذمر هو الشقاء المادي والحطّة الاجتماعية، وأنه لا يمكن تحقيق المساواة الاجتماعية دون المساواة المادية. ولذا كان من الضروري قطع دابر الفقر، وخير وسيلة لذلك ـ في نظره ـ هي اشتراكية المال. وقد

---

(٨٦) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٢٨١ ـ ٢.

(٨٧) ن.م.، ص ٢٨٨.

(٨٨) انظر De Sacy, *Exposé*, I, p. CLXXXIX ff; De Goeje, *Carmathes*, p. 27 ff.
وقد اسندت (الألفة) إلى تأويل لآية ٩٨ من سورة ٣، وآية ٦٤ من سورة ٨ من القرآن.

قبل اتباع حمدان تدابيره بكل حماس، ولا سيما وأنه جعل ما يعطى للفرد يتناسب وحاجاته، بينما جعل مركزه الاجتماعي يتناسب وقابلياته لخدمة المجموع. لذا فلا غرابة في أن اعتقد نظام الملك أن الحركة القرمطية هي استمرار لحركة مزدك الاشتراكية التي ظهرت في العصر الساساني والتي كان أساسها «توزيع المال حسب الحاجة»[٨٩].

ولا ندري كم استمر نظام حمدان، وليس من المحتمل بقاؤه بعد دحر القرامطة سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٧ م. إلاّ أن فعاليات القرامطة استمرت بصورة سرية حتى ثورتهم سنة ٣١٦ هـ/٩٢٨ م، حين اجتمع أكثر من عشرة آلاف منهم بسواد واسط، وتجمّع آخرون في عين التمر ونواحيها. وكانت أعلامهم بيضاء مكتوباً عليها «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين»[٩٠]. وقد أخمدت هذه الثورة، وتضاءلت أهمية القرامطة[٩١].

إلاّ أن الآراء الاشتراكية عاشت في البحرين حيث أنشأ أحد دعاة حمدان[٩٢]، وهو سعيد الجنابي، دولة شبه اشتراكية، وقد وصفها ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري[٩٣].

ج ــ إخوان الصفا

إخوان الصفا جمعية سرية بدأت فعالياتها في البصرة أو بغداد، وانتشرت في مختلف البلدان. وكانت تشتغل ضد الخلافة العباسية وتسعى للتهذيب العام، جاعلة ذلك وسيلة لإحداث ثورة سياسية دينية عامة. ولهذا الغرض ألفوا رسائلهم المشهورة بـ **رسائل إخوان الصفا**، وعددها بين إحدى وخمسين وثلاث وخمسين رسالة، تناولوا فيها كل نواحي المعرفة التي يحتاجها الفرد المثقف في القرن الرابع الهجري[٩٤].

ومما يجلب الانتباه، أن رسائل إخوان الصفا وجّهت عناية خاصة إلى العمل

---

(٨٩) انظر Lewis, *Origins*, pp. 96 - 100 وعنان ـ الحاكم، ١٩٠ ـ ١٩١.

(٩٠) القرآن: سورة ٢٨ آية ٥.

(٩١) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٣٧.

(٩٢) ابن حوقل، ص ٢٩٥.

(٩٣) ناصر خسرو: سياست نامة، ص ٩٣ ـ ٩٥ (الترجمة العربية) وص ٢٥٥ وما بعدها (من الترجمة الفرنسية).

(٩٤) انظر مقدمة رسائل اخوان الصفا، ج ١، ص ١٦ ـ ٤٧ (لأحمد زكي باشا) وص ٣ ـ ١٦ (لطه حسين)، ومادة «اخوان الصفا» في دائرة المعارف الإسلامية، و Massignon, *Der Islam*, IV, p. 324 وتتمة صوان الحكمة، ص ٢١، و *Der Islam*, XX, p. 210-27.

وإلى الصنّاع. وقد أثنت، في رسالة خاصة، على شرف الصنايع(٩٥)، في حين أنها وصفت من لا صناعة له بأنه «لا يتعلم الصناعة لكبر في نفسه مثل أولاد الملوك... و(من) لا يتعلم ولا يعمل لزهده وورعه ورضاه بقليل من أمور الدنيا وإقباله على طلب الآخرة مثل الأنبياء عليهم السلام ومن يقتدى بهم، و(من)... لا يعمل ولا يتعلم لكسله وثقل طبيعته عن الحركة ويرضى بالذل والهوان في طلب معاشه كالمكدين والسؤّال... و(من) لا يعمل من أجل مهانته واسترخاء طبيعته وقلة فهمه مثل النساء وأمثالهن من الرجال»(٩٦).

ويظهر اتجاه إخوان الصفا بوضوح في عدم أخذهم بالنسب مقياساً اجتماعياً في تصنيف طبقات المجتمع. فهم يصنّفون الناس على أساس مادي حسب عملهم ودخلهم، كما يلي:

١ ـ **الصنّاع**: «هم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم»، ويعيشون من بيع ما ينتجون.

٢ ـ **التجار**: وهؤلاء «هم الذين يتبايعون بالأخذ والعطاء، وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطون».

٣ ـ **الأغنياء**: وهم يملكون المواد الأولية ويشترون البضائع المنتجة. ويدخل أغنياء التجار في هذه الطبقة(٩٧).

ولا يزال ولاء إخوان الصفا موضع نقاش. وكان أبو حيّان التوحيدي أول من أشار إليهم وأعدّ قائمة بخمسة نسب إليهم تأليف الرسائل(٩٨)، وأخذ القفطي بروايته مع إشارة إلى الظن بأنها من كلام بعض الأئمة من نسل علي، أو لمتكلمي بعض المعتزلة(٩٩). وأورد كل من القاضي عبد الجبار الهمداني(١٠٠) والشهروزي(١٠١) قائمة

---

(٩٥) الرسائل، ج ١، ص ٢١٠ ـ ٢٢٧.

(٩٦) ن.م.، ج ١، ص ٢٢٢.

(٩٧) ن.م.، ج ١، ص ٢١٧.

(٩٨) التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ٤ وما بعدها.

(٩٩) القفطي ـ تاريخ الحكماء (باعتناء ليبرت) ـ ليبزج ١٩٠٣، ص ٨٢ ـ ٣.

(١٠٠) Stern, *New Information about the authors of the Epistles of Sincere Brethren*, Islamic Studies, III, 1964, pp. 410 ff.

(١٠١) Seyyed Hossein Nasr, *An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines*, Cambridge, Mass. 1964, p. 28. وأسماء من ذكرهم التوحيدي هم: ١) زيد بن رفاعة؛ ٢) أبو سليمان محمد بن معشر البستي (المقدسي)؛ ٣) أبو الحسن علي بن هارون الزنجاني؛ ٤) أبو أحمد المهرجاني؛ ٥)

لا تختلف إلاّ في اسم واحد، وكلها تشير إلى أن الرسائل كتبت في الربع الثالث للقرن الرابع الهجري.

ويفهم من حديث التوحيدي (٣٧٣ هـ) انه يلمح ميولاً اسماعيلية لدى المؤلفين[١٠٢]. أما القاضي عبد الجبار فيعتبرهم اسماعيلية.

ولا نرى ذكراً للرسائل لدى الاسماعيلية الأوائل، أما الاسماعيلية المتأخرون فيرجعونها إلى أصول اسماعيلية. ففي أواخر القرن الخامس نسبها نزاري سوري للأئمة المستورين، وسمّى الدعاة عبد الله بن ميمون القداح وثلاثة آخرين مساهمين في التأليف[١٠٣]. أما الرواية المستعلية الطيبية في اليمن فنسبتها، على الأقل من القرن السابع، للإمام أحمد بن عبد الله[١٠٤]. وهذا يعني أن الرسائل، برأيهم، كتبت في العقود الأولى من القرن الثالث الهجري.

أما الباحثون المحدثون فيتباينون في تحديد وجهة أصحاب الرسائل وتاريخها. وتتراوح آراؤهم بين اعتبارهم مستقلين أو نسبتهم إلى المعتزلة أو الصوفية أو الشيعة[١٠٥]. ويرى كازانوفا وجولدزيهر وماكدونالد أن الرسائل متصلة بالحركة

= العوفي. ويختلف الشهرزوري في الاسم الثالث فيجعله أبو الحسن علي بن وهرون الصابي. أما القاضي عبد الجبار فيعطي قائمة التوحيدي إلا أنه يضع أبا محمد بن أبي الفضل الكاتب المنجم محل المقدسي، ويجعل رأس الجماعة الزنجاني. وفي تتمة صوان الحكمة، لظهير الدين البيهقي، لاهور ١٣٥١ هـ، ص ٢١، نجد نفس قائمة التوحيدي.

(١٠٢) الإمتاع والمؤانسة، ج ٢، ص ١٦.

(١٠٣) أبو المعالي حاتم بن عمران بن زهرة (ت ٤٩٨ هـ). انظر خمس رسائل اسماعيلية، نشر عارف تامر، بيروت ١٩٥٦، ص ٩٦ وما بعدها؛ مصطفى غالب - في رحاب اخوان الصفا، ص ٤٢٦ وانظر كتابه تاريخ الدعوة الاسماعيلية ط. ٢، بيروت ١٩٦٥، ص ١٦٢ وص ١٦٤.

(١٠٤) أول اشارة جاءت لدى ابراهيم بن الحسين الحامدي (ت ٥٥٧ هـ) في كتابه «كنز الولد» (نشر مصطفى غالب - بيروت ١٩٧١)؛ انظر ص ٣٩ وص ٤٢ - ٣ وص ٢٩٥ وص ٢٩٧. وينقل محمد بن طاهر (ت ٥٩٦ م) الرسالتين الثالثة والرابعة في كتابه تنبيه الغافلين. ويشير محمد بن الوليد الأنف (ت ٦١٢ م)، في كتابه دامغ الباطل، إلى الامام من دور الستر (عبدالله بن محمد بن اسماعيل أو ابنه أحمد) بأنه وضع الرسائل. وكان الحسين بن علي بن محمد بن الوليد (ت ٦١٧ هـ) أول من ذكر في «الرسالة الوحيدة» اسم الامام الذي ألف الرسائل وهو أحمد بن عبدالله. وذكر ادريس عماد الدين (ت ٨٧٢ هـ) في كتابيه عيون الأخبار وزهر المعاني، ان الإمام أحمد بن عبدالله كتب الرسائل. انظر Hamdani, *Der Islam*, XX, 1932, p. 281 ff, pp. 192 - 4, pp. 297 - 9; Stern, *Islamic Studies*, III, 1964, p. 419.

وعارف تامر - حقيقة اخوان الصفا، بيروت ١٩٥٧، ص ١٨، م ٢، وص ١٦ وما بعدها، ومقدمته لجامعة الجامعة ص ١١٣؛ مصطفى غالب - في رحاب اخوان الصفا، ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

(١٠٥) انظر A. L. Tibawi, *Ikhwan as-Safa and their Rasail, Islamic Quarterly*, II, 1955, pp. 28 - 46.

الاسماعيلية(١٠٦). ويراها ماسنيون فرعاً من الحركة القرمطية(١٠٧). ويرى الهمداني ان الرسائل على صلة بالدعوة الاسماعيلية وان الإمام هو محور الرسائل وانها تتخذ كل سبيل للدعوة له، ولكنه لا يقرّ نسبتها للإمام أحمد(١٠٨). ويرى إيفانوف ان الرسائل كتبت تحت رعاية الفاطميين(١٠٩)، ويبيّن ان الاسماعيلية يقبلون الرسائل على أنها من مذهبهم ويرونها تأويلية(١١٠). وينسب هنري كوربان الرسائل إلى جماعة من الحكماء كانوا في الوقت ذاته صوت الحركة الاسماعيلية(١١١). ويرى عادل العوا ان الرسائل لها وضع خاص وانها في خط الاعتزال المتأخر(١١٢). ويأخذ الطيباوي برواية التوحيدي في مؤلفي الرسائل، ويرى انها تعبّر عن محاولة شيعية للمزج بين الفلسفة والشريعة وانها علوية الميول متسترة، وان لا دليل على أنها جزء من دعوة شيعية عامة أو اسماعيلية خاصة، ولكن الدعوة الاسماعيلية استخدمت الرسائل في ما بعد لأغراضها(١١٣). ويرى سيّد حسين نصر رابطة رخوة بين إخوان الصفا والاسماعيلية، وأن الوصف الأدق هو انهم جماعة شيعية لها اتجاهات صوفية(١١٤). ويرى شتيرن ان المؤلفين هم الذين ذكرهم أبو حيان والقاضي عبد الجبار الهمداني، وانهم اسماعيلية من اتجاه خاص يرون أن محمد ابن اسماعيل هو القائم (أو المهدي)، وان الرسائل لا أثر لها على الاسماعيلية المعاصرين، وإنما اتخذها الاسماعيلية بعد حوالي قرن من تأليفها(١١٥).

---

(١٠٦) Casanova, *Notice sur un manuscrit de la secte des Assassins*, J.A., 1898, pp. 151 - 9; Goldziher, *Le Dogme et la loi de l'Islam*, Paris 1920, p. 202; Macdonald, *Development of Muslim Thology* p. 169.

(١٠٧) *Der Islam*, IV, p. 371.

(١٠٨) M. F. Hamdani, *Rasail Ikhwan as-Safa in the Literature of the Ismaili Tayyibi Da'wa*, in *Der Islam* XX, 1932, p. 284, p. 286. وبحثه: رسائل اخوان الصفا، ص ٢٣ ص ٢٦.

(١٠٩) V.A. Ivanov, *Guide to Ismaili Literature*, London 1933, p. 31.

(١١٠) Ivanov, *The Alleged Founder of Ismailism*, Bombay 1946, p. 146.

(١١١) H. Corbin, *Rituel Sabéen et exégèse Ismailienne du rituel*, Éranos Jahrbuch, 19/1950, p. 187.

(١١٢) A. 'Awa, *L'esprit critique des Frères de la pureté*, Beirut 1948, p. 48.

(١١٣) Tibawi, *op. cit.*, p. 33، الطيباوي - محاضرات في تاريخ العرب والإسلام (بيروت ١٩٦٦)، ج ٢، ص ٦٧.

(١١٤) Seyyed Hossein Nasr, *op. cit.*, pp. 35 - 6.

(١١٥) M. Stern, *The authorship of the Epistles of Ikhwan as-Safa*. Islamic culture, =

وترى إيف ماركيه ان الرسائل اسماعيلية ومن المحتمل أن يكون الإمام أوحى ببعض الرسائل أو كلها، وان الرسائل لم تكتب مرة واحدة، وان الذين ذكرهم التوحيدي أو بعضهم ساهم في كتابة الرسائل. وهي تفترض أن الداعي عبد الله بن ميمون القداح ومعاصريه بدؤوا كتابتها، ثم أكملها خلفهم بإشراف الأئمة المتتابعين - محمد بن اسماعيل وابنه عبد الله وحفيده أحمد. وترى أن الإخوان يرفضون فكرة الإمام القائم، وتتوصل إلى أن الرسائل كتبت في الفترة ٣٥٠ - ٣٧٥ هـ/٩٦١ - ٩٨٦[١١٦].

وأخيراً، ينسبها عارف تامر إلى الإمام عبد الله بن محمد[١١٧]، بينما يتجه مصطفى غالب إلى أن إخوان الصفا اسماعيلية وكذلك فلسفتهم، وان المؤلفين هم الدعاة الأربعة للإمام أحمد بن عبد الله، وانهم كتبوها بإشرافه[١١٨].

إن الرسائل جديرة بدراسة عميقة ليس هذا محلها. وفي الرسائل طابع شيعي واضح[١١٩]، ولها وجهة اسماعيلية وآراء اسماعيلية معروضة بحذر لأنها مكتوبة لحلقات واسعة. فهي تتحدث عن الظاهر والباطن، وان الظاهر يصلح للعامة في حين ان ما يصلح للخواص هو النظر في أسرار الدين وبواطن الأمور الخفية[١٢٠]. وهي تؤكد على أهمية التأويل[١٢١]. وتتضمن الرسائل نقداً مراً للخلافة في صدر الإسلام وهجوماً عنيفاً على الخلافة العباسية وعلى الأوضاع المعاصرة[١٢٢]. وهي تنتقد الشيعة الذين لا يعرفون إلاّ النواح وزيادة الأضرحة ولا يبحثون عن العلم[١٢٣]. وهي تعرض الآراء الاسماعيلية في الإمامة، وترفض فكرة الإمام الغائب، كما تعتقد الإمامية، وتؤكد على أن الأرض لا تخلو من إمام[١٢٤]. وتتحدث الرسائل عن دور الستر (فترة

= XX, 1946 pp. 367 - 372; *Idem*, New Information, Islamic Studies, III, pp. 405 - 28.

(١١٦) Yves Marquet, *Ikhwan as-Safa*, E.I. 2, vol. III; Arabica VIII, p. 225 ff.

(١١٧) عارف تامر - مقدمة «جامعة الجامعة» بيروت ١٩٥٩ و«حقيقة اخوان الصفا»، ص ٨.

(١١٨) مصطفى غالب - في رحاب اخوان الصفا، ص ٤٣٠ - ١.

(١١٩) رسائل اخوان الصفا، ج ٤، ص ٢٦٨ وص ١٩٧. و(ط. القاهرة) ص ١٩٨ - ١٩٩ وص ٢٤٤.

(١٢٠) الرسائل (ط. القاهرة) ج ٤، ص ١٩٠، وص ٤٦ - ٧، ص ١٢٨؛ ج ٣، ص ٢١١ - ٢١٢.

(١٢١) ن.م.، ج ٤، ص ١٩٥، ج ٢، ص ٢١٠، ص ٣٤٣.

(١٢٢) ن.م.، ج ٢، ص ٢١٠، ص ٢٦٩، ص ٢٤٣، ص ٢٨٦، ص ٣٣٥، ص ٣٦٢. وانظر ج ٤، ص ٣٧٥ - ٦، ج ٢، ص ٣٦، وص ٢٦٩ - ٧٠.

(١٢٣) ن.م. (ط. القاهرة) ج ٤، ص ١٩٩.

(١٢٤) ن.م. ج ٤، ص ٣٧٥ - ٧ وص ٣٧٩، و(ط. القاهرة) ج ٤، ص ٦٤.

اختفاء الأئمة) وتنتظر دور الكشف (فترة تولي الإمام مسؤولياته علناً) وتبشّر به[١٢٥]. وتشير الرسائل إلى وجود الأئمة وعدم المعرفة بهم[١٢٦]، وإلى أنهم يختفون عن أعدائهم، وان أولياءهم يعرفون مواضعهم[١٢٧]. وتشير إلى الأدوار وصاحب شريعة كل دور[١٢٨]، وتبشر بدور جديد بعد دور القرآن[١٢٩]. وتتحدث الرسالة الجامعة عن الأدوار السبعة وتشير إلى «الرئيس السابع الآتي في آخر الزمان سيّد إخوان الصفا»[١٣٠].

وتحديد تاريخ الرسائل، وإن يكن تقريبياً، له أهمية خاصة. ويبدو أن إشارات الاسماعيلية المتأخرين إلى أن الرسائل كتبت في دور الستر سليمة، ولكن نسبتها لفترة الإمام المستور أحمد بن عبد الله أو قبله غير دقيقة. فحديث الرسائل عن دور الستر ورفضها لفكرة الإمام الغائب يدل على أنها كتبت بعد غيبة الإمام الثاني عشر للإمامية أي بعد ٢٦٠ هـ/٨٧٣ م[١٣١]. وتبشيرها بقرب دور الكشف يشعر بأنها كتبت قبل ظهور عبيد الله المهدي وقيام الدولة الفاطمية (٢٩٧ هـ/٩٠٩ م)، وهذا يشير إلى أن الرسائل كتبت في أواخر القرن الثالث الهجري. ويؤكد هذا تبشيرها بـ «الرئيس السابع» أو القائم صاحب الدور السابع[١٣٢]، وهذا هو رأي قرامطة العراق[١٣٣] الذين اختلفوا مع الفاطميين. وذلك يفسّر نقطة أخرى، فبينما تتمتع رسائل إخوان الصفا بمنزلة كبيرة في الأدب الاسماعيلي في اليمن فإنها لا تجد مكاناً في أدب الفاطميين[١٣٤]، وهذا يشعر ان الاتجاه الثوري للرسائل لم يعد مناسباً لسلطة مستقرة كدولة الفاطميين، كما أن فكرة القائم الذي يأتي بدور جديد تعتبر مناهضة لسلطانهم.

---

(١٢٥) ن.م. (ط. القاهرة) ج ٤، ص ١٩٨.

(١٢٦) ن.م. (ط. القاهرة) ج ٤، ص ١٩٩.

(١٢٧) ن.م.، ج ٤، ص ٣٧٩.

(١٢٨) ن.م.، ج ٤، ص ٢٠٤.

(١٢٩) ن.م.، ج ٣، ص ٢٣٣.

(١٣٠) الرسالة الجامعة، ج ١، ص ٦٣٢.

(١٣١) انظر الرسائل، ج ٤، ص ٢٩١، و(ط. القاهرة)، ج ٤، ص ١٩٩. انظر خمس رسائل اسماعيلية (نشر عارف تامر) ص ٧٢.

(١٣٢) الرسالة الجامعة، ج ١، ص ٦٣٢. وإذا كانت الرسالة «جامعة الجامعة» خلاصة مركزة لوجهة الرسائل، فإنها تبشر بالقائم صاحب الدور السابع وهو دور الكشف، ص ١٧٤. وانظر، ص ١٤٧.

(١٣٣) انظر النوبختي ـ فرقة الشيعة، ص ٧٢.

(١٣٤) انظر الهمداني ـ رسائل اخوان الصفا، ص ١٢، وعارف تامر ـ حقيقة اخوان الصفا، ص ٤٢.

وهكذا يظهر من هذه الحركات الاجتماعية، ان المجتمع العراقي كان مجتمعاً ديناميكياً، وأن التيارات الاجتماعية والاقتصادية كانت تعمل بنشاط وراء البريق الذي يظهر في ترف الطبقة الغنية.

فالطبقة العامة لم تقبل ظروفها التعسة بهدوء، بل حاولت أن تثبت كيانها وتحسن أحوالها بكل وسيلة، سلمية أو ثورية. ونلاحظ، بصورة عامة، أن بعضهم أرادوا التوصل إلى نتائج سريعة، بصرف النظر عن الكلفة، فانضموا إلى حركة القرامطة وثورة الزنج، بينما حاول ذلك آخرون بطرق سلمية تعاونية فكوّنوا الجمعيات والنقابات. وكان عامة الجماعة الأولى من الفلاحين والعبيد، في حين أن أهل الصنايع والحرف تكتلوا وكوّنوا الأصناف والنقابات، كما سنوضح الآن.

٣ ــ تنظيمات العمّال: الأصناف، العيّارون والشطّار

أ ـ إن الحديث عن تكوين نقابات في القرن الرابع الهجري قد يكون سابقاً لأوانه، إلاّ أننا نلحظ شيئاً من التكتل والتنظيم بين أصحاب الصنايع.

فهناك شعور بروح الجماعة بين أهل الصنايع، وكل واحد منهم يشعر بصلة تربطه بإخوانه[١٣٥]، وكان شعارهم «الصناعة نسب»[١٣٦]. وكان أصحاب الحرفة الواحدة يكوّنون جبهة واحدة أمام الخطر. فمثلاً اقتتل بائعو الأطعمة مع صنّاع الأحذية في الموصل سنة ٣٠٧ هـ/٩١٩ م[١٣٧].

ومما يسترعي الانتباه أن النسبة إلى المهنة فشت في القرن الرابع، وظهرت بجنب النسبة المألوفة إلى المدينة أو القبيلة. فـ «ابن الجراح» كان لقب الوزير علي بن عيسى، و«ابن الجصاص» لقب تاجر مشهور، و«الثعالبي» لقب كاتب ومؤرّخ مشهور في العصر البويهي، و«الحلاج» لقب الصوفي المشهور. وكانت هذه الألقاب أكثر شيوعاً في الطبقة العامة[١٣٨]. وهذا يدل على أن الاشتغال بالمهن اليدوية لم يعد محتقراً، وأن روح التكتل أصبحت قوية بين أصحاب المهنة الواحدة.

(١٣٥) رسائل الجاحظ ـ للسندوبي، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.
(١٣٦) انظر «البخلاء» ـ للجاحظ، ص ٥١.
(١٣٧) ابن الأثير، ج ٨، ص ٨٩.
(١٣٨) انظر حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٧٨ وص ٧٩ وص ٨١ وص ٨٥ وص ٨٦ وص ٩٥ وص ٩٦ وص ١٣٧ وص ١٣٩.

ب ـ نمت المدن في العصر العباسي وتطورت الحياة المدنية، ومن مظاهر ذلك توسّع العامة وازدياد أهميتها. ويكوّن الصنّاع وأصحاب الحرف، المجموعة الرئيسية بين العامة، وقد أدّت ظروف عملهم والمشاكل التي واجهتهم، وتطور الحياة الاقتصادية، إلى تقوية الشعور المشترك والتماسك بينهم وإلى تنمية تنظيماتهم.

عاش الصنّاع وأهل الحرف متجمعين في محلة واحدة أو في سوق خاص بهم. وهذا واضح في الربع الأخير للقرن الأول الهجري/السابع الميلادي. فحين بنى الحجاج واسط (٨٤ هـ/٧٠٢ م) التفت بصورة خاصة إلى الأسواق، فوضع باعة الطعام والبزّازين والصرّافين والعطّارين في الجانب الأيمن الممتد إلى سوق الخرّازين، ووضع صنّاع الجلود والروزجاريين في درب الخرازين في الجانب الأيسر الممتد إلى النهر. وخصّ أصحاب كل حرفة بسوق لا يختلط بهم غيرهم، وقرر أن يكون لأهل كل قطعة من السوق صرافاً خاصاً[١٣٩]. ولما أعاد خالد القسري بناء الأسواق في الكوفة أعطى كل حرفة داراً وطاقاً[١٤٠]. ويمكن تفسير ذلك بالروابط الموروثة بين الصنّاع والحرفيين، التي يمكن الرجوع بها إلى أيام البابليين[١٤١]، كما ان هذا التنظيم يناسب وجهة الحكومة في الإشراف على الصنّاع.

نظمت أسواق بغداد على المهن منذ نشأتها، وكان ذلك جلياً في القرن الرابع. فمن محلات بغداد، التي يذكرها الخطيب البغدادي، محلة «البزّازين» ـ باعة الأقمشة ـ، ومحلة «أصحاب الصابون» ـ صنّاع الصابون ـ، ومحلة «السوّاقين» ـ باعة السويق ـ، ومحلة «القطانين» ـ حيّاك القطن[١٤٢]. وكان في الموصل سوق لصنّاع الأحذية[١٤٣]. وكان في بغداد سوق للصفارين[١٤٤]. ويلاحظ في المدن التي أنشئت في العصر العباسي مثل بغداد (القرن الثاني للهجرة)، وسامراء (القرن الثالث للهجرة)

---

(١٣٩) بحشل ـ تاريخ واسط (تحقيق كوركيس عواد، بغداد ١٩٦٧)، ص ٤٣ ـ ٤٤.

(١٤٠) اليعقوبي ـ البلدان، ص ٣٦١.

(١٤١) يرى بعض الباحثين انه كانت توجد نقابات للتجار وللصناع في بابل وآشور، وهي فرضية يحسن أن تذكر عند بحث الجذور. انظر E.S.S. «Guilds»; Mendelsohn, *Guilds in Babylonia and Assyria*, J.A.O.S. vol. 60, 1940, pp. 68 - 72; D. B. Weisberg, *Guild structure and political allegiance in Early Achaemenid Mesopotamia* (Yale Univ. Press 1967), p. 86 ff.

(١٤٢) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد، ص ٦٧ ـ ٨.

(١٤٣) ابن الأثير، ج ٨، ص ٨٩.

(١٤٤) طيفور، ص ١٧٩.

أن أسواقها منفصلة ومنظمة بشكل يجعل «كل تجارة منفردة، وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم»(١٤٥).

ج - كانت الحِرَف مفتوحة للمسلمين غيرهم، ومع ذلك فإن بعض الحِرَف كانت فيها أكثرية من دين واحد(١٤٦)، ويعود ذلك إلى الوراثة والظروف الاجتماعية، وأحياناً - كما هو الحال في الصيرفة - إلى الدين. وكان الناس أحراراً في اختيار المهنة التي يريدون. وهذا، مع قوة الروابط المهنية، قد يفسّر سبب توسع ظاهرة تعدد الأديان في الحِرَف في هذا العصر.

ويشار إلى الحرف بـ «الأصناف» (م: صنف)(١٤٧)، و«أصحاب المهن»(١٤٨) و«أهل الصنائع» (م: صنعة)(١٤٩). وللحرفة «عرف» و«سنّة» خاصة بها، وهي مقبولة لدى القاضي والمحتسب عند النظر في الخلافات بين أهل الحرفة(١٥٠). ويعترف الماوردي بعرف أهل الحرف في أحكام الحسبة(١٥١)، كما ان كتب الحسبة تشير إلى هذا العرف وتقبله(١٥٢).

ويمكننا ملاحظة تنظيم مهني عند أصحاب الحرف. فلكل حرفة «رئيس» من أعضائها، تعيّنه الحكومة أو تعترف به، وهو شيخ الصنف(١٥٣). وهناك «الأساتذة» (م: أستاذ) وهم المتقدمون في الحرفة(١٥٤). ويليهم «الصنّاع» (م: صانع) وهم الذين أتقنوا الحرفة وبإمكانهم فتح حوانيت خاصة بهم والعمل مستقلين(١٥٥). وأدنى درجة في

---

(١٤٥) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٨٥.

(١٤٦) انظر الجاحظ: ثلاث رسائل (نشر فنكل) ص ١٧، البخلاء، ص ١٦٢، ابن الجوزي - المنتظم، ج ٩، ص ٩١. قارن بالفوطي - الحوادث الجامعة، ص ٦٩.

(١٤٧) رسائل الجاحظ (نشر السندوبي)، ص ٢٥٩.

(١٤٨) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٥٩.

(١٤٩) ابن عذاري المراكشي (نشر دوزي، ليدن ١٨٢٨) ص ٦٨.

(١٥٠) وكيع - قضاة، ج ٢ ص ٣٥١، ص ٣٧٣.

(١٥١) الماوردي، ص ٢٣١.

(١٥٢) ابن الاخوة القرشي، ص ٩، ص ١١، ابن عبدون (في ثلاث رسائل، نشر بروفنسال، القاهرة ١٩٥٥)، ص ٥٤. قارن بالمقريزي - اغاثة الأمة، ص ١٨ - ١٩.

(١٥٣) اليعقوبي - البلدان، ص ١٤٨، التنوخي - نشوار، ج ١، ص ٣٨، المقريزي - خطط (بولاق)، ج ١، ص ٤٦٣.

(١٥٤) ويدعى في مصر «معلم». ناصر خسرو - سفر نامه (تعريب الخشاب، القاهرة ١٩٥٤)، ص ٥٩ - ٦٠.

(١٥٥) رسائل اخوان الصفا، ج ١، ص ٢٥٥.

الحرفة تتمثل في «المبتدئين» (م: مبتدىء) الذين ينتسبون إلى الحرفة ولا يزالون في مرحلة التعلم.

ويتعاون أهل الحرفة لضمان السريّة المهنية ولحماية أفرادها. ولا تعوزنا الإشارات إلى وقوف الحِرَف في وجه إجراء حكومي متعسّف. فقد ثار صنّاع نسيج القطن والحرير في بغداد ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م ضد قرار بفرض العشر على هذه الأقمشة ولم يهدأوا إلاّ حين أُلغيت الضريبة[١٥٦]. ولما أعيد فرض العشر ٣٨٩ هـ/٩٩٨ م ثاروا من جديد واستمرّ الاضطراب أربعة أيام[١٥٧]. وقاتل القلاؤون في الكرخ الجند التركي سنة ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م دفاعاً عن النفس[١٥٨].

ومن التنظيمات الطريفة للعامة منظمات العيّارين والشطار، أسلاف حركة الفتوة. فقد ظهروا أول مرة في بغداد ١٩٦ - ١٩٧ هـ/٨١٢ م ليشاركوا في الدفاع عن المدينة ضد القوات الخراسانية التي تحاصرها[١٥٩]. وظهروا ثانية خلال الحصار الثاني لبغداد ٢٥١ هـ/٨٦٥ م[١٦٠]، وكانوا ينشطون عادةً في فترات الاضطراب. إن مصادرنا تسمهم باللصوص والغوغاء والأوباش وأهل الزعارة والأنذال، إلا أن فعالياتهم ومفاهيمهم تكشف عن حركة اجتماعية، إذ كانوا من الفقراء[١٦١] ويلاحظ بينهم بصورة خاصة باعة الطرق وأهل السوق[١٦٢]، أو بالأحرى الصنّاع وأهل الحِرَف. وتتعارض مصالحهم بوضوح مع مصالح التجار[١٦٣] والسلطة. وكان ينظر إليهم بأنهم أناس بلا هوية ولا مكان في المجتمع[١٦٤]. ومع أن البعض يشيد بشجاعتهم، إلاّ أن آخرين يغمزونهم بأن دوافعهم مادية وضيعة[١٦٥]. ويبدو أن التسميات المذكورة أعلاه تشعر بنظرة اتهام وسخط اجتماعي، بل إنها تعبّر عن وجهة الحاكمين والطبقة المتوسطة مثل التجار.

---

(١٥٦) ابن الأثير، ج ٩، ص ٣٣.

(١٥٧) الصابي، ص ٣٣٨، مسكويه، ج ٣، ص ٣٦١ - ٢.

(١٥٨) ابن الجوزي، ج ٨، ص ٤٧.

(١٥٩) الطبري، س ٣، ص ٨٧٢ وما بعدها، المسعودي، ج ٦، ص ٤٤٦ وما بعدها.

(١٦٠) الطبري، س ٣، ص ١٥٥٢، ص ١٥٦٦، ص ١٥٨٧.

(١٦١) انظر الطبري، س ٣، ص ٩٠٠.

(١٦٢) ن.م. س ٣، ص ٨٧٢ وص ٨٧٧.

(١٦٣) انظر ن.م. س ٣، ص ٩٠٠ إذ يعطي نظرة التجار إلى العيارين؛ المسعودي، ج ٦، ص ٤٧٠.

(١٦٤) الطبري، س ٣، ص ٨٨٦، وص ٨٩٨، والمسعودي، ج ٦، ص ٤٦٨.

(١٦٥) الطبري، س ٣، ص ٨٩٦ - ٧ وص ٨٨٦ - ٧ وص ٨٩٨. ويقول الشاعر: «كان فيما مضى القتال قتالاً فهو اليوم يا علي تجارة». الطبري، س ٣، ص ٨٩٥؛ وانظر المسعودي، ج ٦، ص ٤٦٨.

ويلاحظ أن العيّارين يَسِمون أنفسهم بالفتوة. وكان تعبير الفتى شائعاً بينهم، قال الشاعر الأعمى: «ويقول الفتى إذا طعن الطعنة خذها من الفتى العيار»[١٦٦]. وهم يدعون أيضاً الشطار[١٦٧]. ويشير الجاحظ إلى وجود الفتيان وإلى أنهم من الشطّار[١٦٨]. ويذكر سبط ابن الجوزي (تحت ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م) ان عيّاراً ثار في بغداد فتبعه عدد كبير من الشطّار[١٦٩]. ويورد القشيري (تحت ٤٣٨ هـ/١٠٢٦ م) إشارات كثيرة إليهم حيث نجد كلمتي «عيّار» و«فتى»، وحتى «شاطر»، تستعمل مترادفة، ويروى قول رجل لزوجته: «أريد أن... أدعو عياراً شاطراً كان في بلدهم راس الفتيان»[١٧٠].

وهكذا نرى الصلة الوثيقة أو الارتباط بين كلمتي «فتى» و«عيّار»، مما يدل على أن الفتوة بدأت حركة بين العامة، وانها في هذه الفترة كانت تفتقر إلى التعاليم الأخلاقية الدقيقة التي صارت لها في ما بعد زمن الخليفة الناصر (٦١٤ هـ/١٢١٧م).

ظهر العيّارون أول مرة (١٩٧ هـ/٨١٢ م) بأعداد كبير، يقدرها المسعودي بمئة ألف[١٧١] وبتنظيم يشبه تنظيم الجيوش. ويعطي الطبري والمسعودي تفاصيل عن عدتهم وتنظيمهم[١٧٢] أثناء القتال. ولكن يبدو أنهم كان لهم تنظيم داخلي وشعائر خاصة. فكان لباسهم المميز المؤزر، والازرة التي تشد على أوساطهم[١٧٣].

ويروي التنوخي قصة تعطي فكرة عن تنظيمهم، وخاصة عن مراسيم الدخول في التنظيم، فيذكر انه سرقت خمسمئة دينار من رجل في قارب في نهر الابلة، فنصح بالذهاب إلى شيخ من الفتيان في السجن. فاتبع النصح، وقال له الشيخ: «امض الساعة لوقتك ولا تتأخر، إلى بني هلال، فادخل الدرب الفلاني حتى تنتهي إلى آخره فإنك تشاهد باباً شعثاً فافتحه وادخله بلا استئذان فتجد دهليزاً طويلاً يؤدي إلى بابَيْن فادخل الأيمن منهما، فسيدخلك إلى دار فيها أوتاد وبواري، وعلى كل وتد

(١٦٦) الطبري، س ٣، ص ٨٨٦.
(١٦٧) المسعودي، ج ٦، ص ٤٦٢.
(١٦٨) البخلاء، ص ١٠٥.
(١٦٩) مرآة الزمان، ج ١٢، ورقة ١٠٨ ب.
(١٧٠) الرسالة، ص ١٢١ - ١٢٢.
(١٧١) المسعودي، ج ٦، ص ٤٧٠.
(١٧٢) ن.م.، ج ٦، ص ٤٦٦ - ٧ وص ٤٥٢ وص ٤٦٢، الطبري، س ٣، ص ٨٩٧ وص ٨٦٦ وص ٨٧٧ وص ٨٩٦.
(١٧٣) الأغاني، ج ٦، ص ٩١.

(أزار) و(مئزر)، فانزع ثيابك وألقها على الوتد، واتزر بالمئزر واتشح بالآزار. فيجيء قوم يفعلون كما فعلت إلى أن يتكاملوا، ثم يأتون بطعام فكُلْ معهم وتعهّد في كل شيء كما يفعلون، فإذا أتوا بالنبيذ فاشرب معهم أقداحاً يسيرة، ثم خذ قدحاً كبيراً واملأه، وقم فقل هذا شادي[١٧٤] خالي أبو بكر البغاش، فسيضحكون ويفرحون ويقولون: هو خالك؟ فقل نعم، خالي يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: بحياتي يا فتيان ردوا على ابن أختي الفوطة التي أخذتموها أمس في السفينة بنهر الابلة، فإنهم يردونها عليك. فخرجت من عنده وفعلت ما قال ووجدت الصورة على ما ذكر، فردّت الفوطة بعينها»[١٧٥].

تعطينا هذه القصة صورة عن الحياة الداخلية لجمعية من جمعيات الفتوة. فهي توضح أن الفتيان المذكورين لم يتورعوا عن السرقة، وأنهم كانوا يشتغلون ويقتسمون الأرباح. ثم ان علاقاتهم بالحكومة كانت عدائية، وكانوا يجتمعون سراً في محل منزوٍ. ثم إن شربهم نخب القادم الجديد، والإشارة إلى الازار والمئزر تنبىء عن مراسيم خاصة للانتماء[١٧٦].

ويبدو أن الفتيان كان لهم في كل مدينة رئيس، وان حركة الفتوة لم تقتصر على بغداد والبصرة بل انتشرت إلى مدن أخرى[١٧٧].

تحرك العيّارون ضد السلطة وأصحاب الثروة، إذ كانوا يهاجمون التجار والوجهاء والشرط، ويفرضون الضرائب على الأسواق ما أمكنهم ذلك[١٧٨]. وقد تضررت المدن والأسواق بفعالياتهم. ولكن هدفهم كان التجار لا أهل الحرف، بل إنهم لم يتعرضوا لصغار المتعاملين بالبيع والشراء[١٧٩].

---

(١٧٤) لعله يعني: هذا نخب من قدمني إلى الجماعة. والمعنى الحرفي انه شدّ الازار إلى الوسط، أي ادخله سلك الجماعة.

(١٧٥) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ١١٢ ـ ١١٤، ابن الجوزي ـ الأذكياء، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(١٧٦) قارن هذا بما ذكره ابن بطوطة، ج ٢، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٥.

(١٧٧) انظر القشيري ـ الرسالة، ص ١٢١ ـ ٢، وسبط ابن الجوزي ـ مرآة الزمان، ج ١٢، ورقة ١٠٨ ب.

(١٧٨) ابن الجوزي، ج ٧، ص ٢٢٠، وص ٢٥١، ج ٨، ص ٢١ ـ ٢، ص ٤٤، ص ٤٧، ص ٥٤ ـ ٥٥، ص ٧٢، ص ٧٥، ص ٧٨، ص ٨٧، ابن الأثير، ج ٩، ص ١٠٥، ج ٨، ص ٢٠٤، مسكويه، ج ٢، ص ٣٠٦.

(١٧٩) انظر التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٠٨.

وادعى العيّارون ببعض القِيَم الأخلاقية ـ كالأمانة، والتعاون والكرم، ورعاية النساء، ومساعدة الفقراء والضعفاء وتحمّل الصعاب[١٨٠]. وقد اشتهر بعض رؤسائهم بفتوتهم وبرفقهم بالنساء وبالفقراء وبذوي الإمكانيات المالية المحدودة[١٨١].

وفي ما بعد حل السراويل محل الازرة، واستمر «الشد» مع استعمال الماء والملح محل النبيذ[١٨٢]. وصارت لهم ثلاث درجات في التنظيم توازي درجات أهل الحرف وهي «شيخ» و«نقيب» و«تلميذ»[١٨٣].

ويعطي القشيري تعاريف متعددة لكلمة «فتوة»، مما يدل على أن حركة الفتوة لم يتكوّن لها عرف منظم بعد، لكنها كان لها بعض المقاييس المتعارفة. فكان ينتظر من الفتيان إطاعة الشريعة، والرأفة بجميع الناس، وعدم إيذاء أحد، وإن حصل اعتداء منهم على أحد وجب تعويضه عمّا أصابه من ضرر واسترضاؤه، والعفو عمّن يسيء إليهم. وينتظر من الفتيان أن يتحلّوا بالكرم حتى مع المشركين، وأن يتصفوا بالأمانة، والصدق، والتواضع، والمحافظة على الوعد[١٨٤]. ويعطي القشيري أمثلة مناسبة تكمل تعاريفه. فيذكر خبر سقّاء يرفض أخذ دراهم مقابل ما قدمه من ماء لسجين، وتاجر يرفض أخذ ربح على رأس ماله لأن ذلك ليس من الفتوة. وأمثلة من الرفق بالحيوان.

ويستنتج من القشيري أن حركة الفتوة كانت منتشرة في العراق والشام وإيران، وأنها ضمت بين أتباعها ناساً من الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة، إذ إن بينهم التجار والخدم والسقائين[١٨٥].

يقسم البروفسور (تيشنر Taeschner) تاريخ الفتوة إلى ثلاثة أدوار، فيرى انها

---

(١٨٠) ابن الجوزي ـ الأذكياء، ص ١٩٦ ـ ١٩٨، وتلبيس ابليس، ص ٣٩٢، والمنتظم، ج ٨، ص ١٧٨؛ التوحيدي ـ المقابسات، ص ٩٦.

(١٨١) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦٤، ابن الجوزي، ج ٨، ص ٧٢، التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٠٨ وص ١٨٠.

(١٨٢) يظهر أن العيارين تخلوا عن النبيذ خلال القرن الرابع، وأحلوا الماء بالملح محله. انظر التوحيدي ـ المقابسات، ص ٧٤.

(١٨٣) انظر ابن الجوزي، ج ٨، ص ٧٨ ـ ٩، ص ٥٩ ـ ٦٠، ص ٨٣، ص ٢٣٦ ـ ٤٧؛ ابن المعمار ـ كتاب الفتوة؛ البيروني ـ الجماهر، ص ١٠ ـ ١٢؛ ابن الجوزي ـ تلبيس ابليس، ص ٣٩٢. انظر الدوري ـ نشأة الأصناف في الاسلام: مجلة كلية الآداب، بغداد، السنة الأولى ١٩٥٩.

(١٨٤) ن.م.، ص ١٢١.

(١٨٥) ن.م.، ص ١٢٢ ـ ٣.

بدأت حركة فروسية أرستقراطية، ثم تطورت في القرن الثالث عشر للميلاد إلى حركة للطبقة المتوسطة، وأخيراً أصبحت حركة العامة في القرن الخامس عشر[١٨٦]. وهو رأي قد يصح على القرن السابع/الثالث عشر وما بعده. فمصادرنا كالمسعودي والتنوخي وابن الجوزي تدفع إلى الاستنتاج بأن تطور حركة الفتوة اتخذ اتجاهاً آخر. فحركة الفتوة، كما يظهر، بدأت في الطبقة العامة، ثم صار لها أتباع في الطبقة المتوسطة عند نهاية القرن الرابع الهجري[١٨٧]. وكانت الحركة معادية للحكومة، واستمرت على عدائها مدة طويلة. فابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م يتهم مبادئهم الخلقية ويعتبرهم لصوصاً[١٨٨]. ولم تتخذ الفتوة صفة أرستقراطية عسكرية إلاّ في خلافة الناصر لدين الله. فقد حاول الناصر الاستفادة من حركة الفتوة وتوجيهها في مصلحة الدولة، ولذلك ترأسها وهذب أهدافها في منشوره المشهور الذي أصدره سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧م[١٨٩]. فلما قضى المغول على العباسيين في العراق، انحطت منزلة أهل البلاد تحت السادة الأجانب، وزال التأييد الرسمي لحركة الفتوة، وبذلك فقدت هذه الحركة صفتها الأرستقراطية[١٩٠].

وكانت سياسة الحكومة تجاه أهل الحِرَف، تقتصر على الإشراف على أعمالهم، وليس فيها ما يدل على الاضطهاد. فقد فرض عهد الطائع، الصادر سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م، على ولاة الحسبة أن يقوموا «بتصفح أحوال العوام في حِرَفهم ومتاجرهم ومجتمع أسواقهم ومعاملاتهم، وأن يعيروا موازينهم والمكاييل، ويقرروها على التعديل والتكميل. ومن اطلعوا منه على حيلة أو تلبيس (أو غيلة أو تدليس)، أو بخس في ما يوفيه أو استفضال في ما يستوفيه، نالوه بغليظ العقوبة وعظيمها، وخصّوه بوجيعها وأليمها، واقفين به عند ذلك الحد الذي يرونه لذنبه مجازياً، وفي تأديبه كافياً. فقد قال الله عز وجل: ﴿**ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون**﴾»[١٩١].

---

(١٨٦) Taeschner, *Die islamische Futuwwabunde*, Z.D.M.G., 1933, p. 6 ff.

(١٨٧) انظر القشيري، ص ١٢٢ - ٣.

(١٨٨) ابن الجوزي - تلبيس ابليس، ص ٣٩٢. ويبين أن لباسهم الخاص هو «السراويل» أو سراويل الفتوة.

(١٨٩) يعطي ابن الساعي في كتابه «الجامع المختصر» (ج ٩ ص ٢٢٣ - ٢٢٦) هذا المنشور بكامله.

(١٩٠) ان قراءة ابن الفوطي - الحوادث الجامعة، تعطي هذا الاستنتاج. انظر أيضاً مصطفى جواد - الفتوة والفتيان، مجلة لغة العرب، المجلد الثامن (١٩٣٠)، ص ٢٤٢ وما بعدها.

(١٩١) رسائل الصابي، ج ١، ص ١١٤.

وجاء في عهد آخر صادر في السنة نفسها، عن الخليفة الطائع: «وإلى ولاة الحسبة بمراعاة أمور العوام في المتاجر والصناعات، ومنعهم من الغش والتدليس في سائر المعاملات، وامتحان المكاييل والأوزان وحياطتها من التطفيف والنقصان»(١٩٢).

وهكذا يتبين أن إشراف الحكومة يقتصر على منع الغش في الصناعة والإنتاج، ومنع الحيلة والتدليس في المعاملات، والتأكد من صحة الموازين والمكاييل، وذلك لأن الحِرَف والأصناف لم تكن تهدد الدولة في فعالياتها، فلم يكن ما يستوجب مكافحتها سياسياً.

كانت الأسواق والحِرَف تحت إشراف المحتسب. وتبين كتب الحسبة مهامه ومنها الإشراف على الأوزان والمقاييس، وعلى البيع ونوعية الإنتاج، وعلى النقود المتداولة، وعلى الآداب العامة. وأول كتاب حسبة وصلنا (للناصر الأطروش ت ٣٠٣هـ/٩١٥ م) يتطلب من المحتسب أن ينظر في شؤون الأسواق وأن يتأكد ان الموازين والأوزان والمقاييس صحيحة. وأن يمنع الغش في الإنتاج والتلاعب في الوزن والقياس، وأن يؤكد مراعاة الآداب العامة وأن يمنع التزييف في النقد(١٩٣). ويورد الماوردي (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م) في فصله عن الحسبة آراء مماثلة(١٩٤). ولكن هذين الكتابين لا يعطيان معلومات عن تنظيمات الحِرَف. وهذا يصدق على كتب أخرى في الحسبة لم نشر إليها لأنها كتبت في فترات تالية لعصرنا (القرن السادس/الثاني عشر، وبعده)(١٩٥).

ولا ترد إشارات إلى اضطهاد سياسي للحِرَف من جانب الدولة في عصرنا. وقد حاولت الحركات الاجتماعية، وخاصة الاسماعيلية، أن تجذب أهل الحرف إلى

---

(١٩٢) ن.م.، ص ١٤١ - ١٤٢.

(١٩٣) نشرة ر.ب. سارجنت في R.S.O., 1953, pp. 1 - 32 ونجد توجيهات مماثلة في كتاب: أحكام السوق ليحيى بن عمر (ت ٢٨٩ هـ/ ٩٠٥م) نشره م.م. مكي، في صحيفة المعهد المصري، المجلد الرابع، مدريد ١٩٥٦، ص ١٠٣ - ١٤٣. وهذا الكتاب يتصل بشمال افريقية والأندلس، وفيه اضافة طريفة وهي انه يتطلب من المحتسب أن يتخذ التدابير لمنع احتكار الأطعمة الذي يؤدي إلى التلاعب بالأسعار ورفعها.

(١٩٤) الماوردي، ص ٢٤٣ - ٩.

(١٩٥) عن كتب الحسبة، انظر مقال كوركيس عواد في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد ١٨، ١٩٤٣، ص ٤١٧ - ٤٢٨. ثم صدر بعد نشر المقال المذكور كتابان هما: ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، باعتناء ل. بروفنسال، القاهرة ١٩٥٥، وابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، باعتناء حسام السامرائي، بغداد ١٩٦٨.

صفوفها، وعملت الدولة على مواجهة دعواتها[١٩٦]، ولكن أول إشارة إلى إجراءات قمعية من قبل الدولة تأتي من فترة تالية[١٩٧].

ثانياً: الصنائع والمهن

١ ـ تصنيف إخوان الصفا لأصحاب المهن

إن أتم وصف للصنائع في القرن الرابع الهجري، هو ما نجده في رسائل إخوان الصفا. ففي هذه الرسائل نجد الحِرَف مصنّفة بأشكال مختلفة وفق أسس متعددة، ويكفي عرض ذلك بإيجاز:

صنّف إخوان الصفا الصنائع حسب فائدتها بالشكل التالي:

أ ـ الصنائع الضرورية للمجتمع: كالزراعة والحياكة والبناء.

ب ـ صنائع تأتي في الدرجة الثانية، فهي إما تابعة للأولى، أو متممة لها ومكملة. فمثلاً لا تتم الحياكة إلاّ بصناعة الغزل، وصناعة الغزل لا تتم إلاّ بصناعة الحلج، فصارت صناعة الغزل وصناعة الحلج تابعة للحياكة، كما أن الخياطة لازمة لعمل الملابس من النسيج، فصارت الخياطة متممة للحياكة.

ج ـ صنائع للجمال والزينة: مثل صناعة العطور، وصناعة الحرير والوشي.

وصنّفوا الصنائع حسب موضوع الصناعة إلى نوعين:

أ ـ الصنائع الروحانية: وتشمل المهن الفكرية.

ب ـ الصنائع الجسمانية: وتشمل الحِرَف اليدوية. وهذه تصنّف بدورها إلى صنفين:

(١) الصنائع التي يكون موضوعها بسيطاً: كالماء (كالسقّائين والملاّحين، والسبّاحين... إلخ)، والتراب (كحفاري الآبار والأنهار والمعادن، إلخ)، والنار (كصناعة النفّاطين، والوقّادين، والمشعلين)، والهواء (كصناعة الزمّارين، والبوّاقين، والنّفاخين

---

(١٩٦) انظر Yves Marquet, *La place de Travail dans la Hiérarchie ismailienne*, in *Arabica*, VIII, p. 236; cf. Massignon, *La futuwwa*, in *Minore Opera;* Ghazali - Streit, p. 53.

(١٩٧) انظر ابن الجوزي ـ المنتظم، ج ٨، ص ٢٣٦ - ٧، الشيرزي ـ نهاية الرتبة، ص ١١١ ـ ١١٣.

اجمع)، أو الماء والتراب (كصناعة الفخّارين والغضّارين وضرّابي اللبن).

(٢) الصنائع التي يكون موضوعها مركّباً، والمواضيع المركّبة ثلاثة أنواع، وهي: **الأجسام المعدنية**[١٩٨] - ومن صنائع هذا النوع، صناعة الصفّارين والحدّادين والرصّاصين والصوّاغين. **والنباتات** - والصناعات من هذا النوع إما أن تتناول أصول النبات من الأشجار والقضبان والأوراق، كصناعة النجّارين والخوّاصين والبوّاريين والحصريين والاقفاصيين، ومن شاكلهم. أو تتناول لحاء النبات، كصناعة الكتّانيين ومن يعمل القنّب والكاغد، ومن شاكلهم. أو تتناول ثمر الأشجار وحب النبات، كصناعة الدقّاقين، والعصّارين، والبزّارين، والشيرجيين، وكل من يُخرج الأدهان من ثمر الشجر وحب النبات. **والحيوان** - والصناعات هنا إمّا عامة كصناعة الصيّادين ورعاة الغنم والبياطرة، أو تتناول إنتاج الحيوان، كصناعة الدبّاغين، والأساكفة، والسيوريين، والطبّاخين، أو مقادير الأجسام، كصناعة الوزّانين والكيّالين. ومن الصنائع ما موضوعها أجساد الناس كصناعة الطب والمزينين، ونفوس الناس كصناعة المعلّمين[١٩٩].

وصنّفوا الصنائع تصنيفاً ثالثاً حسب قيمة إنتاجها، فهي تتفاضل من حيث: (أ) قيمتها؛ (ب) الحاجة إليها؛ (ج) فائدتها بالنسبة إلى الناس[٢٠٠].

وصنّفوها تصنيفاً رابعاً حسب الأدوات والآلات المستعملة فيها[٢٠١].

ولهذه التصنيفات أهمية كبرى لأنها تدل على نطاق الصناعات الموجودة في القرن الرابع وعن التخصص المتقدم فيها، كما أنها تلقي ضوءاً على الفكر الاقتصادي في تلك الفترة[٢٠٢].

٢ ــ الصناعات

والشيء المعتاد في الصناعة هو حانوت يديره صانع واحد أو عائلة أو عدد من الشركاء. وقد يعمل الصانع في بيته، وقد يعمل بمفرده أو يكون معه عدد من المبتدئين يتدربون عليه ويساعدونه. وتتوقف سعة الحانوت من حيث عدد العاملين على نوع

---

(١٩٨) كان الكيميائيون يعتقدون أن المعادن كلها مركبة.

(١٩٩) رسائل اخوان الصفا، ج ١، ص ١١٣ - ١١٥.

(٢٠٠) ن.م.، ج ١، ص ٢١٩ - ٢٢٠، الفارابي - احصاء العلوم، ص ٢.

(٢٠١) رسائل اخوان الصفا، ج ١، ص ٢١٥.

(٢٠٢) F. Fahd, *Les Corps des Métiers au IVI/X^e siècle à Baghdad*. JESHO, VIII, pp. 186 et seq.

الصناعة وإمكانيات الصانع. فبعض المنسوجات مثلاً والسكر تحتاج صناعتها إلى عدد من المشتغلين. والمألوف بين الصنّاع المشاركة لا التشغيل، إذ يفضل أي صانع ذلك ولا يعمل أجيراً عند صانع آخر(٢٠٣). وبينما يشتغل الصنّاع عادة لحسابهم ويبيعون إنتاجهم، فهناك صنّاع يشتغلون لحساب الغير من المستهلكين مقابل أجور يومية أو حسب وحدة الإنتاج. ومن المهم للصانع أن تكون لديه الأدوات اللازمة والمواد الأولية، ولكن بعضهم، من الأجراء خاصة، قد يشتغل بأدوات ومواد مؤجريهم(٢٠٤).

وكانت المهن عادةً وراثية وإن كانت مفتوحة، وكل صانع يفضل حرفته على جميع الحرف. ويلمح الجاحظ إلى هذه النظرة حين يقول: «ولكن لكل صنف من الناس مزيّن عندهم ما هم فيه ومسهّل ذلك عليهم، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق أو خرقاً قال: يا حجام، والحجّام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له: يا حائك»(٢٠٥). ومع ذلك اعتبرت بعضِ المهن مشينة حتى بنظر العامة مثل مهنة البوّابين والقوّادين والمشعوذين(٢٠٦).

وكان العراق مشهوراً بصناعاته في القرن الرابع الهجري(٢٠٧). وكانت مصنوعاته الرئيسية هي أدوات الترف التي يستعملها الأغنياء(٢٠٨). أما الصناعات التي تنتج لاستهلاك العامة فكانت محدودة الأثر في التجارة، مثل حياكة القطن، وعمل الأحذية وصنع الأدوات النحاسية.

الحياكة والنسيج: وكانت أهم الصناعات في القرن الرابع الهجري(٢٠٩)، كما كان فن النسيج أرقى من أي فن صناعي(٢١٠). وكانت الحياكة تعتبر أقدم الصناعات اليدوية، لأن الجوّ يجعل العناية بالملابس ضرورية(٢١١)، كما أن أهم أقسام الأثاث

---

(٢٠٣) انظر Goitein, *Médit. Society.*, I, p. 80 - 1 المبسوط للسرخسي، ج ١١، ص ١٥٥، والمدونة، ج ١٢، ص ٤٢ وما بعدها.

(٢٠٤) Goitein, *op. cit.*, pp. 87 - 8، صالح العلي ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص ١٩٩ ـ ٢٠١؛ ومتز ـ الحضارة الإسلامية، فصل الصناعات.

(٢٠٥) الجاحظ ـ رسائل (السندوبي)، ص ١٢٦.

(٢٠٦) الدمشقي، ص ٤٢ ـ ٤٣؛ Brunshwig, *Métiers Vils en Islam*, SI, XVI, pp. 4-60.

(٢٠٧) انظر ابن حوقل، ص ٢٣٤، المقدسي، ص ٣٣، H.A., p. 138.

(٢٠٨) رسائل اخوان الصفا، ج ١، ص ٢١٧، H.A., p. 138.

(٢٠٩) ويمكننا ملاحظة ذلك من كثرة الاشارات إلى الحياكة بالنسبة إلى ضآلتها فيما يخص الحرف الأخرى.

(٢١٠) Mez, p.459.

(٢١١) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٤٤، الحبيشي، ص ٧.

كانت تتألف من الستائر، والأنماط، والسجّاد، والبسط، والوسائد[٢١٢]. وكان الناس يعنون بصورة خاصة بالملابس، فلكل طبقة من الناس لباسها، ولكل صنف زيّه، وكل مناسبة تتطلب نوعاً خاصاً من الملابس[٢١٣]. وكان الأغنياء يتنافسون في ارتداء الملابس الثمينة، ويمتلكون صناديق واسعة للملابس تحتوي على عشرات لا بل مئات من القطع من النوع نفسه[٢١٤]. وهذا الطلب الزائد شجّع الصنّاع على تحسين منتوجهم وعلى الإكثار من أنواعه[٢١٥].

ويعود تاريخ الحياكة في العراق إلى أزمان سبقت الإسلام[٢١٦]. ولكنها ازدهرت بصورة خاصة في العصر العباسي. فكانت بغداد تصنع المنسوجات الحريرية الفاخرة، والثياب الحريرية من ألوان مختلفة، والأقمشة القطنية، والعمائم الرقيقة، والمناديل القصرية والبوبيبية الشهيرة[٢١٧]. وكانت ثيابها القطنية الرقيقة منقطعة النظير[٢١٨]. قال النويري: «ومن كان يريد الثياب الرقاق فليحق... بالعراق»[٢١٩]. وكان السقلاطون، وهو نسيج حريري سميك، ورديّ اللون، يصنع بالدرجة الأولى في بغداد[٢٢٠].

وكان لسقلاطون بغداد شهرة خاصة[٢٢١]. كما كان نسيج الخز الفاخر يصنع في بغداد. فقد خلف الراسبي (ت ٣٠١ هـ/٩١٣ م) أكثر من ألف ثوب من «الخز الرفيع الطاقي» (نسبة إلى باب الطاق)[٢٢٢]. ويبدو أن سوق الخزازين كان في الكرخ[٢٢٣]. وكانت ثياب «الملحم» ـ وهي ثياب سداها من الحرير ولحمتها من

---

(٢١٢) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٦، الخطيب البغدادي، ص ٥٠ و٥٢.

(٢١٣) انظر الوشاء ـ الموشى، ص ١٢٤ حيث يعدّد قطع الملابس للرجل الظريف، ويشير إلى ملابس المغنين، وإلى ملابس الأغنياء في مجالس السمر.

(٢١٤) الثعالبي ـ لطائف المعارف، ص ٧٢.

(٢١٥) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٤٤.

(٢١٦) يوسف غنيمة: مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١، ص ٥٦٣، والحيرة، ص ٨٣، وليد الجادر ـ الحرف والصناعات اليدوية في العصر الآشوري المتأخر، بغداد ١٩٧٢.

(٢١٧) الدمشقي، ص ٢٦.

(٢١٨) ابن الفقيه، ص ٢٥٤.

(٢١٩) النويري، نهاية الأرب، ج ١، ص ٣٧٢.

(٢٢٠) ن.م.، ج ١، ص ٣٦٩، حدود العالم، ص ٣٨٣. وقد خلد هذا النسيج اسمه في كلمات مثل: Eskerlat, Sekerlat. مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١، ص ٥٦٨.

(٢٢١) الثعالبي ـ لطائف المعارف (باعتناء الأبياري والصيرفي، القاهرة ١٩٦٠)، ص ٢٣٥.

(٢٢٢) عريب، ص ١٦.

(٢٢٣) الصولي ـ اخبار الراضي والمتقي، ص ٦٨.

القطن ـ تصنع في بغداد(٢٢٤). ويذكر المسعودي ان المتوكل كان يفضل لبس «ثياب الملحمة» على سائر الثياب، واتبعه أهل بيته في ذلك وشاع استعمالها بين الناس، وتفنن النسّاجون في صنعها لتناسب الأذواق المختلفة؛ ويبين أن بعضها كان يستعمل في زمنه (سنة ٣٣٢ هـ/٩٤٢ م) وتسمّى «المتوكلية» وهي «في نهاية الحسن والصنيع وجودة الصبغ»(٢٢٥). ويتحدث الأزدي عن مناديل رقيقة أنعم من الخز، يسميها متوكلية(٢٢٦).

وكانت الثياب العتّابية المشهورة تصنع في محلة العتّابية في الجانب الغربي من بغداد وتنسب إليها، وهي ثياب من خيوط القطن والحرير. ويبدو أنها كانت مخططة بخطوط بيضاء وسوداء متوازية(٢٢٧). وكان بعضها بدرجة ملحوظة من الجودة، إذ يتحدث الأزدي عن «عتابي دبيقي معلم مثقل»(٢٢٨). وكانت الأزُر تصنع في بغداد(٢٢٩). ويذكر «حدود العالم» ان بغداد تنتج الأنسجة القطنية والحريرية(٢٣٠). ويبدو أن صناعة النانت واسعة، فحين أراد صمصام الدولة فرض ضريبة العشر على الثياب الحريرية والقطنية (سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م) قدر وارد الضريبة بمليون درهم سنوياً(٢٣١)، مما يجعل ثمن الما يجعل ثمن المنسوجات هذه عشرة ملايين درهم سنوياً، وهو مبلغ كبير إذا لوحظت الأسعار والأجور(٢٣٢).

وفي باقدرا ـ وهي قرية على بعد أربعين ميلاً من بغداد ـ كان يصنع نسيج قطني قوي سميك(٢٣٣). وكانت حربى ـ وهي مدينة تقع على نهر الدجيل ـ تصنع وتصدر أنسجة قطنية سميكة(٢٣٤). وكانت الحضيرة، وهي قريبة من بغداد تصنع

(٢٢٤) انظر Dozy, *Vêtements*, p. 113 م.غ.ت.ب. ١٩٤١، ص ٥٦٧.
(٢٢٥) المسعودي ـ مروج، ج ٧، ص ٢٩٠ ـ ١.
(٢٢٦) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٤٢.
(٢٢٧) المقدسي، ص ٣٢٣، ابن جبير ص ٢٢٦، Dozy, *op. cit.*, p. 110, p. 436, Survey of Persian Art, III, p. 1996, n. 1.
(٢٢٨) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٥.
(٢٢٩) المقدسي، ص ١٢٨.
(٢٣٠) H. - 'A., p. 138.
(٢٣١) مسكويه ـ تجارب، ج ٣، ص ١١٧ ـ ١١٨، ابن الأثير، ج ٩، ص ٣٣.
(٢٣٢) انظر Serjeant, *Islamic Textiles*, p. 20 -1, p. 29 - 30.
(٢٣٣) ياقوت ـ معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٥.
(٢٣٤) ن.م.، ج ٢، ص ٢٣٥.

الثياب الكرباس الصفيقة، وهي ثياب قطنية سميكة، على نطاق واسع(٢٣٥).

وكانت البصرة مشهورة بالخز والبز(٢٣٦). فالخز نسيج رقيق يعمل من الصوف والحرير(٢٣٧). وكانت القطعة الواحدة من هذا النسيج تبلغ عادة خمسة عشر ذراعاً(٢٣٨) في الطول، وأربع عقد في العرض، وخير أنواعه ما كان نسيجه محكماً ووزنه ثقيلاً(٢٣٩). أما البز فهو نسيج قطني ثمين(٢٤٠). وكانت البصرة تنتج فوطاً(٢٤١) (م: فوطة) ثمينة وأقمشة كتانية وقطنية ممتازة(٢٤٢).

واشتهرت الموصل بأنها مركز للنسيج، وتفوّقت بصنع أنسجة قطنية تدعى الشاش كان لها شهرة واسعة، كما كانت تصنع نسيج الحرير الموشّى، وعرفت هذه في الغرب باسم Mousseline, Mosolin, Muslin(٢٤٣). ويذكر الجاحظ ان الستور والمسوح(م: مسح وهو كساء مخطط) تأتي من الموصل(٢٤٤).

وكانت آمد تصنع الوشي والمناديل والطيالسة(٢٤٥)، وعرفت بنسيج الصوف والكتان، فيقول المقدسي «ومن آمد ثياب الصوف والكتان الرومية على عمل الصقلي»(٢٤٦). أما رأس العين فكانت في الغالب تنتج القطن وتصدره(٢٤٧). وعرفت حرّان ومدن أخرى في الجزيرة بإنتاج القطن أيضاً(٢٤٨). كما كانت عربان كثيرة

---

(٢٣٥) ن.م.، ج ٢، ص ٢٩٢.

(٢٣٦) المقدسي، ص ١٢٨.

(٢٣٧) De Goeje, B.G.A., IV, p. 224، ويقول دوزي *Vêtements* p. 437 أما الخز فهو Filoselle ويرى زيدان (اعتماداً على قاموس ألف باء) انه من وبر الخزر. انظر التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ١٠٦.

(٢٣٨) الذراع = ٥٤,٠٤ سم.

(٢٣٩) الدمشقي، ص ٢٦.

(٢٤٠) زيدان - التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ١٠٦.

(٢٤١) في معنى الفوطة انظر Dozy, *op. cit.*, p. 334 - 43 وتعني الفوطة: ١ - نسيج تلفه المرأة على رأسها ٢ - مئزر ٣ - نسيج ينشر على الظهر لحمايته من حر الشمس.

(٢٤٢) H.A., p. 139.

(٢٤٣) يوسف غنيمة - م.غ.ت.ب. ١٩٤١، ص ٥٦٦ - ٧، Serjeant, *op. cit.*, pp. 38 - 9.

(٢٤٤) الجاحظ - التبصر بالتجارة (القاهرة ١٩٥٣ ط. ثانية)، ص ٣٣، الأبشيهي - المستطرف (القاهرة ١٣٠٨)، ج ٢، ص ٦٦، Dozy, *op. cit.*, pp. 405 - 7.

(٢٤٥) الجاحظ - التبصر بالتجارة، ص ٣٣.

(٢٤٦) المقدسي، ص ١٤٥.

(٢٤٧) الاصطخري، ص ٧٤.

(٢٤٨) انظر Hamdallah Mustawfi Kazwini, in *Nuzhat al-Qulub*, transl., by G. Le =

الأقطان، تصنع منها الثياب وترسل إلى الشام وغيرها[٢٤٩]. ويذكر المقدسي عن تكريت انها «معدن عمال الصوف»، ويعتبر صوف تكريت من إنتاج العراق الجيد[٢٥٠].

ويقول الجاحظ إن «خير الوشي في الثوب هو السابري والكوفي»[٢٥١]. ويورد الوشّاء الخز بين ملابس المترفين[٢٥٢]. وينوّه ابن الفقيه بمهارة الكوفيين في صنع الوشي ـ وهو نسيج حريري مطرز ـ وفي صنع الخز[٢٥٣]. واشتهرت الكوفة بصنع العمائم من الخز[٢٥٤]، وهي مشهورة بجمالها، حتى ان خز السوس لا يوازي النسيج الناعم الرقيق (سكب) للكوفة[٢٥٥]. وهناك الأنسجة الحريرية وخاصة النوع الذي يستعمل غطاء للرأس ولا يزال يسمى الكوفية[٢٥٦].

وكانت الحيرة تنسج الحرير والأقمشة القطنية والصوفية. وكان للثياب الحيرية شهرة خاصة في القرن الرابع الهجري[٢٥٧]. وكانت النعمانية تصنع أكسية وثياب صوف عسلية حسنة[٢٥٨]، ويضيف ابن رسته: «وبها تتخذ الطنافس الحيرية»[٢٥٩]. وكانت بلدة (قصر ابن هبيرة) مليئة بالحاكة[٢٦٠].

ويذكر ابن رسته ان جبُّل من مدن ميسان، وفيها تصنع الثياب الميسانية[٢٦١]. ويذكر ابن الفقيه أن لأهل كورة دجلة والسواد وميسان ودست ميسان من صناعة الستور والبسط وأنسجة أخرى من ميساني وحرير وبسط بلون واحد أو بلونين وأنواع

Strange (G.M.S.), 1919, pp. 102 - 5 والمقدسي، ص ١٤٥.

(٢٤٩) ابن حوقل، ص ٢٠٠.

(٢٥٠) المقدسي، ص ١٢٣، ص ١٩٧.

(٢٥١) التبصر بالتجارة (ط. ٢، القاهرة)، ص ١٩، ولطائف المعارف (ط. القاهرة)، ص ١١٩.

(٢٥٢) الوشاء ـ الموشىّ (باعتناء برونو ـ ليدن ١٨٨٦)، ص ٢٢٤.

(٢٥٣) ابن الفقيه، ص ٢٢٥.

(٢٥٤) المقدسي، ص ١٢٨.

(٢٥٥) ن.م.، ص ٤١٦.

(٢٥٦) Dozy, *op. cit.*, p. 390 - 4.

(٢٥٧) الخطيب البغدادي، ص ٥٢، يوسف غنيمة ـ الحيرة، ص ٨٣ وما بعدها.

(٢٥٨) المقدسي، ص ١٢٨.

(٢٥٩) ابن رسته، ص ١٨٦.

(٢٦٠) ن.م.، ص ١٢١.

(٢٦١) ن.م.، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

أخرى من الفرش والبسط ما لا مثيل له[٢٦٢]. ويذكر الثعالبي مطارح ميسان بين الأثاث الجيد[٢٦٣]. ويبين النويري ان المطارح الميسانية من نوع ممتاز[٢٦٤].

وتشتهر مدينة الطيب بعمل التكك وبمنسوجات أخرى. وهذه التكك تشبه التكك الأرمنية ولا يوجد مثلها في بلاد الإسلام خارج أرمينية. وتنتج الطيب أكسية جميلة وبركانات (أردية سوداء).

ويتحدث المقدسي عن ستور واسط بين إنتاج العراق المشهور[٢٦٥]، ويذكر ان ستور واسط يكتب عليها: «مما عمل ببصنّا»[٢٦٦]. ويذكر حدود العالم ان واسط تصدر الـ «كليم» (بطانيات) والتكك والصوف المصبوغ[٢٦٧]. ولاحظ الجاحظ ان أحسن الصبغ بالقرمز هو بأرض واسط[٢٦٨].

وتصنع الابلة الكتان الرقيق، بشكليه البسيط والمطرز[٢٦٩]. وكانت العمائم التي تصنعها الابلة مشهورة[٢٧٠].

وكانت الجوارب تصنع من الحرير أو من المرعز[٢٧١].

وكان السجاد في البلاد الشرقية ولا يزال دليلاً على الثروة، كما أنه حاجة من الحاجات العملية[٢٧٢]. وكان السجاد الثمين يفرش في قصور الخلافة لإظهار روعتها[٢٧٣]. فيذكر مثلاً أن بوران أرملة المأمون أصلحت عمارة قصر البرامكة القديم في بغداد سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م وعلقت على جدرانه سجاداً نفيساً من الصوف تخالطه خيوط ذهبية[٢٧٤]. وأمرت أم المستعين بصنع بساط خاص لها، وكان من

---

(٢٦٢) ابن الفقيه، ص ٢٥٣.
(٢٦٣) لطائف المعارف (ط. القاهرة)، ص ١٨٧، ص ٢٣٦.
(٢٦٤) النويري، ج ١، ص ٣٥٦.
(٢٦٥) المقدسي، ص ١٢٩.
(٢٦٦) ن.م.، ص ٤١٦.
(٢٦٧) H.A., p. 138.
(٢٦٨) التبصر بالتجارة (ط. القاهرة)، ص ٢٤.
(٢٦٩) المقدسي، ص ١٢٨.
(٢٧٠) النويري، ج ١، ص ٣٦٩.
(٢٧١) الوشاء - الموشى (ط. القاهرة ١٩٥٣)، ص ١٦١.
(٢٧٢) Survey of Persian Art, vol. III, p. 2271.
(٢٧٣) انظر الخطيب البغدادي، ص ٥٢.
(٢٧٤) Levy, *Baghdad chronicle*, p. 118.

الحرير وعليه صور مختلف الحيوانات، وكانت صور الطيور فيه من خيوط الذهب، وعيونها من العقيق والجوهر(٢٧٥).

وتعود صناعة البسط في العراق إلى العصر البابلي، ولا تزال موجودة إلى الآن. وقد ساعدت ظروف الحياة الرعوية بصورة خاصة على ظهور هذه الصناعة(٢٧٦). وكان الصوف أهم المواد في صناعة البسط والسجاد، ويظهر أنه كان يستعمل في سدى جميع البسط إلاّ القليل منها، إذ كان سداها من الحرير، ويحتمل أن هذه كانت من صنع معامل الخلافة(٢٧٧). وكان القطن، وحتى الكتان يستعمل أحياناً في صنع البسط(٢٧٨).

وهناك أنواع جيدة من السجاد، كانوا يتفننون في حياكتها وفي تنويع طريقة الحياكة(٢٧٩). أما السجاد الفخم، فكان يزين بخيوط الفضة والذهب في الحياكة(٢٨٠).

وكانت البسط والسجاد تستعمل لأغراض مختلفة. فهناك ما يفرش منها على الأرض، وهي إما كبيرة تسمى (البسط) أو مستطيلة وتسمى (الأنخاخ). والبعض منها يعلّق للزينة ويسمى (الأنماط)، وهناك نوع خاص يستعمل للصلاة ويسمى السجادة(٢٨١).

وكانت الحيرة والنعمانية مشهورة بالبسط التي تصنعها. وتشتهر بسط الحيرة بأنها ينسج فيها صور الفيلة والخيل والجمال والطيور، وكانت هذه الأشكال تقلّد في النعمانية، حتى ان مصنوعات النعمانية كانت تسمى البسط الحيرية(٢٨٢). ويذكر ابن الفقيه أن منطقة ميسان ودست ميسان كانت مشهورة بصناعة أجود البسط والستائر(٢٨٣). وكانت واسط مشهورة بصناعة السجاد(٢٨٤).

---

(٢٧٥) بلغت كلفة هذا البساط مائة وثلاثون مليون درهم. زيدان ـ التمدن، ج ٢، ص ١٣٥.

(٢٧٦) Survey of Persian Art, III, p. 2271 - 2.

(٢٧٧) *Ibid.*, III, p. 2456.

(٢٧٨) *Ibid.*, p. 2439 and 2241.

(٢٧٩) *Ibid.*, III, p. 2439.

(٢٨٠) E.I., Supp., p. 107: See also, p. 108.

(٢٨١) الخطيب البغدادي، ص ٥٢، Mez, p. 459، وحكاية أبي القاسم، ص ٣٦، E.I. Supp. p. 106.

(٢٨٢) ابن رسته، ص ١٨٦، يوسف غنيمة ـ الحيرة، ص ٨٣.

(٢٨٣) ابن الفقيه، ص ٢٥٣.

(٢٨٤) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٣٢.

وكانت الستائر التي تصنع في واسط من أحسن الأنواع(٢٨٥)، وقد ذكرها الخطيب البغدادي في جملة أثاث قصر المقتدر(٢٨٦). وكانت الموصل وآمد تصنع الستائر الجيدة وتصدرها(٢٨٧).وكان بعض الستائر يطرّز بخيوط الذهب، في حين أن البعض الآخر كان ينسج بالذهب(٢٨٨). وأخيراً نذكر أن الوسائد والمخاديد والمساند من مختلف الأنواع كانت تنسج في العراق(٢٨٩).

وكان للخلفاء والأمراء معامل خاصة تعرف بـ (دور الطراز). وتعني كلمة (طراز) في الأصل «التطريز»(٢٩٠)، ثم صارت تعني النسيج المحلّى بسطور من الكتابة. وكانت الكتابة تنسج على حافة القماش وتحوي اسم الخليفة (أو الأمير) ولقبه وبعض عبارات الدعاء. وكانت الكتابة تحاك من خيوط الذهب، أو من خيوط ذات ألوان زاهية.

وكانت دار الطراز مظهراً من مظاهر السلطان، وكانت تنتج البسط والثياب والأعلام والبنود والفرش(٢٩١)، وهذه يستعملها الخليفة أو الأمير أو يعطيها لكبار الموظفين علامة تشريفه لهم. وكان لبعض الولاة في القرن الرابع، كالحمدانيين في الموصل، دور طراز خاصة بهم(٢٩٢). وكان للراسبي (توفي سنة ٣٠١ هـ/٩١٣ م) عامل الأهواز، ثمانين دار طراز خاصة به(٢٩٣). وأهم مراكز الطراز بغداد، وكان لمصنوعاتها شهرة خاصة(٢٩٤).

ويستخدم في دور الطراز الصاغة والحاكة، ويشرف عليهم موظف خاص يدعى «صاحب الطراز»(٢٩٥).

---

(٢٨٥) المقدسي، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٢٨٦) الخطيب البغدادي، ص ٥٢.

(٢٨٧) الجاحظ - التبصر بالتجارة، ص ٣٣، ص ٣٠، الثعالبي - لطائف المعارف، ص ١١١.

(٢٨٨) الخطيب البغدادي، ص ٥٢.

(٢٨٩) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٦. ولغرض معرفة الأسماء العربية لأنواع البسط، انظر H. Worrel, *Ars Islamica*, I, 1934, pp. 219 - 222, II, 1935, pp. 65 - 68.

(٢٩٠) يشير الوشاء، ص ١٦٨ - ٩ إلى ملابس جواري عليها (طراز) أي كتابات.

(٢٩١) رسائل الصابي، ص ١٤١.

(٢٩٢) ن.م.، ص ١٤١.

(٢٩٣) ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٩٢.

(٢٩٤) E.I., IV, p. 790.

(٢٩٥) رسائل الصابي، ص ١٤١. انظر عن الطراز: E.I., Supp., pp. 248 - 250, E,I., III, pp. 785 - 793 ومقدمة ابن خلدون، ص ٢٢٢ - ٢٢٣، ويوسف غنيمة، مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١، =

الخيام والحصر: كان نسج الخيام للبدو من الصناعات المهمة. وتدعى الخيمة المصنوعة من الصوف بـ (الخباء)، والخيمة المصنوعة من الشعر بـ (الفسطاط)، والخيمة المصنوعة من الوبر بـ (البجاد)، والخيمة المصنوعة من القطن بـ (السرادق). وهناك نوع خاص من الخيم يدعى (الطراف) يصنع من نوع خاص من الجلد ويستعمله الأغنياء[٢٩٦].

كانت الحصر الجيدة تصنع في ميسان[٢٩٧]. وكانت الحصر المصنوعة في بغداد مضرب المثل في جمالها[٢٩٨]. وكان أكثر أهل عبادان يشتغلون بصناعة الحصر، وكانوا يصنعونها من الحلفاء[٢٩٩]. وكانت بعض الحصر المصنوعة في عبادان رقيقة منسوجة بدقة وأناقة، ناعمة يمكن طيّها كما تطوى الملابس[٣٠٠]. وكانت الحصر تصنع من البردي والقصب وسعف النخيل والحلفاء[٣٠١].

وكانت النقوش على الأقمشة متنوعة، وهي بين نقط، وخطوط، ومشجرات، وصور، وكتابات[٣٠٢].

وكان الحاكة شديدي المحافظة فاستمروا يستعملون أدواتهم التقليدية[٣٠٣]. ولكن نقلهم بصورة متكررة من منطقة إلى أخرى ساعد على انتشار أساليب مختلفة وطرق فنية متنوعة إلى مختلف أنحاء البلاد الإسلامية[٣٠٤].

الصباغة: إن تنوع الألوان في الأقمشة يدل على فن راق في الصباغة[٣٠٥].

= ص ٥٦٨، وزيدان ـ التمدن، ج ١، ص ١٢٤ ـ ٢٧ و Serjeant, *op. cit.* pp. 16 - 27, Hitti, p. 347.

(٢٩٦) الألوسي ـ بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤، ويشير البخلاء للجاحظ، ص ٣١١ إلى صناع الخيم في البصرة.

(٢٩٧) النويري، ج ١، ص ٣٧٠.

(٢٩٨) الثعالبي ـ ثمار القلوب، ص ٤٢٨.

(٢٩٩) المقدسي، ص ١١٨، النويري، ج ١، ص ٣٧٠.

(٣٠٠) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٦.

(٣٠١) غنيمة: مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١، ص ٥٨٠.

(٣٠٢) Survey of Persian Art, III, pp. 2090 - 2091.

(٣٠٣) الآلوسي: بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦، ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤، الدمشقي ـ الاشارة إلى محاسن التجارة، ص ٢٥.

(٣٠٤) اليعقوبي، ص ٢٦٤ وSurvey of Persian Art, III, p. 2176.

(٣٠٥) يقول H. Jacoby: «إن الصباغين هم أهم عامل، بعد الصوف، في عمل السجاد» S.P.A., III, p. 2459.

فاللون الأسود كان الشعار الرسمي، كما أن اللون القرمزي كان لون السقلاطون[٣٠٦]، والأخضر شعار العلويين، في حين أن الملابس الصفراء المصبوغة بالزعفران كانت محبوبة لدى المغنين. وكان الناس يتبارون في لبس الملابس الزاهية، المتنوعة الألوان، في حفلاتهم المسائية[٣٠٧].

وكانت الأصباغ، باستثناء القرمز، نباتية. وكانت النيلة تستعمل لكل أنواع الزرقة، كما كانت (الفوّة) تستعمل لكل أصناف الحمرة من اللون الوردي الفاتح إلى اللون الرمّاني[٣٠٨]. وكانت واسط أشهر محل للصبغ بالقرمز[٣٠٩]. وكان قشر الرمان يستعمل لتكوين صبغ أصفر جميل، رخيص، ثابت اللون[٣١٠]. وكانوا يخلطون الفوّة بالدباغ بنسب مختلفة، لتكوين أصباغ يتراوح شكلها بين اللون القرمزي والتمزي. وكان الزعفران يستعمل لتكوين صبغة صفراء ممتازة.

وكان الصباغون يتفننون في مهنتهم، وبعضهم يختص بالصبغ بصبغة واحدة مثل (الفوّة) و(النيلة). وكانت الأصباغ المركبة تعمل بخلط الأصباغ الأولية[٣١١].

وكانت صناعة الفخار قديمة جداً في العراق. وكانت الأدوات المعمولة من الفخار هي الأدوات الشائعة قبل إدخال المعدن والزجاج في الحياة الاعتيادية. ولقد وصل فن صناعة الفخار أوجه من الكمال في العراق[٣١٢]. وتصنع من الفخار، الجرار الكبيرة والصغيرة للماء وللنبيذ، وكذا الأواني والكؤوس، والسرج، والحباب بأشكال مختلفة، وهذه كلها تعمل من الفخار غير المزجج[٣١٣]. وهي بسيطة أو مزينة بالنقوش[٣١٤].

وتفنن العراقيون في صنع الخزف، حتى كانت مصنوعاتهم منه مشهورة. ويشيد

---

(٣٠٦) غنيمة ـ المقال المذكور، ص ٥٦٩.

(٣٠٧) الوشاء ـ الموشى، ص ١٢٣.

(٣٠٨) Survey of Persian Art, III, pp. 2459 - 61.

(٣٠٩) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٢٤.

(٣١٠) ن.م.، ص ٢٧، المقدسي، ص ٩٧.

(٣١١) Survey of Persian Art, vol. III, pp. 2459 - 61.

(٣١٢) E.I., Supplement, p. 44.

(٣١٣) *Ibid.*, p. 44، البخلاء ـ للجاحظ، ص ٢١٨، غنيمة ـ المقال المذكور، ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠.

(٣١٤) E.I., Suppl., p.44، الصولي ـ اخبار الراضي والمتقي بالله، ص ١٢٧، غنيمة ـ المقال المذكور، ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠.

مؤلف (حدود العالم) بالخزف البغدادي[٣١٥]. ويتحدث أبو القاسم البغدادي (حوالي ٣٠٦ هـ) عن «غضائر» بغداد الجميلة ذات الألوان الزاهية[٣١٦]. وكانت الحيرة تصنع الجرار والأواني الزاهية بالألوان[٣١٧]. ولما بنى المعتصم سامراء، جلب إليها صناع الخزف من الكوفة والبصرة[٣١٨]، مما يدل على تفوق هاتين المدينتين في صنع الخزف. وقد اشتهرت بلدة (نهر الدير) قرب البصرة بصنع الغضائر[٣١٩].

ويعتبر القرنان الثالث والرابع للهجرة فترة لامعة في تاريخ صناعة الفخار والخزف في العراق. فبالإضافة إلى جمال الصنعة في هيئة الخزف، ارتقى التفنن في التزجيج، وفي استعمال الألوان، البسيطة منها والمتموجة، رقياً كبيراً[٣٢٠]. وقد «وصلت غايتها في الفن وجمال الصنعة في سامراء»[٣٢١].

ويجدر بنا أن نذكر أن الدكاترة سار (Sarre) وهرتسفيلد (Herzfeld) والمسيو بيزار (Pézard) يرون أن فن التزجيج الملوّن نشأ في العراق وانتشر منه إلى سورية ومصر وإيران[٣٢٢]. وتدل البقايا الخزفية التي وجدت في آثار سامراء على تنوع كبير في الألوان البراقة: منها اللون الذهبي اللامع، والأحمر الغامق البرّاق، والأخضر، والعقيقي البرّاق[٣٢٣]. وأما الخزف الذي وجد في الرقة فهو أحمر يخالطه اللون القهوائي[٣٢٤].

ومن الأدوات الخزفية، كاسات عميقة ومسطحة، وأوانٍ مختلفة الشكل: مخروطية وكروية ومحدبة، وكؤوس صغيرة[٣٢٥]، وسرج[٣٢٦]. أما النقوش فكانت

---

(٣١٥) H.A., p. 138.

(٣١٦) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٧.

(٣١٧) غنيمة - الحيرة، ص ٨١.

(٣١٨) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٦٤. وهذا لا يترك محلاً، لقول الأستاذ بتلر (Mr. Butler) بأن المعتصم جلب عمال الخزف من مصر كما بين في كتابه Islamic pottery, London 1926.

(٣١٩) ياقوت - معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٣٩. ولتوضيح معنى الغضائر، انظر حدود العالم، ص ٣٨٤ ومعالم القربة، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٣٢٠) Butler, *op. cit.*, p. 39.

(٣٢١) *Ibid.*, p. 37.

(٣٢٢) Quoted in Butler, *op. cit.*, p. 37, p. 35.

(٣٢٣) Butler, *op. cit.*, p. 39.

(٣٢٤) Pier, Pottery of the Near East, p.2.

(٣٢٥) *Ibid.*, p. 9 - 10.

(٣٢٦) الجاحظ - البخلاء، ص ٣٦ وص ٣٧.

عادة تخطيطات مشجرة، وكتابات كوفية، وأزهار(٣٢٧)، وصور في بعض الأحيان(٣٢٨).

وكان القاشاني العراقي ممتازاً ومشهوراً لدرجة أن كمية منه أرسلت من بغداد إلى القيروان سنة ٢٢٨ هـ/٨٦٢ م لتزيين مسجدها، ولا يزال هذا القاشاني (الكاشي) بهجة الناظرين لحد الآن(٣٢٩).

الزجاج: وكان الزجاج يصنع من نوع خاص من الصخور الرملية(٣٣٠). وقد ورث العرب هذه الصناعة ولكنهم حسنوها، فقد زادوا في نسبة الصخور الرملية في صنعه، فصار زجاجهم أقوى من الزجاج الروماني(٣٣١).

وقد صنعوا الأقداح والأواني والكؤوس والقناديل من الزجاج(٣٣٢)، واستعملوا الزجاج المنقوش بصورة فنية للشبابيك واستخدموا الجبس لتثبيته. وزيّنوا الأدوات الزجاجية برسم المشجرات والكتابات عليها، أو بحفرها فيها. وكانت الألوان المستعملة عادة هي اللون الذهبي، والأحمر، والأخضر، والأبيض، والأزرق(٣٣٣). وقد رسمت على الأقداح صور حيوانات، وصور بشرية، وحتى مناظر صيد في بعض الأحيان(٣٣٤).

وكان الزجاج العراقي معروفاً خارج العراق، حتى وصلت شهرته الأندلس حيث كان يسمى Irage (العراقي)(٣٣٥). وقد شاهد ابن جبير في الكعبة قناديل من الزجاج العراقي تزينها نقوش جميلة(٣٣٦).

---

(٣٢٧) Pier, *op. cit.*, p. 2.

(٣٢٨) الصولي - أخبار الراضي والمتقي بالله، ص ١٢٧.

(٣٢٩) المقتطف، ١٩٣٢، ص ٤٥٩.

(٣٣٠) الجاحظ - الدلائل والاعتبار، ص ١٥.

(٣٣١) لقد استفدت من رسالتين خطيتين تفضل السيد س. بهجت باطلاعي عليهما. فالأولى رسالة كتبها السيد المذكور في تاريخ صناعة الزجاج في مصر. والثانية (نسخة على الآلة الكاتبة) لاطروحة في نفس الموضوع عنوانها «صناعة الزجاج في مصر - القاهرة ١٩٠٨» كتبها هـ. د. بارودي. وكلا الرسالتين تشير إلى صنع نقود وأوزان زجاجية في مصر، فالنقود خضراء باهتة اللون، والأوزان خضراء غامقة.

(٣٣٢) الجاحظ - البخلاء، ص ٣٧، الأغاني، ج ٣، ص ٤٧.

(٣٣٣) راجع م ٣٣١ من هذه الصفحة.

(٣٣٤) الأغاني، ج ٣، ص ٤٧، ويقول أبو نؤاس في وصف صور على كأس شراب:

«قرارتها كسرى وفي جنباتها مهى تدّريها بالقسيّ الفوارس»

(٣٣٥) غنيمة - المقال المذكور، ص ٥٧٢.

(٣٣٦) ابن جبير، ص ٨١.

وقد برعت بغداد في صنع الأواني والأقداح الزجاجية(٣٣٧). وترد إشارات إلى وجود معامل للزجاج في البصرة(٣٣٨)، والقادسية (بين حربى وسامراء)(٣٣٩)، ولمدة من الزمن في سامراء(٣٤٠).

واشتهرت النجف ببلورها، وكان يصنع منه الخواتم، وبعض أنواع القناديل، وبعض أدوات الزينة. ولصلة هذا البلور بالنجف، فقد اشتهر باسم در النجف (أو در نجف)(٣٤١).

الصياغة: وقد تقدم فن الصياغة لزيادة الترف في المجتمع. وبالإضافة إلى أدوات الزينة الاعتيادية التي تصنع للسيدات(٣٤٢)، فقد كانت تصنع بعض الأدوات من الفضة والذهب للأغنياء، وكانت تزين بالكتابة بصورة فنية(٣٤٣)، كما أنها كانت ترصّع أحياناً بالجوهر(٣٤٤). وكان لصياغ العراق شهرة واسعة. وقد رأى أحد السواح، في قصر أمير لاهور الهندي أواني ذهبية وفضية من صنع العراق(٣٤٥).

وكان الخلفاء عادة هم السباقون في الترف. ففي ليلة زواجه ببوران، فرش المأمون بساطاً حيك من خيوط الذهب(٣٤٦). وكان الذهب والفضة يستعملان لتزيين القاعات أحياناً(٣٤٧). وكان للمقتدر أربعمائة سرج من فضة وذهب في اسطبله(٣٤٨). وكانت فريدة العصر، الشجرة المشهورة، التي سمي (قصر الشجرة) باسمها. وكانت هذه شجرة من الفضة والذهب يبلغ وزنها خمسمئة ألف درهم وعليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر كلما هبت الريح. ولما رآها رسول الامبراطور البيزنطي إلى المقتدر «كان تعجبه من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده»(٣٤٩).

---

(٣٣٧) ابن الفقيه، ص ٢٥٣.
(٣٣٨) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٦٤.
(٣٣٩) ياقوت - معجم البلدان، ج ٤، ص ٩.
(٣٤٠) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٦٤.
(٣٤١) غنيمة - ن.م.، ص ٥٧٧.
(٣٤٢) الأبشيهي - المستطرف «القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ»، ج ٢، ص ١٧٥.
(٣٤٣) الوشاء - الموشى، ص ١٨٨ - ١٩٠.
(٣٤٤) الثعالبي: لطائف المعارف، ص ٧٣ - ٧٤.
(٣٤٥) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ٦١ وص ١٧٣ - ٩ «الترجمة الانكليزية».
(٣٤٦) الثعالبي - لطائف المعارف، ص ٧٣ - ٧٤.
(٣٤٧) الخطيب البغدادي، ص ٥٠.
(٣٤٨) ن.م.، ص ٥٣.
(٣٤٩) ن.م.، ص ٥٢ وص ٥٤.

الحدادة: كان الحدادون يصنعون شبابيك الحديد، والسيوف، والدروع، والخوذ الحديدية، والكراسي، وغير ذلك(٣٥٠). كما كانوا يصنعون الأدوات الهندسية(٣٥١). وكان الصفارون يصنعون القدور من حجوم مختلفة، ويصنعون الأواني والجرار، والأبواب النحاسية، والقناديل والشمعدانات وغيرها(٣٥٢). وقد استخدم النحاس، والصفر، والبرنز، والحديد، والفولاذ لصنع أنواع من الأدوات متنوعة لدرجة تثير الدهشة، وقد شمل فن التزيين: الحفر، والتلبيس، والتطعيم، ونقش الحافات بنقوش ظاهرة صلبة أو جوفاء، بالإضافة إلى التذهيب والترصيع(٣٥٣).

واشتهرت الموصل بصنع الأسطال والسلاسل والنشاب والسكاكين(٣٥٤). وكانت حرّان مركز صنع الآلات الرياضية والهندسية الدقيقة(٣٥٥)، وأهمها الاسطرلاب. وكان الاسطرلاب يصنع عادة من البرنز أو النحاس، ويستعمل لغرض قياس ارتفاع النجوم والقمر والشمس، ولغرض تعيين بعض القياسات الرياضية والطوبوغرافية، دون اللجوء إلى المعادلات أو الأعمال الحسابية(٣٥٦). وكانت موازين حران مشهورة أيضاً(٣٥٧).

النجارة: وكانت النجارة صناعة مهمة. وكان النجارون يصنعون الكراسي، والمناضد، والأبواب، والسقوف الخشبية، ويزينوها أحياناً بنقوش جميلة، خاصة إذا كانت من خشب الساج(٣٥٨). وكانت قطع الخشب تسمر بالمسامير، أو تدخل نهاياتها ببعضها بصورة فنية، ثم تصقل حتى يظهر الكل قطعة واحدة(٣٥٩). وكانوا يصنعون كؤوساً خشبية في دير الجماجم (قرب الكوفة)، وكان استعمال هذه الكؤوس شائعاً(٣٦٠). وتصنع بعض الآلات الموسيقية من الخشب، فمثلاً كان العود

---

(٣٥٠) ن.م.، ص ٥٥، غنيمة ـ المقال المذكور، ص ٥٧٣.

(٣٥١) الحصري ـ زهر الآداب، ج ٢، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٣٥٢) طيفور، ص ١٧٩، Survey of Persian Art, III, p. 2472.

(٣٥٣) Survey of Persian Art, III, p. 2477.

(٣٥٤) المقدسي، ص ١٤٥.

(٣٥٥) ابن الفقيه، ص ١٣٢.

(٣٥٦) Survey of Persian Art, III, p. 2530.

(٣٥٧) المقدسي، ص ١٤٥، التنوخي، ج ٨، ص ١٦.

(٣٥٨) ابن خلدون ـ المقدمة، ص ٣٤٢ ـ ٣، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٦، الخطيب البغدادي، ص ٦٣.

(٣٥٩) ابن خلدون ـ المقدمة، ص ٣٤٣.

(٣٦٠) ياقوت ـ معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٥٢.

الثمين يصنع من الآبنوس ويطعّم بالعاج[٣٦١]. وكان النجارون يصنعون بعض أدوات القتال، كالأقواس والسهام والرماح، وأدوات الحصار كالمجانيق[٣٦٢].

وكانت صناعة القوارب والسفن نشيطة وواسعة، وتستعمل هذه القوارب للنزهة أو للسفر أو للحرب. وكان في الابلة كثير من دور صناعة السفن[٣٦٣]. ويذكر أبو القاسم البغدادي أربعة عشر نوعاً من القوارب، كانت تستعمل في بغداد حوالي سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م[٣٦٤]، بينما يسمي المقدسي ستاً وثلاثين نوعاً من القوارب والسفن[٣٦٥]. وكانوا يتفننون في صنع قوارب النزهة، مثل حرّاقات الأمين، التي صنعت على هيئة الأسد والفيل والصقر والزرافة والدلفين[٣٦٦].

الصابون والدهون والعطور: يجب أن تقدر أهمية صناعة الصابون بضوء الأهمية التي كانت للحمامات في الحياة الاجتماعية. وإذا رجعنا إلى الخطيب البغدادي نجده يخبرنا بأن أهالي بغداد وحدها كانوا يحتاجون مليوناً ونصف مليون رطل من الصابون ليلة عيد الفطر، لأن الفرد الواحد يحتاج في تلك الليلة - في رأيه - إلى رطل واحد[٣٦٧].

وكان الصابون يصنع بهيئة قطع جامدة[٣٦٨]، وتستعمل النورة أحياناً في تحضيره[٣٦٩]. وكان لصناع الصابون محلة خاصة في بغداد في جهة الكرخ[٣٧٠]. إلاّ أن أعظم مراكز صناعة الصابون في القرن الرابع الهجري كان في الرقة[٣٧١].

وكانت صناعة العطور، وماء الورد، واستخلاص الأدهان من النباتات والبذور، واسعة. ويستفاد منها في الطب وفي الطيب[٣٧٢]. ومن جملة الدهون التي كانت

---

(٣٦١) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص٥٥ و٧٥.
(٣٦٢) ابن خلدون - المقدمة، ص ٣٤٢.
(٣٦٣) غنيمة - المقال المذكور، ص ٥٨٢.
(٣٦٤) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ١٠٧.
(٣٦٥) المقدسي، ص ٣١ - ٣٢.
(٣٦٦) غنيمة - المقال المذكور، ص ٥٨٢.
(٣٦٧) الخطيب البغدادي، ص ٧٥.
(٣٦٨) ابن أبي اصيبعة - طبقات الأطباء، ج ١، ص ٢٦٤.
(٣٦٩) الجاحظ - البخلاء، ص ٢٢٣.
(٣٧٠) الخطيب البغدادي، ص ٦٧.
(٣٧١) المقدسي، ص ١٦٠.
(٣٧٢) غنيمة - المقال المذكور، ص ٥٨٠.

تصنع، الزيت (زيت الزيتون) والشيرج (زيت السمسم)[٣٧٣]، ودهن اللوز[٣٧٤]، ودهن الخروع[٣٧٥]. وقد اشتهرت حران بالزيت[٣٧٦]. وكانت بغداد تنتج الشيرج وأنواع الزيوت[٣٧٧]، وكان لها سوق خاص للعطور[٣٧٨]. وكانت البصرة والكوفة تصنع ماء الورد، ودهن البنفسج المشهور[٣٧٩].

الدباغة وصناعة الأحذية: عني العراقيون بالأحذية بصورة خاصة. ويعدد الوشاء المتوفى ٣٢٥ هـ/٩٣٦ م سبعة أنواع من الأحذية البديعة، من ألوان مختلفة، بعضها لونها واحد: وهي سوداء وحمراء وصفراء، وبعضها ذات لونين: أحمر وأصفر، وأسود وأصفر[٣٨٠].

ويذكر الثعالبي أن بيت الإسكاف يضرب به المثل فيقال: «بيت الإسكاف فيه من كل جلد رقعة ومن كل ادم قطعة»[٣٨١]. وكانت البصرة تنتج أحذية جيدة[٣٨٢]. واختصت بغداد بصنع نوعين ممتازين من الجلود (الدارش)، وهو جلد أسود، و(اللّكاع) وهو جلد أحمر[٣٨٣]. واستعمل صناع الجلود قشور الرمان للدباغة[٣٨٤]. وقد كانت مهنة الدباغة مستهجنة بنظر الناس، وربما كان ذلك نتيجة الرائحة الكريهة المتصلة بهذه الصنعة[٣٨٥].

صناعات أخرى: وكان النبيذ يصنع في العراق. ولنبيذ قطرُبل شهرة خاصة[٣٨٦]. واهتم الناس بحفظ الفواكه وذلك إما بتجفيفها كما هو الحال مع التين

---

(٣٧٣) معالم القربة ـ لابن الاخوة القرشي، ص ٢٢٨.
(٣٧٤) ابن أبي اصيبعة ـ طبقات الأطباء، ج ١، ص ١٦٩.
(٣٧٥) ن.م.، ج ١، ص ١٦٠.
(٣٧٦) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ١٢٣.
(٣٧٧) المقدسي، ص ١٦٠، H.A., p. 138.
(٣٧٨) ابن أبي أصيبعة ـ طبقات الأطباء، ج ١، ص ٢٦٤.
(٣٧٩) الاصطخري، ص ١٥٣، المقدسي، ص ١٢٨ و١٣٠، ابن الفقيه، ص ٢٥٢، ابن أبي أصيبعة، ج ١، ص ١٤٩. ولما بنى المعتصم سامراء جلب صناع الزيت من الكوفة، اليعقوبي، ص ٢٦٤.
(٣٨٠) الوشاء ـ الموشى، ص ١٢٥.
(٣٨١) الثعالبي ـ ثمار القلوب، ص ١٩٣.
(٣٨٢) H.A., p. 139.
(٣٨٣) ابن الفقيه، ص ٢٥٣.
(٣٨٤) الجاحظ ـ البخلاء، ص ٢٣٧.
(٣٨٥) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ١٣٨، وص ٣.
(٣٨٦) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٧٤، H.A., p. 138.

والزبيب وحب الرمان(٣٨٧)، أو بوضعها في العسل والشربت كما هو الحال مع التفاح(٣٨٨). وكانت الجزيرة مركزاً هاماً لتجفيف الفواكه(٣٨٩). وكانوا يحفظون أنواعاً أخرى من الأطعمة نذكر منها اللحم المسمى بالقديد، والجبن(٣٩٠). وكان سواد الموصل مشهوراً بحفظ الجبن(٣٩١).

وتوجد إشارات إلى صنع الأدوية والعقاقير، نذكر منها الزنجفر، والزنجار، والمرداسنج(٣٩٢).

وفي الختام نشير إلى مهنة الكتب وتجليدها. وكان نسخ الكتب يعتبر ناحية من مهنة الوراقين (باعة الكتب)(٣٩٣).

---

(٣٨٧) الدمشقي ـ الاشارة إلى محاسن التجارة، ص ٣٤.
(٣٨٨) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٧٤.
(٣٨٩) المقدسي، ص ١٤٥.
(٣٩٠) الجاحظ ـ البخلاء، ص ٥٨.
(٣٩١) المقدسي، ص ١٤٥.
(٣٩٢) ن.م.، ص ١٢٨.
(٣٩٣) ابن خلدون ـ المقدمة، ص ٣٥٢.

الفصل الرابع

التجارة

أولاً: المقدمة

١ ــ أهمية التجارة في الأدب

يدل عدد المؤلفات عن التجارة على أهميتها، خاصة إذا قورن بقلة ما كتب عن النواحي الأخرى للحياة الاقتصادية. وقد كان الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م) أول من كتب في هذا الموضوع بشيء من التفصيل. فقد كتب رسالة للتجار بعنوان: «كتاب التبصر في التجارة» بدأها بذكر بعض المبادىء العامة في التجارة، ثم تناول الذهب والفضة والأحجار الكريمة والعطور والثياب وبعض المنسوجات، ثم تحدث عن واردات العراق وعن أنواع طيور الصيد[1]. وكتب الجاحظ كذلك «رسالة في مدح التجار وفي ذم خدمة السلطان»[2]. ويظهر أن هذا الكاتب الواسع الأفق أدرك بثاقب نظره القوة النامية لطبقة وسطى جديدة.

وإذا نظرنا في كتب الجغرافيين المعاصرين، مثل ابن خرداذبه، وقدامة بن جعفر الكاتب، وابن رسته، واليعقوبي، وابن الفقيه، والمسعودي، والاصطخري، وابن حوقل، والمقدسي، ومؤلف **حدود العالم** ـ نجد أنهم كتبوا في المنتوجات المحلية، ووصفوا طرق المواصلات.

---

(١) نشره الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ١٢ ص ٣٢١ ـ ٣٥١، دمشق ١٩٣٢، ثم نشر منفصلاً.

(٢) رسائل الجاحظ، «الرسالة السادسة»، القاهرة ١٣٢٤ هـ.

وكتب محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩ هـ/٩٠٤ م) **كتاب الكسب**(٣) الذي نلمس فيه تفهماً للتطور الاقتصادي. فهو يؤكد مزايا الفعاليات التجارية، ويبرر كسب الثروة، ويقبل حياة الرخاء التالية لها بل ويدافع عنها. ويحاول أن يواجه شكوك الأتقياء والزهاد بشأن الثروة وأثرها في ظروف المعيشة.

أما كتابه الآخر **المخارج في الحيل**(٤) فهو دليل للتجار العراقيين، يساعدهم على تفهم أرحب للنظرة الإسلامية إلى بعض أنواع البيع، والفائدة، والتعامل. ونسج الخصاف أبو بكر أحمد بن عمر الشيباني (ت ٢٦١ هـ/٨٧٤ م) على منواله في كتابه **الحيل والمخارج** بعد حوالي ثلاثة أرباع القرن(٥). وهذه الكتب تكشف عن طبيعة التصادم بين القوى الاقتصادية والاجتماعية الجديدة وبين المبادىء الخلقية للمجتمع الإسلامي الأول البسيط.

وتناول عبد الملك الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م) في كتابه «خاص الخاص» موضوع التجارة، إذ جمع الآيات القرآنية والأحاديث والأمثال التي تتعلق بالتجار(٦).

وكتب أبو الفضل الدمشقي كتابه الفذ الموسوم بـ **الإشارة إلى محاسن التجارة**(٧)، وتناول فيه ـ بشيء من الإسهاب ـ أصناف البضائع، والمعاملات التجارية وأصولها، والتجار وأصنافهم. وللكتاب أهمية كبرى في دراسة الفكر الاقتصادي عند العرب.

وتوجد كتب أخرى تتناول موضوعات خاصة مثل **الجماهر في معرفة الجواهر** للبيروني. وقد بدأه البيروني بذكر بعض المبادىء الاقتصادية، وتناول فيه الأحجار الكريمة بالدرجة الأولى(٨). وكتاب **الجواهر وأصنافها** لمحمد بن شاذان الجوهري، كتبه

---

(٣) لم يصلنا الكتاب بل وصلنا مختصر له وضعه محمد بن سماعة: الاكتساب في الرزق المستطاب، نشره عزة العطار، مطبعة الأنوار، ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م.

(٤) نشره يوسف شاخت، ليبزج ١٩٣٠.

(٥) نشره يوسف شاخت، هانوفر ١٩٢٣.

(٦) خاص الخاص، ص ٧٠؛ وقد نقل عنه أحمد بن عبد الرزاق المقدسي في كتابه «اليواقيت» ص ٢٧ ـ ٣١.

(٧) لسنا متأكدين من تاريخ تأليف هذا الكتاب، ويرى زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٢، ص ٢٣٤» انه كتب في العصر البويهي بينما يضعه بروكلمان (G.S.I. p. 907) في القرن الخامس أو السادس، وقد ترجمه ريتر Ritter إلى الألمانية وحلله في «Ein Arabisches Handbuch der Handeltswissenschaft», Berlin 1916.

(٨) نشره ف. كرنكو في حيدر آباد ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م.

للخليفة المعتضد. وكتاب كتبه مؤلف مصري في أجناس الرقيق. ولم يصلنا من هذه المؤلفات إلا الأول منها[٩].

وترد بعض الأمثلة والأقوال المأثورة - في القرن الرابع الهجري - وهي تلقي ضوءاً على الفعاليات التجارية ومنها: «رأس المال أحد الربحين» و«الأرباح توفيقات». وهذان القولان يشيران إلى مخاطر التجارة.

ومنها «الرابح في كل سوق هو البائع لما ينفق فيها». وقيل «الموجود من كل شيء رخيص، بوجدانه، غال بفقدانه إذا مست الحاجة إليه»، و«ما من شيء كثر إلاّ رخص». وهذه الأقوال تدل على إدراك لقوانين العرض والطلب.

ومنها «قيل لبعض المياسير: بم كثر مالك؟ قال: ما بعت بنسيئة قط، ولا رددت ربحاً وإن قل، وما وصل إليّ درهم إلاّ صرفته في غيرها». ومن هذا نستنتج أن الاعتماد لم يكن مأموناً تماماً. ومن ناحية ثانية أدرك التجار أن تشغيل المال دائماً مشروع مربح. وقيل: «التدابير نصف التجارة». كما أننا نرى الإشارة إلى فائدة التجارة بالجملة في القول التالي: «اشتر لنفسك وللسوق». ونلحظ روح المواظبة والمثابرة في القول الآتي: «إذا لم تربحوا في تجارة فاعتزلوا عنها إلى غيرها، وإذا لم يرزق أحدكم بأرض فليستبدل بها»[١٠].

٢ ــ العوامل المشجعة للتجارة، والعوامل المثبطة لها

وهناك عوامل ساعدت على نموّ التجارة، نكتفي ببيان أهمها:

منها أن موقع العراق الجغرافي جعله جسراً بين إيران والهند وأواسط آسيا والصين من جانب، والجزيرة العربية والشام ومصر والغرب من الجانب الآخر. وهكذا قدر لسكان العراق، عند توفر الظروف، أن يصبحوا وسطاء فعالين في تجارة العالم المتمدن[١١].

وقد شجعت الدولة التجار بصورة مباشرة وغير مباشرة. فالخليفة وكبار موظفيه زادوا الطلب على البضائع الأجنبية[١٢]، مما دعا ابن خلدون أن يسمي الدولة «السوق

(٩) انظر زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٢، ص ٢٣٤ و Mez., p. 160-1.

(١٠) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٩ ـ ١٠، والثعالبي، خاص الخاص، ص ٧٠.

(١١) انظر الجاحظ ـ البخلاء، ص ٣٩، والتنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١١.

(١٢) انظر زيدان ـ التمدن، ج ١، ص ٦٧ ـ ٧٤ وص ٨٠ ـ ٨٤.

الأعظم للتجار»[١٣]. وقد أيد بعض الخلفاء التجار لحد أنهم أعفوهم من بعض الضرائب، بل وقدموا لهم هدايا نقدية[١٤].

ثم ان نفوذ البلاد السياسي وسّع مجال فعاليات أهلها التجارية[١٥].

ثم ان الرسول وخلفاءه الثلاثة الأولين اشتغلوا بالتجارة وبذلك رفعوا من شأنها في نظر المسلمين[١٦]. كما وردت الأحاديث في تحبيذ التجارة. فهناك حديث يحبذ الاشتغال بالتجارة لأن «تسعة أعشار الرزق في التجارة». ويذهب حديث آخر إلى أبعد من ذلك، فيضع التاجر الأمين في مرتبة النبيين والصديقين والشهداء[١٧].

وقد ساعد توسع وسائل الائتمان، والمؤسسات الصيرفية على تكوين جوّ مناسب للفعاليات التجارية[١٨].

وتوجد عوامل واتجاهات كانت تعرقل النشاط التجاري. منها أن التوفير كان ينظر إليه بازدراء، كما أن الاقتصاد كان يعتبر بخلاً. فكان الناس يهزؤون بالتجار لأنهم يجمعون ثروتهم «من الحبات والقراريط والدوانيق وأرباع الدراهم وأنصافها»[١٩]. وقال أحدهم:

ما للتجار وللسخاء وإنما نبتت لحومهم على القيراط[٢٠]

واحتج أحد التجار قائلاً: «لا يقال (لرجل) بخيل إلاّ وهو ذو مال»[٢١]. إلاّ أن هذا الاحتجاج بحد ذاته دليل على النظرة الأدبية التي ينظر بها أكثر الناس إلى جمع المال.

---

(١٣) المقدمة، ص ٢٣٩.

(١٤) الغى الواثق الضرائب على البضائع الواردة في البحر الصيني. انظر اليعقوبي - التاريخ، ج ٢، ص ٥٩٠.

(١٥) انظر رحلة ابن فضلان إلى البلغار سنة ٩٢١ - ٩٢٢ م في معجم البلدان - لياقوت الحموي، مادة: بلغار.

(١٦) الجاحظ - البخلاء، ص ٣٠١.

(١٧) المقدسي - اليواقيت، ص ٢٧، وانظر أيضاً: Torrey, *The Commercial Theological Terms in The Koran*, esp. pp. 2 - 3: Manual of Hadith by Muhammad Ali, p. 294.

(١٨) انظر فصل «الجهبذة والصيرفة». وسنشرح الائتمان في قسم من هذا الفصل.

(١٩) الجاحظ - البخلاء، ص ٢١٤.

(٢٠) المقدسي - اليواقيت، ص ٢٨.

(٢١) الدمشقي - الاشارة إلى محاسن التجارة، ص ٧٦.

ومن الناحية الاجتماعية، كان التجار في درجة اجتماعية أوطأ من الأشراف(٢٢). فالعائلات الشريفة ابتعدت، بصورة عامة، عن الاشتغال بالتجارة. فلما أراد يحيى البرمكي الاشتغال بالتجارة، نصحه أحد التجار قائلاً: «أنت رجل شريف وابن شريف، وليست التجارة من شأنك»(٢٣). وكان الوزير المشهور محمد بن عبد الملك الزيات يقول: «إن أمير المؤمنين... نقلني من ذل التجارة إلى عز الوزارة»(٢٤). ويذكر عن الوزير ابن الفرات أنه وصف ابن الجصاص، أشهر تجار القرن الرابع الهجري، بأنه «رقيع عامي»(٢٥).

ولكن يجب أن لا يبالغ في أهمية هذه النظرة. فعامة الناس كانوا يحترمون التجار، وحتى الأشراف كانوا بحاجة إلى إرضائهم لما عندهم من الثروات(٢٦).

ولقد حرم الإسلام «الربا»(٢٧). وكان معنى الربا أولاً، الزيادة على الدين. ثم صار يعني «كل زيادة غير مشروعة، تؤخذ دون مقابل»(٢٨). وقد ذهب بعض الفقهاء إلى منع استعمال السفتجة، لأن مرسلها ـ الذي يعتبر صاحب القرض ـ يربح فائدة التخلص من أجور النقل(٢٩). وحتى الدفع المؤجل لم يسمح به إلاّ في حالات الشدة(٣٠).

وعلى الرغم من وجود اختلاف بين الفقهاء في تفاصيل موضوع الربا، فإن النظرة السائدة هي ان الربا يكون في النقود وفي المواد الغذائية: «إذ لا ربا إلاّ في نقد أو في طعام». فعلى «الصيرفي أن يحترز من النسيئة والفضل» في المعاملات بالنقود. و«أما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التقايض في المجلس، اختلف جنس الطعام المبيع

---

(٢٢) ابن خلدون ـ المقدمة، ص ٣٣١.

(٢٣) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب، ص ١٨٦.

(٢٤) الثعالبي ـ خاص الخاص، ص ٥.

(٢٥) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، س ٢٦٣.

(٢٦) الدمشقي، ص ٦١ وص ٤٧ وص ٦٨، التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٨ ـ ٢٢.

(٢٧) جاء التحريم قوياً مؤكداً. قال تعالى: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ و﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ و﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ (القرآن: سورة ٢، آية ٢٧٥ ـ ٢٨٠).

(٢٨) انظر E.I., art. Riba, vol. III, p. 1149.

(٢٩) انظر فصل «الجهبذة والصيرفة» لتوضيح معنى السفتجة. انظر أيضاً E.I., III, p. 1150.

(٣٠) انظر سورة ٤، آية ١٦١.

بالمشترى أو لم يختلف»[٣١].

وكان منع الربا عاملاً يذكر في عرقلة نمو الصيرفة والائتمان. ولكن هذه المشكلة خففت بطريقين: الأول هو أن الصرافين وأصحاب البنوك كانوا بالدرجة الأولى من غير المسلمين. والثاني هو أن توسع العلاقات والحاجات الاجتماعية ونموّها دفع الفقهاء إلى إيجاد وسائل مشروعة للخلاص من هذه المشكلة. فالشيباني - في كتابه **المخارج في الحيل** سمح عملياً ببيع البضائع دون رؤيتها، وأجاز التأخير في الدفع، ونقل الديون، وتخفيف الدين في حالة الدفع المعجل، والدفع بأقساط، وأهم من كل ذلك أجاز أخذ الفائض. واقترح «بيع العينة» لتسويغ الفائض. فإذا أراد (س) أن يقترض من (ص) بفائض، فإنه يبيع (ص) بضائع شكلية بقيمة تساوي القرض المطلوب، ويستلم هذه القيمة حالاً. ثم يعود (ص) فيبيع (س) البضائع نفسها بمبلغ يساوي مقدار القرض الذي أعطاه مضافاً إليه الربح المطلوب، على أن يكون الدفع في وقت تال يتفق عليه. وهكذا يحصل (ص) على الفائض الذي يريده عن المبلغ الذي أقرضه[٣٢].

أما احتكار المواد الغذائية، لغرض تأخير بيعها حتى يرتفع السعر، فكان ممنوعاً شرعاً[٣٣]. ولكن التجار أهملوا هذا القيد في الغالب وصار للاحتكار دور هام في الفعاليات التجارية[٣٤].

ومما يجلب الانتباه، أن الاحتكار - في غير المواد الغذائية - لم يكن مألوفاً في العراق، مع أنه لم يكن ممنوعاً. وأقرب شيء إليه هو الضمان. فيخبرنا الصولي عن رجل ضمن النقل النهري بين بغداد والبصرة سنة ٣٢٦ هـ/٩٤٠ م[٣٥]. ولم تكن الدولة تحتكر شيئاً عدا المنسوجات الرسمية، أو الطراز، للخليفة[٣٦]. وينفرد عضد الدولة في

---

(٣١) معالم القربة - لابن الأخوة القرشي، ص ٦٨. يعطي تفاصيل مأخوذة من كتاب احياء علوم الدين للغزالي، ج ٢، ص ٦٣ - ٤.

(٣٢) الشيباني، ص ٦ - ٧، ويقترح الشيباني طرقاً أخرى ولكن هذه أهمها. وانظر البخلاء للجاحظ، ص ٢١٨، وخاصة م ٥.

(٣٣) معالم القربة، ص ٦٦ - ٧.

(٣٤) انظر مسكويه، ج ١، ص ٧٣ - ٧٥. ويرى المقريزي ان الاحتكار، كان السبب الرئيسي لعدة مجاعات في مصر. اغاثة الأمة، ص ١٦ - ٤١ وخاصة، ص ١٧ وص ٢٦.

(٣٥) الصولي - أخبار الراضي والمتقي بالله، ص ٢٠٦.

(٣٦) انظر زيدان، ج ١، ص ١٢٤ وما بعدها.

أنه أوجد نوعاً من الاحتكار لصنع القز (وهو نسيج حريري) وعمل الثلج[٣٧].

ولعل التنوع الكبير في الحرف والإنتاج ساعد نوعاً ما على تضييق المجال أمام المحتكرين. فمع ان التجار كانوا يتاجرون بنوع واحد أو أكثر من البضائع فإن باعة البضائع الاعتيادية كانوا الكثرة، وبينهم من ينتج البضاعة ويبيعها في الوقت نفسه. ويكفي أن نذكر انه ورد في قائمة واحدة من أواخر القرن الرابع أكثر من عشرين صنفاً من الباعة والتجار[٣٨].

ثانياً: التجار

كان التجار يشتغلون بشراء وبيع البضائع التي يحتاجها الناس عامة، إلاّ أن تجارتهم كانت، بالدرجة الأولى، في أدوات الترف كالبسط والجواهر والرقيق[٣٩]. وكانت سوقهم تعتمد في الدرجة الأولى على كبار الموظفين وعلى الأغنياء، كما أن حالة تجارتهم وأرباحهم اعتمدت كثيراً على الأوضاع السياسية.

ولأجل أن نفهم حالة التجار في هذه الفترة، حسبنا أن نأخذ التاجر المشهور ابن الجصاص مثلاً لذلك.

١ ــ ابن الجصاص وأصناف التجار

كان ابن الجصاص تاجراً عراقياً يتعاطى بيع الجواهر. ثم رحل إلى الفسطاط في زمن الأمير الطولوني خمارويه (٢٧٠ - ٢٨٢ هـ/٨٨٣ - ٨٩٥ م)، واتصل بهذا الأمير، فنال حظوة عنده، وقرّبه الأمير وجعله وكيله الوحيد لتجهيز القصر بالأحجار الكريمة[٤٠]. ثم يحدثنا ابن الجصاص نفسه عن توسع ثروته فيقول: «كان بدء إكثاري انني كنت في دهليز أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، وكنت أتوكل له ولهم في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاج إليه، وما كنت أكاد أفارق الدهليز لاختصاصي بهم. فخرجت إليّ قهرمانة لهم في بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه

---

(٣٧) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦.

(٣٨) انظر أبو سعيد نصر بن يعقوب الدينوري (ت ٣٩٧ هـ/ ١٠٠٦ م) في Fahd, *Les Corps du Métiers..*, JESHO, VIII, pp.186 - 208.

(٣٩) يظهر هذا من محتويات كتاب التبصر بالتجارة للجاحظ وكتاب الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي.

(٤٠) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

مائتا حبة، لم أرَ قبله أحسن منه ولا أفخر، تساوي كل حبة ألف دينار عندي. فقالت: نحتاج أن تخرط هذه حتى تصغر فتجعل لأربع عشرات اللعب. فكدت أن أطير وأخذتها وقلت: السمع والطاعة، وخرجت في الحال مسروراً على وجهي وجمعت التجار ولم أزل أشتري ما قدرت عليه إلى أن حصلت مائة حبة أشكال، في النوع الذي أرادته. وجئت بها عشياً، فقلت: إن خرط هذا يحتاج إلى زمان وانتظار، وقد خرطنا اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا (ودفعت إليهم المجتمع)، والباقي يخرط في أيام. فقنعت بذلك وارتضت الحب. وخرجت فما زلت أياماً في طلب الباقي حتى اجتمع، فحملت إليهم مائتي حبة قامت عليّ بأثمان قريبة تكون دون مائة ألف درهم أو حواليها، وحصلت جوهراً بمائتي ألف دينار». ثم يستطرد ابن الجصاص فيقول: «وأخذت لنفسي غرفة كانت فيه (أي الدهليز) فجعلتها مسكني. قال: فلحقني من هذا أكثر مما يحصى حتى كثرت النعمة وانتهت إلى ما استفاض خبره»[41].

وفي سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م، زوّج خمارويه ابنته إلى الخليفة المعتضد، فاستدعى ابن الجصاص و«أجرى أمر الجهاز على يده فجرف الأموال بغير حساب».. وتظهر مقدار فائدة ابن الجصاص، من أنه أفرغ خزائن خمارويه حتى قال هذا: «لعن الله ابن الجصاص، أفقرني في السر»[42].

ثم نقل ابن الجصاص مركزه إلى بغداد سنة ٨٩٥ م، وهنا زادت ثروته واتسع نفوذه. وسارت أموره من جيد إلى أجود حتى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م، حين حصلت فتنة ابن المعتز، واتهم ابن الجصاص بإيواء ابن المعتز، فصودرت أمواله في تلك السنة[43]. وقد اختلف في مقدار ما خسره بهذه المصادرة، فابن الجصاص يدّعي أنه خسر عشرين مليون دينار، أما المؤرخون فيتراوح تقديرهم للخسارة بين أربعة ملايين[44] وبين ستة عشر مليون دينار[45]، في حين أن الوزير ابن الفرات قدر

---

(٤١) ن.م.، ج ١، ص ٢٦٠ - ٢٦١. وترد القصة ذاتها، باختلاف بسيط، في فوات الوفيات، ج ١، ص ١٧٧ - ١٧٨. ويذكر فوات الوفيات أن سعر كل حبة: مائة ألف دينار ويجعل ثمن العقد ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار. ويظهر انه مرتبك إذ إن الثمن الكلي يجب أن يكون ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار. وهذه مبالغة يصعب قبولها.

(٤٢) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٦٢.

(٤٣) فوات الوفيات، ج ١، ص ١٧٧، التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٦، مسكويه، ج ١، ص ٥ - ٨.

(٤٤) مسكويه، ج ١، ص ٣٥.

(٤٥) فوات الوفيات (عن ابن الجوزي)، ج ١، ص ١٧٧.

المصادرة بعشرة ملايين دينار في النقد والبضائع(٤٦). ومع ذلك، فقد اعترف ابن الجصاص بأنه بقي لديه بعد المصادرة ١,٢٠٠,٠٠٠ دينار(٤٧).

ثم تحسنت أحوال ابن الجصاص، وما جاء عام ٣١١ هـ/٩٢٣م حتى استعاد نفوذه وثروته. وصار الوزير ابن الفرات يخافه ويسعى لهلاكه، ولكنه كان ذكياً فاستطاع التخلص من مكائد الوزير. إذ انه زار الوزير سراً في الليل، وطلب إليه أن يكفّ عن إيذائه، وقال له: «فإن نزلت تحت حكمي في الصلح، وإلا فعليّ وعليّ». ثم يبين ابن الجصاص تهديده: «وحلفت له بأيمان غليظة، لأقصدن الخليفة ولأحولن إليه من خزانتي ألفي ألف دينار عيناً وورقاً، ولا أُصبح إلا وهي عنده، وأنت تعلم قدرتي عليها، وأقول له: خذ هذا المال وسلم ابن الفرات إلى فلان واستوزره، وأنظر له أقرب من يقع في نفسي انه يجيب إلى تقليده... ولا أعتمد إلا بعض كتابك فإنه لا يفرّق بينك وبينهم إذا رأى المال حاضراً، فيسلمك في الحال لهم، ويراني المتقلد بعين من أخذه وهو صغير فجعله وزيراً وغرم منه هذا المال الكثير. ويعتقد (الوزير الجديد) اني ربه وولي نعمته، فيخدمني ويتدبر بتدبيري في جميع أمره، فأسلمك إليه فيفرغ عليك العذاب حتى يأخذ منك الألفي ألف دينار بأسرها». فارتاع ابن الفرات لهذا التهديد، وسأل ابن الجصاص عن طلبته، فقال: «ان تحلف الساعة بما استحلفك به من الأيمان المغلظة انك تكون لي، لا علي، في صغير أمري وكبيره، ولا تنقص لي رسماً، ولا تغير معاملة، ولا تضع من شيء، وتزيد في رفعتي وذكري الجميل، ولا تبغي لي الغوائل، ولا تدسس عليّ المكاره، ولا تشرع لي في سوء ولا نكبة أبداً، ظاهراً ولا باطناً وتفعل وتفعل. فاشترطت عليه الأمن من كل ما كنت أخافه. فقال (ابن الفرات): وتحلف أنت أيضاً بمثل هذا اليمين على جميل النية وحسن الطاعة والمؤازرة. فقلت: أفعل». وتم الاتفاق بين الاثنين على ذلك. وفي اليوم التالي «أمر (ابن الفرات) بإنشاء الكتب إلى عمال النواحي بإعزاز وكلائي (ابن الجصاص) وصيانة أشيائي وضياعي. وتقدم إلى كتاب الدواوين بإخراج كل ما كانوا أدخلوه إليها، من تغيير رسومي والزيادة عليّ، وأن أجري على الرسوم القديمة»(٤٨). وهكذا انتصرت قوة المال على الوزير، وتمكن تاجر أن يؤثر في سياسة الدولة. ولعل هذه آخر مناورة مهمة لابن الجصاص، الذي توفي سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م(٤٩).

---

(٤٦) الصابي ـ الوزراء، ص ٢٣٣، انظر مسكويه، ج ١، ص ٢٣٩.

(٤٧) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٦ ـ ١٧.

(٤٨) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٨ ـ ٢٢.

(٤٩) فوات الوفيات، ج ١، ص ١٧٨.

ومما مرّ نستخلص عدة أمور: منها أن ابن الجصاص كان يتعامل بأدوات الترف فقط كالجواهر والرياش، وأنه لم يكن معروفاً حتى صارت له صلات بالأمير الطولوني خمارويه وبالخلفاء العباسيين في بغداد، ومعنى ذلك أن معاملاته الرئيسية كانت مع الطبقة العليا في الدولة. ثم ان أرباحه كانت طائلة في بعض الأحيان ولا تتناسب في جسامتها مع رأس ماله. كما نلحظ انه كان لديه عادة، احتياط نقدي يكوّن جزءاً مهماً من رأس ماله الضخم(٥٠). وبنتيجة هذه الثروة الواسعة، صار لابن الجصاص نفوذ واسع يمكنه من تهديد الوزير والتأثير فيه. ومع ذلك فقد كان وضعه غير مستقر، وثروته عرضة للمصادرة في بعض الحالات.

وكان التجار أكبر رأسماليي هذا القرن. فقد كان عند أحد الباعة، في الجانب الغربي من بغداد، من البضائع في حانوته ما يبلغ ثمنه ٢٠٠,٠٠٠ دينار(٥١). وبلغت ثروة تاجر بصري عشرين مليون دينار(٥٢). وكان لدى أحد التجار البغداديين ثمانون ألف دينار مدفونة في بئر(٥٣).

ويحدثنا أبو الفضل الدمشقي عن ثلاثة أصناف من التجار:

أ ــ الركاض

وهو التاجر الذي يتعامل مع بلدان مختلفة. وينتظر من هذا التاجر أن يستصحب معه رقعة بأسعار جميع البضائع في البلد الذي يريد العود إليه، ويضيف إلى ذلك نفقات النقل، والمكوس اللازم دفعها حتى يوصل البضاعة إلى محل بيعها، ثم يقارن النتيجة بالسعر الموجود في الرقعة الأولى، ليتأكد بذلك من ربحه. وإذا دخل الركاض بلدة لا يعرفها فعليه أن يفتش عن الوكلاء المأمونين وأن يتفهم السوق لئلا يورط نفسه(٥٤).

ب ــ الخزان

وطريقة هذا التاجر أن يشتري البضاعة وقت توفرها، وكثرة البائعين لها، وقلّة

---

(٥٠) يحدثنا الصولي (في مسكويه، ج ١، ص ٣٥ م ١) انه لما صودرت أموال ابن الجصاص سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م، وجد عنده مليون دينار موضوعة في جرار خضراء مدفونة في داره.

(٥١) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٦١.

(٥٢) زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ٤٢.

(٥٣) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٥٧. انظر الدمشقي ـ الاشارة إلى محاسن التجارة، ص ٤٧.

(٥٤) الدمشقي ـ الاشارة إلى محاسن التجارة، ص ٥١.

الطلب عليها. ثم يحفظها وينتظر أن تنعكس الظروف، فتصبح البضاعة قليلة إما لانقطاع توريدها، أو لصعوبة نقلها لارتفاع تكاليف النقل، أو لكثرة الطلب.

ويحتاج هذا الصنف من التجار إلى معرفة «أحوال البضائع في أماكنها وبلادها، وكثرتها فيها أو قلتها، ورخصها أو غلائها، وتوفير ربحها وسلامته أو نقصانه وعطبه، وانقطاع الطريق أو أمنها، وذلك باستطلاع الأخبار والتقصي من الركبان». وقد لا يحتاج هذا التاجر إلى السفر، ولكنه يلزمه أن يكون مطلعاً على أحوال الأسواق(٥٥).

ويروي التنوخي قصة تلقي بعض الضوء على معاملات التاجر الخزان. فيذكر أن تاجراً بغدادياً شاهد رسولاً قادماً من الرقة يحمل كتباً إلى بعض التجار. فاستطاع الحصول على هذه الكتب ووجد أنها مليئة بالتوصيات لتجار الزيت في بغداد بأن يحتفظوا بما عندهم من زيت وأن لا يبيعوا شيئاً لأن الزيت قلّ وارتفع سعره. فاستدعى التاجر وكلاءه في الحال وطلب إليهم أن يقترضوا كل ما يمكنهم اقتراضه من النقود من الصرافين، وأن يشتروا زيتاً بهذه النقود. فما جاء المساء حتى اشترى وكلاؤه زيتاً بثلاثة آلاف دينار. ثم انه أوصاهم بالاستمرار على الاقتراض، وعلى شراء الزيت. فاشتروا زيتاً بأربعة آلاف دينار أخرى، فارتفع سعر الزيت ٥ بالمئة نتيجة هذه العملية. ومع ذلك، فإنهم اشتروا كميات جديدة من الزيت بثلاثة آلاف دينار، ولما جاء مساء اليوم الثاني لم يبقَ زيت في السوق. وفي تلك الأثناء اطلع التجار الذين أرسلت إليهم الكتب على محتوياتها، فأتوا إلى هذا التاجر وقدموا له ٢٠ بالمئة ربحاً على الثمن الذي دفعه في الزيت، ولما رفض عرضوا عليه ربحاً قدره ٣٠ بالمئة من الثمن، ولكنه لم يوافق على البيع. وبعد شهر عرضوا عليه فائدة قدرها ٥٠ بالمئة ثم ٦٠ بالمئة ولكنه أصرّ على الرفض. وأخيراً ضاعفوا له الثمن، فرأى أنه من الخطأ أن يرفض مثل هذا الربح، وباع الزيت الذي اشتراه بعشرة آلاف دينار بمبلغ عشرين ألف دينار(٥٦).

ويقترح الدمشقي على الخزان أن يلاحظ حالة البلد الذي يعيش فيه من حيث الأمن، والعدل، وقوة الدولة وضعفها، وأن يوجه سياسته التجارية بضوء الأحوال العامة(٥٧).

---

(٥٥) ن.م.، ص ٤٨.

(٥٦) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٦١-١٦٣.

(٥٧) الدمشقي - الاشارة إلى محاسن التجارة، ص ٥٠ - ٥١.

ج ــ المجهز

وهذا التاجر لا يسافر من بلد إلى آخر، بل يكون له وكلاء مأمونون، يرسل إليهم البضائع لبيعها. ثم ان الوكلاء، بدورهم، يشترون له البضائع ويرسلونها إليه. ويشترط في الوكلاء أن تكون لهم خبرة خاصة في البضائع التي يبيعونها وفي البضائع التي يشترونها(٥٨). وتدل الإشارات الكثيرة إلى الوكلاء على أهميتهم في الحياة التجارية، إذ إنهم كانوا يقومون بما تقوم به فروع الشركات التجارية، في الوقت الحاضر(٥٩).

وهناك صنف من الوسطاء في التجارة، وهم السماسرة، وهؤلاء يفوّضون بشراء وبيع البضائع(٦٠). وكانت أجور السماسرة جيدة. فيروى عن أحد السماسرة في بغداد، انه كان يحصل على آلاف الدنانير من تاجر خراساني كان يكلفه ببيع بضائع في موسم الحج(٦١).

وقد تحرج بعض الفقهاء في أجور السمسار، ويقترح الشيباني مخرجاً لذلك، بأن يشتري السمسار البضائع ثم يبيعها إلى التاجر الذي فوضه بالشراء وذلك بربح يساوي أجرته(٦٢).

٢ ــ الشركات

وكان التجار يشكلون شركات، بأن يسهموا بما لديهم من أموال بالنقد أو الائتمان، وقد تكون البضائع أساساً للشركة، ولم تعوز الحيَل الفقهية لمواجهة شكوك بعض الفقهاء(٦٣). واتخذت الشركات أشكالاً مختلفة، إذ كان بإمكان التجار أن يشتركوا برأس المال والعمل أو بأحدهما، أو أن يقدموا رأس المال لآخرين ليتاجروا به (مضاربة، قراض). ويتحدد شكل الشركة بنطاق المشاركة وشكلها(٦٤). وترد الإشارة إلى ثلاثة أنواع من الشركات:

---

(٥٨) ن.م.، ص ٥٢، الشيباني - المخارج في الحيل، ص ١١.

(٥٩) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٦١- ١٦٣، التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٥، الجهشياري - الوزراء والكتاب، ص ٣٢٠، الشيباني - المخارج في الحيل، ص ١٤.

(٦٠) الشيباني - المخارج في الحيل، ص ١١.

(٦١) التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١١.

(٦٢) الشيباني - المخارج، ص ٤٣.

(٦٣) ن.م.، ص ٥٨، الخصاف - الحيل، ص ٦٧.

(٦٤) الكاساني - بدائع الصنائع، ج ٦، ص ٥٦- ٥٧.

Udovitch, *Partnership and Profit in Medieval Islam*, pp. 41 - 2.

أ ـ شركة المفاوضة

ويرى الحنفية أن من شروط العقد أن يتساوى الشريكان في رأس المال وأن «لا يختص أحدهما بملك مال يصلح أن يكون رأس ماله من النقود». فإن كان لأحدهما عروض أو دين فلا يؤثر ذلك في صحة العقد. ويفترض التكافؤ بين الشريكين، كما يتساويان في الربح والخسارة. ولكل من الشريكين حق التصرف والتعامل برأس المال حسب تقديره وفي أي وجه من وجوه التجارة لأن المفاوضة تتضمن الوكالة والكفالة. فبحكم الوكالة يكون شراء أحدهما كشرائهما، وبحكم الكفالة يكون كل واحد منهما مطالباً بما يجب على صاحبه بسبب التجارة(٦٥).

والأصل في شركة المفاوضة أن تكون بالنقد. ويبدو أن متطلبات التجارة جعلت الحنفية يجدون السبل لإقرار الشركة بالعروض فقط أو بالنقد من طرف والعروض من الطرف الآخر(٦٦).

أما المالكية فيؤكدون على التفويض في هذه الشركة، فكل شريك يفوض شريكه التعامل برأس المال ويتحمل كل المسؤوليات المترتبة على شريكه في العمل(٦٧). ولا يشترط المالكية التكافؤ بين الشركاء بل يجيزون الشركة بين كل من له حق الاشتغال بالتجارة، الحر والعبد المأذون، وحتى بين المسلم والذمي بشروط(٦٨). ويلاحظ أن اسم شركة العنان لم يسمع من مالك، ولذا توسع المالكية في طبيعة شركة المفاوضة، فهم لا يشترطون إدخال كل المال المقبول لدى الشريكين في الشركة، كما يمكن أن يكون لأحدهما نقد أو عروض دون صاحبه(٦٩). ويمكن أن تتعاطى الشركة كل أنواع التجارة، كما يجوز أن تقتصر على التجارة ببضاعة واحدة(٧٠).

ويرفض الحنابلة عقد المفاوضة(٧١)، كما يرفضه الشافعي ويعتبره فاسداً وهو

---

(٦٥) المبسوط، ج ١١، ص ١٥٢، ص ١٥٩، ص ١٦٠، ص ١٧٧، القدوري ـ المختصر، ج ٢ ص ٦٩ ـ ٧١، الشيباني ـ الأمالي، ص ٤٢، Udovitch, *op. cit.*, p. 48 ff.

(٦٦) المبسوط، ج ١١، ص ١٧٩، الشيباني ـ المخارج، ص ٥٨.

(٦٧) المدونة، ج ١٢، ص ٤٠، ص ٧٠.

(٦٨) ن.م.، ج ١٢، ص ٧٠.

(٦٩) ن.م.، ج ١٢، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٧٠) ن.م.، ج ١٢، ص ٦٨، ص ٧٠.

(٧١) ابن قدامة ـ المغني، ج ٥، ص ٢٥ ـ ٢٦.

يرى أن الشركة تكون بالنقد الواحد، ويجوز أن تكون بالعروض بشروط، كما يرى أن يشتركا في البيع والشراء إلا إذا خوّل أحدهما صاحبه(٧٢).

ب ــ شركة الضمان

ويمكن أن تتخذ أشكالاً مختلفة بالنسبة إلى مساهمة كل من الطرفين في رأس المال، ولمسؤوليته، ولحصته من الربح، وكذلك بالنسبة إلى أصناف التجارة. وتعقد الشركة على أساس الوكالة دون الكفالة. ونوع رأس المال هنا كما في شركة المفاوضة، إلا أنه يمكن لكل أن يضع بعض ماله في الشركة ويبقى الباقي خارجها(٧٣)، ولا يشترط خلط الحصتين ولذا يمكن أن يكون رأس مال أحد الطرفين دراهم والطرف الآخر دنانير، وهو ما لا يقره الشافعي(٧٤). ويجوز أن يتساوى الشريكان في رأس المال، وأن يتفاوتا(٧٥) ويمكن أن يتباين الربح مع المساواة في رأس المال، ويبرر ذلك بتفاوت الناس بالحذق في التجارة(٧٦). أما الخسارة فيلزم أن تتناسب ومسؤولية كل من الشريكين ونصيبه من رأس المال. ويجوز لكل بالغ عاقل من الجنسين أن يساهم في هذه الشركة(٧٧). ويمكن أن تكون الشركة للتجارة في مختلف البضائع أو في صنف واحد، وقد تكون لفترة طويلة أو لمشروع واحد(٧٨).

يقرّ المالكية مثل هذه الشركة وإن لم يرد الاسم عندهم، ولكنهم يصرون على أن تكون نسبة الربح مساوية لنسبة الحصة من رأس المال(٧٩). ويقرّ الشافعية هذه الشركة من حيث الأساس(٨٠).

ج ــ شركة الوجوه

وتسمى أيضاً شركة المفاليس - وهي أن يشترك اثنان بغير رأس مال على أن

---

(٧٢) الشافعي - الأم، ج ٨، ص ١٠٩، ج ٣، ص ٢٣١، المبسوط، ج ١١، ص ١٥٣.
(٧٣) المبسوط، ج ١١، ص ١٥٦، Udovitch, *op. cit.*, pp. 125 - 32.
(٧٤) المبسوط، ج ١١، ص ١٥٢ - ١٥٣.
(٧٥) ن.م.، ج ١١، ص ١٥١ - ١٥٣.
(٧٦) ن.م.، ج ١١، ص ١٥٦ - ١٥٧.
(٧٧) القدوري - المختصر، ج ٢، ص ٥٣، المبسوط، ج ١١، ص ١٥٦.
(٧٨) المبسوط، ج ١١، ص ١٧٣ - ١٧٤، الكاساني، ج ٦، ص ٦٢.
(٧٩) المدونة، ج ١٢، ص ٥٩، ص ٦٢، ص ٦٨.
(٨٠) الأم، ج ٣، ص ٢٣١، الغزالي - احياء، ج ٢، ص ٦٥ - ٦٦ وانظر Udovitch, *Labour Partnership in Medieval Islamic Law*, JESHO, 10 (1967) pp. 64 - 80.

يشتريا ويبيعا بالنسيئة، وهي تقوم على حسن سمعة الشركاء جنب عملهم. ويقول السرخسي: «سميت بهذا الاسم على أن رأس مالها وجهها فإنه إنما يباع في النسيئة ممن له في الناس وجه»[٨١]. ويمكن أن تكون هذه الشركة شركة مفاوضة أو شركة عنان فتتبع أسس كل منهما[٨٢]. ويراها الشافعي باطلة لأنه لا يرى شركة دون مال[٨٣]، كما يرفضها مالك[٨٤]. ويبرر الحنفية شركة الوجوه على أساس الوكالة، وعلى أساس العرف، فالناس تعاملوا بها «من لدن رسول الله (ﷺ) إلى يومنا هذا من غير نكير»[٨٥].

لم يكن حديث كتب الفقه عن الشركات نظرياً بل إنه محاولة لتنظيم التعامل وفق أطر وشروط مقبولة. فأهل الحجاز لا يعرفون شركة العنان، فلا يشير إليها مالك[٨٦]. والحنفية، مع الازدهار التجاري الكبير في العراق، يتوسعون في تصنيف الشركات، ويشيرون إلى تعامل الناس منذ صدر الإسلام (العرف) ليقروا شركة التقبل وشركة الوجوه[٨٧]. ولا يكتفون بذلك بل يذكرون الاستحسان جنب القياس لييسروا بعض أنواع التعامل في الشركات[٨٨]. كما انهم يضعون صيغ عقود للشركات ليمنعوا مجال التلاعب أو الاضطراب[٨٩].

وهناك عرف بين التجار يلتزمون به، وللثقة والأمانة دور كبير. وتذكر كتب الفقه الشركة بين اثنين، اصطلاحاً، إذ كانت الشركة في الواقع بين ثلاثة أو أكثر شائعة، كما كان مألوفاً أن يشارك التاجر في عدد من الشركات. وقد تقوم شركات بين تجار من أديان مختلفة. وكان للخبرة أثر في طبيعة الشركة وفي تحديد الربح[٩٠].

---

(٨١) المبسوط، ج ١١، ص ١٥٢، الشيباني ـ الامالي، ص ٤٣.
(٨٢) المبسوط، ج ١١، ص ١٧٩، الكاساني، ج ٦، ص ٥٦، ص ٧٧، الغزالي ـ احياء، ج ٢، ص ٦٥ ـ ٦٦ و Udovitch, *op. cit.*, pp. 81 - 88.
(٨٣) الأم، ج ٨، ص ١٠٩، المبسوط، ج ١١، ص ١٥٥.
(٨٤) المدونة، ج ١٢، ص ٤١ ـ ٤٢.
(٨٥) المبسوط، ج ١١، ص ١٥٥.
(٨٦) المدونة، ج ١٢، ص ٦٨.
(٨٧) المبسوط، ج ١١، ص ١٥٥.
(٨٨) ن.م.، ج ١١، ص ١٧٤.
(٨٩) ن.م.، ج ١١، ص ١٥٥ وما بعدها.
(٩٠) انظر Goitein, *Mediterranean Society*, I, p. 170 ff

ثالثاً: الائتمان

كان للائتمان دور مهم في التجارة، إذ إنه يوفر المال للتجار عند الحاجة، ويهيّيء السبيل لتشغيل رأس المال الزائد بشكل منتج، ويساهم عموماً في توسيع النشاط التجاري. وكان التعامل بالائتمان شائعاً في الفعاليات التجارية وخاصة للتجارة البعيدة، لاختلاف الأوضاع العامة ولتحاشي أخطار الطرق[٩١]. ويراه السرخسي ضرورياً للتجارة الناجحة والمربحة وخاصة للتجارة البعيدة، ويفهم منه أن البيع بالدين قد يكون أكثر من البيع نقداً[٩٢].

١ ـــ أنواع الائتمان

ويذكر الدمشقي ثلاثة أنواع من الائتمان:

أ ـــ **السلف المؤجل** ـ أو اقتراض مال ثم دفعه في وقت تال حسب الاتفاق.

ب ـــ **الاستلاف المنجم** ـ أو اقتراض مال على أن يدفع بأقساط معيّنة يحدد معها زمن الدفع. وترد إشارات كثيرة في وثائق الغنيزة (Geniza) إلى الديون والقروض ودورها في تنشيط التجارة، وكذلك إلى الدفع بأقساط[٩٣].

ج ـــ **المضاربة**:

(في الحجاز: المقارضة) ـ وهي أن يشتغل شخص (أو أشخاص) برأس مال أو ببضائع شخص (أو أشخاص) آخر، أو بكليهما، لقاء حصة من الربح، ويحدد الاتفاق شروط العمل والمحلات التي يذهب إليها المضارب. ولا يكون هذا مسؤولاً عن تعويض أية خسارة تمس رأس المال ما لم يتجاوز شروط الاتفاق. وينتظر من المضارب أن يتحمل نفقات سكنه وإقامته في حين أن أجور النقل تدفع من صافي الأرباح، ويجوز في بعض الحالات أن يأخذ المضارب نفقات المعيشة والسفر وتكاليف الضرائب. وقد يساهم المضارب برأس مال بسيط[٩٤].

---

(٩١) المبسوط، ج ١٢، ص ٣٨ - ٣٩، الكاساني، ج ٦، ص ٦٨ و Goitein, *op. cit.*, I, p. 197 - 9.

(٩٢) المبسوط، ج ٢٢، ص ٣٨ وص ٤٨، Udovitch, *op. cit.*, p. 78 ff.

(٩٣) انظر Goitein, *op. cit.*, I, pp. 197 - 200, p. 252 ff.

(٩٤) الدمشقي ـ الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٤٠، الشيباني ـ المخارج، ص ٢٧ - ٢٨، المبسوط، ج ٢٢، ص ٢٠، Ritter, *Handelswissenschaft*, p. 85; Goitein, *op. cit.*, I, p. 171 ff. Idem., *Commercial and family partnership*, in *Isl. Studies*, III, 1964, p. 315 ff.

ظهرت المضاربة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وانتشرت بعد الفتوح ولعلها أثرت في نشوء الـ (Commenda) في أوروبا في العصور الوسطى(٩٥). ويبين السرخسي أن المضاربة كانت مألوفة في صدر الإسلام، أقرها الرسول وتعامل بها بعض الخلفاء (عمر، عثمان، علي) وبعض الصحابة وأبنائهم، مما يشعر بأهمية المضاربة آنئذ للتجارة البعيدة(٩٦). وفي وثائق الغنيزة (Geniza) أمثلة كثيرة للمضاربة ولدورها الواسع في التجارة(٩٧).

٢ ـ المتعاملون بالائتمان

وكان التجّار يقترضون الأموال من الصرّافين، بربح معيّن(٩٨). فيحدثنا التنوخي عن تاجر بغدادي اقترض عشرة آلاف دينار من الصرّافين(٩٩). وكان لبعض التجّار (ناقد) خاص ينظم لهم معاملات الائتمان. يروى عن تاجر من أهل الابلة انه احتاج إلى خمسمئة دينار، فأرسل (ناقده) إلى البصرة فاقترض له هذا المال(١٠٠).

وكان التجار يقرض بعضهم بعضاً أيضاً. فيذكر عن أحد تجار الأقمشة أنه كان مديناً بأربعة آلاف دينار لعدد من تجار بغداد، ولما كان ما بيده يبلغ أربعمئة دينار فقط، فقد قبل دائنوه اقتراحه بأن يفتح حانوته ويمهلوه ليدفع دينه بأقساط، بمعدل أربعمئة دينار سنوياً، وبذلك يستطيع أن يسدد ديونه في نهاية عشر سنوات. وهذا الخبر يدل على أن الاقتراض كان شائعاً بين التجار، لأن هذا التاجر اقترض الأربعة آلاف دينار من عدة تجار. كما أنه يدل على تقدير لأهمية وضرورة الائتمان في التجارة، لأن التجار وافقوا على أن ينتظروا عشر سنوات ليحصلوا على ديونهم كاملة(١٠١).

وكان التجار يبيعون عملاءهم أحياناً بالدين، فيعطونهم البضائع على أن

---

(٩٥) انظر M. J. Kister, *Mecca and Tamim*, JESHO, 8, 1965, p.117 ff.; Udovitch, *At The Origins of The Western Commenda*, Speculum 36 (1962), pp. 198 - 207.

(٩٦) المبسوط، ج ٢٢، ص ١٨ ـ ٢٠، ابن سعد ـ الطبقات، ج ٣، ق ١، ص ٤١، صالح العلي ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص ٢٧٠ ـ ١، ص ٢٨٩ وما بعدها.

(٩٧) Goitein, *op. cit.*, I, p. 169 ff.

(٩٨) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٠٤، الصولي ـ اخبار الراضي والمتقي بالله، ص ٢٣١.

(٩٩) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٦١ ـ ١٦٣.

(١٠٠) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٦١٢.

(١٠١) ن.م.، ج ٢، ص ٢٩ وص ١٤٩ ـ ١٥٠.

يستلموا أثمانها في ما بعد[١٠٢]. فقد توفي رجل في البصرة، وكان مديناً بمبلغ ثمانين ألف درهم لتاجر طحين[١٠٣]. وكانوا يقرضون الناس الدراهم أحياناً. ويشكو ابن الرومي من تاجر «يرهق الناس باقتضاء ديونه»[١٠٤]. ويتحدث التنوخي عن رجل أصابه ضيق لأن التجار لم يقرضوه ما يحتاج من النقود[١٠٥]. وكانت القروض تتراوح بين آلاف الدنانير وبين جزء من الدينار[١٠٦].

ويظهر أن المرابين كانوا يشكلون حلقات في بعض المدن، فيخبرنا الجاحظ عن وجود حلقة لـ «أصحاب العينة» في البصرة، وأن هؤلاء كانوا يقرضون الأموال ويأخذون الفائض عليها[١٠٧].

وكانت معاملات الائتمان من استدانة، أو إيفاء دين، تنظم في صكوك (ج. صك)، ويحضر عادة شاهدان يوقعان الصك[١٠٨]، ثم يختم بنوع خاص من الطين[١٠٩].

وتوجد معاملات أكثر تعقيداً مما ذكر. فكان الدائن أحياناً يشترط وجود كفيل يتعهد بدفع الدين متى عجز المدين عن دفع دينه[١١٠]. وكان الدّيْن يُحوّل أحياناً من شخص إلى آخر، وتستخدم هذه الطريقة لتصفية الديون. فمثلاً: أمين مدين لباسم بعشرة دنانير ورياض مدين لأمين بعشرة دنانير، فيستطيع أمين أن يحوّل باسماً على رياض، وبذلك يصبح رياض مديناً لباسم بعشرة دنانير[١١١]. ويسهل هذا التحويل إذا كان أمين وباسم ورياض ساكنين في المدينة نفسها، ولكنه يكون صعباً عندما يسكن الثلاثة في مدن مختلفة. ولأجل تصفية الحساب في الحالة الثانية اتبع نظام (السفتجة)، وأصبح من الممكن تصفية الحساب بين مدن وأقطار مختلفة بواسطة

---

(١٠٢) ابن قتيبة - عيون الأخبار، ج ١، ص ٢٥٦.

(١٠٣) الجاحظ - البخلاء، ص ٢٤٠.

(١٠٤) المقدسي - اليواقيت، ص ٣١.

(١٠٥) التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٥.

(١٠٦) الجاحظ - البخلاء، ص ٢٢١ وص ٢٢٤.

(١٠٧) ن.م.، ص ٢١٨.

(١٠٨) ابن قتيبة - عيون الأخبار (١٩٢٥) ج ١، ص ٢٢٥، ويعطي الشيباني - المخارج في الحيل، ص ٢٠، صورة صك استدانة وصك استلام. انظر أيضاً فصل (الجهبذة والصيرفة).

(١٠٩) الجاحظ - البخلاء، ص ٢٣٦.

(١١٠) الشيباني - المخارج في الحيل، ص ١٧ - ١٨.

(١١١) ن.م.، ص ١٨.

السفتجة دون الحاجة إلى نقل النقود أو البضائع[١١٢].

ويخبرنا أبو شجاع أن أمر التجار نافذ في المشارق والمغارب «لأنهم يكتبون (سفاتج) بالأموال الجمة على معاملاتهم فيكون أسرع في الرّواج من مال الجباية والخراج»، وينوّه بأن سفاتج التجار كانت تقبل في بلاد الأعداء، إضافة إلى رواجها في البلاد الإسلامية المستقلة[١١٣].

وكانت معاملات الائتمان تحصل بين الدولة والتجار. ففي أوقات الأزمات، وعند تأخر جباية الضرائب، كانت الدولة تقترض من التجار. وقد نصح عبيد الله بن سليمان (توفي سنة ٢٨٨ هـ/٩٠٠ م)، وزير المعتضد، ابنه ونائبه أن يقترض من التجار عند الضرورة[١١٤]. واعتاد علي بن عيسى أن يقترض من التجار[١١٥]. أما تأسيس علي بن عيسى لمصرف رسمي فلا يناقض فكرة الاقتراض من التجار، لأن الجهبذيين اللذين كونا ذلك المصرف كانا تجاراً، ولأن المصرف المذكور كان لحدّ ما وسيطاً بين الدولة والتجار[١١٦]. وقد شكا الخليفة الراضي، حين حصلت له أزمة مالية (سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٣ م)، بأنه لا يجد في عصره تجاراً أغنياء مثل ابن الجصاص «يجمل بمثلهم الملك، ويلجأ إليهم»[١١٧]. ولا يعني هذا القول ان الخليفة لم يعد يتعامل مع التجار، وإنما يدل على أن هذه المعاملات لم تعد ميسورة كما كانت من قبل.

ومتى اقترض الوزير من التجارة، قدم لهم ضماناً بالدين. فكان علي بن عيسى يعطي التجار سفاتج على الواردات، مؤجلة، تصرف حينما يحل موعدها[١١٨]. ويعطي التاجر أحياناً وارد منطقة ما، أو يخوّل جباية الضرائب ليستحصل دينه[١١٩]. وإذا شكا التجار من معاملة الدولة، فإنهم يتوقفون عن إقراضها. وهذا ما حصل للوزير ابن شيرزاد (٣٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/٩٤٣ ـ ٩٤٥ م) إذ ان التجار رفضوا تسليفه لأنه ظلم

---

(١١٢) انظر فصل (الجهبذة والصيرفة).

(١١٣) مسكويه، ج ٣، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

(١١٤) الصابي ـ تاريخ الوزراء، ص ١٨٨.

(١١٥) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٢٦.

(١١٦) ن.م.، ج ٨، ص ٢٦ ـ ٧.

(١١٧) الصولي ـ أخبار الراضي والمتقي بالله، ص ١٦.

(١١٨) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٢٦.

(١١٩) الصابي ـ الوزراء، ص ١١، مسكويه، ج ٢، ص ٣٢٩، التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٢٦.

بعضهم وصادر أموالهم[١٢٠].

وكان التجار يأخذون فائدة على ما يقرضونه للدولة، وعلى السفاتج التي يصرفونها[١٢١]. فكان علي بن عيسى يدفع فائدة قدرها درهماً في كل دينار من الدين أو ١/١٥[١٢٢]. وقد اقترض العامل الكلواذاني مئتي ألف دينار، سنة ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م، ودفع النسبة نفسها من الفائض[١٢٣].

رابعاً: الأسواق المحلية

إن وصف أسواق العراق في هذا العصر يحقق غايتين: إذ يبين أهمية التجارة في حياة البلاد الاقتصادية من جهة، ويعطي فكرة عن التوزيع الجغرافي لأهم المجتمعات التجارية من جهة أخرى.

لقد كانت الأسواق جزءاً حيوياً هاماً من المدن[١٢٤]. فعندما وضعت خطط بغداد في القرن الثاني، وخطط سامراء في القرن الثالث، وجهت عناية خاصة للأسواق[١٢٥]. ولما خصص المعتصم قطيعة في سامراء لقائده الأفشين ليبني عليها الدور، «أمره أن يبني هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيما لا بد منه»[١٢٦]. ولما بنى المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ/٨٤٦ - ٨٦١ م) مدينة الجعفرية شمال سامراء «جعل في كل مربعة وناحية سوقاً»[١٢٧].

ولنصف الآن أسواق بعض المدن، مبتدئين ببغداد.

فبغداد كانت ملتقى تجار في العصر الساساني[١٢٨]. وصارت الآن المركز

---

(١٢٠) انظر ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٣٦ - ٧، الصولي - أخبار الراضي والمتقي بالله، ص ٢٥٠ - ٢٥١ وص ٢٦٤.

(١٢١) الصابي - الوزراء، ص ١٨٨.

(١٢٢) ن. م.، ص ٨٥.

(١٢٣) مسكويه، ج ١، ص ٢١٣. ومما يجلب الانتباه أن الفائض تحدد نسبته فقط دون الإشارة إلى المدة اللازمة لتسديده. وهكذا نجد علي بن عيسى يدفع الفائض المعين، كل شهر (التنوخي، ج ٨، ص ٢٦، الصابي، ص ٨٥). ولكننا لا نجد تحديداً زمنياً لقرض الكلواذاني.

(١٢٤) انظر Massignon, *Enquête*, p. 142.

(١٢٥) انظر التفاصيل في كتاب البلدان لليعقوبي.

(١٢٦) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٥٩.

(١٢٧) ن.م.، ص ٢٦٧.

(١٢٨) ابن الجوزي - مناقب بغداد، ص ٧ - ٨.

التجاري العظيم للامبراطورية العباسية. وقد جعلها موقعها الجغرافي، السوق الطبيعية للتجارة الداخلية. فدجلة والفرات تصل بينها وبين الطرق البحرية في الجنوب، وبينها وبين أرمينية والشام في الشمال والغرب، في حين أن طريق بغداد ـ خراسان الكبير جعلها مركزاً لتجارة إيران وأواسط آسيا(١٢٩). وهذا الدور التجاري المهم لبغداد يوضح لنا كثرة أسواقها.

و«السوق العظمى» في بغداد هي الكرخ(١٣٠)، وهي معدن التجار(١٣١). وقد بلغ طولها فرسخان وعرضها فرسخ واحد(١٣٢). وعلى جانبي درب «باب الكرخ» تمتد أسواق مهمة. وهناك أسواق واسعة لكل أنواع التجارات في محلة باب البصرة(١٣٣)، وأسواق أخرى في درب باب المحول حيث كانت السفن القادمة من الفرات تلقي بحمولتها(١٣٤). وكان «لكل تجار وتجارة (في الكرخ) شوارع معلومة، وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراص، وليس يختلط قوم بقوم، ولا تجارة بتجارة، ولا يباع صنف مع غير صنفه، ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم، وكل سوق مفردة، وكل أهل منفردون بتجاراتهم»(١٣٥). ومن أسواق الكرخ المنفردة، «سوق البطيخ» للفواكه(١٣٦)، و«سوق البزازين» لبيع الأقمشة، وسوق الطعام(١٣٧)، وسوق العطارين(١٣٨)، وسوق الصرافين(١٣٩)، وسوق أو دار القطن(١٤٠)، وسوق الوراقين التي كانت تحوي (حوالي ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) ما ينوف على مئة مكتبة(١٤١).

---

(١٢٩) انظر اليعقوبي، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(١٣٠) ن.م.، ص ٢٤٦.

(١٣١) ابن الأثير، ج ٨، ص ٤٥٥، انظر الاصطخري، ص ٨٤، ابن حوقل (B.G.A.)، ص ٢٤٢.

(١٣٢) اليعقوبي ـ البلدان، ص ٢٤٦.

(١٣٣) ن.م.، ص ٢٤٥.

(١٣٤) الخطيب البغدادي، ص ٦٥ وما بعدها.

(١٣٥) اليعقوبي، ص ٢٤١ وص ٢٤٦.

(١٣٦) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ٦٨، الثعالبي ـ ثمار القلوب، ص ٤١١. ولأجل معرفة تاريخ هذه السوق، انظر الخطيب، ج ١، ص ٢٢. ولمعرفة المواقع على خارطة المدينة، انظر بغداد بقلم لسترنج.

(١٣٧) الخطيب البغدادي، ص ٦٧.

(١٣٨) ابن الجوزي ـ مناقب بغداد، ص ٢٧ ـ ٢٨، اليعقوبي، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(١٣٩) طيفور ـ تاريخ بغداد، ص ١٧٩.

(١٤٠) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ٣٦.

(١٤١) اليعقوبي ـ البلدان، ص ٢٤٥.

وكانت محلة الحربية مركز التجار الأجانب. وفيها سوق باب الشام، وهي «سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات»، وتمتد في شارع عظيم، تتفرع منه إلى الجوانب دروب طوال، وفي كل درب أهل بلد من البلدان يطلق اسمهم عليه. ومن تجار هذه السوق، أهل بلخ، وأهل مرو، وأهل الختل، وأهل بخارى، وأهل كابل شاه، وأهل خوارزم. و«لكل أهل بلد قائد ورئيس»(١٤٢).

أما الحيّ التجاري الرئيس في الجانب الشرقي من بغداد فهو «باب الطاق»، في طرف الجسر المركزي(١٤٣). ومن ساحة هذا الجسر يتفرع سوقان: «سوق الأساكفة»، و«سوق الطيب» حيث تباع العطور والزهور(١٤٤). ووراء هذين السوقين تمتد «سوق الطعام» وفيها حوانيت للخبازين وللقصابين. وكانت سوق الصاغة في بناية فخمة. وهناك سوق للوراقين(١٤٥).

وكانت سوق الغنم قرب باب المخرم، على ضفة نهر بطاطيا(١٤٦). وفي سوق خضير كانت تباع طرائف الصين، وتقع هذه السوق قرب الجسر الأعلى(١٤٧).

وأخيراً نذكر أن جميع أصناف البضائع كانت تباع في سوق الرصافة(١٤٨).

والخلاصة، فإن تجار كل بضاعة انفردوا بسوق خاصة، وأن القسم الغربي من بغداد كان أهم في التجارة من القسم الشرقي، وأن بغداد كانت عاصمة العراق التجارية وإليها تجلب البضائع من أنحاء العالم.

ويلي بغداد في الأهمية التجارية مدينة البصرة. وكانت تمتاز بموقع جغرافي مناسب، هو ملتقى البحر والسهل الخصيب والصحراء(١٤٩). وكانت البصرة باب

---

(١٤٢) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٤٦ وص ٢٤٨.

(١٤٣) انظر Le Strange, *Baghdad*, p. 178, p. 181, p. 218, p. 320.

(١٤٤) انظر *Ibid.*, pp. 271 - 273.

(١٤٥) ابن الجوزي - مناقب بغداد، ص ٢٦، اليعقوبي، ص ٢٥٣.

(١٤٦) الخطيب البغدادي، ج ١، ص ٦٩.

(١٤٧) اليعقوبي، ص ٢٥٤.

(١٤٨) ن.م.، ص ٢٥٣.

(١٤٩) Baladhuri, *Origins*, II, p. 60، والمقدسي، ص ١١٧، وياقوت - معجم البلدان، ج ١، ص ٣٣٦. ويصف الجاحظ مدينة البصرة بقوله: «ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى أرضاً كالكافور، ورأى ضباباً تحترش، وغزلاناً وسمكاً وصياداً، وسمع غناء ملاح في سفينته، وحداء جمّال خلف بعيره». الأفغاني - أسواق العرب، ص ٣٥٣، وثمار القلوب للثعالبي، ص ٤١٩.

العراق، ومحط التجارة الشرقية، وملتقى القوافل الآتية من الصحراء[١٥٠].

وقد أثنى الجاحظ على همة البصريين وحبهم للمغامرة، فقال: «يقال إنه ليس في الأرض بلدة واسطة، ولا بادية شاسعة، ولا طرف من الأطراف، إلاّ وأنت واجد بها المديني والبصري والحميري»[١٥١]. وقد اتفقت كلمة أصحاب الرحلات على علو همّة البصريين، وبعدهم في التجارة، حتى قال ابن الفقيه: «وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري، ومن دخل فرغانة القصوى، والسوس الأقصى، فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حميرياً»[١٥٢].

وبلغت شهرة البصرة في التجارة حداً جعل ابن حوقل لا يرى ضرورة للتحدث في الموضوع[١٥٣]. وكانت البضائع تحمل إلى البصرة من مختلف بلدان الشرق حتى وصفت بأنها «قبة الإسلام»[١٥٤]. وليس من باب المصادفة أن يكون مؤلف أول كتاب في التجارة وهو الجاحظ (توفي ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م)، من أهل البصرة[١٥٥].

كان المربد مركز تجارة البصرة مع الصحراء، وكان موقعه عند باب البصرة الغربي على طرف الصحراء[١٥٦]. وظهر في أول أمره سوقاً للجمال[١٥٧]، ثم نما وتطور بسرعة حتى مرّ بأربع مراحل:

(١) ففي نهاية عصر الراشدين (٤٠ هـ/٦٦٠ م) أصبح المربد سوقاً للبدو تباع فيه التمور والجمال والأسلحة وغنائم الحرب.

(٢) ثم توسّع في العصر الأموي (حتى سنة ١٣٢ هـ/٧٤٩ م) وصار ملتقى البدو والحضر للتجارة. وأصبح المربد في الوقت نفسه مركزاً أدبياً يلتقي فيه الشعراء كالفرزدق وجرير ويلقون قصائدهم، وترسل القبائل وفودها إليه لحضور المنافرات الأدبية.

---

(١٥٠) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ١٢، ص ٣٢١. وقيل بحق «العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق». الثعالبي ـ لطائف المعارف، ص ١٠٢ والجاحظ ـ البخلاء، ص ٢٩٨.

(١٥١) الجاحظ ـ البخلاء، ص ٢٩٨.

(١٥٢) ابن الفقيه ـ كتاب البلدان، ص ٥١.

(١٥٣) ابن حوقل، طبعة كرامرز، ج ١، ص ٢٣٨.

(١٥٤) انظر الأفغاني ـ أسواق العرب، ص ٣٥٣.

(١٥٥) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ١٢، ص ٣٢٢ ـ ٣.

(١٥٦) ابن حوقل (ك)، ص ٢٣٦، ياقوت ـ معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨٤.

(١٥٧) الأفغاني ـ أسواق العرب، ص ٣٥٧، ياقوت ـ معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨٤.

(٣) وما جاءت نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، حتى أصبح المربد مركزاً نشيطاً للأعمال التجارية، وموطن أنس ومرح، ومسرحاً للفعاليات الأدبية، يقصده اللغويون والنحاة للاجتماع بالأعراب الفصحاء وللتحدث معهم في بعض مشاكل اللغة. وقد وصل المربد درجة من الازدهار جعلته يسمى «عين البصرة».

(٤) ثم بدأ الانحلال في المربد في القرن الرابع الهجري[١٥٨]. وما جاء زمن ياقوت (٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) حتى أضحى بلدة صغيرة منعزلة على حافة الصحراء غرب البصرة وعلى بعد ثلاثة أميال منها[١٥٩].

وكانت الابلة مرفأ البصرة ومركز تجارتها البحرية، وكانت تقع على نهر الابلة[١٦٠]. وكان في الابلة عدد كبير من الأسواق والخانات[١٦١]. وكان نهر الابلة مرصوفاً بالسفن بصورة مستمرة. وقد صرفت مبالغ كبيرة لإنشاء أدراج صخرية على ضفاف نهر الأبُلّة، ليمكن النزول إلى مستوى النهر الواطىء وقت الجزر، تسهيلاً لشحن السفن بالبضائع أو لتفريغها[١٦٢].

وكانت الفعالية التجارية في البصرة تستمر طيلة النهار، وحتى في المساء. فيقول ناصر خسرو (٤٤٣ هـ/١٠٥١ م): «وينصب السوق في البصرة في ثلاث جهات كل يوم. ففي الصباح يجري التبادل في سوق خزاعة، وفي الظهر في سوق عثمان، وفي المغرب في سوق القداحين»[١٦٣]. وكان في البصرة سوق هامة للغنم[١٦٤].

وكانت الموصل مركزاً مهماً للتجارة. ففيها كانت تلتقي طرق التجارة من أذربيجان، ومن الشام، ومن أرمينية، ومن جنوب العراق[١٦٥]. ويعتبرها ياقوت باب العراق، ومفتاح خراسان، ورأس طريق أذربيجان[١٦٦]. وكانت الموصل تمّون العراق

---

(١٥٨) المقدسي، ص ١١٨، ابن حوقل (ك)، ص ٢٣٧.

(١٥٩) انظر التفاصيل في الأفغاني، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ وص ٣٥٦ - ٣٦٠، وياقوت - معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨٤، مقامات بديع الزمان الهمداني (طبعة بيروت باعتناء محمد عبده ١٨٨٩)، ص ٥٩ - ٦٠.

(١٦٠) انظر التفاصيل عن رخاء الابلة في ابن حوقل، ص ٢٣٦.

(١٦١) ناصر خسرو - سفرنامه، ص ٩٩، المقدسي، ص ١١٧.

(١٦٢) انظر ناصر خسرو - سفرنامه، الترجمة الفرنسية، ملاحظة على صحيفة ٢٤٥.

(١٦٣) ناصر خسرو - سفرنامه، ص ٩٦.

(١٦٤) Von Kremer, *'Ali b. 'Isa*, p. 27.

(١٦٥) ابن حوقل (ك)، ص ٢١٥.

(١٦٦) ياقوت - معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٨٣.

بالحبوب في أوقات الشدة[١٦٧].

ويقول ابن حوقل الذي زار الموصل (سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٩ م): «أسواقها واسعة... وكان بها لكل جنس من الأسواق الاثنان والأربعة والثلاثة مما يكون في السوق المائة حانوت وزائداً»[١٦٨]. وأثنى المقدسي على أسواقها التي كان أكثرها مسقوفاً، كما أثنى على فنادقها البديعة[١٦٩]. ومن بين أسواق الموصل، سوق الطعام، وسوق الأساكفة[١٧٠]، وسوق الغنم[١٧١]. وكان يعقد في الساحة الفسيحة في داخل قلعتها سوق في أيام الأربعاء، ويدعى «سوق الأربعاء»، وكان الفلاحون يأتون إليه[١٧٢].

وتقع الكوفة على طرف الوادي الخصيب، قرب الصحراء. وكانت محطة مهمة في طريق الحج، وملتقى القوافل القادمة من الصحراء[١٧٣]. ولا نجد في المقدسي إلاّ الثناء على أسواقها[١٧٤]. وكان فيها مركزان تجاريان: «دار الرزق» و«الكناسة». أما دار الرزق، فكانت على الضفة اليمنى للفرات، وقد كانت في البدء مركزاً لجمع غنائم الحرب وبيعها، ثم تطورت بالتدريج إلى مركز تجاري. وكانت أسواقها مغطاة، وتمتد من جسر الكوفة إلى مركز المدينة.

أما الكناسة، فكانت عند الباب الغربي للمدينة، وكانت مركزاً للتجارة مع الجزيرة العربية. وكانت البغال والمواشي تباع في أحد أسواقها وهو «سوق البراذين»[١٧٥]. ولعل سوق الغنم كان في الكناسة أيضاً[١٧٦]. وقد تدهورت الكناسة في النصف الثاني للقرن الرابع الهجري[١٧٧].

---

(١٦٧) المقدسي، ص ١٣٨، مسكويه، ج ٢، ص ٩١.

(١٦٨) ابن حوقل (ك)، ص ٢١٥.

(١٦٩) المقدسي، ص ١٣٨.

(١٧٠) ابن الأثير، ج ٨، ص ٨٩.

(١٧١) Von Kremer, *'Ali b. 'Isa*, p. 27.

(١٧٢) المقدسي، ص ١٣٨. وكانت القلعة على رافد يدعى نهر زبيدة. وفيها فندق في كل زاوية. انظر ابن جبير، ص ٢٣٥ حيث تجد وصفاً للسوق المذكورة سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م.

(١٧٣) ابن رسته، ص ١٧٤ وما بعدها، قدامة بن جعفر، ص ١٨٥.

(١٧٤) المقدسي، ص ١١٧.

(١٧٥) انظر ماسنيون ـ خطط الكوفة [تعريب المصعبي صيدا ١٩٤٦]، ص ٢٣ وما بعدها وص ٣٤.

(١٧٦) Von Kremer, *op. cit.*, p. 27.

(١٧٧) المقدسي، ص ١١٧.

وبلغت سامراء أوجها من الازدهار خلال القرن الثالث الهجري، حين كانت عاصمة الدولة العباسية. إلاّ أن عامة تجارها كانوا عراقيين، وكانت تجارتها داخلية[١٧٨]. ولما جاء القرن الرابع الهجري قلّت أهميتها التجارية، ولذا فإن وصف اليعقوبي لأسواقها لا يفيدنا في هذه الفترة لأنه سابق لها[١٧٩].

وكانت المدن بصورة عامة أسواقاً لما يحيط بها من قرى وأرياف، فهي مخازن لإنتاجها ومراكز تبيع لها ما تحتاج إليه من مواد. وكان القرويون يأتون إلى الأسواق الاعتيادية، أو يحضرون إلى أسواق تعقد في أيام خاصة من الأسبوع[١٨٠]. فمثلاً كان يعقد في ضاحية من ضواحي الموصل، وهي سوق الأحد، سوق في أوقات معيّنة، حيث كان يجتمع التجار والفلاحون والأكراد الرحّل للبيع والشراء[١٨١].

خامساً: الصادرات والواردات

١ ـ الصادرات

يعطي مؤلف **حدود العالم** (٩٨٢ م) خلاصة معلومات من تقدمه من الجغرافيين عن صادرات العراق، حين يقول: «يأتي من العراق التمور التي ترسل إلى كل جهة، وكذلك مختلف أنواع النسيج، وأكثر الأدوات التي تليق بالملوك»[١٨٢].

وللتفصيل، نذكر صادرات كل مدينة على انفراد:

من (بغداد): الأقمشة القطنية، والمنسوجات الحريرية وخاصة المناديل والأُزُر والعمائم، والخزف، والأدوات الزجاجية، والدهون، والمعاجين، والأدوية[١٨٣].

ومن (البصرة): التمور بكميات كبيرة، والخز، وماء الورد، والبنفسج، والحناء[١٨٤].

ومن (الابلة): المناديل التِلّية والعمائم[١٨٥].

---

(١٧٨) اليعقوبي ـ البلدان، ص ٢٦٣.

(١٧٩) اليعقوبي ـ البلدان، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٣.

(١٨٠) انظر المقدسي، ص ١٣٨.

(١٨١) ابن حوقل، ص ٢١٧. انظر وصف سوق في ابن جبير، ص ٢٤١ ـ ٢.

(١٨٢) H.A. folio 31 a. لا يميز الجغرافيون أحياناً بين الصادرات والواردات.

(١٨٣) H.A. folio 31 a، المقدسي، ص ١٢٨.

(١٨٤) المقدسي، ص ١٢٨ وص ١٤٥.

(١٨٥) H.A., folio 31 a.

ومن (الموصل): الستور، والمسوح، والدرّاج، والشماني[١٨٦]، والحنطة، والشعير[١٨٧]، والعسل[١٨٨]، والملح[١٨٩].

ومن (الكوفة): مناديل الخز الكوفية، والوشي، والتمور، ودهن البنفسج[١٩٠].

ومن (واسط): البسط، والستور، والتكك[١٩١].

ومن (ميسان): الأنماط، والوسائد، والستور، والبسط[١٩٢].

ومن (آمد): الطيالسة من الصوف، والثياب الموشية، والمناديل، والمقارم (شراشف الفرش والستور)، وثياب الكتان والصوف[١٩٣].

ومن (حرّان): القطن، والعسل، والموازين[١٩٤].

ومن (نصيبين): الرصاص، والموازين، والدوايات، والفواكه المقدودة، والشاه بلوط، وحجر الزجاج الفاخر[١٩٥].

ومن (الجزيرة): الفواكه المجففة، والخيل الأصيلة.

ومن (الرقة): الصابون، والزيت، والأقلام[١٩٦].

ومن (عبادان): الحصر[١٩٧].

ومن (حلوان): الرمان، والتين، والكامخ[١٩٨].

---

(١٨٦) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٣٣.
(١٨٧) المقدسي، ص ١٤٥.
(١٨٨) الثعالبي ـ ثمار القلوب، ص ٤٢٧.
(١٨٩) الملح من سواد الموصل. قدامة، ص ٢٤٥.
(١٩٠) ابن الفقيه، ص ٢٥٣، المقدسي، ص ١٢٨.
(١٩١) المقدسي، ص ١٢٩.
(١٩٢) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٣٢، الثعالبي ـ لطائف المعارف، ص ١١١.
(١٩٣) المقدسي، ص ١٤٥، الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٣٠.
(١٩٤) المقدسي، ص ١٤٥.
(١٩٥) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٣٢، المقدسي، ص ١٤٥، ابن حوقل، ص ١٤٣، H.A. 32a.
(١٩٦) المقدسي، ص ١٤٥.
(١٩٧) H.A., folio 31 b.
(١٩٨) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٣٤.

٢ ــ الواردات

يعطينا الجاحظ قائمة مفصلة بما يستورده العراق[١٩٩]. وإليك ما ذكره في هذا الصدد، مضافاً إليه ما نجده في المصادر الأخرى.

كان العراق يستورد:

من (إيران): البسط، والطنافس، والسجاد، وثياب الكتان، والثياب الرقاق، والطيالسة من الصوف، والثياب الموشية، والابريسم الجيد، والقلانس، والفواكه من تفاح وخوخ وزبيب وسفرجل وكمثرى، والشراب، وماء الورد، والمعاجن، ودهن الياسمين، والكحل، والزعفران، والزمرد، والسكر[٢٠٠].

ومن (بلاد ما وراء النهر): القطن، والمنسوجات الحريرية، والملابس الصوفية، وفرو السمور والسنجاب والفنك، والرقيق التركي، والأسلحة كالسيوف والأقواس، وقبل كل شيء الكاغد[٢٠١].

ومن (الهند): التوابل، والأحجار الكريمة وخاصة الياقوت، والعقاقير، والكافور، والعنبر، والعود الهندي، وجلود النمور، والصندل الأبيض، والآبنوس، وجوز الهند، والفيلة، والرماح، والقطيفة[٢٠٢].

ومن (التبت): أجود أنواع المسك وأعطرها رائحة[٢٠٣].

ومن (ملقا): الرصاص القلعي (التنك)[٢٠٤].

ومن (الصين): الحرير والثياب الحريرية، والديباج، والغضائر، والجواري،

---

(١٩٩) كتاب التبصر بالتجارة، ص٢٥ وما بعدها.

(٢٠٠) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٢٩ ـ ٣٢، المقدسي، ص ٣٦٧ وص ٤٤٢ ـ ٣، الثعالبي ـ ثمار القلوب، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٨ وص ٤٣٠ ـ ٤٣١، لطائف المعارف، ص ١٠٩ ـ ١١١، الاصطخري، ص ١٥٢ وص ١٩٠ وص ٢١٣، ابن رسته، ص ١٥٣، قارن الجهشياري ص ١٨٢ ـ ١٨٦. وكانت الأهواز تموِّن العراق بأكثر من حاجته من السكر، وترسل للخليفة ٣٠,٠٠٠ رطل سنوياً في الخراج. الثعالبي ـ ثمار القلوب، ص ٤٢٦، ابن الفقيه ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥.

(٢٠١) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٢٨ ـ ٢٩، المقدسي، ص ٣٢٤ ـ ٦، الثعالبي ـ لطائف المعارف، ص ١٢٦ وما بعدها، المروزي، ص ١٨، Barthold, *Turkestan*, pp. 326 - 7.

(٢٠٢) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ١٣، ص ١٦، ص ٢٥ ـ ٦، ابن خرداذبه، ص ٧٠ ـ ٧١، الثعالبي ـ ثمار القلوب، ص ٤٢٣، البيروني ـ الجماهر، ص ٤٥ وص ٤٧، اليعقوبي، ص ٣٤٦ ـ ٧، H.A. folio 5 b، ابن الفقيه، ص ٢٥١.

(٢٠٣) المروزي، ص ٢٨ ـ ٩، ابن الفقيه، ص ٢٥٥، ابو القاسم البغدادي، ص ٣٥.

(٢٠٤) ابن خرداذبه، ص ٧٠ ـ ٧١.

والخصيان، واللبود، والعقاقير، والدارصيني، والمسك، والطواويس، والأقفال، وأواني الذهب والفضة، والسروج، والكاغد والمداد(٢٠٥).

ومن (الشام): المنسوجات الحريرية، والقطن، والمنسوجات القطنية، والميازر، وزيت الزيتون، والسكر، والزجاج والأدوات الزجاجية، والفواكه من تفاح وزيتون وتين(٢٠٦).

ومن (الجزيرة العربية): الخيل العراب، ونجائب الابل، والأدم، والأحذية، والنعام، والقنا (لعمل الرماح)(٢٠٧).

ومن (اليمن): البرود، والأدم، والعصائب، والعنبر الثمين، والديباج، والزعفران، والورس، والبخور، والمرّ، والدروع، والسيوف، والبغال، والحمير، والمسابح(٢٠٨).

ومن (مصر): النسيج القطني المشهور بالدوق، والثياب من مختلف الأنواع، والمنسوجات الصوفية، والزبرجد الفائق، ودهن البلسان، والبغال، والقراطيس، والحمير(٢٠٩).

ومن (شمالي أفريقية): اللبود (قماش للسروج H.A. p. 417) والبرود، وثياب الصوف، والقرظ (وهو ورق السلم تدبغ به الجلود)، والنمور، والفرو، والسمور، والسنجاب، والرقيق، والجواري، والسيوف، والبزاة السود(٢١٠).

ومن (الأندلس): أجود النحاس، والزئبق، والبز، والأقمشة القطنية، والجواري(٢١١).

---

(٢٠٥) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٢٦، اليعقوبي، ص ٣٦٧، ابن خرداذبه، ص ٧٠ وص ١٣٥، وابن الفقيه، ص ٢٥١.

(٢٠٦) المقدسي، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(٢٠٧) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٢٦، H.A. p. 145.

(٢٠٨) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٢٧، الثعالبي ـ ثمار القلوب، ص ٤٢٥، لطائف المعارف، ص ١٠٢، ابن الفقيه، ص ٢٥٢، المقدسي، ص ٩٧، ابن خرداذبه، ص ٧١، انظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة «ديباج» و Dozy, *Vêtements*, p. 311.

(٢٠٩) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٢٧، الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٩٧، ثمار القلوب، ص ٤٢٠ ـ ١، المقدسي، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤، ابن الفقيه، ص ٢٥٢، H.A. p. 251. ويبين الثعالبي أن الخلفاء كانوا يفضلون الحمير والبغال المصرية على غيرها.

(٢١٠) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ١٩ وص ٢٧، ابن الفقيه، ص ٢٥٢، المقدسي، ص ٢٣٩، ابن خرداذبه، ص ١٥٣، H.A. p. 153, p. 417.

(٢١١) الدمشقي ـ الاشارة إلى محاسن التجارة، ص ٢٩، ابن الفقيه، ص ٢٥٢، المقدسي، ص ٢٣٩.

ومن (أرمينية): البسط الرقاق، والسجاد، والفرش، والستائر، والصوف، والثياب الصوفية، والتكك، والبراذع[٢١٢].

ومن الروم (آسيا الصغرى): الديباج الرومي المشهور، والثياب الكتانية، والأرز، والبزيون، والبسط، والتكك[٢١٣].

سادساً: المواصلات الداخلية

كانت المواصلات النهرية أنسب من المواصلات البرية، وأسرع في أكثر الأحيان[٢١٤]. وكانت دجلة والفرات أهم ممرين في البلاد، فيصلان الأقسام العليا من العراق بالخليج العربي، ويربطان بين المدن المختلفة[٢١٥].

وتتكرر الإشارات إلى طريق دجلة أكثر من طريق الفرات. وكان دجلة صالحاً للملاحة في أقسامه العليا، كما هو الحال بين (تل فافان) والموصل[٢١٦]، كما كان النقل فيه بين الموصل وبغداد اعتيادياً[٢١٧]. وكان السير فيه من بغداد إلى الخليج العربي أسهل منه في بقية أجزائه، لأن النهر يتسع في هذا الجزء، وتقل فيه الموانع، كما تقل سرعة تياره. فلما هدد القرامطة بغداد سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م، رصف كثير من الأهلين ضفاف النهر بالقوارب ونقلوا إليها أمتعتهم وتهيؤوا للنزول بها إلى واسط[٢١٨].

وكان دجلة يستعمل للمواصلات العسكرية. ففي سنة ٣٧٩ هـ/٩٨٩ م، نقل الوزير خواشاذه جيشه من الموصل إلى بغداد بالقوارب[٢١٩]. وكان البريديون ينقلون جيوشهم نهراً في كثير من الأحيان[٢٢٠]. وأرسل أمير البطيحة جيشه سنة ٣٩٤ هـ/

---

(٢١٢) الجاحظ - التبصر بالتجارة، ص ٣٤، الثعالبي - ثمار القلوب، ص ٤٢٨، انظر الخطيب البغدادي، ص ٥٢، ابو القاسم البغدادي، ص ٣٥. يخبرنا ابن حوقل ان سعر التكة يتراوح بين دينار وعشرة دنانير. ابن حوقل (B.G.A.) ص ٢٤٦.

(٢١٣) ابن حوقل (B.G.A.) ص ٢٤٦، الثعالبي - ثمار القلوب، ص ٤٢٥، H.A. p. 156. ابن الفقيه، ص ٢٥٢.

(٢١٤) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٥.

(٢١٥) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٣٤، ابن الجوزي - مناقب بغداد، ص ٨، المقدسي، ص ١٢٠.

(٢١٦) التنوخي، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٢١٧) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٥، مسكويه، ج ٣، ص ١٧٦.

(٢١٨) ابن الأثير، ج ٨، ص ١٣٦.

(٢١٩) مسكويه، ج ٣، ص ١٧٦.

(٢٢٠) انظر ابن الأثير، ج ٨، ص ١٢٥.

١٠٠٣ م، في السفن لضرب أحد الثوار[٢٢١].

وكان دجلة يستخدم للنقل شمالاً، في اتجاه معاكس لتيار النهر، حتى مدينة الموصل. وكان تيار النهر قوياً شمال تكريت، ومع ذلك كانت القوارب تسير فيه بمعدل فرسخين في اليوم[٢٢٢].

وكان استعمال القوارب في بغداد شائعاً رغم وجود ثلاثة جسور. يقول المقدسي: «والناس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن ولهم جلبة وضوضاء. وثلثا طيب بغداد في ذلك الشط»[٢٢٣].

وبلغ عدد القوارب في بغداد في أوائل القرن الرابع الهجري ثلاثون ألفاً، تغل تسعة آلاف درهم يومياً[٢٢٤].

وقد وصف ابن رسته الطريق النهري بين بغداد والبصرة. فتنشر السفن أشرعتها في بغداد وتسير بمحاذاة الضفة الشرقية لنهر دجلة فتمر بالمدائن ودير العاقول، وجرجرايا، وجَبُّل، وفم الصلح إلى واسط؛ وهناك يتشعب النهر إلى ثلاث شعب، ولذلك تنقل البضائع من السفن إلى قوارب صغيرة. ثم تدخل هذه القوارب في البطيحة، وتسير في ممرات ضيقة بين القصب حتى تصل إلى فسحة من الماء الصافي، الخالي من القصب، تسمى الهول. ومن هنا تسير إلى باذورد، ثم تسير في نهر أبي الأسد إلى دجلة العوراء حتى تصل صدر نهر معقل، ثم تتبع مجراه في مسيرها حتى تصل البصرة[٢٢٥]. ويبين المقدسي أن مجرى دجلة بعد واسط ضحل ولذلك تستعمل فيه قوارب صغيرة ومسطحة[٢٢٦]، تدفع بالمرادي[٢٢٧]. ويظهر أن هذه القوارب كانت على غرار المشاحيف التي لا تزال تستعمل الآن في الأهوار.

أما في الفرات، فكانت القوارب تصعد شمالاً حتى الرقة[٢٢٨]. ولكن السير في الفرات في الجزء الأكبر من مجراه كان، كما يظهر، يأخذ اتجاه مجرى النهر[٢٢٩].

---

(٢٢١) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٢٨.
(٢٢٢) الصولي ـ أخبار الراضي والمتقي بالله، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٢٢٣) المقدسي، ص ١٢٤، انظر مناقب بغداد ـ لابن الجوزي، ص ٢٤.
(٢٢٤) المقدسي، ص ١٢٤.
(٢٢٥) ابن رسته ـ الأعلاق النفيسة، ص ١٢٢ ـ ٣.
(٢٢٦) المقدسي، ص ١٢٤.
(٢٢٧) الاصطخري، ص ٨١ ـ ٢، ابن حوقل، ص ٢٣٨.
(٢٢٨) المقدسي، ص ١٢٤.
(٢٢٩) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ٢٠٥، ابن الجوزي ـ مناقب بغداد، ص ٨.

وكانت بعض القنوات تستعمل للمواصلات. فكانت القوارب، حتى الكبيرة منها، تسير في النهروان[٢٣٠]. وكانت السفن القادمة في الفرات، تسير في نهر عيسى حتى المحوّل (التي تقع غرب بغداد على فرسخ منها)، حيث تنقل أحمالها إلى قوارب صغيرة تتمكن من المسير في نهر الصراة (وهو فرع من نهر عيسى) إلى بغداد[٢٣١]. وهذا هو الطريق الذي كان يسلكه التجار العالميون الذين يسميهم ابن خرداذبه «الرادانية»[٢٣٢]. وفي سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م أرسل علي بن عيسى ثلثمئة قارب من دجلة إلى الفرات في هذا الطريق. وكان نهر النيل، يصل كذلك بين الفرات ودجلة في العراق الجنوبي[٢٣٣].

وتوجد محطات على الطرق النهرية الهامة، يحرسها حراس، وتجبى فيها الضرائب، كما كان الحال في (الحوانيت)[٢٣٤]. وتوجد في المحلات اليابسة الموجودة بين الممرات المائية في البطيحة بيوت من القصب فيها حراس لضمان سلامة المواصلات[٢٣٥].

وكانت المواصلات بطريق البر سهلة، نظراً لاستواء سطح البلاد. وكانت بغداد مركزاً تلتقي فيه خمسة طرق رئيسية تؤدي إلى مختلف أنحاء البلاد، وهذه الطرق هي:

(أ) طريق شرقي، إلى حلوان ومنها إلى إيران وأواسط آسيا.

(ب) طريق شمالي، إلى الموصل والجزيرة.

(ج) طريق جنوبي، إلى واسط ثم البصرة.

(د) طريق جنوبي غربي، إلى الكوفة، ومنها إلى الجزيرة العربية حتى ينتهي بالحجاز.

(هـ) طريق غربي، إلى الرقة، ومنها إلى سورية فمصر.

وكانت كل من البصرة والموصل ملتقى لطرق مواصلات هامة[٢٣٦].

---

(٢٣٠) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٦٩.

(٢٣١) ياقوت - معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٣٢، ابن حوقل (B.G.A.) ص ١٦٦، J.R.A.S. 1895, p. 14 and p. 71 اليعقوبي - البلدان، ص ٢٥٠.

(٢٣٢) ابن خرداذبه، ص ١٥٤.

(٢٣٣) اليعقوبي - البلدان، ص ٣٢٤.

(٢٣٤) ابن رسته، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٢٣٥) ابن رسته، ص ١٨٥.

(٢٣٦) هذا ملخص عن ابن خرداذبه.

وتقوم الحكومة بإنشاء الطرق وصيانتها وحمايتها. فإذا كانت الحكومة حازمة، كانت المواصلات آمنة، ولم يطالب التجار بدفع المكوس داخل المملكة. جاء في عهد من الخليفة المطيع إلى أبي تغلب الحمداني بتاريخ ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م ما يلي: «وأمره بأن يوكل بالطرقات من الخيل والرجال من يتقاصاها ليلاً ونهاراً، ويستقريها سهلاً وجبلاً، ويسير في برها وبحرها... ويقلد عليهم أهل النجدة والبسالة، وذوي الشدة والجزالة. ويوعز إلى من يوليه بأن يتبعوا مظان أهل الريب فيشرّدوهم عنها، ومكامن أهل العيث فيبعدوهم منها... وأن يسيروا مع السابلة، ويصحبوا من يسلك الطرق من المارة ويحموا النفوس والأموال، ويحوطوا الذراري والتجارات، ويقفوا على من تخلف، ويسيروا بمسير من ضعف، حتى لا يلحق أحداً من السالكين عيب، ولا يغوله دون مقصده غول. ولا يلزموا أحداً من المجتازين مؤونة، ولا يحملوه ثقلاً ولا كلفة، لتؤمن السبل وتحمى المسالك وتدر للرعية المتاجر وتستقيم لها أسباب العيش، وتكون الطرق مضبوطة والآمال محوطة»[٢٣٧].

وكانت الطرق تحت إشراف صاحب ديوان البريد، ويفترض فيه معرفتها بصورة جيدة[٢٣٨]. وتقسم الطرق لغرض البريد، إلى محطات تدعى سكك، تبلغ المسافة بين كل اثنين منها فرسخان، وفي كل محطة بدالة من الدواب والراكبين[٢٣٩].

وكان البريد لخدمة الخلفاء العباسيين[٢٤٠]، ويقوم بنقل المراسلات والأخبار الرسمية، إضافة إلى مهمة خاصة وهي التجسس[٢٤١]. كما كان البريد ينقل البضائع أحياناً. فقد اعتاد المأمون أن يجلب البطيخ الممتاز من خوارزم إلى بغداد في البريد[٢٤٢]. وفي الحالات الملحة، كان البعض يسافر على دواب البريد[٢٤٣]. ويذكر عن رسول لعضد الدولة أنه استأجر جملاً في قافلة البريد من الموصل إلى بغداد[٢٤٤].

---

(٢٣٧) رسائل أبي اسحاق الصابي، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢٣٨) قدامة ـ الخراج، ص ١٨٤ ـ ٥.

(٢٣٩) المقدسي، ص ٦٦، الخوارزمي (طبعة فان فلوتن) مفاتيح العلوم، ص ٦٣.

(٢٤٠) المسعودي ـ مروج الذهب، ج ١، ص ٢٦٣.

(٢٤١) انظر زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ١٨٠ ـ ١٨٣، دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة (بريد).

(٢٤٢) الثعالبي ـ لطائف المعارف، ص ١٢٩.

(٢٤٣) البيهقي ـ المحاسن والمساوىء، ص ٢٢٩، طيفور، ص ٣٤٣.

(٢٤٤) مسكويه، ج ٣، ص ٦٣.

وكانت الخيل والبغال، وبصورة خاصة الجمال تستعمل في البريد(٢٤٥). وكانت الرغبة قوية في استخدام الجمازات لسرعتها(٢٤٦). وكات قافلة البريد ما بين راكب واحد وأربعين راكباً(٢٤٧).

وأدخل معز الدولة، أول أمراء البويهيين، رسلاً سريعي الجري يدعون «السعاة»، امتاز منهما اثنان بسرعتهما العظيمة، فكان كل منهما يقطع أكثر من ثلاثين فرسخاً ما بين شروق الشمس وغروبها(٢٤٨).

وقد كان حمام الزاجل أسرع وسيلة لنقل الأخبار. فاستعملته الحكومة، كما استفاد منه التجار أحياناً(٢٤٩).

سابعاً: العلاقات التجارية مع البلاد الأجنبية

١ ــ التجارة البحرية

كانت ملاحة العرب الهامة في البحر الأبيض والبحر الأحمر والمحيط الهندي. وقد استعملوا المراكب الصغيرة للملاحة الساحلية، بينما استعملوا مراكب كبيرة لعرض البحار(٢٥٠). وكانت ألواح مراكب البحر الأبيض تربط ببعضها بالمسامير، أما مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي فاتبعوا طريقة أخرى في بنائها، إذ كانت تخاط بحبال من الليف. وقد وصف لنا ابن جبير طريقة ذلك فيقول: «هي مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فإذا فرغوا من إنشاء المركب على هذه الصفة، سقوها بالسمن، أو بدهن الخروع، أو بدهن القرش وهو أحسنها، وهذا القرش حوت عظيم في البحر»(٢٥١).

---

(٢٤٥) قدامة ـ الخراج، ص ١٨٤ ـ ١٨٥، التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٦٥.

(٢٤٦) انظر ابن الأثير، ج ٨، ص ٤٨٠.

(٢٤٧) زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ١٨٢.

(٢٤٨) Mez, p. 502، ابن الأثير، ج ٨، ص ٤٢٥.

(٢٤٩) انظر التفاصيل في - De Goeje, *Memoirs sur les Carmathes*, p. 207; Mez, p. 503
4 والصباغ ـ الحمام الزاجل، باريس ١٨٠٥.

(٢٥٠) ابن رسته، ص ١٩٦.

(٢٥١) هناك روايات في سبب عدم استعمال المسامير، منها الخوف من أن يأكلها البحر، أو من أن تجذبها جبال المغناطيس. أما الدهن فيستعمل لتليين عود السفن لضمان سير أسلم حين تعترض السفن شعاب =

وكانت مراكب البصرة بيضاء لأنها «مشحمة بالشحم والنورة»[٢٥٢]. وكانت المراكب التي تذهب إلى الصين كبيرة جداً «إذ يبلغ ارتفاعها عن سطح الماء حداً يضطر الناس إلى استعمال سلالم يبلغ ارتفاعها نحو العشرة أقدام ليصعدوا إلى سطحها»[٢٥٣]. وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كانت هذه السفن تحمل بضع مئات من الرجال، «ويخزن فيها من الحبوب ما يكفي لمؤونة سنة»[٢٥٤]. ويقوم بأعمال الإصلاح في السفينة ملاحون زنوج يستطيعون الغوص في الماء وعيونهم مفتوحة[٢٥٥].

وكان الكثير من ملاحي المحيط الهندي من العراقيين، ولكن أكثرهم كانوا من سيراف وعمان[٢٥٦]. ويظهر أنهم كانوا يسترشدون بخرائط في رحلاتهم فيذكر المقدسي: «ورأيت معهم (التجار) دفاتر... يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها»[٢٥٧].

ويرى هادي حسن أن كتب الملاحة هذه كانت فارسية في الأصل. ولا يوجد ما يثبت ذلك، وكل ما نستطيع قوله هو أن كتب الملاحة العربية تحتوي على عدد لا بأس به من الكلمات الفارسية[٢٥٨].

ولم تكن البوصلة معروفة في القرن الرابع الهجري. فكان التجار يوجهون سفنهم مستعينين بالشمس والقمر والنجوم. كما استعملوا حمام الزاجل[٢٥٩]، وبعض أنواع الطيور للتأكد من الطريق الذي يسلكونه ولإرسال الرسائل، واعتمدوا في

= في البحر. انظر ابن جبير ص ٦٧ - ٦٨ وص ٧٠ - ٧١ وص ٣١٢ وص ٣١٦. المسعودي، ج ١ ص ٣٦٥، القزويني - عجائب المخلوقات، ص ١٧٢، مطهر بن طاهر المقدسي - البدء والتاريخ، ج ١، ص ٨٩.

(٢٥٢) ابن رسته، ص ١٩٦، المسعودي، ج ٨، ص ١٢٨.

(٢٥٣) Chau Ju-Kua, p. 9، انظر H. Hasan, p. 97.

(٢٥٤) Chau Ju-Kua, p. 35.

(٢٥٥) *Ibid.*, p. 31 - 2.

(٢٥٦) المقدسي، ص ٢١٨ وص ٧٩ وص ٩٢ وص ٩٦، المسعودي، ج ١، ص ٣٨١ - ٣٨٢، وج ٣، ص ٦.

(٢٥٧) المقدسي، ص ١٠.

(٢٥٨) H. Hasan, pp. 127 - 129 وانظر Ferrand, J.A., 1923, pp. 357 ff: 1924, pp. 193 ff.

(٢٥٩) ويظهر أن استعمال حمام الزاجل من قبل التجار يعود إلى زمن قديم. انظر الصباغ، ص ٣٥ - ٦.

ملاحتهم على انتظام الرياح الموسمية(٢٦٠). وكان المحيط الهندي يصلح لملاحتهم في الشتاء فقط(٢٦١). وتستغرق الرحلة إلى الصين سنتين(٢٦٢).

وكانت البصرة مبدأ الطرق البحرية، فيذهب أولها إلى الهند والصين، بينما يدور الثاني حول سواحل الجزيرة العربية إلى البحر الأحمر وإلى شرقي أفريقية. ولما كان الخليج ضحلاً عند مصب دجلة العوراء، فقد أنشىء منار في البحر تسترشد به السفن القادمة إلى البصرة(٢٦٣).

وكانت التجارة البحرية مع الهند نشيطة لقربها من العراق. وكان بعض الأمراء الهنود - مثل البلهرة (فلبهاراجا) أمير الساحل الغربي(٢٦٤)، وراجا كانوج(٢٦٥)، يشجعون التجارة مع العرب. وأهم مراكز التجارة العربية في الهند هي الديبل - وهي ميناء تبعد أربعة وعشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من مدينة (Tatta) الحالية (٢٦٦)، والمنصورة على نهر السند، ومدينة المولتان(٢٦٧). وفي الديبل، كان العرب يتبادلون البضائع مع التجار الهنود الذين يجلبون بضائعهم من داخل الهند أو من المدن المجاورة(٢٦٨). وكانت المولتان مركزاً مهماً للتجارة مع الأقسام الداخلية من الهند، لأن فيها معبداً تقصده جماهير الحجاج الهنود من داخل البلاد(٢٦٩).

وكان التجار يتاجرون مع جزيرة سيلان، فيشترون منها الأحجار وخاصة العقيق، ثم التوابل، ويأخذون إليها البضائع ومنها النبيذ العراقي(٢٧٠). وكان للعرب

---

(٢٦٠) Chau Ju-Kua, p. 28, H. Hasan, p. 111.

(٢٦١) ابن رسته، ص ٨٦ - ٨٧.

(٢٦٢) المروزي، ص ٨٣.

(٢٦٣) وكان هذا المنار بهيئة بيوت أنشئت فوق جذوع نخل منصوبة في البحر، يبلغ ارتفاعها حوالي خمسين قدماً فوق سطح الماء، ورتب في البيوت قوم يوقدون بالليل حتى تتباعد المراكب عن الأماكن الضحلة. الاصطخري، ص ٧٩، المسعودي، ج ١، ص ٢٨٠، المقدسي، ص ١٢، ناصر خسرو (الترجمة الفرنسية)، ص ٩٠.

(٢٦٤) المسعودي - مروج الذهب، ج ١، ص ٣٨٢، و H.A. p. 238.

(٢٦٥) المروزي، ص ٤٧، H.A. p. 239 وانظر Suleyman, p. 48.

(٢٦٦) Camb. His. of India, vol. III, p. 2, Heyd, p. 34.

(٢٦٧) المسعودي - مروج الذهب، ج ١، ص ٣٧٨. وتقع المنصورة على بضعة أميال إلى الشمال الغربي من بهمن آباد Camb. Hist. of India, III, p. 8.

(٢٦٨) المسعودي، ج ١، ص ٢٠٧ وص ٢٣٩، الاصطخري، ص ٢٠.

(٢٦٩) المسعودي، ج ١، ص ٣٧٥، ابن حوقل، ص ٣٢٢، ابن رسته، ص ١٣٥، المروزي، ص ٤٨.

(٢٧٠) ابن خرداذبه، ص ٦٧.

تجارة فعالة مع بعض البلاد الواقعة على الطريق إلى الصين مثل سومطرة، وخاصة مع موانىء لامبري (Lambri)، وباروس (Barus)[٢٧١]. ولكن هذه التجارة كانت معرضة لخطر القرصنة الهندية[٢٧٢].

وكانت السفن الخارجة من البصرة[٢٧٣]، والتي تقصد الصين، تمرّ في طريقها بمسقط، ثم الديبل، ثم كولم ملي (Quilon)، ثم حول الهند إلى خليج البنغال إلى لنجبالوس (وهي جزيرة من جزر النيكوبار)، ثم كله بار (Keda في ملقا)، ومنها إلى جزيرة تيومة (سومطرة)، ثم كندرانج (في دلتا نهر ميكونج)، ثم إلى الصنف (Cambodia)، ثم إلى صندرفولات (Poulo Condore)، ثم في بحر الصين إلى Ling-Pien في Tong King، وأخيراً إلى خانفو (كانتون)، ميناء الصين العظيم[٢٧٤].

وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، كانت السفن العربية تذهب إلى الصين[٢٧٥]، والسفن الصينية تأتي إلى البصرة[٢٧٦]. إلاّ أن الحرب الأهلية التي اضطرمت في الصين بين ٨٧٤ و٨٨٩ م، لم تشل التجارة الصينية فحسب، بل إنها أخرجت التجار الأجانب من كانتون وزيتون (Ts'uan-Chou)، وجعلتهم يلجأون إلى كله بار على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملقا[٢٧٧].

وفي زمن المسعودي (حوالي ٣٣٢ هـ/٩٤٤ م) كان التجار المسلمون والتجار الصينيون يلتقون في كله بار لتبادل البضائع[٢٧٨]. وهكذا صارت كله بار نهاية خط الملاحة الإسلامية في الشرق[٢٧٩]. ويؤيد هذا كتاب «عجائب الهند» الذي يعكس الحال في القرن الرابع الهجري بالدرجة الأولى[٢٨٠]. إلاّ أن بعض الأفراد كانوا

---

(٢٧١) H. Hasan, p. 101.

(٢٧٢) Suleyman, p. 37.

(٢٧٣) انظر ابن الفقيه، ص ١ ، والمروزي، ص ٢١ - ٢٢.

(٢٧٤) انظر Suleyman, p. 18 وابن خرداذبه، ص ٦٢ - ٦٧، و H. Hasan, pp. 115 - 118.

(٢٧٥) اليعقوبي - البلدان، ص ٣٦٥ - ٦. ولمعرفة معاملة الصينيين لهؤلاء التجار، انظر المروزي، ص ٢٢- ٢٣ و Chau Ju-Kua, p. 15 - 16, p. 9. وعن العلاقات الأولى بين العرب والصينيين، انظر H. Hasan, pp. 97 - 9, Yule-Cathay, I, pp. 89 - 92.

(٢٧٦) المسعودي - مروج الذهب، ج ١، ص ٣٠٢- ٣٠٧.

(٢٧٧) Chau Ju-Kua, p. 18، المسعودي، ج ١، ص ٣٠٢ - ٣٠٧، و H. Hasan, p. 105.

(٢٧٨) المسعودي، ج ١، ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢٧٩) ياقوت - معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٥٢ - ٣ (لسنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٠ م)، H.A. p. 225.

(٢٨٠) Mez, p. 515.

يتخللون إلى الصين حتى في هذه الفترة[٢٨١].

ولكن الصلات المباشرة مع كانتون وزيتون استؤنفت قبل نهاية القرن الرابع الهجري. فقد بذلت الحكومة الصينية جهدها لتنشيط التجارة الخارجية، وأرسلت وفداً إلى الخارج ليقنع «التجار الأجانب من الجنوب» بالمجيء إلى الصين، ومنحت التجار الأجانب إجازات خاصة لاستيراد البضائع، ثم اتخذت بعد ذلك التدابير لتنظيم التجارة الخارجية. ففي سنة ٣٦٠ هـ/٩٧١ م أعيد تنظيم دائرة الملاحة في كانتون، وجعلت التجارة الخارجية بين ٣٦٥ - ٣٧٣ هـ/٩٧٦ - ٩٨٣ م بيد الدولة. وفي سنة ٣٨٩ هـ/٩٩٩ م، أنشأت الحكومة دوائر للتجارة البحرية في هانج شو (Hang-Chou)، وفي منج شو (Ming-Chou) - وهي ننج پو Ning-Po الحالية -. «بناء على طلب التجار الأجانب وتسهيلاً لمعاملاتهم»[٢٨٢].

وقد لعب العرب الدور الرئيسي بين التجار الأجانب الذين كانوا يتاجرون مع الصين[٢٨٣]، كما كانوا يعاملون معاملة طيبة من قبل الحكومة الصينية[٢٨٤].

وكان التجار العرب يأخذون إلى الصين البضائع الآتية: العاج، والكهرب الفصوصي الصقلبي، والكندر (وهو عطر)، والكافور، والياقوت، ودرق السلاحف (Tortoise-Shells) والختو الذي هو قرن الكركدن «وهو أعز محمول إلى الصين لأنهم يتخذون منه المناطق، وتبلغ قيمة المنطقة منه مبلغاً عظيماً عندهم»[٢٨٥]. وتبلغ المكوس التي يدفعونها عادة ٣٠ بالمئة من قيمة البضاعة، ولكنها تهبط أحياناً[٢٨٦].

ويشير الجغرافيون العرب إلى بعض التجار الذين يذهبون إلى كوريا (سيلا أو شيلا)[٢٨٧] ولكن المسعودي يبين أنه لم يدخلها أحد من التجار العراقيين[٢٨٨].

وكان الطريق البحري من البصرة إلى البحر الأحمر صالحاً للملاحة في جميع

---

(٢٨١) انظر المسعودي، ج ١، ص ٣٠٤، المروزي، ص ١٥٥.

(٢٨٢) Chau Ju-Kua, pp. 19 - 20.

(٢٨٣) Chau Ju-Kua, p. 32, Hasan, p. 106 ff.

(٢٨٤) Mez, pp. 515 - 516.

(٢٨٥) المروزي، ص ١٧ وص ٥ (من النص العربي)، Chau Ju-Kua, p. 15-6.

(٢٨٦) يجعل Chau Ju-Kua الحد الأدنى ١٠ بالمئة، والحد الأعلى ٤٤ بالمئة، ص ٢١ - ٢٢.

(٢٨٧) ابن خرداذبه، ص ٧٠ وابن رسته، ص ٩٢ - ٣، Biruni, *India*, I, pp. 210 - 211، المسعودي - التنبيه، ص ١٢٦، المروزي، ص ٢٧.

(٢٨٨) المسعودي، ج ١، ص ٣٤٦.

الفصول[٢٨٩]. ولكن هذا الطريق كان مهدداً بالقرصان، ولذلك كان «لا بد في كل مركب من مقاتلة ونفاطين» لحمايته[٢٩٠]. وأخطر نقطة في هذا الطريق هي سقطرى، عش القرصان الهنود[٢٩١]. وكان التجار يذهبون إلى سواحل شرقي أفريقية حتى شفالة (موزامبيق) وهي حد أسفارهم التجارية[٢٩٢]. وكانوا يبحثون عن الذهب والرقيق[٢٩٣]. ويوضح لنا البيروني طريقة تعامل التجار مع الزنج فيقول: «إن من رسم تجار البحر في مبايعات... الزنج أن لا يأتمنوهم في العقود وإنما تجيء رؤساءهم وكبارهم ويرهنون أنفسهم حتى يستوثق منهم بالقيود، ويدفع إلى قومهم ما أرادوا من الأمتعة ليحملوها إلى أرضهم ويقتسموها فيما بينهم. ثم إنهم يخرجون إلى الصحارى في طلب أثمانها، ولا يجد كل واحد من الذهب في تلك الجبال إلاّ بمقدار ما خصه من السلع. زعموا ـ ويكون الموجود على مثال النوى، فيجيئون به إلى المراكب ويسلمونه إلى مراكبهم ورهائنهم حتى يؤدوه ويرفعون الوثاق عنهم»[٢٩٤].

وعني التجار العرب بتوسيع صلاتهم التجارية وبتقويتها وذلك بإنشاء مراكز تجارية لهم، يجعلون لهم فيها الوكلاء ويؤسسون المخازن. وكانت هذه المراكز مأهولة في العادة بمسلمين لاجئين من اضطهاد سياسي أو ديني، وبمسلمين من أهل البلاد، وتكون إدارتها إلى قاضٍ يدير شؤونهم حسب الشريعة الإسلامية[٢٩٥].

وكانت للعرب مراكز مهمة في الهند. وقد شاهد المسعودي سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٦ م مستعمرة عربية تجارية في منطقة صيمور (Chaul الحالية) فيها حوالي عشر آلاف، تتألف من قادمين جدد من البصرة وبغداد وغيرهما، ومن أفراد من نسب عربي ولكنهم ولدوا في البلاد. وفي المستعمرة تجار كبار[٢٩٦]. وتوجد مراكز تجارية أخرى في بعض المدن شمال صيمور[٢٩٧].

---

(٢٨٩) ابن رسته، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢٩٠) المقدسي، ص ١٢.

(٢٩١) المسعودي، ج ٣، ص ٣٧، المقدسي، ص ١٤.

(٢٩٢) المسعودي، ج ٣، ص ٦، المروزي، ص ٥٤. وفي سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٦ م أبحر المسعودي من زنجبار ـ التي كان امراؤها مسلمين آنئذ ـ إلى عمان. المسعودي، ج ٣، ص ٣١.

(٢٩٣) H.A., p. 165.

(٢٩٤) البيروني ـ الجماهر في معرفة الجواهر، ص ٢٣٩.

(٢٩٥) انظر المروزي، ص ١٧، المسعودي، ج ٢، ص ٨٥ وما بعدها، Hasan, p. 99, Suleyman, p. 38 - 9, Chau Ju-Kua, p. 16.

(٢٩٦) المسعودي، ج ٢، ص ٨٥ وما بعدها.

(٢٩٧) المسعودي، ج ١، ص ٣٨٢ ـ ٣، Suleyman, p. 38, Heyd, p. 33.

وكانت كانتون مركزاً مهماً للتجار العرب. ويوجد بين هؤلاء تجار عراقيون كان لهم دور هام[٢٩٨]. وتشير رواية عربية - لعلها من القرن الثالث الهجري - إلى بعض العلويين الذين هربوا من مطاردة الأمويين إلى أقصى الشرق، واستقروا في كانتون. وقد تعلموا اللغة الصينية وصاروا وسطاء بين الحكومة الصينية وبين التجار الأجانب[٢٩٩]. وتوجد مستعمرات عربية تجارية أخرى في الصين في زيتون وهانج شو (Hang-Chou)[٣٠٠]. وتوجد مستعمرات عربية على طريق الصين في كله بار وشمالي سومطرة وفي جزر النيكوبار[٣٠١].

٢ ــ التجارة البرية

كانت التجارة البرية في الطريق الشرقي مع إيران، وما وراء النهر، وشرقي أوروبا، وفي الطريق الجنوبي والطريق الغربي مع الجزيرة العربية والشام ومصر وشمالي أفريقيا. وكانت الجمال أهم وسائل النقل، وتستعمل الجمازات أو الجمال السريعة للسفر السريع[٣٠٢]. وكان التجار والمسافرون يستفيدون من «كتب المسالك» في سفرهم، إلاّ أنهم كانوا يستعينون في الغالب بالأدلاء وخاصة في الطرق الخطرة كما هو الحال في بادية الشام وفي أواسط آسيا[٣٠٣].

كانت التجارة مع خراسان وبلاد ما وراء النهر تسلك الطريق التاريخي المشهور وهو «طريق خراسان» الذي يمر ببغداد إلى همدان، وقزوين، والري، ونيسابور، ومرو، وبخارى، وسمرقند، حيث يتشعب إلى فرعين: يذهب الشمالي منهما إلى خوارزم، والشرقي إلى الصين. وكانت التجارة قوية جداً مع إيران، حتى كانت الفواكه تستورد منها بكميات كبيرة[٣٠٤]. ومن الناحية الأخرى كان العراق مركزاً مهماً في الترانسيت للتجارة الإيرانية[٣٠٥].

---

(٢٩٨) Chau Ju-Kua, p. 16, p. 17 و Suleyman, pp. 38-39, p. 104. ولمعرفة تاريخ هذه المستعمرة عند نشوئها انظر Hasan, p. 99, Chau Ju-Kua, p. 15.

(٢٩٩) المروزي، ص ١٧ وص ٦٦ - ٧.

(٣٠٠) Chau Ju-Kua, p. 16.

(٣٠١) Hasan, p. 101, *Ibid.*, p. 18.

(٣٠٢) مسكويه، ج ٣، ص ٦٢؛ ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٦٤ ومسكويه، ج ٢، ص ٣٥٠.

(٣٠٣) ابن خرداذبه، ص ١٧٨؛ مسكويه، ج ٣، ص ٦٤.

(٣٠٤) انظر قسم الواردات.

(٣٠٥) التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١١.

وكانت خوارزم محطة مهمة للتجار الذين يتاجرون مع الترك وأواسط آسيا وأوروبا الشرقية. فأكثر الرقيق التركي والصقلبي، وكذا الفرو الصقلبي والخزري كان يأتي بطريق خوارزم(٣٠٦). وكانت قوافل التجارة متصلة من خوارزم إلى بلغار، ومن بلغار إلى خوارزم(٣٠٧).

وكان بعض التجار يذهب إلى مدينة بلغار(٣٠٨)، بطريق إتل إما براً أو في القوارب بصعود الفولجا. وكانوا يدفعون ضريبة قدرها ١/١٠ في بلغار، ويعاملون معاملة طيبة لأن البلغار كانوا قد دخلوا الإسلام حديثاً(٣٠٩). ولتقرير ابن فضلان، عن سفارته إلى بلغار (٣٠٩ هـ/٩٢١ م)، أهمية خاصة لأنه يظهر بوضوح كيف أن الدعوة إلى الإسلام كانت وثيقة الصلة بالفعالية التجارية في هذه الفترة. وكانت البضائع الروسية والبلغارية تأتي من بلغار(٣١٠). ومن هذه البضائع أنواع الفرو كالسمور، والسنجاب، والفنك، وفرو الثعالب، والنشاب، والقلانس، وغراء السمك، والسيوف، والدروع، والرقيق من الصقالبة، والعسل، والشمع(٣١١).

وكان الخزر - بين القوقاس والفولجا - وسطاء مهمين في التجارة، بين البلاد الإسلامية وبين شرقي أوروبا. وكان طريقهم التجاري نهر الفولجا وبضاعتهم الوحيدة غراء السمك، أما البضائع الأخرى فكانت تحمل إليهم(٣١٢).

ويوجد شعب فنلندي كان يسكن الأراضي الواقعة بين الخزر والبلغار ويسمى برطاس (Mordva)، وكان يصدر الفرو، وخاصة فرو الثعالب السود، الذي كان ممتازاً وثميناً جداً. وكانت تجارتهم تحمل بطريق خراسان(٣١٣).

وتوجد إشارات كثيرة إلى التجارة مع الروس(٣١٤). فيتحدث ابن خرداذبه عن

---

(٣٠٦) ابن حوقل، ص ٤٦٥ وص ٤٨١ - ٤٨٢.

(٣٠٧) المسعودي - مروج الذهب، ج ٢، ص ١٥- ١٦.

(٣٠٨) وهي عاصمة البلغار، والبلغار قوم لا يعرف أصلهم تماماً، وقد تسلل بعضهم إلى أواسط حوض الفولجا؛ انظر: E.I., vol. I, p. 786 ff.

(٣٠٩) ابن رسته، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٣١٠) Heyd, p. 61.

(٣١١) المقدسي، ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٣١٢) ابن حوقل، ص ٣٩٤، الاصطخري، ص ٢١٨ وص ٢٢١.

(٣١٣) المسعودي - التنبيه، ص ٦٢ - ٦٣، مروج الذهب، ج ١، ص ١٤.

(٣١٤) كانت كلمة (روس) تعني في البدء أهل الشمال، ثم صارت تشير إلى مؤسسي إمارة (كييف). E.I., Art. «Rus», vol. IV, p. 1182 وانظر الدوري - الجغرافيون العرب وروسيا. مجلة المجمع العلمي العراقي، م ١٣، ١٩٦٦.

التجار الروس - الذين يعتبرهم صنفاً من الصقالبة - ويبين أنهم كانوا يأتون بطريق نهر الدون، ثم يعبرون إلى الفولجا وينزلون فيه إلى بحر قزوين. وبعد أن يصلوا إلى الساحل الجنوبي لبحر قزوين، يحملون بضائعهم على الجمال إلى بغداد، وهناك يتظاهرون بأنهم مسيحيون ويدفعون الجزية. وكانوا يتاجرون بفرو الخزر، وبفرو الثعالب السود، وبالسيوف، ويستعينون بخدام من الصقالبة ليترجموا لهم(٣١٥). ويؤكد ابن رسته - الذي يتحدث عن الروس الذين كانوا يسكنون حول نوفوكرود (Nouvogrod) أنهم كانوا يتاجرون بفرو الخزر والسنجاب والرقيق(٣١٦). ويضيف ابن حوقل إلى ذلك أن التجارة الروسية كانت تحمل دائماً عبر الأراضي الخزرية(٣١٧)، وأن التجار المسلمين كانوا يتاجرون مع كويابه (كييف Kiev) مباشرة(٣١٨). ويتحدث المروزي عن الكهرب الصقلبي المحمول من منطقة البلطيق والذي يأخذه التجار المسلمون إلى الصين(٣١٩).

وقد وجدت كميات كبيرة من النقود العباسية في روسيا وفي حوض بحر البلطيق. وقد وجدت أكبر مجموعات النقود الفضية في منطقة البحيرات الروسية الكبرى (قرب نوفوكرود وبساكوف Psakov)، وفي روسيا الوسطى، وفي حوض الفولجا (قرب Jaroslave ياروسلافه وVladimir فلاديمير وKazan قازان)، وعلى القسم الشمالي للدنيبر (فيتبسك Vitebsk)، وفي مناطق البلطيق وخليج فنلندة، وأخيراً في جزيرة جتلند (فسبي Visby على البلطيق)(٣٢٠). وأقدم هذه النقود يعود إلى بدء القرن الثامن للميلاد (الثاني للهجرة)، ولكن أكثرها يعود للفترة التي بين نهاية القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وأواسط القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري). وأكثرها نقود سامانية، وفيها كمية كبيرة من النقود البغدادية(٣٢١).

ويمكننا أن نستنتج، مما وجد من النقود، عدة أمور: منها أن شعوب شرقي

---

(٣١٥) Heyd, p. 61 - 2، ابن خرداذبه، ص ١٥٤.

(٣١٦) ابن رسته، ص ١٤٥.

(٣١٧) لاقى ابن فضلان بعض التجار الروس قرب بلغار، وكانوا يحملون الرقيق والفرو في طريقهم إلى بحر قزوين «Rus» .Seippel, pp. 90-1, E.I. Art.

(٣١٨) ابن حوقل، ص ٣٩٢ وص ٣٩٧، الاصطخري، ص ٢٢٥ - ٦. ويضيف ابن حوقل الرصاص والزئبق إلى صادرات الروس «Rus» .E.I. Art

(٣١٩) المروزي، ص ١٦ - ١٧، انظر المسعودي، ج ٢ ص ١٥ - ١٨.

(٣٢٠) Heyd, p. 63 ff وانظر ابن حوقل، ص ٣٩٧ والاصطخري، ص ٢٢٦.

(٣٢١) انظر التفاصيل في Vasmer pp. 32 - 43, و Heyd, p. 58 ff.

أوروبا قبلت النقود العباسية بكل رغبة في معاملاتها التجارية، وثانيها أن النصف الأول للقرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان زمن عز التجارة مع شرقي أوروبا، وأخيراً أن أكثر هذه التجارة كان يحمل بطريق ما وراء النهر، وأن التجارة العراقية كانت تكوّن جزءاً هاماً منها.

أما التجارة البرية مع الصين فكانت ضئيلة، إن لم تكن معدومة. إذ ان الرحلة كانت طويلة، وكثيراً ما أغلقت الحكومة الصينية الطرق المؤدية إلى الصين كوسيلة للتحفظ من التخلل الأجنبي[٣٢٢]. فالطريق البحري كان أسهل بكثير لدرجة أن بعض التجار كانوا يأتون من سمرقند إلى البصرة، ومن هناك يسلكون الطريق البحري إلى الصين[٣٢٣].

وليس لدينا أية إشارة إلى وجود مراكز تجارية للمسلمين على الطريق البري إلى الصين، ومن المحتمل أن كل تجارة إسلامية سلكت ذلك الطريق، كانت تحمل بواسطة الصغد في آسيا الوسطى (وهم شعب ايراني الأصل)، وهؤلاء كانت مراكزهم ومستعمراتهم التجارية تمتد بين سمرقند والصين[٣٢٤].

أما الطريق البري إلى الهند فكان طويلاً وشاقاً. وفي القرن الثالث الهجري، كان اليهود «الردانية» يذهبون من البصرة إلى الأهواز، إلى كرمان، إلى السند، ثم الهند[٣٢٥]. وهناك طريق آخر، كثيراً ما سلكه التجار، وهو من خراسان إلى السند[٣٢٦]. ولكن يحتمل أن الظروف السياسية كانت لا تسمح بوجود تجارة تستحق الذكر مع داخل الهند[٣٢٧]

وكانت التجارة بين العراق والشام قوية ومنظمة لدرجة أن الخضروات كانت تجلب أحياناً من الشام إلى العراق[٣٢٨]. ويخبرنا اليعقوبي أن السفن كانت تأتي

---

(٣٢٢) المروزي، ص ١٩.

(٣٢٣) المسعودي، ج ١، ص ٣٤٧ - ٩. ويذكر المسعودي حادثة يراها فريدة وهي انه رأى شيخاً في بلخ، سلك الطريق البري إلى الصين.

(٣٢٤) انظر H.A. p. 225, p. 229, p. 363 والمروزي، ص ١٨ وص ٧٠ - ٧١، وابن خرداذبه، ص ١٧٨.

(٣٢٥) ابن خرداذبه، ص ١٥٤.

(٣٢٦) المسعودي - مروج الذهب، ج ١، ص ٢٠٧ وص ٣٤٩.

(٣٢٧) Biruni, *India*, I, p. 206 ويبين البيروني أن السفر إلى السند يكون بطريق سجستان. أما للسفر إلى الهند (ويقصد بقية الهند) فيكون البدء من جهة كابل.

(٣٢٨) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ٢٠٥.

باستمرار ـ محملة بالبضائع السورية وبالدقيق ـ في الفرات، ثم تسلك نهر عيسى إلى بغداد[٣٢٩]. وكانت حركة النقل في هيت ـ حيث يعبر طريق الشام نهر الفرات ـ قوية لدرجة أن وارد العبّارة هناك لسنة ٣٠٦ هـ/ ٩١٨ م بلغ ٨٠٢٥٠ ديناراً[٣٣٠].

وكانت التجارة مع الجزيرة العربية نشيطة في موسم الحج بصورة خاصة[٣٣١]. وكانت للتجار العراقيين علاقات تجارية مربحة مع البربر في شمالي افريقية، وأهم ما يطلبونه منهم الذهب[٣٣٢].

وكانت للعرب محطات تجارية مهمة على طرق التجارة البرية. ففي الشرق، كانت توجد في سمرقند جالية عراقية تجارية[٣٣٣]. وكانت في (إتل) عاصمة الخزر، جماعة من المسلمين يبلغ عددها عشرة آلاف، فيها مسلمون من الخزر، وتجار وصناع مسلمون من البلاد الإسلامية[٣٣٤]. وكانت في بلغار جماعة من التجار المسلمين، بل وحتى بعض الصناع العراقيين[٣٣٥].

وفي الغرب، كانت في سجلماسة (في مراكش) جالية ناجحة من التجار العراقيين من أهل البصرة والكوفة وبغداد[٣٣٦]. وكانت في مصر جالية من اليهود العراقيين، يشتغل بعض أفرادها وكلاء للتجار العراقيين. ومن أمثلة ذلك يعقوب بن كلس، الذي صار وزيراً للخليفة الفاطمي العزيز، فقد كان يهودياً بغدادياً، بدأ حياته في القاهرة وكيلاً للتجار[٣٣٧].

بقي علينا أن نذكر مشكلة العملة في التجارة الدولية. ويظهر أنه كانت هناك ثلاث طرائق في المعاملات التجارية:

---

(٣٢٩) اليعقوبي ـ البلدان، ص ٢٥٠.

(٣٣٠) Von Kremer, *'Ali b. 'Isa*, p. 27.

(٣٣١) المقدسي، ص ١٣٣ ـ ٤.

(٣٣٢) البيروني ـ الجماهر، ص ٢٣٧ ـ ٨، ابن حوقل ص ٦١. ويذكر ابن حوقل أن العراقيين كانوا يتاجرون مع زنوج وسط افريقيا فيحملون إليهم الثياب البصرية البراقة ويستبدلونها بالذهب.

(٣٣٣) ابن حوقل، ص ٤٩٨.

(٣٣٤) المسعودي، ج ٢، ص ١١ ـ ١٢، ابن حوقل، ص ٣٨٨، ص ٣٩٠، ابن رسته، ص ١٤٠، الاصطخري، ص ٢٢١.

(٣٣٥) انظر E.I. Art. Bulghar, I, p. 788.

(٣٣٦) ابن حوقل، ص ٦٠.

(٣٣٧) انظر Mann, *J.Q.R.*, *N.S.*, X, p. 39 and p. 325; Fischel, *Jews in Med. Islam*, pp. 30-6; pp. 46-47.

الطريقة الأولى: هي طريقة المقايضة، وكانت تتبع في التعامل مع زنوج شرقي افريقيا ووسطها(٣٣٨)، ومع جزر المحيط الهندي(٣٣٩)، ومع الصين في بعض الأحيان. فيذكر المروزي أن أكثر أعمال التجار المسلمين في الصين كانت تتم عن طريق الوسطاء الذين «يخرجون إليهم ويطالعون البضائع والأمتعة ويحملونها إلى صاحب الصين، ويأتون بالعوض إذا تقرر»(٣٤٠).

والطريقة الثانية: هي طريقة التعامل المزدوج، وهي أن يأخذ التجار العملة المحلية لقاء بضائعهم، ثم يشترون بهذه النقود بضائع من تلك البلاد. وكانت هذه الطريقة تتبع أحياناً في الصين(٣٤١)، وفي بعض جهات الهند مثل مملكة كنوج (Kanoj)(٣٤٢). وقد وصلت هذه الطريقة حد الكمال في البصرة حيث كانت العملية بوجهيها تتم عن طريق الصرافين، دون الحاجة إلى استعمال النقود فعلاً(٣٤٣).

ثالثاً: كانت النقود العباسية، من دراهم ودنانير، تقبل أحياناً ثمناً للبضائع المشتراة، كما كانت الحال في التجارة مع شرقي أوروبا(٣٤٤). فكان الروس يأخذون النقود الفضية والذهبية لقاء ما يبيعونه للمسلمين من بضائع(٣٤٥).

---

(٣٣٨) البيروني ـ الجماهر، ص ٢٣٧ ـ ٩.

(٣٣٩) ابن خرداذبه، ص ٦٥; Suleyman, p. 40-1.

(٣٤٠) المروزي، ص ١٧.

(٣٤١) انظر المقريزي ـ اغاثة الأمة، ص ٦٨ حيث يتحدث عن ورقة نقدية عند تاجر عراقي في القرن الرابع الهجري، «فيها خطوط بقلم الخطاط (Cathay) من ورق التوت»، وان قيمتها تساوي خمسة دراهم في عاصمة الصين «وان ملكها يختم لهم هذه الأوراق». انظر Suleyman, p. 53 - 4.

(٣٤٢) المروزي، ص ٤٧.

(٣٤٣) انظر الفصل عن «الجهبذة والصيرفة».

(٣٤٤) ابن رسته، ص ١٤٢.

(٣٤٥) ن.م.، ص ١٤٥.

الفَصْلُ الخَامِسُ

الجَهبَذة والصَّيرفَة

اتخذت المصارف في القرن الرابع الهجري شكل بيوت مالية، نشأت عن ضرورات التجارة من جهة، وحاجة الدولة إلى النقود من جهة أخرى. وكانت لا تزال في طور النمو. أما أصولها فترجع إلى مصدرين:

الأول: تجار أخذوا يشتغلون بالصيرفة والائتمان، وهؤلاء هم الجهابذة.

الثاني: صيارفة يشتغلون بصرف النقود، ثم وسعوا معاملاتهم إلى قبول الودائع وتسليف النقود.

ولأجل الإحاطة بالموضوع يلزم النظر في:

١) مركز وشغل: (أ) الجهبذ (ب) الصراف

٢) تعريف واستعمال: (أ) السفتجة (ب) الصك

أولاً: الجهبذة

كلمة «جهبذ» ليست حديثة، ولكن مدلولها تغيّر بمرور الزمن حسب تطور وظائف من تطلق عليه، ولذا فلا يصح تخصيص معنى واحد ثابت لها. ولعل نظرة على تعاريف مختلف الباحثين تبين أنها تشير إلى عمل من أعمال الجهبذة فقط. فتاج العروس يعرّف الجهبذ ـ بـ «النقاد الخبير بغوامض الأمور، العارف بطرق النقد»[1]. والفيروز آبادي يعرّفه بـ «الناقد الخبير»[2]. ويترجم (متز)، كلمة «جهبذ» بـ «صاحب

(١) تاج العروس، ج ٢، ص ٥٥٨.

(٢) الفيروز آبادي ـ القاموس المحيط (طبعة ثالثة ١٩٣٣) ج ١، ص ٣٥٢.

مصرف ـ «Banker»[٣]، ويعطيها (ماسنيون) المعنى نفسه «Banquier»[٤]. أما (دوزي) فيفسرها بـ ناقد «Vérificateur» أو صراف «Changeur»[٥]. بينما يترجمها (فون كريمر) بـ محاسب ـ «Regierungskassierer»[٦]. ويخصص (آمدروز) معناها بـ «كاتب مالي Treasury receiver أو Receiving clerk»[٧]. ويفسرها (مرجيلوث) بـ «جابي ضرائب Collector»[٨]. وأخيراً نرى (فيشل) يؤيد تعريف الجهبذ بـ «صاحب مصرف»، لأنه يعتقد «أن وظائف الجهبذ تؤيد ذلك»[٩].

وفي هذه التعاريف شيء من الصحة ولكنها غير كاملة. وعدم الدقة فيها ناتج من اضطراب الباحثين في أمرين، وهما:

– عدم التمييز بين الجهبذ كصاحب مصرف، وبين الجهبذ ككاتب خراج[١٠].

– الاعتقاد بأن الجهبذ والصراف اسمان لمسمى واحد[١١].

أما الجهبذ، ككاتب خراج، فكان معروفاً زمن الساسانيين، ويبدو أنه يرجع إلى عصر أقدم[١٢]. ويذكر عن آل أبي دلف أنهم كانوا من جهابذة الحيرة[١٣]. وكان

---

(٣) Mez, *Renaissance of Islam*, p. 477.

(٤) Massignon, *L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et l'essor des Banques Juives*, B.I.F.D., 1935, p. 5.

(٥) Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, Vol. I, p. 226.

(٦) Von Kremer, *'Ali b., 'Isa*, p. 8, n. 2.

(٧) Amedroz, *Remains of Sabi, Gloss.*, p. 58: J.R.A.S., 1908, p. 432.

(٨) مرجليوث ـ ترجمة التنوخي إلى الانكليزية.

(٩) Fischel, *Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam*, London 1937, p. 3.

(١٠) قارن: الجهشياري: الوزراء والكتاب، القاهرة ١٩٣٨، ص ٢٨، وص ١١٤، والتنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٥٧. نلاحظ هذا الارتباك في فيشل، ص ٤، انظر يوسف غنيمة: «الجهبذة والجهابذة زمن العباسيين»، مجلة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٤٢، ص ٢٤٣.

(١١) انظر «متز» (الترجمة الانكليزية)، ص ٤٧٦ وص ٤٧٧. واخطأ (فيشل) باعتقاده أن الجهابذة كانوا صرافين وسعوا عملهم من صرف النقود إلى أقراضها ص ٣، م ٤ وص ٤، وكذا حبيب زيات في مقاله «الصيارفة في الإسلام» (المشرق سنة ١٩٣٧) ص ٤٩١ اذ يقول: إن معنى الجهبذ «في عهد الخلافة العباسية الناقد والصيرفي»، وكذا الأستاذ يوسف غنيمة حين عرف الجهبذ ـ «الذي يفحص قطع المسكوكات ليفصل الصالحة من الرديئة، أي ممتحن نقاد صيرفي»، مجلة غرفة تجارة بغداد، سنة ١٩٤٢، ص ٢٤٣. وكذلك فؤاد افرام البستاني إذ يقول في مقال «تمازج العناصر البشرية في بغداد العباسيين» (المشرق، سنة ١٩٣٤، ص ٤٤٩- ٤٣٣) «الجهبذ يراد به الصيرفي الرسمي» ولكن الأخير أقرب إلى الصحة من غيره.

(١٢) ابن رسته ـ الأعلاق النفيسة، ص ١٩٦.

(١٣) ن.م.، ص ٢٠٣.

هذا الجهبذ معروفاً عند المسلمين في أوائل العصر الأموي منذ زمن معاوية[١٤]. فلما جاء العباسيون وسّعوا عمل الجهبذ إلى المقاطعات، واستعان بعض الولاة بالجهابذة لجباية الضرائب في بعض المقاطعات[١٥]. وقد اعترف أحد هؤلاء الجهابذة بأنه كان فقيراً عندما عين جهبذاً[١٦]. ويروي الجهشياري أنه كان لعمر بن مهران، عامل الرشيد على مصر، جهبذ يقوم بوظيفة محاسب لدى العامل[١٧].

وقد حفظ لنا القُمي (المتوفى عام ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨ م) عهداً من المقتدر لجهبذ (قُمّ) خصص فيه واجبات هذا الجهبذ، نستخلص منه أن على الجهبذ أن يستلم الوارد من الخراج والموارد الأخرى، ويساعده في عمله كاتب خاص، وأن عليه أن يقدم قائمة خاصة بالدخل اليومي، ثم تقابل قوائمه بقوائم كاتبه كما تقابل «البراءات» (الوصولات) التي يصدرها بسجل الوارد. وكان الجهبذ يعمل حساباً شهرياً بالدخل يدعى «الختمة»، وحساباً سنوياً يسمى «الختمة الجامعة». والخلاصة فإن أهم واجباته التأكد من وصول الواردات بكاملها إلى الديوان. وكان يستلم بدل خدماته أجوراً من الضرائب المجباة، تدعى «حق الجهبذة» ويحدد مقدارها حين تعيين الجهبذ[١٨].

وكان في بغداد ديوان خاص يسمى ديوان الجهبذة[١٩]، ومن واجبات رئيسه أن يعد في نهاية كل شهر وكل سنة حساباً بالدخل والخرج وأن يقدمه إلى بيت المال[٢٠]. ولما كان بعض هؤلاء الجهابذة مسلمين، يمكننا أن نفرض أن أعمالهم لم

---

(١٤) انظر الجهشياري، ص ٢٨.

(١٥) ن.م.، ص ١١٤، القمي: تاريخ قم. طهران ١٣٥٣ هـ ص ١٤٩.

(١٦) مسكويه - تجارب الأمم (باعتناء آمدروز - مع الترجمة - في ٧ مجلدات ١٩٢٠ - ١) ج ١، ص ١٥٨، الجهشياري، ص ٣٦ - ٧.

(١٧) الجهشياري، ص ٢٢٠ - ١.

(١٨) القمي: ص ١٤٩ - ١٥١، انظر الخوارزمي - مفاتيح العلوم (القاهرة ١٩٣٠)، ص ٤٦ - ٧. ولمعرفة وظائف الجهبذ في عهد المماليك في مصر انظر القلقشندي - صبح الأعشى (القاهرة ١٩١٩ - ٢٢) ج ٥، ص ٤٦٦، وابن مماتي - قوانين الدواوين (القاهرة ١٩٤٣ هـ) ص ٣٠٤.

(١٩) يفهم من قصة يرويها التنوخي (الفرج بعد الشدة ج ٢، ص ٣٩ - ٤٠) انه كان للجهبذة في زمن (الرشيد) دائرة خاصة، لعلها شعبة من بيت المال، إذ يقول عن شخص انه «ابن داية أمير المؤمنين (الرشيد) وهو الآن جهبذه وصاحب بيت ماله». (ص ٣٩) ثم يصف محل عمل الجهبذ: «دخلت الدار فرأيت... في صدره رجل شاب بين يديه كتاب وجهابذة وحساب يستوفيه عليهم، وفي صفاف الدار ومجالسها جهابذة بين أيديهم الأموال والتخوت والشواهين، يقبضون ويُقبضون» (ص ٤٠). لكن عريب - صلة الطبري (ليدن ١٨٩٧ ص ١٣٥) هو أول من يشير إلى ديوان مستقل للجهبذة سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٥ م.

(٢٠) الخوارزمي - مفاتيح العلوم، ص ٣٦ - ٧.

تكن من باب الصيرفة[٢١].

وكانت مرحلة انتقال الجهابذة من كتاب خراج إلى أصحاب بيوت مالية، عند تعيين بعض التجار لجهبذة بعض المناطق. وكمثل لهذا تعيين يوسف بن فنحاس جهبذاً للأهواز في وزارة ابن الفرات الأولى (٢٩٦ هـ - ٢٩٩ هـ/ ٩٠٨ م - ٩١١ م). ولما احتاج ابن الفرات إلى النقود لدفع رواتب بعض الكتّاب «أحضر يوسف بن فنحاس اليهودي فقال له: إن هذه الحال وافت ولم يتأهب أصحابنا لها، وقد سببت أرزاقهم على مال الأهواز، ولا ... أن تقدم لهم مال شهرين. فذكر كثرة الأموال التي ألزم تعجيلها من معاملة الأهواز وأنه لا يتمكن من غير ذلك. فلم يزل معه في مناظرة حتى استجاب إلى اطلاق جاري شهر معجل في ذلك اليوم»[٢٢]. ومن هذا نلاحظ أن الغاية من تعيين هذا التاجر جهبذاً، هي حاجة الدولة إلى المال قبل موعد الجباية، فيقوم الجهبذ بالتسليف ثم يستوفي أمواله بعدئذ من ضرائب الأهواز.

وتوجد إشارات إلى الجهابذة أصحاب البيوت المالية في عصر المنصور، فقد اتهم خالد البرمكي بأنه أودع مالاً عند جهبذ نصراني[٢٣]. وكان لأحد عمال الرشيد جهبذ يودع عنده أمواله[٢٤].

ويروي التنوخي ما يؤيد أن الجهابذة - أصحاب البيوت المالية - كانوا تجاراً في الأصل، إذ يذكر أنه كان لسليمان بن وهب (وزير المعتمد) وابنه عبيد الله جهبذ خاص يدعى ليث، فكانا يودعان النقود عنده ويكتبان الصكوك عليه. ولما صرف سليمان من الوزارة قبض خلفه على ليث ليأخذ ما أودع آل وهب عنده من النقود، واكتشف في داره بئراً فيها ثمانون ألف دينار. فلما سأل الجهبذ: «هذه البئر مالك أو مال أصحابك؟» أجاب: «بل مالي، أنا رجل تاجر»[٢٥].

وحتى زمن المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢ م) لم تكن الدولة تقترض حين الحاجة من الجهابذة بل كانت تلجأ إلى وسائل أخرى للحصول على المال. فمثلاً عندما بويع المعتضد (٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) شكا إلى وزيره إفلاس الخزينة

(٢١) ابن الأثير - طبعة تورنبرغ، ليدن ١٨٥١ - ٧٦، ج ٩، ص ١٤٧.
(٢٢) الصابي: الوزراء، ص ١٧٨.
(٢٣) الجهشياري - الوزراء، ص ١٠٠.
(٢٤) ن.م.، ص ٢٢٠ - ٢٢١.
(٢٥) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٥٧.

وأنه يحتاج إلى ٧٠٠٠ دينار يومياً على الأقل. فحل الوزير هذه المشكلة بإعطاء ضرائب بعض المقاطعات بالضمان إلى شخص يدعى الطائي على أن يدفع هذا ٧٠٠٠ دينار يومياً و٦٠٠٠ دينار شهرياً[٢٦]. وعلى العموم كان الوزراء يقترضون من التجار[٢٧].

ولم يبدأ نظام تعيين جهابذة رسميين، لتسليف الدولة ما تحتاجه من النقود، حتى سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٢ م. نعم كانت لابن الفرات ـ أثناء وزارته الأولى ـ معاملات مع الجهبذين اليهوديين هارون بن عمران ويوسف بن فنحاس، ولكنها كانت شخصية. فيذكر التنوخي والصابي أن ابن الفرات «نصب (سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م) يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران الجهبذين»[٢٨]، وأسند اليهما حفظ كل الأموال المصادرة من أنصار ابن المعتز «دون يد صاحبي بيت المال العامة والخاصة»[٢٩]. ولكنه «أفراد ابن فرجون كاتبه بمحاسبتهما والاستيفاء عليهما فكان يحاسبهما ولا يرفع إلى الدواوين شيئاً من حسابهما»[٣٠]. ويؤيد الصفة الشخصية لهذه المعاملات ما يرويه التنوخي من أن ابن الفرات، عندما سجن بعد وزارته الأولى، اعترف لمؤنس الحاجب بأنه بقي لديه قبل يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران ١,٤٧٠,٥٤٦ درهماً «فقبض مؤنس منهما تلك البقية ومضى الأصل كله لا يعرف في أي شيء صرف، وكان مبلغه فيما ظنه الكتاب نحو ألف ألف دينار، وفاز ابن الفرات بجميعها ولم يقم بها حجة عليه»[٣١]. ولكن هذا لم يرضِ الوزير الجديد علي بن عيسى (٣٠٠ - ٣٠٤ هـ/ ٩١٢ ـ ٩١٦ م)، فأمر باحضار «الجهبذين» وطالبهما بما أودع ابن الفرات، وبعد ضغط شديد اعترفا أنه بقي عندهما ١٠٠,٠٠٠ درهم لحساب ابن الفرات، ولكن علياً ألحّ حتى ألزمهما ٢٠٠,٠٠٠ درهم[٣٢]. وهذا يبين أن «الجهبذين اليهوديين» لم يكونا جهبذين رسميين، بل مختصين بابن الفرات.

ويرجع الفضل في انشاء مصرف رسمي إلى الوزير العظيم علي بن عيسى،

---

(٢٦) الصابي ـ الوزراء، ص ١٠ ـ ١١.
(٢٧) التنوخي ـ نشوار، ج ٨، ص ٢٤.
(٢٨) وهذا أول ذكر عثرت عليه لاشتراك هذين الجهبذين في معاملاتهما.
(٢٩) التنوخي ـ نشوار، ج ٨، ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٣٠) الصابي ـ الوزراء، ص ٧٩.
(٣١) الصابي ـ الوزراء، ص ٧٩، التنوخي ـ نشوار، ج ٨، ص ٢٤.
(٣٢) التنوخي ـ نشوار، ج ٨، ص ٢٤ ـ ٥.

الذي اضطرته حالة الخزينة الحرجة في وزارته الأولى (٣٠٠ - ٣٠٤ هـ/ ٩١٢ - ٩١٦ م) أن يدفع الجهبذين اليهوديين إلى تأسيس مصرف للدولة. إذ استدعاهما إلى حضرته وقال لهما «اني احتاج في كل هلال إلى مال أدفعه في ستة أيام من ذلك الشهر إلى الرجالة مبلغه ثلاثون ألف دينار، وربما لم يتجه في أول يوم من الشهر ولا الثاني، وأريد أن تسلفاني في أول كل شهر مائة وخمسين ألف درهم، وترتجعانها من مال الأهواز في مدة الشهر، فإن جهبذة الأهواز اليكما فيكون هذا المال سلفاً لكما واقفاً أبداً». ثم يستطرد التنوخي ويقول: «فلم يزل هذا الرسم يجري على يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران ومن قام مقامهما مدة ست عشرة سنة وبعد وفاتهما، لأنهما ما صرفا إلى أن ماتا. وكان السلطان لا يرى صرفهما (ليبقى جاه الجهبذة مع التجار فيقرض التجار بالجهبذ)[٣٣] إذا دفعت الضرورة، ومتى صرف الجهبذ وقلّد غيره لم يعامله التجار ووقف أمر الخليفة»[٣٤]. تدلنا هذه الوثيقة على تطور جديد، فنلاحظ: أولاً أن الجهبذين اشتركا لإنشاء مصرف، بدل اشتغال كل على انفراد كالمعتاد. وثانياً: أن هذا المصرف بقي المصرف الرسمي حتى سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م، وأن الخليفة كان حريصاً على حفظ الثقة به. وثالثاً: ان مهمة المصرف الرئيسية كانت تسليف الدولة ما تحتاج من النقود مع الاعتماد على واردات الأهواز كضمان. ورابعاً: أراد الخليفة أن يستفيد من «اعتماد» (Credit) أصحاب هذا المصرف للاقتراض من التجار. وأخيراً يتضح لنا الدور الفعّال الذي لعبته الدولة في تطور الجهبذة.

ومما يؤيد رواية التنوخي أن المصادر لا تذكر أن «الجهبذين اليهوديين» صودرا بعد تلك السنة. ولكن يستبعد احتفاظهما بجهبذة الأهواز لمدة ١٦ سنة لأننا نجد أن عاملي الأهواز سنة ٣١٥ هـ/ ٩٢٧ م كان لهما جهبذان خاصان[٣٥]. كما أن أبا عبدالله البريدي ضمن ضرائب الأهواز سنة ٣١٥ هـ/ ٩٢٧ م[٣٦].

وفي الوقت نفسه استمر الجهبذان اليهوديان في معاملاتهما الخاصة مع ابن الفرات على الأقل. فبعد عزل علي بن عيسى من الوزارة سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٦ م، كتب ابن الفرات رقعة إلى هارون بن عمران بإعطاء علي بن عيسى ٢,٠٠٠ دينار

---

(٣٣) معنى العبارة (   ) لتبقى ثقة التجار قوية بالجهابذة فإذا احتاج الخليفة استطاع أن يقترض من التجار بواسطة الجهابذة.

(٣٤) التنوخي - نشوار، ج ٨، ص ٢٥ - ٦، ويرد النص في الصابي، ص ٨٠ - ١.

(٣٥) مسكويه، ج ١، ص ١٨٧.

(٣٦) ن.م.، ج ١، ص ١٨٧.

ليستعين بها[٣٧]. ومما يؤيد وجود هذه المعاملات الخاصة، ما اتهم به ابن الفرات في وزارته الثانية (٣٠٤ - ٣٠٦ هـ/ ٩١٦ - ٩١٨ م) من انه كتب إلى العمال «بحمل المرافق (الرشوات) إلى هارون بن عمران وإفراده إياه بذلك وبقبض أموال المصالحين والمصادرين وعدله بها عن بيت المال، وأن المقتدر بالله طلب من ابن الفرات مالاً لبعض مهمّة فمنعه منه واعتلّ فيه عليه»[٣٨]. ثم تسكت المصادر عن ذكر «الجهبذين» بعد سنة ٣٠٦ هـ لعدة سنين.

وفي سنة ٣١١ هـ/ ٩٢٣ م، دعي ابن الفرات للوزارة للمرة الثالثة، فورد ذكر «الجهبذين اليهوديين» من جديد. ففي تلك السنة كتب ابن الفرات رقعة إلى هارون بن عمران بدفع ٢٠٠٠ دينار إلى علي بن عيسى من وارد ضيعته الخاصة[٣٩]. وبعد صرفه عن الوزارة ثالث مرة، أخبر ابن الفرات خلفه في الوزارة، وهو الخاقاني، «اني قد خلفت في يد هارون الجهبذ وابنه مائة ونيّف وستين ألف دينار حاصلة قبلهما من مال المصادرين»[٤٠]. وبقتل ابن الفرات سنة ٣١٢ هـ/ ٩٢٤ م، ينطمس ذكر الجهبذين اليهوديين. لكن عائلة هارون استمرت على أعمالها الصيرفية. يروي الصولي أن أمير الأمراء (بجكم) قبض على عليّ بن هارون سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠ م وعذبه وأخذ منه ١١٠,٠٠٠ دينار ثم أمر بقتله[٤١]، وسبب ذلك أن علياً كان جهبذ الوزير ابن شيرزاد (٣٢٧ - ٣٢٩ هـ/ ٩٣٨ - ٩٤٠ م)[٤٢]. ولا بد من أن ابن هارون كان مثرياً إذ كان يعيش في قصر فخم على نهر الصراة[٤٣].

---

(٣٧) الصابي، ص ٣٣.

(٣٨) ن.م.، ص ٣٣. نلاحظ هنا أن هارون ويوسف لم يشتركا في هذه المعاملة ويظهر أن شركتهما كانت اجابة لحاجة الدولة وانهما استمرا على معاملاتهما الخاصة منفردين. وفي سنة ٣٠٦ هـ/ ٩١٨ م طلب المقتدر من ابن الفرات ٢٠٠,٠٠٠ دينار من «أموال النواحي» فاستشار الوزير أصحابه فقال له أحدهم: «ما يتعذر هذا القدر عليك، أما تقدمه له من مالك، أو آخذاً له من جهابذتك ومعامليك»، الصابي، ص ٢٤١.

(٣٩) الصابي، ص ٣٠٦ - ٧، مسكويه، ج ١، ص ١١٢.

(٤٠) مسكويه، ج ١، ص ١٢٨. اخبر ابن الفرات، الوزير الجديد عن النقود ليحرمه فخر اكتشافها بطرق أخرى وليمنعه من استعمالها وبالنتيجة ليحرجه مالياً لأن الخليفة اعتاد أخذ أموال المصادرة إلى بيت مال الخاصة. مسكويه، ج ١، ص ١٢٨.

(٤١) الصولي ـ أخبار الراضي والمتقي، ص ١٢٧- ٨.

(٤٢) مسكويه، ج ٢، ص ٨ م ١. ولكنه يدعوه خطأ: هارون الجهبذ اليهودي.

(٤٣) الصولي ـ أخبار الراضي والمتقي بالله، ص ١٩٨. يشير إليه الصولي ص ٤٠ باسم ابن علان الجهبذ اليهودي وهذا تحريف ابن عمران.

وكان لأكثر الوزراء جهابذة خاصون، مثل ابراهيم بن يوحنا، جهبذ حامد بن العباس. وقد عذب هذا الجهبذ سنة ٣١١ هـ/ ٩٢٣ م، حتى اعترف بودائع حامد عنده، ثم صودر على ١٠٠,٠٠٠ دينار[٤٤]. وكان لعلي بن عيسى معاملات مع ناقد[٤٥]. كما كان للوزير الخصيبي (٣١٣ - ٣١٤ هـ/ ٩٢٥ - ٩٢٦ م) جهبذه الخاص[٤٦]. وكان لبعض الولاة جهابذة أيضاً، فكان لابن أبي السلاسل، أحد عاملي الأهواز سنة ٣١٥ هـ/ ٩٢٧ م جهبذ[٤٧]. واستخدم أبو عبدالله البريدي جهبذين، اسرائيل بن صالح وصالح بن نظير[٤٨]، وكان أولهما موضع ثقته[٤٩].

وتعددت مصادر أموال الجهابذة، فكانوا تجاراً قبل كل شيء، وكانوا يربحون أرباحاً طائلة من تجارتهم. ادعى جهبذ سليمان بن وهب ملكية رأسمال تجاري قدره ٨٠,٠٠٠ دينار[٥٠]. وكان هارون بن عمران ويوسف بن فنحاس تاجرين أيضاً[٥١]. ولكن أكبر جزء من رؤوس أموال الجهابذة كان من ودائع الوزراء والموظفين الكبار. فمثلاً اعترف ابن الفرات بعد وزارته الأولى انه بقي لدى هارون بن عمران ويوسف ابن فنحاس ١,٤٧٠,٥٤٦ درهماً، بينما اعتقد الكتّاب أن ما أودعه ابن الفرات بلغ نحو مليون دينار لم تسجل[٥٢]. وبلغ ما أودعه من أموال المصادرات في وزارته الثالثة، لدى هارون بن عمران، ثمانية ملايين وأربعين ألف دينار. وكان ابن الفرات يودع عند الجهبذين اليهوديين كل أموال المصادرات[٥٣]، والمرافق (الرشوات)[٥٤]. واعترف الجهبذ ابراهيم بن يوحنا، لابن الفرات، سنة ٣١١ هـ بأنه كان عنده آنئذ ١٠٠,٠٠٠ دينار لحامد بن العباس[٥٥]. ولعل هذه الأرقام تعطي فكرة عن المبالغ الكبيرة التي كانت تودع لدى الجهابذة.

---

(٤٤) الصابي - الوزراء، ص ٢٢٦، مسكويه، ج ١، ص ٩٥.
(٤٥) الصابي - الوزراء، ص ٢٢٤ وص ٢٩١.
(٤٦) مسكويه، ج ١، ص ١٥٥.
(٤٧) ن.م.، ج ١، ص ١٥٨.
(٤٨) ن.م.، ج ١، ص ٣٤٩.
(٤٩) ن.م.، ج ٢، ص ٥٢.
(٥٠) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٥٧.
(٥١) انظر عريب، ص ٧٢، مسكويه، ج ١، ص ٦٦.
(٥٢) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٢٤.
(٥٣) الصابي - الوزراء، ص ٢٢٧.
(٥٤) ن.م.، ص ٣٣.
(٥٥) مسكويه، ج١، ج٩٥، انظر الصابي، ص٢٩٠، التنوخي - نشوار المحاضرة، ج١، ص١٠٣-٤.

ويحسن هنا ذكر بعض العوامل المشجعة على ايداع الأموال لدى الجهابذة:

١ ـ ففي زمن عدمت فيه الثقة، للعادة الشائعة بمصادرة الوزراء وكتابهم، كانت الأموال المودعة لدى الجهابذة مصونة نسبياً. فيذكر مسكويه أن ابن الفرات أودع ـ قبل صرفه من الوزارة الأولى ـ مبالغ كبيرة من النقود مع بعض «التجار»[٥٦] الذين لم يعرفهم خلفه في الوزارة، فحفظت تلك النقود حتى وزارته الثانية فاسترجع ما كان أودعه «من غير أن يذهب له شيء»[٥٧]. ولكن تفتيش الجهابذة بعد صرف معامليهم من الوظائف دفع بعض الموظفين إلى ايداع نقودهم دون تسجيلها في سجلات الجهبذ[٥٨].

٢ ـ يظهر أن الجهابذة كانوا يشرفون على واردات الموظفين وضياعهم، فكان هارون بن عمران يشرف على ضياع ابن الفرات الخاصة[٥٩]. ولا بد ان كان ذلك من واجبات جهابذة العمال[٦٠].

وكان المصدر الثالث لأموال الجهابذة تفويض جباية ضرائب بعض المقاطعات إليهم، وبهذه الواسطة استفاد الجهبذان اليهوديان من ضرائب الأهواز[٦١]. ويذكر الصابي مثلاً لهذه الموارد، وهو أن مقدار «مال الجهبذة» لمنطقة الموصل والزابين بلغ في أوائل القرن الرابع الهجري ١٠,٠٠٠ دينار سنوياً[٦٢] واستفاد أحد جهابذة الأهواز ٣٠,٠٠٠ درهم[٦٣].

والخلاصة، أن الجهبذ كان قبل كل شيء تاجراً، ثم صار صاحب بيت ماليّ وسّع أعماله فصار يشتغل بالتسليف أيضاً. ثم كان يشتغل منفرداً ولكن الطلبات الزائدة عليه جعلته يتشارك أحياناً مع غيره من الجهابذة. وخير خدمة يقدمها الجهبذ لمعامليه هي حفظ أموالهم. وقد كان لاخفاق مؤسسات الدولة المالية في سد حاجاتها

---

(٥٦) لعل المقصود بالتجار هنا جهابذة ابن الفرات، لأن مسكويه يسمي هؤلاء تجاراً. انظر مسكويه، ج ١، ص ٦٦.

(٥٧) مسكويه، ج ١، ص ٤٤.

(٥٨) أودع أحد الموظفين عند جهبذ ١٠٠,٠٠٠ دينار دون ذكرها في السجل. التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص١٠٣ ـ ٤.

(٥٩) الصابي ـ الوزراء، ص ٣٠٦ ـ ٧.

(٦٠) مسكويه، ج ١، ص ٣٩.

(٦١) الصابي ـ الوزراء، ص ٨٠ ـ ١، التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٢٦.

(٦٢) الصابي ـ الوزراء، ص ٢٥٥.

(٦٣) الجهشياري، ص ١١٤.

النقدية أثر كبير في توسيع أعمال الجهبذ، وسبب مباشر في إنشاء أول مصرف رسمي سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م.

ثانيا: الصيرفة

يرجع بدؤها إلى الدور البابلي. وقد اشتهر آل ايجيبي بأعمالهم الصيرفية التي بدأت عام ٦٨٥ ق.م. واستمرت حوالى أربعمئة سنة. وكانوا يقومون بالقروض والعقود التجارية والمالية والبيع بالنسيئة، والتحويل من مدينة إلى أخرى(٦٤). وكانت في المدائن في العهد الساساني أقلية مسيحية برعت في الصيرفة حتى صارت الواسطة الوحيدة بين فضة الفرس وذهب الرومان، واشتغلت بعقد القروض لتسهيل التجارة. ثم نقل هؤلاء المسيحيون مركزهم إلى الكوفة في العهد الإسلامي(٦٥). واشتغل الصيارفة في الكوفة بتحويل الدنانير إلى دراهم وبالعكس، وبحل مشكلة تنوّع جودة النقود من العملة الواحدة واختلاف أوزانها بصرف هذه الأنواع بعضها ببعض حسب حاجات أصحابها(٦٦). وكان لصيارفة الكوفة فضل كبير على تقدم فن الصيرفة في العراق(٦٧).

كانت المهمة الأولى للصراف تقييم النقود من حيث الجودة ووزنها، وهذا ما يتطلبه تعدد العملات واثر التداول على وزن النقود، وهي مهمة ضرورية للمعاملات التجارية. كما يقوم الصراف بتحويل النقود أو صرفها، لاغراض التجارة خاصة. ولم يكن سعر التحويل يعتمد على النقود وحدها، بل على حالة الأسواق والاعتبارات التجارية وسعر الذهب والفضة(٦٨).

ثم أدى توسع التجارة في العصر العباسي الثاني إلى توسع أعمال الصرافين. فأخذوا يشتغلون بالتسليف ويقبلون الودائع، ويتوسطون بين الناس و«دار الضرب» بأخذ الفضة والذهب من الناس لصكهما، دافعين لأصحابهما نقوداً تعادلها في القيمة الاسمية، وبهذا كانوا يستفيدون من الفرق بين القيمتين(٦٩).

---

(٦٤) يوسف غنيمة - «تجارة العراق» (بغداد ١٩٢٢) ص ١٩ - ٢١ و«يهود العراق» (بغداد ١٩٢٤) ص ٥٤ - ٧.

(٦٥) ماسنيون - خطط الكوفة، ص ٢٢ - ٢٣.

(٦٦) لسان العرب، ج ١١، ص ٩١ - ٢، أقرب الموارد (بيروت ١٨٨٩) ج ١، ص ٦٤٤.

(٦٧) ماسنيون - خطط الكوفة، ص ٢٤.

(٦٨) انظر Goitein, *Medit. Society*, I, pp. 230 ff.

(٦٩) ابن الأخوة - معالم القربة، ص ٦٨ - ٦٩.

تتضح أعمال الصراف من قصة يرويها التنوخي. اسلم رجل «رقعة» إلى صراف، فلما أوصلها إليه قال له الصراف: «يا سيدي أنت الرجل المسمى في التوقيع؟ فقلت: نعم. قال: انت تعلم أن أمثالنا يعاملون للفائدة، وربحنا أن نعطي في مثل هذا ما يكسر في كل دينار درهماً»[٧٠]. تبين هذه القصة أن الأمر النقدي على الصراف كان يدعى رقعة، وأن سعر الخصم كان درهماً في كل دينار، وأنها شخصية غير قابلة للتظهير، وغير محدودة بزمن[٧١].

وقد قام الصيارفة في القرن الرابع الهجري بخدمات جلّى للتجارة، فكانوا يسلفون الأموال للتجار ويتسلمون منهم الودائع ويسهلون تجارة الائتمان Commerce du crédit، وكان هذا بصورة خاصة في ميناء البصرة العظيم. يقول ناصر خسرو[٧٢]: «إن المعاملات التجارية في البصرة تجري كما يلي: كل من كانت له نفائس يودعها عند صراف، ويأخذ منه وصلاً بها. وعندما يشتري التاجر شيئاً يعطي حوالة على الصراف وهذا يصرفها. فكان التجار طيلة إقامتهم بالبصرة يتعاملون بالحوالات على الصيارفة»[٧٣]. ويضيف حافظ آبرو أن تجار الأقمشة والصيارفة وتجار الجملة كانوا يجتمعون في سوق خاصة من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى المساء للمفاوضة في القضايا التجارية ولتصفية الحسابات بينهم[٧٤]. وهكذا كان الصيارفة يسيطرون على السوق المالية ويسهلون الأعمال التجارية بقيامهم بعمل «غرف المقاصّة» في زماننا[٧٥]، ويخففون من مشكلة شح العملة المتداولة بحوالاتهم.

وكان الصيارفة يتعاملون مع الحكومة أيضاً ولكن بدرجة أقل من معاملاتهم مع الشعب. فمثلاً حاول أهل الأهواز رشوة أحد العمال لئلا يزيد الضرائب فرضي بذلك، «فسلّمت إليه رقاع الصيارفة بالمال»[٧٦]. لكن المصادر لا تذكر أنه كان للموظفين صيارفة خاصون، بل كانوا يتعاملون مع الصرافين كباقي الناس. يروي

---

(٧٠) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٠١، وكان زمن القصة سنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٢ م، ونسبة التبديل ١٣ درهماً في الدينار.

(٧١) انظر مسكويه، ج ٢، ص ٢٣٩ م ١.

(٧٢) كان ناصر خسرو في البصرة في شعبان ٤٤٣ هـ ـ كانون الأول ١٠٥١ م. انظر Browne, *A Literary Hist. of Persia*, Vol. II, p. 200.

(٧٣) ناصر خسرو ـ سفرنامه (الترجمة الفرنسية)، باعتناء (شفر)، باريس ١٨٨١)، ص ٢٣٦.

(٧٤) ن.م.، ص ٢٣٧، الهامش، كتب حافظ في القرن الخامس عشر الميلادي.

(٧٥) انظر الدكتور الرفاعي ـ الاقتصاد السياسي، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٨) ص ٥٦٩.

(٧٦) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ١٦١- ٢.

مسكويه أن سيف الدولة كان يتجول في بغداد سنة ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م، فأضافه بعض الشبان من بني خاقان دون أن يعرفوه، فكتب لهم عند خروجه رقعة بـ ١٠٠ دينار على صراف، فدفعت النقود عند تقديم الرقعة(٧٧). وأطرب أحد المغنين ناصر الدولة في بغداد سنة ٣٣١ هـ، فكتب له رقعة بـ ٥٠٠ دينار على أحد الصرافين(٧٨). وهكذا كان الصراف يسد الفراغ الذي يتركه الجهبذ.

أما مصدر أموال الصرّافين فكان بالدرجة الأولى من الودائع(٧٩). أودع أبو علي الخازن ٥٠,٠٠٠ دينار مع صراف(٨٠)، وأودع علي بن عيسى ١٧,٠٠٠ دينار مع صراف آخر(٨١). ثم إن معاملاتهم النقدية، (الاقراض والصرف) كانت تجلب لهم أرباحاً كبيرة لكثرة الفائض الذي يأخذونه(٨٢). فعندما كان ناصر الدولة الحمداني أمير الأمراء في بغداد (٣٣٠ - ٣٣١ هـ/ ٩٤١ - ٩٤٢ م) «بلغه... أن الصيارفة يربون رباً ظاهراً، فأحضرهم وحذرهم وأحلفهم فتحسن... أمرهم قليلاً»(٨٣). فلا غرابة ان كان عند الصرافين رؤوس أموال طائلة. ذكر الرشيد ليحيى البرمكي أن والي خراسان أرسل إليه عشرة ملايين درهم، وأن الفضل بن يحيى لم يرسل مثلها في ولايته، فأجاب يحيى أن النقود أخذت ظلماً وأضاف: «ولو قصدت لدرب من دروب الصيارفة بالكرخ لوجدت فيه أضعاف هذه»(٨٤).

وكان الصيارفة يفيدون من الودائع لأغراض صرف العملات مقابل فائدة، ولاصدار سفاتج مقابل أجور، وللاقراض أو التسليف. ويشترك الجهبذ مع الصراف في العمليتين الأخيرتين، كما يفيد من النقد المودع لديه في المضاربة أو في المساهمة في الشركات(٨٥).

كان أغلب الصيارفة في أواخر القرن الثالث الهجري مسيحيين(٨٦)، ولكن

---

(٧٧) مسكويه، ج ٢، ص ٢٣٩ م ١.
(٧٨) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٠٣.
(٧٩) ناصر خسرو - سفرنامه، ص ٢٣٦.
(٨٠) مسكويه، ج ٢، ص ١٨٨.
(٨١) الصابي - الوزراء، ص ٢٩١.
(٨٢) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٠٤.
(٨٣) الصولي - أخبار الراضي والمتقي بالله، ص ٢٣١.
(٨٤) الجهشياري، ص ٢٢٨.
(٨٥) انظر أيضاً Goitein, *op. cit.*, I, pp. 247 - 8.
(٨٦) قال الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٧٠ م) في «الرد على النصارى»، ص ١٧ «مما عظم النصارى في قلوب العوام... ان منهم كتاب السلاطين... وأطباء الاشراف، والصيارفة».

اليهود بدأوا يزاحمونهم في هذه المهنة[٨٧]، كما كان بعض الصيارفة من المسلمين[٨٨]. وكان للصيارفة محلة خاصة في الكرخ تدعى «درب عون»[٨٩].

والخلاصة إن الصيرفة قامت بدور مهم في الحياة الاقتصادية في القرن الرابع الهجري، إذ كان الصيارفة يشتغلون بالتسليف والاقراض، ويتوسطون بين الناس و«دار الضرب»، ويقبلون الودائع بالإضافة إلى صرف النقود. وقد شجعوا التجارة باشتغالهم بما تقوم به «غرف المقاصة» الآن، وبتسهيلهم معاملات الائتمان، وكانوا من أصحاب المهن الحرة يتعاملون مع الشعب على الأكثر.

وأخيراً، إذا كان تعريف البنوك بأنها «محلات تجارية مهمتها الاتجار في المعادن النفيسة والنقود والسندات الممثلة للنقود، وهي صلة بين أصحاب رؤوس الأموال وبين من تعوزهم تلك الأموال، وبعبارة أخرى تقوم البنوك بتجارة الائتمان»[٩٠]، وجدنا أن الصرافين كانوا يقومون بكل هذه الخدمات، ويصحّ أن نسمي بيوتهم المالية بنوكاً.

ثالثاً: السفتجة

وهي أهم أداة للمعاملات المستندة إلى الائتمان[٩١]. ويقصد بها «أن يُعطى (رجل) مالاً لآخر وللآخذ مال في بلد المُعطي، فيوفيه أياه ثَمّ (أي هناك) فيستفيد أمن الطريق»[٩٢]. أي أنها أوجدت كوسيلة لتجنب أخطار المواصلات، وكانت تجري باتفاق فردي[٩٣].

---

(٨٧) قال المقدسي عن الشام «وأكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بهذا الاقليم يهود»، ص ٢٨٣.

(٨٨) ابن الأخوة - معالم القربة، ص ٦٨ - ٩.

(٨٩) مسكويه، ج ١، ص ٢٤٧، ج ٢، ص ١٨٨ وص ٢٣٩ م ١، التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٠٤، وج ٢ قصة رقم ٧٢، ص ١٨٦.

(٩٠) الدكتور الرفاعي - الاقتصاد السياسي، ج ١، ص ٧٢٢.

(٩١) لعل استعمال السفتجة بدأ بـ «ان يأخذ الرجل الدراهم والدنانير فيعطيها صاحبه ويقول: احملها لي معك لأمن طريقك أو لمنعتك إلى بلد كذا فادفعها إليّ ثَمّ»؛ الشريشي - شرح مقامات الحريري (القاهرة ١٣١٤ هـ) ج ٢، ص ٢٩٣.

(٩٢) لسان العرب، ج ٣، ص ١٢٣، تاج العروس، ج ٢، ص ٥٨، القاموس المحيط، ج ١، ص ١٩٤، مجمع البحرين، ص ١٥٥. ويذكر تاج العروس أن أصل الكلمة فارسي وهو (سفته). انظر شفاء الغليل للخفاجي، ص ١٢٨ - ٩.

(٩٣) توجد اشارة للسفاتج زمن المنصور. الجهشياري، ص ٨٩، وص ١٠٩ - ١١٠.

ثم لوحظت أهمية السفتجة في التحويل فشاع استعمالها في القرن الرابع الهجري حتى صارت عاملاً مهماً في الحياة الاقتصادية. فأخذ الولاة يرسلون ما زاد من دخل ولاياتهم إلى بغداد بسفاتج[٩٤]. ففي سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م، أرسل والي مصر والشام سفاتج بـ ١٤٧,٠٠٠ دينار[٩٥]، وأرسل آخر سفاتج بـ ٨٠,٠٠٠ دينار، وثالث بـ ٤٠٠,٠٠٠ دينار بالطريقة نفسها[٩٦]. ولم تكن السفتجة أقل شيوعاً بين أفراد الشعب. يروي التنوخي أن امرأة استلمت من زوجها ـ بعد غياب طويل ـ سفتجة بـ ٢٠٠ دينار[٩٧]. وتوفي رجل بالدينور تاركاً ثلثي ثروته إلى ابن عم له في بغداد، فباع صديق للمتوفى بعض الارث وأرسل للوارث «سفتجة بالثلثين من ذلك مبلغها ٧٠٠ دينار»[٩٨].

أما أهم فائدة للسفتجة فهي استعمالها من قبل التجار لتصفية حساباتهم بين الأقطار المختلفة بكتابة السفاتج على وكلائهم[٩٩]. فكانوا أحياناً يرسلون رسلاً خاصين لحمل السفاتج. قال رجل قادم بكتب من الدينور إلى بغداد، أن لديه خطاباً لشخص «فيه سفتجة بمال، وبسبب هذا الكتاب من دون جميع ما معي استؤجرت وخرجت من الدينور»[١٠٠].

واستعملت السفتجة أيضاً لتسوية الديون في المعاملات التجارية في القطر نفسه، فمثلاً أرسل رجل من الأهواز إلى العامل سفتجة بألف دينار مع أنهما كانا في الأهواز[١٠١]. وأصبح بالإمكان إرسال أية كمية من النقود في أي وقت بسفاتج. يحدثنا التنوخي على لسان رجل وجد في بركة ٧,٠٠٠ دينار، أنه قال: «خرجت فأخذت بالمال سفاتج... وأنفذت الغلام بالسفاتج إلى بغداد»[١٠٢].

وكانت السفاتج تسحب عادة على الصرافين والتجار والباعة. قال ابن الفرات للمادرائي عامل مصر في مناظرة له: «أما أن يكون حملك المال (أي باقي الخراج) مع

---

(٩٤) مسكويه، ج ١، ص ٤٣، وص ١٤٦، الصابي، ص ٨١.
(٩٥) مسكويه، ج ١، ص ١٤٦.
(٩٦) مسكويه، ج ١، ص ١٥٠.
(٩٧) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٣٣.
(٩٨) ن.م.، ج ٢، ص ٣٠.
(٩٩) انظر شفاء الغليل للخفاجي، ص ١٣٨ ـ ٩، تاج العروس، ج ١، ص ٥٩.
(١٠٠) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٢٩ـ ٣٠.
(١٠١) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٠٣ـ ١٠٤.
(١٠٢) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٣٠.

رسل أو بسفاتج تجار على تجار»[١٠٣]. واستلم بغدادي سفتجة «على تاجر في دار القطن بالكرخ»[١٠٤].

وكان لكل سفتجة موعد لاستحقاقها. فكانت السفاتج الواردة من الولاة إلى الوزير تحفظ حتى يحين موعد صرفها[١٠٥]. واستلم بغدادي سفتجة «بأجل أربعين يوماً على تاجر»[١٠٦]. ويروي التنوخي على لسان دقاق بصري: «أورد عليّ رجل غريب سفتجة بأجل»[١٠٧]. فإن صرفت السفتجة حين استحقاقها دفعت قيمتها كاملة[١٠٨]، وإن صرفت قبل حلول الموعد خصمت منها نسبة معيّنة. فكان علي بن عيسى يدفع (سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م) دانقاً ونصف دانق في كل دينار أو ما يساوي ١/ ٦٠[١٠٩]. ويمكن لصاحب السفتجة أخذ النقود دفعة واحدة أو بأقساط[١١٠]. ولا يبدو أن السفاتج قابلة للتحويل لغير صاحبها[١١١].

ثم استعملت السفتجة كاستعمال صكوك المسافرين Travellers cheques، في الوقت الحاضر. يروي التنوخي عن شخص قال: «وخرجت أنا تحت الليل بمرقعة راكباً حماراً ومعي غلامان من غلماني ودليل، وليس معي شيء من الدنيا إلاّ سفاتج بخمسة آلاف دينار»[١١٢]. ويحدثنا على لسان دقاق بالبصرة: «أورد على رجل غريب سفتجة بأجل، فكان يتردد إلى أن حلّت، ثم قال: أدعها عندك وآخذها متفرقة. فكان يجيء في كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نفدت»[١١٣].

وتبيّن هذه القصص بصورة عامة ضمان السفتجة الذي شجّع الناس على تحويل الدراهم، حتى صار يضرب بذلك المثل[١١٤].

---

(١٠٣) الصابي - الوزراء، ص ٩٣.
(١٠٤) التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٣٠.
(١٠٥) الصابي - الوزراء، ص ٨١.
(١٠٦) التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٣٠.
(١٠٧) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ١٣١.
(١٠٨) ن.م.، وص.
(١٠٩) الصابي - الوزراء، ص ٨١. كان كل درهم = ٦ دوانيق وكل دينار = ١٥ درهماً آنئذ.
(١١٠) انظر التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ١٣١.
(١١١) انظر Goitein, *Medit. Society*, I, p. 241 ff.
(١١٢) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٠٤.
(١١٣) ن.م.، ج ٨، ص ١٣١.
(١١٤) انظر شرح مقامات الحريري للشريشي، ج ٢، ص ٢٩٣، أقرب الموارد، ج ١، ص ٥١٩.

وأخيراً نقول إن السفتجة هي الكمبيالة La Lettre de change في مبناها واستعمالها[١١٥].

رابعاً: الصك

هو الوسيلة الثانية من وسائل الائتمان. وهو أمر خطي بدفع مقدار من النقود إلى الشخص المسمى فيه. وهي كلمة فارسية معربة والأصل (جك) ولا يزال أثرها حتى عصرنا هذا في كلمة Chèque[١١٦].

توجد اشارات قليلة إلى استعمال الصك في أوائل الإسلام إذ كانت الأرزاق والرواتب تدفع أحياناً بصكوك[١١٧]. يقول اليعقوبي[١١٨]: «إن عمر بن الخطاب (ر) كان أول من صكّ وختم أسفل الصكاك». واشترى يزيد بن المهلّب مؤناً، وكتب صكاً للبائع بالثمن[١١٩]. وتوسل الفضل بن يحيى البرمكي إلى الرشيد أن يعطي محمد بن ابراهيم الإمام ١٠٠,٠٠٠ درهم، فلما وافق الرشيد شكره الفضل وسأله «أن يصك بها صكاً بخطه»[١٢٠]. واشترى الفضل بن يحيى ضيعة بـ ٢٠٠,٠٠٠ درهم وأرسل إلى صاحبها صكاً بالثمن[١٢١].

ثم تكثر الإشارة إلى استعمال الصك في القرن الرابع الهجري، فكان يستعمل في الدوائر الحكومية، لدفع رواتب الجيش بصورة خاصة[١٢٢]. يذكر الصابي أن أبا الحسن بن الفرات، كاتب ديوان الخراج في زمن المكتفي، انتقد محمد بن داود «وهو يتولى عطاء الجيش فيما يطلقه بغير صك» فأمر الوزير «صاحب بيت المال بأن لا يطلق شيئاً في اعطاء وانفاق إلا ما عرفه أبو الحسن وأثبت علامته على الصكاك»[١٢٣]. وكانت الصكوك تستعمل أيضاً لدفع الرواتب الأخرى، ولذا يعرّف الخوارزمي

---

(١١٥) انظر الدكتور الرفاعي ـ الاقتصاد السياسي، ج ١، ص ٥٦١.

(١١٦) لسان العرب، ج ١٢، ص ٣٣٤، دائرة المعارف العربية للبستاني، ج ١٠، ص ٧٤٥، شفاء الغليل، ص ١٤١، المعرب للجواليقي (القاهرة ١٣٦١)، ص ٣١٢.

(١١٧) لسان العرب، ج ١٢، ص ٣٣٤.

(١١٨) تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ١٢٢ ـ ٣ (طبعة النجف).

(١١٩) العيون والحدائق، ج ٣ (طبعة دي خويه)، ص ٢٠.

(١٢٠) الجهشياري، ص ١٩٦.

(١٢١) ن.م.، ص ٢١٤ ـ ٥.

(١٢٢) مسكويه، ج ٣، ص ٤٦، الصابي ـ الوزراء، ص ٢٣٥.

(١٢٣) الصابي ـ الوزراء، ص ٢٣٥ ـ ٦.

(الصك) بأنه «عمل يعمل لكل طمع يجمع فيه أسامي المستحقين وعدتهم ومبلغ ما لهم ويوقّع السلطان في آخره بإطلاق الرزق لهم»[١٢٤].

ثم اتسع استعمال الصك وتعدى دوائر الحكومة إلى الشعب. أراد ابن الفرات مساعدة ابن أبي البغل فكتب له صكاً بـ ٣,٠٠٠ درهم على شخص معين[١٢٥]. و«صكّ» سليمان ابن الحسن بن مخلد كاتب بيت المال على «متولي نفقته» صكوكاً بـ ١٦٠٠ دينار في يوم واحد[١٢٦].

كانت الصكوك تكتب أحياناً على بيت المال[١٢٧]. ولكن أكثرها كان يكتب على الجهابذة. يروي التنوخي على لسان شخص، يصف الطريقة التي يتبعها عامل الأهواز لدفع الرواتب والنفقات، أنه بعد جمع الضرائب «يحصل المال عند الجهبذ، فتخرج إليه الصكاك من ديوانك وبعلاماتك»[١٢٨]. وفي سنة ٣١٥ هـ، وجد البريدي دراهم كانت لابن أبي السلاسل مع جهبذه «فأخذها ووافقه على أن يصك بما كان عند الجهبذ بنفقات باطلة»[١٢٩]. ويقول مسكويه «وقرأت... صكاً على الجهبذ... الخ»[١٣٠].

واستعملت الصكوك لمختلف المدفوعات حتى الكميات القليلة. يشير مسكويه (تحت سنة ٣٣٢ هـ/ ٩٤٤ م) إلى صك على الجهبذ «بثمن بواري ونفط اشتريت بتسعة دراهم»[١٣١]. وكانت الصكوك تكتب وتصرف في المدينة نفسها.

وهناك معنى آخر لكلمة صك، إذ كانت تطلق على «سند الدين»، وفي هذه الحالة كان يلزم تصديقه من قبل شهود. يقول ابن حوقل: «ولقد رأيت صكاً كتب بدين، على محمد بن سعدون بأودغشت (مراكش)، وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار»[١٣٢].

---

(١٢٤) الخوارزمي ـ مفاتيح العلوم، ص ٣٨.
(١٢٥) الصابي ـ الوزراء، ص ٧٣.
(١٢٦) ن.م.، ص ٧٧ ـ ٨.
(١٢٧) مسكويه، ج ٣، ص ٤٦١، الصابي ـ الوزراء، ص ٢٣٥ ـ ٦.
(١٢٨) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٠٩.
(١٢٩) مسكويه، ج ١، ص ١٥٨.
(١٣٠) ن.م.، ج ٢، ص ٨٠.
(١٣١) ن.م.، وص.
(١٣٢) ابن حوقل (ك) ج ١، ص ٦١ وص ٩٩، الجاحظ ـ البخلاء، ص ٢٣٦، الشيباني ـ كتاب المخارج في الحيل، ص ١٧٨ وفيه نصوص تبين صيغة هذا الصك.

وبعد هذا العرض المجمل للموضوع نتساءل فيما إذا كان نظام الجهبذة والصيرفة يسد حاجات المجتمع الذي نشأ فيه.

لقد خدم نظام الصيرفة طبقتين بصورة خاصة، وهما: طبقة الموظفين، وطبقة التجار. فالصرافون كانوا يزّودون التجار برؤوس الأموال، ويسهلون لهم تجارة الائتمان، كما أن الحوالات عليهم جعلت المعاملات منتظمة وسريعة. بينما كانت السفاتج وسيلة لتسوية المعاملات بين مختلف المدن والأقطار.

وكان في ازدياد فعالية الجهابذة عامل مهم في تسديد طلبات الموظفين الكبار من تسليف إلى ايداع. وبإنشاء مصرف رسمي أنقذت الدولة موقتاً من الخراب المالي. كما انتفع الفلاحون بصورة غير مباشرة من الجهابذة، لأن الحكومة كانت تسلف الزرّاع المحتاجين. وبصورة عامة سد نظام الصيرفة حاجات كثيرة، وكان في الحقيقة نتيجة الظروف المالية التي نشأ فيها.

الفصل السادس

الضرائب

مقدمة

هناك تباين بين آراء الفقهاء في الضرائب وبين نظام الضرائب، نتيجة الظروف التاريخية. فآراء الفقهاء جاءت تالية للتدابير وللتنظيمات العملية، وكان موقفهم منها يتباين بين قبول لبعضها كسوابق وبين تقييد للبعض الآخر وتجاهل أو رفض لمجموعة ثالثة، كل ذلك في سعيهم لوضع أسس فقهية. وهذا يوضح اختلاف الفقهاء في الرأي وطبيعة الكتب الأولى التي تتناول الضرائب، إذ إنها قبل كل شيء سجل لتنظيمات وتدابير فردية مع آراء وتعليقات، دون النظر إلى التدرج والتطور التاريخي.

ثم إن الأصول الأولى للفقهاء، وهي تدابير الرسول والخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز، كانت في نطاق القرن الأول الهجري وتتصل بظروف المجتمع الإسلامي الأول، مما جعل النظرة إلى التطورات التالية في الضرائب مشوبة بالحذر والتشكيك. فلم يقر الفقهاء من موارد الجباية إلا الغنائم (وخمس المعادن والركاز) والزكاة (والصدقات والعشر) والجزية والخراج والعشور.

ومع ذلك فإن كتب الفقه تحوي مادة تاريخية لها قيمتها أثناء استعراضها للسوابق، وفي نقدها لبعض التدابير أو رفضها لها. كما ان مقارنة هذه الكتب ببعضها من فترات متتالية، ودراستها مع كتب التاريخ، تساعد على ملاحظة التطور في نظام الضرائب.

وضع نظام الضرائب الأول زمن عمر بن الخطاب، ونظراً إلى اختلاف التراث الإداري المحلي، ساساني وبيزنطي، فقد اتخذت لكل ولاية تدابير ضريبية خاصة. ولم

يتأثر نظام عمر بالإرث المحلي وحده، بل إن عمر أفاد من السوابق الإسلامية (مثلاً: تدابير الرسول في الزكاة، وفي الجزية ـ فردية وجماعية، وفي اعتبار الأراضي العربية عشرية، وفي جعل الحمى لأغراض الدولة، وإباحة الماء والكلأ والنار). ورجع عمر إلى المبادىء الإسلامية (مثل عدم تقسيم الأراضي واعتبارها فيئاً للأمة، واعتبار العقيدة أساساً لفرض الجزية أو الغائها). وألغى عمر الأوضاع الخاصة والامتيازات الضريبية المحلية السابقة. ومع أنه أبقى أطر التنظيمات المحلية إلا أن هذه بسطت وزيدت كفاءتها فصارت الضرائب تدفع إلى الإدارة مباشرة أو إلى أشخاص محليين (مثل الدهاقين في الولايات الشرقية، وعمد القرى ورؤسائها في مصر) يعملون بإشرافها.

ويبدو بعض التداخل في استعمال كلمتي «جزية» و«خراج» في الولايات، ولم يكن ذلك نتيجة ارتباك في ماهية الضرائب بل كان ذلك من رواسب الإرث المحلي. فقد كانت كلمة «خراج» تستعمل في بعض الولايات الشرقية (مثل ايران) بمعنى الجزية الجماعية المفروضة على منطقة أو مدينة في العصر الساساني قبل أنوشروان[1]، كما كانت تعني ضريبة الأرض. وكانت كلمة «جزية»، في مصر تستعمل لمجموع الوارد من الضرائب في القرى التي يتولى رؤساؤها جمع الضرائب[2]، بينما استعملت بمعنى ضريبة الرأس حيث كانت الضرائب تجبى مباشرة من قبل الإدارة كما في منطقة الاسكندرية.

ومن حيث المسؤولية كان دخول الإسلام يعفي من الجزية ولكنه لا يعفي من الخراج[3]. إلا أن العرب المسلمين كانوا لا يدفعون إلا العشر على الأراضي التي يحصلون عليها بالإقطاع أو بالشراء أو بغير ذلك[4].

وهكذا يتبين انه فرضت في الولايات كافة، منذ زمن عمر، ضريبتان، الأولى على الرؤوس، والثانية على الأرض (جزية وخراج).

وحصلت تطورات في العصر الأموي أهمها الاتجاه نحو تكوين نظام ضريبي

---

(١) انظر الخوارزمي ـ مفاتيح العلوم، ص ٥٩، Bosworth, *JESHO*, XII, 1969, p. 136، الطبري، س ١، ص ١٦٨٩، اليعقوبي، ج ١، ص ٢٠٧.

(٢) ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر، ص ١٥٢ وص ١٥٤، المقريزي ـ الخطط، ج ١، ص ٧٧.

(٣) الطبري، س ٢، ص ١١٢٢ ـ ٣، البلاذري ـ انساب (مخطوط استانبول)، ق ٢، ص ١٢٥٨ وص ١٤١.

(٤) البلاذري ـ فتوح (ط. دي خويه)، ص ٣٦٨، ابن عساكر ـ تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٨٧ ـ ٨، انظر الدوري ـ نظام الضرائب في صدر الإسلام، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ٢، م ٤٩، ١٩٧٤.

منسق في الولايات. واجهت الخلافة أزمة مالية زمن عبد الملك، فحاول إعادة النظر في وضع الضرائب. بدأ بالجزيرة وكانت الجزية فيها نقدية في المدن وعلى ثلاث درجات، بينما كانت في الريف على درجة واحدة وبالنقد والنوع - ديناراً ومقادير من الحبوب والخل والزيت - فأعاد النظر فيها في الريف وجعلها نقدية، أربعة دنانير على كل فرد. وأعيد فرض الجزية على المسلمين الجدد في الولايات (لا في العراق وحده)[٥]. وأعيد فرض الخراج على بعض الأراضي الخراجية التي امتلكها عرب وصيروها عشرية. وقام عبد الملك بتعريب الدواوين المالية مما مكّن في ما بعد من قيام نظام عربي ضريبي موحد. وكان من أسباب إصلاحه لنظام النقد مشكلة ضريبية إذ انه أراد أن يتخطى مشكلة تنوع الدراهم في الجباية بوضع درهم مناسب[٦]. واثارت بعض هذه التدابير ضجة بين العرب والموالي، اضافة إلى أن عودة أساليب الجباية المحلية القديمة وما يرافقها من رسوم اضافية[٧] أدت إلى بعض الاستياء.

وجاء عمر بن عبد العزيز فأكد اعفاء من يسلم من الجزية واستمرار وضع الخراج على الأرض الخراجية[٨] بمنع بيع هذه الأرض (للعرب)، كما ألغى الرسوم الإضافية، وحاول تحسين أساليب الجباية[٩]. ومع ما لقيت تدابيره من إهمال أو تجاهل بعده فإن نظرته إلى أرض الخراج، وعدم إمكان ايقاف الشراء، أدت إلى أن يفرض الخراج (ربما زمن هشام) على الأرض الخراجية بصرف النظر عن مالكها من عربي وغير عربي، وتعززت فكرة اعفاء المسلمين من الجزية قبل انتهاء العصر الأموي، وما جاء العباسيون حتى استقر نظام واحد للضرائب.

حاول العباسيون في عصر الأول اعادة النظر في بعض الضرائب وفي أساليب الجباية، والتأكيد على المبادىء الإسلامية، ووضعت لهم كتب في الخراج، أولهما من

(٥) الطبري، س ٢، ص ١٢٠٩، ص ١١٢٢، ص ١٤٣٥؛ البلاذري - أنساب (مخطوط)، ق ٢، ص ١٢٣٢، اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٦٢، ابن سعد - الطبقات، ج ٥، ص ٢٥٤، المقريزي - الخطط، ج ١، ص ٧٨.

(٦) أبو هلال العسكري - كتاب الأوائل، ص ٢٣٨، المقريزي - اغاثة (ط. ٢)، ص ٥٥ - ٦٠.

(٧) انظر تاريخ الخلفاء، ص ٣٦٢، الطبري، س ٢، ص ١٣٦٦ - ٧، أبو عبيد، ص ٦٤ - ٥، أبو يوسف - الخراج (ط. بولاق)، ص ٤٩، البلاذري - انساب (مخطوط)، ق ٢، ص ١٣٧ وص ١٣٩.

(٨) ابن عساكر - دمشق، ج ١، ص ٥٨٧، ص ٥٩٦، ابن عبد الحكم - سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٩٩، ابن سعد، ج ٥، ص ٢٧٧.

(٩) البلاذري - أنساب (مخطوط)، ق ٢، ص ١٤١، ابن سعد، ج ٥، ص ٢٧٦، ص ٢٨٣، ابن عبد الحكم - سيرة، ص ١٦٠، اليعقوبي - التاريخ، ج ٢، ص ٢١٦.

قبل وزير قدير (أبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله الكاتب) للمهدي[١٠] (١٥٨ - ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ - ٧٨٥ م)، وثانيهما من قبل فقيه مشهور (أبي يوسف) للرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨ م) وذلك لرسم الأسس والمبادىء السليمة[١١]. وجرت محاولات للتخفيف من الخراج ولإصلاح أساليب الجباية، ومع ذلك فقد استمرت الأساليب التقليدية في الجباية، وحصلت تطورات في الضرائب، وفرضت رسوم وضرائب جديدة في ما بعد[١٢].

أولاً: نظام الضرائب في الفقه

ولعلّ اعطاء خلاصة مركزة لآراء الفقهاء البارزين، تعرض وفق الخطة التي وضعها الصولي (المتوفى سنة ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م)، تكفينا هنا كإطار نظري لدراسة نظام الضرائب الذي طبقه العباسيون. كان الصولي من حاشية الراضي والمتقي بالله، وقد صنّف مصادر الجباية بطريقة سهلة واضحة لفائدة كتّاب الدواوين[١٣]. ولكتاب الصولي أهمية خاصة، لأهمية عصره (القرن الرابع الهجري) وموطنه (العراق)، ولأنه لم يكن كاتباً نظرياً، بل كان له اطلاع واسع ودقيق على شؤون الدولة.

كانت الدولة، بنظر الفقهاء، تستقي مواردها من المصادر الآتية:

١ ــ (الفيء)

وهو ما يؤخذ من المشركين دون قتال[١٤]. ويشمل الفيء ثلاث ضرائب:

---

(١٠) لم يصل كتاب أبي عبيد الله في الخراج وقد أخذ منه قدامة في موضعين من كتابه «الخراج». انظر المخطوط ورقة ٨٨ ب - ٨٩ ب، وورقة ٩٩ ب - ١٠٠ أ.

(١١) كتب الكثير في نظام الضرائب ويكفي أن نشير إلى: زيدان - التمدن الإسلامي، ج ٢، الدوري - النظم الإسلامية، ج ١، الريس - الخراج، آدم متز - الحضارة الإسلامية.

Van Berchem, *L'Impôt Foncier; Aghnides Muhammadan Theories of Finance;* von Kremer, *The Orient under the Caliphs,* Caetani-Annali, vol. V; Becker, *Islam Studien;* Wellhausen, *The Arab Kingdom;* Dennett, *Conversion and polltax;* Lokkegaard, *Islamic Taxation;* E.I. 1, articles: Zaka, Fay; Ghanima, *'ushr;* Egypt; E.I. 2, Djizya, Fay.

(١٢) عن القرنين الثاني والثالث للهجرة، انظر الدوري - العصر العباسي الأول، ص ٢٦١ وما بعدها،
H. Samarraie, *Agriculture in Iraq in the 3rd cent.,* A.H. p. 146 ff.

(١٣) الصولي - أدب الكتّاب، ص ١٩٨ - ٢٠٤. ولم يذكر الصولي الضرائب غير المشروعة، ولعله رأى أن ذلك ليس من مصلحة الدولة، أو لأنه اعتبرها بدعاً مالية لا أساس لها في الشرع.

(١٤) أبو يعلى - الأحكام السلطانية، ص ١٢٠، الماوردي، ص ١٢٢، يحيى بن آدم، ص ٦.

أ ـ الخراج

وهو ضريبة تجبى على ثلاث أصناف من الأراضي: ١) الأراضي التي فتحت عنوةً ثم جعلت وقفاً للمسلمين. ويتفق الفقهاء على جعل السواد في هذا الصنف[١٥]. ٢) أراضي تخلى عنها أصحابها خلال فترة الفتوحات فانتقلت إلى المسلمين. ويبقى هذا الصنف من الأراضي مع الصنف السابق أراضي خراج. ويعتبر الخراج المفروض على الأرض إيجاراً لها، يدفعه الزارع سواء أكان مسلماً أم غير مسلم[١٦]. ٣) الأراضي التي خضعت للمسلمين صلحاً، أو (أرض الصلح) وهذه إما أن تنتقل ملكيتها ـ حسب شروط الصلح ـ إلى المسلمين فتصير وقفاً دائماً لهم، أو تبقى ملكاً لأصحابها، وفي الحالة الثانية تعفى من الخراج متى أسلم أصحابها[١٧]. وتدخل بعض أراضي السواد، مثل سواد الحيرة، في هذا الصنف[١٨].

أما تقدير الخراج، فيترك إلى رأي الإمام، بعد أن تؤخذ قابلية الأرض بعين الاعتبار. ويتوقف مقدار الخراج على خصب التربة ونوع الحاصل، ونوع السقي ـ طبيعياً أو صناعياً ـ ويضيف بعضهم إلى ذلك، البعد عن الأسواق. ويراعى في وضع الضريبة «العدل فيما بين أهلها وأهل الفيء، من غير زيادة تجحف بأهل الخراج، ولا نقصان يضر بأهل الفيء». ويلزم معاملة أهل الخراج باللطف وارجائهم في حالة عجزهم عن الدفع[١٩].

ويجبى الخراج بطريقة من الطرق الثلاثة التالية:

---

(١٥) أبو يعلى، ص ١٣٠ ـ ١٣١، الطبري ـ اختلاف الفقهاء، ص ٢١٨ ـ ٢٢٢، الماوردي، ص ١٣٢، أبو عبيد ـ الأموال رقم ١٤١ ـ ١٧١، يحيى بن آدم، ص ٦ ـ ٨ وص ٣٢. Shaibânî, *Siyar;* Khaddûrî, *Islamic Law of Nations*, p. 270.

(١٦) أبو يعلى، ص ١٣٢، الطبري ـ اختلاف الفقهاء، ص ٢٢٤، الماوردي، ص ١٣٣، يحيى بن آدم، ص ١٠، أبو عبيد رقم ٢٣١ ـ ٢٥٨.

Shaibânî, *Siyar*, p. 273.

(١٧) أبو يعلى، ص ١٣٢ ـ ٣، يحيى بن آدم، ص ٣٣، الماوردي، ص ١٣٣.

(١٨) يحيى بن آدم، ص ٣٥ وص ٣٦.

(١٩) الماوردي، ص ١٤٣ ـ ٤ وص ١٤٧، أبو يعلى، ص ١٥١ وص ١٥٦، أبو عبيد رقم ١٤١٠ ـ ١٤٢١ ورقم ١٨١، يحيى بن آدم، ص ٥٦، الطبري ـ اختلاف الفقهاء، ص ٢٣٢، أبو يوسف، ص ١٥٠؛ Shaibânî, *Siyar*, p. 270, p. 271 ويضيف الشيباني أن مالك أرض الخراج إن عجز عن زرعها أو أهملها أو تركها، فللامام أن يأخذها منه ويعطيها لمن يرغب في زراعتها، ص ٢٧٠ (رقم ١٦٩٩). وانظر قدامة ـ الخراج ص ١٣٣، (Ben Shemesh, *Taxation*, II).

(١) بفرضه على وحدة المساحة من الأرض الزراعية، كما فعل عمر بن الخطاب في السواد. (٢) بفرضه على وحدة المساحة من الأرض المزروعة. (٣) بأخذ نسبة معيّنة من الحاصل، أي بالمقاسمة[٢٠].

ب ـــ الجزية

وتؤخذ من أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى، و«ممن له شبهة كتاب» كالمجوس[٢١]. وتجبى مرة واحدة في السنة من العقلاء الأحرار، البالغين من الذكور[٢٢].

ويختلف الفقهاء في تقدير الجزية، فيجعلها أبو حنيفة ثلاث درجات: ٤٨ درهماً على الموسرين، و٢٤ درهماً على المتوسطي الحال، و١٢ درهماً على الفقراء. ويترك مالك تقدير الجزية إلى الإمام دون تحديد. أما الشافعي فيجعل الحد الأدنى اثني عشر درهماً، ويترك ما فوق ذلك إلى الامام. ويتفق مالك والشافعي على أنه متى عيّن مقدار الجزية، فلا يمكن تبديله، وتجب معاملة أهل الجزية باللطف، وأن لا يحملوا فوق طاقتهم[٢٣].

وتوجد حالة خاصة من الجزية، وهي «الصدقة المضاعفة» التي فرضت على قبيلة تغلب المسيحية في العراق[٢٤].

ج ـــ الضرائب على تجار المشركين

وهي على نوعين:

---

(٢٠) الماوردي، ص ١٤٤ ـ ٥، أبو يعلى، ص ١٥٢، الطبري ـ اختلاف الفقهاء، ص ٢٢٣، Shaibânî, *Siyar*, p. 270, p. 271, (no. 1690).

(٢١) الماوردي، ص ١٣٩، الطبري ـ اختلاف الفقهاء، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣، أبو يعلى، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ وص ١٤٤.

(٢٢) ويرى الطبري أن تكون حالتهم المالية حسنة، ويستثني أبو يعلى الفقراء والشيوخ. وانظر أبو عبيد رقم ١٢٢ ـ ٧.

(٢٣) الماوردي، ص ١٣٩، أبو يعلى، ص ١٣٩، ص ١١١ ـ ١١٢، يحيى بن آدم، ص ٢٧، ص ٥٣ وما بعدها، أبو يوسف، ص ١٢٢ ـ ٤، الطبري ـ اختلاف الفقهاء، ص ٢٠٩ ـ ٢١١، أبو عبيد رقم ١٠٠ ـ ١٠٩. ويعطي الشيباني تفاصيل ادق. فهو يرى اعفاء العميان والمرضى المزمنين والعجزة ومن ليست له قدرة على الدفع. وبعد هذا فإن العميان والمرضى المزمنين والمعتوهين لا تفرض عليهم الجزية وإن كانوا أغنياء. ومن جهة أخرى فإن القسس والرهبان تجب عليهم الجزية ان كانت لديهم أملاك. Shaibânî, *Siyar*, nos. 1704, 1706, p. 276.

(٢٤) يحيى بن آدم، ص ٤٧، أبو يعلى، ص ١٣٩، انظر الماوردي، ص ١٣٨، وأبو عبيد، ص ٥٤٠ وما بعدها.

(١) الضريبة التي تفرض على تجار أهل الذمّة وتبلغ ١/٢٠ من قيمة بضائعهم. وتجبى مرة في السنة، متى تجاوزت قيمة البضائع مئتي درهم[٢٥].

(٢) الضريبة التي تفرض على التجار المشركين القادمين من خارج البلاد الإسلامية، وتبلغ عشر قيمة بضائعهم، إن زادت القيمة على مئتي درهم[٢٦].

٢ ـ (الخمس)

ويؤخذ من:

أ ـ الركاز

«وهو كل مال وجد مدفوناً من ضرب الجاهلية»[٢٧].

ب ـ المعادن

وقد اختلف الفقهاء في مقدار الضريبة على المعادن وهل تكون الخمس أو العشر، ولكن العراقيين اتفقوا على أن تكون الخمس[٢٨]. واختلف الفقهاء أيضاً في أنواع المعادن التي تفرض عليها هذه الضريبة. ففي مذهب الشافعي «تجب (الضريبة) في معادن الذهب والفضة خاصة»، بينما أوجبها أبو حنيفة «في كل ما ينطبع من ذهب وصفر... وأسقطها عما لا ينطبع من مائع وحجر». ويرى ابن حنبل أنها تجب «في جميع الخارج منها، سواء كان مما يطبع... أو مما لا يطبع»[٢٩].

ج ـ الغنائم

وتشمل الأسرى، وهم المقاتلون من الكفّار الذين أسروا واسترقوا، والسبي من النساء والأطفال، والأموال المنقولة[٣٠].

٣ ـ (الزكاة) أو الصدقة

وتجبى «في الأموال المرصدة للنماء، إما بنفسها وإما بالعمل فيها». ويقوم عمال

---

(٢٥) يحيى بن آدم، ص ١٠ ـ ١١ وص ١٢٦، الماوردي، ص ١٢٢.
(٢٦) يحيى بن آدم، ص ١١ وص ١٢٦.
(٢٧) أبو يعلى، ص ١١١ ـ ١١٢، الماوردي، ص ١٢٦.
(٢٨) الصولي ـ أدب الكتّاب، ص ١٩٩.
(٢٩) أبو يعلى، ص ١١١، الماوردي، ص ١١٦.
(٣٠) الماوردي، ص ١٢٣ ـ ١٢٤، أبو يعلى، ص ١٢٥ ـ ١٢٧ وص ١٣٤ ـ ٦.

الحكومة بجباية زكاة الأموال الظاهرة كالمواشي والمنتوجات الزراعية. أما زكاة الأموال الباطنة كالذهب والفضة فتترك إلى الفرد(٣١). وتصنّف الأموال التي تجب فيها الزكاة إلى الأصناف التالية:

أ ـــ المواشي

وهي الإبل والغنم والبقر. وتؤخذ زكاتها متى ما وصلت النصاب، وكانت في ملكية صاحبها سنة واحدة على الأقل، وكانت سائمة في المراعي.

وتكون الزكاة كما يلي:

في الإبل: من ٥ ـ ٩: شاة جذعة (سنها ٦ أشهر) أو ثنية من المعز (سنها سنة)

١٠ ـ ١٤: شاتان.

١٥ ـ ١٩: ثلاث شياه.

في البقر والجاموس: ٣٠ ـ ٣٩: وفيها تبيع (عمره ستة أشهر) ذكر.

٤٠ ـ ٥٠: وفيها مسنّة (عمرها سنة) انثى.

٦٠ ـ : وفيها تبيعان... الخ.

ومن الغنم: ٤٠ ـ ١٢٠: جذعة أو ثنية من المعز.

١٢١ ـ ١٩٩: شاتان.

٢٠٠ ـ ٣٩٩: ثلاث شياه، الخ(٣٢).

ب ـــ الزروع والثمار

وتختلف أنواع الثمار التي يزكيها الفقهاء بين التمر والعنب فقط (على رأي الشافعي) وبين كل أنواع الثمر (في رأي أبي حنيفة). ويأخذ بعضهم الزكاة من الخضر والبقول وأنواع الحبوب، بينما يقصرها البعض الآخر على «ما يكال ويدخر». ويشترط بعضهم حصول نصاب قدره خمسة أوسق (الوسق في صدر الإسلام = ١٩٤,٣ كغم قمح)، حين لا يرى آخرون لزوماً لنصاب.

وتبلغ هذه الضريبة ١/١٠ على ما يسقى بصورة طبيعية، بماء المطر أو بالقنوات، و١/٢٠ إن كان السقي بآلة.

---

(٣١) الماوردي، ص ١٠٩، أبو يعلى، ص ٩٩.

(٣٢) أبو يعلى، ص ١٠١ ـ ١٠٢، الماوردي، ص ١١٠ ـ ١١١، أبو يوسف، ص ١٣٢ وما بعدها.

وتقدر الضريبة بعد وزن الحاصل، ويجيز بعضهم (كالشافعي وابن حنبل) تقدير ضريبة الفواكه وهي على الأشجار[٣٣].

ج ـ الذهب والفضة

ويبلغ نصابها مئتي درهم شرعي (الذي وزن كل درهم منه ستة دوانيق، وكل عشرة منها سبعة مثاقيل)، وعشرون مثقالاً من الذهب. ومقدار الضريبة ١/٤٠[٣٤].

د ـ بضاعة التجار المسلمين

ويفرض على بضاعة التجار المسلمين، بما فيها الرقيق ١/٤٠ من ثمنها[٣٥].

ثانياً: الضرائب في الواقع

لقد ذكرنا الضرائب الشرعية، ونشير الآن إلى ضرائب أخرى نشأت عن حاجات وظروف جديدة، ولعبت دوراً مهماً في السياسة المالية. إذ ما جاء القرن الرابع الهجري، حتى لم يبقَ أثر لغنائم الحرب، وتقلّصت أراضي الخلافة لحد كبير، وكاد دفع الزكاة من قبل المثرين يقتصر على زكاة المواشي والزروع[٣٦]. وهكذا حصل نقص كبير في موارد بيت المال. ومن الجهة الثانية، بقيت الماكنة الإدارية على سعتها وكثرة موظفيها، وارتفعت الرواتب عما كانت عليه من قبل، ووصلت نفقات البلاط حد البذخ الزائد[٣٧]. وكان من الضروري ايجاد مصادر جديدة للوارد، فظهرت ضرائب جديدة تدعى عامة بـ «المكوس» أو الضرائب غير المشروعة. وهذه

---

(٣٣) يحيى بن آدم، ص ٨١ وص ٨٤، الماوردي، ص ١١٢ - ١١٥، أبو يعلى، ص ١٠٣ - ١٠٤ وص ١٠٦ - ١٠٨.

(٣٤) أبو يعلى، ص ١٠٨ - ١١٠، الماوردي، ص ١١٥، الصولي - أدب الكتاب، ص ١٩٩.

(٣٥) يحيى بن آدم، ص ١٢٦، الصولي - أدب الكتاب، ص ١٩٩ - ٢٠٠، انظر أبو عبيد ص ٤٦٣- ٥٣١ وص ٥٣٣.

(٣٦) انظر التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٠٦.

(٣٧) انظر مقدمة ابن خلدون، ص ٢٣٤. وتناول زيدان هذا الموضوع بتفصيل في كتابه التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ١٢٣ - ١٧٩. وهو يرى أن قلة الوارد عن الصرف يعود إلى: ١) نقص الواردات نتيجة: (أ) تقلص الامبراطورية، (ب) نقص وارد ضريبة الخراج، (جـ) طمع الولاة وأخذهم لقسم من الوارد، (د) تكرر الثورات والفتن، (هـ) تحويل قسم كبير من الأراضي إلى ضياع سلطانية ونقص الضرائب المفروضة عليها وعلى ضياع الرؤساء. ٢) كثرة النفقات نتيجة: (أ) بذخ الخلفاء وكثرة ما يصرف على الحفلات وما يعطى في الهبات، (ب) توسع الماكنة الإدارية الخاملة، (جـ) زيادة الرواتب، (د) طمع الوزراء وتحويلهم لقسم كبير من مال الخزينة إلى جيوبهم.

المكوس تحتاج إلى توضيح، كما أن الضرائب المشروعة كانت تختلف في التطبيق عن التحليل الذي نجده لها في نظريات الفقهاء، ولذا وجب توضيحها في الواقع لما لذلك من أهمية كبرى في الحياة الاقتصادية. فلنبدأ بالضرائب المشروعة، ثم نتدرج إلى المكوس:

١ ـ الخراج

لم يكن الخراج في السواد ثابتاً. فقد ادخل المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ - ٧٨٥ م) بمشورة وزيره معاوية بن عبيد الله نظام المقاسمة وألغى الخراج على المساحة، وحدده بنصف الحاصل في الحبوب على ما يروى بالقني، ولكنه رفعه بعدئذ إلى ٣/٥ الحاصل[٣٨]. وفي ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م اعاد الرشيد الخراج إلى ١/٢ الحاصل واستمر ذلك إلى آخر القرن الثاني للهجرة[٣٩]. وجاء المأمون فقرر سنة ٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م تخفيض الخراج إلى ٢/٥ الحاصل[٤٠] واستمر ذلك إلى القرن الرابع/ العاشر. لكن هذه النسبة أغفلت في بعض الأحيان، وبلغت النصف في العصر البويهي، كما كانت الشكوى متكررة من أساليب الجباية ومن التجاوز فيها[٤١].

شكا أهالي منطقة بادوريا إلى الوزير حامد بن العباس بأنهم يدفعون ثلاثة دراهم على كل نخلة من نوع الشيزري، مع أن ثمن تمرها درهمان[٤٢]. وكتب علي بن عيسى إلى عامل ديار ربيعة (سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م): «وقد ورد الحضرة... جماعة من وجوه التُنّاء والمزارعين بديار ربيعة متظلمين مما عوملوا به في سني ٣١١ - ٣١٣ هـ من إكراههم على تضمّن غلات بيادرهم بالحزر والتقدير، وإلزامهم حق الاعشار في ضياعهم على التربيع، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبرة[٤٣] (أي

---

(٣٨) الماوردي، ص ١٧٠، البلاذري، ص ٢٧٢، قدامة ـ الخراج (خط) ورقة ١٠١ ب.

(٣٩) الطبري، س ٣، ص ٦٠٧، ويذكر قدامة أن الخراج (طسق الاستان) كان نصف الحاصل.
Ben Shemesh, *Taxation*, II, text pp. 140 - 139, p. 121.

(٤٠) الفخري، ص ١٦٢، الطبري، س ٣، ص ١٠٣٩. ولعل هذا التخفيف يفسر لحد ما الفرق بين وارد السواد كما في قائمة قدامة (سنة ٢٠٤ هـ) وهو ٦٥٠ و٤٥٧ و١١٤ وقائمة ابن خرداذبه (حوالي ٢٧٢ هـ) ومقدار الوارد فيها ٧٨,٣١٩,٣٤٠ درهماً. انظر أيضاً الدوري ـ العصر العباسي الأول، ص ٢٦١- ٢٧٠.

(٤١) انظر ابن رجب ـ الاستخراج، ص ٣٣، الأبشيهي ـ المستطرف (بولاق) ج ١، ص ٢٤٠، البوزجاني ـ كتاب المنازل، ص ٢٠٢ ب ـ ٢٠٣ ب، H. Samarraie, *op. cit.*, pp. 150 - 153.

(٤٢) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٥٠.

(٤٣) انظر الخوارزمي، ص ٤٠.

معدل) قبل إدراك غلاتهم وثمارهم»[٤٤]. وأمر الوزير عامله أن يرجع الضرائب إلى نسبها الاعتيادية. وفي سنة ٣٢١ - ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣ - ٩٣٤ م، شكا زراع الكوفة إلى علي بن عيسى، الذي كانت إليه منطقة واسط ومنطقة «سقي الفرات»، من ظلم العامل الذي كان يقدر أثمان الفواكه بأكثر من سعر السوق، ثم يجبي الضريبة نقداً على أساس هذا التقدير. فكتب علي إلى العامل يأمره بأن يأخذ الخراج بالمقاسمة (أي أخذ نسبة من الحاصل)[٤٥].

واعتنى علي بن عيسى بحماية دافعي الضريبة بصورة عامة. فكتب إلى العمال أن ينظروا في شكاوى المزارعين الذين تلف بعض غلتهم بآفة طبيعية، ومتى ثبت له حصول التلف فعليه أن يخفف من الضريبة بما يتناسب والضرر. كما أوصى باستيفاء الخراج «من غير محاباة للأقوياء ولا حيف على الضعفاء». وطلب منهم أن «يكون العدل... على الرعية كاملاً، والانصاف لجميعهم شاملاً»[٤٦].

وفي إمارة معز الدولة، أطلقت أيدي أصحاب الاقطاع وأهل الضمان. فلم تهتم الحكومة بمعرفة الطريقة التي يعامل بها الزراع «من جور أو نصفة». فنتج من ذلك ظهور «جبايات تحدث على غير رسم، ومصادرات ترفع على محض الظلم، وإضافات إلى ارتفاع ليست بعبرة، وحسبانات في النفقات لا حقيقة لشيء منها»[٤٧].

واستمر هذا الوضع حتى إمارة عضد الدولة، الذي أصلح الحالة. ففي إمارة عضد الدولة «أمضيت للرعية الرسوم الصحيحة، وحذفت عنها الزيادات والتأويلات، ووقف على مظالم المتظلمين وحملوا على التعديل»[٤٨]. إلاّ أن هذا الوضع لم يستمر، إذ عاد عضد الدولة «فأحدث جبايات لم تكن، ورسوم ومعاملات لم تعهد». وزاد في الخراج، بأن «زاد في المساحة واحداً في عشرة بالقلم واضافة إلى الأصول وجعله رسماً جارياً... في جميع السواد»[٤٩].

---

(٤٤) الصابي - الوزراء، ص ٣٣٦ - ٧.

(٤٥) ن.م.، ص ٣٥٩، وانظر Bowen, *'Ali b. 'Isa*, p. 335 ومسكويه، ج ١، ص ٣١.

(٤٦) مسكويه، ج ١، ص ٢٨.

(٤٧) ن.م.، ج ٢، ص ٩٩.

(٤٨) مسكويه، ج ٢، ص ٤٠٧.

(٤٩) ابو شجاع (ذيل مسكويه)، ص ٧١.

ويورد البوزجاني (ت ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م) تفاصيل أخرى عن الضرائب. ففي السواد والمناطق المجاورة كانت ضريبة الأرض تؤخذ، اما: (١) بالمقاسمة، أي نسبة من الحاصل، أو (٢) نقداً (وَرِق موزون). ففي الصنف **الأول**، توجد أراضي تدفع نصف الحاصل وهي (الأستان)، وأراضي تدفع ١٠/١ الحاصل وهي القطائع (م. قطيعة). ولكن بعض أراضي الأستان تدفع أقل من النصف، تخفيضاً من الحكومة، وبعض القطائع تدفع أكثر من العشر وهو ظلم. ويضيف البوزجاني «والضرائب تزيد وتنقص» مشيراً إلى المخالفات.

أما في الصنف **الثاني** من الأرض، فهناك أراضٍ تدفع الضريبة على المساحة، للحاصلات، أو بالعد على الأشجار المثمرة. وهنا يشير أيضاً إلى الأستان بخراج مخفض، وإلى القطائع التي تدفع أكثر من العشر، (٢) الأراضي والمناطق التي تدفع الخراج على (العبرة) مثل المقاطعات والايغارات[٥٠].

ويتحدث البوزجاني عن رسوم أخرى اضافة للخراج أو العشر، وهي: (١) الرواج، ويدفع للجهابذة مقابل خدماتهم، ويدعى أيضاً (حق الجهبذة) و(الرسوم)، ويقدر بنسبة من الضريبة[٥١]. (٢) الآيين: وهي فروض عرفية تدفع للمساح بمقدار على كل جريب[٥٢]. (٣) رواج الرواج، أو أجور تُجبى لمساعدي الجهابذة وغلمانهم. وهذه الرسوم غير محدودة وتعتمد على رغبات العمال والجهابذة والمستخرجين[٥٣].

وفي فترة الحمدانيين قاست الجزيرة من كثرة الضرائب. فقد جعل ناصر الدولة نسبة المقاسمة النصف[٥٤]. ثم انه كان في بعض الأحيان يقدّر ثمن الغلة، ويعطي الزارع ثمن حصته حسب تقديره، فتكون النتيجة أن نصيب الزارع يكون أقل من خمسي الحاصل[٥٥].

وكان الخراج يجبى على أساس السنة الشمسية[٥٦]، ولذا كان التقويم يعدّل

---

(٥٠) انظر أيضاً قدامة - الخراج (خط)، ص ١٨٦- ب؛ Ben Shemesh, *op. cit*, Text p. 124-3.

(٥١) وفي الأمثلة التي يعطيها البوزجاني تتراوح النسب بين ١,٢٥ - ٥ بالمئة. ورقة ٢١٩ ب - ٢٢١ أ، سعيدان - الحساب العربي، ص٢٩٥ - ب.

(٥٢) وفي مثلٍ أورده البوزجاني نجد ٢/١ ٢ دانق فضة على الجريب. ورقة ٢١٧ أ.

(٥٣) انظر البوزجاني - كتاب المنازل ٢٠٣ ب - ٢٢٦ أ.

(٥٤) ابن حوقل، ص ٢١٣ وص ٢١٧ وص ٢١٨ وص ٢١٩.

(٥٥) ابن حوقل، ص ٢١٣، وكان هذا يحصل في منطقة نصيبين.

(٥٦) البوزجاني (علم الحساب العربي)، ص ٢٧٨- ٩.

بين فترة وأخرى ليحل موعد الجباية عند نضج الغلات(٥٧). ولكن هذه القاعدة كانت تهمل في الغالب. فمثلاً بدأ البريديون سنة ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م بجباية الخراج في آذار، والزرع أخضر «فخبط التُنّاء حتى تهاربوا»(٥٨). ولما غلب عضد الدولة على العراق، وجد أن الخراج كان يجبى قبل نضج الغلات(٥٩). ومن جهة ثانية، كان الوزراء يرون أنه يجوز لهم - في حالة الحاجة الشديدة إلى المال - ان يقوموا بجباية قسم من الخراج قبل أوانه، دفعة أولى، ويجمعون الباقي في الموسم(٦٠).

وكانت الطريقة المتّبعة في جباية الخراج هي أن يجمع الحاصل، ويكال أو يحصى، ثم تؤخذ حصة الحكومة(٦١). ويجوز أحياناً - في حالة الأشجار المثمرة - أن تعدّ الأشجار ويقدّر الخراج حسب عددها(٦٢).

٢ ــ العشر

وكانت الأراضي في سواد البصرة عشرية(٦٣). ويعتبر المقدسي(٦٤) الأراضي المحيطة بالكوفة عشرية، إلاّ أن الاصطخري والصابي(٦٥) يعتبرانها خراجية، ورأيهما أقرب للقبول. ويخبرنا ابن خرداذبه أن أراضي «السيبين» و«الوقوف» عشرية، ويقدر العشر الوارد منها بـ ٥٠٠ كر حنطة، و٥,٥٠٠ كر شعير، و١٥٠,٠٠٠ درهم(٦٦).

ومع أنه يفترض شرعاً أن تدفع الأراضي العشرية عشر حاصلها، إلاّ أن الواقع كان يختلف أحياناً عن النظريات. ففي سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م، شكا بعض زراع ديار ربيعة إلى علي بن عيسى بأنهم أجبروا، خلال ثلاث سنوات، على دفع العشر على المساحة، وبذلك دفعوا أكثر من العشر(٦٧). وفي البصرة فرض البريديون (حوالى

(٥٧) اصلح التقويم من قبل المعتضد، ثم من قبل الوزير المهلبي، وأخيراً في زمن عضد الدولة الذي أخر موعد الجباية إلى النوروز المعتضدي (أي ١١ حزيران)، انظر فصل «الزراعة» - القسم الثاني، مسكويه، ج ٢، ص ٤٠٧، رسائل أبي اسحاق الصابي، ص ٢١٣ وما بعدها.

(٥٨) مسكويه، ج ٢، ص ٢٥.

(٥٩) ن.م.، ج ٢، ص ٤٠٧؛ انظر رسائل الصابي، ص ١٢٠.

(٦٠) مسكويه، ج ١، ص ٤٢ - ٣.

(٦١) الصابي - الوزراء، ص ٢٠٩، التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٦٢) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٥٠.

(٦٣) الاصطخري، ص ٨٠.

(٦٤) المقدسي، ص ١٣٣، انظر يحيى بن آدم القرشي، ص ٣٦ - ٧.

(٦٥) الاصطخري، ص ٨٠، الصابي - الوزراء، ص ٣٥٩.

(٦٦) ابن خرداذبه، ص ١١.

(٦٧) الصابي - الوزراء، ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

٣٣٠ - ٣٣٤ هـ/ ٩٤١ - ٩٤٥ م) عشرين درهماً على جريب[٦٨] الحنطة والشعير على أساس العشر[٦٩]. ويصف لنا مسكويه ما حصل بعد ذلك قائلاً: «وكانت العمارة تنقص في كل سنة لأجل جور البريديين وعمالهم، وهم يطالبون بالعبرة، فنقص مال العبرة عن جريان العمارة، فزاد ذلك ما يلزم كل جريب في السنة على ما كان يلزمه في السنة التي قبلها. وكان قد قحط أهل البصرة بالمحاصرات التي لحقتهم فألزموا أن يزرعوا تحت النخل حنطة وشعيراً. فلما فعلوا ألزموا عن كل جريب أربعين درهماً. فقصروا في العمارة، فجعل ما كان يرتفع عبرة عليهم واستوفي من ملاك أرض العشر، فتهارب الناس فزاد ذلك على من بقي»[٧٠].

ولما استولى البويهيون على البصرة (سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م)، شكا أهاليها إلى الوزير المهلبي من ثقل الضرائب، فوعدهم خيراً. ثم أمر بردهم إلى رسومهم القديمة وذلك بـ «أخذ العشر حباً بعينه من غير تربيع ولا تسعير. ونظر فيما بين ذلك وبين ما يؤخذ منهم على تقريب، فأشار على أرباب العشر أن يبتاعوا فضل ما بين المعاملة على الظلم، والمعاملة على الانصاف بثمن يرغب فيه معز الدولة عاجلاً... فاستجابوا وتقرر الأمر بينهم على ألفي ألف درهم». ثم انقص من ذلك مئتي ألف درهم، رفقاً منه بالضعفاء من الزراع، «وكتب إلى معز الدولة بأن في ذلك حظاً عاجلاً وصلاحاً ووفوراً في ارتفاع الناحية في المستقبل، فحسن موقع فعله من معز الدولة فأمضاه»[٧١].

وفي سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦م، أحسن الثائر (لشكرستان) السيرة في أهل البصرة وخفف عنهم، وفرض عليهم ضريبة قدرها ١/ ٢٠ «من سائر ما يتبايع حتى من المأكولات»[٧٢].

٣ ــ الواردات

وعمل علي بن عيسى جريدة مفصلة بواردات الدولة العباسية وخاصة العراق،

---

(٦٨) الجريب = ٣٦٠٠ ذراع و = ١٥٩٢ م ٢؛ الخوارزمي - مفاتيح العلوم، ص ٤٣.

(٦٩) مسكويه، ج ٢، ص ١٢٧ - ١٢٨، المقدسي، ص ١٣٣. يذكر المقدسي، ص ١٣٣ أن عمر بن الخطاب وضع أربعة دراهم على جريب الحنطة، ودرهمين على جريب الشعير. انظر الماوردي، ص ١٤٣، أبو يعلى، ص ١٥٠، أبو عبيد رقم ١٧٣، يحيى بن آدم، ص ٥٦.

(٧٠) مسكويه، ج ٢، ص ١٢٨.

(٧١) مسكويه، ج ٢، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٧٢) ابو شجاع، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

لسنة ٣٠٦ هـ/ ٩١٨ م. وكان وارد مختلف مناطق العراق - من العشر والخراج بالدرجة الأولى - في هذه الجريدة[٧٣] كما يأتي:

أ ــ (السواد)

بادوريا وكلواذى ونهر بين	١٦٦,٢٨٣	درهماً
بهُرسير والرومقان وايغار يقطين، وجازر، والمدينة العتيقة	٧٥,٥٧٦	ديناراً
الانبار وقطرُبّل وسد	١٩٨,٣١٣	ديناراً
كوثى ونهر درقيط	٢٥,٠٠٠	ديناراً
الزاب الأعلى ونهر كشتاسب	٩,٥٢٦	ديناراً
الفلوجة العليا والارحاء	١٦,٧٣٦	ديناراً
الفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر	١٣,٥٨٥	ديناراً
السيب الأعلى، وسورا، وبابل، وخطرنية، وباروسما الأعلى	١٤٠,٢٥٩	ديناراً
نهر الملك، وموزجا، ونهر جوبر، والأساسان، والمالكيات	٣٨,٣٥٠	ديناراً
باروسما الأسفل	٤٦,٣٣٦	ديناراً
طساسجة الكوفة، والحزن	١١٠,١٥٤	ديناراً
نهر بوق، والدير الأسفل	٢٠,٥٩٠	ديناراً
بزرجسابور	٢٤,٣٠٠	ديناراً
الراذانان	٣٠,٠٣٥	ديناراً
روستقباد	١٣,٦٦٦	ديناراً
النهروان الأعلى وسمنطاي	٤٦,٤٨٠	ديناراً
النهروان الأوسط	٤٠,٣٢٧	ديناراً
النهروان الأسفل	٦٠,٥٣٢	ديناراً
الصلح والمنازل	١٥٩,٠٨٩	ديناراً
بادوريا وباكسايا	٤٢,٤٩٩	ديناراً
واسط مع (الضياع) الخاصة والعباسية والمستحدثة بعد النفقات الراتبة	٣١٠,٧٢٠	ديناراً
البصرة وكور دجلة	١٢١,٠٩٥	ديناراً

ب ــ (الجزيرة)

آمد، بعد الاحتسابات	١٤,٥٠١	ديناراً
ارزن وميافارقين، بعد الاحتسابات	٥٦,٧٥٠	ديناراً
ديار مضر	٢٥٧,٢٢٥	ديناراً
ديار ربيعة بعد الاحتسابات	٢٢,٧٩٧	ديناراً
الموصل وماردين وباهدرا والرساتيق الجبلية، بعد الاحتسابات	٥١٠,١٨٠	ديناراً
طريق الفرات	٩٦,٥٨٤	ديناراً

(٧٣) Von Kremer, *'Ali b. 'Isa*, p. 27 ff.

ويضاف إلى ما ذكر وارد الضياع السلطانية الواسعة التي كانت تمتد في مختلف الأراضي العباسية، في العراق وخارجه. وقد بلغ واردها، بالإضافة إلى وارد الأوقاف، مقدار ١,٧٦٨,٠١٥ ديناراً في السنة(٧٤).

ويخبرنا ابن حوقل عن وارد العراق سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م، واليك ثبته:

ضمان العراق من تكريت إلى واسط، مع أعمال الكوفة	٣٠ مليون درهم(٧٥)
ارتفاع البصرة «من وجوه أموالها كلها وجبايتها من أعشارها وجماجمها ومصالحها وضمان البحر بلوازم المراكب»	٠٦ ملايين درهم
ضمان واسط	٦ ملايين درهم(٧٦)
خراج نصيبين وأعمالها	٥ ملايين درهم(٧٧)
الموصل: خراج الحنطة والشعير	٥ ملايين درهم
خراج الحبوب (الأخرى) والقطاني.	١٥٠,٠٠٠ درهم
خراج ضياع الحمدانيين	مليونا درهم
باعربايا	٤ ملايين درهم
بازبدى (من الحنطة والشعير)	مليون درهم
باهدرا	١,٥٠٠,٠٠٠ درهم
جزيرة ابن عمر وجبل باسورين ونواحيه	١,٥٠٠,٠٠٠ درهم(٧٨)

ويذكر المقدسي أنه قرأ بنفسه كتاباً في خزانة عضد الدولة (٣٣٨ ـ ٣٧٢ هـ/ ٩٤٩ ـ ٩٨٢ م)، جاء فيه: «أن أثمان غوال (جـ. غلة) السواد ٨٦,٧٨٠,٠٠٠ درهم، ومن أبواب المال (الأخرى) بالسواد ٤,٠٠٨,٠٠٠ درهم، وخراج دجلة ٨,٥٠٠,٠٠٠ درهم»(٧٩).

٤ ـــ الجزية

وتختلف الروايات في مقدار الجزية التي فرضها عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣ هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤ م) على أهل الذمة في العراق. ولتقدير عمر بن الخطاب أهمية خاصة، لأنه صار قدوة للخلفاء بعده في هذا الباب. فيذكر أبو عبيد روايتين: الأولى تفيد أنه فرض ٢٤ درهماً في السنة على كل شخص، وأعفى من ذلك النساء

(٧٤) Von Kremer, *'Ali b. 'Isa*, p. 27 ff.
(٧٥) ابن حوقل، ص ٢٤٧.
(٧٦) ن.م.، ص ٢٣٨ ـ ٩.
(٧٧) ن.م.، ص ٢١٤.
(٧٨) ابن حوقل، ص ٢١٧ ـ ٢١٩. كل دينار يساوي آنئذ خمسة عشر درهماً، ن.م.، ص ٢١٨.
(٧٩) المقدسي، ص ١٣٣.

والصبيان. والرواية الثانية تفيد أنه فرض ٤٨ درهماً على الأغنياء، و٢٤ درهماً على المتوسطي الحال، و١٢ درهماً على العامة[٨٠]، وهذه الرواية هي الشائعة[٨١].

وجاء في عهد من الخليفة المطيع بتاريخ ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م، أمر إلى عمال الجزية أن يأخذوا «من أهل الذمّة البالغين الواجدين جزية رؤوسهم، على احتمالهم في وجدهم واعدامهم». ونص على أن «لا يأخذوا شيئاً من النساء، ولا من الأطفال، ولا من ذوي العاهات، ولا من الشيخ الفاني، ولا من الفقير المعدم»[٨٢]. وكان الرهبان والقسس يعفون من الجزية. ويذكر ابن البطريق أن علي بن عيسى حاول سنة ٣١٢ هـ/ ٩٢٤ م، أن يأخذ الجزية من القسيسين والرهبان والأساقفة والفقراء المعدمين في مصر السفلى، ولكن الخليفة المقتدر استمع إلى شكاوى الأهلين فألغى تدابير علي بن عيسى[٨٣].

وتستعمل لفظة «جوالي» أحياناً محل لفظة «جزية»[٨٤]. وتعني كلمة (جوالي) في الأصل، الجزية التي تدفعها جماعات أهل الذمة التي نزحت (جلت) عن أوطانها الأصلية، ثم أصبحت مرادفة لكلمة جزية[٨٥].

وكانت الجزية تجبى في المحرم (الشهر الأول) من كل سنة قمرية[٨٦]. ويقدر ابن خرداذبه وارد جزية أهل الذمّة في بغداد بـ ١٣٠,٠٠٠ درهم[٨٧]، في حين أن وارد الجزية عند قدامة يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ درهم[٨٨]. أما في قائمة علي بن عيسى للسنة ٣٠٦ هـ/ ٩١٨ م، فيبلغ واردها ١٦,٠٠٠ دينار (= ٢٤٠,٠٠٠ درهم)[٨٩]. وكانت جزية أهل الذمّة في نصيبين سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م، تبلغ ٥,٠٠٠ دينار (=

(٨٠) أبو عبيد ـ الأموال، ص ٣٩ ـ ٤١.
(٨١) أبو يوسف، ص ١٢٢ ـ ١٢٤. ويظهر لي أن الخليفة تدرج في تقدير الجزية حتى استقر على الطبقات الثلاثة. انظر الدوري ـ النظم الإسلامية، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٨٢) رسائل الصابي، ص ١٤٠.
(٨٣) تاريخ ابن البطريق، ص ٥١٧.
(٨٤) وتسمى في عهود الخلفاء مرة جزية (رسائل الصابي، ص ٤١٢) ومرة جوالي (ن.م.، ص ١٤٠).
(٨٥) الخوارزمي ـ مفاتيح العلوم، ص ٣٩، أبو يوسف ـ هامش، ص ١، رسائل الصابي ـ هامش، ص ٩٩.
(٨٦) رسائل الصابي، ص ١١٢ وص ١١٤.
(٨٧) ابن خرداذبه، ص ١٢٥.
(٨٨) قدامة ـ الخراج، ص ٢٥١.
(٨٩) Von Kremer, *op. cit.*, p. 27.

٧٥,٠٠٠ درهم)[٩٠]. وكانت الجزية تكوّن قسماً مهماً من وارد الموصل وباعربايا[٩١].

وتكثر الاشارات في العهود الصادرة في الفترة البويهية إلى الصدقات. ومنها نفهم أن الزكاة كانت تؤخذ على المواشي (أي الغنم والبقر والجاموس والجمال) فقط، وأن هناك موظفاً خاصاً يقوم بالجباية يدعى عامل الصدقات[٩٢].

أما الضرائب التي يرد ذكرها في عهود الخلفاء، والتي كتبها أبو اسحق الصابي، فهي: الخراج، العشر، الصدقات، الجوالي، مال الجهبذة، الأحداث (وهي الغرامات التي تفرضها الشرطة)[٩٣]، و«سائر وجوه الجبايات»[٩٤]. وهكذا نجد الضرائب الأربعة الشرعية مذكورة جنب الضرائب الجديدة أو المكوس.

وتتصف المكوس بصفتين رئيستين: الأولى أنها ليس لها حد معين، والثانية أن جبايتها كانت تعتمد على أهواء المسؤولين من جهة، وعلى الوضع العام من جهة أخرى.

٥ ـ ضريبة الإرث

كانت ضريبة الإرث، بين الضرائب غير المشروعة، مهمة جداً. يروى أن بدراً المعتضدي، رئيس حرس المعتضد، سأل أحد الفقهاء عن الميراث، فأخبره أن زيداً بن ثابت يرى أن من مات ولم يكن له «من يرثه من عصبة وذي سهم» ذهب إرثه إلى بيت المال، كما أنه إذا بقي شيء من الإرث، بعد اعطاء كل ذي سهم من الورثة سهمه، فإنه يذهب إلى بيت المال. وأخبره أن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود، يرون اعطاء الإرث بكامله إلى الورثة، فإن لم يوجد وارث، أعطي الإرث إلى ذوي الرحم. وحاول هذا الفقيه ـ في مناقشة طويلة ـ أن يؤيد صحة وجهة النظر الثانية[٩٥].

وقد وضعت ضريبة الإرث، كما يظهر، لأول مرة في خلافة المعتمد (سنة

---

(٩٠) ابن حوقل، ص ٢١٤.
(٩١) ن.م.، ص ٢١٨.
(٩٢) رسائل الصابي، ص ٩٨ ـ ٩ وص ١١١- ١١٢ وص ١٢٧ وص ٢١٤.
(٩٣) See Dozy, Supplément, I, p. 158.
(٩٤) رسائل الصابي، ص ٩٨ ـ ٩ وص ١١١ وص ١٢٧.
(٩٥) الصابي، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣.

٢٥٦ - ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ - ٨٩٢ م)[٩٦]. وفي سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م، أصدر المعتضد منشوراً ألغى فيه ضريبة الإرث، وديوان المواريث، وأمر باعطاء الإرث إلى الذرية والأقرباء[٩٧]. ويظهر أن هذا المنشور أهمل لأننا نسمع أن المقتدر أصدر منشوراً جديداً في سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م، يلغي ضريبة المواريث إلاّ حين يتوفى الشخص دون وارث[٩٨]. ولم يكن حظ هذا المنشور أفضل من المنشور السابق، لأننا نسمع أن جباة ضريبة الإرث أرادوا أن يفرضوا ضريبة على الأموال الواسعة التي خلفها شخص يدعى اخو أبي صخرة. ولما أخبر ابن الفرات بذلك أنكره ونقل الخبر إلى المقتدر، وانتقد هذه الضريبة واقترح الغائها. وبناء على ذلك صدر منشور يعطي تاريخ ضريبة الإرث مع المحاولات لإلغائها، وكان مما جاء فيه: «وأنهى إلى أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن محمد، ما يلحق كثيراً من الناس من الأعنات في مواريثهم، وما يتناول - على سبيل الظلم - من أموالهم، ويحكم فيه بخلاف ما جرت به السنة. وأنه قد كان عبيد الله ابن سليمان (الوزير) أنهى إلى المعتضد بالله... حال المتقلدين لأعمال المواريث، وما يجري على الرعية من مطالبتهم إياهم بأحكام لم ينزل بها كتاب الله عز وجل، ولا جرت بها سنّة رسول الله (ص)، ولا أجمع أيمة الهدى (ر.ع.) عليها. فكتب (المعتضد) إلى يوسف بن يعقوب وعبد الحميد بن عبد العزيز القاضيين - كانا - بمدينة السلام وما يتصل بها من النواحي في أيامه، يسألهما عن الحال عندهما في مواريث أهل الملة والذمة». فأثبت عبد الحميد آراء عمر بن الخطاب والإمام علي وابن عباس التي مرّ ذكرها. وكتب يوسف بن يعقوب كتاباً بيّن فيه «ما روي عن رسول الله(ﷺ) من أن المسلم لا يرث الكافر، وأن الكافر لا يرث المسلم، وأنه لا يتوارث أهل ملتين. ووصف يوسف في كتابه أن السنّة جرت بأن أهل كل ملّة يورثون من هو منهم، إذا لم يكن له وارث من ذوي رحمه»[٩٩]. وبعد أن يذكر المنشور الغاء هذه الضريبة من قبل المعتضد، يقول: «ثم أعاد ذلك الرسم الجائر والأثر القبيح السائر، حامد بن العباس (وزر بين ٣٠٦ - ٣١١ هـ/ ٩١٨ - ٩٢٣ م) بظلمه وتعديه وتهوره وتسطيّه، وتأوّل على الرعية بما لم يرضِ الله عز وجل فيه. فأمر أمير المؤمنين بأن يرد على ذوي الأرحام... المواريث... وأن يرد تركة من مات من أهل الذمّة ولم يخلف

---

(٩٦) ن.م.، ص ٢٤٨.

(٩٧) ابن الأثير، ج ٧، ص ٣٣٤، الطبري، س ٣، ص ٢١٥١، الذهبي (مختصر تاريخ دول الاسلام - حيدر آباد الدكن ١٣٣٧ هـ) ج ١، ص ١٣٤.

(٩٨) عريب - صلة الطبري، ص ٣٨.

(٩٩) الصابي - الوزراء، ص ٢٤٦ - ٢٤٨.

وارثاً على أهل ملته، وأن يصرف جميع عمال المواريث في سائر النواحي ويبطل أمرهم، ويرد النظر في أعمال المواريث إلى الحكام على ما لم يزل يجري عليه قبل أيام المعتمد على الله... وكتب أبو الحسن يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة احدى عشرة وثلثمائة/ ٢٥ تشرين الأول ٩٢٣ م»[١٠٠].

وهكذا يتضح من المنشور أن ضريبة الإرث لم تكن مشروعة، وأنها كانت بدعة أثقلت كاهل الناس. ولا نعرف مدة استمرار هذا المنشور، ولكن أخذ المحسّن - شريك والده ابن الفرات في الوزارة - لإرث أخي أبي صخرة، في السنة نفسها التي صدر فيها المنشور، يدلّ على الفائدة القليلة لهذا المنشور في تلك الماكنة الإدارية المنحطة[١٠١].

وفي سنة ٣٥١ هـ/ ٩٦٢ م، توفي رجل اسمه دعلج، تاركاً ثلثمئة ألف مثقال ذهب، فاستولى عليها معز الدولة. وكان معز الدولة يحترم حق الإرث، ولكن تركة دعلج أغرته، فأخذها مع أنه احترم الأوقاف التي أوقفها هذا الشخص[١٠٢].

ولا ندري فيما إذا كانت ضريبة الإرث تصاعدية. وفي سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م، مات محمد بن عمر العلوي (نقيب الطالبيين) تاركاً ثروة كبيرة، فأخذ الوزير أبو نصر سابور - بمعرفة الأمير البويهي بهاء الدولة - خمسين ألف دينار من الإرث وأعطى الباقي للورثة[١٠٣]. وهكذا استمرت ضريبة الإرث طيلة القرن الرابع الهجري وكانت مورداً مهماً للخزينة.

٦ ــ المكوس

وكانت الضرائب تجبى على البضائع المنقولة من منطقة إلى أخرى براً ونهراً. وقد ألغى علي بن عيسى في وزارته الأولى (٣٠٠ - ٣٠٤ هـ/ ٩١٢ - ٩١٦ م)، المكوس الثقيلة التي كانت تجبى في حصن مهدي وفي نهر السدرة[١٠٤]. وكانت قد أنشئت دور خاصة للمكوس في أماكن مختلفة، خاصة على ضفاف الأنهار. وكان يمد حبل أو سلسلة بين الضفتين عبر النهر ليمنع مرور السفن قبل أن تجبى الضريبة

(١٠٠) الصابي - الوزراء، ص ٢٤٨ - ٩.
(١٠١) عريب - صلة الطبري، ص ١١٦ - ١١٧.
(١٠٢) سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان، ج ١٢ (خط) ورقة ٦٥ أ.
(١٠٣) الصابي - الوزراء، ص ٣٧٧ - ٨.
(١٠٤) ن.م.، ص ٢٨٦.

منها، وهذا ما يدعى بالمأصر (الجمع مآصر)، ويطلق لفظ المأصر على الضريبة نفسها[١٠٥]. وكان ابن رائق (٣٢٤ ـ ٣٢٦ هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٣٧ م)، أول من وضع المآصر ببغداد «وما كانت سمعت بالضرائب من قبله»[١٠٦]. وكانت توجد مآصر، على الطريق من بغداد إلى واسط ـ في دير العاقول على دجلة[١٠٧]، وفي واسط[١٠٨].

ولما تم الصلح بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة الحمداني سنة ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م، كان من بنوده أن يرسل ناصر الدولة الميرة إلى بغداد، على أن «لا تؤخذ لها ضريبة»[١٠٩]. وكتب والي البصرة إلى عامل حصن مهدي بأن يسمح للسفن المحملة تمراً، والآتية من البصرة، بأن تمر دون ضريبة، فوافق العامل[١١٠].

ومما يجلب الانتباه، عدم ذكر المآصر في جريدة علي بن عيسى. ثم ان عهد الخليفة المطيع إلى أبي تغلب الحمداني سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م، يعتبر الضرائب الداخلية على التجارة في البر والنهر غير مشروعة، فيقول: «ولا يطالبهم (أي الأهلين) بضريبة ولا يجبيهم عند مأصر (في النهر) ولا رصد (في البر)»[١١١].

وكانت المكوس في بعض الحالات ثقيلة. فقد فرض على سفينة محملة بالحديد والجرار، أن تدفع ثمانية آلاف درهم في واسط[١١٢]. وقد شكا المقدسي (٣٧٥ ـ ٣٨٧ هـ/ ٩٨٥ ـ ٩٩٧ م)، من ثقل هذه المكوس، فكتب: «وأما الضرائب فثقيلة كثيرة محدثة في البر والنهر. وفي البصرة تفتُّش صعب وشوكات منكرة، وكذلك بالبطائح تقوّم الأمتعة وتفتش. وأما القرامطة فلهم ديوان على باب البصرة، وللديلم ديوان آخر، حتى انه يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم، ولا يفتح إلاّ ساعة من نهار. وإذا رجع الحاج مَكّسُوا أحمال الادم والجمال الاعرابية، وكذلك بالكوفة وبغداد. ويؤخذ من الحاج للمحمل ستون، ومن الكنيسة أو حمل البزّ مائة،

---

(١٠٥) ابن رسته، ص ١٨٥، انظر كلمة (مآصر) في «تاج العروس» و«لسان العرب».
(١٠٦) مسكويه، ج ١، ص ٣٨٣ ـ هامش.
(١٠٧) ابن رسته، ص ١٨٦.
(١٠٨) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٩٤.
(١٠٩) مسكويه، ج ٢، ص ١٠٨.
(١١٠) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ١٤٠.
(١١١) رسائل الصابي، ص ١٣٨.
(١١٢) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٩٣.

ومن العمارية خمسون ومائة بالبصرة والكوفة»[113].

وفي بغداد، كانت المكوس تفرض على البضائع التي يأخذها الحجاج أو يأتون بها. وقد افتخر عز الدولة في كتاب أرسله إلى حاجبه الثائر سبكتكين (٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م) بأنه أحسن إلى أهل بغداد، إذ يقول: «ورفعنا عنهم ما كان يؤخذ منهم لك ولنظرائك من ضرائب الغنم المجلوبة، والأمتعة التي يأخذها الحجيج صادرة وواردة»[114]. وجاء في بيان أصدره عضد الدولة (سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م)، على أثر عصيان قام به المماليك الأتراك في بغداد، ما يأتي: «وقد سمحنا لهم (أهل بغداد)... بالضرائب المأخوذة من الأغنام ومن كل ما يحمله تجار الحجيج من بزّ وغيره»[115].

ويبين البوزجاني[116] ـ الذي كتب في العصر البويهي ـ أن الرسوم التي تفرض في المآصر مختلفة في النواحي حسب ما يراه السلطان ويرسمه. فقد تكون «جزء أو نسبة من ثمن البضائع المارة، مثل الاعشار التي بالبصرة وعمان وسواحل البحر إلى نواحي الهند». وقد تكون ضريبة على الوحدة تختلف حسب نوع البضاعة، إذ يقول: «يؤخذ من كل شيء من البز (المطبوع: البر) وغيره من الأمتعة شيء معلوم من الدراهم مختلفة المقدار على قدر المتاع».

وفي حالات أخرى يفرض رسم واحد بصرف النظر عن المتاع. يقول البوزجاني: «منها ما يكون الرسم قد جرى أن يؤخذ من كل حمل درهم واحد من غير فكر في خسة المتاع ورفعته».

ويبدو من البوزجاني أن هناك تعريفة بالرسوم التي تفرض، وهذا ما يفهم من المعلومات التي يوردها جغرافي معاصر هو المقدسي[117].

وكانت الضرائب تفرض، في البصرة، على البضائع المحمولة في السفن، والمجلوبة بحراً إليها. وتدعى هذه الضرائب بالمكوس، وتدعى محلات جبايتها «المراصد»[118]. وكان المسلمون يدفعون ١/٤٠ (أو ٢,٥ بالمئة) من قيمة بضائعهم

(١١٣) المقدسي، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
(١١٤) رسائل الصابي، ص ٢٣٥.
(١١٥) ن.م.، ص ٢٤٥ وما بعدها.
(١١٦) كتاب المنازل ورقة ٢٦٥، سعيدان ـ الحساب العربي، ص ٣٤٦ وانظر - Ehrenkreutz - al - Buzjani on Ma'asir JESHO 8, 1965 pp. 92 - 98.
(١١٧) أحسن التقاسيم، ص ١٠٤ ـ ١٠٥، وص ١٣٣ ـ ٤.
(١١٨) الخوارزمي ـ مفاتيح العلوم، ص ٣٩.

ضريبة، ويدفع التجار الهنود والصينيون ١٠/١ (أو ١٠ بالمئة)[١١٩]. ويخبرنا ابن خرداذبه أن التجار الروس كانوا يدعون بأنهم مسيحيون، ويدفعون الجزية[١٢٠]. وجاء في جريدة علي بن عيسى (٣٠٦ هـ)، أن ضرائب السفن القادمة كانت تساوي ٢٢,٥٧٥ ديناراً[١٢١]. وبلغ واردها سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار[١٢٢].

٧ ــ المستغلات

وكانت الضرائب تجبى على الحوانيت والأسواق. وأول من فرض الضريبة على الأسواق هو المهدي وذلك سنة ١٦٧ هـ/ ٧٨٣ م[١٢٣]. وقد قدر اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م) مقدار هذه الضرائب في بغداد بـ ١١,٩٠٠,٠٠٠ درهم سنوياً[١٢٤]. وبلغ وارد أسواق الغنم في بغداد، وسامراء، وواسط، والبصرة، والكوفة، في جريدة علي بن عيسى لسنة ٣٠٦ هـ مقدار ١٦,٩٧٥ ديناراً سنوياً[١٢٥]. ويخبرنا ابن حوقل أن «ما يقبض من الطواحين في القصبة (نصيبين) والضياع المقبوضة والمشتراة، وغلات العقار المسقف من الخانات والحمامات والحوانيت والدور ستة عشر ألف دينار، وذلك في سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م[١٢٦]. وهذا يدل على أن الحمامات كانت تدفع ضريبة أيضاً.

وهناك ضرائب تفرض على الطواحين في العصر العباسي. ففي بغداد، كانت الرحا المشهورة برحا البطريق تغلّ مئة ألف درهم في السنة[١٢٧]. وفي الجزيرة استولى الحمدانيون على جميع الطواحين. وكان وارد الطواحين في الحديثة وحدها، يساوي خمسين ألف درهم سنوياً[١٢٨]. وكان وارد الطواحين في بازبدى، وهي من الجزيرة،

---

(١١٩) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٥٩٠.

(١٢٠) ابن خرداذبه، ص ١٥٤.

(١٢١) Von Kremer, *'Ali b. 'Isa*, p. 27.

(١٢٢) مسكويه، ج ٢، ص ١٢٩.

(١٢٣) انظر قدامة - الخراج (خط) ٨٨ أ - ٨٩ ب.

(١٢٤) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٥٤ وص ٢٤٣.

(١٢٥) Von Kremer, *'Ali b. 'Isa*, p. 27.

(١٢٦) ابن حوقل، ص ١٤٣.

(١٢٧) اليعقوبي - البلدان، ص ٢٤٣.

(١٢٨) ابن حوقل، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

يكوّن جزءاً مهماً من الوارد[١٢٩].

ومن جملة التهم التي وجهها أبو شجاع إلى عضد الدولة، أنه «أدخل يده في جميع الارحاء وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئاً منه، وكثرت الظلامة من ذلك في آخر أيامه... فأزاله صمصام الدولة بعده وأطلق الارتفاع للملاك»[١٣٠].

ويذكر التنوخي قصة تفيد أنه كانت توجد ضريبة على الدور تسمى أجرة العرصة، وأن واردها كان كثيراً في خلافة المقتدر. ويفهم من التنوخي أنها كانت تفرض على البنايات المنشأة على أراضٍ حكومية[١٣١]. ويحتمل أن الضريبة كانت مهمة، فيذكر أنه لما حدث فيضان ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣ م، شرع عميد الدولة ببناء سور حول المخرم (وهي محلة في بغداد الشرقية) وجمع النقود اللازمة من الضرائب التي فرضها على دور الناس وأبنيتهم[١٣٢].

وكانت لفظة «مستغلات» تطلق على الضرائب التي تفرض على الدور والأسواق والطواحين التي بناها الناس على أرض حكومية[١٣٣]. وقد ذكر ابن خرداذبه أن وارد مستغلات بغداد مع دار الضرب، بلغ ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم في سنة ٢٧٢ هـ/ ٨٨٥ م[١٣٤]. وبلغ وارد مستغلات بغداد حوالى سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م، ١٣,٠٠٠ دينار في السنة[١٣٥].

٨ ـــ ضرائب أخرى

وكانت تفرض ضرائب جديدة أحياناً على بعض المواد. فلما فتح عضد الدولة الأهواز سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م، أعلن بأنه سيخلص الأهلين من عبء ثقيل، بالغاء الضرائب على الطحين والمواد الغذائية، ووعد أن يفعل ذلك في العراق[١٣٦]. وفرض ناصر الدولة (٣١٧ ـ ٣٥٨ هـ/ ٩٢٩ ـ ٩٦٨ م)، الضرائب على بيع الأغنام

---

(١٢٩) ن.م.، ص ٢١٩.
(١٣٠) ابو شجاع، ص ٧١.
(١٣١) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٧٤ـ ٧٥.
(١٣٢) ابن الجوزي ـ مناقب بغداد، ص ١٧ «فتقدم بجباية العقار الذي للناس».
(١٣٣) انظر الاصطخري، ص ١٥٨، ابن حوقل، ص ٣٠٣.
(١٣٤) المسالك والممالك، ص ١٢٥.
(١٣٥) ابن الأثير، ج ٨، ص ٥١.
(١٣٦) رسائل الصابي، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

والدواب والبقر والخضر والفواكه، حتى بلغ الوارد منها خمسة آلاف دينار في سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م[١٣٧]. وفرضت ضريبة على الخمور في ديار ربيعة، فألغاها علي بن عيسى[١٣٨]، ثم أعادها ناصر الدولة. وتتضح أهميتها من أن واردها بلغ خمسة آلاف دينار في سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م[١٣٩]. وفرض عضد الدولة الضرائب على بيع الخيل والحمير والجمال في جميع الأسواق[١٤٠]. ويظهر أنه فرضت في وقت ما ضريبة على بيع المنسوجات القطنية والحريرية في بغداذ. وقد أعادها صمصام الدولة سنة ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م، وجعل مقدارها ١٠/١ من الثمن، مما أدى إلى حصول فتنة وشغب في بغداد حتى ألغيت الضريبة[١٤١]. وفي سنة ٣٨٩ هـ/ ٩٩٨ م، أعاد الوزير أبو نصر فرض ضريبة العشر على المنسوجات الحريرية والقطنية المعمولة في بغداد، فثار عليه سكان محلة العتابية ومحلة باب الشام إلاّ أن الثورة أخمدت، «وثبّت هذا الرسم ورتّب في جبايته ناظرون ومتولون وأفرد له ديوان في دار بالبركة، ووضعت الختوم على جميع ما يقطع من المناسج ويباع ويحمر. واستمرت الحال على ذلك إلى آخر أيام عميد الجيوش أبي علي (٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م)، ثم أسقطه وأزال رسمه»[١٤٢].

وفي سنة ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م، فرض أبو الحسن البريدي ضريبة على الزيت، كما فرض ضريبة باهظة بلغت سبعين درهماً على كر الحنطة[١٤٣].

وفرض الوزير ابن سعدان ضريبة دخل سنة ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م. يروي أبو شجاع «وأحدث (ابن سعدان) من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتّاب والحواشي من أموالهم وأرزاقهم، والتوقيع في آخر الصكاك إلى العمال بمقاصة أربابها به وجمعه عليهم وأخذه منهم»[١٤٤].

---

(١٣٧) ابن حوقل، ص ٢١٤.

(١٣٨) مسكويه، ج ١، ص ٢٩.

(١٣٩) ابن حوقل، ص ٢١٤.

(١٤٠) مسكويه، ج ٣، ص ٧٢.

(١٤١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٣٣. نفس النص في الذهبي - دول الإسلام (خط) ورقة ٢٩ ب، ويضيف سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان (مجلد ١٢ - خط) ص ١٢١ أ ان ابا الفتح قدر وارد هذه الضريبة بألف دينار في السنة.

(١٤٢) الصابي - الوزراء، ص ٣٦٨، ابو شجاع، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

(١٤٣) ن.م.، ص ٨٥.

(١٤٤) ن.م.، وص.

وقد فرضت ضريبة على المراعي في بعض الأحيان. فقد فرض المطيع على أبي تغلب الحمداني في عهد توليته، أن لا يفرض ضريبة على المراعي، وان لا يمنع الناس من الاستفادة منها(١٤٥). وأنشأ عضد الدولة ديواناً خاصاً لجباية هذه الضريبة(١٤٦). وفي سنة ٣٧٩ هـ/ ٩٨٩ م، «خرج أمر بهاء الدولة باسقاط ما يؤخذ من المراعي من سائر السواد»(١٤٧).

وفي أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ظهرت ضريبة جديدة باسم «مال الجهبذة». وقد وصفها علي بن عيسى بأنها «بلاء» على الناس(١٤٨). وعندما سئل علي عن سبب حذف «مال الجهبذة» من تقديره لواردات الموصل والزابين في خلافة المعتضد، اجاب: «هذا ما لا أعرفه في أصل ولا مضاف، فإن يكن مال السلطان فهو بمنزلة ما يؤخذ من الذيل ويرقع به الجيب، أو يكن من مال الرعية فهو ظلم وطريق للجهابذة إلى أخذ أموال المعاملين». فقال ابن الفرات يرد عليه: «هذا باب من أبواب الارتفاع ولا يجوز أن يترك ولا يضاع... وتقدير ما يجب في هذه النواحي من ذلك عشرة آلاف دينار... حتى قال: سبيل هذه النواحي سبيل غيرها من نواحي السواد»(١٤٩). وهذه الرواية تدل على أهمية «مال الجهبذة»، وعلى أنه كان ضاراً بمصالح الناس، وعلى أنه أصبح مألوفاً في التقاليد الإدارية حين اعترض علي بن عيسى على جبايته.

ويسمي البوزجاني هذه الضريبة «حق الجهبذة» و«الرواج» مشيراً إلى أنها تتصل بخبرة الجهبذ في تمييز النقود والأموال(١٥٠). وقد حفظ لنا القمي عهد تولية صادر من المقدر إلى جهبذ. ومنه نفهم أن مال الجهبذة كان ـ نظرياً ـ أجرة الجهبذ على خدماته، وأنه كان يتناسب وما يمرّ بيد الجهبذ من أموال، وأنه كان يجبى من دافعي الضريبة، ولذلك كان يسبب إرهاق الناس(١٥١).

---

(١٤٥) رسائل الصابي، ص ١٣٨.

(١٤٦) ابو شجاع، ص ٧١ ـ ٧٢.

(١٤٧) ن.م.، ص ١٧٤، ابن الأثير، ج ٩، ص ٤٨، ابن الجوزي ـ مرآة الزمان (خط) م ١٢ ورقة ١٠٤ ب.

(١٤٨) الصابي ـ الوزراء، ص ٢٥٥.

(١٤٩) المصدر نفسه والصحيفة. وكان علي بن عيسى كاتب ديوان الخراج آنئذ في وزارة عبيدالله ابن سليمان (توفي سنة ٢٨٨ هـ/ ٩٠٠ م)، وكان أبو العباس ابن الفرات خليفة الوزير.

(١٥٠) كتاب المنازل ورقة ٢٢١ أ، ٢٢٦ ب.

(١٥١) القمي ـ تاريخ قم، ص ١٥٩ ـ ١٦١.

٩ ـ طرق الجباية

أما طرق الجباية فكثيراً ما كانت عنيفة ومرهقة. ويفهم من كلمة قالها الفقيه أبو زبير الجبائي أن نظام العباسيين المالي كان فاسداً، وان طرق الجباية عندهم كانت مجحفة وغير عادلة[١٥٢]. ولعلّ في ما قاله بعض الصواب[١٥٣].

ومن ناحية أخرى تتكرر الإشارات إلى محاولة خليفة أو وزير لانصاف دافعي الضريبة، ولحمايتهم من عبث الموظفين الفاسدين[١٥٤]. جاء في عهد المطيع إلى أبي تغلب الحمداني: «وأمره أن يرفع عن الرعية ما شرعه أشرار العمال من سنن الظلم، وسير الغشم، وأحدثوه من الرسوم الباطلة، وطرقوه من المعاملات الجائرة، ولا يستعمل عليهم عاملاً إلاّ بأجرة، ولا يدخل لهم ربعاً إلاّ باذن، ولا يسخر حمولة، ولا يحمي مرعى، و... لا يبيح سواماً، ولا يكلفهم علوفة، ولا يلزمهم مغرماً ولا ميرة، ولا يطالبهم بضريبة ولا مكس، ولا يجيبهم عند مأصر ولا رصد، ولا يقتطعهم عن معيشة ولا حرفة، ولا يشغلهم عن تجارة ولا مهنة»[١٥٥].

وتكثر في عهود التولية في العصر البويهي، النصائح للأمراء باختيار العمال الأمناء الموثوقين، وبالابتعاد عن الظلم، وبالرفق بالرعية[١٥٦]. كما أن الخلفاء كانوا يؤكدون للأمراء بأن العدل يجلب الرفاه ويؤدي في الأخير إلى زيادة الوارد[١٥٧]. كما أنهم كانوا ينصحون من ناحية أخرى باستعمال الشدة مع الذين يراوغون فيي دفع الضريبة[١٥٨].

ومهما يكن، فإن توالي التأكيد على وجوب استعمال اللطف والرأفة، يدل على أن الأمراء والعمال كانوا يهملون نصائح أسيادهم في الغالب، وعلى أنهم كثيراً ما فرضوا ضرائب جديدة ومرهقة.

---

(١٥٢) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٠.

(١٥٣) انظر مسكويه، ج ٢، ص ٢٦٢ ـ ٥، الجهشياري ـ الوزراء، ص ١٤٢ ـ ٣، الرفاعي ـ عصر المأمون، ج ١، ص ٣١٦.

(١٥٤) الصابي ـ الوزراء، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩ وص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

(١٥٥) رسائل الصابي، ص ١٣٨.

(١٥٦) ن.م.، ص ١٣٩ وص ١٣٨ وص ١١١.

(١٥٧) ن.م.، ص ١٠٩.

(١٥٨) ن.م.، ص ١١٠.

الفصل السابع

النظام النقدي

اتخذ النظام النقدي في العراق وضعاً معيّناً بعد تطور طويل، ولا يمكن استجلاء حقيقته دون بحث أسسه وتطوره بصورة عامة. ولما كان اتصاله بالحياة المالية وثيقاً، صار من الضروري بحث بعض مشاكله، وخاصة ما يتعلق منها بالحياة التجارية.

ولهذا بحثت بصورة مجملة في نشوء نظام النقد الإسلامي وتطوره حتى القرن الثالث الهجري، لتكون للقارىء فكرة عامة عنه، ثم فصلت بعض المشاكل النقدية في القرن الرابع الهجري.

مقدمة في النقود الإسلامية

ظهر الإسلام ولم يكن للعرب نقد خاص بهم، بل كانوا في الغالب يستعملون الدراهم الفضية الساسانية والدنانير الذهبية البيزنطية (Solidus). وهكذا فإن الولايات الشرقية كانت تتعامل بالعملة الفضية، والولايات الغربية تتعامل بالعملة الذهبية[١].

وكان الدينار البيزنطي ثابتاً نسبياً بوزن محدد من ٤,٥٥ غم[٢]، كما حافظ الدرهم الساساني بصورة عامة على وزن مستقر طيلة الفترة الساسانية وهو ٣,٩٠٦ غم[٣].

---

(١) الماوردي، ص ١٤٩، المقريزي - شذور (باعتناء ماير) ص ٢.

(٢) Walker, *Arab- Sassanian Coins*, p. CXLVIII; E.I., 2, art. Dinar; Miles, *Early Arabic Glassweights*, p. 4, p. 5.

(٣) وزن مورتمان Mordtmann ٢٠٠٠ درهم وتوصل إلى هذه النتيجة. انظر ZDMG, 1880, p. 147 ff; Walker, *op. cit.*, p. CXLVI-VII ويعطي غريرسن Grierson - استناداً إلى مايلز - الوزن النظري للدرهم بأنه ٣,٩٨ غم. انظر JESHO, III, p. 248, n. 1.

واستمر ضرب الدراهم ولدرجة أقل الدنانير، بعد الفتح، كالسابق[٤]، ولكن الدين الجديد والسياسة الجديدة جعلت العرب يدخلون تعديلات تدريجية حتى عُرِّبَ النقد زمن عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ/٦٨٥ - ٧٠٥ م).

ضربت الدراهم في الفترة الأولى على غرار الدراهم الساسانية المتأخرة مع إضافات محدودة[٥]، فأضيفت عبارات إسلامية (بخط كوفي)، واسم الأمير ودار الضرب وتاريخه (بالفهلوية)، وفي بعض الأحيان نقش اسم الخليفة - معاوية، عبد الملك، وعبد الله بن الزبير[٦]. وكان وزن هذه الدراهم - في الغالب بين ٣,٥٠ غم و٤,١١٥ غم - يماثل وزن الدراهم الساسانية[٧].

وتشير مصادرنا إلى دراهم ساسانية من أوزان مختلفة يتعامل بها العرب، وخاصة البغلية - وتدعى أيضاً الكسروية، وتزن ٨ دوانيق أو مثقالاً، والجوارقية وتزن ٤,٥ دوانيق وكل عشرة دراهم تزن ٦ مثاقيل، والطبرية وتزن ٤ دوانق أو ٢/١ مثقال[٨]. وكان التعامل بها بالوزن[٩]، فاحتاجت الدولة الجديدة إلى عيار أساسي

---

(٤) Cordington, *A manual of Muslim Numismatics*, London 1905, p. 12; Lavoix, *Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale - Khalifes Orientaux* (Paris 1932), pp. XII-XVIII; Soret, *Elements de la Numismatique Musulmane* (Bâle et Genève, 1868), p. 62-3.

(٥) اتخذوا مثال دراهم هرمز الرابع (٥٧٧ - ٥٩٠ م) ويزدجر الثالث (٦٣٢ - ٦٥١ م) وفي الغالب دراهم خسرو الثاني (٥٩٠ - ٦٢٨ م).

(٦) ابقيت النقوش الساسانية، وهي في الأساس صورة جانبية لوجه الملك الساساني على وجه النقد، وبيت النار مع حارسين على الخلف. انظر Walker, *op. cit.*, p. 1 ff, pp. 5-15, pp. 23-5, pp. 25-26, pp. 30-31, p. 98, p. 119; Katalog der Orientalischen Münzen, I (Berlin 1891), pp. 14-15, pp. 29-30, pp. 41-48.

(٧) Walker, *op. cit.*, pp. 29-46 وقد ميز فلاسكيز كييبو Velasquez Queipo بشكل ما أربع مجموعات من الدراهم المتداولة إلى بدء خلافة عبد الملك: ١ - دراهم وزنها ٤,٢٠ غم. ٢ - دراهم من وزن ٢,٨٥ غم. ٣ - دراهم شرعية تتراوح أوزانها بين ٣,٩٧ غم و٣,٢٧ غم. ٤ - دراهم من وزن يساوي نصف وزن الدرهم الشرعي ويزن الواحد منها بين ١,٨٢ غم و١,٩٠ غم والوزن النظري هو ١,٩٨ غم. انظر Queipo (Don Velasquez), *Essai sur les Systèmes Métriques et Monétaires des anciens peuples*, 3 tomes (Paris 1895), II, pp. 288-299.

(٨) وهناك دراهم يمنية ومغربية. انظر ابن خلدون ص ٤٦٢، والماوردي، ص ١٤٨، أبو عبيد - الأموال، ص ٥٢٤، المقريزي - شذور (م) ص ٢ - ٣، ابن تغري بردي، ج ٢، ص ٢١٣، Revue Numismatique, 1908, p. 209 البلاذري، ص ٤٦٥ - ٦، الحكيم - ضوابط دار السكة - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٨، ص ١٤٢.

(٩) R.N., 1884, p. 335 البلاذري، ص ٤٦٧.

لأغراض الضرائب والالتزامات الأخرى، فاتخذ وزن يساوي معدل وزن الدرهمين الأول والثالث، وهو ٦ دوانيق أو ١٥ قيراطاً، وكان ذلك وزن الدرهم الشرعي(١٠). ولكن تدقيق الوضع يدل على أن الدراهم المذكورة هي دراهم عربية ساسانية مبكرة، فالدرهم البغلي(١١) كان أقل من مثقال(١٢)، بينما الدرهم الطبري (نسبة لطبرستان) كان يساوي حوالي نصف درهم(١٣). ومن جهة أخرى، كانت مكة مركزاً هاماً للتجارة وكان لها أوزانها للفضة والذهب، وهي الدرهم والدينار (مثقال ذهب)، وقد اتخذت هذه الأوزان أسساً للدرهم الشرعي وللدينار، والنسبة بين الوزنين هي ١٠ دراهم = ٧ دنانير(١٤)، وهي نسبة فسروها بدلالة الوزن النوعي(١٥)، وكان وزن المثقال ٤,٢٥ غم. ومع أن الدرهم الشرعي كان في الأساس عياراً للوزن فإن دراهم من هذا الوزن ضربت، كما يبدو، قبل زمن عبد الملك(١٦).

وضربت دنانير على مثال دنانير فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠ م) ثم الدنانير الهرقلية(١٧) (٦١٠ - ٦٤١ م)، ومع ذلك فإن الدينار (Solidus) البيزنطي كان كثير

---

(١٠) انظر البلاذري، ص ٤٦٥، ابن خلدون، ص ٤٦٣. وهذا الدرهم يساوي ١٤ قيراطاً بالوزن الذي اتخذه عبد الملك.

(١١) تنسب البغلية إلى رأس البغل، الذي يفترض انه ضربها لعمر على شاكلة الدراهم الكسروية (نسبة لخسرو)، ونحن نعرف ان ابنه جوانانبة كان دهقانا ثريا زمن خالد القسري (بلاذري - أنساب مخطوط، اسطنبول ق ٢ ص ٢٩٠) وهذا يرجح ان اباه عاش في العصر الأموي.

(١٢) Walker, *op. cit.*, p. CXLIX, see also, p. 81 (no. 145, wt. 4.16 gm); p. 78 (no. 120, wt. 4.14 gm.), p. 63 (no. 91, wt. 4.17 gm.) ويذكر غريرسن، نقلاً عن مايلز، أن ١٣٦ نموذجاً من ٥٦٣ درهماً لخسرو الثاني، وفي وضع جيد، تتراوح أوزانها بين ٤,١١ غم و٤,١٥ غم انظر JESHO, III, p. 248.

(١٣) الكرملي - النقود العربية (القاهرة ١٩٣٩)، ص ٢٤، Walker, *cp. cit.*, p. 131 ff..

(١٤) أبو عبيد، ص ٤٦٦، الماوردي، ص ١٤٩، أبو يعلى، ص ١٥٨، E.I. (1st & 2nd ed.) Dirham ويقول البلاذري: «كانت قريش تزن الفضة بوزن تسميه درهماً وتزن الذهب بوزن تسميه ديناراً، فكل عشرة من أوزان الدراهم سبعة من أوزان الدنانير». فتوح، ص ٤٦٧.

(١٥) البوزجاني - المنازل ٩٢ ب؛ انظر الحكيم - ضوابط، ص ١٤٢. ولكن النسبة ليست دقيقة لأن الوزن النوعي للذهب هو ١٩,٣٠ وللفضة ١٠,٥٠. لاحظ أن الدرهم الأتيكي كان يزن ٤,٢٥ غم.

(١٦) لدينا دراهم تتراوح أوزانها بين ٢,٨٠ غم - ٢,٩٩ غم، أي انها حوالي وزن الدرهم الشرعي (٢,٩٧ غم). انظر Walker, *op. cit.*, p. 27 (no. 37, wt. 2.88 gm.), p. 42 (no. 62, wt. 2.98 gm.), p. 47 (no. 67, wt. 2.96 gm.), p. 53 (no. 94, wt. 2.99 gm.), p. 62 (wt. 2.98 gm.), p. 64 (wt. 2.97 gm.) وانظر المقريزي - شذور (م) ص ٢١، ابن تغري بردي، ج ٣، ص ١١٣ و De Sacy, *al- Maqrizi, Traité, des monnaies Musulmanes* (Paris 1797), p. 15, note 27.

(١٧) هرقل مع ولديه وكلهم وقوف، على الوجه، والصليب (المحوّر) على درجات، على الخلف.

التداول، وذلك ناشيء عن التجارة والجزية وغنائم الحرب[١٨]. وهناك إشارات إلى دينار ضربه معاوية وعليه صورته متقلداً سيفاً[١٩] ولكن لم يظهر بين النقود التي عثر عليها لحد الآن ما يؤيد ذلك.

وتتفق المصادر على أن تعريب النقد جرى زمن عبد الملك بن مروان، ولكنها تختلف في تاريخ ذلك بين ٧٤ هـ[٢٠] و٧٥ هـ[٢١] و٧٦ هـ[٢٢]؛ وكلها تعطي تفاسير غير مقبولة لذلك[٢٣]. لقد كان هذا الإصلاح جزءاً من سياسة تعريب المؤسسات، وخطوة لتأكيد السيادة الكاملة، كما أن التطورات الاقتصادية، ومشاكل جباية الضرائب والمشاكل النقدية، وحالة التوتر في العلاقات العربية البيزنطية، كانت ذات صلة بالموضوع[٢٤].

ويبدو من النقود الموجودة أن الخطوات الأولية لتعريب النقد اتخذت سنة ٧٢ هـ/٦٨١ - ٦٨٢ م وبعد شيء من التجربة نفذ الإصلاح النهائي للدينار عام ٧٧ هـ/ ٦٨٦ - ٦٨٧ م[٢٥] وللدرهم سنة ٧٨ هـ/٦٩٧ - ٦٩٨ م[٢٦]. وقد أثرت

---

(١٨) Grierson, *The Monetary Reform of Abd al-Malik*, JESHO, III, pp. 242-3.

(١٩) المقريزي - شذور (م)، ص ٤.

(٢٠) الماوردي، ص ١٤٩، أبو يعلى، ص ١٦٤.

(٢١) الديار بكري - تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣١٠، السيوطي - تاريخ، ص ١٤٥، أبو هلال العسكري - الأوائل، ص ٢٠٥.

(٢٢) ابن الأثير، ج ٤، ص ٣٣٧ - ٨، الطبري، س ٢، ص ٩٣٩، فوات الوفيات، ج ٢، ص ١٩، المقريزي - شذور، ص ٤، ابن تغري بردي، ج ١، ص ١٤٥ - ٦، البلاذري - فتوح، ص ٤٦٧ - ٨. ويرى لافوا ان الاصلاح بدأ سنة ٧٣ - ٧٤ هـ/ ٦٩٢ - ٣ م، Lavoix, *op. cit.*, p. XXVIII, p. XX.

(٢٣) انظر المقريزي، ص ٥، الدميري - حياة الحيوان، ج ١، ص ٧٩ - ٨١، ابن تغري بردي، ج ١، ص ١٧٦ - ٧، البيهقي - المحاسن والمساوىء، ج ٢، ص ٢٦.

(٢٤) Walker, *op. cit.*, p. LIII-V; Lavoix, *op. cit.*, p. XXV المقريزي - اغاثة الأمة، ص ٥٥ - ٦.

(٢٥) شهدت فترة التجربة للدينار (٧٢ - ٧٧ هـ) اضافة كتابة إسلامية (حوالي ٧٢ هـ) مع تعديل الرموز المسيحية، ثم ديناراً عليه صورة الخليفة واقفاً ومشتملاً على سيف مع الكتابة الإسلامية سنة ٧٤ هـ، وأخيراً الدينار الخالص للكتابة. انظر Walker, *Arab-Byzantine Coins*, p. LIII and p. 18; Grierson, *op. cit.*, JESHO, III, p. 243-4.

(٢٦) كان للدرهم - مع كثرة دور الضرب - تنوع أكبر في فترة التجربة، فمن نماذجه محراب وحربة على الخلف، والخليفة مع خادمين على الوجه، ثم الخليفة بسيف ورمح، واخيراً الدرهم المنقوش. وقد كلف الحجاج (٧٥ - ٩٥ هـ/ ٦٩٤ - ٧١٤ م) بإجراء هذا الاصلاح، وتطلب ذلك سنين عدة لتطبيقه في دور الضرب المختلفة، وآخر مثل لدينا لذلك يرجع إلى سنة ٨٣ هـ. انظر Walker, *Arab-Sassanian Coins*, p. XXV; Lavoix, *op. cit.*, p. XXVIII وفي الولايات المتطرفة، مثل طبرستان وبخارى، استمرت =

الإجراءات الأولى على النقوش فقط، ولكن الخطوة الأخيرة أنتجت النقد الجديد المقتصر على الكتابات العربية (الإسلامية) مع عيار جديد (للوزن).

وكان العيار الجديد للدينار هو المثقال العربي، إلاّ أنه حدد من جديد بعشرين قيراطاً عربياً شامياً بدل التحديد السابق وهو «اثنين وعشرين قيراطاً إلاّ حبة»[٢٧]. وكان القيراط العربي الشامي يزن ٠,٢١٢٥ غم، وثبت وزن الدينار بـ ٤,٢٥ غم[٢٨]. أما عيار الدرهم فتبع النسبة ٧: ١٠ أي انه أنقص إلى ٢,٩٧ غم وهو وزن الدرهم الشرعي وبهذا وضع العيار الأساس للدرهم[٢٩]. وربما كانت مسألة الوزن، وهي اقتصادية، من أسباب الإصلاح، وهي مهمة للضرائب[٣٠].

وهنا يجب التمييز بين نسبة الوزن بين الدرهم والدينار (٧: ١٠) وبين سعر التبادل بين النقدين. فقد كان سعر التبادل يتأثر بوجود منطقتين للنقد، وبسعر الذهب والفضة في السوق، وبجريان التجارة، وبالأوضاع الاقتصادية للمناطق المختلفة. وهكذا فإن سعر التبادل في العراق زمن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ/٧١٧ - ٧١٩ م) كان حوالي ١٥ درهماً للدينار[٣١]، وصار ٢٢ درهماً للدينار زمن هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ/٧٨٦ - ٨٠٨ م)[٣٢]، و١٥ درهماً في أواخر القرن الثاني للهجرة[٣٣]. أما سعر التبادل ١٠ - ١٢ درهماً للدينار زمن الرسول (ﷺ) وعمر بن

= النماذج العربية الساسانية إلى القرن الثاني/ الثامن. انظر Grierson, *op. cit.*, pp. 245-6; Walker, *op. cit.*, pp. XVIII-XX; وانظر مجلة المسكوكات عدد ٤ بغداد ١٩٧٣ ص ١٣ عن درهم عربي خالص ضرب بارمينية ٧٨.

(٢٧) وفي روايات أخرى ٣/٧ ٢١ قيراط و٣/٤ ٢١ قيراط.

(٢٨) E.I., 2, Dinar; Grierson, *op. cit.*, JESHO, III, p. 253 ff; Miles, *Early Arab Glassmeights*, A.N.S., no. 111, N.Y., 1948, pp. 9 - 11.

(٢٩) E.I., 2, Dirham, Dinar; Walker, *Arab-Sassanian Coins*, pp. CXLVIII-IX, Decour - demanche, in *R.N.*, 1908, p. 214-5 (R.N. 1884, pp. 336-341) يجعل بلانشارد Blanchard المثقال مساوياً لـ Sou البيزنطي. انظر أيضاً مناقشة غريرسن في JESHO, III, p. 247 ff، قارن البلاذري، ص ٤٦٦. المقريزي - شذور (م) ص ٤ - ٦، الدميري، ص ٧٩ - ٨١؛ De Sacy, *op. cit.*, pp. 16 - 18, note 34, p. 19, note 36.

(٣٠) انظر ابن خلدون، ص ٤٦٤، أبو هلال العسكري - الأوائل، ص ٢٣٨: المقريزي - اغاثة الأمة، ص ٢٥ - ٢٦.

(٣١) تاريخ الخلفاء - مؤلف مجهول، ص ٣٦٢.

(٣٢) الجهشياري - الوزراء (ط. السقا)، ص ٢٨٨.

(٣٣) الطبري، س ٣، ص ٢٦، قدامة - الخراج (دي خويه)، ص ١٤٤.

الخطاب، والذي حدد لبعض الالتزامات كالدية، فاستعمل بعدئذ كنسبة نظرية لحساب ما يلزم دفعه فعلاً في ضوء سعر التبادل الحقيقي.

وقد حافظ الأمويون على نسبة عالية ومستقرة من النقاء للدينار، إذ يبدو انها كانت تبلغ في زمن عبد الملك ٩٦ بالمئة، وفي زمن هشام (١٠٥ - ١٢٠ هـ/ ٧٢٤ - ٧٤٣ م) بلغت النسبة ٩٨ بالمئة. واتجه هشام إلى مركزية الضرب، فحدد ضرب الدراهم بواسط، وربما حدد ضرب الدينار بدمشق(٣٤). ومع أن العباسيين لم يحافظوا على هذه المركزية فإنهم حافظوا على درجة عالية من النقاء للدينار، وإذا استثنينا فترة الفتنة بين الأمين والمأمون فإن درجة النقاء كانت عادة بين ٩٦ بالمئة و٩٨ بالمئة، واستمرت بهذا المعدل حتى نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي(٣٥). ولكن تدهوراً حصل في نقاء النقد في العصر البويهي وبلغ درجة خطيرة(٣٦).

ولقي الدرهم عناية مماثلة، وتشيد مصادرنا بالدراهم العربية بعد الإصلاح(٣٧). وحافظ العباسيون على المستوى العالي لأسلافهم وحاولوا أن يجودوا فيه. وقد قام السيد فروحة بدراسة للتركيب الكيمياوي ولدرجة النقاء لعشرة دراهم(٣٨)، وتوصل إلى نتائج دقيقة نورد بعضها:

---

(٣٤) توقفت دار الضرب في الأندلس بعد سنة ١٠٦ هـ/ ٧٢٤ - ٥ م. E.I., 2, Dinar; Walker, *Arab - Sassanian Coins*, p. LIX.

(٣٥) Ehrenkreutz, *Studies in the Monetary History of the Middle Ages*, JESHO, II, esp. pp. 142-144.

(٣٦) *Ibid.*, pp. 147-8.

(٣٧) كانت دراهم ابن هبيرة (إلى ١٠٥ هـ/ ٧٢٤ م) أجود من دراهم الحجاج، كما تفوقت دراهم خالد القسري (إلى ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م) على دراهم ابن هبيرة، وذهب يوسف بن عمر (إلى ١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م) ابعد من خالد القسري في تجويد الفضة وفي تدقيق العيار. انظر المقريزي - شذور (م) ص ٧، الماوردي ص ١٤٩ - ١٥٠، أبو يعلى، ص ١٦٥.

(٣٨) Farroha, S.M., *The Chemical Composition and Finess of some Ancient Arabic Coins;* M. S. Thesis, Ohio State University, 1956 (unpublished).

رقم	تاريخ	المدينة	الوزن ـ غم	القطر ـ ملم	فضة	نحاس	الصفاء بالتحليل	الصفاء بالوزن النوعي
١	٨٥/٧٠٤	واسط	٢,٨٣	١٣,١	٩١,٨٤	٦,١٦	٩١,٥	٩٠,٨
٢	٩٢/٧١٠ ـ ١١	درابجرد	٢,٧٦	١٢,٤	٩٢,٧٣	٤,٢٥	٩٢,٧	٩٩,٥
٣	٩٥/٧١٣ ـ ٤	كرمان	٢,٧٣	١٢,٨	٩٤,١٥	٣,٥٦	٩٤,١	١٠٠
٤	١٠٠/٧١٨ ـ ٩	البصرة	٢,٨٣	١٢,٧	٩١,١٧	٦,٣٥	٩١,٢	٩٨,٤
٥	١٠٠/٧١٨ ـ ٩	دمشق	٢,٨١	١٧,٤	٩٥,٥٨	٢,٢٤	٩٥,٦	١٠٠
٦	١١٢/٧٣٠ ـ ١	أفريقية	٢,٩٤	١٤,٦	٩٨,٠٥	٠,٨٤	٩٨	٩٩,٥
٧	١١٨/٧٣٦	الأندلس	٢,٩٣	١٣,١	٩٤,٢٠	٣,٩٦	٩٤,٢	١٠٠
٨	١٢٤/٧٤١ ـ ٢	واسط	٢,٨٦	١٢,٨	٩٨,٣٦	٠,٢٣	٩٨,٥	١٠٠
٩	١٦١/٧٧٧ ـ ٨	الأندلس	٢,٧٤	١٤,٨	٩٨,٠٨	١,٢٠	٩٨	١٠٠
١٠	١٨٨/٨٠٣ ـ ٤	مدينة السلام	٢,٩٤	١٢,٣	٩٩,٢٤	٠,٢٢	٩٩,٢	١٠٠

ويتعذر تقديم استنتاجات عامة، ولكن بعض الملاحظات ضرورية. فنسبة الفضة تتراوح بين ٩١,١٧ بالمئة و٩٩,٢٤ بالمئة. ويكوّن النحاس الخليط الأول وتتراوح نسبته بين ٠,٢٢ بالمئة و٦,٣٥ بالمئة، أما بقية المواد (رصاص، ذهب، حديد، تنك) فهي أوشاب طارئة.

وترجع الدراهم الثلاث الأولى في الجدول إلى فترة الحجاج ويتراوح صفاؤها بين ٩١,٥ بالمئة و٩٤,١ بالمئة. وأما الدراهم ٦ ـ ٨ فضربت زمن هشام (والمفروض في واسط) وهي أعلى درجة في الصفاء (درهم واحد ٩٤,٢ بالمئة واثنان ٩٨ بالمئة). أما رقم (١٠) فضرب زمن الرشيد حين تولّى السندي بن شاهك الإشراف على دور الضرب[٣٩].

وهكذا تتبين الدرجة العالية لصفاء الدراهم واستمرار تجويدها في فترة الإصلاح وبعدها، وفي العصر العباسي الأول.

ولعلّ هذه المقدمة تزيد قليلاً عما يتطلبه البحث، ولكنها ضرورية لفهم مشاكل العملة في القرن الرابع الهجري، خاصة وأننا لا نزال نفتقر إلى بحث شامل في هذا الموضوع[٤٠].

ولننظر الآن إلى بعض هذه المشاكل لأنها تلعب دوراً هاماً في الحياة المالية في ذلك القرن.

أولاً: نظام النقد المزدوج

كانت الدولة تتبع نظام المعدنين (Bimetallism) في القرن الرابع الهجري، إذ كان أساس النظام النقدي الدينار الذهبي والدرهم الفضي. ولدينا بعض الحقائق التي تؤيد هذا الرأي.

١ ـ كانت المعاملات الرسمية تجري بالدراهم والدنانير معاً[٤١]، فلم يكن هناك

---

(٣٩) *Ibid.*, p. 2, p. 9 ff.

(٤٠) لقد حذفنا بعض التفاصيل الممتعة التي حصلنا عليها من فهارس مجموعات النقود في المتاحف الكبرى فيما يتعلق بالنقوش والكتابات والألقاب على النقود، وذلك لئلا نخرج عن موضوعنا الأصلي.

(٤١) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٦، الصابي، ص ١١، ابن حوقل ـ المسالك والممالك باعتناء دي خويه (ليدن ١٨٧٠)، ص ١٤٤، ابن الأثير، ج ٨، ص ٤٢ وص ٧٧، المقدسي ـ أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم، ص ٣٤٠ ـ ١، مسكويه: تجارب الأمم، ج ١، ص ١٨ ـ ٩.

حد للكمية التي يمكن استعمالها من كل منهما، بل كانت الظروف وحدها تملي استعمال هذه أو تلك. ولم يوفق (فون كريمر Von Kremer)[٤٢] في اعتقاده بأن أساس النظام النقدي كان الذهب فقط، لأنه استنتج ذلك من كون قائمة الوزير علي بن عيسى لدخل الدولة لسنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م، تعطي الوارد بالدنانير، وقد وافقه (فيشل Fischel) على رأيه دون تمحيص[٤٣]. ولكن الاستناد إلى تلك القائمة فقط لا يكفي خاصة ولدينا قوائم ومعاملات أخرى الفترة نفسها مقدّرة بالدراهم. فعندما ضمن السكري ضرائب فارس وكرمان سنة ٢٩٧ هـ، وعد أن يدفع للخزينة ثلاثة عشر مليوناً من الدراهم[٤٤]. ولما اتفق علي بن عيسى مع جهبذين على قرض شهري دائم، حدد مقدار القرض سنة ٣٠١ هـ/٩١٣ م بالدراهم[٤٥]. كما أن قائمة عضد الدولة لموارد السواد كانت مقدرة بالدراهم[٤٦].

٢ ـ إن اتخاذ الذهب وحده قاعدة للنقد، يوجب تحديد عدد الدراهم في الدينار وفق نسبة ثابتة، ولكن ذلك لم يحصل واستمرت نسبة الصرف في ارتفاع وهبوط طيلة القرن الرابع الهجري.

٣ ـ وهناك بعض الأمثلة الدالة على أن قيمة الدنانير والدراهم كانت تتوقف بالدرجة الأولى على نقائها. يروي ابن الأثير في حوادث سنة ٣٣٠ هـ/٩٤١ م، أن ناصر الدولة «ضرب دنانير سماها الابريزية، عيارها خير من غيرها، وكان الدينار بعشرة دراهم، فبيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً»[٤٧].

٤ ـ وكانت قيمة الدينار تعطى أحياناً بعدد ما يساويه من الدراهم، بينما كانت قيمة الدرهم تخصص أحياناً بنسبته إلى الدينار. فمثلاً يذكر ابن حوقل أن وارد برقعيد (قرب الموصل) حوالي سنة ٣٥٧ هـ بلغ «ألفا دينار قيمتها من الورق (الفضة) ٣٠,٠٠٠ درهم»[٤٨]. ويروي مسكويه أن سعر بغلة أهديت إلى ابن العميد كان

(٤٢) Von Kremer, *Einnahmebudget*, p. 6 ff.

(٤٣) Fischel, *Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam*, London 1937, p. 3.

(٤٤) مسكويه، ج ١، ص ١٨ ـ ٩.

(٤٥) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٢٦.

(٤٦) المقدسي، ص ١٣٣.

(٤٧) ابن الأثير، ج ٨، ص ٢٨٨ ـ ٩، مسكويه، ج ٢، ص ٣١ م ١.

(٤٨) ابن حوقل (ك)، ص ٢١٨.

ثلاثة آلاف درهم وتساوي مئتي دينار(٤٩). وهذه الأمثلة تبين بوضوح أن نظام النقد كان مزدوجاً في القرن الرابع الهجري.

ولكننا نلاحظ ـ مع وجود نظام المعدنين ـ شيوع استعمال إحدى العملتين في المعاملات في فترة ما أكثر من الأخرى. فكان استعمال الدراهم أعم من استعمال الدنانير في العراق حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. فالجهشياري يذكر ما خلفه المنصور في بيت المال مقدراً بالدراهم (٩٠٠ مليون درهم)(٥٠). وفي قائمة خراج الدولة زمن الرشيد نرى أن وارد جميع الولايات الواقعة شرق سورية، ومجموع الدخل، مقدر بالدراهم(٥١). وقائمة ابن خرداذبه تعطي خراج العراق مقدراً بالدراهم كذلك(٥٢). ويقول الجاحظ (المتوفى سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م): إن «الدرهم هو القطب الذي عليه رحا الدنيا»(٥٣). كما أننا نجد في تاريخ هذه الفترة إشارات كثيرة إلى معاملات بالدنانير(٥٤).

ولكن ما خلفه المعتضد (٢٨٩ هـ/٩٠١ م) في بيت المال كان ستة عشر مليون دينار وثلاثة ملايين درهم(٥٥). وترك خلفه المكتفي (٢٩٥ هـ/٩٠٨ م) أربعة عشر مليون دينار فقط(٥٦). وهكذا يظهر أن الدينار زاد تداوله بصورة تدريجية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري حتى أصبح استعماله أعم من الدرهم في أوائل القرن الرابع الهجري. فنجد أكثر حسابات الدولة ومعاملاتها في الفترة بين (٢٩٥ ـ ٣٣٤ هـ/٩٠٨ ـ ٩٤٥ م) تجري بالدنانير(٥٧). ثم انعكس الوضع بعد تغلب

---

(٤٩) مسكويه، ج ١، ص ٢٧٨. انظر أيضاً ـ الصولي، أخبار الراضي والمتقي بالله، ص ١١٦، الصابي، ص ٢٨٤.

(٥٠) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب، ص ١٥٨.

(٥١) ن.م.، ص ٢٨١ وما بعدها.

(٥٢) ابن خرداذبه ـ المسالك والممالك، ص ٨ ـ ١٤.

(٥٣) الجاحظ ـ البخلاء، ص ٢٦٨.

(٥٤) الجهشياري، ص ١٠٠، ص ١٠٦، ص ١٥٤، ص ١٧٠، ص ١٨١، ص ١٨٢، ص ٢٢٣.

(٥٥) العقد الفريد لابن عبد ربه (القاهرة ١٩١٣)، ج ٢، ص ٥٨.

(٥٦) مسكويه، ج ١، ص ٢٣٨.

(٥٧) أمثلة: قائمة نفقات المعتضد السنوية في الصابي، ص ١١ ـ ١٢، وقائمة علي بن عيسى في Kremer, *Einnahmebudget* ص ٢٧ وما بعدها، وقائمة دخل الخزينة الخاصة للمقتدر في مسكويه، ج ١، ص ٢٣٨ ـ ٢٤١، وأمثلة رواتب في: الصابي، ص ١٣٩، مسكويه، ج ٢، ص ١٥٤، ١٥٩، الصولي، ص ٣٢٨، مسكويه، ج ١، ص ١١٠، ص ٢٣٩، عريب ـ صلة الطبري، ص ٤٥.

البويهيين على العراق (سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م)، وصار التعامل بالدراهم أعم[٥٨].

ولعل سبب شيوع التعامل بإحدى العملتين في وقت ما يتعلق بتوفر الذهب أو الفضة آنئذ وبقيمتهما في السوق. ولكن النظام النقدي بقي مزدوجاً دائماً.

ويبدو أن سبب وجود نظام المعدنين يعود إلى الظروف التاريخية. فقد كان الذهب أساس النظام النقدي في سورية ومصر وشمالي أفريقية منذ العصر البيزنطي، بينما كانت الفضة الأساس في إيران والعراق منذ العهد الساساني، فلما جاء الإسلام ترك العملتين على حالهما، فبقيت منطقة الذهب إلى جانب منطقة الفضة. ولكن مركز الخلافة كان يتعامل بالاثنين واعتبر الخلفاء كلاً من الذهب والفضة قاعدة للعملة.

ثانياً: هل كان التعامل بالنقود بالوزن أم بالعد؟

هناك أخبار متفرقة تشير إلى أن طريقة الوزن كانت متبعة. يروي التنوخي أن أحد عمال الوقف طالب الخليفة المعتضد بإيجار أرض موقوفة أدخلت في قصره، فقال له المعتضد: «فكيف حذقك بالنقد والوزن؟ فقلت: أعرفهما. قال: هاتوا ميزاناً. فجاؤوا بميزان حراني حسن عليه حلية ذهب فأخرج من الصندوق دنانير عيناً فوزن منها أربعمائة دينار وقبضتها»[٥٩]. وورد في **كشف الغمة في معرفة الأئمة**، للاربلي، أن رجلاً معه صرّة دنانير أراد شراء جارية، ففكوا الصرّة ووزنوا الدنانير فإذا هي سبعون ديناراً[٦٠]. ولكن يجب أن نتذكر أن الدينار الصحيح يزن مثقالاً واحداً، وهذا يجعل الوزن أسهل من العد، خاصة إذا كانت الكمية كبيرة. وأخيراً يقول المقدسي (٣٧٥ هـ/٩٨٥ م)، في حديثه عن العراق: «ونقودهم بالوزن»[٦١]، وقد يفهم من قوله انهم كانوا يتعاملون بالوزن.

ولكن يبدو أن النقود كانت تؤخذ عادة بالعد، إذ كانت الرقابة شديدة على عيار النقد والتأكيد قوياً على أن يكون وزن النقود صحيحاً[٦٢]. وكانت الحكومة تمنع

---

(٥٨) أمثلة: قائمة واردات السواد في عهد عضد الدولة في المقدسي، ص ١٣٣، مسكويه، ج ٢، ص ١١٤، ابو شجاع (تكملة مسكويه)، ص ١٣٦، ص ١٧٣، ص ٣٤٨. أمثلة رواتب: مسكويه، ج ٢، ص ١٧٤، أبو شجاع، ص ١٦١ - ٦.

(٥٩) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ١٦.

(٦٠) الاربلي ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة (طهران ١٢٩٤ هـ)، ص ٢٢٠.

(٦١) المقدسي، ص ١٢٩، ملاحظة رقم ٤.

(٦٢) رسائل الصابي (أبو اسحاق)، ج ١، ص ١١٣، ص ١٤١.

الناس من التعامل بالنقود المكسورة. يروي سبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٣ هـ «ورفع (الوزير) التعامل بالقراضة وكان ذلك قد أعيا الوزير قبله»[٦٣]. كما كان الفقهاء يحرمون التعامل بالنقود المثلومة ويعتبرون ذلك نوعاً من الربا لأن دافعها يربح ربحاً غير مشروع حينما تؤخذ منه هذه النقود باعتبارها نقوداً جيدة[٦٤]. ويقول ابن الأثير في حوادث (سنة ٤٨٦ هـ) عن أحد الوعاظ: «وكان سبب منعه من الوعظ أنه نهى أن يتعامل الناس ببيع القراضة بالصحيح»[٦٥].

فإن كانت النقود تؤخذ بالوزن لا بالعد لم تبقَ ضرورة لهذه التأكيدات. والذي يبدو هو أن أوزان النقود كانت معلومة وثابتة فكان التعامل بها عادة بالعدد ويمكن أخذها بالوزن للسهولة.

وكانت النقود توزن أحياناً لضرورات مختلفة. فمثلاً يتطلب تعيين مقدار الزكاة تقديرها على أساس الدينار الشرعي (ووزنه مثقال)، والدرهم الشرعي (ووزنه أربعة عشر قيراطاً) وذلك بوزن الدراهم والدنانير التي تختلف أوزانها عن الأوزان الشرعية. وفي المعاملات بين بلاد تختلف نقودها في الوزن، كان وزن النقود الشرعية هو العامل المشترك للتفاهم[٦٦]. وكان من اللازم وزن النقود الممسوحة أو المكسرة أو المثلومة قبل استلامها. ومع وجود التقييدات الكثيرة فإن قطع الدنانير كان معروفاً في العراق[٦٧]. وفي أوقات الضيق كانت الحكومة نفسها تسمح باستعمال النقود الممسوحة. ففي سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م، وقع غلاء فنادى الوزير «بأن يتعامل الناس بالغليظ من الدراهم والممسوح طلباً للرفق بهم»[٦٨]. ولكن مثل هذا كان شاذاً.

واستعمل العراقيون صنجات (أوزان) خاصة من الزجاج طبع عليها شكل الدرهم أو الدينار ونقوشه لتعيين أوزان النقود[٦٩]. وكان لونها أخضر غامقاً[٧٠].

---

(٦٣) عن «العملة والمعاملة والقراضة» انظر مصطفى جواد، مجلة غرفة تجارة بغداد، ١٩٤١، ص ٣٧٤.

(٦٤) ن.م.، ص ٣٧٦.

(٦٥) ابن الأثير (القاهرة ١٣٠٣)، ج ١، ص ٧٨.

(٦٦) عباس العزاوي - مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١، ص ٦٢٤ - ٦.

(٦٧) ابن خلكان (طبعة بولاق)، ج ١، ص ٦٣٢.

(٦٨) الصولي - اخبار الراضي والمتقي بالله، ص ٧١.

(٦٩) عباس العزاوي - تاريخ النقود العراقية (٢)، مجلة غرفة تجارة بغداد، ١٩٤١، ص ٢٢٦.

(٧٠) البارودي - صناعة الزجاج في مصر (القاهرة ١٩٠٨).

ثالثاً: أسعار الصرف

لم يكن سعر صرف الدراهم بالدنانير ثابتاً، بل كان في هبوط وصعود طيلة القرن الرابع الهجري. ولم يكن لذلك التغيير اتجاه معين في النصف الأول من هذا القرن، ولكنه يشير إلى زيادة سعر الدينار زيادة واضحة في السنين الأخيرة منه.

وفيما يلي جدول يبين بعض تلك الأسعار(٧١):

السنة	عدد الدراهم في الدينار	المصدر
حوالى نهاية القرن الثالث	١٥/١٤	قدامة - ص ١٤٤، الصابي ص ٣٦ وص ٢٢٧
٣٠٠ هـ/٩١٢ م	١٥	التنوخي - نشوار ج ٨ ص ٢٦
٣٠٢ هـ/٩١٤ م	١٥	الصابي - وزراء ص ٨٠ - ١
٣٠٧ هـ/٩١٩ م	١٤ و٢/١	مسكويه - ج ١ ص ٧١
٣١٠ هـ/٩٢٢ م	١١ و٤/٣	الصابي - ص ٨٩
٣١٢ هـ/٩٢٤ م	١٢	مسكويه - ج ١ ص ١٤٦
٣١٥ هـ/٩٢٧ م	١٥	قدامة - الخراج ص ٢٣٩
٣١٥ هـ/٩٢٧ م	١٦	مسكويه - ج ١ ص ١٦٥
٣٢١ هـ/٩٣٣ م	١٤	ن.م. - ج ١ ص ٢٧٣ - ٤
٣٣٠ هـ/٩٤١ م	١٠	مسكويه - ج ٢ ص ٣١؛
٣٣٠ هـ/٩٤١ م	١٣ (للدينار الابريزي)	ابن الأثير - ج ٨ ص ٢٨٨ - ٩
٣٣١ هـ/٩٤٢ م	١١	الصولي - أخبار الراضي ص ٢٣٤
٣٣٢ هـ/٩٤٣ م	١٥	مسكويه - ج ٢ ص ٥٤
٣٤٥ هـ/٩٥٦ م	١٤	ابن الجوزي - المنتظم ج ٨ ص ٣١
٣٥٨ هـ/٩٦٨ م	١٥	ابن حوقل - ص ٢١٨
٣٦٤ هـ/٩٧٥ م	١٤	الهمداني (تكملة) ص ٢٥٩
٣٩٠ هـ/٩٩٩ م	٢٠	الصابي - التاريخ ص ٣٩٥
٣٩٢ هـ/١٠٠١ م	٢٥ (للدينار الصاحبي)	الصابي - ص ٤٦٨
٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م	٤٠ (للدينار القاساني)	الصابي - ص ٤٨٤

وهناك عوامل متعددة أثرت في أسعار الصرف، منها:

١ - كان مقدار المعادن الرخيصة في النقود وأسعار الفضة والذهب في السوق من

---

(٧١) في حياة الرسول (ص) كان الدينار = ١٢ درهماً .*Journal Asiatique*, 1879, VII, p 527, وفي خلافة عمر، كان الدينار = ١٠ - ١٢ درهماً، أبو يوسف - الخراج (القاهرة ١٣٥٢)، ص ١٨٥، وفي خلافة علي كان الدينار = ١٠ دراهم، المسعودي - مروج الذهب، ج ٥، ص ٣٢٧، وفي خلافة هارون الرشيد كان الدينار = ٢٠ إلى ٢٢ درهماً، الجهشياري، ص ٢٨٨.

العوامل الأساسية[٧٢]. ولكننا لا نعرف الكفاية عن نسبة الخليط في النقود[٧٣]، ولذلك لا نستطيع تقدير أهمية هذا العامل.

٢ ـ ومع أن الأقطار الممتدة من مصر في الغرب إلى ما وراء النهر في الشرق خضعت لسلطة سياسية واحدة، إلاّ أنها لم تصبح يوماً ما منطقة نقدية موحدة (Monetary Bloc). فبينما كان نظام النقد مزدوجاً في أذربيجان والجبال وجرجان وطبرستان[٧٤] والديلم والري، كان فردي القاعدة في مصر في الغرب وكرمان وبخارى ومقاطعة فارس في الشرق. فكانت المقاطعات الثلاث الأخيرة ضمن منطقة الفضة، تتعامل بالدراهم وتعتبر الذهب نوعاً من البضاعة[٧٥].

أما مصر فكانت ضمن منطقة الذهب وتستعمل الفضة للحلي والأثاث[٧٦]. وكان العراق مركزاً للتبادل بين منطقة الفضة في الشرق، ومنطقة الذهب في الغرب، فأثر ذلك في أسعار الصرف فيه.

٣ ـ لم تكن قيمة الدينار العراقي مساوية دائماً لقيمة الدينار المصري. فمثلاً يبين المقريزي أن الدينار العراقي كان يساوي سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ م، ٨٠ بالمئة من قيمة الدينار المصري[٧٧]. كما كانت نسبة الدرهم للدينار تختلف أحياناً في العراق عنها في المقاطعات الإيرانية. فمثلاً كان الدينار سنة ٣٢١ هـ/٩٢٣ م يساوي أربعة عشر

---

(٧٢) انظر ابن الأثير، ج ٨، ص ٨٨ ـ ٩، مسكويه، ج ١، ص ٣١.

(٧٣) يورد ايرنكروتيز في دراسته لبعض الدنانير ملاحظات ممتعة. ويتبين أن الدنانير المضروبة في بغداد بين ٨٣٦ و٩٤٢ م كانت على درجة عالية من النقاء تبلغ ٩٦ بالمئة فأكثر، بالرغم من اصدار دنانير من جودة أدنى في أواخر هذه الفترة. ولكن تدهوراً خطراً في جودة الدنانير البغدادية حصل زمن البويهيين. Ehrenkreutz, JESHO, II, pp. 128-163, cf. p. 154 أما عن الدراهم، فإن القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٣ ص ٤٦٧، ٤٤٣) يبين أن النسبة في الدرهم الجيد هي ٣/١ نحاس و٣/٢ فضة، ويوافقه ابن فضل الله العمري، بينما يرى ابن مماتي (قوانين الدواوين ـ ص ٣٣٣) أن النسبة الجيدة هي ١٠/٣ نحاس و١٠/٧ فضة. وكل من النسبتين تظهر بعض التراجع عن مستوى النقاء بعد عبد الملك وفي العصر العباسي الأول حين لم تبلغ نسبة الخليط العشر. انظر Farroha, *op. cit.*, p. 2-3.

(٧٤) ابن حوقل، ص ٢٥٠، ص ٢٦٧، ص ٢٧٠، الاصطخري ـ المسالك، ص ٢٠٨.

(٧٥) الاصطخري، ص ١٦٨، ص ٣١٤، ابن حوقل (B.G.A.)، ص ٢٢٤.

(٧٦) المقدسي، ص ٢٠٤. يقول المقريزي في (اغاثة الأمة)، ص ٦٢: «اما مصر... فما برح نقدها المنسوب إلى قيم الأعمال وأثمان المبيعات الذهب خاصة»، وفي ص ٦٤ «واما الفضة فكانت بمصر تتخذ حلياً وأواني، وقد يضرب منها الشيء للمعاملات التي يحتاج إليها في اليوم لنفقات البيوت».

(٧٧) De Sacy, *Chrestomathie Arabe*, Paris 1806, Vol. II, p. 130.

درهماً في العراق، بينما كان يساوي خمسة عشر درهماً في الري[٧٨].

ولا بد من أن هذا العامل، وحركة التجارة، أثرا في حركة النقود الذهبية والفضية بين العراق وجيرانه[٧٩]. فمثلاً استلم التاجر ابن الجصاص سنة ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨م مئة ألف دينار من مصر[٨٠]. ويذكر المقدسي «أن المصريين يكثرون التعامل (بالدنانير) الراضية...» (نسبة إلى الخليفة الراضي)[٨١].

أما ارتفاع سعر الدينار بسرعة في عهد الأمير بهاء الدولة البويهي (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ/٩٨٩ - ١٠١٢ م) فيرجع إلى:

أ - تدهور سعر الدرهم لزيادة نسبة المعدن الرخيص فيه[٨٢].

ب - ونتيجة لتدهور الدرهم قلت كمية الدنانير في التداول، فزاد ذلك في ارتفاع سعر الدينار[٨٣].

ج - وأثرّ فتح الفاطميين لمصر في حركة النقود[٨٤]، وذلك للعداء بين العباسيين والفاطميين. ففي سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٦ م، منع الخليفة العباسي التعامل بالدنانير المصرية[٨٥]. كما قلّ الذهب الوارد إلى العراق، لأنه كان يستورد على الأغلب من مصر، فلما زاد رخاء مصر في العصر الفاطمي صار أكثر الذهب يستعمل فيها ولا يبقى إلاّ القليل للتصدير.

رابعاً: الإشراف على دار الضرب

كانت دار الضرب تحت إشراف الخليفة والأمير البويهي وممثليهما بما فيهم

---

(٧٨) مسكويه، ج ١، ص ٢٧٣ - ٤ وص ٢٧٨.

(٧٩) ابن الأثير، ج ٩، ص ٣٠٨، أبو شجاع، ص ٦٠ - ٤٤، Sauvaire, *Journal Asiatique*, 1880, XV, p. 450.

(٨٠) عريب، ص ١٣٠، مسكويه، ج ١، ص ٣٥.

(٨١) المقدسي، ص ٢٠٤. ويقول القلقشندي (ج ٣، ص ٤٤٠)، ولقوله قيمة وان كان في عصر متأخر: ان الدنانير المتداولة في مصر اما مضروبة أو واردة إليها «من المسكوكات في غيرها من الممالك».

(٨٢) الصابي، ص ٤٠٢.

(٨٣) انظر الصابي، ص ٤٠٢.

(٨٤) يروي أبو شجاع قصة مهمة في هذا الصدد - عن مصري رفض أخذ درهم عضدي (نسبة إلى عضد الدولة) من عراقي سافر إلى مصر، فشكا العراقي ذلك إلى عضد الدولة بعد رجوعه. ولكن الأمير البويهي لم يستطع القيام بشيء، ص ٦٠ - ٤.

(٨٥) ابن الأثير، ج ٩، ص ٣٠٨.

القضاة[٨٦]، وكانت الرقابة دقيقة خلال القسم الأكبر من القرن الرابع الهجري. ورد في عهد من الخليفة المطيع إلى الأمير ناصر الدولة الحمداني بتاريخ ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م «وإلى ولاة العيار بتصفية عين الدرهم والدينار من كل خبث وتخليصهما من كل غش ودنس، وضربهما على الامام (العيار) الذي يضرب عليه العين والورق بمدينة السلام، ومنع التجار الذين يوردون الذهب والفضة إلى دور الضرب من تجاوز ذلك وتعديه، وعقوبة من يخالف بما يوجبه جرمه ويقتضيه»[٨٧]. وجاء في عهد الطائع بالله إلى الأمير البويهي فخر الدولة (سنة ٣٦٦ هـ) «وإلى والي العيار بتخليص عين الدرهم والدينار ليكونا مضروبين على البراءة من الغش والتهذيب من اللبس، وبحراسة السكك (جـ. سكة) أن تتناولها الأيدي المدغلة»[٨٨].

ويظهر أن دار الضرب في بغداد كانت تحتوي على عيار معين ثابت (يسمى الامام) لكل من الدراهم والدنانير.

وبعد أن شاع ضمان دور الضرب في العصر البويهي، بقي الضامن تحت رقابة حكومية دقيقة. فمثلاً أمر معز الدولة البويهي بقتل رجل ضمن عمالة دار الضرب في سوق الأهواز لأنه «ضرب دنانير ردية»[٨٩].

ولكن الحكومة كانت تتلاعب أحياناً بالنقد، وخاصة عند حصول الأزمات المالية. ففي سنة ٣٢٧ هـ/٩٣٨ م، ضرب أمير الأمراء (بجكم) «دنانير وحشة وحمل عليها حملاً كبيراً» أي أنه أكثر من نسبة المعدن الرخيص فيها[٩٠]. فولد عمله هذا بعض الاضطراب المالي. ثم جاء ناصر الدولة (سنة ٣٣٠ هـ/٩٤١ م)، فحسن الوضع بتخليص ذهب الدنانير وضربها على عيار جيد. يقول الصولي: «وجرت بينه (ناصر الدولة) وبين الصيارف بمدينة السلام خطوب كثيرة في عيار الدنانير»[٩١]، مما يدل على أن الصيارف كانوا يحبذون زيادة المعدن الرخيص في الدنانير، وليس ذلك بعجيب لأنهم كانوا يأخذون الذهب والفضة من الناس إلى دار الضرب، ويعطون أصحابها نقوداً تساوي ما أخذوه في القيمة الاسمية، فكانت زيادة الخليط تزيد في أرباحهم.

---

(٨٦) كان القاضي التنوخي يشرف على احدى دور الضرب. ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٠٢.

(٨٧) رسائل الصابي، ص ١٤١.

(٨٨) ن.م.، ص ١١٣.

(٨٩) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٧٢.

(٩٠) الصولي ـ أخبار، ص ١٢٦.

(٩١) ن.م.، ص ٢٢٩.

يذكر المقريزي أن الدراهم تدهورت في العصر البويهي بإضافة نسبة عالية من الخليط الرخيص[٩٢]. ويبدو أن الدراهم تدهورت زمن عضد الدولة، وأكثر من ذلك زمن بهاء الدولة[٩٣]. وكان تدهورها لدرجة أنه في سنة ٣٨٩ هـ/٩٩٨ م صار الدينار يساوي ١٥٠ درهماً، وهي نسبة لم يسمع بمثلها من قبل[٩٤]. وفي ٣٩٠ هـ/٩٩٩ م «تكلم الديلم في أمر النقد وفساده» وشغبوا وكانت المعاملات يومئذ بالدراهم في الأساس، وأعربوا عن احتجاجهم بأن قصدوا دار الوزير أبي نصر سابور[٩٥]. وهكذا كان تدهور الدرهم سبباً لأزمة مالية.

وأنقص عيار الدينار أيضاً زمن البويهيين[٩٦]، وبلغ التلاعب به حداً حرجاً في فترة بهاء الدولة. فيشير أبو شجاع إلى شغب الديلم سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م بسبب فساد النقد (الدنانير)[٩٧]، وتؤيد الدنانير التي وصلتنا صحة هذه الإشارة. فدرجة نقاء بعض الدنانير البويهية[٩٨] تعطي فكرة عن ذلك كما يتبين أدناه:

٣٤٩ هـ	معز الدولة	مدينة السلام	درجة النقاء	٩٠ بالمئة
٣٦٥ هـ	ركن الدولة	مدينة السلام	درجة النقاء	٨٩ بالمئة
٣٦٦ هـ	عضد الدولة	مدينة السلام	درجة النقاء	٩٣ بالمئة
٣٩٧ هـ	بهاء الدولة	سوق الأهواز	درجة النقاء	دون ٥٠ بالمئة
٤٠٤ هـ	بهاء الدولة	سوق الأهواز	درجة النقاء	٥٦ بالمئة

خامساً: النقود المتداولة

كان الناس يتعاملون بقطع نقدية هي أجزاء ومضاعفات الدرهم والدينار، بالإضافة إلى وحدات النقد. فضرب العباسيون، في القرن الثالث الهجري، دنانير يساوي الواحد منها دينارين اعتياديين، وعليها الكتابة الآتية: «ضرب (القصر) الحسني لخريطة[٩٩] أمير المؤمنين». وكان الخلفاء يهبون هذه الدنانير للمغنين

(٩٢) المقريزي - اغاثة (ط. ٢) ص ٦٢.
(٩٣) أبو شجاع، ص ٦٠ - ٦٤.
(٩٤) الصابي - تاريخ، ص ٣٦٤، ص ٣٧٣.
(٩٥) ن.م.، ص ٤٠٢، وانظر، ص ٣٩٥ وص ٤٨٤.
(٩٦) انظر التنوخي - نشوار، ج ١، ص ٧٢ للفترة قبل بهاء الدولة.
(٩٧) ابو شجاع، ص ٢٥٠.
(٩٨) انظر: Ehrenkreutz, *Studies*. JESHO, II, p. 144; Idem. «Studies on the Monetary History of the Near East in the Middle Ages II», JESHO, IV, 1963, p. 256.
(٩٩) الخريطة هي الخزينة الخاصة Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes* (Leyden 1881), Vol. I, p. 363. و(فون كريمر) في الكتاب المشار إليه سابقاً، ص ٥٣.

ونحوهم[١٠٠]. ويتحدث أبو القاسم البغدادي (سنة ٣٠٦ هـ) عن دنانير وزن الواحد منها مئة مثقال[١٠١]. ويذكر ياقوت الحموي أن ناصر الدولة أرسل إلى أبي إسحاق الصابي «عشرة دنانير من دنانير الصلة، وزنها خمسمائة مثقال»[١٠٢]. وضرب سيف الدولة دنانير صلة وزن الواحد منها عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته[١٠٣]. وأجاز ابن العميد، الوزير البويهي المشهور، أحد الشعراء بدراهم ودنانير، قيمة كل منها خمسة أضعاف قيمة النقود الاعتيادية[١٠٤]. وضرب المقتدر ومعز الدولة وعضد الدولة دراهم يزن الواحد منها درهمين[١٠٥].

وتوجد إشارات إلى نقود تذكارية (Medals). فلما عهد الأمين إلى ابنه موسى «ضرب الدنانير والدراهم باسمه، وجعل زنة كل واحد عشرة ونقش عليه:

كـــل عـــز ومـــفـــخـــر   فـــلـــمـــوســـى المظـــفـــر

مـــلـــك خـــص ذكـــره   فـــي الـــكـــتـــاب المســـطـــر»[١٠٦]

وفي سنة ٣٢٥ هـ/٩٣٦ م، ضرب الراضي دراهم تذكارية زنة كل منها خمسة دراهم اعتيادية[١٠٧].

أما أنصاف وأرباع الدراهم والدنانير، فكانت كثيرة في الاستعمال[١٠٨]، حتى يفهم من التنوخي أنه كان لدى أبي القاسم عشرون ألفاً من أنصاف الدراهم[١٠٩]. وتحوي مجموعات النقود إشارات كثيرة إلى أنصاف وأرباع دراهم ودنانير. فمثلاً ورد

---

(١٠٠) المقريزي ـ اغاثة الأمة، ص ٦٠. وضرب جعفر البرمكي دنانير «وزن كل دينار مائة دينار ودينار»، «وكان يفرقها على الناس في النيروز والمهرجان». الجهشياري، ص ٢٤١، المقريزي ـ اغاثة الأمة، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١٠١) حكاية أبي القاسم البغدادي باعتناء متز (هيدلبرج)، ص ٦٨.

(١٠٢) ياقوت ـ معجم الأدباء، ج ١، ص ٣٢٩.

(١٠٣) الثعالبي ـ يتيمة الدهر، ج ١، ص ١٢.

(١٠٤) ن.م.، ج ٢، ص ١٢٦.

(١٠٥) غالب ـ تقويم مسكوكات قديمة إسلامية (اسطنبول ١٣١٢ هـ)، ص ٣٤٨، ص ٣٤٦، ص ٣٣٤، ولانفوا، ص ٣٠٠.

(١٠٦) المقريزي ـ شذور، ص ٨ ـ ٩.

(١٠٧) S. Lane - Poole, (B. M. add.), *Additions to the Oriental Collection in the British Museum* (London 1889 - 90), p. 82.

(١٠٨) الجاحظ ـ البخلاء، ص ١٣٣ ـ ٤.

(١٠٩) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٤٧.

في فهرس «نقود الخلفاء في المتحف البريطاني» (ص ١٣٤) وصف ربع دينار، ومثله في صحيفة ١٤٠ [١١٠]. وفي «ملحق» هذا الفهرس (ص ٧٥) وصف نصف دينار [١١١]، وفي **مجلة النقود** لسنة ١٨٨٣ (ص ٢٣٢) وصف نصف دينار [١١٢]، وفي فهرس «نقود المكتبة الأهلية بباريس» (ص ٢٨٢) وصف ربع دينار، وفي ص ٣٢٠ وصف نصف دينار. وفي فهرس «المسكوكات الإسلامية القديمة في استانبول» (ص ٢٢٣) وصف نصف درهم [١١٣]. وفي **مجلة النقود** لسنة ١٨٨٣ (ص ٢٥٧) وصف نصف درهم، وفي المجلة نفسها لسنة ١٩١٩ (ص ١٩٨) وصف ربع دينار، وفي فهرس «نقود الدول الإسلامية» في المتحف البريطاني (ص ٢٠٢) وصف نصف درهم [١١٤] إلخ.

واستعمل الناس للمشتريات الرخيصة أجزاء الدرهم كالقيراط والحبّة والدانق والطسوج، وهذه أوزان من الفضة مقدارها كما يلي:

الدانق = سدس الدرهم الشرعي = قيراطان وثلث من الفضة = عشر حبّات = ٤ طساسيج [١١٥].

وكانت الفلوس (ج. فلس) النحاسية تستعمل أيضاً، وكانت الأربعة فلوس تساوي طسوجاً واحداً في حياة الجاحظ [١١٦]. ويبين المقريزي أن سبب ضرب الفلوس هو وجود «محقرات» في المبيعات «تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه»، فكان الخلفاء «يجعلون بإزاء هذه المحقرات نحاساً يضربون اليسير منه قطعاً صغاراً تسميها العرب فلوساً لشراء ذلك». ويذكر أنه «لا يكاد يوجد من هذه الفلوس إلاّ

---

(١١٠) Lane - Poole, *The Coins of the Eastern Khaleefehs in the British Museum* (Vol. I, London 1875).

(١١١) انظر الهامش رقم ١٠٧.

(١١٢) The Numismatic Chronicle = N.C.

(١١٣) انظر الهامش رقم ١٠٥.

(١١٤) Lane - Poole, *The Coins of the Mohammedan Dynasties* (M.D.), in the British Museum, classes III-X, London 1876.

(١١٥) Numismatic Chronicle, 3rd, Ser. IV, 1884, pp. 77-8 وانظر البوزجاني - سعيدان، ص ١٧٤ - ٥، الجاحظ - البخلاء، ص ٥٨ - ٩ وص ١٩٣، الخوارزمي - مفاتيح العلوم باعتناء فلوتن (ليدن ١٨٩٥)، ص ٦٢ - ٣.

(١١٦) الجاحظ - البخلاء، ص ١٩٧، ص ٥٨ - ٩، ص ٢٠١.

النزر اليسير». ويبين أنها لم تكن تعتبر «نقداً» وأنها «لم تقم أبداً في هذه الأقاليم بمنزلة أحد النقدين قط»[١١٧].

وكان الخبز يستعمل أحياناً عملة في بغداد[١١٨]. يقول المقريزي: «ولقد كان ببغداد، التي أربت عمارتها على عامة الأمصار، يجعل بإزاء غالب المبيعات عوضاً منها الخبز». ثم يشرح ذلك برسالة الشيخ الرئيس أبي القاسم بن أبي زيد الذي زار بغداد في سنة بضع وأربعمئة، ويقول: «ويتعاملون به(الخبز) في الأسواق ويقيمونه مقام الدرهم في الأنفاق وينتقدونه نقداً قد اصطلحوا عليه، وجعلوا لذلك قانوناً يرجعون إليه، فيردون المثلوم والمكرَّج (وهو الذي فسد وعلته خضرة) كما يرد الدرهم الزائف والدينار المبهرج، ويشترون به أكثر المأكولات والمشمومات، ويدخلون به الحمامات، ويأخذه النباذ والخمار، ولا يرده البزّاز ولا العطّار». ثم يبيّن سعر الرغيف قائلاً: «ومع هذه العناية والاحتياط يباع كل ستين (رغيفاً) بقيراط»[١١٩]. ولعلّ الإشارة هنا إلى قيراط الذهب الذي يساوي جزءاً من عشرين من الدينار، فتكون قيمة ستين رغيفاً درهماً أو درهمين.

سادساً: النقود الجيدة والرديئة

وتصنّف النقود إلى جيدة ورديئة. فالجيدة تضرب على عيار صحيح من فضة أو ذهب نقي نسبياً. ويصف الجاحظ الدنانير الجيدة بـ «مثاقيل وازنة جياد»[١٢٠]، أي أنها من ذهب خالص ووزن الواحد منها مثقال. ويقول في محل آخر: «وخير الدنانير، العتق الحمر إلى الخضرة»[١٢١]. وتدعى الدراهم الجيدة بالدراهم النّقرة[١٢٢].

أما النقود الرديئة فهي أنواع متعددة منها:

١ ــ **الزيوف** (ج. زيف) وهي النقود التي تكون نسبة المعدن الرخيص فيها كبيرة. وكانت الزيوف تقبل بقيمتها الذاتية في المعاملات التجارية فقط، ولا تقبلها

(١١٧) المقريزي ـ اغاثة الأمة، ص ٦٦ ـ ٧.
(١١٨) انظر الجاحظ ـ البخلاء، ص ١٩٧.
(١١٩) اغاثة الأمة، ص ٦٧ ـ ٨.
(١٢٠) الجاحظ ـ البخلاء، ص ٦٥.
(١٢١) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة (دمشق ١٩٣٣)، ص ٨.
(١٢٢) القلقشندي ـ صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٣.

الحكومة في معاملاتها أو جبايتها البتة[١٢٣]، بل كانت تعاقب عليها مما يدل على أنها من صنع المدلّسين[١٢٤]. ويؤكد الفقهاء على ضرورة إخبار مستلم هذه النقود عنها ليكون على بصيرة من أمره.

أما البهرجة أو النبهرجة، فهي نقود يكثر فيها المعدن الرخيص، ويقصد بها الدنانير الرديئة على الأكثر، وإن كان يقصد بها الدرهم أحياناً[١٢٥]. ويبين الجاحظ: انه يمكن معرفة الدينار النبهرج بخفته وثقله[١٢٦]. ويرى (Sauvaire): ان النبهرجة «هي التي لم تضرب بدار الضرب»، ويعتقد أنها لم تكن مقبولة في معاملات الحكومات والأفراد[١٢٧]. ولكن يظهر أن الدراهم والدنانير البهرجة كانت تضرب في دار الضرب في بعض الأحيان. فأمير الأمراء (بجكم) ضرب «دنانير وحشة وحمل عليها حملاً كثيراً»[١٢٨]. ويروي المؤرخ الأرمني اسولك التروني (Asolik de Tarôn) أن عضد الدولة ضرب دراهم مخلوطة بنحاس ورصاص فلم يقبلها التجار في السوق[١٢٩]. ويفهم من الجاحظ أن الدولة كانت تأخذ النبهرجة، بينما كان التجار يرفضونها[١٣٠].

٢ ــ **الشتّوقة**: وهي دراهم تصنع من نحاس وتغطى بطبقة من الفضة. يذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م، أن الأصيفر أمير العرب اعترض الحجاج وقال: «إن الدراهم التي أرسلها السلطان عام أول كانت نقرة مطلية وأريد العوض

---

(١٢٣) حاشية كتاب اغاثة الأمة، ص ٦٢، انظر الكرملي، ص ٥٠ م ٤. ويفهم بالزيوف عادة الدراهم. انظر لسان العرب «زيف» وضوابط دار السكة، ص ٥٠، ص ١٢٤.

(١٢٤) البلاذري ـ فتوح البلدان (القاهرة سنة ١٩٠١)، ص ٤٧٥.

(١٢٥) المقريزي ـ اغاثة الأمة، ص ٥٧ ـ ٨، الجاحظ ـ البخلاء، ص ١٣٤، الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٨، لسان العرب، ج ٣، ص ٣٩.

(١٢٦) الجاحظ ـ التبصر بالتجارة، ص ٨.

(١٢٧) حاشية، ص ٦٢ من كتاب اغاثة الأمة. كتب (سوفير) مقالات ضافية عن النقود الإسلامية في مجلة Journal Numismatique حيث قرأتها. ثم نشرها في مجلدين بعنوان: Sauvaire, *Matériaux pour servir à l'histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmanes,* 2 vols., Paris 1872, 1885.

(١٢٨) الصولي ـ أخبار، ص ١٣٦.

(١٢٩) E. Asolik de Tarôn, II^{e} Partie, B. III, p. 67. ويضيف هذا المؤرخ أن عضد الدولة غضب وأمر بكتابة اسمه على قطع الفخار والنحاس واعطاها إلى بعض رجاله لشراء ملابس ومؤن من السوق، فلم يجرؤ أحد على ردها. ولكن عدم ورود هذه القصة في أي مصدر عربي يحمل على الاعتقاد بأن هذه المحاولة كانت وقتية.

(١٣٠) الجاحظ ـ البخلاء، ص ١٣٣ ـ ٤، انظر الكرملي، ص ٥٠ م ٤.

عنها»[١٣١]. ولا تعتبر الشتّوقة من جملة الدراهم لأن مقدار النحاس فيها أكثر من الفضة[١٣٢].

٣ ــ القراضة والمثلومة: وهي دنانير مكسرة أو مفتتة. يقول الجاحظ عن أحد التجار: «وإن كانت (الدنانير) أرباعاً وأنصافاً دفعها قراضة مفتتة»، ويقول عنه إنه كان «يقطع» الدنانير[١٣٣]. ويقول ابن خلكان: «والمثلوم عبارة عن دينار تقطع منه قطعة صغيرة»، ثم يستطرد «وقد جرت عادتهم في العراق وتلك البلاد أن يفعلوا مثل ذلك لأنهم يتعاملون بالقطع الصغار ويسمونها القراضة، ويتعاملون أيضاً بالمثلوم وهو كثير الوجود بأيديهم في معاملاتهم»[١٣٤]. ويتذمر ابن جبير (٥٨٠ هـ/١١٨٤ م) من أن أهل العراق يقرضون الدنانير[١٣٥].

٤ ـ كما أن النقود كانت تعتبر غير جيدة لأن قيمتها الذاتية تقلّ عن قيمة النقود الجديدة[١٣٦]. وقد تكون مقاديرها كبيرة في التداول، ففي سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م تذمّر ابن أبي الساج من أن محمداً بن خلف أرسل إليه «اثنين وأربعين ألف درهم، غلة رديئة» وأنه يخسر كثيراً في صرفها[١٣٧].

ولم يجز الفقهاء دفع النقود الرديئة ولا مكسور الدراهم والدنانير في الخراج[١٣٨]. أما الأفراد فكانوا مختارين في أخذها أو ردها. يروي التنوخي أن ضامن عمالة دار الضرب بسوق الأهواز «ضرب دنانير ردية... فأنفذها إلى البصرة ليشتري بها الدواب (والبريديون إذ ذاك بها) فلم تؤخذ لشدة فسادها»[١٣٩]. وقد تقبل النقود الرديئة ولكن بقيمة تقل عن قيمة «المضروب الصحيح»[١٤٠].

---

(١٣١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٧٤.
(١٣٢) انظر Sauvaire, J.A., VIII Série, 1880, XIV pp. 456 ff، والجاحظ ـ البخلاء، ص ١٧٣ ـ ٤، والكرملي، ص ١٤٧، وص ٥٠ م ٤.
(١٣٣) الجاحظ ـ البخلاء، ص ١٣٣.
(١٣٤) ابن خلكان (بولاق)، ج ١، ص ٦٣٢.
(١٣٥) ابن جبير (الرحلة)، ص ٢١٨. وترجع هذه الاشارة إلى القرن الثاني عشر والتي سبقتها إلى الثالث عشر الميلادي ولكنهما ذكرتا للتوضيح.
(١٣٦) الصولي ـ أخبار، ص ٧١.
(١٣٧) مسكويه، ج ١، ص ١٧١.
(١٣٨) أبو يعلى، ص ١٦٦.
(١٣٩) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٧٢.
(١٤٠) الماوردي، ص ١٥٠ ـ ١، مسكويه، ج ١، ص ١٧١.

سابعاً: دار الضرب

وتوجد دور للضرب في العاصمة وفي المدن الهامة(١٤١)، وكان ضرب النقود من امتياز الخليفة أو ممثليه. يقول أبو يعلى، عن أحمد بن حنبل: «لا يصلح ضرب الدراهم إلاّ في دار الضرب بإذن السلطان، لأن الناس إن رخص لهم ركبوا العظائم»(١٤٢). ويرى الماوردي أن يتعامل الناس بالنقد المطبوع «بالسكة السلطانية الموثوق بسلامة طبعه، المأمون من تبديله وتلبيسه»(١٤٣).

ولكن دار الضرب كانت مفتوحة للجميع، ويحق لكل فرد أن يأتي بالذهب أو الفضة لتضرب له(١٤٤). وكان التجار والصرافون، في القرن الرابع الهجري، يتوسطون بين الناس وبين دار الضرب، فيأخذون من الناس المعادن الثمينة ويعطونهم ما يساويها في القيمة الاسمية من النقود(١٤٥). وكانت الحكومة تأخذ أجراً بسيطاً على ضرب النقود، يسمى «ثمن الحطب وأجر الضراب»(١٤٦). وقد جعله عبد الملك درهماً في كل مئة درهم(١٤٧). وتكوّن ضريبة دار الضرب أحد موارد الدولة في قائمة علي ابن عيسى، حيث نجد أن دخل دور الضرب في بغداد وسامراء والبصرة وواسط والكوفة بلغ ٦٠,٣٧٠ ديناراً في سنة واحدة(١٤٨). فإذا فرضنا أن الضريبة كانت ١ بالمئة مما يضرب، بلغت قيمة النقود المضروبة للناس (٣٠٦ هـ) ٦,٠٣٧,٠٠٠ دينار، هذا بالإضافة إلى ما تضربه الحكومة. وهذا يظهر قوة الحركة التجارية وضخامة كمية النقود في التداول(١٤٩).

---

(١٤١) انظر E. von Zambaur - Die Münzprägungen des Islams, Wiesbaden 1968.

(١٤٢) أبو يعلى، ص ١٦٥.

(١٤٣) الماوردي، ص ١٥٠.

(١٤٤) أبو يعلى، ص ١٦٥.

(١٤٥) رسائل أبي اسحاق الصابي، ص ١١٣ وص ١٤١، ابن الاخوة ـ معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٦٨.

(١٤٦) المقريزي ـ شذور، ص ٥.

(١٤٧) يعتقد زيدان أن الضريبة كانت أحياناً تختلف باختلاف المدن. التمدن الإسلامي، ج ١، ص ١٢٣.

(١٤٨) انظر زيدان ـ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ١١٣.

(١٤٩) وبهذه المناسبة نشير إلى عادة خزن النقود في القرن الرابع الهجري، ولا بد وانها انقصت الكميات المتداولة كثيراً.

ويعتبر ضرب النقود خارج دار الضرب جريمة[١٥٠]. ففي سنة ٣٢٨ هـ، عوقب رجل على هذه التهمة بالجلد والتشهير على جمل وطيف به في جانبي بغداد[١٥١].

أما طريقة ضرب النقود فكانت كما يلي: ينقى الذهب والفضة بالسبك عدة مرات. ثم تقطع منها قطع ذات وزن معيَّن وتطرَق لتأخذ شكلاً دائرياً. ثم تطبع القطع المستديرة بحديدة منقوشة تدعى «السكة»[١٥٢].

---

(١٥٠) أبو يعلى، ص ١٦٧، البلاذري، ص ٤٧٥.

(١٥١) الصولي ـ أخبار، ص ١٤٨.

(١٥٢) ابن خلدون (بولاق ١٢٨٤) المقدمة، ص ١٠٣ ـ ٤، الماوردي، ص ١٣٠، أبو يعلى، ص ١٦٧، وعلق المقريزي على حاشية شذور العقود بخطه: «في كتاب العين، السكة حديدة تضرب عليها الدنانير والدراهم» ص ٧، انظر الحكيم ضوابط دار السكة، ص ٤٩، ولسان العرب، مادة «سك».

الفَصْل الثَامِن

مُسْتوى المعيشَة

مقدمة

تفيض مصادرنا الأولية بالتفاصيل عن بذخ الوزراء، وترف التجار الأغنياء، وحياة الموظفين الكبار، وغيرهم من المثرين، ولكن هذه المعلومات لا تعطي صورة صادقة للوضع في القرن الرابع الهجري، لأنها لا تنورنا إلاّ عن حياة أقلية صغيرة. إذ إن حياة العامة التي تزرع الأرض، وتشتغل بالحرف وفي السوق، لا تقل أهمية عن حياة تلك الأقلية، بل وقد تزيد. ومع هذا فإن مصادرنا لا تعطي ما يستحق الذكر عن حياة الأكثرية، اللهم إلاّ تلك النتف المبعثرة التي تساعدنا على إلقاء نظرة عابرة عليهم. وهذا ما سنحاوله هنا.

يمكننا أن نقسم المجتمع العباسي من الناحية الاقتصادية ـ في القرن الرابع الهجري ـ إلى ثلاث طبقات كبرى: (١) **العامة**: وتشمل المكدين، والفلاحين، وأهل الحرَف والصنّاع والباعة المتجولين. (٢) **الطبقة المتوسطة**: وتشمل عامة التجار، والموظفين وأصحاب الملكيات الصغيرة من الأراضي. (٣) **طبقة الأغنياء**. على رأسها الخليفة وعائلته وأقرباؤه. ويدخل فيها كبار الموظفين كالوزراء ورؤساء الكتّاب، وكبار التجار كابن الجصاص.

ولم تكن الخطوط التي تفصل بين هذه الطبقات واضحة تماماً ولا جامدة، كما أنها لا تنطبق تماماً على المقاييس الاجتماعية التي كانت تهتم بالنسب والتقاليد الموروثة بصورة أكيدة. ويمكننا أن نقول بصورة تقريبية، إن الناس كانوا يتدرجون في الملكية بالشكل التالي:

يعيش المعدم والمكدي على الصدقة في المسجد. ويليه الفقير الذي يعيش في دار صغيرة، ومتى تحسنت حاله اقتنى حماراً أو قارباً. ثم يتدرج الفرد إلى اقتناء قطعة أرض صغيرة. ويلي ذلك امتلاك دار كبيرة وبعض الخدم، وإذا كان الشخص يشتغل بالتجارة، يوسع حينئذ حقل فعالياته التجارية. إلاّ أن امتلاك الأراضي كان مظهراً أساسياً لتحسن الحال. وكان وجود عدد قليل من الخدم علامة تميز الطبقة المتوسطة عن الفقيرة، بينما كان امتلاك الدار الكبيرة والضياع فارقاً بين الطبقة الغنية والطبقة المتوسطة.

وكانت عناصر الغذاء الرئيسية محدودة وهي نباتية بالدرجة الأولى بالنسبة إلى الأكثرية. وأولها الحنطة والشعير وما يصنع منهما، ويدل على ذلك الإشارات المتكررة إلى أسعارهما. وكانت التمور وافرة، وتكوّن عنصراً مهماً في التغذية. وكان الرز يصحب أكثر الأكلات أو يدخل فيها. وكان اللحم والسمك مهمين جداً، ويمكن للأكثرية الحصول على شيء منهما. وهكذا يمكننا اعتبار المواد المذكورة أعمدة الغذاء الرئيسية.

أولاً: الأسعار

«السعر تحت المنجل»[1]

تعطي مصادرنا ـ عَرَضاً ـ معلومات مبعثرة عن أسعار بعض الحاجيات. ومع أن هذه المعلومات لا تساعد على عمل سلم بالأسعار (Price index) إلاّ أنها تفيد في تكوين أساس متواضع لدراسة مستوى المعيشة، ولمعرفة نصيب كل فئة من الناس من خيرات البلاد.

شهد القرن الرابع الهجري ـ رغم تقلص أراضي الخلافة العباسية ـ توسعاً في التجارة، ونمواً في الحياة المدنية، وازدهاراً في المؤسسات الصيرفية. وهذه عوامل تساعد على رفع مستوى المعيشة، في المدن على الأقل. ومن ناحية أخرى، كان ضعف الخلافة عاملاً مثبطاً للمشاريع الاقتصادية، إضافة إلى أنه قلل وارد الدولة التي كانت المحور الأول للحياة الاقتصادية[2].

---

(١) الثعالبي ـ خاص الخاص، ص ٧٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٣٩.

ثم كان التغلّب البويهي سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م دليل ظهور عصر جديد، كانت له نتائج بعيدة في الحقل الاقتصادي. فقد انتهى، على أثره، ترف البلاط العباسي، ولم تعوّض القصور البويهية عنه في مجال الترف والأبّهة، وبذلك تقلّص سوق التجار لحد كبير. وانتقلت الخزينة من الخليفة إلى البويهيين(٣)، وأصبح صنف الموظفين من الغرباء غالباً، بين تركي وديلمي. وأصبح الاتجاه الاقتصادي نحو الإقطاع، كما يظهر من إعطاء البويهيين الإقطاعات بدل الرواتب للجند خاصة(٤). ولما أصبحت الأرض بيد الجند الترك والديلم، أدى ذلك إلى أن تستغل إمكانيات البلاد الاقتصادية لفائدة غرباء لا صلة لهم بالوضع الاقتصادي في العراق، ولا إدراك عندهم له(٥). وتدهور النظام النقدي والصيرفي، فليس لدينا ما يشير إلى وجود فعاليات صيرفية في العصر البويهي مما يدل على ضعف أهميتها. وكل هذه الاعتبارات تجعل سنة ٣٣٤ هـ خطاً مناسباً يفصل ـ إن جاز ذلك ـ بين فترتين.

ولنبدأ الآن بذكر الأسعار، ودليلنا فيها تلك المواد التي يتكرر ذكرها. ومع ذلك فذكر أسعار مواد أخرى لا يخلو من فائدة. وسنعرض الأسعار وفق السنين في القائمة التالية:

---

(٣) مسكويه، ج ٢، ص ٧٧ وص ١٠٧.
(٤) ن.م.، ج ٢، ص ٩٦ - ١٠٠.
(٥) ن.م.، ج ٢، ص ٩٧ - ٩٩.

١ ـ أسعار مواد متفرقة

التاريخ	البضاعة ووصفها	السعر	
		دينار	درهم
٣٠٣ هـ	ذراع أرض على ضفة دجلة في المواضع الرذلة من بغداد[١]	١	-
٣٢٩ هـ	حمار[٢]	١٠	-
٣٥٠ هـ	رحى جيدة، من الجزيرة[٣]	٥٠	-
القرن الرابع	ناقة[٤]	-	٣٠٠
حوالي ٣٧٠ هـ	تيس[٥]	١	-
٣٨١ هـ	حصان أصيل، لبكجور مولى سيف الدولة[٦]	١٠٠٠	-
٤٤٣ هـ	جمل في البصرة[٧]	٢ - ٣	-
٢٨٢ هـ	ثوب مسمّط[٨]	١٠	-
٢٨٩ هـ	ثوبان قوهيان[٩] بستة عشر قيراطاً	٥/٤	-
٣٠١ هـ	شقة قميص يرتديه القاضي	١٠٠	-
٣٠١ هـ	شقة قميص، ودرّاعة تحته، يرتديها علي بن عيسى الوزير[١٠]	٢٠	-
٣٦٢ هـ	فرجية الطائع، من الوشي القديم[١١]	١٧٠	-
حوالي ٣٦٨ هـ	رداء طبري جميل[١٢]	٣٠	-
حوالي ٣٦٨ هـ	ثوب يماني[١٣]	٥٠	-
٣٧٢ هـ	ثوب سقلاطوني من صنع بغداد[١٤]	٥	-
٣٧٢ هـ	بطانة كرمانية محفوظة في أنبوب قصب[١٥]	٢	-
	جهاز كامل من الأثاث من صنع أرمينية يتألف من عشر سجاجيد مع ما يلزم من أنخاخ ووسائد وبسط[١٦]	٥٠٠٠	.

يتبع

(١) الصابي ـ الوزراء، ص ٢٨٧.
(٢) التنوخي ـ نشوار، ج ١، ص ٨٩، كذلك ج ٢، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ١٣، ص ١٢٧. وسعر ناقة في تلك الفترة ١٠ دنانير.
(٣) ابن حوقل، ص ٢٢٢.
(٤) ابن غرس النعمة ـ الهفوات النادرة (دمشق ١٩٦٨)، ص ٥٤.
(٥) ن.م.، ص ٥٩.
(٦) أبو شجاع، ص ٢١٣ .
(٧) ناصر خسرو ـ سفرنامه (الافرنسية)، ص ٢٢٢.
(٨) ابن الجوزي ـ المنتظم، ج ٥، ص ١٥٩.
(٩) ن.م.، ج ٦، ص ٣٤.
(١٠) الصابي ـ وزراء، ص ٣٢٧.
(١١) ابن الجوزي ـ المنتظم، ج ٧، ص ٦٧.
(١٢) ابن غرس النعمة، ص ٥٤.
(١٣) التنوخي ـ نشوار، ج ٢ (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٣)، ص ١٧٧.
(١٤) أبو شجاع، ص ٦٧.
(١٥) الثعالبي ـ لطائف المعارف، ص ٧٢.
(١٦) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ١٠٣.

تابع

التاريخ	البضاعة ووصفها	السعر	
		دينار	درهم
حوالي ٣٣٠ هـ	جامة لوزينج بفستق من نوع خاص[١]	٥	= (٥٠)
٣٤٥ هـ	خس، سعر كل عشرين رأس منه في بغداد[٢]	-	١
حوالي ٣٣٤ هـ	ثلاث/ أربع ابر[٣]	-	١
حوالي ٣٠٠ هـ	ما طلبته جارية لليلة واحدة[٤]	٢	-
٢٨٢ هـ	ثمن غلام[٥]	٣٠	-
٢٩٦ هـ	ثمن جارية شغف بها المعتز[٦]	-	٧,٠٠٠
حوالي ٣٠٠ هـ	ثمن جارية مغنية لها مواهب فائقة[٧]	-	٣٠,٠٠٠
حوالي ٣٠٠ هـ	جارية جميلة ولكن أقدامها كبيرة[٨]	٥,٠٠٠	-
٣٢٦ هـ	أخذت جارية الجهشياري منه لقاء غرامة قدرها[٩]	١٥,٠٠٠	-
حوالي ٣٣٠ هـ	مغنية[١٠]	-	٧,٠٠٠
	مهور		
٢٨٢ هـ	أمهر الخليفة المعتضد ابنه خمارويه[١١]	-	١,٠٠٠,٠٠٠
٣٢٦ هـ	قدم ابن طغج لعروسه	٣٠,٠٠٠	-
٣٢٦ هـ	قدم ابن رائق (أمير الجيش) مهراً قدره[١٢]	١٥,٠٠٠	-
٣٢٨ هـ	قدم بجكم (أمير الجيش) لابنه البريدي مهراً قدره[١٣]	-	١٠٠,٠٠٠
٣٣١ هـ	أعطى ابن المتقي مهراً لابنه ناصر الدولة[١٤] (وبهذا يكون المهر الذي قدمه الأمير العباسي يساوي خمسة أمثال المهر الذي قدمه بجكم)	(٤٦,٠٠٠)	٥٠٠,٠٠٠
٣٥٧ هـ	قدم ابن عضد الدولة مهراً لابنه عز الدولة[١٥]	١٠٠,٠٠٠	-
٣٦٩ هـ	أمهر الطائع ابنه عضد الدولة[١٦]	١٠٠,٠٠٠	-

يتبع

(١) التنوخي - نشوار، ج ١، ص ٦١.
(٢) ن.م.، ج ١، ص ٦٥ - ٦٦.
(٣) ن.م.، ج ١، ص ٦١.
(٤) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٧٣.
(٥) ابن الجوزي - المنتظم، ج ٥، ص ١٥٩.
(٦) ن.م.، ج ٦، ص ٨٥.
(٧) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٨٣.
(٨) ن.م.، ص ٧٥.
(٩) الصولي - اخبار الراضي، ص ١٠١.
(١٠) التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٤٩.
(١١) ابن الساعي - أخبار الخلفاء، ص ٧٣، انظر الاربلي - التبر المسبوك، ص ١٧٣.
(١٢) الصولي - أخبار الراضي، ص ١٠١.
(١٣) الهمداني - تكملة تاريخ الطبري، ص ١٤٤.
(١٤) الصولي - أخبار الراضي، ص ٢٣٤.
(١٥) الهمداني - تكلمة، ص ٢٤٣.
(١٦) ابن العبري، ص ٢٩٩؛ ابن الجوزي - المنتظم، ج ٧، ص ١٠١ يجعله ٢٠٠,٠٠٠ دينار وفي ص ٧٦ يجعل الطائع يمهر ابنة عز الدولة ١٠٠,٠٠٠ دينار.

تابع

التاريخ	البضاعة ووصفها	السعر	
		دينار	درهم
٣٨٤ هـ	أمهر مهذب الدولة (أمير البطيحة) ابنة بهاء الدولة	١٠٠,٠٠٠	-
	وأمهر ابن بهاء الدولة ابنه مهذب الدولة[١]	١٠٠,٠٠٠	-
٤٠٨ هـ	قدم سلطان الدولة لابنه قراوش بن المقلد[٢]	٥٠,٠٠٠	-

(١) ابن الجوزي ـ المنتظم، ج ٧، ص ١٧٤ ـ ٥.
(٢) ن.م.، ج ٧، ص ٢٨٧.

إن الأسعار الواردة أعلاه لا تعطي فكرة عن تكاليف المعيشة لأنها مبعثرة وقليلة وبعضها كمالي، ولا بد من النظر إلى ما هو أكثر صلة بالمعاش اليومي.

التمور:

التاريخ	البضاعة ووصفها	السعر	
٣١٣ هـ	كان الرطب وافراً في بغداد، فبيع كل ثمانية أرطال بحبة[١]، أي كل ٢٤ بطلاً بـ	-	١
٣٣١ هـ	التمر كثير في بغداد، فكان سعر الألف رطل سبعة دنانير[٢]. فيكون سعر ١٤ رطلاً	-	١
	الرز:		
حوالي ٣٠٠ هـ	احتاج عامل إلى المال، فاضطر لبيع رزه قبل الموسم، كل كر[٣] بـ	٧	-
٣٣٠ ـ ١هـ	الكر من الرز ببغداد	٣٠[٤]	-
	(وهذا سعر عال، لأننا إن جعلنا ربح التاجر ١٠٠ بالمئة بالنسبة إلى السعر الأول، فالزيادة سنة ٣٣٠ هـ تبقى أكثر من ضعف السعر لسنة ٣٠٠ هـ)		

(١) مسكويه، ج ١، ص ١٤٦؛ كل دينار يساوي آنئذ ١٢ درهماً و = ٣٦ حبة؛ ابن الجوزي ـ المنتظم، ج ٦، ص ١٩٦.
(٢) الصولي ـ أخبار، ص ٢١٦؛ الدينار يساوي آنئذ ١٠ دراهم.
(٣) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٦٧.
(٤) ن.م.، ج ٨، ص ٩٢.

٢ ـــ أسعار الحنطة والشعير (والطحين والخبز)

السنة	الحنطة	الشعير	الطحين	الخبز	كر	رطل	دينار	درهم	ملاحظات	الرطل بالدراهم
حوالي ٣٠٠ هـ	×				×		٦٠		السعر الاعتيادي	١,٨
		×					٣٠		(الصابي ص ١١٨)[1]	٠,٩
٣٠٨ هـ				×		٨		١	غلاء في الأسعار	٠,١٢٥
	×				× معدل		٥٠		حددت الحكومة السعر	١
									(مسكويه ج ١ ص ٧٥)	
حوالي ٣١٦ هـ	×	×			٢		٦٠		سعر طبيعي[2]	
		×					٢٠		(قدامة ص ٢٤٩)	٠,٦
	×						٤٠			١,٢
٣٢٣ هـ	×				×		١٢٠		غلاء في الأسعار (ابن الجوزي	٣,٣٦
									ـ م ج ٦ ص ٢٧٦)	
		×			×		٩٠		(الهمداني ص ١١٦)	٢,٢٤

يتبع

(١) يذكر الصابي (ص ١٨٨، ط. القاهرة ص ٢٠٩)، أن وارد السواد من الحنطة والشعير زمن المعتضد (ت ٢٨٩ هـ/ ٩٠١ م) بلغ ٣٤٠,٠٠٠ كر حنطة ـ شعير «مصرف» ـ أي محسوب ـ بالكر الفالج (٢/٥ الكر المعدل)، وان أحمد بن الفرات باعه بـ ٤,٠٨٠,٠٠٠ دينار. وكان البيع بحساب الكر المعدل بسعر ٩٠ دينار لكر حنطة وكر شعير. ومن شواهد أخرى نلاحظ أن سعر الشعير يبلغ ٢/١ ـ ٣/٢ سعر الحنطة، وبالحساب يتبين أن سعر كر الحنطة في هذه الحالة ٦٠ ديناراً وسعر كر الشعير ٣٠ ديناراً.

(٢) الكر المعدل = ٣ اكرار اعتيادية (أي هاشمية) = ١٥٠٠ رطل. الخوارزمي ـ مفاتيح العلوم، ص ٤٣، وهنا اعتبر سعر الشعير بـ ٢/١ سعر الحنطة. وقد حسب دي خويه الأسعار بـ ٥٤٥ درهماً أو ٣/١ ٦٣ دينار لكر الحنطة، و٣٥٥ درهماً أو ٣/٢ ٢٣ دينار لكر الشعير مستفيداً من سعر آخر للشعير (قدامة ٢٣٩) إلا أن الشعير في هذه الحالة كان يباع مخلوطاً بحبوب أخرى.

تابع

السنة	حنطة	شعير	طحين	خبز	كر	رطل	دينار	درهم	ملاحظات	درهم للرطل
				×		٤		١	(الصولي - أخبار ص ٧١) سعر محدد مع استمرار الشكوى(١)	٠,٢٥
			×			١٥ (مكوك)		٣	(الصولي - أخبار ص ٦١)	٠,٦
٣٢٨هـ			×		×		١٦٠		ارتفاع الأسعار ببغداد (الهمداني ص ١٤٨)	٣,٨
٣٢٩ هـ	×				×		٢٥		سعر جملة اعتيادي (الصولي - أخبار ص ١٤٨)	٠,٥
	×				×		١٣٠		مجاعة ببغداد (سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ١٠ أ)(٢)	٢,٦
٣٣٠ هـ	×			×			٢١٠ ٣١٦(٢)		قلة وغلاء ثم مجاعة ارتفاع كبير (ابن الجوزي المنتظم، ج ٦ ص ٣٢٦، ابن العبري - الترجمة ص ١٦٢)	٤,٢ ٦,٣

يتبع

(١) يذكر الصولي أن سعر مكوك الطحين حدد بثلاثة دراهم. المكوك = ١٥ رطلاً. انظر المقدسي - أحسن التقاسيم، ص ١٢٩، والخوارزمي - مفاتيح، ص ٤٣.

(٢) يذكر ابن الجوزي (المنتظم، ج ٦، ص ٣١٨) أن كر الطحين كان يباع بثلاثين ديناراً. ويلفت النظر أن الملابس والضياع صارت رخيصة لدرجة ان ما كان يساوي ديناراً بيع بدرهم. الانطاكي، ص ٩٧.

تابع

السنة	حنطة	شعير	طحين	خبز	كر	رطل	دينار	درهم	ملاحظات	درهم للرطل
		×			×		١٢٠		(سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ١٤ أ)(١)	٣,٣٦
				×		٤		٢ قيراط	(ابن الأثير ج ٨ ص ٢٩٣، الهمداني ص ١٦٦)	٠,٢٥
٣٣٢ هـ			خشكار			(قفيز) ٢٥		حوالي ٦٥	ارتفاع الأسعار (ابن الأثير ج ٨ ص ٣١١)	٢,٦
				خشكار		٣		١	ابن الجوزي ـ المنتظم ـ ج ٦ ص ٣٣٥)	٠,٣٣
٣٣٣ هـ			×			(مكوك) ١٥		٦	غلاء (الصولي ـ أخبار ص ٢١٥)	١,٢
٣٣٤ هـ				×		٥		١	الجانب الغربي من بغداد } تباين بين الأسعار العادية في غربي بغداد والقلة (غلاء) في شرقيها.	٠,٢
				×		١		١,٢٥	الجانب الشرقي من بغداد } (ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤٠)	١,٢٥

يتبع

(١) اعطي السعر على انه ٢ قيراط (صحيح اميري)، وانه كان عالياً جداً. ويلاحظ أن ٢٠ قيراطاً = ديناراً = (سنة ٣٣٠ هـ) ١٠ دراهم.

تابع

السنة	حنطة	شعير	طحين	خبز	كر	رطل	دينار	درهم	ملاحظات	درهم للرطل
	×				×		٤٠٠		غلاء في الجانب الشرقي من بغداد (ابن العبري - الترجمة ص ١٦٤، سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ٢١ ب. ابن الجوزي المنتظم ج ٦ ص ٣٤٤، يجعل سعر المكوك ٢٥ درهماً ولعله قبل الغلاء المذكور (١,٦٦ درهم للرطل).	١٢
٣٣٨ هـ				×		٢٠		١	رخاء (ابن العبري - الترجمة ص ١٦٥، مسكويه ج ٢ ص ١٦٥).	٠,٠٠٥
٣٤٩ هـ	× 	 ×			×			١٢٠٠ ٨٠٠	ارتفاع في الأسعار خاصة في الموصل (الهمداني ص ٢١٧، ابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٧) وهرب الناس من المدينة.	٢,٤ ١,٦
٣٥٨	× ×	× ×			٢/١+٢/١ ×		 ٤٠ ٢٦ ٣/٢	٥٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠	أسعار اعتيادية في الجزيرة (ابن حوقل، ط. كرامرز ص ١٩٧ - ٨). وفي ضوء أسعار الحنطة والشعير سنة ٣٤٩ هـ تكون نسبة سعريهما ٣ إلى ٢	 ١,٢ ٠,٨

يتبع

تابع

السنة	حنطة	شعير	طحين	خبز	كر	رطل	دينار	درهم	ملاحظات	درهم للرطل
	×				×		٩٠		ارتفاع في الأسعار (ابن الأثير ج ٨ ص ٤٤٣، ابن الجوزي - المنتظم ج٧ ص ٤٧، الهمداني ص ٢٤٥، سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ٧٠ أ)	٢,٧
٣٦٤ هـ			×		×		١٩٥		ارتفاع في الأسعار. وهذا طحين حواري نقي (الهمداني ص ٢٥٩). ابن الجوزي - المنتظم ج ٦ ص ٧١ يجعل السعر حوالي ١٧٥)	٥,٤
٣٧٣ هـ	×				×			٤٠٨٠	غلاء ومجاعة (ابن العبري - الترجمة ص ١٧٦	٨,١٦
		×			×			٢٠٤٠	سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ٧٠ أ يعطي الأسعار ٤٠٠٠ و٢٠٠٠ درهم ويعطي ابن الجوزي سعر الحنطة ٣٠٠٠ درهم في رمضان، و٤٠٨٠ درهماً في ذي القعدة ج ٧ ص ١٣٦)	٤,٠٨
٣٧٦ هـ			خشكار			(كارة) = ٥٠		حوالي ٧٥	ارتفاع في الأسعار (ابن الجوزي - المنتظم ج ٨ ص ١٣٦)(١)	١,٥

يتبع

(١) يذكر ابن الأثير أن موجة من الهجرة حصلت أثناء الغلاء، ج ٩ ص ٣٥، ويضيف ابن الساعي أن عدداً لا يحصى هلك من الجوع. تاريخ الخلفاء ص ٨٥ - ٦.

تابع

السنة	حنطة	شعير	طحين	خبز	كر	رطل	دينار	درهم	ملاحظات	درهم للرطل
٣٧٧ هـ	ربيع ١ ربيع ٢		خشكار =			(كارة) = ٥٠ =		١٦٥ ٢٤٠	تهارب الناس } ابن الجوزي ـ المنتظم ج ٨ ص ١٣٦؛ استمر الارتفاع } ابن الأثير ج ٩ ص ٣٥	٣,٦ ٤,٨
٣٧٨ هـ			خشكار			(كارة) = ٥٠		٦٠	ارتفاع السعر، وقلة. (ابن الجوزي ـ المنتظم ج ٧ ص ١٤١)	١,٢
٣٨٢ هـ				×		١		٤٠	غلاء في الأسعار (ابن الجوزي ـ المنتظم ج ٧ ص ١٧٠، ص ١٧٢؛ ابن الأثير ج ٩ ص ٩٤)	٤٠
٣٨٣ هـ	×		×		× (كارة)			{٦٦٠٠ ٢٦٠	الأسعار لا تزال غالية (مسكويه ج ٣ ص ٢٥٠) بالدراهم الغياثية (ابن الأثير ج ٩ ص ١٠١)	١ ١٣,٢ ٥,٢
٣٩١ هـ			طحين بنخالته	.	٢٤٠		٣		بدنانير مطيعية ارتفاع بعد شهر وبلغ سعر الرطل (الصابي ص ٢٤٢ ـ ٣)	٠,٢٥ ٠,٤
٣٩٣ هـ	×				×		١٢٠		ارتفاع وقلة. (ابن الجوزي ـ المنتظم ج ٧ ص ٢٢٢ ـ ٣)	٩,٦
٣٩٨ هـ	×				×		١٢		وفرة (ابن العبري ـ الترجمة ص ١٨٣)	٠,٩٦

يتبين من هذا الجدول أنه يمكن ملاحظة حركة الأسعار من أسعار الحنطة والشعير لتوافرها عبر القرن الرابع ولأهميتها. أما أسعار المواد الأخرى فهي قليلة ومبعثرة. ويمكن اتخاذ أسعار الحنطة والشعير بين أسس تقدير الوضع المعاشي، وهي تبدو كذلك حتى بنظر المعاصرين(٦). ومما يساعد على ذلك أن سعر التبادل بين الدينار والدرهم يتمتع بشيء من الاستقرار خلال هذا القرن إلى نهاية الربع الثالث منه.

وكانت الأسعار الاعتيادية للحنطة، بين ٣٠٠ هـ - ٣٣٤ هـ، تتراوح بين ٦٠ ديناراً و٤٠ ديناراً للكر (٦٠ ديناراً حوالي ٣٠٠ هـ، ٥٠ ديناراً للكر المعدل سنة ٣٠٨ هـ؛ ٤٠ ديناراً للكر سنة ٣١٦ هـ، ٢٥ ديناراً بسعر الجملة للكر في بداية الموسم سنة ٣٢٩ هـ أو حوالي ٣٥ - ٤٠ ديناراً للكر بسعر السوق(٧)، و٣/١ ٥٣ دينار سنة ٣٣٤)(٨). وكان سعر الشعير يساوي نصف سعر الحنطة في بغداد وثلثي سعرها في الموصل والجزيرة(٩).

وفي العصر البويهي كانت الأسعار الاعتيادية للحنطة: ٢٢ ديناراً للكر سنة ٣٣٨ هـ (وهي سنة رخاء) و٤٠ ديناراً سنة ٣٥٨ هـ وحوالى ٣٠ ديناراً سنة ٣٩١ هـ(١٠) و١٢ ديناراً سنة ٣٩٨ هـ (وهي سنة رخاء).

وكان سعر الخبز يتمشى مع سعر الحنطة، وكانت النسبة بين السعرين تتراوح بين حوالى ١/١٠(١١) و١/١٢(١٢).

ويتبين مما مر أن الأسعار الاعتيادية للحنطة في الفترة الأولى (حتى سنة

---

(٦) انظر الثعالبي - خاص الخاص، ص ٧٠.

(٧) كانت أسعار الحنطة والخبز في الجانب الشرقي من بغداد سنة ٣٣٤ هـ، ١٢ رطلاً و١,٢٥ رطل بدرهم على التوالي، أي بنسبة ١/٨ وبضوء ذلك قدرنا سعر الحنطة في الجانب الغربي.

(٨) يمكن الافتراض بأن سعر السوق أكثر من سعر الجملة بحوالي ٢٥ - ٣٠ بالمئة وبذلك يكون سعر الكر في السوق حوالى ٣٥ - ٤٠ ديناراً.

(٩) لاحظ نسبة السعرين لبعضهما في بغداد حوالي سنة ٣٠٠ هـ وفي سنة ٣٧٣ هـ، وفي الجزيرة سنة ٣٤٩ هـ، لاحظ أيضاً سنة ٣٢٣ هـ.

(١٠) كانت نسبة سعر الطحين إلى الحنطة حوالي ٣/١ إذ انها كانت تتراوح بين ٦/١ ٤ في سنة ٣٧٣هـ و ٢/١ ٢ سنة ٣٨٣ هـ وهكذا يمكن تقدير السعر بـ ٢٠ ديناراً للكر. ولما كان الطحين هنا طحين خشكار فيمكن الافتراض بأن سعر كر الحنطة كان حوالى ٣٠ ديناراً.

(١١) مثلاً سنة ٣٠٨ هـ.

(١٢) مثلاً سنة ٣٢٣ هـ وسنة ٣٣٤ هـ.

٣٣٤هـ) كانت بصورة عامة أعلى منها في العصر البويهي. ويبدو أنها تشير إلى مستوى معاشي أعلى حين تتجه نحو الارتفاع. ففي سنة ٣٠٨ هـ كان سعر الخبز ثمانية أرطال بدرهم فولّد تذمراً وشكوى، ولكنه بلغ خمسة أرطال بدرهم سنة ٣٣٤ هـ واعتبر اعتيادياً. ويلاحظ أن التغيير في الأسعار كان محدوداً نسبياً في هذه الفترة، مما يشعر بشيء من الاستقرار في مستوى المعيشة.

واتجهت الأسعار إلى انحدار بطيء في العصر البويهي، ولكن هذا لا يدل على تحسن في مستوى المعيشة بل إن العكس هو الأصح. ففي سنة ٣٩١ هـ كان سعر طحين الخشكار (وهو طحين مخلوط) ٠,٢٥ درهم للرطل، فلما ارتفع السعر بعد شهر إلى ٠,٤ درهم للرطل رافق ذلك حصول مجاعة، في حين أن السعر كان أعلى بكثير سنة ٣٣٢ هـ (وهو ٢,٦ درهم للرطل) دون أن تحصل مجاعة[١٣].

ويلاحظ أن التباين في أسعار الحنطة غير قليل في العصر البويهي، فهو يتراوح بين ٤٠ و١٢ ديناراً للكر الواحد، وهذا يشعر بعدم استقرار الأوضاع العامة، إضافة إلى أثر عوامل أخرى مثل التجارة وحالة المطر في الجزيرة. ولا بد وأن تقلّص النشاط التجاري في العصر البويهي أدى إلى تقليل الرخاء وإلى الاعتماد المتزايد على الزراعة، وذلك يؤثر في الأسعار بالتخفيض لتكون أكثر توافقاً مع مستوى المعيشة المتدني.

ولا يمكن إغفال دورات الغلاء للدلالة على وضع الإنتاج، واضطراب الأحوال وأثر ذلك في الوضع المعاشي. ففي الفترة الأولى حصل غلاء أربع مرات، سنة ٣٠٧ هـ وسنة ٣٢٣ هـ وسنة ٣٢٩ - ٣٣٠ هـ وسنة ٣٣٢ هـ. أما في العصر البويهي فقد تكرر الغلاء إحدى عشرة مرة في السنوات ٣٣٤ هـ، ٣٤٩ هـ، ٣٥٨ هـ، ٣٦٤ هـ، ٣٧٣ هـ، ٣٧٦ هـ، ٣٧٧ هـ، ٣٧٨ هـ، ٣٨٢ - ٣٨٣ هـ، ٣٨٧ هـ، و٣٩١ هـ. إلاّ أن فترات الغلاء باستثناء سنة ٣٢٩ - ٣٣٠ هـ، وسنة ٣٨٢ - ٣٨٣ هـ كانت تقل عن سنة. وتبدو الصلة واضحة بين الغلاء وبين الضعف والاضطراب في المركز، ويتبين ذلك بجلاء حين يتوالى الغلاء في فترات متقاربة. ولا يخفى أن الاضطراب في المركز يؤثر في نظام الري وفي حالة الزراعة عموماً.

وكان لتدهور العملة في العصر البويهي أثره السلبي في الأسعار، وهو يفسّر لحد ما حالات الارتفاع الشديد في الأسعار للسنوات ٣٧٣ هـ و٣٧٧ هـ و٣٨٣ هـ.

---

(١٣) لقد أخذنا سعر الدرهم بعين الاعتبار. ففي سنة ٣٩٢ هـ كان الدينار = ٣٥ درهماً بينما كان الدينار سنة ٣٣٢ هـ يساوي ١٥ درهماً. انظر الصابي - الوزراء، ص ٤٦٨.

وبعد هذا يمكن الإشارة إلى أثر الإقطاع العسكري وجشع المقطعين بالحصول على أكبر وارد دون نظر إلى الري أو عناية بالأرض، وإلى ضغطهم على المزارعين الصغار وترك الكثيرين منهم أراضيهم مما كان له أثر ملموس في تدهور الزراعة وتدني الإنتاج.

ولم يكن ارتفاع الأسعار في صالح الموظفين أو الأجراء، لأن راتبهم محدود، ولكن الارتفاع قد يكون في صالح التجار وأصحاب المهن الحرة(١٤). ويظهر أن الادخار كان السبب الرئيسي للغلاء(١٥). ويظهر ذلك بصورة واضحة سنة ٣٠٧ هـ، حين أخّر حامد بن العباس ـ ضامن ضرائب السواد ـ بيع حاصله حتى ارتفعت الأسعار في بغداد إلى درجة خطيرة. وقد أنقذ الخليفة الموقف، بتحديد الأسعار وباتخاذ سلسلة من التدابير الفعّالة الأخرى. يقول مسكويه: «فتقدم المقتدر بالله بفتح الدكاكين والبيوت والتي لحامد وللسيدة والأمراء وأولاد الخليفة والوجوه من أهل الدولة، وبيع الحنطة بنقصان خمسة دنانير في الكر، وبيع الشعير بحسب ذلك، وبمطالبة التجار والباعة أن يبيعوا بمثل هذا السعر. فسُعّر الكر المعدل بخمسين ديناراً، وتقدم إلى الدقاقين بذلك فرضي العامة وسكنوا وانحل السعر»(١٦).

ولكن كان من العسير التغلب على طمع التجار الخزّانين (المدّخرين). ففي سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٨ م حددت الأسعار، ولكن الأزمة اشتدت، وزاد ارتفاع الأسعار(١٧).

وكانت قلّة الأمطار كما في سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠ م(١٨)، وتلف الزروع بتأثير الجراد(١٩)، تسبب قلّة الحاصل والغلاء. وأكثر من ذلك ضرراً، الحروب الداخلية التي كانت تؤدي إلى تخريب القنوات(٢٠)، وقطع المواصلات الداخلية (كما في سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م) وتكوين شعور بعدم الاستقرار، مما يؤدي إلى حجز الإنتاج عن السوق(٢١).

---

(١٤) مسكويه، ج ١، ص ٧٤ ـ ٧٥.
(١٥) انظر المقريزي ـ اغاثة الأمة، ص ١٣ ـ ١٤ وص ١٧ ـ ١٨.
(١٦) مسكويه، ج ١، ص ٣٤ ـ ٥.
(١٧) ابن الأثير، ج ٨، ص ٤٤٣، سبط ابن الجوزي ـ مرآة الزمان، ج ١٢ ورقة ٧٠ أ.
(١٨) سبط ابن الجوزي ـ مرآة الزمان، ج ١٢ ورقة ١٠ أ.
(١٩) ابن العبري (الترجمة الانكليزية)، ص ١٠٨ وص ٢٢٥ وص ١٠٦.
(٢٠) انظر الصولي، ص ١٠٨، وص ٢٢٥، وص ١٠٦.
(٢١) انظر ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٤٠، الانطاكي، ص ١٠٤، ابن العبري، ص ١٦٤.

ثم إن سوء الجباية، وتدهور نظام الري[٢٢]، كان يثبط همة الزرّاع ويقلل من فعاليتهم مما يؤدي إلى تقليل الإنتاج[٢٣].

ولم يكن للحكومة احتياط من الحاصل لتنقذ الناس من المجاعة. وكل ما كانت تستطيعه هو جلب القوت إلى الأماكن المبتلاة بالمجاعة من الخارج[٢٤].

ثانياً: الدخل

يمكننا ملاحظة ثلاثة أمور تتعلق بالدخل، وهي:

أ ـ وجود تباين كبير في الدخل في القرن الرابع الهجري، فهناك عدد قليل من أصحاب الدخل الكبير، وطبقة متوسطة صغيرة، في حين أن دخل العامة كان بسيطاً.

ب ـ لم يكن الشعور بالملكية الشخصية، وما يتطلبه ذلك من احترام ملكية الغير، راسخاً بصورة كافية كما يتضح من المصادرات الكثيرة.

ج ـ وقد أدى التغلب البويهي إلى اختلال نسب الدخل السابقة لذلك التغلب.

١ ـ الخلفاء

ولنناقش الدخل، مبتدئين من القمة. يذكر مسكويه، استناداً إلى وثائق رسمية، أن مقدار وارد بيت مال الخاصة (بيت مال الخليفة) خلال مدة خمس وعشرين سنة (٢٩٦ هـ ـ ٣٢٠ هـ) كان ٨٩,٨٣٠,٠٠٠ دينار، صرف منها ١٧ مليون دينار لأغراض رسمية، بينما صرف الباقي على نفقات البلاط[٢٥]. وهكذا بلغت نفقات البلاط ٢,٨٨٠,٠٠٠ دينار سنوياً أو ٢٤٠,٠٠٠ دينار شهرياً. لذا فلا غرابة في حيرة الكتّاب المعاصرين في وصف ترف البلاط.

وفي سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م، انتقلت السلطة للأمير البويهي معز الدولة، وصارت إليه الأموال، فخصص للخليفة المستكفي راتباً قدره ٢,٠٠٠ درهم يومياً[٢٦] أو ٦٠,٠٠٠ درهم شهرياً (= حوالي ٤,٦٠٠ دينار شهرياً). وفي السنة نفسها خلع

---

(٢٢) انظر الصولي، ص ١٠٦، مسكويه، ج ٢، ص ١٦٥.
(٢٣) مسكويه، ج ٢، ص ٩٦ ـ ١٠٠، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٥٢.
(٢٤) الصولي، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦، مسكويه، ج ٣، ص ٢٠٢.
(٢٥) مسكويه، ج ١، ص ٢٤١.
(٢٦) مسكويه، ج ٢، ص ٨٧.

معز الدولة المستكفي وولى مكانه المطيع، وأزال الراتب وخصص للخليفة إقطاعاً[٢٧] يبلغ وارده ٢٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً[٢٨]. وهكذا انخفض دخل الخليفة بعد سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م إلى حوالي ٧ بالمئة مما كان عليه في عصر المقتدر.

---

(٢٧) وكانت تسمى «ضياع الخدمة» أي الضياع المخصصة لخدمة الخليفة.

(٢٨) مسكويه، ج ٢، ص ١٠٨.

٢ ــ الوزراء

ويلي الخليفة في الثروة وزراؤه؛ وإليك أمثلة من دخل الوزراء:

السنة		الدخل دينار في السنة
٢٧٩ هـ/٨٩٢ م	راتب (عبيد الله بن سليمان)، وزير المعتضد	١٢,٠٠٠
٢٨١ هـ/٨٩٤ م	استبدل راتب عبيد الله بن سليمان بإقطاع وارده[(١)]	٢٠٠,٠٠٠
٢٩٦ هـ/٩٠٨ م	وارد الضياع الخاصة (للعباس بن الحسن) وزير المكتفي[(٢)]	١٢٠,٠٠٠
٢٩٦ - ٢٩٩ هـ/٩٠٨ - ٩١١ م	أعطي (ابن الفرات)، وزير المقتدر قصراً خاصاً على دجلة، مع عمارات مجاورة - وكلها تغطي مساحة قدرها ١٧٣,٣٤٦ ذراعاً مربعاً.	
	وكان دخله يشمل:	
	وارده من الاقطاع الذي خصصه الخليفة له	٥٠,٠٠٠
	وراتبه وقدره[(٣)]	٦٠,٠٠٠
	مجموع دخل ابن الفرات	١١٠,٠٠٠
	وكان دخله من ضياعه الخاصة[(٤)]	١,٠٠٠,٠٠٠
	وكان دخله من ضياعه الخاصة قبل أن يصبح وزيراً[(٥)]	٨٠٠,٠٠٠
٢٩٩ ـ ٣٠٠ هـ/٩١١ - ٩١٢ هـ	دخل (الوزير الخاقاني):	
	من إقطاع الوزارة	٥٠,٠٠٠
	وراتبه[(٦)]	٦٠,٠٠٠
	مجموع الدخل	١١٠,٠٠٠
٣٠٠ - ٣٠٤ هـ/٩١٢ - ٩١٦ م	دخل الوزير علي بن عيسى[(٧)]	١١٠,٠٠٠
٣١٣ هـ/٩٢٥ م	وكان دخل (الخصيبي) من:	
	راتبه	٦٠,٠٠٠

يتبع

(١) الصابي - الوزراء، ص ٢٠.
(٢) مسكويه، ج ١، ص ٢٣٩.
(٣) الصابي - الوزراء، ص ٢٣.
(٤) هناك تفاوت في تقدير دخله من ضياعه الخاصة بين ٨٠٠,٠٠٠ دينار، و ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار. ويظهر أن ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار تقدير معتدل. انظر الصابي - الوزراء، ص ١٣٩ وص ٣٢٢ - ٣، عريب، ص ٣٧، مسكويه، ج ١، ص ٦٩.
(٥) الصابي - الوزراء، ص ٣٢٣ وص ١٣٩.
(٦) ن.م.، ص ٢٦١ - ٢٦٢.
(٧) ن.م.، ص ٢٨٢.

تابع

السنة		الدخل دينار في السنة
٣١٥ هـ/٩٢٧ م	إقطاع الوزارة (حوالي)(١)	١٥٤,٠٠٠
	فيكون المجموع	٢١٤,٠٠٠
	دخل (علي بن عيسى) في وزارته الثانية من:	
	إقطاع الوزارة	١٧٠,٠٠٠
	راتبه(٢)	٨٤,٠٠٠
	فيكون المجموع	٢٥٤,٠٠٠
	دخله من ضياعه الخاصة(٣)	٥٠,٠٠٠
	وكان دخله من ضياعه الخاصة وهو خارج الوزارة(٤)	٣٠,٠٠٠

(١) مسكويه، ج ١، ص ١٥٤.
(٢) ن.م.، ج ١، ص ١٥٩.
(٣) ن.م.، ج ١، ص ١١٠.
(٤) الصابي - الوزراء، ص ٣٢٢.

وبالإضافة إلى ذلك كان لأبناء الوزارة رواتب خاصة. فمثلاً كان أولاد ابن الفرات الثلاثة يستلمون ١٨,٠٠٠ دينار[٢٩]. وكان ولد الخاقاني، وولد الخصيبي، وولد ابن الفرات (سنة ٣١١ - ٣١٢ هـ) وولد علي بن عيسى يستلمون ٢٤,٠٠٠ دينار في السنة[٣٠]. وكان الوزراء يستلمون هدايا من جهات مختلفة. فلما صار علي بن عيسى وزيراً سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م، أرسل إليه المقتدر هدية قيمتها ٢٠,٠٠٠ دينار[٣١]. وكان الولاة والموظفون والآخرون يرسلون هدايا إلى الوزراء[٣٢].

ثم نقصت رواتب الوزراء بعد سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م، على أثر انتقال السلطة الحقيقية إلى أمير الأمراء. وأصبحت الإدارة الحقيقية بين كاتب أمير الأمراء، وأصبح الوزير رئيساً صورياً.

---

(٢٩) الصابي - الوزراء، ص ٢٣.
(٣٠) مسكويه، ج ١، ص ١٥٤ وص ١٥٩.
(٣١) ن.م.، ج ١، ص ١٥١.
(٣٢) ن.م.، ج ١، ص ٢٣٥ وص ٤٤، الصابي - الوزراء، ص ٩٢.

السنة		الدخل دينار في السنة
٣٣١ هـ/٩٤٢ م	راتب (أحمد بن عبد الله الأصفهاني)[1]	٢,٤٠٠
٣٣٤ هـ/٩٤٥ م	وفي العصر البويهي، خصص للوزراء إقطاع يقوم مقام الراتب، ويبلغ وارده[2]	٥٠,٠٠٠
	(وهكذا نقص دخل الوزير سنة ٣٣٤ هـ بمقدار (٢٠٤,٠٠٠) دينار سنوياً عن سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م أي بمقدار ٨٠,٤ بالمئة)	

(١) مسكويه، ج ٢، ص ٣، الانطاكي، ص ٩٣.

(٢) في سنة ٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م، عين عز الدولة أبا الفضل الشيرازي وزيراً «واقطعه اقطاعاً بخمسين ألف دينار على رسم الوزراء». مسكويه، ج ٢، ص ٢٤٢؛ وانظر، ص ٢٤٦.

٣ ــ الكتّاب

وكانت رواتب رؤساء الدواوين عالية؛ وإليك أمثلها منها: دينار في الشهر

السنة		الدخل دينار في السنة
٣٠٤ - ٣٠٦ هـ ٩١٦ - ٩١٨ م	راتب كاتب (ديوان السواد)، مع رواتب موظفي ديوانه، مع نفقات الورق[1]	٧,٠٠٠
٣٠٦ هـ/٩١٨ م	راتب كاتب (ديوان العطاء)[2]	١٨٠
٣١٤ هـ/٩٢٦ م	راتب كاتب (ديوان السواد)	٥٠٠
	راتب كاتب (ديوان الضياع الخاصة والمستحدثة)[3]	٢٠٠
	وحاول علي بن عيسى أن يقتصد في نفقات الدولة فأنقص رواتب الموظفين سنة ٣١٥ هـ/٩٢٧ م بنسبة النصف أو الثلث. وهكذا صار:	
٣١٥ هـ/٩٢٧ م	راتب كاتب (ديوان السود)	٣٣٣ ٣/١
	راتب كاتب (ديوان المشرق) أو ديوان الولايات الشرقية	١٠٠
	راتب كاتب (ديوان الخاصة والمستحدثة)[4]	١٠٠
٣١٩ هـ/٩٣١ م	راتب كاتب (ديوان الأزمة) ورواتب موظفي ديوانه[5]	٢٧٠٠

(١) الصابي - الوزراء، ص ٣١.

(٢) مسكويه، ج ١، ص ٦٨.

(٣) الصابي - الوزراء، ص ٣١٤.

(٤) الصابي - الوزراء، ص ٣١٤.

(٥) مسكويه، ج ١، ص ٢٢٦. يجعله الهمداني (ص ٨٣) ١٧٠٠ دينار.

ولم أجد إشارات إلى رواتب الكتّاب في الفترة البويهية. وهذا أمر له معناه، إذ إن سيادة العناصر العسكرية في تلك الفترة قللت من أهمية الكتّاب، وأدت إلى إغلاق أكثر الدواوين[٣٣].

٤ ـ الولاة

وكان الولاة، يحصلون ـ بطرق مشروعة وغيرْ مشروعة ـ على واردات كبيرة؛ وإليك بعض الأمثلة:

السنة		الدخل دينار في السنة
ت ٣٠١ هـ/٩١٣ م	(دخل الراسبي) عامل جند يسابور والسوس ومادرايا[١]	١,٤٠٠,٠٠٠
٣٠٠ ـ ٣١٠ هـ/٩١٢ ـ ٩٢٢ م	راتب المادرائي (الحسين بن علي)	٣٦,٠٠٠
	ودخله من ضياعه الخاصة، حوالى[٢]	٢٥٠,٠٠٠
	ودخله من المرافق، ومما يأخذه لنفسه من الضرائب الحكومية[٣]	٦٦٠,٠٠٠
٣١١ هـ/٩٢٣ م	الوارد من ضياع البريديين الخاصة، حين كانوا عمالاً على واسط[٤]	٣٠,٠٠٠
٣٢٤ ـ ٣٢٨ هـ/٩٣٥ ـ ٩٣٩ م	دخل البريديين، وكانوا عمال الأهواز، حوالى[٥]	٢,٢٨٥,٠٠٠
٣٠٦ هـ/٩١٨ م	أحد العمال يستلم من الوزير حامد بن العباس:	
	لمائدته	٣٦,٠٠٠
	لنفقات خدمه[٦]	١٥,٠٠٠
٣١٤ هـ/٩٢٦ م	عامل منطقة الجبال، يأخذ نفقات لمائدته[٧]	٦٠,٠٠٠

(١) عريب ـ صلة الطبري، ص ٢٥.
(٢) الصابي ـ الوزراء، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١. وخراج ضياعه يبلغ ١٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً، ص ٨٦.
(٣) جمع من المرافق وحدها ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في ثلاث سنوات. انظر مسكويه، ج ١، ص ١٠٦، الصابي، ص ٨٦ وص ٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٤) مسكويه، ج ١، ص ١١٠.
(٥) ن.م.، ج ١، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.
(٦) الصابي ـ الوزراء، ص ٦٠.
(٧) مسكويه، ج ١، ص ١٤٨.

(٣٣) مسكويه، ج ٢، ص ٩٧ ـ ١٠٠.

وندر أن تجاوزت سلطة بغداد حدود العراق في العصر البويهي، وإنما اقتصرت في الأغلب على العراق والأهواز. وأعطيت المقاطعات إلى المقربين المتنفذين من الديالمة، وإلى أصحاب الضمان، الذين كان همهم جمع المال والإثراء على حساب الخزينة والرعية. ولم تكن عليهم أية رقابة، ولم يقدموا أي حساب بالدخل إلى الحكومة[٣٤]. وهكذا كان لهؤلاء المتنفذين من حرية التصرف ما لم يسبق له مثيل.

وكان عضد الدولة، هو الأمير البويهي الوحيد الذي فرض سلطته في الولايات. وفي سنة ٣٦٤ هـ/٩٧٤ م، عيّن ابن بقية والياً على واسط وتكريت وعكبرا وأوانا، وأعطاه إقطاعاً وارده ٥٠٠,٠٠٠ درهم[٣٥]. وكان هذا الراتب أقل بكثير من رواتب العمال في الفترة السابقة للتغلّب البويهي، وهذا يدل على انخفاض رواتب العمال في العصر البويهي عن السابق، حين تكون السيطرة للحكومة المركزية.

وإليك أمثلة من رواتب موظفين مدنيين آخرين:

السنة		الدخل دينار في الشهر
٣١٥ هـ/٩٢٧ م	راتب محتسب بغداد[١]	١٠٠
٢٧٩ - ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ - ٩٠١ م	رواتب قاضي بغداد ونائبه وأولادهما، وعشرة من الفقهاء[٢]	٥٠٠
٣٥٠ هـ/٩٦١ م	رضي قاضي بغداد أن يدفع للأمير البويهي ٢٠٠,٠٠٠ درهم[٣] أو حوالى	١٣,٣٣٤
٣٥٢ هـ/٩٦٣ م	وافق قاضي بغداد الجديد أن يتولى المنصب دون راتب[٤]	-
ت ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م	راتب القاضي التنوخي[٥]	٦٠

(١) مسكويه، ج ١، ص ٢١٧.
(٢) الصابي - الوزراء، ص ٢١.
(٣) مسكويه، ج ٢، ص ١٨٩. والظاهر انه كان يعتمد على الغرامات.
(٤) ن.م.، ج ٢، ص ١٩٦.
(٥) ياقوت - معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٠٢.

وهكذا يتبين أن رواتب الموظفين المدنيين انخفضت كثيراً في الفترة البويهية. ولا يستثنى من ذلك إلاّ نقيب الطالبيين، فإنه تحسن وضعه سياسياً واقتصادياً، وذلك

(٣٤) مسكويه، ج ٢، ص ٩٨ - ٩.
(٣٥) ن. م.، ج ٢، ص ٣٤٦.

لتشيع البويهيين. وقد بلغ وارد ضياعه ـ الواقعة غربي بغداد بين الفرات ودجلة ـ سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م، مبلغ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم[٣٦].

٥ ـ أفراد الجيش

وكان رجال الجيش يكوّنون طبقة هامة بين الموظفين؛ وإليك أمثلة من رواتبهم:

السنة		دينار في الشهر
٢٩٦ - ٣٠٤ هـ } ٩٠٨ - ٩١٦ م	راتب كل من الفرسان في جيش المقتدر[١]	١٢,٥
٣٠٤ هـ/٩١٦ م	خفض راتب الفارس إلى	٤,١٦
٣٠٤ هـ/٩١٦ م	راتب كل واحد من فرقة الرجالة المصافية يساوي[٢]	٤,٧٥
٣١٧ هـ/٩٢٩ م	راتب الفارس يساوي	٤١,٦٦
٣١٧ هـ/٩٢٩ م	راتب الجندي من الرجالة[٣]	٦

(١) كان عدد الفرسان ١٢,٠٠٠ وعطاؤهم ١٥٠,٠٠٠ دينار شهرياً. عريب، ص ١٤٢، مسكويه، ج ١، ص ٤٣.

(٢) مسكويه، ج ١، ص ٣٨ وص ٥٠.

(٣) ن.م.، ج ١، ص ١٨٤، عريب، ص ١٤٢.

وهكذا كان الاتجاه، قبل ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م نحو زيادة رواتب الجند، وفي بعض الحالات نجح الجند في الحصول على الزيادة بالقوة والعنف[٣٧]. ولكن يجب ملاحظة أن شهر العطاء كان في الغالب يتجاوز ثلاثين يوماً. فمثلاً كان الفرسان يأخذون عطاءهم في كل ١٢٠ يوماً مرة واحدة[٣٨].

ولا توجد لدينا معلومات عن رواتب رؤساء الجند. إلاّ أن دخل قائد الجيش كان ضخماً، وخصوصاً في الفترة بين ٣٢٤ ـ ٣٣٤ هـ/٩٣٥ ـ ٩٤٥ م. فمثلاً أعطيت ضياع أمير الأمراء توزون بالضمان سنة ٣٣١ هـ/٩٤٢ م بمبلغ ١٣٠,٠٠٠ دينار في السنة[٣٩]. وكانت لبجكم ثروات طائلة[٤٠].

---

(٣٦) أبو شجاع، ص ١٧٣. يذكر أبو شجاع في ص ١٣٦ ان خراج ضياع الشريف كان ١/٢ ٢ مليون درهم سنوياً.

(٣٧) مسكويه، ج ١، ص ٣٨ وص ١٨٢.

(٣٨) انظر مسكويه، ج ١، ص ١٦١، الصابي ـ الوزراء، ص ١٤.

(٣٩) مسكويه، ج ٢، ص ٤٥.

(٤٠) ن.م.، ج ٢، ص ١١.

وازدادت رواتب الجند في الفترة البويهية، وإليك أمثلة منها:

السنة		دينار في الشهر
٣٤٨ هـ/٩٥٩ م	راتب غلام ديلمي	٢٠
	نقيب ديلمي(١)	٤٠
حوالي ٣٧١ هـ/٩٨١ م	أعطى عضد الدولة لكل من المتطوعين العرب(٢)	٢٠ - ٤٠
٣٨٧ هـ/٩٩٧ م	وزعت ضياع واردها السنوي ١٠٠,٠٠٠ دينار على ٥٠٠ جندي ديلمي و٣٠٠ جندي كردي(٣) فإذا افترضنا المساواة بينهم، كان راتب كل واحد منهم يبلغ حوالى	١٠

(١) مسكويه، ج ٢، ص ١٧٤.
(٢) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٧٤.
(٣) مسكويه، ج ٣، ص ٢٩٤ - ٥.

وإذا قارنّا بين رواتب الجند في الفترة البويهية ورواتب جند المقتدر، وجدنا أن رواتب الأولين كانت حوالى ١,٤ - ٤ أضعاف رواتب الأخيرين(٤١).

وفي سنة ٣٧٩ هـ/٩٨٩ م، شكا رؤساء جند فخر الدولة أن وارد إقطاعاتهم في منطقتي الري والجبال (أي غربي إيران) كان ٢٠,٠٠٠ - ٣٠,٠٠٠ درهم سنوياً، في حين أن إقطاع الرؤساء الديالمة في خوزستان كان يغل ٢٠٠,٠٠٠ - ٣٠٠,٠٠٠ درهم سنوياً(٤٢).

والخلاصة فإن رواتب الجند زادت كثيراً في الفترة البويهية، ولا يمكن اعتبار نقص رواتب الموظفين المدنيين دليلاً على تنقيص الرواتب عامة.

٦ ـــ الطبقة العامة: أهل المدن، الفلاحون

ولنتحدث عن الطبقة العامة؛ ولدينا عنهم نتف نوردها هنا:

في سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م، أراد المعتضد إغراء لص ليعترف بسرقة، فقال له: «متى أقررت... أجريت لك في كل شهر عشرة دنانير تكفيك لأكلك وشربك وكسوتك وطيبك»(٤٣). ومعنى ذلك أن عشرة دنانير في الشهر كانت تكفي الرجل الواحد ليعيش عيشة مقبولة.

(٤١) لقد راعينا مدة شهر العطاء في حساب رواتب جند المقتدر.
(٤٢) مسكويه، ج ٣، ص ١٦٥ - ١٦٦.
(٤٣) المسعودي - مروج الذهب، ج ٨، ص ١٥٦.

ويذكر سبط ابن الجوزي أن فقيهاً (ولد ٢٥٢ هـ)، فكّر بضمان مستقبل ابنه، فقرر أن يخصص له ديناراً في اليوم طيلة حياته، لأن ذلك يكفي الرجل المتوسط وعياله، كما أنه حفظ له مبلغاً يعادل ذلك للطوارىء[٤٤]. وهكذا نلحظ أن ثلاثين ديناراً في الشهر كانت تكفي في أوائل القرن الرابع الهجري لمعيشة عائلة من الطبقة المتوسطة.

وفي سنة ٣٠١ هـ/٩١٣ م، أفلس صاحب حانوت، فأعطاه علي بن عيسى أربعمئة دينار، فدفع مئتين منها لدائنيه، واشتغل بالباقي ولم تنته السنة إلاّ وكان عنده ألف دينار[٤٥]. وهكذا كان صافي ربحه ثمانمئة دينار في اثني عشر شهراً أو ٤٠٠ بالمئة.

ويتحدث التنوخي عن «من يبيع بيعاً يسيراً مثل نُقلي ورهداري ومن رأسماله دينار وديناران وثلاثة»، ويبين أن واردهم كان ضئيلاً[٤٦]. وكان بعض الباعة المتجولين يجلسون على قارعة الطريق، ويبيعون أشياء رخيصة من مختلف الأنواع. فمثلاً اشترى رجل قناة أو عكازاً من رهداري (أحد هؤلاء الباعة) بدرهمين[٤٧]. واعترف أحد البقالين أنه لم يكن لديه من الوفر مئة فلس (حوالي خمسة دراهم) نقداً[٤٨].

وتوجد إشارات طريفة إلى الصناع. يذكر عن أحد الصناع في خلافة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ/٧٨٦ - ٨٠٩ م) انه كان يرى أن ثلثمئة درهم في الشهر تكفيه وزوجته[٤٩].

وفي الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). كان الزجّاج النحوي، وهو فتى، يشتغل بخرط الزجاج ويكسب «في كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف». وأراد أن يتعلم النحو على المبرد المشهور، وكان المبرد «لا يعلم النحو مجاناً، ولا يعلم بأجرة إلاّ على قدرها». فقال الزجاج للمبرد: «أريد أن تبالغ في تعليمي وأنا أعطيك في كل يوم درهماً، وأشرط لك اني أعطيك إياه أبداً إلى أن

---

(٤٤) سبط ابن الجوزي، ج ١٢ ورقة ١٩ أ. انظر المقريزي - اغاثة الأمة، ص ٨٥.
(٤٥) سبط ابن الجوزي، ج ١٢ ورقة ٣٢ ب.
(٤٦) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٦٠.
(٤٧) ن.م.، ج ١، ص ١٨٨.
(٤٨) الجاحظ - البخلاء، ص ٥٩.
(٤٩) مصارع العشاق، ص ١٥٩.

يفرق الموت بيننا، استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه»[٥٠]، فوافق المبرد. وربما كانت الأجرة في الأحوال الاعتيادية درهمين أو ثلاثة في اليوم.

وفي العقد الرابع من القرن الرابع الهجري، جاء رجل فقير إلى البصرة وطلب عملاً من صاحب حانوت. فاستخدمه الحانوتي كاتباً لحساباته مقابل أجرة نصف درهم في اليوم، إضافة إلى طعامه وكسوته. ثم زيدت الأجرة بعد ذلك إلى درهم واحد في اليوم[٥١].

وفي سنة ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م، قال ابن ابرونا طبيب الوزير المهلبي - أحد وزراء البويهيين - أنه كان، قبل أن يستخدمه الوزير، يدور من باب إلى آخر ليعالج المرضى ويأخذ دانقاً ونصف أو ربع درهم من كل مريض يعالجه[٥٢].

وفي سنة ٣٩٧ هـ/١٠٠٦ م، اشتغل الزاهد عبد الصمد بالحراسة عند أحد اليهود وطلب أن تكون أجرته ثلاثة أرطال خبز ودانقي فضة في اليوم، فأعطي ما أراد[٥٣].

وهذه الأمثلة لا تكفي للتوصل إلى نتائج معيّنة، ولكنها تدل على أن الأجور حافظت على المستوى نفسه طيلة القرن الرابع الهجري.

ومن المرجح أن **دخل الفلاحين** كان أوطأ من دخل أصحاب الصنايع والمهن. وعلى كل فقد أضرّ التغلب البويهي بهم. فبينما كان الخليفة يحاول حماية الفلاحين أحياناً[٥٤]، نجد البويهيين في جهلهم بشؤون الزراعة يتبعون سياسة زراعية مخربة. فمن آثار سياسة معز الدولة تجاه الأراضي أن «فسدت المشارب، وبطلت المصالح، وأتت الجوائح على الثناء ورقت أحوالهم، فمن بين هارب جالٍ، وبين مظلوم صابر لا ينصف، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطَع ليأمن شره ويوافقه»[٥٥]. ولم تعمل الحكومة شيئاً لحماية الفلاحين أو لمعرفة ما يصيبهم من ظلم أو ما يفرض عليهم

---

(٥٠) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٣٤، وط. الشالجي، ج ١، ص ٢٧٤.

(٥١) التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٥٥.

(٥٢) مسكويه، ج ٢ هامش، ص ١٩٨.

(٥٣) سبط ابن الجوزي، ج ١٢ ورقة ١١٩ ب. كان الدرهم يزن، نظرياً، ستة دوانيق. ولكننا إذا لاحظنا الخليط من المعدن الرخيص فيه وخاصة في نهاية القرن، نرى ان دانقي الفضة ربما ساويا نصف درهم.

(٥٤) انظر فصل «الضرائب».

(٥٥) مسكويه، ج ٢، ص ٩٧.

من ضرائب مرهقة وإضافات لا أصل لها[٥٦]. ولا يستثنى من هذا الوضع السيىء إلاّ فترة حكم عضد الدولة، ولكنها كانت قصيرة الأمد فلم تؤد إلى تحسين ثابت. وهكذا قاسى الفلاحون في الفترة البويهية من تدهور نظام الري، ومن الإرهاق في الضرائب.

والخلاصة، فإن مقارنة الفترة البويهية بالفترة السابقة لها تبين:

١ ـ ان دخل الخليفة هبط بعد سنة ٣٣٤ هـ إلى ٧ بالمئة من مقداره في أوائل القرن الرابع الهجري.

٢ ـ وارتفع راتب الوزير من ١١٠,٠٠٠ دينار سنوياً سنة ٢٩٩ هـ إلى ٢٥٤,٠٠٠ دينار سنة ٣١٥ هـ أي حوالى ١٣١ بالمئة. ثم انخفض إلى ٥٠,٠٠٠ دينار سنوياً في الفترة البويهية، أي إلى حوالى ٥٤ بالمئة من مقداره سنة ٢٩٩ هـ أو ١٩,٤ بالمئة مما كان عليه سنة ٣١٥ هـ.

٣ ـ ونقصت رواتب الموظفين المدنيين عامة.

٤ ـ وزادت رواتب الجند في الفترة البويهية بالنسبة إلى الفترة السابقة. فإذا قيست رواتبهم في هذه الفترة برواتبهم سنة ٣١٧ هـ، وجدنا الزيادة تتراوح بين ٤٠ بالمئة و٤٠٠ بالمئة.

٥ ـ لم تحصل زيادة ملموسة في أجور العمال، ولعلها كانت تمثل الحد الأدنى لحاجاتهم البسيطة.

٦ ـ وهبط وضع الفلاحين بعد سنة ٣٣٤ هـ، عمّا كان عليه قبل ذلك، لأنهم كانوا ملزمين بدفع مقدار أكبر من الضرائب، في ظروف زراعية أسوأ من السابق.

ثالثاً: الخدمات الاجتماعية للدولة

نظمت الدولة بعض الخدمات الاجتماعية للشعب، وخاصة للفقراء، فأنشأت ديواناً خاصاً وهو «ديوان البر» لإدارة الصدقات والأوقاف الخيرية لمساعدة الفقراء[٥٧]. وشجعت الإحسان والبر في الأوساط الرسمية. فمثلاً أعفى المعتضد ضامن ضرائب واسط، وهو ابن بسطام، من تقصيره في دفع حق الحكومة كاملاً، حين وجد أن ابن

(٥٦) ن.م.، ج ٢، ص ٩٩. وانظر فصل الزراعة ـ قسم السياسة الزراعية للدولة.
(٥٧) مسكويه، ج ١، ص ١٥١.

بسطام كان يوزع عشرين كراً من الحنطة شهرياً على رجاله وعلى الفقراء[٥٨].

وكان المعتضد يخصص في نفقاته خمسة عشر ديناراً كل يوم لتوزع على الفقراء[٥٩]. كما أنه كان يدفع أربعمئة وخمسين ديناراً شهرياً لنفقات البيمارستان الصاعدي (للأطباء والمرضى والأطعمة، إلخ) في بغداد[٦٠].

وفي سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٧ م، أخبر المقتدر أن الحوانيت التي بناها المكتفي في رحبة باب الطاق في بغداد كانت تضرّ بالضعفاء لأنهم كانوا يقعدون فيها لتجارتهم بلا أجرة، فسأل عن غلتها، فقيل له إنها تغل في الشهر ألف دينار، فقال: «وما مقدار هذا في صلاح المسلمين واستجلاب حسن دعائهم» وأمر بهدمها[٦١].

وفي سنة ٣٠١ هـ، خصص علي بن عيسى رواتب للمؤذنين ولأئمة المساجد وللفقراء الذين يلجأون إليها، وأصلح حالة المستشفيات في بغداد، وأمر بتخصيص ما يكفي من الأدوية والأشربة وغيرها مما يحتاجه المرضى فيها[٦٢]. وكتب في سنة ٣٠١ هـ/٩١٣ م، إلى سنان بن ثابت[٦٣] أن يعنى بالمسجونين، وأن يرسل الأطباء يومياً إلى السجون، ومعهم الأدوية والأشربة لمعالجة المرضى، فنفذ أمره[٦٤].

وقد شمل علي بن عيسى القرى والأرياف بعنايته. ففي سنة ٣٠١ هـ، كتب إلى سنان: «فكرت فيمن بالسواد من أهله، وانه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء، فتقدم... بإنفاذ متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون في السواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه ثم ينتقلون إلى غيره». ولما وصل الأطباء إلى سورا ونهر الملك وجدوا أن أكثر السكان يهود. فاستفسر سنان من الوزير عن رأيه في معاملتهم وأوضح «أن الرسم في بيمارستان الحضرة قد جرى للملّي والذمّي». فكتب علي بن عيسى: «ليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب، ولكن الذي يجب تقديمه والعمل به، معالجة الناس قبل البهائم، والمسلمين قبل أهل الذمة، فإذا

(٥٨) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٦٠.
(٥٩) الصابي - الوزراء، ص ١٩.
(٦٠) ن. م.، ص ٢١.
(٦١) عريب - صلة الطبري، ص ٢٤.
(٦٢) ابن الأثير، ج ٨، ص ٥١.
(٦٣) وهو طبيب الخليفة ومدير المستشفيات.
(٦٤) القفطي - أخبار الحكماء، ص ١٩٣.

فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه صرف في الطبقة التي بعدهم. فاعمل... على ذلك»[٦٥].

وفي سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م، أنشأ المقتدر مستشفى جديداً في بغداد، أطلق اسمه عليه، وخصص مقادير كبيرة من المال للنفقة عليه[٦٦]. وفي المحرم من السنة نفسها، افتتح سنان بن ثابت «بيمارستان السيدة» (نسبة إلى أم الخليفة)، وعيّن إدارته وأطباءه. وبلغت مخصصاته ستمئة دينار شهرياً[٦٧].

وعمل أمير الأمراء (بجكم)، أثناء المجاعة سنة ٣٢٩ هـ/٩٤٠ م، دار ضيافة في واسط لإطعام الفقراء. وأنشأ في السنة نفسها مستشفى جديداً في بغداد[٦٨].

وكانت توجد مستشفيات خاصة للأمراض العقلية في الموصل والبصرة[٦٩].

أما في العصر البويهي فلا توجد أية إشارة إلى خدمات اجتماعية قبل سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م، بل إننا نسمع بعادة إنزال الجند في بيوت الناس. ففي سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م، نزل معز الدولة في دار مؤنس وأنزل جنوده في بيوت الأهلين، وهو أمر لا سابقة له. وقاسى الناس من ذلك كثيراً، وأصبح إنزال الجند في بيوتهم فرضاً عليهم[٧٠].

وتمتع العراق ببعض الخدمات الاجتماعية ـ لأول مرة في العصر البويهي ـ في زمن عضد الدولة (٣٦٩ ـ ٣٧٢ هـ/٩٧٩ ـ ٩٨٢ م). ففي سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م، وضع عضد الدولة الأعطيات للأئمة والمؤذنين في المساجد، وللفقراء والمرضى الذين يلتجؤون إليها، وللأطباء والفقهاء والشعراء والنحويين والمنجمين، وللمهندسين والنسّابين. وخصص الأعطيات لأشراف المدينة ولفقرائها. وشمل أهل الذمة بعنايته، فسمح لوزيره نصر بن هارون أن يعمر الأديرة، وأن يساعد فقراء أهل الذمة بالمال[٧١].

---

(٦٥) ن.م.، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٦٦) ابن الأثير، ج ٨، ص ٨٥.
(٦٧) القفطي ـ أخبار الحكماء، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٦٨) مسكويه، ج ١، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.
(٦٩) النيسابوري ـ عقلاء المجانين، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.
(٧٠) مسكويه، ج ٢، ص ٤٠٧ ـ ٨، الذهبي ـ دول الإسلام (خط)، ورقة ١٨ ب ـ ١٩ أ، ابن الأثير، ج ٨، ص ٥١٨.
(٧١) أبو شجاع، ص ٦٩.

وفي سنة ٣٧٢ هـ/٩٨٢ م، أعاد عضد الدولة بناء المستشفى الرئيسي في بغداد، وخصص له واردات أوقاف كثيرة، وجهزه بالأدوية والآلات من كل جهة[٧٢].

وكان عضد الدولة يخصص في أول كل سنة خراجية مبالغ كبيرة من المال للصدقات، ويرسلها بواسطة عماله وولاته إلى أشراف الولايات وقضاتها لينفقوها على الفقراء والمحتاجين في مناطقهم.

وقد كانت هذه الخدمات جليلة الفائدة ولكنها وقتية، لأنها ـ كما يظهر ـ توقفت بعد وفاة عضد الدولة. هذا وقد وردت إشارة إلى أن الوزير أبا نصر سابور أنشأ داراً للعلم في بغداد، وأوقف فيها عدداً كبيراً من الكتب للمسلمين.

والخلاصة، فإن العصر البويهي كان خالياً من الخدمات الاجتماعية باستثناء الفترة بين ٣٦٩ ـ ٣٧٢ هـ. فقبل عضد الدولة كان البويهيون تنقصهم الثقافة الكافية، في حين أنهم شغلوا كثيراً في الخلافات العائلية بعده، فلم يتسع المجال للقيام بالخدمات اللازمة.

رابعاً: النفقات

١ ــ الخليفة

يعطي الصابي تفاصيل نفقات البلاط في خلافة المعتضد. فكانت ميزانية البلاط الشهرية تبلغ ١٢٢,٩٢٠ ديناراً[٧٣]، وتحتوي على المواد الآتية:

(٧٢) ن.م.، ص ٦٦.

(٧٣) انظر الصابي ـ الوزراء، ص ١١ ـ ٢٢.

نفقات الحرم	٣,٠٠٠ دينار
نفقات الطعام	١٠,٠٠٠ دينار
أجور الطباخين	٩,٠٠٠ دينار
علف الخيل في خمسة اصطبلات	٢,٠٠٠ دينار
أرزاق الجلساء وأكابر الملهين	١,٣٢٠ دينار
أبناء المتوكل	١,٠٠٠ دينار
أبناء الواثق والمهتدي والمستعين وغيرهم	٥٠٠ دينار
من الأمراء في قصر أم حبيب أبناء الناصر	٥٠٠ دينار
نفقات الزيت والشمع	٢٠٠ دينار
لشراء خيل وجمال	٢,٠٠٠ دينار
لأطباء البلاط	٧٠٠ دينار
لأصحاب الصيد من بازياريين وصقارين وفهادين وكلابزيين وغيرهم، وثمن طعم وعلاج للجوارح	٢,١٠٠ دينار
لملاحي البلاط	٥٠٠ دينار
للحاجب وبعض الحرس	١,٠٠٠ دينار
للغلمان الخاصة	٦٠,٠٠٠ دينار

وكان المعتضد مقتصداً في نفقاته. ولما توفي المكتفي (سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٧ م) خلّف:

ثياباً خوارزمية وخراسانية	٦٣,٠٠٠ ثوب
عمائم مروزية	١٣,٠٠٠ عمامة
من ثياب الوشي	١٨,٠٠٠ ثوب
من السجاد	١٨,٠٠٠ سجادة
من الجواهر والعطور ما يبلغ ثمنه	٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار
من الأسلحة والرقيق والدواب ما يبلغ ثمنه	٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار[1]

(١) الثعالبي - لطائف المعارف، ص ٧٢.

وقد بلغت نفقات المقتدر في خمس وعشرين سنة مقدار اثنين وسبعين مليون دينار أو ٢,٨٨٠,٠٠٠ دينار في السنة. وكانت قصوره مؤثثة ومزينة بترف بالغ[٧٤]، فكانت تحوي ٨٣٠,٠٠٠ ستارة من الحرير الخالص المطرز بالذهب و٦٢٠,٠٠٠ بساط من أنواع مختلفة ومن صنع بلاد مختلفة[٧٥]. وكان لديه في بعض اسطبلاته خمسمئة حصان لها سروج مزينة بالذهب والفضة. وكان في خدمته سبعمئة حاجب

(٧٤) انظر وصف قصر الشجرة في الخطيب البغدادي، ج ١، ص ٥٢، ابن الساعي - مختصر أخبار الخلفاء، ص ٧٥.

(٧٥) الخطيب البغدادي، ص ٥٢.

وسبعة آلاف مملوك (ثلاثة آلاف منهم بيض وأربعة آلاف سود)[٧٦]. ولعل هذه الأرقام تكفي لإعطاء فكرة عن البذخ العجيب لهذا الخليفة.

إلاّ أن ضعف الخزينة الناتج من إسراف المقتدر، اضطر أخلافه إلى شيء من الاعتدال في النفقة. فلما أصبح القاهر خليفة في سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م قدمت أنواع المآكل والحلويات المعتادة في البلاط، ولكنه استكثرها، وحاول الاقتصاد فيها. فوجد مثلاً أن النفقة على الفاكهة تبلغ ٣٠ ديناراً في اليوم فأنقصها إلى دينار واحد، وحدد المآكل التي تقدم في الوقت الواحد إلى اثني عشر نوعاً، في حين كان يقدم ثلاثون نوعاً من الحلوى وحدها في زمن أسلافه[٧٧].

ولكن وارد الخليفة في العصر البويهي لم يترك مجالاً للبذخ. فلا نسمع شيئاً عن ترف الخلفاء في ذلك العصر، في حين أن التواريخ المعاصرة تمجّد تقوى الخليفة القادر (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ/٩٩١ ـ ١٠٣٠ م) وزهده.

٢ ـ الوزراء

وكان الوزير يعيش في رغد بالغ. وإليك وصف الصابي لمائدة ابن الفرات: «كان الوزير يتوسط المائدة وضيوفه من حوله، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت...، ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبه ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى، ومعه طست زجاج يرمى فيه الثفل. فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم وأحضرت المائدة، مغشاة بديبقي فوق مكبة خيازر ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عليها، وحواليها مناديل الغمر من الثياب المعصور. فإذا وضعت، رفعت المكبة والأغشية وأخذ القوم في الأكل، وأبو الحسن ابن الفرات يحدثهم ويباسطهم ويؤانسهم فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين. ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه، ويغسلون أيديهم والفراشون قيام يصبون الماء، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الديبقية ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم»[٧٨].

---

(٧٦) ن.م.، ص ٥٢ ـ ٣.

(٧٧) عريب، ص ١٨٣.

(٧٨) الصابي ـ الوزراء، ص ٢٤٠.

ولما قدم السفير البيزنطي إلى بغداد سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م، قابله ابن الفرات في قاعة فسيحة في قصره، سقفها مذهب. وأنفق على تزيين قصره، في تلك المناسبة، نفقات كبيرة منها ٣٠,٠٠٠ دينار للستائر وحدها(٧٩). واشترى ابن الفرات مسكاً وكافوراً بمبلغ عشرة آلاف دينار في سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م(٨٠). وكان مطبخه العامر مفتوحاً للجميع. وكان المعتاد، عند مجيئه للوزارة، أن ترتفع أسعار الشمع والثلج والورق، لأنه اعتاد أن يقدم منها لكل زوّاره(٨١). وأشير مرة بحضرته إلى فقر المحدثين والمتأدبين، فأثر ذلك في نفسه وأمر بإعطاء عشرين ألف دينار للكتّاب، ومثلها للشعراء، ومثلها للفقهاء، ومثلها للصوفية(٨٢).

وكان دخل علي بن عيسى حوالي ٨٨,٠٠٠ دينار في السنة، ينفق منها ٤٨,٠٠٠ دينار على العباسيين والعلويين والأنصار وأبناء المهاجرين وعلى الحرمين وغير ذلك من أعمال البر والتقوى. وكان ينفق الباقي، أي حوالي ٤٠,٠٠٠ دينار، على حاجاته(٨٣). وكان علي بن عيسى أكثر وزراء عصره ورعاً، كما كان ابن الفرات أكثرهم بذخاً.

واعتاد حامد بن العباس أن ينصب الموائد في داره لكل من يدخلها من موظفين ومن غير الموظفين حتى الخدم، فكان ينصب حوالي أربعين مائدة يومياً، ولا تخلو مائدة من الخبز واللحم(٨٤).

وقد احتفظ مسكويه بوثيقة أصلية فيها نفقات الخصيبي لأربعة عشر شهراً (٣١٣ - ٣١٥ هـ/٩٢٥ - ٩٢٧ م)، إليك محتوياتها:

(٧٩) مسكويه، ج ١ ص ٥٣ - ٤.
(٨٠) مسكويه، ج ١ ص ٦٧.
(٨١) ن.م.، ج ١، ص ١٢٠، الفخري، ص ٣٦١.
(٨٢) ابن الأثير، ج ٨، ص ١١٣.
(٨٣) الصابي - الوزراء، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.
(٨٤) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٤.

أنفق في كل شهر من النفقات الراتبة (الدائمة) ٢٥٠٠ دينار، تكون في أربعة عشر شهراً	٣٥,٠٠٠ دينار
النفقات الحادثة والصلات والمؤونة مع ثمن الطيب والكسوة	٢٠,٠٠٠ دينار
ثمن عقارات أضافها إلى داره مع ما أنفقه على البناء	٤٠,٠٠٠ دينار
ثمن الهدايا في النوروز والمهرجان إلى الخليفة وإلى الأميرين أبي العباس وهارون ابنيه وإلى السيدة والخالة وزيدان ومفلح	٣٥,٠٠٠ دينار
ثمن بغال ودواب وجمال وخدم وغلمان	١٠,٠٠٠ دينار
إلى من برسم دار الوزارة من خلفاء الحجاب والبوابين وأصحاب الرسائل، وإنزال الفرسان والرجالة	٢٠,٠٠٠ دينار

وقد علّق الخصيبي نفسه على هذه القائمة بقوله: «هذا عمل صحيح، وليس كل ما أنفقته كتبته، فقد كنت أصوغ لحرمي وأولادي، وأنفق نفقات استرها عن كاتبي»[٨٥].

ونلاحظ من هذه الوثيقة ما يأتي:

١ ـ ان نفقات الخصيبي المسجلة، لمدة أربعة عشر شهراً، بلغت ١٥٥,٠٠٠ دينار أو ٢/٣ ١١٠٧١ دينار في الشهر.

٢ ـ انها بلغت ٦٢ بالمئة من وارده الذي بلغ ٢٥٠,٠٠٠ دينار[٨٦].

٣ ـ ان حصة الموظفين والحجّاب المتصلين بقصر الوزير بلغت ٨ بالمئة من راتب الوزير.

٤ ـ ان الهدايا التي تقدم إلى البلاط ـ وهي هدايا فرضتها التقاليد مع أنها في الأصل اختيارية ـ تبلغ ١٤ بالمئة من راتب الوزير.

واعتاد ابن مقلة أن ينفق (سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م) خمسمئة دينار في الأسبوع على الفاكهة وحدها. وكانت عنده حديقة حيوانات في بستان، وقد جمع فيها الطيور من مختلف الأنواع من الجهات البعيدة والقريبة، وأضاف إليها الغزلان والإبل والنعام وحمر الوحش[٨٧].

وفي سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م، كان البريدي ينفق على مائدته ألف دينار في

(٨٥) مسكويه، ج ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٨٦) ن.م.، ج ١، ص ١٥٥.
(٨٧) ن.م.، ج ١، ص ٢٠٣ الهامش.

اليوم[٨٨]. وفي سنة ٣٣١ هـ/٩٤٢ م، طلب (ناصر الدولة) ببغداد طعاماً مستعجلاً ليتعلل به فجاؤوه بدجاجة مشوية ورغيف واحد وسكر وملح وخل وقليل بقل[٨٩].

وكانت دور المثرين تحتوي على حمامات خاصة. وكان لأصحاب الدور المطلة على دجلة قوارب خاصة على ضفة النهر ومراكب على الأبواب المؤدية إلى الشوارع[٩٠]. وكانوا يستعملون الكلل للنوم تخلصاً من البق[٩١]، ويستعينون بالمراوح في الأيام الحارة[٩٢].

٣ ـ الطبقة المتوسطة

ويروي التنوخي الخبر التالي على لسان رجل من الطبقة المتوسطة ـ في العصر البويهي كما يظهر ـ وكان قد بدد ثروته ثم ورث ثلاثين ألف دينار. قال الرجل: «واعتقدت أن لا أبذر، وأن أدبر وأعيش بها إلى أن أموت وأنفقها على اقتصاد. فعمرت هذه الدار واشتريت جميع ما فيها من فرش وآلة وثياب ومركوب وجوار وغلمان بخمسة آلاف دينار. وجعلت تحت الأرض خمسة آلاف دينار عدّة للحوادث. وابتعت ضياعاً ومستغلات بعشرة آلاف دينار تغلّ لي في كل سنة مقدار نفقتي... ويفضل لي في كل سنة إلى وقت ورود الغلات شيء آخر حتى لا أحتاج أقترض ولا أستدين»[٩٣]. وكانت داره، كما وصفها صديق له: «صحناً واحداً فيه بستان، وجصصها من غير بياض، وطبقها وترك فيها مجلساً واحداً حسناً عامراً، وجعل باقي المجالس صحناً... وأدخلني إلى حجرة... يخلو فيها... وفيها فرش حسن». وفي الدار «أربعة غلمان، قد جعل خادمتين إلى كل واحد منهم، وخادم شيخ... جعله بواباً، وشاكريّ وهو سائسه». ثم يستطرد هذا الصديق فيصف الطعام قائلاً: «فجاؤوه بآلة مقتصدة نظيفة فخدم بها، وبفاكهة مختصرة متوسطة، وطعام نظيف كاف إلاّ أنه قليل فأكلنا[٩٤]، ونبيذ تمر جيد فجعلوه بين يدي، وبمطبوخ جيد بين يديه. ومدت ستارة فإذا بغناء طيب، وبخّر بعود طري وند جميعاً»[٩٥].

---

(٨٨) ن.م.، ج ١، ص ٣٤٨ م ٢.

(٨٩) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٠١ وط. الشالجي، ج ١، ص ١٨٣.

(٩٠) سبط ابن الجوزي، ج ١٢ ورقة ١٤ أ.

(٩١) الصابي ـ الوزراء، ص ٢٧٧.

(٩٢) الصولي ـ أشعار أولاد الخلفاء، ص ١١٦.

(٩٣) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٩٣.

(٩٤) راوي القصة وصاحب الدار.

(٩٥) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٩١ ـ ٩٢.

وهذه القصة تدلنا على الضروريات التي يمتلكها رجل من الطبقة المتوسطة، وهي: الدار، والخدم، والدواب، والضياع التي يعيش من ورادها. أما طعامه فمعتدل، لا يتعدى ثلاث وجبات. ولما أراد الاقتصاد أنفق ثلث ثروته لشراء ضياع ودفن سدسها حيطة للمستقبل.

وفي قصة أخرى، تعود إلى العقد الثالث من القرن الرابع الهجري، أفلس رجل من الطبقة المتوسطة، ثم ورث أربعين ألف دينار، فحاول أن يدبر أموره باقتصاد. وحدث بذلك صديقه فقال: «فعمرت هذه الدار (أي مسكنه) بألف دينار، واشتريت من الآلة والفرش والثياب والجواري ما تراه وغيره بسبعة آلاف دينار، وسلمت إلى بعض التجار الثقاة ألفي دينار يتجر لي فيها، وأودعت بطن الأرض عشرة آلاف دينار للشدائد والحوادث، وابتعت بالباقي ضيعة تغل في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقتي... فما أبقى احتاج إلى الاستزادة، وما تقبل غلّة إلاّ وعندي بقية من الغلّة الأولى»(٩٦). أما داره فهي كبيرة نسبياً، وأرضها مبلطة وفيها مجلسان متقابلان وخزائن ومستراح. ولديه ثلاثة غلمان، وخادم أقامه على حرمه، وشيخ بواب، ووكيل يتسوّق له». ولما دعا صديقه إلى الطعام، قدم له فاكهة نظيفة قليلة في آلة مقتصدة مليحة، ثم أتاه بعدها بطعام نظيف كافٍ غير مسرف ولا مقصر، ومدت ستارة وأحضرت مشام ورياحين في صوان، وهي من نوع متوسط غير مسرف. ثم قدم له الشراب وبخره بند، وغنى من وراء ستارة ثلاث جوار في نهاية طيب الغناء(٩٧).

وفي هذه القصة نجد الضياع تحتل المكان الأول(٩٨). كما أن تدبير الرجلين في القصتين سار على الاتجاه نفسه تماماً، سوى أن الرجل الثاني استغل ٢٠/١ من ثروته في التجارة، وبذلك فاق الأول في القابلية المالية.

ويذكر ابن الجوزي أن رجلاً أفطر سنة ٣٥١ هـ/٩٦٢ م، مع صديق له من الطبقة المتوسطة، فقدم خادمه طعام الإفطار وكان يتألف من هريسة ممتازة، يعقبها بعض الحلوى(٩٩).

---

(٩٦) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٧.

(٩٧) ن.م.، ج ٢، ص ١٦.

(٩٨) كانت الضياع عماد الاقتصاد العائلي. قيل: «فلاح المعيشة في الفلاحة، ولا ضيعة على من له ضيعة». وقيل: «اتخذ لك ضيعة تعينك إذا جاءتك الأحزان». اليواقيت للمقدسي، ص ٢٩.

(٩٩) سبط ابن الجوزي، ج ١٢ ورقة ٥٤ ب ـ ٥٥ أ.

٤ ـ العامة

ولم تكن العامة بهذه الدرجة من الرفاه. يذكر أن المهدي خرج إلى الصيد، وحدث أن انفصل عن حاشيته أثناء المطاردة، فمال إلى كوخ فلاح نبطي وطلب بعض الطعام. فقدم له الفلاح شيئاً من خبز الشعير، وصحناً فيه أسماك صغيرة. وسأله المهدي إن كان عنده بعض الكراث والزيت، فأحضر ذلك له وأضاف إليه قليلاً من التمر[١٠٠]. ولعل هذا كان أفخر ما عند ذلك الفلاح. وهذه الحادثة تعود إلى القرن الثاني الهجري، ومع ذلك فيحتمل أنها تصور وضع الفلاحين في القرن الرابع.

ويتحدث الجاحظ عن بخيل اعتاد أن يهيىء أكلةً واحدة جيدة في الأسبوع. فقد كان يشتري يوم الجمعة لحم بقر بدرهم، وبصلاً بدانق (١/٦ الدرهم)، وباذنجاناً بدانق وقرعاً أو جزراً بدانق، ويطبخ الكل في قدر واحدة[١٠١].

وفي سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م، أحس المقتدر، وهو في قاربه، بجوع قبل وصول طعامه. فقدم الملاح طعامه للخليفة، وكان يتألف من قطعة من السمك الجيد المملح. فاستغرب المقتدر أن لا يجد حلوى مع الطعام، وقال إنه لم يكن يعتقد أن أحداً يأكل طعاماً لا تعقبه حلوى. فقال الملاح: إن حلوانا هي التمر والزيتون[١٠٢].

وهكذا كان طعام العامة يتألف من وجبة واحدة في العادة، وكان التمر هو الحلوى. وكان السمك ولحم البقر رخيصاً وميسوراً للطبقات الفقيرة، كما كانت حلاوة التمر من اللذائذ عندهم[١٠٣]. وكانت الهريسة ـ ولا تزال ـ من الأكلات المحبوبة لدى العامة في بغداد[١٠٤].

وكان سويق الحمص محبوباً جداً في بغداد. ويذكر الخطيب البغدادي عن سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠ م، أن أحد باعة السويق في بغداد اعتاد أن يطحن ٣٦٠ كراً من الحمص في السنة، ويبيعها خلال شهرين أو ثلاثة حين لا توجد فاكهة. وكان الفقراء والمتظرفون يشترونه عادة[١٠٥]. وهذه القصة تدل على أن الفواكه كانت تتيسر حتى للفقراء.

---

(١٠٠) الجهشياري ـ الوزراء، ص ١٤٦.
(١٠١) الجاحظ ـ البخلاء، ص ١٩٣.
(١٠٢) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٢ قصة رقم ٩٨ (ص ٢١١ من الترجمة).
(١٠٣) انظر التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٦٢، الجاحظ ـ البخلاء، ص ١٩٣.
(١٠٤) الجاحظ ـ البخلاء، ص ٢٨٢، سبط ابن الجوزي، ج ١٢ ورقة ٥٤ ب ـ ٥٥ أ.
(١٠٥) الخطيب البغدادي، ص ٣٧.

وكان الفقراء يأكلون الجراد أيضاً، وخاصة في السنين العجاف. ففي سنة ٣٣١ هـ/٩٤٢ م، «كثر الجراد... فصاده الناس، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده، وكان نعمة من نعم الله جل وعلا»[١٠٦]. ويتحدث التنوخي عن رجل يبيع الجراد، فاشترى أحدهم منه بضعة أرطال وأكلها[١٠٧].. وقد حصل ذلك في بغداد، ولم يكن المشتري معدماً.

وفي سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م، طلب القادر من ابن القزويني الزاهد أن يرسل له بعض طعامه، فأرسل إليه الزاهد باذنجاناً مقلواً بخلّ وباقلى ودبساً وخبزاً، فوهبه القادر مئتي دينار فقبلها. وبعد أيام قليلة طلب القاهر من ابن القزويني شيئاً من طعامه، فأرسل إليه دجاجة مشوية، وفراريج وفالوذج، ولما أبدى الخليفة دهشته لهذا الطعام الفاخر، قال القزويني: «ما تكلفت. لما وسع عليّ وسعت على نفسي»[١٠٨].

وكانت معيشة البدو صعبة. سأل مديني أعرابياً: «أي شيء تدعون وأي شيء تأكلوه؟ قال: نأكل ما دبّ ودرج إلاّ أم حبين. فقال المديني: لتهن أم حبين العافية»[١٠٩].

وكان طعام البدو المعتاد يتكون من الخبز واللبن والتمر والزبد وما يعمل منها. وكانوا يحصلون على الكمأة والجراد في بعض المواسم. ومن أكلاتهم اللذيذة اللبن والوطيع (من التمر والحليب)، والحيس (وهو من التمر والدهن واللبن الخاثر)[١١٠].

خامساً: عدم استقرار الملكية ــ المصادرات وآثارها

كانت طريقة المصادرة أكبر خطر على الملكية الخاصة في القرن الرابع الهجري. وكانت تصيب المثرين ولا سيما الموظفين منهم.

وكان المعتاد أن يتهم كل وزير سلفه بسوء التصرف والظلم، ويطلب منه ومن كتابه وأعوانه أن يفتدوا أنفسهم بكميات من المال[١١١]. ولم ينج

(١٠٦) الصولي ـ أخبار الراضي والمتقي، ص ٢٣٧.
(١٠٧) التنوخي ـ نشوار المحاضرة، ج ٢ قصة ٨٦ (ص ١٩٨ من الترجمة).
(١٠٨) أبو شجاع، هامش ص ٢٠٥.
(١٠٩) الجاحظ ـ البخلاء، ص ٣٤٦.
(١١٠) ن.م.، ص ١١٥ وص ٢٨٢؛ انظر ص ٢٤٤.
(١١١) انظر عريب، ص ٣٩ وص ٦٥ وص ٦٦ وص ٧٤ وص ١٠٨ ـ ١٠٩ وص ١١٢ وص ١١٣ وص ١٢٧ وص ١٨٣ وص ١٨٤. انظر مقدمة ابن خلدون، ص ٢٣٥.

الولاة[١١٢]، ولا القضاة[١١٣] من هذه العادة، حتى إن إحدى قهرمانات البلاط فقدت ثروتها (سنة ٣٣٤ هـ) بالمصادرة[١١٤].

وكانت الطريقة المتبعة في المصادرة أن يلقى القبض على الوزير وأعوانه بصورة مفاجئة ويسجنون. ثم يبدأ الوزير الجديد بعد ذلك تحرياته ليستخرج المصادرة بالإقناع والتهديد. وكانت المصادرة تشمل أحياناً ثروة الموظف المتوفى[١١٥].

وكانت المصادرات قبل التغلّب البويهي، أكثر تكراراً وعلى نطاق أوسع مما صارت عليه بعد ذلك التغلب. فبينما يسجل مسكويه ثلاثين مصادرة بين سنة ٢٩٦ هـ - ٣٣٤ هـ، نراه يذكر عشرة بين ٣٣٤ هـ - ٣٨١ هـ. وعلى سبيل المثال نذكر أنه في سنة ٣١٢ هـ/٩٢٤ م فقد ابن الفرات[١١٦]، وابنه المحسّن وكاتب المحسن[١١٧]، وزوجته[١١٨]، وابنان آخران لابن الفرات - ثروتهم بالمصادرة، في حين أننا في العصر البويهي نرى مرة واحدة فقط (٣٥٠ هـ/٩٦١ م) صودر فيها الوزير ورئيس كتّابه[١١٩].

ورأى بعض الوزراء في المصادرة مورداً أساسياً للخزينة وتصرفوا بموجب ذلك[١٢٠]. وهكذا كان الخصيبي[١٢١] وأبو الفضل الشيرازي[١٢٢]. وكان يوجد ديوان خاص يدعى (ديوان المصادرين) لإدارة الأملاك المصادرة[١٢٣].

وقد أدت المصادر إلى سنن غير مرغوب فيها. فالموظفون الكبار صاروا مضطرين إلى جمع الثروة بكل وسيلة، استعداداً لليوم الأسود[١٢٤]. كما أنهم لجأوا

---

(١١٢) مسكويه، ج ١، ص ٣٢ وص ٢٠٨.
(١١٣) ن.م.، ج ١، ص ١٤ وص ١٦.
(١١٤) ن.م.، ج ٢، ص ٨٨.
(١١٥) ن.م.، ج ١، ص ٣٢.
(١١٦) ن.م.، ج ١، ص ١٣١.
(١١٧) ن.م.، ج ١، ص ١٢٨.
(١١٨) ن.م.، ج ١، ص ١٤١.
(١١٩) ن.م.، ج ٢، ص ١٨٦.
(١٢٠) عريب - صلة الطبري، ص ١٨٥.
(١٢١) مسكويه، ج ١، ص ١٤٤ وص ١٥٣، عريب، ص ١٢٨.
(١٢٢) مسكويه، ج ٢، ص ٣٠٨، التنوخي - الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٨٠.
(١٢٣) مسكويه، ج ١، ص ٢١ وص ١٥٤، الرفاعي - عصر المأمون، ج ١، ص ٣١٣، الصابي - الوزراء، ص ٣١٠.
(١٢٤) الرفاعي، ج ١، ص ٣١٣، والصابي، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

إلى حيَل مختلفة ليخفوا ثروتهم عن عيون من يخلفهم في المنصب. فمثلاً أودعوا أموالهم عند أناس لا يشتبه بهم، فوضع ابن الفرات بعض أمواله - في وزارته الأولى - عند القاضي أبي عمر[١٢٥]، كما وضع كاتبه سبعين ألف دينار عند أناس آخرين[١٢٦]. وفشت عادة دفن النقود تحت الأرض. ففي سنة ٣١١ هـ/٩٢٣ م، اعترف حامد بن العباس انه دفن ٥٠٠,٠٠٠ دينار[١٢٧]، واستخرجت ٤٠٠,٠٠٠ دينار من داره بعد وفاته[١٢٨]. ودفن بجكم كميات كبيرة من الذهب والفضة في داره وفي الصحراء[١٢٩]. وفي سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م، فتش المهلبي في دار أبي علي الخازن ووجد ما يزيد على تسعين ألف دينار، كما وجد أن أبا علي أودع أموالاً طائلة عند بعض الناس[١٣٠]. ووجدت ٣٠,٠٠٠ دينار مدفونة في دار كاتب ديوان الخراج الذي توفي سنة ٣٥٠ هـ[١٣١].

وكان لدفن النقود أثر اقتصادي سيّىء. إذ فقدت بذلك كميات كبيرة ن النقود الفضية والذهبية بوفاة أصحابها[١٣٢]، ونتج من ذلك حجز كميات كبيرة من النقد من التداول مما يؤثر في عرقلة الحركة التجارية وفي إضعاف نموّ المؤسسات الصيرفية. كما أن عادة دفن النقود تشير إلى أن المجتمع لم يدرك تماماً أهمية تشغيل الأموال في التجارة.

ويظهر أنه لم تكن هناك قاعدة تحدد نسبة ما يصادر من مجموع الثروة؛ فمثلاً كان دخل الخصيبي، رسمياً (سنة ٣١٣ - ٣١٥ هـ)، يساوي ٢٥٠,٠٠٠ دينار أغرم منها ٤٠,٠٠٠ دينار[١٣٣]، أي ١٦ بالمئة. ولكن المصادرة كانت معتدلة في هذه الحالة. وكانت مصادرة ابن الفرات سنة ٣٠٦ هـ على ٧٠٠,٠٠٠ دينار[١٣٤]. ولما كان قد أمضى ثمانية عشر شهراً فقط وكان دخله من ضياعه (١,٥٠٠,٠٠٠

---

(١٢٥) مسكويه، ج ١، ص ٦٧.
(١٢٦) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٥٣، انظر مسكويه، ج ١، ص ١٠٢.
(١٢٧) مسكويه، ج ١، ص ١٠٢.
(١٢٨) التنوخي - نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٥.
(١٢٩) مسكويه، ج ٢، ص ١١.
(١٣٠) انظر مسكويه، ج ٢، ص ١٨٥ - ١٨٨، ياقوت - معجم الأدباء، ج ٣، ص ١٨٣.
(١٣١) مسكويه، ج ٢، ص ١٤١.
(١٣٢) سبط ابن الجوزي، ج ١٢ ورقة ١١ أ.
(١٣٣) مسكويه، ج ١، ص ١٥٦.
(١٣٤) ن.م.، ج ١، ص ٦٦.

دينار)، فإن مصادرته تبلغ ٤٢ بالمئة من دخله[١٣٥]. ولما صودر حامد بن العباس سنة ٣١١ هـ اضطر إلى بيع ضياعه لدفع ما طلب منه. وكان أبو الفضل الشيرازي وزيراً لمدة تقل عن سنتين (٣٦٠ - ٣٦٢ هـ/٩٧٠ - ٩٧٢ م)، وقد بلغ دخله من إقطاعه ٥٠,٠٠٠ دينار سنوياً في حين أنه صودر على ١٠٠,٠٠٠ دينار، أي أن المصادرة تجاوزت كل الدخل[١٣٦].

ومع أن المصادرات سببت ارتباكاً في الإدارة، وإضراراً بالناس، إلاّ أنها لم تكن تخلو من بعض الفائدة. إذ إنها منعت تراكم الثروة المفرط وقللت من التباين الاقتصادي. ثم إن ذهاب أموال المصادرة إلى الخزينة يعني إعادة توزيعها على الموظفين في الرواتب، من جهة، واستفادة الناس أحياناً منها عن طريق الخدمات الاجتماعية. وأخيراً كانت المصادرة مورداً للخزينة ويمكن اعتبارها شبه ضريبة دخل.

وكان التجار والأغنياء من الأهلين عرضة للمصادرة أحياناً[١٣٧]، ولكن لدرجة أقل من الموظفين. ولا تستثنى إلاّ حالة ابن الجصاص الذي كانت أمواله المصادرة كبيرة[١٣٨].

---

(١٣٥) ن.م.، ج ١، ص ١٠٣.

(١٣٦) ن.م.، ج ٢، ص ٢٤٢.

(١٣٧) ن.م.، ج ١، ص ٢٥٣، ج ٢، ص ٣٠٧ - ٣٠٨، أبو شجاع، ص ٢٨٤، الصولي - أخبار الراضي والمتقي، ص ١٤٨.

(١٣٨) انظر الفصل عن التجارة، قسم ٢؛ والمسعودي، ج ٧، ص ٢٨٣، ومسكويه، ج ١، ص ٣٥.

قائمة رقم (١)

وفي ما يلي قائمة بالمصادرات التي ذكرها مسكويه بين سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م و٣٨١ هـ/٩٩١ م:

السنة	الاسم	مقدار المصادرة	الصحيفة
٢٩٦ هـ	علي بن عيسى	٥,٠٠٠ دينار	ج ١ ص ٨
٢٩٦ هـ	القاضي أبو عمر يوسف بن يعقوب	١٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٤
٣٠١ هـ	صودرت ثروة الراسبي بعد وفاته	٥٠٠,٠٠٠ دينار	ص ٢٤٠
٣٠٦ هـ	المحسن بن الفرات	٣٠٠,٠٠٠ دينار	ص ٦٤
٣٠٦ هـ	الوزير ابن الفرات	٧٠٠,٠٠٠ دينار	ص ٦٦
٣١١ هـ	ابن الحواري (كاتب)	٧٠٠,٠٠٠ دينار	ص ٩٣
٣١١ هـ	نسيب حامد بن العباس	٢٦٠,٠٠٠ دينار	ص ٩٣
٣١١ هـ	كاتب حامد بن العباس	٢٦٠,٠٠٠ دينار	ص ١٠٠
٣١١ هـ	حامد بن العباس	٨٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٠٢
٣١١ هـ	علي بن عيسى	٣٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٠٩
٣١٢ هـ	صودر كل من ولدي ابن الفرات	١٠٠,٠٠٠ دينار	-
٣١٢ هـ	كاتب المحسن	٢٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٢٨
٣١٢ هـ	ابن الفرات	٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٣١
٣١٢ هـ	زوجة المحسن	٧٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٤١
٣١٢ هـ	الوزير الخاقاني	٢٥٠,٠٠٠ دينار	ص ١٤٤
٣١٢ هـ	جعفر بن قاسم الكرخي (الوزير)	١٥٠,٠٠٠ دينار	ص ١٤٤
٣١٣ هـ	أبو طالب النوبندجاني	١٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٤٧
٣١٥ هـ	الوزير الخصيبي	٤٠,٠٠٠ دينار	ص ١٤٧
٣١٥ هـ	البريديون، (عمال واسط والبصرة)	٩,٠٠٠,٠٠٠ درهم	ص ٢٠٨
٣١٥ هـ	الوزير ابن مقلة	٢,٠٠٧,٠٠٠ دينار	ص ٢٠٩
٣١٩ هـ	الوزير سليمان بن الحسن	٢٠٠,٠٠٠ دينار	ص ٢١٢
٣١٩ هـ	الوزير الحسين بن القاسم	٤٠,٠٠٠ دينار	-
٣٢١ هـ	الوزير الكلواذاني	٢٠٠,٠٠٠ دينار	ص ٢٤٦
٣٢١ هـ	أبو الخطاب ابن الفرات	١٠٠,٠٠٠ دينار	ص ٢٥٣
٣٢١ هـ	علي بن يلبق	١٠,٠٠٠ دينار	ص ٣٦٦
٣٢١ هـ	ابن شيرزاد	٢٠,٠٠٠ دينار	ص ٢٧٠
٣٢٣ هـ	الوزير القراريطي	٥٠٠,٠٠٠ دينار	ص ٣١٩
٣٢٣ هـ	علي بن عيسى	٦٠,٠٠٠ ديار	ص ٣٢٤
٣٢٣ هـ	أبو علي الحسن بن هارون	١٠,٠٠٠ دينار	ص ٣٣١

يتبع

تابع

٣٢٤ هـ	الوزير ابن مقلة	١,٠٠٠,٠٠٠ درهم	ص ٣٣٧
٣٢٤ هـ	عبد الرحمن بن عيسى	٧٠,٠٠٠ دينار	ص ٣٣٨
٣٢٤ هـ	علي بن عيسى	١٠٠,٠٠٠ دينار	ص ٣٣٨
٣٣٢ هـ	يانس	١٠٠,٠٠٠ دينار	ج ٢ ص ٦١
٣٣٣ هـ	أبو الفرج السامري	٣٠٠,٠٠٠ درهم	ص ٨٠
٣٣٤ هـ	القهرمانة علم	٤٠,٠٠٠ دينار	ص ٨٨
٣٥٠ هـ	علي أبو مخلّد	٥٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٨٥
٣٥٠ هـ	العباس بن الحسين الشيرازي	٣٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٨٦
٣٥٠ هـ	أبو الفرج كاتب ديوان الخراج	٣٠٠,٠٠٠ دينار	ص ١٨٦
٣٥٩ هـ	أبو الفضل الشيرازي	٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم	ص ٢٦٣
٣٦٠ هـ	محمد بن أحمد الجرجرائي	١٠٠,٠٠٠ درهم	ص ٣١٣
٣٦٤ هـ	ابن السرّاج	١٠٠,٠٠٠ درهم	ص ٣٥٨
٣٨١ هـ	الوزير أبو نصر سابور	٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم	أبو شجاع ص ١٩٨

ويحفظ الصابي لنا وثيقة مهمة كانت في ديوان المغرب هي ثبت بالمصادرات التي أراد ابن الفرات وولده المحسن في وزارتهما استخراجها سنة ٣١١ هـ/٩٢٣ م بعد أن حصلا على خطوط أصحابها بدفعها.

البسطامي	٧,٣٠٠ دينار
باذيني الكاتب	١١,٠٠٠ دينار
محمد بن عبد الله الشافعي	٣٠,٠٠٠ دينار
محمد بن علي بن مقلة	٨٠,٠٠٠ دينار
أبو طاهر محمد بن الحسن	١٠٠,٠٠٠ دينار
الحسن بن أبي عيسى الناقد	١٧,٠٠٠ دينار
ابراهيم بن أحمد المادرائي	٢٠,٠٠٠ دينار
عبد الواحد بن عيسى	١,٣٠٠ دينار
ابن هاني الخطيب	١٠,٠٠٠ دينار
ابن ادريس الجهبذ	٦,٠٠٠ دينار
محمد بن سهل	٤,٠٠٠ دينار
عبد الوهاب بن ما شاء الله	٤٠,٠٠٠ دينار
باذيني	٢٠٠,٠٠٠ درهم
محمد بن عبد الله بن الحارث	١٠,٠٠٠ دينار
محمد بن أحمد بن حماد	٢٥٠,٠٠٠ دينار
ابراهيم بن أحمد المادرائي	١٥,٠٠٠ دينار

يتبع

تابع

أبو عمر الجرجرائي	١٠٠,٠٠٠ درهم
أبو عمر الجرجرائي	٣,٠٠٠ دينار
علي بن محمد الحواري	٧٠٠,٠٠٠ درهم
عبيد الله بن أحمد اليعقوبي	١٠٠,٠٠٠ درهم
هارون بن أحمد بن هارون الهمداني	٧,٠٠٠ دينار
حسن بن ابراهيم الخرائطي	١٠٠,٠٠٠ درهم
حسين بن علي بن ناصر	١٠٠,٠٠٠ درهم
عبد الله بن زيد بن ابراهيم	٢,٥٠٠ دينار
عبد الله بن زيد بن ابراهيم	١٥,٠٠٠ درهم
علي بن محمد بن السمان	٢,٥٠٠ درهم
الاسكافي، كاتب ابن الحواري	٦٠,٠٠٠ دينار
أبو بكر الجرجاني	١٠,٠٠٠ درهم
محمد بن أحمد	١,٥٠٠,٠٠٠ درهم
أبو الحسن بن بسطام	٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم
أحمد بن محمد بن حمد بن العباس	٥٠,٠٠٠ درهم
يحيى بن عبد الله بن اسحاق	٧٠,٠٠٠ دينار
حامد بن العباس	١,٣٠٠,٠٠٠ دينار
محمد بن حمدون الواسطي	١٥٠,٠٠٠ دينار
علي بن عيسى	٣٢١,٠٠٠ دينار
ابراهيم بن يوحنا (جهبذ حامد)	١٠٠,٠٠٠ دينار
الحسن بن أحمد المادرائي	١,٢٠٠,٠٠٠ دينار
الحسن بن أحمد المادرائي	١,٠٠٠,٠٠٠ دينار
محمد بن علي المادرائي	١,٠١١,٠٠٠ دينار
سليمان بن مخلد	١٣٠,٠٠٠ درهم
المجموع - الدنانير	٧,٥٧٥,٦٨٠ ديناراً
- الدراهم	٥,٣٠٠,٠٠٠ درهم
وبتحويل الدراهم إلى دنانير يكون المجموع	٨,٠٤٠,٠٠٠ دينار(١)

(١) الصابي، ص ٢٢٣ - ٢٢٧.

استنتاجات عامة

١ - كان التغلب البويهي (سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م) حداً فاصلاً بين فترتين، إذ إنه أضر بالاقتصاد الزراعي وعرقل نمو المؤسسات التجارية والصيرفية.

٢ - لعل مستوى الأسعار في الفترة البويهية كان أوطأ من الفترة السابقة، ولكن الغلاء تكرر أكثر في الفترة البويهية.

٣ ـ جاء التغلب البويهي بالغرباء إلى أحسن الوظائف، وجعل مستوى الأهلين عامة في عداد الطبقات المتوسطة والفقيرة.

٤ ـ انخفض دخل الخليفة والوزير والموظفين المدنيين في الفترة البويهية، بينما ارتفع دخل الجيش.

٥ ـ لقد قاسى الفلاحون، في العصر البويهي بصورة خاصة، من كثرة الضرائب، ومن جشع الموظفين وعدم ضبطهم، ومن خراب نظام الري.

٦ ـ لقد تضاءلت الخدمات الاجتماعية، التي تقوم بها الدولة، في الفترة البويهية.

٧ ـ كانت المصادرة وسيلة مناسبة للتنكيل بالخصوم وللحصول على المال، ولكن نسبتها، في الفترة البويهية كانت أقل من السابق.

وأختم رسالتي مبيناً أن التغلّب البويهي أدى إلى هبوط في مستوى المعيشة لسكان العراق.

المصادر

١ ــ المصادر الأولية:

١ ـ الابشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف. جزءان. القاهرة ١٣٠٨ هـ.

٢ ـ اخوان الصفا: رسائل اخوان الصفا. نشرها الزركلي. ٤ مجلدات. القاهرة ١٩٢٨ م. ونشر دار صادر ودار بيروت. ٤ مجلدات. بيروت ١٣٧٦ ـ ٧ هـ/ ١٩٥٧ م.

٣ ـ الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. روما ١٥٩٢ م.

٤ ـ الأزدي: حكاية أبي القاسم البغدادي. نشره آدم متز. هيدلبرج، ١٩٠٢ م.

٥ ـ الاصطخري: المسالك والممالك. المكتبة الجغرافية العربية، ج ١ (B.G.A.) نشره دي خويه ليدن ١٨٧٠. وطبعة مولر Liber Climatum, ed. Moeller, Gotha 1939.

٦ ـ الاصفهاني، أبو الفرج: كتاب الأغاني. ٢٠ جزءاً. بولاق ١٢٨٥ هـ. وج ٢١، باعتناء برونو، ليدن ١٨٨٨.

٧ ـ الأصفهاني، حمزة: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء. باعتناء غوتوالد. جزءان. بطرسبورج ١٨٤٤ ـ ١٨٤٨.

٨ ـ الانطاكي: تاريخ الانطاكي ـ باعتناء لويس شيخو. بيروت ١٩٠٦.

٩ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، باعتناء تورنبرج. ١٤ جزءاً. ليدن ١٨٥١ ـ ١٨٧٦.

١٠ ـ ابن الاخوة القرشي: معالم القربة في أحكام الحسبة ـ باعتناء ر. ليفي. مجموعة تذكار جب، ١٩٣٨ م.

١١ ـ ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. جزءان. القاهرة ١٨٨٤ م.
١٢ ـ ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة. باعتناء لويس شيخو. مجلة المشرق. السنة العاشرة. ١٩٠٧ م.
١٣ ـ ابن البطريق، سعيد: تاريخ ابن البطريق. باعتناء لويس شيخو. بيروت ١٩٠٥م.
١٤ ـ ابن تيمية: الحسبة في الإسلام. القاهرة ١٣٢٨ هـ.
١٥ ـ ابن تيمية: مجموع الرسائل والمسائل. نشره رشيد رضا. القاهرة ١٣٤١ هـ.
١٦ ـ ابن جبير: رحلة ابن جبير. باعتناء دي خويه. مجموعة تذكار جب. ١٩٠٧م.
١٧ ـ ابن الجوزي، عبد الرحمن: مناقب بغداد. نشره محمد بهجة الأثري. بغداد ١٣٤١ هـ.
١٨ ـ ابن الجوزي، عبد الرحمن: تلبيس ابليس. القاهرة ١٩٢٨ م.
١٩ ـ ابن الجوزي: المنتظم في التاريخ ـ ج ٥ ـ ١٠. حيدر أباد الدكن ١٣٥٧ ـ ٩هـ.
٢٠ ـ ابن حوقل: المسالك والممالك. المكتبة الجغرافية العربية. ج ٢. باعتناء دي خويه، ليدن ١٨٧٠. وطبعة جديدة. باعتناء كرامرز، ليدن ١٩٣٨.
٢١ ـ ابن خرداذبه: المسالك والممالك. المكتبة الجغرافية العربية. ج ٤. باعتناء دي خويه. ليدن ١٨٨٩.
٢٢ ـ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. ٧ مجلدات. بولاق ١٢٨٤ هـ.
٢٣ ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان. جزءان. بولاق ١٢٩٩ هـ.
٢٤ ـ ابن رسته: الأعلاق النفيسة. المكتبة الجغرافية العربية. ج ٧. باعتناء دي خويه. ليدن ١٨٩٢ م.
٢٥ ـ ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب. باعتناء لويس شيخو. بيروت ١٩٠٣ م.
٢٦ ـ ابن رجب الحنبلي: الاستخراج لأحكام الخراج. باعتناء عبد الله الصديق، القاهرة ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٤ م.
٢٧ ـ ابن الرومي: ديوان ابن الرومي. نشره كامل كيلاني. ٣ أجزاء. القاهرة ١٩٢٤م.
٢٨ ـ ابن الساعي: الجامع المختصر. الجزء التاسع. نشره مصطفى جواد. بغداد ١٩٣٤م.
٢٩ ـ ابن الصيرفي: الاشارة إلى من نال الوزارة. باعتناء مخلص. باريس ١٩٢٤ م.
٣٠ ـ ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية. القاهرة ١٩٢٧ م (وطبعة أخرى باعتناء درنبورغ باريس ١٨٩٤ م).

٣١ ـ ابن العبري: مختصر تاريخ الدول. بيروت ١٨٩٠ م. وترجمة انكليزية عن النسخة السريانية التي تختلف أحياناً عن العربية، وهي:

٣٢ ـ Chronology: Translated from Syriac, by E. A. W. Budge, London 1932.

٣٣ ـ ابن العماد: شذرات الذهب. ٨ مجلدات. القاهرة ١٣٥٠ هـ.

٣٤ ـ ابن فضلان: رحلة ابن فضلان. باعتناء م. فرين، بطرسبورج ١٨٢٣ م، وطبعة أخرى في لنينغراد ١٩٣٨ م.

٣٥ ـ ابن الفقيه الهمداني: مختصر كتاب البلدان. المكتبة الجغرافية العربية. ج ٥. باعتناء دي خويه. ليدن ١٨٨٥ م.

٣٦ ـ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة. نشره مصطفى جواد. بغداد ١٣٥١ هـ.

٣٧ ـ ابن قتيبة: أدب الكاتب. باعتناء دي خويه. ليدن ١٩٠٢ م.

٣٨ ـ ابن قدامة: المغني، تعليق محمد رشيد رضا، ط ٣ دار المنار، القاهرة ١٣٦٧.

٣٩ ـ ابن مماتي: قوانين الدواوين. باعتناء عزيز سريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.

٤٠ ـ ابن منظور: لسان العرب. ٢٠ ج. بولاق ١٣٠٠ ـ ١٣٠٧.

٤١ ـ ابن النديم: الفهرست. باعتناء فلوجل. جزءان. ليبزج ١٨٧١ م.

٤٢ ـ ابن وحشية: كتاب الفلاحة النبطية (خط). مكتبة بودليان بأكسفورد. ومكتبة أحمد الثالث رقم ١٩٨٩/١.

٤٣ ـ أبو عبيد، القاسم بن سلام: الأموال، تعليق محمد حامد الفقي. القاهرة ١٣٥٣هـ.

٤٤ ـ أبو يعلي، الفراء الحنبلي: الأحكام السلطانية. القاهرة ١٩٣٨ م.

٤٥ ـ أبو يوسف: الخراج. بولاق ١٣٠٢ والقاهرة ١٣٥٢ هـ.

٤٦ ـ بحشل: تاريخ واسط. باعتناء كوركيس عواد. بغداد ١٩٦٧.

٤٧ ـ البطليوسي: الاقتضاب. بيروت ١٩٠٨ م.

٤٨ ـ البغدادي، عبد القادر: الفرق بين الفرق. باعتناء م. بدر. القاهرة ١٩١٠ م.

٤٩ ـ البلاذري: فتوح البلدان. باعتناء دي خويه. ليدن ١٨٦٦ م.

٥٠ ـ البلخي، أبو زيد: تتمة صوان الحكمة. باعتناء الشافعي. لاهور ١٩٣٥ م.

٥١ ـ البوزجاني: كتاب المنازل في ما يحتاج إليه الكتاب والعمال وغيرهم من علم الحساب. مخطوط دار الكتب، ونشره أحمد سعيدان في تاريخ الحساب العربي. عمّان ١٩٧١.

البوزجاني: كتاب الحاوي للأعمال السلطانية ورسوم الحساب الديوانية. (المكتبة

الوطنية بباريس. عربية، ٢٤٦٢).
٥٢ ـ البيروني، أبو الريحان: الآثار الباقية عن القرون الخالية. باعتناء ادورد سخاو. ليبزج ١٨٧٨ م.
٥٣ ـ البيروني، أبو الريحان: الجماهر في معرفة الجواهر. باعتناء ف. كرنكو، حيدر آباد الدكن ١٣٥٥ هـ.
٥٤ - El - Biruni's India, Translated by E. Sachau, 2 Vols, London 1888.
٥٥ ـ البيهقي: المحاسن والمساوىء. باعتنار ف. شوالي. كيسن ١٩٠٢ م.
٥٦ ـ التنوخي: الفرج بعد الشدة. جزءان. القاهرة ١٩٠٤ م.
٥٧ ـ التنوخي: نشوار المحاضرة، أو جامع التواريخ. ج ١. نشره مرجيليوث. القاهرة ١٩٢١، وج ٨ نشره المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق ١٩٣٠. وترجمة انكليزية للجزء الثاني وللجزء الثامن بقلم مرجيليوث في مجلة Islamic Culture، وطبعة حديثة باعتناء عبود الشالجي، ٨ ج، دار صادر بيروت ١٩٧١ - ٣.
٥٨ ـ التنوخي: عنوان الحكمة والبيان (خط). في مكتبة بودليان باكسفورد رقم (Marsh 251)
٥٩ ـ الثعالبي، أبو منصور: أربع رسائل. القسطنطينية ١٣٠١ هـ.
٦٠ ـ الثعالبي، أبو منصور: ثمار القلوب. القاهرة ١٣٢٦ هـ.
٦١ ـ الثعالبي، أبو منصور: فقه اللغة. بيروت ١٨٨٥ م.
٦٢ ـ الثعالبي، أبو منصور: خاص الخاص. تونس ١٢٩٣ هـ.
٦٣ ـ الثعالبي، أبو منصور: لطائف المعارف. باعتناء دي يونج. بتافيا ١٨٧٦ م.
٦٤ ـ الجاحظ: البخلاء. نشر المكتب العربي بدمشق. دمشق ١٩٣٨ م.
٦٥ ـ الجاحظ: البيان والتبيين. جزءان. القاهرة ١٣١١ ـ ١٣١٢ هـ.
٦٦ ـ الجاحظ: التبصر بالتجارة. نشره حسن حسني عبد الوهاب، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٣٣ م (ص ٣٢١ ـ ٣٥١)، والقاهرة، ط ٢، ١٩٣٥ م.
٦٧ ـ الجاحظ: الدلائل والاعتبار في الخلق والتدبير. نشره الطباخ. حلب ١٩٢٨ م.
٦٨ ـ الجاحظ: رسائل الجاحظ، (١١ رسالة). القاهرة ١٣٢٤ هـ.
٦٩ ـ الجاحظ: رسائل الجاحظ. باعتناء حسن السندوبي. القاهرة ١٩٣٣ م.
٧٠ ـ الجاحظ: ثلاث رسائل (Tria Opuscula). باعتناء فان فلوتن ١٩٠٣ م.

٧١ ـ الجاحظ: ثلاث رسائل. باعتناء ي. فنكل. القاهرة ١٣٤٤ هـ.
٧٢ ـ الجهشياري: الوزراء والكتّاب. باعتناء مصطفى السقا، والأبياري، والشلبي. القاهرة ١٩٢٨ م.
٧٣ ـ الحبيشي: البركة في فضل السعي والحركة. القاهرة ١٣٠٨ هـ.
٧٤ ـ حدود العالم (H, 'A.): ترجمه وعلّق عليه ف. مينورسكي. (مجموعة تذكار جب) اكسفورد ١٩٣٧ م.
٧٥ ـ الحريري: مقامات الحريري. باعتناء دي ساسي. باريس ١٨٢٢ م.
٧٦ ـ الحصري: زهر الآداب. ٤ اجزاء. القاهرة ١٩٢٥ م.
٧٧ ـ الحكيم، أبو الحسن علي بن يوسف: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة. صحيفة المعهد المصري، المجلد الرابع ١٩٥٨ مدريد.
٧٨ ـ حمد الله المستوفي: نزهة القلوب. ترجمة غ. لسترنج (مجموعة تذكار جب) ١٩١٩ م.
٧٩ ـ الحاج خليفة: كشف الظنون. باعتناء ج. فلوجل. ٧ مجلدات. ليبزج ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨ م.
٨٠ ـ الخصاف: الحيَل والمخارج. باعتناء ي. شاخت. هانوفر ١٩٢٣.
٨١ ـ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، الجزء الأول. نشر وترجمة سالمون. باريس ١٩٠٤ م.
Introduction Topographique à l'Histoire de Baghdad, éd. G. Salmon, Paris, 1904.
وتاريخ بغداد ١٢ مجلد، دار الكاتب العربي، بيروت.
٨٢ ـ الخفاجي: شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل. القاهرة ١٣٢٥ هـ.
٨٣ ـ الخوارزمي: مفاتيح العلوم. القاهرة ١٩٣٠ م، وطبعة باعتناء فان فلوتن، ليدن ١٨٩٥ م.
٨٤ ـ الدميري: حياة الحيوان. جزءان. بولاق ١٢٨٤ هـ.
٨٥ ـ الدمشقي، أبو الفضل: الاشارة إلى محاسن التجارة. القاهرة ١٣١٨ هـ.
٨٦ ـ الدمشقي، شمس الدين: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. باعتناء م.ا.ف. مهرن؛ بطرسبورج ١٨٦٦ م.
٨٧ ـ الديار بكري: تاريخ الخميس. جزءان. القاهرة ١٢٨٣ هـ.
٨٨ ـ الذهبي: تاريخ دول الإسلام. مخطوط في مكتبة بودليان باكسفورد رقم Marsh 66.

٨٩ ـ الذهبي: مختصر تاريخ دول الإسلام. حيدر آباد الدكن ١٣٢٧ هـ.
٩٠ ـ ربيعة الرأي، هلال: أحكام الوقف. حيدر آباد الدكن ١٣٥٥ هـ.
٩١ ـ الزبيدي: تاج العروس، ١٠ مجلدات، المطبعة الخيرية القاهرة ١٣٠٦ - ١٣٠٧ هـ.
٩٢ ـ السرخسي، محمد بن أبي سهل: المبسوط. ٣٠ مجلداً. القاهرة ١٣٢٤ - ١٣٣١.
٩٣ ـ السقطي، أبو عبد الله محمد: كتاب في آداب الحسبة. نشره كولن وليفي بروفنسال. باريس ١٩٣١ م.
٩٤ ـ السراج: مصارع العشاق. القسطنطينية ١٣٠١ هـ.
٩٥ ـ سهراب: عجائب الاقاليم السبعة (B. A. H. G.) باعتناء هانس فون مزيك، ليبزج ١٩٢٩ م.
٩٦ ـ السمعاني: كتاب الأنساب (مجموعة تذكار جب). ليدن ١٩١٣ م.
٩٧ ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء. القاهرة ١٣٥١ هـ.
٩٨ ـ الشابشتي: كتاب الديارات، باعتناء كوركيس عواد، ط. ١. بغداد ١٩٥١. ط. ٢. بغداد ١٩٦٦.
٩٩ ـ الشافعي: الأم. ٧ أجزاء. القاهرة ١٣٢١ ـ ٥.
١٠٠ ـ الشهرستاني: الملل والنحل. نشره و. كويرتن. جزءان. ليبزج ١٩٢٣ م.
١٠١ ـ الشيباني: الأمالي، حيدر آباد الدكن ١٣٦٠/ ١٩٤١.
١٠٢ ـ الشيباني: كتاب الكسب الاكتساب في الرزق المستطاب، تأليف محمد بن سماعة، باعتناء عزة العطار، القاهرة ١٣٥٧/ ١٩٣٨.
١٠٣ ـ الشيباني: كتاب المخارج في الحيَل. نشره ي. شاخت. ليبزج ١٩٣٠.
١٠٤ ـ الصابي، أبو اسحاق: رسائل الصابي. الجزء الأول. نشره شكيب ارسلان. لبنان ١٨٩٨ م.
١٠٥ ـ الصابي، محمد بن هلال (غرس النعمة): الهفوات النادرة. باعتناء ص. الاشتر، دمشق ١٩٦٧.
١٠٦ ـ الصابي، هلال: تحفة الأمراء بتاريخ الوزراء. نشره هـ. ف. آمدروز، بيروت ١٩٠٤ م. وباعتناء عبد الستار أحمد فراج، القاهرة ١٩٥٨.
١٠٧ ـ الصولي: أخبار الراضي والمتقي بالله. باعتناء هـ. دن. القاهرة ١٩٣٦ م.
١٠٨ ـ الصولي: أدب الكتّاب. نشره محمد بهجة الأثري. القاهرة ١٣٤١ هـ.
١٠٩ ـ الصولي: أشعار أولاد الخلفاء. باعتناء هـ. دن. القاهرة ١٩٣٦ م.

١١٠ ـ طيفور: تاريخ بغداد، الجزء السادس، باعتناء هـ. كلر. ليبزج ١٩٠٤ م.
١١١ ـ الطبري: تاريخ الرسل والملوك. نشره دي خويه وآخرون. ١٥ مجلداً. ليدن ١٩٠١ م.
١١٢ ـ الطبري: اختلاف الفقهاء، نشره ي. شاخت، ليدن ١٩٣٥ م.
١١٣ ـ عريب بن سعيد القرطبي: صلة الطبري. نشره دي خويه. ليدن ١٨٩٧ م.
١١٤ ـ العسكري، أبو هلال: كتاب الأوائل، تحقيق محمد السيد، المدينة المنوّرة ١٩٦٦ م.
١١٥ ـ الغزالي: احياء علوم الدين. ٤ أجزاء. القاهرة ١٣٤٦ هـ.
١١٦ ـ الغزالي: الرد على الباطنية. نشره ا. غولدتسيهر. ليدن ١٩١٦ م.
١١٧ ـ الغزالي: رسائل (١٠). القاهرة ١٩٣٤ م.
١١٨ ـ الفارابي: احصاء العلوم. نشره أمين. القاهرة ١٩٣١ م.
١١٩ ـ الفارابي: رسالة في فضيلة العلوم والصناعات. حيدر آباد الدكن ١٣٤٠ هـ.
١٢٠ ـ قدامة: الخراج وصنعة الكتابة، المكتبة الجغرافية العربية، مجلد ٦، نشره دي خويه، ليدن ١٨٨٩ م.
١٢١ ـ قدامة بن جعفر الكاتب: كتاب الخراج وصنعة الكتابة (خط، مكتبة كوبريلي، استانبول رقم ١٠٧٦).
Ben Shemesh, *Taxation in Islam,* vol. II, Leiden 1965.
١٢٢ ـ القفطي: تاريخ الحكماء. نشره ج. ليبرت. ليبزج ١٩٠٣ م.
١٢٣ ـ القلقشندي: صبح الأعشى. ١٤ جزءاً. القاهرة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ م.
١٢٤ ـ القمي: تاريخ قم. طهران ١٣٥٣ هـ.
١٢٥ ـ الكاساني: بدائع الصنائع. ٧ أجزاء، القاهرة ١٣٢٨ م.
١٢٦ ـ الكتبي: فوات الوفيات. جزءان. بولاق ١٢٨٣ هـ.
١٢٧ ـ الكندي: الولاة والقضاة. نشره ر. كيست (مجموعة تذكار جب) ١٩١٢م.
١٢٨ ـ مالك بن أنس: المدونة، رواية سحنون. ١٦ جزء. دمشق.
١٢٩ ـ المروزي: في الصين والترك والهند. نشره وترجمه وعلّق عليه ف. مينورسكي. لندن ١٩٤٢ م.
١٣٠ ـ المسعودي: أخبار الزمان (؟) القاهرة ١٩٢٩ م.
١٣١ ـ المسعودي: التنبيه والاشراف، المكتبة الجغرافية العربية، م ٨، نشره دي خويه، ليدن ١٨٩١ م.

١٣٢ ـ المسعودي: مروج الذهب. باعتناء باربيه دي مينارد وپاڤيه دي كورتي. تسعة مجلدات. باريس ١٨٦١ م ـ ١٨٧٧ م.
١٣٣ ـ الماوردي: الأحكام السلطانية. القاهرة.
١٣٤ ـ مسكويه: تجارب الأمم. باعتناء آمدروز ومرجليوث. ٧ مجلدات. القاهرة واكسفورد ١٩٢٠ م ـ ١٩٢١ م.
١٣٥ ـ المقدسي، مطهر بن طاهر: البدء والتاريخ. ستة مجلدات. باريس ١٨٩٩ م ـ ١٩١٩ م.
١٣٦ ـ المقدسي، أحمد بن عبد الرزاق: اليواقيت. القاهرة ١٣٠٠ هـ.
١٣٧ ـ المقدسي: أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم، المكتبة الجغرافية العربية، م ٣، نشره دي خويه ١٨٧٧ م.
١٣٨ ـ المعرّي: رسالة الغفران. نشرها كامل كيلاني. جزءان. القاهرة ١٩٣٨.
١٣٩ ـ المعرّي: سقط الزند. القاهرة ١٩٠١ م.
١٤٠ ـ المقريزي: الخطط والآثار. جزءان. بولاق ١٢٧٠ هـ.
١٤١ ـ المقريزي: اغاثة الأمة بكشف الغمة. نشره مصطفى زيادة والشيال. القاهرة ١٩٤٠ م. وط ٢، القاهرة ١٩٥٧.
١٤٢ ـ المقريزي: شذور العقود. باعتناء ل.أ. ماير. الاسكندرية ١٩٣١ م.
١٤٣ ـ مؤلف مجهول: تاريخ الخلفاء. باعتناء غريازنيويج، موسكو ١٩٦٧.
١٤٤ ـ ناصر خسرو: سفر نامه. نشره وترجمه إلى الفرنسية شفر. باريس ١٨٨١ م.
١٤٥ ـ النيسابوري: عقلاء المجانين. نشره ف. كيلاني. القاهرة ١٩٢٤ م.
١٤٦ ـ نظام الملك: سياسة نامه. نشره وترجمه إلى الفرنسية شفر. باريس ١٨٩١ م ـ ١٨٩٧ م.
١٤٧ ـ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب. ١٨ جزءاً. القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٥٥.
١٤٨ ـ الهاشمي، طه: مفصل جغرافية العراق. بغداد ١٩٣٠ م.
١٤٩ ـ الهمداني، م.: تكملة تاريخ الطبري. باعتناء أ. كنعان. المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٠.
١٥٠ ـ الورّاق: كتاب الطبيخ. مخطوط في مكتبة بودليان اكسفورد، رقم Hunt 187
١٥١ ـ يحيى بن آدم القرشي: كتاب الخراج. نشره جوينبول، ليدن ١٨٩٦ م.
١٥٢ ـ ياقوت: ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء). نشره د.س. مرغليوث. ٧ مجلدات. القاهرة ١٩٠٧ م ـ ١٩٢٥ م.

١٥٣ - ياقوت: معجم البلدان. نشره وستنفلد. ٦ مجلدات. ليبزج ١٨٦٦ م - ١٩٧٠ م.

٢ ــ المراجع الثانوية:

أ ــ العربية

١٥٤ - الآلوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. ٣ أجزاء. بغداد ١٣١٣.
١٥٥ - أحمد أمين: ضحى الإسلام. الجزء الثالث. القاهرة ١٩٣٦ م.
١٥٦ - الأعظمي، علي ظريف: تاريخ البصرة، بغداد ١٩٢٧ م.
١٥٧ - اسماعيل غالب: تقويم مسكوكات قديمة اسلامية. اسطنبول ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٤ - ١٨٩٥ م.
١٥٨ - جبري، شفيق: الجاحظ. دمشق ١٩٣١ م.
١٥٩ - جروهمان، م.: أوراق البردي العربية في دار الكتب المصرية. ٦ أجزاء. القاهرة ١٩٣٤ - ٦٢.
١٦٠ - جودت، م.: الأخية، الفتيان. اسطنبول ١٩٣٦ م.
١٦١ - حمادة، سعيد: النظام الاقتصادي في العراق. بيروت ١٩٣٨ م.
١٦٢ - الدوري، عبد العزيز: النظم الإسلامية. الجزء الأول. بغداد ١٩٥٠.
١٦٣ - الدوري، عبد العزيز: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد ١٩٤٥.
١٦٤ - الدوري، عبد العزيز: العصر العباسي الأول، بغداد ١٩٤٥.
١٦٥ - الرفاعي، أحمد فريد: عصر المأمون. ٣ مجلدات. القاهرة ١٩٢٧ م.
١٦٦ - الزيات، حبيب: تمازج العناصر البشرية في بغداد العباسيين، المشرق ج. ٣٢، ١٩٣٤ م.
١٦٧ - زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية. أربعة أجزاء. القاهرة ١٩١١ م - ١٩١٤ م.
١٦٨ - زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي. خمسة أجزاء. القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٥.
١٦٩ - شريف، ابراهيم: الموقع الجغرافي للعراق واثره في تاريخه العام حتى الفتح الاسلامي. ٢ ج. وزارة المعارف، بغداد، بلا تاريخ.
١٧٠ - صبّاغ، م.: الحمام الزاجل. نشره وترجمه دي ساسي. باريس ١٨٠٥ م.
١٧١ - الصائغ: تاريخ الموصل، ج ١، القاهرة ١٩٢٣.

١٧٢ ـ عنان، عبد الله: الحاكم بأمر الله، القاهرة ١٩٣٧ م.
١٧٣ ـ عزام، عبد الوهاب: ذكرى أبي الطيب، بغداد ١٩٣٦ م.
١٧٤ ـ العزاوي: عشائر العراق. ج ١. بغداد ١٩٣٧ م.
١٧٥ ـ العلي، صالح أحمد: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري. ط ٢ دار الطليعة، بيروت.
١٧٦ ـ عواد، ميخائيل: المآصر في بلاد الروم والإسلام، بغداد ١٩٤٨.
١٧٧ ـ غنيمة، رزوق: الحيرة. بغداد ١٩٣٦ م.
١٧٨ ـ غنيمة: صناعة العباسيين، مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١ م.
١٧٩ ـ فان دايك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، القاهرة ١٨٩٦.
١٨٠ ـ كرد علي: خطط الشام. ٤ أجزاء. دمشق ١٩٢٣.
١٨١ ـ الكرملي، الأب انستاس ماري: النقود العربية وعلم النميات. القاهرة ١٩٣٩م.
١٨٢ ـ محمد، عبد الرحمن فهمي: فجر السكة العربية، القاهرة ١٩٦٥.
١٨٣ ـ المدور، جميل نخلة: حضارة الإسلام في دار السلام. القاهرة ١٩٠٥ م.
١٨٤ ـ النقشبندي، ناصر: الدينار الإسلامي في المتحف العراقي، بغداد ١٩٥٣.
١٨٥ ـ النقشبندي، ناصر: الدرهم الإسلامي (منشورات المجمع العلمي العراقي)، بغداد ١٩٦٩.

ب ــ المراجع الأجنبية:

1 - Adler, E.N., *Jewish Travellers*. London 1930.
2 - Aghnides, N.A., *Muhammedan Theories of Finance*, New York 1916.
3 - Ashtor, S.E., *Histoire des Prix des Salaires dans l'Orient Médiéval*. Paris 1969.
4 - Barthold, *Mussulman Culture*. Translated from Russian by Suhrawardi, Calcutta 1934.
5 - Barthold, *Turkestan down to the Mongol invasion* (G.M.S.), 1928.
6 - M. Van Berchem, *La Propriété Territoriale*. Genève 1886.
7 - Bowen, H., *The Life and Times of 'Ali b. 'Isa*. Cambridge 1924.
8 - Brockelmann, C., *Geschichte der arabischen litteratur*, 2 vols, Leiden 1943 - 9; Supplement band, 3 vols, 1937 - 42.
9 - Butler, *Islamic pottery*. London 1926.
10 - Cordington, *A Manual of Musulman Numismatics*, London 1904.
11 - Dennett, D., *Conversion and poll - tax in Early Islam*. Harvard University Press, 1950.

12 - Dilleman, L., *Haute Mésopotamie Orientale et Pays Adjacents.* Paris 1962.
13 - Dorn, *Inventaire des Monnaies des Khalifes Orientaux et plusieurs autres dynasties.* St. Pétersbourg 1881.
14 - Dozy, R.P.A., *Dictionnaires des Noms des Vêtements Arabes.* Amsterdam 1845.
15 - Dozy, R.P.A., *Suppléments aux Dictionnaires Arabes.* 2 vols, Leyden 1881.
16 - East, G., *Geography Behind History.* London 1938.
17 - Ferrand, G., *Relations des Voyages et Textes Géographiques relatifs à l'Extrême Orient.* 2 vols, Paris 1913.
18 - Ferrand, G., *Voyage du marchand arabe Suleyman en Inde et en Chine.* Paris 1922.
19 - Field, H., *The Anthropology of Irak.* Pr. 1, N°. 1, New York 1940.
20 - Field, H., *The Arabs of Central Irak.* Anth. Memoirs, IV, New York 1935.
21 - Fischel, W.J., *Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam,* London 1937.
22 - Gibb, H.A.R., *The Arab Conquest in Central Asia.* London 1923.
23 - Goitein. S. D., *Studies in Islamic History and Institutions,* Leiden 1968.
24 - Goitein, S. D., *A. Mediterranean Society,* I, Economic Foundation, California 1967.
25 - De Goeje, M. J., *Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides,* Leiden 1896.
26 - Grohmann, A., *Einführung und Chrestomatihe Zur Arabischen Papyruskunde,* I, Praha 1955.
27 - Grohmann, A., *From the World of Arabic Papyrii,* Cairo 1952.
28 - Halkin, *Muslim Schisms and Sects* (A translation of the Second Part of Baghdadi), Tel-Aviv 1935.
29 - Hasan, H., *A History of Persian Navigation,* London 1928.
30 - Heyd, W., *Histoire du Commerce du Levant.* 2 vols, Leipzig 1923.
31 - Hitti, P.K., *History of the Arabs.* 2nd ed., London 1940.
32 - Hitti, P.K., *The Origins of the Islamic State.* Pt. I, New York 1916; Pt. II, by Murgotten, New York 1924.
33 - Kremer, A., *The Orient under the Caliphs,* translated by S. Khuda Bukhsh, Calcutta 1920.
34 - Kremer, A., *Uber das Einnahmebudget des Abbasiden Reiches von Jahre 306 A. H.,* Wien 1887 (referred to as 'Ali b. 'Isa).
35 - Kupper, J.R., *Les Nomades en Mésopotamie au temps des Rois de Mari.* Paris 1957.
36 - Lambton, K.S., *Contributions to the study of Seljuk Institutions*

(Mss. Thesis 1939).
37 - Lane, E.W., *The Arabian Nights,* 3 vols, London 1859.
38 - Lane - Poole, S., *Additions to the Oriental Collection of Coins in the B.M.,* ed. R. S. Poole, London 1889 - 1890.
39 - Lane - Poole, S., *Arabic Glass Coins,* London 1872.
40 - Lane - Poole, S., *Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedieval Library at Cairo,* London 1897.
41 - Lane - Poole, S., *The Coins of the Eastern Khaleefehs in the British Museum* (ed. R.S.P.), I, London 1875.
42 - Lane - Poole, S., *The Coins of the Muhammedan Dynasties in the British Museum,* Classes III-X (ed. R.S.P.), London 1876.
43 - Lavoix, H., *Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale* (Khalifes Orientaux), Paris 1887.
44 - Lévi-Provençal, *L'Espagne Musulmane aux X^e siècle,* Paris 1932.
45 - Lévy, R., *A Baghdad Chronicle,* Cambridge 1929.
46 - Lewis, B., *The Origins of Ismailism,* Cambridge 1940.
47 - Legett, E., *Notes on the Mint Towns and Coins of the Muhammadans.* London 1885.
48 - Lokkegaard, F., *Islamic Taxation in the Classic Period,* Copenhagen 1950.
49 - Lopez, R.S., and Raymond, I.W., *Medieval Trade in the Mediterranean World,* London 1955.
50 - Mann, J., *The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimids,* 2 vols. Oxford 1920 - 22.
51 - Mann, J., *The Responsa of the Babylonian Geonim,* 1919.
52 - Massignon, *La Passion d'al-Halladj,* 2 vols, Paris 1922.
53 - Meyer, L.A., *A Bibliography of Moslem Numismatics,* London 1939.
54 - Miles, G.C., *Early Arabic Glassweights and Stamps,* New York 1948.
55 - Miles G.C., *The Numismatic History of Ray,* New York 1938.
56 - Mez, A., *The Renaissance of Islam,* Translated by S. Khuda Bukhsh and D.S. Margoliouth, London 1937.
57 - Minorsky, V., *La domination des Dailamites,* Paris 1932.
58 - Musil, A., *The Middle Euphrates,* New York 1927.
59 - Nicholson, *A Literary History of the Arabs,* Cambridge 1930.
60 - Nöldeke, Th., *Sketches from Eastern History,* Translated by I.S. Black, London 1892.
61 - Pier, *Pottery of the Near East,* New York 1909.
62 - Queipo, don Velasquez, *Essai sur les Systèmes Métriques et Monétaires des anciens peuples,* 3 vols, Paris 1895.

63 - Reinaud, I.T., *Géographie d'Aboul-Féda,* 2 vols, Paris 1848 - 1853.
64 - Ritter, H., *Ein Arabisches Handbuch der Handelswissenschaft,* Berlin 1920.
65 - Rockhill and Hirth, *Chau Ju-Kua. Chinese Arab trade in the 12th and 13th centuries.* St. Petersburg 1911.
66 - De Sacy, S., *Chrestomathie Arabe,* 3 vols, Paris 1806.
67 - De Sacy, S., *Exposé de la Religion des Druzes,* 2 vols, Paris 1838.
68 - De Sacy, S., *al-Maqrizi, Traité des Monnaies Musulmanes,* trad. par A.I.S. de Sacy, Paris 1797.
69 - Sadighi, G.H., *Les Mouvements Religieux Iraniens,* Paris 1938.
70 - Seippel, F., *Rerum Normannicarum Fontes Arabici, Osloae,* I, 1896; II, 1928.
71 - Soret, F. J., *Eléments de la numismatique musulmane,* Bâle et Genève 1868.
72 - Le Strange, G., *Baghdad during the Abbasid Caliphate,* Cambridge 1924.
73 - Le Strange, G., *The Lands of the Eastern Caliphate,* Cambridge 1930.
74 - Le Strange, G., *Description of Mesopotamia and Baghdad* (ibn Serapion), J.R.A.S. 1895.
75 - Sauvaire, H., *Matériaux pour servir à l'Histoire de la Numismatique et de la Métrologie Musulmane,* J.A. VII^e Série, Tome XIV, XV, Paris 1879.
76 - De Tarôn, Etienne Asolik, *Histoire Universelle.* Translated from Armenian by F. Macler, II^e Partie, Livre III, Paris 1917.
77 - Torry, C.C., *The Commercial Theological Terms in the Koran,* Leyden 1892.
78 - Udovitch, A.L., *Partnership and Profit in Medieval Islam.* Princeton University Press, 1970.
79 - Vasmer, R., *Ein im Dorfe Staryi dedin in Werss, Russland, gemachter fund Kufischer münzen.* Stockholm 1929.
80 - Walker, J., *A Catalogue of Arab-Byzantine and Post-Reform Umaiyad Coins,* London 1956.
81 - Walker, J., *A Catalogue of the Arab-Sassanian Coins,* London 1941.
82 - Welhausen, *The Arab Kingdom and its Fall.* Translated by M.G. Weir, 1927.
83 - Weulersse, *Paysans de Syrie et du Proche Orient,* 6^e éd., Paris 1946.
84 - Willcox, W., *Irrigation of Mesopotamia,* London 1917.
85 - Yule, H., *Cathay and the Way Thither,* 2 vols, London 1866.

ـ م. لقد حذفنا من ثبت المصادر، الكتب التي لم تتكرر الاشارة إليها. كما حذفنا اسماء جملة من المراجع في الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي الغربي، توخياً للاختصار.

ARTICLES

Abbott, N., «Arabic Papyrii of the Reign of Ga'far al-Mutawakkil» - *Z.D.M.G.* 92 (1938), pp. 88 - 135.

Ashtor, S., «Essai sur les Prix et Salaires dans l'Empire Califienne» *R.S.O.*, 36 (1961), pp. 9-69.

Blancard, *Sur l'origine du Monnayage Musulman.* R.N. 3e Série, 1884.

Bosworth, C.E., *Abu 'Abdallah al-Khawârazmî on the technical terms of the Secretary's Art-JESHO,* 12 (1969).

Cahen, Cl., «L'Évolution de l'Iqtâ' du IXe au XIIIe siècle» - *Annales E.S.C.* 8, (1953), pp. 25 - 52.

——— , «Fiscalité, Propriété et Antagonismes Sociaux en Haute - Mésopotamie au temps des Premiers Abbasides d'après Denys de Tell-Mahré» - *Arabica I,* 1954, pp. 136 - 152.

——— , «Le Service de l'Irrigation en Iraq au début de XIe siècle» - *B.E.O.* (1949 - 51), pp. 117 - 134.

——— , «Documents relatifs à quelques techniques iraqiennes au début du onzième siècle» - *A.I.* (1951), pp. 23 - 8.

——— , «Mouvements Populaires et autoumisme Urbain dans l'Asie Musulmane du Moyen âge» - *Arabica V,* (1958), pp. 225 - 50, VI (1959), pp. 25 - 56.

Canard, M., «Le Riz dans le Proche Orient aux premiers siècles de l'Islam» - *Arabica VI* (1959), pp. 113 - 131.

Duri, A.A., «The Origins of Iqtâ' in Islam» - *Al - Abhath,* XXI, 1969, pp. 3 - 22.

الدوري: نظام الضرائب في خراسان في صدر الاسلام. مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٩٦٤ ص ٦١ - ٧٠

Ehrenkreutz, A.S., « Studies on the Monetary History of the Near East in the Middle Ages» - *JESHO,* 2 (1959), pp. 128 - 161.

——— , «The standard of fineness of Western and Eastern dinars before the Crusades» - *JESHO,* 6 (1963), pp. 243 - 277.

——— , «The Kurr system in Medieval Iraq» - *JESHO,* 5 (1962), pp. 304 - 14.

Fischel, W.J., «The Origin of Banking in Medieval Islam» - *JRAS,* 33 (1933), pp. 339 - 352, pp. 369 - 603.

Forand, P.G., «Notes on 'Ushr and Maks» - *Arabica* 13 (1966), pp. 134-141.

Gibb, H.A.R., «The Fiscal Rescript of Umar II» - *Arabica,* 2 (1955), pp. 2 - 16.

Gardet, L., «La propriété en Islam» - *IBLA,* 10 (1947), pp. 109 - 135.

Grohmann, A., «New Discoveries in Arabic Papyrii. An Arabic tax account book» - *BIE,* 32 (1949 - 1950), pp. 159 - 170; 35 (1962 - 3), pp. 159 - 169.

Imamuddin, S.M., «Bayt al-Mâl and Banks in the Medieval Muslim World» - *IC,* 35 (1961), pp. 12-20.

Kister, M.J., «Mecca and Tamim» - *JESHO,* 8 (1965), pp. 117 ff.

Lambton, A.K.S., «Réflections on the Iqtâ'» (in Arabic and Islamic studies in honour of Hamilton A.R. Gibb, ed. by G. Makdisi. Harvard U.P. 1965), pp. 358-376.

——, «The Internal structure of the Saljuq Empire» (in *the Cambridge History of Iran,* vol. V, Cambridge 1968), pp. 203-283.

Lane-Poole, S., *The Arabian Historians on Muhammedan Numismatics,* N.C., 3rd. Ser., IV, 1884.

Lewis, B., «Sources for the Economic History of the Middle East» *(Studies in the Economic History of the Middle East,* ed. by M. A. Cook).

Lewis, B., *Islamic Guilds,* E.H.R. 1937.

Lesz, G.M. and Falcon, N.L., «The Geographical History of the Mesopotamia plains» - *G.J.* 118 (1952), pp. 24 - 39.

Lindberg, J.C., *Essai sur les Monnaies Bouides,* in «*Mém. de la Soc. Roy. des Antiquaires du Nord*», 1844, pl. XI, 193 - 271.

Lombard, M., «L'or musulman du VII^e au X^e siècle» - *Annales ESC* 1947, pp. 142-160.

Massignon, L., *Enquête sur les Corporations Musulmanes du Maroc,* R.M.M. 1924.

Massignon, L., *L'Influence de l'Islam au moyen-âge sur la Fondation et l'Essor des Banques Juives,* B.I.F.D. 1931.

Poliak, A.N., «La Féodalité Islamique» - *REI,* 10 (1936), pp. 247 - 265.

Roger, T., *Notice on the Dinars of the Abbassid Dynasty,* J.R.A.S., N.S., VIII, 1873.

Sergeant, R.B., «Material for the History of Islamic Textiles up to the Mongol conquest» - *AI* 13-4 (1948), pp. 75 - 117.

Udovitch, A.L., «At the Origins of the Western Commenda» - *Speculum* 36 (1962), pp. 198 - 207.

——, «Labour Partnerships in Early Islamic Law» - *JESHO* 10, (1967), pp. 64 - 80.

المجلات

A.I. = Ars Islamica.
B.I.F.D. = Bulletin de l'Institut Français de Damas.
E.H.R. = Economic History Review.
I.C. = Islamic Culture.
G.J. = The Geographical Journal.
Am. J. of phys. Anth. = American Journal of Physical Anthropology.
J.A. = Journal Asiatique.
J.Q.R. = Jewish Quarterly Review.
J.E.S.H.O. = Journal of the Economic and Social History of the Orient.
J.R.A.S. = Journal of the Royal Asiatic Society.
N.C. = Numismatic Chronicle.
R.N. = Revue Numismatique.
R.N.B. = Revue Numismatique Belge.
R.S.O. = Revista degli Studi Orientali.
Z.M.D.G. = Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.

م.غ.ت.ب ـ مجلة غرفة تجارة بغداد.

توضيح بعض المختصرات

B.M. = Lane - Poole: Coins of the Khaleefehs in the British Museum.
E.I. = Encyclopedia of Islam.
E.I. supp. = Supplement of the E.I.
H.A. = Hudūd al-'Ālam.
Le Strange I = Ibn Serapion in J.R.A.S. 1895.
Le Strange II = Lands of the Eastern Caliphate.

ن.م. = المصدر نفسه.
ابن حوقل «ك» = طبعة كرامرز لابن حوقل.
اما المختصرات الأخرى فتسهل معرفتها على القارىء اللبيب.

فهرس

فهرس بأسماء الأشخاص والجماعات

فهرس بالأسماء الجغرافية

فهرس بالألفاظ الحضاريّة

الدكتور عبد العزيز الدوري

- ولد في بغداد بالعراق عام ١٩١٩
- حصل على بكالوريوس شرف في التاريخ من جامعة لندن عام ١٩٤٠ وعلى الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٤٢
- درّس كأستاذ للتاريخ في دار المعلمين العالية ثم في كلية الآداب والعلوم قبل قيام جامعة بغداد
- عمل مؤسساً وعميداً لكلية الآداب والعلوم، ثم رئيساً لجامعة بغداد خلال الفترة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨
- يعمل حالياً أستاذاً للتاريخ في الجامعة الأردنية بعمّان
- له مؤلفات ودراسات كثيرة منشورة منها:

العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي (١٩٤٥)، الطبعة الأخيرة ١٩٨٨

دراسات في العصور العباسية المتأخرة (١٩٤٥)

بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب (١٩٦٠)، الطبعة الأخيرة ١٩٧٨

الجذور التاريخية للقومية العربية (١٩٦٠)

الجذور التاريخية للشعوبية (١٩٦٢)

الجذور التاريخية للاشتراكية العربية (١٩٦٥)

مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (١٩٦٩)، الطبعة الأخيرة ١٩٧٨

التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي (١٩٨٦)

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢

برقياً: «مرعربي»

فاكسيميلي: ـ ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الثمن ... دولاراً
أو ما يعادلها

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تاريخ أهل عمان

تحقيق وشرح
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تاريخ أهل عمان

953

تحقيق وشرح
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عُمان بلد عربى أصيل ، له تاريخ عريق وتراث ضخم ، يعبر فى مجموعه عن صفحة مشرّقة فى تاريخ الأمة العربية ، قبل الإسلام وفى ظله . وإذا كان تاريخ هذا البلد العريق قد تعرض عبر القرون للإهمال والنكران ، الأمر الذى جاء مصحوبا بتشتت مصادره ، وضياع الكثير منها ، وعدم عناية جانب كبير من المؤرخين والباحثين بهذا التراث ، فإن هذا كله من شأنه أن يجعل مهمتنا اليوم فى استكمال الحلقات المفقودة أو المهملة فى تاريخ عمان مهمة صعبة غير يسيرة ، بسبب افتقارنا إلى كثير من المعلومات والحقائق والتفاصيل التى تشكل المادة الأولية اللازمة لإقامة بناء تاريخى متكامل الأجزاء متداخل الحلقات .

ومن حسن الحظ أن هذه الخواطر لم تغب عن حكومة سلطنة عُمان فى نهضتها الحالية ، فأظهرت فى السنوات الأخيرة إهتماما ملحوظا بجمع شتات التراث العمانى وأحيائه ونشره . وبذلك تكون قد بدأت البداية السليمة من حيث ينبغى فعلا أن تبدأ ، لإستيفاء الحلقات المفقودة فى تاريخ عمان ، وإلقاء أضواء على الجوانب غير الواضحة فيه . ذلك أن جمع شتات التراث ، واستكماله ، ووضعه فى صورة متكاملة بين أيدى الباحثين ، من شأنه أن يوفر لهم المادة العلمية اللازمة لكتابة هذا التاريخ كتابة علمية أمينة ، بعيدة عن التحريف .

وثمة حقيقة نميل إلى تأكيدها ، هى عدم صحة الدعوى القائلة بأن تاريخ عمان فى ظل العروبة والإسلام لم يُدوّن فى القدم ، وأن العناية بتسجيله فى العصور

الأولى لاتعدو تلك الإشارات السريعة العابرة التي جاءت ضمن كتابات بعض المؤرخين المعروفين كالطبري واليعقوبي والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون وغيرهم . ويبدو لنا أنه إذا كان تاريخ عُمان قد تعرض للنكران وإنه تعرض لذلك على أيدي المؤرخين من غير أبناء البلاد ، وهم الذين سلطوا الأضواء على قلب الدولة الإسلامية ، وأفاضوا في وصف ما كان يجرى فيها من تيارات سياسية وحضارية ، دون أن تحظى أطراف الدولة — في المشرق والمغرب جميعا — إلا بنسب ضئيلة متفاوتة من عنايتهم .

وفيما عدا ذلك ، فإن كافة الشواهد تشير إلى أن عمان لم يفتقر إلى العلماء الغيورين من أبنائه الذين عنوا بتسجيل تاريخ البلاد وأهلها ، بقدر ما سمحت به ظروفهم . كل ما هنالك هو أن هذا التراث تعرض — نتيجة لأحداث الزمان — لما تعرضت له بقية جوانب التراث العربي الإسلامي في شتى البلاد ، من الضياع والبعثرة والتشتت . هذا فضلا عما كان يصحب الحروب المحلية والفتن الداخلة من تخريب وإفساد وإحراق ، مما عصف بكثير من آثار التراث العماني . يضاف إلى هذا كله أنه إذا كانت الدعوة لإحياء التراث قد ظهرت في وقت مبكر في بعض البلدان العربية ، فإنها لم تظهر في كافة أقطار شبه الجزيرة العربيـة — ومن جملتها عُمان — الا في وقت متأخر نسبيا .

* * *

وبالإضافة إلى هذه الثروة المعروفة من الكتب والمخطوطات المتعلقة بتاريخ عُمان ، والتي تحرص حكومة سلطنة عمان في الآونة الأخيرة على جمعها والحفاظ عليها ، فإنه مازالت هناك عشرات المخطوطات المجهولة مبعثرة في دور الكتب العالمية والعربية ، تحتاج إلى قدر من السعى والتقصى للوقوف عليها . ومعرفة هويتها ، وتحديد نوعية ما فيها من معلومات وحقائق . تمهيدا لتحقيقها ونشرها .

ويبدو أن تنفيذ ذلك ليس بالأمر السهل . نظراً لعاملين : أولهما هو ما نلاحظه من أن كثيرا من الكتابات والمؤلفات التي تناولت جوانب من التراث العماني توجد الآن مخطوطة فى صورة غير قائمة بذاتها ؛ وغالبا ما تكون مجلدة فى غلاف واحد مع رسائل ومصنفات متباينة الموضوعات، مما يتطلب التدقيق فى محتويات كل مجلد للوقوف على ما تحتويه من موضوعات ورسائل ، وتصيد ما يرتبط منها بالتراث العمانى ، من قريب أو بعيد .

أما العامل الثانى ، فيبدو فى أن كثيرا من هذه المخطوطات غير معروف مؤلفة ، بسبب تآكل وضياع بعض صفحاتها الأولى والأخيرة ، وقلة عدد النسخ الموجودة منها . وقد يقتصر الأمر فى كثير من الحالات على معرفة نسخة واحدة من الكتاب ، عليها اسم الناسخ دون المؤلف ، وأحيانا اسم الحاكم أو الإمام أو السلطان الذى نسخ الكتاب من أجله . وربما وردت كل هذه المعلومات فى عبارة غامضة فى نهاية الكتاب ، لا يفهم منها بالضبط إن كان الناسخ هو المؤلف ، بمعنى أن تكون المخطوطة مكتوبة بيد مؤلفها .

ولا شك فى أن تحديد اسم المؤلف يساعد فى حالات كثيرة فى معرفة هويته ومذهبه وميوله واتجاهاته الفكرية ، وهذه كلها عوامل تساعدنا فى الحكم على كتاباته وفى تقييم إنتاجه ، وخاصة إذا كانت هذه الكتابات وذلك الإنتاج يرتبط بحقل التاريخ . ذلك أن المؤرخ — مهما يطالب به من الناحية المثالية — من أن يكون أمينا فيما يكتب ، صادقا فيما يروى ، دقيقا فيما يحكى ، موضوعيا فيما يعبر عنه . . . فإنه قبل كل اعتبار — وبعد أى اعتبار — ليس إلا بشراً ، يحب ويكره مثلما يحب البشر ويكرهون ، ويرضى ويغضب مثلما يرضى البشر ويغضبون . وفى كثير من الحالات يستغفله قلمه ليعبر فى إشارة — قد تكون عابرة ، أو لفتة قد تكون سريعة — عما يحس به من أحاسيس شخصية تفصح عن ميوله الخاصة والقومية ، وتكشف النقاب عن مشاعره الدينية والمذهبية ، وتلقى بعض الضوء على

نزعاته الفردية واتجاهاته السياسية . ومن هنا فإن معرفة اسم المؤرخ أو الكاتب أو المؤلف ، ضرورية فى كثير من الحالات ، لأنها بمثابة طرف الخيط الذى يؤدى بنا إلى تتبع ما يمكن الوقوف عليه من معلومات تحدد مذهبه وثقافته وميوله واتجاهاته الفكرية ، وحياته الخاصة والعامة ، مما تمكننا من الحكم على إنتاجه حكماً سليما متكاملا .

* * *

وثمة ملاحظة على المخطوطات التى تعالج التراث العمانى .. هى أن معظم ما نشر منها حتى الآن يرجع تاريخ تأليفه إلى وقت متأخر ، يعود إلى ما بعد بداية القرن الحادى عشر للهجرة ، السابع عشر للميلاد .

ولكن المتمعن فى هذا التراث يجد المؤلفين المتأخرين زمنيا أخذوا واستقوا عمن تقدم عليهم وسبقهم . وهناك إشارات فى المؤلفات التى بين أيدينا إلى أعلام سابقين ومؤلفين فى القرون السالفة لم نعثر على آثارهم حتى الآن . ومن هنا تنبع أهمية هذه المؤلفات التى نعتبرها حديثة نسبيا فى التراث العمانى ، لأنها حفظت لنا بدورها جزءاً هاماً من تراث السابقين . وربما تكشفت الأيام عن أن كثيراً من المؤلفات القديمة ، قد فقد تماما ، وصار من المتعذر الوقوف على ما جاء فيه إلا من خلال هذه الكتب التى نظنها حديثة ، لأنها ألفت فى عصور تالية ، وأخذت عمن سبقها .

وهنا نشير إلى أنه لم تكن هناك أية غضاضة فى أن ينقل المؤرخ عمن سبقه من المؤرخين ، لأنه يعتبرهم المصدر الذى يستقى منه ، والذى عايش الفترة الزمنية التى يكتب عنها ، وعاصر الناس والأحداث الذين يؤرخ لهم . فابن الأثير مثلا لا يقلل من شأنه أنه اعتمد على الطبرى وأشباهه فى كتابته عن القرون الأولى للهجرة الشريفة . وبالمثل فإنه لا يقلل من شأن السالمى وابن رزيق أنهما أخذا عمن سبقهم من مؤرخى عمان . وأشارا إلى بعضهم .

على أن هناك ظاهرة واضحة فى كتابة التاريخ ، تترتب على اعتماد اللاحقين من المؤرخين على السابقين ، ونقلهم عنهم ، هى ما نلاحظه من تشابه — قد يصل أحيانا إلى درجة التطابق — فى مختلف الكتب التى تعالج حلقة واحدة من حلقات تاريخ هذا البلد أو ذلك العصر .

ولكن علينا هنا أن نضع أمامنا حقيقتين : الأولى هى أن التاريخ يعبر عن الماضى ، يعبر عن أشياء حدثت فعلا ، يعبر عن سياسات وأوضاع وعلاقات وحروب ووقائع وأحداث جرت ، ولا مجال كبير للخلاف حولها . . . يصور أناسا — حكاما ومحكومين — قاموا بدورهم على مسرح الحياة البشرية ، منهم العظيم ومنهم الوضيع ، فيهم الأمين القوى صاحب الهمم ، والخائف الضعيف المتقاعس . . . ولابد من أن تتشابه صور التاريخ فى كافة كتبه وكتاباته ، طالما يلتزم المؤلف بالحقيقة كاملة ، ويتحرى الأحداث غير ناقصة ، وينأى عن الأهواء وتعمد المسخ وإفتعال التشوية .

أما الحقيقة الثانية فهى أننا — رغم ما سبق — نلاحظ فوارق بين الكتابات التاريخية عندما تتعرض لسرد رواية واحدة ، حتى لو كان مؤلفو هذه الكتب استقوا روايتهم عن مصدر واحد . ذلك أن المؤرخين اللاحقين عندما يأخذون عن السابقين فإنهم أحيانا لاينقلون نقلا حرفيا ، وإنما يعبر كل واحد منهم عن شخصيته وعقليته واتجاهاته الفكرية وأحاسيسه وكثيرا ما نقرأ رواية فى كتابين من كتب اللاحقين أخذاها عن مصدر واحد سابق عليهما ، ولكننا نجد بعض الاختلافات فى العرض والتفاصيل ، أحدهما أطنب والآخر تعمد الإيجاز ، أحدهما حرص على أن يذكر كافة الأسماء المرتبطة بالحادث من قريب أو بعيد ، والآخر اكتفى بذكر اسم أو إسمين . وربما علق بعضهم على ما حدث برأى جديد يعبر عن وجهة نظره ، أو استقاه من مصدر آخر لم يطلع عليه غيره ، مما يجعل لكل كتاب طابعه ومزاياه .

* * *

وتبرز هذه الجوانب بوضوح فى المخطوطة التى نقدمها اليوم محققة للباحثين فى التراث العربى الإسلامى بوجه عام ، وفى التراث العمانى بوجه خاص . وتوجد من هذه المخطوطة نسخة فى المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٣٨٥ ، ضمن مجلد يحوى عدة مخطوطات أخرى متنوعة . وهى تبدأ فى هذا المجلد بصفحة ٢٢٧ ، وتنتهى فيه بصفحة ٤١٨ ، أى أنها تقع فى نحو ١٨٦ صفحة .

والكتاب لمؤلف مجهول . والنسخة التى بين أيدينا نسخها أحد النساخ — وإسمه أبو سالم عبيد فرحان — نسخها بيده لسيده ومولاه ناصر بن محمد ابن سيف بن أحمد المعولى ، وذلك سنة ١٣١٣ هـ . أما تاريخ تأليف الكتاب فغير معروف ، وربما كان قريبا من الفترة التى توقف عندها المؤلف ، وهى نهاية عهد سلطان بن مرشد اليعربى ، وانتقال ملك اليعاربة إلى أحمد ابن سعيد سنة ١١٥٤هـ (١٧٤١م) .

ويبدو من صفحات هذا الكتاب مدى إعتزاز أهل عمان بجذورهم الحضارية القديمة ، وتاريخهم العريق ، وأصالتهم الراسخة ، إذ يحرص المؤلف على الإشارة إلى أن سليمان بن داود — عليه السلام أقام بعُمان عشرة أيام ، وأنه حفر فيها عشرة آلاف نهر أو فلج . وأنه إذا كان الكثير من تلك الأنهار قد ردم وطمس ، فإن الفرس هم الذين فعلوا ذلك عندما احتلوا هذه الأرض قبل الإسلام وعاثوا فيها فسادا .

كذلك يبدو من صفحات الكتاب مدى إعتزاز أهل عمان بعروبتهم . فالمؤلف يتخذ من مالك بن فهم الأزدى بطلا قوميا ، أشبه بالأبطال الذين يعتز بهم كثير من الأمم والشعوب : ويعتبرونهم المؤسسين الأوائل لهذه الأمة أو تلك . ومالك بن فهم هو البطل العربى الذى طرد الفرس من عُمان ، وبالتالى فإنه المؤسس الأول لأمة عُمان العربية . وسيرته فى الكتاب تتصف بكل ما تتصف به سير الأبطال فى الملاحم الشعبية من مثالية وسمو . فهو

القائد الشجاع الذى لا يلين أمام العدو ، والمحارب الذى يتقدم الصفوف دفاعا عن الأرض والعرض ، والفارس الذى يتحلى بشمائل الفروسية العربية من كرم ومروءة وشهامة ونجدة . . . وغيرها . حتى فى وفاته تحرص الرواية التاريخية على أن تبرز مالك بن فهم وقد مات موتة البطل الشهيد الذى سقط ضحية سهم طائش أطلقه أعز أبنائه وأقربهم إلى قلبه ، دون أن يدرى أن السهم الذى أطلقه إنما يتجه إلى صدر أبيه ؛ فسقط مالك بن فهم شهيداً ، وهو يردد بيت الشعر الذى صار مضرب الأمثال :-

أعلمه الرماية كل يوم   فلما اشتد ساعده رمانى

وفى مواجهة العجم ، تحرص الرواية التاريخية فى هذا الكتاب على أن تؤكد فضائل العرب ومكارم أخلاقهم ، وتمسكهم بما اشتهر به أهل البادية من غيرة على الشرف ، واحترام لأعراض الناس ، وإسراع إلى نجدة الملهوف . ويبدو هذا بوضوح فى الرواية التى جاءت فى المخطوطة عن خروج سليمة ابن مالك بن فهم إلى بلاد العجم ، وكيف ساعدهم على الخلاص من ملكهم الذى دأب على انتهاك أعراضهم والعبث بشرفهم .

ويبدو أن المواجهة بين العرب والعجم على جانبى الخليج . جعلت غرب عمان أكثر إعتداداً بعروبتهم وأصالتهم . وقد ظهر هذا الاتجاه بوضوح فى صفحات هذا الكتاب ، عندما نجد المؤلف يحرص على إبراز مزايا العرب فى مواجهة العجم ، وأن العرب كانوا أكثر تمسكا بفضائل العروبة وروح الشهامة والمروءة والذب عن العرض والشرف ... ، وهى الصورة التى تبدو على طرف نقيض مع ما كان عليه المجتمع الفارسى على الجانب المقابل للخليج ، والذى فشت فيه المثالب والأمراض الاجتماعية .

فإذا ما ظهر الإسلام ، حرص مؤلف الكتاب على إبراز سرعة الاستجابة التى لبى بها أهل عمان الدعوة إلى الاسلام ، فدخلوا فى دين الله فى سهولة ويسر ، ونهضوا بدورهم كاملا كعضو عامل فعال فى المجتمع الإسلامى الجديد .

ومن خلال ذلك ، أفاض المؤلف فى سير الأئمة المبرزين والحكام الصالحين ، فأطنب فى وصف حياتهم الخاصة ، وسرد القصص التى تعبر عن كريم أخلاقهم وحميد صفاتهم ، وأبرز دورهم ودور أهل عمان فى الدفاع عن العروبة ضد العناصر غير العربية — وخاصة العجم — حينا ، وفى الدفاع عن الإسلام ضد الطامعين المشركين — وخاصة من الأحباش والهنود ثم البرتغاليين — أحياناً .

وتمشيا مع هذا التيار ، نلاحظ أن المؤلف يتحاشى الدخول فى تفاصيل بعض مالا يجب أن ينسب لتاريخ عمان وأهل عمان ، مثل حركة الردة . فمن المعروف أن غالبية أهل عمان تمسكوا بالإسلام ؛ وتحولوا بسرعة من مسلمين إلى مؤمنين ، بحيث أن حركة الردة — بعد وفاة الرسول (ص) — لم تجد إستجابة فى عمان . إلا من فئة قليلة تزعمها ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى ، حتى أخضعهم أبو بكر فعادوا إلى الإسلام . ولكن المؤلف إختار ألا يدخل فى تفاصيل مثل هذا الحادث العارض ، وكأنه حرص على ألا يشوه الصورة النقية الصافية التى تمثلها غالبية أهل عمان ، وأسقط ذلك التصرف العابر الذى أتته أقلية ، والذى لم ينفرد به عمان وحده ، وإنما كان له شبيه فى أكثر من جزء من أجزاء شبه الجزيرة العربية .

ومن ناحية أخرى فإن المؤلف كثيرا ما أطلق العنان لقلمه ، ليعبر عن أحاسيسه ومشاعره ، فنراه بين حين وآخر يسطر عبارة أو يسجل كلمات تعكس ما يحس به من ألم وأسى إزاء ما كان يحدث أحياناً من اشتداد الفتن واستحكام المنازعات بين القبائل بعضها وبعض ، أو بين الحكام المتنافسين ، مما ترك أثراً عميقا فى تاريخ البلاد والعباد .

ومن المعروف أن عصور الفتن والمنازعات الداخلية تمثل دائما حلقات معتمة فى التاريخ ، تتشابك فيها الأحداث وتتداخل الصور والانعكاسات ،

بحيث يجد المؤرخ نفسه أمام غابة كثيفة مظلمة لا يجرؤ على اقتحامها ، وإذا أوغل فيها قليلا فإنه قد لا يستطيع الخروج منها ، فإذا خرج فإنه لن يخرج بشئ ذى قيمة . ولا تقتصر هذه الظاهرة التاريخية على تاريخ بلد دون آخر ، أو على حلقة معينة من عصور الانحلال دون أخرى ، وإنما هى ظاهرة عامة مشتركة ، لأنها ترتبط أولا وأخيراً بطبيعة البشر وغرائزه ، والظروف التى تحيط به ويتعرض لها .

وهكذا نجد مؤلف هذا الكتاب ، بقدر ما يطنب فى حلقات الازدهار ، وعهود المبرزين من الأئمة وحكام عمان ، بقدر ما يوجز أحيانا فى عصور التفكك والانحلال . وربما أضرب — مجبراً لا مختارا — عن علاج فترات طويلة من تاريخ البلاد ، قد تمتد بضعة قرون ، معتذراً بقوله « ... فهذه مائتا سنة وبضع ، لم أجد فيهن تاريخ أحد من الأئمة والله أعلم . إنها كانت سنين فترة عن عقد الإمامة ، أو غاب عنى معرفة أسمائهم . »

ومع هذا ، ومع تشابه المعلومات التى جاءت فى هذا الكتاب مع ما جاء فى غيره من الكتب التى وقفنا عليها فى تاريخ عمان ، فإننا نكرر ما سبق أن أشرنا إليه من أن الخطوط العريضة فى التاريخ — تاريخ أية أمة أو أية دولة أو أى فرد — ثابتة لا تتغير ، بحيث لا يكون الخلاف بين مصدر وآخر إلا فى التفصيلات والفروع ، والتعليقات والتحليلات . فالعظيم عظيم ، والحقير حقير . والصالح صالح ، والطالح طالح . والحق أبلج ، والباطل لجلج . وهذه حقائق ثابتة فى التاريخ لا تتغير من مصدر لآخر . ومع ذلك ، فإننا نلمس فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا بعض الإشارات والتفصيلات واللمسات التى لم نجدها فى غيره من الكتب التى وقفنا عليها فى تاريخ عمان . ومن هنا تبدو أهمية إحياء التراث ونشره لأنه يمكن بالمقارنة بين ما جاء فى مختلف المؤلفات التى دونها السابقون أن نخرج بصورة سليمة البنيان . متكاملة التفاصيل ، دقيقة الملامح . لحلقة معينة من حلقات التاريخ .

* * *

وليس من الإنصاف فى دراستنا للتاريخ وإحيائنا للتراث أن ننظر إلى الماضى بعين الحاضر ، أو أن نطلب من السابقين أن يعالجوا أحداث الماضى بنفس المنهج والأسلوب اللذين ننشدهما فى واقعنا الحاضر . فلكل عصر مستواه الفكرى والحضارى ؛ ولكل جيل نظرته التى يقيم بها الحياة ومشاكلها .

لذلك لا أريد أن أظلم صاحب الكتاب بالإسهاب فيما يعتبره البعض مآخذ من وجهة نظرنا المثالية . حقيقة إن منهج المؤلف تغلب عليه صفة السرد والإطناب والإستطراد حينا ، والإيجاز والإقتضاب والاختصار أحيانا . هذا فضلا عن عدم عنايته بتقسيم الكتاب إلى فصول أو فقرات ، وعدم وضع عناوين تقسم الكتاب إلى وحدات موضوعية ، تساعد القارئ فى الانتقال من حلقة إلى أخرى ، وكأن الكتاب من أوله لآخره فقرة واحدة طويلة متداخلة العبارات . وحقيقة أننا نلمس أحيانا فى الكتاب عدم إنتظام بعض العبارات والمعانى ، بسبب سقوط أو ضياع جملة ، وعدم التمسك بأصول النحو وقواعد الإملاء . . . ولكن هذه المآخذ لا ينبغى فى نظرنا أن تجعلنا نسرف فى توجيه اللوم والنقد إلى مؤلف الكتاب أو ناسخه ، دون أن نقدر الظروف التى أحاطت بهما ، والإمكانات التى أتيحت لهما . وربما كان أقرب إلى العدالة والصواب أن نشيد بالجهد الذى بذله هؤلاء وأمثالهم فى تسجيل تراث السلف ، وهو تراث غنىّ دسم ، من حقنا أن نفخر به ويفخر به من بعدنا الأبناء والأحفاد على مر الأيام والعصور .

* * *

ولا يفوتنى فى ختام هذه المقدمة الموجزة أن أتقدم بالشكر لدولة عُمان ، سلطانا وحكومة وشعبا ، على المعونة التى قدمها لى سعادة

وزير التراث القومى والثقافة ، بأن أمدنى بمجموعة من الكتب التى تعالج تراث عمان ، والتى تم نشرها أخيراً ، لأستعين بها فى تحقيق هذه المخطوطة .

والله أسأل أن يحقق لسلطنة عمان وأهلها كل أسباب النهضة والقوة والعزة ، لتبقى — كما كانت دائما — درعا قويا للعروبة والإسلام فى هذه المنطقة الحساسة من جسم الأمة العربية الإسلامية .

القاهرة فى شهر رمضان المبارك سنة ١٤٠٠ هـ يوليو سنة ١٩٨٠ م .

سعيد عبد الفتاح عاشور

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزد وتعريب عُمان

[م ٢٢٨ أ] ذُكر — والله أعلم، وأعز وأحكم، وأرأف وأرحم — فيما مضى وتقدم من أحاديث الأمم — فيما قيل — أن سبب إخراج الفرس من عُمان، وانتقال مالك بن فهم إليها، وكانت يومئذ أهلها الفرس، وكان مالك وقومه من أهل سبأ — وهي مأرب من اليمن (١).

قيل سبب ذلك أن لجارٍ له كلبة، تقتحم وتفرّقُ أغنامهم. فرماها رامٍ منهم بسهم فقتلها. فشكى إليه جاره. فغضب مالك، وقال «لا أقيم ببلدٍ ينال فيه هذا من جاري». قال: فخرج مراغما لأخيه.

وقيل إن راعيا (لمالك بن فهم خرج بغنم، وكان)(٢) في طريق بيته كلب عقور لغلام من دويس، فشد الكلب على الراعي، فرماه بسهم فقتله، فعرض صاحب الكلب على الراعي(٣). فخرج مالك من السراة(٤) بمن أطاعه من قومه، فسمى ذلك النجد نجد الكلبة.

---

(١) من المرجح في التاريخ أن سد مأرب تصدع عدة مرات، أشهرها كان سنة ٥٤٢ م على أيام أبرهة. وقد ترتب على ذلك أن هاجر كثير من القبائل التي اعتمدت في حياتها على السد إلى أراض جديدة. ومن هذه القبائل أزد عمان، وهم من القحطانيين — من نسل أزد بن الغوث ابن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ؛ وقد نزلوا عمان بعد سيل العرم. انظر: جواد علي (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام؛ ج ٢ ص ٢٨٥، ج ٣ ص ١٦٦ — ١٦٨، ج ٤ ص ٢٠١).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمي (ج ١ ص ٢١).

(٣) أي تعرض صاحب الكلب للراعي.

(٤) السراة: إقليم باليمن، منه يبدأ جبل السراة الذي يصل بين أقصى اليمن والشام؛ فإنه ليس بجبل واحد، وإنما هي جبال متصلة، وهي أعظم جبال العرب.
(الهمداني: صفة جزيرة العرب — تحقيق محمد بن علي الأكوع؛ ص ٥٨، ٩٩).

|م٢٢٩| فلما توسط مالك الطريق، حنّت إبله إلى مراعيها، وجعلت تتلفت إلى السراة وتردد الحنين. وسار إلى عُمان ؛ لعله من الحجاز لا يمر بحيّ من أحياء العرب — من معد وعدنان — إلا سالموه ووادعوه ، لمنعته وكثرة عساكره .

ثم سار حتى نزل برهوت(١) — وهو واد بحضرموت — فلبث فيه حتى راح واستراح . وبلغه أن بعُمان الفرس — وهم ساكنوها — فعبأ عساكره وعرضها ، فيقال إنهم كانوا ستة آلاف فارس وراجل . فاستعد قاصداً عُمان ؛ وجعل على مقدمته إبنه هناءة (٢) — ويقال فراهيد(٣) — في ألفي فارس من صناديد قومه . فلما وصل الشحر تخلف مهرة بن حيدان (ابن عمرو)(٤) بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير ؛ فنزل الشحر(٥).

فسار مالك حتى دخل عُمان ، بعسكره في الخيل والعدة والعـــدد . فوجد بها الفرس من جهة الملك دارا بن دار بن بهمن ؛ وهم يومئذ أهلها وسكانها . والمتقدم عليهم المرزبان عامل الملك(٦).

فعند ذلك اعتزل مالك بمن معه إلى جانب قلهات(٧) — من شط عمان — ليكون أمنع لهم . وترك العيال والأثقال ، وترك معهم من يمنعهم من العسكر وسار ببقية العسكر . وجعل على المتقدمه إبنة هناءة في ألفي فارس

(١) برهوت : بئر بسفلى حضرموت قديمة .
(الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، ص ٢٧٠).
(٢) فى الأصل (هناة). وهو تخفيف الإسم الأصلى (هناءة) .
(٣) فى الأصل (فراهيدا) .
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من (تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان — للسالمى) — ج ١ ص ٢٣ .
(٥) الشحر — بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء — ساحل حضرموت (الهمدانى : صفة جزيرة العرب — ص ٥٧).
(٦) أى ملك فارس ، والمرزبان الرئيس عند الفرس وجمعه مرازبة .
(٧) قلهات : فرضة عمان على البحر ، إليها ترفأ أكثر سفن الهند .

وسار حتّى نزل بناحية الجوف ، فعسكر عسكره ، وضرب مضاربه بالصحراء .

وأرسل إلى الفرس يطلب منهم النزول فى قطر (من)(١) عمان ، وأن يمكنوا له ويفسحوا له فى الماء والكلأ ليقيم معهم . فلما وصلت رسله إلى المرزبان وأصحابه ، أئتمروا فيما بينهم ، وساروا حتّى طـال ترديد الكلام والتشاور بينهم . ثم أجمع رأيهم على صرفه ؛ وقالوا : « مانحب هذا العربى ينزل معنا فيضيق علينا أرضنا وبلادنا . فلا حاجة لنا إلى قربه وجواره » .

فلما وصل جوابهم إلى مالك أرسل إليهم : « إنه لابد لى من النزول فى قطر (من) (٢) عمان ، وأن تواسونى فى الماء والكلأ والمرعى . فإن تركتمونى طوعا نزلت فى البلاد وحمدتكم . وإن أبيتم أقمت على كرهكم فإن قاتلتمونى قاتلتكم . فإن [م٢٣١] ظهرت عليكم قتلت المقاتلة ، وسبيت الذرية ، ولم أترك أحدا منكم ينزل عمان أبداً . »

فأبوا أن يتركوه طوعا ، وجعلوا يستعدون (٣) لحربه وقتاله .

وأقام مالك بناحية الجوف حتّى أراح واستراح ، وتأهب لحرب الفرس وقتالهم . وكان هنالك حتّى استعدت الفرس لحربه وقتاله .

ثم إن المرزبان أمر أن ينفخ فى البوق ، وتضرب الطبول . وركب من صحار فى جنوده وعساكره فى عسكر جم ، يقال إنه فى زهاء أربعين ألفا — ويقال بثلاثين ألفا — ومعه الفيلة . وسار يريد لقاء مالك . ونزل بصحراء سلوت ، قريبا من نزوى .

فبلغ مالك بن فهم . فركب بى   ف ، حتّى آتى صحـراء

(١) ، (٢) مابين حاصرتين إضافة من كتاب تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ص ٢٣) .
(٣) فى الأصل (يستعدوا) .

سلوت ، فعسكر فيها بإزاء عسكر المرزبان . فمكثوا يومهم ذلك م يكن بينهم حرب .

ثم إن مالك بن فهم بات ليلته يعبىء عساكره يمنة ويسرة وقلبا ، ويكتّب الكتائب(١) ، ويوقف فرسان الأزد(٢) مواقفهم . فولى الميمنة إبنه هناءة(٣) ، وولى الميسرة إبنه فراهيد(٤) ، ووقف هو فى القلب فى أهل النجدة والشدة .

وبات المرزبان يكتب [٢٣٢م] كتائبه ، ويوقف أصحابه موافقهم . واستعد كل (من) (٥) الفريقين .

وركب مالك فرسا أبلقا . ولبس درعين ، ولبس عليهما غلالة حمراء . وتكمم على رأسه بكمة حديد . وتعمم عليها بعمامة صفراء . وركب معه ولده وفرسان الأزد على تلك التعبئة (٦) . وقد تقنعوا بالدروع والبيض(٧) والجواشن(٨) ، ولم يظهر منهم غير الحدق .

---

(١) فى الأصل (ويكتب الكاتب) وهو تحريف فى النسخ .

(٢) الأزد من أعظم قبائل العرب وأشهرها ، تنسب إلى الأزد بن الغوث بن نبت بن بن نابت بن كهلان ، من القحطانية . وتنقسم إلى أربعة أقسام : ا — أزد شنوءة وهو بخلاف باليمن . ب — أزد غسان وكانت منازلهم فى شبه جزيرة العرب وبلاد الشام . ج — أزد السراة وكانت منازلهم فى الجبال المعروفة بهذا الاسم . د — أزد عمان كانت منازلهم بعمان .

قيل أزد وأسد ، وهى بالسين أفصح . أنظر : (القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب — تحقيق ابراهيم الابيارى ص ٩١ ؛ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب — تحقيق عبد السلام هارون ص ٤٨٧ ، وكذلك ابن منظور والزبيدى والفيروزبادى) .

(٣) فى الأصل (هناة) .

(٤) فى الأصل (فراهيدا) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة .

(٦) فى الأصل (على تلك البقية) وهو تحريف فى النسخ .

(٧) البيضة : الخوذة من الحديد : وجمعها بيض وبيضات .

(٨) الجوشن : الدرع ، زرد يلبسه الصدر ، والجمع جواشن .

فلما تواقفوا للحرب ، جعل مالك يدور على أصحابه — راية راية وكتيبة كتيبة — ويقول : « يامعشر الأزد أهل النجدة والحفاظ(١) !! حاموا حاموا على أحشامكم. وذبّوا عن أبنائكم(٢) ! وقاتلوا ! وناصحوا ملككم(٣) وسلطانكم . فإنكم إن انهزمتم تبعتكم العجم بجنودها ، فاختطفوكم واصطادوكم بين كل حجر ومدر(٤) ، وثاروا ملككم وسلطانكم . فوطنوا أنفسكم على الحرب . وعليكم بالصبر والحفاظ . فإن هذا اليوم له مابعده . » . وجعل يحرضهم ويأمرهم بالصبر والحفاظ .

ثم إن المرزبان زحف بجميع عساكره وقواده ، وجعل الفيلة أمامه .

وأقبل مالك وأصحابه : ونادى بالحملة عليهم ؛ وقال [م٢٣٢] : « يا معشر الأزد ! اعملوا معى !! — فداكم أبى وأمى — على هذه الفيلة ، واكتنفوها(٥) بأسيافكم واسنتكم » . ثم حمل — وحملوا معه — على الفيلة بالرماح والسيوف ، ورشقوها بالسهام . فولت الفيلة راجعة على المرزبان وأصحابه . فانفضت صفوف العجم ، وجالوا جولة .

ثم تراجعت العجم بعضها إلى بعض ، وأقبلت فى(٦) حدّها وحديدها. وصاح المرزبان بأصحابه ، وأمرهم بالحملة . فحملوا ؛ فالتقى الجمعان. واختلاف الطعن والضرب والطعان ، واشتد القتال ، وعظم النزال . ولم يسمع إلا صليل الحديد . ووقع السيوف . فاقتتلوا يومهم ذلك، إلى أن

---

(١) فى الأصل (الحفاط) .

(٢) فى الأصل (أبناكم) .

(٣) فى الأصل (ملككهم) .

(٤) أهل الحجر والمدر ، سكان البادية .

(٥) فى الأصل غير واضحة ودون تنقيط .

(٦) فى الأصل (إلى) .

حال بينهم الليل . وانصرف بعضهم عن بعض ، وقد كثر القتل والجراح فى الجميع .

ثم ابتكروا من الغد ، واقتتلوا قتالا شديداً . وقتل من الفرس خلق كثير . وثبتت لهم الأزد ، إلى أن حال بينهم الليل .

فلما أصبحوا فى اليوم الثالث ، زحف الفريقان بعضهم إلى البعض ، فوقفوا موقفهم تحت راياتهم . وأقبل أربعة نفر من المرازبة والأساورة(١) ، يعد الواحد [م٢٢٤] منهم لألف رجل ، حتى دنوا من مالك ، فقالوا : « هلم إلينا لننصفك من أنفسنا ، ونبارزك منا واحداً واحداً » .

فتقدم مالك إليهم . وخرج واحد منهم فجاول مالكا ساعة . فعطف مالك فطعنه برمحه فى صلبه ، فخر عن فرسه على الأرض ، فضربه بالسيف فقتله . ثم حمل الفارس الثانى على مالك ، وضرب مالكا . فلم تصنع ضربته شيئا . وضربه مالك على مفرق راسه ، فقدّ البيضة والرأس ، وخرّ ميتا . ثم حمل على الفارس الثالث ، فضربه مالك على عاتقه ، فقسمه ، ووصل السيف إلى الدابة ، فقطعهما نصفين . فلما رأى الفارس الرابع ماصنع مالك بأصحابه ، كاعت(٢) نفسه ، وولى راجعا نحو أصحابه حتى دخل فيهم وانصرف مالك إلى موقفه ، وقد تفاءل بالظفر . وفرحت بذلك الأزد فرحا شديداً ، ونشطوا للحرب .

فلما رأى المرزبان ما صنع مالك بقواده الثلاثة ، دخلته الحمية والغضب ، وخرج من بين أصحابه ، وقال : « لاخير فى الحياة بعدهم » . ونادى مالكا ، وقال : « أيها العربى ! اخرج إلىّ إن كنت تحاول ملكا .

---

(١) الأسوار : قائد الفرس ، وقيل هو الجيد الرمى بالسهام ، وقيل هو الجيد الثابت على ظهر الفرس ، والجمع أساورة وأساور (ابن منظور : لسان العرب) .

(٢) كعت عن الشىء أكيع وأكاع ؛ لغة فى كععت عنه وأكع ، إذا هبته وجبنت عنه (ابن منظور : لسان العرب) .

م ٢٣٥ فأينا ظفر بصاحبه كان له ما يحاول، ولا نعرض(١) أصحابنا للهلاك »

فخرج إليه مالك برباطة جأش وشدة قلب؛ فتجاولا بين الصفين ملياً، وقد قبض الجمعان أعنة خيولهم، ينظرون ما يكون منهما. ثم إن المرزبان حمل على مالك بالسيف حملة الأسد، فراغ عنه مالك، ثم ضربه مالك بسيفه على مفرق الرأس، فقدّ البيضة والدرع، وأبان رأسه عن جسده.

فزحف الفريقان بعضهما إلى بعض. واقتتلوا من نصف النهار إلى العصر. وأُكل أصحاب المرزبان بالسيف وصدقهم الأزد الطعن والضرب. فولوا منهزمين، على وجوههم هاربين، حتى انتهوا إلى معسكرهم (٢)، وقد قتل منهم خلق كثير، وكثر الجراح فى عامتهم.

فعند ذلك أرسلوا إلى مالك يطلبون منه الصلح، [و](٣) أن يكف عنهم الحرب، وأن يؤخرهم إلى سنة، ليخرجوا أهلهم من عُمان. وأعطوه على ذلك عهداً وجزية، فأجابهم مالك إلى ذلك، وأعطاهم عهداً أن لا يعارضهم، حتى يبدأوه(٤) بحرب. وكفّ عنهم الحرب، وعادوا إلى صحار
م٢٣٦ وما حولها من الشطوط. وكانوا هنالك، والأزد فى عمان. وانحاز مالك إلى جانب قلهات.

فقيل إن الفرس فى تلك المهادنة طمسوا أنهاراً كثيرة وأعموها. وكان سليمان ابن داود — عليه السلام — أقام بعمان عشرة أيام، وقد حفر فيها عشرة آلاف فلج (٥). وطمس الفرس أكثرها فى مدة الصلح التى طلبوها من مالك بن فهم.

---

(١) فى الأصل (يعرض).

(٢) فى الأصل (حتى انتهوا عسكرهم). والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ص ٢٨).

(٣) ما بين حاصرتين إضافة.

(٤) فى الأصل (يبدوه).

(٥) الفلج بالتحريك هو النهر، وقيل النهر الصغير، وهو الماء الجارى (ابن منظور: لسان العرب).

ثم إن الفرس كتبوا إلى الملك دارا بن دارا بقدوم مالك إلى عمان(١) بمن معه ، وما جرى بينهم وبينه من الحرب ، وقتل قائده(٢) المرزبان ، وجل أصحابهم . وأخبروه بما فيهم من الضعف والعجز ، واستأذنوه فى التحمل إليه بأهليهم وذراريهم . فلما وصل كتابهم إليه وقرأه ، غضب غضباً شديداً ، وداخله القلق ، وأخذته الحميَّة عن قتل من أصحابه وقواده . فعند ذلك دعا بقائد (٣) من عظماء مرازبته (٤) وأساورته ، وعقد له على ثلاثة آلاف من أجلاء أصحابه ومرازبته (٥) وبعثهم مدداً لأصحابه الذين بعمان . فتحملوا إلى البحرين ، ثم تخلصوا إلى عمان [م٢٢٧] .

وكل هذا لم يدره مالك . فلما وصلوا إلى أصحابهم ، أخذوا يتأهبون للحرب ، حتى انقضى أجل العهد . فجعل مالك يستطلع أخبارهم ؛ وبلغه وصول المدد إليهم ، فكتب إليهم : « إنى قد وفيت بما كان بينى وبينكم من العهد وتأكيد الأجل — وأنتم بعدُ حلولٌ بعمان — وبلغنى أنه قد أتاكم من قبل الملك مدد عظيم ، وأنكم تستعدون لحربى وقتالى . فإما أن تخرجوا من عمان طوعاً ، وإلا رجعت عليكم بخيلى ورجلى ، ووطئت (٦) ساحتكم ، وقتلت مقاتلتكم ، وسبيت ذراريكم ، وغنمت الأموال » .

فلما وصل رسوله إليهم أهالهم أمره ، وعظموا رسالته إليهم ، مع قلة (٧) عسكره ، وكثرتهم وما هم فيه من القوة والمنعة . وزادهم (٨) غيظاً وحنقاً ، وردوا عليه أقبح رد (٩) . فعند ذلك زحف عليهم مالك فى خيله ورجله . وسار حتى وطأ أرضهم .

---

(١) فى الأصل (بعمان) .

(٢) فى الأصل (قايده) .

(٣) فى الأصل (بقايد) .

(٤) ، (٥) فى الأصل (مرازنته) .

(٦) فى الأصل (ووطيت) .

(٧) فى الأصل (مع ثملة) .

(٨) فى الأصل (وفاداهم) .

(٩) فى الأصل (مرد) .

واستعدت الفرس لقتاله ومعهم الفيلة . فلما قربوا من عسكره عبأ أصحابه راية راية ، وكتيبة كتيبة . وجعل على الميمنة ابنه هناءة ، وعلى الميسرة ولده فراهيد (١) . [م٢٣٨] وأقام هو وبقية أولاده فى القلب .

والتقوا هم والفرس ، واقتتلوا قتالا شديداً . ودارت رحى الحرب بينهم ملياً من النهار ، ثم انكشف العجم . وكان معهم فيل عظيم ، فتركوه . فدنا منه هناءة فضربه على خرطومه ، فولّى وله صياح . وتبعه معن بن مالك ، فعرقبه فسقط .

ثم ان العجم ثابوا (٢) وتراجعوا . وحملوا على الأزد حملة رجل واحد ، فجالت الأزد جولة ، ونادى مالك : « يا معشر الأزد ! اقصدوا إلى لوائهم فاكشفوا اللواء » . واختلط الضرب ، والتحم القتال ، وارتفع الغبار ، وثار العجاج حتى حجب الشمس . فلم يسمع إلا صليل الحديد ووقع السيوف . وتراموا بالسهام فانقصدت (٣) ، وتجالدوا بالسيوف فتكسرت ، وتطاعنوا بالرماح فانحطمت . وصبروا صبراً جميلا ، وكثر الجراح والقتل فى الفريقين .

ثم لم يكن للفرس (٤) ثبات ، وولوا منهزمين على وجوههم ، فاتبعتهم فرسان الأزد ، يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وجعلوا يطلبونهم [م٢٣٩] حيث مالقوهم وأدركوهم . ولم يغب عنهم إلا من ستره الليل وتحمّل بقية الفرس فى السفن ؛ وركبوا البحر إلى فارس .

وملك [مالك بن فهم](٥) عمان وما يليها من الأطراف . وساسهم سياسة

---

(١) فى الأصل (هناة ... وفراهيدا) .
(٢) فى الأصل (تابوا) .
(٣) أى تقصدت .
(٤) فى الأصل (ثم لم يكن فرس ثبات) .
(٥) مابين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى .

حسنة . وسار فيها سيرة جميلة . وله ولأولاده فى مسيرهم إلى عمان وحربهم الفرس أشعار كثيرة ، وشواهد تركتها .

* * *

ثم جاءت إلى عمان قبائل كثيرة من الأزد . فأول من لحق بمالك من الأزد عمران بن عمر ، وعامر بن ماء السماء ، وولداه(١) الحجر(٢) والأسود. وتفرعت من الحجر(٣) والأسود بعمان قبائل كثيرة .

ثم خرج ربيعة بن الحارث بن عبدالله بن عامر الغطريفى وإخوته . وخرج ملاوس بن عمرو بن عدى بن حارثة ، ودخل فى هداد . ثم خرج عمران(٤) ابن عمرو بن الأزد . ثم خرجت اليحمد [م٢٧٠] بن حمى . ثم خرجت الحدان وأخوها زياد — وهو الندب الأصغر — ، ثم معولة وهم بنو شمس. ثم خرجت الندب الأكبر ، وخرجت الصيق (٦) .

وخرج أناس من بنى يشكر(٧) . وخرج أناس [من] بنى عامر(٨) . وخرجت أناس من خوالة

---

(١) فى الأصل (وولده) .

(٢) ، (٣) فى الأصل (يحجر) . والحجر بطن من بنى مزيقياء من الأزد من القحطانية . وهم بنو الحجر بن عمران بن عمرو مزيقياء (القلقشندى : نهاية الأرب) .

(٤) فى الأصل (عرمان) وهو تحريف فى النسخ .

(٥) الندب بن الهون ، بطن من الأزد من القحطانية .

(٦) الصيق بطن من الأزد من القحطانية ، وهم بنو الصيق بن عمرو بن الأزد (القلقشندى: نهاية الأرب) .

(٧) يشكر بن ميسر : بطن من الأزد من القحطانية ، وهم بنو يشكر بن مبشر بن صعب (كحالة : معجم قبائل العرب) .

(٨) فى الأصل (عامد) . وعامر بطن من سعد بن عمرو بن خزاعة بن ربيعة بن حارثة ابن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء ، من غسان من الأزد من القحطانية (النويرى : نهاية الأرب ج ٢ ص ٣١٨) .

وخرجت هذه القبائل كلها على راياتها ، لا يمرون على أحد إلا أكلوه ، وحتى وصلوا عُمان فملأوها . وأقاموا في بلد ريف وخير واتساع وسمّت الأزد عمان [عمانا](١) ، لأن منازلهم على واد بمأرب يقال له عمان . والعجم تسميها مزونا(٢) ، شعر :

إن كسرى سمى عمان مزونا
ومزون يا صاح خير بلاد
بلدة ذات مزرع ونخيل
ومراع ومشرب غير صادى

فلم تزل الأزد تنتقل إلى عمان ، حتى كثروا بها ، وقويت يدهم ، واشتدت شوكتهم ، وملئوها حتى انتشروا إلى البحرين وهجر .

ثم نزل عمان [من غير الأزد](٣) سامة بن لوئ بن غالب ، نزل بتوما(٤) — وهي الجو — في جوار الأزد . وكان فيها أناس من بني سعد [٢٤١م] ، وأناس من بني عبد القيس ، وزوج ابنته بأسد بن عمران ابن عمرو [بن عامر](٥) .

ونزل بعمان ناس من بني تميم ، [منهم](٦) آل جذيمة بن حازم . ونزل ناس من بني النبيت(٧) ، [منازلهم قرية يقال لها ضنك من أعمال

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .
(٢) في الأصل (مزون) .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمي (ج ١ ص ٣٢) .
(٤) توام (تحفة الأعيان السالمي ج ١ ص ٣٢) .
(٥) في الأصل (وزوج ابنته بأسد بن عمر بن عمرو) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمي ج ١ ص ٣٢ .
(٦) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .
(٧) في الأصل (من بني النبت) والمقصود هنا النبيت بن مالك ، بطن من الأوس من الأزد من القحطانية (القلقشندي : نهاية الأرب ، ابن منظور : لسان العرب) .

السر . ونزلها بنو قطن](١) ، ومنازلهم عُبْرى والسليف وتنعم [من أرض] السر(٢) . ونزلها ناس من بنى الحارث [بن كعب ومنازلهم بضنك ، ونزلها قوم من](٣) قضاعة — نحو مائة رجل — وهم بضنك أيضا . ونزلها أناس من بنى رواحة بن قطيعة بن عبس ، منهم [أبو الهشم العبيسى الرواحى](٤) .

* * *

واستقوى مُلك مالك بن فهم بعمان، وكثر ماله، وهابته جميع القبائل من يمن ونزار . وكانت له جرأة وإقدام مالم يكن لغيره من الملوك . وكان ينزل إلى شاطئ قلهات ، وينتقل إلى غيرها .

و [كان](٥) ينزل بناحية أخرى(٦) [من نواحى عمان] ملك من الأزد ، يقال له مالك بن زهير . وكان عظيم الشأن ، كاد أن يكون مثل مالك فى العز والقدر . فخشى مالك أن يقع بينهما تحاسد ، وأن يقع بينهما حرب ، فخطب منه إبنته ، فزوجه [إياها](٧) ، على أن تكون لأولادها منه التقدمة والكبر على سائر(٨) الأولاد من غيرها . فأجابه مالك بن فهم إلى ذلك ، وتزوجها . فولدت له |م٢٤٢| سليمة بن مالك .

وملك مالك عمان سبعين سنة . ولم ينازعه فى ملكه أحد ، عربى ولا عجمى . وكان عمره مائة سنة وعشرين سنة . وقيل هو الذى ذكره

---

(١) ما بين حاصرتين تكلة من تحفة الأعيان للسالمى .

(٢) ،(٣)، (٤).ما بين الحواصر تكملة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٣٢) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة

(٦) فى الأصل (بناحية حيته) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى ج ١ ص ٣٣ .

(٧) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٨) فى الأصل (ساير) .

الله تعالى « يأخذ كل سفينة غصبا »(١) .

وقيل [هو] مسدلة بن الجلندى بن كركر من ولد مالك بن فهم ، وهو جد الصفاق . وقيل (٢) هو الجلندى(٣) ابن المستكبر . وقيل إنه ابن المستنير بن مسعود بن الحرار بن عبد العزى بن معولة بن شمس بن غانم ابن عثمان بن نصر بن زهران بن كعب بن الحارث بن عبد الله بن مالك بن نصر ابن الأزد .

والأشهر أنه هذا ، لأنه روى عن وهب بن منبه أنه قال : كثير من أهل العلم يقولون ذلك . موسى — الذى هو فى زمانه رميثا نبى الله — كان من بعد موسى بن عمران — عليه السلام — بدهر . فمن أجل ذلك قلنا إن الملك المذكور هو الجلندى المذكور ، والله أعلم . وأما الجلندى الذى هو آب عبد(٤) وجيفر [فكان](٥) قبل الإسلام بقايل ، وقيل ، أدرك الإسلام وولداه . وقصة [م٢٤٣] السفينة فى زمن موسى عليه السلام . وبين موسى ونبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — سنون [كثيرة](٦) معلومة فى كتب التواريخ(٧) .

* * *

---

(١) سورة الكهف ، آية ٧٩ .

(٢) فى الأصل (وقول) .

(٣) يبدو على ما يظهر من روايات الإخباريين أن كلمة (الجلندى) ليست إسما لشخص ، وإنما هى لقب — قد يعنى حاكماً أو ملكاً أوقيلا أو كاهناً — فى لهجات أهل عمان — أنظر : (جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٢٠١) .

(٤) فى المتن (عيد) .

(٥) فى الأصل تكرار فى العبارة ، وما بين حاصرتين إضافة .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة للوضيح .

(٧) فى الأصل (فى كتاب التواريخ) .

وقيل إن مالك بن فهم قتله ولده سليمة خطأ . وسبب ذلك : قيل إن مالكا جعل على أولاده الحرس بالنوبة كل ليلة على رجل منهم ، ومعه الجماعة من خواصه وأمنائه . وكان سليمة أحب إخوته إلى أبيه ، وأحظاهم لديه ، وأكرمهم عليه ، وأرفعهم منزلة عنده . وكان يعلمه الرمى حتى أحذق ، وصار حاذقا ماهرا ، فحسده إخوته لمكانه من أبيه . وكانوا يطلبون له عثرة مع أبيه ، فلم يجدوا له عثرة . فأقبل ذات يوم نفر منهم إلى أبيهم ، فقالوا : « يا أبانا ! إنك جعلت على كل رجل واحد منا نوبة من الحرس . وكل منا قائم بنوبته ، ماخلا أخانا سليمة فإنه إذا كانت نوبته إنفرد عن أصحابه ، وتشاغل بالنوم عن الحرس . فلا تكن لك منه كفاية ولا معين » .

وجعلوا يوهنون أمره ، وينسبونه إلى العجز والتقصير . فقال لهم أبوهم « إن كلا منكم قائم بما عليه ، وليس بأحد منكم [٢٤٤م] تقصير . وقد فهمت قولكم فى ولدى سليمة ، فإن لم تزل الإخوة يحسد بعضهم بعضا لإيثار الآباء بعضهم على بعض . وإن ظنى به لكعلمى به » . ثم انصرفوا عنه ، ولم يبلغوا ما أملوه .

ثم [إن] (١) مالكاً داخله [الشك] (٢) فيما تكلموا به من أمر سليمة ، فأراد أن يختبر دعواهم . فلما كانت نوبة سليمة فى الحرس — وقد خرج سليمة فى فرسان قومه — وكان من عادته إذا خرج للحرس انفرد عن أصحابه ، وكمن قريبا من دار أبيه . فلما كانت تلك الليلة خرج مع أصحابه ، وأنفرد عنهم كعادته ، وكمن فى مكانه .

وكان مالك قد خرج فى تلك الليلة متنكرا مستخفيا ، لينظر هل يصح قول أولاده فى سليمة . وكان سليمة قد أخذته تلك الساعة سنة — وهو على

(١) ، (٢) مابين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

ظهر فرسه — فلما رأى الفرس شخص مالك من بعيد صهل ، فانتبه سليمة من سنته(١) مذعوراً ، ورأى الفرس ناصبا أذنيه مقابلا لما يراه . وكان معوداً للفرس إذا رأى شيئا نصب أذنيه مقابلا لما يراه ، فيرمي الفارس السهم بين أذني الفرس ، فلا يخطأ ما يراه الفرس . ففوق سليمة سهمه ، ويممه نحو أبيه مالك ، وهو لا يعلم أن [م٢٤٥] ذلك الشخص أبوه . فسمع مالك صوت السهم وقد خرج من كبد القوس ، فهتف به : « يابني ! لا ترمي ! أنا أبوك !! » . فقال : « يا أبت ! ملك السهم قصده ! » . فأصاب مالكا في لبة قلبه .

فقال مالك حين أصابه السهم قصيدة طويلة ، انتخبت منها هذه الأبيات :—

جزاه الله من ولد جزاء ... سليمة أنه ساء ما جزاني
أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعدة رماني
توخاني بقدح شك لبي ... دقيق قد برته الراحتان
فأهوى سهمه كالبرق حتى ... أصاب به الفؤاد وما عداني
ألا شلت يمينك حين ترمي ... وطارت منك حاملة البنان

[فلما مات مالك أنشأ ولده هناة يقول شعراً] .

لو كان يبقى على الأيام ذو شرف ... لمجده لم يمت فهم ولا ولدا
حلت على مالك الأملاك جائحة ... هدّت بناء العلا والمجد فانقصدا
أبا جذيمة لا تبعد ولا غلبت ... به المنايا وقد أودى وقد بعد
لو كان يفدى لبيت العز ذو كرم ... فداك من حل سهل الأرض والجلدا
ياراعي الملك أضحى الملك بعدك لا ... ندْرِ الرعاةُ أجار الملك أم قصدا

* * *

---

(١) في الأصل (وستته) .

ولما قتل سليمة أباه تخوف من إخوته واعتزلهم ؛ وأجمع على [م٢٤٦] الخروج من بينهم. فسار إليه أخوه هناءة فى جماعة من وجوه قومه ، واجتمعوا إليه ، وكرهوا إليه الخروج . وكان أكثر تخوفه من أخيه معن فقال لهم : « إنى لا أستطيع المقام معكم وقد قتلت أباكم. وكان ذلك من حسد إخوتى لى . وقد بلغنى عن معن ما أكره . إنى لأخشى أن يتوقع على فى بعض سفهاء قومه » .

فناشدوه (١) الله والرحم أن يقعد معهم ، وضمن له هناة بتسليم الدية إلى إخوته من ماله ، وأعفوه عن القود . فقبل ذلك سليمة ، وأقام معهم . وسلم هناة الدية من ماله إلى إخوته ؛ فقبلها الإخوة وعفوا ، إلا معن : فإنه قبلها ولم يعف . وطمع هناه أن يصلح ذات بينهم ، وكان حسن(٢) السيرة فى إخوته وقومه .

ثم إن معنا خلا له زمن لا يتعرض لسليمة بسوء ، حتى أكل الدية . ثم جعل غفلة سليمة ، ويغرى به سفهاء قومه من حيث لا يعلم به أحد . فبلغ ذلك سليمة ، فأقسم [أنه] (٣) لا يقيم بأرض عمان ، وأجمع رأيه على ركوب البحر . فخرج هارباً فى نفر من قومه ؛ فقطع البحر حتى نزل بر فارس . وأقام [م٢٤٧] بجاسك (٤) ؛ وتزوج بإمرأة منهم — من قوم يقال لهم الاسفاهية — فولدت له [غلاماً ، فأولاده منها] (٥) يسمون بنى الأسفاهية . فبينا سليمة ذات يوم قاعداً يذكر أرض عمان ، وانفراده عن عن إخوته ، وما كان فيه من العز والسلطان ، قال شعراً :

---

(١) فى الأصل (فانشدوه) .

(٢) فى الأصل (أحسن) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٤) جاسك جزيرة كبيرة بين جزيرة قيس — المعروفة بكيش — وعمان ، قبال عرمز (ياقوت : معجم البلدان) .

(٥) فى الأصل (فولدت منها) وما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

كفى حزناً إنى مقيم ببلدة أخلائى عنها نازحون بعيد
أقلب طرفى فى البلاد فلا أرى وجوه أخلائى الذين أريد

ثم إنه رحل ونزل أرض كرمان ، وأقام عند بعض ملوكها وعرّفه بحسبه ونسبه ، وكيف حسده إخوته ، وكيف قتل أباه ،وكيف كان خروجه عن إخوته . فلما عرفوا مكانه وشرفه ، كتموا أمره ، مخافة أن يعرض له بسوء ، لأجل ما كان من أبيه وأخيه جذيمة الأبرش فى ملوك فارس . وأكرموا مثواه ، وأعجبهم مارأوا من فصاحته وجماله وكماله ، وكمال أمره . فرفعوا قدره ، وأرادوا أن يزوجوه بكريمة من كرائم نسائهم(١) .

وكان ذلك الزمان ملكهم ولد دارا بن دارا . وكان كثير العسف والظلم ؛ جباراً غشوما على رعيته وأهل مملكته ؛ وقد أضرهم . [م ٢٤٨] وكان إذا تزوجت امرأة من نسائهم ، ولم تزف إليه قبل زوجها ، قتلها وقتل أهلها وبعلها . ولايقدر أحد أن يبنى بامرأة إلا بعد أن يفتضها(٢) الملك ويجامعها ، كانت بكراً أو ثيبا . فأخبروا سليمة صنع الملك فيهم ، وشكوا إليه جوره ، وأنهم لايقدرون عليه لكثرة حماته وحرّاسه . فقال سليمة : « ماذا لى عليكم إذا كفيتكموه وأرحتكم منه ؟» . فقالوا « أنىّ لك ذلك ، ولم يقدر عليه من كان قبلنا من أهل العز والسلطان ؟ » . فقال : « تدبير(٣) الأمر علىّ . فماذا لى عليكم ؟ » . فقالوا : « ماشئت » . قال : « إذا كان الغد(٤) ، فليحضر عندى أهل الوفاء والعهد منكم والتقدم » .

فلما كان الغد(٥) اجتمع إليه عظماء كرمان وأشرافها أهل الوفاء .

---

(١) فى الأصل (كرايم) .
(٢) يقال افتض فلان جارية وافتضها إذا افترعها ، وافترع البكر دخل عليها (لسان العرب).
(٣) فى الأصل (تبدير) .
(٤) فى الأصل (الغدا) .
(٥) فى الأصل (الغداء) .

فجرى الكلام بينهم ، فقال سليمة « إن أمكنتمونى (١) مما أشرط عليكم دبرت الأمر » . فقالوا كلهم : « لك ما طلبت » . فقال « أريد أن تصيروا ملكه وسلطانه لى ولعقبى من بعدى (٢) . وعلى أن آخذ جميع غلات كرمان وخراجها إلى أن أتمكن . وأنتجب من العرب من أردت . وأجعلهم معى . وعلى أن تزوجونى من نسائكم » . فأعطوه ذلك ، [م٢٤٩] وضربوا على يده ، وقالوا : « لك الوفاء بجميع ما طلبت وشرطت » . وبايعوه على قتل الملك ، وأعطوه العهود والمواثيق على الوفاء ، وكتموا أمرهم .

وكان فيهم من بيت الملك ، وهم قوامه ونظام ملكه . ولكن كثر عليهم ظلمه وكرهوه وأرادوا قتله راحة لهم . أنظروا أيها السامعون فى عاقبة الظلم والجور !! أدى (٣) إلى أن يقتله قرباه !! ولو عدل لأحبه البعداء والأدنون ، وتمنوا له طول العمر . والنظر على الأباعد للباعد !! .

فلما فرغوا من البيعة زوجوه بامرأة (٤) من كرائم نسائهم . وكل هذا لم يعلم الملك منه بشىء فلما فرغوا من أمر التزويج ، عاهدهم سليمة على ليلة معلومة ليزفوه إلى الملك [فى هيئة المرأة] (٥) . وقال : « اشهروا أمر التزويج ليتهيأ له الملك ، وليتأهب إلى مباشرة العرس » .

فلما كانت (٦) تلك الليلة أشهروا الزفة ، وعمدوا إلى سليمة ، فألبسوه

---

(١) فى الأصل (اكتمتمونى) .
(٢) فى الأصل (من بعد) .
(٣) فى الأصل (أدا) .
(٤) فى الأصل (بامرءة) .
(٥) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى .
(٦) فى الأصل (كان) .

الحلل الفاخرة ، والحلى السنى ، وضمخوه بالطيب . وكان شاباً حسناً جميلا .

وكان [سليمة](١) قد شحذ سكيناً وجعلها فى سراويله . وزفوه فى الخدم والحشم ، حتى أنتهوا به إلى الحصن . ففتحت | ____ لهم الأبواب ، ودخلوا به . ونظر إليه الملك فى ضوء المشاميع ، وهو فى تلك الهيئة الحسنة الجميلة ، [فـ] أهاله(٢) منظره ، وسلب لبه وعقله ، [وتوهم أنه المرأة](٣) . فأومأ إلى النساء والخدم لينصرفوا ، فأنصرفوا .

فأغلق الأبواب ، وأرخى الستور ، وبقى هو وسليمة فى غرفة واحدة. وأهوى إليه يقبله ويضمه إلى صدره . فأسترخى سليمة ، وجعل يلاعبه ويداعبه — كما تفعل الجارية — حتى تمكن منه ؛ فأخرج السكين ، وضربه بها فى خاصرته ، وقتله .

ولبس سليمة درع الملك ، وتقلد السيف ، وجعل على رأسه البيضة ، وبات متأهبا ، ولم يعلم أحد بما صنع بالملك . وبات الذين بايعوه فى خوف عظيم ، لايدرون ما يكون من أمر سليمة والملك .

فلما طلع الفجر ، وثب سليمة إلى الأبواب ففتحها ، وخرج على الحراس وخاصة الملك وحجابه ، فوقع فيهم السيف حتى أباد عامتهم ، وباب العامة مغلوق لم يفتحه .

ووقع الضجيج فى الحصن ، وعلت الأصوات . فاقبل أهل البيعة وغيرهم من أهل البلد بالسلاح التام |٢٠١م| ، فأشرف عليهم سليمة من أعلا الحصن ،

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

(٢) هالنى الأمر يهولنى هولا أى أفزعنى ، هلته فاهتال أفزعته ففزع (القاموس المحيط). وما بين حاصرتين إضافة .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ص ٤٤) .

وعليه الدرع والبيضة ، وبيده سيف الملك يقطر دما . ورمى (١) إليهم برأس الملك وجثته .

فلما نظروا إليه هالهم ما رأوا من أمر سليمه وجرأته ، وسرّ بذلك كثير من أهل البلد ، وخاف من لم يسرّه ذلك ، ولم يقدر يظهر حربا ولا كلاما .

واستقام الأمر لسليمة بأرض كرمان ، وسلّمت له جميع رعاياها طوعا وكرها ورغبة ورهبة .

ثم جعلوا في رجل الملك حبلا ، وأمروا الصبيان يسحبونه ، ويطوفون به شوارع البلد وسككها .

ولما استقر الأمر لسليمة أهدوا إليه عرسه ، فابتنى (٢) بها ، وتمهد له الأمر ، واستولى على كورة كرمان وثغورها ونواحيها ، وأطاعوه ومكنوه في أنفسهم وأموالهم ، وأعانوه في جميع أموره .

فلم يزل كذلك حتى حسدوه وبغوا عليه ، وقالوا : « إلى متى يملكنا هذا العربي ، ونحن أهل القوة والمنعة ؟ » وجعلوا يتعرضون له في أطراف ملكه . فكتب سليمة إلى أخيه هناة بن مالك — بعمان — يستنصره ، ويطلب منه المعونة والمدد [م٢٥٢] ، من فرسان الأزد ورجالهم ، يشد بهم عضده ، ويقيم بهم أود ما أعوج عليه من أهل مملكته . فأمده بثلاثة آلاف من فرسان الأزد وشجعانهم ، وحملهم في المراكب حتى أوصلهم إلى أرض كرمان ، فتحصلوا (٣) عند سليمة ، فاشتد بهم عضده ، وأقام بهم من تعاوج عليه من العجم .

---

(١) في الأصل (ورماهم إليهم) .

(٢) الابتناء والبنـاء الدخول بالزوجة . والأصح بنى فلان على أهله بناء ، ولا يقال بأهله ، هذا قول أهل اللغة (ابن منظور : لسان العرب) .

(٣) في الأصل (فتخلصوا) .

وتم أمره مستقيما بأرض كرمان . واشتد ملكه وقوى سلطانه . وولده عشرة أولاد — كلهم ذكوره — وهم عبد وحماية وسعد ورواحة ومجاش وكلاب وأسد وزاهرو أسود وعثمان .

وتوفى سليمة بأرض كرمان ، واختلف رأى أولاده من بعده . ودخل الناس بينهم ، فكان زوال ملكهم ، ورجوع الملك إلى العجم . فغلبت الفرس عليهم ، واستولوا على ملك أبيهم . وأضمحل أمرهم ، فتفرقوا بأرض كرمان . وفرقة منهم توجهت إلى عمان . وجمهور بنى سليمة بأرض كرمان لهم بأس وشدة وعدد كثير . وبعمان الأقل منهم .

ثم لم تكن للفرس وجعة إلى عمان ، بعد أن جلاهم مالك عنها ، إلى أن انقضى ملكه وملك أولاده [٢٥٣م] من بعده . وصار ملكها إلى الجلندى ابن المستكبر(١) المعولى .

وصار ملك فارس إلى بنى ساسان ، وهم رهط الأكاسرة . وكان الصلح بينهم وبين [آل](٢) الجلندى بعمان . وكانوا يجعلون لهم أربعة آلاف من الأساورة والمرازبة(٣) ، مع عامل لهم بها من ملوك الأزد . وكانت الفرس فى السواحل وشطوط البحر ، والأزد ملوكا بالبادية والجبال وأطراف عمان ، وكل الأمور منوطة بهم . وكان كل من غضب عليه كسرى أو خافه على نفسه وملكه أرسله إلى عمان ، يحبسه بها . ولم يزالوا كذلك إلى أن أظهر الله الإسلام بعمان ، والله أعلم .

---

(١) فى الأصل (المستتر) . والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٤٧) .

(٢) ما بين حاصرين إضافة للتوضيح .

(٣) فى الأصل (المرازنة) .

إسلام أهل عُمان

قيل إن مازن بن غضوبة (١) بن سبيعة بن شماسة بن حيان بن مرّ بن حيان ابن أبي بشر (٢) بن خطامة بن سعد بن نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيء — وكان يسكن قرية سمائل — ، وقيل إنه جد أولاد سعد بني (٣) على، كان (٤) يعبد صنما يقال له ناجر. فذبح يوماً شاة وقربها إليه ، فسمع صوتاً من الصنم يقول «يا مازن ! اسمع تُسر ! ! ظهر خير وبطن شر ! [م٢٠٤أ] بُعث نبي من مضر بدين بدين الله الأكبر ! فدع عبادة نحت حجر ، تسلم من حرّ سقر ! ». ففزع من ذلك وقال : « إن هذا لعجب ». ثم ذبح قرباناً آخر ، وقربه إليه ، فسمع من الصنم صوتاً يقول : « يامازن ! أقبل تسمع ما لا يُجهل (٥) ! هذا نبي مُرسل ! جاء بحق مُنزل ! فآمن به تعدل عن حر نار تُشعل . وقودها الناس والجندل » . فقال : « إن هذا لهو العجب ، وإنه لخير (٦) يُراد بي » ؟

فبينما هو كذلك ، إذ ورد عليه رجل من أهل الحجاز يريد دماً . فسأله « ما الخبر وراءك ؟ » قال : « إنه ظهر رجل يقال له محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . يقول من جاءه : أجيبوا داعي الله ،

---

(١) في الأصل (غضوبه) .

(٢) في الأصل (بن مر بن حيان بن مر بن أبي بشر) .

(٣) في الأصل (أولاد سعد أمنوا عن) . وعلى عشائر عديدة من القحطانية بعضها من خزاعة من الأزد ، وبعضها من مذحج ... وغير ذلك .

(٤) في الأصل (وكان) .

(٥) في الأصل (تجهل) .

(٦) في الأصل (لخير) .

فلست بمتكبر (١) ، ولا جبار (٢) ، ولا مختال (٣) أدعوكم إلى الله ، وترك عبادة الأوثان . وأبشركم بجنة عرضها السموات والأرض . وأستنقذكم من نار لا يطفئ لهيبها ، ولا ينعم من سكنها » .

« قال مازن « هذا والله نهاء ما سمعته من الصنم » . فشكره » [وكسر الصنم] (٤) جذاذاً ، وركب راحلته ، ومضى قاصداً نحو رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

فلما قدم [م٢٠٥] عليه سأله عن ما بعث إليه . فشرح له الإسلام ، فأسلم ونوّر الله قلبه . ثم قال للنبي – صلى الله عليه وسلم – أدع الله لأهل عمان فقال : « اللهم اهدهم واثبتهم » . فقال : « زدني يا رسول الله » . فقال : « اللهم ارزقهم العفاف والكفاف ، والرضى بما قدرت لهم » . قال مازن : « يا رسول الله ! البحر ينضح بجانبنا ، فادع (٥) الله في ميرتنا وخفنا (٦) وظلفنا (٧) » . فقال : اللهم وسّع عليهم في ميرتهم ، وأكثر خيرهم من بحرهم » . فقال « زدني » . فقال « اللهم لا تسلط عليهم عدواً من غيرهم » . وقال لمازن « قل آمين ، فإنه يستجاب عندها الدعاء » . فقال مازن « آمين » . ثم قال : يا رسول الله ! إني مولع بالطرب وشرب الخمر لجوج (٨) بالنساء ! [وقد نفد أكثر مالي في هذا] (

(١) في الأصل (بمستكبر) .

(٢) في الأصل (ولا جبارا) .

(٣) في الأصل (ولا مختالا) .

(٤) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل .

(٥) في الأصل (وادعوا) .

(٦) الخف : الجمل ؛ وهو في اللغة الجمل المسن ، وقيل الضخم ، وجمعه أخفاف (لسان العرب) .

(٧) الظلف : ظفر كل ما اجتر ، وهو ظلف البقرة والشاه والظبي وما اشبهها ، والجمع أظلاف . وقد يطلق الظلف على ذات الظلف أنفسها مجازاً (لسان العرب) .

(٨) لج في الأمر لجاجاً لازمه ، وأبى أن ينصرف عنه ، فهو لجوج .

(٩) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمي (ج ١ ص ٥٥) .

وليس لى ولد . فادعو الله يذهب عنى ماأجد ، ويرزقنى ولداً تقر به عينى ، ويأتنا بالحياء » . فقال – عليه السلام – « اللهم ابدله بالطرب قراءة القرآن ؛ وبالحرام حلالا ؛ وبالعهر عفة الفرج ، وبالخمر أرباً(١) لا إثم فيه ، وآتهم بالحياء ، وهب له ولداً تقر به عينه » . [م٢٥٦]

قال مازن : فأذهب الله عنى ما كنت أجد من الطرب ، وحججت حججاً (٢) ، وحفظت شطراً (٣) من القرآن ، وتزوجت أربع عقائل من العرب ، ورزقت ولداً وسميته حيان بن مازن » . شعراً :

إليك رسول الله حنَّت مطيّتى
تجوز الفيافى من عمان إلى العرج (٤)

لتشفع لى يا خير من وطىء الثرى
فيغفر لى ذنبى فأرجع بالفلج (٥)

وكنت امرءاً بالرعف(٦) والخمر مولعاً
شبابى إلى أن (٧) أذن العمر بالنهج

إلى معشر خالفت فى الله دينهم
فلا رأيهم رأيى ولا شرجهم شرجى (٨)

---

(١) الأرب : العقل والدين ، أرب يأرب أى أحسن الأدب (لسان العرب) .
(٢) فى الأصل (حجاً) .
(٣) فى الأصل (سطراً) .
(٤) فى الأصل (الفرج) . والعرج موضع قرب المدينة .
(٥) الفلج ، النصر .
(٦) الرعف : السبق ، ورعفه يرعفه سبقه وتقدمه . ورعف الفرس أى سبق وتقدم . والراعف الفرس الذى يتقدم الخيل .
(٧) فى الأصل (حتى أذن) .
(٨) الشرج : الضرب ، يقال هما على شرج واحد ، ويقال أصبحوا فى هذا الأمر شرجين أى فرقتين (لسان العرب) .

فبدلنى بالخمر أمناً وخشـية (١)
وبالعهر احصاناً فأحصن لى فرجى
فأصبحت همى فى الجهاد ونيتى
فلله ما صومى ولله ما حجى

ثم إنه كتب – صلى الله عليه وسلم – إلى أهل عمـان يدعوهم إلى الإسلام (٢) . وعلى أهل الريف منهم عبد (٣) وجيفر ابنا الجلندى ؛ وكان أبوهما الجلندى قد مات فى ذلك العصر . وكان كتابه – صلى الله عليه وسلم – « من محمد رسول الله إلى أهل عمان ، أما بعد فأقرّوا أن لا إله إلا الله ، وأنى محمد رسول الله . أقيموا الصلاة ، وأدوا الزكاة ، واعمروا المساجد ، وإلا غزوتكم » . [م ٢٥٧]

وكتب إلى عبد وجيفر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلنـدى . أما بعد ، فإنى أدعوكما (٤) بدعاية الإسلام . أسلما تسلما . فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيّاً ، ويحق القول على الكافرين . فإن أسلمتما وليتكما ، وإن أبيتما فإن ملككما زائل (٥) ، وخيلى تطىء ساحتكما ، وتظهر نبوتى (٦) على ملككما » . والكاتب لهذا أبىّ بن كعب ، يملى عليه النبى صلى الله عليه وسلم .

وطوى الصحيفة ، وختمها بخاتمه ، وبعث بها عمرو بن العاص ، فقدم بها إلى

---

(١) فى الأصل (فيدلنى بالخمر خوفاً وخشية) . والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٥٦) .

(٢) كان ذلك سنة سبع أو ثمان للهجرة (أنظر تاريخ الطبرى ، والكامل لابن الأثير) .

(٣) فى الأصل عيد . وفى السيرة لابن هشام وتاريخ الطبرى (عباد) .

(٤) فى الأصل (أدعوكم) .

(٥) فى الأصل (زايل) .

(٦) فى الأصل (بقوتى) .

عبد و جيفر . وأول موضع نزل بعمان دستجرد (١) ، وهى مدينة بصحار بنتها العجم ، فنزل بها وقت الظهر ، وبعث إلى ابنى الجلندى — وهما ببادية عمان — وأهل رأيها . فأول من لقيه عبد — وهو أحكم الرجلين وأحسنهما خلقاً — ، فأوصل عمرو إلى أخيه جيفر .

ودفع [عمرو] (٢) إلى جيفر الكتاب مختوماً ، ففض ختامه وقرأه ، ثم دفعه إلى عبد فقرأه . ثم التفت [٢٠٨] إلى عمرو فقال : « إن الذى يدعو إليه من جهة صاحبك أمر ليس بصغير ، وأنا أعيد فكرى فيه وأعلمك » .

ثم استحضر الأزد ، وبعث إلى كعب بن برشة العودى ، فسألوه عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم . فقال لهم إنه نبى ، وقد عرفت صفته ، وأنه سيظهر على العرب والعجم .

وأسلم كعب وعبد وجيفر ، وبعثوا إلى وجوه الناس ، فبايعوهما(٣) للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأدخلوهم فى دينه . وألزمهم تسليم الصدقة ، وأمّروا عمرو بقبضها ، فقبضها منهم على الجهة التى أمرهم بها ، عليه الصلاة والسلام .

ثم بعث جيفر إلى مهيرة ، والشحر ونواحيها ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا . وبعث إلى دبا ومايليها إلى آخر عمان ؛ فما ورد رسوله على أحد إلا أسلم وأجاب دعوته ، إلا الفرس الذين كانوا بعمان ، فحين أبوا عن الإسلام ، اجتمعت الأزد إلى جيفر وقالوا : « لا تجاورنا العجم بعد هذا اليوم » . وأجمعوا على إخراج عامل الفرس مسكان ، ومن معه من الفرس . [م٢٢٩]

---

(١) فى الأصل (دمستجرد) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

(٣) يعنى عبداً وجيفر .

فدعا جيفر بالأساورة والمرازبة(١) ، فقال لهم إنه قد بُعث نبي في العرب ، فاختاروا منا إحدى حالتين : إما أن تسلموا وتدخلوا فيما دخلت فيه ، وإما أن تخرجوا عنا بأنفسكم . فأبوا أن يسلموا (٢)؛ وقالوا : « لسنا نخرج » . فعند ذلك اجتمعت الأزد فقاتلوهم قتالا شديدا ، وقُتل مسكان وكثير من أصحابه وقواده . ثم تحصن بقيتهم في مدينة دستجرد (٣) فحاصروهم أشد الحصار . فلما طال عليهم الحصار طلبوا الصلح ، فصالحوهم على أن يتركوا كل صفراء وبيضاء (٤)، وحلقة وكراع . فأجابوا إلى ذلك فخرجوا من عمان ، وبقيت أموالهم — وهي هذه الصوافي(٥) .

ومكث معهم عمرو ، وهم له طائعون(٦) ، ولقوله سامعون . إلى أن بلغته وفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — فأراد الرجوع إلى المدينة ، فصحبه عبد بن الجلندى ، وجيفر بن جشم (٧) العتكى ، وأبو صفرة سارف(٨) ابن ظالم ، في جماعة من الأزد .

فقدموا مع(٩) عمرو بن العاص إلى أبي بكر ، رضي الله عنه . فلما دخلوا عليه ، قام سارف [م-٢٦٠] بن ظالم ، وقال ، « يا خليفة

---

(١) في الأصل (المرازنة) .

(٢) في المتن (تسلموا) .

(٣) في الأصل (دستجرد) .

(٤) في الأصل (صفراً وبيضاً) أي ذهب وفضة ، تعبيراً عن الأموال بوجه عام .

(٥) قارن هذا بما ذكره ابن الأثير في الكامل : (وفيها — سنة ثمان — بعث الرسول (ص) عمرو بن العاص إلى جيفر وعيــاذ (عبد) ابني الجلندى من الأزد بعمان مصدقاً ، فأخذ الصدقة من أغنيائهم ، وردها على فقرائهم ، وأخذ الجزية من المجوس — الفرس — وهم كانوا أهل البلد ، وكان العرب حولها ...) .

(٦) في الأصل (طايعون) .

(٧) في كتاب تحفة الأعيان للسالمي — ج ١ ص ٦٢ — (جعفر بن خشم) .

(٨) في الأصل (سارق) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمي .

(٩) في الأصل (إلى) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ويا معشر قريش ! هذه أمانة كانت فى أيدينا وفى ذمتنا ، ووديعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد برئنا (١) إليكم منها » . فقال أبو بكر : « جزاكم الله خيرا » (٢) .

وقام الخطباء بالثناء عليهم والمدح ، فقالوا : « كفاكم معاشر الأزد قول رسول الله — صلى الله عيله وسلم — وثناؤه (٣) عليكم » . وقام عمرو ابن العاص ، فلم يدع شيئا من المدح والثناء (٤) إلا قاله فى الأزد . وجاءت وجوه الأنصار من الأزد وغيرهم مسلّمين على عبد ومن معه .

فلما كان من الغد ، أمر أبو بكر فجمع الناس — من المهاجرين والأنصار — وقام أبو بكر خطيبا ، فحمد الله وأثنى (٥) عليه ، وذكر النبى فصلى عليه ، فقال : « معاشر أهل عمان ! إنكم اسلمتم طوعا. لم يطأ رسول الله ساحتكم بخف ولا حافر . ولا عصيتموه كما عصت غيركم من العرب . ولم ترموا بفرقة ولا تشتت شمل ، فجمع الله على الخير شملكم . ثم بعث إليكم عمرو بن العاص [م ٢٦١] بلا جيش ولا سلاح . فاجبتموه إذ دعاكم ، على بعد داركم ، واطعتموه إذ أمركم — على كثرة عددكم وعدتكم — فأى فضل أبرّ من فضلكم ؟ وأى فعل أشرف من فعلكم ؟ كفاكم قوله عليه السلام شرفا إلى [يوم] (٦) المعاد . ثم قام فيكم عمرو — ما أقام مكرّما . ورحل عنكم — إذ رحل مسلما . وقد منّ الله عليكم

---

(١) فى الأصل (بريئا) .

(٢) يلاحظ أن المؤلف أغفل الدخول فى تفاصيل حركة الردة ، وما كان من أمر ذى التاج لقيط بن مالك الأزدى ، وذلك سنة إحدى عشرة للهجرة (تاريخ الطبرى ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٣١ ، الكامل لابن الأثير ، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٧٧–٧٨) .

(٣) فى الأصل (وثناه) .

(٤) فى الأصل (الثنا) .

(٥) فى الأصل (وأثنا) .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

بإسلام عبد وجيفر ابنى(١) الجلندى وأعزكم الله به وأعزه بكم . وكنتم على خير حال وجميل، حتى أتتكم وفاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم فأظهرتم ما يضاعف فضلكم ، وقمتم مقاما حمدناكم فيه . ومحضتم بالنصيحة(٢) وشاركتم بالنفس والمال. فيثبت الله به ألسنتكم ويهدى قلوبكم، وللناس جولة (٣) . فكونوا عند حسن ظنى بكم . ولست أخاف عليكم أن تغلبوا على بلادكم . ولا أن ترجعوا عن دينكم . جزاكم الله خيرا . »
ثم سكت .

وذكر بعض المتحدثين أن عبدا لما قدم على أبى بكر — رضى الله عنه — استنهضه فى مقاتلة الرجعة (٤) ، فأجابه إلى ذلك . فسرب به سرية (٥) وأمره [م ٢٦٢] عليها . فخرج عبد على السرية حتى وافى (٦) ديار آل جفنة (٧). ولهذا خبر وحديث يطول شرحه ، تركته .

وقد شهر مقام عبد ، وعرف مكانه .

وكان فى السرية حسان بن ثابت الأنصارى . فلما قدموا ديار آل جفنة ، قام حسان وقال : « قد شهر مقام عبد فى الجاهلية والإسلام ، فلم أر رجلا أحزم ولا أحسن رأيا وتدبيرا من عبد . وهو من نفسه لله فى يوم غارت صباحه(٨) ، وأظلم صباحه . » .

---

(١) فى الأصل (ابنا الجلندى .
(٢) فى الأصل (ومحضتم النصيحة) .
(٣) فى الأصل (والناس حوله) . والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ص ٦٣) .
(٤) أى المرتدين عن الإسلام .
(٥) سرب يسرب سروباً : ذهب وخرج ، أى أرسل سرية .
(٦) فى الأصل (وافا) .
(٧) هم بنو جفنة بن عمرو ، من غسان من الأزد من القحطانية ، منهم عاملة الشام (كحالة : معجم قبائل العرب ج ١ ص ١٩٧) .
(٨) فى الأصل (صباحه) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ص ٦٤) .

فسر ذلك أبا بكر — رضى الله عنه — وقال : « هو يا أبا الوليد كما ذكرت ، والقول يقصر عن وصفه ، والوصف يقصر عن فضله » .

فبلغ ذلك عبدا ، فبعث إليه بمال عظيم ، وأرسل إليه : إن مالى يعجز عن مكافأتك ، فاعذر فيما قصر ! واقبل ماتيسر .

ثم إن أبا بكر كتب كتابا إلى أهل عمان يشكرهم ويثنى عليهم ؛ وأقر جيفر وأخاه عبدا على ملكهما ؛ وجعل لهما أخذ الصدقات من أهلها وحملها إليه . وانصرف عبد ومن معه شاكرين .

ولعبد وجيفر من المآثر والمناقب ما يضيق بشرحه الكتاب . وقد أوردنا لمعة [٢٦٣م] من أخبارهم . ولم يزالا فى عمان متقدمين إلى أن ماتا . وخلف من بعدهم عباد بن عبد بن الجلندى فى زمن عثمان وعلى(١).

(١) فى الأصل (إلى أن مات وخلف من بعده عياد بن عيد بن الجلندى) والتصويب من كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٣٦) .

عُمان فى العصر الأموى

فلما وقعت الفتنة ، وافترقت الأمة ، وصار الملك إلى معاوية ، لم يكن لمعاوية فى عمان سلطان . حتى صار [الُملك](١) لعبدالملك بن مروان ، واستعمل الحجاج على أرض العراق . وكان ذلك فى زمن سليمان وسعيد إبنى عباد ابن عبد بن الجلندى ، وهما القيمان فى عُمان .

فكان الحجاج يغزوهما بجيوش عظيمة ، وهما يفضان جموعه ، ويبيدان عساكره فى مواطن كثيرة . وكان كلما أخرج إليهما جيشاً هزماه ، واستوليا على سواده(٢) ، إلى أن أخرج عليهما القاسم بن شعوة(٣) المزنى ، فى جمع كثير وخميس(٤) جرار . فخرج القاسم بجيشه ، حتى انتهى [إلى](٥) عمان فى سفن كثيرة ، فأرسى(٦) سفنه فى ساحل قرية من قرى عمان ، يقال لها حطاط . فسار إليه سليمان بن عباد بالأزد ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فكانت الهزيمة على أصحاب الحجاج . وقتل القاسم وكثير من أصحابه م٢٦٤ وقواده ، واستولى على سوادهم .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٢) فى الأصل (على سواره) . وسواد الأمير ثقله ، والسواد من العسكر مايشتمل عليه من المضارب والآلات و الأدوات .

(٣) فى الأصل (ابن شعورة) والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٧٤) .

(٤) الخميس هو الجيش لأنه يتألف من خمسة أقسام : القلب والمقدمة والميمنة و الميسرة وساقة الجيش وهى مؤخرته .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٦) فى الأصل (فارق) .

فبلغ ذلك الحجاج فأصابه هائل(١) . ثم استدعى بمجاعة بن شعوة(٢) — أخى القاسم — وأمره أن يندب الناس ويستصرخهم ، وينادى فى قبائل نزار حيث كانوا ، ويستعينهم ويستنجدهم .

وأظهر الحجاج من نفسه غضبا وحمية وأنفه وكتب بذلك إلى عبد الملك ابن مروان . وأبعد وجوه الأزد — الذين كانوا بالبصرة — عن النصرة لسليمان بن عباد بن عبد . فوجدت العساكر التى جمعها الحجاج وأخرجها إلى عمان كانت أربعين ألفا .

فانتهى القوم الذين خرجوا من البر ، فسار إليهم سليمان بسائر(٣) فرسان الأزد — وكانوا ثلاثة آلاف فارس — ، وأصحاب النجائب(٤) ثلاثة آلاف وخمس مائة والتقى بهم عند الماء الذى دون البلقعة بخمس مراحل — وقيل بثلاث مراحل — وهو الماء الذى بقرب بوشر(٥) ، الذى يقال له اليوم البلقعين . فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم أصحاب الحجاج . فأمعن سليمان فى طلبهم : وهو لا [٢٦٥م] يعلم بشىء من عسكر البحر ، حتى انتهى عسكر البحر باليوتانة(٦) من جلفار ، فلقيهم رجل ، فأعلمهم بخروج سليمان بسائر(٧) العسكر للقاء القوم الذين أقبلوا من جانب البر ، وأن الباقين مع أخيه شرذمة قليلة .

فواصل مجاعة [سير](٨) الليل بالنهار ، حتى وصل بركا ، فنزل

---

(١) فى الأصل (هايل) .
(٢) فى الأصل (شعوره) .
(٣) فى الأصل ((بساير).
(٤) فى الأصل (النجايب) .
(٥) فى الأصل (بومشر) والصيغة المثبته من تحفة الأعيان (ج ١ ص ٧٥) .
(٦) فى الأصل (بالبونانة) والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٧٥).
(٧) فى الأصل (بساير) .
(٨) ما بين حاصرتين إضافة .

إليهم سعيد ، فقاتلهم قتالا شديداً حتى حجز بينهم الليل . وتأمل سعيد عسكره ، فإذا هم فى عسكر مجاعة كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، وقد قتل منهم من قتل . فاعتزل من ليلته ، وعمد إلى ذرارى(١) أخيه وذراريه ، فاعتزل بهم إلى الجبل الأكبر ، وهو جبل بنى ريام — ويقال له الجبل الأخضر ، ويقال له رُضوا(٢) بضم الراء — ولحقه القوم .

فلم يزالوا محصورين حتى وافى (٣) سليمان . وكان مجاعة أرسى (٤) سفنه فى بندر مسكد (٥) ، وكانت ثلاث مائة سفينة . فمضى إليها سليمان ، فأخرق منها نيفا وخمسين سفينة ، وانفلت الباقون فى لجج (٧) البحر . ومضى يريد عسكر مجاعة ، فتصور لمجاعة أنه لاطاقة له بسليمان ، فخرج يريد البحر [م٢٦٦] . فالتقى هو وسليمان بقرية سمائل ، فوقعت بينهم صكة عظيمة ، فانهزم مجاعة ، ولحق بسفنه ، فركبها ومضى إلى جلفار .

وكاتب الحجاج ، فأخرج له من طريق البر عبد الرحمن(٨) بن سليمان فى خمسة آلاف عنان من بادية الشام . وكان فيهم رجل من الأزد ، ولا يعلمون به أنه من الأزد . فهرب فى الليل حتى نزل على سليمان وسعيد ، فاعلمهما

---

(١) فى الأصل (ذلادى) .

(٢) فى الأصل (رضوان) والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ص٧٥). جاء فى هذا الكتاب أن الجبل المذكور سمى بذلك باسم ذى دفن فيه .

(٣) فى الأصل (وافا) .

(٤) فى الأصل (أرسا) .

(٥) مسقط .

(٦) فى الأصل (فأخرج) .

(٧) فى الأصل (لجج) .

(٨) فى الأصل (عبد الرحمان) .

بذلك . فاستشعروا العجز (١) ، فحملا ذراريهما وسواداهما ، ومن خرج معهما من قومهما ، ولحقا ببلد من بلدان الزنج ، حتّى ماتا هناك .

ودخل مجاعة عبد الرحمن والعسكر إلى عمان ، ففعلا فيها غير الجميل ، ونهباها ، نعوذ بالله من ذلك .

ثم إن الحجاج استعمل على أهل عمان الخيار بن سبرة المجاشعي (٢) . فلما مات عبدالملك ، ولي من بعده [ابنه] (٣) الوليد بن عبد الملك . ومات الحجاج ، واستعمل الوليد على العراق يزيد بن أبي مسلم . فبعث يزيد سيف بن الهاني الهمداني (٤) عاملا على عمان .

ولما مات الوليد بن عبد الملك ، وولي أخوه سليمان بن عبد الملك ، عزل العمال الذين كانوا [م٢٦٧] على عمان ، واستعمل عليها صالح بن عبد الرحمن بن قيس الليثي . ثم إنه رأى أن يكون عمال عمان على ما كانوا عليه ، فردهم ، وجعل صالح بن عبد الرحمن (٥) مشرفا عليهم .

ثم ولي يزيد بن المهلب العراق وخراسان فاستعمل يزيد أخاه زيادا على عمان . فلم يزل عاملا عليها ، محسنا إلى أهلها حتّى مات سليمان (٦) بن عبد الملك .

وولي عمر بن عبد العزيز ، واستعمل عديا (٧) بن أرطاه الفزاري ،

---

(١) في الأصل (فاستشعر الفجر) .

(٢) في الأصل (الجبار بن سبرة) . والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان للسالمي (ج ١ ص ٧٧) .

(٣) في الأصل (فولي) . وما بين حاصرتين إضافة .

(٤) في الأصل (الغمداني) .

(٥) في الأصل (عبد الرحمان) .

(٦) في الأصل (حتّى مات بن سليمان) .

(٧) في الأصل (واستعمل على رارطاه الفزاري) .

على العراق . واستعمل عدى (١) على عمان عاملا ، فأساء السيرة فيها ، فكتبوا إلى عمر بن عبد العزيز ، فاستعمل عليهم عمر بن عبد الله الأنصارى ، فأحسن السيرة فيهم . فلم يزل واليا على عمان ، مكرما بين أهلها ، يستوفى الصدقات منهم بطيبة أنفسهم ، حتى مات عمر بن عبد العزيز . فقال عمر بن عبد الله [لزياد] (٢) بن المهلب :

« هذه البلاد بلاد قومك ، فشأنك بها » . وخرج عمر بن عبد الله من عمان .

وقام [زياد] (٣) بن المهلب فى عمان ، حتى ظهر أبو العباس السفاح ، وصار ملك بنى أميه إليه .

---

(١) فى الأصل (عديا) .

(٢) ، (٣) فى الأصل (يزيد بن المهلب) . والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ص ٧٧) .

عمان فى العصر العباسى

وولى [أبو العباس السفاح] (١) أبا جعفر [م ٢٦٨] المنصور على العراق . فاستعمل أبو جعفر ، جناح بن عبادة بن قيس الهنائى (٢) [على عمان](٣) ، وهو صاحب المسجد المعروف بمسجد جناح . ثم عزله وولى ابنه محمد ابن جناح .

إمامة الجلندى بن مسعود :

فداهن جناح بن عبادة الأباضية (٤) ، حتى صارت ولاية عمان لهم . فعند ذلك عقدوا الإمامة للجلندى بن مسعود ، وكان سبباً لقوة المذهب ، وكان عادلا مرضياً . ثم خرج عليه شيبان ، وكان شيبان يطلبه السفاح. فلما قدم إلى عمان ، أخرج إليه الجلندى هلال بن عطية الخراسانى ، ويحي ابن نجيح ، وجماعة من المسلمين .

فلما التقوا [بجلفار] (٥) وصاروا صفين ، قام يحي بن نجيح — وكان

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

(٢) فى الأصل (الهناوى) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

(٤) هذه أول إشارة فى الكتاب إلى الأباضية . وقد عبر عنهم السالمى (تحفة الأعيان ج ١ ص ٧٨) بالمسلمين ؛ فقال (فداهن المسلمين حتى صارت لهم ولاية عمان) . والأباضية نسبة إلى عبد الله بن أباض التميمى صاحب المذهب المعروف.عن نشأة المذهب الأباضى وتطوره، أنظر الدراسة الطيبة التى قام بها الدكتور عوض خليفات بعنوان (نشأة الحركة الأباضية) وهو كتاب أسهمت الجامعة الأردنية فى نشره (عمان ١٩٧٨) . كذلك أنظر السمائلى : أصدق المناهج فى تمييز الأباضية من الخوارج ؛ تحقيق دكتورة سيدة إسماعيل كاشف .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب (الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان (لحميد ابن محمد بن رزيق (ص ٢١) تحقيق عبد المنعم عامر .

يحيى فضله شاهراً بين المسلمين — فدعا بدعوة أنصف فيها الفريقين، فقال: « اللهم إن كنت(١) تعلم أننا على الدين الذى ترضاه ، والحق الذى تحب أن يؤتى به ، فأجعلنى أول قتيل من أصحابى . ثم أجعل شيبان أول قتيل من أصحابه . وأجعل الدائرة(٢) على أصحابه . وإن كنت(٣) تعلم أن شيبان وأصحابه على الدين الذى ترضاه [م ٢٦٩] والحق الذى تحب أن يؤتى به ، فأجعل شيبان أول قتيل من أصحابه » .

ثم زحف القوم بعضهم إلى بعض ، فكان أول قتيل من المسلمين يحيى بن نجيح . وأول قتيل من أصحاب شيبان [هو شيبان نفسه](٤) .

فلما قتل شيبان ، وصل إلى عمان خازم(٥) بن خزيمة ، وقال « إنا كنا نطلب هؤلاء القوم — يعنى شيبان وأصحابه — وقد كفانا الله قتالهم على أيديكم . ولكن أن أخرج من عندك إلى الخليفة [السفاح](٦) ، وأخبره(٧) أنك له(٨) سامع مطيع » .

فشاور الجلندى المسلمين(٩) ، فلم يروا له ذلك . وقيل سأله(١٠) أن يعطيه سيف شيبان وخاتمه ، فأبى الجلندى . فوقع القتال بين خازم

---

(١) فى الأصل (إنك تعلم) والصيغة المثبتة من المرجع السابق .
(٢) فى الأصل (الدايرة) .
(٣) فى الأصل (وإنك تعلم) .
(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح ، من كتاب الشعاع الشائع ص ٢١ .
(٥) فى الأصل (حازم) . وكان وصول خازم بن خزيمة من قبل السفاح إلى عمان سنة أربع وثلاثين ومائة . ولذلك قصة رواها ابن الأثير فى كتابه الكامل . (ج ٥ ص ٤٥١)
(٦) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .
(٧) فى الأصل (واخبر أنك) .
(٨) فى المتن (أنه لك سمع مطيع) .
(٩) يعنى الأباضية .
(١٠) أى أن خازماً سأل الإمام الجلندى .

ابن خزيمة والجلندى ، فقتل جميع أصحاب الجلندى ، ولم يبق إلا هو وهلال بن عطية الخراسانى. فقال الجلندى: « أحمل ياهلال » فقال هلال للجلندى : « أنت الامام ، فكن أمامى . ولكن علىّ أن لا أبقى بعدك ! ». فتقدم الجلندى فقاتل حتى قتل ؛ رحمه الله . ثم تقدم هلال بن عطية ، وعليه لامة الحرب . وكان أصحاب خازم يتعجبون من ثقافته(١) ، فلم يعرفوه [م ٢٧٠] . ثم عرفوه وقالوا : هلال بن عطية ! فأحتولوه(٢) حتى قتلوه ، رحمه الله(٣) .

وكانت إمامة الجلندى سنتين وشهراً . وقيل إن الذى تولى قتل الجلندى خازم بن خزيمة . فلغنى أنه لما حضرته الوفاة قيل له « أبشر(٤) ، فقد فتح الله عمان على يديك ». فقال «عزيتمونا فى الحياة وتعزونا فى الممات(٥) ! هيهات ! هيهات ! فكيف لى بقتل الشيخ العمانى ! »(٦) .

ووجدت أن رجلا من أهل عمان خرج إلى الحج ، وكان فى صحبة رجل من أهل البصرة ، لايهدأ(٧) الليل ولاينام . فسأل العمانى عن حاله — وهو يعرف أن صاحبه من أهل عمان — وقال : « إنى خرجت مع خازم بن خزيمة إلى عمان ، فقاتلنا بها قوما لم أر مثلهم قط . فأنا من ذلك اليوم على هذه الحالة ، لايأخذنى النوم » . وقال الرجل العمانى فى نفسه :

---

(١) الثقافة : الحذ والمهارة والفطنة وسرعة الإدراك . والثقافة العمل بالسيف فى خفة وبراعه .

(٢) فى الأصل (فاحتد .

(٣) سنة ١٣٤ هـ (الكامل فى التاريخ لابن الأثير) .

(٤) فى الأصل (اشتر ؛ .

(٥) كذا فى الأصل . وفى كتاب تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ص ٩٦) مانصه «غررتمونا فى الحياة وتغرورننا فى الممات » .

(٦) يعنى بالشيخ العمانى الإمام الجلندى .

(٧) فى الأصل (لا يهدى) .

« أنت حقيق بذلك إن كنت ممن قاتلهم » .

فلما قتل الجلندى وأصحابه — رحمهم الله وغفر لهم — استولت الجبابرة(١) على عمان ، ففسدوا فيها ، وكانوا أهل ظلم وجور .

فمن هؤلاء الجابرة محمد بن زائدة (٢) وراشد بن شاذان بن [م ٢٧١] النظر الجلندانيان . وفى زمنهما وقع غسان الهنائى(٣) — الذى هو من بنى محارب — بنزوى فيها ؛ وهزم بنى نافع منها ، وبنى همیم (٤) ؛ بعد أن قتل منهم خلقا كثيرا ، وذلك فى شهر شعبان سنة خمس وأربعين ومائة سنة .

ثم إن بنى الحرث — من أهل ابرى — عصبوا لهم . وكان فى بنى الحرث (٥) رجل عبدى من بكرة (٦) — يقال له زياد بن سعيد البكرى — فاجتمع رأيهم أن يمضوا إلى العتيك ليقتلوا الهنائى (٧) . فساروا إليه بين داره ودار جناح بن سعيد ، بموضع يقال له الحور ، — وقد رجع عائدا (٨) رجلا مريضا من بنى هناة (٩) فمر بهم وهو لايشعر بمكانهم [فقتلوه]

---

(١) فى الأصل (استولت الجبايرة إلى عمان) . والمراد بالجبابرة ملوك الطوائف ورؤساء القبائل ونحوهم من الأمراء المحليين الذين كانوا يبرزون وقت ضعف الإمامة (تحفة الأعيان للسالمى ج ١ ص ١٠٧) .

(٢) فى المتن (زايدة) .

(٣) فى الأصل (الهناوى) .

(٤) فى الأصل (بنى هميم) .

(٥) فى الأصل (بنى الحرث) .

(٦) فى الأصل (من بكر) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ١٠٧). وبكرة بطن من كنده من القحطانية — انظر (كحالة . معجم قبائل العرب ج ١ ص ٩٩) .

(٧) فى الأصل (الهناوى) .

(٨) فى الأصل (عايداً) .

(٩) كذا فى المتن ؛ والأصح بنو هناءة ، وهم بطن من شنوءة من الأزد من القحطانية ؛ —

فغضب لذلك (١) منازل بن خنبش (٢) . وكان مسكنه نبا — وهو عامل لمحمد بن زائدة (٣) ، وراشد بن شاذان الجلندانيين . فساروا على أهل ابرى على غفلة منهم . فبرز إليهم [جمع] (٤) من أهل ابرى ، فاقتتلوا قتالاً شديداً . ووقعت الهزيمة على أهل ابرى ، فقتل منهم أربعون رجلاً .

ثم منّ الله على أهل عمان بالألفة على الحق ، فخرجت عصابة [٢٧٢م] من المسلمين ، فقاموا بحق الله ، وأزالوا ملك تلك الجبابرة . وذلك أن المشايخ العلماء من أهل عمان اجتمعوا فى نزوى ، وكان رئيسهم وعميدهم موسى بن أبى جابر الأزكوى (٥) . فأرادوا عقد الإمامة لمحمد بن أبى عفان . وقد حضر معهم رؤساء لايؤمنون على الدولة . فخاف الشيخ موسى أن لايكون للمسلمين [خير] (٦) به ، وأن تقع الفتنة . فقال : « قد ولينا فلانا قرية كذا ، وولينا فلانا قرية كذا ... » حتى فرق تلك الرؤساء . قال : « قد ولينا ابن (٧) أبى عفان نزوى وقرى الجوف » . وأحسب أنه قال : « حتى تضع الحرب أوزارها » .

═بنو هناءة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث ابن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر . ونصر هو شنوءة (القلقشندى : نهاية الإرب ، كحالة : معجم قبائل العرب ج ٣ ، ص ١٢٢٧) .

(١) فى الأصل (بذلك) .

(٢) فى الأصل (هنازل بن خنبش) .

(٣) فى الأصل (زايدة) .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٥) فى الأصل (موسى بن موسى بن أبى جابر) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ١١٠) والشعاع الشائع لابن رزيق (ص ٢٤) ، والفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٢٤) . وقد ورد الإسم فى المرجعين الأخيرين فى صورة (موسى بن أبى جابر الأزكانى)

(٦) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٧) فى الأصل (بن أبى عفان) .

فقال الشيخ بشير بن المنذر : « قد كنا نرجو أن نرى ما نحب ، فالآن رأينا ما نكره ، والحمد لله » . وقال موسى : « إنا فعلنا ما تحب » . فأعلمه إنما أراد أن يفرقهم لئلا تقع الفتنة .

فلما خرج هؤلاء (١) الرؤساء ، ونظر كل واحد منهم إلى البلد التى وليها ، كتب الشيخ بعزلهم ، وبعث ولاة للبلدان ، فأحسب أنهم عزلوا قبل وصولهم .

وبقى محمد بن أبى عفان فى العسكر . فظهر منه للمسلمين [م ٢٧٣] أحداث ، لم (٢) تعجبهم . وبلغنى أن الذى أنكروا عليه جفوته للمسلمين ، ورد النصائح (٣) ، والله أعلم . فلم يرضوا سيرته ، فعملوا له حيلة وأخرجوه من عسكر نزوى ، فلما خرج اجتمعوا (٤) ، فأُخفى ، واختاروا إماما ، وعزلوا محمدا . وكانت إمامته سنتين وشهراً .

إمامة الوارث بن كعب الخروصى :

ثم عقدوا الإمامة لوارث بن كعب الخروصى الشارى اليحمدى الأزدى ، وذلك سنة سبع وسبعين ومائة (٥) . فوطأ الوارث أثر السلف الصالح من المسلمين ، وسار بالحق ، وأظهر دعوة المسلمين ، وعز الحق وأهله ، وخمد الكفر ، ودفع الله الجبابرة .

وفى زمنه بعث هارون الرشيد عيسى بن جعفر (٦) فى ألف فارس

---

(١) فى الأصل (تلك الرؤساء) .
(٢) فى الأصل (فلم تعجبهم) .
(٣) فى الأصل (النصايح) .
(٤) فى الأصل (اجمعوا) .
(٥) ذكر السالمى فى تحفة الأعيان (ج ١ ، ص ١١١) أن ذلك تم سنة تسع وسبعين ومائة .
(٦) فى الأصل (جيفر) .

وخمسة آلاف راجل . فكتب داود بن يزيد الملهي إلى الإمام الوارث(١) يخبره أن عيسى وصل بعسكره (٢) . فأخرج إليه الإمام فارس(٣)ابن محمد ، والتقوا بحتّى ، فانهزم عيسى بن جعفر ، وسار إلى مراكبه بالبحر . فسار إليه أبو حميد بن فلج الحدانى السلوتى ، ومعه عمرو بن عمر ، فى ثلاثة مراكب . فأسر عيسى وانطلق به إلى صحار ، فحبس بها . فشاور
فيه الإمام الشيخ على بن عزرة [وكان من فقهاء المسلمين] (٤) ؛ م٢٧٤
فقال له : « إن قتلته فواسع لك ، وإن تركته فواسع لك » . فأمسك الإمام عن قتله ، وتركه فى السجن .

وبلغنا [أن قوما] (٥) من المسلمين — فيهم يحيى بن عبد العزيز ، رحمه الله — انطلقوا من حيث لايعلم الإمام ، حتى أتوا صحار ، فتسوروا السجن ، وقتلوا عيسى من حيث لا يعلم الوالى ولا الإمام ، وانصرفوا من ليلتهم .

فلما قتل عيسى بن جعفر ، عزم هارون على إنفاذ جيش إلى عمان ، فارتاعوا منه . ثم إنه مات قبل ذلك ، وكفاهم الله شره .

وبلغنا أن يحيى بن عبد العزيز كان من أفاضل المسلمين ، ولعله لم يتقدم عليه أحد من أهل زمانه فى الفضل . ولعل كانت شهرته بعمان كشهرة عبد العزيز بن سليمان بحضرموت .

---

(١) فى الأصل (وارث) .

(٢) فى كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٢٥) وكذلك فى الشعاع الشائع لنفس المؤلف (ص ٣٢) جاءت العبارة (أن عيسى قاصده بعسكره) .

(٣) كذا فى الأصل ، وكذلك فى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٢٥) . وفى تحفة الأعيان السالمى (مقارش بن محمد) ج ١ ، ص ١١٨ .

(٤ ، ٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من تحفة الأعيان لسالمى (ج ١ ، ص ١١٨) .

وبلغنا عن الشيخ بشير بن المنذر كان يقول : قاتل عيسى بن جعفر لم يشم النار .

ولم يزل الوارث إماما حسن السيرة ، قائما بالعدل ، حتى اختاره الله . وكان سبب موته انه غرق فى سيل وادى كلبوه من نزوى . وغرق معه سبعون رجلا من أصحابه . وسبب ذلك لعله حبس المسلمين عند سوقم مائل(١) . وكان ناس محبوسين ، فسال الوادى جارفاً ؛ فقيل للإمام : « إن الوادى سيلحق المحبوسين » . فأمر بإطلاقهم ، فلم يجسر أحد يمضى إليهم ، خوفا من الوادى . فقال الإمام « أنا أمضى إليهم ، إذ هم أمانتى ، وأنا المسئول عنهم يوم القيامة » . فمضى إليهم : واتبعه ناس من أصحابه . فمر بهم الوادى ، فحملهم مع المحبوسين(٢) .

وقبر الإمام — من بعد أن يبس الوادى — بين العقر وسعال . وقبره معروف مشهور . وكانت إمامته اثنتى عشرة سنة وستة أشهر ، إلا أياما . والله أعلم .

إمامه غسان بن عبد الله اليحمدى :

ثم ولى من بعده غسان بن عبد الله اليحمدى الأزدى . فوطأ آثار المسلمين ، وعز الحق وأهله ، وخمد الكفر .

وكانت فى زمنه البوارج تقع على عمان ، وتفسد فيها ، وفى سواحلها(٣)

---

(١) فى الأصل (مايل) .

(٢) سنة ١٩٢ هجرية .

(٣) البوارج ومفردها بارجة نوع من السفن الكبيرة . والمقصود هنا الإغارات التى كان يقوم قراصنة الهند على شواطىء عمان قال السالمى فى تحفة الأعيان (ج ١ ، ص ١٢٣) « إن كفار الهند يقعدون بأطراف عمان ، ويسلبون منها ، ويسبون ، ويمضون إلى ناحية فارس والعراق » .

فاتخذ غسان لها هذه الشذاوة (١) يغزونهم . وهو أول من اتخذها وغزا فيها فانقطعت البوارج عن عمان .

وفى زمانه قتل الصقر بن محمد بن زائدة (٢) ، وكان ممن بايع [م٢٧٦] المسلمين على راشد بن النظر الجلنداني ، وكان قد أعانهم بالمال والسلاح.

وكان سبب قتله أنه خرج على المسلمين رجل من أهل الشرق ، ومعه بنو هناة – وغيرهم – ، باغيا على المسلمين . فأُلقى على المسلمين أن أخاه الصقر مع البغاة . فذكر للصقر ، فقال « من يقول هذا ، وإن أخى معى فى الدار مريض ! » . فلما هزم الله البغاة تحقق أن أخاه الصقر معهم ، فاتهموه بالمداهنة لما ستر عنهم أمر أخيه . وكان الصقر يومئذ بسمائل ، فبعث إليه الإمام . وكان الوالى يومئذ بسمائل أبا الوضاح بن عقبة (٣)، فمضى الوالى بالصقر إلى الشراة (٤) ، خوفا عليه منهم أن يبطشوا به . وبعث الإمام أيضا له سرية (٥) أخرى ، وبعث معهم موسى بن على ، فالتقوا بنجد السحاماة (٦) . فبينما هم فى مسيرهم ، إذ اعترض بعض الشراة الصقر فقتلوه . ولم يكن (٧) للوالى أبى الوضاح ، ولا لموسى بن على ، قدرة على منعهم من قتله . وبلغنا أن موسى خاف على نفسه ، ولو قال

---

(١) ضرب من السفن ، تسميها العامة الزواريق (الشعاع الشائع لابن رزيق ص ٣٦) .

(٢) فى الأصل (زايدة) .

(٣) كذا ذكر ابن رزيق الإسم فى الفتح المبين (ص ٢٢٧) وفى الشعاع الشائع (ص ٣٦) أما فى الأصل فقد جاء الإسم (الوضاح الصقر بن محمد) .

(٤) جاء فى الشعاع الشائع باللمعان لابن رزيق (ص ١٩) ما نصه : « الشراة وأحدهم شارى هم الأباضيون الاستقاميون ، سموا بذلك لقولهم : شرينا أنفسنا فى سبيل الله ، أى بعناها للجهاد فى دين الله » . كذلك أنظر : عوض خليفات : نشأة الحركة الأباضية ، ص ٦٧ .

(٥) فى الأصل (شراة) .

(٦) كذا فى الأصل ، وكذلك فى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٢٧) . وفى تحفة الأعيان للسالمى (ص ١٢٤) السحامات .

(٧) فى الأصل « فلم يكن » .

بشيء لقتل معهم . ولم يبلغنا عن الإمام غسان إنكار[م ٢٧٧] على من قتله . وكانت تلك الأيام صدور الدولة وقوتها ، و[كانت] (١) جمة العلماء . فهذا كان سبب قتل الصقر ، والله أعلم .

ومن أحكام الإمام غسان ، أنه كانت دار لبني الجلندى بسمد نزوى ، ولعل موضعها المال المسمى العقودية . وكانت هذه الدار عقوداً على الطريق الجائز (٢) ، وعليها الغرف (٣) . وكانت تلك العقود مظلمة ، يقعد فيها الفساق ، أهل الريبة . فقيل إن إمرأة مرت بتلك العقود ، فتعرض لها أحد من أهل الريبة . فبلغ ذلك الإمام غسان ، فحكم على أهل الدار إما أن يهدموا تلك العقود ، أو يسرجوا بها بالليل ، حتى ينظر المار من فيها من أهل الريبة . فقيل إن أهل الدار أخرجوا طريقاً من أموالهم للناس ، فكان الناس يمرون بها حتى انهدمت الدار ، فرجع أهل الدار إلى الطريق التي أخرجوها ، فأدخلوها في دارهم ، ورجع الناس يمرون في الطريق الأول . ولهذه العقود آثار ورسوم جدر ، سهيلي (٤) المسجد الجامع من سمد نزوى .

فلم يزل غسان قائماً بالحق والعدل [م ٢٧٨] حتى مرض يوم الأربعاء ، لثمان ليال بقين من ذي القعدة سنة سبع ومائتين . ومات من مرضه هذا . وكانت إمامته خمس عشرة سنة ، وسبعة أشهر وسبعة أيام .

إمامة عبد الملك بن حميد :

ثم ولي من بعده عبد الملك بن حميد ، وهو من بني سودة (٥) بن علي بن

(١) ما بين حاصرتين إضافة .

(٢) في الأصل (الجايز) .

(٣) أي أنها كانت على شكل عقود على الطريق ، وفوق العقود توجد غرف الدار .

(٤) أسهل القوم إذا صاروا في السهل ، وأسهل القوم إذا نزلوا السهل ، وفي حديث رمي الجمار : ثم يأخذ ذات الشمال فيسهل فيقوم مستقبل القبلة (لسان العرب) .

(٥) في الأصل (عبد الملك بن حميد بن بني سودة) .

عمرو (١) بن عامر بن ماء السماء الأزدى . فسار سيرة الحق والعدل ، واتبع أثر السلف الصالح . وصارت عمان يومئذ خير دار . وُلّى يوم الاثنين لثمان ليال بقين من شوال سنة ثمان ومائتين . ولم يزل مقيم العدل حتى كبر وضعف وزمن .

وكانت تقع الأحداث فى عسكره [عندما ضعف وسقط وثقل منه السمع والبصر] (٢) ، فشاور المسلمون [الشيخ العالم] (٣) موسى بن على فى عزله ، فأشار عليهم أن يحضروا العسكر ويقدموا (٤) بالدولة . فأحضر موسى ، وأقام الدولة ، ومنع الباطل ، وشد عسكر المسلمين ، وعبد الملك فى بيته لم يعزلوه ، حتى مات وهو إمام لهم . وكانت ولايته ثمانى عشرة سنة (٥) .

إمامة المهنا بن جيفر :

ثم ولى المسلمون المهنا بن جيفر الفجحى اليحمدى الأزدى . وعقد له يوم الجمعة فى شهر ٢٧٩ م رجب سنة ست وعشرين ومائتين . فوطأ أثر المسلمين ، وسار سيرتهم . وكان له ضبط وحزم ولا يتكلم أحد فى مجلسه ، ولا يعين خصما على خصم . ولا يقوم أحد من أعوانه ما دام قاعداً . ولا يدخل أحد ممن كان يجرى عليه النفقة [من] (٦) العسكر إلا بالسلاح .

وكان موليـّاً على الصدقة رجلا من بنى ضبـّة من أهل منح ، يقـال له عبد الله بن سليمان . وكان يرسله إلى الماشية (٧) . فقيل إنه دخل أرض

---

(١) فى الأصل (بن عمر) .

(٢) ما بين حاصرتين لضبط المعنى ، من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ١٣٤) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى من الفتح المبين لابن رزيق ص ٢٢٨ .

(٤) كذا فى الأصل . وربما كان الأصح (ويقدموه بالدولة) .

(٥) جاء فى تحفة الأعيان السالمى (ص ١٣٦) إن إمامته كانت (ثمانى عشرة سنة وسبعة أشهر وسبعة أيام ، ويقال ثلاثة أيام) .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٧) أى لجمع الزكاة المستحقة على الماشية والسائمة .

مهرة (١) ، ووصل إلى رجل منهم يقال له وسيم بن جعفر . وقد وجبت عليه فريضتان . وقد امتنع إلا أن يعطى فريضة واحدة . فقال « إن شئت تأخذ فريضة ، وإلا فانظر إلى قبور أصحابكم » . (٢) فسكت ورجع . وكان عنده رجل جمّال . فلما وصل إلى عزّ (٣) ، تأخر عبد الله فى عز — وكان منزله بها — وأرسل الجمال إلى الإمام . فقدم الجمّال على الإمام وهو فى مجلسه . فلما ارتفع عن مجلسه دعا بالجمّال ، فسأل عن عبد الله ، وكيف كان سفره . فأخبره بما كان من وسيم . فقال الإمام للجمّال ، « لا تخبر أحداً بما أخبرتنى ، واكتم ذلك » . وأكد [٢٨٠ م] عليه فى ذلك .

فلما وصل عبد الله بن سليمان ، سأله الإمام عن خبر وسيم ، فأخبره بمثل ما أخبره به الجمّال . فكتب الإمام من وقته إلى والى أدم ، ووالى سناو ، ووالى جعلان : « إذا ظفرتم بوسيم بن جعفر المهرى ، فاستوثقوا منه واعلمونى » .

فكتب إليه والى أدم : « إنى قد استوثقت منه ، وإنه قد حُصل » . فأنفذ إليه الإمام ، يحيى اليحمدى — المعروف بأبى المقارش (٤) من أصحاب الخيل (٥) . ثم أنفذ كتيبة أخرى ، فلقوهم بالمنائف (٦) . ثم أنفذ كتيبة [أخرى] (٧) فلقوهم فى قرية منح .

---

(١) آل مهرة أعراب كانوا يسكنون عندئذ الرمل من عمان ، وهم مهرة بن حيدان (ابن رزيق : الشعاع الشائع ، ص ٤٠) .

(٢) لعله يقصد قبور من قتل هناك من الشراة أيام عبد الملك .
(تحفة الأعيان للسالمى ، ج ١ ، ص ١٥٢) .

(٣) موضع من الجنوب من منح .

(٤) فى الأصل (المقارس) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ص ١٥٣) ، والشعاع الشائع لابن رزيق ، ص ٤٤ .

(٥) فى الأصل (الجيل) .

(٦) فى الأصل (المنايف) .

(٧) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى .

فلم تزل الكتائب تتراسل ، والرماح تحتمله . حتى وصلوا إلى نزوى . فأمر الإمام بحبسه ، فمكث سنة لا يقدر أحد يذكره ، ولا يسأل عن أمره ، حتى وصل جماعة من المهرة ، فاستعانوا على [الإمام](١) المهنا بن جيفر بوجوه اليحمد . فأجابهم إلى إطلاقه ، وشرط عليهم ثلاث خصال : إما أن يرتحلوا من عمان ، وإما أن يأذنوا بالحرب . وإما أن يحضروا الماشية كل حول إلى عسكر نزوى ، وتشهد على ام ٢٨١ حضورها العدول أنه لم يتخلف منها شيء ، وتعدل الشهود المعدلون بأدم (٢) فقالوا : أما الإرتحال فلا يمكننا ، وأما الحرب فلسنا نحارب الإمام ، وأما الإبل فنحن نحضرها . فعند ذلك عدل الإمام الشهود . وكانوا يحضرون إبلهم في كل سنة تدور .

وسمعت من يحكي أن هذه النقضة (٣) التي بقرية فرق ، بنيت في زمن المهنا ، علامة لبني المهرة ، ليحضروا إبلهم عندها ، والله أعلم .

ورجع المغيرة بن دويس (٤) الجلنداني — ومن معه من بني الجلندى وغيرهم من أهل الفتنة — بغاة على المسلمين . فوصلوا إلى توام — وكان أبو الوضاح والياً عليها للإمام المهنا — فقتلوا أبا الوضاح .

فلما بلغ [ذلك] المسلمين — وكان أبو مروان رحمه الله واليا على صحار — فسار بمن معه من الناس ، وسار معهم المطار الهندي ؛ ومن معه من الهند : فلما وصلوا توام ، وهزم الله بني الجلندى (٥) ، وقُتل من قتل ، وهرب من

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى .

(٢) العبارة في الأصل بها اضطراب نتيجة لأخطاء في النسخ ، ونصها (وشهد على حضورها العدول أنه لم يتخلف منها شيء ويعدل الشهود المعدل بآدم) .

(٣) النقض اسم البناء المنقوض إذا هدم (لسان العرب) .

(٤) كذا في الأصل . وفي الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٣١) جاء الإسم (بن وسن) ؛ وفي تحفة الأعيان للسالمي (ج ١ ، ص ١٥٤) ورد الإسم (ابن روشن) .

(٥) في الأصل اضطراب نتيجة لتكرار نصه (وهزم الله بني الجلندى ، ومن معه من الهند ، وقتل من قتل) .

هرب ، عمد المطار الهندى — ومن معه من سفهاء الجيش — إلى دور بنى الجلندى فأحرقوها [م٢٨٢] بالنار . وكان فى الدور دواب مربوطة من البقر وغيرها . فبلغنا أن رجلا من السرية كان يلقى نفسه فى الفلج — حتى يبتل بدله وثيابه — ثم يمضى فى النار حتى يقطع للدواب حبالها ، فتنجى أنفسها من النار . فبلغنا أنهم أحرقوا لهم تسعين غرفة أو خمسين .

وبلغنا أن نسوة من بنى الجلندى خرجن على وجوههن إلى الصحراء هاربات ، ومعهن أمة ، فلبثن بها ما شاء الله . فاحتجن إلى الطعام والشراب ، فانطلقت الأمة إلى القرية فى الليل تلتمس لهن طعاما وشرابا . فلما وصلت إلى القرية ليلا ، وجدت شيئا من السويق(١) وسقى من أسقية اللبن(٢) . فعمدت إلى الفلج ، فحملت فى سقاها ماء ، فبصرها رجل من السرية قد توجهت نحو النسوة بالماء والسويق ، فأدركها الرجل فى بعض الطريق ، فأخذ منها السويق وصبه فى الرمل ، وأراق الماء ، ثم انصرف عنها .

فبلغنا أن أبا مروان لم يأمر بهذا الحرق ، ولعله قد نهى عنه ، ولم يقبل قوله . [م٢٨٣] وبلغنا أن الإمام بعث رجلين إلى القوم الذين أحرقت منازلهم ، فدعاهم إلى الإنصاف ، وأن يعطوهم ما وجب لهم من الحق .
وبلغنا أن القوم الذين اجتمعوا مع أبى مروان إثنا عشر ألفا ، والله أعلم .

ولم يزل المهنا إماما حتى مات ، يوم سادس عشر ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ومائتين . وكانت إمامته عشر سنين وأشهر وأياما .

ومات والمسلمون عنه راضون ، وله موالون ومؤازرون . إلا أنى

---

(١) السويق هو ما يتخذ من الحنطة والشعير ، ويقصد به الخبز .

(٢) السقى : الحظ من الشرب ، والجمع أسقية . وفى تحفة الأعيان (ص ١٥٥) ، وكذلك فى الفتح المبين (ص ٢٣١) جاءت العبارة (وسقاء من أسقية اللبن) .

وجدت فى سير أبى قحطان رحمه الله أن الشيخ محمد بن محبوب ، وبشيرا(١) ؛ أطلعا على حدث من المهنا تزول به إمامته ، وأنهما كانا يبرءان منه سريرة ، والله أعلم .

إمامة الصلت بن مالك الخروصى :

ثم ولى المسلمون الصلت بن مالك الخروصى ، فى اليوم الذى مات فيه المهنا . وكان يومئذ بقايا من [أشياخ](٢) المسلمين — وإمامهم ورئيسهم فى العلم والدين محمد بن محبوب — فبايعوا الصلت بن مالك على ما بويع عليه أئمة العدل من قبله . فسار بالحق والعدل ما شاء الله ، حتى فنى أشياخ
٢٨٤م المسلمين جملة الذين بايعوه ، لانعلم أن أحداً [منهم](٣) فارقة .

وعمر فى الإمامة مالم يعمر أحد قبله ، كبر وأسن وضعف . وإنما كان ضعفه من قبل الرجلين . وأما العقل والسمع والبصر ، فلا نعلم أن أحداً قال بهم(٤) ضعف .

فلما بلغ الكتاب أجله ، وأراد الله أن يختبر أهل عمان — كما اختبر الذين من قبلهم — سار إليه موسى بن موسى ومن معه ، حتى نزل فرق ، فتخاذلت الرعية عن الصلت ، وضعف عن الإمامة ، واعتزل عن بيت الإمامة . فعقد موسى الإمامة لراشد بن النظر ، يوم الخميس ، وثلاث ليال خلون من شهر الحج ، سنة ثلاث وسبعين ومائتين .

وكانت(٥) إمامة الصلت خمسا وثلاثين سنة وسبعة أشهر وثمانية أيام .

---

(١) فى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٣٢) « والشيخ بشير » .
(٢) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .
(٤) فى الأصل (بهما) .
(٥) فى الأصل (وكان) .

وكانت وفاته ليلة الجمعة للنصف من ذى الحجة سنة خمس وسبعين ومائتين . وفى أيامه توفى الإمام فى العلم ، العالم محمد بن محبوب ، رحمه الله .

تجدد الفتن وإمامة عزان بن تميم الخروصى :

ثم وقعت الفتنة فى عمان ، وكثرت المحنة ، واختلفوا فى دينهم ، وافترق رأيهم ، سنة ٢٨٥ ، ووقعت بينهم البراءة ، وعظمت الاحن ، واشتدت العداوات . وكثرت بينهم السير والأقوال ، وعظم القيل والقال ، واشتد بينهم القتال .

ثم إن موسى برئ من راشد وفسقه وضلله ، وثار(١) عليه وعزله .

ثم ولى عزان بن تميم الخروصى يوم الثلاثاء ، لثلاث ليال خلون من شهر صفر . سنة سبع وسبعين ومائتين . وممن حضر البيعة [موسى بن موسى ابن على](٢) وعمر بن محمد القاضى ، ومحمد بن موسى بن على ، وعزان ابن الهزبر(٣) ، وأزهر بن محمد بن سليمان .

[وعزل عزان بن تميم عامة ولاة راشد بن النظر ، وأثبت موسى ابن موسى على القضاء](٤) . فلبث موسى وعزان ولبين لبعضهما بعض ماشاء الله من الزمان ، حتى وقعت بينهما(٥) الاحن ، فعزل [الإمام](٦) عزان [بن تميم](٧) ؛ موسى عن القضاء .

---

(١) فى الفتح المبين لابن رزيق ص ٢٣٣ (صال عليه) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ، ص ٢٤٣) .

(٣) فى الأصل (عزان بن الهزيم) . والصيغة المثبتة تكررت فى تحفة الأعيان .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى ، من تحفة الأعيان السالمى ، ص ٢٤٣ .

(٥) فى الأصل (بينهم) .

(٦ ، ٧) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

وتخوّف عزان من موسى ، فعاجله بحبس أطلق فيه كافة المسجونين ، فساروا إلى أزكى ؛ فدخلوا حجرة النزار (١) ، ووضعوا على أهل أزكى ، يقتلون ويأسرون ويسلبون وينهبون . وأضرموا فيها النيران ، فحرقوا أناسا وهم أحياء . وقتل موسى بن موسى مع حصيات الردة التى عند مسجد الحجر من محلة الجبور (٢) . وفعلوا فى أهل |م٢٨٦| أزكى (٣) مالم يفعله أحد ، فيما سمعنا .

فاشتدت الفتن ، وعظمت الضغائن (٤) والأحن . وجعل كل فريق يطلب إساءة صاحبه بما قدر . وأوى عزان المحدثين من أصحابه ؛ وأجرى عليهم النفقات ، وطرح نفعه عن من تخلف عن المسير إلى أزكى . وكانت الوقعة يوم الأحد لليلة بقيت من شهر شعبان سنة ثمان (٥) وسبعين ومائتين .

فمن أجل هذه الوقعة ، خرج الفضل بن الحوارى لقرية النزار ، ثائرا لمن قتل من أهل أزكى . وطابقته على ذلك المضرية والحُدّان (٦) ، وناس من بنى الحارث من أهل الباطنة . ولحق به عبد الله الحدانى ؛ وخرج معه الحوارى بن عبد الله السلوتى ، ومضوا إلى صحار ، وذلك يوم سادس عشر شوال من هذه السنة . ودخلوا صحار يوم ثالث وعشرين من هذا

---

(١) حجرة بمعنى ناحية .

(٢) فى الأصل (الحبور) وهو تحريف . والجبور بطن من قبيلة خالد ، وهى من أقدم القبائل العربية المعروفة التى تقع منازلها على ساحل الخليج (كحالة : معجم قبائل العرب ، ص ١٦٣ ، ٣٢٧) .

(٣) فى الأصل (أزكا) .

(٤) فى الأصل (الضغاين) .

(٥) فى الأصل (ثمانى) .

(٦) هناك أكثر من بطن من القحطانية عرف بهذا الإسم . ولعل المقصود حدان بن شمس ، وهم بطن من شنوءة من الأزد من القحطانية . أنظر (القلقشندى : نهاية الأرب ؛ كحالة : معجم قبايل العرب).

الشهر — وذلك يوم الجمعة — وحضروا صلاة الجمعة . وصلى بالناس زين ابن سليمان ، وخطب الناس ودعا للحوارى بن عبد الله السلوتى على المنبر . وأقاموا فيها بقية الجمعة والسبت .

[م ٢٨٧] وخرجوا عشية الأحد لمحاربة الأهيف بن حمحام الهانى (١) ومن معه من أصحاب عزان بن تميم . وذلك أن عزان بن تميم لما سمع بخروجهم ، وجه إليهم الأهيف بن حمحام — رئيس بنى هناة — فى جماعة من اليحمد ، وفيهم فهم بن وارث . فساروا حتى بلغوا مجز من الباطنة ، وأرسلوا إلى الصلت بن النضر (٢) . وخرج إليهم فى جماعة من الخيل والرجال ، ووصل إليهم الفضل بن الحوارى ، والحوارى بن عبدالله . وأسرعوا فيهم [القتال](٣) فقتل من المضرية يومئذ خلق كثير ووقعت الهزيمة عليهم . وكانت هذة الموقعه يوم الاثنين لأربع ليالى بقين من شوال من هذه السنة المذكورة (٤) .

ولم تزل الفتن تتراكم بين أهل عمان ، ويزيد بينهم الأحن . وصار أمر الإمامة بينهم لعبا ولهوا وبغيا وهوى . ولم يقتفوا بكتاب الله ، ولا السلف الصالح من آبائهم وأجدادهم ، حتى أنهم عقدوا فى عام واحد ست عشرة بيعة(٥) ، ولم يفوا بواحدة حتى بلغ الكتاب أجله .

[م ٢٨٨] [ثم](٦) خروج محمد بن القاسم وبشير بن المنذر — من بنى

---

(١) فى الأصل (المناوى) .

(٢) فى الأصل (صلت بن النظر) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٢٥٢) والفتح المبين لابن رزيق ص ٢٣٤ .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٣٤) .

(٤) سنة ٢٧٨ هجرية .

(٥) فى الأصل (ستة عشر بيعة) .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

سامة بن لوى بن غالب [وهم من عشيرة موسى بن موسى] (١) وقصدوا إلى البحرين ، وكان يومئذ محمد بن بور عاملا [عليها] (٢) للمعتضد (٣) فلما قدما إليه شكيا إليه ما أصابهما من الفرقة الحميرية . وسألاه الخروج معهما إلى عمان ، وأطمعاه فى أشياء كثيرة ، فأجابهما إلى ذلك .

فأشار عليهما أن يذهبا إلى الخليفه ببغداد ، ويذكرا له أمرهما ، وأنهما قدما يريدان نصرته . فسار محمد بن القاسم إلى بغداد [وقعد بشير بن المنذر](٤) مع محمد بن بور . فلما وصل [محمد بن القاسم إلى الخليفة المعتضد](٥) ذكر له الأمر ، وإستخرج منه لمحمد بن بور عهداً إلى عمان ، ورجع إلى البحرين .

فلما قدم [محمد بن القاسم] على محمد بن بور ، [أخذ محمد بن بور](٦) فى جمع العساكر من سائر (٧) القبائل ، [وخاصة من نزار](٨) . وحصل (٩) معه ناسا من الشام من طىء(١٠) . وخرج يريد عمان فى

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٥٧) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٣) فى الأصل (للمقتصد (. ويبدو أن الإسم اختلط على الناسخ لأنه كتبه وشطبه أكثر من مرة . ويفهم من سياق العبارة أن المقصود هو الخليفة العباسى المعتضد الذى ولى الخلافة عقب وفاة الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ ، وهى نفس الفترة التى يعالجها المؤلف .

(٤) ما بين حاصرتين تكملة لضبط المعنى ، من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٢٥٨) .

(٥) العبارة فى الأصل بها خلط ، نصها « فلما وصل محمد بن على ذكر له الأمر » .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٥٨) .

(٧) فى الأصل (ساير) .

(٨) فى الأصل (من خاصة نزار) .

(٩) فى الأصل (وجعل) . والصيغة المثبتة من الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٣٤) وتحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٥٨) .

(١٠) طىء بن أدد قبيلة عظيمة من كهلان من القحطانية ، تفرعت منهم بطون وأفخاذ =

خمسة وعشرين ألفا ، ومعه من الفرسان ثلاثة آلاف وخمس مائة فارس ، وعليهم الدروع والجواشن و[عندهم] (١) الأمتعة .

ثم اتصل خبره بعمان ، فاضطربت عمان ووقع بين أهلها الخلف [م ٢٨٩] والعصبية : وتفرقت آراؤهم (٢) وتشتت قلوبهم . فمنهم من خرج من عمان بأهله وماله ، ومنهم من أسلم نفسه للهوان لقلة احتياله. وخرج سليمان بن عبد الملك السليمي (٣) — ومن اتبعه إلى هرموز . وخرج أهل صحار بأهلهم وأموالهم إلى شيراز والبصرة .

وقدم محمد بن بور بجنوده وعساكره،وافتتح جلفار ، ووصل إلى توام واستولى على السر و نواحيها ، وقصد نزوى . وتخاذلت الناس عن عزان بن تميم ، وخرج من نزوى إلى سمد الشان (٤) .

ووصل محمد بن بور إلى نزوى (٥) ، وسلمت له نزوى . ثم مضى قاصدا إلى سمد [الشان] (٦) ، فلحق (٧) عزان بن تميم . فوقع بينهما الحرب والقتال ، واشتد الطعن والنزال . وذلك يوم الأربعاء لخمس وعشرين من شهر صفر من هذه السنة (٨) . فكانت الهزيمة على أهل عمان ، وقتل عزان بن تميم ، وخرجت عمان من يد أهلها . ولم يغير الله مابهم، بل غيروا مابأنفسهم .

= عديدة. كانت منازلهم باليمن ، فخرجوا منه على أثر خروج الأزد منه وانتشروا فى الحجاز والشام والعراق ومصر . (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، القلقشندى : نهاية الأرب) .

(١) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٢) فى الأصل (آرائهم) .

(٣) فى الأصل (السلمى) .

(٤) قرية فى الإقليم الشرقى ، على الجانب الأيسر لوادى سمد .

(٥) فى الأصل (ووصل بن محمد بن بور) وهو تحريف فى النسخ .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٧) فى الأصل (فحلف) وهو تحريف فى النسخ .

(٨) سنة ٢٨٠ هجرية .

وكان قتالهم وحربهم ونيتهم طلبا للملك ، | م ٢٩٠ | ورغبة فى الرئاسة (١) ، وكل منهم يود أن يكون الملك بيده، أو بيد من مال إليه بودّه، فسلط الله من هو للملك أطلب منهم . وأفسدوا دينهم ، فنزع الله عنهم دولتهم ، فسلط عليهم عدوهم . وكانت دولة الأباضية منذ ملكوها إلى أن خرجت من أيديهم مائة سنة وثلاث وستون سنة إلا شهرا واثنى عشر يوما، والله أعلم(٢) .

وبعث محمد بن بور برأس عزان بن تميم إلى الخليفة [المعتضد] ببغداد. ورجع محمد بن بور إلى نزوى ، وأقام بها .

ثم إن الأهيف بن حمحام الهنائى (٣) كاتب مشايخ عمان وقبائلها (٤) من كل مكان ، يدعوهم إلى مقاتلة (٥) محمد بن بور ، ويحثهم على إخراجه من عمان . فأجابوه ، وأقبلوا إليه ، فسار بعسكر ضخم وجيش جرار يريد محمد بن بور . وبلغ ذلك محمد بن بور ، فدخل الرعب فى قلبه . فخرج هاربا ، فتبعه الأهيف بعساكره . وكان الرأى الصائب (٦) أن لا يلحقوه بل يسيروا خلفه رويدا رويدا ، حتى يخرج | م ٢٩١ | من عمان ويرجعوا .

وكان لله إرادة ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا . فساروا سريعا حتى لحقوه بدما . واقتتلوا قتالا ، حتى كثر القتل والجراح فى الفريقين . وقد كادت

---

(١) فى الأصل (الرياسة) .

(٢) فى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٣٦) : فكانت دولة الأباضية مذ ملكوها إلى أن خرجت من أيديهم مائة سنة وستين سنة إلا شهرا وإثنى عشر يوماً ، والله أعلم .

(٣) فى الأصل (الهناوى) .

(٤) فى الأصل (وقبايلها) .

(٥) فى الأصل (مقابلة) .

(٦) فى الأصل (الصايب) .

تكون الهزيمة على محمد بن بور ، وقد ألجأوه إلى سيف البحر [من السيب] (١) .

فبينما هم كذلك ، إذ طلع عليهم ركب من أهل قدمه وغيرهم من المضرية — على كل جمل رجلان — من قبل أبى عبيدة بن محمد السامى (٢) ، مدداً لمحمد بن بور — فلما كانوا قريبا من العسكرين ، نزلوا عن رواحلهم وأخذوا أسلحتهم ، وحملوا مع محمد بن بور على الأهيف وأصحابه عند إعياء الناس ، بعدما كادت تكون الهزيمة على محمد بن بور . فوقعت الهزيمة على أهل عمان ، فقتل الأهيف بن حمحام وغيره خلق كثير من عشيرته . ولم يسلم من أهل عمان إلا من تأخر أجله . (٣)

ورجع محمد بن بور إلى نزوى ، واستولى على كافة عمان ، وفرق أهلها ، وعاث فى البلاد ، وأهلك بقية الحرث والأولاد . وجعل أعزة أهلها أذلة ، | م٢٩٢ | وقطع الأيدى والأرجل والآذان ، وسمل الأعين وجعل على أهلها النكال والهوان ، ودفن الأنهار ، وأحرق الكتب . وذهبت عمان من أيدى أهلها .

ثم إنه أراد الرجوع إلى البحرين ، فجعل عاملا على عمان ، يقال له

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٣٦) .
والسيب مدينة على ساحل الباطنة قرب مسقط .

(٢) فى الأصل — وكذلك فى كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٣٦) — (الشامى) . والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٢٦١) .
ذكر بن خلدون « كانت بها (عمان) فى الإسلام دولة لبنى سامة بن لؤى بن غالب .. أولهم محمد بن قاسم السامى ، بعثه المعتضد وأعانه ، ففتحها ... » . والمقصود بهم بنو سامة ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .
(أنظر القلقشندى : نهاية الأرب ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، كحالة : معجم قبائل العرب) .

(٣) كان ذلك سنة ٢٨٠ هجرية .

أحمد بن هلال ورجع هو إلى البحرين . وجعل أحمد عاملا على سائر(١) عمان ، وكانت إقامته ببهلا (٢) . وجعل على نزوى عاملا يقال له بيحرة — ويكنى أبا أحمد — فقيل له ذات يوم : إن أبا الحوارى ومن معه من الأصحاب يبرءون من موسى بن موسى . فأرسل إلى أبي الحوارى جنديا ، فوصل إليه الجندى وهو قاعد فى محراب مسجد ابن سعيد — المعروف بأبى القاسم ، وهو مسجد الشجبى — بعد صلاة الفجر يقرأ القرآن فقال : إن أبا أحمد يقول لك سر إليه فقال أبو الحوارى : لا حاجة لى به . وأخذ فى القراءة . فبقى الجندى متحيرا لا يدرى كيف يفعل به ، حتى جاءه رسول البيحرة ، فقال له : لا تحدث فى أبى الحوارى حدثا . وذلك ببركة القرآن العظيم . وبلغنى أن ذلك الجندى قال [م ٢٩٣] : إنما دعوته ليقوم لئلا يطش (٣) دمه فى المحراب .

ولم يزل البيحرة عاملا على نزوى حتى قتلوه وسحبوه . وقبره (٤) معروف عندهم ، بأسفل من باب موثر (٥) قليلا ، فى لجية (٦) هنالك ، على طريق الحائز (٧) التى تمر على فرق ، يطرحون عليه السماد والجذوع ، والله أعلم .

ثم بايعوا محمد بن الحسن الخروصى على الشراء (٨) ثم اعتزل . ثم

---

(١) فى الأصل (ساير) .

(٢) وتكتب أيضاً (بهلى) غربى نزوى بالداخل .

(٣) يطيش ، بمعنى يذهب ويتبدد .

(٤) أى قبر بيحرة .

(٥) فى الأصل (موثر) .

(٦) فى الأصل (لحية) .

(٧) فى الأصل (الجايز) .

(٨) كان الأئمة يقسمون غالباً إلى ثلاثة أقسام : الإمام الشارى وهو الإمام الذى يتمتع بالثقة المطلقة من قبل أتباعه جميعاً ويحظى بإجماعهم على إمامته . وإمام الدفاع ، وهذا يختار =

بايعوا الصلت بن القاسم الخروصي ، ثم عزلوه . ثم بايعوا عزان بن الهزبر المالكي ، من كلب (١) اليحمدى ، ثم عزلوه . ثم عقدوا لعبد الله بن محمد الحدانى ، المعروف بأبي سعيد القرمطي(٢) ثم عزلوه . ثم عقدوا للصلت ابن القاسم ثانية ، ومات في الإمامة. ثم بايعوا الحسن بن سعيد السحتني ، فلبث(٣) أقل من شهر ومات . ثم عقدوا للحوارى بن مطرف الحدانى على الدفاع (٤) وكان [قد] أخذ على أيدى الفساق والسفهاء من أهل عمان أخذاً شديدا ، إلا أنه كان إذا جاء السلطان [العراقى] (٥) إلى عمان يحيى أهلها ، اعتزل

= فى الظروف الحرجة الصعبة ، يختاره أعلام القوم ليلم الشعث ويوحد الصفوف ويقودهم إلى المعركة ، وربما لا تتوافر فيه كل الشروط الواجب توافرها فى الإمام . وبعد القضاء على الخطر ينظر فى إمامته فإما أن يبقى وإما يطلب منه الاعتزال . أما النوع الثالث فهو الإمام الضعيف الذى يكون بحاجة إلى مشورة علماء المسلمين وفقهائهم . وغالباً ما كانوا يزهدون فى مبايعة إمام ضعيف ، ويعودون — خلال الفترة التى لا يوجد فيها إمام — إلى كبار العلماء لحل مشاكلهم .

(عمان : تاريخ يتكلم ، تاليف محمد بن عبد الله السالمى وناجى عساف ، ص ١٢٧ — ١٢٨)

(١) كلب ، بطن من اليحمد من الأزد من القحطانية .

(الاشتقاق لابن دريد ، ومعجم قبائل العرب لكحالة) .

(٢) حركة القرامطة حركة هدامة ، ذات طابع سياسى اجتماعى اقتصادى ، اتخذت من الدعوة الإسماعيلية قناعاً تسترت خلفه.نسبت إلى أحد زعمائها وهو حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط . ظهرت دعوتهم فى الكوفة وجنوب العراق بعد منتصف القرن الثالث للهجرة ، وامتدت دعوتهم إلى اليمن والشام والبحرين . وفى سنة ٣١١ هـ غزا القرامطة البصرة ،وقطعوا الطريق على حجاج بيت الله الحرام . ثم قاموا سنة ٣١٧ هـ بغزوتهم الشهيرة التى نهبوا فيها مكة وهتكوا حرمتها واختطفوا الحجر الأسود ونقلوه معهم إلى الأحساء . وقد أحدث القرامطة هزة عنيفة فى جسم الدولة الإسلامية حتى حلت بهم الهزيمة فى العراق سنة ٣٧٥ هـ ، وهى نفس السنة التى شهدت أيضاً نهاية نفوذهم فى عمان ، على قول ابن خلدون .

(تاريخ الطبرى ، صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ، مروج الذهب للمسعودى ، المنتظم لابن الجوزى ، الكامل لابن الأثير ، تاريخ ابن خلدون ، ومن المراجع الحديثة أنظر : دى خويه : القرامطة ، ترجمة وتحقيق حسنى زينه) .

(٣) فى الأصل (ثم لبث) .

(٤) فى تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٦٧) : وبويع على ما بلغنا على المدافعة .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من الشعاع الشائع لابن رزيق (ص ٥٩) . وقد جاء فى الأصل =

من بيت الإمامة إلى بيت نفسه ، | م٢٩٤] ولم يمنعه من ظلمه وبغيه . فإذا خرج السلطان رجع هو إلى بيت الإمامة ، ووضع تاج الإمامة على رأسه ، وقال لمن حوله : لا حكم إلا لله ، ولا طاقة لمن عصى الله . وكان قائما له بالأمر عند السلطان ناس من بنى سامة ، إلى أن مات . وهذا السلطان هو سلطان بغداد .

ثم عقدوا لابن أخيه عمر بن محمد بن مطرف ، وكان على سبيل عمه ، إذا جاء السلطان اعتزل ، وإذا رجع السلطان ، رجع إلى بيت الإمامة . ثم جاءت القرامطة إلى البحرين ، فلم يرجع عمر إلى بيت الإمامة .

وكانت القرامطة قد تغلبت على سائر (١) البلدان ومكة والشام ، وسائر القبائل . وهم بنو أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنابى (٢) . وقد أبطل

= بعد قليل — ما نصه (وهذا السلطان هوسلطان بغداد) . وربما قصد به بعض القادة والأمراء من ارتبطوا فى صورة أو أخرى بالخلافة العباسية فى ذلك الدور ، قبيل ظهور معز الدولة بن بويه الذى شغل منصب السلطنة فى بغداد طوال اثنتين وعشرين سنة (٣٣٤ — ٣٥٦ هـ) ، استبد فيها بالسلطة دون الخليفة العباسى ، وخطب له فى عمان . هذا ، والمقصود بالسلطان بوجه عام عند الأباضية ، غير الأئمة من الأمراء الجائرين ، الذين لا يتمتعون ببيعة الأمة .

(١) فى الأصل (ساير) .

(٢) فى المتن (الجيانى) وهو تحريف فى النسخ . وهو أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى ، داعى القرامطة فى جنوب فارس (ابن حوقل : المسالك ص ٢١٠) بعثه قرمط إلى البحرين لبث الدعوة ، فصادف نجاحاً كبيراً (ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٤٠) ، وكان ذلك حوالى سنة ٢٨٥ — ٢٨٦ هـ . ومن هناك هاجم البصرة ، وانتصر على جيوش الخلافة العباسية ، كما حاصر هجر عاصمة البحرين ، واستولى عليها ، ثم أخذ يمد نفوذه على اليمامة وعمان . ويرجح أن أبا سعيد اغتيل فى قصره بالأحساء سنة ٣٠١ هـ ؛ وأن غزو عمان تم سنة ٣١٨ هـ — بعد اختطاف الحجر الأسود — وذلك فى عهد أبى طاهر الجنابى الذى عينه أبو سعيد خلفاً له . وفى سنة ٣٤٠ — ٣٤١ هـ ساعد القرامطة صاحب عمان فى محاولة الاستيلاء على البصرة . . أنظر : (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٠٤ ، وكتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق — تحقيق عمر السعيدى ، ج ٤ ، ص ٤٦٥) .

الصلاة والصيام والحج والزكاة ، وزخرف عليهم وموه على الضعفاء ، حتى أنهم يتألهونه من دون الله تعالى .

وكان سبب زوال ملكه على يد عبد الله بن على ، وكان قيامه عليه بأربع مائة رجل . وكانوا فى عساكر جمة وجنود [٢٩٥م] كثيرة ، فلبث فى محاربتهم سبع سنين ، حتى أنتزع الدولة منهم . وفى ذلك يقول حماد بن عبد الله (١) — شعرا : .

سل القرامط من شظى جماجمهم
فلقا وغادرهم بعد العلا خدما (٢)
من بعد أن حل بالبحرين شأنهم
وأرجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشى سنا بكها
أرض العراق وتغشى تارة أدما
وحرقوا عبد قيس فى منازلها
وصيروا الغر من ساداتها حمما (٣)
وابطلوا الصلوات الخمس ، وانتهكوا
شهر الصيام ونصبوا بينهم صنما (٤)
وما بنوا مسجداً لله نعرفه
بل كل ما وجدوه قائما هدما (٥)

---

(١) كذا جاء الإسم فى الأصل . أما ابن رزيق (الشعاع الشائع ، ص ٦٠ ، والفتح المبين ص ٢٣٩) فقد ذكره (جمال الدين عبد الله بن على بن مقرب) . وفى تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٦٧) ابن مقرب .

(٢) فى الأصل (شظا جماجمهم) .

(٣) فى الأصل (العز ، وجمما) .

(٤) فى الفتح المبين لابن رزيق (ونضوا بينهم صنما) .

(٥) فى الأصل (بكل ما وجدوه) .

حتى حمينا على الإسلام وانتدبت
منا فوارس تجلو الكرب والظلما
وطالبتنا بنو الأعمام عادتنا
فلم تجد بكما فينا ولا صمما
وقلدوا الأمر منا ماجدا نجدا
يشفي ويكفي إذا ما حادث دهما
ماضي العزيمة ميمون نقيبته
أعلا نزار إلى غاياتها هِمما (١)
وسار تتبعه غر غطارفة
لو زاحمت سد ذي القرنين لانثلما

هذه الأبيات من قصيدة له طويلة .

ثم كانت في عمان سنون فترة(٢) من عقد الإمامة [حتى عقدوا](٣) لمحمد [م٢٩٦] بن يزيد الكندي ، النازل سمد الكندي ، بايعوه على الدفاع . [وكان قد](٤) أعتل عن بيعة الشراء [لأن](٥) عليه ديونا .

ثم انقلب السلطان [البغدادي](٦) على عمان فحاصره بعسكرين ، عسكر بالسر وعسكر بالعتيك(٧) .

---

(١) في الأصل (أعلا نزال) .

(٢) فترة : هي المدة التي تقع بين زمنين أو نبيين . والمقصود بها في المتن سنون شاغرة من الإمامة .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الشعاع الشائع (ص ٩١) ومن الفتح المبين (ص ٢٣٨) لابن رزيق .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لسياق المعنى .

(٥) في الأصل (أن) .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٣٩) .

(٧) انظر تحفة الأعيان للسالمي (ج ١ ، ص ٢٦٩) .

ثم هرب محمد بن يزيد الكندى من عمان، فاعقدوا الأمامة للحكم بن الملا البحرى، النازل معلى . فلا نعلم أن إماما من أهل القبلة — مسلما ولا مجرما — كان فى الضعف والوهنة ، كمثل الحكم بن الملا . ثم إنه اعتزل عن الإمامه وأقام السلطان عسكرا بنزوى .

وفيا أظن أن الأئمة المذكورين من بعد الصلت بن مالك ، لم تدن لهم عمان ، ولم يجر سلطانهم فيها . وإنما كانوا فى بعض البلدان منها دون بعض ، وعلى أحد من القبائل دون أحد . ولم تأتلف كلمة أهل عمان ، ولا اجتمعوا على إمام من بعد الفتن التى وقعت بينهم . وذلك لما بدلوا نعمة الله ، فشتت قلوبهم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم(١) » وقوله تعالى « وما أصابكم [٢٩٧م] من مصيبة فبما كسبت أيديكم »(٢) وقال « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم »(٣) . وفى الحديث « كما تكونوا يولى عليكم » .

---

(١) سورة الرعد ، آية ١١ .

(٢) سورة الشورى ، آية ٣٠ .

(٣) سورة يونس ، آية ٢٣ .

ذكر الإمامين ومن بعدهم من الأئمة المنصوبين في عمان بعد ما اختلفت كلمتهم

الإمام سعيد بن عبد الله :-

سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة [القرشي](١) . وسيف بن هبيرة [هذا](٢) كان فارسا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم أعلم له(٣) تاريخا : متى وقعت العقدة له ، ولا كم أقام في الإمامة(٤) . ووجدت أن أول من عقد للإمام سعيد بن عبد الله [هو أبو محمد](٥) الحوارى بن عثمان ، ثم عبد الله بن محمد بن ابي المؤثر : وكانت بيعته على الدفاع(٦) .

وبلغنا عن محمد بن روح — رحمه الله — أنه قال :

كان الإمام سعيد بن عبد الله أعلم الجماعة العاقدين له ، والذين كانوا

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٧٥) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

(٣) أى للإمام سعيد بن عبد الله .

(٤) جاء فى تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٧٥) ما نصه « غير أن ظاهر الحال يقضى بأن بيعته كانت فى السنة العشرين بعد الثلاثمائة) » .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة لإيضاح المعنى .

(٦) جاء فى كتاب (عمان : تاريخ يتكلم : تأليف محمد بن عبد الله السالمى وناجى عساف ص ١٢٧) ما نصه : « وإمام الدفاع ينتخب فى الظروف الحرجة التى يعم بها الخطر ، فيختار أعلام المسلمين رجلا من الأبطال ليلم الشعث ويوحد الصفوف ويقودهم إلى المعركة ، وربما لم تتوفر فيه كل الشروط التى يجب توافرها فى الإمام ، وإذا استطاع رد العدو ودحره نظر فى إمامته فإما أن يبقى أو يطلب منه الإعتزال فيعتزل ، وإذا رفض أن يعتزل بنفسه يقتل أو يطرد قسرا » .

معه . وقد تظاهرت الأمور معنا من أهل الدار ممن ينتحل نحلة الحق على الإجماع على ولايته . وهو ولينا وإمامنا ، رحمه الله .

ولم نعلم أن أحدا تكلم فى عقد إمامته بعيب ، ولا فى [م٢٩٨] سيرته ، ولا ترك ولايته .

وقد عرفنا عن عبد الله بن محمد بن أبى المؤثر — رحمه الله — أنه قال : لا نعلم فى أئمة المسلمين كلهم بعمان أفضل من سعيد بن عبد الله ، كان إمام عدل ، وعالما ، وقتل شهيدا . وجمع ذلك كله ، رحمه الله . إلا أن يكون الجلندى بن مسعود مثله ، أو يلحق به .

وعرفنا عن الشيخ محمد [بن سعيد](١) بن أبى بكر — رحمه الله — أنه قال : إن الإمام سعيد بن عبد الله أفضل من الجلندى بن مسعود ، وما أحقه بذلك . إنه كان إماما عادلا صحيح الإمامة ، من أهل الاستقامة ، عالما فى زمانه ، يفوق أهل عصره وأوانه .

ووجدت تاريخا للوقعة التى قتل فيها الإمام سعيد بن عبد الله — رحمه الله — سنة ثمانى وعشرين بعد ثلاث مائة ، والله أعلم . وسبب هذه الوقعة كانت امرأة من الغشب من الرستاق ، مدوحة حبا على الشمس(٢) ، فجاءت شاه وأكلت الحب . فرمتها بحجر فكسرت يدها . فجاءت صاحبة الشاه ، فجعلت تضرب المرأة التى [م٢٩٩] رمت الشاة واستغاثت [هذه الأخيرة](٣) بجماعتها ، فجاء أحد من جماعتها ، وجاء أحد من جماعة المرأة الأخرى . فكان كل فريق يثيب(٤) فريقه ، ووقعت بينهم صكه(٥)

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق(ص ٢٤٠) وكتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٧٦) .

(٢) أى نشرت حبا ليجف فى حرارة الشمس .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٤) أثيبوا أخاكم أى جازوه على صنيعه ، يقال اثابه يثيبه إثابة ، والمقصود هنا ناصره .

(٥) معركة ومشاجرة وتلاحم .

عظيمة . فجاء الإمام سعيد بن عبد الله – ومعه أحد من عسكره – على معنى الحاجزين بين الفريقين ، فقتل فى تلك المعركة .

الإمام راشد بن الوليد :

ثم من بعده ولى راشد بن الوليد . ذلك أنه اجتمع الشيخ عبد الله بن محمد ابن أبى المؤثر ، والنعمان بن عبد الحميد ، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن صالح ، وأبو المنذر بن أبى [بن](١) محمد بن روح . وكان هؤلاء فى تلك الجماعة التى حضرت فى ذلك الوقت ، وهم المنظور إليهم والمشار عليهم ، كنحو كانت الجماعة التى حضرت البيعة للإمام سعيد بن عبد الله فى زمانهم وأيامهم ، لاينكر أهل المعرفة فضلهم ، ولا يجهلون عدلهم ، ولا يجدون فى حضرتهم من أهل نحلتهم مثلهم . ولكل زمان رجال ، ولكل مقام مقال . وكل أهل طرف فى زمن من الأزمنة مؤتمنون على جميع دينهم . بذلك
أم٣٠٠ جاء الأثر ؛ والحجة ممن حضر قائمة على من غاب أو شهد . وليس للشاهد أن يغير ، ولا للغائب (٢) أن ينكر ، ولا للداخل أن يخرج ، ولا للقائل(٣) أن يرجع .

فاجتمعوا فى بيت كان ينزل فيه راشد بن الوليد بنزوى . وكان المقدم فيهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبى المؤثر . فاجتمعوا جميعا على الواقف عن موسى بن موسى وراشد بن النظر (٤) ، والمتبرئ منهما جميعا فى الولاية(٥) .

---

(١) الإضافة لتصحيح الإسم من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٨٠) .

(٢) فى الأصل (للغايب) .

(٣) فى الأصل (للقايل) .

(٤) النضر .

(٥) أى اجتمعوا على المأثور عن موسى بن موسى وراشد بن النظر فيما يتعلق بالولاية . (أنظر ما سبق) .

ثم بايعوا الإمام راشد بن الوليد على سبيل الدفاع . وخرجوا إلى الناس بالبطحاء من نزوى فى جماعة من أهل عمان : من نزوى ومن سائر (١) القرى ، من شرق عمان وغربها ، ومن أهل العفاف منهم والفضل والجاه والرئاسة (٢) مستمعون لذلك مطيعون. لم يظهر لأحد منهم كراهية ولا نكيرة.

ثم قام أبو محمد عبد الله بن محمد بن [أبى] (٣) شيخة على رأسه خطيبا بين الجماعة . فخطب له بالإمامة ، وأخبر الناس ، وأمرهم بالبيع له ، فبايع الناس له شاهرا ظاهرا ؛ لا ينكر ذلك من الناس منكر ، و [م ٣٠١] ولا يغير منهم مغير (٤)

ودخل الناس فى بيعته أفواجا . ووفد على ذلك الوفود ، وأخذ عليهم المواثيق والعهود . وبعث العمال والولاة على القرى والبلدان . وصلى بنزوى الجمعات . وقبض هو وعماله الصدقات . وجهز الجيوش وعقد الرايات وأنفذ الأحكام ، وجرت له فيما شاء الله من المصر الأقسام .

ولم يبق بلد من عمان لم يغلب عليه السلطان ، أو نأى (٥) عنه فى تلك الأيام وذلك الزمان إلا جرت فيه أحكامه ، وثبتت عليهم أقسامه ، وأقر فى ظاهر الأمر أنه إمامه . من غير أن يظهر منه [فى] (٦) شئ من سيرته ، ولا علانيته ولا سريرته ، ، شدة و[لا] (٧) غلظة يخاف بها ويتقى ولا هوادة ولا ميل يطمع فيه بذلك ويرتجى ، فيصانع عن تقية ،

---

(١) فى الأصل (ساير) .
(٢) فى الأصل (الرياسة) .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٢٨٠) .
(٤) فى الأصل (مغيرهم) .
(٥) فى الأصل (ناءعنه) .
(٦) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .
(٧) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

[أو](١) يخدع لطمع أو رجيه .

بل كان — رحمه الله — للرعية هينا ، رفيقا بآرائهم ، شفيقا غضيضا(٢) عن عوراتهم ، مقيلا لعثراتهم . بعيد الغضب عن مسيئهم قريب الرضى عن محسنهم . مساويا فى الحق [م٣٠٢] بين شريفهم ودنيهم وفقيرهم وغنيهم ، وبعيدهم وعسيرهم . منزلا لهم منازلهم ، متفقدا لأمورهم وأحوالهم . مشاوراً لمن هو دونه منهم ، قابلا من مشاورتهم مايأمرونه .

فلم يزل على ذلك ، يتجشم من رعيته الصبر على الكروب ، ومفارقة السرور والمحبوب . ويصبر على الشتم والأذى ، ويسمع منهم الخنا والقذى (٣) . وهو يتأنى فى تلك الأمور ، ويرجو من الله الدائرة (٤) أن تدور .

وكثير من أهل مملكته ومصره يتربصون به الدوائر (٤) ، ويسرون له أقبح السرائر (٥) . تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ، وما تخفى صدورهم من الغل والحسد أعظم واكبر . وقد استحوذ عليهم الشيطان ، وغلبت (٦) عليهم العداوة والشنآن . حتى آلت به الأمور ، وجرت عليه من الله المقدور : أن ظهر من عامة رعيته التخلف عنه والخذلان . وظهر من

---

(١) فى الأصل (ولا يخدع) .

(٢) فى الأصل (غظيظاً) . جاء فى لسان العرب : غض طرفه وبصره ، يغضه غضاً وغضاضاً وغضاضة ، كفه وخفضه .

(٣) فى الأصل (القذا) ؛ أى يسمع منهم الفحش والعيب .

(٤) فى الأصل (الدايرة) .

(٥) فى الأصل (السراير) .

(٦) فى الأصل (وغلب) .

خواصة المعاندة والعصيان ، والمداهنة عليه للسلطان (١) والمباشرة له بذلك | م٣٠٣ | بالقول واللسان .

وخرجوا إلى السلطان مظاهرين ، وتأبوا إلى ذلك متناصرين . فمنعهم عن ذلك جبرا ، وقسرهم على التخلف عن ذلك قسرا . فوقع بينه وبين عامتهم العداوة والشحناء . وفارقوه على ذلك من قرية بهلا مغتضبين ، معاندين له على ذلك محاربين . متوحدين عليه فى ذلك متعنتين . وقد سار السلطان بالسير مقبلا ، وهو (٢) فى نفر من الضعاف أقلاء (٣) ، وقد انفضت جماعتهم ، وصحت معه عداوتهم . وإنما خرج من نزوى فى ردهم عن خروجهم ذلك فى حرب العدو المقبل عليه .

فلما رأى مانزل به من الحالات ، وبان له من العداوة والعصيان . واستضعفت نفسه ومن معه عن لقاء السلطان ، وخاف أن يدهموه على المكان ، تحيز (٤) بمن معه من بهلا إلى كدم . ورجا (٥) أن يكون قد إستوثق لنفسه فى ذلك وحزم .

فلم يزل بكدم (٦) ، حتى صح معه أنهم دخلوا الجوف (٧) ، فداخله ومن | م٣٠٤ | معه من الضعفاء الخوف . فانحازوا هناك إلى وادى

---

(١) عمل العباسيون فى عهد الإمام راشد على ضم عمان وفرض سيطرتهم الفعلية عليها . وعندما تصدى الإمام لهم مدافعاً عن استقلال بلاده خذله الناس وانصرفوا عنه ، فحلت به الهزيمة وهرب إلى الجبال ، ثم مات سنة ٣٤٢ هـ . وانقطع بموته عهد الإمامة .

(٢) يعنى الإمام راشد بن الوليد .

(٣) فى الأصل (وهو فى نفر من الضعفاء فى الضعاف أقلاء) .

(٤) فى الأصل (فتحير) .

(٥) فى الأصل (ورجى) .

(٦) فى الأصل (فلم يزل بكلام حتى لعله بكدم) .

(٧) فى الأصل (الجرف) .

البحر (١) ودعا إلى حرب السلطان من حضرد ، واستنصر عليه من قدر عليه ونصره . واجتهد فى ذلك وصبر ، ودعا إلى ذلك واستنصر . وراح فى ذلك وأبكر ، وأقبل فى ذلك وأدبر . فأمده الله بمن أمده ، فأيدهم طاقته وجهده . فجيش (٢) إليهم أنصاره ، وأعانه [فى] الأمر [من] لاغناية له عنه من خاصته وإخوانه (٣) ، وقعد لهم فى مكانه .

وكان السلطان وأعوانه بنزوى نازلين . وكان (٤) تخلفه عن الحرب برأى من حضره من إخوانه ، وأهل صفقته . ورجا أن يكون فى تخلفه عز للإسلام وأهله ، وقوة لعدله ونصره . وكان تخلفه عن الجيش الذى بعثه (٥) السلطان الجائر (٦) بنزوى ، قريباً من المجازة إلى عقبة بيح .[و] لم يكن عنهم ببعيد ، فأتى الله بالمقدور ، وما قد علم الله أن تصير إليه تلك الأمور . فهُزم (٧) أنصاره ، وغُلبوا وولوا عنه ، وأدبروا مع ذلك وهربوا . فانفضت هنالك [م ٣٠٥] جماعتهم ، وزالت رايتهم . وخرج مخذولا مغلوبا ، خائفا (٨) يترقب مطلوبا . وكان ذلك ضحوة النهار . فلم يكن عشيا من يومه ذلك ، حتى انفض عنه جميع من كان معه . ووقعت الغلبة واليأس . وآيس مع ذلك من نصر الناس .

---

(١) هذا فى المتن ، وكذلك فى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٤٣) وفى تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٢٨٣) وادى التخز .

(٢) فى الأصل (فحسن) .

(٣) العبارة فى الأصل بها اضطراب ، ونصها (وأعانه الأمر لا غاية له عنه من خاصته وإخوانه) . وما بين حاصرتين إضافات لضبط المعنى .

(٤) يعنى الإمام راشد بن الوليد .

(٥) فى الأصل (الجيش إلى أن بعثه) .

(٦) فى الأصل (الجايز) .

(٧) فى الأصل (فهزموهم) .

(٨) فى الأصل (خايفاً) .

فاستولى السلطان الجائر (١) على جميع عمان ، من جميع النواحى والبلدان . وأقبل الناس فى المصانعات . وأقبل السلطان الجائر إليهم بالسخريات (٢) والمداهنات ، حتى دانت لهم النواحى .

والإمام خائف (٣) فى رءوس الجبال والمسافى (٤) ؛ مشفق من السلطان والرعية ، يترقب فى كل موضع نزول المنية . وأن تدهمه(٥) فى مرقده وفى منامه [بلية] (٦) . وأصبح خائفا (٧) على نفسه وماله . هاربا من دياره وعياله .

وأصبح جميع [أهل المصر](٨) قد أمنوا واطمأنوا فى منازلهم وكنوا وصانعوا سلطانهم وداهنوا . ولم يكن له (٩) من الاستسلام بد (١٠) ، إذ (١١) لم يكن له إلى غيره سبيل ولا جهد(١٢) ؛ فطالع فى أمره [م ٣٠٦] فاستشار ، واستشير له ذوى الأبصار . واتبع فى أمره فيما ظهر حكم الأبرار . واتخذ الرخصة من قول الأخيار .

---

(١) فى الأصل (الجايز) .
(٢) فى الأصل (بالسخريا) .
(٣) فى الأصل (خايف) .
(٤) المسافى : الأماكن الموحشة والمرتفعة ، حيث تسفى الريح رمالها وترابها .
(٥) فى الأصل (تهدمه) .
(٦) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٤٤) .
(٧) فى الأصل (خايفا) .
(٨) فى الأصل (من فى الحصن) والصيغة المثبتة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٤٤) وهى أكثر تمشياً مع المعنى .
(٩) أى للإمام راشد بن الوليد .
(١٠) فى الأصل (يد) .
(١١) فى الأصل (إذا) .
(١٢) فى الأصل (ولا جهدو) .

ومما لانعلم أنه فيه اختلاف ، أن الإمام المدافع تسعه التقية إذا خذلته الرعية . ولم يكن معنا أصح من هذا الخذلان ، ولا أبين من تلك العداوة وذلك العصيان . وما جعل الله [على عباده فى الدين من حرج] (١) . بل الصحيح معنا أنه قد جعل لكل مدخل من دينه باب مخرج . ولعل لعاجز عن فرض من فرائضه (٢) عذر وباب فرج . ولا فرق بين الإمام والرعية ، وكل منهم جاز عليه حكم القضية .

فألقى بيده (٣) إلى منزله ، واستسلم رجاءً أن يستر فيه ويسلم . فوصل إليه رسول السلطان إلى مكانه . يعطيه منه الميثاق بأمانه . فبلغنا أنه أعطاه ذلك بلسانه ، ولم يبلغنا أنه عرضه بيمين . ولا كان على باب السلطان من الوافدين ، ولا من القادمين عليه والواصلين . وإنما السلطان الذى وصل إليه ، واضطره إلى ذلك وجبره عليه . فزالت معنا بذلك [م ٣٠٧] إمامته ، وثبتت للعذر الواضح له ولايته .

ولا نعلم أن فى الأحكام ، ولا ما اختلف فيه من أمر الإمام ؛ أن راشد بن الوليد — رحمه الله — يلحقه لقائل(٤) فى إمامته مقال، ولاطعن ولا غبر (٥) فى حال من الحال . فلبث بعد ذلك قليلا محمودا ، ومات عن قريب من ذلك مفقوداً (٦) .

وكان راشد بن الوليد فى زمانه وأيامه ، وموضعه ومكانه : مع

---

(١) العبارة فى الأصل بها اضطراب ، نصها (وما جعل الله لعباده من جرح) .

(٢) فى الأصل (فرايضه) .

(٣) فى الأصل (يده) — يعنى الإمام .

(٤) فى الأصل (لقايل) .

(٥) تغبر الشىء تلطخ بالغبار ، وأغبر الشىء علاه الغبار . والمقصود أن سيرة الإمام كانت صافية ناصعة لا يوجد ما يغبرها .

(٦) سنة ٣٤٢ هـ .

رحامه و العاقدين له من أصحابه وأخوانه ، فى عامة أموره غريبا معدوما ، ولم يكن عند أحد من أهل الخبرة فى أموره معلوما ولامذموما . فجزاه الله عن الإسلام وأهله ، لما قد قام فيه من حقه وعدله ، وعنّا وعن جميع من عرف فضله ، بأفضل ماجزى إماما عن رعيته . وفضله كثير .

وكان أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي المؤثر قتل فى وقعة الغشب من الرستاق ، فى سيرة الإمام راشد بن الوليد ، وفى طاعته .

[وكان] زوال أمر الإمام راشد بن الوليد وقعة نزوى ، وعنها زالت ولايته | م ٣٠٨ | ، وانفضت جماعته ، وبان خذلان رعيته له ، ولزمته التقية ، وخاف من للسلطان على نفسه المنية — وكذلك الرعية — أن يقصدوه بالقتل رضاء (١) للسلطان .

ولم يرجو مستقراً فى موضع من عمان — من جلفار إلى حد رعوان — ، ولا فى جبال عطا ، ولا فى أرض الحدان والرستاق . فأدهى(٢) عليه وأمر ، وأعدى عليه من كل غدر وشر . والله أولى بالعذر من البشر(٣) وكل من عذره الله فى دينه فواجب أن يعذر ويعان فى ذات الله مما قد نزل به وينصر .

وكان راشد بن الوليد — رحمه الله — فيما ظهر إلينا فى أمره ظاهر الإيمان ، ظاهرا عليه شواهد الفضل والإحسان ، ناهيا (٤) عن الشر والبهتان ، صادق الفعال واللسان . ورعاً عن المحارم ، مجتنباً للمآثم ،

---

(١) فى الأصل (رضى) .

(٢) فى الأصل (فادها) .

(٣) فى الأصل (من أسرة) والصيغة المثبتة من الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٤٥) .

(٤) فى الأصل (نهيا) .

عاملا بما علم ، سائلا عما نزل به ونزم ، متواضعا لمن هو فوقه ، متعطفا عمّن هو دونه ، كاظما للغيظ ، بعيد الغضب ، سريع الرضى ، محتملا للأمة (١) . حريصا (٢) على إصلاح المسلمين ، رؤوفا /م ٣٠٩/ رحيما بالمؤمنين ، متوشحا بمكارم الأخلاق ، صبورا عند مضايق الخناق ، مستقيما على الحقيقة ، قاصدا قصد الطريقة . يضرب به الأمثال ، ويعجز الواصفون عن وصفه للمعال(٣) .

رحم الله تلك المهجة ، وتلك الأوصال . وتفضل علينا وعليه بالمنّ والأفضال . وجمعنا وإياه على جزيل الثواب ، فى ثوابه وكرامته . إنه أرحم الراحمين .

---

(١) فى الاصل (للأيمة) .

(٢) فى الأصل (حراصا) .

(٣) كذا فى الأصل ؛ وفى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٤٥) « عن وصفه بالمقال » .

ذكر الأئمة المعقود لهم بعمان (١)

— الخليل بن شاذان . ولعله كانت (٢) دولته فى بضع وأربع مائة سنة (٣) .

— ثم من بعده الإمام راشد بن سعيد ، ومات فى الشهر المحرم ، سنة خمس وأربعين وأربع مائة .

— ثم من بعده حفص بن راشد بن سعيد (٤) .

— ثم من بعده راشد بن على . ومات يوم النصف من القعدة فى سنة ست وسبعين وأربع مائة .

— ثم مات موسى بن أبى جابر المعالى بن موسى بن نجاد سنة تسع وأربعين وخمس مائة .

— ثم من بعده (٥) محمد بن خنبش . ومات سنة سبع وخمسين وخمس مائة . وقبر على فلج [م ٣١٠] الغنتق (٦) [من نزوى] (٧) عند جبل

---

(١) بعد موت الإمام راشد بن الوليد سنة ٣٤٢ ﻫ بقيت عمان خاضعة للولاة مدة خمسة وستين عاما حتى اختير الخليل بن شاذان إماماً .

(٢) فى الأصل (كان) .

(٣) ذكر السالمى فى تحفة الأعيان (ج ١ ، ص ٣٠٣) أن الخليل بن شاذان توفى سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، وأن مدة إمامته سبع عشرة سنة وبعض سنة تقريباً ، وبذلك تكون الإمامة قد عقدت له حوالى سنة سبع وأربعمائة .

(٤) لا يوجد تحديد لتاريخ وفاته ، ويبدو أنه ظل فى الإمامة مدة قصيرة .

(٥) عبارة (من بعده) هنا فيها شيء من التجاوز ، فهناك أئمة فى ذلك الدور لم يذكرهم المؤلف — أنظر تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٤٨) .

(٦) فى الأصل (العتيق) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٥٠) .

(٧) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٤٦) .

ذى الجيود (١) . وأصيب أهـــل عمان بموته بما لم يصابوا بأحد من قبله .

ثم عقدوا للامام مالك بن الحوارى سنة تسع وثمانى مائة . ومات سنة إثنتين وثلاثين وثمانى مائة (٢) .

فهذه مائتا سنة وبضع ، لم أجد فيهن تاريخ أحد من الأئمة ، والله أعلم . إنها كانت سنين فترة عن عقد الإمامة ، أو غاب عنى معرفة أسمائهم .

---

(١) فى الأصل (جبل ذى الجنود) وهو تحريف فى النسخ . جاء فى تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ، ص ٣٥٠) ما نصه : يقال لذلك الجبل ذو الجنود ، إذ كان له جروف بائنة من الصخور من أعراضه ، لا من أعاليه .

(٢) جاء فى كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٦٩) ما نصه إمامة : الحوارى ابن مالك ، وفى بعض الأثر مالك بن الحوارى ، فلا أدرى أهما إمامان بعضهما بعد بعض ، أو انقلبت العبارة سهواً عنى بعضهم . كذلك وقع الخلاف فى تاريخ موتهما ، فأرخ موت الحوارى بن مالك فقالوا مات سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة . وقالوا مات مالك بن الحوارى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة . ولعل الثانى منهما ولد الأول .

ذكر حوادث متفرقة

ووجدت تاريخ خروج أهل شيراز إلى عمان ، ورئيسهم فخر الدين أحمد بن الدايه ، وشهاب الدين . وهم أربعة آلاف فارس وخمس مائة فارس . وجرى على الناس منهم أذى كثير ، لا غاية له . وأخرجوا أهل العقر [من] (١) نزوى من بيوتهم خاصة . وأقاموا على ذلك أربعة أشهر فى عمان . وحاصروا بهلا ولم يقدروا عليها . ومات ابن الداية ، وكسر الله شوكتهم . وأصاب الناس غلاء (٢) كثير . وذلك فى دولة السلطان عمر بن نبهان (٣) ، سنة أربع وسبعين بعد ست مائة .

ووجدت أيضاً تاريخاً آخر : خروج أمير من مراء هرمرز ، يسمى محمود م ٣١١ بن أحمد الكوسى . وخرج إلى قرية قلهات . وكان المتولى يومئذ على عمان — والمالك لها — أبو المعالى كهلان بن نبهان ، وأخوه عمر بن نبهان .

فلما نزل محمود بقلهات ، طلب وصول أبي المعالى إليه . فلما حضره طلب منه المنافع من أهل عمان ، وخراج أهلها . فاعتذر أبو المعالى وقال: إنى لا أملك من عمان إلا بلدة [واحدة] (٤) . فقال محمود : خذ من

---

(١) فى الأصل (أهل عقر نزوى) وما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٢) فى الأصل (غلا) .

(٣) بنو نبهان قوم من العتيك صار إليهم الملك فى تلك الفترة القلقة غير المستقرة فى تاريخ عمان . ويبدو أنهم كانوا يعقدون للأئمة فى بلاد، وملوك بنى نبهان فى بلدان أخر . وحيث أن قيام النباهنة اعتمد على الاستبداد بالأمر وقهر الناس — وليس على مبايعة الأمة — فإن تاريخهم لم يحظ بعناية المؤرخين العمانيين (الفتح المبين السالمى ، ج ١ ، ص ٣٥٢) .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان (ج ١ ، ص ٣٥٣) والفتح المبين (ص ٢٤٨) .

عسكري ماشئت ، وأقصد به من خالفك من أهل عمان . فقال أبو المعالي : إن أهل عمان ضعفاء ، لا يقدرون على تسليم الخراج .

كل ذلك حمية منه على أهل عمان . فحقد عليه محمود ، وأضمر له المكيدة ، واستدعى (١) بأمراء البدو من [أهل] (٢) عمان ، وكساهم وأعطاهم . ووعدوه النصر على أهل عمان والخروج معه .

ثم إنه ارتحل إلى ظفار ، وركب البحر . فلما وصلها (٣) ؛ قتل من أهلها خلقاً كثيراً ، وسلب (٤) مالا جزيلا . ورجع قاصداً عمان ، فأخذ طريق البر (٥) ، وحمل ثقله في المراكب في البحر (٦) . فلما صار في طريق البر ، نقص عليه الزاد ، وأصابهم الجوع ، حتى بلغ منُّ (٧) [م ٣١٢] اللحم بدينار . وأصابهم عطش كثير لقلة الماء في تلك الطريق . وقيل إنه مات من عسكره خمسة آلاف رجل ، وقيل أكثر . وكان هذا سنة ستين وست مائة .

ووجدت أيضاً تاريخاً : خرجت أولاد الريّس (٨) على عمان ، وكان خروجهم فسخ (٩) شهر شوال : سنة خمس وسبعين ، بعد ست مائة وكان

---

(١) في الأصل (واستدعا) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى ؛ من تحفة الأعيان للسالمي (ج ١ ، ص ٣٥٣).

(٣) في الأصل (وصل) .

(٤) في الأصل (وسلمت) والتصويب من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٤٨) وتحفة الأعيان للسالمي (ج ١ ، ص ٣٥٣) .

(٥) في الأصل (البحر) وهو تحريف في النسخ .

(٦) بمعنى أنه سار براً ، وسارت السفن بحذائه بحراً .

(٧) المن : ميزان يقارب الكيلو جرام .

(٨) جماعة من البدو (كحالة : معجم بائل العرب) .

(٩) أي نهاية الشهر . جاء في لسان العرب (فسخ الشيء يفسخه فسخاً نقضه ، وفسخ المفصل أزاله عن موضعه ، وتفسخ الشعر عن الجلد زال وتطاير) .

المالك بعمان السيد كهلان بن عمر بن نبهان ، وخرج للتقاهم بالصحراء . وخرج معــه جملة من أهل العقر كافة . فسقت أولاد الريس على العقر فدخلوها ، وأحرقوا سوقها ، وأخذوا جميع ما فيها ، وسبوا نساءها ، وأحرقوا مخازن المسجد الجامع المتصلة به ، وأحرقوا الكتب . وكان ذلك كله فى نصف يوم . فخرج كهلان بعساكره أول يوم من [ذى] (١) القعدة ، واجتمعوا بالسراة . فخرجت عليهم أولاد الريس — وكانوا اسبعة آلاف — فانكسرت أولاد الريس ومن معهم من الحدان . وقتل فى هذه الوقعة ثلاث مائة رجل .

فلعله كانت هذه السنون التى بين محمد بن | م ٣١٣ خنبش ومالك ابن الحوارى (٢) ، سنين ملك النباهنة . ولعل ملكهم كان يزيد على خمس مائة سنة . إلا أنه كان فيما بعد هذه السنين بعقد الأئمة والنباهنة ، ملوك فى شىء من البلدان ، والأئمة فى بلدان أُخر .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة .

(٢) فى الأصل (حوارى) .

أئمة القرنين التاسع والعاشر

ثم عقد بعد موت مالك بن الحوارى (١) سبع سنين لأبى الحسن [ابن خميس] (٢) بن عامر ، وذلك يوم الخميس فى شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وثمانى مائة . ومات سنة ست وأربعين بعد ثمانى مائة ، يوم السبت واحد وعشرين من القعدة .

الإمام عمر بن الخطاب بن محمد :

ثم عقدوا للإمام عمر بن الخطاب بن محمد بن أحمد بن شاذان (٣) بن صلت [بن مالك الخروصى] (٤) ؛ سنة خمس وثمانين وثمانى مائة . وهو الذى حاز أموال بنى نبهان (٥) ، وأطلقها لمن عنده من الشراة . وكان زائداً فيها ، وأمر فيها بأوامره .

وذلك أن المسلمين اجتمعوا ونظروا فى الدماء التى سفكها آل نبهان ، والأموال التى أخذوها واغتصبوها بغير حق ، فوجدوها أكثر من قيمة أموالهم . وكان يومئذ القاضى [أبو عبد الله] محمد (٦) بن سليمان ابن أحمد بن مفرج | م ٣١٤ | وكيلا لمن ظلمه آل نبهان من المسلمين من أهل عمان . وأقام أحمد بن عمر بن أحمد بن مفرج وكيلا للملوك (٧) آل

---

(١) فى الأصل (حوارى) .
(٢) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٧٠) .
وفى الفتح المبين لابن رزيق (أبو الحسن عبد الله بن خميس بن عامر الأزدى) . ص ٢٥٧ .
(٣) فى الأصل (شيدان) .
(٤) ما بين حاصرتين إضافة .
(٥) فى الأصل (بنى هناة) وهو خطأ فى النسخ .
(٦) فى الأصل أحمد ، وهو تحريف . وما بين حاصرتين إضافة .
(٧) فى الأصل (للملوك) .

نبهان . فقضى أحمد أن جميع مال آل نبهان من أموال وأرضين ونخيل وبيوت وأسلحة وآنية وغلة ، وجميع مالهم كائناً (١) ماكان [قضاء واجباً تاماً] (٢) . وقبل محمد بن عمر (٣) هذا القضاء (٤) للمظلومين من أهل عمان ، من غاب منهم أو حضر ، أو كبير أو صغير ، الأنثى منهم والذكر .

فصارت هذه الأموال بالقضاء الكائن الصحيح للمظلومين ، وقد جهلوا معرفتهم ومعرفة حقوقهم ، ولم يحيطوا به علما ، ولم يدركوا له قسما . فصار كل مال لا يعرف قسمه ، مجهولون أربابه ، راجعاً إلى الفقراء . والإمام العدل — عند وجوده — أولى بقبضه ، ويصرفه فى إعزاز دولة المسلمين ، والقيام بها . وكل من صح حقه وأثبته ، فهو له من أموالهم ؛ ويحاسب بالتجزئة (٥) لما يصح له بقسطه إن أدرك ذلك . وإن لم يدرك التجزئة ، ولم يحط بها ، فذلك النصيب غير معلوم ، وهو مجهول . للفقراء . |٣١٥م|
[وللإمام أن] (٦) يقبض الأموال المغيبة ، وأموال الفقراء ، وما لا رب (٧) له ، ويجعله فى إعزاز دولة المسلمين .

فقد صح هذا القضاء والحكم فيه ، « فمن بدله بعد ما سمعه ، فإنما

---

(١) فى الأصل (كاينا) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٧١ — ٣٧٢).

(٣) لاحظنا ثمة غموض وخلط بين الأسماء فى هذا الجزء . ففى تحفة الأعيان للسالمى : « فقضى أحمد بن صالح بن محمد بن عمر أن جميع مال آل نبهان... وقبل محمدبن عمر بن محمد هذا القضاء » . ومعنى هذا أن الذى قضى — وهو أحمد بن صالح — غير أحمد بن عمر بن مفرج ، السابق ذكره . وأن الذى قبل هذا القضاء — وهو محمد بن عمر بن محمد — شخص آخر خلاف أحمد بن عمر بن أحمد بن مفرج . (أنظر تحفة الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٧١ — ٣٧٢) .

(٤) فى الأصل (الفضاء) .

(٥) فى الأصل (بالتجزية) .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٧٢) .

(٧) فى الأصل (وما لا رت له) .

إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم . »(١) .

وكان هذا القضاء عشية الأربعاء ، لسبع — أو لتسع — ليال خلون من جمادى الآخر ، من سنة سبع وثمانين وثماني مائة . وكان هذا في عقده الثاني ، لأنه لما نصب أولا(٢) أقام سنة ، وخرج عليه سليمان بن سليمان [بن مظفر النبهاني] ، فانكسر . وعسكر بجممت من وادي شمائل ، لعله وادي بني رواحة . ثم نصبه ثانية [الشيخ](٣) محمد بن سليمان بن أحمد ابن مفرج القاضي ، في سنة أربع وتسعين بعد ثماني مائة من الهجرة .

ثم نصب [من بعده] عمر الشريف ، وأقام سنة ، ثم خرج إلى بهلا . فنصب أهل نزوى محمد بن سليمان ثانية . ثم عقدوا لأحمد بن عمر بن محمد الربخي(٤) . ثم عقد لأبي الحسن بن عبد السلام [النزوى](٥) ، وأقام دون السنة . ثم خرج عليه سليمان بن سليمان [بن مظفر النبهاني](٦) ثم نصب محمد بن سليمان أيضاً ، [م٢١٦] وأقام أياما .

الأمام محمد بن إسماعيل الحاضري :

ثم عقد لمحمد بن إسماعيل(٧) ، الساكن حارة الوادي الغربية ، من

---

(١) سورة البقرة : آية ١٨١ .

(٢) يعني الإمام عمر بن الخطاب بن محمد . والعبارة في الأصل بها تحريف في النسخ ، نصها (لم يصب أولا ...) .

(٣) في الأصل (ثم نصب ثانية من بعده محمد بن سليمان) والتصويب والإضافة بين الحواصر من كتاب الفتح المبين ، ص ٢٥٨ .

(٤) في الأصل (الزنجي) وهو تحريف . والتصويب من تحفة الأعيان السالمي (ج ١ ، ص ٣٧٦) والشاع الشائع لابن رزيق (ص ٨٢) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمي (ج ١ ، ص ٣٧٦) .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة .

(٧) في الأصل (محمد بن أسماعيل الإسماعيل) .

سكة [باب النزار من أزكى](١) . وسبب ذلك أن سليمان بن سليمان هجم على امرأة تغسل من فلج الغنتق ، فخرجت من الفلج هاربة عريانة . فجعل يعدو فى أثرها حتى وصل حارة الوادى ، فرآهما محمد بن إسماعيل ، فخرج إليه وقبضه عنها ، وصرعه على الأرض ، حتى مضت المرأة ، ودخلت العقر(٢) ، وخلى(٣) سبيله .

فعند ذلك فرح به المسلمون لما رأوا من قوته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونصبوه إماما ، وذلك فى سنة ست وتسع مائة . [ومات](٤) يوم الخميس لتسع ليال بقين من شوال سنة إثنين وأربعين وتسع مائة .

بركات بن محمد بن إسماعيل :

ونصب ولده بركات فى اليوم الذى مات فيه أبوه .

ثم لما كان يوم السبت لعشر ليال بقين من المحرم سنة خمس وستين بعد تسع مائة ، خرج بركات بن محمد [من](٥) حصن بهلا [يريد نزوى](٦) ، ودخل محمد بن جفير بن على بن هلال الجبرى ، وذلك بعد أن دخل السلطان الأعظم [م٣١٧] — سلطان بن المحسن بن سليمان ابن نبهان — نزوى ، وملكها فى سنة أربع وستين بعد تسع مائة .

ثم ثبت حصن بهلا فى يد محمد بن جفير ، إلى أن اشتراه منه آل عمير ، إ

---

(١) فى الأصل (من سكة مرارورة) والصيغة المثبتة من الفتح المبين ، ص ٢٥٩ .

(٢) فى الأصل (المعقر) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى ، ج ١ ، ص ٣٧٩ . جاء فى لسان العرب أن العقر والعقار المنزل والضيعة .

(٣) فى الأصل (وخلا) .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٥) ما بين الحواصر إضافة لضبط المعنى .

(٦) نفسه .

بثلاث مائة لك . ودخل آل عمر حصن بهلا يوم الثلاثاء لتسع ليال بقين من جمادى الآخر سنة سبع وستين وتسع مائة .

ولعل كان الإمام عمر بن قاسم الفضيلى فى أيام عبد الله بن محمد القرن(١) ، فى منح ، يوم الجمعة لخمسة عشر يوما من رجب سنة سبع وستين وتسع مائة . ودخل حصن بهلا يوم الإثنين لليلتين بقين من هذا الشهر من هذه السنة .

ثم لما كانت(٢) ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمانى وستين وتسع مائة ، دخل بركات بن محمد بن إسماعيل حصن بُهلا ، وأخرجوا منه عبد الله بن محمد القرن . وكان الفقية أحمد بن مداد يبرأ من محمد بن إسماعيل ، وولده بركات بن محمد . وله فى ذلك سيرة طويلة ، تركتها اختصاراً .

---

(١) فى الأصل (بركات بن محمد القرن) وهذا خلط فى النسخ . وتتضح العبارة مما ذكره السالمى فى تحفة الأعيان (ج ١ ، ص ٣٨٦) ونصه « وقدم من لم يرض إمامة بركات غيره إماماً ، فنصبوا عمر بن القاسم الفضيلى فى أيام بركات ... ولم يؤرخوا وقت بيعته ولا وقت وفاته . ثم نصب أيضاً عبد الله بن محمد القرن إماماً فى منح يوم الجمعة لخمسة عشر يوماً من رجب سنة سبع وستين وتسعمائة . ودخل حصن بهلى يوم الإثنين ... » .

(٢) فى الأصل (كان) .

ملوك بني نبهان الأواخر

قيل إنه لما مات | م ٣١٨ | سلطان بن المحسن - وكان موته يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وتسع مائة (١) ، ترك ثلاثة أولاد ، وهم : طهماس بن سلطان ، وسلطان ابن سلطان ، ومظفر بن سلطان (٢) .

وكان المظفر هو المتقدم عليهم في الملك ، إلى أن مات . وترك ولده سليمان صغيرا ، لايقوم برئاسة (٣) الملك . وكان عم أبيه - فلاح بن المحسن مالكا لحصن مقنيات . فلما علم بموت مظفر ، جاء إلى بهلا ، وأقام مكانه ، وعدل في ملكه . وملك سبع سنين ، ثم مات .

فملك من بعده سليمان بن مظفر ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة (٤) . واستولى على الأمر في عمان ونواحيها ، وأخذ خراجها من الطائع (٥) والعاصي ، والداني والقاصي . وحاربه أهل نزوى ، وكان معهم جبري يقال له محمد بن جفير ، وعنده جيش عظيم . فطلع إليه سليمان بن مظفر ، وعرار بن فلاح ، وعندهم ناصر بن قطن ، ومن معهم من العساكر .

فلما | م ٣١٩ | التقوا - هم ومحمد بن جفير - استقام بينهم القتال ، فقتل

---

(١) في الأصل (وتسع مائة سنة) .

(٢) في الأصل (ومظفر بن سليمان) .

(٣) في الأصل (بورياسة) .

(٤) في الأصل (اثنى عشر سنة) .

(٥) في الأصل (الطايع) .

- محمد بن جفير ، وانكسر قومه . وكان قطن بن قطن ينتظر الأمر بينهم ، فنادى بالكف بين القوم عن القتال .

وكان محمد بن جفير [له ولد صغير السن](١) — واسمه محمد بن محمد — وأمه بنت عمير بن عامر ، فتزوجها سليمان بن مظفر ، بعدما قُتل زوجها [محمد بن جفير](٢) فركب [سليمان](٣) بها البادية ، فكان بالشتاء ببادية الشمال . ويترك ابن(٤) عمه عرار بن فلاح ببهلا . وإذا جاء الصيف رجع إلى بهلا .

وكان مهنا بن محمد الهديفي مالكا بلد صحار ، فعلم أن العجم متأهبون إليه . وأرسل إلى سليمان بن مظفر لينصره عليهم ، فلبىّ (٥) دعوته ، وأطاع كلمته . فخرج بمن عنده من العسكر ، وتكاملت القوم بصحار . ووصلت إليهم العجم ، فاستقام بينهم القتال ، وعظم النزال . وارتفع العجاج ، وأظلم الفجاج . فانكسر جيش العجم ، وقُتل منهم من (٦) شاء الله .

ورجع سليمان بن مظفر إلى داره ببهلا ، وعنده بنو عمه ، وهم عشرة : عرار ، ونبهان ، ومخزوم ، وأولاد فلاح بن [م٣٢٠] المحسن . وكان المقدم عليهم عرار . وأما أخوه نبهان ، فلا يملك رأياً دون أخيه . وكان لعرار (٧) بن فلاح ملك الظاهرة . وأعطى (٨) سليمان بن مظفر مخزوما(٩)

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى ، من لتحفة الأعيان للسالمي (ج ١ ص ٣٨٨) .
(٢) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى .
(٤) فى الأصل (بن) .
(٥) فى الأصل (فلبا) .
(٦) فى الأصل (ما شاء) .
(٧) فى الأصل (عرار) .
(٨) فى الأصل (وأعطا) .
(٩) فى الأصل (محروما) .

ملك ينقل . فبقى (١) عندهم تسعة ، أحدهم حمير بن حافظ وعنده أربعة : حافظ وسلطان وكهلان وهود ، كلهم أولاد حمير . فمات حافظ بن حمير بعد رجوعهم إلى بهلا بسنة زمانا (٢) . وبقى معه من بنى عمه إثنان من العشرة : مهنا بن محمد بن حافظ ، وعلى بن ذهل بن محمد بن حافظ . وهم على يدى (٣) سليمان بن مظفر .

وكان لسليمان وزراء فى القرية ، وفى النزاز من قرية أزكى ، وفى سمد الشان . وكانت سمد الشان لقبيلة الجهاضم . وكان جائرا (٤) عليهم ، ففروا منها من شدة جوره وبطشه . فتفرقوا فى البلدان مدة ثلاثين سنة ، وهم يحتالون فى دخولها ، والتوصل إليها .

وكان بنو هناة من أقرب الناس إلى سليمان بن مظفر . وكانوا أكثرهم عدداً وعدة ، وبأسا وشدة . وكان فيها رجلان [٣٢١م] يليان أمرهم ، وهما خلف بن أبى سعيد ، وسيف بن محمد بن أبى سعيد . وكانا عنده قدوة أهل زمانهم ، [فافترقوا] (٥) .

وكان سبب الفرقة بينهم ، أن قبيلتين من أهل سيفم ، إحداهما بنو معن والأخرى بنو النير [اقتتلتا](٦) . وكانتا عصبة لبنى هناة ، وخصمهم واحد. ثم وقعت الفرقة بين بنى المعن وبنى النير . وسبب ذلك أن امرأة من بنى معن

---

(١) فى الأصل (فلقوا) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٨٩ .

(٢) فى الأصل (زمان) .

(٣) فى الأصل (على يد) .

(٤) فى الأصل (جايرا) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمى (ج ١ ، ص ٣٩٠) .

دخلت زرعا لبنى النيِّر تحش منه . فمرت عليها أمةٌ رجلٍ من بنى النيِّر ، فقالت : « اخرجى من زرع سيدى » . فأبت ؛ فوقع بينهما الجدال . فضربت الأمةُ المرأة ، ففقأت عينها . فخرج ذات يوم حمار لبنى النيِّر ، ودخل زرعا لبنى معن ، فقطعت أذنه . فوقعت الفتنة بينهما . وكان « هذا من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين »(١) .

وأصل الفتنة كالنار اليسيرة ، تحرق الأشياء الكثيرة . فافترق عند ذلك القوم فرقتين : فأما بنو معن وبنو شكيل فهم مع [سليمان بن](٢) مظفر ؛ وبنو النيِّر مع بنى هناة .

فعند ذلك سار خلف بن أبى [م٣٢٢] سعيد إلى داره — دار سيت — ، هو وبنو عمه . وكان سليمان بن المظفر بالبادية ، فعلم بذلك ، وأرسل إلى وزيره محمد بن خنجر أن قل لخلف يترك شأن القوم . فأرسل إليه بالكف عن ذلك . فغلب القوم عن ذلك ، [وأظهروا أنهم](٣) يريدون الإصلاح بين بنى معن وبنى النيِّر فأرسل الوزير إلى مولاه سليمان(٤) : إن خلفاً غلب(٥) عن التكفية . فندب سليمان بن المظفر إلى الوزير : تراك افعل فى أموال بنى هناة من الغزية من كدم . فأمر الوزير بخراب أموال بنى هناة من كدم .

وكانت تلك الأموال للشيخ (٦) خلف بن أبى سعيد فوقعت العداوه والبغضاء بينهما . وعند ذلك أمر الشيخ خلف بنى عمه أن اغزوا بُهلا ؛

---

(١) سورة القصص : آية ١٥ .
(٢) ما بين حاصرتين إضافة لتحديد المعنى .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .
(٤) فى الأصل (فأرسل الوزير إلى مولاه أن سليمان أن خلفا ...) .
(٥) فى الأصل (نكل) .
(٦) فى الأصل (وكانت تلك أموال الشيخ) .

فغزوها ، فقتلوا من قتلوا منها . فكتب الوزير محمد بن خنجر إلى سليمان بن المظفر بما جرى في بهلا .

فلما علم سليمان ذلك قصد من الشمال إلى بهلا ، وأراد الصلح بينه وبين [بنى] هناة . فلم يقع صلح ، وهيأ كل واحد منهما الحرب لصاحبه ؛ فجمع السلطان سليمان(١) |م٣٢٣| بن المظفر ما عنده من العسكر ليقاتل بنى هناة . فعلم بذلك الشيخ [خلف] (٢) ؛ فأرسل إلى الأمير (٣) عمير ابن حمير مالك سمائل ينتصر به على السلطان [سليمان](٤) بن المظفر . فسار بعسكره إلى غبرة(٥) بهلا ، فالتقى هو والأمير عمير بن حمير فاستقام الحرب بينهما ساعة من النهار ؛ ثم رجع سليمان إلى بهلا .

ورجع الأمير عمير إلى سمائل ، وترك بعض قومه فى دار سيت . وكان الأمير عمير ذا خلق حسن واسع . فلما وصل إلى سمائل ، أرسل إلى بنى جهضم — وهم متفرقون فى قرى شتى — فأقبلوا إليه ، فوقعت(٦) بينهم الألفة واثبات الصحبة . ثم أرسل إلى سلطان الرستاق — [وهو] مالك بن أبى العرب — ليصله (٧) إلى سمائل . فسار مالك بن أبى العرب ، وصحبه أبو الحسن على بن قطن . فلما وصلا إلى سمائل ، ساروا مع بنى جهضم إلى سمد الشان ، وبنوا لهم بنيانا حول دارهم . وترك عندهم الأمير البعض من قومه . وترك لهم مايحتاجون له من الطعام والشراب وآلة الحرب ؛ ورجع |م٣٢٤| إلى سمائل .

---

(١) فى الأصل (السلطان بن سليمان) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى .

(٣) فى الأصل (الوزير) والتصويب من تحفة الأعيان السالمى ج : ١ ص ٣٩٠ .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٥) الغبراء : الأرض ، لغبرة لونها .

(٦) فى الأصل (فوقع) .

(٧) فى الأصل (يصله) .

وأما بنو هناة وسليمان بن المظفر ، فإنهم لم تنقطع بينهم الغزوات .

ثم إن الأمير عمير بن حمير ، والسلطان مالك بن أبي العرب سارا إلى نزوى ، وهما ينتظران الأمر . وكان لمالك بن أبي العرب وزير فى عيني من الرستاق ، فدخل عليه أهل الدار ، وأخرجوه منها . وجاء رجل من أهل عيني إلى سليمان بن المظفر ، يطلب منه النصر على الخصم ، فأعانه ببعض قومه ، وأرسل معه عرار بن فلاح (١) .

فجاء الخبر إلى السلطان مالك بن أبي العرب ، لما جرى فى داره ، فأراد المسير إلى داره . فقال له الأمير عمير « قف معنا ولا تخف ؛ فهذا من علامات السرور » . فقال : « كيف ذلك والعدو فى دارى ؟ » . فقال الأمير عمير (٢) : ذلك عندى ! وإنا إن شاء الله من الغالبين . قال الله تعالى (إن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا) (٣) . وكما قال الشاعر :

إذا الحادثات بلغن المدى وكادت تذوب لهن المهج
وحل البلاء وقل العزى فعند التناهي يكون الفرج

[م٣٢٥] ثم إن بني هناة أرسلوا إلى عمير بن حمير أن أقبل علينا بمن عندك من القوم لندخل بهم سهلا . فسار هو ومن معه إلى بعض الطريق ، فنظر إلى قومه ، فاستقل عددهم فرجع إلى نزوى . وكان (٤) بنو هناة ينتظرونه فى ليلة كانت بينهم للدخول (٥) ، فلم يصل إليهم . فسار إليه الشيخ سيف بن محمد من دار سيت إلى نزوى ، وجرى بينهما جدال كثير من باب العتاب .

فقال الأمير عمير بن حمير : خذ من القوم ماشئت . فأخذ من عنده قوما كثيرا ، لايعلم عددهم إلا الله . فسار بهم إلى دراسيت ، والأمير عمير ينتظر الأمر بنزوى .

---

(١) فى الأصل (عزان بن فلاح) وهو تحريف فى النسخ .
(٢) فى الأصل (حمير) وهو تحريف فى النسخ .
(٣) فى الأصل (إن مع العسر يسرا ، إن مع العسرا) .
(سورة الشرح : الآيتان ٥ ، ٦) .
(٤) فى الأصل (وكانوا) .
(٥) فى الأصل (الدخول) .

فجاء الخبر إلى سليمان بن المظفر أن القوم طلعوا من نزوى إلى دارسيت فمنهم من يقول قاصدون للقرية ، ومنهم من يقول سيفم ، ومنهم من يقول بهلا . فقسم سليمان قومه ، فجعل قوما منهم فى القرية ، وبعضا فى سيفم . وبنى (١) بنيانا فى رأس [فلج الجزيين] (٢) ، مخافة أن تضربه القوم [وترك فيه](٣) قوما . وقسم بقية القوم [م ٣٢٦] فى بهلا . وترك فى الخضراء جماعة (٤) من قومه ، [وكذلك] (٥) فى حارة الغاف . وترك فى الجامع من البلاد حمير بن حافظ ومن عنده من القوم . وقسم بقية قومه فى العقر . وكان ابن عمه عرار بن فلاح ومن معه من القوم فى عينى [من] الرستاق (٦) .

فسار سيف بن محمد بقومه من دار سيت إلى بهلا ، ودخلها . وكان دخوله من الجانب الغربى (٧) ، فتسوروا السور ، ودخلوا البلاد . وكان ذلك منهم ضربة لا زب ، ولم يشعر بهم أحد . وقسم سيف قومه ثلاث فرق : فرقة باليمين ، وفرقة بالشمال ، وفرقة بالوجه وهى التى تلى (٨) الجامع من البلاد . وأحكم أمره فى الأماكن المختارة للقتال ، لمسجد (٩) الجامع ومسجد بنى عمر (١٠) ، وجميع أبواب العقر . فما بقى لسليمان ابن

---

(١) فى الأصل (وبنا) .

(٢) فى الأصل (وأس الحريرة) والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان للسالمى ، (ج ١ ، ص ٣٢٩) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٤) فى الأصل (الخضرا) .

(٥) ما بين حاصرتين لضبط المعنى .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٧) فى الأصل (الغرب) .

(٨) فى الأصل (مع الجامع) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٣٩٢) .

(٩) فى الأصل (فمسجد) .

(١٠) فى الأصل (مسجد أبى عمرو) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان .

المظفر شيء غير الحصن والخضراء ، بعد ما قتل من سادات قومه وفرسانه تلك الليلة .

ونادى سيف بن محمد بالأمان في البلاد . وكان بعض أهل البلد معه . وجاء الخبر إلى(١)الأمير عمير بن حمير وهو في| م ٣٢٧ ا| نزوى — أن قومك دخلوا بهلا . فركب عند ذلك ، ، هو والأمير سليمان بن محمد والسلطان مالك بن أبي العرب ، والمنصور على بن قطن ، وأهل نزوى . وركب خلف بن أبي سعيد المنائي (٢) من دار سيت بمن عنده من القوم، لينصروا أصحابهم ، وكان دخولهم ليلا . ونزل الأمير عمير بحارة الغاف . وكانت الخضراء (٣) في ملك السلطان سليمان بن المظفر ، وفيها على بن ذهل، وعنده قوم كثير . فأرسل إليهم الأمير عمير ليخرجوا بما عندهم من الزانة . فورد على بن ذهل على قومه يحرضهم على القتال ، فلم يجبه أحد منهم، وعزموا على الخروج .

ووصل الخبر إلى عرار بن فلاح ، وهو في عيني من الرستاق ، أن القوم دخلوا بهلا ، فنهض من عيني بمن معه ، ودخل القرية . وكانت القرية في ملكهم .

وكان عمير بن حمير وسيف بن محمد لم يشاركهما أحد في البلاد إلا الحصن وهم محدقون به . وصنعوا في شجرة الصبار التي في السوق برجاً من | م ٣٢٨ ا| خشب ، في أعلا رأسها — بالليل — وقعد فيه رجل من الجهاضم يقال له جمعة بن محمد المرهوب . فضرب رجلا من الحصن — وكان خارجا من القصبة إلى بيت الوزير — ومات . وعمل قوم الأمير برجا في

---

(١) في الأصل (وجاء الخبر أن الأمير) .

(٢) في الأصل (المناوى) .

(٣) في الأصل (الخضرا) .

الجامع ، فضرب صاحب البرج رجلا من الحصن فى مبرز الغرفة من عسكر سليمان .

ثم إن القوم قشعوا [سور] (١) الحصن بالليل . فلما انهدم بعض الجدار ، علم بهم عسكر سليمان . فمنعوهم من الدخول . ثم إن العسكر طلبوا من سليمان الخروج من الحصن مخافة القتل ، فأقاموا ثلاث عشرة ليلة (٢) ، فأذن لهم . فطلبوا من الأمير عمير أن يسيرهم . [فسيرهم] (٣) بما عندهم من الزانة . وسير معهم وزيره .

ثم طلع سليمان بن مظفر — هو وبنو عمه وعسكره — مسيرين من بهلا إلى القرية . وخرج — هو وعرار بن فلاح — من القرية إلى الظاهرة ، فأمر بعد ذلك الأمير عمير بن حمير بقشع الحصن . فقشع ولم يبق منه عمار ولاجدار ، هذه قدرة الله ، « يؤتى ملكه من يشاء ، والله | م ٣٢٦ | واسع عليم » (٤)

وجعل عمير ، خلف بن أبى سعيد ، مأمونه فى بهلا ، ورجع إلى سمائل . فأقام خلف بن أبى سعيد فى بهلا أربعة أشهر . ثم خرج عليه سليمان بن المظفر وابن عمه عرار بن فلاح ، فدخلوا عليه الخضراء (٥) ، وهو فى العقر . وكانت هذه الدخلة ليلة رابع ربيع الأول سنة تسع عشرة بعد ألف سنة .

وكان سيف بن محمد — هو وبعض قومه — فى السر . فأرسل سليمان ابن المظفر لخلف بن أبى سعيد ، ليسيره (٦) بما عنده من الزانة . فخرج

(١) وضعت كلمة (سور) بين كلمتى (قشعوا) و (الحصن) بقلم مغاير . جاء فى لسان العرب انقشع الغيم وقشعته الريح أى كشفته فانقشع .

(٢) فى الأصل (ثلاثة عشر ليلة) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٤٧ .

(٥) فى الأصل (الخضرا) .

(٦) فى الأصل (يسيره) .

خلف مسيّرا وأخذ الأمان على أهل بلد . فمنهم من قام ، ومنهم من خرج خوف السلطان .

فلما علم سيف بن محمد هذا الخبر ، جاء من السر . وعلم به الأمير عمير بن حمير ،فأقبل من سمائل إلى نزوى ، ومضى إلى القرية، فأخذها ووهبها لسيف بن محمد ، فكان مأمونه فيها . ثم رجع إلى نزوى ينتظر الأمر مدة أيام .

فمات سليمان بن المظفر . وكان له ولد صغير السن . فملك من بعده [م ٣٢٠] عرار بن فلاح .

ثم طلع سيف بن محمد إلى نزوى ، وأخذ من الأمير عمير قوما كثيرا ، فسار بهم إلى القرية، فلبثوا بها سبعة أيام . ودخل بهم حارة من بهلا — اسمها حارة أبى مان — فأحدق بهم عرار بن فلاح مدة أيام .

ثم إنه سيرهم بما عندهم من الزانة . وثبت له حصن [القرية] (١) ، وتجديد الخدمة مدة سنة . وكانت هذه الدخلة ليلة سادس صفر ، سنة أربع وعشرين سنة بعد الألف .

ثم مات بعد ذلك عرار بن فلاح . وكان موته لعشر ليال خلون من شهر الحج من هذه السنة . وملك من بعده مظفر بن سليمان . وأقام فى ملكه مدة شهرين ، ثم مات . وملك من بعده مخزوم بن فلاح مدة شهرى زمان ، فخرج عليه نبهان وسيف بن محمد، ليخرجاه من الحصن ، فطلب التسيار (٢) ، فسيروه بلا زانة ولا سلاح . وكان خروجه إلى ينقل ، من الظاهرة . فتولى الأمر على [أصحابها مدة من الزمان ، وأقام

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٩٤) .

(٢) السير : الذهاب ، سار يسير سيراً ومسيراً وتسياراً ومسيرة وسيرورة . وتسيار تشير إلى الكثرة (لسان العرب) .

بهلا نبهان بن فلاح ، وجعل] (١) ابن عمه — على بن ذهل — مأمونه فى دار بهلا ؛ وعلى أثره سيف بن محمد . وسار نبهان بن فلاح إلى داره مقنيات . وساعد ابن عمه سلطان بن حمير [م ٣٣١] من بهلا خوفاً منه أن يحاول [الاستيلاء] (٢) على الملك . فسار سلطان بن حمير من بهلا إلى صحار ، فتولى مكانه ذلك الأمر سيف بن محمد مدة سنة .

ثم طلع بعد ذلك الأمير عمير بن حمير بما عنده من القوم إلى بهلا ، فمنعه سيف بن محمد من الدخول ، فرجع هو وقومه إلى نزوى ينتظر الأمر . ثم بعد أيام رجع عمير وقومه إلى بهلا و دخل العقر . وكان سيف بن محمد فى بلاد سيت (٣) ، فعلم بذلك الأمر ، فنهض من بلاد سيت بمن عنده من القوم ، ودخل الحصن فلم يمنعه أحد . ثم أرسل إلى نبهان بن فلاح أن القوم دخلوا الدار ، فأقبل بمن عندك من العسكر . فأقام مدة أيام يجمع (٤) عساكره .

وكان الأمير عمير بن حمير قد أحكم مقابض البلد ، من أولها إلى آخرها . وأقام سيف بن محمد بالحصن مدة ينتظر نبهان وقومه ، فلم يصل إليه . ثم طلب سيف تسياراً من الأمير عمير بن حمير ، فسيره بما عنده من الزانة ، فقصد القرية .

وأقام عمير [م ٣٣٢] بن حمير فى بهلا مدة أيام . ثم إنه أرسل إلى سيف بن محمد ، فوقعت بينهما يمين على الصحبة . فأقام سيف على ولاية الرعية ، وعدل فيها . وكان متولى الأمر على ، بنى عمه (٥) ، وهم له ناصحون .

---

(١) ما بين حاصرتين تكلمة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٩٥) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٣) دار سيت .

(٤) فى الأصل (تجتمع) .

(٥) فى الأصل (ابن عمه) .

ولما استحكم الأمر لسيف بن محمد (١) ، كان سلطان بن حمير ، ومهنا بن محمد بن حافظ ، وعلى بن دهل بن محمد بن حافظ – [و](٢) مسكنهم يومئذ صحار – مع محمد بن مهنا الهديفي . وكان محمد بن مهنا أراد أن يدخل بهم على ابن عمهم نبهان بن فلاح فى مقنيات ليصلح بينهم . وكان مخزوم بنى (٣) حصن ينقل ، فلم يقع بينهما صلح . فطلع بعد ذلك سلطان بن حمير وعلى بن ذهل بما عندهما من العسكر .

فجاء الخبر إلى عمير بن حمير – وهو فى سمائل – أن سلطان بن حمير سار بقومه من الظاهرة ؛ ليدخل بهم بهلا . فطلع هو وقومه من سمائل إلى بهلا ينتظر الأمر . ودخل سلطان بن حمير النبهانى حارة بنى صلت ؛ فجاء الأمير عمير بن حمير بقومه ، وعلى أثره سيف بن محمد . ووقع بينهم القتال [م ٣٣٣] وبنوا عليهم بنياناً على الحارة من أولها إلى آخرها .

وارسل الأمير عمير بن حمير إلى أصحابه من جميع القرى . وطلع إليه الشيخ ماجد بن ربيعة بن سليمان الكندى ، وعمر بن سليمان العفيف ، والشيخ سعيد بن أحمد بن أبى سعيد الناعبى ، مع سادات أهل نزوى ومنح .

وأقام سليمان بن حمير – هو وقومه – محصورين مدة ، لم يخرج منهم أحد ، ولا يد ، ليهم أحد . فطلب عند ذلك سليمان بن حمير من الأمير عمير بن حمير تسيارا ، والخروج . وسيره ومن معه – بما عنده من الزانة – إلى الظاهرة .

وأقام سلطان فى مقنيات مدة أيام . فأوجس نبهان منهم خيفة ، أن

---

(١) فى الأصل (ولما استولى الأمر سيف بن محمد) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٣) فى الأصل (بنا)

يخرجوه من مقنيات ، فأخرجهم منها . فخرجوا ومضوا إلى صحار ، عند الهديفى محمد بن مهنا . وأقاموا معه سنة زماناً (١) .

ثم إن سلطان بن حمير أشار على محمد بن مهنا أن يغزوا ديّر (٢) عمير بن حمير ، وهى فى باطنة السيب (٣) . وكان الدير للامير سنان ابن سلطان ، والأميرين (٤) |م ٣٣٤| على بن حمير ، وسعيد بن حمير (٥) . فركب محمد بن مهنا ، وسلطان بن حمير وقومهما من صحار .

فجاء الخبر إلى الأمراء — وهم سنان بن سلطان ، وعلى وسعيد ابنا حمير — أن القوم طلعوا من صحار . فما كان إلا قدر مايخلع الرجل نعليه (٦) ، أو يغسل رجليه . حتى أقبلت العساكر . وسلت البواتر من البر والبحر ، والسهل والوعر . ووقع القتال ، وعظم النزال ، حتى بلغت القلوب الحناجر .

وقتل عند ذلك الأمير على بن حمير . وانفصل [القتال] (٧) ورجع محمد بن مهنا . فعلم ذلك الأمير عمير بن حمير بما جرى على إخوته وبنى عمه ، وهو فى بهلا . فاعتقد عقيدة الحزم ، وتسربل بسربال العزم ، أن لا يرجع عن صحار حتى يحصدهم بالسيف ويحرقهم بالنار ، ويبيد شملهم بكل دار . فأخذ فى جمع عساكره من البر والبحر ، فاجتمع معه قوم لا يحصى عددهم إلا الله . وركب إلى مسكد (٨) ليحمل قوماً من البحر .

---

(١) فى الأصل (سنة زمان) .

(٢) الدير هى الدارات فى الرمل ، ودارات جمع دارة وهى الجوبة الواسعة تحفها الجبال . قال أبو حنيفة : وهى تعد من بطون الأرض المنبتة (لسان العرب) .

(٣) السيب اسم مكان ، وهى فى الأصل مجرى الماء ، وجمعه سيوب .

(٤) فى الأصل (والأميران) .

(٥) فى تحفة الأعيان للسالمى ، ج ١ ص ٣٩٦ : (وكان فى الدير الأمير سنان ..) .

(٦) فى الأصل (نعله) .

(٧) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٩٧) .

(٨) مسقط .

وأرسل إلى ملك هرموز لينتصر به ، فنصره بعدة من المراكب فملأوها [م ٣٣٥] من المال والرجال وآلة الحرب .

وكان قد وصل مركب من الهند بعسكر كثير ، وفيه آلة الحرب . فردته (١) الريح إلى مسكد . فأخذه الأمير عمير بن حمير . وسار هو ومن معه من النصارى وغيرهم .

وأقام الأمير عمير بقومه فى باطنة السيب سبع ليال . فعلم بذلك محمد ابن جفير [فتوجه بقومه لينصر محمد بن مهنا ، فدخل محمد بن جفير] (٢) وقومه بصحار ، وفرح به محمد بن مهنا ، فأدخله الحصن . وكان بينهما بعض المقاصيد ساعة من النهار . فأمر محمد بن جفير عبده [ليقبض على] (٣) محمد بن مهنا : فرمى نفسه ، من سور الحصن . وندب قومه — وكان بعض قومه فى برج داخل الحصن — فوقع القتال بينهم ساعة من نهار .

وطلع محمد بن جفير بقومه من صحار . فبلغ هذا الخبر إلى الأمير عمير ابن حمير ، فتوجه إلى صحار بمن معه من بر وبحر . ودخل صحار نهار تسعة عشر من ربيع الآخر (٤) . فاستقام بينهم القتال من أول النهار إلى الليل ، وانفصل القتال . ثم بعد ذلك بيوم أو يومين هبطت النصارى من المراكب [م ٣٣٦] ، بما عندهم من آلة الحرب . وكانوا يجرون قطع القطن قدامهم ، ليتقوا (٥) بها ضرب البنادق . وكان عندهم مدافع تسير على أعجال الخشب فى البر ؛ وعليها سور من الخشب .

وكان فى جانب الدار برج لمحمد بن مهنا (٦) ، فيه عسكر كثير ، فجرت

---

(١) فى الأصل (فنزلته) .

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل . والتكلة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٣٩٧) حيث ورد الاسم محمد بن جيفر .

(٣) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل . والتكلة من تحفة الأعيان (ج ١ ، ص ٣٩٧) .

(٤) فى الأصل (نهار تسع عشرة ليلة من ربيع الآخر) .

(٥) فى الأصل (ليلتقوا) .

(٦) فى الأصل (برج محمد بن مهنا) .

عليه النصارى قطع القطن ، وضربوه بمدفع (١) ، حتى انهدم البعض منه . وخرج منه القوم ، فدخلته النصارى . فعلم محمد بن مهنا بذلك ، فندب قومه . فوقع بينهم القتال على البرج بالليل . فقتل عند ذلك على بن ذهل ، وقتل محمد بن مهنا الهديفى . وأقام بعد ذلك سلطان بن حمير بن محمد بن حافظ النبهانى ، وأخوه كهلان بن حمير ، وابن (٢) عمه مهنا بن محمد بن حافظ ، وعسكرهم ، فى الحصن ، بعدما قتل محمد بن مهنا الهديفى .

فلما علم الأمير عمير بن حمير أن سيد القوم قتل ، ندب قومه فى القتال . وكان القتال بينهم فى النخل . ثم طلع عمير بن حمير بمن معه من تلقاء جامع البلد ، فلم يمنعه أحد ، فقتل [م ٣٣٧] عند ذلك سلطان بن حمير . فانكسر القوم (٣) ، فصاروا أشتاتاً متفرقين ، فمنهم من قتل ، ومنهم من أحرق ، ومنهم من أسر ، ومنهم من رجع ، ومنهم من خرج ذاهباً على وجهه لا يدرى أين يتوجه ، ولا أين يذهب . وعلى هذا جميع أهل البلد بأجمعها ، من أولها إلى آخرها . وأقام النصارى (٤) فى حصن صحار . ورجع الأمير إلى بلدة سمائل خذلانا ، لا مسروراً .

وكان مخزوم بن فلاح متوليا حصن ينقل وقبض منهم [على] (٥) رجلين . فأمر عبداً له ليقتل واحداً منهما . فسل عليه السيف ليضربه . فاستجار به ، فلم يجره . فضربه ضربة واحدة . ثم عاد ليضربه ثانية ، فاستجار به فلم يجره . فلما أراد أن يضربه ثالثة ، استجار به ثالثة فأهوى إليه ليمسك فمه ، والعبد قد أهوى إليه بالسيف ، فضرب يد (٦) مخزوم ،

---

(١) فى الأصل (بمدافع) .

(٢) فى الأصل (بنو عمه) .

(٣) يعنى جماعة عمير بن حمير .

(٤) فى الأصل (وأقام الناس) والصيغة المثبتة تتفق ومستقبل الحوادث ، وهى مأخوذة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ص ٣٩٨) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة .

(٦) فى الأصل (فضرب ابن مخزوم) .

و أيام بجراحه ، ومات منها (١) . وأما الرجل ، فإنه سحبه العبد — يظنه ميتاً وبه رمق الحياة — فمر به رجل من [م ٣٣٨] من أهل البلد ، فقال « من يعينني على مواراة هذا الرجز ؟ » . فنطق الجريح فقال « إنني حي » . فحمله على كتفه ، وأدخله البيت ، فعوفى من جراحه (٢) ، وعاش بعد ذلك زماناً ، والله على كل شيء قدير . وكان هذا بعد أن دخلت صحار بثلاثة أشهر .

فلما علم نبهان بموت أخيه ، ركب من مقنيات إلى ينقل (٣) ، وترك بعض عسكره فى حصن مقنيات . وكانوا قد أملوه من كثرة جوره وبغيه ، فعزموا على إخراجه من مقنيات . فتوجه —رحل— إلى الأمير عمير بن حمير ، وسيف بن محمد ، لينتصر بهما (٤) فسار الأمير [عمير] (٥) وسيف بن محمد بمن معهما من القوم ، ودخلوا حصن مقنيات بلا منع ولا قتال ، وأقاموا مدة أيام . ثم ركبا ببعض (٦) قومهما إلى ينقل . فعلم بذلك نبهان بن فلاح ، فخاف منهما على نفسه . فركب [م ٣٣٩] — هو وأربعة من عساكره — بلا زانة ، وقصدوا إلى دار أخواله الريايسة ، وذلك لاثنتى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ست وعشرين بعد الألف .

وأقام الأمير عمير بن حمير وسيف بن محمد بينقل أياما . ثم إن عميرا وهب البلاد لأهلها يأكلون هنيئا مريئا ، ورجع إلى مقنيات . ثم أرسل إلى أهل

---

(١) فى الأصل (منه) .

(٢) فى الأصل (من جراحته) .

(٣) العبارة فى الأصل بها اضطراب وتكرار ، وقد اعتمدنا فى تصحيحها على ما جاء فى كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ١ ، ص ٣٩٩) .

(٤) فى الأصل (لينصرهما) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة لإيضاح المعنى .

(٦) فى الأصل (بعض) .

البلد ، فسألهم عما كان يأخذ عليهم نبهان . فقيل إنه كان يأخذ نصف غلة النخل وربع الزرع ، فاقتصر عليهم الأمير عمير بن حمير بعشر الزرع . وأما أموال السلطان [فهى](١) لمن أقام بالحصن . وجعل [فى الحصن](٢) عمر بن محمد بن أبى سعيد . ورجع الأمير عمير بن حمير وسيف بن محمد إلى بهلا .

ثم إن نبهان بن فلاح أخذ جنوداً من أخواله — آل الريس — ووصل بهم إلى الظاهرة . و دخل فدى ، وأقام فيها مدة أيام ، ثم جاء أحد ممن كان له مصاحبا من أهل ينقل من قبل ، فقال له : « نحن ندخلك البلد ، و نثبت قدمك ، و نشد عضدك ، و ننصرك [م٣٤٠] على القوم ، و نستفتح لك الحصن » . فسار بقومه ، وأدخله ينقل ليلة النصف من ربيع الآخر ، سنة ست وعشرين بعد الألف . وحكم مقابض البلاد من أولها إلى آخرها ، إلا الحصن . وكان فيه قبيلة من بنى على ، فتحصنوا ، وأحدق بهم نبهان ، واستقام بينهم القتال . فخرج رجل من أهل الحصن ، و مضى [إلى](٣) الأمير قطن بن قطن .

وكان الأمير يومئذ ناصر بن ناصر ، فركب معه محمد بن محمد بن محمد ابن جفير ، وعلى بن قطن بن قطن ، وقطن بن على بن هلال ، و ناصر ابن ناصر بن قطن ، بما عندهم من القوم . وكان مسكنهم ببادية الشمال ، فساروا حتى دخلوا ينقل . فاستقام بينهم وبين نبهان بن الفلاح القتال . واشتد الطعن والنزال ، وارتفع العجاج ، وارتجت الفجاج . فانكسر عسكر [السلطان](٤) نبهان بن فلاح ، فمنهم من قتل ، ومنهم من طلب التسيار فسير ، ومنهم من مشى على وجهه .

(١ ، ٢) ما بين الحواصر إضافات لضبط المعنى .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

وبلغ الخبر إلى سيف بن محمد الهنائى(١) أن نبهان بن فلاح دخل [٢٤١م] ينقل ، فخرج بعساكره ليقاتل نبهان . فلما كان ببعض الطريق ، بلغه ما وقع على السلطان نبهان بن فلاح من الأمر الكائن والقدرة الغالبة ، فرجع(٢) بعسكره إلى بهلا .

وأما الأمير عمير بن حمير ، فإنه كان يومئذ يجمع الجموع لينصر بهم السلطان مالك بن أبى العرب اليعربى على بنى لمك ، فأمده بعساكر جمة . وكانت الدائرة(٣) على بنى لمك .

---

(١) فى الأصل (الهناوى) .
(٢) فى الأصل (خرج) .
(٣) فى المتن (الدايرة) .

أئمة القرن الحادى عشر

ولبث سيف بن محمد الهنانى(١) فى بهلا ، وآل عمير فى سمائل ، ومالك بن أبى العرب اليعربى فى الرستاق ، والجبور فى الظاهرة . إلى أن ظهر الإمام ناصر بن مرشد اليعربى — رحمه الله — واستفتح جميع عمان ، ودانت له كافة البلدان ، وطهرها من البغى والعدوان . والكفر والطغيان ، وأظهر فيها من العدل والأمان ، وسار فى أهلها بالحق والإحسان ، إلى أن توفاه الله إلى دار الرضوان ؛ ومن عليه وعلينا بالمغفرة والرضوان . إنه كريم منان .

الإمام ناصر بن مرشد :

وسنشرح م٣٤٢ ظهوره بعد أن بغى أهل عمان بعضهم على بعض بالاغتصاب والنهب ، وصار بعضهم على بعض كالذئاب(٢) ، وانهمكوا فى الهوان والعذاب . لهم نفوس عالية ، وقلوب ضارية ؛ وهمم متطاولة . منزوعو الرحمة ، ويطلبون لأنفسهم القمة : وسلب الله منهم النعمة . حتى أيدهم الله بالامام المسدد ، والهمام المجد ، ناصر بن مرشد .

وكان ظهوره [بعدما اشتدت الفتن](٣) بين أهل الرستاق ، [ووقعت](٤) إحن بينهم وشقاق . وسلطانهم يومئذ مالك بن أبى العرب

---

(١) فى الأصل (المناوى) .

(٢) فى الأصل (كالذياب) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

اليعربى . فاستشار أهل العلم ، [و](١) أهل الاستقامة فى الدين ، أن ينصبوا لهم إماما يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر . فأمضوا نظرهم ؛ وأجالوا فكرهم ، من يكون أهلا لذلك . والقدوة يومئذ الشيخ العالم خميس ابن سعيد بن على الشقصى الرستاقى .

فاجتمعت آراؤهم أن ينصبوا السيد الأجل [ناصر بن مرشد] (٢) ، فمضوا إليه ، وطلبوا [م ٣٤٢] منه ذلك ، ورغبوه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأجابهم إلى ذلك ، فعقدوا له فى عام أربع وثلاثين بعد الألف . وكان مسكنه قصرى (٣) من بلد الرستاق . فأظهر العدل ، ودمر الجهل .

وعضده رجال اليحمد بأنفسهم ، وأمدوه بأموالهم وذخائرهم (٤) وأجمع رأيهم أن يهجموا على القلعة ليلا (٥) وكان فيها بنو عمه ، بعد موت جده مالك . فاستفتحها الإمام . ثم توجه إلى قرية نخل ، وكان فيها عمه سلطان بن أبى العرب . فحاصرها (٦) أياما ثم افتتحها . وكانت فرقة من أهلها غير تابعة للامام ، فظاهرت عليه الأعداء ، فحصروه [فى الحصن](٧) ثم أتاه رجال اليحمد ، فنصروه ، فبدد الله شمل أعدائه . ورجع (٨) إلى الرستاق . بعد أن جعل فيها واليا

---

(١) ما بين حاصرتين ضافة لضبط المعنى .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٣) فى الأصل (قصر) .

(٤) فى الأصل (ذخايرهم) .

(٥) يعنى قلعة الرستاق .

(٦) فى الأصل (محاصره) .

(٧) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ٤) .

(٨) فى الأصل (ومضى) . والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ٤) .

ثم قدمت عليه رسل من نزوى يدعونه إلى ملكها ، فأجابهم إلى ذلك .

وسار إليه بجنده حتى نزل بشرجة صفد ، من سمد الكندى(١) . وأقام بها ليلة ، ثم يفوا له بما وعدوه. فرجع إلى الرستاق . [م٢٤٤]

فأتى إليه أحمد بن سليمان الرواحى (٢) — فى جماعة من بنى رواحة ورجال من قبل مانع بن سنان العميرى (٣) . وأقاموا عنده مدة يدعونه إلى ملك سمائل ، ووادى بنى رواحة ، فأجابهم . وسار فى رجال اليحمد ، حتى وصل سمائل ، فترك بعض قومه عند مانع بن سنان . ومضى إلى وادى بنى رواحة .

واتفق الرأى منه — ومن مانع — ، [أن يتوجها](٤) إلى نزوى . وسار [الإمام](٥) إليها ، فصحبه القاضى خميس بن سعيد . ونصرته عصبة من أهل أزكى بالمال والرجال . فاحتوى على أزكى . فسار قاصداً إلى نزوى ، فالتقاه أهلها بالكرامة ، ودخلها فى حال السلامة .

وكان محله العقر (٦) ، فأقام فيها العدل والإنصاف بعض الشهور . ثم اجتمعت آراء بنى بوسعيد(٧) — وهم رؤساء العقر — أن يخرجوا منها. فلما كان يوم الجمعة ، خرج الإمام للصلاة بالجامع ، وخرجوا إلى الصلاة . فأتى إلى الإمام من كان محبا ، فأخبره بما أضمروا . فتحقق الإمام خبرهم

---

(١) فى تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ٤) « من سمد نزوى » .

(٢) فى الأصل (الرويحى) .

(٣) جاء فى تحفة الأعيان للسالمى أن مانع بن سنان العميرى كان (ملك سمائل عندئذ) .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة .

(٥) » » » .

(٦) أى أنه نزل العقر من نزوى .

(٧) كذا فى الأصل . وفى كتاب الفتح المبين لابن رزيق — ص ٢٦٥ — (بنى أبى سعيد) . وفى تحفة الأعيان السالمى — ج ٢ ، ص ٤ — (بنو أمبو سعيد) .

وأمر باحلائهم [م٣٤٥] من البلد ، ونهى عن قتلهم والبطش بهم . فأخرجوا منها كرها ، فتفرقوا فى البلدان .

والتجأ جمهورهم إلى مانع بن سنان . وكان مانع قد عاهد الإمام ، وحلف له على اتباع الحق ، فنقض العهد . وفرقة التجأت (١) إلى [سيف بن محمد](٢) الهنائى ببهلا ، ووازرته على حرب الإمام . فاستقام الحرب بين الإمام والهنائى .

وأمر الإمام بتأسيس حصن فى عقر نزوى . وكان قديما قد بناه الصلت بن مالك فأتم (٣) الإمام بنيانه .

وجاء إليه أهل منح يدعونه إلى إقامة العدل فيهم ، فتوجه إلى منح وافتتحها . فأظهر العدل فيها ، وظاهرة أهلها بأموالهم وأنفسهم ، ثم رجع إلى نزوى .

ثم أتاه أهل سمد الشان ، وكان المالك لها(٤) على بن قطن الهلالى فوجه الإمام لها جيشا يقدمهم الشيخ الفقيه مسعود بن رمضان ، فافتتحها.

ثم أتاه أهل أبرا(٥) ، وكان المالك لها محمد بن جفير بن جبر ، فجيش عليها الإمام فافتتحها .

---

(١) فى الأصل (التجت) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال الإسم ؛ وفى الأصل المناوى .

(٣) فى الأصل (فأقام) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ٥) .

(٤) فى المتن (بها) .

(٥) فى الأصل (ابرى (والصيغة المثبتة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٦٦) . وتحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ٥) .

ودانت له | م ٣٤٦ | سائر (١) الشرقية ؛ ماخلا صور(٢) وقريات ، فإنهما كانتا فى أيدى النصارى .

ثم إن الإمام جهز جيشا ؛ وسار على المناقى ببهلا . فوصل إلى قاع المرخ ، فخان بعض جيشه فرأى الرجوع أصلح .

فرجع إلى نزوى ، فجعل يجمع الجيوش والعساكر ، فاجتمع له جمع كثير . فسار بهم قاصدا إلى الظاهرة ، وافتتح بهم وادى فدى ؛ وأمر ببناء حصنها . ونصره أهل العلاية من ضنك ، وكان مقدمهم خميس بن رويشد العالم ، ورجال الغياليز . واستقام أمره بها على رغم القالين .

ثم خرج الإمام يطوف على البلدان التى ملكها ، حتى وصل إلى سعد الشان . ورجع إلى الرستاق ، ومعه بنو ريام . إلى أن أقبل جند محمد ابن جفير إلى قرية نخل(٣) ، فدخلوها واحتووا عليها ، ماخلا الحصن ؛ فنهض عليهم الإمام بجيش عرمرم ، ونصره رجال المعاول ، فما لبث جند محمد بن جفير فيها ليلة أو ليلتين ، حتى ولى الأدبار .

ثم رجع الإمام إلى الرستاق ، فأقبل | م ٣٤٧ | إليه الشيخ خميس بن رويشد يستنصره على الظاهرة . فجهز الإمام جيشا ، وسار عنده ، حتى نزل بالصخبرى . ونصره أهل السر(٤) ورجال الضحاحكة بالمال والرجال .

ومضى قاصدا حصن الغبى ؛ وفيه جمهور آل هلال ، ومعهم البدو

---

(١) فى الأصل (ساير) .

(٢) صور بلد على ساحل عمان مقابل جعلان ، وقرى جعلان جميعا لها أعمال ، عمرت بعدما خربت قلهات ، عمرها آخر ملوك بنى نبهان (الشعاع الشائع باللمعان ، ص ٩٦) .

(٣) يعنى أن محمد بن جفير خرج على الإمام ، وهجم بجنده على قرية نخل ، فدخلوها . (أنظر تحفة الأعيان للسالمى ج ٢ ، ص ٦ ؛ الفتح المبين لابن رزيق ، ص ٢٦٦) .

(٤) فى الأصل (أهل السرور) وهو تحريف .

والحضر . فاستقام بينهم الحرب . وكانت وقعة عظيمة . قتل فيها أخو(١) الإمام جاعد بن مرشد .

ثم توجه [الإمام](٢) إلى عبرى فافتتحها ، وأقام الإمام بها ليلتين . ورجع [إلى](٣) الصخبرى وحصر حصن الغبي حتى فتحه الله له ، فولى فيه خميس بن رويشد . وجعل بقرية بات واليا من أهل الرستاق ، وجعل معه محمد بن سيف الحوقانى ، وأمرهما بفتح ما بقى من قرى الظاهرة . ورجع الإمام إلى نزوى .

[فأذعنت للإمام قرى الظاهرة ، إلا بلدة ضنك فإنها قد استولى يومئذ عليها بنو هلال](٤) ، وكانوا بناحية الأفلاج من ناحية ضنك . فالتقاهم الواليان(٥) بالدير(٦) ، ففضّا جمعهم ، وأخذوا إبل قطن بن قطن ليتنصروا بها عليهم . وحاصروا حصن [٣٤٨م] قطن بن قطن ، فركب قطن إلى الإمام ، ففدى(٧) إبله بتسليم حصنه(٨) . فأنعم له الإمام برد الإبل ، وسلم الحصن ، فأقام له الإمام واليا .

---

(١) فى الأصل (أخ الأمام) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٤) العبارة مضطربة فى الأصل ، نصها (ورجع الإمام إلى نزوى ، فغزا بها آل هلال ، وكانوا بناحية الأفلاج من ناحية ضنك) . وما بين حاصرتين من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٦٧) .

(٥) يقصد بالواليين هنا الوالى الذى عينه الإمام على حصن بات ، والشيخ محمد بن يوسف الحوقانى الذى جعله الإمام مع الوالى المذكور ، كما سلف فى النص .

(٦) اسم موضع سبق ذكره .

(٧) فى الأصل (ففدا) .

(٨) يعنى حصن ضنك .

ثم توجه الولاة(١) إلى حصن مقنيات ، فحاصروه . وكان به وزير من قبل الجبور(٢) . فجيَّش الجبور بنى هلال — من بدو وحضر — وأولاد الريس ، ونهضوا إلى مقنيات ، فظنوا أن لاطاقة لهم بها(٣) فقصدوا إلى بات ، فخاف الولاة عليه الغلبة [لقلة الماء](٤) ولأنه عليه المعتمد .

فسار المسلمون من مقنيات ، ولم تشعر بهم الجبور . فوقع القتال بينهم ثم رجعت الجبور إلى مقنيات ، فسار إليهم المسلمون : فوقع بينهم القتال من صلاة الفجر إلى نصف النهار . فشق ذلك على المسلمين . وكثر القتل فى البغاة حتى قيل إنهم عجزوا عن دفنهم . وكانوا السبعة والثمانية فى خبة واحدة(٥) . وثبت الله المسلمين .

فلما بلغ الخبر إلى الإمام ، جيَّش جيشاً ، وأمَّ به | م ٣٤٩ | الهنائى(٦) بهلا . وكان دخوله بهلا ليلة عيد الحج ، فحاصرها شهرين إلا ثلاثة أيام . ثم أقبلت الجبور لنصرة الهنائى (٧) ، فالتقتهم جحافل الإمام ، فاقتتلوا قتالا شديداً [وقتل] (٨) من جيش [الجبور] (٩) قاسم بن مذكور

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى كتاب الفتح المبين لابن رزيق (توجه الواليان) وهى الصيغة الأصوب .

(٢) فى الأصل (فكان به وزير من قبل الوزير من قبل الجبور) وهو تحريف . والجبور قبيلة .

(٣) فى الأصل (بهم) .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢١ ، ص ٦) .

(٥) الخب والخبيب : الخد فى الأرض (لسان العرب) .

(٦) فى الأصل (المناوى) .

(٧) » » » .

(٨ ، ٩) ما بين حاصرتين تكملة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ٧) .

الدهمشى ، وأناس كثير . فرجع الجبور وبقى المنانى (١) ومن معه محصورين ، حتى سلم الحصن ، وخرج منه جميع رجاله ، وآلة حربه وماله . وبقى الحصن خالياً ، فأقام الإمام به والياً ، ورجع إلى نزوى .

ثم توجه الإمام قاصداً إلى سمائل ، لمحاربة مانع بن سنان العميرى . فلما سمع مانع بإقبال الإمام إليه ، لم يمتنع منه . وصالح الامام على أن لا يخرجه من حصنه ، بل يكون تابعاً للحق . فتركه الإمام ، ثم عزم الإمام على بنيان حصن سمائل القديم ، فأسس بنيانه ، وشيد أركانه ، وجعل فيه والياً ، ورجع إلى نزوى .

ثم جهز [الإمام] (٢) جيشاً إلى مقنيات ، وسار إليها . فلما وصلها وقعت بينهم الحروب ، فنصره الله [م ٢٥٠] عليهم ، [فما] (٣) لبثوا فى حصنهم [إلا] (٤) دون ثلاثة أشهر . وافتتح الإمام الحصن ، وجعل فيه محمد بن على بن محمد والياً .

[فلم يزل سعيد الحيالى وجماعته مسرين البغض للإمام ، يكاتبون الجبور حتى أدخلوهم قرية الصخبرى ، وقتلوا رجلا من الضحاحكة وناساً من شراة الإمام وغيرهم . وحصل فيها جيش الإمام فى الحال : فوقعت فيها وقائع (٥) كثيرة : منها بالعجيفة وهى وقعة شديدة ، ووقعة بالغابة ، ووقعة بالمطهرة ، ووقعة بالزيادة . ووقائع (٦) شديدة . حتى كاد ركن الإسلام يتضعضع .

---

(١) فى الأصل (المناوى) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٣) فى الأصل (حتى) .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة .

(٥) فى الأصل (وقايع) .

(٦) » » »

وكثير من القوم أدبر عن الوالى ، وما بقى عنده إلا قليلا . وهو فى حومة العدو ، والجموع مشتملة عليه ، حتى كاد يوهى عزمه من الخوف . فبقى فى حصن الغبى محصوراً ، والوالى فيه محمد بن سيف . وتصحح الخبر عند الوالى محمد بن على فى مقنيات ، فجيَّش الجيوش ، وقصد ناصراً لمحمد بن سيف بحصن الغبى . فدخل البلد من غير علم الأضداد |م ٣٥١| وفرق شملهم فى سائر (١) البلاد ، فمنهم من دخل الصخبرى ، ومنهم من هرب فى الفياق ، ومنهم من قصد ينقل ، وهى ملك ناصر ابن قطن بن جبر . ونصر الله المسلمين .

ثم إن مانع بن سنان كاتب سيف بن محمد الهنائى (٢) بالكتمان، ونكث العهد وخان . وجيش الجيوش . ودخلا نزوى ولم يخلوا أهلها من الخديعة والعصيان ، بل كان ذلك سراً بينهم . وظاهرهم على ذلك بعض القبائل ، فدخلوا نزوى ، واحتووا على العقر ، وما بقى للإمام سوى الحصن . وداروا به أشد مدار ، وكادوا لكثرتهم أن يهدموا عليه الجدار . حتى جاءتهم النصرة من أزكى وبهلا ، ومعهم بنو ريام . فدخلوا على الإمام ، فسر بقدومهم . فتفرقت عنه جيوش أعدائه ، وقتل منهم من قتل .

فحينئذ اشتد عزم الإمام ، وقوى سلطانه . فأشار على الإمام ذوو الرأى بهدم حصن مانع بن سنان . فعلم مانع بتجهيز الجيش |م ٣٥٢| إليه، فانهزم من حصنه إلى فنجا (٣) . وجاء الجيش ، فهدم الحصن ، وقصد مانع ابن سنان إلى مسكد . ثم سار إلى لوى [عند] (٤) محمد بن جفير .

---

(١) فى الأصل (ساير) .

(٢) فى الأصل (المناوى) .

(٣) بلدة فى وادى سمائل .

(٤) فى الأصل (مع) .

ثم وجه الإمام الجيش إلى بلاد سيت (١) . وذلك أن سيف بن محمد الهنائي (٢) ، لما خرج من بهلا ، بنى (٣) حصنا ببلاد سيت ، وكان قائد (٤) الجيش عبد الله بن محمد بن غسان ، مؤلف كتاب «خزانة الأخيار فى بيع الخيار» . فلما نزل الجيش إلى بلاد سيت ، خرج الهنائي (٥) من الحصن هارباً ، فأمر الوالى بهدم حصنه فهدم . ثم أتى الهنائى (٦) إلى الإمام يطلب منه العفو والغفران ودانت للإمام جميع القبائل من عمان .

ثم جهز الإمام جيشاً عظيما ، وسار فيه بنفسه – و[قاضيه] (٧) الشيخ خميس بن سعيد الرستاقى – قاصداً ناصر بن قطن فى (٨) ينقل ، فحصرها أياماً وافتتحها ، وجعل فيها والياً . ورجع إلى الرستاق .

ثم جهز جيشاً قوياً ، وأمر عليه الشيخ عبد الله بن محمد بن غسان النزوى . وأمره أن [م ٣٠٣] يقصد الجو . وصحب الجيش الشيخ خميس بن رويشد الضنكى ، وحافظ بن جمعه الهنوى ، ومحمد بن على الرستاقى ، ومحمد بن سيف [الحوقانى] (٩) والياً . ثم قصد بالجنود متوجهاً إلى قرية لوى .

وذلك أن الجبور اختلفوا فيما بينهم ، وقتل محمد بن جفير . ووقعت بينهم العداوة . فنزل عبد الله بالخامع منها ، ودارت عساكره بالحصن.

---

(١) دار سيت .
(٢) فى الأصل (المناوى) .
(٣) فى الأصل (بنا) .
(٤) فى الأصل (قايد) يعنى قائد جيش الإمام .
(٥) فى الأصل (المناوى) .
(٦) فى الأصل (المناوى) .
(٧) ما بين حاصرتين إضافة .
(٨) فى الأصل (إلى) .
(٩) مابين حاصرتين اضافة من تحفة الأعيان السالمى ج ٢ ص ٩ .

وكان مالكه سيف بن محمد بن جفير الهلالى . وأما إخوته ووزراؤه ، فالتجأوا إلى النصارى بصحار . وكان مانع بن سنان العميرى يومئذ بها (١) . وكانوا (٢) يغزون لجيش الإمام المحاصرين لحصن لوى بالليل، ويمدون جماعتهم بالطعام وآلة الحرب .

ثم كاتب أبناء محمد بن جفير يسعون فى أنواع الصلح . فعلم الوالى أنها خديعة ، فجهز لهم جيشا ، فأمر عليه محمد بن على . فسار محمد بمن معه ، فهجم عليهم قبل الفجر : وهم بالموضع المسمى المنقل ، مما يلى الجنوب من الحصن ، على ساحل البحر . فدارت بينهم رحى الحرب ، واشتد بينهم الطعن والحرب . | م ٣٥٤ |

ثم رجع محمد [بن على] (٣) بمن معه إلى حصن لوى ، فلم يزالوا محاصرين الحصن ، حتى أرسل إليهم سيف بن محمد يريد الأمان ليخرج من الحصن . فأعطاه الوالى الأمان ، فخرج بمن معه ، ودخل الوالى الحصن . وقد ساعد الوالى على حصر الحصن ناصر بن قطن(٤) ، ورجال العمور(٥) وجعل عبد الله [بن محمد] (٦) فى الحصن [محمد بن على](٧) واليا من جانبه (٨) ، ورجع هو إلى الإمام .

ثم جهز الإمام جيشا ، وأمر عليه الشيخ مسعود بن رمضان ، وأمره

---

(١) يقصد بلوى — فى حصنه — مع سيف بن محمد بن جفير .

(٢) الضمير عائد على إخوة سيف بن محمد بن جفير ووزرائه الذين التجأوا إلى النصارى فى صحار .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال الإسم .

(٤) أنظر كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٧١) ، وتحفة الأعيان للسالمى ج ٢ ص ٩ .

(٥) فى الأصل (الجبور) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى ج ٢ ، ص ٩ .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٧١) .

(٧) » » » » » » » .

(٨) فى الأصل (من جنابه) .

أن يقصد بهم مسكد . فسار حتى نزل طوى الرولة من المطرح (١) ، فدارت رحى المنون بين [المسلمين] (٢) والمشركين ؛ فنصر الله المسلمين ، فهدوا من مسكد بروجاباذخة شامخة ، وقتل من المشركين خلق كثير . ثم إنهم طلبوا الصلح ، فصالحهم الوالى على فك مابأيديهم من الأموال التى للعمور والشيعة من صحار . فأذعنوا بالطاعه ، فأمنهم على ذلك ، وأخذ منهم العهود على الوفاء . [م ٣٥٥] ورجع إلى الإمام .

ولم يزل مانع بن سنان كامن العداوة للإمام ، قادحا فى ملكه [و](٣) فى فساد الدولة . فستأذن مداد بن هلوان الإمام فى قتل مانع بالخديعة ، فأذن له . فكاتبه مداد ليدخله حصن لوى ، وطمعه فيه بلطف كلامه . وكان فى لوى حافظ بن سيف [واليا] (٤) . ولم يزل مداد يكاتب [مانع ابن سنان] (٥) العميرى بالمودة والنصيحة ، ويحلف له بالإيمان الصحيحة . لئلا يدخل فى قلبه الظنون القبيحة .

ففرح بذلك مانع ، واستبد برأيه . وكان مسكنه قرية دبا (٦) ، فركب منها إلى صحار ، فأقام بها أياما ينتظر [العون] (٧) من مداد . فجدد له مداد العهود على ما وعده ، فركب [مانع] (٨) إلى لوى ؛ ونزل بها بعد ماضمن له مداد بدخول الحصن وواعده على ليلة معلومة . فلما كانت(٩)

---

(١) طوى الرولة ، مزرعة شجر الرولة ، والمطرح مدينة غربى مسقط .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى . وكانت مسقط (مسكد) عندئذ بيد النصارى من البرتغاليين .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٦) قرية على الساحل .

(٧) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٨) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

(٩) فى الأصل (كان) .

تلك الليلة فرق الوالى العسكر يدورون فى البلاد — كأنهم يسيرون — وتعاهدوا أن يلتقوا على مانع من اليمين والشمال . فلم يدر مانع إلا وقد [م ٣٥٦] أحاطت به الرجال من يمين وشمال . فأخذ حينئذ قهرا ، وقتل صبرا ، وتفرقت جنوده ، وقتل من بقى معه .

ثم إن الإمام جهز جيشا ، وجعل عليه على بن أحمد ، وعضده ببنى عمه من آل يعرب . وأمره بالمسير إلى قرية جلفار — وهى الصير — وكان المالك لها يومئذ ناصر الدين العجمى ، وعنده عساكر من العجم . فحصرهم على بن أحمد بحصن الصير ، فنصبوا له الحرب . وقوى بينهم الطعن والضرب . وظاهرتهم فرقة من أهل الصير على جيش الإمام .

وكان بحصن الصير برج معتزل له جدار متصل بالحصن ، وفيه قوم تقاتل بالليل والنهار . وكانت غربان (١) النصارى فى البحر تدفع بمدافعها المسلمين عن الحصن . فعزم المسلمون على الهجوم على البرج ، فهجموا عليه ليلا وأخذوه قهراً . ومالوا على الحصن فافتتحوه ، وجعل فيه قائد(٢) الجيش واليا .

ثم أقبل بعض الجيش ، وفيهم الدهامش وخميس بن مخزوم . [فزحفوا بجلفار] (٣) . وكان فيها حصن على [م ٣٥٧] الساحل للأفرنج ، فدخل الجيش [تلك الجهة] (٤) نهاراً ، وأحتووا عليها ، وحصروا من كان فى الحصن ، وبنوا فيها حصناً . فذلت دولة المشركين ،

---

(١) الغربان ومفردها غراب ، نوع من السفن الحربية تركب فيها المقاتلة والرماة . (ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٩ — ٣٤٠) .

(٢) فى الأصل (قايد) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح (الفتح المبين لابن رزيق ، ص ٢٤٧) .

(٤) فى الأصل (فدخلها الجيش نهاراً) . وما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

وطلبوا الصلح ، فصالحهم الوالى ، فهبطوا من الحصن . فجعل الوالى فيه والياً ، وترك معه بعض العسكر .

ورجع على بن أحمد بمن معه من العسكر إلى نزوى ، فاستبشر الإمام بقدومه وبفتح الصير .

ثم إن الإمام [اتفق](١) ووالى لوى — وهو حافظ بن سيف — ، وكان معه رجال من العمور شراة ، أن يصير إلى صحار ، ويبنى فيها حصناً . فأرسل الوالى إلى من بقربه من القرى من بنى خالد وبنى لام والعمور ، فاجتمعت عنده عساكر كثيرة . وكان رجال من صحار يدعونه إلى ملكهـا ، فمضى بجيشه ، وبات بقرية عمق ، وصبح للبلد ضحى . ولم يعلم به أحد من الأعداء . وذلك آخر يوم من المحرم سنة ثلاثة وأربعين بعد الألف . فأناخ بمكان يسمى البدعة من صحار .

وصار المشركون على المسلمين ، وأشتد بينهم الطعن والضرب . [وزحف المسلمون على المشركين حتى وصلوا إلى حصن ابن الأحمر](٢) . وكانت [م ٣٥٨] النصارى تضرب بمدافعها من الحصن . ثم انتقل الوالى من مكان إلى مكان آخر ، ولم تزل الحـرب بينهم وضرب المدافع . وجاءت ضربة مدفع فأخترقت القـوم حتى وصلت مجلس الوالى ، وأصابت راشد بن عباد ، فمات شهيداً ، رحمه الله . فعزم الوالى على بناء حصن ، فأمر بتأسيسه فى الحال ، حتى تم بنيانه ، فنزل به الوالى . ولم تزل الحرب بينهم قائمة الليل والنهار .

ثم إن القاضى خميس بن سعيد الرستاقى سار بمن معه قاصداً قرية

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى ، من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٢) .

بوشر ، فأرسلت إليه النصارى بالصلح ، فأعطاهم الصلح . ثم بعث رسله إلى مسكد . ثم ركب حتى أناخ بالمطرح ، وجاءت وجوه النصارى إليه ، فاصطلحوا . وأمر الشيخ خميس بفك المقابض عنهم ، ورخص للناس فى السفر إليهم ، وكف الأيدى عن القتال »

ثم إن الإمام جهز جيشاً إلى صور ، فحاصرها الجيش حتى فتحوها . وسار بعض الجيش إلى قريات ، وكان بها حصن للنصارى ؛ [م ٣٥٩] فبنى المسلمون فيها حصنا ، وفتحوا حصن النصارى . واحتوى [الإمام] (١) على جميع إقليم عمان ، ما خلا صحار ومسكد [ففيهما النصارى على الصلح السابق تحت الطاعة] (٢) .

ولم يزل ناصر بن قطن يغزو [بادية] (٣) عمان بمن معه من الأحساء [التى هرب إليها بعد خروجه من ينقل] (٤) ، ويأخذ من بوادها المواشى ويكسب وينهب فى كل سنة ، ويرجع إلى الأحساء . فكتب الإمام إلى واليه محمد بن سيف الحوقانى أن تجسس عن قدوم ناصر ، وإذا علم به التقاه بالجيش دون عمان . فجمع الوالى دونه العساكر من البدو والحضر . فلما علم بقدوم ناصر تلقاه :

فلما علم ناصر بجيش الإمام قصد الظفرة ، ودخل حصنها ، وتعصب له بنو ياس (٥) . ووجه ناصر رسله إلى الوالى يطلب الصلح . وكان قد قل على الوالى الزاد ، وتعذرت عليهم البلاد . فصالحهم على رد ما نهبوه وغرم ما أتلفوه مما كسبوه . ورجع الوالى بمن معه .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لإيضاح المعنى .

(٣) فى الأصل (يغزوا عمان) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمى ج ٢ ، ص ١٢ .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ١٢) .

(٥) قبيلة من عدنان .

وأما ناصر ، فإنه جمع البدو من الظفرة ، وعزم على الهجوم على حصن الجو ، وكان فيه أحمد بن خلف فى ذلك اليوم | م ٣٦٠ | والياً . وتابع ناصراً كافة أهل الجو ، وأعانوه على الوالى . وداروا بالحصن ، فعلم به الولاة من الباطنة والظاهرة . فأتوا أحمد بن خلف . فخرجت جيوش الأعداء منها .

ثم أقبل الوالى الأكبر [عبدالله بن محمد] (١) من نزوى بجيشه ، فأمر بهدم حصون الجو كافة ، ما خلا حصن الإمام . وتفرقت الأعداء : وأما عمير بن محمد ، [فقد] (٢) مضى مع النصارى بصحار . والباقون قصدوا العقبة من جلفار ، فكانوا يقطعون الطرق ، ويغزون البلدان . فسارت عليهم الولاة ، فقتل من قتل منهم ، وانهزم من انهزم . وأخذ الوالى إبلهم ورجع إلى عمان .

وأما ناصر بن قطن — ومن معه — فمضى إلى الباطنة ، فهجم على بلدان بنى خالد وبنى لام ، فأخذوا وسلبوا ما على النساء من الحلى والحلل ورجعوا بما أخذوا إلى الأحساء .

ثم إن ناصر بن قطن أتى إلى عمان ثانية ، وقصد الباطنة للنهب والسلب . فجهز له الإمام جيشاً ، وأمر عليه على بن أحمد ، وعضده بمحمد بن صلت الريامى ، وعلى بن محمد العبرى ، وأحمد بن بلحسن البوشرى . فمضوا إلى قرية لوى .

فأقبل ناصر بن قطن بقومه . فوقع بينهم الحرب . ثم ركب ناصر إلى مجيس ، فاتبعه الوالى بمن معه . ثم ركب ناصر قاصداً إلى أرض الشمال .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى ، من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ١٣).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى .

فركب الوالى فى طلبه . فكان أول من لحقه أحمد بن بلحسن البوشرى ، ومراد ، وراشد بن حسام ، وبعض الشراة ، بموضع يقال له الحروس . فوقع القتل فى المسلمين قبل أن يتكامل جيش الإمام . فقتل المقدمون جميعاً ، ولله الدوام .

فلما وصل الجيش ، رأوا أصحابهم صرعى ، ولم يروا أحداً من جيش ناصر . ثم إن ابن حميد — وهو محمد بن عثمان [الخالدى ، وكان من أصحاب ناصر بن قطن] (١) غزا بلاد السر . وكان الوالى فيها محمد ابن سيف (٢) الحوقانى ، وكان بها يومئذ سعيد بن خلفان. فطلب سعيد من ابن حميد المواجهة (٣) [للمشافهة] (٤) ، فتواجها بمسجد الشريعة من الغبى . فسأله أن يرد ماكسبه ونهبه ، فأبى وازداد عتواً ونفوراً . فأمر سعيد [م ٣٦٢] بأسره ، وقُيد فى حصن الغبى .

ومضى سعيد إلى الرستاق ، فأخبر الإمام أن محمداً بن عثمان فى حصن الغبى ، فأمر الإمام بإتيانه إلى الرستاق . فأتى به مقيداً ، فأقام فى الحبس سبعة أشهر وتوفى .

ثم إن الإمام جهز جيشاً ، وأمر عليه سعيد بن خلفان ، وعضده بعمير ابن محمد بن جفير ، فساروا قاصدين إلى أخذ إبل ناصر بن قطن الهلالى . فالتقهم بنو ياس دون الإبل ، بموضع يقال له الشعب (٥) ، قريباً من

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٤) . جاء فى الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان لابن رزيق (ص ٢٢٣) . أن محمد بن عثمان (يسمى حميد بن عثمان) .

(٢) فى الأصل (محمد يوسف الحوقانى) وهو تحريف .

(٣) فى الأصل الواجهة .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٥) .

(٥) فى الأصل (الشقب) والصيغة المثبتة من كتاب الشعاع الشائع (ص ٢٢٤) ؛ وكتاب الفتح المبين لابن رزيق (٢٧٨) . وفى كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٥) الشعبية .

الظفرة . فوقع بينهم الحرب . وكان مقدم بني ياس سقير (١) بن عيسى ؛ فقتل هو وأخوه محمد وجماعة من قومه . فطلب القوم العفو من الوالي ، فعفا (٢) عنهم ، ورجع الجيش . فأمرهم الإمام أن يمضوا إليه .

[وفي أثناء سيرهم بحثوا عن إبل ناصر بن قطن] (٣) ، فوجدوها سائمة ، فأخذوها ، وجعلوها أمانة مع عمير بن محمد بن جفير . وكان له أخ يسمى عليا ، فأشار عليه بعض خدامه أن يدخل بها على ناصر بن قطن . فمضى بها إليه . فلم يزالوا يغزون عمان حتى خافت منهم البدو [م ٣٦٣] والحضر ، والتجأت (٤) البادية إلى البلدان .

ثم أقبل ناصر غازياً ، وأناخ بجيشه ناحية الجنوب . ووجه أصحابه لقطع الدروب ، فوجه إليه الإمام جيشاً ، وأمر عليه سيف بن مالك ، وسيف ابن أبي العرب وحزاما [بن عبد الله] (٥) . فبادرت أول زمرة من جيش ناصر بن قطن ، فقتلوا [البغاة] (٦) جميعاً مع قلتهم وكثرة عدوهم (٧) . وسار ناصر بن قطن إلى الأحساء ، ورجع الجيش (٨) .

---

(١) كذا في الأصل وكذلك في كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٧٨) . وفي تحفة الأعيان للسالمي (ج ٢ ، ص ١٤) صقر بن عيسى .

(٢) في الأصل (فعفى) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٤) في الأصل (والتجت) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٧٩) . وجاء الإسم في صورة (حزام بن قمقام) في الشعاع الشائع (ص ٢٢٦) .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٧٩) .

(٧) في الأصل (فقتلوا جيمعاً لقلتهم وكثرة عدوهم) والصيغة المثبتة من كتاب الفتح المبين (ص ٢٧٨) .

(٨) هذا المعنى الذي يؤكده ابن رزيق من انتصار جيش الإمام ، يخالف الرواية التي جاءت في تحفة الأعيان للسالمي (ج ٢ ، ص ١٥) والتي يفهم منها انكسار مقدمة جيش الإمام : « فبادرهم العدو قبل أن يتكاملوا ، فقتلوا عن آخرهم ... ورجع الجيش وقد أصيبوا بإخوانهم .. »

وأظهر الله إمام المسلمين على جميع الباغين . فأخرجهم من ديارهم ، وابتزهم من قرارهم (١) ، واستوثق مردتهم ، وأهان عزيزهم ، وقمع ظالمهم ، ومنع غاشمهم . وأمكنه الله منهم ، وأعانه عليهم ، وأيده بنصره ، وأمده بتوفيقه ، حتى استقام الإسلام وظهر ، وخفي الباطل واستتر . وأفشى (٢) العدل بعمان وانتشر ، فعم البدو والحضر .

ولم يبق إلا طائفة (٣) من النصارى ، متحصنين بسور مسكد ، بعد أن نصب لهم الحرب [م ٣٦٤ ا] ، حتى وهنوا وضعفوا . ووهى سلطانهم وتفرقت أعوانهم . وكاد الموت والقتل يأتي على أكثرهم .

فتوفاه الله (٤) وجميع أهل الخير عنه راضون ، وكانت وفاته يوم الجمعة لعشر ليال خلون من شهر ربيع الآخر ، من سنة تسع وخمسين سنة [بعد الألف] (٥) من الهجرة . كما قال الشاعر في تاريخه :

فبالجمعة الزهراء مات ابن مرشد
لعشر من الشهر الربيع المؤخر
وخمسون مع تسع وألف تصرمت
لهجرة هادينا النبي المطهر

وكانت مدة ملكه ستاً وعشرين سنة . وقبر في نزوى مع مساجد العباد . وقبره مشهور داخل القبة ، والله أعلم .

---

(١) كذا في الأصل . وفي كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٧٩) . جاءت العبارة (من قرارهم) .

(٢) في الأصل (وأفشا) .

(٣) في الأصل (طايفة) .

(٤) يعني الإمام ناصر بن مرشد .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

فصل فى فضائل الإمام ناصر بن مرشد رحمه الله

له فضائل مشهورة . فمنها أنه كان رجل نائماً فى مسجد قصرى (١) من الرستاق . فرأى كأن فى إحدى زوايا المسجد سراجاً مضيئاً . فلما انتبه رأى فى تلك الزاوية الإمام مضطجعاً ، وذلك قبل أن تعقد له الإمامة .

وقيل [م ٣٦٥ ا] إن أمه كان لها زوج بعد أبيه ، فكان الإمام — رحمه الله — يأمرها أن تصنع طعامه قبل طعامهم ، لئلا تبقى بقية من طعام زوجها من العجين ، فيدخل فى طعامه . فخالفت يوماً أمره ، فعجنت طحين زوجها ثم خبزته ، ولم تغسل الوعاء ، وصبت طحين الإمام فى ذلك الوعاء . فقيل إن يدها لصقت بالطوبج (٢) ، ولم تقدر بنزعها حتى رضى عنها .

ومن فضائله — رحمه الله — بعد ما عقد له ، قيل كان أناس من أهل النفاق مجتمعون فى بيت رجل منهم ، يسبون الإمام بكلام قبيح ، فنهتهم زوجة ذلك الرجل ، فلم ينتهوا . فخرجت عنهم ، فخر عليهم سقف البيت ، فماتوا جميعا .

ومن فضائله — رحمه الله وغفر له — قيل إن مطية أكلت من طعام بيت المال ، فتحرشت . فلم تزل كذلك حتى رأت الإمام ، فأتت إليه ، فوضعت رأسها على منكبيه . فلم تزل كذلك حتى جاء ربها ، فسأله الإمام عن حالها ، فأخبره أنها أكلت [م ٣٦٦ ا] من طعام بيت المال فتحرشت . فرضى له الإمام وأحله ، ومسح بيده الكريمة على رأسها ، فبرئت مما بها .

ومن فضائله — رحمه الله — قيل إن جراب تمر أشبع أربع مائة رجل

---

(١) فى الأصل (قصرا) .

(٢) إناء يعجن فيه الطحين .

[من قومه](١) :

ومن فضائله — رحمه الله وغفر له ونور ضريحه — انه كان ذات ليلة نائما فوق سطح فى أيام الحر ، إذ أتى إليه رجل يريد أن يقتله . فوقف على رأس الإمام — والإمام نائم — وفى يده خنجر مشحوذة . فلم يقدر أن يضرب الإمام ، وأمسك الله على يده ، حتى انتبه الإمام ، فرآه واقفا على رأسه ، وبيده خنجر مشحوذه . فسأله ما يريد . فقال : « ما يسعنى غير عفوك » . فعفى عنه ولم يعاقبه .

ومن فضائله — رحمه الله — أن بدوياً ضلت له ناقة ، فمضى فى طلبها . فبينما هو يمشى ، إذ رأى أثر قدم إنسان ، فاستعظم ذلك القدم . فجعل يقصها حتى انتهت به [إلى](٢) غابات شجر . فسمع صوتا من داخل الشجر : : مطيتك فى موضع كذا ، فامض إليها . وقل للإمام ناصر بن مرشد يلزم هذه السيرة فإنها سيرة النبى صلى الله [م ٣٦٧] عليه وسلم » . فمضى البدوى مرعوبا ، وقصد الموضع الذى وصفت له فيه ناقته ، فرى مطيته فى الموضع الموصوف . ثم مضى إلى الامام . ورأى الإمام فى نومه أن بدويا أتاه يبشره [أنه](٣) على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . فلما وصل إليه البدوى ، رآه فى يقظته(٤) ، كما رآه فى نومه ، [فحدثه](٥) ، بما جرى عليه وبما سمع . فحمد الإمام الله على ذلك ، وأمر للبدوى بنصف جراب تمر ، وبنصف جرى حب(٦) وثوب . فمضى البدوى شاكراً ، ولفضل الإمام ذاكراً .

ومن فضائله — رحمه الله — أنه كان يُعطى نفقة — له ولعياله — من

---

(١) ما بين حاصرتين تكملة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٧) .

(٢ ، ٣) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٤) فى الأصل (فى يقضته) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٦) فى الأصل (حرب) .

بيت المال . ولم يكن لهم صفرية(١) يطبخون فيها طعامهم . فكانت زوجته تنقص من النفقة قليلا قليلا ، حتى باعته ، واشترت منه صفرية . فلما رآها الإمام سألها « من أين لك هذه الصفرية؟ » فأخبرته بما صنعت . فقال لها : « استعمليها ، وهي لبيت المال . » . وأمر وكيل الغالة(٢) أن ينقص من نفقتهم قدر ما كانت هي تنقصه ، والله أعلم .

وقيل إن القاضي |م٣٦٨| محمد بن عمر دخل ذات يوم على الإمام ، فرآه متغير الوجه ، فسأله عن حاله فلم يخبره ، فألح عليه ، فأخبره أنه لم يكن معه شيء ينفقه على عياله لسنة العيد . فذكر محمد بن عمر للوالي أن يدفع له شيئاً(٣) من الدراهم من بيت المال . فقيل إنه دفع له عشر محمديات ، والله أعلم .

وفضائله لا تحصى ، رحمه الله .

---

(١) الصفر : النحاس الجيد ، وقيل ضرب من النحاس تصنع منه الأواني . والصفار : صانع الصفر (لسان العرب) . ومن الواضح أن المقصود بالصفرية قدر من النحاس يطهى فيه الطعام

(٢) المقصود الغلة ، وهو الدخل الذي يحصل من الزرع والثمر وغير ذلك . قال ابن الأثير في تفسير الحديث (الغلة بالضمان) إن الغلة تعني الخراج (لسان العرب) .

(٣) في الأصل (يشاء من الدراهم) .

ذكر الأئمة بعد ناصر بن مرشد

الإمام سلطان بن سيف :

ثم إن المسلمين ، لما مات الإمام ناصر بن مرشد — رحمه الله — عقدوا للإمام سلطان بن سيف بن مالك اليعربي ، رحمه الله (١) . فقام بالعدل ، وشمر وجاهد في ذات الله ، وماقصر . ونصب الحرب لمن بغى من النصارى عسكد . وسار لهم بنفسه ، حتى نصره الله عليهم وافتتحها . ولم يزل يجاهدهم في البر والبحر . فاستفتح كثيرا من بلدانهم ، وخرب كثيرا من مراكبهم ، وغنم كثيرا من أموالهم .

فيقال إنما بنى (٢) القلعة التي بنزوى من غنيمة الديو [من أرض الهند](٣) ، وقد لبث في بنائها اثنتي عشرة سنة . وأحدث [م ٣٦٩] فلج البركة بين أزكى و نزوى ، وهو أقرب إلى أزكى .

وربما تكلم متكلم في إمامته من أسباب التجارات لأن له وكلاء معروفين بالبيع و الشراء ، وجمع مالا .(٤)

---

(١) في الأصل (رحمه الله في ذلك) .

(٢) في الأصل (بنا) .

(٣) في الأصل (الديور) . وما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمي (ج ٢ ، ص ٤٥) ، لتوضيح المعنى .

(٤) دأب بعض الخلفاء والسلاطين في الدولة الإسلامية على استثمار أموالهم في التجارة ، حتى صار لهذه التجارة ديوان اطلق عليه اسم (المتجر) . وقد انتقد ابن خلدون هذا التصرف من جانب الحكام واعتبره منافسة غير مشروعة لرعاياهم ، لأن (الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون ، ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم . فإذا رافقهم السلطان في ذلك — وماله أعظم كثيراً منهم — فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته) .

(مقدمة ابن خلدون ، الفصل الأربعون ، ص ٢٨١) .

واعتمرت عمان فى دولته وزهرت ، واستراحت الرعية فى عصره وشكرت . ورخصت الأسعار ، وصلحت الأسفار . وربحت التجار ، وسدت الأثمار (١) .

وكان متواضعا للرعية ، ولم يكن محتجبا عنهم . وكان يخرج فى الطريق بغير عسكر ، ويجلس مع الناس ويحدثهم ، ويسلم على الكبير والصغير ، والحر والعبد .

ولم يزل قائما مشمراً حتى مات ، رحمه الله ، وغفر له . وقبر حيث قبر الإمام ناصر بن مرشد .وكانت وفاته ضحى الجمعة ، سادس عشر ذى القعدة ، سنة [تسع وخمسين وألف سنة](٢) ، والله أعلم .

عقد الإمامة لولده بلعرب بن سلطان .

فقد عقد لبلعرب هذا ، ولم تزل الرعية له شاكرة ، ولفضله ذاكرة وكان جوادا كريما . وعمر | م ٣٧٠ | يبرين (٣) ، وبناها حصنا ، وانتقل إليها من نزوى .

ثم وقعت بينه وبين أخيه سيف بن سلطان فتن ، وأصاب كثيرا من أهل عمان — من فقهائهم (٤) ومشايخهم ، أهل ورع وزهد وعلم —

(١) من التسديد بمعنى التوفيق للسداد (لسان العرب) .

(٢) « بياض » فى الأصل ، وما بين حاصرتين تكملة من الفتح المبين لابن رزيق ، ص ٢٩٢

(٣) كذا فى الأصل ، وكذلك فى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٩٣) .

أما فى تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ٧٦) فقد جاء الإسم (جبرين) . وهى تقع إلى الجنوب الغربى من بهلا . وقد وصف السالمى (ج ٢ ، ص ٩٠) الحصن الذى بناه الإمام بلعرب فيها بأنه (كان من أعاجيب الزمان ، لا يستطيع أحد أن يصفه بجميع ما فيه) .

(٤) فى الأصل (من فقهاءهم) .

عقوبات كثيرة ، إلى أن تلفت نفوسهم [من](١) اتباع السفهاء ، واقتفاء آرائهم ، وقبول كلمتهم .

ثم إنه خرج من نزوى ، وقصد ناحية الشمال ، ثم رجع إلى نزوى فمنعه أهل نزوى دخولها ، فسار إلى يبرين . واجتمع أكثر أهل عمان ، وعقدوا الإمامة لأخية سيف بن سلطان . وأحسب أن بعضا عوقب بتركه الدخول فى العقد .

إمامة سيف بن سلطان .

وخرج سيف على أخيه ، وأخذ كافة حصون عمان . ولم يبق إلا حصن يبرين ، فسار إليه وحاصروه ، فوقعت بينهما (٢) الحرب ، حتى مات بلعرب فى الحصار ، فطلب أصحابه ليخرجوا من الحصن . فأمنهم سيف ، فخرجوا من الحصن . وأحسب أن بعضا من أهل العلم لم يزالوا متمسكين بإمامته حتى مات . ويروون أن سيف بن سلطان باغ على أخيه . [م ٣٧١] .

واستولى سيف بن سلطان على كافة عمان . فلم يزل مقيما منصفا بينهم راداً قويهم عن ضعيفهم . وهابته القبائل من عمان ، وغيرها من الأمصار .

وحارب النصارى فى كل الأقطار . وأخرجهم من ديارهم ، وابتزهم من قرارهم . وأخذ منهم بندر ممباسا ، والجزيرة الخضراء ، وزنجبار ، وبتة(٣) وكلوه ، وغيرهن . وهذه البلدان من ناحية الزنج بأرض السواحل . (٤)

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة .

(٢) فى الأصل (فوقع بينهم الحرب) .

(٣) كذا فى الأصل ، وفى تحفة الأعيان (ج ٢ ، ص ١٠٠) بت .

(٤) أنظر كتاب (جهينه الأخبار فى تاريخ زنجبار) تأليف سعيد بن على المغيرى — تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ١٠٦ وما بعدها .

وعمر عمان كثيرا،وأجرى فيها الأنهار غرس فيها النخل والأشجار. وجمع مالا جما ، قيل [إن] (١) الأصول التى صارت له بعمان بلغت](٢) مقدار ثلث أصولها . والأفلاج التى أجراها سبعة عشر فلجاً حدثاً (٣) ، منهن أفلاج مسفاة الرستاق ، وفلج الحزم ، وفلج الصائغى(٤) وفلج الهوب . وأفلاج جمة فى جعلان ، والبزيلى الذى عند البدو ، وغيرهن كثير .

وغرس فى عمان - من ناحية بركة(٥) [من](٦) الباطنة [من](٧) الميسلى (٨) - ثلاثين ألف نخلة ، ومن النارجيل ستة آلاف . وله غير ذلك أموال [فى](٩) المصنعة | م ٣٧٢ أ من الباطنة ، لا تحصى(١٠). وملك اماء وعبيدا ، سمعت قيل عددهم ألف وسبع مائة .

وكان شديد الحرص على المال . وغرس أشجاراً مجلوبة من البحر ، وأشجاراً فى الجبل ، مثل الورس(١١) والزعفران والبن . وجلب له ذباب النحل .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لسياق المعنى .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لسياق المعنى .

(٣) أى استحدثها ، ولم تكن موجودة قبله .

(٤) فى المتن (الصايغى) .

(٥) فى الأصل (بركا) ، وتكتب فى المصادر المعاصرة بالرسمين .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٠٠) .

(٧) المرجع السابق .

(٨) صنفان من النخيل .

(٩) فى الأصل (وغير ذلك أموال والمصنعة) والصيغة المثبتة من الفتح المبين لابن رزيق (ج ٢ ، ص ١٠٠) .

(١٠) فى الأصل (ولا تحصى) .

(١١) الورس : نبت أصفر يكثر باليمن ، تتخذ منه الغمرة للوجه .
قال أبو حنيفة : والورس ليس ببرى، يزرع سنة فيجلس عشرين سنة ، أى يقيم فى=

وقيل ملك من السفن أربعة وعشرين مركبا . فالكبار خمسة ، [اسماؤها](١) : الملك ، والفلك (٢) ، والرحمانى ، وكعب رأس(٣) ، والناصرى . والبواقى كبار ، ولكن ليس مثل هؤلاء . فوصف الملك ، فيه ثمانون مدفعا ، وبعض المدافع عزم أصله من ورائه ثلاثة أشبار ، وعزم دقته قدر ثلاثة أذرع ، أدر ضف بعد ما كان ، وعلوه سبع قامات دون الدقالة(٤) ، وأوصافه لاتحصى . [أما بقية تلك](٥) المراكب ، [فإن] الفلك أعرض منه . وزكا طوله مثله ، إلا أنه أسخف (٦) . والأواخر دون ذلك بقليل .

وقيل [إن](٧) رأس المال الذى بيد وكيله بمسكد سبعة وخمسون لكا محمدية . ولاتحصى أوصاف أشباه .

وتوفى فى الرستاق . وقبره [م ٣٧٢] فى القبة التى فوق القرن ، غربى قلعة الرستاق . وفاته ليلة ثالث من شهر رمضان ، من سنة ثلاث وعشرين سنه ومائه وألف سنة ، والله أعلم .

=الأرض ولا يتعطل . ونباته مثل نبات السمسم ، فإذا جف عند إدراكه، تفتقت خرائطه فينفض ، فينتفض منه الورس . (لسان العرب) .

(١) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٢) فى الأصل (المفلك) . ثم تكرر الاسم صحيحاً بعد قليل .

(٣) فى الأصل (كابراس) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٠٠) . وفى كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٢٩٥) كبراس .

(٤) الدقل والدوقل : خشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يمد عليها الشراع ، وتسميه البحرية الصارى .

(٥) فى الأصل (وأولك المراكب) وما بين حاصرتين إضافة .

(٦) كل ما رق فقد سخف ، ونصل سخيف طويل عريض (لسان العرب) .

(٧) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

الإمام سلطان بن سيف :ـ

ثم عقد لولده سلطان بن سيف . فقام واستقام وجاهد الأعداء فى البر والبحر . وحارب العجم فى مواضع شتى ، وأخرجهم من بلدانهم ، ودمرهم فى أوطانهم من البحرين ،والقسم ، ولارك (١) ، وهرموز ؛ وتلك البلدان التى بقرب ذلك .

وبنى (٢) حصن الحزام بالجص والحجر ، وانتقل من الرستاق إليه .

وأنفق ما ورث من أبيه من المال . واقترض كثيرا من أموال المساجد والوقوفات ، ألوفا ولكوكا . ولم تتحرك عليه حركة من أهل عمان ولاغيرها . وربما ذلك بقية بقيت له من هيبة أبيه .

ومات فى حصن الحزم الذى بناه ، وقبره فى البرج الغربى ، النعشى منه(٣) .

[وكانت](٤) وفاته يوم الأربعاء فى شهر جمادى الآخر ، لخمس ليال خلون منه ، سنة [١٢٧٤م] إحدى وثلاثين ومائة سنة وألف .

---

(١) كذا فى الأصل ؛ وكذلك فى الشعاع الشائع باللمعان (ص ٢٨٥) .
وفى تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ١١١) لاك .
(٢) فى الأصل (بنا) .
(٣) النعش : الارتفاع – يقال نعشه الله أى رفعه (لسان العرب) .
(٤) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

ذكر اختلاف اليعاربة وإمامة مهنا بن سلطان

[[ولما مات سلطان بن سيف وقع الاختلاف بين] (١) رءوس القبائل الذين فى قلوبهم العصبة والحمية ، وأرادوا أن يكون مكانه ولده سيف ، وهو صغير لم يراهق . وأراد أهل العلم أن يكون الإمام المهنا بن سلطان ابن ماجد بن مبارك ، وهو الذى تزوج بنت الإمام سيف ، أخت سلطان هذا إذ هو فيما عندهم أنه أهل ذلك ، وأنه ذو قوة عليها ، ولم يعرفوا منه ما يخرجه من الولاية . ولم تجز الامامه للصبى على حال ، كما لاتجوز إمامته للصلاة . فكيف يكون إمام مصر يتولى (٢) الأحكام، ويلى الأمور والدماء والفروج؟ ولا يجوز أن يقبض ماله ، فكيف يجوز أن يقبض مال الله ومال الأيتام والأغياب ومن لا يملك أمره ؟

فلما رأى الشيخ عدى بن سليمان الذهلى — القاضى (٣) — ميل الناس إلى ولد الإمام ولم يجد رخصة ليتبعهم على ذلك ، وخاف [م٣٧٥] أن تقع الفتنة لاجتماع الناس على الباطل ، وربما أشهروا السلاح ووقع بعض الجراح . فأراد تسكينهم ، وتفرق إجماعهم . فقال لهم : « أمامكم سيف بن سلطان بفتح الألف والميم الثانية ، من أمامكم يعنى قدامكم. ولم يقل « إمامكم » بكسر الألف وضم الميم الثانية . الذى يكون بذلك الملك والسلطان ائتمام بالإمامة . قال ذلك على معنى المندوحة (٤) . فعند ذلك نادوا له بالإمامة ،

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٢) فى الأصل (يتولا) والمصر هو البلد أو القطر وجمعه أمصار .

(٣) العبارة فى الأصل بها خلط وتحريف ، نصها (فلما رأى الشيخ عدى بن سليمان أن راشد الذهلى القاضى ميل الناس ...) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ص ١١٥) والفتح المبين لابن رزيق (ص ٣٠١) .

(٤) الندح : السعة والفسحة ، وإنك لفى ندحة من الأمر ومندوحة منه أى سعة . والمقصود أنه قال ذلك على سبيل التعميم والتجاوز (لسان العرب) .

وضربت المدافع إظهارا وإشهاراً . وانتشر الخبر فى عمان أن الإمام سيف ابن سلطان .

فلما سكنت الحركة ، واهدان (١) الناس ، ادخلوا الشيخ المهنا حصن الرستاق خفية ، وعقدوا له الأمامة فى هذا الشهر — الذى مات فيه سلطان — من هذه السنة . فقام بالأمر ، واستراحت الرعية فى زمنه . وحط عن الناس القعادات (٢) بمسكد ، ولم يجعل لها وكيلا . وربحت الرعية فى متجرها ، ورخصت الأسعار ، وبورك فى الثمار . ولم ينكر [م٣٧٦] عليه أحد من العلماء [شيئا] (٣) ، وإن لم يكن هو كثير علم ، إلا أنه يتعلم ويسأل . ولم يقدم على أمر إلا بمشورة العلماء . فلبث على ذلك سنة ، حتى قتل ظلما .

وقصة ذلك ، وسبب الفتنة بين أهل عمان ، وما جرى ووقع فيها . فلما وقع العقد للإمام المهنا بن سلطان ، لم تزل اليعاربة وأهل الرستاق مسرين العداوة له ، وللقاضى عدىّ بن سليمان الذهلى ، رحمه الله . ولم يزالوا بيعرب بن بلعرب بن سلطان ، يحرضونه على القيام والخروج ، حتى خرج على الإمام مهنا بن سلطا . [و] (٤) سار مختفيا إلى مسكد ، فما كان [بعض الوقت] (٥) إلا وقيل أن يعرب بن بلعرب فى الكوت الشرقى ، والوالى على مسكد الشيخ مسعود بن محمد [بن مسعود] (٦) الصارمى الريامى . وكان

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١١٦) وهدأت الناس .

(٢) كذا فى الأصل ، وكذلك فى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣٠٢) . وفى تحفة الأعيان للسالمى ، ج ٢ ص ١١٦ ، (القعودات) . ونرجح أن المقصود باللفظ المكوس والضرائب غير الشرعية .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة .

(٥) فى الأصل (ماكان إلا وقيل) والإضافة بين حاصرتين للإيضاح .

(٦) كذا فى الأصل ، وما بين حاصرتين غير موجود فى تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١١٦) ولا فى كتاب الفتح المبين للسالمى (ص ٣٠٢) .

الإمام خارجا إلى فلج البزيلي من ناحية الجو ، فبلغه الخبر ، فرجع إلى الرستاق .

فقام [الإمام] (١) وشمّر ، وجاهد وما قصر . وطلب من أهل عمان النصر ، فخذلوه ولم ينصروه . ونصب له | م ٣٧٧ | أهل الرستاق الحرب ، وحصروه في القلعة . ثم طلع يعرب من مسكد إلى الرستاق . وسأل المهنا النزول من القلعة ، وأعطوه الأمان على نفسه وماله ومن معه . ففكر في أمره ، فرأى أنه مخذول ، وليس له ناصر من أهل عمان ، فتبين له منهم الخذلان . فأجابهم إلى ما أعطوه من الأمان ، فنزل من القلعة ، فزالت بذلك إمامته ، [فأخذوه وحبسوه وخشبوه وهو وواحد من عمومته وبعض أصحابه] (٢).

فاستقام السلطان يعرب بن بلعرب ، ولم يدع الإمامة ، بل جعلوا الإمامة لسيف بن سلطان ، وهو القائم بالأمر . إذ سيف صغير السن ، لا يقوم بأمر الدولة . وسلمت له جميع حصون عمان وقبائلها . وكان هذا في سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف . فلبثا على ذلك حولا .

إمامة يعرب بن بلعرب :

ثم إن القاضي عدي بن سليمان الذهلي ، استتاب يعرب بن بلعرب من جميع أفعاله وبغية على المسلمين . وأن يعرب كان مستحلا في خروجه هذا ، فلم يلزمه ضمان ما أتلف ، لأن المستحل لما ركبه ليس عليه | م ٣٧٨ | ضمان إذا تاب ورجع . فعند ذلك عقد له الإمامة في سنة أربع وثلاثين ومائة ألف . فاستقام له الأمر ، وسلمت له حصون عمان .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان (ج ٢ ، ص ١١٦) .

ثم مالبث أياما قلائل فى [الرستاق ، وجاء إلى نزوى فدخلها يوم تسعة وعشرين من شعبان من هذه السنة . فلم يرض أهل الرستاق أن يكون [يعرب](١) إماما ، وأظهروا (٢) العصبة لسيف بن سلطان . فلم يزالوا يكاتبون بلعرب بن ناصر اليعربى ، وهو خال سيف بن سلطان هذا لولده ، وهو مقيم بنزوى مع [الإمام] (٣) يعرب .

فلم يزالوا يحرضونه حتى خرج من نزوى ليلة ست مضت من شوال من هذه السنة . وقصد بلاد سيت ، فحالف بنى هناة على القيام معه ، على أن يطلق لهم ما حجّر(٤) عليهم الإمام ناصر بن مرشد من البناء(٥) وحمل السلاح وغير ذلك . وأعطاهم عطايا جزيلة ، فصاحبوه إلى الرستاق .

فاستقامت(٦) الحرب فى الرستاق ، وأخرجوا الوالى منها . وذلك أنهم أحرقوا باب الحصن ، فاحترق مقدم الحصن جميعا(٧) ، واحترق ناس كثير من بنى هناة ورؤسائهم ، ورؤساء بنى عدى . وفيما بلغنا أنه احترق مائة رجل ، وخمسون رجلا . واحترقت كتب كثيرة ، مثل : بيان الشرع ، والمصنف ، وكتاب الاستقامة ، ومحليات الطلسمات قدر أربعين مجلدا . واحترقت كتب كثيرة ، ولم يكن لها نظير بعمان .

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للإيضاح .

(٢) فى الأصل (فأظهروا) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٤) ما حجر عليهم الإمام أى ما منعه وحرمه . وأصل الحجر فى اللغة : ما حجرت عليه أى منعته أن يوصل إليه ، وكل ما منعته منه فقد حجرت عليه (لسان العرب) .

(٥) فى الأصل (من البنا) .

(٦) فى الأصل (فاستقام الحرب) .

(٧) فى الأصل (فاحترق باب مقدم الحصن جميعاً) . ويبدو أن لفظ باب تكرر ذكره سهوا (أنظر الفتح المبين لابن رزيق ص ٣٠٣) .

وظهر من هذا الحرق مال عظيم ، مضموم فى والج الجدر . فلما انكسر الجدار ، ظهر ذلك .

فلما بلغ الخبر إلى [الإمام](١) يعرب بن بلعرب بما صنع أهل الرستاق قدّر(٢) سرية ، وأمر عليها صالح بن محمد بن خلف السليمى الازكوىّ ؛ من حجرة(٣) النزار وأمره بالمسير إلى الرستاق . فسار حتى وصل إلى العوابى ، فلم تكن(٤) لهم قدرة على الحرب ، فرجعوا .

ثم إن بلعرب بن ناصر كتب إلى والى مسكد ، أن يخلصها لهم . وكان الوالى بها حمير بن منير [م ٣٨٠] بن سليمان الريامى الأزكوىّ ؛ يسكن حارة الرحاء(٥) ، فخلصها لهم . وخلصت لهم قرية نخل ، بغير حرب .

ثم أخرجوا سرية عليها مالك بن سيف بن ماجد اليعربى ، فوصل إلى سمائل وافتتحها بغير حرب . وصحبه بنو رواحة . فجاء إلى أزكى فأخذها (٦) بغير حرب فخرج الوالى منها ؛ وذلك فى شهر القعدة من هذه السنة .

ثم إن [الإمام] (٧) يعرب خرج بمن معه من أهل نزوى وبنى ريام ، والقاضى عدى بن سليمان الذهلى . ووصل إلى أزكى . وخرج إليه مشايخ أزكى بالضيافة(٨) والطعام . وقالوا له : « نحن معك » . فمكث يكاتب

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .
(٢) فى الأصل (فقدر) .
(٣) الحجرة هى الناحية .
(٤) فى الأصل (يكن) .
(٥) فى الأصل (الرحى) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١١٨) .
(٦) فى الأصل (فأخذوها) .
(٧) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .
(٨) فى الأصل (بالضيفة) .

مالك بن سيف ليخرج من الحصن — يومين — فلم يخرج . فنصب له يعرب الحرب ، فضربه ضربتين بمدفع(١) .

ثم وصلت إلى يعرب عساكر بنى هناة ، يقدمهم على بن محمد العنبورى الرستاقى . فتفرقت عساكر يعرب ، وكثر فيهم القتل ودخلت رصاصة مدفع عند الحرب فى فم مدفع(٢) يعرب . وبقى مخذولا ، ورجع إلى نزوى .

وأما القاضى عدى [بن سليمان ، فإنه](٣) سار | م ٣٨١ | إلى نحو الرستاق . فلما وصل إليهم أخذوه — هو وسليمان بن خلفان وغيرهما — وصلبوهم . وجاءهم من جاءهم من أعوان يعرب بن ناصر . فقتل سليمان بن خلفان والقاضى عدىّ بن سليمان مصلوبين . وسحبهما أهل الرستاق . وذلك يوم الحج الأكبر من هذه السنة .

ثم مضى العنبورى(٤) إلى نزوى ، وجعل يكاتب [الإمام](٥) يعرب من قلعة نزوى . ودخل على يعرب ناس من أهل نزوى ، وسألوه الخروج منها لأجل حقن الدماء . فلم يزالو به حتى أعطاهم ذلك ، على أن يتركوه فى حصن يبرين(٦) ، ولا يتعرضوا له بسوء . فأعطوه العهد على ذلك . وخرج من نزوى ، فزالت بذلك إمامته .

---

(١) فى الأصل (ضربتين مدفع) .

(٢) فى الأصل (فى فم قوم يعرب) والتصحيح من تحفة الأعيان (ج ٢ ، ص ١١٨) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٤) فى الأصل (ثم مضى صاحب العنبورى) وفى كتاب الفتح المبين (ثم مضى صاحب العنبور والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان (ج ٢ ، ص ١١٩) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة .

(٦) جبرين .

ذكر انقسام أهل عُمان

ودخل صاحب العنبور قلعة نزوى ، وضرب جميع مدافعها . ونادى بالإمامة لسيف بن سلطان ، وخلصت لهم جميع حصون عمان . وسلمت لهم كافة القبائل و البلدان . فاستقام أمرهم على ذلك شهرين ، إلا ثلاثة أيام ، حتى أراد الله ظهور ما سبق فى علمه ، أنه سيكون على أهل عمان . بما غيروا وبدلوا . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم(١) » .

وفى ذلك الامتحان ليظهر المتثبت فى دينه المخلص فى سريرته ، ممن زلق فى دينه ، وخالف علانيته سريرته ، فى علم الله . قال الله تعالى « ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم . فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »(٢) . وقال جل وعلا « ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله ، جعل فتنة الناس كعذاب الله . ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم . أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين . وليعلمن المنافقين »(٣) .

وعلم الله ظهور هاهنا ما سبق فى علمه من القدر المحتوم ، فيظهر من كل ذى فعل فعله ، فيعاقب بما عصى (٤) ، ويثاب بما أطاع « لجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى »(٥) . والفتنة هاهنا الاختبار — كما يختبر الذهب الإبريز بالنار — وقيل : عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان . | م ٣٨٣ |

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ .

(٢) سورة العنكبوت : الآيتان ١ ، ٢ .

(٣) سورة العنكبوت : الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٤) فى الأصل (بما مضى) .

(٥) سورة النجم : الآية ٣١ .

فلما استقر الأمر ليعرب بن ناصر على أنه القائم بالدولة ، وعلى أن الإمام سيف بن سلطان ، وفدت (١) إليهم القبائل ورؤساء البلدان يهنئونهم بذلك . ثم وقع من بلعرب بن ناصر تهدد على بعض القبائل ، وخاصة بنى غافر وأهل بهلا(٢) . فقيل إنه لما قدم محمد بن ناصر بن عامر بن رميثة الغافرى فى جماعة من قومه(٣) ، وقع عليهم تهدد من بلعرب بن ناصر . فرجع محمد بن ناصر بمن معه مغضبا ، وجعل يكاتب يعرب بن بلعرب وأهل بهلا ليقوموا بالحرب . وركب هو قاصداً إلى البدو ؛ من الظفرة وبنى نعيم ، وبنى قتب ، وغيرهم .

وأما بلعرب بن ناصر ، [فإنه](٤) أرسل إلى رؤساء نزوى ليصلوا إليه ، فاجتمع كثير من رؤسائها ، ومضوا إليه . فرأوا [منه](٥) محلا وكرامة ، وأمرهم بالبيعة لسيف بن سلطان .

ثم أنه سرى(٦) سرية ، وأمر عليها سليمان بن ناصر — أعنى أخاه — وأمره | م ٣٨٤ | بالمسير من جانب وادى سمائل إلى يعرب ليأتى به إلى الرستاق . وأمر أهل نزوى (٧) أن يصحبوا تلك السرية ، فلم يزالوا يتشفعون بأهل الرستاق إليه ليعذرهم من ذلك ، فعذرهم . ومضت السرية

---

(١) فى الأصل (ووفدت) .

(٢) فى الأصل (وابهلاء) . والصيغة المثبتة من الفتح المبين لابن رزيق ص ٣٠٦ .

(٣) فى الأصل (لما قدم محمد بن ناصر بن عامر مر الغافرى فى جماعة من قومه) . والصيغة المثبتة من المرجع السابق (ص ٣٠٦) .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة .

(٦) فى الأصل (سرا) .

(٧) فى الأصل (وأمر على أهل نزوى) .

حتى وصلت فرق(١)، وباتت فيها، فبعث لهم أهل نزوى بطعام وعشاء.

فبينما هم كذلك، إذ سمعوا ضرب المدفع فى قلعة نزوى، فسألوا: ما الخبر؟ فقيل لهم: إن يعرب بن بلعرب دخل القلعة. فعند ذلك رجعوا إلى أزكى. فأشار من أشار على سليمان بن ناصر بقبض حصن أزكى، [ففعل ذلك] (٢).

وكان بلعرب بن ناصر قد سرى سرية أخرى إلى يعرب، وبعثهم من جانب الظاهرة. فلما وصلوا بهلا، قيدوهم (٣) بها. وبعث سرية أخرى إلى وادى بنى غافر، فانكسرت ورجعت إلى الرستاق.

وأما يعرب، فإنه بعث سرية إلى أزكى، تسحب(٤) مدفعين. فلما وصلوا أزكى ركضوا على الحصن، وانكسروا، وقتل منهم ناس، ورجعوا إلى نزوى. ثم [م ٣٨٥] بعث سرية ثانية إلى أزكى، فأقاموا بالخنى الغربيات — عند الطريق الجائز (٥) — يومهم، وأصبحوا من الليل راجعين. ولم يكن بينهم (٦) حرب. ثم بعث سرية أخرى، ووصلوا إلى أزكى، ومكثوا بالخنى الغربيّات يضربون الحصن بالمدافع. فمكثوا على ذلك قدر عشرة أيام.

ثم وصل مالك بن ناصر من الرستاق إلى أزكى، فخرج هو وأهل الحصن إلى قوم يعرب، على سدّى وحارة الرّحاء (٧) من أزكى، فهبوا

---

(١) فى الأصل (فرقا).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢، ص ١٢٠).

(٣) فى الأصل (وقيدوهم بها).

(٤) فى الأصل (ويسحب مدفعين).

(٥) فى الأصل (الجايز).

(٦) فى الأصل (منهم).

(٧) فى الأصل (حارة الركى). وفى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣٠٧). (حارة الرحى والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢، ص ١٢١).

من طرفيهما ، وأحرقوا مقام حمير بن منير وكان (١) خارجاً من حارة الرجاء (٢) .

ثم ركض ولاة سرية يعرب على أهل اليمن من أزكى ، فانكسروا ، وقتلوا والى السرية ، محمد بن سعيد بن زياد البهلوى . وقيل لمالك بن ناصر إن أهل النزار خرجوا مع سرية يعرب حتى ركضوا على اليمن ، فأرسل إلى مشايخ النزار ، وقيدهم بالجامع من أزكى .

ثم إنه أرسل إلى أهل الشرقية ، فجاءت منها عساكر كثيرة . وجاء بنو هناة بخلق كثير .

واجتمع العساكر بازكى [م ٣٨٦] فركضوا على سرية يعرب ، وأخرجوا الطبول وأناساً قليلا من جانب المنزلية (٣) . وخرجت العساكر من جانب العتب (٤) يوم الجمعة عند زوال الشمس . فكانت بينهم وقعة عظيمة ، سمع فيها ضرب التفق (٥) كالرعد القاصف . وبرق السيوف كالبرق المتراسل . فانكسرت سرية يعرب ، فوقع فيهم القتل غير قليل ، وقتل من الفريقين قدر ثلاث مائة رجل ، والله أعلم .

ثم إن مالك بن ناصر ارتفع بمن معه من العساكر ، وقصد قرية منح . وأغارت شرذمة من قومه على فليج وادى الحجر ، فقتلوا منه ناسا ، ونهبوا ما فيه ، وأحرقوا بيوتها ، وقتلوا (٦) من قتلوا . وتفرقت أهلها .

---

(١) فى الأصل (كان) .
(٢) فى الأصل (من حارة إلى الرحى) .
(٣) فى الأصل (المنزلة) . والصيغة المثبتة من كتاب الفتح المبين (ص ٣٠٧) . وتحفة الأعيان (ج ٢ ، ص ١٢١) .
(٤) فى الأصل (المعنب) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ١٢١) .
(٥) أى البنادق .
(٦) فى الأصل (واقتلوا) .

ثم ساروا إلى نزوى ، ووصلوا إلى مسجد المخاض من فرق ، فضربوا هنالك معسكرهم (١) . وأقاموا محاصرين نزوى ، وأفسدوا الزرع ، وأحرقوا سكاكر كثيرة من الحيلى والخضراء (٢) ، وأحرقوا مقامات من فرق ، وعاثوا فى البلاد .

ثم خرج أهل نزوى ومن معهم من [م ٣٨٧] من عساكر يعرب ، فوقع بينهم الحرب . ثم رجع كل فريق منهم إلى مكانه . وقتل من قتل من الفريقين . فكان الحرب والقتل بينهم كل يوم إلى (٣) ما شاء الله . واشتد على أهل نزوى البلاء (٤) .

ثم وقعت بينهم وقعة عظيمة لم يسمع بمثلها إلا ما شاء الله . وكادت تكون الهزيمة على قوم مالك ، إلا أنهم لم يجدوا سبيلا للهزيمة والهرب . إذ قد أحاطت بهم الرجال كحلقة الخاتم بعد ما انهزم منهم خلق كثير . وبقى من بقى ، فظنوا أن لاملجأ من القتل . فعزموا عزماً قوياً ، وجدوا فى القتال . وأما أهل نزوى فظنوا أنهم غالبون ، فاشتغل أكثرهم بالنهب والسلب ، واتكل بعضهم على بعض ، فعطف عليهم القوم بعزم ثابت ، بجد واجتهاد ، فولوا منهزمين . فكثر فيهم القتل والجراح ، واتبعهم (٥) القوم يقتلون ويسلبون ، إلى الموضع المعروف بجنور الحوصة ؛ قريباً من جناة العقر . فقتل كثير من أهل نزوى فى ذلك اليوم . ورجع قوم مالك إلى معسكرهم [م ٣٨٨] . ولم يزل الحرب بينهم قائماً كل يوم .

ثم إن مالكاً خرج بكافة أصحابه — إلا قليلا تركهم فى المعسكر — حتى وصل قريباً من جناة العقر ، فأراد أن يحاصرهم فى بستان شويخ ، وليثقب

---

(١) فى الأصل (بعسكرهم) .
(٢) فى الأصل (الخضرا) .
(٣) فى الأصل (إلا) .
(٤) فى الأصل (البلا) .
(٥) فى الأصل (واتبعنهم) .

جدرها لمرامى التفق . فخرج إليهم أهل نزوى ، ودارت رحى الحرب بينهم ساعة من النهار .

ثم قتل مالك بن ناصر ، فانكسر قومه ، ورجعوا إلى معسكرهم ، وأقاموا هنالك ، إلا أن قوتهم ضعفت بموت مالك .

ولم تزل الحرب قائمة بينهم وبين أهل نزوى . حتى وصل محمد بن ناصر الغافرى بجيشه من الغربية ، بعد حروب كانت بها : ووقعات عظيمة ، منها : وقعة بوادى الصقل ، ومنها بالجو ، ومنها : بضنك ، ومنها بالغبى . لم أشرحها لشهرتها وخوف الإطالة .

فلما وصل محمد بن ناصر الغافرى أمر بالركضة ، فركضوا عليهم ، وأحاطوا بهم ووقع بينهم الحرب والرمى بالتفق ، من الصبح إلى الليل . فلما جن الليل ، أمر محمد بن ناصر أن يفسحوا لهم من | م ٣٨٩ | الجانب الأسفل من الوادى — مما يلى فرق — ففسحوا لهم فأصبحوا منهزمين ، وأصبح منزلهم من الليل خاليا ، ليس فيه أحد وتفرقوا ، ورجع محمد ابن ناصر إلى نزوى .

وكان الإمام يعرب مريضا . فأقام محمد بن ناصر بنزوى أياما قلائل(١) . وكان الحصار لنزوى قدر شهرين إلا ستة أيام .

ثم إن محمد بن ناصر أمر بالمسير إلى الرستاق . فسار إليها بجيش فدخلها ، ونزل بفلج الشراة . وأراد أصحابه أن يركضوا على البومة التى فيها على بن محمد العنبورى — وهى بالمزاحيط من الرستاق — فنهاهم عن ذلك ، إلى أن ركض على بن محمد [العنبورى](٢) ومن معه . فأمر

---

(١) فى الأصل (قلايل) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

محمد بن ناصر قومه فركضوا . ووقع بينهم حرب عظيم ، فقتل صاحب المنبورى ، وقتل من قتل من قومه ، وانكسر الباقون .

ورجع محمد بن ناصر إلى فلج الشراة . ودخل فى اليوم الثانى إلى فلج المدرى من وبل فالتقاه بلعرب بن ناصر طائعا(١) . فصالحه على تسليم قلعة الرستاق ، وجميع الحصون |م ٣٩٠| التى فى يده ، ومضوا جميعا إلى قلعة الرستاق .

فأراد بلعرب أن يخدع محمد بن ناصر . فكان محمد بن ناصر فطنا حذرا ، فأبى أن يدخل إلا بعد أن يدخل جميع القوم . فلما دخل كافة قومه دخل هو . ووقع من القوم [فى البلد] (٢)السلب والنهب والسبى فى الدرارى ، حتى أنها بيعت وحملت إلى غير عمان . وذلك بما كسبت أيديهم جزاء بما كانوا يعملون ، وبما فعلوا فى قاضى المسلمين — عدى بن سليمان الذهلى — ، [وبما فعلوا فى] (٣)سليمان بن خلفان ، والإمام المهنا بن سلطان وبنى عمه . والله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ومات يعرب فى نزوى ، ومحمد بن ناصر فى الرستاق ، لثلاث عشرة ليلة خلت فى جمادى الآخر سنة خمس وثلاثين ومائة وألف . وكتم أهل نزوى موته — خيفة أن يقوى عليهم العدو — نحو خمسين يوما .

ثم إن محمد بن ناصر أمر بتقييد بلعرب بن ناصر ، بعد ما أمر بلعرب بتخليص الحصون التى بيده . ولم يبق إلا مسكد |م٣٩١| فى أيدى بنى هنـاة . [وفى كوت مسكد] جاعـد بن مرشد بن عـدى

---

(١) فى الأصل (طايعا) بمعنى مذعنا .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

اليعربي(١) ، فاحتالوا وأخذوه منه ، وأوصلوه إلى . نخل . وقام محمد بن ناصر بالرستاق .

وأشهر(٢) أن الإمام [هو](٣) سيف بن سلطان ، وهو مع ذلك كله غير بالغ الحلم . وتفرق أهل الرستاق كلهم فى الجبال والأودية ، فسمعت أنه وجد فى كهف من جنب الحلاة — من ناحية المهاليل — مائة نفس من صبيان ونساء ميتين من العطش ؛ خافوا أن يرجعوا إلى الرستاق ، فيحملهم(٤) البدو ويبيعونهم . وجاءت ثيبة (٥) لمحمد بن ناصر — بعد أخذ الرستاق بثلاثة أيام — قدر ألف ونصف من بنى قليب وبنى كعب ، بتفاق ورماح . ووصل رحمة بن مطر الهولى بنحو خمسة آلاف — من بدو وحضر — وفيهم من لا يعرف العربية ، ولايعرف صديقا من عدو .

وكان خلف بن مبارك — المعروف بالقصير — من أهل الغشب من الرستاق ، لم يكن | م ٣٩٢ | بالرستاق فى وقت الحرب ، فقهر حصن بركا ، ومسكد فى يده ومعه بنو هناة . فأرسل محمد بن ناصر ، على ابن محمد الحروصى — المكنى (٦) بوجامع والياً لحصن بركا . فقتلوه ، ورجع أصحابه إلى الرستاق ، مع(٧) محمد بن ناصر .

فأمر محمد بن ناصر الجيش بالمسير إلى بركا ، فسار رحمة بن مطر

---

(١) العبارة غير واضحة فى الأصل ، نصها : (أما مسكد فى الكوت جاعد بن مرشد ابن على اليعربى) . والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٢٤) .

(٢) فى الأصل (واشتهر) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح .

(٤) فى الأصل (ويحملونهم) .

(٥) جاء فى تحفة الأعيان للسالمى أن لفظ (ثيبة) لغة عمانية ، بمعنى معونة ومساعدة .

(٦) فى الأصل (يكنى) .

(٧) فى الأصل (ومع) .

بقومه ، وحمزة بن حماد القليبي بقومه ، وأحمد [بن على] الغافرى(١) بالعسكر الذى خرج من عند محمد بن ناصر . ومحمد بن عدى بن سليمان الذهلى بالقوم الذين جاء بهم من الصير . ومحمد بن ناصر الحراصى بقومه. فسار هؤلاء — كل وال على قومه — حتى نزلوا المصنعة(٢) .

ثم ورد كتاب من قزع (٣) الدرمكى - من بنى هناة — لرحمة بن مطر : إنك لا تصل إلينا فنحن واصلون إليك، على سبيل التهديد(٤) . فلما قرأه(٥) وعرف معناه ، أمر بالمسير إلى بركا . وقدم عيونا من أصحابه إلى بركا ، فوجدوا قزعاً وأصحابه مقبلين إلى رحمة بن مطر . فرجعت العيون ، وأعلموه أن قزعا [م٣٩٢] وأصحابه مقبلون إليه(٦) . فالتقاهم رحمة بمكان يسمى القاسم فوثب عليهم قضيب الهولى على فرس ، والقوم على أثره ، فقتل منهم عشرة رجال . وانكسر قزع ، وخرج قضيب جريحا [جرحا](٧) هينا .

وسار رحمة مشرقا بالقوم حتى نزل بالحفرى التى هى للجبور ، حتى يستريحوا ويأكلوا. ثم إنه بعث عيونا، فوجدوا خلف بن مبارك القصير(٨) قد طاع بقومه براً وبحراً ، بجيش لا يعلم عدده إلا الله . وكان عدد القوم الذين هم أصحاب محمد

(١) فى الأصل (العامرى)، والتصحيح والإضافة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ص ١٢٥) وفى كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣١١) أحمد بن راشد الغافرى .

(٢) ميناء على ساحل إقليم الباطنة .

(٣) فى الأصل (فزع) .

(٤) فى الأصل (التهدد) .

(٥) فى الأصل (قرءه) .

(٦) العبارة فى الأصل بها خلط وتكرار ، نصها (... وأصحابه مقبلون قاصدين رحمة بن مطر ، فرجعت العيون وأعلموه أن فزعاً وأصحابه مقبلين إليه ، فالتقام رحمة ..) .

(٧) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٨) فى الأصل (بالقصير) .

ابن ناصر خمسة عشر ألفا ، من بدو وحضر ، من سائر(١) القبائل . فالتقوه غربى بركا ، فوقعت بينهم صكة عظيمة . وكانت عند أصحاب رحمة مدافع : فضربوا الخشب(٢) التى فى البحر ، فأغرزت الخشب بحرا(٣) .

وانكسر خلف بن مبارك وأصحابه ، وركب ناقته . واتبعهم أصحاب محمد ابن ناصر يقتلون [م٣٩٤ آ] ويأسرون . فلم يجدوا ملجأ من القتل ، فكانوا يدخلون إلى البحر ليتخلصوا إلى المراكب ، فأغرزت بحراً ولم ينالوها . والقوم تضربهم بالتفاقة(٤) ، فهلك منهم كثيرون(٥) . وأخذو أسلحتهم وغير ذلك . فالذين لفظهم البحر ألف وأثنا عشر ألف رجلا ميتين . ولا يزالون يتبعونهم حتى دخلوا حصن بركا .

ثم نزل أصحاب محمد بن ناصر الغافرى بجانب الجبل من بركا : فحاصروا الحصن ، فأقاموا أربعة أيام . ثم إن أصحاب الحصن تخلصوا فى المراكب ، ومضوا إلى مسكد ، ولم يبق منهم إلا قليل ، وليس فى البلد أحد .

ثم إن أصحاب محمد بن ناصر رجعوا إلى الرستاق ولم يطمعوا بالحصن . ورحمة بن مطر رجع إلى بلده . فأقام محمد بن ناصر فى الرستاق ، وأصابه الجدرى ، حتى خيف عليه من شدته ، ثم عوفى . ثم إنه أمر بالمسير إلى ينقل . وجعل فى الرستاق محمد بن ناصر الحراصى واليا عليها . وعنده أصحاب بهلا ، وسنان [م ٣٩٥] بن محمد بن سنان المحذور الغافرى ، قائما(٦) بقلعة الرستاق .

---

(١) فى الأصل (ساير) .
(٢) أى السفن والمراكب .
(٣) أى أوغلت السفن فى البحر بعيداً عن البر .
(٤) أى التفق ، وهى البنادق .
(٥) فى الأصل (فهلكوا منهم كثير) .
(٦) فى الأصل (قايما) .

وسار محمد بن ناصر ، وسيف بن سلطان — وهو صغير حمله معه — وكافة اليعاربة، وبلعرب بن ناصر مقيداً(١) ، حتى نزل بمقنيات، فأرسل(٢) إلى قبائل الظاهرة وعمان يستمدهم ، وبنى ياس . وجاءت إليه القوم ، وأناخوا عنده عساكر كثيرة ، قدر اثنى عشر ألفا .

وكان نزوله بفلج المناذرة من طرف ينقل ، فأرسل إلى أهل البلدان يسلموا له الحصن ، فأبوا ولم يردوا له جوابا . فارتفع وقت الصبح ، يريد الانتقال منها إلى الجانب الأعلى(٣) ، على شريعة [فلج](٤) المحيدث من البطحاء . فالتقاه بنو على بمن معهم من أهل ينقل ، فوقعت بينهم صكة عظيمة ، وقتل من بنى على قوم كثير ، المعروف(٥) منهم ابن شيخهم سليمان بن سالم (٦) . ومن أصحاب محمد بن ناصر سالم بن زياد(٧) الغافرى ، وسيف بن ناصر الشكيلى ؛[وهو](٨) واحد من الجرحى(٩) [م ٣٩٦ أ].

ثم إنه(١٠) نزل شريعة المحيدث من الجانب الأعلى . وأقام محاصرهم ، ويضربهم بالتفق والمدافع ثم وقعت بينهم صكة ، فقتل خلق كثير . وقتل من أصحاب محمد بن ناصر ، الوالى محمد بن خلف

(١) فى الأصل (مقيد) .
(٢) فى الأصل (أرسل) .
(٣) فى الأصل (الأعلا) .
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ١٢٧) .
(٥) فى الأصل (فالمعروف) .
(٦) ذكر ابن رزيق فى الفتح المبين ، ص ٣١٢ — ٣١٣ ، (فقتل يومئذ من بنى على قوم كثيرون ، فن رجالهم المصاليت المشاهير شيخهم الرئيس سليمان بن سالم) . والصيغة المثبتة الواردة فى الأصل تتفق مع ما ذكره السالمى فى تحفة الأعيان (ج ٢ ، ص ١٢٧) .
(٧) فى تحفة الأعيان (ج ٢ ، ص ١٢٧) : زيادة .
(٨) ما بين حاصرتين إضافة .
(٩) فى الأصل (الجرحا) .
(١٠) أى محمد بن ناصر .

القيوضى ، وأحد من بنى عمه . ثم إنهم كسروا الماء [عن الحصن](١) فلم يبق معهم ماء . فعند ذلك صالحوا على تسليم الحصن .

ووصل الخبر إلى محمد بن ناصر ، أن سعيد بن جويد الهنائى(٢) دخل السليف مع الصواوفة من بنى هناءة ، بقومه . فأمر القوم بالمسير إلى السليف . فلما وصلها أرسل إلى سعيد بن جويد وأهل السليف أن يؤدوا الطاعة ، فأبوا . ووصل إليه الصواوفة من أهل تنعم (٣) مؤدين الطاعة .

ثم إنه أمر بالركضة على حصن المراشيد من السليف ، فركضوا عليه وهدموه على من فيه من نساء ورجال وأولاد . ثم إن سعيد بن جويد طلب التسيار إلى بلده — هو وأصحابه — فسيره محمد بن ناصر ، وزوده . وبقى بالسليف حصن الصواوفة [م ٣٩٧] وحصن المناذرة .

فأما حصن المناذرة لما رأوا ما أصاب المراشيد ، صالحوا وأدوا الطاعة لمحمد بن ناصر ، فسلموا ولم يصبهم شىء وأقرهم مكانهم . وأما الصواوفة فلم (٤) يؤدوا الطاعة ، فأقام فحاصرهم بقطع نخيلهم ، والقتل فيهم كل يوم . وفسح للبدو من أصحابه ، [فلم يبق معه] (٥) إلا بنى ياس وقبائل (٦) الحضر . وكان الحصار فوق شهرين . ثم إنهم صالحوا على هدم حصنهم بأيديهم ، فهدموه .

وكان خلف بن مبارك القصير (٧) ، لما رأى محمد بن ناصر مشتغلا

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٢) فى الأصل (الهناوى) .

(٣) فى الأصل (ينعم) .

(٤) فى الأصل (لم) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣١٣) .

(٦) فى الأصل (وقبايل) .

(٧) فى الأصل — وكذلك فى تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٢٨) بالقصير .

بحرب السليف . جمع قوماً وحاصر الرستاق . فلما قتل سنان بن محمد المحذور الغافرى بالقلعة . خرج(١) محمد بن ناصر الحراصى وأصحابه من حصن الرستاق بعد شدة القتال ، وهدموا برجا من الحصن . فعند ذلك خرج محمد بن ناصر الحراصى [وصالحه] (٢) واستقر أهل الرستاق فى أموالهم وبيوتهم .

وكان سباع العنبورى (٣) قد أخذ صحار . ولم ير محمد بن ناصر [بدا من] (٤) الرجوع عن | م ٣٩٨ | السليف . فمضى إلى الرستاق خوفاً منهم أن يتفقوا عليه .

ثم إن خلف القصير (٥) صار على حصن الحزم - وكان الوالى فيه عمر بن مسعود بن صالح الغافرى(٦) — فحاصره ، وردد التفنج عنه . وأرسل إليه خلف أن يخرج من الحصن — هو وأصحابه - بأمان . فأبى . وكتب إلى محمد بن ناصر — يخبره الخبر ، وأنهم لم يبق معهم ماء إلا بركة قليلة .

فسار محمد بن ناصر إلى الحزم بعدما صالح أهل السليف ، وهدم

---

(١) فى الأصل (فخرج) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

(٣) فى الأصل (العمورى) ، والتصحيح من كتاب تحفة الأعيان (ج ٢ ص ١٢٨) .

(٤) ما بين حاصرتين بياض فى الأصل .

(٥) فى الأصل (بالقصير) . وكذلك فى كتاب تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٢٨) على أنه شجعنا على التمسك بالصيغة التى أوردناها (خلف القصير) ما سبق أن جاء فى أصل المخطوطة (ورقة ٣٩١) من عبارة نصها (وكان خلف بن مبارك – المعروف بالقصير – من أهل الغشب من الرستاق ...) .

(٦) كذا فى الأصل . وفى تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ، ص ١٢٨) جاء الإسم (عمر بن صالح بن محمد الغافرى) .

حصنهم بجيش عظيم . فلما وصل الحزم ، ركض على أصحاب خلف ، فقتل من قتل منهم ، وانكسر(١) أصحاب خلف .

ورجع محمد بن ناصر إلى الظاهرة ، وأعرض عن الرستاق خوفاً منهم . وقصد بلاد سيت . وحشد من البدو والحضر . واجتمع معه عسكر كثير (٢) ، وسار إلى بلاد سيت . فأرسل إليهم ليؤدوا الطاعة له ؛ فأبوا ، فحاصرهم . وأمر القوم بالهجوم عليهم ، فهجموا عليهم ، وقتلوا منهم خلقا كثيراً .

ثم ركض على العارض — وهي لبني عدى — فأخذوها ، وأخذوا [م ٣٩٩] غمر(٣) ، وخلصت له بلدان بنى هناة من العلو .

ثم رجع محمد بن ناصر إلى نزوى بمن معه ، وأقام بها قدر ستة أشهر بعد الشتاء ، إلى أن استوى القيظ . وأرسل إلى أهل البلاد من قرية منح أن يؤدوا الطاعة فأبوا . فجهز لهم جيشاً فحاصرهم ، وقطعوا نخيلهم من فلج الفيقين(٤) ، قبل أن يبنى لها أهلها حصنا . ثم أدوا الطاعة . ثم سار إلى الظاهرة .

ثم إن خلف بن مبارك جمع قوماً ، ونزل وادى المعاول . وانتقل بهم إلى نخل فحاصرهم ، وكان فيها مرشد بن عدى [اليعربى] (٥) . فمكث أربعة أيام (٦) فحاصرهم . ونزلوا من الحصن وحرقوه ، وهدموا

(١) فى الأصل (وانكسروا) .
(٢) فى الأصل (كثيرة) .
(٣) فى الأصل (عمر) ، وغمر قرية صغيرة من قرى بنى هناءة .
(٤) فى الأصل (القبقين) والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان السالمى ، ج ٢ ص ١٢٩ .
(٥) ما بين حاصرتين من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣١٥) .
(٦) كذا فى الأصل . وكذلك فى تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ص ١٣٠) . أما ابن رزيق فقد ذكر فى الفتح المبين (ص ٣١٥) ما نصه (فمكث محاصراً الحصن أربعة أشهر) .

منه ما قدروا عليه . ومع ذلك صالحه أهل الحميمى منها . ثم عقب عليهم من عقب . ودخلوها ، وهرب أهلها إلى سمائل . وبعض منهم التجأ فى حجرة الجناة (١) مع بنى مهلل ، فآووهم .

ثم إن الذين بقوا مع أهل مهلل أرسلوا إلى أهل نخل ، أن يجيئوا من جانب الحمام . فجاءوا بقوم من حيث [م ٤٠٠] لم يدر بهم آل مهلل ، فدخلوا عليهم على حين غفلة منهم ، وقتلوا [منهم من قتلوا] (٢) . فخرجوا إلى وادى المعاول ، حتى أن المعاول نصروهم وذمروا لهم الحرب فى حجرة الجناة . فمكثوا يحاربونهم ثلاثة عشر يوما ، لا يهدأ (٣) ضرب التفق ، حتى أنهم أنهزموا من الحجرة ، وكثر فيهم القتل وتخيبوا .

ثم إن المعاول قالوا : لانبغى حجرة فى الجناة ، فهدموها . ومكثت نخل مدة من الزمان لم يوجد (٤) فيها من الأنيس إلا الكلاب والسباع على القتلى . ومن بعد ذلك قسموها على بنى هناة ومكثوا فيها إلى أن ملك سيف بن سلطان بعدما بلغ الحلم ، وأقامه المسلمون إماماً ، فعند ذلك سلموها لأهلها . وذلك الوقت أوان تخليج النخل (٥) ، فصاروا (٦) يتوسلون بالقاضى ناصر بن سليمان المدادى من نزوى ، وجاءوا بخط إلى المعاول ، فسلموها [لهم] (٧) .

---

(١) فى الأصل (حجرة الجباة) وتكرر الاسم بهذه الصورة فى المخطوطة . والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ١٣١) وكذلك الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣١٦) . جاء فى لسان العرب أن الحجرة هى الناحية ، والجمع حجر وحجرات .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ، ص ١٣١) .

(٣) فى الأصل (لا يهتف) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ص ١٣١) .

(٤) فى الأصل (لم يجد) .

(٥) أى تلقيحه .

(٦) فى الأصل (صاروا) .

(٧) ما بين حاصرتين إضافة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ص ١٣١) .

ثم أن محمد بن ناصر سار إلى بلدان العوامر ، و ل و هيبة من بدو ، وبنى هناة . فوقع بينهم حرب عظيم ، حتى كادت تكون الغلبة [م ٤٠١] على أصحاب محمد بن علي — أصحاب محمد بن ناصر — ، ثم أنهم ثبتوا ثم وقعت الغلبة على بنى هناة .

ثم رجع محمد بن ناصر وقصد الظاهرة ليجمع قوما . فجمع قوما وجاء بهم إلى نزوى . وجمع أهل نزوى وبهلا وأزكى وبنى ريام ، وسار بهم إلى سيفم . وأرسل إلى سعيد بن جويد الهناوى (١) ومن معه من أهل العقبر والغافات . فامتنعوا ، وحاصرهم .

ثم خرج سعيد بن جويد ومن معه ، ومر بالظاهرة ، وإلى صحار ، يجمع قوما من صحار وينقل، إذ [أن](٢) أهلها نكثوا الصلح . فاجتمع خلق كثير، وجاء إلى عملى (٣) وضم ، واجتمع إليه قوم كثير . فلم يزل يضرب فى عمان يمينا وشمالا ، فتراه يوما فى الشرقية ، ويوما فى الغربية ، يغشى (٤) أموال خصمه من أعوان محمد ناصر . فكل يوم قيل إن سعيد ابن جويد يغشى (٥) بلدة كذا . وبعض يصالحه ، وبعض يُغشى عليه .

ومكث على ذلك مدة طويلة ، حتى توعرت منه الناس . وقد [م ٤٠٢] وصل الخبر إلى فلج العيسى ، وأراد أن يركض على محمد بن ناصر وأصحابه ومكث مدة لم يدروا(٦) أنها قدر سبعة أيام .

فتخوف منه محمد بن ناصر ، حتى جعل عليه عيونا فى الأماكن ، خيفة أن يهجم عليه على غفلة . فأخبرته العيون أن سعيد بن جويد أقبل

---

(١) المناثى .

(٢) ما بين حاصرتين لتوضيح المعنى . والمقصود أهل ينقل .

(٣) فى الأصل (عملا) .

(٤) ، (٥) فى الأصل (يغشى) .

(٦) فى الأصل (لم يدرون) .

بجمع كثير. فأمر محمد بن ناصر أن يلاقوهم دون البلاد . فالتقوا صدر الغافات ، فوقع بينهم حرب شديد .

وهناك قتل سعيد بن جويد [الهناوى](١) . وقتل من أصحابه غصن العلوى (٢) صاحب ينقل . وانكسر بقية قومه . فأمر محمد بن ناصر بحصار بلدة سعيد بن جويد (٣) ؛ حتى أتوا بسعيد بن جويد [وسحبوه] مقتولا [ليخوفوا به](٤) أهله، ليدينوا . فلم يصالحوا ، ومكثوا شهرين، وفرغ ما عندهم من الطعام ، حتى أكلوا ما عندهم من الأنعام . والقائد(٥) لأصحاب محمد بن ناصر [هو](٦) مبارك بن سعيد بن بلدر الغافرى؛ لأن محمد بن ناصر رجع من بعد الصكة إلى يبرين .

ثم إنهم صالحوا بعدما فرغ ما عندهم ، وضاعت أموالهم ، وقتل من [م ٤٠٣] قتل منهم . وكان صلحهم على هدم حصنهم ، فهدموه ؛ ووصلوهم بأمان .

وبقى حصن العقير محاربا ، ولم يؤدوا الطاعة . وفسح محمد بن ناصر لمبارك بن سعيد بن بلدر ، وجعل مكانه راشد بن سعيد الغافرى . وحاصروا حصن العقير حتى فرغ ما عندهم ، فصالحوهم على هدمه ، فهدموه . ثم أمنوهم ، ورجع كل إلى بلده .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة .

(٢) فى الأعيان (غصن الهناوى) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ص ١٣٠).

(٣) يعنى بلدة الغافات وحصنها .

(٤) العبارة غير واضحة فى الأصل ونصها (حتى أتوا بسعيد بن جويد مقتولا يريه أهله ليدينوا) . والصيغة المثبتة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣١٨) .

(٥) فى الأصل (و القايد) .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

ثم إن محمد بن ناصر جيش جيشا من البدو والحضر ، وقصد به بلدان الحبوس من الشرقية ، والمضيبى ، والروضة . والتقى هو وجيش خلف بن مبارك والحبوس وغيرهم من بنى هناة بالمضيبى . فوقع بينهم حرب عظيم ، وانكسر أصحاب خلف بن مبارك ، ودخلوا حجرة المضيبى . ثم مكثوا بالمضيبى كلهم حتى وقع الصلح [بين محمد بن ناصر وأهل المضيبى بخروج خلف ومن معه عنهم](١) .

ثم إن خلف بن مبارك قصد أبرا (٢) — عند الحرث — فاتبعه محمد ابن ناصر . ودخل خلف بن مبارك ، ولم يظن أن محمد بن ناصر يتلوه بجيشه . فأرسل محمد بن ناصر إلى الحرث [م ٤٠٤] أن يخرجوا خلف بن مبارك من عندهم ، فأبوا . فقام بحربهم ، وقطع بعض نخيلهم .

ثم إن خلف سار إلى مسكد ، ورجع محمد بن ناصر إلى يبرين :

إمامة محمد بن ناصر الغافرى :

ثم وصل [محمد بن ناصر](٣) بمن معه إلى نزوى ، وأرسل إلى رؤساء القبائل (٤) وأهل العلم ، واجتمعوا . فطلب منهم أن يقام أحد مكانه مع سيف بن سلطان ، وأنه يتعذر من الحرب . فلم يعذروه ، [خوفا من خلف بن مبارك القصير] (٥) .

---

(١) العبارة فى الأصل مبتورة وغير واضحة ، نصها (وقع الصلح أن يسير محمد بن ناصر). والتصحيح بين حاصرتين مأخوذ من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣١٩) .

(٢) إبرى .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح .

(٤) فى الاصل (القبايل) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب الفتح المبين لأن رزيق (ص ٣١٩) حيث جاء الإسم (محمد بن ناصر القصير) .

وقد ولّى نزوى عبد الله بن محمد بن بشير بن مداد ، نظراً [لأنه](١) من أهل العلم ، لئلا يقام الباطل فى البلاد . وذلك أنه كان [فى](٢) كل هذه الحروب على الباطل ، لا بحجة حق ، وكله إثم وذنوب .

ثم غلقت أبواب الحصن على أولئك الناس [للمشورة](٣) فمكثوا(٤) يوما وليلة إلى قرب الفجر ، [حتى] (٥) عقدوا الإمامة [لمحمد بن ناصر](٦) ليلة السبت لسبع ليال خلون من المحرم سنة سبع وثلاثين ومائة وألف . ومكث بنزوى حتى صلى الجمعة ، ثم سار إلى يبرين .

ثم إن مانع بن خميس العزيزى أخذ حصن الغبّى . وكذلك مهنا بن عدى بن مهنا اليعربى ، — ومعه [جموع] (٧) من بنى ريام — أخذوا غالة والبركة(٨) ، [فقضى إليهم محمد بن ناصر بمن معه من الرجال ، فسلموا له الأمر بعد الحرب](٩) ، وتحاربوا ، وتصالحوا . كذلك [م ٤٠٥] أخذ [محمد بن ناصر](١٠) حصن الغبّى . ثم صار إلى سمائل وحرب(١١) حجرة البكريين من سمائل ، وحجرة أولاد سعيد أمبو على ، التى قرب الحصن .

ثم أن المعاول وقعت بينهم وبين خلف بن مبارك شرهة وعتاب ، وأخذوا عليه حصن بركا ، وأرسلوا إلى محمد بن ناصر ؛ فهبط(١٢) إلى الجبل ،

---

(١) ، (٢) ما بين الحواصر إضافة لضبط المعنى .

(٣) ما بين حاصرتين من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣١٩) .

(٤) فى الأصل (مكثوا) .

(٥) ، (٦) ، (٧) ما بين الحواصر إضافة للايضاح .

(٨) العبارة فى الأصل بها خلط ، نصها (من بنى ريام أخذوا اليعاربة أخذوا غالة البركة) .

(٩) ، (١٠) ما بين حاصرتين إضافة من كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣٢٠) .

(١١) حربة يحربه ، أى أخذ ماله ، فهو محروب (لسان العرب) .

(١٢) فى الأصل (وهبط)

وتلقوه المعاول ، وعاهدوه على أن يخربوا (١) مسكد ، وتعاهدوا على ذلك .

ثم إنه سار مغربا ، فظن المعاول أنه يريد حصن بركا منهم ، ونزلوا الحرادى . وجعل نزول المعاول وسط القوم(٢) . ولما أحسوا أنه يريد بركا ، جعلوا خادما لهم يعمل طعاما فرشوه ورشهم(٣) . وسار كل اثنين منهم إلى الخور يصلوا العصر أو المغرب ، حتى أن كلهم وصلوا حصن بركا وأمتنعوا . وأرسل إليهم [محمد بن ناصر](٤) متاعهم ، وسار إلى سمائل . وأما الركاب التي لهم [فإنهم](٥) جعلوا عليها طائفا(٦) وقالو له : سر كأنك إلى نحو الفلاة . فما لبث بهن حتى أوصلهن وادى المعاول .

ثم بعد ذلك قصد [ناصر بن محمد] إلى ينقل ، ونزل بحذاها . وكان فيها رجل اسمه عصام قد دلّه على البلد [م ٤٠٦] ، وثقب له ثقبا من بيته (٧) ، ودخلوا على أهلها من ذلك البيت ، وضيع حجرتهم . والسبب ذلك الرجل .

---

(١) فى تحفة الاعيان للسالمى (ص ١٣٧) يخربوا مسقط .

(٢) يعنى قوم محمد بن ناصر .

(٣) ورش من الطعام شيئاً ، تناول قليلا ، قيل الروش الاكل الكثير والورش الاكل القليل . (لسان العرب) وفى تحفة الاعيان السالمى (ج ٢ ص ١٣٧) وفرشوا فرشهم .

(٤) ، (٥) ما بين حاصرتين إضافة لضبط المعنى .

(٦) كذا فى الاصل . وفى تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ص ١٣٨) «وجعلوا عليها صنافا» . جاء فى لسان العرب أن الطنف ما برز من الجبل ونحوه كأنه جناح ، وما أشرف خارجاً عن البناء . وربما كان المقصود أنهم جعلوا مقدمة للقوم فى سيرهم ، تسبقهم .

(٧) جاء فى كتاب الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣٢١) أن عصاماً هذا كانت جدران بيته متصلة بجدار الحصن ، فدخل محمد بن ناصر ورجاله البيت ونقبوا الجدار وبذلك تمكنوا من دخول الحصن .

وقصد إلى صحار ، ولم يكن خلف بن مبارك فيها ، ولا (١) فيها من أجنابه أحد ، فدخلها . ثم جاء خلف بن مبارك ودخلها ، ووقعت (٢) الحرب بينهم ، حتى قتل محمد بن ناصر ، وخلف بن مبارك . فأما خلف [فقد](٣) قبر فى الحصن ، وأما محمد بن ناصر [فقد] قبر فى بيت غربى الحصن ، عند حجرة الشيعة . وسار كل أحد إلى بلاده .

قال قائلون(٤) إن أحداً أخرج محمد بن ناصر من قبره [ورمى به خارج](٥) البلد ، والله أعلم .

وصار خط الباطنة كله لخلف بن مبارك فى حياته . وكذلك الرستاق قبل موته ، ومحمد بن ناصر فى عمان . وأما حصون الغربية ، فمرة تؤخذ منه (٦) ، ومرة يأخذها ، وكذلك الشرقية ، حتى مات . وحساب الفريقين مع الله .

إمامة سيف بن سلطان :

ثم إن سيف بن سلطان طلع به بنو غافر إلى القاضى ناصر بن سليمان بن محمد بن مداد فى(٧) نزوى ، ونصبوه إماماً ، إذ صار [م٤٠٧] بالغ الحلم يوم الجمعة أول شهر شعبان من سنة أربعين سنة ومائة سنة وألف .

(١) فى الاصل (بل) .
(٢) فى الاصل (ووقع) .
(٣) فى الاصل (فأما خلف قبره فى الحصن) .
(٤) فى الاصل (قايلون) .
(٥) فى الاصل (ورماه خارجاً من البلد) والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان السالمى (ج ٢ ص ١٤٠) .
(٦) فى الاصل (عنه) .
(٧) فى الأصل (إلى) .

مكث ماشاء الله حتى وصل قرية نخل ، وكان الوالى بها جساس بن عمر بن راشد الحراصى . فأدخلوا (١) بلعرب بن حمير فى الحصن ، وسيف بن سلطان فى البطحاء من حيث لم لمو ، وامتنعوا عنه(٢) . فنهض سيف من ساعته إلى بطحاء (٣) — فى — من وادى المعاول ، وأرسل خاله سيف بن ناصر إلى مسكد ، وقبضها ، وأما (٤) بلعرب بن حمير [فقد](٥) أقاموه بنزوى إماما ، فتبعته(٦) فرقة ، وملك بحيث مُلك محمد بن ناصر . وبقى لسيف بن سلطان ما كان فى يد خلف بن مبارك .

ثم إن سيف بن سلطان أرسل إلى سلاطين مكران أن يمدوه بقوم ، فأمدوه . وسار بهم إلى الظاهرة ؛ ووقع الحرب هنالك ، ووقعت الغلبة على قوم سيف . وقتل أكابر البلوش اللذين جاءوا من مكران .

ثم إن سيفاً أرسل إلى العجم ، وأتوه بجيش عظيم ، ونزلوا بخور فكان (٧) ، آخر ليلة [م ٤٠٨] الخميس لاثنى عشرة ليلة خلت من شهر الحج ، سنة تسع وأربعين سنة ومائة وألف سنة . وقصدوا إلى الصير .

وخرج سيف بن سلطان من مسكد إلى نحوهم . وحشد بلعرب بن حمير [اليعربى] (٨) ليتلقاهم . وخرج من نزوى أول شهر المحرم

---

(١) فى الاصل (فاطلعوا) والصيغة المثبتة من كتاب تحفة الأعيان السالمى - ج ٢ ص ١٤٣

(٢) فى تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ص ١٤٣) « ومنعوا الحصن من سيف » .

(٣) فى الاصل (بطحا) : وفى اسم مكان ...

(٤) فى الاصل (وآن) .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة .

(٦) فى الاصل (فتبعه) .

(٧) بلده على ساحل عمان .

(٨) ما بين حاصرتين إضافة لاستكمال المعنى .

سنة خمسين و مائة وألف(١) وتحاربوا قليلا . وانكسر بلعرب بن حمير ومن معه ، وتشتت أقوامه ، ولم يرجع أحد منهم بدابة ، ولا متاع ولا سلاح . ومات أكثرهم من قتل وعطش .

وأخذ سيف الجو والظاهرة . وأدت أهل تلك البلدان من الخراج والمغرم غير قليل . ودخلوا حجرة عبرى ، وقتلوا الرجال منها والأطفال والنساء ، حتى قيل أن الأطفال يربطون فى حبل (٢) ، ويجعلونهم فى مياه الأنهار تحت القناطر . فيا أعظمها من مصيبة !! وحملوا النساء إلى شيراز .

ثم رجعت العجم إلى الصير . وصاروا مالكين أمرهم ، لم يخلوا لسيف ابن سلطان حظا . وتوجه سيفه إلى بهلا وحاربهم ، وصالحوه .

ثم تخلل(٣) عساكر بلعرب من حصن نزوى . وكاد [م ٤٠٩] بلعرب [بن حمير] (٤) أن يهرب منها . ثم إن أهل بهلا أدخلوا بلعرب الحصن .

ثم جاءت زيادة عجم من شيراز مع أصحابهم إلى الصير ، وقصدوا إلى عمان ، وذلك [فى] (٥) اليوم التاسع من شوال من سنة خمسين ومائة وألف سنة . وصالحتهم (٦) قبائل الظاهرة . ووصلوا إلى بهلا ، واقتتلوا . وقتل من العجم وأهل بهلا ناس كثير . ودخلت العجم بهلا يوم ثلاثة

---

(١) فى الاصل (سنة خمس ومائة) . والصيغة المثبتة من تحفة الاعيان للسالمى (ج ٢ ص ١٤٥) .

(٢) فى الاصل (يربطون فى خيل) . وفى كتاب الفتح المبين لابن رزيق — ص ٣٢٧ — يربطون بالحبال .

(٣) تخلل الشيء أى نفذ ، والمقصود أنهم تسربوا من الحصن .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة .

(٦) فى الاصل (وصالحهم) .

وعشرين [من ذى] (١) القعدة من هذه السنة ، واستولوا عليها . وهرب أهلها منها .

وقبض العجم الحصن ، حتى [أنهم](٢) ربطوا خيولهم فوق الغرف من الحصن . ومضوا إلى نزوى أول شهر الحج . وهرب بلعرب بن حمير عن نزوى الى وادى بنى غافر . وثبت بنو حراص بقلعة نزوى ، وبعض أهل نزوى فى الحصن .

وصالح أهل نزوى العجم ، إلا القلعة والحصن . ووضعوا عليهم الخراج ، وعذبوهم بالجلد والقتل . وتفرق من عاش منهم ، حتى قيل [إن](٣) الذين فقدوا أربعة آلاف نفس . وحملوا النساء والأطفال . وفعلوا من أنواع القبيح [م ٤١٠] ما لا يذكر. ولم يتركوا مقدرة عن الحصن — والقلعة بالحصن(٤) — بالحرب والتفق . وأيسوا منهم .

وخرجوا منها يوم سادس الحج ، ومروا على أزكى ، فصالحوهم ، وأدوا الخراج . وأقاموا [فيها](٥) يوما وليلة ، ومضوا قاصدين إلى الباطنة . ودخلوا مسكد يوم أربعة وعشرين من شهر الحج من سنة الخمسين بعد المائة والألف . ولم يمنعهم مانع . وأهلها : فمنهم من ركب فى المراكب عند سيف بن سلطان واليعاربة ، ومنهم فى بقية السفن ، ومنهم فى الكيتان .

وحاصروا الكيتان حتى وضعوا بومة فوق الجبل الذى فيه البرج النعشى

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة .

(٢) فى الاصل (حتى يربطوا خيولهم فوق الغرف) .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة .

(٤) بمعنى أنهم لم يقدروا على الحصن والقلعة .

(٥) فى الأصل (وقاوموا) وما بين حاصرتين إضافة .

من الكوت الشرقى ، إلى يوم الخامس من صفر سنة إحدى وخمسين بعد المائة وألف . مكثوا كذلك إحدى وأربعين يوما . وأنكسروا ، ومروا إلى بركا وصحار .

وسيف ومن يوده ركبوا فى المراكب هاربين من العجم . ثم نزل إلى بركا ، وطلع إلى الطو ، بلاد بنى جابر . وسار — هو وأهل الطو — إلى نخل . وساروا إلى الظاهرة . والتقوا — سيف [م٤١١] بن سلطان وبلعرب بن سلطان وبلعرب بن حمير — فى وادى بنى غافر . ووقع النظر بأن يخلع بلعرب بن حمير من الإمامة ، ويعقد لسيف بن سلطان خوف الفرقة .

وبقى العجم فى الحفرى ، وفى برج المدرع من بركا . والحصن فيه المعاول . ومكث بينهم الحرب زمانا طويلا .

وأما العجم الذين تركوا فى بهلا ، لما أبطأ عليهم خبر أصحابهم ، بعثوا منهم قدر مائة فارس يتجسسون عن أخبارهم ، فمروا على سمائل(١) أول نهار ثامن صفر . فشمر عليهم حمير بن منير الريامى أهل سمائل ، فقتلوا منهم كثيرا وأنهزموا .

ثم إن حمير بن منير — ومن معه من أهل أزكى وبنى ريام — طلعوا إلى بهلا ، يوم التاسع عشر من صفر ، ودخلوها يوم اثنين وعشرين . واحتصن العجم فى الحصن ، فحاصروهم ، وقيل إنهم ثمان مائة رجلا(٢) ، بعد الذين قتلوا منهم . وأوصلوهم إلى السيد الأعظم والهمام الأكرم ، أحمد بن سعيد بن أحمد بن محمد البوسعيدى — وهو يومئذ [م٤١٢] والى صحار — فحبسهم ومات أكثرهم .

وأما العجم الذين أنكسروا من مسكد ، بعد مكثهم فى بركا ،

---

(١) فى الأصل (سمايل) .

(٢) فى الأصل (ثمان م رجلا) .

[فإنهم](١) ساروا إلى الصير . وركب منهم إلى بلدانهم . وبقى من بقى منهم فى الصير .

ثم إن سيف بن سلطان ظهرت منه أحداث مما تخرجه من الإمامة ، لم يرضها المسلمون . وكلف الرعية الغرم الكثير . ثم أنكر عليه المسلمون ، واجتمعوا فى نخل، عند السيد سلطان بن مرشد بن عدى بن جاعداليعربى، الذى أمه بنت سيف بن سلطان الكبير . واجتمعوا من أهل نزوى الشيخ حبيب بن سالم أمبو سعيدى الأعمى ، وهو أعلم أهل زمانه يومئذ .

إمامة سلطان بن مرشد بن عدى اليعربى :—

[اجتمع من شاء الله من مشايخ العلم وشيوخ القبائل من نزوى وأزكى](٢) وأناس من أهل بهلا والرستاق ، ومن سائر(٣) القبائل ، وعقدوا الإمامة للسيد سلطان بن مرشد المذكور هنا ، ليلة الحج من سنة أربع وخمسين ومائة وألف . واستقام وخلصت له الحصون .

فأما سمائل ،[فكان] فيها أحد من بنى هناة من قبل سيف بن سلطان، وحارب إلى أن أيس [م ٤١٣] من المدد من سيف بن سلطان ،وانفتح(٤). وأزكى فيها بنو رواحة عاهدوه ، وخلصوا له الحصن . ونزوى خلص(٥) قلعتها بنو حراص. وبهلا والشرقية، سالمته الرعية[من الفريقين](٦)، والحمد لله .

(١) ما بين حاصرتين إضافة .
(٢) فى الأصل بياض واضطراب . وما بين حاصرتين من الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣٣٩) .
(٣) فى الأصل (ساير) .
(٤) يعنى حصن سمائل .
(٥) فى الأصل (خلصوا) ، أى سلموا .
(٦) فى الأصل (وسالمته الرعية الفريقان) . والصيغة المثبتة من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ص ١٥٠) .

وجهز جيشا إلى الرستاق ، وسار فيه . وكان سيف بن سلطان قد جمع قوما [وخرج يريد لقاء الإمام](١) عند طوى العشرق فى الوادى ، بقرب ثقاب فلج الميسر . والإمام سلطان بات على ماء بقرب الجبل الذى نعشى ثقاب فلج بوثعلب ، وأصبح ليدخل الرستاق . فلما أحس سيف بقدوم الإمام انهزم ، وسار إلى مسكد ، وسار كل فى بلده .

فدخل الإمام الرستاق ، فتلقاه مشايخ الرستاق من كل حلة بالكرامة ، وذلك آخر يوم من شهر شعبان — والجمعة — من هذه السنة ؛ واحتوى على جميع رعاياها . وبقى الحصن ، ومكث [الإمام](٢) محيطا به سبعين ليلة . وانفتح له ، وترك فيه أخاه [والياوهو سيف بن مهن](٣) .

ثم إن سيفا [بن سلطان](٤) جمع قوما من ساحل عمان ، ومكث فى بركا . فبعث له [م ٤١٤] الإمام سلطان أخاه سيف بن مهنا [اليعربى](٥) ، والمعاول ، وأحمد السعيدى ، ومن معهم من القبائل ، وتوجهوا الدهس أعلا من مزرع بركا ، غربى الطريق الجائز(٦) ؛ وانكسر سيف ، وانهزم أصحابه إلى مسكد . وسيف بن مهنا رجع إلى الرستاق ، وفيه قليل جراح ، ضربتان .

وجاءت لسيف بن سلطان دولة(٧) ، وطلع بهم إلى حصن الحزم ؟

---

(١) فى الأصل (وقبضوا عند طوى) ومابين حاصرتين من تحفة الأعيان (ج ٢ ص ١٥٠).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة .

(٣) فى الأصل (وترك فيه أخاه سيفاً) والصيغة المثبتة من الفتح المبين لابن وزيق (ص ٣٤١) .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة .

(٦) فى الأصل (الجايز) .

(٧) أى قوة ، نجدة ، أنصار .

ووقعت فتنة بين قومه وبين بدو الغرب وبدو الباطنة . وتخللت عنه الأقوام . فرجع سيف بن سلطان إلى مسكد .

ثم إن الإمام سلطان حشد قوما ، وهبط إلى مسكد يوم ثانى من شهر (١) الحج – والخميس – من هذه السنة . [و](٢) وصل مزرع روى يوم رابع ، وأناخ هناك . وركض فى الليل على المطرح . ثم طاولوا إلى مسكد ، وفيها عبيد سيف بن سلطان . وسيف ركب إلى العجم ، وترك العبيد كل المعاقل(٣) ، ما خلا الكوتين(٤) . ومكث يحاربهم مدة ، والمعقل فى المطرح ووقع بالمطرح البيع والشراء .

ووصل سيف إلى | م ٤١٥ | الصير ، وترك مركبه الذى سار به من مسكد فى خور فكان ، فأخذه السيد أحمد بن سعيد البو سعيدى .

ثم أرسل العجم من الصير من يأتى لهم بقوم من شيراز . وأتوا بهم إلى عمان ، ونزلوا بصحار قدر عشرين ، وقيل ثلاثين ألفا ، وقيل أربعين ألفا ، وقيل خمسين ألفا . جميع جيشهم قعدوا إلى صحار . والسيد أحمد بن سعيد فى فلج العوهى ، ووثب إلى الحصن(٥) وقد نزلوا حوله . فحاصروه حصارا شديدا ، وكاد ينهدم الحصن . وخلوا(٦) خندقا دائرا(٧) بالحجرة ،

---

(١) فى الأصل (أشهر) .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة .

(٣) فى الأصل (وترك البيد كالمعاقل) .

(٤) الكوتان هما حصنا مسقط (مسكد) . جاء فى تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ص ١٥٢) ما نصه : (وافتتح الإمام مسكد بجميع مقابضها ومعاقلها وقت الضحى من يومه ، سوى الكيتان : فإنهما بقيا محاربين . وأما كوت المطرح فبعث له الإمام بعض القوم ...) .

(٥) يعنى حصن صحار .

(٦) فى الأصل (وخلو) .

(٧) فى الأصل (دايرا) .

وبروجا عالية من كل جهة من البر .ومن البحر مراكب كثيرة . وكانوا يضربون من الجانب الغربي عشرة مدافع فى دفعة واحدة ، وكذلك من المشرق . وزن الرصاصة ثلاثة أمنان بالمسكدى . وبنوا لهم حصنا يسمونه أردو ، وصرفته أثقالهم .

ثم إن سيف بن سلطان سلم الكيتان للعجم . وجاءوا إلى مسكد والمطرح بقوم عظيمة ، فسار الإمام منها ، ومر بحصن سمائل ، ودوّل من عمان والغربية . [م ٤١٦] وقصد بهم العجم ، فنزلوا قريبا من الاردو ، ودخلوا عليهم . ووقع القتل فى الفريقين . وخانت بدو الغرب ، وأخذوا الأموال من العجم ، وساروا إلى بلدانهم . وقتل هناك السيد سيف بن مهنا مع جملة من مشايخ القبائل(١) . وأصاب الإمام ضربتان تفق ، وكان ذلك سبب موته . ودخل — هو ومن بقى — بخيلهم من باب ، وخرجوا من باب . وأكثر قتلهم من التفق من بروجهم .[فلما أثخنته الجراح دلف](٢)إلى صحار ،ودخل الحصن ومكث متألما محجوبا عن(٣) الناس. ومات ودفن فى برج الكبس،وأخفوا موته، لئلا تكون(٤) شماتة عليهم من العجم .

ويضربون(٥) مدافعهم كل يوم ألف ضربة وإثنتا عشرة . و الأردو عليهم خندق ، وبروجه من النخيل والطين . والسيد أحمد بن سعيد صبر على احصار العجم ، [طوال](٦) تسعة أشهر . وأصابهم(٧) عدم

(١) فى الأصل (القبايل) .

(٢) فى الأصل بياض ؛ وما بين حاصرتين من تحفة الأعيان للسالمى (ج ٢ ص ١٥٤) .

(٣) فى الأصل (عند) .

(٤) فى الأصل (يكون) .

(٥) يعنى العجم .

(٦) فى الأصل (فتم ذلك تسعة أشهر) .

(٧) فى الأصل (وصابهم) .

المعيشة(١) ، حتى وصلت(٢) قيمة ستجبات قاشع بغازى(٣) ، ومكوك الأرز بعشر محمديات. والسيد أحمد ينق على عسكره التمر والأرز والسمن والدراهم [م٤١٧] ، كثيرة ذخائره.

ومكث يكثر عليهم غزواته وسطواته ، حتى ملوا وكلوا ، وطلبوا الصلح بعد ما ذلوا ، ومات أكثرهم ، وتخلل جمعهم ، وقتل منهم من قتل. وخرجوا مذلولين مخذولين ، وبقت منهم بقية فى مسكد: السلطون، وزين البيح ، وعسكرهم . وأرسلهم السيد [أحمد بن سعيد](٤) ، فسلم لهم نقد المال لتخليصها ، فخلصوها له . فأما السلطون [فإنه](٥) لم يفعل خطية ، وسار بأمان . وأما زين البيح [فقد](٦) ضيع العهد فى الباطن ، ورمى(٧) ببعض المدافع من الكوت الغربى ، وركب البحر حتى وصل بركا ، ونزل بها . وقبضه السيد أحمد ، وقيدوه ، وحدر (٨) متاعه وأرسل به من بركا إلى صحار ، ثم إلى حيبى — بلاد الريايسة . وقتلوه دون حيبى ، وماله بمنزلة سيف بن سلطان ، بالانتصار للمظلومين (٩) [ممن قتلهم](١٠) العجم. والحمد لله على كل حال .

* * *

(١) أى انعدام وسائل المعيشة ونقص الأقوات .

(٢) فى الأصل (وصل) .

(٣) فى الفتح المبين لابن رزيق (ص ٣٤٣) ما نصه (حتى بلغ العشر صععات التى تسميها العامة القاشع بخمسين فلساً) .

(٤) ؛ (٥) ، (٦) ما بين الحواصر اضافة .

(٧) فى الأصل (رما) .

(٨) حدر الشىء يحدره حدراً وحدوراً فانحدر : أى حطه من علو إلى أسفل . وحدرتهم السنة تحدرهم حدراً إذا حطتهم وجاءت بهم حدوراً . ورماه الله بالحيدرة أى بالهلكة (لسان العرب) والمقصود باللفظ فى المتن أهلك متاعه وصادره .

(٩) فى الأصل (بالانتصار من المظلومين) .

(١٠) فى الأصل (المظلومين من قتل العجم) .

فهذا مما وردت به الأخبار عن الأئمة والملوك والشيوخ والشجعان : من أهل عمان . تاريخ يوم ٢٥ جمادى الآخر سنة ١٣١٣ . وكان تمامه يوم الجمعة نصف النهار . بقلم الفقير لله تعالى أبي سالم عبيدر فرحان ، بيده .

[م ٤١٨] وقد نسخته لسيدى ومولاى ، العزيز والذخر الحريز ، لحبابت ناصر محمد بن أحمد المعولى ، رزقه الله حفظه . إنه كريم منان . آمين .

وما قضى أحد منهـــــا لبانته
وما انتهى أرب إلا إلى أرب

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم
إلا على شجب والخلف فى الشجب

مجدين لا يألون فى حب جمعها
رجاء بأن تبقى عليهم فلا جرم

وكانوا على الدنيا حراصا أشحة
يقاسون فيها كل هم وكل غم

فما وسدتهم فى الثرى غير صخرها
وما زودتهم للفراق سوى الرجم

وما استصحبوا منها سوى البر صاحبا
وما كسبوا من فعل محمدة وذم

لقد بقيت من بعدهم وفنوا هم
وما سجمت حزنا على فقدهم بدم

ألم تسقهم كأس المنية منقعا
وشابت صفاء العيش منها بهم بسم

فلو عدلت عند الإله بامرها
قلامة ظفر حازها دون من ظلم
ولو دامت الدنيا لدامت لأحمد
نبي الهدى لكنها قط لم تــــــدم
ودار البقاء فيها الجزاء لأهلها
سواها فقم فيها وبالله فاعتصم

تمت بحمد الله

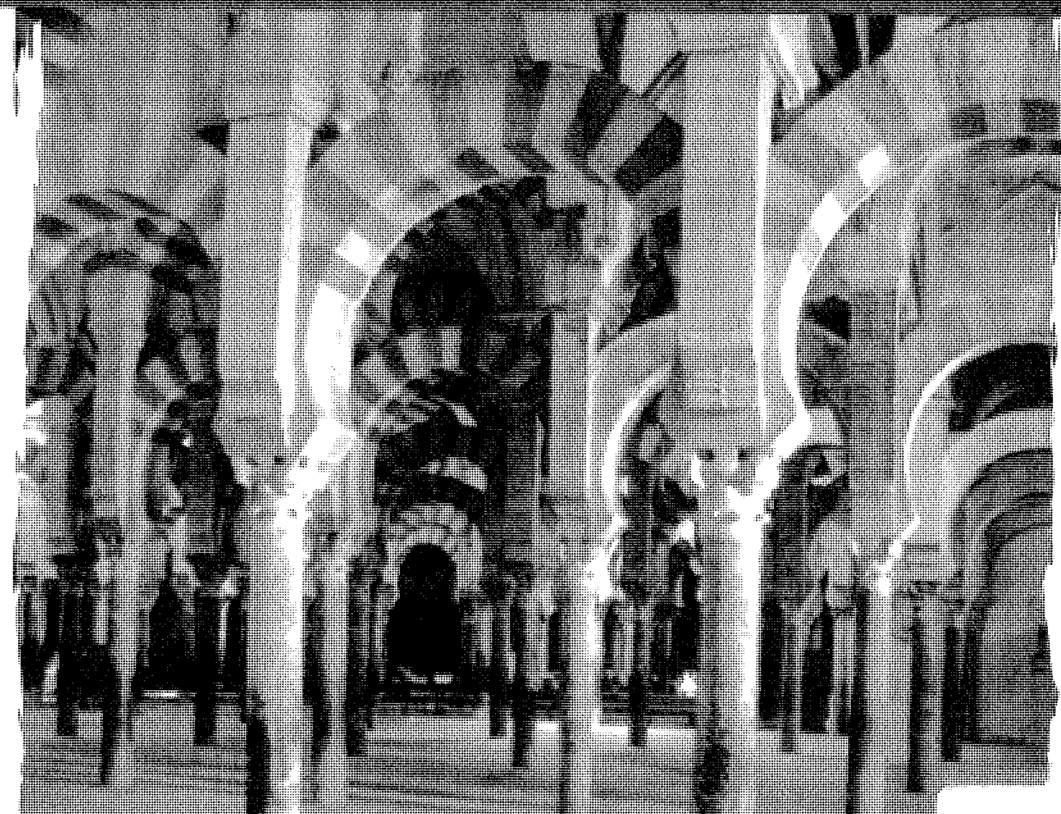
محتويات الكتاب

رقم الإيداع ٤١٤٠ لسنة ١٩٨٠

مطابع سجل العرب
٩ شارع عماد الدين / القاهرة ت ٩٢٤٧٠٦

تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس

د. خليل إبراهيم السامرائي
د. عبد الواحد ذنون طه
د. ناطق صالح مطلوب



تاريخ العرب وحضارتهم
في الأندلس

الطبعة الأولى

كانون الثاني/ يناير/ أي النار 2000 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4681/ 99

دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

رقم الإيداع الدولي (ردمك) **ISBN 9959-29-015-8**

دار الكتاب الجديد المتحدة

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصرالله

بناية فرحات وحجيج ـ طابق 5

خليوي: 03ـ933989 ـ هاتف وفاكس: 00961ـ1ـ542778

بيروت ـ لبنان

توزيع **دار أويــا** للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،

هاتف: 44448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 44442758 . 21 . 00218، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس

تأليف

الدكتور خليل إبراهيم السامرائي

أستاذ مساعد/ قسم التاريخ

كلية التربية/ جامعة الموصل

الدكتور عبد الواحد ذنّون طه

أستاذ مساعد/ قسم التاريخ

كلية التربية/ جامعة الموصل

الدكتور ناطق صالح مطلوب

أستاذ مساعد/ قسم التاريخ

كلية الآداب/ جامعة الموصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تعد مادة التاريخ الأندلسي من المواد المهمة في مناهج أقسام التاريخ، لما لها من علاقة وثيقة بتراث العرب وحضارتهم في الأندلس، حيث وصلوا إلى قمة تفوقهم العسكري والسياسي والحضاري. ولهذا فقد كان من الضروري أن يتوفر بين أيدي طلبتنا الأعزاء هذا الكتاب المنهجي. الذي يمثل الحد الأدنى لما يجب أن يطلعوا عليه لدراسة هذا التاريخ المجيد.

يتألف الكتاب من خمسة أبواب، تنقسم إلى فصول عديدة. وقد قام المؤلفون بتأليف حصصهم من هذا الكتاب على النحو الآتي:

كتب الدكتور عبد الواحد ذنون طه الباب الأول، الذي يتضمن فتح العرب لإسبانيا واستقرارهم فيها، ويتألف من أربعة فصول. كما كتب أيضاً الباب الثاني وهو عن عهد الإمارة في الأندلس، ويشمل ثلاثة فصول.

وقام الدكتور ناطق صالح مطلوب بكتابة الباب الثالث، وهو عن عهد الخلافة في الأندلس، ويتألف من أربعة فصول. وكتب أيضاً الفصلين الأول والثاني من الباب الرابع عن سقوط الخلافة في الأندلس وعصر الدويلات وملوك الطوائف.

وكتب الدكتور خليل إبراهيم صالح السامرائي، الفصل الثالث والرابع والخامس من الباب الرابع. وهذه الفصول تتحدث عن المرابطين والموحدين في الأندلس، ومملكة غرناطة، والمسلمين بعد سقوط غرناطة. كما كتب أيضاً الباب الخامس، وهو عن حضارة العرب في الأندلس، ويتألف من ثلاثة فصول.

نرجو أن نكون قد وفقنا في عملنا هذا والله من وراء القصد.

المؤلفون

البَابُ الأَوَّلُ

فتح العرب لإسبانيا واستقرارهم فيها

الفصل الأول: مقدمة في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في اسبانيا قبيل الفتح العربي.

الفصل الثاني: فتح العرب، دوافعه وممهداته.

الفصل الثالث: النشاط الحربي للعرب في شمال اسبانيا والتوغل في فرنسا.

الفصل الرابع: استقرار العرب واستيطانهم.

الدكتور
عبد الواحد ذنون طه

الفصل الأول

مقدمة في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في اسبانيا قبيل الفتح العربي

عرف شبه الجزيرة الايبيرية، أي اسبانيا والبرتغال، في الأزمان القديمة بـ (ايبارية)، وعندما جاء الرومان أطلقوا عليه اسم (Hispania)، ومن هنا جاء اللفظ العربي (اشبانية أو (اصبانية)[1]. وقد تحول هذا اللفظ في لغة القرون الوسطى الرومانسية إلى (Espana)[2]. أما مصطلح (الأندلس)، الذي يشمل المناطق التي حكمها العرب والمسلمون من شبه الجزيرة، فقد اشتقه الجغرافيون والمؤرخون العرب من الكلمات الآتية: الأندليش أو الأندلش أو الأندلس، وهي الأسماء التي سُمي بها الوندال، الذين سيطروا على أجزاء من شبه الجزيرة الآيبيرية، في الفترة من 408 ـ 429 م[3].

إن اسبانيا بلاد جبلية تضم ودياناً وأحواضاً نهرية عظيمة، من أمثال، نهر الأبرو Ebro، ونهر المنهو Minho، نهر دويرة Douro، ونهر تاجة Tajo، ووادي آنة Guadiana، والوادي الكبير Guadalquivir. وتحتل الميزيتا (Meseta)، التي تعني بالاسبانية النجد أو السهل المرتفع الواسع، معظم شبه الجزيرة الآيبيرية، ولكن تجمعات السكان الكبيرة، كانت دائماً مركزة قرب الشواطئ ووديان الأنهار الكبيرة. وكانت المدن الداخلية الرئيسة في العهد الروماني، سرقسطة Zaragoza، وطليطلة Toledo، وماردة Merida، وأشبيلية Sevilla، وقرطبة Cordoba، حصونا على الأنهار، وقد استمرت

---

(1) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968، ص 57 ـ 58؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت 1965 ـ 1966، جـ 4، ص 556.

(2) J. F. O' Callaghan, A History of Medieval Spain, London. 1975. p. 20.

(3) البكري، المصدر السابق، ص 59؛ ابن الأثير، جـ 4، ص 556؛ ابن عذاري، البيان المغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، جـ 2، ص 2.

هذه المدن في أهميتها في العهد القوطي، والعهود العربية الإسلامية اللاحقة.

اشتهرت اسبانيا منذ القدم بثروتها المعدنية، وإنتاجها الزراعي، وتجارتها المزدهرة. ولقد كانت هذه العوامل من الدوافع المغرية التي أدت إلى حدوث سلسلة من الهجرات والغزوات الأجنبية للبلاد. ويشكل الآيبيريون Iberians، الذين جاؤوا من افريقية، أساس جنس البحر المتوسط من السكان. ولقد عبر الكلت Celts، والأقوام الهندو - أوروبية Indo-European جبال ألبرت Pyrenees، واستوطنوا في الأجزاء الشمالية والغربية من شبه الجزيرة. كما أسس الفينيقيون مستعمرات على السواحل الشرقية والجنوبية. وأخيراً وبعد صراع طويل من أجل السيادة والتفوق سيطر الرومان على اسبانيا، ولكنهم سرعان ما جوبهوا من قبل السكان المحليين، ولم يستطع الرومان إخضاع كل القبائل في شبه الجزيرة إلا في عهد الامبراطور أوغسطس Augustus (27ق. م - 14م)[4]. وقد أشار سترابو Strabo، المؤرخ اليوناني في القرن الأول قبل الميلاد، إلى بعض القبائل التي استوطنت شبه الجزيرة، من مثال الغاليسيين، والكانبتريانيين، والباسك، واللشدانيين، وغيرهم، ومع هذا، ففي بداية التاريخ الميلادي المسيحي، اصطبغ الكثير من هؤلاء السكان بالصبغة الرومانية[5].

وبرغم سيادة الرومان على اسبانيا لفترة طويلة، فإن الظواهر الحقيقية لانحطاط سلطتهم فيها بدت بوضوح منذ بداية القرن الخامس الميلادي، وذلك عندما ابتدأت القبائل الجرمانية البربرية بالاستيطان في شبه الجزيرة. ويصف سانت ازيدور الأشبيلي Saint Isidore of Seville، المتوفى عام 636م، استيطان الوندال Vandals، والآلان Alani، والسويفي Suevi، في اسبانيا عام 408م على أنه احتلال مدمر، أدى إلى نشر الخراب في كل أنحاء البلاد[6].

ونتيجة للحروب الكثيرة التي قامت بين هذه القبائل الجرمانية وبين القوط الغربيين، الذين كانوا يسكنون في تلك الفترة في غالة Gaul جنوب فرنسا، تحطمت قوة الآلان،

---

(4) O'Callaghan, op. cit., p. 27.

(5) R. Altamira, A History of Spain, Translated from the Spanish by: Muna Lee, Toronto, Canada, 1949. pp. 32-34.

(6) Isidoro of Seville, History of Goths, Vandals, and Suevi, translated from the Latin by Guido Donini and Gordon B. Ford Jr. Leiden, 1970, p. 33.

والوندال الذين اضطروا إلى العبور إلى شمال افريقية في عام 429م[7]. ثم تمكن القوط أخيراً من السيطرة على اسبانيا والتغلب على مملكة السويفي التي كانت ما تزال موجودة في الشمال الغربي من البلاد، وذلك في عهد الملك ليوفيخلد Leovigild (568 ـ 586م)[8].

مملكة القوط الغربيين في اسبانيا:

كانت مملكة القوط الغربيين هي الأخيرة في سلسلة ممالك البرابرة التي خلفت الامبراطورية الرومانية، وذلك بعد أن انتهت هذه الأخيرة ككيان سياسي، واختفت من مسرح التاريخ. ولقد تمت عملية استيطان القوط الغربيين في اسبانيا في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس للميلاد. وكانوا يمثلون أقلية صغيرة فقط ضمن السكان الأصليين. ولا تتوفر معلومات إحصائية عنهم في هذا العصر، ومع هذا، فقد قدّر أحد المؤرخين المحدثين، أن نحواً من مئتي ألف إلى أربعمئة ألف من القوط استوطنوا بين كل ستة إلى تسعة ملايين من السكان الاسبان ـ الرومان Hispano-Romans[9]. ولقد استوطن القوط في مناطق الأرياف والمدن على حد سواء. ولكن حتى في المدن، كان السكان الاسبان ـ الرومان يتغلبون عليهم بنسبة ثلاثة إلى واحد، ومما لا شك فيه، أن الفرق في النسبة كان أكبر في مناطق الأرياف[10].

نظام الحكم القوطي:

كان نظام الحكم القوطي ملكياً قائماً على مبدأ الانتخاب، حيث ينتخب الملك من قبل النبلاء ورجال الدين. وقد حاول العديد من الملوك أن يقيموا نظاماً ملكياً ثابتاً يعتمد على نظام الوراثة، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل. وكان يفترض بالملك أن يكون من أصل قوطي نبيل ويتمتع بأخلاق حسنة، ويختار من بين النبلاء، ولكن العادة جرت أن يتولى العرش أقوى هؤلاء بحد السيف. وكان الملك هو الرئيس الأعلى للجيش،

---

(7) Ibid., pp. 34-35; H. V. Livermore, The Origins of Spain and Portugal, London, 1971, pp. 86-88.

(8) Isidoro, op. cit., pp. 39-42; Livermore, op. cit., p. 92.

(9) O'Callaghan, op. cit., pp. 37, 70-71.

(10) R. Shaw, «The fall of the Visgothic power in Spain», The English Historical Review, XXI, 1906, p. 211.

ويتمتع بحق تعيين وعزل الأساقفة عن مناصبهم الدينية، ويحكم مستبداً، يتصرف في أمور البلاد كما يشاء. وكان للملك مجلس من النبلاء لمساعدته في الحكم، لكن الملوك استبدوا بالأمور ولم يعد لهذا المجلس من أثر في السلطة، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها ويقضون في الأمور كما يريدون[11].

وكانت مجالس كنيسة طليطلة هي القوة الكبرى في الحياة السياسية والدينية في العهد القوطي. وهذه المجالس كانت بمثابة جمعيات وطنية لمملكة القوط الغربيين تجتمع بين الحين والحين للنظر في مسائل الدولة الكبرى. وكان أصل مجلس طليطلة دينياً يتألف من كبار رجال الدين الكاثوليك ويعقد للنظر في أمور كنيستهم ورعاياها. ولكن بعد اعتناق القوط للكاثوليكية، أصبح هذا المجلس رسمياً يعقد بأمر من الملك، ويحضره كبار رجال الدولة، ثم تحول مع الزمن إلى مجلس سياسي وديني في آن واحد يصدر القوانين والأحكام في مختلف القضايا، ثم اتسع سلطانه، وأصبح محكمة عليا، وانضم مجلس النبلاء إلى هذا المجلس الديني، فأصبح مجلساً أعلى للدولة[12]. ومن الناحية النظرية كانت مجالس طليطلة قيداً على سلطة الملك، أما من الناحية العملية فقد كانت سنداً مهماً لسلطته وبخاصة بعد تحول القوط إلى الكاثوليكية عام 587م، حيث أصبحت الكنيسة في اسبانيا على علاقة وثيقة بالبلاط. وفي القرن السابع الميلادي، لم يكن بإمكان أي مجلس أن ينعقد إلا إذا أمر الملك بذلك. وكان الأساقفة عادة يناقشون ويقرون القرارات التي تتضمنها المسودة التي يقدمها الملك، ولم يهملوا في أية قضية تعليماته، ولم ينتقدوه بصورة مباشرة، بل كانوا ينفذون كل مطالبه[13].

الأحوال الاجتماعية في عهد القوط:

وفيما يخص التنظيم الاجتماعي، فقد حافظ القوط على نفس التركيب الذي وجدوه قائماً في اسبانيا أيام الرومان. وهكذا استمرت مساوئ العهد الروماني بالبقاء، وتركزت الثروة والممتلكات بيد مجموعة قليلة من الناس، وكان هناك عدم مساواة كبيرة في البنية الطبقية. فالمجتمع القوطي كان يتألف من ثلاث طبقات؛ وهم طبقة كبار ملاك

(11) انظر: حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، 1959، ص 23.

(12) المرجع نفسه، ص 23.

(13) E. A. Thompson, The Goths in Spain, Oxford, 1969, pp. 278, 281-282.

الأراضي والنبلاء وكبار رجال الدين، والطبقة العامة، وطبقة العبيد[14]. وكان أبناء الطبقة العامة يتألفون من الأحرار البسطاء الذين ينتمون إلى أصول قوطية ورومانية، عاشوا في المناطق الحضرية وفي الأرياف. ومن هؤلاء أيضاً، العمال في المدن والذين كانوا ينتظمون ضمن أصناف ونقابات، ولا يحق لهم التحول عنها أو الانتقال إلى مدينة أخرى، ومن يهرب منهم كان يُجبر على العودة إلى مدينته الأصلية. وكانوا محرومين من الانتظام في سلك رجال الدين، أو أن يصبحوا موظفين قضائيين[15]. وبالنسبة إلى سكان الأرياف، فقد اضطر العديد منهم، نظراً لظروفهم الاقتصادية الصعبة، إلى تسليم أراضيهم إلى كبار النبلاء، ورضوا بالعمل والبقاء فيها كمستأجرين لقاء تمتعهم بحماية النبلاء. ولقد أصبح هؤلاء بالتدريج مشدودين بالأرض، وارتبطت علاقاتهم بأصحاب الأملاك مدى الحياة، حتى أنهم تحولوا أخيراً إلى ما يشبه الأقنان. وكان من جملة الالتزامات المفروضة عليهم أن يدفعوا عشر محاصيلهم إيجاراً، إضافة إلى تأدية بعض الخدمات الشخصية الأخرى للنبيل، وضريبة الرؤوس، أو الجزية Capitatio[16].

وتأتي طبقة العبيد في الدرجة الدنيا من السلم الاجتماعي، ويكوّن هؤلاء الجماهير الغفيرة، ضحايا كل أنواع القهر والاضطهاد، وكانوا مملوكين لكبار النبلاء ورجال الدين، ويستخدمون للأغراض الزراعية والأعمال المنزلية على حد سواء. ويبدو من مراجعة القوانين والتشريعات القوطية أن الظروف المعاشية للعبيد المهرة الذين كانوا يعملون في المدن، كانت أفضل من نظرائهم العمال الزراعيين. وكانت الكنيسة الاسبانية تمتلك أيضاً عدداً كبيراً من العبيد، ولكن يتضح من تشريعات مجالس الكنيسة أن هؤلاء العبيد عاشوا في ظروف سيئة للغاية. ولهذا فليس من الغريب أن حاول العديد منهم الهرب والتخلص من عبوديتهم. ويضاف إلى ذلك أن القوط، خاصة في أواخر عهدهم، ابتدأوا بتجنيد العبيد بالإكراه واستخدامهم في الجيش، مما أدى إلى تذمر هؤلاء وازدياد محاولاتهم في الهروب والنجاة. وقد اعترف الملك أخيكا Egica (687 ـ 702م) في بداية القرن الثامن الميلادي، بأن العبيد الآبقين يختبئون في كل مكان من

(14) انظر: فتح الأندلس، مجهول المؤلف، نشره وترجمه إلى الاسبانية دون خواكين دي كونثاليث، الجزائر، 1889، ص 7؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، نشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات ليفي بروفنسال، القاهرة ـ ليدن، 1938، ص 169 ـ 170.
وانظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، 1969، جـ 1، ص 30 ـ 31.

(15) Thompson, op. cit., p. 121.

(16) Ibid., p. 117; O'Callaghan, op. cit., pp. 73-74.

البلاد، حيث لا تخلو منهم أية مدينة أو قرية أو حصن أو دار ريفية أو خان. وقد شرع قانوناً وضع بموجبه عقوبات صارمة على كل من يفشل في مطاردة العبيد الهاربين، وإلقاء القبض عليهم[17].

أما الطبقة العليا، أي طبقة النبلاء فكانت تتألف من أغنياء القوط الغربيين، وبقايا طبقة النبلاء الرومان. ويتميز أفراد هذه الطبقة عن الأحرار الاعتياديين بأصلهم النبيل، وامتلاكهم للمزارع والضيع الكبيرة التي تزرع من قبل المستأجرين، وبخدمتهم في المناصب العليا في القصر وفي الإدارة[18]. وكانت البلاد حتى منتصف القرن السابع الميلادي تحكم وتدار بواسطة إدارة مشتركة من الطبقة النبيلة القوطية والرومانية. ومن المظاهر المهمة لهذا النظام، أن الطبقة النبيلة القوطية كانت مسؤولة عن السكان القوط، والطبقة النبيلة الرومانية تمارس سلطاتها على السكان الرومان، بينما كان الملك القوطي وموظفوه الكبار يقررون السياسة العامة للجميع. وكان مُلاك الأراضي الرومان والقوط، وكما هو الحال بالنسبة إلى الملك وكبار موظفيه أيضاً، يشرفون على مزارعهم بواسطة الوكلاء ومديري المال في مقاطعاتهم[19]. وبصورة عامة فإن أفراد هذه الطبقة النبيلة كانوا أغنياء جداً، بنوا ثروتهم على حساب الطبقات الفقيرة المعدمة الأخرى، وقد أفلح بعضهم في الاحتفاظ بثروته حتى بعد الفتح العربي الإسلامي[20].

كانت المسيحية هي ديانة الغالبية العظمى من السكان. وكان الاسبان ـ الرومان يدينون بالمذهب الكاثوليكي، بينما كان القوط الغربيون قد اعتنقوا المذهب الآريوسي، الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية، منذ سنة 377م[21]. وقد عمل القوط الغربيون، منذ أيامهم الأولى في اسبانيا حتى تحولهم إلى الكاثوليكية في عهد ريكاريد Reccared (586 ـ 601م)، على الفصل الكامل بين السكان القوط والاسبان الرومان، فكان أبناء كل طائفة يقيمون شعائرهم بحرية تامة بمساعدة رجال الدين التابعين لملتهم، وفي كنائسهم الخاصة[22]. وقد تبين للملك ريكاريد أنه لا صلاح لدولة القوط في اسبانيا ما لم تتخلَّ

---

(17) thompson, op. cit., pp. 267, 268, 272, 305.

(18) O'Callaghan, op. cit., p. 73.

(19) Thompson, op. cit., pp. 117, 312.

(20) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، نشره وترجمه إلى الاسبانية، خوليان رايبيرا، مدريد، 1926، ص 38 ـ 40.

(21) Isidoro of Seville, op. cit., p. 5.

(22) Thompson, op. cit., pp. 311-312.

عن الآرية وتعتنق مذهب الغالبية من سكان البلاد. وهكذا فقد أعلن في مجمع طليطلة الديني سنة 587م تخليه عن الآرية واعتناقه، هو وأهل بيته، للمذهب الكاثوليكي، وتبعه في هذا الأمراء وكبار رجال المملكة[23]. وهكذا توحدت الكنيسة الاسبانية تحت ظل الملكية القوطية. وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في البلاد، وتوثقت العلاقة بالبابوية مما شجع البابوات على بسط نفوذهم الديني والسياسي على اسبانيا. وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل البابا. وقد أيد السكان الاسبان الرومان هذا الإجراء، ولم تتخل اسبانيا عن الكاثوليكية بعد هذا التاريخ. وكانت هذه الخطوة عاملاً فعالاً لامتزاج الشعبين القوطي والآيبيري الروماني، ولكن هذا الامتزاج لم يتم بشكل كامل بسبب حرص القوط على اعتبار أنفسهم الشعب الحاكم المتميز، مما كان له أثر بعيد على مصير دولة القوط في اسبانيا[24].

وبالإضافة إلى المسيحيين كان ما يزال هناك عدد لا بأس به من السكان الوثنيين في شبه الجزيرة. وتشير التشريعات المتتالية الصادرة عن مجالس الكنيسة وملوك القوط إلى مدى الانتشار الواسع للوثنية، والكهانة، والعرافة، والسحر في البلاد[25]. وكانت هذه الممارسات قد ترسخت في معظم أرجاء اسبانيا تقريباً، وانتعشت إلى الحد الذي دفع مجلس طليطلة الثالث (589م) أن يقرر بأنه يتوجب على كل أسقف بالتعاون مع القاضي المحلي أن يحقق في انتشار الوثنية في منطقته، ويعمل على مكافحتها[26]. وكان الباسك Basques أو البشكنس، حسبما تسميهم المصادر العربية، من جملة الجماعات الوثنية التي تعيش في منطقة الشمال الشرقي المتاخمة لجبال ألبرت. وقد فشل الأساقفة والملوك القوط في زعزعتهم عن الوثنية أو إخضاعهم طيلة العهد القوطي. ولا يعرف لحد الآن الأصل الحقيقي لهؤلاء الباسك، ولكنهم ربما كانوا من بقايا القبائل التي سكنت منطقة جبال ألبرت في عصور ما قبل التاريخ[27]. ولقد كان هؤلاء السكان الجبليون متمرسين على القتال والتمرد على ملوك القوط المختلفين، وظلوا مصدراً للقلاقل والاضطرابات طيلة العهد القوطي والعهود العربية الإسلامية اللاحقة. بل إن

---

(23) ابن الأثير، جـ 4، ص 560؛ Isidoro of Seville, op. cit., p. 25.

(24) انظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص 9 ـ 10.

(25) Thompson, op. cit., pp. 308-310.

(26) Ibid., p. 54.

(27) Altamira, op. cit., p. 69; Livermore, op. cit., pp. 40-42.

انتفاضاتهم ومطالبتهم المستمرة من أجل الاستقلال أو على الأقل الحكم الذاتي، ما تزال تعكر صفو الحكومات الاسبانية المختلفة حتى الوقت الحاضر.

لقد شكل اليهود عنصراً مهماً آخر من عناصر السكان في مملكة القوط الغربيين. ويعود تاريخ استيطانهم في شبه الجزيرة إلى زمن بعيد جداً[28]. وكانوا ينتشرون في مناطق عديدة من البلاد، لكنهم تركزوا بالدرجة الأولى في المراكز الحضرية المتقدمة، مثل العاصمة طليطلة، وفي مناطق الجنوب، وعلى طول ساحل البحر المتوسط في شرق اسبانيا. وتختلف حالة اليهود الاقتصادية، وطرائقهم في الحياة في اسبانيا اختلافاً كبيراً. فمنهم من كان يعمل بالتجارة داخل البلاد وخارجها، بينما كان الآخرون فقراء لا يمتلكون أية ممتلكات[29]. ويشير بعض المؤرخين إلى أن ملكية الأرض كانت الأساس الذي تقوم عليه معيشة بعض اليهود في اسبانيا، فكان هؤلاء يعيشون في قرى ويزرعون أراضيهم بأيديهم، بينما تولى آخرون الاشراف على المزارع التي يمتلكها المسيحيون. ولكن يبدو من التشريعات الكثيرة التي تخص اليهود في اسبانيا، أن فعالياتهم التجارية، كانت مهمة بقدر أهمية نشاطهم الزراعي.

لم يكن وضع اليهود في ظل القوط الغربيين حسناً، فقد ضُيِّق عليهم وعوملوا معاملة غير جيدة من قبل ملوك القوط المختلفين. ويعد الملك سسبت Sisebut (612 ـ 621م) بنظر العديد من المؤرخين، الملك القوطي الأول الذي ابتدأ بوضع القيود على اليهود[30]. ولكن هذا الأمر يرجع في الحقيقة إلى عهود تسبق الحقبة التي حكم فيها هذا الملك. فهناك تشريعات معادية لليهود منذ عهد الملك ألاريك الثاني Alaric II (484 ـ 507م)[31]. وكذلك نصت قرارات مجلس طليطلة الثالث (587م) على إكراه اليهود على اعتناق المسيحية، وحرّمت على أي يهودي أن يشتري عبداً مسيحياً[32]. ولقد ظل هذا التشريع سارياً، وأعيد تطبيقه من قبل ملوك القوط المتعاقبين، كما أُيِّد وعُزِّز من قبل مجلس الكنيسة إلى نهاية العهد القوطي.

---

(28) S. Katz, The Jews in the Visigothic and Frankish Kingdoms of Spain and Gaul, New York, 1970, pp. 3-5.

(29) Thompson, op. cit., p. 316.

(30) Isidoro of Seville, op. cit., p. 28; Katz, op. cit., p. 11; Livermore, op. cit., p. 192.

(31) Thompson, op. cit., p. 53.

(32) Ibid., pp. 101-111; Katz, op. cit., p. 11. F.

وجُرد اليهود من قبل الملك سسبت من العبيد والمستأجرين، ولهذا أصبح من الصعب عليهم أن يزرعوا أراضيهم، أو أن يمتلكوا المزارع الكبيرة. وفي عهد الملك ايروج Erwig (680 ـ 687م) أبعد اليهود عن كل وظائف الدولة، وعن تولي المزارع الكبيرة. وحُرّم عليهم وعلى عبيدهم أن يعملوا في حقولهم أيام الآحاد والعطل الدينية المسيحيّة[33]. ولكن ذروة التضييق على النشاط الاقتصادي لليهود وصلت غايتها في عهد الملك أخيكا Egica (687 ـ 702م)، فقد كانت تشريعاته تهدف إلى شل القدرة الاقتصادية لليهود، والحد من قابليتهم في الحصول على المعيشة. لذلك فقط أجبروا على أن يبيعوا إلى خزينة الدولة، وبسعر محدد، عبيدهم، وأية ممتلكات سبق وأن اشتروها من المسيحيين. يضاف إلى ذلك، أنهم منعوا من مزاولة التجارة على مختلف أشكالها، أو أن يتاجروا فيما وراء البحار[34].

ولا تتوافر لدينا معلومات عن الدوافع الحقيقية المختفية وراء هذا التضييق، أو لماذا مُنع اليهود من ممارسة أي نوع من أنواع التجارة. ولكن من المحتمل جداً أنه كان بسبب اختلاف عقيدتهم وتعاطيهم الربا، أو بسبب تعاليهم على أبناء الديانات الأخرى، وانغلاقهم على أنفسهم، واستغلالهم لغيرهم من الناحية الاقتصادية. وربما كان لتآمرهم السياسي أيضاً أثر كبير على تشريع بعض القوانين المعادية لهم. وقد استطاع اليهود التخلص من هذه القوانين بسبب دفعهم للرشوة إلى النبلاء ورجال الدين[35]. لكنهم مع هذا تأثروا إلى حد كبير، مما دفع العديد منهم إلى الالتجاء إلى شمال افريقيا، وغالة في جنوب فرنسا، كما قام بعضهم بالاشتراك في بعض الحركات المناوئة للسلطة[36]. وقد تعرض اليهود في عهد الملك أخيكا إلى الاتهام بالتآمر مع يهود من خارج البلاد للعمل ضد المسيحيين في اسبانيا[37]. وقد يكون هذا الاتهام صحيحاً، ولكن لا تتوافر أدلة عليه سوى خطبة الملك أخيكا التي ألقاها أمام مجلس طليطلة السابع عشر (9 تشرين الثاني سنة 694م) عندما أشار إلى هذه «المؤامرة» لأول مرة. ويرى بعض المؤرخين المحدثين، أن هذا الاتهام ما هو إلا محض خيال أو اختراع من قبل الملك حتى يبرر

---

(33) Ibid., p. 124.

(34) Thompson, op. cit., p. 246.

(35) Ibid., pp. 236-237; Katz, op. cit., p. 127.

(36) Shaw, op. cit., p. 214; Thompson, op. cit., p. 16.

(37) Ibid., p. 247; Katz, op. cit., p. 21; cf. Levi-provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, vol. I. Paris, Leiden, 1950, p. 6.

إجراءاته ضد اليهود[38]. ولكن هناك من يعتقد بصحة هذه الحادثة، ويعدها حقيقة تاريخية، بل اعتقد بعضهم أن اليهود المقصودين بالتآمر من خارج البلاد هم من شمال افريقيا. ومن البربر بالذات[39]. كما ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك ـ ربما بسبب تعاون اليهود فيما بعد مع المسلمين زمن الفتح ـ فذكروا بأن اليهود كانوا يتآمرون من أجل تسليم اسبانيا إلى العرب[40]. وبطبيعة الحال، لا يمكن تصديق مثل هذا الافتراض، لأن العرب في ذلك الوقت كانوا بعيدين عن اسبانيا، وكانت فتوحاتهم مركزة في المناطق المجاورة للقيروان.

إن عدم التكافل الاجتماعي الذي كان يسود في دولة القوط الغربيين، والتضييق الذي لحق باليهود، والظروف التعيسة التي كان يعيش في ظلها العبيد والعديد من أفراد الطبقة العامة، أدت إلى تفكك المجتمع وانهياره. يضاف إلى ذلك أن حالة العصيان والمؤامرات المستمرة التي كان يقوم بها النبلاء من أجل الوصول إلى العرش، أو الانسلاخ عن المملكة والحصول على الاستقلال، أنهكت البلاد، وأوصلتها إلى حالة يرثى لها من التردي والضعف. ولقد حدث قبل الفتح العربي الإسلامي لاسبانيا بسنة واحدة تقريباً، أقوى وأقسى تنافس على السلطة في البلاد، مما زاد في حالة الضعف والتفكك، وسهل أمر القضاء على دولة القوط الغربيين.

عصر الملك غيطشة وتفرق كلمة القوط:

ابتدأت الأزمة منذ أيام الملك غيطشة Witiza (702 ـ 710م)، الذي حاول أن يصلح الأمور ويخفف من التأثير السيء الذي تركه أبوه أخيكا، فمال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط، وأحب في آخر أيامه أن يرفع القيود عن اليهود، فكرهه النبلاء ورجال الدين، الذين أبعدهم عن نفسه، وحرمهم من بعض امتيازاتهم، وفرق شملهم. فأخذ النبلاء يثورون عليه في نواحي البلاد المختلفة، وتآمر عليه أهله، واستطاعت زوجته أن ترغمه على تعيين ابنه الصبي وقله (أخيلا Achila) حاكماً على طركونة

---

(38) Thompson, op. cit., p. 247; Y Baer, A History of the Jews in Christian Spain, translated from the Heberw by Louis Schoffiman, Philadelphia, 1971, vol. I. p. 22. Shaw, op. citl., p. 214.

(39) إبراهيم طرفان، دولة القوط الغربيين، القاهرة، 1958، ص 119.

(40) Katz, op. cit., p. 21; The Cambridge Medieval History, Planned by J. B. Bury, ed. H. M. Gwatkin and J. P. Whitney, Cambridge, 1964, vol. II, p. 18.

وسبتمانيا. وكان هذا التعيين حافزاً للنبلاء وكبار القوط إلى مضاعفة العمل للقضاء على غيطشة ودولته. وفي هذه الأثناء توفي غيطشة في حدود سنة 710م، والبلد منشق على نفسه مفرق بين رجال الدين وكبار النبلاء الطامعين. وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر الناس انقساماً. فقد ترك غيطشة أرملة، وثلاثة بنين، هم أخيلا، وألمند، وأرطباس، وأخين كان أحدهما أسقفاً لأشبيلية يدعى أبة Oppa، والآخر وصياً على أخيلا الذي كان مرشحاً لوراثة العرش بعد أبيه. ولكن كبار القوط لم يرغبوا في الخضوع لصبي مثلا أخيلا، هذا بالإضافة إلى عدائهم لأبيه، وتخوفهم من استبداد الوصي بالحكم[41]. فامتنعوا عن طاعة أخيلا، واستقل بعضهم في الأطراف والنواحي، وسادت حالة الفوضى والارتباك في البلاد، استطاع على أثرها كبار القوط وأعيانهم في طليطلة أن يوحدوا جهودهم ضد أخيلا وعمه الوصي عليه، وأن يعهدوا بالعرش إلى أحدهم ويدعى رودريكو أو لذريق Roderic[42].

وما يزال أصل لذريق مختلفاً فيه، فتذكر إحدى المصادر اللاتينية على أنه كان سليل بيت أحد ملوك القوط السابقين[43]. بينما يذكر المؤرخون العرب أنه كان رجلاً شجاعاً، ولكنه لا ينتمي إلى بيت الملوك، وأنه كان قائداً وفارساً[44]. ونظراً للظروف التي تولى فيها هذا الملك، فقد كان في حاجة ماسة إلى الأموال. فابتدأ حكمه بأن حاول الاستيلاء على خزائن أسلافه الملوك من كنيستي سان بيدرو San Pedro وسان بابلو San Pablo في طليطلة[45].

لم تكن مشكلة لذريق الوحيدة هي الحاجة إلى المال، بل كان عليه أيضاً أن يجابه

---

(41) انظر: ابن القوطية، ص 2؛ أخبار مجموعة، (مجهول المؤلف) نشره وترجمه إلى الاسبانية، لافوينتي القنطرة، مدريد، 1867، ص 5؛ المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، بيروت 1968، جـ 1، ص 265؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص 12 ـ 16.

(42) Isidoro Pacense or the Chronicle of 754.
(ملحق رقم 2 لكتاب أخبار مجموعة)، ص 147، رقم (34)؛ وانظر أيضاً: مؤنس، المرجع السابق، ص 16؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، جـ 1، ص 33 ـ 34.

(43) The Chronicle of Alfonso III. ed. Manuel Gomez-Moreno. Boletin de la Real Academia de Historia. 100. Madrid. 1932. pp. 611-612.

(44) ابن القوطية، ص 2؛ أخبار مجموعة، ص 5؛ ابن عذاري، جـ 2 ص 3؛ المقري، جـ 1، ص 248، 250.

(45) انظر: ابن القوطية، ص 7؛ ابن الأثير، جـ 4، ص 567؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 3؛ فتح الأندلس، ص 2 ـ 3؛ الحميري، ص 6 ـ 7؛ المقري، جـ 1، ص 251.

انتشار الفوضى والانقسام والفساد في المملكة. وكانت الثورات، وحركات التمرد ما تزال تعكر صفو البلاد، وبشكل خاص في منطقة الباسك، وكان العبيد يهربون في كل مناطق البلاد. ويدل هذا على ضعف القوط المتأصل، وإلى الحد الذي وصل إليه تدهور قوتهم، لأن الغالبية العظمى من الجيش القوطي في أواخر القرن السابع الميلادي كانت تتألف من العبيد المجندين. ولهذا فليس من الصعب على المرء أن يتخيل مصير هذا الملك ومملكة القوط الغربيين عامة، عندما كان عليهم أن يجابهوا حماسة العرب والمسلمين المتدفقة، وكلمتهم الموحدة في سبيل نشر مبادئ الحق والعدل وتحرير الشعوب من الظلم والفساد.

الفصل الثاني

فتح العرب لإسبانيا

أ ـ دوافع الفتح وممهداته:

لا يمكن الحديث عن فتح العرب لإسبانيا بمعزل عن بقية حروب التحرير التي خاضها العرب المسلمون في سبيل إعلاء كلمة الله، ونقل رسالة السماء إلى الشعوب المضطهدة التي كانت ترزح تحت نير القوى الأجنبية كالفرس والبيزنطيين. فلقد كان للعرب الذين وحّدهم الإسلام غاية نبيلة في الفتوح تمثلت أولاً في تحرير إخوانهم العرب أينما وجدوا، وثانياً: في تحرير الشعوب الأخرى من الجهل والوثنية والتسلط الأجنبي، ثم في نشر قيم ومثل الحضارة الإنسانية التي أنارت الدرب لهذه الشعوب، وساعدت على امتزاج الثقافات، والتجارب والخبرات، خدمة للبشرية جمعاء. ولقد نجح العرب في شمال افريقيا ـ كما نجحوا في غيرها من الأماكن ـ في كسب سكان البلاد الأصليين، أي البربر، إلى جانبهم، ولو أن ذلك تأخر لفترة من الزمن بسبب تواجد القوى الأجنبية المتمثلة بالبيزنطيين الذين كانت تربطهم علاقات مع بعض البربر الموالين لهم والذين قاوموا الفتح العربي إلى حين. ولكن عندما أدرك البربر جوهر الرسالة السامية التي يحملها العرب، وأنهم لم يأتوا من أجل مغنم أو كسب مادي، تعاونوا معهم وامتزجوا بهم، ووحد الإسلام بين الاثنين، فأصبحوا قوة كبيرة في المنطقة. واعتمد العرب اعتماداً كبيراً على البربر، لا سيما في عهد الوالي موسى بن نصير، حيث عهد إلى زعماء من البربر بقيادة الجيوش الإسلامية التي استمرت تؤدي رسالتها في استكمال تحرير شمال افريقيا. وبفضل هذا التعاون الفعال استطاع العرب أن يحققوا فتح إسبانيا.

في بداية العقد الأخير من القرن الأول الهجري (في حدود سنة 90هـ/ 708م) عهد القائد العربي موسى بن نصير إلى طارق بن زياد بتولي قيادة البربر المسلمين الذين انتظموا في صفوف الجند العربي في منطقة المغرب الأقصى، فاتخذ مدينة طنجة مقراً له. ولقد كان حماس هؤلاء البربر إلى الجهاد ونشر مبادئ الإسلام التي جاء بها العرب كبيراً. ونظراً لطبيعة المنطقة الجغرافية، فلم يكن أمام طارق وجنده سوى التوجه بأنظارهم إلى شبه

الجزيرة الآيبيرية، ولا سيما أن مناطق الجنوب كانت صحراوية لا تشجع على التجارة إليها أو التوغل فيها. يضاف إلى ذلك، أن البربر كانوا على اتصال دائم مع السواحل الاسبانية لقربها، وكانوا أيضاً على علم تام ومعرفة أكيدة بمدى خصب شبه الجزيرة وغناها، وعن خطورة مشاكلها الاجتماعية والسياسية، التي ذكرناها آنفاً، وضعف دولة القوط الغربيين بصورة عامة. ولقد شجعت هذه العوامل العرب والمسلمين على التفكير بفتح إسبانيا، وضمها إلى حظيرة المناطق التي تم تحريرها في المشرق العربي وشمال افريقيا. أما ما يذكره بعض المستشرقين المغرضين، وما يروجه بعض الكتاب من التلميح إلى أن الدوافع المادية، والغنائم، وحب التوسع هي التي دفعت بالعرب إلى الفتوحات، فأمر لا يؤيده الواقع(1). فلم يكن هدف العرب الكسب المادي، بل كانت لهم غاية نبيلة أهم من ذلك بكثير، وأبعد تأثيراً، ألا وهي نقل مبادىء وقيم السماء السمحة إلى البلاد المفتوحة، والجهاد في سبيل الله من أجل تحريرها. أما الغنائم والمكاسب، فهي تحصيل حاصل، ونتيجة طبيعية من نتائج الحروب التي كانت وما تزال تقوم بين الأمم، فالغالب لا بد أن يستولي على مخلفات المغلوب، ولو أن موقف العرب من هذا أفضل بكثير من مواقف غيرهم من الشعوب، نتيجة لنظرتهم الإنسانية السامية.

لقد تطرقت المصادر التاريخية العربية إلى الأسباب التي أدت إلى الفتح العربي الإسلامي لشبه الجزيرة الآيبيرية، ولكنهم يرجعون السبب الرئيس إلى وازع الانتقام الشخصي، ويسوقون على ذلك قصة أسطورية ملخصها أن الكونت يوليان، أو جوليان Julian حاكم مدينة سبتة قد شجع العرب على الفتح انتقاماً لنفسه من لذريق ملك إسبانيا الذي اعتدى على شرف ابنته. وتروي القصة أنه كانت لجوليان ابنة جميلة، أرسلها جرياً على عادة الأشراف في ذلك الوقت إلى بلاط طليطلة لتتعلم وتتثقف مع بنات الملك. وقد رآها لذريق وسحر بجمالها، ثم حاول أن ينال منها، ولكنها قاومته ورفضت، فلجأ إلى القوة واعتدى على شرفها برغم إرادتها. وعندما كتبت إلى أبيها بالحادث أسرع بالسفر إلى طليطلة وعاد بابنته إلى سبتة، وهو يضمر الشر والانتقام. وقد دفعه حقده هذا إلى التوجه إلى موسى بن نصير وحثه على فتح إسبانيا(2). وتذكر روايات أخرى أنه سار

---

(1) قارن: إبراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا، بيروت، 1978، ص 64 ـ 65.
W. Montgomery Watt. A History of Islamic Spain, Islamic Surveys 4, Edinburgh, 1967. pp. 5-9.

(2) أخبار مجموعة، ص 5؛ فتح الأندلس، ص 3 ـ 4؛ المقري جـ 1، ص 251 ـ 253.

إلى طارق بن زياد، حاكم مدينة طنجة، وأعلمه برغبته في الانتقام واستعداده لمساعدة العرب في حرب القوط الغربيين[3].

ولا نجد هذه القصة في المصادر الاسبانية المعاصرة للأحداث، ولكن بمرور الزمن انتقلت هذه القصة إلى القصص الاسباني والأغاني الشعبية الاسبانية التي تعرف باسم Romancero. ثم اختلطت هذه الروايات بالتاريخ الاسباني كما لو أنها كانت حقيقة واقعة[4]. ويختلف المؤرخون المحدثون في هذه القصة، فمنهم من يرى أنها صحيحة، ومنهم من يرى أنها من اختراع القصاص[5]. وعلى أية حال، فنحن لا نستطيع الاعتماد عليها كثيراً في تعليل تعاون جوليان مع العرب، نظراً للظروف السياسية التي كانت تحيط بسبتة والتي دفعته أخيراً إلى الوقوف مع العرب في عملية الفتح.

وفي الحقيقة تتضارب الآراء بشأن شخصية جوليان حاكم سبتة فهناك من يرى أنه قوطي الأصل، وهناك من يرى أنه بيزنطي، أو بربري من قبيلة غمارة، ولكن معظم الروايات تتفق على أنه كان يحكم سبتة وما يجاورها في الوقت الذي وصل فيه العرب إلى الطرف الغربي الأقصى من شمال افريقيا. ومن المرجح أنه كان الحاكم البيزنطي لإقليم موريطانيا الطنجية Mauretania Tingitania الذي كان تابعاً للامبراطورية البيزنطية، ولكنه بعد تقدم العرب في شمال افريقيا انقطعت به الأسباب عن بيزنطة، فأصبح مستقلاً في هذه الناحية، واضطر للاتصال بالقوط في عهد الملك غيطشة، وقام بين الاثنين تعاون قوامه إرسال المؤن والامدادات من إسبانيا إلى جوليان. ويبدو أن موت غيطشة واستيلاء لذريق على العرش قد وضع حداً لهذه العلاقات الطيبة لا سيما أن جوليان كان من أصدقاء غيطشة. ولهذا فلم يكن أمام جوليان إلا الرضوخ للعرب والتعاون معهم، لا سيما أنه رأى أن الأمور تسير لصالح العرب والمستقبل يبشر بتفوقهم على القوى الأخرى في المنطقة. وقد أخفق موسى بن نصير في أن يسيطر على سبتة

---

(3) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري، نيوهيفن، 1922، ص 205؛ ابن القوطية، ص 7 ـ 8؛ فتح الأندلس، ص 9؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 6 ـ 7.

(4) أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأندلس والمغرب، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ص 54 ـ 55.

(5) cf. E. Saavedra, Estudio sobre la invasion de los arabes en Espanan, madrid 1892, pp. 58-59.

مؤنس، فجر الأندلس، ص 59 ـ 60؛ عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 35 ـ 37 (وهو يؤيد قصة ابنة جوليان).

بالقوة بسبب حصانة أسوارها، ومقاومة جنود جوليان، فتم عقد الصلح بين الطرفين. وبموجب هذا الصلح ظل جوليان حاكماً على سبتة مقابل اعترافه بالسيادة العربية، ورجع موسى إلى القيروان[6].

وتذكر الحوليات اللاتينية رواية أخرى مفادها أن أولاد غيطشة هم الذين اتصلوا بالعرب ودعوهم إلى فتح إسبانيا ومساعدتهم في إعادة ملكهم المفقود، وأن الفتح العربي، ونجاحه كان نتيجة لهذا الاتصال[7]. وتشير بعض المصادر العربية أيضاً إلى مباحثات جرت في طنجة قبيل الفتح بين طارق بن زياد وأحد أولاد غيطشة[8]. بينما يقول آخرون أن هذه المباحثات حدثت قبيل بدء المعركة الفاصلة بين طارق بن زياد وجيش القوط بوقت قصير. وذلك عندما أصبح طارق فعلاً في إسبانيا؛ فعرض أبناء غيطشة، أن يتخلوا عن لذريق، ويؤيدوا طارقاً بجنودهم شريطة أن يضمن لهم كل ممتلكات والدهم، والتي تبلغ ثلاثة آلاف ضيعة، وهي التي سميت فيما بعد بصفايا الملك[9]، وذلك بعد أن يخضع إسبانيا جميعها. ولا تعرض المصادر العربية الأخرى لذكر أية مباحثات بين طارق بن زياد وأولاد غيطشة، بل كل ما في الأمر أن هؤلاء الأولاد وبعض نبلاء القوط قرروا التخلي عن لذريق في ساحة المعركة لأنهم اعتقدوا خطأً بأن العرب لا ينوون الاستقرار في البلاد، بل أنهم جاؤوا فقط من أجل الغنائم، وأنهم سيعودون بعد اندحار لذريق، ويرجع العرش إلى أسرة غيطشة[10]. وبطبيعة الحال، فإن رأي هؤلاء المؤرخين أقرب إلى الصواب، وينسجم مع طبيعة الأحداث، فضلاً عن أنه يعارض فكرة نجاح الفتح بمساعدة قوى من داخل إسبانيا، الأمر الذي يروجه أعداء العرب للتقليل من شأنهم وقوتهم، فيبالغون في دور أسرة غيطشة في

---

(6) انظر: أخبار مجموعة، ص 4؛ وقارن: مؤنس، المرجع السابق، ص 53 ـ 55؛ عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، ميلانو ـ بغداد، 1982، 142.

(7) (ملحق رقم 3 لكتاب أخبار مجموعة) The Chronicle of Albelda, p. 163; The Chronicle of Alfonso III, p. 612.

(8) الرفيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968، ص 73؛ ابن عذاري، (برواية عيسى بن أبي المهاجر)، جـ 2، ص 6.

(9) ابن القوطية، ص 5؛ الحميري، ص 9 ـ 10، المقري، جـ 1، ص 258.

(10) أخبار مجموعة، ص 7 ـ 8؛ فتح الأندلس، ص 6 ـ 7؛ ابن الأثير، جـ 4، ص 563؛ المقري (برواية ابن حيان) جـ 1، ص 231 ـ 232، 257 ـ 258.

مساعدة العرب، وكذلك في دور اليهود، كما سنرى فيما بعد[11].

وإذا ما سلمنا بأن دور أسرة غيطشة وأنصارها قد اقتصر على الوقوف إلى جانب العرب بعد عبورهم فعلاً إلى إسبانيا، فإن دور الكونت جوليان يبقى أمراً لا يمكن إنكاره بسبب إجماع الروايات، على وجوده وموقفه من الفتح. ولكن ما هي مصلحة جوليان من فتح العرب لإسبانيا، لا سيما أننا استبعدنا دافع الانتقام الشخصي المتمثل برواية ابنته في بلاط طليطلة؟ لقد سبقت الاشارة إلى العلاقات الطيبة بين جوليان والملك غيطشة، وإلى المساعدات التي كان يتلقاها الأول من إسبانيا. ولكن بوفاة غيطشة ومجيء لذريق، توقفت هذه المساعدات نتيجة لانشغال الأخير بمشاكله الداخلية العصيبة. وقد استاء جوليان من هذا الموقف، وشعر بأهمية التعاون مع العرب وبشكل خاص في العبور إلى إسبانيا، لأنه أدرك قوة العرب ومستقبل سيادتهم على المنطقة، هذا بالإضافة إلى أنه كان من أصدقاء الملك غيطشة، وبالتالي فهو لم يرضَ عن استيلاء لذريق على عرش إسبانيا بدلاً من ورثة غيطشة. ولهذا فقد بدأ اتصاله بطارق بن زياد لأنه كان قريباً منه في طنجة، أو ربما يكون طارق نفسه هو الذي اتصل به واطلع على رأيه في مسألة العبور إلى إسبانيا، لا سيما أننا نعلم أن دوافع العرب والمسلمين، والتي ذكرناها في أول الفصل، كانت قوية للفتح والتحرير، فلم يكونوا بحاجة لمن يحثهم على هذا الواجب المقدس، بل هم الذين اتخذوا بادرة الفتح بقيادة قائدهم الشجاع طارق بن زياد.

وتذكر بعض المصادر أن موسى بن نصير هو الذي اتخذ قرار الفتح، وهم يشيرون أيضاً إلى مراسلات تمت بهذا الشأن مع الخليفة في دمشق[12]. ولكن بُعد المسافات بين طنجة والقيروان ودمشق تدعو المرء إلى التحفظ في قبول هذه الرواية، وبخاصة أن العديد من المؤرخين الآخرين يشيرون صراحة إلى أن عبور طارق إلى إسبانيا كان دون معرفة موسى بن نصير[13]. وبطبيعة الحال، فإن هذه المسألة ليست جوهرية، لأن هدف

---

(11) عن آراء بعض الكتّاب المحدثين بشأن هذه الروايات انظر:
مؤنس، فجر الأندلس، ص 55 ـ 57، 63 ـ 64؛ العبادي، المرجع السابق، ص 55، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962، ص 66 ـ 67.

(12) ابن القوطية، ص 8؛ أخبار مجموعة، ص 5 ـ 6؛ فتح الأندلس، ص 2، 4 ـ 5؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 13، 1965 ـ 66، ص 45 ـ 46؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 5 ـ 6؛ cf. Levi-Provençal, «al-Andulus», Encyclopeadia of Islam, New edition.

(13) رواية الواقدي في: البلاذري، فتوح البلدان، نشر: ذي غوية، ليدن، 1866، ص 230 و231؛ =

كل من القائدين كان حتماً خدمة المبادئ الإنسانية التي حملها العرب، وتوصيلها إلى شعوب الأرض الأخرى، وبالتالي، فإن النتيجة واحدة، وهي فتح هذا الجزء من العالم وتحريره وليس أدل على هذا من مسارعة موسى بن نصير، حين سماعه بأنباء الفتح، إلى نجدة قائده طارق، والعمل على استكمال الفتح الذي تم أخيراً بالتعاون الفعال والمثمر بين القائدين.

ب ـ خطة الفتح وحوادثه في زمن طارق بن زياد:

لم يكن فتح العرب لإسبانيا مغامرة حربية ارتجالية بل كان فتحاً منظماً مدروساً حسب خطة ذكية وضعها القائد طارق بن زياد. فعلى الرغم من معرفته بالوضع المتردي الذي كانت عليه إسبانيا، لم يغامر بأرواح جنوده دون اتخاذ الاحتياطات اللازمة والقيام بغارة استكشافية على جنوب إسبانيا لجس النبض ومعرفة مدى مقاومة الأعداء في الجانب الآخر. وقد عهد بقيادة هذه الحملة الاستطلاعية إلى قائد يدعى أبو زرعة طريف ابن مالك المعافري، الذي عبر إلى الأندلس في رمضان سنة 91هـ/آب ـ أيلول 710م[14]. وكانت قوة طريف الاستطلاعية تتألف من أربعمئة راجل ومئة فارس، أبحر هؤلاء على متن أربعة مراكب هيئت من قبل الكونت جوليان، ونزلت على جزيرة تسمى بالوماس (Las Palomas) والتي تقع على الشاطئ الاسباني في موضع أصبح يعرف حتى اليوم باسم طريف (Tarifa). ولقد تكللت جهود طريف بنجاح باهر، في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الآيبيرية، وقام بعدة حملات موفقة في المنطقة دون أن يلاقي أية مقاومة، وأصاب كميات وافرة من الغنائم والأسلاب، ثم رجع إلى الشمال الافريقي[15].

= الرقيق المصدر السابق، ص 74؛ ذكر بلاد الأندلس، (مجهول المؤلف) مخطوط الخزانة العامة في الرباط، ورقم 85 ج، ص 84 ـ 85.

(14) المقري، (رواية الرازي) جـ 1، ص 254.

(15) أخبار مجموعة، ص 6؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ص 45، ذكر بلاد الأندلس، ص 84؛ ابن عذاري (برواية عريب بن سعد) جـ 2، ص 5؛ وقارن أيضاً:
The Chronicle of Albelda, p. 163; Saavedra. op. cit., p. 64; p. Gayangos, The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, New York-London, 1964, reprint of London edition, 1843, vol. I, pp. 517-519.

حملة طارق بن زياد:

إن النتائج المرضية التي حققتها مهمة طريف شجعت طارقاً على المضي في خطته بالفتح، فقرر أن يقود بنفسه الحملة المقبلة التي كانت تتألف من اثني عشر ألف رجل من مقاتلي العرب والبربر المسلمين. وكانت نسبة البربر المشاركين في هذه الحملة عالية نظراً لاعتناقهم الإسلام وانتظامهم في الجيش[16]. وكان معظم المقاتلين من العرب قد رجعوا إلى القيروان مع موسى بن نصير ولم يبقَ مع طارق بن زياد إلا عدد قليل من العرب من أجل أن يعلموا البربر مبادئ وتعاليم الإسلام[17]. ويُعد عبد الملك بن عامر المعافري، الجد الأعلى للمنصور بن أبي عامر، من أشهر الرجال العرب المساهمين في هذه الحملة[18]. ويذكر بعض المؤرخين أن جيش طارق كان يتألف أول الأمر من سبعة آلاف رجل، ثم لحقهم خمسة آلاف آخرون أرسلهم موسى بن نصير[19]، ولكن الأرجح أن الاثني عشر ألف جندي، المذكورين أولاً، هم الذين كانوا بأمرة طارق وبهم جميعاً عبر إلى الأندلس[20].

وتشير الظروف التي رافقت عبور طارق بن زياد ونزوله على الشاطئ الاسباني إلى أنه كان لا بد قد أبحر من سبتة. ويمكن أن نعتمد على هذه الحقيقة، لأن المصادر تذكر باستمرار أن جيش طارق تم نقله إلى إسبانيا على متن مراكب تجارية قدّمها جوليان حاكم سبتة[21]. وبطبيعة الحال فقد كان طارق يمتلك سفنه الخاصة به في طنجة، هذا بالإضافة إلى السفن العربية الأخرى التي كانت تنتجها دار صناعة السفن في تونس[22]. ولكن يبدو أنه أراد أن يحيط عملية نزوله بالسرية التامة، وذلك باستعمال مراكب

---

(16) قارن: ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، 1956 ـ 1961، جـ 6، ص 254.

(17) ابن حبيب، استفتاح الأندلس، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الخامس، 1957، ص 222، ابن عبد الحكم، ص 204 ـ 205؛ الرقيق، ص 69 ـ 70.

(18) ابن عذاري، جـ 2، ص 256 ـ 257؛ المقري، جـ 1، ص 396 ـ 399.

(19) المصدر نفسه (برواية ابن حيان) جـ 1، ص 231 ـ 232؛ أخبار مجموعة، ص 7.

(20) انظر: عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص 162.

(21) ابن عبد الحكم، ص 205 ـ 206؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص 230؛ الرقيق، ص 74؛ ابن عذاري (برواية الرازي)، جـ 2، ص6.

(22) قارن: العبادي، المرجع السابق، ص 59 ـ 60؛ بيضون، المرجع السابق، ص 67 ـ 69؛ سالم، المرجع السابق، ص 72.

تجارية، والاقلاع من ميناء آخر، أي من سبتة. ويصف المؤرخ التونسي عبد الملك بن الكردبوس عمليات نزول جيش طارق إلى الأندلس، فيذكر أن الأخير كان يرغب في إيجاد مكان ملائم للنزول على الشاطئ الاسباني (ربما منطقة الجزيرة الخضراء التي تقابل سبتة). ولكن طارقاً تخلى عن النزول في هذا المكان عندما وجد جماعة من القوط حاولت منع نزوله، فأبحر منه ليلاً إلى مكان وعر من الشاطئ. وقد استخدم المجاذيف وبراذع الخيول التي ألقيت على الصخور لتسهيل عملية النزول، وبهذا ضمن سلامة جنوده[23]. وقد نُفذت هذه العملية في الليل، وربما استغرقت أكثر من ليلة واحدة بسبب قلة المراكب، التي كانت مستمرة بنقل الرجال بين الشاطئين، إلى أن هبط كل أفراد الحملة على الأراضي الاسبانية بسلام.

ويجدر قبل استكمال عرض أحداث الفتح في عهد طارق أن نشير إلى القصة الشائعة التي تقول بأن طارقاً قد أحرق سفنه بعد نزوله إلى الشاطئ ليقطع على جنوده خط الرجعة وليحفزهم على الاستبسال في القتال، ثم خطبته المشهورة التي يبتدؤها بالقول: «أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...»[24]. ولقد شك العديد من الكتّاب المحدثين في نسبة هذين العملين إلى طارق، لأن معظم المصادر العربية التي تحدثنا عن فتح الأندلس، لا سيما القديمة منها، لا تذكر شيئاً عن حرق السفن والخطبة. يضاف إلى ذلك، فإن أسلوب الخطبة وفصاحتها لا يشجعان على نسبتها إلى طارق، الذي تشير معظم الروايات إلى أنه كان من البربر. أما أسطورة حرق السفن فلم تدوَّن إلا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد، أي بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون، ولهذا فهي أيضاً عرضة لكثير من الريب[25].

نزلت حملة طارق على صخرة تسمى جبل كالبي (Mons Calpe)، التي اتخذت

(23) ابن الكردبوس، ص 46؛ انظر أيضاً: ابن عذاري جـ 2، ص 9 الذي يذكر رواية مشابهة بشأن عبور طارق ونزوله على الجبل.

(24) ابن حبيب، ص 221؛ المقري، جـ 1، ص 240 ـ 241.

(25) للاستزادة من المناقشات بشأن الخطبة وإحراق السفن وموقف الكتاب المحدثين منهما، انظر: عنان، المرجع السابق، جـ 1، ص 46 و49؛ العبادي، المرجع السابق، ص 63 ـ 68؛ سالم، المرجع السابق، ص 77 ـ 87؛ أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، دمشق، 1972، ص 21 ـ 23. عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق، 1976، ص 57 ـ 62.

اسم طارق منذ ذلك اليوم، فأصبحت تسمى بجبل طارق[26]. وهناك خلاف بشأن الموعد الصحيح للحملة، فيذكر بعض المؤرخين السنة التي حدث فيها الفتح فقط، أي سنة 92هـ (تبدأ في تشرين الأول 710م)، ويثبت آخرون اليوم والشهر الذي حدث فيه العبور، ومع هذا فإن الأغلبية تعتقد بأن نزول طارق على الشاطئ الاسباني حدث في رجب 92هـ/ نيسان 711م[27]. وهذا وقت مناسب جداً لا سيما أنه يقع في موسم الربيع الذي يتميز باعتدال الجو. ولقد أقام طارق عدة أيام في الجبل الذي اتخذه قاعدة لعملياته العسكرية، التي ابتدأت بفتح الجزيرة الخضراء والمناطق المجاورة من أجل السيطرة على المضيق وحماية خطوطه الخلفية وتأمين اتصالاته بشمال افريقيا. وفي الوقت نفسه أرسلت كتيبة قوية من الجند بقيادة القائد عبد الملك بن عامر المعافري لفتح حصن قرطاجنة، الذي يقع شمال غرب جبل طارق، ويدعى الآن باسم Torre de Cartagena[28]. وبعد سقوط هذا الحصن، وقعت كل المناطق المحيطة بمضيق جبل طارق بيد المسلمين. وتولى عبد الملك المعافري مسؤولية حماية الجزيرة الخضراء، يساعده في ذلك جوليان، وبهذا أصبحت مؤخرة جيش طارق آمنة، وسهلت خطوط اتصاله بالشمال الافريقي.

معركة كورة شذونة:

مضى على طارق نحو شهرين ونصف قبل أن تقع المعركة الفاصلة بينه وبين لذريق في كورة شذونة. وتذكر الروايات أنه هوجم في هذه الأثناء من قبل قائد قوطي يسمى تُدْمير Theodemir الذي لم يستطيع إعاقة تقدم جيش طارق، فأرسل إلى لذريق بطلب المساعدة الفورية[29]. واعتماداً على روايات أخرى، فإن لذريق كان قد أرسل قوات عديدة لإيقاف الجيش العربي الإسلامي، كانت إحداها بقيادة ابن أخ له يدعى بنج Banj

(26) Cf. Levi-Provençal, op. cit., vol. I. p. 18.

(27) ابن حبيب، ص 222؛ فتح الأندلس، ص 8؛ ابن الأثير، جـ 4، ص 562؛ ابن عذاري (برواية الرازي) جـ 2، ص 6؛ المقري، جـ 1، ص 25.

(28) ابن القوطية، ص 8 ـ 9؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 9، 256؛ Cf. Saavedra, op. cit., p. 65; P. Madoz, Diccionario geografico-estadistico historico de Espana Y sus Posesiones de Ultramar, Madrid, 1848-50, vol. XV, p. 65.

(29) ابن حبيب، ص 222؛ المقري، جـ 1، ص 24؛ علي بن عبد الرحمن الهذيل، كتاب تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد، رقم 5095، ص 132.

(بالاسبانية Sancho أو Bancho)، ولكنه قتل مع رجاله[30]. ولا يتوفر لدينا دليل يمكننا من أن نقطع برأي جازم في صحة أحداث هاتين الروايتين، ولكن يبدو أنه من غير المحتمل أن يقوم لذريق بإرسال قوات من مكان بعيد في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة، حيث كان مشغولاً بالقضاء على اضطرابات خطيرة في مقاطعة الباسك. وعلى أية حال، فما أن سمع لذريق بنزول طارق حتى رجع نحو الجنوب، وقام بالاستعدادات اللازمة لمواجهة جيش الدولة العربية، ومنها أنه توصل إلى مصالحة أسرة غيطشة وأنصارها للوقوف صفاً واحداً أمام المسلمين. وتبالغ الروايات العربية في تقدير جيوش الأعداء، فتذكر بأن عدد جيش لذريق كان يتراوح بين أربعين إلى مئة ألف رجل[31]. وبطبيعة الحال، فإن الأوضاع السيئة التي كانت تعيشها إسبانيا في ذلك الوقت، تجعلنا لا نميل إلى تصديق الروايات التي تبالغ كثيراً في عدد الجيش القوطي، ومع هذا، فمن المؤكد أنه كان يفوق جيش طارق بكثير.

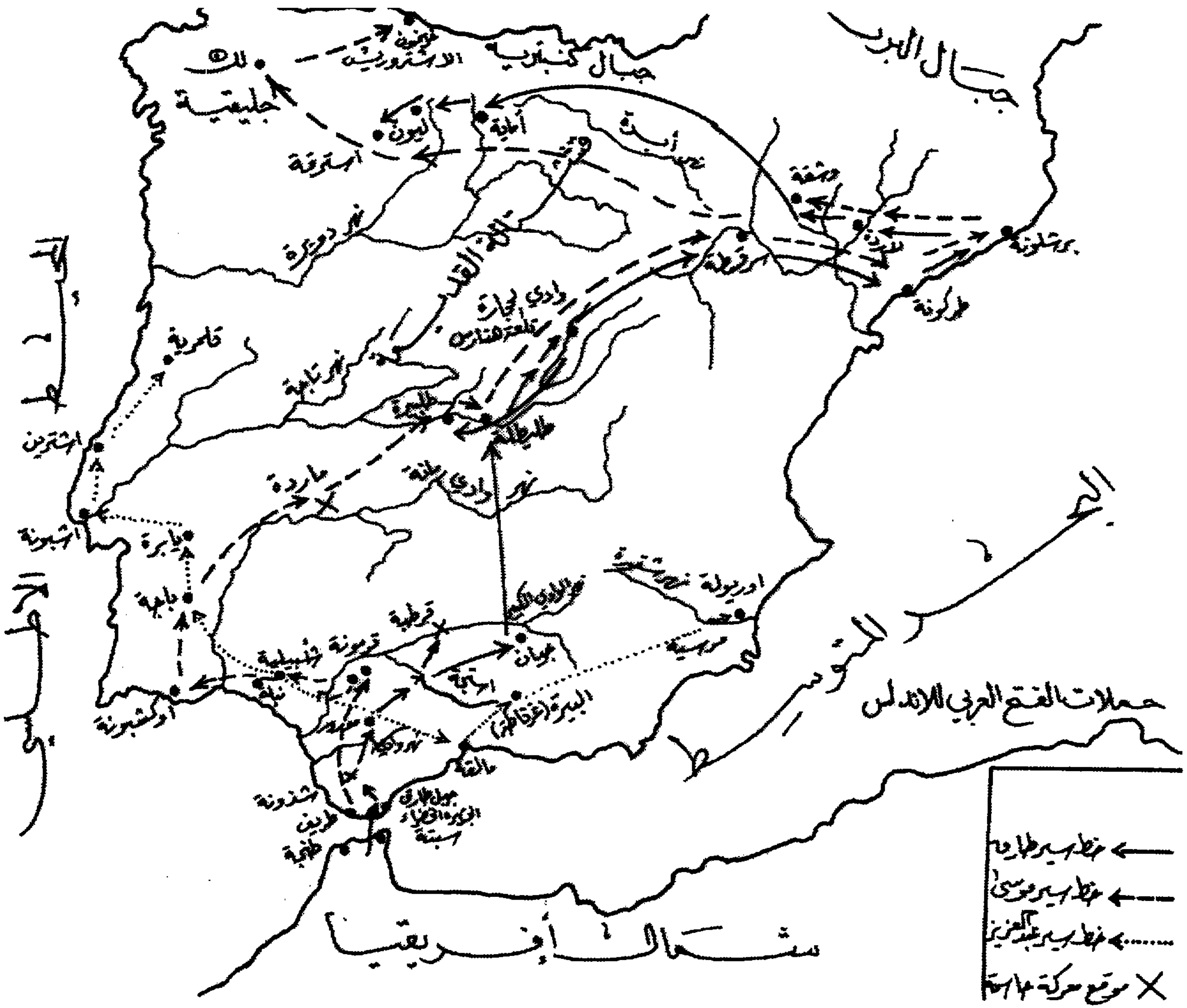
وتقابل الجيشان في كورة شذونة جنوب غرب إسبانيا، ولكن موقع المعركة الدقيق غير معروف تماماً. وهناك العديد من الدراسات الحديثة بشأن المكان الذي وقعت فيه المعركة الفاصلة بين لذريق وطارق، ومصير لذريق في هذه المعركة. وعلى سبيل المثال، فإن المستشرق الاسباني سافيدرا، يرى حدوث معركتين: الأولى: وقعت قرب مدينة شذونة، بين جبل رتين (Retin) وبحيرة لاخاندا (la Janda)، والثانية: عندما هرب لذريق نحو الشمال وحارب جيش الدولة العربية بالقرب من مدينة سلمنقة Salamanca، حيث قتل ودفن في منطقة مجاورة[32]. ويعارض ليفي بروفنسال وغيره من المستشرقين هذه الفكرة، ويتفقون مع المؤرخين العرب على حدوث معركة واحدة فقط بين القوط والمسلمين، وقعت بالقرب من ضفاف نهر وادي بكة أو لكة Guadalete، في كورة شذونة، وأن لذريق هزم وقتل، أو فقد قرب هذا النهر[33].

(30) نص الرازي المنشور بالاسبانية ملحقاً لكتاب سافيدرا Saavedra المذكور آنفاً، ص 149 ـ 150؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 8؛ وقارن: مؤنس، فجر الأندلس، ص 70.

(31) ابن حبيب، ص 222؛ ابن الأثير، جـ 4، ص 562؛ أخبار مجموعة، ص 7؛ ابن خلدون، جـ 4، ص 254؛ المقري، جـ 1، ص 258.

(32) Saavedra, op. cit., pp. 68-69; Cf. Chronicle of AlfonsoIII, p. 612.

(33) Levi-provençal, op. cit., pp. 20-21; C. Sanchez-Albornoz, «Otra vez Guadalete Y Covadonga», Cuadernos de Historia de Espana, I-II, 1944, pp. 12, 42, 56-58, 67.


حملات الفتح العربي للاندلس
خط سير طارق
خط سير موسى
خط سير عبد العزيز
موقع معركة هامة
المحيط الاطلسي
البحر المتوسط
شمال أفريقيا
جبال كنتابرية
جليقية
ليون
استرقة
أماية
سرقسطة
برشلونة
طركونة
وادي الحجارة
طليطلة
ماردة
يابرة
باجة
الاشبونة
الشترين
قلمرية
قرطبة
قرمونة
إشبيلية
جيان
البيرة (غرناطة)
مالقة
مرسية
اوريولة
شذونة
طريف
طنجة
سبتة

ويذكر بعض المؤرخين العرب أن لذريق هرب من ساحة القتال، وأنه قتل أو غرق في مكان يدعى وادي الطين، ولكنهم لم يحددوا موقع هذا المكان[34]. ويعتمد الدكتور حسين مؤنس على التشابه الموجود بين اسم وادي الطين، واسم Guadalentin الذي هو أحد فروع نهر شقورة Seguar في محافظة مرسية في شرق إسبانيا، فيقترح بأن وادي الطين ما هو إلا نهر Guadalentin، ولهذا فهو يرى بأن المسلمين لاحقوا لذريق إلى هذا المكان[35]، وهذا احتمال بعيد يصعب تصديقه، لا سيما إذا ما لاحظنا بعد المسافة بين شذونة في الجنوب الغربي من إسبانيا، ومحافظة مرسية في الجنوب الشرقي.

إن موقع المعركة الدقيق ليس له أية أهمية جوهرية بالرغم من كثرة البحوث والمقالات التي كتبت فيه. ومع هذا فعلى الباحث أن يعترف أنه بالرغم من أن المعركة استمرت ثمانية أيام فقط (28 رمضان ـ 5 شوال 92هـ/ 19 ـ 26 تموز 711م)، فإن معركة واسعة النطاق كهذه، سميت بعدة أسماء مختلفة مثل معركة البحيرة، وادي بكة، وادي لكة، وادي البرباط، شريش، السواني، والسواقي، لا يمكن أن نحدد لها، كما يرى الدكتور أحمد مختار العبادي[36]، مكاناً واحداً مثل جنوب مدينة شذونة أو شماليها، ولهذا فمن المحتمل جداً أنها حدثت كلياً أو جزئياً في كل هذه المناطق المذكورة التي تقع في كورة شذونة، فهي معركة هذه الكورة بأسرها[37].

استئناف حملة طارق إلى الشمال

انهزم القوط الغربيون في هذه المعركة وتفرق جمعهم، وتكبدوا خسائر فادحة، ولكن مصير لذريق، كما أسلفنا، لم يكن معروفاً. أما المسلمون، فقد استشهد منهم ثلاثة آلاف رجل[38]. ولقد كان هدف طارق المباشر أن يلاحق فلول المنهزمين وينهي مقاومتهم قبل أن يستأنف سيره نحو الشمال. وهذا يشير إلى أنه كان على علم تام

---

(34) الرقيق، ص 75؛ ذكر بلاد الأندلس، ص 85؛ ابن عذاري، جـ 2 ص 7.

(35) مؤنس، رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الثامن عشر، 1974، ص 91 ـ 93، 124.

(36) في تاريخ الأندلس والمغرب، ص 72.

(37) انظر: عبد الواحد ط.، المرجع السابق، ص 168.

(38) ابن الشباط، صلة السمط وسمة المرط، نشرة الدكتور، أحمد مختار العبادي في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 14، 1967، ص 107؛ المقري (برواية الرازي) جـ 1، ص 259.

بطبيعة الموقف في إسبانيا في ذلك الوقت، وأنه أدرك بأن فتح وتحرير إسبانيا بصورة كاملة لا يمكن أن يتم دون القضاء على قوة القوط. وقد افتتح طارق مدينة شذونة بعد انتصاره على لذريق، ولم يُضيّع وقتاً فأكمل سيره إلى مدينة استجة Ecija، التي تجمع فيها فلول القوط في محاولة لمنع المسلمين من دخولها. وفي طريقه إلى هذه المدينة افتتح طارق مورور، وتدعى الآن Moron de la Frontera، في منطقة أشبيلية. وبعد ذلك عسكر قرب استجة وضرب عليها الحصار. وبعد معركة حامية حقق المسلمون نصراً آخر، بالرغم من مقتل وجرح العديد من رجالهم[39]. أما فلول جيش القوط فقد هربت إلى مدن أخرى، وازدادت خشية القوط الغربيين جداً عندما تبين لهم عزم طارق على البقاء في إسبانيا، فهجروا مناطق السهول من البلاد، والتجأوا إلى الجبال وبقية المدن الحصينة الأخرى[40].

ولمنع القوط من أية محاولة لتوحيد صفوفهم قرر طارق أن يزحف إلى طليطلة عاصمة القوط الغربيين. وتذكر المصادر أن جوليان نصح طارقاً بتفريق جيشه وإرسال عدة حملات إلى مناطق أخرى من إسبانيا، فأرسل حملات إلى مالقة، والبيرة، ومرسية وقرطبة[41]. ولكن من غير المعقول أن يقوم طارق بتقسيم قواته القليلة العدد، في الوقت الذي كان ينوي فيه أن يتوغل بعمق في أراضٍ معادية. ويمكن قبول الرواية التي تشير إلى الحملة المرسلة إلى قرطبة، بسبب وجود الاشارات الكثيرة إلى قائد الحملة، مغيث الرومي، وإلى أحداث الحملة نفسها، ومع هذا، فهناك روايات أخرى تنسب قيادة حملة قرطبة إلى طارق بن زياد نفسه[42].

فتح قرطبة:

عهد طارق إلى مغيث الرومي بقيادة الحملة المتوجهة إلى قرطبة. فسار مصحوباً بسبعمئة فارس من استجة بينما زحف طارق ببقية رجاله إلى طليطلة. وعندما وصل مغيث إلى ضواحي قرطبة، عسكر في منطقة تسمى شقندة Seconda، قرب ضفاف نهر

(39) ابن القوطية، ص 9؛ أخبار مجموعة، ص 9 ـ 10؛ ابن الشباط، ص 112 ـ 113؛ ابن عذاري (برواية الرازي) جـ 2، ص 8.

(40) أخبار مجموعة، ص 9 ـ 10؛ ابن عذاري (برواية الرازي) جـ 2، ص 8 ـ 9؛ المقري (برواية الرازي) جـ 1، ص 260.

(41) أخبار مجموعة، ص 9 ـ 102؛ فتح الأندلس، ص 9؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 9 ـ 11.

(42) ابن القوطية، ص 9؛ الرقيق، ص 76؛ ابن الشباط، ص 115 ـ 116.

الوادي الكبير. وقد وجد بأن حاكم المدينة القوطي ما يزال هناك ترافقه حامية مؤلفة من أربعمائة إلى خمسمئة رجل، أما بقية السكان فقد غادروا إلى طليطلة. ولكن مغيثاً أفلح في اقتحام المدينة بسبب وجود ثغرة في أسوارها، فانسحب حاكمها مع حاميته، وتحصنوا في كنيسة تقع خارج الأسوار تدعى شنت أجلح San Acisclo، حيث ضُرب عليهم الحصار هناك لمدة ثلاثة أشهر. وعندما أيقن هؤلاء بعدم قدرتهم على الاستمرار في المقاومة، حاول حاكمهم الهروب إلى طليطلة، لكنه وقع في أسر مغيث، وأبيدت الحامية بأجمعها. ثم وضع مغيث ترتيبات الدفاع عن المدينة وإدارتها، وتذكر المصادر أنه جمع كل يهود المدينة، وعهد إليهم بالاشتراك مع المسلمين بمهمة الدفاع عنها[43].

وتشير مصادرنا العربية إلى التعاون بين اليهود والعرب أثناء فتح الأندلس، وأنهم، أي العرب، كرروا ما فعلوه في قرطبة مع بقية المدن الاسبانية الأخرى، فحين يتم فتح أية مدينة، كانوا يعمدون إلى ضم سكانهما اليهود إلى جملة المدافعين عنها[44]. بطبيعة الحال فإن التضييق الشديد الذي لاقاه اليهود على يد ملوك القوط الغربيين جعلهم يميلون إلى العرب والمسلمين، الذين وثقوا بهم، وعاملوهم معاملة طيبة جداً، وخلصوهم من العذاب الذي كانوا فيه. إن موقف العرب النبيل، والتسامح الذي مارسوه مع اليهود في إسبانيا، بل في معظم المناطق التي شملتها الدولة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، قوبل مع الأسف بنكران وجحود من قبل الصهيونية العالمية التي شردت أبناء العرب واغتصبت أرضهم في فلسطين.

ومع هذا فعلى المرء أن يتوقع بأن قصة التعاون الذي ساهم به اليهود في الفتح قد بولغ فيها كثيراً، لا سيما من قبل بعض المؤرخين الاسبان[45]. والغرض من هذا واضح، وهو محاولة التلميح إلى أن العرب لم يتمكنوا من فتح إسبانيا لولا مساعدة اليهود. والتآمر معهم على دولة القوط. وهذا بطبيعة الحال غير صحيح كما أسلفنا في

(43) أخبار مجموعة ص 13 ـ 14؛ فتح الأندلس، ص 8؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 9 ـ 10. وقارن: سالم، المرجع السابق، ص 84 ـ 89.

(44) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973، جـ 1، ص 101 (برواية ابن القوطية)؛ وانظر: أخبار مجموعة، ص 12، 14، 16؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 12.

(45) Cf. R. Amador de los Rios, Historia social, Politica Y religiosa de los judios de Espana Y Portugal, Madrid, 1875-76, vol. I p. 107; A Ballesteros Y Beretta, Historia de Espana Y su influencia in la historia Universal, vol. II, p. 107.

الفصل الأول، لأن اليهود ساعدوا العرب بعد دخولهم الفعلي إلى إسبانيا، ولم يكن هناك اتفاق سابق أو مؤامرة مدبرة لتسليم إسبانيا إلى العرب.

فتح طليطلة وما يجاورها:

سار طارق من استجة في طريقه إلى طليطلة عبر الطريق الروماني القديم الذي يمر بمدينة جيان Jaen، والذي يدعى هانيبال Anibal. فعبر نهر الوادي الكبير عند مَنْجيبار Mengibar، وتقدم إلى الشمال[46]. وعندما وصل إلى طليطلة، وجدها خالية إلا من بعض اليهود، ووجد حاكمها قد انسحب إلى مدينة أخرى خلف الجبال. وقد سار طارق لملاحقة الهاربين، مخلفاً وراءه بعض الجنود الذين تولوا مسؤولية الدفاع عن المدينة. واتخذ طريق وادي الحجارة Guadalajara، فوصل إلى مدينة تسمى مدينة المائدة[47]، ويحتمل أنها قلعة هنارس Alcala de Hanares التي تقع شمال شرقي مدريد الحالية[48]. أما اسم المائدة فهو مشتق من «مائدة» ثمينة صنعت من الذهب والفضة ومن معادن نفيسة أخرى، عثر عليها طارق بن زياد، وهي، كما يُروى، تعود إلى سليمان بن داود عليهما السلام[49]. وقصة المائدة كما يبدو ما هي إلا محض أسطورة وإن ما عثر عليه طارق لا يعدو أن يكون مذبحاً لكنيسة طليطلة حُمل إلى هذا المكان من قبل الهاربين والقساوسة[50]. وعلى أية حال، فبعد فتح قلعة هنارس ووادي الحجارة، غنم طارق هذه «المائدة» مع الكثير من التحف الثمينة الأخرى. ولم يستمر في التقدم إلى أبعد من هذا المكان، بل عاد إلى طليطلة في سنة 93هـ (المبتدئة بتشرين الأول 711م)، وقضى فصل الشتاء هناك[51]. ومع هذا فهناك روايات أخرى تشير إلى أنه استمر في فتوحه، فوصل إلى جليقية Galicia، واسترقة Astorga، وما يجاورها من مناطق[52]، الأمر الذي يصعب تصديقه، بسبب اطلالة الشتاء وصعوبة تضاريس المنطقة.

(46) المقري (برواية الرازي) جـ 1، ص 261.
(47) ابن القوطية، ص 9؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 12.
(48) Saavedra, op. cit., p. 79.
(49) ابن عبد الحكم، ص 207؛ أخبار مجموعة، ص 15؛ فتح الأندلس، ص 9.
(50) انظر: المقري (برواية ابن حيان) جـ 1، ص 272؛ وقارن؛ مؤنس، فجر الأندلس، ص 78 ـ 79.
(51) أخبار مجموعة، ص 15؛ ابن الأثير، جـ 4، ص 564؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 12.
(52) ابن القوطية، ص 9؛ ابن الأثير، جـ 4، ص 564؛ المقري، جـ 1، ص 265.

جـ ـ حملة موسى بن نصير:

لقد كان رد الفعل لنجاح حملة طارق عظيماً في شمال افريقيا، فبعد سماعهم بالنصر الذي أحرزه طارق على لذريق في موقعة كورة شذونة، اتجه البربر إلى إسبانيا من كل صوب، وعبروا المضيق بكل ما وقعت عليه أيديهم من قوارب ومراكب. وبعد وصولهم مباشرة، بدأوا بالاستقرار في المناطق السهلة من البلاد، لا سيما تلك التي هجرها السكان المحليون الذين هربوا إلى القلاع والحصون المنيعة[53]. وعندما وصلت هذه الأنباء، وأحداث النجاح الباهر الذي حققه طارق في إسبانيا، إلى اسماع موسى بن نصير في القيروان، قرر أن يزحف بجيش عربي كبير إلى شبه الجزيرة ليتم عمل طارق وينهي المقاومة القوطية المتبقية. وتشير إحدى الروايات إلى أن طارقاً أسرع بعد انتصاره على قوات القوط الغربيين بإشعار موسى بن نصير بالنصر الذي أحرزه، وسأله القدوم للنجدة بإمدادات جديدة[54]. أما الروايات التي تصور عبور موسى على أنه نوع من الحسد لطارق خشية أن يحصل وحده على شرف الفتح وغنائمه، فلا نصيب لها من الصحة، لأن طارقاً كان أحد قادة موسى وما يفتتحه فهو باسم أميره ولمصلحة الدولة العربية الإسلامية التي ينتمي إليها الاثنان. يضاف إلى ذلك أن موسى بن نصير، كان أعظم من أن يحسد أحد رجاله، وهو القائد العظيم الذي حرر الشمال الافريقي بأسره، وجاهد في سبيل نشر مبادئ الحق والعدل التي حملها العرب إلى الأمم المختلفة. إن حملة موسى بن نصير لا يمكن أن تفسر إلا على ضوء المصلحة العامة التي اقتضت تثبيت الفتح وتعزيزه، ونجدة الجنود المسلمين الذين اتخذوا زمام المبادرة بالعبور إلى إسبانيا في الحملة الأولى. ولما كان موسى بعيداً في القيروان، فإن تصوره عن ظروف عبور طارق ووضعه في الأندلس لم يكن واضحاً تماماً، ولهذا، فقد كتب إليه يلومه على مبادرته بالهجوم دون تلقيه الأوامر منه، وأرسل إليه تعليمات بعدم التحرك من مواقعه التي هو فيها حتى يلحق به[55]. ولكن طارقاً لم يستطيع تنفيذ هذا الأمر بسبب

---

(53) المقري (برواية الرازي) جـ 1، ص 259.

(54) الإمامة والسياسة، منسوب لابن قتيبة، نشر ملحقاً لكتاب ابن القوطية، ص 124؛ قارن: مؤنس، فجر الأندلس، ص 89.

(55) ابن عبد الحكم، ص 207؛ البلاذري، فتوح البلدان (برواية الواقدي)، ص 230 ـ 231؛ الرقيق، ص 76؛ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أمستردام، 1968، ص 7 ـ 8؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 13.

المقاومة القوطية، والجيوب التي كان لا بد من القضاء عليها بسرعة، لا سيما في طليطلة وما يجاورها.

وصل موسى بن نصير إلى الأندلس في رمضان سنة 93هـ/ حزيران ـ تموز 712م. وكان يرافقه جيش عربي يقدر عدده بنحو ثمانية عشر ألف رجل. وكان معظم هؤلاء من القبائل اليمنية، وبقية العشائر العربية الأخرى التي كانت موجودة فعلاً في شمال افريقيا، وبشكل خاص في القيروان. وضمت الحملة أيضاً أعداداً كبيرة من رجال قريش البارزين، الذين كانوا في مناصب القيادة، إضافة إلى الإداريين، ورجال الدين، وبقية القادة المحنكين من أمثال محمد بن أوس الأنصاري، وحبيب بن أبي عبيدة الفهري، وعياش بن أخيل، وعبد الجبار بن أبي سلمة الزهري، والعديد من أبناء موسى نفسه، باستثناء عبد الله، الذي تخلف في القيروان ليتولى مسؤولية ولاية شمال افريقيا[56].

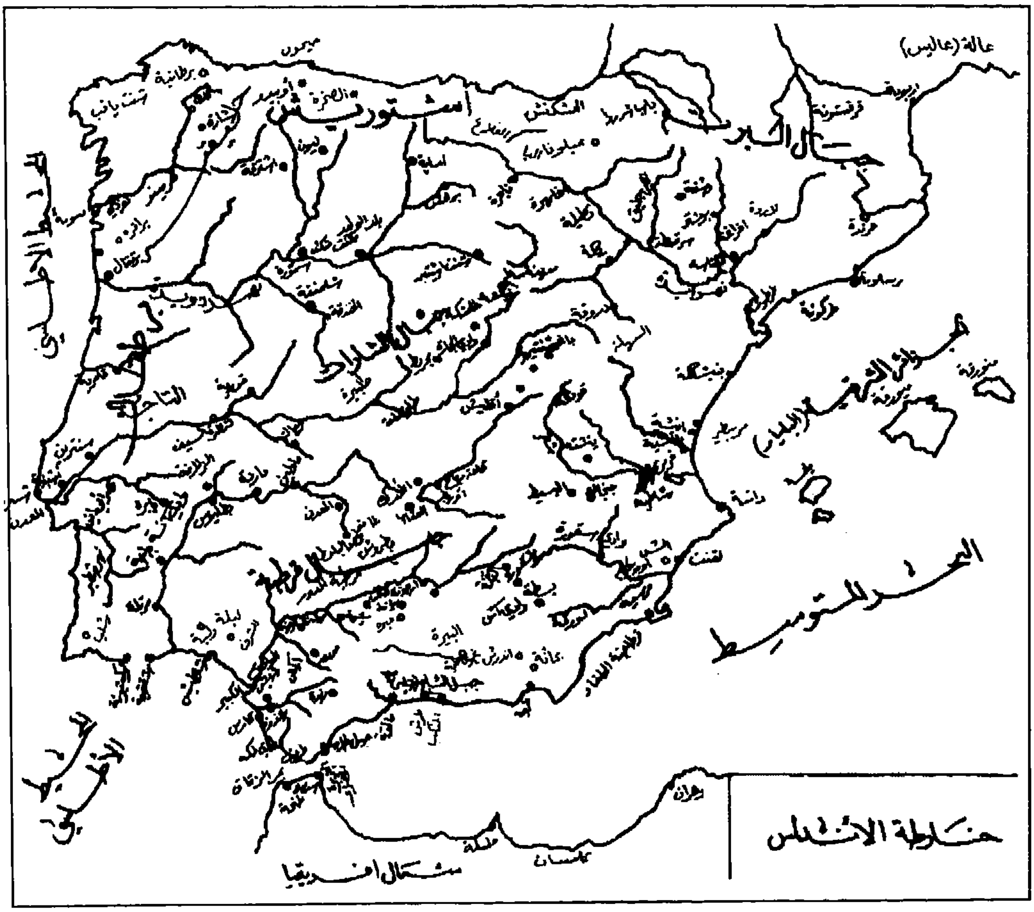
لقد قسم موسى جيشه إلى وحدات عديدة تبلغ أكثر من عشرين وحدة، كل وحدة تحت راية. وكانت اثنتان من هذه الرايات تحت قيادة موسى المباشرة، بينما تولى ابنه عبد العزيز قيادة راية ثالثة. أما بقية الرايات، فكانت بقيادة قواده من قريش ومختلف العشائر العربية الأخرى. وقد عسكرت الحملة بالقرب من الجزيرة الخضراء لعدة أيام من أجل الراحة والاستعدادات العسكرية. وعندما قرر موسى السير، استشار قواده بشأن الطريق التي يجب سلوكها. وقد اتفق الجميع أن يبدأوا بمنطقة أشبيلية، وبقية الأجزاء الغربية الأخرى، التي لم يفتتحها بعد طارق بن زياد. وقبل أن يغادر موسى الجزيرة الخضراء، أمر بإرساء الحجر الأساس لبناء مسجد هناك تخليداً لذكرى حملته هذه، سمي بمسجد الرايات[57].

خط سير حملة موسى:

لقد كان لأدلاء جوليان وأعوانه دوراً كبيراً في تعريف موسى بن نصير بالطريق الجديدة والمدن غير المفتوحة، وهكذا فقد سارت الحملة بالقرب من شذونة، ثم زحفت شمالاً إلى قرمونة Carmona. ونظراً لقوة هذه المدينة وحصانتها، كان على موسى أن يستعمل الحيلة في فتحها، فأرسل إليها بعض أتباع جوليان الذين أظهروا لأهل

(56) ابن عبد الحكم، ص 207؛ الرقيق، ص 76؛ المقري (برواية الرازي) جـ 1، ص 277.

(57) محمد عبد الوهاب الغساني؛ رحلة الوزير في افتكاك الأسير، مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد، رقم 5304، ص 99؛ الرسالة الشريفية، منشورة مع كتاب ابن القوطية، ص 197 ـ 198.



خارطة الأندلس
جبال البرت
البحر المتوسط
شمال افريقيا
عالة (عاليس)

المدينة على أنهم أصدقاء جاؤوا فراراً من العرب، فسمح لهم القوط بدخول المدينة. ولكن ما إن حل الليل، حتى فتح هؤلاء الأبواب للعرب، فهجموا على الحراس، وفتحوا المدينة. وبعد ذلك تقدم موسى إلى قلعة رعواق Alcala de Guadaira، ففتحها[58]، ثم سار إلى أشبيلية التي قاومت هجوم الجيش العربي الإسلامي لعدة شهور، ولكنها أخيراً فتحت عنوة، وفرت حاميتها إلى باجة Beja. وترك موسى قوة من جنده للدفاع عن المدينة، ثم سار إلى ماردة. وتذكر بعض الروايات الأخرى، أن موسى لم يذهب مباشرة إلى ماردة، بل لاحق فلول المنهزمين غرباً إلى لبلة Niebla، واكشونبة Ocsconoba، وباجة في جنوب البرتغال[59].

وبعد أن تم فتح هذه المدن، سار موسى باتجاه ماردة Merida، وضرب عليها الحصار، ولكن جنود القوط قاوموا الهجوم العربي الإسلامي، مما أدى إلى سقوط بعض الشهداء في صفوف جيش موسى. وأخيراً وبعد مقاومة دامت عدة أشهر استسلمت المدينة في شوال 94هـ/ تموز 713م. وقد رافق هذا الاستسلام عقد معاهدة بين الطرفين، تعهد العرب بموجبها بعدم التعرض بالأذى للسكان المحليين الذين يبقون في المدينة أو يغادرونها إلى أي مكان آخر[60]، كما ضمنت لهم حرياتهم وكنائسهم وأداءهم لطقوسهم الدينية، كما هو معروف عن التسامح العربي مع الشعوب التي يحررونها. ومن جهة أخرى ضمنت هذه المعاهدة للمسلمين ممتلكات الذين قتلوا في الحرب. والهاربين من القوط إلى منطقة جيليقية في الشمال الغربي من البلاد.

توجه موسى بعد شهر من فتح ماردة إلى طليطلة. وعندما سمع طارق بقدومه خرج هو وقواده للترحيب به. ويقال أن اللقاء بين الاثنين تم في مكان يدعى المعرض Almaraz، بين نهري تاجة والتيتار Tietar، قرب طلبيرة Talavera غربي طليطلة[61]. وقد عاتب موسى قائده على مباشرته الفتح دون استشارة رئيسه الأعلى، وعلى عدم

(58) فتح الأندلس، ص 10؛ أخبار مجموعة، ص 17 ـ 18.

(59) الغساني، المصدر السابق، ص 99 ـ 100؛ الرسالة الشريفية، ص 198 ـ 199.

(60) انظر نص الرازي المنشور من قبل جاينجوس بالاسبانية تحت عنوان:
LA cronica del Moro Rasis, Memoria sobre la autenticidad de la cronica denominada del Moro Rasis, Memorias de la Real Academia de la Historia, VIII, Madrid, 1852, pp. 67-100, p. 78.

(61) ابن عبد الحكم، ص 207؛ أخبار مجموعة، ص 18؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 16.

تنفيذه أوامره بالتوقف لحين وصوله إليه، ولكن طارقاً، كما يبدو، استطاع أن يبرر ما قام به، وأن يقنع موسى بوجهة نظره في الفتح، وسرعة القضاء على بقايا القوط من أجل توفير المناخ الملائم للعرب والمسلمين للاستقرار في المناطق المفتوحة. ويدل على هذا، التفاهم المتبادل، والتعاون المشترك الذي ساد بين القائدين خلال فتوحاتهما المشتركة المقبلة[62].

فتوحات موسى وطارق المشتركة في الشمال:

مضى القائدان إلى طليطلة، وربما تم من هناك إرسال وفد إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، كانت مهمته نقل أخبار الفتح إلى دمشق[63]. وفي بداية ربيع عام 714م/ 94هـ، تحركت القوات المشتركة لموسى وطارق نحو الشمال الشرقي، ففتحا سرقسطة وما يجاورها، واستمرا في التقدم، فوقع العديد من المدن الاسبانية الأخرى بأيديهما مثل، طركونة Tarragona، وبرشلونة Barcelona، ولاردة Lerida، ووشقة Huesca[64]. وذكر بعض المؤرخين، ومنهم ابن حيان، أن موسى عبر جبال ألبرت Pyrenees، وتوغل في داخل فرنسا حتى بلغ نهر الرون Rhone[65]. ويقول آخرون إنه أراد أن يكمل زحفه عبر أوروبا حتى يصل إلى القسطنطينية عن طريق الغرب[66]، ويصعب تصديق مثل هذه الروايات التي تفتقر إلى الأدلة التاريخية، وبخاصة أنها لم يرد لها ذكر في الحوليات المسيحية المعاصرة للأحداث.

بعد فتح سرقسطة والجزء الأكبر من منطقة الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الآيبيرية، قرر موسى أن يفتتح مناطق قشتالة القديمة Castilla la Vieja، فقسم جيشه إلى قسمين: أسندت قيادة الأول إلى طارق بن زياد، أما الثاني، فظل تحت أمرة موسى نفسه[67].

---

(62) انظر: عبد الواحد طه، المرجع السابق، ص 181.

(63) ابن عبد الحكم، ص 210؛ الإمامة والسياسة، ص 126.

Cf, Livermore, op. cit., p. 297.

(64) لمزيد من التفصيلات عن فتح هذه المناطق، انظر: خليل إبراهيم صالح السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ودراسة في أحواله السياسية، بغداد، 1976، ص 71 فما بعدها.

(65) المقري (برواية ابن حيان) جـ 1، ص 273 ـ 274.

(66) ابن حبيب، ص 227؛ الحميري، ص 27؛ ابن خلدون، جـ 4، ص 255.

(67) قارن مؤنس، فجر الأندلس، ص 104، سالم، المرجع السابق، ص 102.

Saavedra, op. cit., pp. 114-115.

ومضى طارق بمحاذاة الجهة الشمالية لوادي نهر الابرة، فهاجم منطقة الباسك، ثم افتتح أماية Amaya، واسترقة Astorga، وليون Leon[68]. أما موسى فسار ببقية الجيش إلى الجنوب من وادي الابرة، ففتح لك Lugo، وباشر بإرسال حملات صغيرة لافتتاح المناطق المجاورة حتى صخرة بلاي Pena de Pelayo على المحيط الأطلسي[69]. وفي أثناء هذه الفتوحات، كان كل من موسى وطارق يقومان بوضع حاميات إسلامية في المناطق المحررة، وقد ورد ذكر إحدى هذه الحاميات في حولية مسيحية، حيث تشير إلى أن منوسة، Munnuz، أحد أصدقاء طارق، كان قد عُهد إليه بقيادة حامية مدينة خيخون Gijon التي تقع على ساحل المحيط الأطلسي[70]. ويحتمل أن تكون فتوحات موسى قد غطت مناطق أخرى في شمال غرب شبه الجزيرة، ولكن لا توجد لدينا أدلة مدونة على ذلك. وعلى أية حال، فلقد حرر كل من موسى وطارق معظم جليقية والاشتوريش، وتعقبا الفلول الأخيرة لجيش القوط الغربيين، واضطروها للفرار حتى جبال كانتبريا. ومن ثم اعتقد القائدان أنهما قد أنهيا المقاومة القوطية، ولا حاجة لهما بتتبع الأعداد الضئيلة الباقية من المنهزمين.

د ـ فتوحات عبد العزيز بن موسى:

رافق موسى بن نصير، كما أسلفنا، العديد من أبنائه، ومن أشهرهم عبد العزيز، وعبد الأعلى، ومروان. ولقد لعب هؤلاء، وبشكل خاص، عبد العزيز، دوراً هاماً في فتح شبه الجزيرة. وعلى العموم فهناك نقص في المعلومات، وأحياناً تناقض في الروايات التي تتعلق بذكر تواريخ وأماكن حملات عبد العزيز بن موسى. لقد أرسل موسى ابنيه عبد العزيز وعبد الأعلى إلى جنوب وجنوب شرق إسبانيا، وذلك لاستكمال فتح هذه الجهات التي لم يمر بها طارق بن زياد. وكان هذا على الأغلب بعد سقوط أشبيلية، عندما اتجه موسى إلى الغرب. فاستطاع عبد الأعلى، وربما كان ذلك بمساعدة عبد العزيز أيضاً، أن يفتتح كلاً من مالقة Malaga، والبيرة Elvira[71]. ثم توجه عبد العزيز بعد ذلك إلى شرق شبه الجزيرة، حيث تركزت المقاومة القوطية في هذه المنطقة

---

(68) ابن القوطية، ص 9؛ أخبار مجموعة، ص 15؛ المقري، جـ 1، ص 265.
وانظر: خليل السامرائي، المرجع السابق، ص 82.

(69) ابن الأثير، جـ 4، ص 566؛ المقري، جـ 1، ص 276.

(70) The Chronicle of Alfonso III, p. 612.

(71) الإحاطة في أخبار غرناطة، جـ 1، ص 101؛ المقري، جـ 1، ص 275.

في كورة تدمير، التي أسماها المسلمون بهذا الاسم نسبة إلى أميرها الدوق تُدْمير Theodemir. والتقى عبد العزيز بحاكم هذه المقاطعة قرب أوريولة Orihuela. وكان هذا الأخير رجلاً حازماً وذا خبرة عظيمة في تقدير الأمور، فقاوم لفترة قصيرة هجوم عبد العزيز، لكنه توصل أخيراً إلى عقد معاهدة صلح معه في رجب عام 94هـ/ نيسان 713م[72]. وبموجب هذه المعاهدة التي ذكر تفاصيلها المؤرخون العرب، حصل تدمير على شروط مناسبة جداً للصلح، فقد اعترف به العرب حاكماً على سبع مدن تقع ضمن منطقته، كما احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن، شريطة أن يدفع جزية سنوية تقدر بدينار ذهبي واحد، مع كميات معلومة من القمح، والشعير، والخل، والعسل، والزيت، لكل فردٍ حرٍ من أفراد رعيته، أما العبيد، فتؤخذ عنهم نصف هذه الكمية. وقد وافق تدمير أيضاً على ألاّ يقوم أحد من رعيته بتجاهل هذه المعاهدة أو الإخلال بشروطها، وألا يأووا للمسلمين آبقاً، ولا عدواً، ولا يكتموا عنهم خبراً يتعلق بأعدائهم. وبالمقابل فإنهم لن يقتلوا، ولن يُسبوا، أو يُجرّدوا من ممتلكاتهم، أو يُفرّق بينهم وبين أولادهم ونسائهم، وسوف يُسمح لهم بممارسة شعائر دينهم، ولن تُحرق كنائسهم[73]. وتعدُ هذه المعاهدة من المعاهدات الفريدة في تاريخ الفتوحات العربية الإسلامية لأنها وصلتنا كاملة، وهي تشير بصراحة إلى مدى التسامح الذي تميز به العرب إزاء الشعوب المحررة، واحترام حقها في الإدارة، وفي العيش بحرية ضمن المجتمع الإسلامي الذي أعقب الفتح.

وبعد إقرار الأمور في جنوب شرق شبه الجزيرة، عاد عبد العزيز، إما حسب رغبته، أو لأن والده استدعاه بسبب تمرد مدينة أشبيلية. ولقد أيدت هذا التمرد عناصر قوطية جاءت من مدينتي نبلة وباجة، فهاجموا الحامية العربية الإسلامية في المدينة، وقتلوا ثمانين رجلاً، وفر الباقون إلى معسكر موسى الذي كان محاصراً لمدينة ماردة. وبعد استسلام هذه المدينة، قاد عبد العزيز حملة إلى أشبيلية، وتمكن من إعادة فتحها بسهولة[74]. ثم سار بعد ذلك إلى نبلة وباجة لتقوية حاميتيهما. وقد عاد عبد العزيز إلى أشبيلية، ومن ثم إلى ماردة، حيث تولى القيادة العامة لكل المناطق المحررة في هذه

(72) أخبار مجموعة، ص 12 ـ 13؛ The Chronicle of 754, p. 149 (no. 38).

(73) الضبي، بغية الملتمس، نشره فرانشيسكو كوديرا، مدريد، 1884، ص 259؛ العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، ص 4 ـ 5؛ الحميري، ص 62 ـ 63، 151 ـ 152.

(74) أخبار مجموعة، ص 18؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 5؛ المقري (برواية ابن حيان) جـ 1، ص 271.

المنطقة. ويرى سافيدرا، ويؤيده في ذلك أحد المستشرقين البرتغاليين، أن عبد العزيز ابتدأ من هنا حملته لفتح وسط البرتغال، في الوقت الذي كان فيه موسى وطارق يقومان بفتوحاتهما في الشمال، ففتح عدة مدن، وعقد معاهدات صلح مع يابرة Evora، ولشبونة Lisbon وقلمرية Coimbra، وشنترين Santarem[75].

وصلت إلى دمشق أنباء فتوحات موسى بن نصير وعزمه على التوغل بعمق في شبه الجزيرة الآيبيرية، فلم يوافق الخليفة الوليد الأول على هذا المشروع، وخشي على أرواح المسلمين من العواقب التي يصعب التكهن بها نتيجة لتوغل موسى البعيد في أرض الأعداء. فأرسل لاستدعاء كل من موسى وطارق من دمشق، وقد تلكأ موسى بن نصير في تنفيذ الأمر، وذلك لاستكمال فتح المناطق الشمالية الغربية من البلاد. ولكن الخليفة أرسل رسولاً ثانياً يأمره بالتوقف والعودة حالاً إلى العاصمة. وتنفيذاً لهذا الأمر، عاد موسى وطارق، أما غالبية جنودهما ففضلوا البقاء في المدن والأرياف المفتوحة، حيث استقروا وأقاموا منازلهم[76]. وقبل رجوعه، عين موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس، وترك معه بعض القادة العرب من أمثال حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وزياد ابن النابغة التميمي، وغيرهما مع رجال عشائرهم، ليدافعوا عن البلد ويحموه. وقد اختار موسى، أشبيلية عاصمة للبلاد، وذلك بسبب قربها من البحر، ومضيق جبل طارق، كما جعلها أيضاً قاعدة بحرية للدولة العربية الإسلامية في الأندلس[77].

غادر موسى في ذي الحجة سنة 95هـ/ أيلول 714م، ومعه الشيء الكثير من الغنائم والأسرى والهدايا الثمينة. وتروي المصادر أنه حينما اقترب من فلسطين طلب منه الأمير سليمان بن عبد الملك أن يتريث قليلاً لحين وفاة الخليفة الوليد الذي كان مريضاً جداً، وذلك من أجل أن تؤول إلى سليمان الغنائم وشرف الفتح، ولكن موسى لم يقبل هذا، وواصل سيره إلى دمشق فبلغها والخليفة يحتضر[78]. وعندما تولى سليمان بعد أخيه

---

(75) Saavedra, op. cit., p. 127.

J. D. Garcia Domingues, «Invasao e conquista de Lustania Por Muca Ben Nocair e seu Filho «Abdalaziz» Congreso de Estudios Arabes e Islamicos, Actas, held, Cordoba, 1964, pp. 224-225.

(76) المقري (برواية ابن حيان) جـ 1، ص 276.

(77) نفس المصدر والمكان؛ أخبار مجموعة، ص 19؛ الرسالة الشريفية، ص 210.

(78) ابن الكردبوس، ص 50؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 20؛ المقري، جـ 1، ص 280 ـ 281.

حقد على موسى لهذا السبب، فاضطهده، واتهمه باختلاس الأموال، وصادر أمواله، وفرضى عليه غرامة مالية كبيرة[79]. ومع هذا، فلا يمكن للمرء أن يصدق أن سبب غضب سليمان على موسى، كان له علاقة بهذه المسألة الشخصية، فهو يعود بالدرجة الأولى إلى سياسة موسى بن نصير أثناء فتح الأندلس، وتباطئه في إطاعة أوامر الخلافة. ويدل على هذا الأمر أن الخليفة الوليد نفسه لم يقابله مقابلة حسنة للسبب ذاته[80]. وعلى أية حال، فإن علاقة سليمان تحسنت مع موسى إلى درجة كبيرة فيما بعد، حتى أنهما ذهبا سوية لأداء فريضة الحج. وقد توفي موسى في الحجاز عام 97هـ أو 98هـ/ 715م أو 716م[81]. ولا تتوفر لدينا معلومات عن طارق بن زياد بعد وصوله إلى دمشق باستثناء أن الخليفة سليمان أراد أن يعينه والياً على الأندلس، لكنه عدل عن هذه الفكرة، متأثراً بنصيحة مغيث الرومي الذي أثار مخاوف الخليفة من نفوذ طارق واحتمال استقلاله بالأندلس[82]. وهكذا غلف الصمت والغموض نهاية طارق الذي يعد، هو وقائده، موسى بن نصير مِن أعظم مَن أنجبتهما الأمة العربية الإسلامية من الفاتحين الذين ضربوا المثل في الشجاعة والحنكة السياسية والعسكرية. ولقد كان فتحهما وتحريرهما للأندلس بحق من معجزات قوة العرب والمسلمين الموحدة، والتي أنجزت في نحو أربع سنوات ما تعجز عنه الأمم في عشرات من السنين.

---

(79) الرقيق، ص 91؛ أخبار مجموعة، ص 29 ـ 30؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 21.

(80) المصدر نفسه، جـ 2، ص 21 ـ 22؛ ابن عبد الحكم، ص 213.

(81) المصدر نفسه، ص 213؛ المقري، جـ 1، ص 287.

(82) المصدر نفسه، جـ 3، ص 13.

الفصل الثالث

النشاط الحربي للعرب
في شمال إسبانيا والتوغل في فرنسا

أ ـ فتوحات العرب في شمال إسبانيا وموقفهم من الإمارات الاسبانية الناشئة:

لم يتمكن طارق وموسى من استكمال فتح المناطق الشمالية الغربية من شبه الجزيرة الآيبيرية، وذلك بسبب استدعائهما من قبل الخليفة الأموي إلى دمشق. ولم تتح الفرصة لعبد العزيز بن موسى في أثناء ولايته القصيرة أن يكمل مهمة والده في افتتاح المناطق الباقية. ومع هذا، فإن المؤرخين العرب يذكرون بأنه قد افتتح في ولايته مدناً كثيرة[1]، لكنهم لم يحددوا هذه المدن مما يشير إلى أن جهده في الفتوح لم يكن كبيراً. وقد حاول خليفته، أيوب بن حبيب اللخمي، أن يثبِّت السلطة العربية ويطهر المنطقة الشمالية من مقاومة القوط. ويدل على ذلك عنايته بهذه المنطقة وقيامه بإنشاء بلدة أطلق عليها اسم قلعة أيوب Calatayud، تقع إلى الشمال الشرقي من طليطلة[2]. وعلى الرغم من هذا، فقد ظلت المناطق الشمالية الغربية العقبة الأساسية في سبيل استكمال فتح شبه الجزيرة بكاملها. وتعد هذه الأجزاء من المناطق الوعرة جداً لأنها تضم هضاب اشتوريش Asturias القاحلة. وقد اعتقد الفاتحون أنها ليست ذات أهمية بالنسبة إليهم فأغفلوها. وكان هذا خطأ كبيراً وقعوا فيه، لأن هذا الركن الشمالي الغربي، الذي يسمى جليقية، أصبح موطناً للشراذم المنهزمة من جيش القوط الغربيين. وقد تزعم هؤلاء، كما تذكر المصادر العربية، زعيم يدعى بلاي، اعتصم بهم في صخرة بلاي. وقد اطمأن بهم المقام في هذا المكان لبعده عن العرب الذين عجزوا عن الوصول إليه بسبب مناعة

(1) أخبار مجموعة، ص 21، ابن عذاري، جـ 2، ص 24؛ المقري، جـ 1، ص 281.

(2) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 244.

هذه الصخرة التي هي أعلى قمم جبال كنتبرية. وهكذا أصبح بلاي يشكل تهديداً خطيراً للمسلمين في الأندلس، وكان من الضروري أن تتخذ إزاءه إجراءات قوية[3]. وقد أدرك أهل الأندلس هذا الخطر في عهد الوالي عُنبسة بن سُحيم الكلبي (103 ـ 107هـ/ 721 ـ 726م)، الذي أرسل حملة إلى هذه المنطقة للقضاء على المقاومة فيها. ولكن بلاي انسحب إلى المواقع الحصينة من الصخرة، وتحصن في مغارة كوفادونجا Govadonga، وتمكن من إحراز النصر على هذه الحملة وقتل الكثير من أفرادها[4].

وفي عهد عقبة بن الحجاج السلولي (116 ـ 123هـ/ 734 ـ 741م)، الذي كان والياً حازماً وجه اهتمامه نحو الفتوح عبر جبال ألبرت والقضاء على المقاومة الاسبانية التي تركزت في جليقية، خرجت حملة إلى منطقة الشمال الغربي، وهاجمت منطقة جليقية. وقد استطاع عقبة أن يفتتح كل قرية من قراها، لكنه لم يستطع السيطرة على الصخرة التي امتنع فيها بلاي مع الناجين من أنصاره. وكان عدد هؤلاء نحو ثلاثمئة رجل. وقد حاصر المسلمون هؤلاء حتى هلك الكثير منهم من الجوع، وظل على قيد الحياة نحو ثلاثين رجلاً وعشر نساء. ويقال إن هؤلاء الأفراد اقتاتوا فقط على العسل الذي كانوا يستخرجونه من بعض المناحل المتوفرة في شقوق الصخرة. وبعد أن أعيا المسلمين أمرهم، وصعوبة الوصول إليهم، تركوهم «وقالوا: ثلاثون علجاً ما عسى أن يكون أمرهم واحتقروهم ثم بلغ أمرهم إلى أمر عظيم»[5].

والثابت على أي حال، كما يرى الدكتور حسين مؤنس[6]، أن العرب والمسلمين لم يتركوا هؤلاء، لأنهم هُزموا من قبل بلاي، أو لأنهم احتقروهم لقلة عددهم، بل لأن الفاتحين انصرفوا في أول أمرهم في الأندلس إلى المنازعات التافهة فأضعفوا أنفسهم، وأعطوا لهؤلاء الرجال فرصة قيمة ليثبتوا مقاومتهم، ويتحولوا من مجموعة صغيرة مُطارَدَة إلى دولة مستقرة. وقد أدى انصراف العرب عن القضاء على هذه الدولة، إلى وضع جديد في شبه الجزيرة الآيبيرية، ملخصه وجود قوتين في البلاد، الأولى هي الدولة العربية الإسلامية، والثانية، هي القوى الاسبانية. واستمر الصراع بين الطرفين إلى أن انتهى في الأخير لصالح القوى الاسبانية، وخروج العرب من الأندلس بعد مضي نحو ثمانية قرون من دخولهم إليها.

---

(3) انظر: فتح الأندلس، ص 26؛ المقري (برواية ابن حيان) جـ 3، ص 17.

(4) The Chronicle of Alfonso III, pp. 614-615.

(5) أخبار مجموعة، ص 28؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 29.

(6) فجر الأندلس، ص 339.

لم تقتصر حركة المقاومة الاسبانية للفتح العربي الإسلامي على منطقة الصخرة في الأشتوريش، بل كانت هناك بؤر أخرى للمقاومة تركزت في جبال ألبرت، وامتدت على طول الساحل إلى الغرب في جبال كنتبرية. وقد تمركزت أول هذه التجمعات في الطرف الشرقي من هذه الجبال، تحت زعامة بطْرُة Pedro الذي أنشأ إمارة سميت بإمارة كنتبرية. وكان هذا التجمع قليل الأهمية في أول الأمر، ولكن أصبح له شأن كبير، خاصة بعد زواج ألفونسو الأول، ابن بطرة، من ابنة بلاي. وقد كانت هذه الإمارة، ومنطقة جبال ألبرت، وبلاد الباسك أو البشكنس، هدفاً للقوات الإسلامية المتجهة إلى جنوب فرنسا. فعندما سار عبد الرحمن الغافقي إلى فرنسا، اتخذ مدينة بنبلونة قاعدة له، فاستعرض فيها جنده وحثهم على الجهاد. وكذلك فقد هاجم كل من عبد الملك بن قطن في ولايته الأولى 114 ـ 116هـ/ 732 ـ 734م، وعقبة بن الحجاج السلولي بلاد البشكنس ودخلا العاصمة بنبلونة[7]. وتدل هذه الحملات المبكرة على بلاد البشكنس إلى ازدياد خطرهم، خاصة بعد اندحار المسلمين في معركة بلاط الشهداء سنة 114هـ/ 732م. وقد اشتدت مقاومة البشكنس في عهد آخر ولاة الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري. وربما كان للنجاح الذي أحرزتهُ جماعة بلاي في جليقية أثر على ذلك[8]. ويذكر مؤلف كتاب أخبار مجموعة، أن أهالي بنبلونة نقضوا عهدهم مع المسلمين بنقض أهل جليقية[9]. ولهذا فقد أرسل إليهم يوسف الفهري حملة خرجت من مدينة سرقسطة. ولكن أبناء الباسك الجبليون استطاعوا التغلب على هذه الحملة التي كانت قليلة العدد[10]. وهكذا ازدادت قوة المقاومة في هذه المنطقة في أواخر عصر الولاة، واستمرت خلال عصر الإمارة.

ب ـ توغل العرب ونشاطهم في جنوب فرنسا:

تفصل جبال ألبرت أو البرتات، وهي التي تعرف خطأ باسم البرانس، إسبانيا عن جنوب فرنسا. وكانت هذه المنطقة الجنوبية من فرنسا تسمى بغالة Gaul. وهي تتألف من عدة ولايات، كولاية سبتمانية، وتعني المقاطعة ذات المدن السبع، منها أرْبُونة

---

(7) أخبار مجموعة، ص 28؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 29.
(8) خليل السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 100.
(9) أخبار مجموعة، ص 76.
(10) أخبار مجموعة، ص 76؛ دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا، ترجمة: حسن حبشي وآخرون، القاهرة، 1963، جـ 1، ص 198 ـ 199.

وهي عاصمة هذه الولاية، وقرقشونة Carcassonne وتقع دوقية أكيتانية إلى Narbonne الشمال الغربي من ولاية سبتمانية، وعاصمتها برديل أو بوردو Bordeaux الواقعة على مصب نهر الجارون. ومن مقاطعات غالة الأخرى، إقليم بروفانس، الذي يقع إلى الشمال الشرقي من ولاية سبتمانية، وعاصمته مدينة أبنيون Avignon الواقعة على وادي رودنة أو الرون. وإلى الغرب من هذا النهر، يقع إقليم برغندية، وعاصمته مدينة لودون أو ليون Lyon. وكانت المنطقة الواقعة إلى الشمال من نهر اللوار خاضعة للدولة الميروفنجية[11].

وتشير بعض الروايات العربية إلى أن موسى بن نصير وطارق بن زياد كانا أول من عبرا جبال ألبرت، ففتحا أراضي ومدناً في جنوب فرنسا، ومنها أربونة وأبنيون، وليون، حتى انتهيا إلى وادي رُودنة[12]. وكما أسلفنا، فإن ما تذهب إليه هذه الروايات بعيد الاحتمال، ولا يتوفر لدينا ما يؤيد وصول هذين القائدين إلى هذه المناطق، لا سيما ونحن نعلم أن موسى اضطر إلى عدم استكمال فتوحه في شبه الجزيرة الآيبيرية ذاتها بسبب استدعاء الخليفة له. وهناك رواية مسيحية أخرى تشير إلى أن الحر بن عبد الرحمن الثقفي، الوالي الذي أعقب أيوب بن حبيب اللخمي، قد توغل عبر جبال ألبرت وافتتح أربونة عاصمة غالة[13]. ويذكر المؤرخ الاسباني رامون عبدال R. Abadal إن الحر قد فتح قطلونية Catalonia وبرشلونة في الشمال الشرقي من إسبانيا ووصل إلى جبال ألبرت[14]. ولكن لا توجد أية إشارات في بقية المصادر المسيحية، أو في المصادر العربية القديمة تؤكد هذه الفتوحات، ولهذا فمن الصعب التعويل على ما جاء في هذه الروايات.

الفتوح في عهد السمح بن مالك الخولاني:

تتفق معظم المصادر على أن نشاط حركة الفتوح عبر جبال ألبرت ابتدأ في عهد السمح بن مالك الخولاني (100 ـ 102هـ/ 719 ـ 721م) الذي عينه الخليفة عمر بن عبد

---

(11) انظر: سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 137.

(12) المقري (برواية ابن حيان) جـ 1، ص 273 ـ 274.

(13) The Chronicle of 754, p. 151 (no. 43).

(14) R. Abadal, «El paso Septimania del dominio godo al franco a traves de la invasion sarracena (720-768)», Cuadernos de Historia de Espania, XIX, 1953, p. 16.

العزيز ليكون والياً للأندلس بدلاً من الحر بن عبد الرحمن الثقفي، لنزاهته وشدة إيمانه. وما أن استقر السمح في الولاية وقضى على بعض الاضطرابات الداخلية، وأصلح الأمور الإدارية، وقام ببعض الاصلاحات العمرانية[15]، حتى بادر بالنهوض إلى الفتح والجهاد في جنوب فرنسا، وذلك من أجل توحيد طاقات العرب والمسلمين في الأندلس مرة أخرى وتوجيهها نحو الأعداء في بلاد الفرنجة.

شرع السمح بسلسلة من الحملات والفتوح في غالة، فسار بجيش كبير عبر منطقة سرقسطة، واجتاز جبال ألبرت إلى أن أصبح أمام أربونة عاصمة ولاية سبتمانية، فحاصرها وافتتحها عنوة. ثم حصّن أسوارها ووضع فيها وفي المدن المجاورة لها الحاميات. ثم توغل من هذه المدينة إلى داخل غالة حتى وصل إلى طولوشة Toulouse. وفي محاولة لافتتاح هذه المدينة بالقوة، أحاطها المسلمون بالخنادق والمنجنيقات وسائر أدوات الحصار، حتى أوشك أهلها على التسليم. وعندما سمع الدوق أودو Eudo، دوق أكيتانية، بهذا سار مسرعاً نحو المدينة، واشتبك مع الجيش العربي الإسلامي في معركة حامية بالقرب من مدينة طولوشة، أسفرت عن هزيمة السمح واستشهاده مع الكثير من رجاله (يوم عرفة سنة 102هـ/ 10 حزيران 721م). وقد استطاع مساعده، القائد عبد الرحمن الغافقي، أن يقود فلول الباقين من الجيش الإسلامي ويرجع بهم إلى أربونة، ومن ثم إلى الأندلس[16]. وعلى أثر هذه الهزيمة تشجع أهالي المنطقة لخلع طاعة العرب، لكن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكنين من أربونة، وقد جاءتهم نجدات من الأندلس، فثبتوا في المناطق التي تم فتحها على يد السمح بن مالك[17]. وظلت أربونة قاعدة للفتوح والجهاد في جنوب فرنسا، ولعل قربها من البحر وسهولة تلقي المسلمين الامدادات عن طريق الأساطيل بدلاً من عبور جبال ألبرت، هو الذي

(15) أخبار مجموعة، ص 24؛ فتح الأندلس، 25؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 26.

(16) راجع عن فتوحات السمح: فتح الأندلس، ص 25، ابن عذاري، جـ 2، ص 26، المقري، جـ 1، ص 235، جـ 3، ص 15.

The Chronicle of 754, p. 152 (no. 48); M. Rinaud, «Incursions of the Muslims into France, Piedmont and Switzerland», translated from the French by: Harun Khan Sherwani, Islamic Culture, IV, 1930, pp. 261-263.

وانظر: ترجمة عربية لبعض نصوص رينو ينقلها شكيب ارسلان، في كتابه تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، مصر، 1352هـ، ص 64 ـ 71.

(17) المرجع نفسه، نقلاً عن رينو، ص 72.

أدى إلى تمسك المسلمين بهذه المدينة. يضاف إلى ذلك، أن مناخ أربونة يشبه مناخ المدن العربية، أي أنها لطيفة الشتاء، حارة القيظ لولا نسمات البحر المجاور. وتكثر فيها حاصلات المناطق الحارة مثل الكروم والتين والزيتون والصبير[18]. ونتيجة لهذا، فقد عُدت أربونة أقصى ثغور الأندلس، تتجمع فيها النجدات والحملات المتجهة إلى فرنسا، بعد أن تمر بالقاعدة الجنوبية الأخرى، وهي برشلونة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الآيبرية[19].

الفتوح في عهد عنبسة بن سحيم الكلبي:

أقام الجنود الراجعون من الحملة على جنوبي فرنسا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً على الأندلس، وكانت هذه ولايته الأولى التي لم تستمر سوى فترة قصيرة جداً (من ذي الحجة 102 ـ صفر 103هـ/ حزيران 721 ـ آب 721م)، وذلك لأن عامل افريقية استبدله بوال آخر هو عنبسة بن سُحَيم الكلبي الذي وصل الأندلس في صفر 103هـ/ آب 721م[20]. وكانت الأندلس تعاني من الاضطراب بسبب الهزيمة التي أصابت المسلمين في جنوب فرنسا، وبسبب النزاع المستمر بين القبائل العربية. لذلك فقد قضى عنبسة فترة السنوات الأولى من ولايته في تنظيم وتهدئة البلاد. ويضاف إلى ذلك، أنه وجه جهوده للقضاء على التمرد في جليقية، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وكان عنبسة ذا حماس للفتوح، وللسير في الطريق التي سلكها السمح من قبله. وكان يرمي إلى الحفاظ على منطقة غالة القوطية، وحماية خطوط مواصلات العرب مع أربونة. ولهذا، فلم تكد الأمور تستقر له، حتى سار بجيش عظيم نحو بلاد غالة، أو جنوب فرنسا، وحاول تدعيم خط الدفاع أمام أربونة. فحاصر مدينة قرقشونة، وافتتحها بعد فترة وجيزة، وذلك بعد أن نزل المدافعون عن البلد على شروطه. فعقد معهم معاهدة صلح وافقوا بموجبها على منح نصف المدينة وما حولها للمسلمين، وأن يدفعوا الجزية، ويطلقوا سراح جميع الأسرى المسلمين الموجودين في المدينة، وأن يلتزموا بروح هذه المعاهدة، وذلك بمقاتلة أعداء المسلمين ومخالفة أصدقائهم[21]. واستولى عنبسة بعد هذا على جميع غالة

---

(18) المرجع نفسه، ص 64 ـ 65.

(19) انظر: خليل السامرائي، المرجع السابق، ص 126 ـ 127.

(20) ابن القوطية، ص 13؛ أخبار مجموعة، ص 24، ابن عذاري، جـ 2، ص 27؛ المقري، جـ 1، ص 235.

(21) (ملحق رقم 4 لكتاب أخبار مجموعة) .The Chronicle of Moissac, p. 165
وانظر: ابن عذاري، جـ 2، ص 27، المقري، جـ 1، ص 235.

القوطية، ووصل إلى نيمس Nimes، وأخذ رهائن من أهلها وأرسلهم إلى برشلونة، القاعدة الإسلامية في شمال شرق الأندلس. ومن هذا المكان سار المسلمون حتى أدركوا نهر رودنة، وصعدوا مع النهر إلى نهر الساؤون، ومن ثم توغلوا في إقليم برغندية وفتحوا مدينة أوتون Autun في 22 آب 725م/ ربيع الثاني 107هـ[22]. ويذكر بعض المؤرخين أن حملة عنبسة استمرت في سيرها حتى وصلت إلى مدينة أوزة Uzes، وفيفيه Viviers وڤالانس Valence وليون، وماسون Mâcon، وشالون Chalon. ومن هناك تفرعت إلى فرعين، سار الأول نحو ديجون Dijon وبيز Beze ولانجر Langres، واتجه الثاني إلى أوتون مرة أخرى، ولم يقف تيار هذه الحملة إلا قرب بلدة سانس Sens، على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب من باريس، وذلك بسبب تصدي أسقف سانس للمسلمين ووقفه لتقدمهم[23].

وقد عاد عنبسة ومن معه من الجند، وذلك بعد أن وصلته أنباء بحدوث بعض القلاقل في البلاد. ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى الأندلس، فقد هاجمته في طريق العودة جموع كبيرة من الفرنج، فاستشهد نتيجة للمعركة التي حدثت بين الطرفين في شعبان 107هـ/ كانون الأول 725م. فقام القائد عذرة بن عبد الله الفهري - وتسميه المصادر المسيحية Hodera أو Hodeyra[24] - بقيادة الجيش والعودة به إلى قواعده. وهو الذي خلف عنبسة على ولاية الأندلس.

ويبدو أن حملة عنبسة لم تكن ترمي إلى الفتح المنظم الثابت، والدليل على هذا أنه لم يضع الحاميات في بعض المدن التي افتتحها، ولم يعمل على استقرار المسلمين في هذه المدن. وهذا يشير إلى أن حملته لم تكن سوى حملة سريعة بعيدة المدى، قصد منها الاستطلاع والتعرف إلى البلاد تمهيداً لفتوحات لاحقة. «ولو استقر عنبسة في ليون مثلاً»، كما يقول أحد المؤرخين المحدثين، «أو في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في إمكاننا أن نقرر أنه فتح جنوبي غالة ووسطها، أما وقد عاد أدراجه بعد أن سار نحو

---

(22) انظر: تاريخ غزوات العرب ص 73؛ The Chronicle of Moissac, p. 165.

(23) فجر الأندلس، ص 246 - 247؛ Cf. R. Abadal, op. cit., p. 20 سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٣٩.

(24) The Chronicle of 754, p. 153 (no. 53).
وانظر: المقري، جـ 1، ص 235 الذي يفهم من روايته بوفاة عنبسة مستشهداً في بلاد الافرنج، ولكن يذكر ابن عذاري، جـ 2، 26، أن عنبسة توفي حتف أنفه ولم يستشهد.

ألف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول إلا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة. . . ومهما يكن الأمر فإن عنبسة بن سحيم الكلبي ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر، فخر الوصول برايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم آخر»[25].

ونلاحظ على حملة عنبسة أيضاً أنها بعد أن فتحت قرقشونة لم تستمر بالاتجاه إلى طولوشة في مقاطعة أكيتانية، بل عدلت عن ذلك إلى إقليم بروفانس وبرغندية. ويرجع السبب في ذلك كما يرى بعض الكتّاب المحدثين إلى قيام علاقات صداقة بين المسلمين وبين الدوق أودو، دوق اكيتانية، الذي كان في ذلك الوقت يخشى بأس الدولة الميروفنجية، وحاجب ملكها شارل مارتل، صاحب الأمر في هذه الدولة آنذاك. وكان هذا الأخير يَنْفُس على الدوق أودو مكانته ويتمنى إزالته عن ولاية أكيتانية. وتربط المصادر اللاتينية صداقة الدوق أودو بحاكم شرطانية، منوسة البربري، فتذهب إلى أن الدوق أودو صاهر منوسة وزوَّجه من إحدى بناته لكي يأمنه على بلاده[26]. ولهذا فعند قدوم المسلمين بقيادة عنبسة لم يسر لحربهم كما فعل أيام السمح بن مالك، ولم يحاول أن يهاجمهم من الخلف بعد أن تركوا بلاده، بل سهل لهم السير في مقاطعة برغندية، فساروا حتى قاربوا نهر السين. ولهذا فقد انصرف العرب عن بلاده، لأنه كان حليفهم[27]. ومن الجدير بالذكر أن هناك من الكتّاب الآخرين من ينفي وقوع مثل هذه الصلات بين العرب والمسلمين وبين الدوق أودو، وينفون أيضاً تعاون منوسة مع هذا الدوق، وعدائه لبعض الولاة من أمثال عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي. بل إنهم ينكرون أصلاً وجود شخص باسم منوسة، معتمدين في ذلك على أن هذا الاسم ليس لشخص، إنما قد يكون تحريفاً لاسم مكان[28]. ولا تخفى، بطبيعة الحال، الدوافع النبيلة التي تحمل هؤلاء الباحثين على هذا الرأي، وهي محاولة التصدي لبعض المؤرخين المسيحيين المتعصبين والمستشرقين الذين استغلوا هذه القصة أكثر مما يجب للنيل من المسلمين وتشويه فتوحاتهم في جنوب فرنسا. ومع هذا يبدو من الصعب إنكار وجود شخصية منوسة، الذي ورد اسمه ودوره صراحة في حولية سنة 754 اللاتينية أو ما

(25) فجر الأندلس، ص 248.

(26) The Chronicle of 754, p. 155 (no 58).

(27) انظر: فجر الأندلس، ص 253.

(28) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 192 ـ 193؛ خليل السامرائي، المرجع السابق، ص 107 ـ 108.

تسمى بحولية أزيدور الباجي، المعاصرة لتلك الحقبة، والتي تتميز بعدم تحيز مؤلفها وموضوعيته في سرد الأحداث.

لا تذكر المصادر العربية أية أعمال حربية أو فتوح لعذرة بن عبد الله الفهري. وهذا أمر طبيعي لأن مدة ولاية عذرة كانت قصيرة جداً (شعبان 107 ـ شوال 107هـ/ كانون الثاني 726 ـ آذار 726م). أما المصادر المسيحية فتنسب إليه القيام بأعمال حربية خطيرة، فتذكر أن النجدات جاءت من الأندلس إلى عذرة بعد توليه القيادة، فاستعرت الحرب من جديد، وأخذ المسلمون يوجهون حملاتهم نحو كل صوب. واتسمت هذه الحملات، على حد زعم رينو Reinaud، بالدمار والتخريب والعيث في المناطق التي توجهت إليها[29]. وهذه الروايات ملأى بالمبالغات عما تسميه مساوئ العرب والمسلمين ومظالمهم التي أنزلوها بهذه النواحي. فليس من المعقول أن المسلمين لم يفعلوا في جنوب فرنسا غير التخريب وحرق الأديرة والكنائس، بينما الثابت عنهم أنهم لم يفعلوا هذه الأمور قبل ذلك في أثناء تحريرهم للعراق وبلاد الشام ومصر وشمال افريقيا وإسبانيا، وكل هذه الأماكن كانت غاصة بالأديرة والكنائس. فما الذي حصل حتى غيّر المسلمين وقلب حالهم ومعاملتهم للشعوب المفتوحة في جنوب فرنسا؟ الواقع لم يحصل شيء، ولم يتغير المسلمون، ولكن حقد المؤرخين المسيحيين المتعصبين هو الذي صوَّر لهم نسبة كل حرق وتخريب حصل في المنطقة إلى المسلمين، علماً أن العصر كله كان عصر فوضى واضطراب وحروب بين النصارى أنفسهم في هذه الجهات من غالة على وجه الخصوص. «وإذا نحن قارنّا المسلمين»، على حد تعبير أحد الكتّاب العرب المنصفين، «بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين، من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن إليهم، لتبينا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب. ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم أو عبد الرحمن الغافقي»[30].

وعلى أية حال، فلا يمكن أن تكون الحملات والنشاط الحربي للمسلمين في هذه الحقبة إلا سلسلة من الجهود التي قام بها المستقرون منهم في منطقة سبتمانية من أجل تثبيت أقدامهم في هذه الجهات. أما الجهاد والفتح الحقيقي فلم يبدأ إلا بتولي عبد

(29) تاريخ غزوات العرب، ص 73 ـ 77.

(30) فجر الأندلس، ص 258 ـ 259.

الرحمن بن عبد الله الغافقي الأندلس سنة 112هـ/ 730م، وهي ولايته الثانية. وكان قد تولى الأندلس، بعد عزل عذرة بن عبد الله الفهري عدة ولاة لم يقم أحدهم بعبور جبال ألبرت لاستئناف الفتح، وهم يحيى بن سلمة الكلبي وحذيفة بن الأحوص الأشجعي، وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي، والهيثم بن عبيدة الكناني، ومحمد بن عبد الله الأشجعي، ولم تتجاوز مدة حكم كل من هؤلاء، باستثناء يحيى بن سلمة الذي حكم أكثر من سنتين، عدة شهور[31].

الفتوح في عهد عبد الرحمن الغافقي:

كان عبد الرحمن الغافقي من العرب البلديين، أي الذين دخلوا الأندلس مع حملتي طارق وموسى واستقروا فيها. وهو من القادة الأكفاء الذين ساهموا في حملات الفتح في جنوب فرنسا، وقاد المسلمين بسلام إلى الأندلس بعد استشهاد السمح بن مالك في معركة طولوشة. ويبدو من إجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان نزيهاً مؤمناً سليم الإيمان، حريصاً على تطبيق الشريعة فيما يخص توزيع الغنائم على الجنود[32]. وكان عبد الرحمن يعد من التابعين، ومن رواة الحديث النبوي الشريف، فقد ورد في ترجمته أنه روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب[33]، ولهذا كان محل احترام صلحاء المسلمين، فضلاً عن جنده، لعدالته في تقسيم الغنائم، وعدم رغبته في حطام الدنيا. ومما يؤسف له أننا لا نجد معلومات مفصّلة عن عبد الرحمن وعهده في المصادر العربية، وكل ما هناك أخبار مقتضبة عن حملته على جنوب فرنسا، ولعل السبب في ذلك يعود إلى الهزيمة التي حلت بالمسلمين في معركة بلاط الشهداء، فاكتفت المصادر العربية بالإشارات الموجزة العابرة إلى هذا القائد والمعركة الأليمة التي خسرها المسلمون. ومن جهة أخرى تسهب المصادر المسيحية في الحديث عنه، وعن الحملة التي قادها إلى فرنسا، كما تشير أيضاً إلى توتر العلاقات بين عبد الرحمن الغافقي، والقائد البربري المسلم، منوسة، الذي كان يحكم في منطقة شرطانية في الشمال. فقد أعلن هذا الأخير التمرد على السلطة، بعد ازدياد التوتر بين العرب والبربر في كل من

(31) ابن القوطية، ص 13؛ أخبار مجموعة، ص 24 ـ 25؛ ابن عذاري، جـ 2، ص 27 ـ 28، 49.

(32) ابن عبد الحكم، ص 216 ـ 217؛ الحميدي، جذوة المقتبس، القاهرة، 1966، ص 274؛ ابن الأثير، جـ 5، ص 174 ـ 175.

(33) الحميدي، ص 274؛ الضبي، بغية الملتمس، ص 352 ـ 353.

شمال افريقيا والأندلس. وتزعم المصادر اللاتينية، أن منوسة عقد الصلح مع الفرنجة، ووثق علاقته معهم، دون استشارة الوالي في قرطبة. ولهذا فبعد سماع الغافقي بالموقف المعادي لمنوسة، وبالعلاقات القائمة بينه وبين الدوق أودو، دوق أكيتانية، أرسل حملة عسكرية نجحت في القضاء على التمرد، وقتلت منوسة[34].

وبعد أن نظم عبد الرحمن الغافقي البلاد، وقضى على الاضطرابات الداخلية، تهيأ لمجابهة تحدي الفرنجة وتهديدهم للحكم العربي الإسلامي في غالة القوطية. ويبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان يختلف عمن سلفه من الولاة، فهو من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر. فمن جملة الأسباب التي دعته إلى استئناف الحملات على فرنسا، هو العمل على تأسيس وتثبيت موطئ قدم للمسلمين عبر جبال ألبرت، وتقوية قاعدة أربونة الإسلامية. ومن المحتمل أنه كان ينوي إسكان بعض البربر في منطقة الشمال الغربي من إسبانيا في المناطق المفتوحة في جنوب فرنسا. ويدل على هذا ما جاء في إحدى الحوليات المسيحية من أن المسلمين الذين عبروا إلى فرنسا كانوا بأعداد كبيرة، وقد اصطبحوا نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم المنقولة، مما يدل على أنهم كانوا ذاهبين للاستقرار هناك[35].

اتخذ عبد الرحمن من مدينة بنبلونة قاعدة لتجميع الجند المتوجهين للجهاد معه إلى جنوب فرنسا. ثم عبر جبال ألبرت من ممرات رونشفالة Roncesvalles، أي أنه لم يسلك الطريق المحاذي للبحر الذي يؤدي إلى سبتمانية، بل سلك طريقاً في وسط الجبال يفضي مباشرة إلى قلب دوقية أكيتانية. ولكنه قبل أن يهاجم هذه الدوقية توجه مع فرقة من جنده نحو وادي رودنة لإعادة فتح مدينة آرل Arles التي شقت عصا الطاعة، وتوقفت عن دفع الجزية، فاسترجعها بعد معركة عنيفة[36]. ويظن بعض المؤرخين الافرنج أن حملة الغافقي على مدينة آرل لم تكن سوى خدعة قصد بها صرف نظر الفرنجة عن وجهة الحملة الحقيقية، وهي دوقية أكيتانية في الجهة الشمالية[37]. فلما سقطت هذه المدينة توجهت جيوش عبد الرحمن مباشرة نحو بوردو عاصمة دوقية

(34) The Chronicle of 754; pp. 155-156 (no. 58); cf. Reinaud, op. cit., pp. 272-273.
(الترجمة العربية: تاريخ غزوات العرب، ص 88 ـ 89).
Abadal, op. cit., p. 29.

(35) (ملحق أخبار مجموعة، رقم 6)، Paul the Deacon, book, 6. p. 167

(36) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، جـ 1، ص 90؛ فجر الأندلس، ص 265.

(37) تاريخ غزوات العرب، نقلاً عن رينو، ص 99.

أكيتانية، التي قاومت مقاومة واهية، فحاول المسلمون فتحها عنوة. وقد حاول الدوق أودو عبثاً أن يمنع تقدم عبد الرحمن وتوغله في أراضيه، فاشتبك معه في معركة حاسمة بالقرب من التقاء نهري الدوردوني Dordongne والجارون Garonne، مما أدى إلى انهزامه هزيمة قاصمة، انسحب على أثرها نحو الشمال. فدخل المسلمون عاصمته، وغنموا فيها غنائم هائلة، وعاقبوا كل من قاومهم من أهلها[38]. ثم تقدموا نحو اللوار يفتتحون كل ما وقع تحت أيديهم من المناطق التي تؤدي إلى مدينة تور Tours.

وعندما أدرك الدوق أودو استحالة صد الجيوش الإسلامية الفاتحة، اضطر إلى الاستنجاد بشارل مارتل حاجب ملك الدولة الميروفنجية، وطلب مصالحته لصد المسلمين، خاصة وأن هدف هؤلاء التالي كان الوصول إلى أراضي دولة الفرنجة ذاتها. وقد أدرك شارل مارتل الخطر، فاستجاب إلى التماس أودو، وشرع في جمع الجند والفرسان من كل صوب، وبعث يستقدم الرجال من حدود الرين، فجاءه هؤلاء وكانوا من المحاربين الشماليين الأشداء الذين لا يقلون عن العرب والبربر شجاعة وقوة وصبراً في الحروب. وبهذا اجتمع للفرنج جيش قوي قادر على الثبات أمام الجيوش العربية الإسلامية[39].

كان المسلمون يتهيأون للاستيلاء على مدينة تور عندما سمعوا بوصول شارل مارتل وجنده. وقد التقى الجيشان في رمضان 114هـ/ تشرين الأول 732م، وجرت بينهما مناوشات عديدة لمدة سبعة أيام. ثم تحول القتال إلى صدام مروع، رجحت كفة المسلمين في بدايته، لكنهم عجزوا عن اختراق صفوف الفرنجة وحلفائهم من الألمان والسكسون والسويف. يضاف إلى ذلك، أن الفرنجة هاجموا مؤخرة الجيش الإسلامي، مما أدى إلى الاخلال بنظام الجيش. وعندما حاول عبد الرحمن التدخل بشجاعة فائقة لإعادة النظام إلى صفوف جيشه، أصابه سهم من جهة العدو، فخر شهيداً في المعركة. وقد زاد هذا من إرباك المسلمين، لكنهم استمروا في القتال، وخلصوا مخيمهم في مؤخرة الجيش من أيدي الأعداء، إلى أن أقبل الليل فحجز بين الفريقين. ثم تشاور كبار قادة المسلمين وتوصلوا إلى قرار بالانسحاب من موقع المعركة. فانتهزوا فرصة الظلام، وتسللوا نحو الجنوب، تاركين خيامهم وغنائمهم التي لم يتمكنوا من حملها معهم.

---

(38) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 142.

The Chronicle of 754, p. 156 (no. 59).

(39) The Chronicle of 754, p. 156 (no. 59).

وتوجهوا نحو قاعدة المسلمين في سبتمانية وهي أربونة[40]. وعندما لاحظ الفرنجة في صباح اليوم التالي خلو معسكر المسلمين، ظنوا أن في الأمر مكيدة، وتريثوا في دخوله. وبعد أن تبين لهم رحيل المسلمين لم يلاحقوهم إما خوفاً من أن يكون انسحابهم شركاً، أو لاعتقاد شارل مارتل أنه قد أمن بعد هذه الموقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها من عودة المسلمين. فرجع إلى الشمال مفتخراً بما أحرزه من نصر باهر[41].

وهناك خلاف في المكان الذي حدثت فيه هذه الموقعة الفاصلة، فبالإضافة إلى ما ذكرنا آنفاً من أنها وقعت بالقرب من مدينة تور، فهناك من يرى أنها جرت في ضواحي مدينة بواتييه Poitiers[42]. ويحتمل أن المعركة وقعت، كما يرى أحد المستشرقين الفرنسيين، بالقرب من طريق روماني يربط بين شاتلرو Chatellerault وبواتييه، على بعد نحو عشرين كيلومتراً من المدينة الأخيرة، ربما بالقرب من مكان يدعى في الوقت الحاضر موسيه لاباتاي Moussais la Bataille[43]. ويذكر المؤرخون العرب أن المعركة حدثت بالقرب من مكان يدعى بلاط الشهداء، مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير، ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة[44].

قبل الانتهاء من الحديث عن هذه الموقعة لا بد من الإشارة إلى العوامل التي أدت إلى خسارة المسلمين وتحليل هذه العوامل بشكل علمي دقيق. فلا يخفى أن الجيش العربي الإسلامي توغل مسافات شاسعة في أرض الأعداء، وبعد بذلك عن قلب الدولة الإسلامية. ولم يكن بمقدور الجيش أن يحصل على إمدادات من مركز الخلافة، أو حتى من قرطبة مركز ولاية الأندلس، لبعد المسافة، ولتفرق عرب الأندلس في نواحيها المختلفة نتيجة لاستقرارهم هناك. أما القواعد التي أقامها المسلمون خلف جبال ألبرت، كأربونة مثلاً، فلم تكن في وضع يسمح لها بإرسال الامدادات لحاجتها إليها في الدفاع

---

(40) Ibid., pp. 156-157; See aslo: Chronicle of Moissac, p. 166; Reinaud, op. cit., pp. 397-404 (الترجمة العربية: تاريخ غزوات العرب، ص ١٠١ ـ ١٠٢).
E. Creasy, Fifteen Decisive Battle of the World. London, 1962, pp. 239-254.
فجر الأندلس، ص 271 ـ 274.

(41) تاريخ غزوات العرب، ص 102.

(42) Chronicle of Moissac, p. 166.

(43) Levi-Provinçal, op. cit., vol. I. p. 62.

(44) أخبار مجموعة، ص 225 فتح الأندلس، ص 28؛ وانظر: فجر الأندلس، ص 271، هامش رقم (1).

عن نفسها. ويقابل هذا العامل من الناحية الثانية، تكتل الإمارات في غالة، واستماتتها في الدفاع والوقوف أمام المسلمين. هذا فضلاً عن معرفة الافرنج للمواقع وطبيعتها ودروبها، وتعودهم على القتال في جوها المطير الشاتي وأرضها الموحلة، وتلالها الوعرة. يضاف إلى ذلك، أنه كان من السهل عليهم الحصول على الامدادات من كل نوع، وهذه أمور أساسية حُرم منها جيش عبد الرحمن الغافقي بعد توغله العميق في فرنسا(45).

أما ما يقال عن الخلاف بين صفوف الجيش، والنزاع بين عناصره المؤلفة من العرب والبربر، فلا يتوفر لدينا ما يشير إليه من قريب أو بعيد، اللهم إلا في الروايات المسيحية التي تبني حول قصة منوسة كثيراً من الأحداث الملفوفة بالأساطير. ولكن المتمعن في تكوين عناصر الجيش الذي قاده عبد الرحمن الغافقي، يلاحظ أنه كان يتألف من أغلبية من البربر الذين كانوا مستقرين في منطقتي الأشتوريش وجبال ألبرت. وبالامكان التوصل إلى هذا الاستنتاج من حقيقة اتخاذ الغافقي لمدينة بنبلونة مركزاً لتجميع جنده. وكان هناك أيضاً الكثير من العرب في هذا الجيش، لا سيما القبائل اليمنية في منطقة سرقسطة والثغر الأعلى. ولكن البربر شكلوا الأغلبية، وكانوا، كما أسلفنا، برفقة أسرهم. وقد أرهق هذا الموقف الجيش، وقلل من قابليته على المناورة. ولم يكن باستطاعة الغافقي، الذي كان على علم بهذا الموقف، أن يقوم بعمل أي شيء بسبب رغبة رجاله الشديدة لحماية أسرهم. وهذه الحقيقة بالذات كانت هي السبب في ضعف موقف المسلمين، وليس تلهفهم على الغنائم، كما تحاول أن تصور ذلك بعض الروايات المسيحية(46). وقد أدرك الفرنجة نقطة الضعف هذه في جيش المسلمين. ولهذا ففي أثناء الموقعة الفاصلة، هاجمت كتيبة من جيش الفرنجة ـ ربما كانت بقيادة دوق أكيتانية ـ مؤخرة مخيم المسلمين الذي كان يضم نساءهم وأطفالهم(47). وما إن سمع المسلمون بهذا، حتى ترك الكثير منهم مواقعه، وذهب ليدافع عن أهله وأولاده. وكان هذا بداية لاختلال النظام في صفوفهم، وعاملاً رئيساً لهزيمتهم في المعركة(48).

(45) انظر: علي المياح، «العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا»، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، بغداد، 1969، م 5، 129؛ عبد الرحمن الحجي المرجع السابق، ص 196.

(46) (تاريخ غزوات العرب، ص 100 ـ 101). See: Reinaud, op. cit., pp. 400-401.

(47) (تاريخ غزوات العرب، ص 101). Ibid., p. 41.

(48) عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال افريقيا والأندلس، ص 347؛ =

حركة الفتوح بعد معركة بلاط الشهداء:

تعد موقعة بلاط الشهداء من المواقع الحاسمة في التاريخ، لأنها وضعت حداً للفتوح الإسلامية خلف جبال ألبرت. ويعلق المؤرخون الأوروبيون أهمية كبيرة عليها، فيقولون: لو أن العرب انتصروا في هذه المعركة لأصاب أوروبا مثلما أصاب إسبانيا، ولكان القرآن يدرس في جامعات باريس وكمبردج وأوكسفورد. وهناك من لا يعلق أهمية على هذه الموقعة، ويرى أن الامتداد الطبيعي للفتح العربي في إسبانيا هو جبال ألبرت. أما ما قاموا به من عمليات عسكرية وراء هذه الجبال، فلم يكن سوى توغل بدافع الحماس الديني والجهاد في سبيل نشر مبادئ الإسلام، دون أن يعملوا حساباً للتقهقر أو الانسحاب[49]. وعلى أية حال فإن حركة الفتوح الإسلامية لم تتوقف بعد موقعة بلاط الشهداء. فقد قام الوالي الذي عُيِّن بعد استشهاد عبد الرحمن الغافقي، وهو عبد الملك بن قطن الفهري (رمضان 114 ـ شوال 116هـ/ تشرين الأول 732 ـ تشرين الثاني 734م) في ولايته الأولى، بالتوجه إلى شمال إسبانيا. وهناك قضى على تمرد سكان ولايات كل من قطالونية Catalonia، وأراغون Aragon، ونافار Navarre، والباسك، الذين استغلوا فرصة اندحار المسلمين في جنوب فرنسا، فتمردوا على حكومة قرطبة[50]. ثم توجه مباشرة، كما تذكر بعض الروايات المسيحية، عبر جبال ألبرت إلى لانجدوك Languedoc في فرنسا، حيث قام بتحصين المدن التي كانت بأيدي المسلمين[51].

ولكن نشاط حركة الفتوح في جنوب فرنسا ازداد بشكل ملحوظ في ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (شوال 116 ـ صفر 123هـ/ تشرين الثاني 734 ـ كانون الثاني 741م) الذي أعقب عبد الملك بن قطن في ولاية الأندلس. وتتفق كل من المصادر العربية

= وقارن: فجر الأندلس، ص 269 ـ 270؛ سالم، المرجع السابق، ص 143؛ الحجي، المرجع السابق، ص 197 ـ 198؛ خليل إبراهيم صالح، جهاد المسلمين وراء جبال البرتات في المصادر العربية، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد 2، 1982، ص 193 ـ 205، حيث يحلل أحداث هذه الحملة شأنها شأن بقية الحملات الأخرى على ضوء المصادر العربية فقط.

(49) انظر: العبادي، في تاريخ الأندلس والمغرب، ص 88 ـ 89؛ الحجي، المرجع السابق، ص 199 ـ 202 ـ 203.

(50) ابن الأثير، جـ 5، ص 181؛ المقري جـ 1، ص 236، جـ 3، ص 19.

(51) (تاريخ غزوات العرب، ص 104) .Reinaud, op. cit., p. 405
فجر الأندلس، ص 276؛ سالم، المرجع السابق، ص 146.

والمسيحية على أن عقبة كان من أحد كبار القادة المسلمين الذين قادوا الحملات في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا. ففي إسبانيا، كما أسلفنا، أخضع معظم المناطق القلقة في الشمال والشمال الغربي، مثل بنبلونة وجليقية والأشتوريش، حيث هاجم بلاي وأتباعه. ثم استأنف الفتوح الإسلامية فيما وراء جبال ألبرت. ونتيجة لنشاط عقبة أصبحت أربونة من أهم القواعد الإسلامية في جنوب فرنسا. وفي ولايته قام العرب المستقرين في لانجدوك بتحصين كل المواقع، التي كانت تدعى الرُبط، جمع رباط، حتى ضفاف نهر الرون Rhone[52]. ومع هذا، فإن زمام المبادرة في هذا المجال لم يكن لعقبة، بل لعامله على أربونة، يوسف بن عبد الرحمن الفهري، الذي سيصبح فيما بعد الوالي الأخير للأندلس. فقد تحالف مع بعض الحكام والأمراء في سبتمانية، وبروفانس. وقد فضل هؤلاء الذين كانوا يخشون كلاً من شارل مارتل، ودوق أكيتانية، مساعدة المسلمين للسيطرة على ولاياتهم ووضعها تحت الحماية الإسلامية. وكان من ضمن هؤلاء الزعماء، الدوق ماورنت Mauronte، الذي امتدت سلطته على جميع بروفانس، وكان يلقب بدوق مرسيلية Duke of Marseilles[53].

لقد كان عقبة بن الحجاج متحمساً للأخذ بثأر هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء، وتثبيت أقدام الدولة العربية وراء جبال البرتات. من أجل نشر الإسلام، وإغناء بيت المال. وتشير المصادر العربية إلى رغبة عقبة الشديدة في هداية سكان المناطق المفتوحة إلى اعتناق الإسلام، فتروي هذه المصادر، أنه كان من عادته التي لا يتخلى عنها حينما يأسر أسيراً أن يعرض عليه الإسلام. وبهذه الطريقة أسلم على يديه خلق كبير من المسيحيين[54].

ابتدأ عقبة نشاطه في الفتوح بأن اتخذ مدينة سرقسطة في الشمال الشرقي، قاعدة عسكرية له، حيث نظم قواته هناك[55]. ويحتمل أنه بدأ من هذا المكان بمساعدة عامله على أربونة وإمداده بالجنود. وفي سنة 117هـ/ 735م عبر الأخير نهر الرون، ودخل المناطق التابعة لمدينة آرل، ثم توغل بعد ذلك في قلب ولاية بروفانس، وافتتح مدينة

---

(52) المقري، جـ 3، ص 19؛ انظر أيضاً: ابن عذاري، جـ 2، ص 29؛ (تاريخ غزوات العرب، ص 105) Reinaud, op. cit., p. 407.

(53) (تاريخ غزوات العرب، ص 104) Ibid., p. 405.

(54) ابن عذاري، جـ 2، ص 29؛ المقري، جـ 3، ص 19.

(55) The Chronicle of 754, p. 157 (no. 61).

فرتا Fertta التي تدعى الآن سان ريمي St. Remi. ومن ثم ذهب إلى أفنيون، وافتتحها على الرغم من المقاومة المستميتة التي أبدتها حامية المدينة. وهكذا وقع القسم الأكبر من بروفانس تحت ظل الحكم العربي الإسلامي الذي استمر نحو أربع سنوات(56). وفي هذه الفترة، قامت جيوش الأندلس، ربما بقيادة عقبة نفسه، بمهاجمة العديد من الأماكن الأخرى، مثل دوفينية Dauphine، وسان بول تروا St. Paul Trois Chateaux، ودونزير Donzere. ثم هاجموا ولايات شارل مارتل، وهكذا أدركوا ثأر المسلمين في معركة بلاط الشهداء. وأعادت هذه الجيوش أيضاً فتح مدينة ليون، ودخلت برغندي، وتمكنت من التوغل والوصول إلى جبال دوفينية وبيدمونت Piedmont في إيطاليا(57). ولكن شارل مارتل، الذي ذعر نتيجة لهذه الانتصارات، بادر بالعمل فوراً على مقاومة المسلمين. وتمكن بمساعدة أخيه شلدبراند Childebrand من أن يعيد احتلال الكثير من الأماكن الحصينة مثل أفنيون، ثم تقدم بعد ذلك إلى أربونة التي انقطعت عنها الاتصالات بالأندلس بسبب المقاومة المسيحية في جبال ألبرت. وقد أرسل عقبة، الذي عاد إلى قرطبة، حملة لنجدة أربونة، كانت، كما تذكر الحوليات اللاتينية، بقيادة رجل يدعى عمر. ولم تنجح هذه الحملة التي جاءت إلى أربونة عن طريق البحر في انقاذ المدينة لأن شارل مارتل تمكن من دحرها بعد فترة وجيزة من نزولها على الشاطئ إلى الجنوب من أربونة(58) على الرغم من ذلك لم يتمكن شارل مارتل من احتلال أربونة التي ظلت قاعدة إسلامية في جنوب فرنسا إلى عهد عبد الرحمن الأول مؤسس الإمارة الأموية.

---

(56) The Chronicle of Moissac, p. 166; Reinaud, op. cit., pp. 406-407 (تاريخ غزوات العرب، ص ١٠٤ ـ ١٠٥).

(57) Ibid., pp. 407-408. (تاريخ غزوات العرب، ص 105 ـ 106)

(58) The Chronicle of Moissac, p. 166; Paul the Deacon, book 6, p. 167; Reinaud, op. cit., pp. 404-409.

(الترجمة العربية: تاريخ غزوات العرب، ص 106 وانظر أيضاً الصفحات التي بعدها)، فجر الأندلس، ص 281 ـ 283؛ سالم، المرجع السابق، ص 147 ـ 148.

الفصل الرابع

استقرار العرب واستيطانهم في إسبانيا

لقد سارت عملية استقرار العرب في إسبانيا جنباً إلى جنب مع الفتح العربي الإسلامي، حيث كان كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير يتركان حاميات عربية وبربرية في المناطق المفتوحة شكلت نواة للمستقرين المسلمين في إسبانيا. وعندما عاد الفاتحان إلى المشرق، ظل جنودهما في المناطق المحررة، كل حسب رغبته. وكان هؤلاء يتألفون بالدرجة الأولى من العشائر العربية والبربرية التي رافقت طارق وموسى. وقد أطلقوا على أنفسهم اسم البلديين، لأنهم عدوا أنفسهم المالكين الحقيقيين للبلاد، فهم أهل البلد وفاتحوها. وهناك مجموعة أخرى من العرب دخلت الأندلس بعد فترة وجيزة من الفتح، تتألف من العشائر الشامية التي عبرت من شمال افريقيا على أثر تمرد البربر في المغرب. وقد سمي هؤلاء بالشاميين، أو بطالعة بلج بن بشر القشيري، الذي كان يتزعمهم في عبورهم إلى الأندلس.

وإذا ما استثنينا المستقرين الأوائل أو البلديين، والقادمين من الشاميين، فإن عدد العرب الذين دخلوا الأندلس بعد الفتح كان قليلاً. ويتكون هؤلاء من بعض الأفراد الذين عبروا بصورة منفردة، ومن الحرس الذين رافقوا الوالي الحر بن عبد الرحمن الثقفي، وكان عددهم نحو أربعمئة رجل. وكذلك عبر بعض الرجال برفقة ولاة آخرين، مثل السمح بن مالك الخولاني، وأبو الخطار الكلبي.

البلديون:

وهؤلاء، كما أسلفنا، هم الفاتحون الذين تغلبوا على دولة القوط الغربيين، واستقروا مباشرة في الأراضي المفتوحة، وبشكل خاص، على امتداد الطريق التي سلكها

(1) انظر: ابن عبد الحكم، ص 206؛ ابن عذاري؛ 2/11، 12، 15؛ فتح الأندلس، ص 17؛ المقري: 1/ 276، 290.

كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير أثناء فتوحاتهما لشبه الجزيرة الآيبيرية[1]. ولم يستقر هؤلاء البلديون تبعاً لترتيبات وضعها موسى بن نصير، بل جاء استقرارهم تبعاً للصدفة، وفي المناطق التي مرت بها الحملات العربية الإسلامية. وفي الحقيقة تختلف الروايات في الإجراءات التي اتخذها موسى بن نصير لتقسيم الأراضي المفتوحة في الأندلس، فمنها ما يؤيد أنه قسم البلاد بعد اكتمال الفتح، فاحتفظ بحصة الخلافة من الأراضي، وهي الخمس، ووزع الباقي بين جنوده. ويقال أيضاً إنه خصص العديد من السبي ليزرعوا أراضي الخمس ويبقوا فيها. وكان على هؤلاء أن يدفعوا ثلث محصولهم للمسلمين، وأصبحوا يُسمون بالأخماس، وكذلك عُرف أبناؤهم ببني الأخماس. أما بالنسبة للمسيحيين الذين اعتصموا في المعاقل المنيعة، والمناطق الجبلية، فقد أقرهم موسى على ممتلكاتهم، وديانتهم، شريطة أن يدفعوا الجزية للمسلمين. وسميت الأراضي التي ظلت بحوزة هؤلاء باسم أرض الشمل أو أرض الصلح[2]. وهناك روايات أخرى لا تشير إلى تقسيم موسى لكل أراضي البلاد، بل إنه لم يتمكن إلا من إنجاز تقسيم أجزاء محدودة من الأندلس بسبب عودته السريعة إلى المشرق[3]. ويمكن أن نعتمد على هذه الروايات ونأخذ بها، لأنها تتفق مع الوقت القصير الذي صرفه موسى في الأندلس. ولقد رأينا فعلاً أن موسى عقد معاهدة مع أهالي ماردة خوّلته حق الاستيلاء على ممتلكات الذين قتلوا، والهاربين إلى جليقية. ومن الواضح أن قسماً من جيش موسى استقر في هذه الأراضي المهجورة. ومن المحتمل جداً، أن بقية اتباع موسى فعلوا الشيء نفسه واستقروا في العديد من الأماكن الأخرى، سواء تم عقد معاهدات مع أهلها أم لم يتم ذلك، وبشكل خاص، في جنوب إسبانيا، ووادي نهر الوادي الكبير، ووادي نهر آنة، وبعض الأماكن الأخرى في المناطق الشمالية التي تم فتحها عنوة. أما في شرق إسبانيا، فقد عقد عبد العزيز بن موسى معاهدة الصلح مع حاكم المنطقة القوطي تدمير، فانتظم بموجبها استقرار العرب وعلاقاتهم مع السكان النصارى في المنطقة. وقد استسلمت مناطق أخرى إلى المسلمين بموجب معاهدات صلح، مثل مدينة وشقة Huesca[4]. ووافق أهالي البلاد في هذه المناطق على دفع الجزية، وتسليم قسمٍ من أراضيهم للمسلمين ليستقروا فيها[5].

---

(2) الغساني، المصدر السابق، ص 100؛ الرسالة الشريفية، ص 199.

(3) الغساني، ص 101.

(4) انظر: العذاري، ص 65 ـ 67؛ الحِمْيَري، ص 195.

(5) الغساني (برواية الرازي) ص 104.

وهكذا استقر البلديون في الأندلس، ووافقت الخلافة الأموية على هذا الاستقرار، بل إن الخليفة الوليد بن عبد الملك، منح، من خمس الخلافة، إقطاعات أخرى لأولئك الذين لم يكونوا راضين عما أصابهم من أراضٍ في الأندلس. وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة في دمشق (99 ـ 101هـ/ 717 ـ 719م) اهتم كثيراً بشؤون المسلمين في الأندلس. ولقد حاول في أول الأمر ـ تبعاً للسياسة التي سار عليها في المشرق ـ أن يأمر بالانسحاب الكامل من البلاد. ولما أدرك صعوبة تحقيق مثل هذا الأمر، وجه جل اهتمامه إلى الاعتناء بشؤونها الداخلية. فعين من قبله مباشرة والياً جديداً، وأوصاه أن ينهي المهمة التي ابتدأها موسى بن نصير، وهي تقسيم الأرض، من أجل أن يُحدّد خمس الخلافة. وعندما وصل الوالي الجديد، السمح بن مالك الخولاني، إلى الأندلس مع بعض أتباعه، رفض البلديون أن يسمحوا لأي من هؤلاء القادمين الجدد أن يشاركوهم في أراضيهم. وتوجه وفد منهم إلى دمشق يشكون إلى الخليفة، ويهددون بإخلاء الأندلس، لو حاول أتباع السمح بن مالك الاستقرار في أراضيهم. ولقد حل الخليفة هذه المشكلة، بأن منح أتباع السمح أراضٍ من حصة الخلافة. وأصبح هذا الإجراء، هو الطريقة المثلى لإسكان الجماعات الصغيرة من العرب التي تدخل إلى الأندلس فيما بعد[6].

استمر السمح بن مالك في إنجاز مهمة تقسيم الأرض، فابتدأ بقرطبة ونواحيها محدداً أحد القصور التي تقع جنوبي المدينة ليكون جزءاً من خمس الخلافة. ولكن روايات أخرى تذكر أن قرطبة كانت قد قسمت في عهد موسى بن نصير، وأن هذه المنطقة التي تقع جنوبيها بالذات، اعتبرت، إضافة إلى مناطق أخرى، ضمن حصة الخلافة[7]. وبناء على أوامر من الخليفة عمر بن عبد العزيز، حول السمح بن مالك المنطقة الواقعة جنوب قرطبة إلى مقبرة عامة للمسلمين[8]. وتذكر المصادر أن السمح أرسل رجالاً ليقوموا بمهمة تقسيم الأراضي في مناطق متعددة أخرى، ولكن لا تتوفر معلومات إضافية عن طبيعة هذه المهام أو نتائجها، ويذكر ابن القوطية، أن الخليفة عمر، أرسل إلى جانب السمح بن مالك رجلاً آخر يدعى جابر، ليتولى مسؤولية تقسيم

---

(6) المصدر نفسه، ص 101 ـ 102؛ الرسالة الشريفية، ص 202 ـ 203؛ وانظر: عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار، ص 214.

(7) الرسالة الشريفية، ص 201 ـ 202، 204؛ أخبار مجموعة، ص 21.

(8) ابن عذاري: 2/ 26؛ الرسالة الشريفية، ص 207.

الأرض[9]. وهذا إجراء محتمل جداً، وتوجد عليه أدلة وسوابق في أماكن أخرى من الدولة العربية. ففي العراق على سبيل المثال، عين الخليفة سليمان بن عبد الملك، صالح بن عبد الرحمن، ليمثله ويتولى مسؤولية الخراج والضرائب، من أجل إحكام السيطرة على الشؤون المالية للولاية وحفظها لصالح الخلافة[10]. وعلى أية حال، فقد توقفت عملية تقسيم الأرض في الأندلس، نظراً لوفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز (101هـ/ 719م) وكذلك وفاة عامله السمح بن مالك الذي استشهد في معركة قرب مدينة طولوشة عام 102هـ/ 720م، كما أسلفنا في الفصل الثالث. وظلت وضعية الأرض، وسيادة البلديين دون تغير حتى وصول الشاميين، وولاية أبي الخطار الكلبي، حين تطلبت الظروف إيجاد أراضٍ جديدة لاستقرار القادمين الجدد من القبائل الشامية.

لقد كان البلديون يتألفون بشكل عام من رجال العشائر العربية الذين ينتمون إلى مختلف القبائل اليمنية، ومع ذلك، فقد كانت قلة منهم تنتمي إلى عشائر أخرى من مضر وربيعة. وفيما يأتي محاولة للتعرف على نماذج من هؤلاء البلديين ومناطق سكناهم واستقرارهم في الأندلس.

يُعد الأنصار أو المدنيون من أشهر العشائر التي رافقت حملة موسى بن نصير، وقد توزعوا بعد الفتح في مختلف أماكن شبه الجزيرة الآيبيرية، ولكن مناطق استقرارهم الرئيسة، أو منازلهم، كما كانت تسمى، كانت تقع في منطقة سرقسطة[11]. وكان من هؤلاء أسر معروفة من الأوس والخزرج، من أشهرهم أحفاد سعد بن عبادة، أحد أصحاب الرسول ﷺ. وقد استقر هؤلاء بالقرب من سرقسطة، وفي مناطق أخرى من الأندلس، مثل شذونة، وقرطبة[12]. كما سكن جماعة منهم في شرق الأندلس، في منطقة شارقة Jerica (في محافظة قسطليون الحالية)، وكان لهم قلعة تسمى بقلعة الأشراف[13]. ويرجع حكام غرناطة، آخر الممالك الإسلامية في الأندلس، في أصلهم

(9) تاريخ افتتاح الأندلس، ص 12 ـ 13.

(10) الطبري، تاريخ الرسل والملوك. نشر: دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1901: 2/ 1306 ـ 1307.

(11) الأنصاري، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: محمد بن شريفة، بيروت، بدون تاريخ، قدا: 1/ 223؛ الإحاطة: 1/ 182.

(12) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962، ص 365 ـ 366.

(13) ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، نشر عزة العطار، القاهرة، 1955 ـ 1956: 1/ 44، 423، 2/ 512 ـ 551.

إلى شجرة نسب الأسرة التي تنتمي إلى قيس بن سعد بن عبادة، وقد سكن هؤلاء بالأصل في منطقة أرجونة في محافظة جيان الحالية[14].

واستقر مدنيون آخرون من الأوس والخزرج في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة، من هؤلاء بنو خبيب، وبنو قطين الذين استقروا في قرية قرب قبرة Cabra، التي تبعد نحو سبعين كيلومتراً جنوب غربي قرطبة[15]. ومن الأماكن الأخرى التي اختارها الأنصار للسكن، قلعة رباح Castillo de Calatrava la Vieja، ووادي الحجارة Guadalajara وشلب Silves جنوبي البرتغال الحالية[16].

وقد تركز الأزد في منطقة تدمير في محافظة مرسية Murcia الحالية. وكان أحد زعمائهم الكبار، يعيش بن عبد الله الأزدي، أحد القادة المرافقين لعبد العزيز بن موسى، والذي شهد على معاهدة الصلح التي عقدت بين المسلمين وتدمير Theodemir[17]. وسكن بنو دوس، وهم فرع في الأزد، في تدمير أيضاً، وكان من أشهرهم قوم يعرفون ببني هارون[18]. واستقر أزديون آخرون في مناطق أخرى مثل بني وهيب في لورة Illora ثم اشبيلية، وبني المهلب بن أبي صفرة في شون Jun قرب غرناطة، وفي منطقة أخرى قرب جيان[19].

أما رجال القبائل من غافق، فقد استقروا على طول الطريق التي سلكتها حملة موسى بن نصير، مثل الجزيرة الخضراء، وشذونة في الجنوب، وسرقسطة في الشمال الشرقي[20]. ولكن تجمعات سكناهم الرئيسة كانت في مناطق اشبيلية، وقرطبة وإلى حد ما في طليطلة والبيرة. وكان إقليم الشرف Aljarafe، الذي يقع إلى الغرب من اشبيلية، موطناً للعديد من الغافقيين. ومن هؤلاء عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والي الأندلس

---

(14) ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 377، 2/ 13؛ المقري، نفح الطيب 1/ 294، 447.

(15) جمهرة الأنساب، ص 363؛ الحميري، ص 149 ـ 150؛ ابن عذاري: 2/ 34.

(16) جمهرة الأنساب، ص 341؛ الأنصاري، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1964، 6/ 33 ـ 34؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة، 1964: 2/ 26.

(17) العذري، ص 5.

(18) جمهرة الأنساب، ص 383.

(19) التكلمة لكتاب الصلة، نشر الأركون، ص 360؛ التكلمة، ط القاهرة: 1/ 368، الإحاطة: 1/ 129، 320، 2/ 293؛ المقري: 1/ 293.

(20) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، 1966، ق 1، ص 323، 300، ق 2، ص 169 ـ 170؛ التكلمة، ط القاهرة، 1/ 199 ـ 200.

الذي استشهد في معركة بلاط الشهداء، وقد استمر أعقابه في العيش غربي اشبيلية على ضفة نهر الوادي الكبير[21].

وهناك منطقة أخرى لاستقرار عشيرة غافق تقع إلى الشمال من قرطبة[22]. وإلى الشمال الغربي من هذا المكان كان يقع حصن يدعى بحصن غافق مما يشير إلى استقرار عدد كبير من هذه العشيرة، وقد برز من هؤلاء قاضيان مشهوران في عهد الإمارة، وهما سعيد بن سليمان الغافقي، وسليمان بن أسود الغافقي[23]. ومن المناطق الأخرى لاستقرار هذه العشيرة، قرية الغافقيين قرب طليطلة[24]، وقرية الملاّحة La Mala جنوبي غرناطة التي كانت تشتهر بكونها منجماً للملح[25].

ومن القبائل اليمنية الأخرى التي رافقت حملة موسى بن نصير لخم وجذام. وينتمي إلى القبيلة الأولى التي استقرت في مناطق مختلفة، مثل شرق الأندلس واشبيلية، أيوب بن حبيب اللخمي، ابن أخت موسى بن نصير، الذي أصبح والياً على الأندلس بعد مقتل عبد العزيز بن موسى. وقد استقر في اشبيلية، ولكن بعض أحفاده انتقلوا إلى كورة رية (محافظة مالقة الحالية)[26]. ويبدو أن قادة عديدين من هذه العشيرة كانوا بمعية موسى بن نصير أثناء مجيئه إلى الأندلس، منهم بشر بن قيس اللخمي الذي وقع على معاهدة الصلح مع تدمير[27]، وعبد الرحمن بن كثير اللخمي، الذي اختاره أهل الأندلس لتولي النظر في الأحكام بعد وفاة الوالي ثوابة بن سلامة الجذامي[28]، وعبد الرحمن بن علقمة اللخمي الذي أصبح حاكماً على أربونة في أثناء ولاية عبد الملك بن قطن الفهري، ولعب دوراً مهماً في الصراع مع بلج بن بشر القشيري[29].

أما عشيرة جذام، فقد استقرت في تدمير، وقلعة رباح[30]، والثغر الأعلى. وقد

---

(21) ابن القوطية، ص 13 ـ 76؛ جمهرة الأنساب، ص 229.

(22) المصدر نفسه، ص 328 ـ 329.

(23) ابن القوطية، ص 59، 72؛ الخشني، قضاة قرطبة وعلماء أفريقية، نشر: عزت العطار، القاهرة، 1952، ص 92 ـ 94؛ ابن الفرضي، ق 1، ص 158 ـ 162.

(24) التكملة، ط، الطاهرة: 1/ 319. انظر أيضاً: الخشني، قضاة قرطبة، ص 18.

(25) التكملة، ط. القاهرة: 2/ 609 ـ 610؛ الأنصاري: 6/ 431 فما بعدها؛ الاحاطة: 1/ 129.

(26) ابن القوطية، ص 12.

(27) العذاري، ص 5.

(28) ابن عذاري، البيان المغرب: 2/ 35.

(29) ابن القوطية، ص 16 ـ 17؛ أخبار مجموعة، ص 43 ـ 44؛ ابن عذاري، 2/ 32.

(30) جمهرة الأنساب، ص 420 ـ 421؛ المقري: 1/ 296.

استقر بنو هود، الذين حكموا سرقسطة في عصر ملوك الطوائف، في المنطقة الأخرى وهم ينتمون إلى هود الجذامي، الذي هو الداخل الأول من هذه العشيرة إلى الأندلس، وسكنت جماعات أخرى من بني هود في كورة البيرة في إقليم غني سمي باسمهم إقليم بني هود[31].

أما عشيرة معافر، فتعد من أولى العشائر العربية التي استقرت في الأندلس. وقد جاءت هذه العشيرة مع حملة طارق بن زياد، وكانت بقيادة عبد الملك بن أبي عامر المعافري، الذي لعب دوراً بارزاً في افتتاح الجزيرة الخضراء وحصن قرطاجنة. وقد استقر هو وأتباعه في الجزيرة الخضراء، وبعد ذلك انتشر أعقابه في البلاد، ومنهم الوزير المشهور والحاجب ابن أبي عامر المنصور[32]. وينتمي إلى عشيرة معافر أسر عريقة أخرى في الأندلس، مثل بنو جحاف في بلنسية، وبنو منخل في جيان[33]، وبنو شراحيل في قرطبة[34]. وكانت إحدى القرى التي تقع إلى الجنوب من إشبيلية تعد من أهم أماكن استقرار هذه العشيرة، وقد سميت باسمها «قرية كنتش معافر»[35]. ويبدو أن هؤلاء جاؤوا بعد الفتح، وأُقطعوا أراضي من خمس الخلافة. ويدل على ذلك أن كلمة «كنتش» ما هي إلا تحريف للكلمة اللاتينية Quintus (Quinto بالاسبانية) التي تستعمل للدلالة على الخمس من ممتلكات أو مزارع الفرد[36].

وقد ضمت حملة موسى بن نصير مجموعة من رجال القبائل الذين ينتمون إلى عشيرة تجيب، وكانوا بقيادة قادة من أمثال سليمان بن قيس التجيبي الذي شهد على معاهدة الصلح مع تدمير[37]. وقد سكن عدد كبير من هذه العشيرة في منطقة الثغر

---

(31) العذري، ص 90؛ ابن عذاري 3/ 221 فما بعدها، ابن سعيد: 2/ 219.

(32) ابن الآبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1963: 1/ 268؛ التكلمة، ط. القاهرة: 1/ 359؛ ابن عذاري: 2/ 256 ـ 257.

(33) جمهرة الأنساب، ص 419.

(34) ابن القوطية، ص 53، 58؛ ابن سعيد: 1/ 43؛ الأنصاري: 4/ 105.

(35) ابن القوطية، ص 64؛ ابن الفرضي، ق 1، ص 18.

(36) F. J. Simonet, Glosario de voces ibericas Y latinas usadas entre los mozarabes. Amsterdam, 1967, reprint of Madrid edition 1888, pp. 474-476.
وللاطلاع على المزيد من هذه المصطلحات الخاصة بالاستقرار، ودلالاتها، انظر: عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار، ص 203 ـ 210، 223.

(37) العذري، ص 5.

الأعلى في الشمال الشرقي، الذي أصبح الموطن الرئيس لتجيب في الأندلس، لا سيما سرقسطة، ودروقة، وقلعة أيوب[38]. وقد برز من هؤلاء عميرة بن المهاجر وأخيه عبد الله بن المهاجر، وأصبح الأول حاكماً على مدينة برشلونة لمدة سنتين في أثناء الفترة المبكرة التي أعقبت الفتح[39]. واستطاع بنو صمادح، الذين ينتمون إلى الأسرة نفسها، السيطرة على مدينة وشقة وما حولها[40]. كما عاش بنو سلمة التجيبيون في هذه المدينة أيضاً[41].

وهناك عشائر يمنية أخرى استقرت في الأندلس، مثل خولان، الذين استقروا في كورة الجزيرة الخضراء حيث كان لهم قلعة تسمى بقلعة خولان خثعم[42]، حيث كانت شذونة موطناً رئيساً لاستقرارهم[43]. أما بجيلة، فقد كان موطنها بالقرب من مدينة أربونة[44]. وقد عاش عدد كبير من المراديين في قرطبة ومناطقها، حيث كان لهم غربي المدينة حصن يعرف باسمهم[45]. وسكن الجد الأعلى لبني مزين، الذين ينتمون إلى عشيرة أود في أكشونبة Faro Ocsonaba جنوبي البرتغال الحالية، وقد استمرت هذه الأسرة بالعيش في هذه المنطقة واستطاعت أن تنفرد بحكمها في عصر الطوائف، حيث اتخذت من مدينتي باجة وشلب قاعدة لها[46]. واستقرت منذ زمن الفتح أعداد كبيرة من عشيرة يحصب في القلعة الملكية التي أصحبت تعرف باسم قلعة يحصب (في محافظة جيان الحالية)[47].

وتعد عشيرة بليّ من العشائر القضاعية التي استقرت في الأندلس ضمن جماعة البلديين. وكان من زعماء هذه العشيرة زياد بن عذرة البلوي الذي شارك في عملية

---

(38) المصدر نفسه، ص 22؛ خليل السامرائي، الثغر الأعلى، ص 286، 291 ـ 292.

(39) جمهرة الأنساب، ص 430 ـ 431؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963، 2/ 78 ـ 79.

(40) جمهرة الأنساب، ص 431؛ العذري، ص 73، 84.

(41) المصدر نفسه، ص 27، 57، 60.

(42) جمهرة الأنساب، ص 418؛ المقري: 1/ 296.

(43) جمهرة الأنساب، ص 392؛ المقري: 1/ 296.

(44) جمهرة الأنساب، ص 390.

(45) ياقوت، معجم البلدان: 1/ 92؛ ابن سعيد: 1/ 232؛ المقري: 11/ 295.

(46) ابن حيان، المقتبس، تحقيق، محمود علي مكي، بيروت، 1975، ص 79؛ ابن عذاري: 3/ 192 ـ 193.

(47) جمهرة الأنساب، ص 406؛ التكملة، ط. القاهرة: 1/ 211.

اغتيال عبد العزيز بن موسى[48]. وقد استقرت هذه العشيرة إلى الشمال الغربي من قرطبة في مكان سُمي بلّي على اسمهم يقع في فحص البلوط، الذي كان يشتهر بموارده الغنية، لا سيما البلوط والزئبق[49]. واستقرت عشيرة خشين القضاعية في أماكن مختلفة لا سيما في الجنوب، حيث كان لهم مكان يسمى بجزء خشين[50]. أما عشيرة عذرة، فكان موطنها الرئيس في ولاية Dalias في محافظة المرية الحالية[51]، وفي الثغر الأعلى، لا سيما في سرقسطة[52]. وكان لهذه العشيرة مناطق وقرى بالقرب من المرية من أهمها جزء زغيبة بن قطبة وياسين بن يحيى العذريين[53]، وقرية عذرة[54]. وإلى هذه العشيرة ينتمي الجغرافي العربي المعروف، أحمد بن أنس العذري، صاحب كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار.

أما البلديون من مضر فكانوا ينتمون إلى عشائر مختلفة، مثل هذيل الذين استقروا في أوريولة Orihuela في محافظة مرسية الحالية[55]، وفي سرقسطة ومناطق أخرى من الشمال الشرقي[56]. وكذلك تميم، الذين استقروا في اشبيلية وفي منطقة قرب طلبيرة إلى الغرب من طليطلة، تسمى زبارقة، نسبة إلى الزبرقان بن بدر، إحدى شخصيات تميم المشهورة[57].

وكان بعض زعماء قريش من أهم المضريين الذين رافقوا حملة موسى بن نصير، وتولوا فيها مناصب قيادية مهمة. وينتمي هؤلاء إلى فهر، وزهرة، وعبد الدار، وعدي ابن كعب، وسهم، وغيرها من أمهات العشائر القرشية. ولقد أنجبت فهر اثنين من أشهر ولاة الأندلس، وهما عبد الملك بن قطن الفهري، ويوسف بن عبد الرحمن الفهري، وقد استقر الثاني في البيرة، ثم انتقل إلى قرطبة حينما أصبح والياً للبلاد[58]. وبرز من

---

(48) ابن عذاري: 2/ 24.

(49) جمهرة الأنساب، ص 443، الحميري، ص 142.

(50) العذري، ص 120.

(51) جمهرة الأنساب، ص 450.

(52) المصدر نفسه، ص 450؛ التكملة، ط. القاهرة: 1/ 365.

(53) العذري، ص 90.

(54) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر: دوزي ودي غويه، ليدن، 1866، ص 198.

(55) المقري (برواية ابن غالب): 1/ 1291.

(56) ابن الفرضي، ق 1، ص 128؛ الضبي، بغية الملتمس، ص 261.

(57) جمهرة الأنساب، ص 219.

(58) ابن عذاري: 2/ 36 ـ 37؛ المقري (برواية الرازي)؛ 3/ 25.

ذرية الأول أسر كبيرة في الأندلس، أشهرها بيت الجد الأعيان في اشبيلية ونبلة[59].

أما بنو زهرة، فقد دخل منهم عبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، الذي كان على قيادة ميسرة جيش موسى بن نصير في أثناء فتح الأندلس، وهو أول من استقر في مدينة باجة في جنوب البرتغال، وسكنت ذريته في هذه المدينة، وفي بطليوس، واشبيلية[60]. كما استقرت جماعات أخرى من زهرة أيضاً في سرقسطة في الشمال الشرقي[61].

ودخل الأندلس من بني عبد الدار، رجل شهير يدعى عامر بن عمرو بن وهب العبدري، الذي اتخذ مسكنه غربي قرطبة، قرب إحدى بواباتها التي سميت باسمه، باب عامر. وقد عاش أحفاده في منطقة سرقسطة في قرية يقال لها قربلان[62]. وتشير بعض المصادر إلى استقرار بعض الأفراد من عشيرة عدي بن كعب، الذين ينتمون إلى ذرية الخليفة عمر بن الخطاب (رض). وكان موطن هؤلاء الأول، هو طليطلة[63].

ومن البلديين أيضاً عشائر متفرقة من قيس، أشهرها فهم، التي كان لها موطن بالقرب من طليطلة يدعى (الفهميون)[64]. وكذلك سُليم، الذين استقروا في بلفيق في محافظة المرية[65]. وبعض من أفراد عبس وذبيان، حيث سكن قسم من العبسيين في أبذة Ubeda في محافظة جيان الحالية[66]. أما البلديون من قبائل ربيعة، فقد كانوا قلة، ومن أشهرهم جماعة سعدون الربعي، الذي رافق حملة عبد العزيز بن موسى إلى تدمير، وشهد على وثيقة الصلح مع قائدها القوطي، وربما سكن هو وعشيرته في هذه المنطقة[67].

---

(59) التكملة، ط. القاهرة 2/ 542 ـ 543؛ ابن سعيد: 1/ 340؛ المقري: 1/ 291، 3/ 18.

(60) جمهرة الأنساب، ص 132، المقري: 1/ 290، 3/ 11، 64، التكملة، ط. القاهرة: 1/ 179.

(61) الحميدي، ص 200؛ ابن الفرضي، ق 1، ص 108، 290.

(62) ابن القوطية، ص 23، 26، جمهرة الأنساب، ص 126 ـ 127؛ فتح الأندلس، ص 46.

(63) جمهرة الأنساب، ص 154؛ أخبار مجموعة، ص 101، 105؛ ابن عذاري: 2/ 53.

(64) ياقوت: 4/ 381.

(65) الاحاطة: 2/ 143؛ التكملة، ط. القاهرة: 1/ 166.

(66) انظر: عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار، ص 238.

(67) العذري، ص 5.

الشاميون:

وهؤلاء بالأصل من القبائل العربية التي كانت ساكنة في بلاد الشام، أرسلها الخليفة الأموي، هشام بن عبد الملك، إلى شمال افريقيا للقضاء على تمرد البربر هناك. وكان هؤلاء الشاميون بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، ويبلغ عددهم نحو ثلاثين ألف رجل. وقد استطاع البربر أن يهزموهم، ويقتلوا قائدهم كلثوم مع العديد من القواد الآخرين في معركة بقدورة بالقرب من نهر سبو (124هـ/ 741م). أما الناجون من الشاميين، فقد توجهوا بقيادة بلج بن بشير، ابن أخي كلثوم، إلى جهة المغرب، حيث دخلوا مدينة سبتة وتحصنوا فيها. وقد حاصرهم البربر لمدة بضعة أشهر، وخربوا المناطق المحيطة بالمدينة، وأقفروا ما حولها مسيرة يومين، حتى كاد بلج وأتباعه الذين كانوا يبلغون نحو عشرة آلاف رجل، أن يهلكوا من قلة موارد العيش. وأصبحت حالتهم في سبتة تعيسة للغاية، فاضطروا إلى أكل دوابهم، وأضحوا على شفا الموت جوعاً[68].

وكانت الأندلس في تلك الأثناء يحكمها الوالي عبد الملك بن قطن الفهري. وقد التمس بلج بن بشر عدة مرات من عبد الملك بن قطن، أن يسمح له ولرجاله بالعبور إلى الأندلس، ولكن الأخير امتنع عن السماح للقادمين الجدد بالدخول، ورفض طلب بلج، وكان عبد الملك بن قطن وكبار رجال البلديين، يخشون من دخول الشاميين واحتمال قيام بلج بن بشر بإبعاد عبد الملك عن ولاية الأندلس، التي كانوا يعدونها، كما أسلفنا، بلدهم الخاص بهم، ولا يسمحون باستقرار عشرة آلاف رجل آخر في أراضيهم التي افتتحوها بأنفسهم. وهكذا رفض عبد الملك بن قطن كل التماسات أهل الشام، كما منع إرسال أية تموينات إليهم، وعاقب بقسوة أولئك الذين تجرأوا على شحن الأطعمة للشاميين[69].

لكن تطور الأحداث في الأندلس ذاتها، اضطر عبد الملك بن قطن إلى تغيير رأيه. فقد أثرت أحداث شمال افريقيا على الأندلس، وقام البربر بالتمرد على العرب في هذه الولاية أيضاً. وعندما فشلت قوات عبد الملك الخاصة بالقضاء على هذا التمرد، أيقن أنه لا خيار له من أجل التغلب على البربر، إلا بالسماح بدخول الشاميين إلى الأندلس. فعقد معهم اتفاقاً، كان على الشاميين بموجبه أن يسلموا إليه عشرة

(68) أخبار مجموعة، ص 35، 37؛ ابن عذاري: 1/ 55 ـ 56، جـ 2، ص 30؛ المقري: 3/ 20.
(69) أخبار مجموعة، ص 38؛ المقري: 3/ 20.

رهائن من كل جند لضمان مغادرتهم الأندلس خلال سنة واحدة، بعد أن يكونوا قد هزموا البربر. وبالمقابل فقد تعهد عبد الملك بنقلهم أثناء عودتهم إلى شمال أفريقيا في مجموعة واحدة، دون أن يفصلهم، أو يعرضهم لخطر البربر في شمال افريقيا. فعبر بلج ورجاله، واستطاعوا أن ينتصروا بسرعة على البربر في الأندلس، ثم رفضوا أن يغادروا البلاد. ومن هنا فقد قام صراع مرير بين المستقرين الأوائل، أو البلديين، وبين الشاميين، استمر حتى وصول والٍ جديد للأندلس، هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، سنة 125هـ/ 742م.

لقد كان على علي بن أبي الخطار أن يعمل على إيجاد جو مناسب لاستقرار الشاميين في البلاد، ولم تكن هذه المهمة سهلة، لأن قرطبة كانت قد ازدحمت كثيراً، والبلديون يطالبون بانسحاب الشاميين وإخراجهم من البلاد، ولحل هذه المشكلة قرر أبو الخطار أن يمنح الشاميين إقطاعات من الأرض، في مناطق لم يستقر فيها البلديون بعد، تقع في كور معينة من الأندلس، وبهذا يتمكن الشاميون من الاستقرار تحت إمرة زعمائهم، وأن يكونوا جاهزين للجهاد والخدمة في الجيش العربي وقت الحاجة[70].

وقد جرى توزيع الشاميين واستقرارهم في الأندلس على غرار تجمعاتهم السابقة في بلاد الشام، أي نظام الجند. وقد تحرى أبو الخطار أن يكون استقرار كل مجموعة في مكان يحمل بعض التشابه للجند الأصلي الذي كانت تنتمي إليه في بلاد الشام. ومن هنا، فقد استقر جند دمشق في البيرة، وجند حمص في اشبيلية ونبلة، وجند قنسرين في جيان، ووزع جند فلسطين بين شذونة والجزيرة الخضراء، وجند الأردن في رية (محافظة مالقة الحالية)، أما جند مصر، فقد قسم إلى قسمين، وزع الأول على أكشونبة Ocsonaba (Faro)، وباجة في جنوب البرتغال الحالية، والثاني في تدمير (محافظة مرسية الحالية)[71]. أما أولئك الشاميون الذين سكنوا في مناطق مختلفة مع البلديين، قبل ترتيبات الاستقرار التي وضعها أبو الخطار، فقد بقوا في أماكنهم الأولى، ولهذا سموا بالشاذة، لأنهم شذوا في أماكن استقرارهم عن بقية إخوانهم الشاميين[72].

وباستثناء كورة تدمير، لا تتوفر لدينا معلومات تشير إلى أن أياً من أماكن الاستقرار

---

(70) الإحاطة (برواية ابن حيان): 1/ 102 ـ 103.

(71) انظر: ابن القوطية، ص 20؛ أخبار مجموعة، ص 46؛ ابن عذاري: 2/ 33؛ الإحاطة: 1/ 102 ـ 104.

(72) المصدر نفسه: 1/ 104.

هذه قد تم الاستيلاء عليها نتيجة معاهدات صلح عقدت بين العرب وأهل البلاد. ولكن يبدو من الواضح في زمن الوالي أبي الخطار، أن السكان المحليين كانوا يمتلكون معظم هذه المناطق. وكان البلديون، بطبيعة الحال، قد افتتحوا بعض هذه المناطق عنوة، ولكن من المحتمل جداً أن السكان المحليين استمروا في الاحتفاظ ببقية هذه الأراضي. ويعود هذا إلى قلة عدد المسلمين الفاتحين الأوائل، وإلى حصانة مواقع بعض هذه الأماكن. ولكن وصول الشاميين غيّر ميزان القوى في البلاد لصالح المسلمين، ومن هنا فلم تكن هناك مشكلة أمام أبي الخطار لإنهاء اتفاقية عبد العزيز ـ تدمير في منطقة مرسية، ولتوزيع أجزاء من الأراضي التي كانت ما تزال بيد السكان المحليين على الجنود الشاميين في الكور المذكورة أعلاه، والتي أصبحت منذ ذلك الوقت تسمى بالكور المجندة. وكانت تنظيمات أبي الخطار تنص أن يكون للشاميين ثلثا الأراضي والمزارع التي يستقرون فيها، ويبقى الثلث الآخر للسكان المحليين الذين استمروا في الزراعة والعمل على ازدهار قراهم وأراضيهم[73].

لم يكن الشاميون مطالبين بالقيام بأية التزامات أخرى ما عدا الخدمة في الجيش، والاستعداد للجهاد عند الحاجة. وكانوا معفين من أداء العشور على الأراضي التي يقيمون عليها، بينما كان يتوجب على البلديين، وبقية المسلمين الآخرين دفع هذه الضريبة. وفي العهود اللاحقة، أثناء فترة الإمارة وعصر الخلافة، حصل الشاميون على امتيازات أخرى على حساب البلديين، الذين ابتدأوا يفقدون بالتدريج سيادتهم الأولى منذ دخول الشاميين إلى الأندلس[74]. وكان هؤلاء الشاميون يتألفون من ثمانية آلاف عربي، ونحو ألفين من الموالي. وينتمي العرب إلى مختلف عشائر اليمن وقيس ومضر وربيعة. أما الموالي فكانوا ينتمون إما إلى أصول بيزنطية، أو بربرية وشمال افريقية. وقد أصبح هؤلاء الموالي الذين دخلوا مع الشاميين يُسمّون بالموالي الشاميين، بينما أطلق على الآخرين الذين دخلوا مع البلديين اسم الموالي البلديين. وبما أن الكثير من موالي المجموعة الأولى كانوا على اتصال وثيق بالأسرة الأموية الحاكمة، فقد عرفوا أيضاً باسم موالي بني أمية[75]. وقد تركز استقرار هؤلاء الموالي في كورتي البيرة وجيان، ومما يدل

(73) انظر: الحميري، ص 36؛ الاحاطة: 1/ 102، 103، 107.

(74) المصدر نفسه: 1/ 104 ـ 105.

(75) انظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق: محمود علي مكي، ص 196، 197.
ابن الآبار، الحلة السيراء، 1/ 201؛ أخبار مجموعة، ص 66، 70، 71، 82، 86، 87، 91، 92.

على كثرة عددهم في كورة البيرة، إطلاق اسمهم على أحد وديانها الذي كان يعرف باسم وادي بني أمية[76].

أما بالنسبة إلى العشائر العربية الشامية، فقد استقر العديد منها في كورة البيرة، وبشكل خاص القيسيين. ومن هؤلاء، عشائر محارب، وهوازن، وغطفان، وكعب بن عامر، وقشير، ونمير، ومرّة، وفزارة، وسليم[77]. كما استقر أيضاً في منطقة البيرة بعض الأفراد الذين ينتمون إلى قبائل مضرية وربيعيّة، ولكن عددهم لم يكن كثيراً. أما أهم القبائل اليمنية التي استقرت في البيرة وما يجاورها، فهي قبيلة همدان، التي كان بحوزتها إقليم كامل سمي بإقليم همدان، الذي يقع بالقرب من غرناطة[78]. وقد استقرت بعض الجماعات التي تنتمي إلى غسان أيضاً في منطقة البيرة، حيث كانت لهم قرية تدعى بقرية غسان[79]. كما استقر قسم من هؤلاء أيضاً في منطقة أخرى تدعى بوادي آش[80].

لقد كانت القبائل اليمنية تشكل أغلبية جند حمص وفلسطين والأردن، ومن هنا فقد كان تركزها كبيراً في كل من إشبيلية، ونبلة، وشذونة، ورية[81]. وتعد عشيرة لخم من أشهر العشائر اليمنية التي استقرت في كل من إشبيلية وشذونة والجزيرة الخضراء[82]. وإلى هذه العشيرة ينتمي آل عباد الذين سيطروا على إشبيلية في عصر دول الطوائف[83]. وبرزت من هذه العشيرة أيضاً أسر كبيرة لعبت دوراً مهماً في تاريخ منطقة إشبيلية وقرمونة، مثل بنو حجاج، وبنو مسلمة[84].

وكانت كلب العشيرة القضاعية الرئيسة في جند حمص، واستقر أفرادها في إشبيلية

---

(76) العذري، ص 92.

(77) جمهرة الأنساب، ص 265، 280، 290؛ أخبار مجموعة، ص 65؛ الحلة السيراء: 1/154 ـ 155؛ التكملة، ط. القاهرة: 1/253، 337، 2/572؛ الإحاطة: 1/127، 135، 162 ـ 163؛ المقري: 1/292.

(78) العذري، ص 90.

(79) الإحاطة: 1/128.

(80) ابن القوطية، ص 22.

(81) أخبار مجموعة، ص 83.

(82) جمهرة الأنساب، ص 424.

(83) المصدر نفسه، ص 424؛ الحلة السيراء: 2/34 ـ 35؛ ابن عذاري: 3/193 ـ 195.

(84) ابن القوطية، ص 6، جمهرة الأنساب، ص 424 ـ 425.

ونبلة ومورور، وبالقرب من المدور، حيث كان لهم منطقة تدعى بوادي الكلبيين[85].

أما عشائر حضرموت، فكانت تتركز في منطقة الشرف، غربي إشبيلية[86]. كما استقر قسم منهم أيضاً في منطقة قرمونة التي تبعد نحو ثلاثين كيلومتراً إلى الشرق من إشبيلية. ويعد خالد بن عثمان بن هانئ، الذي يدعى أيضاً باسم خلدون، من كبار شخصيات حضرموت في قرمونة، وإليه ينتسب المؤرخ العربي المشهور ابن خلدون[87]. ومن العشائر اليمنية الأخرى الشهيرة في منطقة إشبيلية، عشيرة يحصب التي كان يتزعمها أبو الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي. وكان هذا يعد أيضاً شيخاً لكل العشائر اليمنية في غرب الأندلس، وقد اتخذ مسكنه في قرية تسمى مورة، وتقع في منطقة الشرف[88].

وكانت كلاب من أشهر العشائر القيسية التي استقرت في كورة جيان. ومن قادتها البارزين، الصميل بن حاتم الكلابي، الذي لعب دوراً مهماً في الأحداث في أثناء عصر الولاة[89]. أما عشيرة عقيل، فقد استقرت أيضاً في هذه الكورة، وكانت بقيادة الحصين ابن الدجن العقيلي، الذي كان في الوقت نفسه زعيماً لكل العشائر التي تنتمي إلى كعب ابن عامر في جند قنسرين في جيان[90].

ومن العشائر المضرية التي استقرت في جيان، عشيرة أسد بن خزيمة، التي سكن بعض أفرادها في مكان يدعى وادي عبد الله في كورة جيان[91]. وكذلك عشيرة كنانة، التي عاشت في مكان سمي أيضاً (كنانة) نسبة إلى اسم العشيرة[92]. وتعد يعمر العشيرة الرئيسة التي تعود في أصلها إلى ربيعة في كورة جيان، وقد استقر أفرادها في منطقة أبدة إلى الشمال الشرقي من جيان[93]. أما العشائر اليمنية، فكانت قليلة في كورة جيان، ومن أشهرها شعبان، وأصبح وطيء[94].

---

(85) العذري، ص 101.

(86) ابن حيان، المقتبس، نشر: أنطونيا باريس، 1937، ص 69؛ التكملة، ط. القاهرة: 1/ 283.

(87) جمهرة الأنساب، ص 460، ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، منشور مع كتاب العبر، 7/ 795 ـ 796، 798.

(88) جمهرة الأنساب، ص 460 ـ 461.

(89) المصدر نفسه، ص 287 ـ 288؛ ابن القوطية، ص 40؛ أخبار مجموعة، ص 56.

(90) المصدر نفسه، ص 44، 65.

(91) جمهرة الأنساب، ص 192؛ ابن عذاري: 2/ 161.

(92) أخبار مجموعة، ص 122 ـ 123؛ وانظر: عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار، ص 261.

(93) جمهرة الأنساب، ص 293، التكملة، ط. القاهرة: 1/ 110 ـ 111.

(94) راجع عن هؤلاء: عبد الواحد طه. الفتح والاستقرار، ص 262 ـ 263.

ومن جهة أخرى كانت هذه العشائر اليمنية تكثر في جند فلسطين، حيث استقر العديد من أفرادها، لا سيما عشائر لخم وجذام، في منطقة شذونة والجزيرة الخضراء[95]. ومن مشاهير جذام على سبيل المثال، ثوابة بن سلامة الجذامي، الذي أصبح أحد ولاة الأندلس[96]. وتشكل القبائل اليمنية أيضاً غالبية جند الأردن الذين استقروا في رية (أي محافظة المرية الحالية). ومن هؤلاء أيضاً مجموعات من لخم. وجذام، وعاملة، ومذحج، ورعين[97]. وبرز من عاملة، ثعلبة بن سلامة العاملي، الذي تولى قيادة الشاميين، وولاية الأندلس بعد وفاة بلج بن بشر القشيري سنة 124هـ/741م[98].

وكان معظم جند باجة يتألف من القبائل العربية التي كانت تسكن في مصر، ورافقت الشاميين إلى شمال افريقيا، ومن ثم إلى الأندلس. وتعد عشيرتا يحصب ومعافر من أهم عشائر هذا الجند[99]. ومن رجال يحصب البارزين، العلاء بن مغيث اليحصبي، الذي سيكون له شأن كبير في عهد عبد الرحمن الداخل[100]. وبرز من معافر أيضاً عميد أسرتهم عمرو بن شراحيل المعافري، الذي استقر في باجة، ثم انتقل إلى قرطبة، بعد أن عينه عبد الرحمن الداخل قاضياً على هذه المدينة[101].

أما المجموعة الأخرى من جند مصر، فقد استقرت في تدمير، أي في محافظة مرسية الحالية، وإن أشهر عشائر هذا الجند غسان، ومنهم بنو الشيخ الذين استقروا في الشن Elche وما حولها[102]. وكذلك بنو خطاب التدمريون الذين ينتمون إلى الأزد. وكان جدهم الأعلى عبد الجبار بن خطاب بن نذير قد سكن أولاً في قرطبة، قرب بوابة عُرفت باسمه، باب عبد الجبار، ولكنه انتقل إثر تنظيمات أبي الخطار إلى تدمير في

(95) جمهرة الأنساب، ص 421.

(96) أخبار مجموعة، ص 57؛ فتح الأندلس، ص 38؛ ابن عذاري: 2/ 35.

(97) انظر عن هؤلاء: عبد الواحد طه، المرجع السابق، ص 264 ـ 265.

(98) ابن القوطية، ص 14، 17؛ جمهرة الأنساب، ص 419؛ أخبار مجموعة، ص 30، 44، 45 ـ 46.

(99) لمزيد من التفصيلات عن جند باجة، انظر: عبد الواحد طه، المرجع السابق، ص 267.

(100) ابن القوطية، ص 31 ـ 33؛ أخبار مجموعة، ص 102 ـ 103.

(101) الخشني، قضاة قرطبة، ص 39، ابن الفرضي، ق 1، ص 318.

(102) جمهرة الأنساب، ص 240؛ المقتبس، نشر: انطونيا، ص 21 ـ 22، العذري، ص 13 ـ 14، 142، ابن عذاري: 2/ 197.

الجنوب الشرقي من إسبانيا، حيث تزوج هناك من ابنة الحاكم القوطي الشهير تدمير. وعاش اتباع عبد الجبار وأعقابه في تدمير والمناطق المجاورة لها[103].

البربر:

لقد كان استقرار البربر الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد مماثلاً لاستقرار البلديين، أي أنهم سكنوا على امتداد الطريق التي سارت عليها حملات الفتح، وقد حاول بعض المستشرقين، وعلى رأسهم رينهارت دوزي R. Dozy، اتهام العرب بأنهم لم يكونوا عادلين في قسمتهم للأرض، فأعطوا البربر المناطق الجبلية القاحلة، وخصوا أنفسهم بالسهول الخصبة[104]. ولا يمكن العثور في المصادر على ما يؤيد هذا الاتهام الذي لا أساس له من الصحة. فقد كان البربر هم الأغلبية الساحقة في جيش طارق بن زياد، وكذلك كانوا بأعداد لا بأس بها في جيش موسى بن نصير، فضلاً عن أن الكثير منهم عبروا إلى الأندلس بعد سماعهم بنبأ انتصار المسلمين على القوط. وهكذا فقد فاق البربر العرب بأعدادهم، ومن غير المحتمل أن يكون للعرب تأثير كبير على استقرار البربر في الأندلس. والواقع فإن استقرار العرب والبربر في الأماكن التي نزلوا فيها لأول مرة، كان يخضع لعامل الصدفة لا غير، إذ لم تكن لديهم فكرة واضحة في البداية عمّا ستكون عليه هذه الأماكن، وإن كان البربر أكثر اطلاعاً ومعرفة بالمنطقة بحكم معيشتهم في الشمال الافريقي المجاور. ولهذا فقد كانوا في موقف أفضل لاختيار أحسن المناطق للاستقرار فيها. ويمكن تفسير وربط اختيارهم للمناطق الجبلية في الأندلس بالحقيقة التي توضح بأن عدداً كبيراً منهم عاشوا بالأصل في مناطق جبلية في شمال افريقيا، ولهذا فليس من الغريب أن نجدهم يستقرون في الأماكن التي تشابه مناطق استقرارهم الأصلية[105].

وينتمي البربر الذين دخلوا الأندلس إلى العديد من قبائل البتر والبرانس في شمال

---

(103) العذري، ص 15 ـ 16؛ الحلة السيراء: 2/ 208، 311، المقتبس، نشر انطونيا، ص 38، التكملة، ط. القاهرة: 1/ 46، 290، 356.

(104) دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا: 1/ 157.

(105) انظر، عبد الواحد طه، المرجع السابق، ص 270 ـ 271؛ وللاطلاع على تفصيلات استقرار البربر، انظر المرجع نفسه، ص 270 فما بعدها؛ أيضاً عبد الواحد ذنون طه، استقرار القبائل البربرية في الأندلس، مجلة أوراق، يصدرها المعهد الاسباني ـ العربي للثقافة، العدد 4، مدريد، 1981.

افريقيا، ولكن غالبيتهم كانت من قبيلة مصمودة وفروعها. أما الآخرون، فينتمون إلى القبائل الأخرى، مثل هوارة، ونفزة، وزناتة، ومكناسة، ومطغرة. وقد استقر هؤلاء بصورة عامة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة الآيبيرية.

ففي الجنوب عاشت أعداد كبيرة منهم في الجزيرة الخضراء، وشذونه وإشبيلية، وقرطبة، ورندة، وجيان والبيرة. وكان لهم في الجزيرة الخضراء على سبيل المثال إقليم كامل يسمى بإقليم البربر[106]. وكان للبربر من قبيلة مغيلة أيضاً إقليم آخر سمي باسمهم في كورة شذونة[107]. أما هوارة، فقد استقر جماعة منها بالقرب من جيان وكان لهم حصن يدعى بحصن الهواريين[108]. واتخذت قبيلة لماية البترية موطنها في رية في إقليم سمي بإقليم لماية[109]. وسكنت مجموعات كبيرة من مصمودة ونفزة في المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة رندة. والتي كانت تعرف باسم تاكرونا[110].

وكانت أهم مراكز استقرار البربر في الوسط والغرب، تتركز في طليطلة، والمناطق المحيطة بها[111]. وكذلك في جبال المعدن Sierra de Almaden التي تقع إلى الجنوب من وادي آنة. وكانت هذه الجبال تدعى بجبال البرانس لأن غالبية سكانها من البربر البرانس[112]. وفي المنطقة الغربية، التي كانت تعرف أيضاً بأرض الجوف سكن عدد كبير من البربر، وكان تركزهم فيها عالياً، حتى قيل بأن «أرض الجوف بلاد البربر»[113]. وكانت كل من ماردة ومادلين Medellin من أكثر المناطق ازدحاماً بالسكان من البربر[114]. وقد استقر بنو دانس بن عوسجة من مصمودة في الأقسام الجنوبية من البرتغال في قصر أبي دانس، وكان هؤلاء يتاجرون بالملح المتوفر في منطقتهم[115].

وقد استقر العديد من البربر في الأقسام الشرقية من الأندلس، لا سيما في منطقتي

---

(106) العذري، ص 120.

(107) المصدر نفسه، ص 113؛ جمهرة الأنساب، ص 499، ياقوت: 5/136.

(108) ابن القوطية، ص 32؛ العذري، ص 21.

(109) الحميري، ص 170.

(110) جمهرة الأنساب، ص 500، فتح الأندلس، ص 53.

(111) المقتبس، نشر: انطونيا، ص 292؛ التكملة، ط. القاهرة: 1/315.

(112) المقتبس، تحقيق: مكي، ص 331، 615 (هامش 456)؛ الحميري، ص 142.

(113) المقتبس، نشر، انطونيا، ص 139.

(114) ابن القوطية، ص 67؛ أخبار مجموعة، ص 98، 131؛ فتح الأندلس، ص 35.

(115) جمهرة الأنساب، ص 501؛ الحلة السيراء: 2/272 هامش (1)؛ الحميري، ص 161 ـ 162.

بلنسية وتدمير (مرسية)[116]. وينتمي هؤلاء إلى قبائل من البتر والبرانس. وكان لبربر مصمودة الذين ينتمون إلى البرانس منطقة خاصة بهم بالقرب من بلنسية تدعى بجزء مصمودة[117]. وقد أقام بعض البربر الذين ينتمون إلى صنهاجة في منطقة مرسية في مكان أطلق عليه اسم (الصنهاجيون)[118]. وكان أحد أقاليم بلنسية يسمى بإقليم زناتة نسبة إلى هذه القبيلة البترية[119]. وما يزال العديد من المواقع الأخرى في الأجزاء الشرقية من الأندلس يسمى نسبة إلى قبيلة زناتة، ولا سيما في محافظتي بلنسية، وقسطليون[120].

وتعد منطقة الشمال الشرقي إحدى أوسع أماكن الاستقرار للبربر في شبه الجزيرة الآيبيرية. وكانت المراكز المأهولة تتمثل بالمناطق التي تشمل وادي الحجارة، ومدينة سالم، وقلعة أيوب، وشنتبرية، ووبذة. حيث سكن في هذه المناطق قبائل تنتمي إلى مغيلة، ومصمودة[121]. وسكنت جماعات من هوارة في منطقة شنتبرية بقيادة السمح بن ورد ـ حيقن الهواري، وهو الجد الأعلى لبني ذي النون الذين حكموا طليطلة في عصر الطوائف[122]. وكان بنو رزين أيضاً ينتمون إلى قبيلة هوارة، وقد استقروا في المنطقة السهلة في محافظة تيروال الحالية، وحكموا المنطقة أيضاً في عصر الطوائف، وكانت عاصمتهم تدعى باسمهم بنو رزين Albarracin، وتقع إلى الغرب من مدينة تيروال الحالية[123]. واستقرت قبائل أخرى عديدة في الشمال الشرقي، نذكر منها على سبيل المثال، مكناسة، حيث كانت منطقة تسمى باسمهم مكناسة على ضفاف نهر الأبرو[124].

---

(116) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 6/64، 117؛ الحلة السيراء: 1/257؛ ابن عذاري: 2/50، 56؛ ابن خلدون: 4/268.

(117) العذري، ص 20.

(118) البكري، المسالك، ص 128.

(119) العذري، ص 20.

(120) انظر: عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار، ص 284.

(121) مجهول، مفاخر البربر، ص 60، جمهرة الأنساب، ص 499، 501؛ المقتبس، تحقيق: مكي ص 79، 161 ـ 162؛ العذري، ص 44.

(122) المقتبس، نشر: انطونيا، ص 18؛ العذري، ص 4، 15، جمهرة الأنساب، ص 499 ـ 500؛ ابن عذاري: 3/276 ـ 277.

(123) المقتبس، تحقيق: مكي، ص 234؛ جمهرة الأنساب، ص 499، 500؛ الحلة السيراء: 2/109؛ ابن عذاري: 32/181 ـ 182.

(124) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 190.

أما الشمال والشمال الغربي، فقد تميز أيضاً بوجود العديد من البربر المستقرين. وكانت جليقية Galicia واستورقة، Astorga، وشرطانية Cerretania غربي جبال ألبرت من أهم أماكن الاستقرار(125). وكان القائد منوسة، الذي رافق طارق بن زياد، قد استقر في مدينة خيخون Gijon في الأشتوريش Asturias. ثم أصبح فيما بعد حاكماً على شرطانية، ومسؤولاً عن كل المنطقة التي تمتد من جبال ألبرت إلى المحيط الأطلسي(126). ومما يؤسف له عدم توفر المعلومات الكافية عن البربر المستقرين في هذه الأماكن النائية، باستثناء ما جاء في المصادر من أن عددهم كان كبيراً. ومع هذا فهناك دراسات لأسماء المواقع الجغرافية في المنطقة التي تحمل أسماء قبائل بربرية، ويمكن أن نستنتج من هذه الدراسات بعض المعلومات عن استقرار البربر في هذه الأماكن(127). ومن الجدير بالذكر أن معظم البربر الساكنين في هذه المنطقة تحولوا فيما بعد إلى الجنوب، أو عبروا إلى شمال افريقيا، بسبب الصراع الداخلي، وازدياد وتنامي قوة المسيحيين في الشمال الغربي، بالإضافة إلى ظروف طبيعية أخرى تتعلق بتعرض هذه المناطق إلى الجفاف الشديد، مما أدى إلى حصول مجاعة وصلت ذروتها عام 136/ 753. فنزح معظم البربر إلى مناطق أخرى، وعبروا من وادي البرباط Barbate في كورة شذونة إلى شمال أفريقيا(128).

(125) أخبار مجموعة، ص 38، 39، 40؛ فتح الأندلس، ص 31؛ ابن عذاري 2/ 29، 30 ـ 31؛ المقري: 1/ 276.

(126) The Chronicle of 754, p. 155 (no. 58); The Chronicle of Alfonso III, p. 612; cf: Saavedra, op. cit., p. 70.

(127) انظر: عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار، ص 289.

(128) أخبار مجموعة، ص 61 ـ 62؛ فتح الأندلس، ص 43 ـ 44؛ ياقوت: 2/ 136؛ الحميري، ص 100.

الباب الثاني

عهد الإمارة في الأندلس

الفصل الأول: دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وتأسيس الإمارة الأموية.

الفصل الثاني: أعمال الأمراء الأمويين في تثبيت السلطة والاستقرار.

الفصل الثالث: علاقة الدولة العربية الإسلامية في الأندلس مع الإمارات الاسبانية في الشمال

الدكتور
عبد الواحد ذنون طه

الفصل الأول

دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وتأسيس الإمارة الأموية

انتقلت الخلافة، على أثر نجاح الثورة العباسية، من الأمويين إلى العباسيين. وقد توفي آخر خلفاء بني أمية، مروان بن محمد، في مصر، وانتهى أمر بني أمية بالمشرق سنة 132هـ/ 750م وابتدأ العباسيون في أعقاب سقوط الخلافة الأموية باضطهاد أفراد البيت الأموي الحاكم، وتتبعهم بالقتل والتمثيل أينما وجدوا. وفي مصادرنا روايات عديدة عن هذا الأمر ربما كان معظمها موضوعاً، منها على سبيل المثال، أن العباسيين بتروا يد أبان بن معاوية بن هشام وقدمه، وطافوا به في كور الشام، وهو على هذه الصورة المشوهة، وأركبوه حماراً ومن ورائه مناد ينادي: «هذا أبان بن معاوية فارس بني أمية» حتى مات. كما ذبحوا عبدة بنت هشام بن عبد الملك لأنها رفضت أن تدلهم على المكان الذي أخفت فيه مجوهراتها. ونتيجة لهذه المعاملة هرب وجوه بني أمية واختفوا عند القبائل العربية في البادية. ومن هؤلاء عبد الواحد بن سليمان، والغمر بن يزيد وغيرهما. وعندما رأى العباسيون ذلك، وأن سياسة الاضطهاد لم تأت بما يرجونه من استئصال بني أمية، سلكوا سبيلاً آخر تميز بالخديعة والغدر. فأصدر أبو العباس عبد الله «السفاح»، الخليفة العباسي الأول، بياناً اعترف فيه بإسراف العباسيين في اضطهاد الأمويين، وندمهم على ذلك، وأمّن من بقي منهم على قيد الحياة. وقد أذاع عم الخليفة عبد الله بن علي، هذا البيان في بلاد الشام، فخدع عدد كبير من بني أمية به، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور، فاستطاع بهذه الطريقة أن يقتل ما يربو على سبعين رجلاً آخر منهم في مجزرة نهر أبي فطرس، قرب الرملة في فلسطين، وكان يحيى وعبد الرحمن، حفيدا الخليفة هشام بن عبد الملك، من المحظوظين القلائل الذين نجوا من هذه المذبحة البشعة(1). ولكن العباسيين استطاعوا بعد هذه المذبحة أن يلقوا القبض

(1) أخبار مجموعة، ص 46 ـ 50؛ المقري: 1/ 327 ـ 328؛ وانظر: دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا: 1/ 182 ـ 183؛ عنان، المرجع السابق، 1/ 148.

على يحيى ويقتلوه، أما عبد الرحمن فقد كتبت له النجاة لأنه كان غائباً في الصيد في أثناء غارة الجند على القرية التي كانا يختفيان فيها. وعندما عاد وعلم بمصير أخيه المحزن، انتهز فرصة الظلام وهرب بعد أن أوصى أختيه، أم الأصبغ، وأمة الرحمن، أن يتبعانه مع ولده سليمان، إلى قرية أخرى عينها لهم.

هروب عبد الرحمن بن معاوية إلى المغرب:

ولم يفكر عبد الرحمن في المكوث طويلاً في مخبئه الجديد بعد أن لحقت به أسرته، بل كان يفكر في التوجه نحو المغرب، ولكن العباسيين سرعان ما اكتشفوا مكانه، وداهموه من جديد. وينقل لنا مؤلف كتاب «أخبار مجموعة» رواية هروب عبد الرحمن بن معاوية على لسانه في قصة مؤثرة. فقد كان عبد الرحمن يرقد في حجرة مظلمة لرمد في عينه حين دخل عليه ابنه سليمان، خائفاً فهرع الأب ليرى ماذا يجري في الخارج. فرأى رايات العباسيين السوداء تحاول تطويق القرية فأسرع لضيق الوقت بأخذ بعض المال، وأوصى أختيه بأن يلحق خادمه بدر بما يصلحه إذا سلم من مطارديه. وكان هؤلاء قد سدوا عليه كل منافذ الهرب، فلم يبقَ أمامه وأمام أخيه الأصغر الذي رافقه سوى إلقاء نفسيهما في نهر الفرات. واستطاع عبد الرحمن أن يقطعه سباحة، ولكن الأخ عجز عن قطعه. فرجع مصدقاً وعد الجنود المطاردين لهما بالأمان إن عادا إليهم. ولكن هؤلاء قتلوه أمام عيني أخيه عبد الرحمن في الضفة الأخرى من النهر. ولما أمن عبد الرحمن من خطر مطارديه، سار متخفياً وهو ينوي التوجه إلى المغرب. وتذكر لنا هذه الرواية أن نفس عبد الرحمن كانت تحدثه بما سيكون له من شأن في المغرب أو الأندلس، وأن ذلك بسبب نبوءة كان يعرفها بنو أمية ويرددونها قبل سقوطهم[2].

ولد عبد الرحمن في سنة 113هـ/ 731م في بلاد الشام في قرية تعرف بدير حنين، وقيل بل ولد بالعليا من أعمال تدمر. وكانت أمه سبية بربرية من قبيلة نفزة في شمال افريقيا، وتدعى «راح». أما أبوه معاوية، فقد توفي شاباً في أيام أبيه هشام بن عبد الملك سنة 118هـ/ 736م، فكفله وإخوته جده هشام بن عبد الملك. وكان جده يؤثره على بقية إخوته ويتعهده بالصلات والعطايا في كل شهر حتى وفاته. وظل عبد الرحمن يعيش مع أهله وإخوته في قرية دير حنين من أعمال قنسرين إلى أن حلت النكبة بأسرته،

---

(2) انظر: أخبار مجموعة، ص 51 ـ 52؛ ابن عذاري: 2/ 41.

واضطرته الظروف إلى الهرب. وبعد صعوبات بالغة استطاع الوصول إلى فلسطين، حيث التحق به مولاه بدر، ومولى أخته، سالم أبو شجاع. وكان الأخير، الذي يحتمل أن يكون من أصل بيزنطي، حسن المعرفة والاطلاع على مناطق شمال أفريقيا والأندلس، لأنه كان قد دخلها مع موسى بن نصير أو بعده، وشارك في بعض حملات الصوائف في الأندلس[3]. وقد غادر عبد الرحمن ورفيقاه إلى مصر، ومنها إلى أفريقية، أي تونس الحالية، حيث لم تكن سلطة العباسيين قد اعترف بها بعد هناك. وكان العديد من اللاجئين من أفراد البيت الأموي قد ذهبوا أيضاً إلى أفريقية. ولكن هذا المكان لم يكن ملائماً جداً للجوء، لأنه كان يحكمه عبد الرحمن بن حبيب الفهري، الذي لم يعترف بسلطان العباسيين، وكان يحاول الاستقلال بالحكم، والتطلع إلى تحويل أفريقية إلى إمارة وراثية لأولاده. ولهذا السبب فقد أصبح قلقاً جداً لوجود العديد من الأمراء الأمويين في بلاده. فدبر قتل ابني الخليفة الوليد بن يزيد، كما قرر إبادة الآخرين، لكن عبد الرحمن نجح في الهرب غرباً حيث طلب الأمان بين قبائل البربر[4].

تنقل عبد الرحمن في شمال افريقيا من مكان إلى آخر ما يقرب من خمس سنوات، فأقام أولاً عند قبيلة مكناسة البربرية في موضع يقال له باري. ثم غادر غرباً حيث حصل على تأييد بربر قبيلة نفزة، وهم أخواله، حيث كانت أمه نفزية كما أسلفنا. وقد نجح أيضاً في الحصول على حماية قبائل بربرية أخرى كبيرة في المنطقة، مثل زناته ومغيلة. وعمل أحد زعماء هذه القبيلة الأخيرة، وهو أبو قرّة، أو ابن قرّة وأنسوس المغيلي، على التستر عليه أثناء إقامته الأخيرة في شمال أفريقيا[5].

التفكير في العبور إلى الأندلس:

ويبدو أن تفكير عبد الرحمن في ولاية الأندلس ابتدأ عندما كان مقيماً بالقرب من ساحل طنجة عند قبيلة مغيلة البربرية، وكان عبد الرحمن بصفته أحد أفراد البيت الأموي، يعرف ما يجري في الأندلس، ولا بد أن يكون سالماً، مولى أخته، قد حدثه أيضاً عن هذا البلد الواسع وخيراته الكثيرة. يضاف إلى ذلك، الأخبار التي كانت تتوارد

---

(3) أخبار مجموعة، ص 55 ـ 56.

(4) نفس المصدر، ص 54 ـ 55.
وقارن: أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ص 75 ـ 76.

(5) ابن القوطية، ص 21؛ أخبار مجموعة، ص 55، 74.

إلى شمال أفريقيا عن اضطراب الأحوال في الأندلس، وتنازع القبائل العربية فيها. وكانت الأندلس في ذلك الوقت، أي بعد سنة 130هـ/ 747م تقريباً، قد صفت ليوسف ابن عبد الرحمن الفهري، وهو واليها الأخير، وللصميل بن حاتم الكلابي. فقد استطاع الأخير، الذي كان من زعماء جند قنسرين، أن يقود حرباً شعواء على الوالي أبي الخطار الكلبي، انتهت بمقتل الأخير، وهزيمة مؤيديه، الذين كان معظمهم ينتمي إلى القبائل اليمنية، وذلك في موقعة شقندة التي جرت بالقرب من قرطبة. وبعد هذه الموقعة لم يعد هناك منافس ليوسف الفهري والصميل، ولكن يوسف لم يكن له سوى الاسم واللقب، وذلك لاستئثار الصميل بالحكم وتدبير الأمور. وقد أدى هذا الأمر إلى ضجر يوسف الفهري، ففكر بإبعاد الصميل، وذلك بتوليته على مدينة سرقسطة في الشمال الشرقي من البلاد. ورحب الصميل بهذه الفكرة التي اعتقد بأنها ستتيح له السيطرة على جماعات العرب اليمنيين في تلك المنطقة[6].

استغل عبد الرحمن بن معاوية هذه الأحداث، وحاول أن يستفيد منها في تنفيذ خطته بالعبور إلى الأندلس، وإعادة السلطة الأموية إليها. وقد ساعده في هذا وجود العديد من الموالي أو الأنصار الموالين للأمويين في الأندلس، وبشكل خاص في كورتي البيرة وجيان. وهؤلاء يشكلون مجموعة الموالي الذين رافقوا الشاميين ضمن جندي دمشق وقنسرين. وقد أسلفنا أن هؤلاء كانوا على اتصال وثيق بالبيت الأموي، ولهذا فقد عرفوا بموالي بني أمية. وكانوا يتألفون من نحو خمسمئة رجل في هاتين الكورتين، وإن كان بعضهم قد عاش أيضاً في أماكن أخرى. ومن زعمائهم أبو الحجاج يوسف بن بخت، الذي كان رئيساً للموالي في جيان، وكذلك أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، اللذان كانا من رؤوساء الموالي في جند دمشق في البيرة[7]. وكانت حالة هؤلاء الموالي، ومكانتهم جيدة، ويمتلكون ثروة لا بأس بها، لا سيما زعمائهم المذكورين آنفاً، حيث كانت لهم أراضٍ وممتلكات، ونفوذ كبير، وهيبة قوية بين بقية المستقرين في الأندلس يضاف إلى ذلك، أنهم خالطوا كبار القادة من الشاميين والبلديين، فضلاً عن السكان المحليين، وأفراد الأسرة القوطية المالكة السابقة. وقد حصل هؤلاء القادة الثلاثة على عشرة ضياع لكل واحد منهم، منحة من أرطباس بن غيطشة، ملك القوط السابق. فاتخذ أبو عثمان مسكنه في طرش Torrox، وهي قرية

---

(6) أخبار مجموعة، ص 62.

(7) نفس المصدر، ص 66 ـ 67، 70؛ ابن عذاري (برواية الرازي) ص 2/ 42.

صغيرة، تقع بين لوشة Loja وإزناخار Iznajar، وكانت إحدى الضياع العشر التي أعطيت له من قبل أرطباس. وكذلك فقد أقام عبد الله بن خالد في الفنتين Alfontin، بالقرب من لوشة، وهي أيضاً إحدى قرى أرطباس. أما يوسف بن بخت، فقد كان يقيم في جيان[8].

اتصال عبد الرحمن بأنصاره في الأندلس:

ابتدأ عبد الرحمن اتصاله بالأندلس بأن أرسل رسالة مع مولاه بدر إلى قادة موالي بني أمية في البيرة. وقد شرح لهم في هذه الرسالة كيف أنه عانى العديد من المتاعب، وظل يجوب شمال أفريقيا مدى خمس سنوات، هرباً من مطاردات العباسيين، ووالي أفريقية، عبد الرحمن بن حبيب، الذي حاول القضاء على جميع أفراد البيت الأموي. وذكرهم في هذه الرسالة أيضاً بأنهم موالي بيته، ولذا فمن حقه عليهم أن يحموه ويساعدوه. وأخبرهم أيضاً بأنه لا يستطيع المضي إلى الأندلس خوفاً من حاكمها يوسف الفهري الذي سيعتبره عدواً منازعاً لا حق له في الولاية، مثله كمثل حاكم أفريقية. وقال لهم أخيراً إنه لن يعبر إلى الأندلس إلا إذا تلقى منهم جواباً يؤكد نجاح خطته، وإنهم مساعدوه في إعادة السلطة الأموية إلى الأندلس. وقد عبر بدر إلى الأندلس في أواخر عام 136هـ/ حزيران 754م، وقابل أبا عثمان في طرش، فأرسل الأخير إلى عبد الله بن خالد، وقررا استشارة يوسف بن بخت، زعيم الموالي في جند قنسرين[9].

وبعد الاطلاع على الرسالة ومناقشتها من قبل الزعماء الثلاثة، قرروا أن محاولة عبد الرحمن في إعادة الحكم الأموي إلى الأندلس تستحق الدعم والتشجيع، لا سيما أنها سوف تحقق لهم في حالة نجاحها مكاسب كبيرة، وتضعهم في مصاف الحاشية المقربة للأمير. يضاف إلى ذلك، إن نجاح قضية عبد الرحمن سيضمن بالتأكيد مصالح الموالي عامة، وبشكل خاص تملكهم للعديد من الضياع الممتازة، هذا فضلاً عن أن الأمير سيعهد لهم بمعظم المناصب الرفيعة في حكومته الجديدة. ومع هذا، فقد قرر زعماء الموالي التريث، والاطلاع على رأي الصميل بن حاتم في هذا الأمر. وكانوا واثقين من إمكانية الاعتماد على كتمانه للسر، وأنه حتى في حالة رفضه للأمر، فسوف لن يشي بهم عند يوسف الفهري[10]. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان أحد زعماء

---

(8) ابن القوطية، ص 21، 24، 38، 40؛ أخبار مجموعة، ص 67، 76، 80.

(9) المصدر نفسه، ص 67، ابن عذاري: 2/ 41، المقري: 3/ 29.

(10) المصدر نفسه: 3/ 30؛ أخبار مجموعة، ص 67.

الموالي، وهو عبد الله بن خالد، يشك في مساعدة الصميل في تحقيق مشروع عبد الرحمن بن معاوية، لأن أي تغيير في نظام الحكم القائم في الأندلس سيجرد الصميل من قوته ونفوذه في البلاد. ولهذا السبب فقد قرروا أنه من الأفضل إخفاء غرض عبد الرحمن الحقيقي في طلب السلطة، والاكتفاء بشرح الحالة للصميل قائلين أن عبد الرحمن لا يريد إلا الحماية والأمان، واستعادة أملاك الخمس التي تعود إلى جده هشام ابن عبد الملك(11).

موقف الصميل من قضية عبد الرحمن بن معاوية:

وكان الصميل في هذه الأثناء محاصراً في سرقسطة من قبل بعض المجموعات العربية التي قامت بالتمرد على إدارة الصميل ويوسف المشتركة، بقيادة عامر بن عمرو العبدري، والحبحاب بن رواحة الزهري. وقد ضاق الأمر على الصميل ولم يستطيع يوسف الفهري أن ينجده لضعف أمره في قرطبة، بسبب الجفاف والجوع الذي حل في البلاد حتى إنه لم يعد يستطيع الخروج والركوب إلا بنحو خمسين رجلاً من حرسه فقط. فاضطر الصميل إلى طلب النجدة من جماعته وأبناء جنده في كورتي قنسرين والبيرة. ولكي يقدم الموالي يداً للصميل، ساهموا في الحملة التي خرجت من هذين الجندين لنجدته في سرقسطة. وإن هذه المساهمة، بطبيعة الحال ستتيح لهم الفرصة لمقابلة الصميل وعرض أمر عبد الرحمن بن معاوية عليه. فساروا بثلاثين فارساً يصحبهم بدر مولى عبد الرحمن، حيث نجحت الحملة في فك الحصار عن الصميل الذي سر سروراً عظيماً بمنقذيه، وكان هؤلاء الموالي، وبدر أيضاً من جملة الذين نالوا مكافأة الصميل المجزية. وقد باح زعماء الموالي الثلاثة إلى الصميل بسرهم أثناء عودتهم إلى قرطبة، وطلبوا مشورته، قائلين بأنهم سيكونون تبعاً لرأيه، وذلك بالموافقة على أي أمر يقبل به والامتناع عما يرفضه. فلم يجبهم في أول الأمر، ووعدهم بالتفكير في المسألة، لكنه لم يلزم نفسه بأي شيء قبل أن يصل قرطبة. ورجع الموالي إلى مناطق سكناهم في البيرة وجيان، وانتظروا هناك بضعة أشهر حتى كانت لهم الفرصة لرؤية الصميل مرة أخرى. وفي أثناء ذلك الوقت عاد بدر إلى سيده في شمال افريقيا ليعلمه بنتائج رحلته إلى الأندلس(12).

---

(11) المقري، 3/ 30.

(12) ابن عذاري: 2/ 41.

أما في الأندلس، فقد انشغل واليها بالتهيؤ لإخضاع المتمردين في سرقسطة، فأمر في عام 137هـ/ 754 ـ 755م باستدعاء الجند من الكور، وأرسل في طلب كل من أبي عثمان وعبد الله بن خالد لحث موالي بني أمية على الالتحاق بالحملة المتوجهة لقتال المتمردين، ولم يكن زعيما الموالي يرغبان بمساعدة يوسف الفهري، فأخبراه بعدم إمكانية جماعتهم للمساهمة في الحملة بسبب المجاعة المستمرة في البلاد، ولأن معظم من كان لديه القدرة على المساهمة، سبق أن شارك في حملة الانقاذ التي توجهت لنجدة الصميل في سرقسطة، وهم منهكون بسبب تلك الرحلة الشتوية الشاقة. وقد قدم لهما يوسف مبلغ ألف دينار لتوزيعها على أتباعهم، لكنهما رفضا أخذ المبلغ نظراً لقلته بالنسبة إلى خمسمئة رجل من الموالي. وبعد أن غادرا الوالي، فكرا في أمر المال وإمكانية استخدامه في تسهيل قضية عبد الرحمن بن معاوية، فرجعا وأخذا الألف دينار. ثم وزعا قسماً من هذا المال على أتباعهما، دون مطالبتهم بالالتحاق بجيش يوسف، واحتفظا بالبقية لوقت الحاجة. وفي ذي الحجة 137هـ/ نيسان ـ أيار 755م عسكر يوسف الفهري في (مخاضة الفتح) بالقرب من جيان لاستكمال التجميع النهائي لجيشه، وتوزيع الأعطيات على الجنود. وعندما سأل عن الموالي، أجابه أبو عثمان بإمهالهم حتى يبلغ الأمير طليطلة ثم يلحقونه بها، وذلك بعد أن يحصدوا شيئاً من شعيرهم، لأن سنة 137هـ/ 754 ـ 755م كانت سنة رفاء. فصدقه يوسف ولم يتبادر إلى ذهنه أنه يخدعه، وسمح له بالرجوع إلى الموالي وحثهم على الاسراع والتهيؤ، وغادر هو إلى طليطلة. ولكن أبا عثمان وعبيد الله بن خالد لم يغادرا. بل بقيا لمقابلة الصميل، الذي كان ما يزال معسكراً في المنطقة. وقد طلب زعيما الموالي مقابلة الصميل على انفراد، وذكراه بأمر عبد الرحمن بن معاوية. فأجابهما الصميل: إنه لم يغفل ذلك بل فكر فيه ملياً، وكتم أمره ولم يشاور فيه قريباً ولا بعيداً، وأعلمهما أنه يرى بأن عبد الرحمن حقيق بنصره، ومستحق لهذا الأمر، وسألهما أن يكتبا له ويدعوانه للعبور إلى الأندلس. وأضاف بأن يوسف لن يستطيع التدخل، وإنه، أي الصميل، سوف يشير عليه بأن يزوج إحدى بناته من عبد الرحمن، وبهذا يصبح الأخير واحداً منهم، فإن فعل يوسف ذلك استحق الشكر والتقدير من الجميع، وإن كره، هان عليهم إقناعه بالسيف. وقد فرح الزعيمان لسماع مثل هذا الجواب الشافي، وخرجا من عند الصميل، وهما يعتقدان بأنهما قد وفقا في خطتهما[13].

---

(13) أخبار مجموعة، ص 70 ـ 72؛ فتح الأندلس، ص 48 ـ 49؛ انظر أيضاً: ابن عذاري: 2/ 43؛ المقري: 3/ 30.

وعلى الرغم من إدعاء الصميل أنه قد فكر في الأمر وتروى فيه، يبدو أنه لم يكن متأكداً تماماً من موقفه إزاء عبد الرحمن بن معاوية. فيُروى أنه حينما أعطى جوابه إلى زعيمي الموالي في ذلك الصباح، كان قد استيقظ وهو كاره ليوسف الفهري، ولم يكن يعي تماماً خطورة موافقته على دخول عبد الرحمن[14]. ولهذا فبعد أن غادره أبو عثمان وعبد الله بن خالد، فكر الصميل أكثر بالأمر ودرس نتائجه الخطيرة، وماذا سيكون من أمر القبائل العربية في الأندلس، بل ماذا سيكون من أمره هو، لأنه بالتأكيد أول من سيفقد نفوذه القوي وزعامته للبلاد. وما أن أدرك الصميل ذلك، حتى بادر بإرسال أحد خدمه ليطلب إلى الزعيمين الأمويين التوقف، وذهب إليهما بنفسه، وأخبرهما عن تغيير رأيه إزاء قضية عبد الرحمن بن معاوية. وقد أوضح لهما موقفه قائلاً: بأنه قد فكر بالأمر، وتوصل إلى أنه لا يتمكن من تأييده، لأنه، أي عبد الرحمن بن معاوية، من أسرة قوية يكفي أي فرد منها أن يطغى بنفوذه على كل زعماء الجزيرة، وبضمنهم الصميل نفسه. كما لفت انتباههما إلى أنهم ملزمون جميعاً بطاعة يوسف الفهري الذي يخضع دوماً إلى آرائهم، وينفذ مطاليبهم. واختتم الصميل حديثه معهم بالقول بأنه سيكون أول من يسل سيفه على عبد الرحمن ويحاربه ولكنه، مع ذلك، على استعداد لأعانته في أمره إن طلب غير السلطان والولاية، وإنه سيضمن له مواساة يوسف وإكرامه له وتزويجه من ابنته[15].

الاتصال بزعماء القبائل اليمنية ونجاح دعوة عبد الرحمن:

بعد أن فقد زعيما الموالي الأمل في مساعدة الصميل، وبالتالي مساعدة جندي قنسرين ودمشق، لم يكن أمامهما سوى الاتصال بجماعة اليمنيين الذين كانوا يضمون الكثير من البلديين الأوائل، ومعظم رجال الأجناد في حمص والأردن وفلسطين. ومن هنا ففي طريق عودتهما إلى بلدهما، فاتحا كل من يوثق به من الزعماء اليمنيين، ودعوهما إلى تأييد مشروعهما بتحويل الحكم في الأندلس إلى عبد الرحمن بن معاوية. وقد نجحا في ذلك نجاحاً كبيراً، وكانت استجابة اليمنيين مشجعة جداً. ويعود السبب في ذلك إلى أن اليمنيين كانوا منذ هزيمتهم في شقندة يتحينون الفرصة للانتصاف لأنفسهم من الصميل ويوسف. يضاف إلى ذلك، امتعاضهم من إدارة الصميل ويوسف

(14) أخبار مجموعة، ص 71؛ فتح الأندلس، ص 48.

(15) أخبار مجموعة، ص 74؛ انظر أيضاً: ابن القوطية، ص 23 ـ 24.

المشتركة التي استهدفت تجريدهم من بعض ممتلكاتهم لصالح مؤيدي الصميل من جندي قنسرين ودمشق. ولقد كان هؤلاء اليمنيون، بالإضافة إلى الكثير من جماعات البلديين الأوائل، والبربر، وحتى بعض الأفراد القيسيين من جندي دمشق وقنسرين، الذين نفروا أيضاً من سياسة الصميل، يفضلون أي تغيير سياسي في البلاد، فسارعوا بالانضمام إلى تأييد دخول عبد الرحمن إلى الأندلس[16].

استغل موالي بني أمية نجاح الدعوة لعبد الرحمن، فعجلوا في العمل على وصوله إلى الأندلس وبخاصة أن يوسف والصميل كانا مشغولين في حملتهما على المتمردين في سرقسطة. فابتاعوا قارباً، وأرسلوا خمسمئة دينار مع وفد يتألف من أحد عشر عضواً، يرافقهم بدر الذين كان قد رجع من شمال أفريقيا. وكان هذا الوفد برئاسة تمام بن علقمة الثقفي، ويتألف في معظمه من الموالي. وكان على تمام أن ينفق المال على الأمير عبد الرحمن، ويوزع منه على مضيفه من بربر مغيلة الذين كان يعيش عند شيخهم أبو قرة المغيلي. ومن الجدير بالذكر أن هذه الخمسمئة دينار كانت من بقية المبلغ الذي أخذه الموالي من يوسف الفهري لكي يرافقوه في زحفه على سرقسطة، وقد شاءت الأقدار أن يستعمل هذا المال في نصرة زعيم آخر ينازع يوسف إمارة الأندلس. وعند وصول الوفد إلى شمال أفريقيا، قدّمهم بدر إلى سيده عبد الرحمن، وأخبره عن نجاحهم في الأندلس. وبعد أن تم استرضاء بربر مغيلة، أبحر الأمير عبد الرحمن إلى الشاطئ الاسباني، فنزل في ميناء المُنَكّب Almunecar، وهو ميناء صغير يقع بين مدينة المرية ومالقة، في ربيع الثاني 138هـ/ أيلول 755م. وقد استقبله كل من عبد الله بن خالد، وأبي عثمان، اللذان أخذاه أولاً إلى منزل ابن خالد في الفنتين، ومن ثم إلى مسكن ابن عثمان في قرية طُرش[17].

دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس:

أحدث وصول عبد الرحمن إلى الأندلس حركة نشيطة بين صفوف أنصاره من الموالي وغيرهم من اليمنيين. فجاءه إلى مقره في طُرش أبو الحجاج يوسف بن بخت، وجاءته الأموية كلها، كما وفد عليه كل من جدار بن عمرو المذحجي من أهل رية، وعاصم بن مسلم الثقفي، وأبو عبدة حسان، وغيرهم. وأخذ معسكر عبد الرحمن يزداد

(16) قارن: أخبار مجموعة، ص 74 ـ 82؛ ابن عذاري: 2/ 44؛ المقري: 3/ 31.

(17) انظر: ابن القوطية، ص 24؛ أخبار مجموعة، ص 74 ـ 76؛ ابن عذاري: 2/ 44.

بالمؤيدين والأنصار من كل مكان. وعندما علم يوسف الفهري بوصول عبد الرحمن، كتب إلى عامله على البيرة، يأمره بالقبض على الداخل، ولكن عامل البيرة أجاب أنه من الصعب تنفيذ هذا الأمر، نظراً لأن عبد الرحمن كان محمياً من قبل مواليه وعدد كبير آخر من المؤيدين. وقد علم موالي بني أمية بهذه المراسلات، فأخفوا عبد الرحمن في المناطق الجبلية المجاورة. وفي الوقت نفسه حاولوا تضليل يوسف الفهري، فكتبوا إليه بأن عبد الرحمن لم يعبر إلى الأندلس طمعاً بالملك والولاية، كما يظن الأمير يوسف، بل جاء يطلب الثراء والأمان بين مواليه. وفي رواية أخرى أن عامل البيرة هاجم فعلاً عبد الرحمن وحماته، لكنه هُزم ولم يتمكن من إلقاء القبض عليه. وقد أعلم يوسف بهذا،وبكل الموقف المتعلق بنزول عبد الرحمن إلى الأندلس، من قبل رسول أرسلته زوجته أم عثمان من قرطبة. وقد وصل هذا الرسول إلى يوسف حينما كان عائداً بجيشه من سرقسطة، بعد أن قضى على التمرد وأعدم قادته هناك. وقد نصح الصميل يوسف بوجوب التوجه فوراً لملاقاة عبد الرحمن. وكان يوسف يرغب فعلاً في هذا، ولكن هذه الأنباء انتشرت بسرعة بين صفوف الجيش، وسببت قلقاً عظيماً في المعسكر. لا سيما وأن الكثيرين من أتباع يوسف كانوا متعبين من أثر حملة كانوا قد قاموا بها على بلاد البشكنس أو الباسك، كما كان البعض منهم ساخطين على يوسف والصميل لقتلهما الزعماء القرشيين المتمردين في سرقسطة. ومن هنا، فقد رفض جنود يوسف الشروع في حملة جديدة، وغادروا معسكره، ولم يبق معه من أجناد اليمن سوى عشرة رجال. أما بقية الجيش الذي يضم الشاميين في جندي جيان والبيرة، فقد ظلوا لكنهم كانوا قد ملوا السفر، ولهذا حاولوا تهوين الأمر على يوسف وإقناعه بالمضي إلى قرطبة أولاً. لكن الصميل أصر على رأيه الأول في مهاجمة عبد الرحمن بأسرع ما يمكن. فتوجه الجيش لهذا الغرض، ولكن حلول الشتاء وهطول الأمطار وفيضان الأنهار، جعل من المتعذر الاستمرار بالحملة، لذلك أمر يوسف جنده بالرجوع إلى قرطبة[18].

ويذكر أن الذي شجع يوسف على العودة إلى قرطبة ما ترامى إلى سمعه من أن عبد الرحمن لم يدخل طمعاً بالإمارة، بل لالتماس العيش بها، ومن هنا فمن الممكن أن تنفع المفاوضة معه بدلاً من القتال. فأرسل إليه وفداً يضم ثلاثة أعضاء، ويحمل هدايا نفيسة تتضمن ملابس وخدماً وحيوانات للركوب وألف دينار. وكانت لدى الوفد تعليمات بعرض الثروة والزواج من إحدى بنات يوسف على عبد الرحمن، فيما إذا كف

(18) انظر: أخبار مجموعة، ص 77 ـ 79.

عن المطالبة بإمارة الأندلس. وهناك إشارة إلى أن الوفد عرض على عبد الرحمن أيضاً ولاية منطقتين، هما جند دمشق في البيرة، وجند الأردن في رية[19]. وقد سار الرسل نحو طُرش، ولكنهم ما إن وصلوا إلى أُرش Orch في أدنى كورة رية، حتى تركوا أحدهم مع الهدايا، حيث كان عليه أن يرجع بها إلى قرطبة في حالة عدم التوصل إلى اتفاق مع عبد الرحمن. وكان الوفد يحمل تعليمات بعرض الصلح والمصاهرة والسلم على عبد الرحمن، وقد مال بعض مؤيديه إلى قبول ذلك، فطلب الأمير من أبي عثمان أن يجيب على رسالة يوسف بالقبول. ويبدو أن أبا عثمان لم يكن راضياً عن نتائج المفاوضات، ولهذا فقد افتعل خصاماً مع أحد الرسل بشأن الرد على الرسالة، وألقى القبض عليه. ثم ذكر الموالي الأمويون لعبد الرحمن أن هذا الحادث هو فاتحة خير ونصر لهم جميعاً على يوسف الفهري. ثم أطلقوا سراح الرسول الثاني، وحاولوا الاستيلاء على الهدايا المخلفة مع الرسول الثالث في أرش، لكن الأخير، وقد علم بنبأ الخصام، نجح بالفرار إلى قرطبة[20].

تنظيم أنصار عبد الرحمن وبدء الصراع مع يوسف الفهري:

لقد كان زعماء موالي بني أمية يعرفون موقف الصميل الدقيق من الأمر، ولا يعتقدون أبداً بإمكانية التوصل إلى حل وسط بين الطرفين. ومن هنا فقد شرعوا فور وصول عبد الرحمن إلى الأندلس بالقيام بسلسلة من الاتصالات مع مختلف الجماعات في المناطق المجاورة. فتوجه يوسف بن بخت إلى كورة رية حيث ضمن تأييد جند الأردن. وكذلك سار عبد الله بن خالد إلى جند فلسطين في شذونة. أما أبو عثمان فقد بقي في طُرش ليهتم بأمر عبد الرحمن، وينظم أولئك الذين جاؤوا لنصرته. ولقد كانت ردود فعل الجندين المذكورين آنفاً مشجعة جداً، أما جندا قنسرين ودمشق، فقد وقفا إلى جانب يوسف والصميل، باستثناء بعض أفرادهما الذين انضموا إلى عبد الرحمن. وقد قرر موالي بني أمية وعبد الرحمن مغادرة كورة البيرة لعدم توفر مؤيدين كثيرين في هذه الكورة. وكانت خطتهم السير إلى الأجناد التي تضم أهل اليمن في رية وشذونة وإشبيلية، أي أجناد الأردن وفلسطين وحمص. فساروا بستمئة فارس إلى كورة رية. وقد أيد قائد جند الأردن، جدار بن عمرو، عبد الرحمن، وطلب من خطيب جامع

---

(19) ابن عذاري: 2/ 45؛ فتح الأندلس، ص 52.

(20) أخبار مجموعة، ص 80 ـ 82.

أرْشُذُونَة Archidona، قاعدة كورة رية، أن يخلع يوسف الفهري ويخطب لعبد الرحمن بن معاوية، وذلك في اليوم الأول لعيد الفطر (سنة 138هـ/ 8 آذار 706م) الذي صادف دخول الأمير إلى هذه المدينة، فكانت هذه أول خطبة باسم عبد الرحمن على منابر الأندلس. وقد أيد كل أهالي أرشذونة هذا القرار وأقسموا يمين الولاء للأمير الجديد[21]. وأقام عبد الرحمن ومواليه نحو عشرين يوماً في رية، أرسلوا خلالها مبعوثاً إلى عبد الرحمن بن عوسجة، زعيم البربر في منطقة تاكُرنا (إقليم رندة الحالية). وقد وافق الأخير على تأييد عبد الرحمن، وقدم أربعمئة فارس بربري من موالي الأمويين من بني الخليع في تاكُرنا فالتحقوا بقوات عبد الرحمن. وكان هؤلاء الموالي من موالي يزيد ابن عبد الملك، فأصبحوا في ولاء عبد الرحمن. إن هذه الجماعة من البربر، والجماعات البربرية الأخرى التي أيدت قضية عبد الرحمن بن معاوية، كانوا جميعاً يعملون بالتنسيق مع اليمنيين، لأنهم اعتقدوا بأن التعاون مع العشائر اليمنية المعتدلة من أجل تغيير النظام في الأندلس سوف يعمل بالتأكيد على تحسين الوضع لصالحهم. فقد تأثرت ممتلكات البربر وحيازتهم للأرض، كما هو الحال بالنسبة لليمنيين أيضاً، بإجراءات الصميل وسيطرته المطلقة على البلاد. ولكن من الناحية الأخرى، ساندت جماعات أخرى من البربر يوسف والصميل. وكان هؤلاء، بطبيعة الحال، حلفاءهم المنتفعين الذين فضلوا ـ مثلهم في هذا مثل الشاميين في جندي جيان والبيرة ـ استمرار الوضع القائم[22].

وصل عدد مؤيدي عبد الرحمن إلى نحو ألفي فارس حينما غادر رية إلى شذونة. وفي هذه الكورة الأخيرة انضم إليه عدد كبير من البربر من قبيلة مغيلة، وهم من بني الراس. وقد رحب قادة جند فلسطين، الذين كانوا مستقرين بهذه الكورة، بعبد الرحمن وأيدوه. ومن شذونة أرسل الموالي إلى جند حمص في إشبيلية، وإلى بقية المستقرين في غرب البلاد، يخبرونهم بمسيرتهم إليهم. وبعد أن جاء رد هؤلاء بالموافقة، توجه عبد الرحمن ومواليه وأنصاره إلى إشبيلية. وقد مروا في طريقهم بمورور، التي كانت مقراً للعديد من البربر الذين دخلوا مع زعيمهم، إبراهيم بن شجرة البرنسي، في طاعة عبد الرحمن. وعندما وصل الأمير الأموي إلى إشبيلية، رُحب به من قبل اليمنيين الشاميين والبلديين على حد سواء. وقد استقبله سادة هذه المنطقة، وعلى رأسهم أبو

(21) ابن القوطية، ص 25.

(22) قارن: عبد الواحد طه، الفتح والاستقرار، ص 426.

الصباح يحيى اليحصبي، وحيوة بن ملامس الحضرمي، حيث أقسموا له يمين الطاعة والولاء[23]. ولقد ازدادت قوات عبد الرحمن بمن انضم إليه من اليمنيين والبربر، فأصبحت تتألف من نحو ثلاثة آلاف فارس وعدد كبير من المشاة. وفي هذه الأثناء أراد يوسف والصميل أن يهاجما عبد الرحمن وهو في جند حمص، فسارا بمؤيديهما من جندي قنسرين والبيرة. ولكن ما إن سمع عبد الرحمن بهذا حتى غادر إشبيلية متوجهاً إلى قرطبة بغية الاستيلاء عليها بشكل مفاجئ. ولما أدرك يوسف والصميل، اللذان كانا يسيران بمحاذاة الجانب الآخر لنهر الوادي الكبير، غرض عبد الرحمن، شرعا بالعودة فوراً إلى قرطبة. وهكذا تقابل الجيشان وجهاً لوجه لا يفصلهما سوى نهر الوادي الكبير. كان للأجناد الثلاثة المرافقة لعبد الرحمن، أي الأردن وفلسطين وحمص، ألويتها الخاصة، بينما لم يكن للأمير الأموي علم خاص، لهذا فقد بادر أبو الصباح اليحصبي وعقد له لواء بسيطاً يتألف من عمامة مثبتة على رمح. وحدث هذا في إقليم طشانة Tocina في كورة إشبيلية، بالقرب من بلدة نوبة البحريين، التي كان يسكنها بنو بحر الذين ينتمون إلى قبيلة لخم[24].

معركة المصارة ودخول عبد الرحمن قرطبة:

كانت مياه نهر الوادي الكبير في أقصى ارتفاعها في ذلك الوقت، ولهذا فقد كان من المستحيل على الجيشين عبور النهر. ولكن عبد الرحمن كان متلهفاً لدخول قرطبة ليحصل على تأييد موالي بني أمية الموجودين في المدينة، لذلك عمد إلى إيقاد النار في معسكره ليوهم يوسف أنه مقيم، ثم حاول تحت جنح الظلام أن يسير ويسبق يوسف إلى قرطبة. وكادت خطته أن تنجح لولا تنبه يوسف وصاحبه الصميل لرحيله المفاجئ، فأسرعا عائدين لإنقاذ المدينة. فابتدأ السباق بين الجيشين للوصول إلى قرطبة؛ فكلما سار عبد الرحمن سار يوسف، وكلما عسكر أحد الجيشين، عسكر الآخر في الجهة المقابلة من النهر. وأخيراً توقف جيش يوسف عند المصارة Almazara بالقرب من قرطبة مواجهاً لمنافسه عبد الرحمن الذي فشل في دخول المدينة. وقد أدى هذا الفشل إلى استياء في جيش عبد الرحمن، وبشكل خاص بين الرعاع من هؤلاء، الذين كانوا يأملون في دخول العاصمة والتمتع بخيراتها تعويضاً عما لاقوه من صعوبات وقلة في

(23) ابن القوطية، ص 21 ـ 22، 25؛ أخبار مجموعة، ص 83 ـ 84؛ فتح الأندلس، ص 53.
(24) ابن القوطية، ص 26؛ وانظر أيضاً: أخبار مجموعة، ص 84؛ فتح الأندلس، ص 54.

الطعام أثناء المسير، حيث أنهم لم يجدوا في طريقهم سوى بعض النباتات التي كانت تنمو في فصل الربيع على الطريق بين إشبيلية وقرطبة[25].

انتظر الفريقان ثلاثة أيام حتى ينخفض مستوى ماء النهر - من يوم الاثنين السادس من ذي الحجة إلى الخميس التاسع منه عام 138هـ/ الحادي عشر إلى الرابع عشر من أيار 765م. وفي هذه المدة كان عبد الرحمن يركز انتباهه على أمرين: الأول، هو إنهاء الترتيبات الخاصة بتنظيم قواته وتعيين القادة على الفرق العسكرية المختلفة التي يتألف منها جيشه، والأمر الآخر هو مشكلة عبور النهر دون التعرض إلى خطر الهجوم من قبل الجيش المعادي في الطرف الآخر. فعين عبد الرحمن بن نعيم الكلبي على الخيالة من أهل الشام، وبلوهة اللخمي على المشاة من اليمنيين. وأقام على مشاة بني أمية والبربر عاصم بن مسلم الثقفي، الذي بلغ من حماسه للقتال أن خلع سراويله للعبور والخوض في النهر؛ فسمي لذلك بالعريان. وجعل على خيل بني أمية حبيب بن عبد الملك القرشي، كما أعطى قيادة فرسان البربر إلى إبراهيم بن شجرة البرنسي، وأخيراً عهد بلواء الجيش كله إلى أحد زعماء الموالي، وهو أبو عثمان عبيد الله بن عثمان.

وبالنسبة للمشكلة الثانية، فقد شرع عبد الرحمن في الاتصال بيوسف الفهري وإجراء مفاوضات تمويهية معه بشأن التوصل إلى حل سلمي بين الطرفين. فأرسل عبد الرحمن وفداً إلى يوسف ينبئه بقبول شروطه السابقة، ورجاه ألاّ يعارض في عبوره هو وجنده إلى الجانب الآخر من النهر ليكون الطرفان جنباً إلى جنب تسهيلاً للمفاوضات. وقد جازت هذه الحيلة على يوسف، فلم يعترض على عبور جيش عبد الرحمن، بل بادر أيضاً بإرسال الغنم والبقر إليهم لإطعامهم. وهكذا قضى جنود الجيشين ليلتهم لا يشكّون بتمام الصلح بين الطرفين. ولكن مفاوضات عبد الرحمن مع يوسف لم تكن سوى وسيلة لتمكينه من العبور بسلام. وما أن تحقق له هذا الهدف، حتى هاجم في صباح اليوم التالي الباكر (الجمعة العاشر من ذي الحجة 138هـ/ الخامس عشر من أيار 756م) جيش يوسف على حين غرة، واضطره للقتال دون استعداد وتنظيم كاملين. فتولى أمر المشاة على الفور ثلاثة من القادة، وهم كنانة بن كنانة، وجوشن بن الصميل، وعبد الله بن يوسف الفهري. أما خيالة أهل الشام فأعطيت قيادتها إلى علي بن عبيد الكلابي، وقد تزعم أحد موالي يوسف، واسمه خالد سَوْدي، قيادة موالي يوسف وحلفائه من البربر[26].

---

(25) انظر: أخبار مجموعة، ص 86.

(26) المصدر نفسه، ص 88.

نشب القتال بالقرب من المصارة، وكانت المعركة قصيرة التحم فيها فرسان عبد الرحمن بالقلب والجناح الأيمن لقوات يوسف وهزموها. ومن هنا فقد فر من أرض المعركة خالد سودي وأتباعه من البربر والموالي، وقتل قادة المشاة الثلاثة المذكورين أعلاه. وقد حاول قائد الجناح الأيسر، عبيد بن علي الكلابي، أن يتدارك الموقف، لكنه لم يتمكن من الصمود أمام فرسان عبد الرحمن فقتل هو أيضاً مع الكثير من رجاله. ولم يكن أمام الصميل بن حاتم الكلابي سوى الهرب إلى جنده في جيان. أما يوسف الفهري، فقد فر هو الآخر من المعركة، وأراد الدخول إلى قرطبة، لكن منعه أحد قادة البربر فاضطر إلى الالتجاء إلى طليطلة أو البيرة[27].

بعد الانتصار دخل عبد الرحمن إلى قرطبة، ثم أدى صلاة الجمعة في مسجدها الجامع، حيث بايعه أهلها على الطاعة. وقد استغلت بعض العناصر في جيشه هذه الفرصة، وملكها الجشع فشرعت في نهب المدينة، وبشكل خاص، أماكن سكن يوسف الفهري والصميل وممتلكاتهما. هاجم اثنان من عشيرة طيء اليمنية مقر إقامة الصميل في شقندة، على مقربة من قرطبة، ونهباه، وأخذا من جملة الأشياء الثمينة صندوقاً يحوي عشرة آلاف دينار. وعندما علم عبد الرحمن بأعمال السلب والنهب التي جرت في المدينة، أمر بالكف عنها، وإعادة ما أخذ من الأموال إلى أصحابها. ولكن هذا الموقف لم يحظ بتأييد كل أنصار عبد الرحمن، وقد غضب اليمنيون واتهموه بالتعصب إلى قبيلته قريش. أما القادة العقلاء، فقد أخفوا عدم موافقتهم وقبلوا بموقفه، على الرغم من خيبة أملهم فيه. ويعود السبب في هذا إلى أن غرض اليمنيين الأول من تأييد عبد الرحمن كان التخلص من يوسف والصميل، والحصول على المزيد من المصالح والممتلكات نتيجة لتغيير النظام. ولكن موقف عبد الرحمن أثبت خطأ تقديراتهم. ومن هنا فقد أراد بعض قادتهم القيام بعمل سريع ضده والانقلاب عليه وعلى مواليه الأمويين، ليتمكنوا من الاستئثار بالأندلس وحدهم. وكان أبو الصباح اليحصبي، زعيم غرب الأندلس، من أهم القادة اليمنيين الداعين إلى هذا الأمر. ومع ذلك، فقد أُفشيت المؤامرة بسرعة إلى عبد الرحمن، فاتخذ إجراءات فورية لحماية نفسه ودولته الجديدة، فأنشأ شرطة، وعين عليها عبد الرحمن بن نعيم الكلبي، الذي كان ينتمي إلى قضاعة التي ظلت على ولائها له. وهذا أول منصب رسمي يتم إنشاؤه في عهد الأمير عبد الرحمن[28]. واختار أيضاً

(27) انظر: ابن القوطية، ص 29؛ أخبار مجموعة، ص 91؛ ابن عذاري؛ 2/ 47.

(28) انظر: ابن القوطية، ص 30؛ أخبار مجموعة، ص 90؛ قارن: فجر الأندلس، ص 685.

حرسه الخاص من مواليه، كما أحاط نفسه بموالي الأمويين في قرطبة.

نهاية عصر الولاية وقيام الإمارة الأموية في الأندلس:

قامت الدولة الأموية في الأندلس على أثر انتصار عبد الرحمن بن معاوية في معركة المصارة ودخوله قرطبة في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة 138هـ/ 14 أيار 756م. وعلى الرغم من هذا الانتصار، لم يتمكن الأمير الأموي أن يسيطر أول الأمر على الأندلس كلها. فلقد كان ليوسف والصميل الكثير من المؤيدين، مما شجعهما على محاولة استعادة سلطانهما السابق. وقد جاءت إلى يوسف عندما كان في طريقه إلى طليطلة نجدة من الشمال الشرقي، بقيادة ابنه عبد الرحمن، تقدر بخمسمئة فارس. وفي طليطلة نال يوسف تأييد حاكمها الفهري، هشام بن عروة، الذي قدم له تعزيزات كثيرة. وقد قاد يوسف هذه القوات إلى جيان حيث كان الصميل يستنفر أتباعه هناك. فالتقيا، واستوليا على جيان، وطردا منها العامل الذي عينه عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية. ثم سارا إلى البيرة، وأجبرا عاملها أيضاً على الفرار إلى المناطق الجبلية المجاورة.

وبوصول هذه الأنباء إلى عبد الرحمن، وجد أنه لا مفر له من السير إليهما قبل أن يستفحل خطرهما على الوضع الجديد. وقد استخلف أبا عثمان على قرطبة، وترك معه بعض الموالي وسكان أهل المدينة من اليمنيين. ولكن ما إن علم يوسف بغياب عبد الرحمن عن قرطبة، حتى أوعز إلى ابنه أبي زيد، الذي كان في ماردة، بمفاجأة قرطبة واحتلالها. ونجح هذا الأخير في مهمته، لكنه لم يتمكن من البقاء فيها، وغادرها فور سماعه برجوع الأمير عبد الرحمن إليها، مكتفياً بأخذ أبي عثمان أسيراً معه. وقد أعاد عبد الرحمن تنظيم المدينة، وعهد بحراستها إلى رجل موثوق، هو عامر بن علي، جد بني فهر الرصافيين. ثم مضى لاستكمال حملته نحو البيرة، وعندما وصل هناك، وجد أن يوسف والصميل مستعدان للمفاوضات. ويبدو أنهما أحسا بعدم قدرتهما على الاستمرار في المقاومة، ففضلا الصلح مع عبد الرحمن. وتم التوصل إلى عقد اتفاق بين الطرفين في سنة 140هـ/ 757م، اعترف بموجبه كل من يوسف والصميل بعبد الرحمن بن معاوية أميراً على الأندلس، مقابل احتفاظهما بكل أموالهما وأملاكهما، وإعلان العفو العام عن جميع أنصارهما. وقد رضي عبد الرحمن بهذه الشروط، ووافق يوسف على أن يستودعه ابنيه، أبا زيد عبد الرحمن، وأبا الأسود محمداً، ليبقيا رهينتين حتى تهدأ الأمور، ويسود السلام. كما تبادلا الأسرى، فأطلق عبد الرحمن سراح خالد بن زيد، الرسول الذي سجن على أثر فشل المفاوضات في طُرش، مقابل إطلاق

سراح أبي عثمان، الذي أسر في الهجوم على قرطبة[29]. ثم عاد الجميع إلى العاصمة، وسارت الأمور على خير ما يرام لفترة من الزمن، وعامل عبد الرحمن الجميع بلطف وكرم. وقد حاول بعض أعداء الوالي السابق مطالبته بحقوق لهم عنده أثناء ولايته، وادعوا أنه قد استولى هو والصميل على أراضيهم وممتلكاتهم، وطالبوا بمقاضاتهما أمام القاضي يزيد بن يحيى التجيبي. وكان هؤلاء يحسبون أن القاضي سيتحيز ضدهما، ولكنه تمالك نفسه، ولم يقض في أمرهما إلا بالحق، وأظهر براءتهما، فظلا مشمولين برعاية وإكرام الأمير[30].

ولكن الأمور لم تستمر على هذا المنوال، لأن الوضع الجديد في قرطبة لم يحظ بتأييد الكثير من الأسر القرشية من بني فهر وبني هاشم، الذين كانوا يتولون في العهد السابق أرفع المناصب في البلاد. وقد تحولت هذه المناصب الرئيسة إلى موالي الأمير، وأقربائه الذين جاءوا من المشرق، مثل عبد الملك بن عمر بن مروان، المعروف بالمرواني، وابنه عبد الله، وجزيء بن عبد العزيز بن مروان. ومن هنا، فقد بدأت الجماعات المتضررة بتحريض يوسف الفهري على الأمير الجديد. وقد أذعن يوسف لضغطهم، وحاول أن يستميل الصميل والأجناد الشاميين، لكنه فشل في حملهم على الاشتراك معه في التمرد على النظام الجديد. وعلى الرغم من هذا، فقد فر يوسف من قرطبة واستطاع أن يغري بعض البلديين والبربر في لقنت وماردة وطليطلة، فثاروا في هذه النواحي سنة 141هـ/ 758م. وقد حاول يوسف أن يستولي على مدينة إشبيلية التي كانت تحكم من قبل ابن عم الأمير عبد الرحمن، عبد الملك المرواني. ولكنه ما أن سمع بقدوم جيش عبد الرحمن إليه، حتى رفع الحصار عن إشبيلية، ومضى للقاء عبد الرحمن. وقد لاحق المرواني، وابنه عبد الله، حاكم مورور، يوسف، الذي خشي أن يقع بين كل من جيش عبد الرحمن، وجيش المرواني وابنه، فهاجم الجيش الأخير، وأسفرت المعركة عن هرب رجال يوسف، وفراره هو أيضاً إلى طليطلة. ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى هذه المدينة والالتجاء إلى قريبه هشام بن عروة الذي كان عاملاً عليها. فقد استطاع أحد أبناء الأنصار، ويدعى عبد الله بن عمر الأنصاري، أن يتعرف عليه ويقتله على الطريق على بعد ستة كيلو مترات من طليطلة. ثم أقبل عبد الله الأنصاري برأس يوسف على الأمير عبد الرحمن، فأمر بقتل أبي زيد بن يوسف، وأبقى الابن الآخر في السجن لصغر سنه. ولما كان أحد أبناء الصميل مشتركاً في هذه المؤامرة، فإن عبد الرحمن لم يكن ليصدّق بأن

---

(29) أخبار مجموعة، ص 93 ـ 94.

(30) المصدر نفسه، ص 94 ـ 95.

الصميل كان لا يعلم بخطة يوسف في التمرد، وأن الأخير قام بهذا العمل من تلقاء نفسه. ومن هنا، فقد اتهم الصميل بهذا التدبير، وبالتستر على هرب يوسف، وألقى عليه القبض وسجنه في قرطبة. وبعد مقتل يوسف وابنه، قتل الصميل في سجنه مخنوقاً بتدبير من عبد الرحمن الداخل[31]. وهكذا صفا الجو لعبد الرحمن، وانتهى على يديه العصر الأول للعرب في الأندلس، وهو عصر الولاة، وأصبح الحاكم الشرعي للبلاد، مؤسساً بذلك إمارة أموية مستقلة حكمت الأندلس نحو ثلاثة قرون.

---

(31) انظر: المصدر نفسه، ص 100 ـ 101، فتح الأندلس، ص 61؛ ابن عذاري: 2/ 49؛ المقري: 3/ 35 ـ 36.

الفصل الثاني

أعمال الأمراء الأمويين في تثبيت السلطة والاستقرار

ابتدأ عهد الإمارة في الأندلس بانتصار عبد الرحمن بن معاوية في معركة المصارة، ولم تعد الأندلس تتبع الخلافة الإسلامية في المشرق كما كانت في عهد الولاة. بل أصبحت إمارة مستقلة سياسياً حكمها عبد الرحمن وذريته من بعده. وكان كل واحد من حكامها يسمى أميراً. أما عبد الرحمن، فقد لقب بـ(الداخل)، لأنه أول من دخل الأندلس وحكمها من بني أمية. كما يعرف أيضاً باسم عبد الرحمن الأول، تمييزاً له عن أميرين آخرين حكما الأندلس باسم عبد الرحمن، وهما عبد الرحمن الثاني أو الأوسط، وعبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله. أما من الناحية الروحية، فقد استمر عبد الرحمن الأول لفترة قصيرة من الزمن بالخطبة والدعاء للعباسيين في المشرق، لكنه لم يلبث أن قطع الدعاء لهم، بعد أن أشار عليه عبد الملك بن عمر المرواني بذلك. وذكره بسوء صنيع العباسيين ببني أمية. ويذكر المقري أن عبد الرحمن تردد أول الأمر، لكنه قطع الدعاء حين هدده المرواني المذكور بالانتحار إذا لم يقطع الخطبة للخليفة أبو جعفر المنصور، فقطعها عبد الرحمن بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر[1].

ولكن عبد الرحمن وإن كان قد قطع الخطبة للعباسيين، إلا أنه لم يلقب نفسه خليفة، واكتفى بأن أضاف إلى اسمه لقب (ابن الخلائف). ويعود السبب في عدم تلقبه بلقب خليفة، لأنه وخلفاءه كانوا يشعرون بأن الخلافة الإسلامية واحدة لا تتعدد، وأن الخليفة الشرعي للمسلمين، الملقب بأمير المؤمنين، لا يكون إلا لمن يملك الحجاز والشام والعراق، والمواطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة، وأهل الملة والفتح[2]. ويضيف

---

(1) المقري: 3/ 59؛ وانظر أيضاً: ابن حزم، نقط العروس، تحقيق: د. شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة)، المجلد 13، العدد 2، (1951)، ص 75؛ الحلة السيراء؛ 1/ 35؛ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 102.

(2) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 228؛ وقارن: =

بعض المؤرخين إلى اسم عبد الرحمن لقب إمام[3]، وهو أيضاً لقب ديني، لكن يبدو أنه لم يكن لقباً رسمياً يستعمل بالمفهوم الذي يعنيه لقب الخليفة. واستمر خلفاء عبد الرحمن الأول على هذا الحال حتى مجيء عبد الرحمن الثالث، الذي أعلن الخلافة الأموية في الأندلس، وتلقب بلقب أمير المؤمنين سنة 316هـ/ 929م، كما سنرى فيما بعد.

وقد نقل عبد الرحمن الأول صيغة الحكم الوراثي إلى الأندلس، وذلك بنقل السلطة إلى أولاده وأحفاده من بعده. وقد صاحب هذه العملية بعض المشاكل، لكنها لم تكن تضاهي ما كان يحصل في المشرق الإسلامي، أمور خطيرة نجمت عن اتخاذ هذا النظام. ويبدو أن عبد الرحمن الأول قد فشل في إيجاد نظام بديل لولاية العهد وتوفي سنة 172هـ/ 788م دون أن يتوصل إلى قرار حاسم لهذا الأمر. وتشير الروايات إلى أنه تردد في إسناد ولاية العهد إلى ابنه الأكبر سليمان الذي ولد في الشام، ثم لحق بأبيه إلى الأندلس وأصبح أخيراً حاكماً على مدينة طليطلة، أو إلى ابنه الآخر هشام المولود في الأندلس من جارية اسبانية، وتولى شؤون مدينة ماردة. ويزعم بعض المؤرخين أن عبد الرحمن طلب من ابنه الثالث عبد الله المعروف بالبلنسي، أن يسلم الإمارة، في حالة وفاته، إلى من يسبق من الأخوين في الدخول إلى قرطبة، قائلاً: «فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه، وعفافه، واجتماع الكلمة عليه؛ وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنه، ونجدته، وحب الشاميين له»[4]. فقدم هشام قبل سليمان، فنال الإمارة ودخل القصر. ولا يعقل، بطبيعة الحال، أن يترك عبد الرحمن ولاية العهد بهذا الشكل، وهو رجل الدولة القوي الذي أقام أركان الدولة الأموية بالأندلس ولا بد أنه عين الأمير هشام لهذا المنصب قبل وفاته. ولكن سليمان لم يعترف بهذا الأمر، فثار في طليطلة، وقامت الحرب بين الأخوين، وانضم الأخ الثالث عبد الله البلنسي إلى سليمان. وقد انتهت الأزمة بهزيمة سليمان وعبد الله، ونفيهما إلى المغرب. وقد تجددت المشكلة حين وفاة هشام سنة 180هـ/ 796م، وتولي ابنه الحكم الأول، فرجع عماه سليمان وعبد الله، وثارا مرة ثانية مطالبين بالإمارة. وانتهت ثورتهما هذه المرة أيضاً بالفشل وبمقتل سليمان سنة 184هـ/ 800م. أما عبد الله، فقد اضطر إلى عقد الصلح مع ابن أخيه الحكم الذي عفا عنه وحدد إقامته في مدينة بلنسية، ومن هنا صار يعرف بالبلنسي[5].

= العبادي، المرجع.، ص 103.

(3) العذري، ص 11؛ ابن عذاري: 2/ 54.

(4) ابن عذاري: 2/ 61؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، القسم الخاص باسبانيا، بيروت، 1956، ص 11.

(5) انظر ابن عذاري: 2/ 62 ـ 63، 70 ـ 71.

وقد استمر نظام ولاية العهد في الأندلس في عهد الإمارة بعد ذلك يسير دون مشاكل، فعهد الحكم بن هشام إلى ابنه عبد الرحمن بولاية العهد، فانتقلت إليه الإمارة دون ضجة أو معارضة. ثم تولى بعد عبد الرحمن الثاني أو الأوسط ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن الذي انتقلت الإمارة إلى اثنين من أبنائه، وهما المنذر بن محمد الذي حكم سنتين تقريباً، وعبد الله بن محمد الذي حكم نحو خمس وعشرين عاماً. وعهد الأمير عبد الله بالحكم من بعده إلى أحد أحفاده، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، الذي حكم نحو نصف قرن، وفي عهده أعلنت الخلافة، وابتدأ عهد جديد من عهود العرب في الأندلس، وفيما يأتي ثبت بأسماء الأمراء الأمويين في الأندلس:

1 ـ عبد الرحمن الأول (الداخل)
138 ـ 172 هـ/ 755 ـ 788م

2 ـ هشام الأول
172 ـ 180 هـ/ 788 ـ 796م

3 ـ الحكم الأول
180 ـ 206 هـ/ 796 ـ 822م

4 ـ عبد الرحمن الثاني (الأوسط)
206 ـ 238 هـ/ 822 ـ 852م

5 ـ محمد الأول
238 ـ 273 هـ/ 852 ـ 886م

6 ـ المنذر بن محمد
273 ـ 275 هـ/ 886 ـ 888م

7 ـ عبد الله بن محمد
275 ـ 300 هـ/ 888 ـ 912م

محمد (والد عبد الرحمن الناصر)
لم يحكم

8 ـ عبد الرحمن الثالث (الناصر)
300 ـ 350 هـ/ 912 ـ 961م
وفي عهده أعلنت الخلافة العربية الإسلامية
في الأندلس عام 316 هـ/ 928م

لم يكن هؤلاء الأمراء جميعاً على مستوى واحد من القدرة والتمكن من الاضطلاع بشؤون الحكم، فقد تميز منهم عدة أمراء، كان لهم دور كبير في مرحلة التأسيس والتوطيد لهذا العهد، نخص بالذكر منهم الأمير عبد الرحمن الأول، وكل من ابنه هشام الأول، وحفيده الحكم الأول. كما امتاز الأمير عبد الرحمن الثاني بنبوغه وحكمته في إرساء القواعد التي وضعها عبد الرحمن الأول، ووصل بالبلاد إلى حقبة تميزت بالاستقرار والازدهار السياسي والحضاري والاقتصادي. وقد انشغل الأمراء الآخرون بالفتن والثورات التي كانت تقوم على الدولة من قبل مختلف الجماعات والشرائح الاجتماعية التي تعيش في البلاد. فقضوا سنوات حكمهم في صراع مرير لتحقيق وحدة البلاد، ومن هؤلاء الأمراء، الأمير محمد بن عبد الرحمن، وبشكل خاص في السنوات الأخيرة من حكمه، وكذلك ابنيه الأميرين المنذر وعبد الله. وسنحاول فيما يأتي التعرف على أهم انجارات الأمراء بوجه عام في سبيل تثبيت السلطة والاستقرار، على الصعيدين الداخلي والخارجي.

أ ـ إنجازات الأمراء لتثبيت السلطة الأموية على الصعيد الداخلي:

1 ـ محاولة تغيير مفهوم الحكم وإحلال سلطة الدولة محل سلطة القبيلة:

كانت السلطة في عهد الولاة قبلية، وعلى الرغم من وجود والٍ أو أمير للبلاد، لكن كل قبيلة كانت تخضع لزعيمها، الذي يسعى للحصول على المصالح والامتيازات له ولأفراد قبيلته، ويتصرف مع بقية العشائر والقبائل وفقاً لهذه السياسة. وكانت بعض القبائل عندما تنفرد بالسلطة تنكل بغيرها من القبائل. ولقد رأينا فيما سبق موقف الصميل ويوسف من بقية القبائل اليمنية، لا سيما بعد انتصارهما عليها في معركة شقندة. ومن هنا، فقد كان من أهم أهداف سياسة عبد الرحمن الأول، السيطرة القوية على البلاد، والتقليل من نفوذ رجال القبائل، وإحلال سلطة الدولة ممثلة بالأمير محل سلطة القبائل. وبما أن سلطة الدولة كانت فوق سلطة القبائل ومنازعاتها، لهذا نرى الأمير عبد الرحمن يقف موقفاً حازماً إزاء مؤيديه حينما حاولوا خلق جو من الفوضى والانتقام من المهزومين في معركة المصارة، وذلك بنهب العاصمة قرطبة. وقد ازدادت شكوك عبد الرحمن الأول في جدوى الاعتماد على رجال القبائل وزعمائهم، عندما اكتشف مؤامرتهم للتخلص منه في الساعات الأولى بعد انتصاره على يوسف والصميل.

ففكر في تأسيس أول جهاز للشرطة للدولة الجديدة، وأحاط نفسه بالمؤيدين من موالي الأمويين، كما عهد إلى أقربائه، وبعض القادة الموالين من الأجناد بالمناصب الحساسة في البلاد. ونظراً لقلة هؤلاء المؤيدين في أول الأمر، اضطر عبد الرحمن إلى

أن يكيف نفسه للظروف، ويسترضي قادة القبائل، وبشكل خاص اليمنيين، فعين زعيمهم أبا الصباح اليحصبي حاكماً على مدينة إشبيلية. ولكن عبد الرحمن كان يخطط للتخلص نهائياً من نفوذ هؤلاء الزعماء، ولا يمكن أن يتم هذا الأمر إلا بخلق قوة جديدة في البلاد، تحل محل قوة رجال القبائل العرب. وبالفعل، فقد اتجه عبد الرحمن إلى تشجيع البربر على الانخراط في جيشه، ودعا الكثير منهم من شمال أفريقيا، وعاملهم بكرم زائد. وقد شجع هذا الموقف الذي اتخذه عبد الرحمن من البربر، المزيد من إخوانهم الآخرين للعبور إلى الأندلس والخدمة كقوة أساسية في جيشه. كما اشترى بالإضافة إلى هؤلاء الكثير من العبيد، حتى يقال أن عدد جيشه من هذين العنصرين بلغ نحو أربعين ألف رجل. وربما كان في هذا الرقم نوع من المبالغة، لكنه يشير دون شك إلى ازدياد اعتماد النظام الجديد على هذه القوة الفتية[6].

وكان من جملة المماليك الذين اشتراهم عبد الرحمن، سودانيون، وقد وضع لهم الأمير عرافة خاصة بهم تسمى بعرافة السود[7]. وهكذا تعددت الأصول التي يتألف منها جيش الأندلس، ولم يعد الأمير يعتمد على العنصر العربي فقط. ومع هذا، فقد ظل الجند العربي في الأندلس قوة أساسية، وكان يتألف من فئتين رئيستين: الشاميين والبلديين، ولكل منهما نظام دقيق في العطاء ذكره لنا المؤرخ ابن الخطيب في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»، بتفصيل مفيد[8]. وقد حاول عبد الرحمن أن يستفيد من هذا الجند، إضافة إلى ما استحدثه من عناصر أخرى، فثبت من بقي على ولائه له. لكنه ألغى ديوان من ثاروا عليه، وأسقط لواء جندهم، كما فعل بجند باجة الذي ثار عليه بقيادة العلاء بن مغيث، فقاتله عبد الرحمن وهزمه، ثم أسقط الجند كله من الديوان، وحمل هو لواءه[9]. أما تنظيم فرق الجيش في عهد عبد الرحمن، فكان بسيطاً يتألف من فرقتين، هما فرقة الفرسان، وفرقة الرجالة[10].

ولقد سار الأمير الحكم بن هشام، على خطى جده في تثبيت النظام والاستقرار، والاستكثار من الجند والمماليك. فيشير بعض المؤرخين إلى الحكم على أنه أول من جند

(6) أخبار مجموعة، ص 108، فتح الأندلس، ص 66 ـ 67؛ المقري: 3/ 36 ـ 37.
(7) أخبار مجموعة، ص 109.
(8) الإحاطة: 1/ 104 ـ 105.
(9) الحميري، ص 36.
(10) أخبار مجموعة، ص 109؛ وقارن أحمد بدر، المرجع السابق، ص 104 ـ 105.

الاجناد، واتخذ العدة، ويصفونه بأنه كان أفحل أمراء بني أمية بالأندلس، وأشدهم إقداماً ونجدة، وكانوا يشبهونه أيضاً بأبي جعفر المنصور العباسي في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء. وقد أكثر من شراء الأسلحة وتوفيرها للجند، كما اشترى أعداداً كبيرة من العبيد والمماليك يقدر عددهم بنحو خمسة آلاف مملوك، منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل. ولما كان هؤلاء المماليك لا يعرفون اللغة العربية ولا يقدرون على النطق بها، فقد سموا بالخرس لعجمتهم[11]. وجعل الحكم من هؤلاء حرساً له، كما قسمهم إلى سرايا خفيفة حتى تستطيع الحركة السريعة للقضاء على المتمردين على الدولة. ويذكر مؤلف كتاب «أخبار مجموعة» أنه كانت للحكم ألفا فرس مربوطة إزاء قصره المطل على نهر الوادي الكبير، ويجمعها داران، على كل دار عشرة عرفاء، تحت يد كل عريف مئة فرس. وكان العرفاء يشرفون عليها وعلى علفها، حتى تكون مستعدة دوماً لكل ما يطرأ من أمور، فتتوجه على الفور، بأمر من الأمير، للقضاء على أية حركة معادية، أو للقبض على من تسول له نفسه القيام على الدولة[12]. وهكذا استطاع هذا الأمير، ومن خلفه من الأمراء أن يثبتوا السلطة والاستقرار في البلاد، ويحموها من مخاطر المتمردين والطامعين.

2 ـ محاولة الحفاظ على وحدة الأمة الروحية:

كانت الحياة الدينية في الأندلس في الفترة الأولى متأثرة ببلاد الشام، فقد اعتنق أهل الأندلس مذهب الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام الشام المتوفى سنة 157هـ/ 773م. وكان هذا الإمام من المجاهدين المرابطين في مدينة بيروت ضد العدو البيزنطي. ومن هنا، فقد كان مذهبه يركز على التشريعات الحربية، وأحكام الحرب والجهاد. وكانت هذه الأمور تناسب وضع أهل الأندلس في الفترة الأولى، حيث كان وضعهم في هذه البلاد قائماً على الحرب والجهاد، ولهذا اعتنقوا مذهب الأوزاعي[13].

ومن العلماء الذين ساروا بالأندلس على نهج الأوزاعي، صعصعة بن سلام الشامي المتوفى سنة 202هـ/ 817م. وكان تلميذاً للأوزاعي، وعليه كانت تدور الفتيا بالأندلس أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية، وصدراً من أيام هشام بن عبد الرحمن، وولي الصلاة بقرطبة، وفي أيامه غرست الشجر في مسجد قرطبة الجامع، وهذا على مذهب الأوزاعي[14].

---

(11) المقري: 1/ 340 ـ 342.

(12) أخبار مجموعة، ص 129 ـ 130.

(13) قارن: أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 114.

(14) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ق 1، ص 203، ترجمة (610).

ولكن أهل الأندلس بدأوا باعتناق مذهب الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، المدينة المنورة، المتوفى سنة 179هـ/ 795م، وذلك منذ أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن. وقد انتقلت الفتوى تبعاً لذلك إلى رأي مالك بن أنس، وانتشر علمه ورأيه في قرطبة والأندلس جميعاً، بل في شمال أفريقيا أيضاً. وقد وضع الإمام مالك في المدينة كتاباً في الفقه والحديث سماه (الموطأ) أي السهل الواضح. ثم ذاع صيت هذا الإمام، وانتشر كتابه في العالم الإسلامي، وأقبل الأندلسيون على اعتناق مذهبه. أما كيفية وصول هذا المذهب إلى الأندلس، فترجع إلى جهود بعض الفقهاء ورجال العلم الذين كانوا يرحلون إلى الحج في الحجاز، وهناك يلتقون بالإمام مالك، ويأخذون عنه علمه ومذهبه. وعندما رجع هؤلاء إلى بلدهم وصفوا فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره، فانتشر رأيه وعلمه بالأندلس. وكان رائد هذه الجماعة رجل يدعى زياد بن عبد الرحمن ابن زياد اللخمي المعروف بـ(شبطون)، توفي في حدود سنة 204هـ/ 819م، وهو الذي كان فقيه الأندلس على مذهب مالك، وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس، وأخذ عنه تلميذه يحيى بن يحيى الليثي[15]. وكان هذا الأخير المتوفى سنة 234هـ/ 848م يلقب بعاقل الأندلس، ويروى أن الإمام مالك هو الذي لقبه بهذا اللقب. فقد ارتحل يحيى إلى المدينة ولازم الإمام مالك للدراسة، فبينما هو عنده في مجلسه، مر فيل في شوارع المدينة، فخرج جميع الطلبة لمشاهدته، وبقي يحيى بن يحيى في مكانه لم يخرج، فقال له الإمام مالك: «ما لك لم تخرج لتنظر الفيل وهو لا يكون في بلادك؟ فقال له: لم أرحل لأبصر الفيل، وإنما رحلت لأشاهدك وأتعلم من علمك وهديك. فأعجبه ذلك منه، وسماه عاقل الأندلس»[16].

أما على الصعيد الرسمي، فقد استهوى مذهب مالك، كما يُروى، الأمير هشام بن عبد الرحمن الذي نقل إليه بعض الأندلسيين ثناء وإعجاب مالك بن أنس به ومدحه له بقوله: نسأل الله أن يزين موسمنا به، أو نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم. ولهذا فقد حمل هشام الناس على مذهب الإمام مالك، وترك مذهب الأوزاعي[17]. وبطبيعة الحال، لا يمكن لمذهب من المذاهب أن ينتشر في بلد ما لمجرد الاعجاب المتبادل بين إمام المذهب وأمير البلد، ولا بد أن تكون هناك عوامل أخرى سياسية واجتماعية ونفسية ساعدت على انتشار مذهب الإمام مالك في الأندلس.

---

(15) المصدر نفسه، قسم 1، ص 154 ـ 155 رقم (458)؛ المقري: 2/ 45 ـ 46، 3/ 230.

(16) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 382 ـ 383، رقم (909)؛ المقري: 2/ 9.

(17) انظر: ابن القوطية، ص 43؛ أخبار مجموعة، ص 120؛ المقري: 3/ 230.

فلقد قامت الإمارة الأموية مستقلة عن المشرق، وبشكل خاص عن الدولة العباسية التي كان مذهبها الرسمي هو المذهب الحنفي. ويبدو أن تآلفاً في الموقف إزاء الدولة العباسية جمع بين مالك بن أنس والأمير هشام بن عبد الرحمن. فقد كان الإمام مالك لا يميل إلى العباسيين، حتى أنه أفتى ضدهم لصالح انضمام الناس إلى ثورة محمد ذو النفس الزكية. وقد أدت فتواه إلى غضب الخليفة أبو جعفر المنصور، ووالي المدينة الذي ضربه بالسياط. ولهذا فاعتناق أهل الأندلس، وأميرهم بشكل خاص لمذهب مالك يحمل بعداً سياسياً، ويحقق لهم النزعة الاستقلالية عن غيرهم من البلدان، ويؤكد شخصيتهم المتميزة.

ومن ناحية أخرى، فقد كان لطبيعة أهل الأندلس والمغرب أثر في تقبلهم لمذهب مالك وعزوفهم عن غيره. وذلك أن هذه الطبيعة كانت تتميز بالبساطة والبعد عن التعقيد، وهي لهذا تشبه طبيعة أهل الحجاز الذين تغلب عليهم نزعة أهل الحديث والاعتماد على مذهب مالك الذي يتقيد بنصوص القرآن والحديث، ولا يلجأ إلى استعمال الرأي والقياس إلا في حدود ضيقة. وهذا على عكس البيئة العراقية التي تتميز بالتعقيد، لأنها تضم أجناساً متعددة ومللاً مختلفة، مما أدى إلى ظهور قضايا ومشاكل جديدة لا تنطبق عليها النصوص، وتحتاج إلى الاجتهاد والاستنتاج العقلي، والقياس، وعلى هذه الأسس يقوم المذهب الحنفي، ويعرف اتباعه بأهل الرأي والقياس. أما عقلية أهل الأندلس فكانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث، ولهذا اعتمدوا أولاً على مذهب الأوزاعي، وهو من أنصار مدرسة الحديث، ثم اعتمدوا بعد ذلك على مذهب مالك الذي يسير في هذا الاتجاه، ويعرف أصحابه بأهل الحديث.

وهناك عامل آخر ربط أهل الأندلس بأهل الحجاز أكثر مما ربطهم بأهل العراق. ذلك أن معظم العرب الفاتحين للأندلس كانوا من أصل حجازي، وخاصة أولئك الذين جاءوا مع موسى بن نصير. أما البقية فهم من بلاد الشام ومصر، أي الذين دخلوا مع بلج بن بشر. ولم يكن في هذه الجيوش من ينتمي إلى أهل العراق. ومن هنا، فقد كان من الطبيعي أن يحاول هؤلاء الحجازيون الاتصال بأهاليهم وذويهم والعودة لأداء فريضة الحج، وقد ساعد هذا الأمر على اتصالهم بالإمام مالك والتعرف على مذهبه.

وعلى أية حال، فإن انتشار مذهب مالك، وتمسك الأمراء الأمويين به سواء بقصد الاعجاب به وتفضيله على غيره من المذاهب أم لتأكيد شخصيتهم الاستقلالية، أدى إلى نوع من الاستقرار في البلاد. لأن سياسة المذهب الواحد هذه جنبت الثغور الإسلامية، ورجال القبائل بشكل عام شرور الفتن المذهبية، وحفظت لها سلامتها ووحدتها الروحية. واستمرت الأندلس طيلة عهد الإمارة، بل طيلة العهود الإسلامية الأخرى

تعتنق هذا المذهب، وتتمتع بالاستقرار الروحي، الذي شمل أيضاً ممالك شمال أفريقيا. ولا تزال بلدان هذه المنطقة تحتفظ باعتناقها لهذا المذهب لحد الوقت الحاضر. ولقد أثر اتخاذ العرب في الأندلس لسياسة المذهب الواحد على الممالك المسيحية المجاورة التي قامت في إسبانيا. فقد اتبعت هي الأخرى سياسة المذهب الديني الواحد واقتصرت على المذهب الكاثوليكي، وتعصبت له، فأصبحت أكثر تمسكاً وتعصباً للبابوية الكاثوليكية من البابا نفسه[18].

3 ـ القضاء على الثورات والفتن الداخلية:

تعرض عصر الإمارة الأموية إلى العديد من الثورات والفتن الداخلية التي كانت تقوم بها مختلف العناصر التي تألف منها المجتمع الأندلسي الجديد. واشترك في هذه الفتن الفاتحون الذين كانوا يتألفون من القبائل العربية والبربر، كما ساهم فيها أيضاً أهل البلاد الأصليون، سواء منهم من دخل الإسلام كالمولدين، أم من بقي على دينه وتثقف بالثقافة العربية كالمستعربين ولم تندمج هذه الأجناس المختلفة بعضها ببعض، ولهذا فقد كانت الأمور تتوقف على مدى قوة وصلابة الأمراء والحكومة المركزية في قرطبة، فإذا قويت هذه الحكومة، أمكن السيطرة على هذه الأجناس، والقضاء على ما تقوم به من تمرد على السلطة. أما إذا ضعفت الحكومة المركزية، وتولى الإمارة أمير غير حازم، نشطت هذه الجماعات، وقامت بالتمرد ومحاولة الاستقلال عن الإمارة الأموية. وكانت طبيعة البلاد الجغرافية الجبلية تساعد هذه الفئات على ما تريد من التمرد والانشقاق ومحاولة الاستقلال، وسوف نتطرق فيما يأتي إلى أهم الثورات والفتن التي حدثت في عهد الأمراء الأقوياء الأوائل، ومن ثم نشير إلى الفتن والاضطرابات التي سادت أواخر عصر الإمارة، أي في الحقبة التي تميزت بضعف سلطة الحكومة الأموية والتي امتدت من وفاة الأمير عبد الرحمن الثاني في سنة 238هـ/ 852م إلى سنة 300هـ/ 912م حيث تولى الحكم عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله.

أولاً ـ ثورة القبائل العربية في عهد عبد الرحمن الأول:

لقد سبقت الإشارة إلى أن سياسة عبد الرحمن الأول الرئيسة كانت تهدف إلى السيطرة القوية على البلاد، والحد من نفوذ رجال القبائل العرب. ولهذا حاول التقليل من الاعتماد عليهم، وخلق قوة جديدة في شبه الجزيرة تعتمد على المماليك والبربر القادمين من شمال أفريقيا. وعندما أدرك رجال القبائل اليمنيون وحلفاؤهم من البربر ما

---

(18) انظر: العبادي، المرجع السابق، ص 121 ـ 125.

يرمي إليه عبد الرحمن ازدادت مخاوفهم من النظام الجديد، وابتدأوا بالثورة عليه. يضاف إلى هذا، إن مجيء عبد الرحمن إلى الحكم لم يحقق لهم ما كانوا يصبون إليه من السلطان والامتيازات، والتسلط على المنهزمين من جماعة يوسف الفهري والصميل. وتبين لهم أن الأمير الجديد عدهم أداة للوصول إلى الحكم، ومن ثم عاملهم معاملة الأتباع الذين عليهم واجب الطاعة فقط. فكره شيوخ اليمنيين ذلك، بل إن بعضهم حاول الانقلاب على الأمير ومواليه بعد انتصاره مباشرة في معركة المصارة، كما أسلفنا.

وكان أول من رفع راية العصيان من اليمنيين على عبد الرحمن الأول هو العلاء بن مغيث الجذامي(19)، رئيس جند مصر في باجة، جنوب البرتغال الحالية، في سنة 146هـ/ 763م. وتروي المصادر العربية، أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور، كان وراء هذا العصيان، فحرض العلاء على التمرد، واسترداد الأندلس للخلافة العباسية ووعده بإمارة الأندلس إن هو تمكن من النجاح والانتصار على عبد الرحمن بن معاوية. وقد أرسل له سجل تعيينه على البلاد، والرايات السوداء، شعار العباسيين، لاتخاذها أعلاماً للثورة(20). وعلى الرغم من هذا، لا يمكن للمرء أن يركن إلى هذه الروايات، لأن الخلافة العباسية لم تكن مستعدة لذلك، وأبو جعفر المنصور بالذات، كان مشغولاً في ذلك الوقت بحل المشاكل العديدة التي كانت تواجهه في المشرق العربي، وليس من المعقول أن يفكر بإرسال جند أو بالتأييد العسكري لمغامرة بعيدة جداً عن مركز دولته في العراق. يضاف إلى ذلك، إن العباسيين لم يكونوا مسيطرين حتى ذلك الحين على المغرب العربي، وكانت سلطتهم مهزوزة في أفريقية، أي تونس الحالية، فكيف يفكرون بالاستيلاء على الأندلس البعيدة. ولكن هذا لا يعني أن المنصور لم يظهر الرضى عمن يدعو باسمه في الأندلس أو في غيرها. وأغلب الظن أن العلاء بن مغيث دعا من تلقاء نفسه إلى الخلافة العباسية تقوية لحركته وإظهاراً لقدسيتها ولجمع أكبر عدد ممكن من الناقمين على نظام الحكم والمؤيدين لإحداث التغيير في البلاد. وقد انضم إلى الثورة أعداد كبيرة من اليمنيين، وجميع العناصر الساخطة على حكم عبد الرحمن، فتضخم جيش العلاء. وسارع عبد الرحمن لمحاربته، لكن العلاء انتصر عليه وحاصره في مدينة قرمونة لمدة شهرين. وأخيراً تشجع الأمير وخرج بجنوده من هذه المدينة، وهو ينوي الانتصار أو الموت، فانقضوا على جند العلاء وقتلوا منهم عدداً كبيراً بضمنهم العلاء نفسه. وتزعم الروايات أن عبد الرحمن أمر بحمل رأس العلاء ورؤوس بعض كبار

(19) يسميه بعض المؤرخين أيضاً باليحصبي، وبالحضرمي تارة أخرى.

(20) انظر: ابن القوطية، ص 32 ـ 33؛ أخبار مجموعة، ص 101 ـ 102، ابن عذاري: 2/ 52.

مؤيديه، بعد أن حشيت بالملح والكافور، إلى القيروان حيث طرحت ليلاً في بعض أسواقها. وقد وصل خبر هذا الحادث إلى أبي جعفر المنصور، وقيل أن الرؤوس حملت من قبل بعض الحجاج إلى مكة حيث كان المنصور يؤدي مراسيم الحج، فانزعج من هذا الأمر، وقال: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبين مثل هذا - يقصد عبد الرحمن بن معاوية - من عدونا بحراً»(21). ولقد لقب المنصور على أثر هذا الحادث، الأمير عبد الرحمن بن معاوية، بلقب «صقر قريش» وذلك اعترافاً منه بقوة وعزيمة هذا الأمير الذي استطاع أن يؤسس بمفرده دولةً، ويمصر الأمصار، ويجند الأجناد، ويدون الدواوين، وينال مُلكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته(22).

وبعد نحو ثلاث سنوات على فشل حركة العلاء بن مغيث، ثار قائد عربي آخر يدعى سعيد اليحصبي المطري في نبلة Niebla انتقاماً لدماء الذين قتلوا مع العلاء. وقد انضم إليه عدد كبير من اليمنيين، فسار إلى إشبيلية واستولى عليها، ثم نزل بقلعة رعواق الواقعة على نهر الوادي الكبير بالقرب من إشبيلية وتحصن بها. فسار إليه عبد الرحمن وحاصره واضطره إلى الخروج والقتال، وكانت النتيجة مقتل قائد الثورة والعديد من أتباعه وتفرق الباقين حيث عفا عنهم الأمير عبد الرحمن. وفي هذا العام نفسه أي 149هـ/ 766م، ثار أبو الصباح بن يحيى اليحصبي. وكان الأمير قد ولاه على إشبيلية، بعد قيام الإمارة الأموية، لكنه كان يشك في ولائه منذ دعوته للإطاحة به بعد انتهاء معركة المصارة. ولهذا فقد عزله بعد فشل ثورة المطري، فنقم عليه أبو الصباح، فكاتب الاجناد وألّبهم على عبد الرحمن. وعندما تبين للأمير عظم نفوذ أبي الصباح وقوته وتأثيره على الاجناد، حاول التفاوض معه واستدراجه بالحيلة إلى قرطبة حيث قتله في العام نفسه، فتفرق جنده»(23).

وقد كان لمقتل أبي الصباح أثر بالغ على القبائل اليمنية في غرب الأندلس، لأنه كان سيد عرب هذه المناطق، وكان أقرباؤه زعماءَ لكور متعددة فيها. فازدادت نقمتهم على عبد الرحمن، وتحينوا الفرص للثورة عليه. وقد سنحت لهم الفرصة في سنة 156هـ/ 772م. عندما كان الأمير مشغولاً بالقضاء على إحدى ثورات البربر في وسط البلاد، فثار اليمنيون في إشبيلية ولبلة وباجة بقيادة حيوة بن ملامس الحضرمي، وعبد الغفار اليحصبي، وانضم

---

(21) ابن القوطية، ص 33 - 34؛ أخبار مجموعة، ص 103؛ ابن عذاري: 2/ 52.

(22) أعمال الأعلام، ص 9 - 10.

(23) أخبار مجموعة، ص 105 - 106؛ فتح الأندلس، ص 63 - 64؛ ابن عذاري: 2/ 53 - 54.

إلى الثورة أيضاً كل من عمر بن طالوت اليحصبي وكلثوم بن يحصب، وقصدوا جميعاً قرطبة. ومما زاد في خطر هذه الثورة، انضمام العديد من البربر المؤيدين لليمنيين في المنطقة إليها. وقد سارع عبد الرحمن للقضاء عليها وإخمادها، واستخدم أسلوب التفريق بين البربر واليمنيين، مستعيناً بمواليه من البربر مثل بني خليع وبني وانسوس وغيرهما. فداخل هؤلاء بني جلدتهم في معسكر الثوار وأقنعوهم بالتخلي عن زعماء الثورة والانضمام إلى عبد الرحمن الذي وعدهم بالعطاء وضمهم إلى الديوان. وفي المعركة التي وقعت فيما بعد بين الطرفين تخلى البربر عن حلفائهم اليمنيين، وانضموا إلى جيش عبد الرحمن، فوقعت الهزيمة على الثوار وقتل معظم قادتهم(24).

ثانياً ـ ثورات البربر:

بالإضافة إلى مساهمة البربر في معظم الثورات التي قامت بها القبائل العربية في الأندلس، كانت لهم حركاتهم الخاصة بهم ضد السلطة الأموية. ويرجع السبب في هذا إلى عدة عوامل، منها إن الكثير منهم كانوا حلفاء للقبائل العربية وتربطهم مصالح مشتركة، فيثورون معهم تبعاً لذلك. وكانوا منذ فترة الفتح وعصر الولاة متبرمين من أوضاعهم ويميلون إلى الشغب والتمرد. ولكن بمرور الزمن ظهرت عوامل أخرى دفعت جماعات من هؤلاء البربر إلى الثورة ورفع راية العصيان ضد السيادة العربية. فقد استغل أحد رجالهم، المدعو شقيا بن عبد الواحد المكناسي، سذاجة البربر، فادعى أنه من ولد الحسن بن علي، وأنه فاطمي النسب، خاصة وأن اسم أمه كان فاطمة، فاتخذ له اسماً عربياً هو عبد الله بن محمد، وأخذ يدعو الناس لنفسه والثورة على حكومة قرطبة. وقد بدأت دعوة هذا الرجل الذي كان بالأصل معلماً للصبيان في شنتبرية Santaver الواقعة في شرق الأندلس، ثم امتدت إلى أقاليم عديدة في وسط وشمال إسبانيا وغربها مثل ماردة وقورية ومادلين. وتبعه العديد من بربر هذه المناطق الذين آمنوا بدعوته، أو طمعوا بالحصول على امتيازات أو وضع أفضل في حالة الانتصار. واستمرت هذه الحركة التي قامت في عهد عبد الرحمن الأول ما يقارب عشر سنوات 151 ـ 160هـ/ 768 ـ 777م. وكان الأمير خلالها يسيّر عليه العديد من الحملات التي كانت تفشل في القضاء على أتباعه المتمردين لاعتصامهم بالجبال المنيعة، وتجنبهم للمعارك الحاسمة في السهول. ولم يتمكن الأمير عبد الرحمن من القضاء على هذه الحركة إلا بالتعاون مع أحد زعماء

(24) ابن القوطية، ص 31 ـ 32؛ أخبار مجموعة، ص 107 ـ 108؛ ابن عذاري: 2/ 50 ـ 51؛ وانظر أيضاً: دوزي، المرجع السابق، ص 221 ـ 227؛ سالم، المرجع السابق، ص 197 ـ 200.

البربر الآخرين، وهو هلال المديوني، الذي عينه على شنتبرية، وأوكل إليه مهمة القضاء على التمرد. وقد استطاع هذا الأخير أن يدبر مؤامرة لاغتيال زعيم الحركة شقيا في سنة 160هـ/ 777م. وهكذا انتهت هذه الثورة[25].

وقد قام البربر ببعض الحركات الأخرى للعصيان على السلطة الأموية، منها تمرد إبراهيم بن شجرة البرنسي في مورور، ومنها تمرد بربر نفزة، لكن الأمير عبد الرحمن الأول استطاع القضاء عليها بسهولة[26]. أما في عهد خلفائه، فقد استمرت جماعات عديدة من البربر في العصيان والفتنة. ففي عهد هشام بن عبد الرحمن، هاجت الفتنة ببلاد تاكُرُنّا، وهي إقليم رندة الحالية، وأعلن سكانها من البربر الخلاف على السلطة، وأغاروا على الناس، وهاجموا الإقليم بكامله، وقتلوا العديد من العرب. فأرسل إليهم هشام الأجناد التي أنذرتهم أولاً، ولما لم تجد منهم إلا إصراراً على التمرد، هاجمتهم وقتلت العديد منهم، وفر الباقون إلى طلبيرة وترجيلة، وظلت تاكرنا خالية من السكان نحو سبع سنوات.

وكانت مدينة ماردة في غرب إسبانيا بؤرة لثورات البربر، فقامت فيها ثورة في عهد الحكم بن هشام دامت نحو سبع سنوات. وقد تزعم هذه الثورة أصبغ بن عبد الله بن وانسوس، الذي كان قائداً للأمير، ويبدو أنه أراد التمتع بمزيد من الاستقلال في إدارة المدينة، فساءت العلاقة بينه وبين حكومة قرطبة، وساعد على هذا أن بعض أعدائه أوقع بينه وبين الأمير. ولكن أصبغ طلب الأمان بعد سبع سنوات، فأمنه الحكم ودعاه للإقامة في قرطبة، والتردد على ضياعه في ماردة[27]. وقد قام البربر بتحرك خطير آخر في ماردة في عهد عبد الرحمن الثاني، وذلك سنة 213هـ/ 828م. وقد أشعل نار الثورة هذه المرة رجل بربري واسمه محمود بن عبد الجبار، وهو من قبيلة مصمودة، وانضم إليه أحد المولدين واسمه سليمان بن مرتين. وقد استقل هذان الزعيمان في المدينة، ولم تفلح محاولات الأمير في استعادتها إلا بعد أن توجه بنفسه إليها وحاصرها وافتتحها في عام 216هـ/ 834م. وقد فر الثائران من المدينة، ثم استقل محمود بن عبد الجبار بالحركة، تساعده أخته جميلة، التي اشتهرت بالحسن البارع والشجاعة والنجدة والفروسية، وزحف إلى بطليوس، ثم إلى أكشونبة وباجة، وعندما ضايقته حملات الأمير، اضطر إلى الهرب إلى جليقية، والالتجاء إلى ملكها ألفونسو الثاني. ولكنه اكتشف بعد حين أنه

---

(25) انظر: أخبار مجموعة، ص 107 ـ 111؛ ابن عذاري: 2/ 54 ـ 55؛ فتح الأندلس، ص 64 ـ 65؛ وقارن: العبادي، المرجع السابق، ص 109 ـ 110.

(26) أخبار مجموعة، ص 111؛ ابن عذاري: 2/ 56 ـ 58.

(27) ابن عذاري: 2/ 64، 72.

تورط في موقفه، وأن الملك الاسباني لا يساعده في حركته الانفصالية إلا ليحقق مكاسب سياسية لمملكته على حساب الإمارة الأموية. فحاول العودة إلى الطاعة، لكن ألفونسو أفسد عليه خطته واضطره للقتال، فقتل وأسرت أخته جميلة[28].

ثالثاً ـ حركة أو هيجة الرَبَضْ:

تعني كلمة الربض من الناحية اللغوية الحي أو الضاحية، والمقصود بها هنا المنطقة السكنية الجديدة التي استحدثت في قرطبة بعد أن أصلح الأمير هشام بن عبد الرحمن الجسر الذي يصل قرطبة القديمة المسورة بالضفة الأخرى من النهر، حيث تقع ضاحية شقندة. وقد سكن الكثير من الفقهاء هذه الضاحية لقربها من المسجد، الذي كان على الجانب الآخر من النهر في قرطبة القديمة. كما استقر أيضاً في هذا الحي أو الربض العديد من الحرفيين وأهل الأسواق، والتجار، ومعظم هؤلاء من المولدين.

وتعود جذور هذه الفتنة التي قادها الفقهاء المالكيون ضد الأمير الحكم بن هشام إلى انتشار قوة وتسلط هؤلاء الفقهاء في عهد أبيه هشام الذي كان يعمل بمشورتهم ويتأثر بنفوذهم. ولكن الحكم كان يختلف عن أبيه، فلم يكن ميالاً لقبول وصاية الفقهاء ولم يستسلم لتأثيرهم، بل كان على العكس يميل إلى اللهو والصيد وغيرها من الأمور التي لا يستسيغها الفقهاء. وهكذا نشأت هوة عميقة بين هؤلاء وبين الحكم الذي حدّ من نفوذهم. ولقد بدأوا بمحاربته بوسائل شتى، أهمها تأليب العامة عليه والطعن بسلوكه الديني والأخلاقي. استجاب العامة من سكان الربض لهذا التحريض، لأنهم أرادوا أن يكون لهم صوت مسموع في المجتمع، وخاصة أنهم كانوا طبقة اجتماعية كبيرة. لها آمالها وتطلعاتها الاجتماعية والسياسية. وكان للحكم أيضاً دوره في تأجيج هذه الفتنة بما وضعه من ضرائب جديدة ومغارم على الشعب[29].

مرت هذه الفتنة بدورين، الأول حينما حاول وجوه أهل قرطبة وفقهاؤها القيام بمؤامرة لعزل الحكم في عام 189هـ/ 804 ـ 805م، واختيار أحد أقاربه من الأسرة الأموية الحاكمة بدلاً منه. ولكن هذا الأخير، واسمه محمد بن القاسم، تظاهر بالرضا، ثم أفشى بسر المؤامرة، وأسماء المتآمرين إلى الحكم. فقبض عليهم الأمير وصلبهم،

---

(28) انظر: ابن القوطية، ص 67؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 501؛ عنان المرجع السابق: 1/ 257 ـ 258؛ بيضون، المرجع السابق، ص 241 ـ 242.

(29) أعمال الأعلام، ص 15.

وكان عددهم كبيراً بضمنهم فقهاء كثيرون[30]. وقد ازداد سخط الفقهاء والعامة بعد هذه الحادثة، وأخذوا يتحينون الفرص للقيام على الأمير الحكم. وأدرك الأمير هذه الحقيقة فقام باتخاذ إجراءات عديدة لحماية نفسه وتحصين مدينة قرطبة ضماناً أمام أية محاولة للثورة، فأتقن بناء سورها ورممه، كما حفر حولها خندقاً، وقوى أبواب قصره، ثم أكثر من شراء واستخدام المماليك والعبيد في الجيش، كما أسلفنا.

أما الدور الثاني الذي مرت به هذه الفتنة، فقد وقع بعد نحو أربعة عشر عاماً من مؤامرة الفقهاء الأولى وإعدامهم. وكان السبب المباشر لهذه الفتنة بسيطاً في حد ذاته، لكنه كان كالشرارة التي فجرت هيجان الخلاف بين أهل الربض الجنوبي ومحرضيهم من الفقهاء. فقد نشب خلاف بين حداد وأحد حراس الأمير بشأن إصلاح سيف الأخير وذلك بسبب تباطؤ الحداد في إنجاز العمل. ولم يلبث هذا الخلاف أن تطور إلى نزاع أدى إلى مقتل الحداد، وقد أثار هذا الحادث غضب أهل الربض من المولدين على زميلهم الحداد، فقتلوا الجندي، وتجمهروا يريدون التوجه إلى قصر الإمارة، وقتل الأمير الحكم باعتباره مسؤولاً عما حدث. فعبروا الجسر على الرغم من مقاومة حرس الأمير، وأحاطوا بالقصر الذي تحصن فيه الأمير وأتباعه. وتزعم بعض المصادر أن الحكم لم يفقد جرأته وشجاعته في ذلك الموقف، وصمم على القتال حتى الموت، فقد طلب من خادمه أن يأتيه بقارورة عطر، وعندما جاءه بها أفرغها على رأسه. فتساءل الخادم عن جدوى التطيب في مثل هذا الوقت، فأجابه الحكم: أنه إنما يتطيب حتى يعرف قاتله رأسه ويميزه عن رؤوس الآخرين. وهو يشير بطبيعة الحال، إلى أنه قد هيأ نفسه للموت أو للظفر بالعدو[31]. وقد تفتق ذهنه عن خطة ذكية للقضاء على المتمردين، فدعا رئيس حرسه الخاص للدفاع عن القصر، وأرسل اثنين من قواده ليعبروا النهر من مخاضة ضحلة بعيداً عن الجسر الذي يسيطر عليه المتمردون فتمكنت هذه القوة التي يقودها القائدان، عبد الله بن عبد الله البلنسي وإسحاق بن المنذر القرشي، من العبور وتوجهت إلى منازل أهل الربض وأشعلت فيها النيران. وعندما أحس المتمردون بذلك، تفرقت صفوفهم وتوجه قسم كبير منهم لإنقاذ أهله وماله، فوقعوا بين جند الأمير من الأمام والخلف، وقتل منهم عدد كبير جداً.

وبعد انتهاء المقاومة ألقي القبض على نحو ثلاثمئة رجل من زعماء الفتنة، وصلبوا

---

(30) ابن القوطية، ص 50 ـ 51؛ ابن عذاري: 2/ 71.

(31) أخبار مجموعة، ص 131.

صفاً واحداً على نهر الوادي الكبير، ثم أمر الحكم بهدم الربض، وحرث أرضه وزراعتها، ونفي من تبقى من سكانه إلى خارج الأندلس. وقد ظل الربض، الذي ما يزال موقعه يعرف لحد الآن باسم Arrabal، مهجوراً من السكان لما يقرب من قرنين من الزمان بعد عهد الحكم الذي اقترن اسمه باسم هذا المكان، فسمي بالحكم الربضي[32].

إن الأمر المهم في هذه الفتنة هو نتائجها سواء على الصعيد الداخلي أم على الصعيد الخارجي. فبالنسبة إلى الأندلس أدى القضاء على هذه الهيجة التي أثارها الفقهاء إلى توطيد الحكم للإمارة الأموية، لأنها أزالت قوة ونفوذ الفقهاء، وحررت الأمراء من وصايتهم وتدخلهم. أما بالنسبة إلى نتائجها الخارجية، فقد كانت على نطاق أوسع وأشمل، ذلك أن أفواج الربضيين المنفيين إلى خارج الأندلس حطت في أماكن عديدة وأثرت على سير الأحداث فيها. فقد استقر فريق منهم في المغرب حيث سمح لهم إدريس الثاني أمير الأدارسة بالإقامة في مدينة فاس التي أسسها والده إدريس الأول، فأقاموا بالحي المعروف بحي الأندلسيين، ونقلوا معهم مظاهر الحضارة الأندلسية، وطبعوا المدينة بطابع أندلسي جميل من حيث الصناعة، والأبنية البيضاء ذات الحدائق الداخلية. وهكذا سيطروا على مدينة فاس حتى أنها أصبحت تدعى باسمهم مدينة الأندلسيين. أما الفريق الآخر من الربضيين، فقد واصلوا سيرهم في البحر، حتى وصلوا إلى مدينة الاسكندرية في مصر وسيطروا عليها مستغلين الفوضى والاضطراب الذي حل بالبلاد جراء الفتنة بين الأمين والمأمون. وعندما استقرت الأمور للأخير أرسل قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين، فحاصر الأندلسيين الذين اضطروا إلى مصالحته، واتفقوا معه على مغادرة البلاد وعدم التوجه إلى أية بقعة تابعة للعباسيين، وكان ذلك في سنة 212هـ/ 827م. ثم اتجهوا إلى جزيرة كريت، وكانت تسمى أقريطش، وهي تابعة للدولة البيزنطية، فاستولوا عليها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي[33]، وأسسوا فيها دولة حكمت نحو مئة وخمسة وثلاثين عاماً، ونشروا فيها الإسلام، وأسسوا المدن، ومنها مدينة الخندق التي اتخذوها عاصمة لهم، وقد صارت كريت قاعدة بحرية إسلامية مهمة تهدد سواحل الامبراطورية البيزنطية بما تقوم به من حملات على ممتلكاتها وتجارتها. ولكن أمر هذه

---

(32) ابن عذاري: 2/ 77؛ أعمال الأعلام، ص 16؛ وانظر: العبادي، المرجع السابق، ص 130 ـ 131؛ أحمد بدر، المرجع السابق، ص 122 ـ 223).

(33) يدعى بالبلوطي نسبة إلى فحص البلوط، وهي منطقة تقع إلى الغرب من قرطبة، وعن كريت تحت ظل الأندلسيين، انظر: د: اسمت غنيم، الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، جدة، 1977؛ خليل إبراهيم السامرائي، إمارة كريت الأندلسية، مجلة الجامعة، الموصل، أيلول 1978.

الدولة الإسلامية انتهى بتغلب البيزنطيين عليها، واسترجاع جزيرة كريت في عهد الامبراطور رومانوس الثاني في عام 349هـ/ 960م، فتفرق أمر الأندلسيين فيها، وبقية المسلمين، فرجع قسم منهم إلى الأندلس، وقسم آخر إلى مصر وصقلية[34]. وهكذا نرى أن فتنة الربض لم تؤثر فقط على الأندلس، بل شمل تأثيرها أماكن بعيدة جداً، وحمل الألوف من الأندلسيين هذا التأثير الايجابي الفعال إلى الأماكن التي هاجروا إليها.

رابعاً: ـ حركات المولدين:

لقد سبقت الاشارة إلى أن المولدين كانوا من سكان أهل البلاد الاسبان والقوط الذين اعتنقوا الدين الإسلامي منذ الفتح، واندمجوا في المجتمع الجديد الذي يضم العرب والبربر والمولدين والمستعمَرين، أي النصارى الاسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم، لكنهم تأدبوا بآداب اللغة العربية، وبعادات العرب. وقد كان المولدون يطمحون إلى وضع اجتماعي وسياسي أفضل، وذلك بمشاركة العرب للحكم والسلطان. ثم تحول موقفهم بالتدريج إلى التمرد ومحاولة الاستقلال عن سلطان بني أمية في قرطبة. ومما شجع المولدين على السير بهذا الاتجاه، تركز مجموعات كبيرة منهم في مناطق جغرافية تساعد على الانفصال والتمرد، وبشكل خاص في مناطق الثغور، أي المدن القريبة من خط الحدود مع الدول المسيحية في الشمال، مثل سرقسطة في الشمال الشرقي وطليطلة في الوسط، وماردة في الغرب. وقد دعمت قرطبة بعض القبائل العربية في المناطق التي كثرت فيها حركات المولدين، مثال ذلك أسرة بني تجيب العربية التي سكنت في منطقة الثغر الأعلى. ونظراً لكثرة حركات المولدين وثوراتهم في عهد الإمارة الأموية، فسوف نقتصر على مثال واحد فقط عن مدينة طليطلة، التي ثار فيها المولدون على الأمير الحكم الأول، وابنه عبد الرحمن الثاني.

فبالإضافة إلى كثرة عدد المولدين في طليطلة، فإن أهلها لم ينسوا عز هذه المدينة ومجدها قبل الفتح، وأنها كانت عاصمة البلاد. وكان أهلها يعتزون أيضاً بثروتهم وحصانة مدينتهم التي تقع على نهر تاجة، ولذا نجدهم يساهمون في الكثير من الفتن التي كانت تقوم على حكومة قرطبة، ويتحينون الفرص دائماً لشق عصا الطاعة، والاستقلال بمدينتهم. ولكن الأمراء الأمويين قاوموا هذه الثورات والفتن، واستعملوا

---

(34) انظر: ابن القوطية، ص 51 ـ 52؛ أعمال الأعلام، ص 16؛ المقري: 1/ 339؛ سالم، المرجع السابق، ص 224 ـ 225؛ أحمد العدوي، الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم، القاهرة، 1958، ص 107 ـ 110؛ أحمد بدر، المرجع السابق، ص 124 ـ 125.

أساليب قاسية جداً في سحق حركات المولدين، وتثبيت السلطة الأموية في البلاد.

ثار المولدون في طليطلة على الأمير الحكم عام 181هـ/ 797م، وتزعم الثورة رجل يدعى عبيدة بن حُمَيْد. وقد استطاع الحكم أن يقضي على هذه الثورة بواسطة مولد من مدينة وشقة اسمه عمروس بن يوسف، وقد نجح هذا الأخير بإغراء بعض وجهاء المدينة لاغتيال عبيدة بن حميد، وبهذا خمدت الثورة إلى حين. وحاول الحكم استخدام أسلوب الدهاء والحيلة مع أهل المدينة، فعين عليهم عمروس بن يوسف حتى يطمئنوا إليه لأنه من بني جلدتهم. وعندما أنس إليه أهل طليطلة، تظاهر أمامهم بأنه أكثر منهم حقداً على الأمير الحكم وعلى بني أمية عامة، فوثقوا به ومنحوه طاعتهم وأطلعوه على أسرارهم. ولكنه، وبتوجيه من الأمير الحكم كان يبيت لهم خطة دموية للقضاء على مقاومتهم المستمرة. فأقنع زعماءهم بضرورة بناء قلعة حصينة بظاهر طليطلة بحجة إيواء الجند والمماليك، بعيداً عنهم وعن نسائهم. فبُنيت القلعة وأُخذ التراب اللازم لبنائها من نفس المكان، فظلت فيه حفرة كبيرة. وأخبر الأمير الحكم بانتهاء البنيان لاتخاذ الخطوة التالية من العمل، فسير الحكم جيشاً بقيادة ابنه عبد الرحمن، بحجة مقاتلة النصارى في الشمال. وعندما وصل هذا الجيش بالقرب من طليطلة أُعلن عن انسحاب العدو، وبدأ الجيش بالتهيؤ للرجوع. لكن عمروس خرج إلى الأمير، مع وجهاء أهل المدينة، ودعوه للدخول، فوافق الأمير عبد الرحمن بعد تمنع. ثم أقام عمروس وليمة كبيرة للأمير، دعا إليها زعماء المدينة وكبار الشخصيات فيها. فحضروا إلى القلعة التي احتشد فيها الجند، وقد أوهمهم عمروس أنهم إذا انتهوا من طعامهم خرجوا من باب غير الباب التي دخلوا منه. ولكن أحداً منهم لم يستطع الخروج لأن الجند الذين اصطفوا على طرف الحفرة قتلوا كل الداخلين دون أن يشعر بهم الباقون، وهكذا بلغ عدد القتلى نحو سبعمئة رجل[35]. ومن المؤرخين من يبالغ فيجعل عددهم خمسة آلاف وثلاثمئة رجل[36]. ويدل هذا على عظم أمر هذه المذبحة التي سميت بوقعة الحفرة والتي جردت المدينة من زعمائها، وأعيانها المتطلعين دوماً إلى الثورة. ولكن هذه القسوة لم تمنع طليطلة من التمرد على الأمراء الأمويين إلا لفترة قصيرة، فسرعان ما تواصلت الثورة ثانية في عهد الحكم نفسه، وفي عهد خلفائه من بني أمية. ثم اتخذت ثورات المولدين بعداً أخطر حين تولى السلطة أمراء ضعاف، فظهرت بوادر التفكك والتجزء والحركات الانفصالية، مثل حركة ابن حفصون، كما سنرى فيما بعد.

---

(35) ابن عذاري: 2/ 70.

(36) ابن القوطية، ص 48، وانظر أيضاً، ص 45 ـ 49.

خامساً ـ حركات المستعربين:

لم يقم المستعربون بحركات عنف وتمرد على الدولة الأموية في الأندلس على نطاق واسع، ولكن بعضهم شارك في فتن المولدين التي كانت تقوم في المناطق المختلفة من البلاد. ومع هذا، فقد حاول بعض المستعربين المتطرفين في قرطبة إثارة فتنة هوجاء ضد الحكم العربي الإسلامي في الأندلس. وكان أبطال هذه الحركة جماعة من غلاة رجال الدين المتعصبين الذين نقموا على سيادة العرب والإسلام في البلاد. والواقع أن دوافع هؤلاء لم تكن لها علاقة بأي اضطهاد ديني للمسيحيين، لأن التسامح الديني كان سائداً في الأندلس، وبشكل خاص في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني الذي حدثت في عهده هذه الحركة. فكانت حرية المعتقد مضمونة، وعاش رجال الدين المسيحي من أساقفة ورهبان في أمن وسلام، لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء وكان المستعربون بشكل خاص قد تحسنت حالتهم الاجتماعية والاقتصادية إلى حد كبير، بل إن عدداً كبيراً منهم استطاع أن ينال مراتب عالية في الإدارة والجيش. وامتهن الباقون التجارة في المدن والثغور، كما عملوا في مزارعهم الخاصة أو في ضياع المسلمين دون إكراه أو استغلال.

ولكن هذه الحالة الفريدة من التسامح، التي رضي ورحب بها غالبية المستعربين، لم تلقَ التأييد من جانب القسس المتعصبين في الكنائس والأديرة، الذين ظلوا قابعين في أماكنهم بعيدين عن التطور الذي حل بجماعتهم. ذلك التطور والاندماج الذي أدى إلى تكلم المستعربين بلغة الفاتحين العرب، وتفننهم في استخدام الفصحى وقول الشعر، وقراءة أمهات كتب الأدب. بل إن الكثير من المستعربين اقتبسوا عادات الفاتحين وتقاليدهم الاجتماعية التي كانت، كما يرى رجال الدين المتعصبون لا تتلاءم مع العقيدة المسيحية، مثل الختان، واتخاذ الجواري، والمصاهرة مع المسلمين. والحقيقة أن إطلاق اسم المستعربين Mozarabes على هؤلاء، يدل دلالة قاطعة على مدى الميول والاتجاهات نحو الثقافة العربية، التي كانت تتغلغل في نفوس هذه الطبقة من المجتمع الأندلسي. فأهملوا دراسة اللغة اللاتينية، التي هي لغة الدين المسيحي، وانصرفوا عن قراءة المصنفات الدينية المكتوبة بها، فأدى هذا بالتدريج إلى ذوبان الحضارة المسيحية اللاتينية. ولقد بلغت اللغة اللاتينية في بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط، حتى بات من الضرورة أن تترجم قوانين الكنيسة الاسبانية القديمة والانجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين.

أفزعت هذه الحالة غلاة المتعصبين من رجال الدين، وبدا لهم مستقبل الكنيسة مخيفاً، لإعراض أبنائهم عن الثقافة المسيحية والاتجاه نحو الاستعراب. وعندما لم يفلحوا في وقف هذا التيار، حاولوا افتعال أزمة مع الحكم العربي المتسامح، وذلك بإظهار الاستخفاف بالإسلام، وسب نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، والتقول عليه بالباطل إلى حد الشطط، استفزازاً لمشاعر المسلمين وانتهاكاً لحرمة ديانتهم جهراً وبغير سبب. وكانوا بهذا يرمون إلى خلق جو من التوتر والشعور بالاضطهاد، لأن الشرع الإسلامي يعاقب على هذه الجريمة بالموت. ومن ثم يبدو للمسيحيين بأن المسلمين يقتلون إخوانهم ويضطهدونهم، وهكذا يمكن استعادة من أسلم من هؤلاء، أو حملهم على عدم التعاطف والتعاون مع المسلمين.

ولقد تزعم هذه الفتنة المتطرفة وحرض عليها بعض الغلاة من أمثال أيلوخيو Eulogio، والفارو Alvaro، وذلك في أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الثاني. فكانا يدعوان النصارى إلى سب الرسول (ﷺ) والطعن في الإسلام علناً، واقتحام المساجد والاعتداء على المسلمين والتقليل من شأن دينهم. وعلى الرغم من أن عدد هؤلاء المتعصبين الانتحاريين لم يكن يزيد في مجموعه عن أربعين شخصاً، لكن حكومة قرطبة خشيت سوء عاقبة هذه الحوادث، وأثرها على شعور عامة المسلمين. فلم تجد مناصاً من تطبيق الشرائع والقوانين بمعاقبة هؤلاء بالموت، لأن عدم معاقبتهم يؤدي إلى استخفاف الناس، وقلة اكتراثهم بسلطة الدولة ودينها الرسمي، وذيوع حركة التمرد بين عدد أكبر من المتطرفين. ومع هذا، فلم يشأ الأمير عبد الرحمن أن يلجأ إلى وسائل متطرفة للقضاء على الحركة، ولم ينتقم من جمع المستعربين، بل اكتفى بالأحكام القضائية التي كان يصدرها القضاة على من يثبت عليه القيام متعمداً بسبب الإسلام والنيل من نبيه الكريم. وظلت هذه الموجة من الغلو مستمرة في قرطبة، حتى ضج منها المسيحيون المعتدلون وأظهروا استياءهم من «الاستشهاد» الذي كان يطلبه المتطرفون. والذي هو في حقيقة الحال نوع من الانتحار الذي حرمه الدين المسيحي. وقد عقد في عام 237هـ/ 852م مجمع ديني في قرطبة يضم كل أساقفة الأندلس برئاسة مطران إشبيلية، ومثل الأمير عبد الرحمن فيه أحد المستعربين المسيحيين، وهو غومز بن أنطونيان، الذي كان كاتباً عند الأمير. فعرض غومز حالة المنتحرين على المجمع ونتائجها السلبية على كل المستعربين في البلاد. وقد وافق جميع أعضاء المجمع ـ باستثناء أسقف قرطبة الذي لزم جانب المتطرفين ـ على إصدار قرار استنكروا فيه حركة المسيحيين المتطرفين، وعدوها حركة مخالفة لتعاليم الكنيسة. ولكن هذه الفتنة الدينية،

التي جاءت نتيجة الاستعراب، استمرت بقية عهد الأمير عبد الرحمن الثاني، ولم تنته إلا في بداية حكم ابنه الأمير محمد، حيث أعدم أيلوخيو المحرض عليها في عام 245هـ/ 859م[37].

سادساً ـ الفتن والاضطرابات في فترة ضعف الإمارة الأموية:

ابتدأت بوفاة عبد الرحمن الثاني أو الأوسط عام 238هـ/ 852م فترة مضطربة، تمزقت فيها وحدة الأندلس السياسية، وقام المنشقون والمتمردون في كل مكان على حكومة الإمارة في قرطبة. ولم يكن الأمراء الذين تولوا في هذه الفترة، التي امتدت نحو اثنين وستين عاماً، يضاهون في كفاءتهم ومقدرتهم الأمراء الأوائل، وإن كان بعضهم يتمتع بمواهب جيدة في الإدارة والقيادة، ولكن ظروف العصر كانت غير عادية، وبالتالي تحتاج إلى رجال أفذاذ، وحكام غير اعتياديين. ومن هنا، فإنه من غير الصواب تحميل أمراء هذه الفترة الثلاثة، وهم كل من الأمير محمد بن عبد الرحمن، وابنيه المنذر بن محمد، وعبد الله بن محمد، مسؤولية الانهيار السياسي والاضطراب التي ميزت هذه الحقبة. فلقد كانت البنية الاجتماعية في الأندلس غير منسجمة، لأنها تتألف من شعوب وأجناس مختلفة تتنافر مصالحها مع بعضها البعض، ولا يجمعها سوى قوة السلطة المركزية في قرطبة. وهذه الفئات، كما أسلفنا، كانت تتألف من أهالي البلاد، بنوعيهم المسلمين الذين سموا بالمولدين، والمستعربين الذي ظلوا على ديانتهم المسيحية، وكذلك من الفاتحين العرب والبربر. ولم يكن الانسجام التام سائداً حتى بين الفاتحين أنفسهم، فالخلافات بين القبائل العربية كانت ما تزال تعمل عملها في الفرقة، وكذلك البربر الذين كان عددهم يفوق عدد العرب، ولهم طموح شديد، وتتنازعهم مشاعر السيطرة، والمشاركة في الحكم.

لقد كانت قوة الأمراء الأوائل هي العامل الوحيد الذي جمع بين هذه الأجناس، وجعلها تعيش في وئام مع بعضها، ولكن ما أن غابت هذه القوة حتى بدأت العناصر المختلفة بالتحرك والوثوب على سلطة الإمارة. وساعدها على ذلك طبيعة البلاد

---

(37) لم يتطرق المؤرخون العرب إلى هذه الحركة التي ذكرت في مصادر أوروبية فقط، انظر على سبيل المثال: Levi-Provençal, op. cit., vol. I. pp. 225-239؛ أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، القاهرة، ١٩٧١، ص ١٥٧ ـ ١٦٧؛ وانظر أيضاً: عنان المرجع السابق، ص ١٩٤ ـ ٢٠٦؛ بيضون، المرجع السابق، ص ٢٤٤ ـ ٢٥١.

الجغرافية الجبلية، وسهولة إعلان العصيان والالتجاء إلى المناطق المنيعة. كما زاد من هذه الحالة أيضاً وقوّاها، العلاقة العدائية التي كانت سائدة بين الإمارة الأموية، والإمارات النصرانية الاسبانية في الشمال، التي كانت تساعد في إذكاء روح التنافر والخلاف بين هذه الأجناس، وتحضها على شق عصا الطاعة، خدمة لمصالحها التوسعية في الأندلس[38]. وقد أوضح لنا مؤرخ أندلسي، وهو ابن الخطيب، الأسباب التي أدت إلى كثرة الثوار والمتمردين في الأندلس، ودوافعهم للقيام على حكومة الإمارة في قرطبة، وهي تتلخص في ثلاثة أسباب، الأول: هو منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بسبب تجاورهم مع النصارى في الشمال، والثاني: هو علو الهمم وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمال للطاعة، لأن من دخل الأندلس من العرب والبربر كانوا أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض، والثالث: هو الاستناد عند الضيق والاضطرار إلى ملوك النصارى الذين كانوا يحرصون على ضرب المسلمين بعضهم ببعض[39].

لقد أطلق المؤرخون على هذا العصر، الذي تميز باضمحلال السلطة الأموية واقتصارها على قرطبة ونواحيها فقط، اسم عصر الانتكاسة، أو دويلات الطوائف الأولى، تمييزاً له عن عصر الطوائف الذي أعقب سقوط الخلافة الأموية في قرطبة عام 422هـ/ 1031م. فظهرت في هذه الحقبة جماعات عديدة خرجت على السلطة واستقلت في النواحي التي كانت تستقر فيها، وسنذكر باختصار أهم هذه الجماعات:

أ ـ الخارجون من العرب:

ومن أهم هؤلاء بنو حجاج، الذين استقلوا بإشبيلية وقرمونة بزعامة إبراهيم بن حجاج بن عمير اللخمي. وقد ازدهرت إشبيلية في عهده، كما نافس أمير قرطبة وقلده في عظمة بلاطه، ومظاهر الترف، واجتذاب الأدباء والشعراء، وتشجيع رجال العلم. وكان الكاتب أحمد بن عبد ربه، صاحب كتاب «العقد الفريد» من أشهر من تألق في بلاطه[40].

وبرز بعض الزعماء العرب الآخرون في جهات عديدة من البلاد مثل محمد بن أضحى الهمداني، وسعيد بن سليمان بن جودي في كورة البيرة، وبنو المهاجر التجيبيون

---

(38) قارن: أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 167 ـ 168؛ بيضون، المرجع السابق، ص 265 ـ 266، 285.

(39) أعمال الاعلام، ص 36، وانظر: سالم، المرجع السابق، ص 244.

(40) المقتبس، نشر: أنطونيا، ص 11 ـ 12؛ ابن عذاري: 2/ 125 ـ 131.

الذين انفردوا بحكم سرقسطة[41].

ب ـ الخارجون من البربر:

يعد بنو موسى بن ذي النون من أشهر الخارجين على الأمراء في فترة الضعف، ثاروا في شنت مرية، وسيطروا على الثغر الأدنى، أي طليطلة وما جاورها. كما ثار خليل وسعيد، ابنا المهلب من بيوتات البربر الكبيرة في كورة البيرة. واستقل بنو الملاح بزعامة عمر بن مضم الهنزولي الملاحي بمدينة جيان[42].

جـ ـ الخارجون من المولدين:

يعد عمر بن حفصون من أشهر الثوار الخارجين على السلطة الأموية في قرطبة. وكان هذا من أسرة فقيرة اعتنقت الإسلام منذ عهد الحكم بن هشام، عاش في بداية حياته في إقليم رندة، ثم فر إلى المغرب بعد ارتكابه لجريمة قتل، لكنه عاد إلى الأندلس واستولى على حصن روماني منيع اسمه ببشتر Bobastro في المناطق الجبلية الجنوبية في إقليم رية. وقد التفت حوله جماعة من المولدين وذلك في سنة 267هـ/ 880م، حيث أخذ بمهاجمة الجهات المجاورة لمنطقته والتوسع في الإغارة حتى وصل إلى المناطق القريبة من قرطبة ذاتها. وقد عاصرت حركة هذا المتمرد الأمراء الثلاثة الذين حكموا في هذه الحقبة. ولم يستطع أي منهم القضاء على حركته. وفي أواخر أيامه تحول إلى المسيحية، ظناً منه أن هذا الإجراء سيكتب النجاح لتمرده. ولكن بواعث هذا التحول تبدو سياسية أكثر منها عقائدية، قصد منها تلقي الدعم من المستعربين، ومن ملوك الدويلات النصرانية الاسبانية لإسقاط دولة العرب في الأندلس. ولم تنته حركة عمر بن حفصون إلا في عهد أمير الأندلس العظيم عبد الرحمن الناصر لدين الله[43].

ومن المولدين الآخرين الذين كونوا دويلات مستقلة عن قرطبة، بنو قسي أو بنو موسى بن فرتون، الذين تمردوا في الثغر الأعلى في شمال شرق إسبانيا. وكذلك بنو مروان الجليقي، الذين استقلوا بولاية بطليوس في غرب إسبانيا وسعدون بن فتح السرنباقي الذي ثار بالقرب من مدينة قلنبرية Coimbra في البرتغال الحالية، وكان

---

(41) المقتبس، نشر انطونيا ص 20 ـ 21، 29 ـ 31؛ ابن عذاري: 2/ 137 ـ 138، 134.

(42) المقتبس، (انطونيا)، ص 19، 25، 31.

(43) ابن القوطية، ص 90 ـ 94؛ المقتبس، (انطونيا) ص 128؛ ابن عذاري: 2/ 106.

صديقاً لعبد الرحمن بن مروان الجليقي[44].

ولقد استمرت هذه الجماعات في تمردها وانفصالها عن السلطة الأموية، طيلة فترة الفوضى التي أشرنا إليها. ولم يستطع الأمراء أن يقوموا بإجراءات فعالة لاستعادة وحدة البلاد، والقضاء على هذه الفتن على الرغم مما بذلوه من جهد وحملات وجهوها إلى مناطق المتمردين المختلفة. وظهر بوضوح أن الحكم العربي في الأندلس بات على وشك الانتهاء، لولا أن قيض الله لهذا البلد أميراً شاباً نهض بأعباء الحكم، وقضى على كل الفتن والاضطرابات، ونقل البلاد إلى عهد جديد ومرحلة زاهرة، هي مرحلة الخلافة الأموية، ذلكم هو عبد الرحمن بن محمد، حفيد الأمير عبد الله آخر أمراء عهد الإمارة الأموية.

ب ـ إنجازات الأمراء على الصعيد الخارجي:

تعرضت الأندلس أثناء فترة الإمارة إلى بعض الاعتداءات الخارجية التي حاول الأمراء الأمويون التصدي لها والوقوف بحزم أمام خطرها. ومن أهم هذه الاعتداءات، هجوم شارلمان ملك الكارولنجيين على الأندلس في عهد عبد الرحمن الأول، وغارات النورمان على الأندلس.

1 ـ هجوم شارلمان على الأندلس:

يعد شارلمان، حفيد شارل مارتل، من أعظم شخصيات الأسرة الكارولنجية التي حكمت مملكة الفرنجة، فقد أصبحت هذه المملكة القوة الرئيسة للمسيحية في أوروبا، وكان يثيرها نمو القوة العربية الإسلامية في الأندلس. لذلك فقد كانت تحاول دائماً الاستفادة من الاضطرابات الداخلية التي تحدث في الأندلس، وتشجع روح التمرد والخلاف على الأمراء الأمويين. وحدث في عهد عبد الرحمن الأول أن تمرد بعض الزعماء العرب في منطقة سرقسطة يتزعمهم سليمان بن يقظان الكلبي الأعرابي والحسين ابن يحيى الأنصاري. ثم أخذ تمردهما بعداً خطيراً حين قررا الاستعانة بشارلمان ملك الكارولنجيين لتحقيق مآربهما وأطماعهما في الحكم. فقد استدعى سليمان شارلمان، الذي تسميه المصادر العربية باسم (قارلة)، إلى بلاد المسلمين، ووعده بتسليم مدينة

---

(44) ابن القوطية، ص 88 ـ 90؛ المقتبس، (انطونيا) ص 16 ـ 17، 23؛ وانظر أيضاً: سالم، المرجع السابق، ص 253 فما بعدها.

سرقسطة إن هو ساعده على قتال عبد الرحمن. فرحب شارلمان بهذا المشروع، خاصة بعد أن فرغ من قتال السكسون وأجبرهم على اعتناق المسيحية. وكانت دوافع شارلمان للهجوم على الأندلس سياسية بحتة، وإن كانت مبطنة بمظهر ديني هدفه حماية النصرانية، وتخليص جليقية من أيدي المسلمين[45]. وفي الحقيقة كان شارلمان يريد تأمين حدوده الجنوبية بالاستيلاء على بعض المدن والقواعد في إسبانيا، بل إنه كان يرمي إلى السيطرة على إسبانيا كلها لو تيسر له ذلك ويدل على هذه السياسة التوسعية، ضخامة الجيش الذي حشده شارلمان لهذه الحملة، وكذلك مهاجمته لبلاد البشكنس، الذين كان قسم منهم من النصارى. ولهذا فلم تكن النزعة الدينية بارزة في هذه الحملة[46].

ويرى بعض المؤرخين في مشروع شارلمان مؤامرة دولية واسعة النطاق، شارك فيها الخليفة العباسي محمد المهدي متحالفاً مع الكارولنجيين في سبيل القضاء على عبد الرحمن الأول واسترداد الأندلس[47]. ولكن هذا الرأي بحاجة إلى أدلة قوية، وهو عرضة للتشكيك، ولا يمكن الأخذ به بسهولة. فلم يكن المتآمرون يعملون إلا في سبيل مصالحهم الخاصة، فشارلمان تحدوه أطماع التوسع وضم البلاد، وبقية الزعماء الخونة الذين ارتضوا التعامل معه، لم يكن يدفعهم إلا شهوة الحكم والسيطرة، ولو كان ذلك خلاف مصالح الأمة والمبادئ. أما ما يقال عن اتصال أحد المتمردين، وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي، بالخليفة المهدي، فلا يقوم عليه دليل قوي في المصادر العربية[48]. وربما كان هذا قد عمل تحت ستار الخلافة العباسية ليحمل الناس على الالتفاف حوله. ولا يمكن أن يكون للعباسيين أية علاقة بما حدث في الأندلس، لبعدهم عنها، ولأنهم كانوا مشغولين بمشاكلهم السياسية الخاصة بهم التي هي أوجب من الانصراف إلى التفكير في الأندلس البعيدة[49].

قام شارلمان بالتوجه إلى إسبانيا في سنة 162هـ/ 778م وذلك تنفيذاً للاتفاق الذي بينه وبين المتآمرين. فاتجه نحو جبال البرتات وعبرها، ثم هاجم بنبلونة عاصمة الباسك

---

(45) انظر: كارلس ديفز، شارلمان، ترجمة: السيد الباز العريني، القاهرة، 1959، ص 98.

(46) انظر: عنان، المرجع السابق: 1/ 173 ـ 174.

(47) العبادي، المرجع السابق، ص 106، سالم، المرجع السابق، ص 201؛ إبراهيم طرخان، المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة، 1966، ص 172.

(48) انظر: أخبار مجموعة، ص 110 ـ 111.

(49) قارن: بيضون، المرجع السابق، ص 203.

واستولى عليها. واستمر في زحفه آملاً أن تفتح له سرقسطة أبوابها. ويبدو أن الحسين بن يحيى الأنصاري رفض الاستمرار في المؤامرة، فأغلق أبواب المدينة أمام شارلمان الذي شرع في حصارها تمهيداً للاستيلاء عليها بالقوة. ولكن الظروف ساعدت الأندلس، وبشكل خاص الأمير عبد الرحمن الأول، وذلك بفشل خطط شارلمان الذي تلقى أنباء تفيد بحدوث اضطرابات في بلاده، فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة، ورجع إلى بلاده بعد أن أخذ سليمان الأعرابي معه، ودمر في طريقه مدينة بنبلونة.

وبينما كان شارلمان يعبر مع جنوده من ممر رنسفالة أو باب شزروا، كما يسميها العرب، في جبال البرتات، هاجمته قوة مؤلفة من البشكنس أو الباسك، وقضت على مؤخرة جيشه[50]. وفي مصادرنا العربية ما يشير إلى اشتراك العرب في هذا الهجوم الذي قاده اثنان من أبناء سليمان الأعرابي، وهما مطروح وعيشون، اللذان استنقذا أباهما من الإفرنج ورجعا به إلى سرقسطة[51]. وتشير المصادر الأوروبية إلى أن هذا الهجوم قد أفنى مؤخرة جيش شارلمان وقتل عدة قواد من أشهرهم، رولان Roland. وكان مصرع هذا القائد موضوعاً لأنشودة ملحمية تشيد ببطولة هذا القائد وإخلاصه، وهي من شعر الملاحم الفرنسي وتعرف باسم أنشودة رولان[52].

وقد استطاع عبد الرحمن بعد فشل هجوم شارلمان أن يستعيد سرقسطة من المتمردين. أما شارلمان، فقد اضطر للتخلي عن سياسته العدوانية إزاء الأندلس، ولجأ إلى سياسة الدفاع وإقامة الحصون على الحدود، كما اضطر أيضاً إلى مهادنة الأمير عبد الرحمن، حتى يتفرغ لمشاكله الداخلية. ويذكر المقري أن اتصالات جرت بين العاهلين، لإحلال السلم بين دولة الفرنجة والأندلس، بل إن شارلمان طلب المصاهرة لتقوية العلائق بين البلدين، فتم السلم ولم تتم المصاهرة[53]. ولم يقم الأخير بأية مغامرة أخرى في إسبانيا، ونزع من خياله فكرة الاستيلاء عليها وضمها إلى أملاكه.

---

(50) دوزي، المرجع السابق، ص 230.

(51) ابن الأثير، جـ 6، ص 14.

(52) انظر: ديفز، المرجع السابق، ص 102 ـ 103.
Levi-Provençal, op. cit., vol. I pp. 125-126.

(53) المقري: 1/ ص 330 ـ 331.

2 ـ غارات النورمان على الأندلس:

كان النورمان أو (الفيكنج) Vikings من الأمم البحرية العريقة التي تسكن في البلاد الاسكندنافية، أي السويد، والنرويج، والدانمارك الحالية. وكلمة النورمان، تعني سكان الشمال، وهي تحريف لكلمة Norsemen الانكليزية أو Normandos الاسبانية(54). وقد وردت تسمية هذه الأقوام في مصادرنا العربية بأشكال مختلفة، مثل المجوس، والأردمانيون. وكان من طبيعة هؤلاء النورمان حب المغامرة وجوب البحار بحثاً عن الأماكن الضعيفة في الشواطئ لمهاجمتها وسلبها. وقد شمل نشاطهم مناطق عديدة من الجزر البريطانية، وبلاد الافرنج، إضافة إلى الشواطئ الأندلسية والمغربية. ويهمنا من هذه الجماعات تلك التي تنتمي إلى الدانمارك، والتي قامت بمهاجمة السواحل الأندلسية على فترات مختلفة، مدفوعة بدوافع اقتصادية بحتة، نظراً لما تتمتع به هذه السواحل من غنى ورخاء.

تعرضت شواطئ الأندلس الغربية إلى هجمات النورمان لأول مرة في أواخر عام 229هـ/ 844م، وذلك في عهد إمارة الأمير عبد الرحمن الثاني. فقد هاجم أسطول نورماني قوامه عدد كبير من المراكب والقوارب مدينة أشبونة، ولبثوا في مياهها نحو ثلاثة عشر يوماً التحموا فيها مع المسلمين في عدة معارك. وقد قاوم حاكم المدينة وهب الله بن حزم هذا الهجوم، وكتب إلى عبد الرحمن الثاني ينبئه بالأمر، فكتب الأمير إلى عمال الثغور والسواحل بالاحتراس(55). ولكن النورمان وجهوا ضربة أخرى إلى سواحل الأندلس الغربية، فدخلوا في أوائل عام 230هـ/ 844م مصب نهر الوادي الكبير بعد أن مروا بقادس وعاثوا فيها. ثم تابعوا سيرهم حتى أدركوا مدينة إشبيلية وسيطروا عليها لعدة أيام. مارسوا خلالها أبشع جرائم القتل والتخريب والنهب. كما أشعلوا النار في مسجد إشبيلية الجامع(56).

وقد فوجئ أهل الأندلس بهذا الخطر الجسيم، وبخاصة أن البحرية الأندلسية لم تكن قد وصلت إلى مرحلة قوية بعد، ولم تكن تمتلك سوى سفن قليلة تتركز في السواحل الشرقية، وبشكل خاص في المرية. ومع هذا، فقد أمر الأمير عبد الرحمن

---

(54) انظر: العبادي، المرجع السابق، ص 148.

(55) العذري، نصوص عن الأندلس، ص 98؛ ابن عذاري: 2/ 87.

(56) ابن القوطية، ص 66؛ ابن عذاري: 2/ 87 ـ 88.

الأوسط باتخاذ إجراءات سريعة. وتشكيل فرق برية لمطاردة الغزاة في منطقة إشبيلية، والحيلولة دون تقدمهم في البلاد. فأخذوا يضعون لهم الكمائن، ويبثون السرايا التي تمنع النورمان من الرجوع إلى مراكبهم، كما جاءت إلى المنطقة إمدادات من قرطبة ومن الثغر الأعلى مما أدى إلى انهزام النورمان وتكبدهم خسائر فادحة بالقرب من قرية طلياطة Tejada بين لبلة وإشبيلية(57).

وهكذا خرج النورمان من إشبيلية بعد أن عاثوا فيها ما يقارب اثنين وأربعين يوماً. وقد نبه هذا الأمر الخطير الأذهان إلى ضرورة الاهتمام بالبحرية الأندلسية، وإقامة المراكز الدفاعية على السواحل الغربية. فشرع الأمير عبد الرحمن الأوسط بالقيامة بعدة إجراءات سريعة، منها بناء سور حول مدينة إشبيلية ليقيها من أي هجوم مباغت. كما أمر ببناء دار لصناعة السفن الحربية في ميناء المدينة، واستخدم رجالاً متمرسين في حماية السواحل البحرية، ووسع عليهم بالأموال والآلات، التي شملت استخدام النفط المشتعل لقذفه على سفن الأعداء(58).

لم يكتف الأمير عبد الرحمن الأوسط بهذه الإجراءات، بل حاول أيضاً القيام بعمل دبلوماسي ليبعد خطر النورمان عن بلاده، فجرت اتصالات بينه وبين ملك الدانمارك لإحلال السلم بين الطرفين. وقد انتدب الأمير عبد الرحمن أحد الرجال البارزين في بلاطه للقيام بسفارة إلى بلاد النورمان، وهو الشاعر يحيى بن حكم الغزال. وقد أسهب ابن دحية في وصف هذه السفارة وما تعرضت له من الأهوال في الطريق، وجهود الغزال والوفد الأندلسي في الاجتماع بالنورمان والاتصال بهم(59). ويبدو أن ما توصل إليه هذا الوفد لم يكن إلا اتفاقاً مرحلياً، لأن النورمان عاودوا هجومهم على الأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وذلك في سنة 245هـ/ 859م وسنة 247هـ/ 861م(60). ولكن لم يستطع النورمان أن يحققوا في هذين الهجومين انتصاراً يذكر، بل على العكس

(57) المصدر نفسه، جـ 2، ص 87 ـ 88؛ العذري، ص 100.

(58) انظر: ابن القوطية، ص 67.

(59) المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق: مصطفى عوض الكريم، الخرطوم، 1954، ص 130 فما بعدها؛

A. Ali El-Hajji, Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe During the Umayyad Period, Beirut, 1970, pp. 171 ff.

(60) المقتبس، تحقيق مكي، ص 307 ـ 309، 311 ـ 312؛ العذري، ص 118 ـ 119ـ ابن عذاري: 2/ 96.

دُحِروا، وردوا على أعقابهم دون أن يتمكنوا من إلحاق أذى كبير بالمسلمين. ويعود السبب في ذلك إلى أن جهود الأمير عبد الرحمن الأوسط كانت قد أينعت في عهد ولده الأمير محمد، فكان للاحتياطات الدفاعية التي اتخذها في تقوية الأسطول والمحارس والرباطات التي أقامها على طول الساحل الغربي للأندلس، أثر كبير في رد الغزاة والتقليل من شأن هجومهم[61].

(61) لمزيد من التفصيلات عن غارات النورمان على الأندلس، انظر المراجع الآتية: محمد عبد الله عنان، «بين عرب الأندلس والنورمان» مجلة الهلال، ج 3، القاهرة، 1944؛ حسين مؤنس، «غارات النورمان على الأندلس» القاهرة، 1949؛ خليل إبراهيم صالح السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 269 ـ 282.

الفصل الثالث

علاقة الدولة العربية الإسلامية
مع الإمارات الاسبانية في الشمال

نشوء الإمارات الاسبانية:

لقد مر بنا في أثناء الحديث عن فتح العرب لإسبانيا، كيف أنهم وصلوا إلى المناطق الشمالية والشمالية الغربية، وأوغلوا في الجبال الصخرية المفضية إلى سواحل كنتبرية المطلة على المحيط الأطلسي. لكنهم لم يفرضوا سلطانهم على هذه المناطق بشكل فعال، خاصة الركن الشمالي الغربي المسمى بإقليم أشتوريش في جليقية وذلك لوعورة هذه المنطقة، وقساوة مناخها. وقد استغلت بعض فلول القوط المنهزمة هذه الظروف، فلجأت إلى هذه الجبال واختفت فيها تنتظر الفرصة المواتية للتجمع والاستعداد لمقاومة الفتح العربي للأندلس. أما المسلمون فقد استهونوا أمر هذه الأماكن، وقلة عدد القوط الملتجئين إليها، فتركوهم وشأنهم، وانصرفوا إلى شؤونهم الداخلية، مما هيأ لهذه الأعداد القليلة الجو لتكوّن لنفسها كياناً قوياً يستطيع مع الأيام أن يناهض المسلمين في الأندلس، وينقلب من الدفاع إلى الهجوم، كما سنرى فيما بعد.

وكان تجمع فلول الاسبان في جبهتين؛ الأولى في هضاب كانتبرية، أي في نافار وبسكونية في الشرق؛ والثانية في هضاب أشتوريش في الغرب. وقد تمركزت الجماعة الأولى تحت لواء زعيم يدعى الدوق بِطْرُة أو بتروس Pedro، الذي ينتمي إلى أحد الأصول الملكية، وكان من قادة الجيش في عهد الملكين القوطيين غيطشة ولذريق. ولكن الإمارة التي أنشأها هذا الزعيم كانت قليلة الخطر والأهمية، وذلك لوقوعها في الطرف الغربي من جبال ألبرت في سهول نافار وبسكونية، ولهذا فقد كانت عرضة لاقتحام القوات الإسلامية أثناء ذهابها إلى جنوب فرنسا وإيابها منها[1]. أما إمارة جليقية

---

(1) انظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: 1/ 208 ـ 210؛ خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 101 فما بعدها.

أو مملكة أشتوريش، فقد كانت أعظم خطراً من إمارة كانتبرية لأنها تقع في جبال وعرة بعيدة عن طريق غزوات الفاتحين. فقد اعتصم فيها مجموعة من فلول القوط والتجأوا إلى مغارة تدعى كوڤادونكا Covadonga، التي تقع في سلسلة جبال كانتبرية المنيعة، في أعلى قممها، التي يطلق عليها الاسبان اسم قمم أوروبا Picos de Europa، بينما يسميها المؤرخون المسلمون بالصخرة ويجعلونها في جليقية[2]. أما القائد الذي التفت حوله هذه الفلول، فيدعى بلايو Pelayo أو بلاجيوس Pelagius. وتعرفه الرواية العربية باسم بلاي، وهو شخصية يحيط بأصلها الغموض، لكنه على الأرجح ينتمي إلى أصل قوطي نبيل. وتقول بعض الروايات أنه كان ابناً للدوق فافيلا، دوق كنتبرية[3]، وأنه كان الساعد الأيمن للملك لذريق. وقد وقع بلاي أسيراً بأيدي المسلمين، وسجن في قرطبة، لكنه تمكن من الفرار في زمن الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة 98هـ/ 718م، واتجه إلى منطقة أشتوريش في الشمال الغربي من البلاد[4]. وأخذ يتنقل في هذه المنطقة حتى استقر به المقام في قرية كانجا دي أُونيس Cangas، حيث التف حوله نفر من القوط الهاربين من المسلمين، ومن الآيبيريين والرومان المقيمين في هذه المنطقة. فأخذ يحرضهم على الوثوب بالعرب، ويعيب عليهم الاستسلام والتراجع[5]. وقد لوحق بلاي من قبل منوسة، القائد البربري المسلم في منطقة الاشتوريش، لكن بلاي تمكن من الافلات منه والاختفاء في الجبال المنيعة، وبخاصة في منطقة الصخرة الآنف ذكرها.

وقد استهون المسلمون أمر هذه الشرذمة الصغيرة، وانصرفوا إلى شؤونهم الداخلية، وانشغلوا بعوامل الفرقة والخلاف، وخاصة بعد تمرد البربر في الأندلس. فاستغل الاسبان هذه الفرصة، وشرعوا بالتحرك والانحدار نحو الجنوب والاستيلاء على المناطق التي تركها البربر. وعندما تنبه المسلمون إلى هذا الأمر، الذي بدأ يشكل خطراً عظيماً على وجودهم في شبه الجزيرة، حاول بعض ولاتهم أن يتصدوا لهذه الإمارة، فأرسلوا إليها بعض الحملات التي لم تستطيع القضاء عليها نظراً لوعورة المنطقة. وتشير بعض الروايات المسيحية إلى أن بلاي وجماعته، حققوا نصراً باهراً على المسلمين سنة

---

(2) انظر: أخبار مجموعة، ص 28؛ ابن عذاري: 2/ 29.

(3) انظر: ابن خلدون، كتاب العبر: 4/ 386؛ وراجع مؤنس، فجر الأندلس، ص 318 فما بعدها؛ وبحثه الموسوم «بلاي وميلاد اشتريس» مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، مجلد 11، جـ 1، القاهرة، 1949.

(4) المقري، نفح الطيب: 4/ 350.

(5) المصدر نفسه: 3/ 17؛ وانظر: مؤنس، فجر الأندلس ص 334.

104هـ/722م حينما أرسل الوالي عنبسة بن سُحيم حملة لسحق العصاة بقيادة قائد عربي اسمه علقمة اللخمي(6).

لقد بالغت المصادر المسيحية في تصوير هذه الحادثة وشوهت تفاصيلها، فجعلتها شيئاً أشبه بالفتح المبين الذي تم بإرادة وتدبير القوة الإلهية(7). وقد زاد مؤرخو الاسبان هذا النصر تقديراً وإجلالاً فجعلوه بداية لصراعهم من أجل إخراج المسلمين من الأندلس. ولكن على الرغم من هذا، فإن حولية لاتينية معاصرة، هي حولية عام 754م، لا تذكر شيئاً عن هذه المعركة. وهذا يعكس التأثير الحقيقي الذي تركته هذه الحادثة في الأندلس، حيث لا بد أنها عُدت مناوشة صغيرة، أو حادثة ثانوية بين مجموعتين من الأفراد. وهذه الحادثة وحدها لم تكن تعني شيئاً لو لم يعقبها من الأمور التي زادت في قيمتها وأهيمتها، وبشكل خاص اختلاف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم في الأندلس، مما مهّد السبيل لبلاي وأنصاره بالقوة والانتشار إلى المناطق التي كانت بيد العرب والمسلمين.

وهناك خلاف بين المؤرخين القدامى والمحدثين بشأن التاريخ الصحيح لهذه المعركة، التي أصبحت تسمى بمعركة كوفادونجا، فمنهم من يجعلها في عهد عنبسة بن سحيم، ومنهم من يجعلها في عهد عقبة بن الحجاج السلولي، والأرجح أنها حدثت في عهد الأول، كما سبق وذكرنا ذلك أثناء الحديث عن النشاط الحربي للعرب في شمال إسبانيا(8). وقد هاجم عقبة منطقة جليقية وحاول افتتاحها، لكنه لم يفلح في القضاء النهائي على بلاي وبعض أنصاره الذين اعتصموا بالصخرة الشهيرة Picos de Europa. وكان هؤلاء من القلة وصغر الشأن بحيث احتقرهم المسلمون وتركوهم وانصرفوا استخفافاً بهم(9). وكان إغفال أمر هؤلاء المقاتلين من أعظم الأخطاء التي ارتكبها العرب في الأندلس. فقد قويت معنوية بلاي وجماعته بانسحاب المسلمين، فانضم إليه الكثير من الأنصار، الذين اختاروه ملكاً عليهم، فكان هذا إيذاناً بميلاد مملكة أشتوريش

(6) انظر: المقري (برواية عيسى بن أحمد الرازي): 4/350 ـ 351.

(7) The Chronicle of Alfonso III, pp. 614-615.
Ibid., p. 614.

(8) لمزيد من التفاصيل والآراء المختلفة بشأن معركة كوفادونجا وبلاي راجع: مؤنس، فجر الأندلس، ص 318 ـ 342.

(9) أخبار مجموعة، ص 28؛ ابن عذاري: 2/29.

المسيحية. وقد وجد بلاي الفرصة سانحة لتوطيد أمره وسلطانه في هذه المناطق الجبلية التي هجرها المسلمون منذ تمرد البربر. وأخذ يغير على المناطق الإسلامية المتاخمة، خاصة بعد أن انشغل المسلمون بالفتنة بين أبي الخطار والصميل بن حاتم الكلابي، فقوي مركزه، وثبتت أقدام المملكة الجديدة.

استمر بلاي في حكم مملكة أشتوريش إلى وفاته في عام 119هـ/ 737م، ثم ورثه ابنه فافيلا، الذي دام حكمه سنتين فقط، حيث قتله دب تعرض له في الصيد[10]. وكان الدوق بتروس، دوق كنتبرية، قد توفي في ذلك الحين أيضاً، فورثه ابنه أذفونش (ألفونسو الأول) الملقب بالكاثوليكي. وقد توطدت أواصر التحالف بين إمارة كانتبرية ومملكة أشتوريش وذلك بتزوج ألفونسو من ابنة لبلاي تدعى أرمسندا Ermesinda[11]. ثم اختار أهل جليقية ألفونسو ملكاً عليهم، فقام على أثر ذلك اتحاد بين الإمارتين، وقامت منهما حكومة واحدة هي مملكة ليون، أو مملكة جليقية، كما تسميها الرواية الإسلامية.

ويعد ألفونسو الأول المؤسس الحقيقي لإسبانيا النصرانية، فقد وسعها، وقواها، وأزاح عنها خطر الدولة العربية الإسلامية في الأندلس إلى حين، فحكم في ظروف مؤاتية (121 ـ 140هـ/ 739 ـ 757م)، لأن الخلافات الداخلية كانت قد شغلت المسلمين عنها لسنوات طويلة. فانتهز ألفونسو فرصة تمرد البربر، ونزوحهم من المناطق التي كانوا قد سيطروا عليها في أشتوريش وكنتبرية وجليقية، وكذلك هجرة الكثير من العرب الذين كانوا يستقرون في هذه النواحي، وهلاكهم نتيجة للفتنة التي وقعت بينهم وبين البربر. يضاف إلى ذلك فقد حل القحط بالأندلس سنة 133هـ/ 750م واستمر لعدة سنوات، وكان تأثيره شديداً على المناطق الشمالية، فجلا كثير من المسلمين عن هذه الأنحاء مخلفين منطقة واسعة تفصل بين جليقية وأراضي المسلمين. فاجتاح الاسبان هذه المناطق، وقتلوا من بها من المسلمين، وأخرجوا البقية عن جليقية كلها، وعن استورقة وغيرها من المناطق حتى نهر دويرة Duero[12]. وهكذا خسر المسلمون مراكز هامة مثل ليون Leon وسمورة Zamora، وشلمنقة Salmanca، وشقوبية Segovia، وأبلة Avila، وغيرها، وكلها أماكن بذلت الجيوش العربية الفاتحة الكثير من الجهد والعناء في فتحها.

---

(10) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 323.

(11) المصدر نفسه، ص 223؛ وانظر أيضاً: مؤنس، المرجع السابق، ص 344.

(12) انظر: أخبار مجموعة، ص 28، 62؛ مؤنس، المرجع السابق، ص 345 فما بعدها.

وقد أصبحت حدود الأندلس الإسلامية، عند وفاة ألفونسو الأول في مستهل تأسيس الإمارة الأموية، تمتد من سواحل المحيط الأطلسي مارة بقلمرية وقورية وطلبيرة وطليطلة ووادي الحجارة وتطيلة ثم تنتهي عند بنبلونة. أما حدود الإمارة الاسبانية فكانت تضم أشتوريش، وسانت أنديرِ Santander، وأجزاء من برغش Burgos، وليون وجليقية. أي أن إمارة جليقية سيطرت على نحو ربع شبه الجزيرة الآيبيرية. أما المناطق التي كانت تقع بين هذين الخطين المذكورين، فكانت مسرحاً للخلاف والمنازعات والحروب الدائمة بين العرب والاسبان[13].

لقد عمل كل من ألفونسو الأول، وأخيه فرويلا، الذي عينه حاكماً على مقاطعة كانتبرية، على توسيع هذه المملكة الاسبانية، ومناهضة المسلمين في الجنوب. فكانا يغيران على الأراضي الإسلامية المجاورة، وخاصة في عهد يوسف الفهري الذي كان مشغولاً بالمشاكل والثورات الداخلية. فاستولى ألفونسو على مدينة لك Lugo الحصينة، كما عبر نهر دويرة أكثر من مرة، وعاث في أراضي الأندلس. واستمر الوضع على هذه الشاكلة حتى وفاة فرويلا سنة 146هـ/ 764م، وأخيه ألفونسو في العام التالي أي 147هـ/ 765م. وقد خلف ألفونسو ابنه فرويلا الأول، الذي سار على نفس المنوال في غزو أراضي الدولة العربية الإسلامية، مستغلاً انشغال عبد الرحمن الأول بالثورات الخطيرة التي جابهته في أوائل حكمه[14]. وتوالى الملوك والأمراء على حكم مملكة جليقية بقسميها الشرقي والغربي، ونخص بالذكر منهم غرسية بن ألفونسو الثالث (297 ـ 301هـ/ 910 ـ 914م) الذي نقل العاصمة من مدينة أوفيدو Oviedo إلى مدينة ليون، لتوسط موقعها بين جليقية وأشتوريش. ويدل هذا الإجراء على مدى القوة التي وصلت إليها هذه المملكة، حيث تركت المناطق الجبلية، ونزلت إلى السهول لمواجهة العرب. ومنذ هذا الوقت سُميت هذه المملكة الاسبانية باسم مملكة ليون، بعد أن كانت تسمى مملكة أشتوريش وجليقية.

وقامت إلى جانب مملكة ليون إمارة أو مملكة اسبانية أخرى، هي مملكة نافار أو نبارّة، في منطقة الجنوب الغربي من جبال ألبرت Pyrenees في بلاد الباسك أو البشكنس الجبلية. وكانت هذه الإمارة في أول أمرها تخضع إلى سلطة بعض النبلاء

(13) The Cambridge Medieval History, vol. III, p. 410.

وانظر أيضاً: مؤنس، المرجع السابق، ص 349 ـ 350.

(14) انظر: عنان، المرجع السابق: 1/ 214 ـ 215.

التابعين للفرنج أو لأمراء من كانتبرية وأشتوريش، الذين اتخذوا مدينة بنبلونة عاصمة لهم. ولم يستطع أمراء جليقية رغم الغزوات العديدة التي شنوها على هذه الإمارة، أن يضموها إلى مملكتهم وذلك لتفاني البشكنس في الدفاع عن استقلالهم. ومن زعماء هذه الإمارة غرسية أنيجز Garcia Iniguez، الذي يسميه ابن حزم[15]، بملك البشاكسة، والذي كان على صلة طيبة ببني قسي المولدين، سادة الثغر الأعلى، فقد ارتبط معهم برباط التحالف والمصاهرة، وحارب مع زعيمهم موسى بن موسى بن فرتون ضد أردونيو الأول، ملك جليقية، في معركة البلدة Albelda سنة 248هـ/ 862م[16]. وخلف غرسية ابنه فرتون الذي قضى فترة طويلة أسيراً في قرطبة[17]، لكنه عزل عن الحكم بعد أن تغلب عليه شانجة غرسية الأول Sancho Carcia I (263 ـ 314هـ/ 905 ـ 926م)، الذي كان أول من تلقب بلقب ملك من أمراء نافار، ويعد المؤسس الحقيقي لهذه المملكة[18].

وبالإضافة إلى مملكتي ليون ونافار، قامت مملكة أخرى في شمال إسبانيا، وذلك في الأراضي التي كانت تقع بين مملكة ليون في الغرب، ومملكة نافار في الشرق. وكانت هذه المناطق تسمى (بردوليا) ثم سميت فيما بعد باسم قشتالة Castilla، لكثرة الحصون التي كانت تقوم بها. وأصل هذه الحصون والقلاع يعود إلى جهود مملكة ليون التي أقامتها وأحاطت نفسها بها للحماية من هجمات المسلمين. وقد عرفت هذه الحصون في المصادر العربية باسم القلاع، كما سميت أيضاً نسبة إلى ولاية ألبة Alava باسم ألبة والقلاع. وكان سكان هذه المناطق من البشكنس وأهل ألبة يحكمون من قبل أمراء تابعين لمملكة ليون، لكنهم كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال الذاتي ليتمكنوا من محاربة المسلمين[19]. أما عاصمة المنطقة فكانت يومئذ في مدينة بُرْغُش Burgos. وقد حاول هؤلاء الأمراء المحليون جهدهم للمحافظة على هذا الاستقلال الذاتي، بل التحرر من سلطة مملكة ليون. وقد سنحت لهم هذه الفرصة، حينما اتحدت معظم القلاع في

---

(15) جمهرة أنساب العرب، ص 502.

(16) المصدر نفسه، ص 502، وانظر أيضاً: عنان، المرجع السابق، جـ 1، ص 298، 362؛ عبد الرحمن الحجي، أندلسيات، المجموعة الثانية، بيروت، 1969، ص 53؛ خليل السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 340.

(17) ابن عذاري: 2/ 97.

(18) عنان، المرجع السابق: 1/ 363.

(19) انظر: العبادي، في تاريخ الأندلس والمغرب، ص 78.

القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بزعامة الكونت فرنان كونثالث Fernan Gonzalez، أو فرّ أن غُنصَالِس، كما يسميه ابن الخطيب[20]. وكان كونثالث زعيماً قوياً ضد خصومه ملوك ليون، فأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون. وعلى الرغم من هزيمته وأسره من قبل الملك، ظل أنصاره من سكان القلاع مخلصين لزعيمهم المأسور، واستمروا في الثورة، مما اضطر راميرو الثاني إلى إطلاق سراحه. فعمل كونثالث على توطيد مركزه وتوحيد كل قشتالة تحت لوائه. وقد استطاع أن يحقق هذه الغاية، ويجعل الملك وراثياً في أبنائه في إمارة قشتالة المستقلة عن مملكة ليون. ثم أخذت هذه الإمارة تتسع شيئاً فشيئاً على حساب أراضي المسلمين والمسيحيين على السواء، حتى سيطرت على كل إسبانيا، كما سنرى فيما بعد، وصارت لغتها القشتالية هي اللغة الاسبانية الرسمية في البلاد[21].

لقد كانت العلاقات بين هذه الإمارات الاسبانية الثلاث، وغيرها من الإمارات الصغيرة الأخرى، مثل إمارة برشلونة التي كونت نواة لإمارة قطالونية Catalonia فيما بعد والتي دمجت في مملكة أراغون Aragon عام 532هـ/1137م. تتذبذب بين السلم والحرب حسب مصالح واهتمامات حكامها ومطامعهم. فحينما تكون هناك منفعة مشتركة للجميع، يحصل التقارب بين هذه الإمارات لمواجهة المسلمين في الأندلس. ولكن تضارب المصالح، والنزاع على السلطة بين أفراد الأسر الحاكمة، أو ثورات النبلاء، ومحاولاتهم للاستقلال كانت تدفع بعض هؤلاء الأمراء الاسبان لطلب العون من الأمراء الأمويين في قرطبة. يضاف إلى ذلك، فإن سوء الأحوال الداخلية، كثيراً ما كانت تفرض على حكام الإمارات الاسبانية عقد السلم والمهادنة مع الدولة العربية الإسلامية. لكنهم إذا ما شعروا بالقوة، أو بإنشغال المسلمين في مشلكة داخلية، لا يترددون في نقض عهودهم، وغزو الأراضي التابعة للأندلس[22]. ويمكن القول إجمالاً أن علاقات هذه الإمارات مع الدولة العربية الإسلامية، ومواطنيها كانت تشمل إلى جانب الحروب، وما يعقبها من مآسٍ ونكبات بالنسبة إلى الطرفين، أموراً أخرى تبرز في أوقات السلم والصفاء، كالمراسلات الدبلوماسية، وعلاقات المصاهرة، وانتقال التأثير الحضاري المشترك بين هذه الإمارات الاسبانية ومواطني الدولة العربية الإسلامية في الأندلس.

---

(20) أعمال الاعلام، ص 325.

(21) العبادي، المرجع السابق، ص 78.

(22) انظر: عبد الرحمن الحجي، أندلسيات، (2)، ص 54 ـ 56.

العلاقات بين الأندلس والإمارات الاسبانية:

1 ـ العلاقات الحربية:

سادت العلاقات الحربية بصورة عامة بين الأندلس والإمارات الاسبانية في الشمال. وكانت الحملات العسكرية العربية تزداد كثافة باتجاه الشمال، كلما كانت الأحوال الداخلية مستقرة، والأوضاع هادئة في الأندلس، فيتفرغ الأمراء لمكافحة الخطر الخارجي المتمثل بالإمارات الاسبانية. وكذلك الحال بالنسبة لهذه الإمارات فكانت تشن الهجوم على أراضي الأندلس في الفترات التي تشعر فيها بقوتها، وضعف المسلمين. من ذلك مثلاً ما حدث في عهد فرويلا الأول الذي استغل انشغال الأمير عبد الرحمن الأول بالقضاء على تمرد العلاء بن مغيث، فأغار على أراضي الدولة العربية الإسلامية، وعبر نهر دويرة، وغزا لُك وشلمنقة، وشقوبية، وآبلة وسمورة وغيرها[23]. وكان لا بد لعبد الرحمن الأول أن يتخذ إجراءات كفيلة برد الخطر الاسباني، فجرد، برغم انشغاله بالفتن الداخلية، حملة تأديبية يقودها مولاه بدر إلى الشمال، وبشكل خاصة إلى منطقتي ألبة والقلاع، وهي الأراضي الواقعة بين بلاد الباسك وجبال كانتبرية على ضفاف نهر الإبرة شرقي مملكة جليقية. وقد حققت هذه الحملة نجاحاً ملحوظاً، وأرغمت سكان هذه المناطق على دفع الجزية للدولة العربية الإسلامية[24].

والظاهر أن حملة بدر هذه كانت ذات أثر كبير على طبيعة العلاقات التي سادت فيما بعد بين عبد الرحمن الأول وإمارة جليقية. فلقد أوقفت النشاط التوسعي لهذه الإمارة على حساب الأندلس، يضاف إلى ذلك فقد خيم السلام على المنطقة في عهد الملوك الذين عاصروا عبد الرحمن، والذين كانوا بمثابة أتباع للحكم الأموي ويدفعون الجزية إلى قرطبة. وقد بلغ نفوذ العرب حداً كبيراً في التدخل بشؤون هذه الإمارة، حتى أنهم كانوا يتدخلون في الخلافات التي كانت تنشب بين الأمراء الاسبان للوصول إلى العرش، فيساعدون الموالين منهم على التغلب على مناوئيهم. ويدين أحد هؤلاء الأمراء، وهو مورقاط (مورجاتو Mauregato)، للعرب بوصوله إلى الحكم. ومما يذكر أن هذا الحاكم الأخير كان من أصل عربي من جهة الأم، وقد بالغ في التقرب إلى المسلمين والتودد إليهم[25].

---

(23) ابن الأثير: 5/ 500؛ المقري: 1/ 330.

(24) ابن عذاري: 2/ 54؛ وانظر: عنان، المرجع السابق: 1/ 216.

(25) انظر: المرجع السابق: 1/ 219؛ أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ص 100؛ =

ولكن العلاقات الحربية سرعان ما عادت إلى وضعها الأول بعد وفاة مورجاتو سنة 173هـ/ 789م، وتولي بَرْمود أو برمودة Vermudo[26]. الذي عزل بعد نحو سنتين، ثم حكم بدلاً منه ألفونسو الثاني الذي يسميه العرب بـ إذْفونش (175 ـ 227هـ/ 791 ـ 842م). ففي هذه الحقبة التي تولى فيها الأندلس هشام بن عبد الرحمن، وابنه الحكم، وحفيده عبد الرحمن بن الحكم، اشتدت الاشتباكات والغزوات بين الجانبين. فقد سيرت الدولة حملات في كل صيف تقريباً في عهد هشام، وحققت انتصارات كبيرة على إمارة جليقية. وكان على رأس هذه الحملات المتجهة إلى الشمال قواد معروفون ساهموا في إقامة الدولة الأموية في الأندلس، منهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، ويوسف بن بخت، الذي أنزل بالملك بَرْمُود هزيمة ساحقة، واضطره إلى الفرار بنفسه إلى معاقله بعد أن تكبد جيشه عدداً كبيراً من القتلى[27]. ومن القادة الآخرين: عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، الذي قاد صائفة سنة 179هـ/ 795م حتى انتهى إلى مدينة استرقة داخل جليقية، بل إنه وصل مدينة أوفيدو، العاصمة القديمة للإمارة الاسبانية وهزم ألفونسو الثاني الذي كاد يقع أسيراً في يديه، لولا فراره إلى إحدى القلاع البعيدة في الشمال[28].

وقد استغل ألفونسو الثاني انشغال الحكم الأول ببعض الفتن الداخلية، وبخاصة تمرد ماردة، فهاجم أراضي الدولة العربية وتوغل فيها، حيث عبر نهر دويرة، وسار حتى قلمرية وأشبونة في البرتغال الحالية، وعاث في تلك المنطقة، وخربها. فرد الحكم بأن سار بنفسه سنة 194هـ/ 810م وغزا بلاد الأعداء واستعاد المدن المغتصبة. ثم باشر في إرسال الحملات إلى الشمال، ومنها حملة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث سنة 200هـ/ 816م إلى جليقية التي أنزلت ضربة قوية بسكان المنطقة في وادي آرون Arun[29].

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم، الذي تميز بهدوء نسبي للأحوال الداخلية في الأندلس، استمرت الحملات الصائفة إلى الشمال، وقلما كانت تمر سنة دون جهاد

= بيضون، الدولة العربية في اسبانيا، ص 199.

(26) Livermore, The Origins of Sapin and Portugal, pp. 340-357.

(27) ابن عذاري: 2/ 63 ـ 64.

(28) المصدر نفسه: 2/ 64 ـ 65.

(29) المصدر نفسه: 2/ 73 ـ 75؛ وانظر: بيضون، المرجع السابق، ص 235 ـ 236.

للأعداء، بل إن عبد الرحمن الثاني شارك بنفسه في بعض هذه الحملات، وبخاصة سنة 225هـ/ 840م حيث غزا جليقية وفتح الكثير من حصونها. كما قام بنفسه أيضاً بقيادة حملة تأديبية لحاكم تطيلة، موسى بن موسى بن فرتون، الذي تحالف مع الباسك، فأخضع أتباعه في تطيلة وتقدم إلى بنبلونة عاصمة الباسك، التي التجأ إليها موسى، فأخضعها وفرض على أهلها وعلى موسى الصلح[30].

وهكذا استمرت الحملات إلى الشمال، واستمر النزاع بين القوتين المختلفتين في شبه الجزيرة، لكن الموقف الحربي تطور في أواخر عهد الإمارة الأموية، فبالإضافة إلى استمرار الحملات، قام كل من الجانبين بإعمار وتحصين خطوط دفاعه تجاه الجانب الآخر، فبدأت إمارة جليقية بإعمار استرقة، وليون، وإماية، وبرغش، وبقية المناطق جنوباً إلى نهر دويرة. أما العرب، فحصنوا روافد نهر تاجة الشمالية، وروافد نهر الابرة، كما بنى الأمير محمد بن عبد الرحمن مدينة مجريط (Madrid مدريد الحالية)، وطلمنكة Talamanca، وأسكن بني تجيب مدينة قلعة أيوب وحصنها لهم، وبنى لهم حصن دروقة لمواجهة الخطر الاسباني في الشمال[31].

وأخيراً تجدر الاشارة إلى أن العلاقات الحربية في عصر الإمارة تميزت بطابع روحي خاص. فأهل الأندلس يعدون حملاتهم على الممالك الاسبانية جهاداً في سبيل الله، بينما كان اسبان الشمال يعززون من مقاومتهم للعرب بتأجيج الروح الصليبية. وكان لقبر القديس يعقوب، (سانتياجو) في مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela تأثير كبير في إثارة الروح المعنوية عند الاسبان. ولم تكن الحملات التي يشنها هؤلاء في حقيقتها سوى حرب صليبية «يقود فيها سانتياجو جحافل الاسبان ضد أعدائهم على مر القرون»[32].

2 ـ العلاقات الدبلوماسية والمصاهرات:

تخللت حقب الحروب الطويلة بين الأندلس والإمارات الاسبانية في الشمال

---

(30) ابن عذاري: 2/ 85، 86 ـ 87.

(31) انظر: الحميري، الروض المعطار، ص 76، 128، 179 ـ 180، وانظر أيضاً: أحمد بدر، المرجع السابق، ص 217 ـ 218.

(32) دورثي لودر، اسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة، طارق فودة، القاهرة، 1965، ص 61؛ وانظر: أحمد مختار العبادي، «صورة لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس»، مجلة البينة، الرباط، 1962 ـ 1963، ص 92؛ خليل السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 155.

سنوات عديدة تميزت بعقد هدنات أعطت للجانبين فرصاً كثيرة للاتصال والتعرف والاقتباس. وكانت هناك اتصالات دبلوماسية بين الطرفين، وإن كانت هذه الاتصالات لا تبدو واضحة جداً في هذا العهد، لأن بعض الإمارات الاسبانية كانت ما تزال في طور النمو والتكوين. لكن العهد التالي، أي عهد الخلافة، تميز بنضج هذه العلاقات، وتبادل الوفود والسفارات بين الجانبين على نطاق واسع. ومع هذا، فهناك ما يشير إلى وجود علاقات من هذا القبيل في عهد الإمارة، وإن كانت قليلة جداً. ففي عهد عبد الرحمن الأول تم عقد أمان وسلام بين هذا العاهل الأندلسي وبين جيرانه حكام قشتالة، وهذا هو نص كتاب الأمان: «بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة، ومن تبعهم من سائر البلدان. كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا يُنسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح، في كل عام إلى خمس سنين، كُتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة (حزيران 759م)[33].

وفي الحقيقة لا توجد لدينا تفصيلات عن هذه المعاهدة ولا الظروف التي عقدت فيها. ولكن يبدو من تاريخها أنها عقدت في أيام فرويلا الأول. ويرتاب بعض المؤرخين المحدثين في صحة الأرقام التي وردت فيها لضخامتها بالنسبة لموارد الإمارة الاسبانية في ذلك الوقت المبكر. كما يشكّون أيضاً في الوثيقة ذاتها، وإن كان لا يوجد لديهم حجة حاسمة لترجيح إنكارها[34]. بل على العكس، فقد كان عبد الرحمن الأول قوياً في تلك الحقبة، مما جعل فرويلا الأول عاجزاً عن مواجهته والتصدي له، لذلك يحتمل أنه لجأ إلى الموافقة على عقد مثل هذه المعاهدة. ولقد رأينا فيما سلف أن العلاقة بين إمارة جليقية، والدولة الأموية في عهد عبد الرحمن الأول، تميزت بالهدوء والسلام بعد حملة بدر إلى الشمال، وأن أمراء الاسبان الذين تولوا الحكم خلال الفترة

---

(33) M. Casiri, Bebliotheca Arabico-Hispana Escurialensis, Madrid, 1770, vol. II.
وقد نقل الغزيري هذا النص عن مخطوطة الإحاطة لابن الخطيب في الاسكوريال، انظر: عنان، المرجع السابق، ص 199.

(34) المرجع نفسه، ص 199، هامش رقم (1)؛ عبد الرحمن الحجي، أندلسيات (2)، ص 65 ـ 66، والمراجع التي يشير إليها في الهوامش.

الباقية من حكمه، تميزوا بسياستهم التَقَرُبية والموالية لحكومة قرطبة.

ولا توجد علاقات ودية ذات أهمية في عهد بقية الأمراء الأمويين، باستثناء عبد الرحمن الثاني أو الأوسط، الذي وصلت الدولة العربية في الأندلس في عهده إلى مكانة سامية، وأصبحت مركزاً للنشاط الدبلوماسي والسفارات في المغرب الإسلامي. وقد وصلت هذه العلاقات الدبلوماسية أوجها مع الامبراطورية البيزنطية[35]. أما بالنسبة للعلاقات مع الاسبان، فلم تكن بتلك القوة، وكانت بعض معاهدات الصلح تُفرض بعد الانتصارات التي يحققها أهل الأندلس على جليقية وبقية المناطق الأخرى، من ذلك مثلاً الصلح الذي فرضه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث على الجلالقة، بعد أن غزاهم سنة 208هـ/ 823م بغزوته المعروفة بغزاة ألبة والقلاع[36]. والتي كانت رداً على هجومهم على مدينة سالم في الثغر الأعلى. وكان من بنود هذا الصلح اطلاق سراح جميع الأسرى من الأندلس، ودفع جزية كبيرة، وتسليم بعض زعماء المنطقة إلى الدولة ليكونوا رهائن، ضماناً لعدم اعتدائهم في المستقبل[37]. وقد حدثت بعض الاتفاقات بين إمارة نافار وعبد الرحمن الأوسط. وكانت هذه الإمارة قد بدأت بالتحرر من سيطرة الافرنج، وتدخلهم في شؤونها، مما جعلها تتوجه إلى الأندلس لطلب العون والاسناد. ولهذا السبب فقد جاءت سفارة نافارية إلى بلاط عبد الرحمن الأوسط في قرطبة، وعقدت معاهدة بين الطرفين، تعهدت الدولة بموجبها بحماية نافار من أي اعتداء خارجي، مقابل مساعدة النافاريين لأهل الأندلس فيما إذا أرادوا عبور جبال ألبرت إلى فرنسا[38]. ولكن لم تكن هذه المعاهدات تحترم كثيراً من قبل أمراء الاسبان، بل كانت تُنقض في معظم الأحيان، خاصة إذا ما شعروا بقوتهم وضعف الدولة العربية الإسلامية في الأندلس.

وبالنسبة للمصاهرات بين العرب في الأندلس والمسيحيين، فقد كانت شائعة سواء في داخل الأندلس ذاتها أم مع الإمارات الاسبانية في الشمال. وكان الحكام يشجعون هذه المصاهرات، بل إن بعضهم قد تزوج من نساء إسبانيات، مثل عبد العزيز بن موسى ابن نصير، الذي تزوج من أرملة لذريق آخر ملوك القوط. ومن حكام المسيحيين الذين

---

(35) انظر: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي؛ القاهرة، 1956، ص 95 فما بعدها؛ العبادي، المرجع السابق، ص 151 ـ 154.

(36) ابن عذاري: 2/ 81 ـ 82.

(37) انظر: المقري: 1/ 344 ـ 345؛ عنان، المرجع السابق: 1/ 256، أندلسيات (2)، ص 70 ـ 71.

(38) المرجع نفسه، ص 72.

شجعوا هذا الاتجاه مورجاتو المتوفى سنة 173هـ/ 789م، الذي استقل في جليقية، وبالغ في التودد إلى المسلمين، وشجع بحماس زواج الفتيات المسيحيات من المسلمين. وكان هذا الحاكم، نفسه ابناً لألفونسو الأول من أم عربية، ولكن دعوته لم تلاقِ النجاح المطلوب بسبب بعض النصارى المتعصبين ورجال الدين له[39].

وقد قامت علاقات مصاهرة قوية بين بعض الأسر المتنفذة في منطقة الثغر الأعلى، مثل بني قسي المولدين، وبين حكام نافار في الشمال[40]. ويبدو أن مثل هذه الأسر المولدة قد أرادت تقوية نفوذها بالزواج، هذا فضلاً عن عامل الجوار والقرب الذي يربط بين الطرفين. وكانت علاقات المصاهرة هذه من القوة بحيث كان بنو قسي يقفون أحياناً مع أصهارهم النافاريين بوجه حكومة قرطبة، أو الحكام الاسبان الآخرين[41].

ومن المصاهرات الطريفة التي حدثت في هذا العهد، زواج الأمير عبد الله بن محمد من إحدى الأميرات النافاريات، وهي ونقة Iniga ابنة فرتون بن غرسية Fortun Garces المعروف بالأنقر، الذي أسره الأمير محمد بن عبد الرحمن، وسجنه في قرطبة لمدة عشرين سنة[42]. وكانت ونقة هذه قد تزوجت قبل ذلك من أمير نافاري، هو أزنار بن شانجة Aznar Sanchez، وأنجبت منه إبنة، هي طوطة Toda، التي ستصبح ملكة نافار، وتعاصر عبد الرحمن الثالث، وتفد عليه في سفارة سنة 347هـ/ 958م ساعية إلى عقد معاهدة سلم وصداقة مع قرطبة[43]. أما ثمرة زواج الأميرة ونقة الثاني من الأمير عبد الله، فكانت ابناً، وهو الأمير محمد والد عبد الرحمن الثالث وبذلك تكون الملكة طوطة عمة الخليفة عبد الرحمن الناصر، لأنها أخت محمد، والد الناصر، من أمه ونقة[44]. وتدل هذه المصاهرة على مدى العلاقات المتشابكة التي قامت بين سكان الأندلس وجيرانهم الاسبان في الشمال، مما كان له أثر بارز في احتكاك الشعبين واختلاطهم، وانتقال مظاهر الحضارة فيما بينهم.

---

(39) انظر: عنان، المرجع السابق: 1/ 219؛ أندلسيات، (2) ص 81.

(41) انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 502 ـ 503؛ خليل السامرائي، المرجع السابق، ص 340.

(41) انظر: العذري، ص 31 فما بعدها.

(42) ابن عذاري: 2/ 97.

(43) المقري: 1/ 366.

(44) انظر: أندلسيات (1)، ص 83 ـ 85.

3 ـ العلاقات الحضارية:

لقد كان تداخل المسلمين والمسيحيين مستمراً في إسبانيا في عصر الإمارة والعصور الإسلامية الأخرى اللاحقة، سواء كان ذلك داخل الأندلس ذاتها أم في خارجها مع الإمارات الشمالية. ولم يقتصر هذا التداخل والاحتكاك على فترات السلم فقط، بل شمل فترات الحروب أيضاً. فعندما يتصل شعبان أحدهما بالآخر، فإن الشعب ذا الحضارة الأرقى هو الذي يؤثر على الآخر. وهكذا كانت الحالة بالنسبة للعرب في إسبانيا، فلقد انتقلت حضارتهم إلى الاسبان في الأندلس وفي الإمارات الشمالية بطرق شتى؛ منها الزيارات المتبادلة التي كانت تتم بين الطرفين بقصد الاطلاع أو المتاجرة، ومنها بواسطة العبيد الذين كانوا يهربون من الشمال لضمان حرياتهم، وعندما يعودون إلى بلادهم كانوا يجلبون معهم كثيراً من العادات ومظاهر الحضارة، بل إن بعضهم كان يعود وهو يحمل أسماء عربية أيضاً[45].

وكان لوقوع المناطق العربية الإسلامية بيد الإمارات الاسبانية أثر كبير في الاتصال والاحتكاك بين الطرفين. فعندما كانت تقع إحدى هذه المناطق بأيدي الاسبان لم يكن ذلك يعني توقف وجود المسلمين فيها، بل على العكس كان الكثير منهم يبقون في هذه المناطق محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، ويمارسون طقوسهم الدينية. ومن هؤلاء العديد من أصحاب الحرف والمثقفين، الذين لعبوا دوراً هاماً في نقل العلوم والفلسفة الإسلامية إلى الاسبان في الشمال، ومنها إلى أوروبا. وكان ملوك وأمراء هذه الإمارات الاسبانية يضطرون إلى الاحتفاظ بهؤلاء المسلمين بسبب أهميتهم الاقتصادية للبلاد. وهؤلاء المسلمون الذين استمروا في البقاء في أماكنهم بعد سيطرة الاسبان عليها عرفوا باسم المدجنين Mudejares. وكان موقفهم شبيه بموقف أهل الذمة تحت ظل الحكم العربي الإسلامي. وكانوا، كما أسلفنا، أحراراً في اتباع عقيدتهم الإسلامية، وممارسة حرفهم وتجارتهم، وعليهم مقابل ذلك دفع ضريبة الرأس أو الجزية. لقد كان وجود هؤلاء المدجنين ظاهرة تأريخية مهمة جداً في حياة إسبانيا، أدت إلى خلق بنية اقتصادية، وحضارة مادية وعلمية مشتركة بين المسيحيين والمسلمين، بلغت أوجها في العهود التي أعقبت عهد الإمارة، وبشكل خاص في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد/ السابع والثامن للهجرة[46]. ومن الجدير بالذكر أن المستعربين، وهم نصارى الاسبان، الذين

---

(45) The Cambridge Medieval History, vol. III, p. 437.

(46) W. M. Watt, A History of Islamic Spain, p. 150.

عاشوا مع العرب في الأندلس، ساهموا أيضاً في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى إسبانيا النصرانية، لأن هؤلاء المستعربين بحكم معرفتهم للغتين العربية والاسبانية القديمة كانوا ينتقلون بحرية من أراضي الأندلس إلى الإمارات الاسبانية. وهكذا انتقلت العلوم والفلسفة وكثير من مظاهر الحياة العامة الإسلامية إلى الشمال.

وبالإضافة إلى انتقال هذه التأثيرات، فقد انتقلت أيضاً كثير من التنظيمات القانونية والحربية من الأندلس إلى الإمارات الاسبانية وهذا يوضح لماذا اضطر الاسبان إلى الإبقاء على التنظيمات القائمة في المناطق المسكونة بالمسلمين والتي أعادوا السيطرة عليها. بينما وضعوا أنظمة أخرى لتنظيم الحياة لرعاياهم في هذه المناطق[47].

ومن التأثيرات الأخرى التي تبودلت بين الطرفين، التأثيرات اللغوية، فلقد كانت المصطلحات العربية شائعة في كل من ليون وقشتالة ونافار، وبقية المناطق الأخرى في الشمال. كما دخل في اللغة الرومانسية Romance، وهي اللغة الاسبانية القديمة الناتجة من اللهجة اللاتينية ـ الآيبيرية، التي كانت في طور التكوين في ذلك الوقت، الكثير من الكلمات والمصطلحات العربية. وكان هناك الكثير من العرب الذي يفهمون هذه اللغة ويتكلمون بها، وبشكل خاص في مناطق الثغور والحدود. وتوجد في مصادرنا العربية إشارات واضحة تدل على أن الأمراء والقضاة وكبار القوم والشعراء كانوا يتكلمون هذه اللغة الاسبانية القديمة أو الرومانسية إلى جانب اللغة العربية، وذلك على كل مستويات المجتمع وحتى في قصور الأمراء الأندلسيين[48]. وفي الوقت نفسه كان هناك العديد من الاسبان الذين لهم إلمام ومعرفة باللغة العربية.

ويبدو الأثر العميق الذي مارسته الثقافة العربية الأندلسية على السكان الاسبان في كل شبه الجزيرة الآيبيرية من ملاحظة الاستعارات اللغوية التي أخذتها اللغة الاسبانية من اللغة العربية. فلقد وجدت اللغة الاسبانية نفسها، كما يقول المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال[49]، «مضطرة طيلة مرحلة نموها، وحتى القرن الحادي عشر الميلادي (السابع الهجري)، على الأقل، أن تأخذ من العربية كل ما ينقصها حتى ذلك الوقت للتعبير عن المفاهيم الجديدة وبخاصة في مضمار المؤسسات والحياة الخاصة». وهناك أمثلة لا حصر لها تشمل مئات عديدة من الكلمات والمفردات ذات الأصل العربي في مجال

(47) The Cambridge Medival History, vol. III, pp. 437-438.

(48) انظر: ابن عذاري: 2/ 227؛ العبادي، المرجع السابق، ص 172.

(49) حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، مكتبة الحياة، بيروت، ص 81.

التنظيم المدني أو العسكري لدى إسبانيا في العصور الوسطى أو في العصر الحديث. يضاف إلى ذلك مصطلحات أخرى تشمل أسماء الأمكنة والأنهار والظواهر الجغرافية، وطرق وأساليب الري، وأسماء الفاكهة والأزهار والألوان والملابس[50]. وتعد هذه الاستعارات اللغوية أفضل من جميع الوثائق التاريخية لأنها تبرز الاشعاع الحضاري الحقيقي الذي سلطته الأندلس على إسبانيا المسيحية. وهي أكثر من جميع الأدلة إفصاحاً على سيادة العرب الثقافية، سيادة لا جدال فيها عمت شمال شبه الجزيرة الآيبيرية[51].

ولم يقتصر أثر العرب الحضاري على الإمارات الاسبانية في الشمال على النواحي الثقافية واللغوية حسب، بل شمل مجالات أخرى، منها الفنون، وخاصة فن العمارة والبناء الذي نقله المدجنون، وظهر في إسبانيا منذ بداية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وظل فيها بصورة نهائية تقريباً[52]. ويتميز هذا الفن، وبشكل خاص في الكنائس، بوجود القباب التي ترتفع فوق أقواس على شكل حدوة حصان. ومن جملة الأبنية الأخرى غير الدينية التي تأثرت بالفن العربي، الجسور والأقنية المائية المعلقة، ونواعير المياه وغيرها. كذلك يظهر تأثير المسلمين على إسبانيا في تطور الفنون الأخرى الصغرى، مثل صناعة العاج، والمصنوعات الذهبية والزجاجية والخزفية والتطريز. وظلت هذه الصناعات مستمرة في المدن التي استعادها الاسبان وإلى وقت لاحق بعد عصر الإمارة، بل حتى خروج العرب من الأندلس. وذلك لأن إشعاع الحضارة الأندلسية الذي بلغ أقصى اندفاعه في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، لم يتلاشى بل امتد حتى سقوط الأندلس شاملاً جميع أجزاء شبه الجزيرة. ولم يقف ملوك وأمراء الاسبان ضد هذا التيار، بل شجعوه، وتبنوا هم أنفسهم شتى المبتكرات المستقاة من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية المجاورة. وإن قيام بعض ملوك الاسبان في وقت لاحق بضرب عملاتهم وهي تتضمن وجهين، عربياً وقشتالياً، وارتدائهم الملابس على الطريقة الإسلامية، ليدل على مدى العمق الذي تغلغلت فيه الحضارة العربية الإسلامية في نفوس الاسبان وعلى أعلى المستويات[53].

---

(50) انظر: لطفي عبد البديع، الإسلام في اسبانيا، القاهرة، 1958، ص 112 ـ 116.

(51) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص 81 ـ 85.

(52) عن فن العمارة في الأندلس، انظر: مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في اسبانيا، ترجمة: د لطفي عبد البديع ود. السيد محمود عبد العزيز سالم، القاهرة، 1977.

(53) انظر: المرجع نفسه، ص 86، 88 ـ 90؛ وانظر أيضاً: لطفي عبد البديع، المرجع السابق، ص 98 ـ 101.

الباب الثالث

«عصر الخلافة»

الفصل الأول: ـ ولاية عبد الرحمن الناصر
ـ القضاء على الفتن الداخلية
ـ إعلان الخلافة

الفصل الثاني: الأخطار الخارجية
ـ الأندلس والممالك الاسبانية الشمالية
ـ الأندلس والدولة الفاطمية

الفصل الثالث: المظاهر الحضارية
1 ـ العلاقات الدبلوماسية
2 ـ الازدهار الاقتصادي
3 ـ المنشآت المعمارية

الفصل الرابع: ـ الأندلس بعد وفاة الناصر
ـ سيطرة الحاجب المنصور بن أبي عامر
ـ الأندلس في عصره

الدكتور
ناطق صالح مطلوب

الفصل الأول

تولية عبد الرحمن الناصر

- جهوده في استعادة الوحدة الوطنية:

بوفاة الأمير عبد الله سنة 300هـ/ 912م تولى حفيده عبد الرحمن بن محمد[1] الإمارة دون أعمامه، أو أعمام أبيه الذين كانوا أحق منه بالإمارة، ولعل من جملة الأسباب التي قدمت الأمير عبد الرحمن على غيره من أمراء بني أمية سببين:

الأول: شخصيته.

والثاني: طبيعة الدولة الأموية في هذه الفترة.

فقد نشأ الأمير عبد الرحمن يتيماً في كفالة جده الأمير عبد الله محاطاً بالرعاية والاهتمام الزائدين محبوّاً بعناية لا حدود لها حتى بزَّ أقرانه من الأمراء في العلوم والآداب وفنون الفروسية والسياسة التي تدرب عليها نظرياً وعملياً في بلاط جده الأمير الذي بدأ ومنذ وقت مبكر يكل إليه مهام الأمور، وينيبه في الجلوس عنه في الاحتفالات والأعياد[2]، فكان مميزاً من بين أمراء بني أمية، محاطاً بأنظار الخاصة من كبار رجال الدولة عسكريين ومدنيين، معروفاً من العامة وطبقاتها المختلفة، وكان في نظر الجميع مؤهلاً أكثر من غيره ليتولى قيادة الدولة بعد جده الأمير عبد الله، ذلك أن الأمير عبد الرحمن كان من بين كل أمراء بني أمية نمطاً فريداً من الرجال توازن بناؤه الذاتي والفكري مع درجة تعقيد الفترة التاريخية التي عاصرها فهو لم يترك شخصيته تنمو تلقائياً وإنما كان ينميها مرتبطاً بدرجة التأزم والتحديات التي كانت تمر بها الدولة العربية في الأندلس، لذا قدر له أن يعيد أمجاد الدولة العربية ويضطلع بدور يشبه إلى حد كبير دور مؤسس الدولة عبد الرحمن الداخل. وفضلاً عن ذلك فإن بعض الروايات التاريخية تؤكد

---

(1) ولد سنة 277هـ.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب: 2/ 157 تحقيق كولان.

أن جده قد ولاه ولاية عهد من بعده[3].

أما الدولة في الأندلس، فقد كانت في وضع عجزت معه عن ردع المغيرين على أطراف العاصمة قرطبة نفسها بعد أن تجاذبتها الأعاصير من كل صوب[4]، وتفاقم أمر التحدي الداخلي للسلطة مما أعطى للتحديات الخارجية فرصاً سانحة وسهلة لتحقيق ما كانت تبغيه من التوسع على حساب سيادة الدولة العربية، وهذه الظروف العصبية التي عاشتها الدولة العربية في الأندلس لم تكن بغية الطامعين في الحكم، فقد كانوا تواقين بالاجماع ودون اتفاق مسبق إلى مساندة كل شخصية يتوسمون فيها الخصال التي تعيد مكانة الدولة السابقة داخلياً وخارجياً، فكان عبد الرحمن أقرب الشخصيات إلى هذه المواصفات، فتمت بيعته في نفس اليوم الذي توفي فيه جده، وكان رأس المبايعين له أمراء بني أمية الذين عبروا عن رأيهم فيه من خلال كلمة قصيرة ألقاها أحمد بن عبد الله (عم الأمير)[5] نيابة عنهم، وبدأها بقوله: «لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا...»[6].

ثم بايعه كبار الموظفين في الدولة ووجوه القوم في قرطبة، وناب عنه بعض القواد والرؤساء لتلقي البيعة العامة في المسجد الجامع بقرطبة؛ وأرسلت الرسل لأخذ البيعة من الكور وولاة الأقاليم وكانت البيعة ضرورية خلال هذه الفترة من عصر الإمارة ـ وإن كانت طبيعية وواجبة في الظروف الطبيعية لفرز أهل الطاعة عن أهل العصيان الذين أبوا مبايعة الأمير والانقياد إلى سلطته، وظلوا محتفظين بمدنهم وحصونهم حكاماً مستقلين لا يعيرون أدنى اهتمام للعهد الجديد وأول عمل قام به الأمير بعد اعتلائه كرسي الإمارة إعلان سياسته من خلال منشور عام وجه بالدرجة الأولى إلى العناصر المناوئة والخارجة على السلطة ويقوم المنشور في الأساس على مبدئين:

الأول:

التأكيد على التسامح وإسقاط كافة الجرائم التي اقترفت بحق الدولة وإعادة كافة

---

(3) ابن عذاري، البيان المغرب 2/ 157 وينظر: عنان، الدولة الأموية في الأندلس 2/ 373، القاهرة، 1969.

(4) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس: 27 تحقيق بروفنسال؛ عنان، الدولة الأموية في الأندلس: 2/ 275.

(5) ابن عذاري: 2/ 157.

(6) محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي افريقيا: 156، ط 1، 1980.

الحقوق المشروعة في حالة إعلان الولاء للسلطة المركزية.

الثاني:

الوعيد والانذار باجتثاث معاقل المتمردين والعابثين بأمن البلاد أو المتحالفين مع القوى الأجنبية ضد الدولة[7].

ولقد أيقن الأمير عبد الرحمن الثالث منذ البداية أنه ورث تركة ثقيلة وأن المهمات الملقاة على عاتقه صعبة نتيجة فقدان الأداة القادرة على التنفيذ والتحرك بمستوى الأحداث وجسامتها، لذا عمد إلى إصلاح الإدارة بما يتوازن ومتطلبات المرحلة، والاهتمام بالقوات العسكرية بما يحقق لها تفوقاً على أعدائه مجتمعين، وأضاف إلى إمكانياته المتاحة إمكانيات وقوى أخرى بعد كسب العديد من زعماء المتمردين والخارجين واستخدامهم في ضرب القوى التي ظلت على عنادها واستمرت في الإغارة على ممتلكات الدولة. وقبل الشروع في تفاصيل الحوادث التي تمخض عنها قيام الوحدة الوطنية في الأندلس نشير إلى انفراط الوحدة الوطنية في البلاد ينحصر باختصار في الأسباب الآتية:

غياب القائد في مرحلة كانت تشكل فيها عوامل الخلل عنصراً ظل يفعل فعله حتى أتى على وحدة البلاد، فاستقل أصحاب الزعامات في مناطقهم ينافسون الأمير في ألقابه. وقد اشتركت في صنع وإدامة هذا الخلل معظم عناصر المجتمع في الأندلس من عرب وبربر ومولدين ومستعربين[8]، ولم يتمكن الأمراء الثلاثة محمد بن عبد الرحمن الأوسط (238هـ ـ 273هـ) والمنذر بن محمد (273 ـ 275هـ) وعبد الله بن محمد (275هـ ـ 300هـ) من القضاء على التمردات وأعمال الشغب التي قامت ضد السلطة المركزية حتى آلت البلاد خلال هذه الفترة إلى عصر دويلات المدن، وأصبحت سلطة الأمير لا تتعدى في أكثر الأحيان العاصمة قرطبة.

أما ما دون ذلك فبيد حكام المدن يقررون سياستهم حسب مصالحهم الذاتية.

ـ وعورة بعض المناطق وحصانة قلاعها، وتمرس أهلها في الدفاع والاعتصام عند الحاجة.

ـ الاستناد عند الحاجة إلى أمراء وملوك الممالك الشمالية الذين لم يتوانوا عن

(7) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: 168، بيروت 1978.

(8) عن المتمردين والخارجين على السلطة المركزية، ينظر: عبد العزيز سالم: 253 ـ 259.

مساعدة الخارجين على السلطة الشرعية بقصد الاخلال بأمنها وتشتيت قواتها وانشغالها بمشاكل داخلية.

ـ عدم الاكتراث بسلطة الدولة المركزية، وقلة الاحتمال للطاعة، لكون معظم الزعماء المحليين ينحدرون من أنساب عريقة عربية كانت أو قوطية[9].

ـ سوء سيرة بعض الوزراء والقواد سبب آخر مضاف إلى قيام أعمال الشغب والتمرد ضد الدولة، خصوصاً إذا ما أصابت تلك السيرة أحد رجالات الأندلس من ذوي المكانة المرموقة لدى قومه[10].

وبدأت العمليات العسكرية حسب خطة مرسومة محدودة الأهداف ومحسوبة النتائج، قاد أولها الوزير عباس بن عبد العزيز القرشي الذي استطاع تطهير قلعة رباح في ربيع الثاني سنة 300هـ[11] وفي جمادى الأولى من السنة نفسها كانت قوة من قوات الأمير قد استردت مدينة استجة من أتباع ابن حفصون بعد أن هدت تحصينات المدينة التي كان تقوم عليها أصلاً استراتيجية كل متغلب ومتمرد فيها[12].

وكانت هاتان الحملتان وغيرهما إنذاراً فعلياً للمتمردين وإيذاناً بحملات عسكرية ستصيب كل الخارجين على السلطة، ومن ثم فهما تدخلان ضمن نطاق الاستطلاع العملي الذي من خلاله أمكن تحديد مناطق نفوذ المتمردين، وقياس قوتهم والوقوف على مراكز تجمعاتهم، لذا بدأ الأمير في شعبان من سنة 300هـ بقيادة القوات بنفسه محققاً بذلك هدفين:

الأول: رفع معنويات الجند.

الثاني: إثارة الفزع لدى قوات أعدائه.

واختار منطقة وعرة في كورة جيان حوت المئات من الحصون والمعاقل العاصية على الدولة وبدأت العمليات العسكرية بالاستيلاء على حصن مارتش[13]، وحصن المنتلون بعد قتال شديد اضطر على أثره سعيد بن هذيل إلى الاستسلام في رمضان بعد يأس من جدوى المقاومة[14]، وتوجهت القوات بعد ذلك إلى حصن شمنتان وزعيم

---

(9) أعمال الأعلام: 41 ـ تحقيق ليفي بروفنسال.

(10) ينظر مثلاً: ابن القوطية: 90، ابن عذاري: 2/ 102.

(11) ابن حيان، المقتبس 5/ 54، نشرة شالميتا، مدريد، 1979.

(12) ابن حيان: 5/ 55.

(13) ابن عذاري، البيان المغرب: 2/ 161.

(14) ابن حيان: 5/ 60.

المتمردين فيه عبيد الله بن أحمد بن الشالية الذي خارت قواه بعد سقوط حصن المنتلون، فاستسلم دون مقاومة ونزل عن جميع معاقله وحصونه وكان عددها يقارب المائة[15] وفضلاً عن ذلك فقد تم تطهير العديد من الحصون التي كانت تدين بالولاء لعمر بن حفصون كحصن بكور وحصن قاشترة وحصن شنترة وحصن أقليق[16].

وبعد أن تم تحرير كورة جيان، اتجهت القوات الرئيسة حيث تم تطهير كورة البيرة من فلول عصابات ابن حفصون، ولم يلق الأمير صعوبات في اقتحام الحصون وإن كان حصن شبيلش قد امتنع لفترة[17]، وكان عمر بن حفصون يمتنع فيه قبل أن يحس بعدم جدوى المقاومة فتسلل هارباً يريد قلعة أبيه ببشتر[18].

وأعقب سقوط حصن شبيلش سقوط مجموعة من الحصون الأخرى كحصن اشتبين قرب ألبيرة، وحصون وادي آش وغيرها[19].

وقد شعر ابن حفصون بهذا الجزر الذي أصاب نفوذه فأراد أن يحقق انتصاراً يعادل خسائره، فقرر احتلال غرناطة، ولكنه رد على أعقابه بعد أن اعترضته قوات الدولة في منطقة البيرة ومنعته من تحقيق هدفه[20].

وتعد هذه الحملة أولى الحملات التي قادها الأمير عبد الرحمن بنفسه وقد استغرقت ثلاثة أشهر من شهر شعبان إلى عيد الأضحى من سنة 300هـ وتعرف في المصادر العربية باسم (غزوة المنتلون) وكان من نتائجها:

تحرير أكثر من سبعين حصناً من أهم الحصون سوى ما يلحق بهذه الحصون وما حرر بتحريرها من الأماكن والأبراج والقصبات والتي عدها ابن حيان بما يقارب الثلاثمائة[21].

وإذا كانت هذه العمليات العسكرية قد حالفها النجاح في تطويع الأقاليم وتمشيط الحصون المتمردة فإن حصن ابن حفصون ببشتر ظل في منأى عن السقوط، رغم

---

(15) ابن حيان: 5/ 60، وينظر ابن عذاري: 2/ 61.

(16) ابن حيان: 5/ 60.

(17) لحصانته وتعذر نيله بحجارة المنجنيق، واعتصام جمهرة من المتمردين الأشداء فيه.

(18) ابن حيان: 5/ 61.

(19) ابن حيان: 5/ 61، وينظر: ابن عذاري 2/ 162.

(20) ابن عذاري: 2/ 162، عنان: دول الإسلام: 2/ 376.

(21) المقتبس: 5/ 61 ـ 62.

الضربة التي أنزلت بزعيم المتمردين، باعتبار أن هذه الحصون كانت تدور في فلكه وتدين له بالطاعة والولاء[22].

بيد أن هذه الحملة لم تكن إلا بداية الصراع المرير مع هذه العناصر التي كانت تجعل من الظروف السياسية في البلاد باباً تنفذ منه تارة موالية وموادعة وتارة أخرى عاصية ومتمردة فقد اعتادت هذه العناصر على الرضوخ وقبول شروط الدولة حين تجد قوات الدولة قادرة على الردع بما يفوق قدراتها على الصمود، وكانت ترتد مع بداية كل اختلال سياسي يصيب الدولة العربية في الأندلس، لا بل كان التمرد يسود بعض المناطق حال انسحاب القوات الحكومية عن أحوازها.

وهكذا فلم تمض أشهر قلائل على الحملة الأولى حتى بدأ المتمردون سيرتهم الأولى، يعدون عدة الثأر يشاركهم في ذلك زعماء الأقاليم والمدن من الذين وجدوا في مشاريع الأمير عبد الرحمن ما يهدد كيانهم ونفوذهم بالزوال.

ففي إشبيلية قام بنو حجاج، وكان قد استقلوا بها بزعامة إبراهيم بن حجاج وبوفاته انتقلت الزعامة إلى ولده عبد الرحمن الذي أناب عنه أخاه محمداً في حكم قرمونة الموالية لهم، ولكن بوفاة عبد الرحمن سنة 301هـ. نصب أهل إشبيلية أحمد بن مسلمة (من بني الحجاج أيضاً) حاكماً عليهم دون محمد بن إبراهيم الذي يعدُّ هو أحق من أحمد بن مسلمة بحكم المدينة، فما كان من الأخير إلا الالتجاء إلى الأمير عبد الرحمن طالباً العون في استخلاص المدينة من قريبه المذكور، وهكذا كانت الظروف عاملاً في عودة مدينة إشبيلية في جمادى الأولى سنة 301هـ إلى حظيرة الدولة بعد أن تم تجريد العناصر القوية فيها من سلطاتها[23]. وكانت السيطرة على هذه المدينة من أهم المؤشرات الايجابية التي انعكست على نظام الأمير عبد الرحمن فأعطته دعامة وقوة في المسيرة التي استهدفت إعادة توحيد البلاد[24]. ولعل المدخل إلى تحقيق تلك الوحدة كان يتطلب القضاء على زعيم العصاة عمر بن حفصون الذي ما زال يسيطر على مناطق واسعة من البلاد تمتد ما بين «كورة رية والجزيرة الخضراء من جهة، والبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخرى»[25]. وأيقن عبد الرحمن أن القضاء على هذا التمرد سوى يؤدي

---

(22) بيضون، الدولة العربية في اسبانيا: بيروت 1978.

(23) ابن حيان: 5/ 164 وما بعدها؛ ابن عذاري 2/ 163.

(24) بيضون: 293.

(25) عبد العزيز سالم: 282.

إلى الفت في عضد كثير من المتمردين وزلزلة معنويات أنصارهم. فقد كان ابن حفصون بمثابة الروح التي تنفث في جسد العصاة الآخرين الذين كانوا يرتبطون به بشكل أو بآخر بقصد أضعاف السلطة المركزية والعبث في أراضي الدولة.

لذا قاد الأمير قواته في شوال سنة 301هـ مخترقاً أكثر الأقاليم حيوية واستراتيجية بالنسبة للمتمرد ابن حفصون ملقناً قواته أقسى الضربات، وكانت المعركة الحاسمة قد دارت قرب قلعة طرش حيث تمكنت قوات الدولة من تدمير القوة الرئيسة للعصاة وأجبرتهم على الارتداد ناحية الغرب، وبذا دخلت الجزيرة الخضراء وأحوازها تحت سيطرة الدولة المركزية، وتم تطهير كور شذونة ومورور وقرمونة من العصاة[26]، واستمرت العمليات العسكرية وفي اتجاهات مختلفة تلاحق العصاة وفلولهم وتكيل لهم الضربات المتواصلة المركزة حتى أيقن زعماء التمرد أن الدولة عازمة لا محالة على توحيد البلاد، والقبض على مقاليد الأمور بما يجب أن يكون لها من الحرمة والاحترام، وهم عاجزون عن الرد والاحتفاظ بزعامتهم مع إدراكهم للملل الذي بات يطغى على أنصارهم الذين أيقنوا ببطلان دعوى زعماء التمرد[27].

إن الخلل الذي أصاب صفوف المتمردين قيادة وقواعد جاء نتيجة من نتائج سياسة الدولة في الضرب بشدة على الخارجين ومن والاهم، والعفو والتكريم لمن عاد إلى صف السلطة المركزية وعمل ضمن قواتها لتحقيق وحدة البلاد الوطنية.

وكان ابن حفصون قد شعر قبل غيره بأبعاد هذه السيادة التي باتت تهدد مركزه بوصفه زعيماً للمتمردين على اختلاف أهدافهم فأعلن الاستسلام للدولة بعد ثلاثين سنة من التمرد والعصيان[28]. مقابل كتاب عهد له وللحصون التي كانت تحت سيطرته وتم ذلك في 303هـ «وانتهت الحصون التي دخلت في أمان عمر بن حفصون على ما وقع من تسميتها في كتاب العهد إلى مائة واثنين وستين حصناً»[29]. وقد ظل ابن حفصون ملتزماً ببنود هذا العهد حتى وفاته سنة 305هـ[30].

---

(26) ابن حيان: 5/ 86 وما بعدها، ابن عذاري: 2/ 164.

(27) ابن حيان: 5/ 113 و114 وفيه إشارة إلى الخلاف الذي أصاب زعماء التمرد وميل الغالبية منهم إلى التسليم والدخول في الطاعة والولاء.

(28) ابن حيان: 5/ 138.

(29) ابن حيان: 5/ 115، ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 31.

(30) ابن حيان: 5/ 138، ابن عذاري: 2/ 171.

أما أبناء ابن حفصون فقد كانوا يحكمون مدناً وحصوناً بتفويض من والدهم وبإقرار من الأمير عبد الرحمن لهم على تلك المناطق، فكان جعفر في قلعة ببشتر نيابة عن والده، وعبد الرحمن في حصن طرش، وسليمان في مدينة أبذة[31]، ثم حصن أشتبين[32]. ولم يطل العهد بجعفر فقتل سنة 308هـ. على يد جماعة من أنصاره الذين ولوا سليمان مكانه[33]. ولكن سليمان ما لبث أن غلبه الغرور فمارس دور أبيه في مقارعة السلطة المركزية معتمداً على حصانة مدينة ببشتر[34]. فقضي عليه سنة 314هـ[35] واستسلم أخوه حفص في سنة 315هـ، بعد أن اجتاحت قوات الدولة القلعة وما يحيط بها من مواقع حصينة[36]، بقيت ما يقارب خمسين سنة «مثل جدار حديدي تتكسر عليه محاولات السلطة العديدة»[37].

ولم يتمثل خطر هذا التمرد بطول مدته فقط بل بتهديداته المستمرة لسلطة الأمراء الأمويين في الأندلس، وبطموح عمر بن حفصون لنيل إمارة الأندلس، وبتعصب المولدين والمستعمرين له مما يجعل نجاحه ليس تغيراً في شخصية الأمير فقط «بل انقلاباً كاملاً وتغييراً في جنسية الحكم ودين الحاكمين، ولعل في طريقة معاملة الأمير عبد الرحمن الثالث للعصاة في حركة ابن حفصون مما يدل على شعوره بمدى هذا الخطر، فبينما كان مصير العصاة الآخرين بعد استنزالهم من حصونهم تسجيلهم في الملاحق وإعطائهم المناصب العالية، نرى سليمان بن عمر بن حفصون يمثل به بعد مقتله في المعركة. . . وفي الإجراءات التي اتخذها عبد الرحمن أثر سقوط ببشتر ما يدل على نفس الشعور[38].

وعلى الرغم من انشغال الأمير عبد الرحمن باجتثاث شأفة أبناء عمر بن حفصون فإنه لم يغفل أمر الخارجين في أنحاء البلاد من الأندلس، فقد كانت قواته تقاتل في

---

(31) استخلصها سليمان لنفسه بالقوة، بنظر: ابن حيان 5/ 130.
(32) ابن حيان: 5/ 131، وتقلب سليمان بين الخروج على السلطة المركزية والولاء لها حتى انفرد بالسلطة بعد اغتيال أخيه جعفر سنة 308هـ.
(33) ابن حيان: 5/ 168.
(34) بيضون: 294.
(35) ابن حيان: 5/ 204 و206، ابن عذاري: 2/ 192.
(36) ابن حيان: 5/ 209، ابن عذاري: 2/ 193.
(37) بيضون: 294.
(38) أحمد بدر، تاريخ الأندلس «عصر الخلافة» ص: 10، دمشق، 1974.

اتجاهات مختلفة وتلقن المتمردين دروساً اعتبروا بها زمناً طويلاً، فقد تمكنت قوة من قواته دخول حصن طرش وحصون أخرى في كورة باغه وتطهيرها من العصاة سنة 309هـ[39]. وتمكنت قوة أخرى من السيطرة على حصن منت روي في كورة البيرة في السنة التي تلتها[40]. وفي الثغر الأعلى كانت قواته تقاتل بني ذي النون وتدخل أقوى حصونهم شنت برية سنة 314هـ[41]. وكانت قوات شرق الأندلس تجوب حصون المخالفين في كورة تدمير وتستولي عليها الواحدة تلو الآخر، وتمكنت قوة أخرى من تطهير مدينة ماردة من أسباب الفساد والعصيان سنة 316 هـ[42]. وفي السنة التالية دخلت مدينة شاطبة ثم مدينة طليطلة بعد حصار طويل، ثم سقطت مدينة باجة سنة 317هـ ومدينة بطليوس سنة 318هـ بعد قتال شديد[43].

وهكذا استطاع عبد الرحمن الناصر من استعادة الوحدة الوطنية إلى الأندلس ومكن السلطة المركزية من السيادة على أقاليم البلاد بعد ما استطاع بكفاءة عالية من إدامة عوامل النصر لقواته في الوقت الذي استنزف طاقة تحمل أعدائه المتمردين.

اتخاذ ألقاب الخلافة:

رغم أن الدولة العربية في الأندلس قد استطاعت غير مرة منافسة الدول الكبرى في مجالي القوة والتقدم فإن أمراء هذه الدولة لم يفكروا في الاقدام على منافسة الدولة العباسية في ألقاب الخلافة «وقيل في تعليل ذلك أنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لأهل البيت، ويدركون قصورهم عن ذلك، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية، وأنهم بعبارة أخرى: كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين»[44].

ولا خلاف فإن الاحجام عن اتخاذ ألقاب الخلافة يرجع في الأساس إلى بواعث السياسة الحكيمة التي تميز بها أمراء الأندلس متحوطين من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية في العالم الإسلامي[45].

---

(39) ابن حيان: 5/ 172 و173.

(40) ابن حيان: 5/ 179.

(41) ابن حيان: 5/ 203.

(42) ابن حيان: 5/ 237 و238.

(43) التفاصيل في المقتبس، لابن حيان: 5/ 129، 271، 280.

(44) عنان: دول الإسلام: 2/ 429.

(45) عنان: 2/ 429.

غير أن مستجدات القرن الرابع الهجري السياسية وما رافق ذلك من تغير في خارطة العالم الإسلامي فضلاً عن عوامل أخرى دفعت الأمير عبد الرحمن الثالث إلى اتخاذ ألقاب الخلافة، ويمكن ترتيب العوامل على النحو الآتي:

ـ استعادة الوحدة الوطنية إلى البلاد بعد ستة عشر عاماً من النضال الصعب الذي انتهى بالقضاء على جميع المتمردين وعلى رأسهم بني حفصون[46]. ولقب الأمير لم يعد من الألقاب التي تستوعب طموحات عبد الرحمن الثالث، خصوصاً بعد أن زالت حرمة هذا اللقب وتلقب به معظم الخارجين على السلطة المركزية منافسة لأمير قرطبة الحاكم الفعلي والشرعي لعموم البلاد.

ـ ضعف الخلافة العباسية وتحكم العناصر الأجنبية بمقدرات الخلافة بوصفها لقباً له حرمته، وبالخليفة بوصفه صاحب سلطة دينية وزمنية[47]، عامل من العوامل التي أجازت للأمير الأموي اتخاذ لقب الخليفة.

ـ ظهور دولة الفاطميين في المغرب العربي وسيطرتها على مناطق واسعة منه وإعلانها الخلافة[48]، أسباب دفعت الأمير عبد الرحمن للرد على الفاطميين بالمثل بعد ثبوت أحقيته بألقابها من دولة منحلة (العباسية) وأخرى طارئة (الفاطمية)[49] أو كما يقول ابن حيان: «وقطعه على استحقاقه لهذا الاسم الذي هو بالحقيقة له ولغيره بالاستعارة»[50].

ـ إن لقب خليفة يهيئ للعاصمة قرطبة دوراً أكثر مركزية يمكنها من القبض على أطراف الدولة قاطبة، ويمكنها من قمع أي تحرك انفصالي بالسرعة القصوى[51].

ـ وقيل أن أهل الأندلس هم الذين منحوا أميرهم لقب (خليفة) تقديراً لجهوده في توحيد البلاد، وتثبيت أركانها وإعادة مجدها وبعد أن تيقنوا من ضعف خلافة بني العباس في المشرق وبطلان دعوى الفاطميين في المغرب.

وللأسباب الآنفة الذكر أعلن الأمير عبد الرحمن الثالث الوثيقة الرسمية بوجوب

---

(46) بيضون: 295.
(47) الحميدي: جذوة المقتبس: 13، الدار المصرية؛ 1966م.
(48) الحميدي: 13.
(49) عنان: دولة الإسلام 2/ 429.
(50) المقتبس: 5/ 241.
(51) بيضون: 296.

اتخاذه هذا اللقب اعتباراً من يوم الخميس ثاني ذي الحجة سنة 316هـ/ 929م(52) ونصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فأنا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل خطه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا إدراكه، وسهل بدولتنا مرامه وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه»(53).

وهكذا اتخذ الأمير عبد الرحمن سمة الخلافة، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، وبدأت الدعوة لبني أمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى(54).

---

(52) وهم ابن الأثير، وتابعه ابن خلدون عندما وضعا اتخاذ الناصر لسمة الخلافة سنة 327هـ. ينظر؛ الكامل: 8/ 535، العبر: 4/ 144.

(53) ابن عذاري: 2/ 198.

(54) ابن حيان: 5/ 241، وينظر؛ عنان: 2/ 430.

الفصل الثاني

الأخطار الخارجية

الأندلس والممالك الأسبانية الشمالية:

أفادت الممالك الاسبانية الشمالية من حالة انفراط عرى الوحدة الوطنية في الأندلس، وتوغلت مسافات بعيدة في عمق الأراضي العربية وفي مناطق عديدة وعلى طول خط الحدود الذي يجمع بينها وبين الدولة العربية، وقد كانت مملكة ليون (جليقية) حاملة لواء القضاء على السيادة العربية في الأندلس تجمعها ومملكة نبرة (بلاد البشكنس) عرى التحالف المستمر والهدف المشترك ـ وإن اختلفت المصالح والأطماع لكل منهما ـ واستغلال شتى الظروف للعبث بأمن الأندلس.

وفي بداية عصر عبد الرحمٰن الناصر أغارت قوات اردونيو الثاني ملك ليون على مدينة يابره، وتمكنت قواته من دخول المدينة سنة 301هـ بعد أن لاقت مقاومة عنيفة من قبل حاميتها التي فضل رجالها الاستشهاد دفاعاً عنها ولم ينج منهم إلا العشرات انسحبوا عنها إلى مدينة باجة بعد استشهاد عاملها مروان بن عبد الملك[1]، وترك الغزاة المدينة بعد اجتياحها ونهبها وتخريبها، قاصدين القضاء على تفكير العرب بالعودة مرة أخرى إلى إعمار وسكنى هذه المدينة، خاصة وأنهم كانوا عاجزين عن تزويد منطقة بعيدة كهذه بالطاقات البشرية التي تؤمن لهم استمرار السيطرة عليها والدفاع عنها. وعلى الرغم من استمرار خراب المدينة لمدة تزيد على السنة فإن الحياة ما لبثت أن عادت إليها وعمرها العرب بالطاقات البشرية، وأعادوا بناء ما خربه الغزاة[2].

وفي سنة 303هـ عاود اردونيو سياسته العدوانية فهاجم غرب الأندلس مستهدفاً

---

(1) ابن حيان: 5/ 93 ـ 95.

(2) ابن حيان: 5/ 96.

كورة ماردة، فعبر نهر التاجة، واستولى على حصن مادلين، ثم قصد قلعة الحنش الذي استبسل في الدفاع حتى أبيدت حاميته «إلا قليلاً ممن نجا به الركض عند اشتغال العدو باحتياز غنائمهم، ودخل العدو... الحصن وقتلوا جميع من كان فيه وسبوا نساءهم وذراريهم وقتل ابن راشد رئيسهم في جملة من قتل، وهدم الحصن فألحق أعلاه بأسفله»[3]. ومن قلعة الحنش سار اردونيو بقواته نحو ماردة التي أعجزته حصانتها ومنعتها ففضل الارتداد عنها بعد أن وصله أهلها بمبلغ من المال[4]. وفي الوقت الذي كانت قوات اردونيو تعيث فساداً في أراضي الأندلس كان شانجو بن غرسية ملك نافار يهاجم مدينة تطيلة في الثغر الأعلى معرضاً المدينة وقراها إلى الخراب والدمار الذي يعد نهجاً طبيعياً اعتمده امراء وملوك هذه الممالك[5].

ورداً على هذه الاعتداءات فقد قامت القوات الأندلسية بتجهيز حملة قادها أحمد بن محمد بن أبي عبدة سنة 304هـ توغلت في أراضي العدو، وتمكنت من تحقيق أهدافها المرسومة[6]، وإن كانت هذه الحملة كما يبدو غارة محدودة المدى لم تسفر إلا عن تخريب بعض الحصون[7]، واستكشاف المنطقة وتحديد أماكن وجود العدو ومكامن قواته، لذا عاد القائد أحمد بن أبي عبدة في السنة التالية على رأس فرقة من الجند هدفها احتلال حصن شنت اشتبين (قاشترمورش) أحد أهم الحصون التي أقامته دولة ليون على الجهة اليمنى من نهر دويرة[8]، ودارت بين الطرفين حرب صعبة صبر لها الفريقان، وكاد النصر ينتهي للقوات العربية لولا تراجع بعض المتخاذلين وارتدادهم مما أضر إضراراً بالغاً بالصفوف التي انكشفت أمام الأعداء فضلاً عن استشهاد القائد ابن أبي عبدة نفسه فتراجعت معظم القوات منسحبة إلى الداخل، وقد شجعت هذه العملية اردونيو وحليفه شانجة على محاصرة مدينة ناجرة لعدة أيام عاثت قواتهما خلالها في أطرافها فساداً قبل الانتقال إلى مدينة تطيلة ونهب قراها، وعبر شانجة بقواته نهر ابرة فقاتل حصن بلتيرة ونهب ما أمكنه وأحرق المسجد الجامع فيه ثم ارتد منسحباً إلى قواعده[9].

---

(3) ابن حيان: 5/ 120 وما بعدها.
(4) ابن حيان: 5/ 123.
(5) ابن حيان: 5/ 124.
(6) ابن حيان: 5/ 127، ابن عذاري: 2/ 169.
(7) أحمد بدر: 59.
(8) أحمد بدر: 59.
(9) ابن حيان: 5/ 143.

وقد خلقت هذه العمليات العسكرية قلقاً عميقاً لدى عبد الرحمٰن الناصر حمله في النهاية على إجراء تعديلات في خططه العسكرية بعد أن أصبحت تجاوزات قوات الممالك الشمالية على الدولة العربية أمراً لا يمكن الإغضاء عنه فقرر توجيه ضربة انتقامية لمملكة ليون تصيبها في الصميم(10)، وقام بقيادة قواته مخترقاً الثغر الأوسط ثم عبر نهر دويره ونازل في طريقه مدناً وحصوناً عديدة منها مدينة أوسمة وحصن شنت اشتبين ومدينة قلونية، وتمكن من إحراز عدة انتصارات على أعدائه ودحرهم في مكان يسمى (خونكير) غربي بنبلونة حيث أبيدت معظم القوات المتحالفة ولوحقت فلولها التي تجمعت في حصن مويش والذي تم تدميره تماماً بعد سحق الفلول المعتصمة فيه(11). وذلك سنة 308هـ / 920م.

وكانت نتائج هذه الحملة بما حققته من مكاسب عسكرية وتغيرات جغرافية بعد استيلاء عبد الرحمٰن الناصر على بعض المواقع المهمة، كافية لكبح جماح قوات اردونيو، خاصة وأن الجبهة الداخلية لم تعد الشغل الشاغل للناصر بعد أن تمكن من فرض سلطته على أهم معاقل التمرد، وصار لديه من القدرة ما يساعده على إحباط مثل هذه العمليات وتلقينها ما تستحق من العقاب والردع(12)، وقد أثبتت الأيام صلابة نظام الناصر فعندما سولت نفس شانجة أمير نافار سنة 311هـ له مهاجمة حصن بقيرة والاستيلاء عليه واقتراف جريمة قتل الأسرى في عاصمته بنبلونة(13)، كان رد الناصر سريعاً وقاسياً فقد أمر في السنة التالية باجتياح بلاد نافار وطرق العاصمة نفسها فدمرها وأحرقها وعلى الرغم من محاولات قوات نافار العديدة لصد قوات الناصر إلا أن جميع المحاولات باءت بهزائم متلاحقة اعتبر بها شانجة لسنوات عديدة(14).

وقد دخلت مملكة ليون في صراع شديد على السلطة بعد وفاة اردونيو الثاني سنة 313هـ، واستمر هذا الصراع قرابة سبع سنوات، وكان من فوائده على الدولة العربية في الأندلس أن شلت الطاقات العدوانية لهذه الدولة وحليفتها نافار(15). وتفرغ الناصر لتصفية أطراف التمرد في الداخل والعمل على تثبيت أركان الدولة كما يجب لها أن

---

(10) بيضون: 300.

(11) ابن حيان: 5/ 163، ان عذاري: 2/ 179.

(12) بيضون: 300.

(13) ابن حيان: 5/ 186، ابن عذاري: 2/ 184.

(14) ابن حيان: 5/ 189.

(15) ابن حيان: 5/ 344 وما بعدها، تاريخ ابن خلدون: 4/ 142.

تكون عليه من الحرمة والاحترام، فتم القضاء نهائياً على تمرد أبناء عمر بن حفصون ودخلت قوات الناصر قلعة ببشتر الحصينة وعمل على ضرب الفلول الأخرى حتى اذعنت إذعاناً تاماً. لهذا كله كانت قوات الدولة العربية في الأندلس مستعدة للردع الوقائي الشديد لأي اعتداء يصيبها من قبل ملك ليون راميرو الثاني الذي تمكن من عرش ليون سنة 320هـ[16] وكان معروفاً بعدائه الشديد للدولة العربية وهجماته على مناطق عديدة من الأراضي العربية[17]، واستمرت المناوشات بين الطرفين سجالاً تراوحت بينهما عوامل النصر والهزيمة حتى سنة 327هـ (939م) عندما قرر الناصر خوض غمار المعركة الحاسمة وقاد جيشه بنفسه للقاء قوات تحالف الممالك الشمالية بقيادة راميرو الثاني وفي عمق أراضيه.

وواقعة سنة 327هـ / 939م أو كما تسمى بواقعة الخندق قد وقعت قرب شنت مانكس (سيمانقة)، وانتهت لصالح التحالف الشمالي بعد أن انسحبت القوات العربية إلى عمق أراضيها، وعلى الرغم من صمت المصادر العربية واختصار الأخرى[18] في الكلام على طبيعة الظروف التي أحاطت بقوات الناصر وأدت إلى هذه النتيجة غير المتوقعة نرى العكس تماماً في بعض المصادر الإفرنجية التي بسطت الكلام والحديث المسهب عن انتصار قوات ليون وحلفائه والمبالغة في جسامة الخسائر التي فقدتها قوات الناصر في ميدان المعركة.

وخير من تعرض لهذه الواقعة من المؤرخين العرب ابن حيان في «مقتبسه» حيث أتى عليها بشيء من التفصيل معتمداً رواية الرازي ونصها: «لما عزم الناصر لدين الله على غزو أعداء الله أهل جليقة... تقدم في الاستعداد لها قبل أوانها، فجبى وبالغ في حشد أهل الأندلس، وتخطاهم إلى أهل ولايته من أهل الحضر منهم وقبائل البربر البادية، فبث كتبه إليهم يحضهم على الجهاد، ويستنفرهم له، ويرغبهم فيه، ويضرب لهم في التراقي إلى الأندلس في المسير معه موعداً واسعاً، لن يخلفه، ويشدد على عماله في الأندلس في ابتعاث من قبلهم، وتضييق المعاذير عليهم، والاحتفال في

(16) خبر تملكه عرش ليون في المقتبس، لابن حيان: 5/ 346 و347.

(17) ابن حيان: 5/ 379.

(18) لم يتعرض ابن عذاري في أحداث سنة 327هـ إلى ذكر موقعة الخندق ينظر: البيان المغرب: 2/ 210، أما ابن خلدون فلم يزد عن قوله: «ثم كانت بعدها غزوة الخندق ولم يغز الناصر بعدها بنفسه». ينظر: العبر 4/ 142.

إزعاجهم، وضمن كتبه النافذة إليهم فصلاً، تشاهده الناس يومئذٍ وبعده، نصه: (وليكن حشدك حشراً لا حشداً) فانبعث منهم خلق عظيم بين الكره والموافقة، حمل أهل قرطبة حضرته، من ذلك أثقله وأحفله، لينفي بذلك الطماعية من أهل الكور في أخذ عفوهم، فانتهى من الاحتفال الغاية واستكثر من الآلات السفرية والعدد الحربية والأسلحة الشاكة، واستظهر على الاستقلال بذلك كله، بوفور الكراع وقوة الظهر والإكثار من المال للنفقة، واستقل بغزوته هذه بثقل لم يستقل بمثله قبل ملك ولا أمير من سلفه...

وكان الناصر لدين الله قد أخرج قبل خروجه لهذه الغزوة الوزير القائد أحمد بن محمد بن إلياس بقطع من جيشه إلى ثغر الغرب احتياطاً على أهله كي لا تكون للعدو عليهم حيلة، عند إيغاله هو بالصائفة في أرضهم... وتقدم الناصر بعده في عساكر الصائفة قاصداً سبيل جهاده، حتى وافى بحملته مدينة طليطلة يوم الخميس لسبع بقين من شهر رمضان، فأقام بها ستة أيام ثم رحل عنها يوم الخميس إلى الحصن ولمش ويوم الجمعة بعده إلى قلعة خليفة... ويوم الأحد إلى محلة فج حميد... واقتحم الناصر لدين الله بعساكره أرض العدو، فجال فيها أياماً من محلة إلى أخرى[19].

ويصف الرازي المعركة بقوله: «وكسر العسكر على باب شنت مانكش يوم الأربعاء (لعشرة بقيت من شوال) ثم صابحهم الحرب يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شوال، فجالت بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه، ثم ناجزوا الحرب يوم الجمعة بعده، فصابروا المسلمين صبراً عظيماً إلى أن توجهت عليهم كرة، ثم كانت لهم كرة انحاز لها المسلمون، فانكشفوا انكشافاً قبيحاً، نيل فيه منال ممض، وألجأهم العدو في انحيازهم إلى خندق بعيد المهوى، إليه تنسب الوقعة، لم يجدوا عنه محيداً فتردى فيه خلق، وداس بعضهم بعضاً، لكثرة الخلق، وفيض الجموع... وآل الناصر إلى كثف ما الجمع تخطتهم الركبة، فضم كشفهم، واحتل بهم بأعلى نهر بشورقة، وقد قصر العدو عن اتباعه، فاضطرب هنالك يومه... ثم رحل قافلاً حتى خرج إلى مدينة الفرج المسماة وادي الحجارة... ثم تقدم إلى قرطبة»[20].

وتنحصر أسباب الهزيمة على الرغم من الاستعدادات والقوات الضخمة إلى عاملين أساسيين:

---

(19) المقتبس: 5/ 433 وما بعدها.

(20) ابن حيان: 5/ 435.

الأول: فقدان الوحدة بين صفوف هذا الجيش الكبير الذي حشر حشراً مكرهاً غير مخير[21]، وتعيين نجدة بن حسين الصقلبي قائداً أعلى له عامل مضاف ولّد نوعاً من التذمر أثر تأثيراً سلبياً على معنويات بعض فرقه وإلى هذا يشير ابن حيان بقوله: «وبدا من قوم من وجوه الجند في هذا اليوم النفاق لأضغان احتملوها على السلطان، ففتقوا الصفوف، وشارعوا في الهرب وجروا على المسلمين الهزيمة»[22].

والثاني: لم يكن ميدان المعركة في صالح القوات العربية، ولم يسمح لها بالمناورة الكافية عند الضرورة، لذا حسمت المعركة مع أول ارتداد أصاب بعض فرق هذه القوات، ولم يتمكن الناصر من معالجة الموقف بعد مقتل نجدة الصقلبي وإبعاد قواته المتراجعة بدون نظام إلى الخندق الذي أصبح مقبرة حقيقية لمعظم قواته المرتدة.

وكان وقع هذه الهزيمة شديداً على الناصر، ومن هنا فقد حاول تسويغها بمنشور عام فصل فيه الظروف التي أحاطت بقواته والأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة أورد ابن حيان نصه في كتابه المقتبس[23].

أما الرواية الإفرنجية فقد أغرقت في تعظيم الانتصار ونتائجه وبالغت في عدد القتلى من جيش الأندلس[24].

ومهما يكن من أمر فإن هذه المعركة لم تكن إلا واحدة من المعارك التي قامت بها القوات العربية في عمق أراضي الممالك الشمالية ولم تكن نتائجها أكثر من كونها معركة خسرها العرب في هذه المناطق، أعقبها معارك أخرى عديدة ستتعرض لتفاصيل بعضها في الفصول القادمة.

ـ الأندلس والدولة الفاطمية:

اتسمت العلاقة بين الأندلس والفاطميين في المغرب بالعداء الشديد وقد حاول كل منهما التوسع على حساب الآخر بشتى الوسائل والطرق واعتمد الطرفان أساليب مختلفة للإخلال بأمن الطرف الآخر وإثارة المتاعب، وقد تراوحت تلك الأساليب بين الحرب

---

(21) نص الرازي الآنف الذكر.

(22) المقتبس: 5/ 436، ابن الخطيب، اعمال الأعلام: 37 وسمى منهم ابن حيان: فرتون بن محمد الطويل الذي أعدم مع من أعدم حال وصول الناصر مدينة قرطبة.

(23) 5/ 438 ـ 443.

(24) من هذه الروايات رواية ألفونسو الحكيم في تاريخه العام، ينظر: عنان: 2/ 419.

الباردة وإرسال الجواسيس لاقتناص المعلومات إلى استخدام القوة وتناطح أساطيل كلا الطرفين، وإذا كان لكل طرف من الأطراف وسائله وأهدافه فهو في نفس الوقت يمتلك الإجراءات الوقائية لتحركات الطرف المضاد.

فمنذ استقرار الأمور لعبيد الله المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية، بدأ يتطلع بنظره إلى ناحية مصر والأندلس وباتت الأحلام تراوده لفصل المغرب الإسلامي بأجمعه وجعله تحت نفوذ دولته نكاية بالخلافة العباسية، وبدأت مشاريعه مبكرة ففي سنة 301هـ أرسل حملة عسكرية إلى مصر وعلى الرغم من أن حملته هذه لم تحقق الغرض المقرر لها، إلا أن الدولة الفاطمية استفادت كثيراً لاستكشاف قوة مصر العسكرية، وقدرة السلطة الحاكمة فيها على تعبئة القوات.

أما الأندلس فكانت هي الأخرى هدفاً للدولة الفاطمية ومع بداية الحرب الباردة بين الطرفين لم يعدم الفاطميون الرجال[25] الذين دخلوا الأندلس لجمع المعلومات عن أحوالها وقدراتها العسكرية والاقتصادية، والوقوف على مواطن القوة والضعف في البلاد.

وعلى الرغم من ضغوط الفاطميين الشديدة على الأندلس في عهد المهدي وخلفائه من بعده فلم يتمكن الفاطميون من تحقيق النجاح الكافي لدعوتهم أو ترويج تلفيقاتهم في الأوساط الأندلسية اللهم إلا عند بعض الأنصار الذين التحقوا بعد ذلك بخدمة الفاطميين لأكثر من سبب وعند بعض المتمردين والخارجين على السلطة الشرعية من الذين والوا الدولة الفاطمية طمعاً في المساعدات العسكرية، مع استعداد هذه الدولة التام لإمداد كل المتمردين ما دام ذلك الإمداد يشكل إدامة لتواصل الاضطراب في أمن الأندلس.

وقد فشلت كل مخططات الدولة الفاطمية ضد الأندلس بفضل سياسة عبد الرحمٰن الناصر ويقظة أجهزته التي تمكنت من كشف جميع المؤامرات قبل تنفيذها، وليس هذا فحسب فقد بدأ الناصر حرباً دفاعية خطط لها بدقة ونفذت بأسلحة مختلفة وردود فعل سريعة أعيت الدولة الفاطمية وأفشلت خططها تجاه الأندلس، والطرق التي اعتمدها عبد الرحمٰن الناصر هي:

---

(25) يذهب بعض المؤرخين الأندلسيين، على اعتبار ابن حوقل، وابن هارون البغدادي، وأبو اليسر الرياضي وآخرين غيرهم جواسيس دخلوا الأندلس بتكليف من الدولة الفاطمية.

1 ـ إعلان الخلافة في الأندلس سنة 316هـ تحدياً للدولة الفاطمية، وقد سبق الحديث عن ذلك.

2 ـ العمل على كسب ولاء القبائل في العدوة المغربية وتحريضها للقيام على الدولة الفاطمية، فقد تمكن من كسب زعماء زناتة المشهورة في المغرب العربي وعلى رأس هؤلاء الزعماء زعيم قبيلة مغراوة الزناتية محمد بن خزر الذي كان يسيطر على المغرب الأوسط بأكمله عدا مدينة تاهرت[26]، وكانت هذه القبائل في صراع دائم مع الفاطميين وحلفائهم من قبائل صنهاجة، وقد بايع محمد بن خزر الناصر سنة 317هـ ودعا له دون الفاطميين[27].

وأعلن أيضاً موسى بن أبي العافية الزناتي سنة 317هـ ولاءه للخلافة الأندلسية[28]، وكان ابن أبي العافية مشهوراً بمقارعته لجيوش الفاطميين والقوات المتحالفة معهم، وقد خاض في سبيل ذلك سلسلة من الحروب استمرت سنوات طوالاً استنزفت من طاقات الدولة الفاطمية الكثير من العدد والعدة[29].

واعترف الأمراء الأدارسة المتآمرون في المغرب الأقصى بين سنتي 316هـ و318هـ بخلافة الناصر لدين الله ونبذوا الدعوة الفاطمية وكان آخرهم الأمير الحسن بن عيسى الحسني الذي والى الناصر في سنة 318هـ[30]. وإن كان موقف الأدارسة يتراوح بين تأييد الفاطميين تارة والأندلس تارة أخرى والانقلاب على الخلافتين حين تتوفر لهم القوة والمنعة.

وممن خاطب الناصر أيضاً واعترف بخلافته صقور بن سنان «وكان ابتداؤه لذلك في سنة 316هـ، كتب يمت بالولاية ويخطب القبول وازدلف بهدية حسنة من خيل وإبل وأنعام وغزلان، حسن موقعها من الناصر لدين الله لغرابتها بأرضها ما ضعّف له عنها المكافأة وأسجل له على عمله، وألحقه بأهل ولايته»[31].

وإضافة إلى ذلك فقد حمى الخليفة الناصر اللاجئين السياسيين أفراداً وزعماء من

---

(26) عاصمة الدولة الرستمية، أسسها عبد الرحمٰن بن رستم وانتهت هذه الدولة على يد الفاطميين.
(27) ابن حيان: 5/ 257، وينظر: كتاب البيعة ص 265.
(28) ابن حيان: 5/ 261، الناصري، الاستقصا: 1/ 188.
(29) ابن حيان: 5/ 307 وينظر الصفحات: 347 و369، 371.
(30) ابن حيان: 5/ 261 ـ 263.
(31) ابن حيان: 5/ 261 ذكره في أحداث سنة 317هـ.

أمثال ابن الخراز المليلي الذي كان قاضياً بمدينة مليلة، وحكم بن محمد القيرواني القرشي الذي تعرض للسجن في عهد عبيد الله المهدي[32]، ولجأ إليه بنو سعيد بن صالح أمراء نكور بعد أن دخلها مصالة بن حبوس وقتل صاحبها سعيداً في سنة 305هـ، وعمل الناصر على تمكين صالح بن سعيد من استعادة نكور واستخلاصها من عامل مصالة بن حبوس[33].

وساند جميع الثورات القائمة في المغرب ضد الدولة الفاطمية ومنها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي التي استغرقت عهد الخليفة الفاطمي محمد القائم وسنوات من عهد ولده إسماعيل المنصور، وقد أمد الناصر هذه الثورة بكل أسباب التواصل من أموال وسلاح بحيث أصبحت تهدد كيان الدولة الفاطمية برمته في بلاد المغرب نتيجة الانتصارات التي حققها الثائر على القوات الفاطمية في معارك عديدة، ولم تستطع جيوش الفاطميين من إنهاء هذه الثورة إلا بعد أن استعانت بقبيلة صنهاجة وحينئذٍ تمكنت من قوات الثائر وقتله سنة 336هـ[34].

3 ـ العمل على بناء قوة بحرية مهاجمة:

اهتم الأندلسيون بالقوة البحرية منذ عهد الأمير عبد الرحمٰن الأوسط عندما تعرضت بعض السواحل الأندلسية ومدنها إلى هجمات النورمان، ولم يكتفوا بقوات الأسطول الدفاعية بل بدأوا استجابة لمتطلبات أمن البلاد بصناعة السفن المختلفة الأحجام، فمع بداية عصر عبد الرحمٰن الناصر، وتزايد خطر الفاطميين بدأت الأندلس تعمل بشكل سريع لمنافسة القوى الأخرى في البحر المتوسط، وتحكم سيطرتها على مياهها الإقليمية لا سيما منطقة جبل طارق وعملت دوريات الأسطول الأندلسي على منع الإمدادات التي كانت الدولة الفاطمية تمول بها المتمردين في الأندلس ومنهم زعيمهم عمر بن حفصون وتمكنت ولمرات عديدة من إغراق السفن الفاطمية، أو أسرها داخل وخارج المياه الإقليمية للأندلس. ولم يكتف عبد الرحمٰن الناصر بهذه الإجراءات، بل عمد إلى مهاجمة أهم المدن المغربية المطلة على البحر المتوسط وضمها إلى سلطانه، ففي سنة 314هـ استولى الأسطول الأندلسي على مدينة مليلة وطنجة[35]، وفي سنة 319هـ استولى

---

(32) سالم: تاريخ المغرب الكبير 2/ 614.
(33) سالم: المصدر السابق: 2/ 615؛ وينظر: المقتبس 5/ 216.
(34) ابن عذاري: 1/ 216.
(35) سالم، المغرب الكبير: 2/ 611؛ أحمد بدر: 87.

على مدينة سبتة[36]. وحاول في سنة 320هـ السيطرة على جزيرة ارشقول[37] الحصينة لكن الحملة لم تحقق هدفها واضطر إلى تركها عائداً إلى قواعده في المرية[38].

وقد أصبحت المناطق التي سيطر عليها الأسطول الأندلسي قواعد للإنطلاق في العمق المغربي، في نفس الوقت عدت بمثابة حزام الأمان للسواحل الأندلسية المقابلة. ومنذ ذلك الحين بدأت القوات البحرية الأندلسية بتسديد الضربات للفاطميين ومهاجمة ممتلكاتهم في المغرب الأقصى، بل أخذت تهاجم سفنهم في عمق البحر وتقطع على الأخرى خطوط العودة، وعلى الرغم من أن الفاطميين ردوا بالمثل وهاجموا المرية قاعدة الأسطول الأندلسي سنة344هـ وأحرقوا جميع السفن الراسية فيها، ولكنهم لم يتمكنوا من تحجيم تحركاته، فعاود الأسطول الأندلسي الهجوم، وقصد هذه المرة سواحل سوسة ومرسى الخزر وعاث فيهما دون أن يتمكن الفاطميّون من رده أو التقليل من خسائرهم.

---

(36) ابن حيان: 5/ 288؛ وينظر: محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، الدار البيضاء ط 1، 1982 ص: 22 وما بعدها.

(37) قرية من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط (الجزائر).

(38) سالم، المغرب الكبير: 2/ 612.

الفصل الثالث

المظاهر الحضارية

1 ـ العلاقات الدبلوماسية:

اجتمعت في شخصية الخليفة عبد الرحمٰن الناصر مواهب عدة، أهلته لأن يكون حاكماً ناجحاً، فهو سياسي مرن وقائد شجاع وإداري صلب، يضاف إلى ذلك ثقافة أدبية واسعة وذوق فني رفيع وشخصية كهذه، لا بد أن تترك بصماتها على دولة الأندلس بصورة عامة لا سيما قرطبة التي تألقت نصف قرن من الزمن مع هذا الخليفة الذي وصل بفضل جهوده الجبارة ومنجزاته العظيمة، إلى أن يجعل منها جوهرة العصر تزدحم بالسكان وتشمخ في سمائها العمائر والقصور، ويؤمها أصحاب العلم وطلابه من كل صوب، وبدأ الناصر بعد رحيل منافسه المعز إلى المشرق[1] وأفول شمس الإمبراطورية الكارولنجية، الشخصية الأكثر قوة في غربي البحر المتوسط وفوق ذلك كان باستطاعته أن يدعي الزعامة الدينية للعالم الإسلامي بعد تحجيم هذا الدور الذي استأثر به الخلفاء العباسيون زمناً قبل أن يطغى عليهم ضباط القصر من الترك والديلم، وهكذا فإن الخليفة الناصر تحول في السنوات العشر الأخيرة من عهده إلى رجل العالم الإسلامي القوي، «له من متانة نظامه في الداخل وسمعته السياسية في الخارج، ما يؤهله لأن يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة التي سعت إلى صداقته وإقامة علاقات ودية معه»[2]. والدول التي سعت إلى مصادقته وحرصت على إرسال السفراء إلى قرطبة هي:

1 ـ الدولة البيزنطية:

وكانت في مقدمة الدول الساعية إلى توطيد العلاقات مع الأندلس ولعل العداء

---

(1) يعني نقل مقر الدول الفاطمية إلى مصر.

(2) بيضون: 307.

المشترك للدولة العباسية كان من بين الأسباب في توطيد تلك العلاقات، وقد عاصر الخليفة الناصر من أباطرة بيزنطة الأمبراطور قسطنطين السابع المشهور عنه اهتمامه بالعلوم والآداب وكتب الأقدمين.

ويتحدث مؤرخونا عن سفارتين بيزنطيتين وصلتا الأندلس.

الأولى: كانت سنة 336هـ[3] حيث بالغ الناصر في تزيين بلاطه والاحتفال بالسفراء وفي ذلك يقول ابن خلدون: «وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور وجعل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة والأعمام والقرابة، ورتب الوزراء والخدمة في موقعهم ودخل الرسل فهالهم ما رأوا وقربوا حتى أدوا رسالتهم وأمر يومئذٍ الأعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل ويعظموا أمر الإسلام والخلافة... فاستعدوا لذلك ثم بهرهم هول المجلس فوجموا وشرعوا في القول فارتج عليهم[4]... فقام منذر بن سعيد البلوطي من غير استعداد ولا رويّة، ولا تقدم له أحد في ذلك بشيء فخطب... وأنشد شعراً طويلاً ارتجله في ذلك الغرض...»[5].

ورافقت هذه السفارة في طريق العودة بعثة من قبل الدولة العربية في الأندلس كان على رأسها هشام بن هذيل يحمل جواباً من خليفته الناصر ويؤكد على توثيق العلاقات بين البلدين وقد استغرقت سفارة ابن هذيل قرابة السنتين (أي إلى سنة 338هـ) عاد بعدها إلى الأندلس[6]. وقيل: إنه عاد صحبة سفارة ثانية للامبراطورية البيزنطية[7] استقبلت بمثل ما استقبلت به السفارة الأولى، ويذكر ابن عذاري أن السفراء الوافدين حملوا كتاباً من امبراطور دولتهم في رق سمائي اللون مكتوب بالذهب وعلى الكتاب طابع ذهب زنته أربعة مثاقيل على أحد وجوهه صورة المسيح عليه السلام، وعلى الوجه الآخر صورة الأمبراطور قسطنطين[8] وولده.

وفي نفح الطيب[9] وصف طريف مسهب لاستقبال هذه السفارة وعلى الرغم من أن

---

(3) في البيان المغرب لابن عذاري 2/ 313 سنة 334هـ.

(4) كان من بينهم أبو علي القالي البغدادي.

(5) تاريخ ابن خلدون 4/ 143، وينظر: نفح الطيب 1/ 364.

(6) ابن خلدون: 4/ 142.

(7) ابن خلدون: 4/ 143، ويشير ابن عذاري: 2/ 215 إلى السفارة الثانية في سنة 338 دون الإشارة إلى مهمة ابن هذيل.

(8) البيان المغرب: 2/ 215.

(9) 1/ 366 وما بعدها.

الخلط بين وقائع استقبال السفارتين لا يمكن الإغضاء عنه، إلا أنها لا تخلو من فائدة، فهي تصور تصويراً دقيقاً فخامة بلاط الدولة العربية في الأندلس ومكانة هذه الدولة بين دول العالم آنذاك.

ومن نتائج هذه السفارات دخول بعض المؤلفات المهمة إلى الأندلس ككتاب الحشائش لديسقوريدس وكتاب هروشيش في التأريخ[10]، ونقل أكثر من مائة سارية وتحف غريبة استخدمت في بناء وتزيين مدينة الزهراء كما سيأتي بيانه.

2 ـ الدول الرومانية المقدسة:

يشير ابن عذاري[11] وابن خلدون[12] باختصار شديد إلى سفارة من قبل امبراطور الألمان أتو الكبير، وصلت الأندلس سنة 342هـ[13]، وكانت برئاسة الراهب جان دي جورز (نسبة إلى دير جورز القريب من مدينة متز) وهو أحد علماء عصره في البحث والمناظرة[14]، وقد استقبلت هذه السفارة بما يليق أن يقابل به السفراء، ونزل أعضاؤها في أحد القصور الرسمية، وطبيعي أن يحاط بلاط الخليفة علماً بأهداف ومهمة السفارة قبل الإذن لها بالمثول أمامه. ولكن ممثل الأمبراطور كما يبدو لم يكن على قدر من السلوك الدبلوماسي، ففي حين وصلت إلى مسامع البلاط أن السفير يحمل رسالة تتضمن انتقاداً لنظام الحكم العربي في الأندلس، وعبارات تمس مقدسات العقيدة، أصر السفير على مواجهة الخليفة، وطرح محتويات الرسالة أمامه وقد رفض الخليفة الناصر استقباله حتى يستوثق من أن الرسالة التي يحملها السفير تمثل وجهة نظر الأمبراطور أوتو الكبير أو أن حاملها الوافد «اهتبلها للإفضاء عن آرائه العدوانية في مجلس الخليفة»[15] وتم الاتفاق على إرسال سفارة عربية إلى أوتو الكبير تطلب منه تغيير سفارته أو تغير الرسالة التي تحملها، فقام بهذه المهمة أحد المستعربين الذين يجيدون اللغة اللاتينية إجاده تامة ويدعى رثموندو أو ربيع بن زيد[16]، وقد استقبلت هذه البعثة من الأمبراطور

---

(10) أحمد بدر: 139.

(11) البيان المغرب: 2/ 218.

(12) تاريخ ابن خلدون: 4/ 143.

(13) انفراد ابن عذاري بذكر تاريخ وصول هذه السفارة، وحددها عنان في كتابه، دول الإسلام: 2/ 456 بسنة 344هـ.

(14) عنان: دول الإسلام: 2/ 457.

(15) بيضون: 811

(16) عادة المستعربين اتخاذ الأسماء العربية إضافة إلى أسمائهم الأعجمية.

في بلاطه بمدينة فرانكفورت، وأنهت مهمتها بنجاح وعادت إلى الأندلس برفقة سفارة ألمانية جديدة حملت توجيهات محددة إلى السفارة السابقة[17]، وعندئذٍ سمح الخليفة الناصر للسفراء بالمثول أمامه وكانت مهمتهم تتحدد بنقطتين:

الأولى: عقد الصداقة بين الطرفين.

والثانية: العمل على إيقاف غارات البحريين الأندلسيين على أملاك الامبراطورية الرومانية.

ورغم صمت الروايات عن نتائج هذه السفارة، فمن المرجح أن حكومة قرطبة أبدت استعدادها لكل تعاون يدخل ضمن نطاق توثيق الصداقة بين الطرفين وفي نفس الوقت أبدت أسفها عن عدم الوعد بإيقاف الغارات البحرية التي كان يقوم بها البحريون الأندلسيون[18] في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة وأماكن أخرى، لكون هؤلاء يعملون لحسابهم الخاص ويسيطرون على مناطق وجزر هي في الأصل خارج نطاق سيادة الدولة العربية في الأندلس، ولا يوجد أي نوع من أنواع العلاقة بين الطرفين[19].

وإذا كانت هذه السفارة قد فشلت في تحقيق المهمة الرئيسة التي أوفدت من أجلها، إلا أن فوائدها كانت قيمة ومهمة في جوانب أخرى، فقد أسهمت في تقديم معرفة أفضل لبلاط الخليفة عن أحوال الأمبراطورية الرومانية المقدسة، وثروتها وقواتها ونظام الحكم السائد هناك[20]. وإن ربيع بن زيد (رثموندو) لقي المؤرخ لوتيراند في ألمانيا وحثه على وضع كتاب في التاريخ يهتم بأخبار وحوادث العصر[21].

3 ـ الممالك الأسبانية الشمالية:

كانت الصراعات العسكرية بين الأندلس والممالك الاسبانية الشمالية طاغية على سواها من مظاهر التعاون الودي، فهذه الممالك كانت تدخل حلقة الموادعة عندما تكون عاجزة عن القيام بأي فعل عسكري اتجاه الدولة العربية في الأندلس، وتنهي من جانب

---

(17) عنان، دول الإسلام: 2/ 457.

(18) أسس مجموعة من البحارة الأندلسيين في حدود سنة 227هـ دويلة سميت باسم دويلة القلال (فراكسنيتوم) في ولاية البروفانس جنوب فرنسا، واستمرت هذه الولاية في جهادها البحري حتى سقوطها سنة 365هـ. ينظر، الحجي، التاريخ الأندلسي 313.

(19) عنان: 2/ 458؛ وينظر: شكيب ارسلان، تاريخ غزوات العرب: 207.

(20) أحمد بدر: 142.

(21) أحمد بدر: 142.

واحد كل عهد أو اتفاق إذا ما وجدت الفرصة السانحة لاختراق سيادة الدولة العربية فالعلاقات بينها وبين الأندلس «لم تحتل غير جانب سطحي في إطار ما نسميه حالياً بالعلاقات الدولية، لأن الجانب الأهم كانت تشهده ساحات القتال في معركة إثبات الوجود»[22].

وعلى الرغم من ذلك، فقد أدى تفوق الأندلس على جميع الدول المجاورة في مجال التقدم والرقي، إلى أن تخطب تلك الدول بعد أن أعجزتها الحيل ود حكومة قرطبة، وتطلب عقد معاهدات السلام والعون والرأي في حل المشاكل، ففي سنة 344هـ وصلت سفارة ملك ليون اردونيو الرابع لعقد معاهدة السلام بين الدولتين، ووافقت حكومة قرطبة على مقترح السفارة وبعثت سفارتها إلى مملكة ليون حيث تم إبرام الاتفاق المذكور.

وفي السنة التالية 345هـ دخل في المعاهدة المذكورة أمير قشتالة فردناند وبناءً على طلب ملك ليون[23].

وفي سنة 347 هـ وصلت إلى قرطبة ملكة نافار طوطة ومعها ولدها الأمير غرسية وطائفة من كبار رجال الدولة، فاستقبلوا في الزهراء وتم عقد معاهدة السلم بين الطرفين[24].

4 ـ ووفدت إلى العاصمة الأندلسية سفارة ملك الصقالبة بطرس وردت حكومة قرطبة بسفارة مماثلة برئاسة ربيع الأسقف.

5 ـ ثم سفارة ملك فرنسا لويس الرابع لتوطيد العلاقة بين البلدين[25].

لقد تمكن الخليفة عبد الرحمٰن الناصر من خلق نوع من التوازن السياسي في عصره، وأصبحت الدولة العربية في الأندلس مركزاً لذلك التوازن[26]. وقد تبوأت الأندلس مركز الصدارة في العالم الإسلامي آنذاك وغدت قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية تتجه إليها أنظار الدول الأوروبية المختلفة في معالجة ما يعضل عليهم في الأمور السياسية[27]، يقول المقري: «إن ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الفخامة

---

(22) بيضون: 312.

(23) تاريخ ابن خلدون: 4/ 143، المقري: 1/ 365.

(24) تاريخ ابن خلدون: 4/ 143، وينظر: عنان، دول الإسلام: 2/ 459.

(25) تاريخ ابن خلدون: 4/ 143 وينظر: عنان: 2/ 456.

(26) بيضون: 311.

(27) عنان: دول الإسلام: 2/ 451.

ورفعة الشأن، وهادته الروم، وأزدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبقَ أمّة سمعت به من ملوك الروم والأفرنجة والمجوس[28]، وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية»[29].

2 ـ الازدهار الاقتصادي:

عرفت الأندلس في عهد الناصر بأنها أغنى دولة في العصور الوسطى نتيجة ازدهار الزراعة والصناعة والتجارة وكثرة أموال الغنائم، والأخماس، ودخلت البلاد طوراً من الرخاء والغنى لم يسبق أن وصلته في عصورها السابقة.

والأندلس بلد زراعي قبل كل شيء، وكان الخراج والجزية والأخماس هي المصادر الرئيسة لخزينة الدولة، وبدأت الزراعة بالازدهار نتيجة اهتمام الدولة بهذا المورد المهم فحسنت أحوال العمال الزراعيين وأسقطت بعض الضرائب عن المزارعين، وهيأت لهم ظروفاً زادت من استغلال الأرض وزيادة الإنتاج، واشتهرت الأندلس بزراعة القمح[30] والزيتون وأنواع الفاكهة، فضلاً عن غاباتها التي تعد مصدراً مهماً من مصادر الثروة ومادة أولية تدخل في كثير من الصناعات الخفيفة والثقيلة؛ والثروة الحيوانية والسمكية التي اشتهرت بها مناطق واسعة من الأندلس[31].

واستغل الأندلسيون الثروات الطبيعية فاستخرجوا المعادن المختلفة كالذهب والفضة والرصاص والحديد والزئبق والبلور والكبريت والملح، واشتهرت مناطق بعينها بمثل هذه المعادن فالفضة والنحاس كانا يستخرجان من المناطق الشمالية قرطبة ولوشة وتدمير والزئبق من جبال البرانس، والقصدير من اكشونية، والبلور من لورقة، واشتهرت جبال قرطبة وباغة بأنواع الرخام الجيد وسرقسطة بالملح الأبيض الصافي[32].

والمعادن الآنفة الذكر وغيرها كانت تستخدم في بعض الصناعات التي تحتاجها البلاد لا سيما صناعة الأسلحة من سيوف ورماح ودروع إلى الصناعات الأخرى التي

---

(28) يعني: النورمان.

(29) نفح الطيب: 1/ 366.

(30) قال المقري: «ومن خواص طليطلة أن حنطتها لا تتغير ولا تتسوس على طول السنين يتوارثها الخلف عن السلف» نفح الطيب: 1/ 143. وينظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك: 90 طبعة ليدن، وابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان 87 ـ طبعة ليدن.

(31) عنان، دول الإسلام في الأندلس: 2/ 689.

(32) المقري: نفح الطيب: 1/ 143 و145 و150، عنان، دول الإسلام: 2/ 690.

اشتهرت بها مدن الأندلس كالنسيج والملابس[33] والأثاث والورق والزجاج والفخاريات وما يدخل في عداد الكماليات والتحفيات من الصناعات.

وأما التجارة فقد كانت من عماد الاقتصاد في الأندلس، وكانت المرية ومالقة من الموانىء التي شهدت تبادلاً تجارياً مع أقطار أخرى وكانت حصة الدولة جباية الرسوم التجارية المقررة في ذلك الوقت[34]. ودخل الأندلس أيضاً العديد من التجار المغاربة والمشارقة حاملين معهم بضاعة بلادهم بعدما وجدوا في قرطبة وغيرها من المدن أسواقاً نافقة وتجارة لا تبور، وتميز بعض هؤلاء التجار وخصوصاً أهل المشرق بترويج تجارة الكتب والمؤلفات النادرة[35].

ومواكبة للإزدهار الإقتصادي الذي عم البلاد أمر الخليفة الناصر سنة 316هـ باتخاذ دار السكة في قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم وولى عليها أحمد بن محمد بن حدير، وضربت أول دنانيرها ودراهمها يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان من العام المذكور، وكانت الدنانير تضرب من الذهب والدراهم من الفضة. واستمرت هذه الدار بضرب النقود، حتى انتقال الناصر إلى مدينة الزهراء، وأنشأ داراً للضرب فيها، فعطل دار السكة بقرطبة وأغلق بابها، وتقلد عبد الرحمٰن بن يحيى دار الضرب في مدينة الزهراء فاتصل الضرب بها حتى أفول نجم الزهراء في عهد المنصور بن أبي عامر[36].

أما جباية الأندلس في عهد الناصر فقد بلغت أرقاماً تعد بملايين الدنانير فالجباية من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار (أي ما يعادل: خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار)، ومن السوق والمستخلص سبعمائة وخمسة وستين ألف دينار[37]، وأما أخماس الغنائم فلا يحصيها ديوان[38]، وكانت أموال الدولة مقسمة ثلاثة أثلاث، ثلث يصرف على القوات العسكرية وثلث للإعمار والبناء والثلث الأخير احتياطي في خزينة الدولة يستخدم وقت الطوارىء[39]، وقد ترك الناصر في

---

(33) اشتهرت المرية بصناعة الحرير وغيرها من المنسوجات، نفح الطيب 1/ 63.

(34) اشتهرت الأندلس بتجارة العنبر الذي كان يصدر إلى مصر وبقية الأقطار الأخرى، نفح الطيب: 1/ 143.

(35) التجار الذين دخلوا الأندلس من أهل المغرب والمشرق كثيرون، ينظر مثلاً ـ كتاب الصلة، لابن بشكوال، والتكملة لابن الآبار، تحت عنوان «الغرباء الذين دخلوا الأندلس».

(36) ابن حيان: 5/ 243.

(37) ابن عذاري: 2/ 231 و232.

(38) المقري: 1/ 379.

(39) ابن عذاري: 2/ 231، المقري: 1/ 379.

خزائنه عند وفاته «خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات» من الدنانير (أي ما يعادل خمسة آلاف مليون دينار)[40].

3 ـ المنشآت المعمارية:

تعد المنشآت المعمارية مظهراً متقدماً من مظاهر الحضارة، ومن ثم فهي تعد دلالة على الرخاء الاقتصادي، ولقد امتلكت الأندلس في عهد الخلافة كل المقومات المؤهلة لأن تكون بحق وليدة عصر الخليفة الناصر، وأن تصبح العاصمة قرطبة صورة حقيقية لمظاهر ازدهار وبذخ ذلك العصر. فقد كانت من أكبر وأجمل عواصم العالم آنذاك[41]. فمع نمو عدد سكانها البالغ أكثر من خمسمائة ألف، توسعت عمائرها ومبانيها، فمن المساجد حَوَت ما يقارب الأربعمائة وواحد وتسعين مسجداً[42]. اشترك في بنائها الأمراء والخلفاء ورجال الدولة والميسورون من السكان، واتخذت أسماءها حسب حاراتها أو مؤسسيها[43]، ويعد المسجد الجامع أشهر وأكبر المساجد على الإطلاق، وهو آية من آيات الفن ترك أمراء بنو أمية بصماتهم عليه زيادة وتوسعاً إلى أن انتهى بكامل روعته في عصر الخليفة الناصر[44]، وبلغ عدد دور قرطبة ما يقارب المائة ألف دار[45] تنتشر في أرباض المدينة الواحد والعشرين[46] واشتهرت قرطبة بحماماتها البالغة ثلاثمائة حمام[47] وبفنادقها وساحاتها وحدائقها[48]، ولعل من أهم آثار الناصر المعمارية، مدينة الزهراء[49]

---

(40) المقري: 1/ 379، عنان، دول الإسلام: 2/ 447.

(41) ابن حوقل، صورة الأرض: 107، بيروت.

(42) العذري، نصوص عن الأندلس: 124، تحقيق عبد العزيز الأهواني، الحميري، الروض المعطار: 458 تحقيق إحسان عباس. وقارن: ابن عذاري 2/ 232.

(43) مثلاً: مسجد ابن ضرغام، وأبي عبيد، والليث، وابن ياسين، ورحلة الشتاء والصيف والسقا، والغازي، والزجاجين وغيرها.

(44) أنشأ الناصر في سنة 340هـ منارة جديدة للمسجد، تميزت بضخامتها وعلوها الشاهق زينها بما تستحق حتى عرفت به، الحميري: 458، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 38.

(45) تنظر الروايات التي أوردها المقري في النفح: 1/ 540.

(46) منها: الأرباض القبلية بعدوة النهر، ربض شقندة، وربض منية عجب، وأما الغربية فتسعة: ربض حوانيت الريحاني، وربض الرقاقين، وربض مسجد الكهف، وربض بلاط مغيث... ينظر: المقري 1/ 465. وفي البيان المغرب 2/ 232 لابن عذاري «ثمانية وعشرين ربضاً».

(47) المقري: 1/ 540 وقيل سبعمائة حمام، وقيل تسعمائة...

(48) المقري: 1/ 446؛ ابن حوقل: 108.

(49) ينظر: قصر الزهراء في الأندلس، نجلة العزي ـ بغداد، 1977.

التي تعد مأثرة مهمة من مآثره، بنيت على مسافة 8كم شمال غربي العاصمة قرطبة على سفح جبل العروس، وأسباب بناء هذه المدينة تتحدد بالدوافع الآتية[50]:

1 ـ أريد لهذه المدينة أن تكون مقراً للخلافة الجديدة.

2 ـ الابتعاد عن صخب العاصمة قرطبة بعد أن ضاقت مرافقها نتيجة الزخم السكاني الذي كان يزداد سنوياً.

3 ـ بناء المدن صفة وصف بها الخلفاء والسلاطين العظماء تخليداً لعصورهم المجيدة.

4 ـ عرف عن الناصر كلفه ببناء القصور والاعتناء بتنميقها وتزيينها وصرفه الأموال الكثيرة في هذا المجال[51].

وبدأ ببناء الزهراء في محرم سنة 325هـ[52]، وخول ولي العهد الحكم بمهمة الإشراف على بنائها[53]، وقد عمل في بناء الزهراء جيش من العمال والمهرة[54]، أشرف عليهم خيرة المهندسين والمعماريين في ذلك الوقت، وقامت المدينة على مسطح من الأرض طوله من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع، وعرضه من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع[55]، واستمر البناء فيها نحواً من أربعين سنة[56]، وبلغت

---

(50) يذكر المؤرخون رواية قصصية مفادها أن الخليفة الناصر ماتت له سرية، وتركت مالاً كثيراً، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد، فشكر الله تعالى على ذلك، فقالت له جاريته الزهراء اشتهيت لو بنيت لي مدينة تسميها باسمي، وتكون خاصة لي... نفح الطيب: / 523.

(51) له مع القاضي منذر بن سعيد البلوطي أحاديث مذكورة في هذا الخصوص، حيث عمد القاضي المذكور إلى توجيه النقد اللاذع للخليفة الناصر نتيجة إسرافه في بناء القصور والمنتزهات وصرفه للأموال الطائلة من أجل ذلك، ينظر: النباهي: المرقبة العليا: 69 و72، طبعة بيروت.

(52) المقري: 1/ 524 و526، وينظر: نجلة العزي، 33.

(53) ابن عذاري: 2/ 231.

(54) في نفح الطيب: 1/ 526 «كان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة. وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن الدرهمان والثلاثة، وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الأجر والصخر غير المعدل».

(55) المقري: 1/ 524.

(56) وهم النويري في نهاية الأرب عندما حدد مدة انجاز مدينة الزهراء بإثني عشرة عاماً. ينظر: نجلة العزي: 33.

نفقات كل سنة أكثر من ثلاثمائة ألف دينار[57]. وانتقل إليها الناصر بحاشيته وخواصه وخدمه في سنة 336هـ[58].

واشتملت مبانيها على أربعة آلاف سارية ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة جلب بعضها من رومة والبعض الآخر من القسطنطينية ومصاريع أبوابها كانت تزيد على خمسة عشر ألف باب، ملبسة بالحديد والنحاس المموّه[59]. وجلب الرخام المستخدم في بنائها من مدن اشتهرت بهذه المادة، فمنه ما جلب من مدينة المرية ورية وأصناف منه جلبت من المغرب العربي ومن مدينتي صفاقس وقرطاجنة واجتهد الناصر باختيار التحف النادرة من الشام والقسطنطينية[60]، وكان القصر الخليفي في المدينة وما حواه من قاعات[61] يعد آية من آيات الإبداع فقد زين بكل ما يسر النفس وأتحف بكل نادر ونفيس، وقد أطال المؤرخون في وصف قصر الزهراء وتعرضوا لبلاطه ولمحتوياته، وقاعاته الملوكية والتماثيل التي زينت تلك القاعات وفسح القصر[62].

وفضلاً عن القصر فقد بنى في الزهراء مسجداً طوله من القبلة إلى الجوف ـ عدا المقصورة ـ ثلاثون ذراعاً وعرض البهو الأوسط من الشرق إلى الغرب ثلاثة عشر ذراعاً، تم بناؤه وإتقانه في مدة ثمانية وأربعين يوماً، وكان يعمل به أكثر من ألف عامل منهم ثلاثمائة بناء، ومائتا نجار والبقية من الأجراء وبقية العمال المهرة[63].

ولم تعمر مدينة الزهراء طويلاً فقد ظلت مقراً للخلافة في عهد الناصر وولده الحكم المستنصر ثم فقدت أهميتها وبريقها السياسي عندما سيطر الحاجب المنصور بن أبي عامر على مقاليد الأمور وبني مدينته المعروفة بالزاهرة، وفقدت الزهراء رسومها عندما اجتاحت الأندلس وقرطبة خاصة عوامل الفتنة والفوضى جراء النزاع على السلطة في بداية القرن الخامس الهجري، وتعرضت هذه المدينة إلى الدمار والحرق ونهب ما حوته من نفيس التحف.

---

(57) المقري: 1/ 568.

(58) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس: 206؛ وينظر: أعمال الأعلام: عن الخدم والجواري والحرس الخاص ومقدار ما كان يدخل الزهراء يومياً من المواد التموينية.

(59) المقري: 1/ 566.

(60) ابن عذاري: 2/ 231.

(61) عن قاعات قصر الزهراء، ينظر: نجلة: 100 وما بعدها.

(62) ابن عذاري: 2/ 231. المقري: 1/ 257.

(63) المقري: 1/ 264.

واهتم الاسبان في العصر الحديث بالكشف عن آثار مدينة الزهراء فمنذ بداية سنة 1910م بدأت الحفريات في منطقة تمتد حوالي 1518 متراً من الشرق إلى الغرب و745 متراً من الشمال إلى الجنوب، وعلى الرغم من أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن المكتشف من الآثار يكفي لتكوين صورة واضحة عن هندسة المدينة وفخامتها[64].

«وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث، مدرجة من أعلى إلى أسفل. وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليفي والمقام الخاص، وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس، وتشمل المجموعة الثالثة، وهي الواقعة أسفل الربوة في بسيط معتدل من الأرض، أربعة أفنية كبيرة عالية، هي التي يجري اليوم ضمها وإعادة تشكيلها، وفيما يظن أنها البهو العظيم الذي كان مخصصاً لاستقبال الملوك وأكابر السفراء، وقد تم اكتشاف هذا البهو الذي يعد أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء في سنة 1944م ووجد سائر حطامه وزخارفه مدفوناً تحت الأنقاض، ويعكف الأثريون والاسبان منذ أعوام على إقامة الصرح وتنسيقه، مما وجد من أنقاضه وأعمدته وزخارفه، وقد أقيم حتى اليوم في وسطه ما اصطلح على تسميته (بهو السفراء) أو باسمه التاريخي (المجلس المؤنس) وهو يتكون من أربعة أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاث أروقة مستطيلة، يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين، ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة، وفي وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضي إلى بهو داخلي، زين جانباه بالزخارف الرخامية، ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحواً من عشرين متراً، وعرضه نحو ثمانية أمتار، وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التي وجدت، وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار»[65].

ومع استمرار أعمال الحفريات في مدينة الزهراء، فقد تم اكتشاف الكثير من معالم المدينة، ومنها اكتشاف دار الجند سنة 1912م وتم تجديده سنة 1944م واكتشاف الجناح الشرقي سنة 1954م والبحيرات سنة 1945م وبدأ العمل بها سنة 1954م ودار الرخام الذي بدأ التنقيب به سنة 1964م، ثم ممر الجند الشرقي والساباط سنة 1964م أيضاً[66].

---

(64) عنان، دول الإسلام: 2/ 443.

(65) عنان، دول الإسلام: 2/ 443 وينظر: نجلة العزي: 84.

(66) نجلة العزي: 88 ـ 91.

ولعل أعمال الحفريات المستقبلية تكشف لنا عن معالم أخرى لهذه المدينة التي هي من دون شك إحدى الصور التي تحكي قصة الحضارة العربية في بلاد الأندلس. وما وصلت إليه من الرقي والتقدم، في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في مجاهل التخلف، وقد بلغت الأندلس لا سيما العاصمة قرطبة درجة رفيعة من الحضارة كان تأثيرها واضحاً على جميع الدول المعاصرة، وإذا استثنينا من هذا المبحث شهرة الأندلس خلال هذه الفترة في العلوم والآداب (ينظر الفصل الخاص بتراث الأندلس العلمي) فيكفي أن نشير إلى تقدم العرب الأندلسيين في العلوم المختلفة النقلية والعقلية وعلوهم على غيرهم في مجالات علوم الفلك والرياضيات والكيمياء والطب على نحو تجاوز كل تقدير[67].

وقد أشاد الباحثون المحدثون إشادة كبيرة بشخصية وعصر الخليفة عبد الرحمٰن الناصر وفي ذلك يقول العلامة الهولندي دوزي: «لقد كانت هذه نتائج باهرة، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العصر الزاهر، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة، بأكثر مما يثيرها المصنوع، تثيرها تلك العبقرية الشاملة التي لم يفلت شيء منها، والتي كانت تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغائر، كما تدعو إليه في أسمى الأمور، إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذي استأثر بمقاليد الحكم، وأسس وحدة الأمة، ووحدة السلطة معاً وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي، والذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نعيمه رجالاً[68] غير مسلمين، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى»[69].

مات الخليفة الناصر في رمضان سنة 350هـ / تشرين الأول 961م بعد حكم دام نصف قرن من الزمن قضاه في نضال شاق لإعادة وحدة البلاد الوطنية، وكبح جماح الدول الطامعة في الأندلس، وخلف منجزات عظيمة على كافة المستويات جنى ثمارها من بعده خليفته وولده الحكم المستنصر.

---

(67) سالم، المسلمون وأثرهم في الأندلس: 317.

(68) الإشارة هنا، إلى أمراء وملوك الممالك الشمالية الإسبانية.

(69) عنان، دول الإسلام: 2/ 463.

الفصل الرابع

الأندلس بعد وفاة الناصر

عصر الحكم المستنصر بالله:

تولى الخلافة بعد وفاة الناصر، ولده الحكم الثاني الملقب المستنصر بالله (350 ـ 366هـ/ 961 ـ 976م)، وقد قارب الثامنة والأربعين من عمره، واستلم بلاداً موطدة الأركان داخلياً ومرهوبة الجانب من القوى الأجنبية، وقد اعتمد الحكم المستنصر سياسة والده في التعامل مع هذه القوى، واستخدم نفس الأسلوب في الحفاظ على مناطق نفوذ الدولة الأندلسية في المغرب وغيره.

فالعلاقة مع الدولة الفاطمية، ظلت علاقة يسودها العداء حتى بعد رحيل سلاطين الفاطميين إلى مصر، واستمرت السيادة الفاطمية والأندلسية في المغرب «قائمة على مبدأ المنافسة بين قبائل صنهاجة وزناتة وضرب بعضها ببعض وإثارة الفتن من وراء ستار، ولم تحاول كل من الدولتين إرسال جيوشها إلى هذا الميدان... وأخيراً تمكنت صنهاجة أو بمعنى آخر الدولة الزيرية، من بسط سيطرتها باسم الفاطميين على جميع النصف الشرقي من المغرب، أما القسم الغربي من نهر ملوية إلى طنجة فقد سيطرت عليه زناتة حليفة الأمويين وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين الخلافتين المتنازعتين وحلفائهما في المغرب»[1].

أما دولة الأدارسة فقد جعلت قاعدتها بعد خروجهم من فاس في قلعة النسر الحصينة[2]، ولم تكن دولة مستقلة بمعنى الكلمة، بل كانت تدور في فلك الأقوى من الفاطميين أو الدولة الأندلسية. وحدث في سنة 361هـ أن انتصر بلكين بن زيري

(1) العبادي: 114.

(2) جنوب تطوان.

الصنهاجي قائد الفاطميين على قبائل زناتة وفرق شملهم منتقماً بذلك لمقتل والده[3]، فسارع الأدارسة وزعيمهم يومئذٍ الحسن بن كنون إلى نقض بيعة الخليفة الحكم المستنصر والاعتراف بالوضع الجديد[4]، وأمام هذا التحول الخطير وحفاظاً على نفوذ الأمويين في المغرب، قرر الحكم إرسال قواته إلى المغرب في شوال من سنة 361هـ، وتمكنت تلك القوات من تشتيت جيش الحسن بن كنون الذي فر جنوباً باتجاه ثغر أصيلا[5]، ولكنه ما لبث أن تمكن من تجميع فلول جيشه في السنة التالية وأعاد الكرة بهجوم مقابل عنيف مزق به قوات الأندلس وأجبرها على الإنسحاب والاعتصام بمدينة سبتة[6]، وعلى الرغم من محاولات الحسن بن كنون لاسترضاء الخليفة المستنصر بعد انتصاره هذا، وتبرير أسباب انقلابه على الدولة الأموية ووعوده بالولاء والطاعة، إلا أن قرار الحكم كان نهائياً باجتثاث معاقل الأدارسة، فحينما كلف القائد غالب بن عبد الرحمٰن بقيادة القوات وأمره بالتوجه إلى المغرب خيره بين أحد الأمرين بقوله: سر سير من لا أذن له في الرجوع حياً إلا منصوراً، أو ميتاً فمعذوراً وابسط يدك في الإنفاق، فإن أردت نظمت لك الطريق بيننا قنطار مال[7].

وقد حقق القائد غالب بن عبد الرحمٰن رغبة الحكم وتمكن من قوات الحسن بن كنون في مواقع عديدة ثم حاصره في قلعة حجر النسر وأجبره على الاستسلام دون شروط سنة 363هـ واقتاده إلى قرطبة مع جماعة من الأمراء الأدارسة[8]. وبهذا الإجراء أعاد الحكم نفوذ الدولة الأموية في هذه المناطق من بلاد المغرب وهي مناطق ذات أهمية كبيرة لأمن الأندلس.

وتعرضت الأندلس في عهد الحكم المستنصر إلى هجمات السفن النورماندية

---

(3) انتصرت قبائل زناتة سنة 360هـ على قبائل صنهاجة الموالية للفاطميين وتمكنت زناتة من تشتيت قوات صنهاجة وقتل زعيمها زيري بن مناد وإرسال رأسه إلى الخليفة الحكم المنتصر. ابن عذاري: 20/ 241 ـ 244.

(4) الناصري، الاستقصاء: 1/ 200.

(5) ابن عذاري: 2/ 244 و245.

(6) وقعت هذه المعركة بفحص مهران وقتل فيها قائد الجيش الأندلسي محمد بن قاسم وعدد كبير من المشاة والفرسان. ابن عذاري: 2/ 246.

(7) نص عن كتاب: مفاخر البربر، لمؤلف مجهول ص 8 ـ 9 نقله العبادي في كتابه: في تاريخ المغرب والأندلس: 216، وينظر أيضاً: عنان، دول الإسلام: 2/ 496 والحاشية رقم: (2).

(8) ابن عذاري: 2/ 247 و248؛ الناصري: 1/ 201.

وشهدت السواحل الغربية عدة صدامات بين الطرفين ففي شهر رجب سنة 355هـ[9] «ورد كتاب من قصر أبي دانس على المستنصر بالله يذكر فيه ظهور أسطول المجوس (النورمانديين) ببحر المغرب بالقرب من هذا المكان واضطراب أهل ذلك الساحل لذلك، لتقدم عادتهم بطروق الأندلس من قبله فيما سلف، وكانوا في ثمانية وعشرين مركباً[10]، ثم ترادفت الكتب من تلك السواحل بأخبارهم وأنهم قد أضروا بها، ووصلوا إلى بسيط اشبونة، فخرج إليهم المسلمون، ودارت بينهم حرب استشهد فيها من المسلمين وقتل فيها من الكافرين وخرج اسطول إشبيلية فاقتحموا عليهم بوادي شلق، وحطموا عدة من مراكبهم واستنقذوا من كان فيها من المسلمين، وقتلوا جملة من المشركين وانهزموا أثر ذلك خاسرين»[11]. ولم تزل الأخبار تتوارد إلى قرطبة عن نشاط هؤلاء الغزاة حتى تم قتل معظمهم وأسر أعداد أخرى منهم، فيما ولت بقيتهم من الأحياء منهزمة إلى قواعدها[12].

وعاود النورمانديون الكرة في سنة 360[13] وعلى المنطقة نفسها ولكنهم ردوا دون تحقيق أي هدف من أهدافهم[14] بفضل يقظة واستعداد الأسطول الأندلسي للإقلاع مع أول إشارة بظهور السفن الغازية[15].

أما سياسة الخليفة الحكم اتجاه الممالك الإسبانية الشمالية، فهي سياسة قامت على احترام جميع الاتفاقات والمعاهدات المبرمة بين الدولة العربية في الأندلس وأمراء وملوك الدول الإسبانية الشمالية، ولكن مثل هذه الاتفاقات لم يكن لها ذلك المفعول التنفيذي فسرعان ما تسقط جميع الاتفاقات وتفرغ من مضامينها عند أول فرصة تسنح لهذه الممالك لغزو أراضي الدولة العربية أو الإخلال بأمنها[16]. فمن المعروف أن

---

(9) في نفح الطيب: «سنة 354هـ».

(10) يذكر دوزي: أن كل سفينة كانت تحمل ثمانين محارباً أي أن مجموعهم كان حوالي (2240) رجلاً. العبادي: 221.

(11) ابن عذاري: 2/ 238 و239؛ وينظر: ابن خلدون: 4/ 145.

(12) ابن عذاري: 2/ 239؛ العبادي: 221.

(13) ابن عذاري: 2/ 240.

(14) وعن الغزوات الأخرى الفاشلة، ينظر: عبد العزيز سالم، المسلمون وآثارهم في الأندلس: 286، العبادي: 220.

(15) ابن عذاري: 2/ 239.

(16) من شدة استخفاف أمراء وملوك هذه الدول بالإتفاقات والمعاهدات انهم كانوا يبعثون سفراءهم لإقرار السلام، في نفس الوقت يقومون بغارات متعمدة على الأراضي العربية، والأمثلة على ذلك =

الخليفة الناصر أعان سانشو (شانجة) على استرداد ملكه في مملكة ليون شريطة أن يتنازل الأخير عن بعض الحصون المهمة الواقعة على الحدود بين الدولتين، وعندما توفي الناصر نقض سانشو الاتفاق ورفض تسليم الحصون المتفق عليها، وبدأ سلسلة من الأعمال العدائية، جعلت الدولة العربية أكثر تصميماً على انتزاع حقها فآوت الملك المخلوع اردونيو الرابع والمنافس الشديد على عرش ليون ووعدته باستعادة ملكه[17]، وعلى أثر ذلك تراجع سانشو عن موقفه وسارع إلى إرسال سفارة إلى قرطبة لإعلام الخليفة الحكم باستعداده لتنفيذ الاتفاقات المعقودة مع الناصر[18]، ولكن وفاة اردونيو الرابع قلبت سانشو وعاد إلى سياسة التسويف والمماطلة في تسليم الحصون. ولم يكتف بذلك فتحالف مع بعض الأمراء الشماليين[19]، لشن هجوم على الأراضي العربية، وكان رد الحكم قاسياً واستهدف أول ما استهدف قشتالة فعاث في أراضيها واحتل حصن غرماج على نهر دويرة سنة 352هـ[20] وتوالت الحملات بعد ذلك ترد تعديات هذه الممالك وتتوغل في أراضيها وتضيف إلى انتصاراتها حصوناً جديدة، فقد تمكنت قوات القائد غالب بن عبد الرحمٰن من احتلال حصن قلهرة من بلاد البشكنس، وتطهير بعض المناطق من جند الأعداء[21] وهكذا كان للتفوق الحربي لجيش الدولة العربية في الأندلس أثره البارز في إعادة وتثبيت السيادة على جميع مناطق الحدود وثغورها وأمنت الأندلس مدة من شر هجمات جيوش ممالك الشمال، التي دخلت في صراع عنيف بعد وفاة سانشو سنة 355هـ / 966م وارتقاء ولده الذي لا يتجاوز خمس سنوات عرش ليون فتولت عمته البيرة مقاليد الأمور نيابة عنه، واستغل النبلاء الطامعون هذه الظروف واستقل كل منهم بما تحت يديه، وتوافدت رسل الوصية على العرش البيرة وهؤلاء النبلاء إلى قرطبة يحكمون الخليفة الحكم فيما شجر بينهم ويسألونه المشورة والرأي[22].

وكان أول الوافدين على العاصمة قرطبة من أمراء الممالك الإسبانية الشمالية أمير

= كثيرة ينظر مثلاً، عنان، دول الإسلام في الأندلس: 2/ 500.

(17) ابن عذاري: 2/ 235، المقري: 1/ 384.

(18) ابن عذاري: 2/ 235، المقري: 1/ 384.

(19) منهم حاكم قشتالة وبنبلونة، وبرشلونة.

(20) أحمد بدر: 66 وأطلق عليها ابن عذاري غزوة (شنت اشتبين) والتسمية الكاملة «شنت اشتبين دي غرماج» كما أوردها عبد العزيز سالم في كتابه: المسلمون وآثارهم في الأندلس: 290.

(21) ابن خلدون 4/ 144 و145 المقري: 1/ 383.

(22) سالم: 291 أحمد بدر: 67.

جليقية، وأمير اشتوريش ثم وفدت سفارة سانشو وملك نافارا[23]، وفي سنة 360هـ وفد سفراء أمير برشلونة الكونت بوريل ثم أوفدت البيرة الوصية على عرش ملك ليون تطلب عقد معاهدة عدم اعتداء بين الطرفين. ووصلت سفارات أخرى من أمير قشتالة وكونت شلمنقة، وفي سنة 362هـ جدد ملك نافار والبيرة وصية ملك ليون بعوثهما إلى قرطبة تعزيزاً لاتفاقاتهما السابقة.

لقد عاشت الأندلس في عهد الحكم المستنصر عصراً ذهبياً تميز بعدة مظاهر أبرزها ازدهار العلوم والأدب فقد كان الحكم «عالماً فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جماعاً للكتب، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مصر وأوان. . .»[24].

شارك العلماء في علومهم وألف مؤلفات بعضها في الأنساب[25] وأخرى في التاريخ وله تعليقات عديدة على كثير من المؤلفات التي قرأها أو سمعها حتى عده ابن الخطيب «حجة وقدوة، وأصلاً يوقف عنده»[26]، وكان قد بث التجار في أقطار المشرق والمغرب يقتنصون له كل جديد في العلم[27]، ويبعث إلى العلماء المشهورين للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم[28] وقد ضمت المكتبة الأموية المشهورة الآلاف من المؤلفات في العلوم المختلفة والعقلية منها والفعلية وروى ابن حزم: «أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط»[29].

وعهد بإدارة هذه المكتبة إلى أخيه عبد العزيز، في حين كان أخوه المنذر مشرفاً على دور التعليم في قرطبة، واحتفى الحكم بمجموعة من مشاهير علماء العصر

---

(23) عنان: 2/ 491.

(24) ابن الخطيب؛ أعمال الأعلام: 41.

(25) نقل ابن حزم بعض الأنساب عن كتاب الحكم، ينظر: جمهرة أنساب العرب: 88، 310، 399، 408، 424.

(26) أعمال الأعلام: 41.

(27) ابن الآبار: الحلة السيراء: 1/ 200.

(28) وصل كتاب الأغاني للأصفهاني الأندلس قبل أن ينتشر ويذاع في العراق بلد المؤلف. وكذلك فعل الحكم مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم. ينظر: ابن الآبار، الحلة السيراء 1/ 201، والمقري: 1/ 386.

(29) جمهرة أنساب العرب: 100.

الأندلسيين والمشارقة زينوا بلاطه وملأوه علماً وأدباً منهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي المتوفى سنة 355هـ[30] والعالم العراقي المشهور أبو علي القالي صاحب كتاب الأمالي[31]، المتوفى سنة 356هـ وربيع بن زيد (رثموندو) أحد المستعربين المقربين من الحكم لمعرفته علم الفلك والعلوم الفلسفية، وهي من العلوم التي عني بها الخليفة وسعى إلى جمع مؤلفاتها[32] وتحول بلاط الخليفة إلى أكاديمية عظيمة تزخر بشتى أنواع المعارف[33]. وإلى جانب هذا كان التعليم العام في عهده يجوز نهضة متميزة، فقد أسس عدداً من دور التعليم خصصت لأبناء الفقراء مجاناً، وعني عناية خاصة بجامعة قرطبة ورفدها بمشاهير العلماء المتخصصين وأجرى لهم الرواتب والاعطيات الجزيلة[34]، ويبدي النقد الحديث تقديره وإعجابه للنزعة العلمية التي امتاز بها عصر الخليفة الحكم المستنصر فالمؤرخ الإسباني لافونتي يقول: «كانت دولة الحكم الثاني دولة الآداب والحضارة»، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء، وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر فهل نغضي نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموي المستنير من الصفات الباهرة. . . إن السلم الذي وطده اكتافيوس في إسبانيا الرومانية، قد وطده الحكم في إسبانيا العربية، وقد قدم الحكم كما قدم اكتافيوس من قبل، الأدلة على أن الرغبة في السلم، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر، ولكن لأنه يؤثر إلهام القريض، ويؤثر الكتب على فرائض السلاح وإكليل الجامعات الحقيقي على إكليل الحروب الدموية. . .»[35].

ومن مظاهر هذا العصر أيضاً تبادل السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية وقد سبقت الإشارة إلى سفارات الممالك الإسبانية الشمالية التي وصلت قرطبة. وبقي أن

---

(30) ترجمته في تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي: 144؛ المرقبة العليا، للنباهي: 66 ـ 75.

(31) ترجمته عن تاريخ علماء الأندلس: 69، وكانت وفادته إلى الأندلس سنة 330هـ في عصر الخليفة عبد الرحمٰن الناصر.

(32) عنان، دول الإسلام: 2/ 507.

(33) عنان: دول الإسلام: 2/ 508.

(34) كان مقر هذه الجامعة في المسجد الجامع بقرطبة، ومن العلماء المدرسين فيها: أبو بكر بن معاوية القرشي استاذ علم الحديث، وأبو علي القالي البغدادي الذي كان يدرس اللغة والشعر والأمثال وبعض مؤلفاته، وكان له مجلس خاصّ يجتمع إليه الطلبة في الزهراء كل يوم خميس، وأبو بكر بن القوطية وكان معروفاً بعلم النحو وآخرين وغيرهم.

(35) عنان، دول الإسلام: 2/ 508.

نشير إلى سفارات الدول الأخرى التي ارتبطت بالأندلس بوثائق الصداقة منذ عهد والده عبد الرحمٰن الناصر، ففي سنة 361هـ/ 972م وصلت سفارة امبراطور القسطنطينية يحملها سفير له يدعى قسطنطين الملقي.

وفي سنة 363م وصلت سفارة امبراطور ألمانيا أوتو الثاني الذي خلف والده في الحكم، فيها يجدد علائق الصداقة بين الدولتين(36).

مات الحكم المستنصر سنة 366هـ/ 976م. وولي مكانه ولده هشام المؤيد بعهد منه وكان عمره إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر(37)، على الرغم من وجود إخوته المؤهلين لمثل هذا المنصب، وتولية هشام الطفل يعد سقطة كبيرة اقترفها الحكم بحق ولده المذكور والدولة معاً، فقد فرضت وصاية ابن أبي عامر الإجبارية على الخليفة الطفل ولم يعد من سلطات الخلافة غير الاسم وانتقل حكم الدولة في الأصل من الأسرة الأموية إلى أسرة أخرى هي الأسرة العامرية، التي انتهت بمقتل عبد الرحمٰن بن أبي عامر الملقب (شنجول) وأطاحت بآخر العامريين وفتحت أبواب الفتنة على مصراعيها حتى تم أفول نجم بني أمية نهائياً عن الأندلس في سنة 422هـ وإعلان أهل قرطبة إلغاء الخلافة والحكم الأموي في الوقت الذي أعلنت فيه معظم مدن الأندلس الكبيرة عن قيام دويلات تحمل أسماء زعمائها أو حكامها.

ومن هنا يمكن القول أن حكم بني أمية للأندلس ينتهي بوفاة الحكم المستنصر 366هـ ليبدأ عصر جديد هو عصر الدولة العامرية التي اتخذت شرعيتها من حماية الخليفة هشام المؤيد والحكم باسمه كما سيتوضح من خلال الفصول الآتية.

سيطرة الحاجب محمد بن أبي عامر على السلطة:

حرصت الشخصيات البارزة في الدولة جعفر بن عثمان المصحفي كبير الوزراء ومحمد بن أبي عامر ناظر الخاص وغالب بن عبد الرحمٰن قائد قوات الجبهة الشمالية على تنفيذ وصية الخليفة الحكم المستنصر القاضية بتنصيب هشام المؤيد خليفة على الأندلس، وقد حرص هذا المجلس على تنفيذ الوصية كما هي ليس من باب الإخلاص

---

(36) عنان: 2/ 508.

(37) كان مولده سنة 354هـ ـ ابن عذاري: 2/ 237 و253 وفي الكامل، لابن الأثير: 8/ 677 «عمره عشر سنوات» وفي النفح، للمقري: 1/ 396 «وله من العمر تسع سنوات».

للخليفة الراحل، وإنما وجدوا في ذلك ضماناً أكيداً لمراكزهم السلطوية[38]، في الدولة. في حين نجد اتجاهاً آخر يتزعمه كبار رجال الصقالبة كفائق وجؤذر يميلون إلى تنحية هشام المؤيد وتولية أحد أمراء البيت الأموي مكانه، ووقع اختيارهم على شخصية جديرة بهذا المنصب معروفة بقدراتها الفذة هو الأمير المغيرة بن عبد الرحمٰن الناصر أخي الحكم المستنصر. ومن باب المحافظة على وحدة البلاد وعدم تفريق الكلمة، خصوصاً وأن الصقالبة يمتلكون قوة كبيرة في القصر الخلافي قد تستخدم في الإنقلاب على الخليفة الجديد، فقد اتخذ مجلس الوصاية إجراءً وقائياً سريعاً تم خلاله قتل المغيرة بن عبد الرحمٰن[39]، وتفريق أنصاره، ولم يجد الصقالبة بُداً من الطاعة والتظاهر بالرضا، وهم في الحقيقة يعدون لمؤامرة تعيد هيبتهم في البلاد ومع كشف أول خيوط هذه المؤامرة بدأ المصحفي يتحوط من غدرهم، فوضع زعمائهم تحت المراقبة الشديدة وسرح أعداداً كبيرة من الخدمة وألحقهم بخدمة محمد بن أبي عامر[40]، وأمر الباقين بالدخول والخروج من القصر من باب عامة الناس، بعد أن أغلق الباب المخصص لدخول الصقالبة وخروجهم[41]. وتمت تصفية بعض العناصر الخطرة[42]، ونفي آخرون إلى مناطق خارج العاصمة قرطبة[43].

وبهذه الإجراءات أمِن المصحفي وابن أبي عامر شر هذه القوة التي كانت ولسنوات عديدة صاحبة الكلمة النافذة والنفوذ الواسع في الدولة، وقد قوبل هذا العمل بارتياح من

---

(38) يقول ابن عذاري في البيان المغرب: 2/ 260: جمع المصحفي الشخصيات التي تؤازره ومنهم زياد بن أفلح مولى الحكم وقاسم بن محمد، ومحمد بن أبي عامر وهشام بن محمد بن عثمان وآخرين غيرهم «واستدعى بني برزال إذ كانوا بطانته من سائر الجند، واستحضر سائر قواد الأجناد الأحرار وعرفهم مذهب الصقالبة في نكث بيعة هشام... وقال لهم: إن حبسنا الدولة على هشام أمنا على أنفسنا وصارت الدنيا في أيدينا وإن انتقلت إلى المغيرة، استبدل بنا...».

(39) تولى قتله محمد بن أبي عامر، ينظر: ابن عذاري 2/ 261، ابن خلدون 4/ 147.

(40) من أخطاء الوزير المصحفي القاتلة لسلطته، أنه قام بتسريح عددٍ من الصقالبة قيل أنهم في حدود الخمسمائة صقلبي، وألحقهم في حاشية ابن أبي عامر، الذي رحب بهم وزاد في إكرامهم حتى أصبحوا من أكثر المخلصين له، ينظر، ابن عذاري: 2/ 263، ابن خلدون: 4/ 147.

(41) كان الصقالبة يدخلون إلى القصر من باب الحديد فأغلقه المصحفي وجعل دخولهم وخروجهم من باب السدة مع بقية الناس، ابن عذاري: 2/ 262.

(42) من أمثال دري الصقلبي الذي حاول إثارة الشغب فاستدعيَ إلى العاصمة قرطبة وتم قتله، تفاصيل ذلك في البيان المغرب 2/ 263.

(43) نفي فائق أحد زعمائهم إلى الجزائر الشرقية.

قبل المؤرخين الأندلسيين[44]. الذين وجدوا في نكبة الصقالبة مدخلاً لسرد مثالبهم وسيئاتهم التي أصبحت مدار حديث الجميع.

والقضاء على الصقالبة كان أول خطوة من خطوات ابن أبي عامر باتجاه السيطرة على السلطة فهو الذي أغرى المصحفي بنكبتهم ومن ثم ألحقهم بحاشيته وبالغ في إكرامهم واستمال إليه أيضاً بني برزال وكانوا ضمن بطانة المصحفي، ولم يكن المصحفي ليعي أبعاد هذه السياسة التي جردته من أنصاره وحماته، ويبدو أنه عد هذا العمل حسنة من ابن أبي عامر، بعد أن ثقلت مطالب هذه الفرق المالية، مع شهرة المصحفي بالبخل والتقتير على أنصاره، وبسط ابن أبي عامر كرمه على أنصاره الذين أصبحوا أداة مخلصة لتحقيق كل أهدافه، وحاول بعد ذلك السيطرة على القوى العسكرية، والتحالف مع القوى الأخرى التي لا يستطيع بسط نفوذه عليها، فقاد خلال فترة وجيزة ثلاث حملات باتجاه الممالك الإسبانية الشمالية، أولها كانت سنة 366هـ عندما قام القشتاليون بهجوم شديد على قلعة رباح، مما اضطر أهلها إلى طلب النجدة من حكومة قرطبة التي بدت وكأنها عاجزة عن مناصرتهم، واكتفى المصحفي بالعمل على نسف القنطرة المبنية على نهر آنة لمنع تعرض القشتاليين لهذه القلعة، وهنا برز دور ابن أبي عامر في الدعوة لتجميع القوات وإعدادها لمهاجمة قشتالة وتولى هو قيادة هذه الحملة التي دخلت أراضي جليقية، ونازل حصن الحامة فدمره وعاث في أطرافه وعاد إلى قرطبة، وقد أضاف إلى رصيده في نجاحه العسكري هذا صفة القائد العسكري الناجح إضافة إلى الصفات السياسية والإدارية التي تميز بها.

ولم يكتفِ ابن أبي عامر بهذه الحملة بل أعاد الكرة ثانية بالإشتراك مع قوات غالب بن عبد الرحمٰن قائد الجبهة الشمالية، فخرجا من مجريط وتوغلا بقواتهما في أراضي مملكة قشتالة، وسيطرا على حصن مولة، وأصابا كثيراً من الغنائم والسبي، ثم عادت القوات إلى قواعدها الأصلية[45]، وقد استطاع ابن أبي عامر من كسب القائد غالب بن عبد الرحمن إلى جانبه[46]. بعد أن عانى الأخير كثيراً من لوم المصحفي

---

(44) عنان، دول الإسلام: 2/ 527 وعلى سبيل المثال، ينظر: ابن بسام، الذخيرة، ق 4 ج 1 ص 61، ابن عذاري: 2/ 263.

(45) ابن عذاري: 2/ 365.

(46) في البيان المغرب: 2/ 265 «وخدم ابن أبي عامر غالباً في سفره هذا خدمة ملك بها نفسه، فمال إليه غالب بكليته».

واتهامه بالتخاذل عند هجوم القشتاليين على قلعة رباح[47]، وفي الوقت الذي فقد المصحفي فيه رجلاً كان على الحياد أصبح هذا الرجل حليفاً ونصيراً قوياً يشد عضد ابن أبي عامر في صراعه الخفي مع المصحفي خصوصاً وأن القائد غالب بن عبد الرحمٰن قد أصبح يحمل لقب ذي الوزارتين، وقد بدأت نتائج هذا التحالف ونتائج الانتصارات في الجبهة الشمالية تظهر سريعاً، وذلك عندما أمر الخليفة هشام (وبتحريض من ابن أبي عامر) بعزل محمد بن جعفر المصحفي عن حكم قرطبة، وتوليتها أحد أقرباء ابن أبي عامر.

وقد شعر المصحفي بالمصير الذي ينتظره فحاول كسب قائد الجبهة الشمالية غالب وذلك عن طريق المصاهرة، إذ تقدم بطلب إبنة غالب لولده محمد ورغم موافقة غالب على طلبه ووعده له بتنفيذ ذلك، إلا أنه تراجع عندما حاول ابن أبي عامر منع هذه المصاهرة واختصر الطريق وتقدم هو لطلب ابنة غالب زوجة له. وبهذا فشلت آخر محاولة للمصحفي للوقوف في وجه ابن أبي عامر.

وذاعت شهرة ابن أبي عامر عندما جهز القوات للجهاد في غزوته الثالثة سنة 367هـ بالاشتراك مع صهره غالب بن عبد الرحمن فاقتحمت قواتهما المشتركة حصن المال وحصن زنبق، ونازلت مدينة شلمنقة واحتلت معظم المناطق المحيطة بها ثم عادت القوات إلى قرطبة ليبادر الخليفة بتكريم ابن أبي عامر، وتلقيبه بذي الوزارتين ورفع مرتبته إلى مرتبة صاحب الحجابة التي تولاها مع المصحفي خلال هذه الفترة غالب بن عبد الرحمٰن ثم عزل المصحفي بعد ذلك، وتم القبض عليه وعلى ولده محمد وابن أخيه هشام وبعض أقربائه وصرفوا جميعاً عما كان بأيديهم من الأعمال، واستصفيت أموالهم وألقي جعفر في سجن المطبق حتى وفاته سنة 372هـ/ 983م[48].

وبالقضاء على المصحفي أصبح محمد بن أبي عامر الرجل الأول في الدولة ما دام الخليفة هشام المؤيد قاصراً عن أداء واجباته الفعلية، وقد وصل ابن أبي عامر إلى هذه المكانة عن طريق التحالف مع قوى، سانده أكثرها، واصطف إلى جانبه نكاية بالحاجب المصحفي لاستئثاره بالسلطات لا إيماناً بأفضليته عليه، وكان ابن أبي عامر يعي ذلك جيداً، ويعلم أن هؤلاء سيعملون ضده إذا ما اقتضى الأمر ذلك في يوم من الأيام[49]،

(47) ابن بسام: ق 4 ج 1 ص 63 و64؛ ابن عذاري: 2/ 365.

(48) ابن عذاري: 2/ 267 وما بعدها.

(49) أحمد بدر: 30.

لذا نراه يتخذ إجراءات متعاقبة متتالية يحصن فيها نفسه ضد مؤامرات أعدائه، ثم يخلق قوى جديدة لنفسه بدلاً من القوى التي خلقها الحكم المستنصر وتحالف هو معها، وعرف زعماؤها باسم الصنائع الحكميين، وكلما ازدادت الدعائم التي يعتمد عليها وازداد عدد الصنائع العامريين كلما زاد من استبداده، حتى أصبح السلطان المطلق للأندلس[50]. ولم يبق أمامه من منافس غير غالب بن عبد الرحمٰن والد زوجته والذي كان يتمتع بسمعة رفيعة في ميدان القيادة العسكرية وعلى مستوى عموم الأندلس[51]، وكان المناؤون لسياسة ابن أبي عامر يجدون في غالب الرجل المناسب للمقاومة والانتفاض[52]، لهذا عمد ابن أبي عامر إلى منافسة مكانة سلطان غالب برجل لا يقل عنه شجاعة وفروسية فلم يجد لذلك خيراً من جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي شدة بأس، ورباطة جأش وجلالة قدر، فاستدعاه وقواته من المغرب ومنحه لقب وزير وجعله من خاصته وأمَّره على جيش الحضرة[53]، مما أثار القائد غالب بن عبد الرحمٰن بعد أن فطن إلى ما يدبره العامري وما يهدف إليه، إضافة إلى وشاية (صبح) والدة الخليفة هشام المؤيد بابن أبي عامر ومحاولاتها لإيغار قلب غالب بن عبد الرحمن عليه، ولم يطل الأمر بين الاثنين فقد عزم على استيضاح الأمور ودعا صهره ابن أبي عامر لحضور وليمة أقامها على شرفه في مدينة انتسة، وانفرد الاثنان ودار بينهما حوار انتهى بأن سل غالب سيفه لقتل محمد بن أبي عامر الذي تمكن من الخلاص بأعجوبة واللحاق بالعاصمة قرطبة، حيث أعد قوة خاصة توجهت أولاً إلى مدينة سالم مقر غالب بن عبد الرحمٰن فتمت السيطرة عليها[54]، وهنا تشير بعض المصادر إلى محالفة غالب لبعض أمراء الأسبان الشماليين وسيره بقواته للقاء قوات ابن أبي عامر في محرم سنة 371هـ أمام حصن شنت بجنت على مقربة من انتسة وكادت الدائرة تدور على جيش العامري لولا نهاية غالب بن عبد الرحمٰن بالسكتة القلبية وسقوطه في ميدان المعركة، فاختل بعدها توازن جيشه وانفلتت تعبئته وولت فصائله منهزمة في اتجاهات مختلفة[55].

---

(50) أحمد بدر: 30.

(51) يقول ابن عذاري في البيان المغرب: 2/ 278 كان غالبٌ يستطيل على ابن أبي عامر بأسباب الفروسية ويباينه بمعاني الشجاعة ويعلوه من هذه الجبهة التي لم يتقدم لابن أبي عامر بها معرفة.

(52) عنان، دول الإسلام: 2/ 538.

(53) ابن عذاري: 2/ 278؛ ابن خلدون: 4/ 147.

(54) ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 62.

(55) ينظر ابن عذاري: 2/ 279؛ عنان، دول الإسلام: 2/ 539؛ أحمد بدر: 31.

وبموت غالب بن عبد الرحمٰن لم يعد للعامري من يخشاه في البلاد، فاتخذ لقباً خلافياً هو المنصور، ودعي له على المنابر به استيفاء لرسوم الملوك[56]، واستمر على تعبئة العناصر المخلصة له في الجيش من مماليك صقالبة وبربر وحرص على بقاء هذه العناصر مرتبط به شخصياً مع إغداقه عليهم الأموال والرواتب المجزية[57].

ودبر حيلة اغتال بها جعفر بن علي بن حمدون قائد جيش الحضرة سنة 372هـ وإعدام قاتله لكي لا ينكشف الأمر[58]، وهكذا تخلص ابن أبي عامر من آخر الرجال الذين أخلصوا له وقدموا له خلال صراعه مع غالب بن عبد الرحمٰن خدمات جليلة بعد أن وجد دور جعفر بن علي قد انتهى بموت غالب وبقاؤه حياً أمر لا مبرر له. فهو لم يعد يحتمل في دولته رجالاً من طراز جعفر بن علي قد يسببون له في المستقبل نوعاً من الازعاج.

وهكذا تخلص ابن أبي عامر من جميع منافسيه وفق مبدأ الغاية تبرر الواسطة وفي ذلك يقول ابن الخطيب السلماني: كان ابن أبي عامر آية في الدهاء والمكر والسياسة عدا بالمصحفي على الصقالبة حتى قتلهم، ثم عدا بغالب على المصحفي حتى قتله، ثم عدا بجعفر بن علي بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه ثم انفرد ينادي صروف الدهر: هل من مبارز، فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره[59].

سياسة المنصور ابن أبي عامر:

أ ـ السياسة الخارجية:

1 ـ الجهاد ضد الممالك الإسبانية الشمالية:

امتازت السياسة التي اعتمدها المنصور ابن أبي عامر تجاه الممالك الإسبانية

---

(56) ابن عذاري: 2/ 279.

(57) أحمد بدر: 31.

(58) قال ابن عذاري في البيان المغرب 2/ 279 «ولما فرغ ابن أبي عامر من غالب، دبر الحيلة في حتف جعفر بن علي الذي أقامه أكبر معين في أمر غالب، فواطأ على قتله أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي... في طائفة من أصحابه الأندلسيين فقتلوه غيلة، ثم قتل ابن أبي عامر بعد ذلك أبا الأحوص». وينظر أيضاً: الصفحات 280 و281 من الكتاب أعلاه.

(59) أعمال الأعلام: 77.

الشمالية بطابع جهادي متميز، فقد بلغت الحملات التي سيرت إلى هذه الممالك أكثر من خمسين حملة[60]، ومعنى هذا أن المنصور كان يقوم بحملتين كل عام حملة في الصيف وأخرى في الشتاء وأن جميع هذه الحملات كانت تحت قيادته المباشرة[61]، وحقق فيها انتصارات باهرة لم يخسر معركة واحدة من معاركها[62]، «وكان الطابع العام لسياسته الجهادية هجومياً، بانتزاعه المبادرة من أعدائه الذين أرغموا على تغيير استراتيجيتهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع»[63]. وظلت قواتهم قابعة ضمن حدودها الإقليمية بعد أن شلت حركتها باتجاه التوغل أو حتى التقرب من الحدود الدولية للدولة العربية. ذلك أن المنصور ابن أبي عامر طرق في عملياته العسكرية هذه أراضٍ لم تطرقها الجيوش العربية من قبل ولا حاولت الوصول إليها، وكانت أهدافه من ذلك إعلام حكام تلك الممالك بأن القوات العربية قادرة على أن تصل وتضرب أية نقطة من أراضيهم حينما ترى أن الضرورة تتطلب ذلك، وقد اعتمد المنصور ابن أبي عامر على قوات أعدت إعداداً جيداً كانت ثمرة النظام الذي أقره على بنية القوات العسكرية فقد كانت الفرق العسكرية قبله تنضوي تحت لواء زعيم من زعماء القبائل وتضم تلك الفرقة أبناء وموالي كل قبيلة، وكانوا يتجمعون بناء على نداء من الدولة للنصرة والتطوع في صفوف القوات العازمة على الحرب، ومنذ عصر الناصر خصوصاً بعد واقعة الخندق سنة 327هـ ـ. لم تعد للعصبية القبلية أو لزعمائها مكانة وسط تنظيمات الجيش فأكمل ابن أبي عامر هدف الناصر بأن وزع الجند في مجموعات ضمن سرايا وفرق بغض النظر عن عصبية كل جندي وأمر عليهم قائداً يختاره من بين القادة، وجعل قواته من ناحية التنظيم أشبه بالقوات النظامية في العصر الحديث، مع تقرير رواتب شهرية لكل منتظم في هذه القوات وحسب موقعه ومكانته. وهذا النظام سهل أمر تجميع القوات في وقت سريع، وأصبح الجند أكثر إلتزاماً وانضباطاً من ذي قبل، ولعل نتائج هذا التنظيم تبدو جلية من خلال حملات ابن أبي عامر على الممالك الشمالية وغيرها والتي تجاوزت كما ذكرنا الخمسين حملة، أشهرها تلك التي قادها سنة 371هـ لمهاجمة مملكة ليون قاصداً مدينة سمورة إلى الشمال من شنت مانكش والغرض تأديب ملك ليون راميرو الثالث

---

(60) في الكامل، لابن الأثير: 8/ 667 (52 غزوة) ومثلها في كتاب العبر، لابن خلدون: 4/ 148 وفي البيان المغرب لابن عذاري: 2/ 301 (57 غزوة).

(61) ابن خلدون: 4/ 148؛ ابن عذاري: 2/ 301.

(62) ابن عذاري: 2/ 301؛ ابن خلدون: 4/ 148؛ المقري: 1/ 4001.

(63) بيضون: 340؛ وينظر: عنان، دول الإسلام 2/ 540.

لتدخله في شؤون الأندلس الداخلية وإمداده للقائد غالب بن عبد الرحمن بعدد من الجند الذين قاتلوا في صفه، وقد تمكنت القوات الأندلسية من تدمير جميع القرى المحيطة بالمدينة وسحقت كل مقاومة صادفتها، ولم يتمكن راميرو الثالث من أي عمل مضاد وحده فتحالف مع كونت قشتالة وملك نافار، ولكن هذا الحلف انتهى بالإنهيار عند أول لقاء للقوات المتحاربة في مكان قريب من شنت مانكش استسلمت بعده المدينة المذكورة واستمر زحف القوات الأندلسية باتجاه عاصمة مملكة ليون ولكن حلول الشتاء وسقوط الثلوج حالا دون إتمام بقية العمليات العسكرية وعلى الرغم من ذلك فقد كان لهذا الانتصار المحدود نتائج سلبية أصابت دولة ليون في الصميم فقد خلع راميرو الثالث ونصب مكانه ابن عمه برمودة الذي اضطر إلى دفع الجزية للمنصور ابن أبي عامر. وخرج من الصراع ملك بنبلونة شانجة فخضع للدولة العربية وقدم ابنته هدية لابن أبي عامر، فعقد عليها وتزوجها[64].

أما الغزوة الثالثة والعشرون في سنة 374هـ فقد كان هدفها ثغر برشلونة قاعدة إمارة قطلونية حيث تم اجتياح الإقليم ومهاجمة مدينة برشلونة ودخولها بعد تدمير قوات الكونت بريل تدميراً نهائياً إلا من تمكن من الفرار.

وفي سنة 376هـ عاود المنصور الهجوم على مملكة ليون لإخلالها في بعض الشروط المفروضة عليها واستهدف الهجوم مدناً عديدة منها العاصمة ليون ومدينة قلمرية التي تم احتلالها وتخريبها.

وفي سنة 378هـ احتل سمورة وليون، وأنهى كيان هذه المملكة ثم استعاد ملكها مركزه بعد سنتين وبعد أن وادع المنصور ووافق على تنفيذ جميع الشروط المفروضة على مملكته[65].

أما الغزوة الثامنة والأربعون في سنة 387هـ فهي حملة جليقية وكانت حملة ذات هدفين مهمين:

الهدف الأول: أن جليقية كانت تشكل خط الدفاع لقوات ليون المنهزمة.

والثاني: أن جليقية كانت تضم مدينة من أشهر المدن الإسبانية وأعلاها مكانة من الناحية الدينية، تلك هي مدينة شنت ياقب[66].

---

(64) هي أم ولده عبد الرحمٰن الملقب ـ شنجول ـ لجده شانجة.

(65) عن هذه الإمارة: ينظر: عنان: 2/ 543.

(66) في البيان المغرب: 2/ 294 «وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، فبها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها».

وقد استعد المنصور لهذه الحملة استعداداً عالياً فقسم قواته إلى قسمين قوة الفرسان تحت قيادته، والقسم الآخر، ضم المشاة وما يلحق بهم حمل بحراً، والتقت القوتان عند نهر دويرة وبدأت القوات الأندلسية زحفها في أراضي جليقية مطهرة مناطق ومدناً عديدة في الطريق إلى الهدف شنت ياقب التي أشرفت عليها فألفتها خالية من القوات والسكان، فدخلتها وغنمت ما تهيأ من غنائم المدينة وهدت جميع تحصيناتها ومبانيها باستثناء ضريح (القديس يعقوب) الذي تنسب إليه المدينة فقد أمر المنصور بإعماره ورعايته وفي طريق العودة استسلمت له عدة مدن مشهورة منها مدينة كرونيا ومدينة لاميجو(67).

وأمام هذه الانتكاسات التي أصابت الممالك الإسبانية الشمالية في الصميم، حاول حاكم قشتالة سانشو غرسية في سنة 390هـ معالجة حالة التردي هذه بتشكيل جبهة قتالية بزعامته ومساعدة أمراء البشكنس وملك ليون وتعاهدوا على المقاومة والثبات، وقاموا بأول عمل مضاد فسيروا قواتهم إلى وادي نهر دويرة الأدنى للتمكن من التحصن في الجبال، فسارع ابن أبي عامر على لقاء قوى التحالف واتجه إلى أراضي قشتالة ومنها نفذ إلى المنطقة التي تحصنت بها قوات المتحالفين، وهنا رأى سانشو أن خطة الهجوم المفاجيء قبل أن يثبت المنصور أقدامه على الأرض، تحقق له ولقواته وضعاً عسكرياً يحقق إنزال أفدح الخسائر بالجيش المقابل وفعلاً نجحت خطته، وكاد الأمر ينتهي لصالح القوات المتحالفة، لولا رد قوات المنصور بهجوم مقابل شديد شتت شمل فرق المتحالفين وأجبرهم على الارتداد والهزيمة، واستمر المنصور في تقدمه حتى وصل مدينة برغش عاصمة قشتالة واستباحها. وظلت قواته تكيل الضربات وفي اتجاهات مختلفة حتى طرقت بنبلونة عاصمة مملكة نافار، ولم تتمكن قوات هذه الممالك من صد الهجمات القاسية والمتلاحقة لقوات المنصور فأذعنت لأوامره وشروطه(68).

2 ـ سياسة المنصور ابن أبي عامر تجاه المغرب:

كانت سياسة الأندلس تجاه بلاد المغرب مركزية لا تتغير بتغيير الحكام وهي تقوم أساساً على اعتبار السواحل المقابلة للأندلس بمثابة حزام أمان للأندلس، يجب الحفاظ

---

(67) ابن عذاري: 2/ 294 وما بعدها؛ عنان، دول الإسلام: 2/ 560 و561.

(68) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 69.

على تبعيتها وولائها لحكومة قرطبة مهما كانت الأسباب، واعتبار مضيق جبل طارق جزءاً لا يتجزأ من الأندلس.

وقد مر سابقاً وصف أحوال المغرب العربي في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله وكيف تمكنت قوات الأندلس البحرية من كسر شوكة الحسن بن كنون زعيم الأدارسة سنة 363هـ، وإجباره على السكن في العاصمة قرطبة، قبل أن يسمح له الحكم بعد ما يقرب من سنتين بمغادرة الأندلس إلى مصر، بعد أن أخذت منه المواثيق والعهود بعدم القيام بأي عمل مضاد من شأنه أن يسبب قلقاً لحكومة قرطبة في المغرب.

وفي عهد الحكم أيضاً تم توسيع دائرة نفوذ الأندلس في المغرب، مما بات يهدد نفوذ الفاطميين ويُؤذن بإزالته نهائياً، لذا عاود الفاطميون في سنة 368هـ[69] سياستهم القائمة على رد الاعتبار واستعادة المناطق التي خسروها سابقاً، فأوعزوا إلى نائبهم بلكين بن زيري الصنهاجي للقيام بسلسلة من العمليات العسكرية لاستخلاص المدن المهمة والمناطق الحيوية لنفوذهم، وفعلاً تم الاستيلاء على مدينة فاس سنة 369هـ، والانتصار على قبائل زناتة في سلسلة من المواقع، ألجأتهم أخيراً إلى المناطق الساحلية: سبتة وطنجة ومليلة التي ظلت في أيدي الأندلسيين[70]، وأمام هذا المد الذي وسع دائرة نفوذ خلفاء الدولة الفاطمية، والجزر الذي أصاب حلفاء حكومة قرطبة، قرر المنصور ابن أبي عامر العمل بسرعة على استعادة ما فقده في هذه البلاد، فأرسل إلى ميدان المعركة القائد المشهور جعفر بن علي المعروف بالأندلسي واستمرت الإمدادات بالقوات والسلاح متواصلة لإدامة عوامل الصمود، حتى أجبرت بلكين بن زيري لتعديل خططه والارتداد عن المناطق الساحلية المذكورة، فسار باتجاه مدينة البصرة التي تعرضت للدمار، وهاجم قبائل برغواطة وقتل زعيمها وسبى أعداداً كبيرة منهم، ثم دخل سجلماسة واغتال زعيمها خزرون بن فلفل، ثم قفل راجعاً إلى المغرب الأدنى بعد أن مكن نفوذ الفاطميين في المناطق التي تم تطهيرها.

وتعد هذه الحملة آخر الحملات الكبيرة التي قام بها الفاطميون لبسط نفوذهم على المغرب العربي وهي على الرغم من سعة الأراضي التي اكتسحتها ومدى الخراب الذي أحدثته لم تكن ذات أثر فعال في إعادة النفوذ الفاطمي إلى المغرب الأقصى، فقد عاد

---

(69) كان الفاطميون في عهد العزيز بالله مشغولين برد القرامطة عن مصر والشام، وعندما تمت هزيمتهم، تفرغوا لشؤون المغرب من جديد.

(70) الناصري: الاستقصاء: 1/ 207.

نفوذ قرطبة إلى ما كان عليه إثر عودة الحملة، وكان الزناتيون أداة هذا النفوذ، فقد عادوا للانسياح في أرجاء المغرب الأقصى والسيطرة على قواعده، وعندما حاول نائب الخليفة الفاطمي الجديد، وهو المنصور بن بلكين بن زيري، استعادة ما فقده... هزمه الزناتيون تحت قيادة زعيم زناتي جديد بدأ نجمه بالصعود وهو زيري بن عطية حفيد عبد الله بن خزر[71]، الذي كان بدوره أخاً لمحمد بن خزر الزعيم المغراوي الذي انضوى تحت لواء الأمويين في أيام الناصر لدين الله، وأقلع المنصور بن بلكين بعد ذلك عن مهاجمة المغرب الأقصى[72]، غير أن الفاطميين أرسلوا إلى المغرب الأقصى الحسن بن كنون ولم يكن إرساله بديلاً عن القوات العسكرية ووسيلة لاستعادة نفوذهم بقدر ما كانت عملية لتعكير الأمن على حكومة قرطبة في هذه المناطق[73]. فقد وصل الحسن بن كنون إلى المغرب الأقصى في سنة 373هـ معززاً ببعض القوات الفاطمية[74]، والتفت حوله مجاميع أخرى من قوات البربر لاسيما بنو يفرن الزناتيين، ولكن قوات المنصور ابن أبي عامر تمكنت من إجهاض هجومه ومحاصرته ثم إجباره على الاستسلام واقتيد إلى قرطبة[75]، ولكنه اغتيل بالطريق إليها بتدبير من ابن أبي عامر في سنة 375هـ/ 985م[76].

وقد تولى أمر المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي، وأصبح زيري بن عطية المغراوي بمثابة المستشار في أموره، وعند وفاة الحسن سنة 381هـ انتقلت ولاية المغرب إلى زيري بن عطية الذي عرفت عنه سياسته في ضبط الأمور والسيطرة على البلاد سيطرة تامة[77]، خصوصاً بعد انتصاره على بني يفرن وقتل زعيمهم يدو بن يعلي سنة 383هـ، وعلى الرغم من أن المنصور كافأ زيري بن عطية على خدماته ومنحه لقب (وزير) غير أن الأخير لم يكن قانعاً بهذا اللقب والذي لم يعد (حسب رأيه) ليتوازن مع أعماله التي قدمها للمنصور ابن أبي عامر وكان يطمح إلى لقب الإمارة، وذلك هو ما سعى إليه عندما بدأ بتأسيس مدينة خاصة به وهي مدينة وجدة[78]. وعني

---

(71) تفاصيل ذلك في البيان المغرب، لابن عذاري 1/ 249.

(72) أحمد بدر: 99 و100.

(73) أحمد بدر: 100.

(74) في الاستقصا، للناصري: 1/ 203 كانت بحدود ثلاثة آلاف فارس.

(75) ابن عذاري: 20/ 281.

(76) ابن عذاري: 2/ 281؛ الناصري: 1/ 204.

(77) الناصري: 1/ 209.

(78) جنوب شرقي مليلة.

بتحصينها ثم انتقل إليها بخاصته ورجاله سنة 386هـ/ 996م[79].

غير أن التطورات المفاجئة بين المنصور ابن أبي عامر وابن عطية قلبت العلاقات الودية بين الطرفين ودفعت زعيم زناتة إلى التمرد وإعلان العصيان[80] ولا نكاد نلمح في سطور الروايات التاريخية التي دونت أخبار هذا التمرد أي تسويغ مقبول لخروج الزعيم الزناتي على السلطة المركزية باستثناء ما قيل من أن أسباباً اقتصادية كانت وراء نفوره، أو ما قيل عن استخفافه بلقب الوزارة الذي منحته إياه حكومة قرطبة. فقد وجد حسب تعبير الرواية تقليلاً من وزنه السياسي بوصفه أميراً ينتمي إلى قبيلة كبيرة، غير أن هذه المصادمة إن صح وقوعها بين المنصور وزيري، لا تصلح لأن تكون مقدمة ثورة شاملة تستقطب البربر، لو لم تكن لها أبعاد سياسية ورواسب تاريخية معروفة، حدت به إلى التمرد ضد الوصاية العامرية، فقد شعر زيري بقوته من خلال القاعدة الشعبية التي التفت حوله من سواد قبائل البربر، حيث استهواها دائماً الاستقلال بشؤونها السياسية والإقتصادية، وكان زيري بشخصيته الذكية قد احتل مكانة عالية لدى جماعته من البربر فتحول بنظرهم إلى قائد شعبي، تتجسد فيه آمالهم البعيدة في السيادة والاستقلال[81] وبدأ زيري بن عطية بتنفيذ ما عزم عليه فاكتفى بذكر اسم الخليفة هشام في خطبة يوم الجمعة فقط، وأسقط اسم المنصور، وطرد عماله من المغرب وتمكنت قواته من دحر قوات القائد واضح في وادي زارات جنوبي طنجة، ولكن انتصاراته لم تسفر عن نتائج فعالة فقد أعادت القوات الأندلسية الكرة على قواته في سنة 387هـ وتمكنت من الانتصار عليها بوادٍ من أحواز طنجة وطاردت فلولها حتى مدينة مكناسة، ففر إلى العمق الصحراوي مع بعض فرقه المنهزمة، وتمكنت قوات الأندلس من تطهير مدينة فاس سنة 388هـ وإعادة المناطق التي اختلت طاعتها بخروج ابن عطية[82].

وفي سنة 391هـ عاد زيري بن عطية إلى ولائه وكاتب المنصور بهذا الأمر فعفى عنه وحسنت سيرته حتى وافاه الأجل في السنة نفسها فخلفه على حكم المغرب ولده المعز الذي أعلن سياسة الولاء للمنصور ابن أبي عامر ثم لابنه عبد الملك المظفر من بعده[83].

---

(79) الناصري: 1/ 213.

(80) عنان: دول الإسلام 2/ 557.

(81) بيضون: 348، وينظر: العبادي 238.

(82) ابن عذاري: 1/ 252.

(83) ابن عذاري: 1/ 253.

3 ـ العلاقات الدبلوماسية:

ظلت العلاقات الودية قائمة بين الأندلس والامبراطورية البيزنطية فقد عاصر المنصور الإمبراطور بازيل الثاني (976 ـ 1025م) الذي يعد عصره الطويل من أزهى عصور هذه الإمبراطورية.

وظلت أيضاً علاقة الأندلس بألمانيا علاقة صداقة وسلام رسختها رغبة الطرفين في استمرار تلك العلائق، وكان امبراطور ألمانيا أوتو الثالث 983 ـ 1002م قد سار على نهج أسلافه في إقرار عرى التعاون المشترك بين البلدين. أما علاقات الأندلس الدبلوماسية مع ملوك وأمراء إسبانيا الشمالية فلم تكن لترقى إلى مستوى العلاقات الودية إلا في ظروف عجزت معه هذه الممالك عن مقاومة جيوش المنصور ابن أبي عامر، فتم عقد المصاهرة بين المنصور وبين ملك نبرة شانجة عندما تزوج الأول إبنة الأخير.

أما العلاقات مع قشتالة، فقد عاصر المنصور ابن أبي عامر اثنين من حكامها فرناند وابنه سانشو وكلاهما لقي الكثير من الهزائم أمام قوات المنصور فالأول انتهت حياته في الأسر والثاني اضطر إلى عقد اتفاق مذل مع المنصور ابن أبي عامر أعلن فيه خضوعه وولاءه التام له[84].

ـ السياسة الداخلية:

1 ـ علاقة المنصور مع الخليفة هشام المؤيد:

استمر الحجر على الخليفة هشام المؤيد ومنعت تحركاته إلا بمعرفة المنصور ابن أبي عامر، وهي سياسة دأب عليها أولاده عبد الملك وعبد الرحمٰن من بعده وظل الخليفة المؤيد اسماً مجرداً في سلسلة خلفاء الأندلس، ورمزاً تمارس باسمه جميع السلطات لاكتساب الشرعية[85]. وإذا كان المنصور قد اختار مناسبات معينة لظهور الخليفة بموكبه المعروف، فإنه كان يقصد أول ما يقصد الرد على تقولات المروانيين وبعض الإشاعات التي تبث في العاصمة عن سجن الخليفة بقصره وعدم السماح له بالظهور وسط العامة[86].

---

(84) العبادي ج 246 و247.

(85) يقول ابن عذاري: 2/ 278 «وأشاع ابن أبي عامر أن السلطان فوض إليه النظر في أمر الملك وتخلى عنه لعبادة ربه، وانبث ذلك في الرعية حتى اطمأنوا إليه».

(86) ينظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 76.

2 ـ العلاقة مع الفقهاء:

خطب المنصور ابن أبي عامر ود طبقة الفقهاء، وحاول كسب رضاهم ربما كتعويض عن اغتصابه السلطة، أو نتيجة لنشأته الدينية ودراسته على أشهر فقهاء العصر ومع ذلك فقد ظلت مسألة استبداده بالأمور وتمجيد شخصيته محوراً للخلاف بينه وبينهم، غير أن الخلاف لم يكن ليصل إلى حد القطيعة والصدام كما حدث للحكم بن هشام الربضي مع فقهاء عصره، لأن كل طرف من هذه الأطراف لم يكن يريد أن يتحدى الآخر بالشكل الذي يؤدي إلى هذه النتائج، والمنصور ابن أبي عامر من جانبه كان حريصاً على أن يضيف إلى أعماله نوعاً من الشرعية المدعمة بفتوى الفقهاء، أما الفقهاء فعلى الرغم من أنهم لم يسكتوا على أعمال المنصور إلا أنهم سايروه في البعض منها على قناعتهم بعدم انسجام تلك الأعمال والأفعال مع مذهب الإمام مالك مذهب أهل الأندلس[87].

وعلى الرغم من كل هذه العلاقة التي تبدو ودية في أكثر من جانب إلا أن عصره لم يخل من فقهاء حاولوا التصدي لمشاريعه السلطوية ومنهم على سبيل المثال قاضي قضاة الأندلس محمد بن إسحاق بن منذر بن أبي عكرمة المتوفى سنة 367هـ[88] المتولي بعد وفاة البلوطي.

وقامت حركة أخرى كان على رأسها عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي كانت تدعو إلى تولية عبد الرحمٰن بن عبيد الله الناصر ابن عم هشام المؤيد واغتيال هشام المؤيد والحاجب المنصور ابن أبي عامر، وقد اشترك في هذه الحركة عدد كبير من كبار الموظفين في الدولة ونخبة لا بأس بها من مشهوري الفقهاء، ولكن الأمر انتهى بكشف خيوط الحركة قبل التنفيذ وتم القبض على عبد الملك بن منذر البلوطي فحكم عليه بالإعدام على الرغم من معارضة الفقهاء ولكن العامري نفذ الإعدام فيه سنة 368هـ[89] واكتفى بسجن الآخرين. ويظهر أن إعدام ابن منذر البلوطي وسجن الباقين ليس مرده لزعامة البلوطي للفتنة فقط، بل لكونه معتزلياً، الأمر الذي يجعل إعدامه لا يثير ردود فعل سلبية بقدر ما له من نتائج هي في صالح المنصور ابن أبي عامر وذلك لكره أهل

---

(87) أحمد بدر: 35؛ بيضون: 338.

(88) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس: 2/ 76؛ النباهي: 75. وينظر: أحمد بدر: 36.

(89) قال ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس: 1/ 275 «بالذي عزيَ إليه من النكث فصلب على باب سدة السلطان يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة سنة 368هـ».

الأندلس الشديد للمعتزلة[90].

ومن الفقهاء الذين عارضوا رغبات المنصور غير المسوغة قاضي القضاة محمد بن يقى بن زرب المتوفى سنة 381هـ فقد روى النباهي أن المنصور ابن أبي عامر أراد إقامة الصلاة الجامعة في مسجد الزاهرة فعارضه القاضي المذكور وعد ذلك من الأمور التي لا تصح شرعاً مع وجود مسجد للجماعة[91].

ومهما يكن من أمر فإن علاقة المنصور ابن أبي عامر مع فقهاء عصره هي علاقة ود وانسجام «وهي ظاهرة مميزة في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، حيث قام لأول مرة توازن في العلاقة بين الدولة ورجال الدين، ولعلنا لا نتعارض مع الحقيقة في تقدير حجم الفقهاء الذين استمدوا قوتهم من التشدد في المذهب المالكي المحافظ، ومن المركز المعنوي الذي كان لهم بين طبقات الشعب في الأندلس، وانطلاقاً من هذا الموقع كانت المصادقة الدائمة على النفوذ بينهم وبين السلطة الزمنية، فإما أن تسود كلمتهم كما حصل في عهود هشام الأول وعبد الرحمٰن الثاني والحكم المستنصر أو يعيشوا في الظل كما في عهود الأقوياء من الحكام. . . وهكذا فإن العامري كان الحاكم الوحيد الذي بنى علاقات متكافئة بينه وبين الفقهاء، فلم يحاول تحجيم نفوذهم رغم سلطته المطلقة من جهة ولم يفتح لهم أي نافذة للتدخل في شؤون الحكم من جهة أخرى»[92].

3 ـ تغيير بنية الجيش:

أعاد المنصور ابن أبي عامر تنظيم القوات المسلحة تنظيماً جديداً كفل له بالتالي نتائج إيجابية على المستويين الداخلي والخارجي، وتنظيماته تقوم أساساً على جعل القوات المسلحة وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادة عليا، وإلغاء النظام القديم الذي يقوم على الأساس القبلي أو العنصري، كما ألغى النظام الإقطاعي العسكري، وأصبح جيشه جيشاً نظامياً يتكون من فرق عديدة على رأس كل فرقة منها قائد أعلى ينوب عنه عدد من القادة الأخرين وحسب التشكيلات التي تتكون منها الفرقة العسكرية، ولكل منتسب راتب شهري مقرر حسب رتبته وموقعه.

---

(90) أحمد بدر: 37 و38.

(91) المرقبة العليا: 77.

(92) بيضون: 338 و339.

وصنوف القوات المسلحة في عهده كما هي الحال في عهود من سبقه من أمراء وخلفاء بنو أمية تتكون من صنفين أساسيين هما المشاة وهي القوة الضاربة في الجيش، والفرسان[93] الذين يعدون من الصنوف الفاعلة في كل موقعة من المواقع.

4 ـ بناء الزاهرة:

اقتفى المنصور ابن أبي عامر أثر الخليفة عبد الرحمٰن الناصر عندما شرع في بناء مدينة خاصة به سنة 368هـ/ 978م اتخذت اسم الزاهرة، والدوافع إلى بناء هذه المدينة لا تختلف كثيراً عن الدوافع التي حدت بالخليفة الناصر إلى تأسيس مدينة الزهراء، وهي تمجيد عصورهم بمنشآت مميزة، دلالة على العزة والسلطان الواسع[94]. والسبب المضاف ما ذكره ابن عذاري بقوله: «أمر المنصور ابن أبي عامر ببناء قصره المعروف بالزاهرة وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمره وأظهر استبداده، وكثر حساده وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان وخشي أن يقع في أشطان، فتوثق لنفسه، وكشف له ما ستر عنه في أمسه، من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه. . .»[95].

وقد تم بناء الزاهرة في سنة 370هـ/ 979م وانتقل إليها المنصور بحاشيته وخاصة من الحرس، وشحنها بأنواع الأسلحة[96]، ثم نقل إليها خزينة الدولة ودواوينها، وأقطع ما حولها لكبار رجالات الدولة من عسكريين ومدنيين فساروا سيرته وابتنوا القصور الفخمة وعمروا المنتزهات الواسعة. وتنافس العامة في البناء حولها حتى اتصلت عمائرها بالعاصمة قرطبة[97].

ولم تعمر مدينة الزاهرة طويلاً فقد كان عمرها رهيناً بعمر الدولة العامرية فما أن قتل عبد الرحمٰن الملقب شنجول حتى عم الخراب عمائر هذه المدينة ونهبت قصورها وانتهت رسومها في الفوضى التي عمت البلاد سنة 399هـ[98]، واندثرت بهذا التخريب تلك المدينة اندثاراً يختلف عن ذلك الذي حل بالزهراء إذ عثر على الكثير من قطع

---

(93) في البيان المغرب: 2/ 301 «كان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها الذين حارب بهم الحروب عشرة آلاف وخمسمائة وأجناد الثغور قريباً من ذلك».

(94) يقول ابن عذاري: 2/ 275 «وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه. . .».

(95) ابن عذاري: 2/ 275؛ المقري: 1/ 578.

(96) ابن عذاري: 2/ 275؛ ابن خلدون: 4/ 148.

(97) ابن عذاري: 20/ 276؛ المقري: 1/ 579.

(98) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 110 وما بعدها.

المدينة الأخيرة مبعثرة في بلدان أخرى، وتم التعرف عليها بفضل ما عليها من كتابات، بينما لم يبق شيء من مأثر الزاهرة. . . سوى حوض من المرمر، مكسور وغير كامل، وصل إلى إشبيلية ويحفظ الآن في المتحف الوطني بمدريد. . . كما أنه لم يبق من الزاهرة فيما بعد أي صدى في التقاليد المحلية، لذا اختلف في تحديد مكانها[99].

مات المنصور ابن أبي عامر في رمضان سنة 392هـ وهو ابن خمس وستين سنة[100] بعد أن تولى تدبير الأمر فترة تقارب خمساً وعشرين سنة، اختصر فيها منجزات عهود، فقد كان عبقرية فذة تمثل ذروة النبوغ الشعبي والطموح الفردي[101] خرج من صفوف الطبقة الوسطى «وشق طريقه بساعده وهمته إلى السلطان والرئاسة ولم تسعفه في ذلك نشأة ملوكية، أو انقلاب عنيف، ولم يكن عزمه في بلوغ ذلك أقل شأناً من تألق طالعه، وقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة لم يصل إليها أحد قبله من أعاظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمٰن الناصر نفسه، ويمكننا أن نقول أنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة في تاريخ الأندلس، من النواحي السياسية والحضارية فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعاناً وتألقاً بل ربما امتاز على عهد الناصر بما أحرزته خلاله الدولة العربية من تفوق عظيم في السلطان والقوى العسكرية في شبه الجزيرة الإسبانية.

فقد استطاعت الممالك الإسبانية الشمالية في عهد الناصر، أن تنتهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس، وأن توطد قواها العسكرية، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة، وقد لقي الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة، أما في عهد المنصور، فقد انتهت الممالك الإسبانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة المتوالية، وقد وصل المنصور في غزواته في شبه الجزيرة الإسبانية، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل»[102]. وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان المنصور جزعاً على مستقبل دولته التي بناها بالطموح والإرادة القوية، وإدراك أنها لن تعيش طويلاً بعد رحيله ذلك أن حيوية الدولة وديمومتها ارتبطت بشخصه ارتباطاً وثيقاً صعب على خلفائه مجاراة الأمور بنفس السياسة والأسلوب.

فعلى الرغم من حزم خليفته عبد الملك الملقب بالمظفر واتباعه في معظم الأمور

---

(99) أحمد بدر: 156.

(100) ابن عذاري: 2/ 301 «وعمره خمس وستون سنة وعشرة أشهر».

(101) عنان: دول الإسلام: 2/ 568.

(102) عنان: 2/ 568.

المركزية سياسة والده المنصور، إلا أنه فشل في جوانب هامة كان لها أكبر الأثر في هدم تراث العامريين السياسي في الأندلس. فعبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر لم يخالف سياسة والده أو سياسة الدولة المركزية اتجاه المغرب والحفاظ على مناطق النفوذ والدفاع عنها حتى ما تطلب الأمر ذلك.

وظلت العلاقة مع الممالك الإسبانية الشمالية تتراوح بين الصراع الحربي والوفاق المشوب بالحذر[103] كما استمرت العلاقة الودية مع بعض ملوك العصر[104].

والظاهرة البارزة في عهده هي تناحر كبار رجال الدولة وتسابقهم للاستحواذ على السلطة في وقت بدأ فيه عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر مشغولاً بأمور بعيدة عن مصلحة الدولة ففوض بعض سلطاته لكبار موظفيه كطرفة الصقلبي وعيسى بن سعيد أحد وزرائه، وأفضى هذا التفويض إلى تسابق الطرفين للسيطرة على أهم السلطات حتى بدأت دولته وكأنها تتحرك من خلال شخصيتين متنافرتين وباتجاهين مختلفين[105]، وإذا استطاع طرفة الغلبة في بداية عهده فإن الوزير ابن سعيد سعى به لدى عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر، وحسب عليه أموراً عديدة، حتى اقنع عبد الملك بخطورة تسلط طرفة الصقلبي الذي نفي إلى الجزائر الشرقية سنة 394هـ[106]. وهكذا نجحت خطط الوزير ابن سعيد بالقضاء على أقوى منافسيه فيبؤا مكانة مرموقة وأصبح الوزير المفوض في معظم أمور الدولة[107]، حتى أصبحت تلك السلطات نقمة عليه حين سعى بدوره إلى التآمر لقلب نظام الحكم، وتولية أحد الأمراء الأمويين خليفة على البلاد، وقد كشفت المؤامرة قبل تنفيذها فحكم عليه وعلى أعوانه بالإعدام سنة 397هـ[108].

استمر عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر في الحجابة سبع سنوات إلى أن توفي سنة 399هـ/ 1009م. وناب عنه في منصب الحجابة أخوه عبد الرحمٰن الملقب شنجول، ولم يكن عبد الرحمٰن الشخصية التي يمكن أن تملأ الفراغ الذي تركه أخوه عبد الملك المظفر، فقد عرف عنه قلة الذكاء والتهور، وبدأ عصره فخالف سياسة والده وأخيه

(103) ابن عذاري: 3/ 3 وما بعدها. وأحصى ابن عذاري لعبد الملك سبع غزوات باتجاه مدن وقلاع الممالك الإسبانية الشمالية.

(104) ابن عذاري: 3/ 10.

(105) ابن بسام: ق 4 ج 1: 50.

(106) ابن بسام: الذخيرة: ق 4 ج1: 52. وينظر: ابن عذاري 3/ 26.

(107) ابن عذاري: 3/ 27 وما بعدها.

(108) تفاصيل ذلك في البيان المغرب: 3/ 31.

بالتقرب من الخليفة المحجور عليه هشام المؤيد، وأفرط في ملازمته والتردد إليه، حتى أنعم عليه الخليفة بلقب المأمون، مما أثار استنكار الكثير من العناصر القرطبية التي بدأت تتساءل عن معنى منح هذا اللقب في الوقت الذي لم يروا من عبد الرحمٰن شنجول أي عمل أو خدمة عامة يستحق عليها مثل هذا التكريم.

ثم أعقب هذا اللقب مرسوم خلافي[109] بتولية عبد الرحمٰن شنجول ولاية العهد وقرأ المرسوم أمام كبار رجال الدولة وزعماء الطوائف في البلاد[110]، وكان لهذا القرار آثاره الخطيرة على كيان العامريين بصورة خاصة والدولة بصورة عامة فبدأ المروانيون ومن والاهم بالعمل على قلب نظام الحكم واستغلال أمثل الظروف لتحقيق أهدافهم، وسنحت الفرصة عند خروج عبد الرحمٰن شنجول لحرب قشتالة[111]، وخلو العاصمة من معظم القوات النظامية فثار محمد بن هشام حفيد عبد الرحمٰن الناصر المقلب بالمهدي[112]، في 16 جمادى الآخرة سنة 399هـ/ 1009 وسيطر على قصر الخليفة هشام المؤيد، الذي أعلن تنازله عن الخلافة ليتولاها محمد بن هشام مكانه، الذي أتم السيطرة على مدينة الزاهرة فاستبيحت ونهبت خزائنها وأحرقت حتى لم يبق المهاجمون على أثر يذكر لعمائر وذخائر المدينة العامرية المذكورة.

وعندما وصلت أخبار الانقلاب إلى عبد الرحمٰن شنجول، ارتد بقواته إلى قلعة رباح، وأعلن تنازله عن ولاية العهد، ودعا إلى نصرة الخليفة هشام المؤيد لكن نداءاته وإجراءاته كانت متأخرة جداً، فأسقط في يده عندما تفرق عنه معظم جنده وانتهى أمره أخيراً بالإعدام في السنة نفسها[113].

وهكذا أسدل الستار على الدولة العامرية، بسرعة لم تكن متوقعة؛ فقد تولى عبد الرحمٰن شنجول الحكم، والدولة محكمة النظام موطدة الدعائم، ولم تمضِ أكثر

---

(109) نصه في البيان المغرب: 3/ 44، أعمال الأعلام ـ القسم الثاني: 91. وينظر: ابن خلدون: 4/ 148 و149.

(110) ابن عذاري: 3/ 47، ابن خلدون: 4/ 148.

(111) خرج عبد الرحمٰن شنجول في ظروف مناخية غير ملائمة لمثل هذه الحملات، فالوقت كان شتاءً قاسياً ولا يسمح بتوغل القوات في الأراضي القشتالية، إضافة إلى نصح المقربين إليه بعدم ترك العاصمة قرطبة في وقت بدأت فيه العناصر المناوئة تستعد لإعلان ثورتها.

(112) قتل والده في عهد عبد الملك المظفر عندما دبر مؤامرة لقلب نظام الحكم وبمساعدة الوزير عيسى بن سعيد.

(113) ابن عذاري: 3/ 249؛ ابن خلدون: 4/ 149.

من ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ الذي شاده المنصور محمد بن أبي عامر ولبث خمسة وثلاثين عاماً ينشر الأمن والرخاء على عموم بلاد الأندلس[114].

وتتحدد الأسباب الجوهرية في انهيار الدولة العامرية بما يأتي:

1 ـ النظام التسلطي القاسي الذي فرضه المنصور ابن أبي عامر على الأندلس واستمرار هذا النظام في عهد أولاده عبد الملك وعبد الرحمٰن من بعده.

2 ـ سوء سياسة عبد الرحمٰن شنجول وسعيه إلى نيل الألقاب السلطانية وإجبار الخليفة هشام المؤيد على إصدار المراسيم الخاصة بذلك.

3 ـ تجرؤ عبد الرحمٰن على اغتصاب ولاية العهد، وكان لذلك «أسوأ الوقع في نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية»[115].

---

(114) عنان: 2/ 638.

(115) عنان: 2/ 628.

الباب الرابع

الفصل الأول سقوط الخلافة في الأندلس

الفصل الثاني فكرة عامة عن دويلات الطوائف

الدكتور

ناطق صالح مطلوب

1 ـ الفصل الثالث عصر المرابطين وعصر الموحدين

أ ـ الأندلس ولاية مرابطية

ب ـ الأندلس ولاية موحدية

2 ـ الفصل الرابع عصر مملكة غرناطة

3 ـ الفصل الخامس المسلمون بعد سقوط غرناطة

الدكتور

خليل إبراهيم السامرائي

الفصل الأول

سقوط الخلافة

بتولية المهدي الخلافة، بدأت القوى المختلفة تحاول الحصول على أسلاب الدولة المنهارة، فقد كان بنو أمية يرون أنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة، وكان هناك صنائع الدولة العامرية، وأنصارها من الصقالبة ومواليها من الجنود المرتزقة، وكان البربر قد تضخم عددهم في أواخر عصر المنصور ابن أبي عامر، واستقر العديد من زعمائهم في الأندلس، إضافة إلى قوة العامة من أهل قرطبة الذين ساندوا المهدي ونصروه على خصومه، وكانت هذه القوة كثيرة الأهواء والنزعات[1]، ولم يتمكن المهدي في كثير من الأحيان السيطرة عليها أو كبح جماح زعمائهم الذين بدأوا أعمالاً كانت مثار استنكار معظم القوى في البلاد، بعد ما عرضوا أمن البلاد إلى الخطر، وأصابوا العاصمة قرطبة بمزيد من الخراب والدمار.

وكانت دولة محمد بن هشام المهدي تقوم على حد قول ابن عذاري:

على «جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة، ونكوب وزراء جلة، ونصب أضدادهم تقتحم العين هجنة وقماءة، وجرى هذا كله على يدي بضعة عشر رجلاً من أراذل العامة حجامين وخرازين وكنافين...»[2].

وقد بدأ المهدي عصره باضطهاده البربر لأنهم كانوا ـ حسب رأيه ـ من المؤازرين للدولة العامرية، فأساء معاملتهم وضيق على زعمائهم عند الدخول إليه، وسعى إلى الحط من مكانتهم لسبب أو لغير سبب، مما شجع الغوغاء من العامة على نهب بعض ممتلكاتهم والاعتداء على حرماتهم، وعلى الرغم مما قيل من أن السلطة حاولت السيطرة على مثل هذه الأعمال، ومعاقبة القائمين عليها، وقدمت اعتذارها لزاوي بن

---

(1) عنان: دول الإسلام: 2/ 642، 643.

(2) البيان المغرب: 3/ 74.

زيري، وحبوس بن ماكسن وغيرهما من زعماء البربر، إلا أن هؤلاء لم يأمنوا جانب السلطة، وبدأوا يتوجسون من المهدي وأنصاره خيفة احتاطوا لها استعداداً لكل طارىء.

وكان من أعمال المهدي أيضاً إجلاء أعداد كبيرة من الفتيان الصقالبة عن العاصمة قرطبة، فلجأوا إلى مناطق الأندلس الشرقية، واستثنى منهم الفتى واضح صاحب مدينة سالم الذي أقره المهدي على ولايته.

كما أصابت إجراءاته الخليفة هشام المؤيد، الذي سجن في القصر أولاً ثم نقل إلى أحد دور العاصمة، ثم اصطنع بعد ذلك قصة موته في اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة 399هـ.

وتمادى المهدي في سياسته العنيفة كثيراً عندما سجن ولي عهده سليمان بن هشام وبعض الزعماء العرب، وسرح من الجيش ما يقارب السبعمائة ألف جندي أحالهم جميعاً من مناصبهم وقطع أرزاقهم، فأصبحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب[3].

وأمام هذه الأحوال السيئة، والاضطهاد العنيف الذي أصاب البربر في قرطبة، قام هشام بن سليمان بن الناصر بانقلابه في شوال سنة 399هـ، وأعلن نفسه خليفة على البلاد ولقب بالرشيد، وعلى الرغم من النجاح الذي أحرزه إلا أن انقلابه أحبط أمام تعضيد القرطبيين للمهدي، واستماتتهم في الدفاع عن خلافته، وقبض على هشام بن سليمان وولده وأخيه أبي بكر وآخرين من الزعماء الذين عاضدوهم وتم إعدامهم جميعاً[4].

وعمت العاصمة قرطبة حالة من أعمال الشغب المدمرة استهدفت جميع البربر الساكنين فيها دون تمييز، حتى ذهبت ضحية ذلك الشغب أعداد كبيرة منهم. وقد دفعت هذه الأعمال البربر إلى توحيد قواهم، واختيار أحد الأمراء الأمويين لقيادتهم ليناهضوا به المهدي خليفة قرطبة. فوقع الاختيار على سليمان بن الحكم المستعين[5]، الذي اتخذ من قلعة رباح قاعدة له، ثم خرج منها إلى وادي الحجارة فتمت السيطرة عليها عنوة[6]، وحاصر مدينة سالم مدة ثم تركها، وحاول واضح الصقلبي منع

---

(3) ينظر: عنان، دول الإسلام: 2/ 642 ـ 645.

(4) ابن عذاري: 3/ 81، ابن خلدون: 4/ 150.

(5) هو سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، تمكن من الفرار بعد فشل انقلاب هشام بن سليمان.

(6) في البيان المغرب: 3/ 85: كاتب سليمان أهل وادي الحجارة يدعوهم للطاعة فأبوا عليه... حتى دخلها عنوة.

الإمدادات والمؤن عن قوات المستعين، ونجح بعض الشيء، ولكن الأخير فاوض أمير قشتالة سانشو غورسية وأبرم معه اتفاقاً أنقذه من الحصار الذي يعانيه مقابل شروط فرضها أمير قشتالة[7]. وفي ذي الحجة من سنة 399 هـ وقع القتال بين قوات المستعين وقوات واضح الصقلبي في مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية، انتهى بهزيمة واضح الصقلبي وارتداده إلى العاصمة قرطبة[8] تلاحقه قوات المستعين التي تمكنت وبعد معركة عنيفة من اجتياح مدينة قرطبة ودخولها في 13 ربيع الأول سنة 400هـ/ 5 تشرين أول، 1009م[9]، وأعلن سليمان المستعين نفسه خليفةً على الأندلس[10].

أما المهدي فقد تمكن من الهرب إلى طليطلة وبدأ من هذه المدينة يعد العدة لهجوم يستعيد به ملكه الضائع، وحاول المستعين إجهاض مساعي المهدي لكنه فشل أمام مدينة طليطلة التي تمسكت بطاعة المهدي، ولقي الفشل نفسه أمام مدينة سالم. فاضطر إلى سحب قواته والعودة بها إلى العاصمة قرطبة نتيجة لسوء الأحوال الجوية[11]. وقد هيأ انسحابه للمهدي ظروفاً تمكن من توظيفها لصالحه، وتمكن من جمع أكبر ما يمكن من الأنصار الموالين لدعوته، إضافة إلى مفاوضة واضح الصقلبي لأمير برشلونة رامون الثالث وأخيه ارمنجول أمير مقاطعة أورخل[12] لإمدادهم بالمرتزقة[13] وقد وافق الأميران المذكوران على مساعدة قوات المهدي مقابل شروط قاسية وافق عليها واضح الصقلبي، وقبلها المهدي مضطراً[14].

---

(7) منها تسليمهم لأمير قشتالة «ما أحب من مدائن الثغر» ينظر: ابن عذاري: 3/ 86.

(8) ابن عذاري: 3/ 87؛ عنان: 2/ 646.

(9) وقعت المعركة في مكان يسمى قنتيش. ينظر: الصوفي، تاريخ العرب في اسبانيا؛ 180 الحاشية رقم (1)، عنان: 2/ 646.

(10) ابن بسام: ق 1، ج 1: 36، 43.

(11) ابن عذاري: 3/ 93؛ المراكشي، المعجب: 42.

(12) الصوفي: المصدر السابق: 192 وقارن؛ عنان: 2/ 648 وفي البيان المغرب: 3/ 95 ذكر ابن عذاري ملكهم باسم ارمقند، وقد قتل مع عدد كبير من جنده المرتزقة.

(13) كانوا بحدود تسعة آلاف فارس.

(14) من هذه الشروط: أن يتعهد المهدي بدفع مبلغ مائة دينار لكل من الأجيرين يومياً، ولجنودهم من المرتزقة دينارين في اليوم، إضافة إلى مؤونتهم اليومية، ويتعهد طيلة فترة بقائهم معه أن تكون الغنائم التي يحصلون عليها خالصة لهم، ولا يعترض أحد عليهم فيما يأتون من أعمال ضد البربر.

وفي منتصف شوال سنة 400هـ/ مايس، 1010م وقع اللقاء بين الطرفين في مكان عقبة البقر[15]، ومع اشتداد أوار المعركة وارتداد قوات البربر؛ توقع سليمان المستعين الهزيمة، فهرب من الميدان نجاة بنفسه[16]؛ ولكن قوات البربر أعادت الكرة وبشدة فخرقت صفوف قوات المهدي، وأنزلت بها الخسائر الفادحة، وارتدوا بعد ذلك إلى قرطبة وأجلوا ذويهم وحملوا أموالهم وأخلوا العاصمة باتجاه وادي آره، ليدخلها المهدي ويعلن خلافته للمرة الثانية[17].

ولكن المهدي لم يكف عن ملاحقة البربر فاصطدم بهم عند وادي آره على نهر الوادي الكبير، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بهزيمته، وارتداده بفلوله إلى العاصمة قرطبة[18]؛ وكان لهذا الإنكسار آثاره السلبية على مكانة المهدي، فقد استمرت قوات البربر تغير على نواحي العاصمة بين الحين والآخر، وضاقت الأحوال بسكانها مع سوء سياسة المهدي وبطانته؛ وقد وجد واضح الصقلبي في هذه الظروف فرصة مناسبة للخلاص من المهدي، فتعاقد مع بعض الفتيان الصقالبة على اغتيال المهدي في ذي الحجة من سنة 400هـ[19]، وأعادوا الخليفة المؤيد، وأعلنوا بيعته أمام الملأ[20]. «وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة بعد سلسلة من الخطوب والأحداث. . . وكان يومئذٍ كهلاً في نحو السابعة والأربعين من عمره، وكان قد مضى عليه مذ ولي الخلافة صبياً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً، وفي تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام لم تشهد مثلها من قبل»[21].

ولكن سليمان المستعين وقواته من البربر رفضوا الولاء للسلطة الجديدة، وبدأوا ينفذون خطة لاستعادة سلطانهم السابق، فبدأت غاراتهم المرهقة على أطراف العاصمة وبعض المدن الأخرى[22]. حتى فقدت البلاد مواردها الإقتصادية، وانفلت الأمن في عمومها[23].

---

(15) حصن على مسافة عشرين كم شمال قرطبة. وفي المعجب، للمراكشي، 42: «دار البقر».

(16) ابن عذاري: 3/ 95.

(17) ابن عذاري: 3/ 95، ابن خلدون: 4/ 150.

(18) ابن عذاري 3/ 95، 96، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 115.

(19) ابن بسام: ج 1 ق 1: 45، ابن عذاري: 3/ 100، المراكشي: 42.

(20) ابن بسام: ج 1 ق 1: 45، ابن عذاري: 3/ 100.

(21) عنان: دول الاسلام: 2/ 649.

(22) منها مثلاً: مدينة مالقة والبيرة والجزيرة الخضراء وغيرها من المدن والكور الأندلسية.

(23) ابن عذاري: 3/ 101 وما بعدها؛ المراكشي: 843

ومع سوء الأحوال، والنقص الشديد في الموارد الأساسية المعززة لصمود المدينة، وتعنت عامة أهل قرطبة ورفضهم المطلق لكل دعاوي الصلح والسلام، بل كانت الدعوة إلى الصلح والتصافي بين الأطراف المتنازعة تثير فيهم أنواعاً من أعمال العنف غير المسوغة حتى سدت جميع أبواب الوساطات[24]، فقد أيقن واضح الصقلبي أن بقاءه في العاصمة يعني انتظاره لمصير مجهول لا تحمد عواقبه، فحاول مغادرتها سراً، لكن أمره افتضح من قبل كبار الجند، فقبض عليه، وتمت تصفية أمواله وإعدامه[25].

وفي أواخر شهر شوال سنة 403هـ، مايس 1013م اجتاحت قوات المستعين العاصمة قرطبة ودخلتها عنوة، وقبض على الخليفة هشام المؤيد وقتله[26]، وأعلن نفسه خليفة في الأندلس وللمرة الثانية[27]؛ وبدأ سليمان بتنظيم شؤون الحكومة المضطربة «وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحي، وتفككت عرى الدولة، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى (الخلافة) على السلطة الحقيقية، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة، وسائر المناصب المهمة. ورأى سليمان إرضاء لهم من جهة، وإبعاداً لهم عن قرطبة من جهة أخرى، أن يقطعهم كور الأندلس، وكانوا ست قبائل رئيسة، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعماءها بني زيري، ولاية البيرة (غرناطة)، وأعطى مغراوة جوفي البلاد، وبني برزال وبني يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها، وبني دمر وازداجة منطقة شذونة ومورور، وأقر المنذر بن يحيى التجيبي على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى... وولى بني حمود الأدارسة ثغور المغرب...».
ويهمنا هنا أمر بني حمود الصنهاجيين لدورهم في أحداث البلاد بعد ذلك، فقد ولي القاسم بن حمود بن علي الجزيرة الخضراء، وولي أخوه علي بن حمود مدينتي سبتة وطنجة، وتولية بني حمود الصنهاجيين أمر المغرب والجزيرة الخضراء أول بلاد الأندلس سقطة حسبت على المستعين وأذهبت دولته[29]، فقد بلغ الطموح بعلي بن حمود مبلغه

(24) ابن الخطيب: أعمال الأعلام: 117

(25) ابن عذاري: 3/ 105.

(26) تشير بعض الروايات إلى مصير هشام المؤيد، فبعضها يذكر أن المستعين أخفاه فترة في أحد القصور ثم قتله دون علم أحد، وتشير أخرى إلى سجنه في أحد القصور، ثم تمكنه من الفرار إلى المرية حتى وافاه الأجل هناك.

(27) ابن عذاري: 3/ 113؛ ابن خلدون: 4/ 151.

(28) ينظر، عنان: دول الإسلام: 2/ 653، 654.

(29) ابن بسام؛ ق 1 ج 1: 38، ابن عذاري: 3/ 114.

فقام على الخليفة المستعين يروم قمة السلطة بعد ما تقلب فيها أفراد هم في الحقيقة ليسوا أكثر كفاءة منه، وقد ساعدته على ذلك أسباب وعوامل منها:

1 ـ زعمه أن الخليفة هشام المؤيد ولاه العهد من بعده، وأظهر لإثبات ذلك كتاباً نسبه إلى الخليفة هشام، كان قد أرسله إليه خلال فترة حصار مدينة قرطبة من قبل المستعين وقواته[30]، وعدّ ابن حمود ذلك الكتاب المزعوم كافياً لإضفاء الشرعية على خروجه ومطالبته بالخلافة[31].

2 ـ تمزق وحدة البلاد، وانتشار السلطة بين قوى متعددة فسح المجال واسعاً لابن حمود لكي ينفذ ما كان يصبو إليه من الوصول إلى قمة السلطة، واستسلاب الخلافة[32]، إضافة إلى كونه ينتمي إلى عائلة مشهورة، ويقود قبيلة من أقوى القبائل العربية البربرية وهي قبيلة زناتة.

3 ـ وثمة عامل مساعد مهم هيأه له الخليفة المستعين عندما ولاه أمر المغرب العربي، وولى أخاه القاسم الجزيرة الخضراء، وقد تنبأ معظم المؤرخين بسوء هذه السياسة التي أمضاها المستعين دون مراجعة دقيقة[33].

4 ـ كسب ود جميع القوى المتعاطفة مع هشام المؤيد ومنهم الصقالبة ورئيسهم خيران المتغلب على مدينة المرية والذي كان يدعو للخليفة هشام المؤيد، ويناهض الخليفة المستعين[34]. وهكذا خلق ابن حمود الجو المناسب للقيام على الخليفة المستعين مع مساعدة الظروف له، فعبر من مدينة سبتة، ونزل الجزيرة الخضراء وسار بقواته ومن انضم إليه من زعماء الكور باتجاه العاصمة قرطبة، حيث التقى مع قوات المستعين في ظاهرها ودارت بين الطرفين معركة شديدة، خسرها المستعين، ودخل ابن حمود قرطبة في الثامن والعشرين من محرم سنة 407هـ تموز 1016م.

---

(30) ينظر: ابن عذاري: 116. والنص: «أخرج كتاباً نسبه إلى هشام بن الحكم يقول فيه: أنقذني من أسر البرابر والمستعين وأنت ولي عهدي». والمراكشي: 44، والصوفي: 237 والحاشية رقم (2) والنص: «ويقول ابن الخطيب: يقال إن هشاماً المحجوب لما شعر بالهلاك خاطب ابن حمود بسبتة يستنصره ويقلده دمه والطلب بثأره ويفضي إليه بعهده...».

(31) الصوفي: 237.

(32) عنان: 658.

(33) ينظر: الهامش رقم (29) فيما سبق.

(34) ابن عذاري: 3/ 116؛ ابن الخطيب؛ أعمال الأعلام: 128.

وبإعدام المستعين في التاريخ المذكور آنفاً تبدأ سلسلة الخلفاء الحموديين الذين حكموا الأندلس وأولهم:

علي بن حمود، وحكم قرابة سنة قبل مقتله سنة 408هـ/ 1018م[35] ثم تولى بعده أخوه القاسم بن حمود (408 ـ 412هـ/ 1021م) ثم يحيى بن حمود (412 ـ 413هـ/ 1022م).

ثم القاسم بن حمود وللمرة الثانية (413 ـ 414هـ/ 1023م)، وفي عهده انتهت خلافة هذه الأسرة[36]، وانتقلت إلى الأسرة الأموية مرة أخرى؛ وأول خلفائهم: عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار الملقب المستظهر بالله، وقد قتل في السنة التي تولى فيها أمر الخلافة ـ أي سنة 414هـ/ 1024م. ثم أعقبه محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن الناصر الملقب المستكفي بالله واستمر حتى مقتله سنة 416هـ/ 1025م[37].

ثم عادت الخلافة إلى الأسرة الحمودية وتولاها منهم:

يحيى بن حمود للمرة الثانية، ثم أفل نجم هذه الأسرة لتعود إلى بني أمية مرة أخرى، حتى مل الناس تلك الشخصيات، وثقلت ألقابهم أمام ندرة أعمالهم وقلة تدبيرهم، وانتهى الأمر في سنة 422هـ/ 1031م بعزل هشام الثالث المعتد بالله آخر الخلفاء الأمويين، وإلغاء الخلافة نهائياً عن الأندلس، بعد أن عجزت عن إقرار الأمور، وفرض سلطانها على العاصمة قرطبة، ناهيك عن إقرار تلك السلطات في بقية مدن الأندلس الأخرى؛ وفي قال ابن الخطيب السلماني: «ومشى البريد في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية ولا يكنفهم أحد»[38].

وهكذا انحدرت الأندلس، في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عقب سقوط الخلافة العربية إلى درك من التمزق والفوضى، وآلت البلاد بعد أن كانت وحدة موحدة «تمتد من ضفاف دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شاطىء البحر المتوسط ومن طركونة شرقاً حتى شاطىء المحيط (الأطلسي) غرباً»[39]. إلى أشلاء ممزقة، وولايات ومدن متخاصمة يسيطر على كل منها حاكم

---

(35) ابن بسام: ق 1 ج 1: 100، ابن عذاري: 3/ 122؛ ابن الخطيب: 151.
(36) ابن بسام: ق 1 ج 1: 101، 316؛ ابن الخطيب: 136.
(37) ابن بسام: ق 1 ج 1: 48 و53 و433، ابن الخطيب: 135.
(38) أعمال الأعلام: 139.
(39) عنان: 676.

سابق، أو متغلب، أو زعيم أسرة، نزلت إلى ميدان الصراع الذي شمل البلاد كلها. واستمرت هذه الحالة قرابة ثمانين عاماً حتى دخول المرابطين إلى الأندلس وتمكنهم بعد جهود مضنية من استعادة وحدة البلاد، والوقوف بوجه الممالك الإسبانية الشمالية الساعية إلى غزو البلاد والقضاء على كل معالم عروبتها وحضارتها.

وبعد هذا العرض السريع للأحداث التي توالت على الأندلس يمكن أن ندرج الأسباب التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس على الشكل الآتي:

1 ـ غياب القائد، والأداة القادرة على الحسم في الوقت المناسب:

إن غياب القائد والأداة القادرة على الحسم من الأسباب الأصلية التي أدت إلى زوال الخلافة الأموية من الأندلس، وما عدا ذلك من الأسباب فلاحقة بهذا السبب بشكل أو بآخر. فالقائد المطلوب في الأندلس نمط خاص من الرجال وبناء متكامل من العصامية والفروسية والمقدرة الإقتحامية وبناء متكامل من النظرة الشاملة والوعي المقتدر المبدع والسرعة في اتخاذ القرار. وهذا النمط من الرجال يولد حيث توجد الأزمات، والتحديات المصيرية، وعندما يظهر في الميدان يبدو وكأن الكل يعرفه، ومن ثم فهو وحده القادر على توجيه الأدوات في اتجاه الأهداف المركزية للدولة، بعد امتلاكها لجميع القدرات الفاعلة في الرد على التحدي، بتحدٍّ أقوى وأكثر عنفواناً، وبمعنى آخر: إن الأندلس خلال هذه الفترة كانت تحتاج إلى رجال قادرين على التفاعل مع الأحداث، رجال من طراز عبد الرحمٰن الداخل مؤسس الدولة، وعبد الرحمٰن الناصر باني مجدها السياسي والحضاري.

2 ـ الفصل بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية:

استمر الحاكم في الأندلس «أمير أو خليفة» يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية إلى أن سيطر الحاجب المنصور ابن أبي عامر ثم أبناؤه من بعده (عبد الملك وعبد الرحمٰن) على مقاليد الأمور في عهد الخليفة هشام المؤيد فانتزعوا السلطة الزمنية لأنفهسم، وتركوا الخلافة مجرد رمز لا معنى له في الأصل، وكان هذا الفصل مقدمة لنهاية الخلافة لا سيما بعد أن أجبر عبد الرحمٰن شنجول الخليفة المؤيد على توليته العهد بعده، وهو أمر خطير، هز الأندلس هزاً عنيفاً وقاد البلاد إلى دوامة الفتن والحروب وتسابق كل الطامعين إلى نيل الخلافة التي أفرغت من مضامينها الأصلية[40].

(40) العبادي: 253.

3 ـ التركيبة الإجتماعية في الأندلس:

كان أهل الأندلس يؤلفون أخلاطاً متنافرة من السكان بعضهم عرب وبعضهم بربر، وبعضهم صقالبة، وبعضهم مولدون وبعضهم مستعربون أو يهود وكان كل من هذه العناصر البشرية ميالاً إلى السكن في بؤرات عمرانية خاصة، فنرى أن العنصر الغالب على قرطبة من العرب، والعنصر الغالب على إشبيلية وطليطلة من المولدين، والعنصر الغالب على غرناطة وقرمونة ومالقة من البربر، وكان لهذا أثره الكبير في ميل أهل الأندلس إلى الاستقلال والخروج على السلطة المركزية، مما كان يقضي باستعمال القوة كوسيلة لازمة للوحدة السياسية، ومع ذلك فقد كانت القوة وحدها لا تكفل للأمير الحاكم السيطرة على سائر البلاد، وكان لزاماً على الحاكم أن يصطنع الحزم، لأن الرغبة في الاستقلال والانسلاخ عن جسم الدولة كانت تجعل هناك نوعاً من الحساسية عند الرعية إزاء الحاكم، ثم إنها كانت تدفعهم إلى الثورة عليه كلما لمسوا منه استبداداً بشؤون الدولة أو تعسفاً في معاملته لهم[41].

4 ـ الاستعانة بأمراء وملوك الممالك الإسبانية الشمالية:

أفضت المنازعات والفتن إلى استعانة الأطراف بأمراء وملوك الممالك الإسبانية الشمالية مقابل التنازل عن بعض الحصون والمدن الحدودية المهمة، فقد منحت مثل هذه الحصون من قبل المتنازعين مقابل مئات من جنود هذه الممالك كانوا يقاتلون مع هذا الطرف أو ذاك ضد الطرف الآخر، وخلال فترة النزاع الذي أشرنا إليه سابقاً تنازل المتخاصمون عن حصن غرماج، وأوشمة، وشنت اشتبين وغيرها من المناطق المهمة التي بذلت الدولة في عهد الناصر والمنصور ابن أبي عامر جهوداً استثنائية في السيطرة والمحافظة عليها، لأنها نقاط استراتيجية للجيوش العربية المتقدمة باتجاه الممالك الإسبانية الشمالية.

---

(41) عبد العزيز سالم، المسلمون وآثارهم في الأندلس: 364؛ وينظر أحمد بدر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري، 228 وما بعدها.

الفصل الثاني

فكرة عامة عن أهم دويلات الطوائف

بسقوط الخلافة الأموية سنة 422هـ فقدت الأندلس وحدتها السياسية وانقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة مستقلة أطلق عليها المؤرخون اسم «دويلات الطوائف» ويعرف رؤسائها بملوك الطوائف، وهم ما بين زعيم قبيلة[1]، أو صاحب نفوذ، أو حاكم لإحدى الكور أو وزير سابق[2] أو شيخ قضاء[3]، وقد استغل هؤلاء حالة البلاد السياسية فبسطوا نفوذهم على المناطق التي تواليهم، وعملوا جميعاً على تأسيس هذه الكيانات والحفاظ عليها في أسرهم[4]، وانقسمت الأندلس من الناحية الإقليمية إلى عدة مناطق قامت فيها أهم دويلات الطوائف في البلاد وهي:

- قرطبة وأحوازها من المدن والمناطق الوسطى.
- إشبيلية وما يلحق بها من مناطق غرب الأندلس.
- بطليوس.
- غرناطة.
- بلنسية وما يلحق بها من المناطق شرق الأندلس.
- سرقسطة أو الثغر الأعلى.

---

(1) مثل دويلة: غرناطة.

(2) مثل دويلة: قرطبة.

(3) عنان، دول الإسلام: 3/ 14.

(4) يصور ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام ـ القسم الخاص باسبانيا ـ ص 144 الحالة بقوله «... ليس لأحدهم في الخلافة إرث ولا في الإمارة سبب ولا في الفروسية نسب... اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار وجبوا العمالات والأمصار وجندوا الجنود وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب وكتبت عنهم الأعلام وأنشدهم الشعراء ودونت بأسمائهم الدواوين...».

- طليطلة أو الثغر الأوسط.

- دانية وجزر البليار.

وتضم كل منطقة من المناطق المشار إليها إمارة أو أكثر من إمارات الطوائف وتتباين من ناحية المساحة وعدد السكان والأهمية العسكرية[5]، واستمرت هذه الدويلات حتى دخول المرابطين الأندلس الذين عملوا جاهدين على إعادة الوحدة السياسية إلى البلاد عن طريق إنهاء هذه الكيانات الواحدة تلو الآخر كما سنفصل من خلال عرض أحوال هذه الدويلات.

1 ـ دويلة بني جهور في قرطبة:

خلع أهل قرطبة الخليفة هشام الثالث الملقب المعتد بالله في ذي الحجة سنة 422هـ، وألغوا الخلافة الأموية بعد أن يئسوا من صلاح أمرها[6]، واجتمعوا على تنصيب الوزير أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور[7] رئيساً لحكومة قرطبة فاختار بدوره مجلساً عد بمثابة السلطة التشريعية العليا في المدينة. وقد استطاع ابن جهور من خلال هذا المجلس أن يضع الجميع زعماء وأفراداً أمام مسؤولياتهم وواجباتهم، فحمدت سياسته واستقرت الأمور وتجنبت حكومته منافسة المنافسين وتمرد الطامعين[8]، حتى عرفت حكومته هذه بدولة الجماعة[9]، وأصبحت قرطبة في عهده حرماً آمناً يأوي إليه أمراء وزعماء الطوائف فيجدون فيه الملاذ الأمين[10].

واستمرت حكومة الجماعة هذه برئاسة ابن جهور تدير أمر قرطبة وما يتبعها قرابة اثنتي عشرة سنة، سادت فيها السكينة والأمن وبدأت الحياة الإقتصادية في الانتعاش بعد أن أمن التجار على أموالهم نتيجة القسوة التي فرضت على المتلاعبين بأمن المنطقة[11].

---

(5) عنان، دول الإسلام: 3/ 17.

(6) ابن بسام: ق 1 ج 2 ص 602.

(7) ولد ابن جهور سنة 364هـ وأخذ عن شيوخ عصره المشهورين ـ ينظر ترجمته في الصلة، لابن بشكوال: 131.

(8) ينظر: الضبي، بغية الملتمس: 35؛ ابن عذاري 3/ 186.

(9) كانت هذه الدولة تبسط سلطانها على رقعة متوسطة من الأندلس تمتد شمالاً حتى جبال الشارات وشرقاً حتى منابع نهر الوادي الكبير، وغرباً حتى أستجة، وجنوباً حتى غرناطة وتضم من المدن عدا قرطبة جيان وأنده وأبده والمدور وأرجونة، عنان: دول الإسلام 3/ 21.

(10) الضبي، بغية الملتمس: 35.

(11) ابن بسام: ق 1 ج 2 ص 604، الضبي: 35.

وكان لابن جهور موقف خاص من أسطورة ظهور الخليفة هشام المؤيد بالله عندما أعلنها ابن عباد صاحب إشبيلية «ذلك أن ابن عباد حينما أحس بخطورة مطامع بني حمود في رئاسة جنوبي الأندلس، واتشاحهم بثوب الخلافة وحينما أرهقه يحيى بن علي بن حمود (المعتلي) بغاراته المتوالية، رأى أن يدحض دعاوى أولئك الحموديين، فأعلن في سنة 427هـ[12] أن الخليفة هشام المؤيد حي لم يمت، وأظهر بالفعل شخصاً يشبه هشاماً كل الشبه، وبايعه بالخلافة ودعا الناس للدخول في طاعته[13]، وبعث بذلك إلى رؤساء الأندلس، فاستجاب بعضهم للدعوة، وكان منهم عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، ومجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية، والوزير أبو الحزم بن جهور رئيس قرطبة، وعقدت البيعة في قرطبة بالفعل لهشام المؤيد، والظاهر أن جهور لم يكن يؤمن حقاً بصحة هذه الدعوى ولكنه استجاب لها، وأقرها لنفس البواعث التي حملت ابن عباد على انتحالها، وهو العمل على دفع خطر الحموديين»[14].

ظل ابن جهور على حكم قرطبة حتى وفاته سنة 435هـ فصار الأمر إلى ابنه أبي الوليد محمد بن جهور الذي اعتمد سياسة أبيه في تدبير أمور قرطبة[15]، ولكن أبا الوليد اضطر نتيجة ظروف عديدة إلى الابتعاد عن ممارسة السلطات وقدم ولده عبد الملك، ولكن المذكور لم يكن على مستوى من القدرة والسياسة بحيث يتمكن من إدارة حكومة قرطبة[16] بالمستوى المطلوب، فأهمل شؤون الدولة وسعى إلى الألقاب السلطانية وفوض إلى وزير أبيه إبراهيم بن يحيى بن السقاء مقاليد الأمور وعلى الرغم من حسن تدبير الأخير إلا أنه أعدم سنة 455هـ[17]، وعادت الأمور المضطربة مرة أخرى وزادتها سوءاً منافسة عبد الرحمٰن لأخيه عبد الملك في السلطة ومحاولته السيطرة عليها دون أخيه، مما اضطر أبا الوليد إلى التدخل وتقسيم السلطات بين ولديه، ففوض أمر القوات المسلحة إلى عبد الملك وفوض الأمور المالية لعبد الرحمٰن[18]. ولكن هذا التقسيم لم يكن ليرضي عبد الملك فقبض على أخيه عبد الرحمٰن وفرض عليه الإقامة الجبرية[19]،

---

(12) في الأصل سنة 426هـ والتصويب عن ابن عذاري 3/ 190.

(13) سيأتي تفصيل ذلك عند التعرض لدولة ابن عباد.

(14) عنان: 3/ 24.

(15) ابن بسام: ق 1 ج 2 ص 604.

(16) ابن عذاري: 3/ 359.

(17) أعدم بوشاية من ابن عباد، ابن بسام ق 1 ج 2 ص 609.

(18) ابن بسام: ق 1 ج 2 ص 607.

(19) ابن عذاري: 3/ 258.

مما ولد نوعاً من الاستياء وعدم الإرتياح لسوء الأوضاع في الداخل وتلت ذلك اضطرابات شجعت صاحب طليطلة على التعرض لحصن المدور والاستيلاء عليه ثم الزحف إلى قرطبة للإستيلاء عليها، فاضطر عبد الملك إلى الاستعانة ببني عباد وكانت تجمعه وإياهم علاقات صداقة ومودة، ولكن بني عباد الذين استطاعوا تخليص قرطبة من حكام طليطلة، عادوا واستولوا عليها سنة 462هـ وقبضوا على بني جهور ونفوهم إلى جزيرة شلطيش[20]، وبذلك ينتهي حكم بني جهور لقرطبة بعد أن استمر قرابة الأربعين سنة.

2 ـ دويلة اشبيلية (بنو عباد):

يرجع أصل بني عباد إلى المنذر بن ماء السماء، وجدهم عطاف بن نعيم هو الداخل إلى الأندلس في طالعة بلج بن بشير القشيري[21] وكان بنو عباد من الأسر التي لها في تاريخ العرب بالأندلس نصيب وافر فعميد أسرتهم إسماعيل بن عباد تقلب في مناصب الدولة سنين عديدة آخرها قضاء إشبيلية، وقد تمكن من السيطرة على الأمور في المدينة إبان الفتنة التي أصابت البلاد، تلك السيطرة التي ارتضاها عموم أهل إشبيلية بفضل السياسة الحكيمة التي سار عليها حتى وصف بأنه رجل الغرب المتصل الرئاسة وقت الجماعة، ووقت الفتنة.

إن سياسة ابن عباد الرصينة جعلت له مكاناً مرموقاً عند بني حمود الذين كان سلطانهم يتردد بين العاصمة قرطبة وبين مدينة إشبيلية، فعندما اعتزل إسماعيل بن عباد مناصبه نتيجة كبر سنه، قدم القاسم بن حمود الملقب بالمستعلي أبا القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد وعيَّنه في منصب القضاء، غير أن الظروف التي مرت بها الدولة الحمودية، وسلبيات الصراع بين أفراد العائلة، جعلت أهل إشبيلية يميلون إلى الاستقلال في إدارة مدينتهم، لذا فعندما غادر المستعلي إشبيلية ليتولى منصب الخلافة بقرطبة قرر الإشبيليون إعلان استقلالهم، وخولوا إدارة المدينة مجلساً مكوناً من وجهائها وعلى رأسهم محمد بن عباد ومعه أبو محمد بن مريم والعالم المشهور أبو عبد الله الزبيدي[22]، وبدأ ابن عباد يمارس سلطاته باتجاه الاستقلال التام، فمنع المستعلي من

---

(20) ابن بسام: ق. ج 2 ص610 وما بعدها، ابن خلدون: 4/ 159 وفي البيان المغرب 3/ 259 أن أهل قرطبة كاتبوا ابن عباد سراً لدخول المدينة بعدما ضاقوا بأعمال عبد الملك وأخيه عبد الرحمٰن.

(21) ابن عذاري: 3/ 195.

(22) ابن الآبار، الحلة السيراء: 2/ 37، ابن عذاري: 3/ 195.

دخول مدينة إشبيلية عندما طرده أهل قرطبة[23]، وعندما تعرضت إشبيلية لمحاصرة قوات يحيى بن حمود سنة 414هـ، برز ابن عباد بوصفه مفاوضاً ذكياً، فقد تمكن من رد قوات ابن حمود دون أن يعرض مركزه ومدينته إلى أي ضعف أو خطر، فقد وعد ابن عباد الخليفة الحمودي بالدعوة له في الخطبة وتأدية مبلغ من المال لإثبات ولائه له. وكانت حركته هذه ضرورية قصد بها إبعاد خطر قوات الحموديين عن المدينة وقد استخلص مرسوماً مهماً من الخليفة الحمودي بإقراره رئيساً ونائباً عنه في مدينة إشبيلية[24]، ومنذ هذا التاريخ بدأ ابن عباد يسعى إلى تأسيس ملك خاص بأسرته، ويعمل على تجميع قوات مخلصة لأهدافه[25]، جعلها أداة ضاربة لتقليم نفوذ ملوك الطوائف المجاورين لإشبيلية، والسعي إلى ضم ما يمكن ضمه من حصون ومدن تلك الدويلات ولكي يبعد ابن عباد خطر الحموديين عن مناطق نفوذه نهائياً ويتحلل من تبعيته (الإسمية) لهم [26]، وليثبت شرعيته في الحكم ويسوغ الأعمال التوسعية التي قام بها، أعلن في سنة 426هـ عن ظهور هشام المؤيد[27]، وإعلانه خليفة في إشبيلية، ودعا بقية حكام دويلات الطوائف للإعتراف به[28]، (وقد سبقت الإشارة إلى اعتراف بني جهور بالخليفة هشام لأسباب ذكرت آنفاً). وعلى هذا الأساس يعد محمد بن عباد مؤسس دولة بني عباد الحقيقي «ومنشىء ملكهم ورسوم مملكتهم، وعلى يده اتخذ سلطان بني عباد ألويته الملوكية المدعمة بالقوى العسكرية، وإن لم يصل بعد إلى غايته من الروعة والفخامة، وأصبح ملوكية وراثية راسخة، بعد أن كان يتخذ فقط صورة الزعامة، والرئاسة القبلية»[29]. وبوفاة محمد بن عباد سنة 433هـ آل الأمر من بعده إلى ولده أبي عمرو عباد بن محمد الملقب المعتضد، وقد بدأ عصره بإجراءات قاسية أصابت العديد من الشخصيات البارزة ومنهم أعضاء مجلس الرئاسة الذي شكل في عهد والده، واعتمد

---

(23) ابن بسام: ق 1 ج 1: 485، ابن الآبار، الحلة السيراء: 2/37، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 177.

(24) ابن بسام: ق 2 ج 1: 19، المراكشي: 54.

(25) استخدم العبيد والمرتزقة في قواته، وهيأ لهم العدة والسلاح اللازمين للتفوق على دويلات الطوائف الأخرى.

(26) محمد بن عبود، التاريخ السياسي لإشبيلية: 53.

(27) يقال إن بني عباد أظهروا شخصاً يدعى خلف الحصري شبيه بالخليفة هشام المؤيد فادعوا أنه الخليفة هشام المؤيد. ينظر: ابن حزم، نقط العروس: 25.

(28) ابن بسام، ق 2 ج 1: 17، ابن عذاري: 3/198.

(29) عنان، دول الطوائف: 39.

القوة في تحقيق أهدافه في الداخل والخارج، فكان وزرائه وكبار رجال دولته يخشونه كما يخشاه منافسوه من حكام دويلات الطوائف، وقد سرد لنا المؤرخون أسماء الشخصيات التي نكبت في عهده ومن بينهم ولده إسماعيل[30]، والعالم عمر الهوزني الذي اشتهر بعلومه وطول باعه وهو ممن له في تاريخ الفكر العلمي الأندلسي نصيب وافر[31].

وكانت سياسته الخارجية تقوم على ضرب دويلات الطوائف متى ما وجد لذلك فرصة سانحة تحقق له المزيد من ضم الأراضي إلى دويلة إشبيلية، فقد تمكن من السيطرة على معظم مدن الغرب ومنها جزيرة شلطيش سنة 443هـ ومدينة شنتمرية في نفس السنة ومدينة لبلة سنة445هـ، وشلب سنة 455هـ، وحاول مرات عديدة الاستيلاء على بطليوس ابتداءً من سنة 442هـ إلا أنه لم يتمكن منها، فاكتفى بالسيطرة على بعض الحصون المهمة التابعة لها.

وهكذا استطاع ابن عباد في نحو عشرين سنة أن يقضي على سائر الدويلات الصغيرة القائمة في غرب الأندلس، وأصبحت دولته تشمل سائر الأراضي الممتدة من نهر الوادي الكبير غرباً حتى المحيط الأطلسي عدا رقعة تقع شرق هذا الوادي، قرر ابن عباد بعد ذلك استخلاصها من حكامها حتى يؤمن دولته من هذه الناحية، ويمتلك حرية الحركة في اتجاه الشمال والشرق[32]. فاستولى على رنده سنة 457هـ وعلى أركش وشذونة وما يلحق بها، ومورور سنة 458هـ، وقرمونة سنة 459هـ وكان ابن عباد قد استولى على باب الأندلس من الجنوب وهو الجزيرة الخضراء سنة 446هـ وقضى على نفوذ الحموديين فيها.

وهكذا أصبحت دولة بني عباد «تضم من أراضي الأندلس القديمة رقعة شاسعة تشمل المثلث الجنوبي من شبه الجزيرة، وأرض الفرنتيرة شمالاً حتى شواطىء الوادي الكبير، ثم تمتد بعد ذلك من عند منحنى الوادي الكبير، غرباً حتى جنوب البرتغال

---

(30) ينظر: محمد بن عبود: 61 ـ 63.

(31) في الصلة، لابن بشكوال: 402 «عمر بن الحسن بن عبد الرحمٰن الهوزني... كان متفنناً في العلوم، قد أخذ من كل فن منها بحظ وافر، مع ثقوب فهمه وصحة ضبطه... قتله المعتضد بالله عباد بن محمد ظلماً بقصره بإشبيلية ودفنه به ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر من سنة 460هـ، وتناول قتله بيده ودفنه بثيابه وقلنسوته، وهيل عليه التراب داخل القصر من غير غسل ولا صلاة». وينظر أيضاً، ابن الآبار، الحلة السيراء: 2/ 239.

(32) ينظر: عنان: دول الطوائف: 44.

وشاطىء المحيط الأطلسي، وبذلك ضمت أعظم ممالك الطوائف، وأغناها من حيث الموارد الطبيعية وأقواها من حيث الطاقة الحربية ولم يكن يغشي هذه المكانة التي بلغتها إشبيلية من الفخامة والقوة والغنى سوى ناحية قاتمة واحدة. وهي موقفها من ملك قشتالة فرناندو الأول، ذلك أن هذا الملك القوي، كان يطمح إلى أن يبسط سيادته على إسبانيا كلها، وكان يرى في ممالك الطوائف، وما يسودها من الخلاف والتفرق، فرائس هينة، ففي سنة 444هـ/ 1062م خرج من قشتالة بجيش كبير من الفرسان والرماة، وغزا مملكة طليطلة، وعاث فيها وخرب سهوها وزروعها، حتى اضطر ملكها المأمون بن ذي النون، أن يطلب الصلح وأن يتعهد بدفع الجزية، وفي العام التالي 445هـ عاد فغزا أراضي مملكتي بطليوس وإشبيلية، «واضطر المعتضد بن عباد، أن يحذو حذو المأمون في طلب الصلح والتعهد بدفع الجزية، وقصد المعتضد بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة، وقدم إليه عهوده شخصياً ولما توفي فرناندو بعد ذلك بثلاثة أعوام وخلفه ولده سانشو في حكم مملكة قشتالة، كان المعتضد يؤدي إليه الجزية أسوة بأبيه واستمر في تأديتها حتى وفاته»[33]. وعمله يعد سقطة من السقطات الكبيرة التي درج عليها حكام دول الطوائف، الذين سعوا إلى محالفة ورضاء أمراء وملوك إسبانيا الشمالية، وتفرغوا إلى نزاعاتهم الدموية ليزيدوا تاريخ الأمة في الأندلس إرهاقاً وضعفاً.

توفي المعتضد سنة 461هـ/ 1069م وخلفه ولده: أبو القاسم محمد بن عباد المعروف بالمعتمد[34]، وفي عهده تم ضم قرطبة إلى دولة إشبيلية سنة 462هـ[35]، ودخل المعتمد في صراع عنيف مع دولة غرناطة، واضطرت ظروف النزاع كلا الطرفين إلى الاستعانة بملوك وأمراء الممالك الإسبانية الشمالية لقاء مبالغ كبيرة من الأموال، ولقاء تنازلات إقليمية، ففي الوقت الذي حاول فيه عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة التحالف مع ملك قشتالة ألفونسو السادس، نجد المعتمد يسلك المسلك نفسه ويرسل وزيره أبا بكر بن عمار إلى ألفونسو طالباً المساعدة مقابل مبلغ كبير من المال ويمنيه بغزو غرناطة واقتسامها بحيث تكون للمعتمد قصبة المدينة ولألفونسو القلعة الحمراء بما تحويه من نفائس وذخائر. وكانت نتيجة هذا الحلف تعرض مدينة غرناطة إلى هجمات مدمرة قام بها ألفونسو السادس، وجرأت قواته على اقتراف المزيد من أعمال التخريب

(33) ينظر، عنان، دول الطوائف: 48.
(34) عن سيرته ينظر: ابن الآبار، الحلة السيراء: 2/ 54.
(35) ابن عذاري: 3/ 259.

في العديد من ضواحي المدن الأندلسية. وقام بمهاجمة طليطلة في محرم سنة 478هـ/ 1085م فدخلها غازياً دون أن تحرك دول الطوائف ساكناً.

إن سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس وتطلعاته لغزو بقية المدن الأخرى دفعت العديد من حكام دول الطوائف وعلى رأسهم ابن عباد إلى الاستعانة بالمرابطين لنجدتهم، ومع تحفظ بعض الحكام على قرار الاستدعاء فإن المعتمد عزم على تنفيذ قراره بقوله: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[36]، وتعهد بالتنازل عن الجزيرة الخضراء للمرابطين الذين نزلوها سنة 479هـ/ 1086م ومع بداية هذا النزول بدأ المرابطون العمل على مقاومة الغزو الخارجي والانتصار عليه في أكثر من موقعة، وإعادة الوحدة السياسية إلى البلاد والقضاء على دول الطوائف الواحدة تلو الأخرى ومنها دولة بني عباد التي سقطت في سنة 484هـ/ 1091م[37].

3 ـ دويلة بطليوس (بنو الأفطس):

تقع دويلة بطليوس إلى الشمال من دويلة إشبيلية وتفصل بينهما جبال الشارات وكانت هذه الدويلة تشمل جميع أراضي البرتغال تقريباً وعاصمتها مدينة بطليوس وتضم مدناً مهمة منها: ماردة، واشبونة وشنترين، ويابرة، وشنترة، وقلمرية[38].

وقد حكم بنو الأفطس[39] هذه الدويلة أكثر من سبعين عاماً، وعميد هذه الأسرة هو: عبد الله بن الأفطس[40] الذي تمكن من السيطرة على مقاليد الأمور في سنة 413هـ، ودخلت هذه الدويلة مع اشتداد عودها في عهد المظفر محمد بن عبد الله الأفطس في صراع عنيف مع بقية دويلات الطوائف، لا سيما بنو عباد مما أنهك قوة الطرفين المتنازعين[41]، فاستغل فرناندو الأول ملك قشتالة تلك الأوضاع واستولى في سنة 449هـ على مدينتي لاميجو (مليقة) وبازو الواقعتين في الشمال دون مقاومة تذكر أو نجدة تستعيد هاتين المدينتين[42]، ولم يحدث هذا فقط، بل اضطر بنو الأفطس إلى دفع

---

(36) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ـ الخاص بإسبانيا ـ: 345، وينظر: الحجي التاريخ الأندلسي. 392.

(37) ابن بسام: ق 2 ج 1: 52 و53.

(38) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 183، وينظر: عنان، دول الطوائف: 81.

(39) أصلهم من قبائل مكناسة المغربية.

(40) ينظر عن بدايته، ابن الآبار، الحلة السيراء: 2/ 97.

(41) ابن عذاري، 3/ 238، وما بعدها، وينظر: عنان، دول الطوائف: 84.

(42) عنان، دول الطوائف: 86.

جزية سنوية لملك قشتالة مقدارها خمسة آلاف دينار مقابل ترك مدينة شنترين والتي تعرضت لأخطار الغزو مرات عديدة[43].

وأشهر من حكم هذه الدويلة عمر بن محمد الملقب المتوكل على الله والذي عرف بسياسته الحكيمة وتشجيعه للحركة العلمية وتقريبه للعلماء وتمتعت بطليوس في عهده بالأمن والرخاء[44]، وكان للمتوكل دور في الدعوة إلى توحيد الأندلس من خلال تكليف العالم أبي الوليد الباجي المتوفى سنة 474هـ[45]، ليقوم بجولة في دويلات الطوائف ويدعو حكامها إلى نبذ الخلاف والفرقة، وتوحيد الجهود ضد أخطار ومطامع الممالك الإسبانية الشمالية[46]، وعندما سقطت مدينة طليطلة سنة 478هـ كان المتوكل في جملة الداعين إلى دعوة المرابطين والاستعانة بهم لإنقاذ البلاد من الأخطار المحدقة بها[47].

وقد انتهى حكم هذه الأسرة على يد المرابطين سنة 488هـ بعد حصار شديد لمدينة بطليوس، وتم إعدام المتوكل وولديه جزاء له لاستنجاده بملك قشتالة[48].

4 ـ دويلة طليطلة (بنو ذي النون):

طليطلة من المدن المشهورة في تاريخ الأندلس، كانت قاعدة الثغر الأوسط وبمثابة الحاجز أمام قوات الممالك الإسبانية الشمالية، وقد وقعت وما يلحق بها في حوزة بني ذي النون، وقد تولى إسماعيل بن ذي النون حكم المدينة لأول مرة في سنة 427هـ[49]. وأعقبه في الحكم ولده يحيى في سنة 435هـ وتلقب بالمأمون، ويمتاز عهده بكثرة الحروب والمنازعات بينه وبين حكام دويلات الطوائف كبني عباد وبني هود[50]. وكان

---

(43) ابن عذاري: 3/ 238، وفيه أيضاً: «إن ملك قشتالة سيطر على مدينة قلمرية نتيجة خيانة حاكمها المسمى راندة».

(44) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 185.

(45) سليمان بن خلف بن سعدون فقيه مالكي مشهور، ترجمة ابن بسام: ق 2 ج 1: 94.

(46) ينظر: عبد الرحمٰن الحجي، التاريخ الأندلسي: 338 وما بعدها.

(47) ابن الآبار، الحلة السيراء: 2/ 98 و99.

(48) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 186.

(49) ينظر، عن أسرة بني ذو النون: ابن بسام ق 4 ج 1: 142 وما بعدها، ابن عذاري: 3/ 276، عنان، دول الطوائف: 96 وما بعدها.

(50) ابن بسام: ق 2 ج 1: 268، ابن عذاري 3/ 277 ـ 282.

نتيجة تلك الحروب المزيد من الخسائر في الأرواح والمعدات وتدمير مدن وحصون الأطراف المتنازعة، كل ذلك في سبيل الحصول على مكاسب إقليمية من هذه الدويلة أو تلك في الوقت الذي سعى فيه كل طرف من أطراف النزاع إلى التحالف مع أمراء وملوك إسبانيا الشمالية مقابل مبالغ كبيرة من المال، أو مقابل التنازل عن بعض المناطق المهمة(51). ومما لا شك فيه فإن هذه الحروب والمحالفات أدت إلى إضعاف هذه الدويلات جميعاً وإن ظهرت الغلبة في فترات لبعضها نتيجة سيطرتها على مناطق واسعة من أراضي الغير.

ففي سنة 457هـ تمكن المأمون من السيطرة على بلنسية، ودخلت قواته في سنة 467هـ مدينة قرطبة بعد أن قضت على حاميتها من بني عباد ودخل الطرفان بعد ذلك في سلسلة من المنازعات انتهت بأستعادة بني عباد لمدينة قرطبة ثم أعاد المأمون الكرة تارة أخرى ودخلها سنة 467هـ(52).

وقد أصبحت دولة طليطلة في عهد المأمون من الدويلات المرهوبة الجانب، وامتد نفوذها حتى وصل إلى بلنسية شرقاً، واهتم المأمون بعمائر المدينة فبنى قصوراً اشتهرت بفخامتها وروعتها أطنب المؤرخون في وصفها وأكثر الشعراء من التغني بمجالسها(53).

توفى المأمون سنة 467هـ وتولى الأمر بعده حفيده: يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر، وتعد سنوات حكمه فترة اختلال سياسي واضمحلال لقوى هذه الدويلة فقد أبعد القادر عن دست الحكم كل شخصية عرفت بسداد الرأي وصدق المشورة ومنهم الوزير ابن الحديدي(54)، الذي أبعده عن الوزارة ثم قتله سنة سنة 468هـ، وأمام ضغط قوات بني حمود التجأ القادر إلى طلب العون من ألفونسو الذي قرر شروطاً باهظة مقابل ذلك العون، فبالإضافة إلى المبالغ الكبيرة، تنازل القادر عن حصون مهمة كحصن سرية وقثورية وقنالش، مما أضعف مركزه كثيراً وازداد اضطرابه عندما اضطربت طليطلة بالثورة، واضطر إلى مغادرتها والالتجاء إلى حصن وبذة سنة 472هـ واستدعى أهل طليطلة المتوكل بن الأفطس حاكم بطليوس ليتولى إدارة المدينة فقدمها مكرهاً، ولم

---

(51) ابن عذاري: 3/ 279 و281.

(52) ابن بسام: ق 2 ج 1: 268. وينظر: عنان، دول الطوائف: 102 وما بعدها.

(53) ابن بسام ق 4 ج 1: 147 وما بعدها.

(54) هو: يحيى بن سعيد بن أحمد أحد علماء طليطلة المشهورين. ترجمته في الصلة لابن بشكوال: 669. وعن مقتله ينظر: ابن بسام: ق 4 ج 1: 152.

يعمل أكثر من نهب المدينة وإفراغ قصور بني ذي النون من محتوياتها[55]، في الوقت الذي استنجد القادر بحليفه ألفونسو السادس فأمده بقوات استعادت طليطلة سنة 474هـ بعد أن غادرها ابن الأفطس[56]. ولم تضف سيطرة القادر على المدينة جديداً بل زادتها إرهاقاً وفوضى على كافة المستويات الإقتصادية والأمنية فضلاً عن انقسام العامة إلى عدة أحزاب متخاصمة بين مؤيد معارض، وهذه الحالة شجعت ألفونسو السادس على تنفيذ مشروعه باحتلال مدينة طليطلة فبدأ بمحاصرتها سنة 477هـ، وحاول القادر جاهداً فك الحصار بشتى الطرق لكنه فشل أمام تعنت ألفونسو وتصميمه على دخول المدينة وأخيراً أعلنت طليطلة استسلامها بعد أن يئست من مساعدة دويلات الطوائف الأخرى، فاحتلها ألفونسو سنة 478هـ[57].

وكان لسقوط طليطلة وقع شديد بين دويلات الطوائف عامة، وعده رؤساء هذه الدويلات إيذاناً بسقوط معاقلهم التي يعتصمون بها، فاتجهوا صوب المغرب يطلبون نجدة المرابطين ضد القوى الإسبانية الشمالية.

5 ـ دويلة غرناطة (بنو مناد):

سيطر زاوي بن زيري بن مناد على غرناطة سنة 403هـ واتخذها وقومه ملجأ لهم، واستمر يدير شؤونها مدة سبع سنوات[58]، كانت له فيها وقائع مع الخليفة المرتضى سنة 409هـ فهزمه هزيمة نكراء ورده وفلول جيشه إلى العاصمة قرطبة[59]. ولأسباب غير واضحة قرر زاوي بن زيري مغادرة الأندلس والالتحاق بوطنه في المغرب العربي سنة 410هـ[60]، بعد أن خلف على حكم غرناطة ابن أخيه: حبوس بن ماكسن الذي تسلم مقاليدها في سنة 411هـ وكان حسن التدبير والسياسية، نعمت غرناطة في عهده بنوع من الهدوء والاستقرار، واتسعت رقعة هذه الدويلة عندما سيطر على قبرة وعلى مدينة جيان، واهتم بعمارة مدينة غرناطة، حتى مكن لبني مناد ملكاً قوياً راسخاً. وكانت

---

(55) ابن بسام، ق 4 ج 1: 157 و161، ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 178.

(56) ابن بسام، ق 4 ج 1: 162.

(57) ابن بسام: ق 4 ج 1: 163 وما بعدها، ابن خلدون: 4/ 161، المقري: 1/ 441.

(58) ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 146، وينظر ابن خلدون: 4/ 160. وفيه إن الصراع مع المرتضى كان سنة 420هـ.

(59) ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 524، ابن عذاري: 3/ 125 وما بعدها.

(60) ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 524، ابن عذاري: 3/ 128.

سياسته تقوم على مصادقة جيرانه من زعماء البربر وفي مقدمتهم بنو حمود حكام مدينة مالقة، والتحالف مع هذه القوى ضد بني عباد حكام إشبيلية[61].

توفي حبوس سنة 428هـ[62] وخلفه في حكم غرناطة ولده: باديس، الذي قدر له أن يكون من أقوى حكام هذه الدويلة وأوفرهم حظاً للنهوض بأعباء الحكم، وقد افتتح عهده بالقضاء على مؤامرة استهدفت قلب نظام الحكم دبرها ابن عم له يدعى يدير بن حباسة الذي هرب مع كبار المتآمرين إلى إشبيلية عندما اكتشفت هذه المؤامرة قبل تنفيذها[63].

وجرياً على نهج حكام دويلات الطوائف فقد دخل باديس بن حبوس في حرب قاسية مع زهير العامري صاحب المرية بعد أن اختلت العلاقات الطيبة بين الطرفين[64]، نتيجة لتضارب مصالح كلتا الدولتين[65]، وتمكنت قوات باديس من تدمير قوة زهير العامري وقتله في ميدان المعركة 429هـ/ 1038م[66]، وكان من نتائج هذه المعركة سيطرة باديس على معظم أملاك دويلة زهير العامري المتاخمة لدويلة غرناطة ومنها مدينة جيان وأعمالها، وقسماً من أراضي كورة قرطبة الجنوبية[67].

وعندما حاول بنو عباد غزو مدينة قرمونة[68]. تحركت قوات باديس لنجدتها وتمكنت من تشتيت قوات بني عباد وقتل قائدهم إسماعيل بن عباد قرب استجة في سنة 431هـ/ 1039م[69].

---

(61) عنان، دول الطوائف: 126.

(62) ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 485، وفي تاريخ ابن خلدون: 4/ 160 وفاته سنة 429هـ.

(63) عنان: دول الطوائف: 128.

(64) تحالف زهير العامري مع حبوس بن ماكسن على قتال ابن عباد، فلما توفي حبوس وخلفه باديس، بدأت العلائق بين زهير وباديس في الفتور، وذلك لما عمد إليه زهير من إيواء عدو باديس محمد بن عبد الله زعيم زناتة وحمايته. . . ينظر: دول الطوائف: 128.

(65) ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 527.

(66) ابن الخطيب، المصدر السابق: 1/ 527 و528، ابن عذاري 3/ 169 وما بعدها.

(67) عنان، دول الطوائف: 129.

(68) كانت مدينة قرمونة تحت حكم محمد بن عبد الله البرزالي وقد سقطت هذه المدينة عندما هاجمتها قوات بنو عباد بقيادة إسماعيل بن عباد، فاستعان البرزالي بزعماء البربر ومنهم باديس بن حبوس والذي يعتبر بمثابة كبير الزعماء البربر الذي يقع على عاتقه نجدة ومساعدة هؤلاء الحكام ضد أي غزو خصوصاً بني عباد الأعداء التقليديين لهؤلاء الحكام.

(69) ابن عذاري: 3/ 201 و202.

وظل بنو مناد الصنهاجيّون وبنو عباد في صراع وتسابق لكسب مناطق النفوذ فلما اضمحلت قوة الحموديين بدأت غرناطة تخطط لاحتلال مالقة في الوقت الذي بدأ معه ابن عباد الإعداد للسيطرة على الجزيرة الخضراء والتي دخلوها فعلاً سنة 446هـ/ 1055م بعد أن جلا عنها حاكمها القاسم بن حمود[70]، وفي سنة 448هـ/ 1056م تمكن ابن حبوس من دخول مالقة منهياً حكم الحموديين في هذه المدينة أيضاً[71]، ولكن بني عباد وجدوا في احتلال مالقة من قبل قوات ابن حبوس تحدياً لهم، فأرسلوا قواتهم لاحتلالها ولكنهم بعد معركة عنيفة بين الطرفين سنة 458هـ/ 1066م خسر فيها الإشبيليون معظم جنودهم إلا من نجا بالفرار من الميدان[72]، واستمر النزاع سجالاً بين الطرفين لسنوات أخرى، تبودلت فيها السيطرة على المناطق العديدة[73]، مع فداحة خسائر الطرفين، وتعرض الكثير من مناطق الأندلس إلى الخراب والدمار.

ومع طول سنوات حكم باديس بن حبوس بلغت غرناطة في عهده كأقوى الدويلات القائمة آنذاك «إذ كانت تمتد من بسطة شرقاً حتى استجة ورنده غرباً، ومن بياسة وجيان شمالاً حتى البحر جنوباً»[74]، وكانت هذه الدويلة مسؤولة عن حماية الدويلات والإمارات البربرية «وباديس هو الذي حصن مدينة غرناطة، وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية، وأنشأ قصبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة وسميت باسمها القديم القلعة الحمراء. . . وأنشأ له جيشاً قوياً مرابطاً من قومه صنهاجة وغيرهم، وبذل له المال الوفير، ووطد الدولة، ونظم مراتبها وعمالاتها»[75].

وبعد وفاة باديس سنة 465هـ/ 1073م تولى أمر دويلة غرناطة حفيده عبد الله بن بلكين الذي كان حدثاً لم يقو على إدارة البلاد، ففقدت الدويلة ديمومتها واستقرارها وعاد بنو عباد يهاجمون أملاكها[76]، مما أجبر عبد الله على محالفة ألفونسو السادس

---

(70) ابن عذاري: 3/ 242.

(71) ابن الخطيب، الإحاطة: 1/ 443.

(72) ابن الخطيب، الإحاطة 1/ 444.

(73) في سنة 458 سيطر ابن حبوس على قاعدة اركش، بناء على رغبة زعماء هذه القاعدة بعد أن عجزوا عن حمايتها أمام غارات بني عباد، وعاد بنو عباد ليسيطروا على القاعدة المذكورة ويمدوا نفوذهم على سائر منطقة شذونة. ينظر: دول الطوائف: 132.

(74) عنان، دول الطوائف: 139.

(75) عنان، المصدر السابق: 139.

(76) سيطر بنو عباد على جيان سنة 466هـ وهي من أهم قواعد دويلة غرناطة الشمالية.

وترضيته بأموال باهظة(77) وبدأت أحوال هذه الدويلة تجنح للتفسخ عندما بدأ الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها، فاستقل تميم بن باديس بحكم مالقة وما جاورها، وبدأ صراع بين الأخوين، أهدرت خلاله قوى هذه الدويلة واستمر حكم عبد الله حتى دخول القوات المرابطية غرناطة سنة 483هـ(78).

6 ـ دويلة بلنسية:

بلنسية من القواعد المهمة في شرق الأندلس، تداولها العديد من المتغلبون بعد انفراط عرى الوحدة السياسية في البلاد، وأول من سيطر عليها الصقالبة الذين وجدوا فيها ملاذاً أميناً لهم، عندما خرجوا من قرطبة إبان الفتنة التي اضطرم لظاها بعد مقتل الحاجب عبد الرحمٰن شنجول آخر العامريين.

حكمت بلنسية لفترة من قبل مجاهد العامري، ثم غادرها إلى دانية بعد أن انتقل حكم المدينة إلى الفتيان العامريين من الصقالبة وكان على رأسهم الفتيان مبارك ومظفر، اللذان اشتركا معاً في إدارة وحكم المدينة وما يتبعها من المدن والمناطق، وإن كان لمبارك التقدم في الرتبة والرئاسة على زميله الآخر، وقامت سياستهما على فتح أبواب المدينة للوافدين من أبناء جلدتهم الصقالبة، والعناصر الأخرى المناصرة لهم، مما أضاف قوة إلى قوة الموجودين في المدينة منهم(79).

وكانت بلنسية على علاقات طيبة مع معظم مدن شرق الأندلس وفي صراع مستمر مع حكام سرقسطة الذين كانوا يرومون التوسع على حساب مناطق شرق الأندلس.

انتهت دولة هذين الفتيين سنة 408هـ لتحكم من قبل لبيب العامري ومجاهد العامري، ولكن الأمور لم تستو لهما، فعندما دب النزاع بينهما واشتد الخلاف حسم الأمر بتقديم عبد العزيز بن عبد الرحمٰن شنجول سنة 411هـ/ 1021م(80).

ولكن هذا التقديم لم يكن ليرضي كبار الصقالبة فعمد خيران الصقلبي صاحب المرية ومرسية وأوريولة من باب المنافسة الشرعية والمحافظة على ما يملكه إلى ترشيح محمد بن عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر ولقب بالمعتصم، لكن الظروف التي

---

(77) تعهد بدفع عشرين ألف دينار سنوياً.

(78) ابن الخطيب، الإحاطة: 1/146.

(79) ابن بسام: ق 3 ج 1: 15 ـ 19. وينظر عنان، دول الطوائف: 16، وما بعدها.

(80) ابن بسام: ق 3 ج 1: 20 و21 و249.

قدمت المعتصم هي نفسها التي أجلته عن موقعه وأبعدته عن شرق الأندلس لينفرد خيران بالسلطة في المناطق التي يسيطر عليها حتى وفاته سنة 419هـ/ 1029م[81]، فخلفه زهير العامري الذي قتل عندما حاول غزو غرناطة سنة 429هـ/ 1038م[82]، واستغل عبد العزيز خلو المرية من الزعامة فسيطر عليها وعلى معظم المناطق القريبة منها عدا مدينة جيان التي أصبحت ضمن أملاك دويلة غرناطة، وإزاء هذه التطورات قرر مجاهد العامري مهاجمة دويلة بلنسية. وفي سنة 433هـ/ 1041م وقعت الحرب بين القوتين، تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة، وانجلى الموقف أخيراً عن دخول عبد العزيز مدينة شاطبة وتعزيز سلطانه في مدن شرق الأندلس، واستمرت دويلته آمنة الجانب حتى وفاته سنة 452هـ/ 1061م[83]، فولي بعده ولده: عبد الملك الملقب بنظام الدولة وبالمظفر، وفي عهده آل أمر بلنسية للمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وأصبحت ضمن أملاكه سنة 457هـ/ 1065م[84].

واستمرت بلنسية تحكم من قبل ذي النون حتى وفاة المأمون سنة 467هـ/ 1075م فاستقل بها أبو بكر بن عبد العزيز ـ الذي كان نائباً عن ذي النون في حكمها ـ فحكمها دون منازع، واستعان بملوك الممالك الإسبانية الشمالية لرد الهجمات عنها مقابل دفع الأموال الكبيرة إليهم. وحكم عشر سنوات، وتوفي سنة 478هـ فناب عنه ولده: أبو عمرو عثمان، الذي بدأ ولايته مع سقوط مدينة طليطلة في يد القشتاليين[85]، وكان لهذا الحدث نتائجه السلبية على عموم بلاد الأندلس، ومصير دولة بلنسية بوجه خاص. فحينما استولى ألفونسو السادس على طليطلة «من يد صاحبها القادر بن ذي النون، حفيد المأمون، فقد تعهد له أو وعده ضمن عهوده لقاء الاستيلاء على المدينة، أن يمكنه من استرداد بلنسية التي خرجت عن طاعته، بل قيل إنه وعده بمعاونته على افتتاح دانية وشنتمرية الشرق إذ كان يعلم أنه بتمكين القادر من الاستيلاء على هذه المدن فإنها تغدو في الواقع تحت حمايته، ويغدو شرق الأندلس، واقفاً تحت سيادته، عن طريق القادر»[86].

---

(81) ابن خلدون: 4/ 162.
(82) ابن الخطيب، الإحاطة 1/ 527.
(83) ابن بسام، ق 3 ج 1: 250، ابن سعيد: 2/ 300.
(84) ابن سعيد: 2/ 300، ابن خلدون: 4/ 161.
(85) ابن خلدون: 4/ 162.
(86) عنان، دول الطوائف: 227.

وقد تمكن القادر من دخول بلنسية بعد أن خلع أهلها أبا عمرو عثمان وقامت دولة بني ذي النون في هذه المدينة[87] تحت وصاية ألفونسو السادس وتحت رحمة جنده المرابطين فيها، والذين باتوا يشكلون عبئاً ثقيلاً نتيجة إلحاحهم في طلب الأموال، وزادت حالة المدينة سوءاً عندما تحول القادر إلى حاكم متعسف لا يهمه المصلحة العامة بقدر ما تهمه مصالحه الذاتية وإرضاء الحلفاء المسلطين عليه، حتى اضطر علماؤها إلى الهجرة والخروج عنها، ولم ينته هذا الضيق والعسف إلا عندما دخل المرابطون الأندلس، وانسحبت قوات ألفونسو من بلنسية للإشتراك في العمليات العسكرية ضد المرابطين (انتصر فيها هؤلاء بعدئذٍ في واقعة الزلاقة سنة 479هـ/ 1086م)، وحاول القادر مثله مثل حكام دويلات الطوائف التقرب من المرابطين، لكنه لم يحظ بطائل، فعادت أمور بلنسية إلى الاضطراب، وشعر بخطورة الموقف عندما استغل المنذر بن هود حاكم لاردة وطرطوشة الفرصة وحاصر بلنسية سنة 481هـ/ 1088م. فاستعان القادر بحليفه ألفونسو السادس والمستعين ابن هود حاكم سرقسطة منافس المنذر، ولكن لكل واحد من هذين أهدافه وأطماعه في دويلة بلنسية، وعندما وصلت قوات المتحالفين قرر المنذر فك الحصار ومغادرة مواقعه لتحل محل قواته قوات المستعين التي ضمت في صفوفها فرقة من الفرسان المرتزقة الأسبان يقودها السيد الكمبيادور الذي سبق له أن خدم والد المستعين وجده من قبل.

وتشير المصادر التاريخية إلى اتفاق سري بين المستعين والسيد الكمبيادور خلاصته غزو المدينة واقتسام أملاكها، بحيث تكون جميع الغنائم لقوات الكمبيادور والمدينة نفسها من نصيب المستعين، ويبدو من سير الأحداث بعد ذلك محاولة نكث كل طرف بالآخر، ومحاولة كل واحد العمل لحسابه الخاص بعد أن تمكن القادر من إجراء محالفات سرية بين الطرفين كل على حدة محاولاً الإيقاع بينهما، وحاول كسب السيد الكمبيادور الذي رحب بعروض القادر، ورفض مهاجمة مدينة بلنسية بحجة كون القادر يتمتع بحماية ألفونسو السادس وإن الهجوم عليه يعني الخروج عن طاعة ملكه ملك قشتالة[88].

ومنذ ذلك الحين انفض الحلف الذي كان يربط المستعين بالسيد الكمبيادور الذي بدأ يجوب مدن شرق الأندلس ويفرض على حكامها المبالغ الطائلة. واستمر على تلك

---

(87) ابن خلدون: 4/ 162.

(88) عنان، دول الطوائف: 241.

الأعمال سنوات عديدة، وكانت بلنسية تدفع له سنوياً قرابة مئة ألف دينار لقاء حماية المدينة والحرب نيابة عن القادر، حتى ساءت الأحوال الإقتصادية وعمت الشكوى جميع السكان، فقاد قاضيها أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري ثورة بمعاونة قوات المرابطين انهت حكم المقتدر وأوصلته إلى الإعدام سنة 485هـ/ 1029م واختير ابن جحاف رئيساً لإدارة شؤون المدينة[89].

وأمام هذه التطورات قرر السيد الكمبيادور احتلال مدينة بلنسية واسترجاعها من يد المرابطين، وبدأ بسلسلة من المفاوضات السرية بينه وبين ابن جحاف يمنيه بحكم هذه المدينة ويؤمن حمايته بشرط إخراج المرابطين منها وانتهت المفاوضات بينهما على البنود الآتية:

1 ـ أن يغادر المرابطون المدينة دون أن يعترضهم أحد.

2 ـ أن يسلم ابن جحاف للسيد أموال القادر.

3 ـ أن تسلَّم له الأموال التي كانت مقررة له سابقاً «كجزية سنوية».

4 ـ تبقى ضاحية الكدية «إحدى ضواحي المدينة» بيد السيد.

5 ـ أن يرتد الجيش القشتالي إلى جباله.

ولا خلاف فشروط الاتفاق باستثناء الشرط الخامس والذي لم ينفذ في الأصل هي في صالح السيد الذي استغل ذلك استغلالاً بشعاً وبات يهدد المدينة وأمنها حتى غزاها سنة 488هـ/ 1095م[90]، وقبض على ابن جحاف وأسرته وقتلهم جميعاً، وقصة تعذيب ومقتل ابن جحاف مشهورة في كتب المؤرخين[91]، وظلت بلنسية تحت حكم السيد حتى وفاته سنة 492هـ/ 1099م فحكمتها زوجته خمينا التي تولت الدفاع عنها ضد المرابطين[92]. ثم دخلها ألفونسو السادس في سنة 495هـ/ 1099م وقرر إخلاءها بعد أن دمرها تدميراً تاماً، ثم دخلها المرابطون في نفس السنة لتعود إلى حظيرة العروبة والإسلام[93].

---

(89) ابن عذاري: 3/ 305 (الذيل) و4/ 32؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: 182.

(90) ابن عذاري: 3/ 306، و4/ 36. وينظر: عنان، دول الطوائف: 242.

(91) ينظر، ابن بسام: ق 3 ج 1: 99، ابن الآبار، التكملة: 1/ 240، ابن عذاري: 4/ 37.

(92) عنان، دول الطوائف: 248.

(93) ابن بسام، ق 3 ج 1: 101، ابن عذاري: 4/ 41 و42.

7 ـ دويلة سرقسطة:

تعد دويلة سرقسطة، أو الثغر الأعلى[94] من أكبر الدويلات القائمة في البلاد مساحة، وكانت تتميز فضلاً عن ذلك بموقعها المتاخم لدول الممالك الإسبانية الشمالية «بين قطلونية من الشرق، ونافارا أو نبرة من الشمال الغربي، وقشتالة من الجنوب والغرب»[95]، وتعد هذه الدويلة من أقدم الدويلات الأندلسية استقلالاً عن السلطة المركزية، ذلك أن موقعها النائي في شمال شرقي الجزيرة الأندلسية كان يحتم عليها دائماً الذود عن وجودها من جميع الأطماع المضطرمة حولها[96].

تولى حكم هذا الثغر يحيـى بن عبد الرحمٰن التجيبي سنة 379هـ/ 989م بإقرار من المنصور ابن أبي عامر، وظل حاكماً عليه حتى وفاته سنة 408هـ/ 1017م فخلفه ولده المنذر الذي يعد أول حاكم لدويلة سرقسطة، حيث تلقب كغيره من حكام الدويلات بالألقاب السلطانية فتسمى بذي الرياستين ولقب بالمنصور. واشتركت هذه الدويلة في الأحداث الجارية على الساحة الأندلسية، فقاتلت قواتها بجانب الأندلسيين ضد البربر الذين كانوا تحت قيادة زاوي بن زيري الصنهاجي سنة 409هـ/ 1018م، ومع خسارة المعركة أيقن المنذر عدم جدوى هذه المنازعات لكون أهدافها لا تحقق له أية امتيازات أو مكاسب. فبدأ يراهن على دخول مدينة بلنسية بعد أن أصابتها الاضطرابات، نتيجة تنافس الصقالبة على الاستئثار بحكمها بعد وفاة مبارك العامري سنة 408هـ، وقد تمكن مجاهد العامري من صد قوات المنذر ومنعه من دخول المدينة، واستمر الصدام بين الطرفين حتى تم إعلان عبد العزيز بن عبد الرحمٰن شنجول سنة 411هـ/ 1021م حاكماً على بلنسية وما يلحق بها من المدن عندئذٍ قرر المنذر الانسحاب إلى سرقسطة بعد أن انسحب مجاهد العامري إلى قواعده في دانية[97].

ومن الظواهر السلبية التي رافقت عصر المنذر، تلك العلاقات المشبوهة التي كانت تربطه بأمراء الممالك الإسبانية الشمالية، فقد كان على علاقة مع أمير برشلونة رامون بوريل، وشانجة أمير نافار، وألفونسو الخامس ملك ليون، وقد بالغ المنذر في التقرب من هؤلاء الأمراء والملوك حتى أسخط عليه العامة، فرمته بشتى أوصاف الخضوع

---

(94) ينظر خليل السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي: 39 وما بعدها.

(95) عنان، دول الطوائف: 264.

(96) عنان، المصدر السابق: 264 و265.

(97) ينظر: دويلة بلنسية «المبحث السابق».

والخيانة[98]، مات سنة 414هـ/ 1023م وتناوب على حكم دويلة سرقسطة بعده اثنان من أسرة بني تجيب أولهما: يحيى بن المنذر الذي خلف والده وتلقب بالمظفر وفي زمانه أغار أمير برشلونة على أراضي دويلة سرقسطة واستولى على بعض القلاع والمناطق المهمة[99]، وثانيهما: المنذر بن يحيى الذي تولى حكم سرقسطة بعد وفاة والده سنة 420هـ/ 1029م وتلقب بمعز الدولة، واغتيل سنة 430هـ/ 1039م[100]، وباغتياله ينتهي حكم بني تجيب، لتبدأ أسرة أخرى في حكم سرقسطة وما ولاها وهي أسرة بني هود[101] وعميدها قائد مشهور من قواد بني تجيب هو: سليمان بن محمد بن هود، حكم سرقسطة سنة 431هـ/ 1039م، وتلقب بالمستعين وتميزت سنوات حكمه بالصراع المرير مع المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة وكانت المنطقة الواقعة بين الدولتين، من ناحية الجنوب الغربي من دويلة سرقسطة وناحية الشمال الشرقي من دويلة طليطلة، موضع الاحتكاك بين الطرفين. حيث دارت معارك دامية في سنة 436هـ/ 1044م وما بعدها بين قوات الطرفين وقد ألجأت هذه الحروب الطرفين إلى التحالف مع حكام الممالك الإسبانية لقاء الأموال الطائلة فتحالف ابن هود مع ملك قشتالة فرناندو، وتحالف المأمون بن ذي النون مع ملك نافار غرسية، فاستمر «ملكا قشتالة ونافار يعملان بكل ما بوسعهما على إذكاء هذه الفتنة، فيغير الأول على أراضي طليطلة لحساب ابن هود، ويغير الثاني على أراضي سرقسطة لحساب ابن ذي النون، ولم تخمد هذه المعركة الانتحارية بين الأميرين المسلمين إلا بعد وفاة ابن هود في سنة 438هـ/ 1046م»[102].

ومن سوء سياسة سليمان بن هود تقسيمه دويلة سرقسطة بين أولاده الخمسة، فولى ولده أحمد مدينة سرقسطة ويوسف مدينة لاردة، ومحمد قلعة أيوب، ولب مدينة وشقة، والمنذر مدينة تطيلة. وعندما توفي سليمان بن هود سنة438هـ استقل الأبناء كل في مدينته، وبدأ النزاع بينهم حتى تمكن أحمد حاكم مدينة سرقسطة والملقب بالمقتدر التغلب على جميع أملاك أخوته باستثناء ما كان تحت حكم أخيه يوسف ولم يحدث هذا

---

(98) ابن عذاري: 3/ 175 وما بعدها. وينظر: ابن خلدون 4/ 163.

(99) عنان، دول الطوائف: 27.

(100) ابن عذاري: 3/ 178 وما بعدها و221 و222.

(101) ابن الآبار، الحلة السيراء 2/ 246، ابن خلدون: 4/ 163.

(102) عنان، دول الطوائف: 272.

فقط بل نكل أحمد المقتدر بأخوته تنكيلاً ضجت منه العامة وطالبت بخلعه[103]، ورجحت كفة منافسه يوسف صاحب لاردة، واستجدّت ظروف طارئة أعلت كفة المقتدر مرة أخرى [104]، وقوت مكانته في هذه الدويلة بعد أن تمكن من استرداد كافة القواعد التابعة لدويلة سرقسطة باستثناء مدينة لاردة[105]، ثم احتل مدينة طرطوشة سنة 452هـ/ 1060 منهياً بذلك حكم الصقالبة في هذا الثغر[106].

ومن الأحداث المأساوية التي وقعت في عهد أحمد المقتدر احتلال مدينة بربشتر من قبل النورمانديين سنة 456هـ/ 1064م فقد خرج النورمانديون من قاعدتهم نورماندي[107]، يريدون الأندلس، فحاصروا مدينة وشقة إحدى مدن دويلة سرقسطة، وعندما فشلوا في اقتحامها توجهوا إلى مدينة بربشتر التي تعرضت لحصار القوات الغازية، فترة أربعين يوماً، ولم يفكر المقتدر بن هود بنجدة المدينة لكونها من أعمال أخيه يوسف الذي تخاذل بدوره عن تقديم أي عون لها فتركها تلاقي مصيرها. وعلى الرغم من صمود المدينة وبسالة قواتها في الدفاع ورد الغزاة، إلا أنها سقطت ودخلها النورمانديون واستباحوها ودمروا عمائرها واقترفوا في سكانها من المناكير ما لم يقترفه آدمي قبلهم، فعبروا بتلك الأعمال عن حقيقتهم الوحشية وسيرتهم الهمجية، وقد كان صدى هذه النكبة قد عم بلاد الأندلس، مما عجل في العمل على استرجاعها وتطهيرها من دنس الغزاة، وقد سارت قوات المقتدر في جمادى الأولى سنة 457هـ/ 1065م فعلاً وتمكنت من تحرير المدينة بعد معركة شديدة هزم فيها النورمانديون وحلفاؤهم الموجودون معهم للدفاع عنها[108]، ووقعت للمقتدر بعد ذلك وقائع مع جيرانه من الممالك الشمالية (ارجون، ونافار، وقشتالة) فقد كانت هذه الممالك تتحين الفرص

---

(103) ابن عذاري: 3/ 222 و223.

(104) تفاصيل ذلك في: البيان المغرب: 3/ 223.

(105) ابن عذاري: 3/ 224.

(106) اضطربت الأمور في طرطوشة ولم يتمكن الفتى نبيل أحد فتيان الصقالبة من تدارك الأمور، فاستغل المقتدر الفرصة وزحف لاحتلالها، واضطر نبيل الصقلبي إلى تسليم المدينة دون قتال، ويعد ثغر طرطوشة من المناطق المهمة لأنه مخرج سرقسطة إلى البحر، إذا استثنينا ثغر طركونة الواقع على حدود إمارة برشلونة وكان من أعمال لاردة. دول الطوائف: 73، 74.

(107) تقع في شمال غرب فرنسا، وقد حصل عليها النورمانديون سنة 229هـ بعد حروب ومفاوضات مع شارل الثالث الملقب البسيط.

(108) تفاصيل الخبر عن حادثة بربشتر في الذخيرة، لابن بسام ق 3 ج 1: 178 ـ 190؛ ابن عذاري: 3/ 225.

للنيل من هذه الدويلة سواء باقتطاع أقاليمها أو ابتزاز أموالها، وهذه الظروف نفسها كانت العامل في التجاء المقتدر إلى محالفة بعض ملوك هذه الممالك وبذل الأموال الطائلة لهم ضد البعض الآخر[109].

وعلى الرغم من ذلك فقد كان المقتدر أحد كبار حكام الطوائف، تميز بمقدرة سياسية وعسكرية عالية على أن مشاريعه وأعماله كانت تنطوي أحياناً على بعض الصفات السيئة، وتمتعت سرقسطة في وقته بمكانة مميزة ومرموقة فقد كان بلاطه يضم كبار علماء العصر ومشاهيرهم في العلوم والآداب، وكان المقتدر نفسه عالماً من علماء عصره شغوفاً بدراسة الفلسفة والفلك والرياضيات وكان قصره المسمى بقصر الجعفرية نسبة إلى كنيته (أبو جعفر) من أكبر وأضخم قصور ذلك العصر وقد اشتهر في تاريخ الفن الإسلامي باسم دار السرور وكان أروع ما فيه بهوه الرائع الذي زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة، فيسمى لذلك بالبهو الذهبي أو مجلس الذهب. ولما سقطت سرقسطة في يد الاسبان شوهت معالم هذا القصر البديع وأدخلت فيه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وزخارفه العربية[110].

مات المقتدر سنة 474هـ/ 1081م وقد اقترف نفس الخطأ الذي اقترفه والده من قبل، فقد قسم دويلة سرقسطة بين ولديه فخص ولده الأكبر يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها[111]، وولده المنذر بلاردة وطرطوشة ودانية، وعادت الحرب الأهلية بين الطرفين واستعان كل طرف على الآخر بمرتزقة الممالك الإسبانية الشمالية، فتحالف المؤتمن مع السيد الكمبيادور صديق والده القديم واستعان المنذر بملك أرجوان وأمير برشلونة، ودارت بين الطرفين سلسلة من الصدامات خربت على أثرها العديد من المدن والحصون ولم تجن الأطراف المتنازعة غير المزيد من الخسائر في الرجال والأموال.

ولم يحكم المؤتمن أكثر من أربع سنوات فتوفى سنة 478هـ/ 1085م فخلفه في حكم سرقسطة وأعمالها ولده: أحمد المستعين، والذي لم يضف جديداً على سياسة والده فاستمر في التحالف مع السيد واشترك في الصراع حول السيطرة على بلنسية «وقد سبق الحديث عن ذلك» وقد دخل المستعين بعد فشله من احتلال بلنسية في صراع وحروب شديدة مع مملكة أرجون التي باتت تهدد دويلته من الشمال، وساقت تلك

---

(109) ينظر، عنان، دول الطوائف: 280.

(110) عنان، المصدر السابق: 283.

(111) ابن خلدون: 4/ 163.

الحروب المستعين إلى طلب العون من ملك قشتالة مقابل دفع مبالغ كبيرة من المال، ولكن قوات أرجون تمكنت من احتلال مدينة وشقة سنة 489هـ/ 1096م[112] التي تعد ثاني مدينة في دويلة سرقسطة، ودارت بعد ذلك معارك شديدة بين الطرفين آخرها معركة (فالتيرا) سنة 503/ 1110م التي قتل فيها المستعين وارتدت قواته منسحبة باتجاه قاعدة سرقسطة[113]، وخلف عبد الملك الملقب بعماد الدولة والده المستعين فشهد دخول المرابطين سرقسطة أواخر سنة 503هـ لينهوا حكم أسرة بني هود الذي استمر أكثر من سبعين سنة[114].

8 ـ دويلة دانية والجزائر الشرقية:

تمكن مجاهد العامري أحد موالي المنصور ابن أبي عامر من السيطرة على مدينة دانية خلال فترة اضطراب الأندلس، وحكمها باسمه ثم تغلب على الجزائر الشرقية في حدود سنة 405هـ/ 1014م[115].

وبحكم الموقع الجغرافي لدانية من الأندلس فقد تخلصت هذه المدينة من المنازعات التي شغلت حكام الطوائف سنين عديدة، وقامت سياسة مجاهد العامري على بناء وتحصين قواعد دويلته والاهتمام ببناء قوات عسكرية برية وبحرية، أعدت منذ البداية لمهمات تتعدى حدود الأندلس، وكانت أولى تلك المهمات تتحدد في تنفيذ مخططاته الرامية للسيطرة على جزر البحر المتوسط، ومنها جزيرة سردينيا التي احتلت سنة 406هـ/ 1015م[116]، والتعرض للمدن الإيطالية جنوه وبيزا ولوني التي أصابتها قواته البحرية مرات عديدة. ولكن العامري لم يتمكن من الاحتفاظ بجزيرة سردينيا طويلاً

(112) ابن خلدون: 4/ 163.

(113) ابن خلدون: 4/ 163.

(114) على أن سقوط سرقسطة لم يكن آخر العهد ببني هود ذلك أن عماد الدولة عبد الملك بن المستعين استقر بقاعدة روطة الحصينة... يشهد الصراع المضطرم بين المرابطين والممالك الإسبانية الشمالية حول امتلاك سرقسطة، فلما سقطت بإيديهم وضع نفسه تحت حماية سيدها الجديد ألفونسو... واستمر على حاله حتى توفي في روطة... سنة 524هـ/ 1130م فخلفه في الإمارة ولده أبو جعفر أحمد بن عبد الملك.. واستمر في حكمه لروطة... حتى حمله ألفونسو ملك قشتالة... على التنازل عنها وعوضه عنها بقسم من مدينة طليطلة في سنة 534 هـ/ 1139 م.

(115) ابن عذاري: 3/ 155.

(116) ابن خلدون: 4/ 164، ابن الخطيب، أعمال الأعلام 219.

فاضطر إلى الانسحاب منها بعد أن خسر المعركة أمام قوات التحالف الصليبي الذي قاده البابا يندكتوس الثامن وضم فيما ضم قوات جنوه وبيزا البحرية وذلك في سنة 407هـ/ 1016م والعام الذي يليه.

وعلى الرغم من هذا الفشل الذي أصاب قوات مجاهد العامري، فقد ظل من أبرز القادة البحريين الذين عرفوا في ذلك العصر وكان اسمه يثير الذعر والخوف والاضطراب في الأوساط الأجنبية وفي موانئ البحر المتوسط خاصة، وظلت سفنه تجوب البحر المتوسط وتغير على المدن الإيطالية وتقطع عليها خطوط مواصلاتها سنين عديدة[117].

وأما الصفحة الأخرى البارزة في دويلة العامري، فتتمثل بالنشاط العلمي والأدبي الذي حظي باعتناء زائد من قبله، مع سعيه الدائم إلى دعوة العلماء واقتناء مؤلفاتهم النادرة والجديدة[118]. ويعد أبو عمرو الداني[119] إمام القراءات في زمانه، وابن عبد البر[120]، وابن سيده[121]، من أشهر علماء العصر على الإطلاق فقد طارت مؤلفاتهم شرقاً وغرباً، وهم الذين رفدوا الحياة العلمية بكل جديد ونفيس في مجالات تخصصاتهم المختلفة.

مات مجاهد العامري سنة 436هـ/ 1044م بعد أن حكم دانية والجزائر الشرقية زهاء ثلاثين سنة، وخلفه على الحكم ولده: علي الملقب بإقبال الدولة والذي نهج على سياسة والده في الداخل والخارج، وفي عهده ضمت دانية إلى دويلة سرقسطة سنة 468هـ/ 1076م عندما سيطر عليها المقتدر بن هود[122].

أما الجزائر الشرقية والتي تعد ميورقة من أهم جزرها فقد كانت تحت حكم عبد الله المرتضي الذي استبد بحكمها حتى وفاته سنة 468هـ وخلفه مساعده في حكم الجزيرة مبشر بن سليمان، وفي عهده تعرضت ميورقة لهجوم الأساطيل الغربية المتحالفة (بيزا الإيطالية وأمير برشلونة وفرنسا) بعد أن بارك البابا هذه الحملة التي ضربت حصاراً على الجزيرة سنة 508هـ/ 1114م وصمدت له صموداً رائعاً على الرغم من قطع المحاصرين

---

(117) عنان، دول الطوائف: 194 و199.

(118) ابن بسام: ق 3 ج 1: 23، ابن عذاري: 3/ 156.

(119) عثمان بن سعيد الأموي شيخ القراءات في عصره مات سنة 444هـ بدانية، الصلة: 405.

(120) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر خرج من قرطبة وسكن دانية ومات بها سنة 463هـ/ الصلة: 677.

(121) من أشهر علماء اللغة في عصره له من المؤلفات المحكم وغيره مات سنة 458هـ. ينظر: ألبير مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس: 57.

(122) ابن عذاري: 3/ 157 أو 228، ابن خلدون: 4/ 164.

لكافة الإمدادات والمؤن عنها، وخلال الحصار توفي مبشر بن سليمان، وتولى قيادة المقاومة أبو الربيع سليمان الذي لم يتمكن من الصمود طويلاً فسقطت مدينة ميورقة سنة 508هـ/ 1116م ودخلتها القوات المتحالفة بعد أن فني معظم المدافعين عنها، فنهبها الغازون عن آخرها وقتلوا جميع من صادفوه حياً من سكانها، واستمرت القوات المتحالفة في عبثها وتخريبها للمدينة حتى حررها المرابطون سنة 509هـ/ 1119م من سيطرة قوات التحالف الغربية عليها[123].

الكيانات المستقلة (دويلات صغيرة)

وقامت في الأندلس دويلات أو إمارات صغيرة حكمت من قبل الأسر المتنفذة واتخذت من مدنها مراكز ومقرات لها. ولم يكن لهذه الدويلات أو الإمارات كبير شأن فهي لم ترق إلى مصاف الدويلات السابقة، بيد أنها كانت محوراً يثير النزاع بين الدويلات الأخرى ومنها على سبيل المثال:

أ ـ بنو طاهر في مدينة مرسية:

وعميد هذه الأسرة هو أبو بكر أحمد بن إسحاق بن طاهر أحد العلماء المعروفين وكان رئيس مدينة مرسية مدة تزيد على ست وثلاثين سنة، وبوفاته سنة 455هـ خلفه ولده محمد بن طاهر وفي عهده سقطت مرسية بيد بني عباد سنة 471هـ[124].

ب ـ بنو برزال في قرمونة:

ورأس حكومتها أبو عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي وكان نفوذه يمتد إلى مدينة استجة والمدور، وقد تقلب البرزالي المذكور تحت طاعة القوى المختلفة من دويلات الطوائف حتى سيطر بنو عباد على أملاكه سنة 459هـ[125].

جـ ـ بنو يفرن في رندة:

ورأسهم أبو النور هلال بن دوناس اليفرني الذي حكم حتى وفاته سنة 449هـ / 1057م وخلفه ولده أبو النصر فتوح والذي انتهت على يده إمارة رندة وضمت إلى دويلة إشبيلية سنة 457هـ/ 1065م[126].

---

(123) ابن خلدون: 4/ 165، وينظر: عنان، دول الطوائف: 211 وما بعدها.

(124) ابن بسام: ق 3 ج 1: 24 وما بعدها، وينظر: عنان، دول الطوائف: 176.

(125) ابن عذاري (الذيل) 3/ 311 وما بعدها، وينظر: المصدر السابق: 148.

(126) ابن عذاري (الذيل) 3/ 312 وما بعدها، وينظر: عنان، المصدر السابق: 152.

د ـ بنو دمر في مورور:

وزعيمهم نوح بن أبي تزيدي الدمري حكم ابتداء من سنة 403هـ/ 1013م لغاية 433هـ/ 1041م وخلفه ولده محمد والذي مات في حبس ابن عباد 449هـ/ 1057م، واستمر بنو دمر يحكمون هذه المدينة حتى سنة 458هـ/ 1066 عندما احتلها بنو عباد[127].

هـ ـ بنو خزرون في أركش:

وزعيمهم أبو عبد الله محمد بن خزرون المتغلب على أركش في سنة 402هـ واستمر في حكمها حتى وفاته سنة 420هـ/ 1029م فأعقبه ولده عبدون وآخرون من هذه الأسرة حتى سقوطها في يد بني عباد سنة 461هـ/ 1068م[128].

سمات عصر دويلات الطوائف:

استمر عصر دويلات الطوائف في الأندلس أكثر من ثمانين سنة، تنازعت فيه الدويلات القائمة أسباب الفرقة والخلاف، ودخلت في أتون النزاع المرير، وتحملت البلاد ما تحملت من نتائج ذلك الانحلال السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وتقع تبعية هذا الانحلال على جميع عناصر المجتمع الأندلسي بدون استثناء، فالجميع عملوا على تكوين الدويلات في المناطق التي وجدوا فيها، واصطنعوا لأنفسهم الشرعية التي هي في الأساس الاعتماد على القوة العسكرية لفرض سلطانهم على من هم أضعف حالة من حكام تلك الدويلات.

وقد قررنا سابقاً أن من بين أسباب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس واضطراب الأحوال فيها: غياب القيادة القادرة على الفعل والحسم وانعدام الإدارة المخلصة القادرة على التفاعل مع أهداف القيادة في سبيل توحيد البلاد، فضلاً عن غياب الشرعية والذي يعني غياب الولاء للحاكم، وعجز الحكام عن ملء الفراغ الذي أحدثه الغاء الخلافة الأموية نهائياً من الأندلس سنة 422هـ، فكل ذلك حول القيادات الحاكمة في الأندلس إلى قيادات لدويلات إقليمية وعنصرية تقوقعت في مناطق محدودة ولم تتمكن من فرض

---

(127) ابن عذاري (الذيل) 3/ 295، وينظر: عنان، المصدر السابق: 154.

(128) ابن عذاري: 3/ 271، وينظر: عنان، المصدر السابق: 155.

سلطانها الفعلي الدائم خارج حدود مناطقها الأصلية.

ومن خلال العرض السابق لدويلات الطوائف القائمة في الأندلس، يمكن إجمال أهم السمات الأساسية المشتركة لهذا العصر بما يأتي:

1 ـ انفراط عرى الوحدة الوطنية، وتحول البلاد إلى وحدات أو كيانات صغيرة تسمى بدويلات الطوائف، تتميز كل منها بكيان خاص قائم على مبدأ الزعامة لأسرة من الأسر. والاعتماد على قوة عسكرية لتنفيذ أهدافها وإن كانت تلك القوة تتكون في معظم الأحيان من خليط من العناصر الموالية لهذه الأسرة أو تلك. ونظام الحكم قائم على أساس مبدأ الوراثة، وغالباً ما كان هذا النظام سبباً في حدوث النزاع بين أفراد الأسرة الواحدة، لا سيما عندما تقسم أملاك الدويلة بين أكثر من واحد من أبناء الحاكم.

2 ـ توجه جميع الدويلات القائمة نحو العمل لمصالحها الذاتية، دون أي حساب للقضايا القومية، أو حتى مصلحة الجماعة المنضوية تحت لوائها، وكان حكام هذه الدويلات ضعافاً في وطنيتهم ودينهم، ولم يولوا الكرامة الشخصية أي اهتمام فعندما سقطت بدبشتر، وطليطلة لم نجد من بين حكام هذه الدويلات من سارع إلى إنجادها، بل إن المقتدر بن هود لم يحرك ساكناً عندما سقطت بدبشتر في يد النورمانديين لكونها من أملاك أخيه يوسف، وكان «بينهما نزاع شخصي» حتى أجبر أخيراً أمام غضبة وثورة الشعب إلى إرسال قواته وتطهير المدينة من دنس النورمانديين. أما طليطلة فسقوطها هز الأندلس من أقصاها إلى أقصاها، ولم نجد من أولئك الحكام إلا المواقف المتخاذلة والمشينة.

3 ـ الصراع العنيف بين هذه الدويلات، لكسب ما يمكن كسبه من القلاع والحصون والمدن، وقد فقدت الأندلس جراء ذلك الصراع الألوف من أبنائها، وتعرض كثير من المناطق إلى الخراب والدمار، وفقد الأمن، وساءت الأحوال الإقتصادية نتيجة الاضطراب والفوضى التي كانت تصيب المناطق المتنازع عليها.

4 ـ دخول جميع دويلات الطوائف بشكل أو بآخر في سلسلة من المحالفات مع أمراء وملوك إسبانيا الشمالية أعداء الأندلس التقليديين، وأصبحت تلك المحالفات جزءاً من السياسة الخارجية لدويلات الطوائف، وغاية تلك المحالفات اقتسام أملاك الدويلات الأخرى، حتى باتت المحالفات تشكل خطراً كبيراً على معظم الدويلات مادياً، نتيجة دفع الأموال الكبيرة لتلك الدويلات مقابل مساعدات معينة، ومعنوياً لتدخلها في سياسة الدويلات القائمة في الأندلس حتى فقدت أكثر الدويلات استقلالها الذاتي، بل وأصبح

رؤساؤها يرسمون سياساتهم العدائية للنيل من الدويلات الأخرى، وكان ذلك هدف سعت إليه الممالك الإسبانية الشمالية ومنذ البداية لإضعاف كل طرف من الطرفين المتنازعين.

5 ـ حرص كافة حكام الطوائف على الإرتسام بسمات الملك والتلقب بشتى الألقاب الملوكية والسلطانية وزاد بعضهم أن اصطنع لدويلته وحكمه الشرعية والخلفية اللازمة لتسويغ أعماله وفرض سلطانه على الآخرين، عن طريق تنصيب الخلفاء بطريقة تثير السخرية والاستهجان، كما فعل بنو عباد عندما نصبوا خلف الحصري وادعوا أنه الخليفة هشام المؤيد، وكاتبوا في ذلك حكام الطوائف يدعونهم لمبايعته والدخول في طاعته. أو كما فعل صاحب دانية والجزائر عندما نصب المعيطي خليفة وهو شخص من العامة فبايعوه مقتفين بذلك دعوى بني عباد.

وبعد:

فإذا كان ثمة من حسنة لهذه الدويلات وسمة إيجابية تذكر لها فهي توجهاتها العلمية «فقد كانت في الفترات القليلة التي تجانب فيها الحرب الأهلية تتمتع بقسط لا بأس به من الرخاء وتغمرها الحركة والنشاط، وكان ملوك الطوائف بالرغم من طغيانهم المطبق... من حماة العلوم والآداب وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسي والفكر الإسلامي بصفة عامة»[129].

---

(129) ينظر: عنان، دول الطوائف: 423 وما بعدها.

الفصل الثالث

عصر المرابطين 484 ـ 540 هـ/ 1092 ـ 1145م

الأندلس ولاية مرابطية:

في الوقت الذي كانت فيه الأندلس تعيش عصر دويلات الطوائف المتنازعة فيما بينها 422 ـ 484هـ/ 1031 ـ 1092م، كانت منطقة المغرب الأقصى (مقر دولة المرابطين) تتقاسمها عدة دويلات يمكن إرجاعها إلى أربع قوى وهي:

1 ـ قبائل غمارة من الشمال وموطنها جبال الريف.

2 ـ إمارة برغواطة ومقرها إقليم تامسنا (عاصمتها مدينة شالة).

3 ـ الإمارات الزناتية وهي: إمارة بني خزرون في درعة وسجلماسة، وإمارة بني زيري في فاس، وإمارة بني يفرن في سلا وتادلا، وإمارة بني توالي (يخفش) في منطقة فازاز في منطقة الأطلس الأوسط.

4 ـ مجموعة البجلين في منطقة السوس ومجموعة الوثنين في نواحي الأطلس الكبير(1).

وفي الوقت الذي أوجد فيه داعية المرابطين الديني عبد الله بن ياسين قوة سياسية من الملثمين (المرابطين) خلال الأعوام 429 ـ 444هـ، قامت هذه القوة خلال الفترة 444هـ ـ 476هـ بالقضاء على إمارات المغرب الأقصى المتنازعة ووحدتها سياسياً، قد دخلت هذه الدولة الفتية في علاقات متشابكة مع إمارة بني حماد في الجزائر، وإمارة بني زيري في تونس، ومع إمارات الطوائف بالأندلس وهي موضع البحث(2).

---

(1) السامرائي، خليل، «علاقات المرابطين مع إمارات المغرب الأقصى»، ص 127 ـ 129.

(2) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 327.

تميز عصر دويلات الطوائف في الأندلس بالحروب المستمرة بين ملوك هذه الدويلات، كما تميز أيضاً بتبعية أغلبية أمراء الطوائف لملوك الإمارات الإسبانية في الشمال وأخص ولاءهم لألفونسو السادس ملك قشتالة، الذي اتخذ صوراً وأشكالاً مختلفة.

وعلى الرغم من سياسة الولاء هذه، إلا أنها لم تجد نفعاً، فقد كان هدف ألفونسو السادس إسقاط هذه الدويلات الواحدة بعد الأخرى، وكان هدفه الأول مدينة طليطلة قلب الأندلس، فسيطر عليها عام 478هـ/ 1085م بالتعاون مع جيوش إسبانية وأوروبية، واتخذها عاصمة لدولته، ومركزاً يشن منها الغارات المتكررة على مدن الأندلس المجاورة[3].

إزاء هذا المصاب الجلل، تزعم صالح العلماء والفقهاء في الدعوة إلى توحيد الأندلس، من أجل رد كيد ألفونسو السادس، ووضع حد لمطامعه التوسعية على حساب الأراضي الأندلسية، إلا أن هذه الدعوة لم تأتِ بالنتيجة المطلوبة، أمام الانهيار النفسي لأكثر ملوك الطوائف[4]، فاتجهت انظار الشعب وصالح العلماء وبعض الأمراء صوب المغرب الأقصى، باتجاه القوة الفتية التي ظهر كيانها السياسي وهي دولة المرابطين.

بعد سقوط مدينة طليطلة بيد الأسبان عام 478هـ، ازداد عبث الإسبان في سائر أنحاء الأندلس، فقرر امراء الطوائف ـ وعلى رأسهم المعتمد به عباد أمير إشبيلية ـ دعوة المرابطين من أجل رد خطر الإسبان، فجاءت هذه الدعوة بعد ثلاثة أشهر من سقوط مدينة طليطلة[5].

إن فترة تحول الأندلس إلى ولاية مرابطية مرت بالمراحل الآتية:

1 ـ الجهاد المشترك بين المرابطين وملوك الطوائف ضد الممالك الإسبانية 479 ـ 483هـ:

كانت الخطوة الأولى التي اتخذها أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في هذا المجال هي العبور بقواته إلى الأندلس في ربيع الأول من عام 479هـ/ حزيران 1086م

(3) السامرائي، علاقات المرابطين، ص 126 وبعدها.
(4) السامرائي، «الدعوة إلى توحيد الأندلس في أيام الطوائف»، ص 82 وبعدها.
(5) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 245 ـ لين بول، العرب في إسبانيا، ص 165.

من أجل نصرة أهل الأندلس، والإعداد لإرجاع مدينة طليطلة إلى دولة الإسلام[6].

رحب ملوك الطوائف بهذه الخطوة، وساهموا بقواتهم من أجل الجهاد في سبيل الله، وإنقاذ الأندلس من خطر الإسبان. وبعد أن وحدوا الجهود سارت القوات المشتركة صوب سهل الزلاقة شمالي بطليوس بروح جهادية عالية. تمني النفس بالنصر أو الاستشهاد في سبيل الله[7].

وفي الوقت نفسه كان ألفونسو السادس محاصراً مدينة سرقسطة قاعدة مملكة بني هود، فلما وصلت إلى مسامعه هذه الاستعدادات الإسلامية، ترك حصار سرقسطة وسار بقواته صوب بطليوس بعد أن أرسل صريخة إلى دول أوروبا التي سارعت بإرسال الإمدادات إليه[8]. وبعد استعدادات عسكرية من الطرفين، وقعت معركة الزلاقة في يوم الجمعة، 12 رجب من عام 479هـ/ تشرين الأول 1086م، انهزمت فيها قوى الإسبان والأروبيين، وطعن ألفونس السادس ملك قشتالة وهرب مع شلة من جنوده صوب مدينة طليطلة. وكانت معركة الزلاقة مع المعارك المهمة في بلد الأندلس، استبشاراً للمسلمين في العدوتين، على الرغم من عدم استرجاع مدينة طليطلة من سيطرة الإسبان[9].

بعد معركة الزلاقة رجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن ترك حاميات مرابطية في الأندلس تساعد القوات الأندلسية في التصدي لهجمات الإسبان التي بدأت تشن غاراتها على الأندلس انتقاماً لهزيمتها في الزلاقة.

وفي الوقت نفسه ازداد عبث الإسبان الموجودين في حصن الييط في شرقي الأندلس، والذين كرروا هجماتهم على مدن لورقة ومرسية، فاستنجد المعتمد بن عباد، وبعض فقهاء الأندلس بأمير المرابطين يوسف به تاشفين مرة أخرى، فعبر إلى الأندلس ثانية في ربيع الأول من عام 481هـ/ 1088م وسار صوب حصن الييط، بعد أن توافدت

---

(6) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 90 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 100.

(7) النباهي، المرقبة العليا، ص 97 ـ عنان، دول الطوائف، ص 321 ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 404.

(8) ينظر، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 94 (وطبعة أخرى ص 146)، الناصري، الاستقصا، جـ 2، ص 32 ـ الطيبي، «واقعة الزلاقة»، ص 18ـ. Piddl, The Cid, P: 217.

(9) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 130 ـ المراكشي، المعجب، ص 195 ـ الحلل الموشية، ص 52 ـ 53ـ السامرائي، علاقات المرابطين، ص 179 وبعدها.

إليه جيوش أمراء الطوائف(10). شددت القوات الإسلامية الحصار على هذا الحصن لمدة أربعة أشهر، وقد أعيتها مناعة الحصن وحلول فصل الشتاء، فانسحبت هذه القوات صوب مدينة لورقة(11). وخلال هذه الفترة استعان الإسبان المحاصرون في الحصن بملكهم ألفونسو السادس الذي أنجدهم مسرعاً وخلصهم من الخطر بعد أن دك أسوار الحصن، وانسحب صوب طليطلة لا يلوي على شيء، لأنه كان يخشى أن تتكرر هزيمة الزلاقة(12).

تخلصت القوات الإسلامية من خطر حصن الييط دون الدخول في معركة حاسمة، ورجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن ترك حاميات مرابطية بالأندلس تتصدى لهجمات الإسبان وبخاصة في الشرق. وكان من نتائج عبور أمير المرابطين إلى الأندلس اكتشاف الخلافات العميقة بين ملوك الطوائف، التي توحدها ظاهرياً مخاطر الإسبان، إلا أنه سرعان ما تعود هذه الخلافات من جديد، بالإضافة إلى التعاون السري بين بعض ملوك الطوائف وألفونسو السادس ملك قشتالة. فكان على يوسف بن تاشفين أن ينسحب من ميدان المعركة ويترك الأندلس فريسة للإسبان، أو أن يعتمد على نفسه وقواته فقط لمواصلة الجهاد، ويتطلب هذا الأمر خلع ملوك الطوائف(13).

2 ـ خلع ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس تحت سيادة المرابطين:

قرر أمير المرابطين يوسف بن تاشفين خلع أمراء الطوائف، والاعتماد على نفسه في مواجهة خطر الإسبان، وقد دفعه إلى هذا العمل عدة أمور:

أ ـ الخلافات الشديدة والمنازعات بين ملوك الطوائف، وقد فشلت جميع جهود يوسف بن تاشفين في إزالة هذه الخلافات(14).

ب ـ الموقف الحرج الذي أحاط بالقوات المرابطية الموجودة في بلد الأندلس، حيث قطع ملوك الطوائف الميرة والتموين عن هذه القوات، فأحرج مركزها، فساء هذا

(10) ينظر، ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص 54 ـ 55 ـ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 90 ـ عنان، دول الطوائف، ص 335.

(11) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 99 (وطبعة أخرى ص 153) ـ ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 143.

(12) ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص 57.

(13) السامرائي، علاقات المرابطين، ص 191 ـ 192.

(14) الأمير عبد الله، كتاب التبيان، ص 89.

الأمر يوسف بن تاشفين[15].

جـ ـ قدم المرابطون تضحيات كبيرة في سبيل إنقاذ بلد الأندلس من الخطر الإسباني في معارك الزلاقة وحصن البيط. وقد اعتبر ملوك الطوائف هذه التضحيات أموراً فرضتها الأخوة الإسلامية، وبذلك عاد هؤلاء الملوك إلى منازعاتهم، كما عادوا إلى التعاون مع ملوك الإسبان والارتماء في أحضانهم، بل تطور الأمر إلى الكيد لقوات المرابطين الموجودة في بلد الأندلس[16].

بعد أن اطمأن يوسف بن تاشفين إلى الأسباب التي تمكنه من خلع ملوك الطوائف، عزز هذا الأمر بصفة شرعية حيث أفتى الفقهاء بالأمر. وكان أهل الأندلس يدركون أن الانتصار في معركة البيط لم يكن بالمستوى الجهادي المطلوب، وقد أكد الفقهاء لعامة الشعب أن الخصومات بين ملوك الطوائف هي السبب في ذلك كله[17].

عزز يوسف بن تاشفين موقفه حيال خلع ملوك الطوائف من ناحيتين:

الأولى: الحصول على فتاوى فقهاء المشرق الإسلامي أمثال الغزالي والطرطوشي، وقد وصلت فتاواهم إليه عام 493هـ، وقد بدأ فعلاً بخلع ملوك الطوائف منذ عام 483هـ.

والثانية: الحصول على تأييد فقهاء الأندلس وعامة الناس الذين أكثروا من شكواهم إليه بعد العبور الثاني، وكشفوا ليوسف بن تاشفين النقاب عن سوء ومكر ملوك الطوائف، وحرضوه على خلعهم، وكان على رأس هؤلاء الفقهاء (أبو جعفر بن القليعي) قاضي قرطبة، الذي عبر إلى المغرب وأخبر أمير المرابطين ببعض الأمور التي تتعلق بملوك الطوائف وبخاصة الأمير عبد الله بن بلقين ملك غرناطة[18].

تضافرت العوامل التي اعتمدها أمير المرابطين في خلع ملوك الطوائف فعبر بقواته إلى الأندلس في أوائل عام 483هـ. ولم يبدأ بعزل ملوك الطوائف، بل بدأ بمحاربة الإسبان ليقطع أي اتصال لهم مع حلفائهم من ملوك الطوائف[19]. فسار يوسف بن

---

(15) ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص 57 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 187.

(16) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 104.

(17) علي أدهم، المعتمد بن عباد، ص 270.

(18) الأمير عبد الله، كتاب التبيان، ص 320، ص 487 ـ ابن الخطيب، أعمال، جـ 3/ 250.

(19) ينظر، ابن الأثير، الكامل، جـ 10، ص 189 ـ النويري، نهاية الأرب، جـ 22، ص 182 ـ محمود، قيام دولة المرابطين، ص 302.

تاشفين بقواته صوب مدينة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة وشدد حولها الحصار، ووصل في زحفه إلى مدن الحدود مما يلي شمالي طليطلة، ثم حاصر مدينة قلعة رباح الواقعة على الطريق المؤدية إلى مملكة قشتالة[20].

تصدى لهذا الزحف المرابطي ألفونسو السادس ملك قشتالة فانسحبت القوات المرابطية دون أن تدخل في معركة حاسمة مع الإسبان، ولم تشترك القوات الأندلسية في هذه الحملة، مما أدى إلى تذمر يوسف بن تاشفين، إضافة إلى أن ملوك الطوائف أحسوا بنوايا يوسف بن تاشفين نحوهم فباتوا يترقبون الأمور الجسام[21].

عاد أمير المرابطين بقواته من أحواز طليطلة صوب الجنوب، بعد أن قطع الصلة بين ملوك الطوائف والإسبان ليضع بداية النهاية لملوك الطوائف.

القضاء على ممالك الطوائف 483 ـ 509هـ

ثمة ظاهرتان يمكن ملاحظتهما في هذا الموضوع:

الأولى: ـ

إن أكثر ممالك الطوائف سيطرت عليها القوات المرابطية نتيجة تعاون ملوكها مع الإسبان وموقفهم المضاد للمرابطين، ولهذا سيطرت القوات المرابطية على هذه الممالك تباعاً:

فسيطرت على مملكة غرناطة عام 483هـ/ 1090م، وعلى مملكة إشبيلية عام 483 ـ 484هـ/ 1091م، وعلى مملكة المرية عام 484هـ/ 1091م، وعلى مملكة مرسية عام 484هـ/ 1091م وعلى مملكة بطليوس عام 488هـ/ 1095م، وعلى إمارة البونت عام 496هـ/ 1103م، وعلى إمارة شنتمرية الشرق (سهلة بني رزين) عام 497هـ/ 1104م، وعلى مملكة سرقسطة عام 503هـ/ 1110م. وقد تمت هذه السيطرة بعد جهود كبيرة قامت بها القوات المرابطية في مقاومة الخطر الإسباني المساعد لملوك الطوائف أولاً، وبمقاومة ملوك الطوائف الذين تصدوا للقوات المرابطية ثانياً[22].

---

(20) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 99 وطبعة أخرى ص 153 ـ اشباخ، تاريخ الأندلس، ص 93.

(21) عنان، دول الطوائف، ص 340 ـ محمود، قيام دولة المرابطين، ص 303.

(22) السامرائي، علاقات المرابطين، ص 97 ـ 244.

الثانية: ـ

إن بعض ممالك الطوائف مثل مملكة بلنسية ومملكة الجزائر الشرقية دخلتها القوات المرابطية لإنقاذها من خطر هجمات الإسبان، أي أن هذه الممالك هي التي طلبت العون من المرابطين فبعد أن كانت مملكة بلنسية مسرحاً لهجمات الإسبان 479 ـ 495هـ وخاصة هجمات السيد الكمبيادور (فارس قشتالي مغامر)، الذي عاث في المنطقة فساداً، وأرهق أهلها، وتصدى للقوات المرابطية خلال هذه الفترة الطويلة. وبعد موت الكمبيادور عام 492هـ/ 1009م تعاونت زوجته خمينا مع ألفونسو السادس من أجل التصدي للقوات المرابطية التي دخلت المدينة عام 495هـ/ 1102م بعد إرهاق شديد فوجدوها أطلالاً دارسة[23]. أما الجزائر الشرقية (البليار) فقد تعرضت لهجمات الأساطيل الإسبانية والإيطالية في عام 508هـ/ 1114م، وبعد مقاومة عنيفة دخلت هذه الأساطيل أهم جزرها وهي جزيرة ميورقة وعملت فيها الخراب والدمار. فاستعان أهل الجزائر الشرقية بالمرابطين الذين انجدوهم بأسطول بحري دخل الجزائر في عام 509هـ/ 1116م وبذلك تدخل الجزائر الشرقية في حوزة المرابطين[24].

جهاد المرابطين للممالك الإسبانية 483 ـ 542هـ:

كانت الممالك الإسبانية المعاصرة لهذه الفترة هي:

أ ـ مملكة قشتالة وليون 483 ـ 542هـ وكان أشهر ملوكها:

1 ـ ألفونسو السادس 458 ـ 502هـ/ 1065 ـ 1109م.

2 ـ أوراكة ابنته 502 ـ 520هـ/ 1065 ـ 1126م.

3 ـ ألفونسو السابع (السليطين) 520 ـ 552هـ/ 1126 ـ 1157م.

يبدو لنا من استعراض الروايات التأريخية التي تناولت المعارك العسكرية بين المرابطين ومملكة قشتالة وليون خلال هذه الفترة، أن هذه المعارك مرت في مرحلتين:

المرحلة الأولى 483 ـ 523هـ:

في هذه المرحلة كان التفوق العسكري للجيوش المرابطية التي بادرت بالهجوم

(23) حسين، الحياة العلمية في مدينة بلنسية، ص 128 ـ 140.

(24) السامرائي، «الجزائر الشرقية»، ص 179 ـ 182 ـ محمود علي مكي، «وثائق مرابطية جديدة»، ص 185 ـ 186 ـ سالم، تاريخ البحرية الإسلامية، ص 244.

على مدينة طليطلة عاصمة قشتالة وأحوازها، فاسترجعت بعض المدن والحصون المحيطة بها، كما انتصرت القوات المرابطية على القوات القشتالية في معركة حاسمة وهي معركة اقليش الواقعة شرقي طليطلة في عام 501هـ/ 1108م حيث انهزمت فيها القوات الإسبانية وقتل قائدها الأمير (سانشو) ابن ألفونسو السادس. وبعد هذا الانتصار كررت القوات المرابطية هجومها على مدينة طليطلة وأوشكت أن تسترجعها إلى دولة الإسلام وبخاصة في عام 507هـ/ 1114م.

المرحلة الثانية 523 ـ 542هـ:

بعد أن خسرت القوات المرابطية في معركة القلاعة عام 523هـ أمام هجمات قوات مملكة أرغون الإسبانية (سنذكرها فيما بعد)، بدأت قوات مملكة قشتالة بتكرار الهجوم المستمر على مدن الأندلس بقيادة ملكها الطموح (السليطين)، ويبدو لنا أن القوات القشتالية اتخذت لها عدة محاور، من أهمها:

أ ـ **محور قرطبة**، حيث قامت القوات الإسبانية بمهاجمة قرطبة وأحوازها عدة مرات في عام 524هـ/ 1130م، وفي عام 528هـ/ 1133م وفي عام 536هـ/ 1142م، وفي عام 538هـ/ 1143.

ب ـ **محور إشبيلية**، قامت القوات القشتالية بمهاجمة إشبيلية والمدن المجاورة لها في عام 526هـ/ 1132م، وفي عام 536هـ/ 1142م وعام 538هـ/ 1143م.

جـ ـ **محور بطليوس وغربي الأندلس**، قامت هذه القوات بهجومها عام 528هـ/ 1134م، وفي عام 532هـ/ 1137م، وفي عام 536هـ/ 1142م.

وبلغ من شدة هجوم القوات القشتالية، أنها وصلت إلى أحواز مدن قرطبة وإشبيلية وألقت الرعب في نفوس أهلها، ولا ينكر دور القوات المرابطية في هذه الفترة التي كرست جل استعداداتها العسكرية من أجل التصدي للقوات الإسبانية، وكانت القوات المرابطية في أغلب الأحيان تنتزع النصر من القوات القشتالية انتزاعاً، وفي بعض الأحيان خسرت المعارك وفقدت خيرة رجالها وقادتها. ومما عرقل مساعي المرابطين الجهادية هذه، نشاط الموحدين في عدوة المغرب وبداية سيطرتهم على أهم المدن والحصون المرابطية، وكذلك بسبب الثورات المتعاقبة التي قامت في بلد الأندلس وتهدف إلى تخليص الأندلس من الحكم المرابطي[25].

---

(25) السامرائي، علاقات المرابطين، ص 250 ـ 276.

ب ـ مملكة البرتغال 483 ـ 542هـ:

ملوكها خلال هذه الفترة:

1 ـ الأمير هنري البرجوني (الرنك) زوج تيريزا ابنة ألفونسو السادس وتوفي في عام 505هـ/ 1112م.

2 ـ تيريزا: الوصية على عرش ابنها (ألفونسو هنريكيز) 505 ـ 522هـ/ 1112 ـ 1128م.

3 ـ ألفونسو هنريكيز (ابن الرنك) 522 ـ 553هـ/ 1128 ـ 1158م. إن جهاد المرابطين مع مملكة البرتغال مر في مرحلتين:

المرحلة الأولى: 483 ـ 533هـ:

ففي هذه المرحلة اتخذت القوات المرابطية من مدينة بطليوس قاعدة عسكرية تخرج منها الحملات الجهادية صوب الشمال إلى أراضي مملكة البرتغال، فاستطاعت القوات المرابطية استرجاع بعض المدن المهمة من سيطرة الإسبان ومن أهمها مدن: يابرة واشبونة وشنترين وذلك في عام 505هـ/ 1112م، ومدينة قلمرية وذلك في عام 511هـ/ 1117م[26].

المرحلة الثانية 533 ـ 542هـ:

بعد الصلح الذي تم بين ملك قشتالة (السليطين) وملك البرتغال (ابن الرنك) عام 533هـ/ 1139م وجه ملك البرتغال جهوده من أجل السيطرة على بعض القواعد الأندلسية القريبة من حدود إمارته. فتصدى للقوات المرابطة في غربي الأندلس وانتصر عليها في موقع (أوريك) على ضفة نهر التاجة. كما استغلت إمارة البرتغال ثورة أهل الأندلس على المرابطين، فسيطرت على مدن شنترين وباجة وماردة واشبونة، أي إنها استرجعت معظم المدن التي استردها المرابطون في المرحلة الأولى[27].

جـ ـ مملكة برشلونة 483 ـ 542هـ:

وأشهر ملوكها في هذه الفترة:

1 ـ رامون برنجير الثاني 468 ـ 485هـ/ 1076 ـ 1092م.

---

(26) ينظر، المراكشي، المعجب، ص 228 ـ 232 ـ ابن عذاري، البيان جـ 4، ص 64 ـ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 81.

(27) ابن الأثير، الكامل، جـ 11، ص 106 ـ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 527.

2 ـ رامون برنجير الثالث 485 ـ 525هـ/ 1092 ـ 1131م.

3 ـ رامون برنجير الرابع 525 ـ 557هـ/ 1131 ـ 1162م[28].

واصلت مملكة برشلونة الإسبانية توسعها على حساب أراضي الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) منذ عام 483هـ/ 1090م، حيث سيطرت على مدينة طركونة، وفق حملة صليبية باركها البابا أوربان الثاني[29]. وقد حاولت القوات المرابطة عدة مرات استرجاع ثغر طركونة وبرشلونة، حيث أرسلت القوات المرابطة البرية في عام 495هـ/ 1102م وفي عام 508هـ/ 1115م إلى برشلونة وتوغلت في أراضيها، إلا أنه كان نصراً محدوداً وخسر المرابطون خيرة رجالهم في هذه الحملات[30]. كما أرسلت حملات مرابطة بحرية إلى منطقة برشلونة، وأسرت الكثير من أهلها وبخاصة (الربرتير) ـ الذي دخل في خدمة المرابطين فيما بعد ـ وذلك في عام 511هـ/ 1117م[31]. وبعد سقوط المرية بيد الإسبان عام 542هـ شجعهم الأمر على غزو مدينة طرطوشة، التي كان لها أهمية عند الإسبان باعتبارها أعظم ثغور الشمال الشرقي البحرية، كما كانت مأوى المسلمين المجاهدين الذين كثيراً ما كانوا يرابطون في هذا الثغر، ويكررون هجماتهم على مملكة برشلونة وأرغون وشواطىء فرنسا، حتى اعتقدت الممالك الإسبانية أن المسلمين بطرطوشة ربما يستطيعون إسقاط مملكة برشلونة ومملكة أرغون، بل ربما يستطيعون أن يرجعوا سرقسطة إلى عهدها الإسلامي[32].

لهذا ركزت مملكة برشلونة على مدينة طرطوشة، فهاجمتها بقوات إسبانية وأوروبية باركها البابا، فسيطرت عليها عام 543هـ/ 1148م[33].

د ـ مملكة أرغون 483 ـ 542هـ

وأشهر ملوك هذه المملكة الإسبانية:

1 ـ بيدرو الأول 489 ـ 499هـ/ 1096 ـ 1105م.

---

(28) ابن القطان، نظم الجمان، ص 219 (حاشية) ـ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، من 100 (حاشية 3).

(29) عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 116.

(30) السلاوي، الاستقصا، جـ 2، ص 58 ـ مؤنس، «الثغر الأعلى»، ص، 112.

(31) ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 66 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 193.

(32) علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص 176.

(33) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 2، ص 126 ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 441.

2 ـ ألفونسو الأول المحارب 499 ـ 529هـ/ 1105 ـ 1134م.

3 ـ دون راميرو الراهب (أخ المحارب) 529 ـ 532هـ/ 1134 ـ 1137م.

4 ـ رامون برنجير الرابع ملك برشلونة 525 ـ 557هـ.

ورث عرش أرغون بعد أن تنازل الراهب عن هذا العرش إلى صهر ملك برشلونة ولذا لقب ملك برشلونة هذا (كونت برشلونة وأمير أرغون)[34].

ومما يلاحظ في هذا المجال أن ألفونسو السابع (السليطين) ملك قشتالة فرض نوعاً من الهيمنة والسيطرة على بقية أمراء الممالك الإسبانية. فقد اعترف ملك أرغون (الراهب راميرو 529 ـ 532هـ) بأنه يحكم أرغون في ظل ملك قشتالة، وأعلن الاعتراف نفسه ملك النافار، كما أعلن رامون برنجير الرابع ملك برشلونة الاعتراف نفسه[35].

وكرر هذا الملك محاولاته من أجل استرجاع أهم قواعد الثغر الأعلى فبدأ منذ عام 503هـ/ 1110م يهاجم سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى والمدن الأخرى، فقام بمحاولتين في عام 504هـ/ 1111م من أجل السيطرة على سرقسطة ففشل[36].

ونتيجة لسقوط بيت المقدس بيد الأوروبيين عام 492هـ/ 1099م، عبرت قوات أوروبية إلى إسبانيا وبدأت تعاون ملك أرغون من أجل استرداد أهم المدن الأندلسية، فبدأ ألفونسو المحارب بمحاصرة مدينة تطيلة عام 511هـ/ 1117م واحتلها، وبذلك انهار الخط الدفاعي لمدينة سرقسطة. وفي عام 512هـ/ 1118م شدد الحصار على مدينة سرقسطة، تساعده قوات أوروبية، واستمر هذا الحصار زهاء سبعة أشهر، وحاصر الإسبان المدينة اقتصادياً إلى جانب الهجمات المتكررة عليها. ففي رمضان من عام 512هـ/ 1118م دخل ألفونسو المحارب وحلفاؤه المدينة، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة سميت بكنيسة (لاسيو Laseo)، واتخذ من مدينة سرقسطة عاصمة لمملكة أرغون الإسبانية. وبسقوط سرقسطة أصبحت قواعد الثغر الأعلى الأخرى مهددة أمام زحف ألفونسو المحارب، الذي سيطر على مدينة روطة المنيعة في العام نفسه. ثم سيطر في عام 513هـ/ 1120م على مدينة طرسونة، كما فرض سيطرته على مدينة قلعة أيوب وكانت أمنع ما تبقى من معاقل الثغر الأعلى[37].

---

(34) السامرائي، علاقات المرابطين، ص 289.

(35) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 176 ـ السامرائي، علاقات المرابطين، ص 290.

(36) ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 54 ـ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 74.

(37) ينظر، ارسلان، الحلل السندسية، جـ 1، ص 105 ـ السامرائي، علاقات، ص 294 ـ 300.

وإزاء هذه الانتصارات المتلاحقة التي أحرزها ألفونسو المحارب، ازداد نشاطه العسكري في السيطرة على المعاقل المنيعة في منطقة الثغر الأعلى، ففي عام 514هـ/ 1120م انتصر على القوات المرابطة في معركة قتندة، في حيز دروقة من عمل سرقسطة، واستشهد من المسلمين الآلاف ومن بينهم العديد من الفقهاء والعلماء[38]. كما قام ملك أرغون ألفونسو المحارب بحملته المدمرة عام 519 ـ 520هـ والتي اخترق بها بلد الأندلس من أقصاه إلى أقصاه متحدياً المسلمين فيها ومتعاوناً مع بعض معاهدي الإسبان الذين سهلوا له هذه المهمة، وكانت هذه الحملة، حملة تَحد كشفت عن ضعف الدفاع في الأندلس، وإن خطط المرابطين منذ نكبة سرقسطة وقتندة لم تكن كفيلة بصد عدوان الإسبان، كما كشفت عن مبلغ خطر المعاهدين الإسبان الذين نعموا بالسلام والأمن في ظل الحكم العربي بالأندلس[39].

ومن المعارك الأخرى المهمة التي انتصر فيها ألفونسو المحارب على القوات المرابطة هي معركة القلاعة عام 523هـ/ 1129م الواقفة في شرقي الأندلس، وفتحت الأبواب أمام شدة الهجمات الإسبانية على مدينة بلنسية وما جاورها من الحصون[40].

بعد أن تجاوز ألفونسو المحارب خلافاته مع ملك قشتالة (السليطين) عام 524هـ/ 1130م، جهز قواته صوب ما تبقى من قواعد الثغر الأعلى، وكان هدفه الاستيلاء على لاردة وافراغة ومكناسة، ثم الاستيلاء على ثغر طرطوشة. فهاجم مدينة مكناسة عام 527هـ/ 1133م وسلمت أمورها للملك الإسباني، ثم زحف نحو مدينة إفراغه فتصدت له القوات المرابطية، ودارت تحت أسوار هذه المدينة معركة من أعنف المعارك في هذه الفترة انتصر بها المرابطون لأول مرة، ضد ملك أرغون في رمضان من عام 528هـ/ 17 تموز 1134م، وبعد هذه المعركة مات الفونسو المحارب بأيام. وقد كان لنصر المرابطين في إفراغة صدى عميق في سائر أنحاء الأندلس، حيث أعادت للمرابطين سمعتهم العسكرية، ولو أنهم لم يستغلوا هذا النصر ويزحفوا إلى سرقسطة من أجل ارجاعها إلى دولة الإسلام[41].

---

(38) ينظر، ابن الآبار، المعجم، ص 7 (رقم 3) ـ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، جـ 6، ص 219 (رقم 640) ـ ابن بشكوال، الصلة، ص 144 (رقم 330).

(39) السامرائي، علاقات، ص 304 ـ 308.

(40) ابن القطان، نظم الجمان، ص 111 ـ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 541 ـ 542 (باب الوثائق).

(41) ينظر، ابن القطان، نظم الجمان، ص 223 ـ الحميري، الروض المعطار، ص 25 ـ السامرائي، علاقات، ص 315 ـ 318.

أما بقية مدن الثغر الأعلى مثل لاردة وإفراغة وأقليش فقد سقطت بيد الإسبان عام 544هـ/ 1149م[42].

ومن خلال استعراض جهاد المرابطين للممالك الإسبانية نلاحظ ما يأتي:

1 ـ تزعم ألفونسو السادس ملك قشتالة جبهة الإسبان ضد المرابطين إلى وفاته عام 501هـ، ثم تزعمها الفونسو الأول المحارب، وبعد وفاته عام 528هـ تزعمها ألفونسو السابع ملك قشتالة. أي وجود الملك الإسباني القوي حسب مقتضيات الأمور.

2 ـ اتسمت المعارك المتبادلة بين الجانب المرابطي والإسباني بعنفها وقوتها، وقد عزز كل جانب معاركه بروح دينية عالية تزعمها رجال الدين من الطرفين، من أجل إحراز النصر وكسب المعركة.

3 ـ على الرغم من الروح الجهادية العالية التي تمتع بها الجيش المرابطي في الأندلس، وانتصاراته في معارك مهمة ضد الإسبان، إلا أن هذا الجيش لم يستطع استرجاع أية مدينة أندلسية مهمة سيطر عليها الإسبان خلال مراحل الصراع، ابتداءً من مدينة طليطلة، ومروراً بغربي الأندلس وإلى منطقة الثغر الأعلى.

4 ـ أثقلت الحروب الجهادية هذه كاهل الجيوش المرابطية في الأندلس، وفقدت خيرة قادتها، مما أضعف هذه الجيوش فيما بعد، والتي انشغلت في مقاومة ثورة أهل الأندلس، وحركة المهدي في عدوة المغرب، مما شجع الإسبان على مواصلة توسعهم على حساب بلد الأندلس، والسيطرة تباعاً على أهم قواعده[43].

الأندلس ولاية موحدية 540 ـ 620هـ/ 1145 ـ 1223م:

تضافرت عوامل متعددة في إضعاف المرابطين سواء في شمال أفريقية أو في الأندلس، ولعل ضعف الأمراء الذين تولوا الحكم بعد علي بن يوسف بن تاشفين (500 ـ 537هـ) كان في مقدمة الأسباب، بالإضافة إلى ظهور نشاط الموحدين في عدوة المغرب، هذا النشاط الذي مر في مرحلتين:

الأولى:

مرحلة أبي عبد الله محمد بن تومرت، وقد بدأت هذه المرحلة من عام 515هـ إلى

---

(42) ابن الآبار، التكملة، جـ 1، ص 76 ـ ابن الخطيب، أعمال، ص 259.

(43) السامرائي، علاقات، ص 322 ـ 323.

عام 524هـ. وقد أسس محمد بن تومرت دعوة على أساس ديني قوامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أساس قبلي وهو الصراع بين القبائل البربرية قبيلة لمتونة (المرابطين)، وقبيلة هرغة من مصمودة (الموحدين). واتخذ محمد بن تومرت حصن (تينملل) مقراً له ولدعوته، وحاولت القوات المرابطية في هذه المرحلة السيطرة على هذا الحصن ففشلت(44).

الثانية:

مرحلة عبد المؤمن بن علي 524 ـ 543هـ والتي توجت بسقوط دولة المرابطين، وقيام دولة الموحدين، وذلك من خلال معارك دامية يطول شرحها(45).

وفي الأندلس منيت القوات المرابطية بهزائم متكررة أمام القوات الإسبانية، واستطاعت الممالك الإسبانية استرداد أهم المدن والقواعد الأندلسية تباعاً، كما وضحنا ذلك. إضافة إلى قيام بعض حركات التمرد ضدهم والتي عرفت باسم حركات المريدين وبخاصة في الجنوب الغربي من الأندلس، ومثل هذه الحركات، وبأهداف مختلفة قامت في شرقي الأندلس، وفي وسط وجنوب الأندلس. ويتبين لنا من خلال دراسة هذه الحركات التي قامت بين الأعوام 539 ـ 541هـ، وهي سنة عبور الموحدين إلى الأندلس، أن أكثر ثوار الأندلس ضد المرابطين هم من الفقهاء والقضاة وأعلام الأدب، وهذا يعود إلى المركز والنفوذ اللذين تمتعوا بهما في ظل دولة المرابطين، حتى تركزت فيهم عناصر الزعامة المحلية، فلما بدأ سلطان المرابطين بالأفول كما ذكرنا، قام هؤلاء الفقهاء والعلماء بحركاتهم من أجل استرداد سلطانهم القومي، إلا أن معظم هذه الحركات تم القضاء عليها إما بواسطة القوات المرابطية الموجودة في ولاية الأندلس، أو بانضواء قادتها تحت لواء الدولة الموحدية(46).

أ ـ عبور الموحدين إلى الأندلس:

كان أول جيش أرسله الموحدون إلى الأندلس في عام 541هـ وذلك من أجل إزالة

---

(44) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 68 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 228 ـ علام، الدولة الموحدية، ص 72 وما بعدها ـ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 184.

(45) السامرائي، علاقات، ص 508 وما بعدها.

(46) ينظر، المراكشي، المعجب، ص 277 وما بعدها ـ علام، الدولة الموحدية، ص 146 وما بعدها السامرائي، علاقات، ص 324 وما بعدها.

ما بقي فيها للمرابطين من سلطان، ومن أجل القضاء على الزعامات المحلية التي ظهرت في الأندلس في خاتمة حكم المرابطين. ولعل في مقدمة الأسباب التي دفعت الموحدين إلى ذلك، الحفاظ على كيان الإسلام في بلد الأندلس، إضافة إلى الحفاظ على كيانهم في عدوة المغرب من هجوم مرابطي محتمل من الأندلس. ومما شجعهم على التطلع لبلد الأندلس أيضاً الدعوات الرسمية والشخصية التي تلقوها من العلماء والحكام المحليين الذين رحبوا بقدوم الموحدين، وفي مقدمتهم: علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول في مدينة قادس، والثائر ابن حمدين القاضي زعيم ثورة قرطبة، والثائر أبو الغمر بن عزون زعيم ثورة مدينة شريش على المرابطين وغيرهم كثير[47].

على أثر ذلك قرر عبد المؤمن بن علي إرسال ثلاثة جيوش إلى الأندلس عبرت في عام 541هـ/ 1146م وسيطرت على مدن الجنوب مثال طريف والجزيرة الخضراء، كما أعلن أهل شريش ولاءهم للموحدين، وقد سماهم الموحدون تقديراً لذلك (السابقون الأولون)[48].

ثم زحفت القوات الموحدية إلى غربي الأندلس، فسيطرت على مدن لبلة وبطليوس وشلب وباجة ويابرة بكل سهولة حيث أعلن حكامها الولاء للوافد الجديد. إلا أن المدينة المهمة التي امتنعت على الموحدين في غربي الأندلس، والتي شددوا عليها الحصار براً وبحراً هي مدينة إشبيلية، إلا أن القوات الموحدية اقتحمتها في شهر شعبان من عام 541هـ/ 1147م بعد أن أبيدت بعض القوات المرابطية فيها[49].

إلا أن معظم مدن غربي الأندلس - ما عدا شريش - تمردت على الحكم الموحدي، وكان هذا التمرد بزعامة مدينة اشبيلية التي انهزمت منها القوات الموحدية. ولما وصلت هذه الأنباء إلى عبد المؤمن بن علي في عدوة المغرب، أرسل جيشاً جديداً إلى الأندلس أعاد السيطرة على معظم مدن غربي الأندلس[50]. واستطاعت الجيوش الموحدية من السيطرة على مدينة قرطبة، بعد تفاهم وتعاون مع حاكم قرطبة (يحيى بن غانية المرابطي) الذي فضل التعاون مع الموحدين من أجل التخلص من خطر الإسبان

(47) أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص 196 وما بعدها.
(48) الناصري، الاستقصا ص 104 - أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 222.
(49) ابن الأثير، الكامل، جـ 11، ص 47 - الناصري، الاستقصا. جـ 2، ص 105.
(50) ينظر، ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 234 - علام، الدولة الموحدية، ص184 - عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 329.

وبالذات ملك قشتالة، فدخلت القوات الموحدية قرطبة في عام 543هـ/ 1148م[51].

ومن قرطبة أخذت القوات الموحدية ترسل سراياها إلى المدن والحصون المجاورة في وسط الأندلس، فسيطرت على مدينة أبدة وبياسة، وسيطرت بعض السرايا الأخرى على حصن شلير وأركش وبرشانة[52]. وقام صاحب مالقة (أبو الحكم بن حسون)، الذي كان يخشى هجمات بقايا القوات المرابطية القريبة منه، ويخشى كذلك الخطر الموحدي الزاحف، فتعاون مع الجند الإسبان لرد هذه المخاطر، لكن سكان المدينة ثاروا عليه فقتلوه في عام 547هـ/ 1152م، وبعدها دخلت القوات الموحدية مدينة مالقة[53].

وبقيت مدينة غرناطة آخر معاقل المرابطين في الأندلس، فحاول يحيى بن غانية المرابطي إقناع حاكم غرناطة المرابطي (ميمون بن بدر اللمتوني) بالاستسلام للموحدين، فامتنع ميمون بشدة. وفي هذه الفترة مات يحيى بن غانية في عام 543هـ/ 1148م، واستمر ميمون حاكم غرناطة في عناده إلى عام 551هـ 1156م فنزل عن مدينة غرناطة للموحدين بعد أن حصل على الأمان من زعيم الموحدين الخليفة عبد المؤمن بن علي[54].

انتهز الإسبان ثورة أهل الأندلس على المرابطين، فاستولوا على مدينة المرية في عام 542هـ/ 1147م، وأصرت القوات الموحدية بعد سيطرتها على مدن وسط الأندلس على استرجاع هذه المدينة البحرية المهمة، فجهزت قواتها البرية وأساطيلها البحرية وحاصرت المدينة بقيادة أبي سعيد والي غرناطة الموحدي، وهو ابن الخليفة عبد المؤمن، وبعد حصار دام سبعة أشهر فتح الموحدون المدينة ودخلوها في أواخر عام 552هـ/ 1157م بعد أن فشلت جهود الممالك الإسبانية وأعوانها من القوات الأوروبية في استرجاع المدينة[55].

---

(51) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 191 ـ زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية، جـ 1، ص 319 ـ الناصري، الاستقصا، جـ 2، ص 105.

(52) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 126 (وطبعة أخرى ص 193) ـ ابن أبي دينار، المؤنس، 111ـ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 229 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 103.

(53) ابن الخطيب، أعمال، ص 255 ـ عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 319.

(54) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 235 ـ الناصري، الاستقصا، جـ 2، ص 106 ـ علام، الدولة الموحدية، ص 187.

(55) المراكشي، المعجب، ص 211 ـ زيني دحلان، الفتوحات، جـ 1، ص 320 ـ مراجع الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 115.

ب ـ علاقات الموحدين السياسية بالإمارات الأندلسية المستقلة:

1 ـ علاقة الموحدين مع ابن مردنيش أمير شرقي الأندلس:

استطاع أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي بالولاء (وهو من المولدين)[56]، بالتعاون مع إبراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك (المقطوع الأذن)، الاستقلال في منطقة شرقي الأندلس، وعزز هذا الأمر بالتعاون مع الممالك الإسبانية وبعض الدول الأوروبية، ففي عام 543هـ/ 1148م عقد معاهدة صلح مع جمهورية بيزا مدتها عشر سنوات، وكذلك مع جمهورية جنوه، وجرت الهدايا المتبادلة بينه وبين ملك انكلترا، وبسبب هذا التعاون لقبه البابا بـ(صاحب الذكر الحميد)، وعرف أيضاً باسم الملك[57].

أوجدت معاهدة تطيلة التي عقدت بين ملك قشتالة وملك أرغون عام 545هـ/ 1151م والتي اتفق الملكان فيها على تقسيم بلاد الأندلس، فكان نصيب ملك أرغون شرقي الأندلس والاستيلاء عليها يشترط أن يتولى حكم مدينتي مرسية وبلنسية بصفته تابعاً لملك قشتالة، حالة من الذعر عند ابن مردنيش الذي أسرع إلى عقد محالفات مع هذين الملكين تعهد بأن يدفع خمسين ألف مثقال ذهباً سنوياً إلى كل منهما[58].

ونتيجة لارتماء ابن مردنيش في أحضان الإسبان، ثار عليه أهل شرقي الأندلس وبخاصة أهل لورقة وبلنسية، واستطاع ابن مردنيش القضاء عليها، مما أغضب هذا الأمر الدولة الموحدية التي كانت لها علاقة بالثوار، ولهذا أرسل الخليفة عبد المؤمن رسالة إلى ابن مردنيش حول هذا الأمر[59]. وبعد ذلك أخذ ابن مردنيش يغزو بلاد الأندلس التابعة للموحدين بغية الاستيلاء عليها، ففي عام 554هـ/ 1160م سار بقواته من مرسية بالتعاون مع قوات إسبانية، فسيطر على مدينة جيان ثم واصل سيره إلى مدينة قرطبة فشدد عليها الحصار ولم تقع بيده لصمود أهلها وواليها[60].

---

(56) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 232، حاشية 1.

(57) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 109، حاشية 1 ـ مراجع الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 119.

(58) ابن الخطيب، أعمال، ص 260 ـ الإحاطة، جـ 2، ص 124 ـ A History of Medieval Spain. P:232.

(59) كنون، النبوغ المغربي، جـ 2، ص 101 ـ 103.

(60) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 116.

ثم واصل سيره إلى مدينة إشبيلية فحاصرها ثلاثة أيام، ففشل في السيطرة عليها لقوة المقاومة أيضاً[61]، وفي عام 555هـ/ 1160م بعث ابن مردنيش جيشاً بقيادة إبراهيم بن همشك للاستيلاء على قرطبة، فحاصرها ولاقت الأمرّين من هذا الحصار، وقتل واليها بسبب كمين دبر له، إلا أن أهلها أحسنوا الدفاع عنها، وبعدها سار ابن همشك إلى مدينة قرمونة فاستولى عليها بالتعاون مع أحد زعمائها المدعو عبد الله بن شراحيل[62]. وحاول ابن همشك السيطرة على إشبيلية فشدد عليها الحصار، وأنزل بها أفدح الخسائر، مما دعى واليها السيد أبا يعقوب يوسف أن يستنجد بوالده الخليفة عبد المؤمن. وكانت الخطوة الأولى التي قام بها عبد المؤمن بهذا الصدد هو المباشرة فوراً ببناء قاعدة حربية في جبل طارق عرفت باسم مدينة الفتح، انجز بناءها في شهر ذي القعدة من عام 555هـ/ 1160م وبعد الإنجاز عبر الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس واجتمع هناك بزعماء الموحدين والأندلسيين، وقبيل رجوعه أمر قواده بمواصلة غزو ابن مردنيش وقتاله[63].

فكانت أول مدينة استرجعها الموحدون من ابن مردنيش وحليفه ابن همشك هي مدين قرمونة وذلك في مطلع عام 557هـ/ 1161م[64].

عزز الموحدون قواتهم في مدن إشبيلية وقرطبة، فأصبح من العسير السيطرة عليهما من قبل قوات ابن مردنيش وحليفه، إلا أن الحليف ابن همشك سار صوب غرناطة وبالتعاون مع يهود المدينة دخلها، فتحصن الموحدون في قصبتها واستمروا في مقاومة الغزاة، وفي الوقت نفسه بعثوا صريخهم إلى الخليفة عبد المؤمن، وكذلك استنجد ابن همشك بحليفه ابن مردنيش، فسارت قوات الطرفين إلى غرناطة فكان اللقاء في مرج الرقاد (بظاهر غرناطة) فحلت الهزيمة بالموحدين وذلك في عام 557هـ. ونكل ابن همشك بأهل غرناطة وأسرى الموحدين أبشع تنكيل[65] ولما بلغت أخبار معركة مرج الرقاد الخليفة عبد المؤمن أرسل جيشاً كبيراً عبر إلى الأندلس وعهد بقيادته إلى ابنه أبي

---

(61) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 40.

(62) أبو رميلة، علاقات الموحدين، ص 115.

(63) عنان، عصر المرابطين الموحدين، ص 377 ـ 386.

(64) مراجع الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 128.

(65) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 188 ـ 193 ـ ابن الخطيب، أعمال، ص 261 ـ 263 الإحاطة، جـ 1، ص 300 ـ 301 ـ علام، الدولة الموحدية، ص 195 ـ ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 50.

يوسف يعقوب، اتجه صوب غرناطة من أجل استرجاعها. وفي الوقت نفسه سار ابن مردنيش ـ بعد أن وصلت إليه أنباء عبور هذا الجيش ـ صوب غرناطة لنجدة حليفه ابن همشك تعاونهُ قوات إسبانية، فعسكر قبالة غرناطة يفصله نهر حدرة عن حليفه. وبعد أن شحذت همم الموحدين هاجموا غرناطة في رجب من عام 557هـ/ 1162م انهزم فيها ابن همشك وقتل الكثير من قواته، فدخلت القوات الموحدية المدينة منتصرة، ولم يستطع ابن مردنيش تقديم المساعدات لحليفه، وكان يرى بأم عينيه هزيمة الحليف الذي لاحقته القوات الموحدية فأوقعت بقواته الخسائر الكبيرة[66].

عزم الموحدون على غزو بلاد ابن مردنيش والقضاء عليه، فكانت الخطوة الأولى التي اتخذها في هذا المجال: أولاً نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة، وثانياً تحصين مدينة غرناطة، وثالثاً عبر الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس في ربيع الأول من عام 558هـ/ 1163م. ولكن هذه الأمور تعثرت بوفاة الخليفة الموحدي فجأة في جمادى الآخرة من العام نفسه 558هـ، وظهر الخلاف بين أولاده حول أمر الخلافة ولم يحل هذا الخلاف حتى عام 563هـ، فاستفاد ابن مردنيش من هذه الأحوال، وسار بقواته صوب غرناطة، إلا أن القوات الموحدية تصدت له، فرجع ابن مردنيش منسحباً إلى بلاده[67].

وصلت إمدادات إضافية من المغرب إلى الأندلس، فسارت القوات الموحدية صوب بلاد ابن مردنيش في عام 560هـ/ 1165م فاتحة الحصون والقلاع الواقعة في الطريق، فوصلت إلى مشارف مدينة لورقة. فلما وصلت هذه الأخبار إلى ابن مردنيش خشي سقوط لورقة بيد الموحدين، فسار بقواته تعاونهُ فرقة من الإسبان صوب لورقة، والتي ارتد عنها الموحدون الذين ساروا صوب مرسية، فأسرع إليها ابن مردنيش، فكان اللقاء بين الطرفين في ذي الحجة من عام 560هـ/ تشرين الأول 1165م، في معركة فحص الجلاب، فانهزم ابن مردنيش وانسحب إلى مرسية، فلحقه الموحدون وشددوا عليه الحصار، ثم انسحبوا دون أن تقدم لنا الروايات تعليلاً لذلك[68].

---

(66) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 199 ـ 201 ـ علام، الدولة الموحدية، ص 196 ـ ابن عذاري، البيان الموحدي، ص ص 52 ـ 53.

(67) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 205، ص 269 ـ 270 ـ مراجع الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 136 ـ 137.

(68) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 63 ـ 65 ـ ابن صاحب الصلاة، المن، ص 272 ـ 280 ـ عنان، عصر، ص 16 ـ 17 ـ مراجع الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 140.

وفي عام 562هـ/ 1167م قام والي غرناطة الموحدي بالسيطرة على بعض حصون ابن مردنيش أمثال حصن لبسة قرب وادي أش، وحصن بسطه، كما ألحق هذا الوالي هزائم متكررة بقوات ابن مردنيش وحلفائه الإسبان[69].

بدأ الضعف والوهن يدب في إمارة ابن مردنيش، وذلك بسبب: تذمر الرعية منه والتي أثقلها بالضرائب لسد وإشباع رغبات الفرق الإسبانية التي اعتمد عليها، مما جلبت له عداوة كبار قواده، إضافة إلى سوء العلاقات بين ابن مردنيش وصهره يوسف بن هلال، وإبراهيم بن همشك، فقامت الحروب والمنازعات فيما بينهما، فكان من نتائجها انضمام إبراهيم بن همشك إلى الموحدين[70].

استمرت الحروب أكثر من سنة بين الحليفين السابقين، وإزاء اشتداد هجمات ابن مردنيش، استغاث ابن همشك بالموحدين حتى عبر بنفسه إلى عدوة المغرب يطلب العون منهم، فأعانوه لما رأوا صدق عزمه. وعبر إبراهيم بن همشك مع القوات الموحدية التي عبرت إلى الأندلس لقتال ابن مردنيش في عام 566هـ/ 1171م، والتي استقرت في قرطبة، ثم واصلت سيرها إلى بلاد ابن مردنيش، ويممت صوب مرسية، بعد أن استولت على الحصون والقلاع الواقعة في الطريق بما فيها مدينة لورقة التي استنجدت بالموحدين، وجزيرة شقر كذلك، كما خرجت طاعة المرية على ابن مردنيش واعلنت الولاء والطاعة للموحدين[71].

خلال هذا الوقت كانت القوات الموحدية محاصرة لمدينة مرسية وأذاقت ابن مردنيش الأمرّين. ولما عبر الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس في عام 566هـ/ 1171م ونزل بإشبيلية، ذهب إليه أخوه السيد أبو حفص قائد الجيوش الموحدية المحاصرة لابن مردنيش وجلب معه الأعيان والولاة الذين أعلنوا الولاء للموحدين. انتهز ابن مردنيش هذا الأمر فهاجم جزيرة شقر محاولاً استرجاعها إلا أنه فشل أمام ضربات واليها، فرجع إلى مرسية يعاني من مرضه الذي مات فيه عام 567هـ[72]. وتولى

(69) أبو رميلة، علاقات، ص 126 ـ 127 ـ عنان، عصر، ص 29 ـ 30.
(70) أبو رميلة، ص 127 ـ 131 ـ ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 83.
(71) ابن صاحب الصلاة، المن، ص 406 ـ 407.
(72) ابن صاحب الصلاة، المن، ص 407، ـ 409ـ مراجع الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 147 ـ ينظر ابن الخطيب، أعمال، ص 262 ـ الإحاطة، جـ 2، ص 127 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 268 ـ المراكشي، المعجب، ص 249 ـ عنان، عصر، ص 53.

الأمر من بعده ابنه أبو القمر هلال الذي دخل من طاعة الموحدين بعد أن رأى بأن لا جدوى للعصيان[73].

2 ـ علاقة الموحدين مع بني غانية أمراء الجزائر الشرقية:

ينتمي بنو غانية حكام الجزائر الشرقية (البليار) إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية، واشتهر منهم يحيى ومحمد أولاد علي المسوفي، أحد رجالات أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وسموا بهذا الاسم نسبة إلى أمهم غانية، وهو تقليد مرابطي معروف[74].

وتولى يحيى ومحمد أعمالاً إدارية في الأندلس، واشتهر منهما محمد بن غانية الذي بعثه أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الجزائر الشرقية لإصلاح ما فسد من أمورها على يد الوالي المرابطي وأنور بن أبي بكر اللمتوني، وذلك في عام 520هـ/ 1126م[75].

عاصر محمد بن علي المسوفي المعروف بابن غانية أفول نجم المرابطين في عدوة المغرب والأندلس، وقيام دولة الموحدين التي ورثت المرابطين في حكم بلاد العدوتين، فعزز ابن غانية حكمه في هذه الجزائر النائية واستمر ولاؤه للمرابطين ولدولة بني العباس، وأصبحت جزائره ملجأ للفارين من فلول لمتونة والمرابطين الذين لقوا الرعاية والأمان في ظل حكم هذه الأسرة، واستمر محمد بن غانية يحكم الجزائر الشرقية إلى عام 550هـ/ 1155م[76].

خلف محمد بن غانية أربعة أولاد، وهم عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة، فبعد منازعات بين هؤلاء الأخوة استطاع إسحاق أن يحكم هذه الجزر، واستمر على سياسة أبيه في استقبال فلول لمتونة الوافدين عليه[77]. واعتمد إسحاق بن غانية على أسطول قوي، حسبت له الممالك الإسبانية وجمهوريات جنوه وبيزا والبندقية ألف حساب ودفع ملوكها الأموال الطائلة لهذا الأمير وعقدوا معه المعاهدات لضمان تحرك أساطيلهم

---

(73) أبو رميلة، علاقات، ص 139 ـ 142 ـ ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 95.

(74) العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 331.

(75) المراكشي، المعجب، ص 268 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 242.

(76) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 172 ـ عنان، دولة الإسلام، عصر المرابطين والموحدين، ص 145.

(77) أبو رميلة، علاقات، ص 145 ـ 146.

التجارية بحرية في حوض البحر المتوسط، وذلك في عام 572هـ/ 1177م[78].

كان بنو غانية في الجزائر الشرقية يشعرون بالأمان خلال قتال ابن مردنيش للموحدين، ولكن بعد وفاة ابن مردنيش وسيطرة الموحدين على شرقي الأندلس عام 567هـ/ 1172م، شعر إسحاق بن غانية بالخطر فأخذ في مصانعة الموحدين والتودد إليهم بإرسال الهدايا الثمينة إلى حكامهم[79].

ثم بعث الموحدون كتبهم إلى إسحاق بن غانية في عام 578هـ/ 1183م يدعونه فيها إلى الدخول في طاعتهم، فامتنع عن ذلك بعد مشاورات طويلة مع اتباعه. ولما استشهد في عام 579هـ/ 1184م خلفه ابنه علي في الحكم، الذي استغل الظروف السيئة التي مرت بها دولة الموحدين والمتمثلة في فشل قواتهم أمام مدينة شنترين ومقتل خليفتهم أبي يعقوب يوسف (558 ـ 580هـ) في عام 580هـ/ 1184م، ومبايعة الأمير الجديد أبي يوسف يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور (580 ـ 595هـ)، وانشقاق بني عبد المؤمن على أنفسهم وامتناع بعضهم عن البيعة للأمير الجديد، فشجعت هذه الظروف علي بن إسحاق بن غانية على التمرد على دولة الموحدين، بل وأكثر من ذلك شحن قواته البحرية وقرر مهاجمة مدينة بجاية قاعدة الحكم في المغرب الأوسط[80].

هناك جملة أسباب دفعت علي بن إسحاق إلى مهاجمة بجاية: منها معرفة أهل الجزائر الشرقية بأحوال هذه المدينة وأهلها بسبب التبادل بينهما[81]، ومنها الدعوات الكثيرة التي تلقاها أمير الجزائر الشرقية من أعيان هذه المدينة يدعونه فيها إلى القدوم[82]، ومنها الخطط التي رسمها علي بن إسحاق والتي أملته بالتعاون مع خصوم الموحدين في المنطقة وهم: طوائف العرب من بني هلال، ورياح الذين قضى الموحدون على ثورتهم عام 576هـ/ 1181م، ثم الاعتماد على معونة بني حماد أصحاب بجاية الذين قضى الموحدون على ملكهم، بالإضافة إلى الاعتماد على بني مطروح في

---

(78) المراكشي، المعجب، ص 269 ـ عنان، دولة الإسلام، عصر المرابطين والموحدين، ص 146 ـ 147.

(79) أبو رميلة، علاقات، ص 147.

(80) ينظر، الحميري، الروض المعطار، ص 190 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 243 ـ مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 177.

(81) الغبريني، عنوان الدراية، ص 24.

(82) المراكشي، المعجب، ص ـ 270.

طرابلس، وعلى قراقوش التقوي مملوك صلاح الدين الأيوبي[83].

سار الأمير علي بن إسحاق بالأسطول الذي يقوده رشيد الرومي، ونزل بجاية فسيطر عليها بسهولة لخلوها من وسائل الدفاع، وذلك في عام 580هـ ـ 581هـ/ 1184 ـ 1185م[84].

تصدى والي بجاية الموحدي (أبو الربيع سليمان) للقوات الغازية، فانهزم أمامها إلى تلمسان فتحصن بها تحسباً للظروف[85].

وسار علي بن إسحاق بقواته فاتحاً المدن المهمة أمثال: مليانة ومازونة وأشير والقلعة، وامتنعت عليه مدينة قسنطينة. وقطع علي بن غانية الخطبة للموحدين في البلاد التي استولى عليها، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي الناصر لدين الله (575 ـ 622هـ)[86].

ولما علم الخليفة الموحدي المنصور (580 ـ 595هـ) جهز جيشاً برياً قوياً وعهد قيادته إلى ابن عمه السيد أبي زيد بن أبي حفص، وجهز الأسطول البحري الذي خرج من سبتة معاوناً الجيش البري وفق خطة حربية واحدة[87].

استطاعت الجيوش الموحدية المشتركة استرجاع المدن التي استولى عليها ابن غانية تباعاً، ودمرت الأسطول البحري وأسرت قائده رشيداً الرومي وذلك في عام 581هـ/ 1185م، فهرب علي بن إسحاق وأخوه يحيى وأعوانهما إلى جوف الصحراء فعجز الموحدون عن اللحاق بهم[88].

وصل بنو غانية إلى منطقة الواحات ببلاد الجريد وكسبوا ود قبائل العرب من بني رياح وبني جشم بالعطايا والهبات، وفي هذه الأثناء بلغ علي بن إسحاق بن غانية نزول شرف الدين قراقوش بقواته الغز بلدة الحامة في جهات طرابلس، فراسله من أجل التعاون بينهما لرفع راية بني العباس هناك، واتفقا على تقسيم البلاد التي يستوليان عليها سوية، فالبلاد الواقعة غربي بونة أي المغربين الأوسط والأقصى من حق علي بن

---

(83) عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 148 ـ 149 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 150.

(84) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 243 ـ مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 177 ـ 178.

(85) ابن الأثير، الكامل، جـ 11، ص 206.

(86) الغبريني، عنوان الدراية، ص 15، ص 24 ـ ابن خلدون، العبر جـ 6، ص 191، ص 243 ـ المراكشي، المعجب، ص 272 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 152 ـ 154.

(87) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 181.

(88) أبو رميلة، علاقات، ص 155.

إسحاق بن غانية، وأما البلاد الواقعة شرقي بونة فمن حق قراقوش، وكان هذا الاتفاق في عام 581هـ/ 1185م[89].

وبعد هذا الاتفاق حاول علي بن إسحاق السيطرة على البلاد التي أصبحت من ضمن حقه، فهاجم مدينة أشير واستولى عليها، إلا أن القوات الموحدية استرجعت المدينة بعد مقتل قائد الجيش المهاجم[90]. ثم سار علي بن غانية إلى مدينة توزر فاستولى عليها بعد عناء وذلك في عام 582هـ/ 1186م[91]، ثم قصد جزيرة باشر وهي بالقرب من تونس فاستولى عليها، ثم حاصر مدينة تونس، ولكن يبدو أن علي بن غانية قد فشل في الاستيلاء عليها، فقصد في عام 582هـ مدينة قفصة فحاصرها واستولى عليها بمعاونة أهلها[92].

وفي الوقت نفسه استولى قراقوش بمعاونة بعض العرب من بني ذياب على جبل نفوسة ثم سار يساعدهُ مسعود بن زمام شيخ بني رياح وسيطر على طرابلس وما جاورها[93].

وبعد ذلك انضم قراقوش بقواته إلى قوات علي بن إسحاق بن غانية فقصدوا بلاد أفريقية (دولة تونس) فملكوها جميعاً ما عدا مدينتي تونس والمهدية لقوة تحصيناتهما، وبعدها تلقب علي بن غانية بلقب أمير المسلمين وأقام الدعوة للخلافة العباسية في هذه البلاد[94]، واتبع ذلك سفارة ابنه وكاتبه عبد البر إلى بغداد فلقيا الترحاب من الخليفة الناصر الذي طلب بدوره من صلاح الدين الأيوبي أن يناصر بني غانية في أعمالهم[95].

رأى الخليفة المنصور الموحدي أن أمر بني غانية وحليفهم قراقوش بلغ درجة كبيرة من الخطورة، فسار بقواته في عام 582هـ/ 1186م صوب تونس، وبعد أن استراح فيها بدأ بإرسال قواته لمقاتلة بني غانية المرابطين قرب مدينة قفصة، فأوقع بنو غانية هزيمة منكرة بالقوات الموحدية التي رجعت فلولها مدحورة إلى تونس، وذلك في عام 583هـ/

---

(89) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 191، ص 243 _ A.Bell, Les Benou Chanya, P: 56 - 57.

(90) عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص 154.

(91) أبو رميلة، علاقات، ص 157.

(92) ابن الأثير، الكامل، جـ 11، ص 212.

(93) أبو رميلة، علاقات، ص 157.

(94) ابن الأثير، الكامل، جـ 11، ص 211 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 192.

(95) سعد زغلول «العلاقة بين صلاح الدين والمنصور الموحدي» مجلة كلية آداب الإسكندرية، جـ 6 ـ 7، لسنة 1952 ـ 1953، ص 95 ـ 96.

1187م[96]، وعرفت هذه المعركة بمعركة سهل عمرة[97].

كان لهزيمة سهل عمرة وقع مؤثر في نفس الخليفة المنصور الموحدي الذي سار بنفسه من تونس في رجب من عام 583هـ/ 1187م واتجه جنوباً صوب القيروان، ومن هناك بعث كتاباً إلى ابن غانية وحلفائه ينذرهم بوجوب الدخول في الطاعة، فلم يكتف علي بن غانية بعدم رد الجواب بل اعتقل أيضاً سفير الخليفة الموحدي[98].

بعدها سار المنصور بقواته صوب الحمة فنشبت المعركة بين الطرفين في شعبان من عام 583هـ/ 1187م وانتهت هذه المعركة بهزيمة ابن غانية وحليفه قراقوش، حيث استطاع خليفة الموحدين دخول قابس فسيطر على اتباع قراقوش وماله من ذخائر ومتاع، فأرسلها جميعاً إلى مراكش[99]. ثم سار الخليفة المنصور صوب مدينة توزر ففتحها ثم دخل مدينة قفصة وأرجعهما إلى الطاعة، ثم رجع إلى مدينة تونس[100].

نتيجة انتصار خليفة الموحدين هذا، خذل قراقوش وابن زيان زعيم الغز حليفهم ابن غانية، فراسلوا خليفة الموحدين طالبين العفو منه والدخول في طاعته. وبعدها سار المنصور لضرب قبائل العرب التي تعاونت مع ابن غانية فألحق بهم الهزائم وهجّر زعماء الخلاف وأتباعهم إلى بلاد المغرب الأقصى، وبعد أن رتب أمور تونس غادرها إلى مراكش في عام 584هـ/ 1188م[101]. وفي العام نفسه 584هـ/ 1188م مات علي بن إسحاق بن غانية بعد أن فشل في الاستيلاء على بلاد الجريد[102]. وتولى الأمر أخوه يحيى بن إسحاق بن غانية الذي بدأ ولايته بالحرب مع قراقوش، الذي أعلن العصيان على الموحدين أولاً، ومن ثم سيطر على بعض المناطق التي كانت تحت سيطرة علي بن إسحاق بن غانية ثانياً[103].

---

(96) مراجع الغناي، المرجع السابق، ص 218 ـ عنان، المرجع السابق، ص 161.

(97) ابن الأثير، الكامل، جـ 11، ص 212 ـ المراكشي، المعجب، ص 273 ـ Bell, op. Cit, P: 77 - 78.

(98) أبو رميلة، علاقات، ص 161.

(99) محمد المرزوقي، قابس، ص 183 -.Bell, op. Cit, P: 82 .

(100) المراكشي، المعجب، ص 273 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 244 ـ الناصري، الاستقصا، جـ 2، ص 144 ـ ابن الأثير، الكامل، جـ 11، ص 212.

(101) أبو رميلة، علاقات، ص 163 ـ جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، جـ 2، ص 149.

(102) المراكشي، المعجب، ص 273 ـ الحميري، الروض المعطار، ص 191.

(103) محمد المرزوقي، قابس، ص 189.

تصدى يحيى بن غانية لقراقوش فهزمه من موضع محسن بالقرب من طرابلس، ثم سار ابن غانية صوب طرابلس ودخلها عنوة، بعد أن وصلته امدادات عسكرية من أخيه عبد الله حاكم ميورقة، وأسر حاكم طرابلس ياقوت مولى قراقوش الذي بقي أسيراً في ميورقة إلى أن دخلها الموحدون(104)، ثم سار ابن غانية صوب قابس وشدد الحصار عليها فدخلها عنوة في عام 591هـ/ 1195م(105).

خلال عصر الخليفة الموحدي أبي عبد الله محمد الناصر (595 ـ 610هـ) تجددت الحروب بين الموحدين وابن غانية في إفريقية خلال 595 ـ 597هـ بعد أن سيطر ابن غانية على أكثر بلاد افريقية، حيث سار السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص بقواته لملاقاة ابن غانية فأصيب بالهزائم المنكرة، وأجبرت فلوله على الفرار، وكان ذلك بالقرب من مدينة قسنطينة(106).

وفي الوقت نفسه تنافس يحيى بن إسحاق بن غانية وأحد قادة الموحدين المدعو ابن عبد الكريم على مدينة المهدية، فاستطاع ابن غانية السيطرة عليها بعد مفاوضات ومناورات طويلة ذهب ابن عبد الكريم وولده ضحية هذا الأمر(107). واستكمل ابن غانية سيطرته على افريقية، فسيطر على مدينة باجة ثم دخلت مدينة بسكرة وبونة في طاعته(108). ثم سار ابن غانية بعد ذلك صوب مدينة تونس في عام 599هـ/ 1203م ودخلها بعد حصار طويل، وقبض على السيد أبي زيد وأعوانه(109)، ثم سار صوب جبل نفوسة فأرجعه إلى الطاعة بعد إعلان أهله العصيان(110)، وبذلك أصبح ابن غانية سيد افريقية بلا منازع وخطب فيها لبني العباس في بغداد(111).

وخلال حروب بني غانية في بلاد افريقية حصلت أمور في الجزائر الشرقية غيرت موازين القوى فيها، ففي عام 581هـ/ 1186م استطاع قائد الخليفة الموحدي المنصور علي بن الربرتير الذي كان معتقلاً في جزيرة ميورقة (الخليفة الموحدي أرسل سفيره علي

---

(104) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 194 ـ عنان، المرجع السابق، ص 195.

(105) أيضاً، جـ 6، ص 194 ـ محمد المرزوقي، قابس، ص 192.

(106) ينظر، المراكشي، المعجب، ص 314 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 246.

(107) الوزير السراج، الحلل السندسية، ص 255. Bell, op. Cit, P 111.

(108) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 195 ـ عنان، المرجع السابق، ص 255.

(109) ابن أبي دينار، المؤنس، ص 115 ـ الوزير السراج، المرجع السابق، ص 256.

(110) أبو رميلة، علاقات، ص 172.

(111) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 248.

هذا إلى الجزائر الشرقية يدعو أهلها إلى الطاعة. فسجنه بنو غانية هناك) أن ينتهز غياب معظم أمراء بني غانية في أفريقية فيتصل ببعض الجنود المسيحيين المرتزقة الذين كانوا في خدمة بني غانية والراغبين في العودة إلى بلادهم، فوعدهم بتحقيق ذلك، فقام معهم بانقلاب ضد حكم بني غانية، وانضم إليهم حاكم الجزيرة السابق محمد بن إسحاق بن غانية الذي كان أخوته قد خلعوه واعتقلوه بالجزيرة، فأقامه الثوار حاكماً على الجزيرة باسم الموحدين ثم عاد علي بن الربرتير إلى مراكش بعد أن سرح الجند المسيحيين وأعادهم إلى بلادهم حسب الوعد[112]. على أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما علم بنو غانية في افريقيا بأخبار هذا الإنقلاب فسارع الأمير عبد الله بن غانية بالرجوع إلى الجزيرة عن طريق صقلية، واستطاع عبد الله دخول الجزيرة ففر أخوه محمد إلى الأندلس حيث ولاه الموحدون حكم مدينة دانية[113]. وفي الوقت نفسه حاول الخليفة المنصور إنقاذ جزيرة ميورقة. فأرسل الأسطول إليها إلا أن زمام الأمور كان قد أفلت من يده، وبخاصة وأن أسطول ملك أراجون الإسباني بيدرو الثاني تدخل لصالح أهل ميورقة[114].

إلا أن جزيرتي يابسة ومنورقة وقعتا تحت سيطرة الموحدين في عام 583هـ/ 1187م وبقيت كبرى الجزر ميورقة خارجة عن طاعة الموحدين[115]، وحاول عبد الله بن غانية استرجاع هاتين الجزيرتين فلم يفلح[116].

ولما استفحل أمر بني غانية في افريقية، أدركت الدولة الموحدية أن القضاء عليهم في إفريقية، يجب أن يسبقه القضاء على مركز قوتهم في جزيرة ميورقة، لأن هذه الجزيرة كانت بمثابة المورد الذي يغذي بني غانية في إفريقية بالرجال والعتاد، لذلك رأى الخليفة الموحدي الناصر لدين الله (595 ـ 610هـ) أن استقرار نفوذ الموحدين في إفريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزيرة ميورقة قاعدة بني غانية، ولهذا صمم على السيطرة عليها[117].

---

(112) مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص 215 ـ عنان، المرجع السابق، ص 157 ـ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 360.
(113) أبو رميلة، علاقات، ص 175.
(114) العبادي، المرجع السابق، ص 361.
(115) عنان، المرجع السابق، ص 158.
(116) أبو رميلة، علاقات، ص 177.
(117) العبادي، المرجع السابق، ص 367 ـ مراجع الغناي، المرجع نفسه، ص 228.

ففي عام 599هـ/ 1203م خرجت الأساطيل الموحدية من ثغر دانية فنزلت جزيرة يابسة ومنها هاجمت جزيرة ميورقة، فدخلتها بعد عناء كبير، وقتل عبد الله بن غانية على يد رجل من الأكراد يعرف باسم عمر المقدم[118]، وبذلك دخلت الجزائر الشرقية في طاعة الموحدين[119]. ثم بعد ذلك تفرغ الخليفة الموحدي لقتال بني غانية في بلاد إفريقية فسيّر إليهم الجيوش في عام 601هـ/ 1204م والتي قادها بنفسه ويعاونها الأسطول البحري، وخلال الأعوام من 601هـ إلى عام 631هـ (وهي السنة التي مات فيها يحيى بن إسحاق بن غانية) بدأت رياح المعارك تهب في غير صالح بني غانية في بلاد إفريقية، فاستطاعت الجيوش الموحدية استرجاع مدن إفريقية تباعاً من أيدي بني غانية بعد أن ألحقت بهم الهزائم المتكررة[120].

3 ـ علاقة الموحدين مع محمد بن هود بالأندلس:

كان محمد بن هود أول من ثار على الموحدين في الأندلس، فهو سليل أسرة بني هود أصحاب مملكة سرقسطة. سيطر المرابطون عليها عام 503هـ/ 1110م وانتزعوها من عماد الدولة بن أبي جعفر بن هود، ثم انتهز ابنه سيف الدولة فرصة ثورة الأندلسيين على المرابطين سنة 539هـ/ 1145م فقام بثورة على المرابطين، كما ساعد الثوار الآخرين حتى أصبح أميراً على شرقي الأندلس، ثم استشهد عام 540هـ/ 1146 في موقعه البسيط ضد الإسبان.

لم تشترك أسرة بني هود بعد هذا التاريخ في الأعمال السياسية أو العسكرية خلال فترة طويلة من عصر الموحدين. فلم يشتهر منهم أحد إلا هذا (محمد بن هود) الذي قام بالثورة على الموحدين سنة 625هـ/ 1228، فقد اشتهر منذ عام 614هـ/ 1217م بعد استرجاعه حصن شنفيرة من الإسبان في شرقي الأندلس[121].

عزز محمد بن هود حركته ببعض الخرافات التي سمعها من البعض لتبرير الثورة ضد الموحدين[122]، وانضم إليه طوائف من الجند وبعض عصابات اللصوص، وبدأ

---

(118) المراكشي، المعجب، ص 315.

(119) أبو رميلة، علاقات، ص 179 ـ 180.

(120) ينظر: ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 197 ـ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 14 ـ 19 ـ الناصري، الاستقصا، جـ 2، ص 204 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 181 ـ 192 ـ Bell, Op. Cit, P: 172.

(121) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 248 ـ 252 ـ الحميري، الروض المعطار، ص 116.

(122) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 279.

حركته في رجب عام 625هـ/ 1228م متخذاً من حصن الصخور ـ الصخيرات ـ مقراً له، ويقع هذا الحصن على نهر شقورة بالقرب من مرسية، ومنى نفسه واتباعه بأنه سيمتلك كل الأندلس، وأنه سيعيد الدعوة للخلافة العباسية(123).

بدأ محمد بن هود أول أعماله بالسيطرة على مدينة مرسية وقبض على واليها الموحدي، فخطب محمد بن هود (سمى نفسه المتوكل على الله) لنفسه وللخليفة العباسي في بغداد المستنصر بالله (623 ـ 640)(124)، رافعاً الأعلام السود شعار العباسيين(125).

أدرك الموحدون خطورة هذا الأمر فسار إليه والي بلنسية ولكن حلت به الهزيمة فعاد إلى شاطبة، ومنها بعث صريخه إلى خليفة الموحدين المأمون (621 ـ 629هـ) الموجود في إشبيلية يطلب منه العون. سار المأمون بقواته صوب مرسية، وألحق الهزيمة بابن هود، ثم رجع المأمون إلى إشبيلية في أوائل عام 626هـ/ 1229م، وعجل العبور إلى مراكش لاضطراب أمرها، وترك أمر ابن هود يزداد قوة(126).

أعلنت مدن شرقي الأندلس ولاءها لابن هود، كما أعلنت مدينة إشبيلية طاعتها له، وبعدها سار محمد بن هود وراء الخليفة المأمون، فوجده في جزيرة طريف يهم بالعبور إلى المغرب، فقامت بينهما معركة في رمضان من عام 626هـ/ 1229م عرفت بموقعة طريف، انهزم فيها المأمون ونجا بعبوره إلى المغرب فاستولى ابن هود على جبل الفتح والجزيرة الخضراء(127).

نتيجة هذا الأمر دخلت معظم قواعد الأندلس في طاعة ابن هود، وألحق أهل الأندلس الأذى والضرر بجند الموحدين، ولم يبق فيها خارج طاعته غير مدينتي بلنسية ولبلة(128). وفي الوقت نفسه أعلنت بعض المدن في عدوة المغرب ولاءها لمحمد بن هود أمثال مدينة سبتة ومدينة رباط الفتح، كما أن رسائل طوائف من عرب الخلط في

---

(123) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 2، ص 129ـ الحميري، الروض المعطار، ص 118.

(124) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 309 ـ ينظر، ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 269.

(125) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص 271.

(126) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 2، ص 130 ـ الناصري، الاستقصا، جـ 2 ص 208 ـ عنان، المرجع السابق، ص 392 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 196.

(127) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 303 (حاشية رقم 1) ـ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 280 ـ Scott, Moorish Empire Vol, 2, P: 348.

(128) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 296 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 200.

المغرب ومراكش تعلن ولاءها له، وذلك من عام 629هـ/ 1232م في بداية عهد الخليفة الرشيد الموحدي (629 ـ 640هـ)[129].

وعزز محمد بن هود هذا الأمر بالتقليد العباسي لشرعية حكمه، فوصله في عام 629هـ أو من عام 631هـ/ 1234م كتاب الخليفة العباسي المستنصر يحمله إلى الأندلس حسن الكردي الملقب بالكمال فقرأت رسالة الخليفة على الناس في غرناطة حيث كان محمد بن هود موجوداً[130].

عزز هذا الكتاب أمر ابن هود في الأندلس حتى أن المتمردين عليه رجعوا إلى طاعته بعد وصول هذه الرسالة العباسية، فقد رجع إلى طاعته محمد بن يوسف بن نصر الذي ثار على ابن هود عام 629هـ/ 1232م واستقل في مدينة جيان ودعا للأمير أبي زكريا الحفصي أمير إفريقية[131].

في بداية أمر المتوكل محمد بن هود قام بصد هجمات الممالك الإسبانية على قواعد الأندلس، إلا أنه عندما انهزم عام 627هـ/ 1230م أمام قوات الفونسو التاسع ملك ليون، تكالبت عليه بقية الممالك الإسبانية، فرأى المتوكل بن هود بأن لا قِبل له في مجاهدة الإسبان فقرر عقد معاهدات الصلح مع ملوك ليون وقشتالة[132].

ففي سنة 632هـ/ 1235م عقد الصلح مع ملك قشتالة مقابل أموال طائلة يدفعها ابن هود، إلا أن هذا الصلح لم يلزم ملك قشتالة فاستولى في العام التالي 633هـ/ 1236م على مدينة قرطبة ولم يستطع ابن هود إنقاذها[133].

توفي محمد بن هود عام 635هـ/ 1237م، فخلفه في الحكم ابنه الواثق بالله محمد بن هود الذي خلع طاعة العباسيين وخطب للحفصيين بأفريقية[134].

---

(129) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 279 ـ 280 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 254 ـ 255ـ الناصري، الاستقصا، جـ 2، ص 219.

(130) عنان، المرجع السابق، ص 411 ـ 412.

(131) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 170.

(132) أبو رميلة، علاقات، ص 205.

(133) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 183 .Scott, op. Cit, 2, 360

(134) أبو رميلة، علاقات، ص 206.

4 ـ علاقة الموحدين بأبي جميل زيان:

من سلالة يوسف بن سعد بن مردنيش أمير شرقي الأندلس في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين. وقد استخدم الموحدون ابناء آل مردنيش في حكم الولايات وقيادة الأساطيل بعد سيطرتهم على الأندلس[135].

كان يحكم بلنسية في أواسط عام 620هـ/ 1224م أمير موحدي هو أبو زيد عبد الرحمٰن من سلالة عبد المؤمن، وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة إذ ذاك يعتبر بلنسية جزءاً من كورة طليطلة ومن ثم فهي من حصة مملكة قشتالة. ولهذا فقد تصدى للهجوم عليها، فأحس أبو زيد بضعفه أمام ملك قشتالة، فدخل في طاعته، وفي الوقت نفسه كانت لخايمة الأول ملك أرغون الأطماع نفسها، فخاف منه أبو زيد واتفق معه على أن يقدم له خمس خراج بلنسية ومرسية كجزية سنوية. فكان هذا الأمر من أهم أسباب قيام محمد بن يوسف بن هود في مرسية، وثار على أبي زيد في بلنسية أبو جميل زيان وطرده منها[136].

سار أبو جميل زيان بقواته فاستولى على مدينة دانية، وكذلك سيطر على جنجالة في عام 626هـ/ 1229م، واعترف بطاعته أبناء عمومته في جزيرة شقر وشاطبة، لكنهما ما لبثا أن خلعا طاعة ابن عمهما، وبايعا محمد بن هود[137]. ومعنى ذلك فقد استفحل الخلاف بين محمد بن هود وبين أبي جميل زيان[138]. لجأ السيد أبو زيد الموحدي إلى ملك أرغون الإسباني يستمد منه العون لاسترداد مدينتي بلنسية ومرسية، فوافق الملك الإسباني على ذلك لقاء غلات كثيرة يقدمها أبو زيد له. سار أبو زيد بالقوات الإسبانية صوب بلنسية ومرسية إلا أن الظروف لم تكن مواتية له، فرجع إلى أرغون وشرح الأمر لحليفه الملك الإسباني وطلب أن يكون تابعاً له، فأعطاه الملك الإسباني بعض الحصون، وأشارت بعض الروايات أن السيد أبا زيد أعتنق المسيحية هناك[139].

وخلال السنوات من عام 630هـ ـ 631هـ/ 1233م إلى عام 636هـ/ 1238م شدد

---

(135) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 272.

(136) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 304 (حاشية) ـ أبو رميلة، علاقات، ص 207 ـ 209.

(137) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 280.

(138) عنان، المرجع السابق، ص 395.

(139) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 305، جـ 1، ص ـ 3 ـ 31ـ ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 167 ـ عنان، المرجع السابق، ص 398.

ملك أرغون خايمة الأول الحصار على مدينة بلنسية، فسيطر أولاً على أهم حصونها، ثم سار صوب بلنسية تساعده قوات أوروبية، وقد صمد أبو جميل زيان طيلة الوقت لصد هذا الهجوم الإسباني غير أنه لم يفلح في النهاية، كما لم تفلح القوات الحفصية القادمة من تونس بحراً أن تقدم له المساعدات، فسقطت بلنسية بيد ملك أرغون عام 636هـ وترك أبو جميل زيان المدينة ورحل إلى جزيرة شقر واتخذها مركزاً لحكمه، وبعدها قطع الخطبة للعباسيين وخطب للحفصيين في إفريقية(140).

إلا أن أبا جميل زيان لم يمكث طويلاً في شقر حيث أخرجه منها أحد قواد ملك أرغون الإسباني، فسار أبو جميل زيان إلى مدينة دانية فاتخذها مقراً لحكمه، وفي عام 636هـ/ 1239م سار أبو جميل زيان إلى مرسية وسيطر عليها وحكمها باسم الحفصيين أمراء إفريقية(141).

قلد الحفصيون الأمير زيان ولاية شرقي الأندلس، إلا أنه لم يتمتع طويلاً بهذه الولاية، لأن الواثق بالله محمد بن هود خلعه عنها في أواخر عام 637هـ/ 1240م وأعلن ولاءه للحفصيين(142).

وفي الوقت نفسه لم يستطع ابن هود الصمود أمام هجمات ملك قشتالة الفونسو بن فرناندو الثالث، الذي يطمع بالسيطرة على مدينة مرسية، فأعلن ابن هود تبعيته لهذا الملك الإسباني واعترف بأنه يحكم مرسية بصفته تابعاً لملك قشتالة(143).

5 ـ علاقة الموحدين بابن نصر:

هو محمد بن يوسف بن الأحمر الأنصاري يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، اشتهرت أسرته بقيادة الجند في ناحية أرجونة من أعمال ولاية جيان(144).

ونظراً لكثرة هجمات الممالك الإسبانية على قواعد المسلمين أولاً، ولعجز محمد بن هود في صد هذا العدوان، تطلع السكان إلى قيادة محمد بن يوسف بن الأحمر في حصن أرجونة واعتبروه المنقذ والقائد المنتظر الذي سيخلص البلاد من خطر

---

(140) ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 285 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 211 ـ 212.

(141) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 310 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 170، جـ 6، ص 285 ـ عنان، المرجع السابق، ص 457.

(142) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 285.

(143) Altamira, A History of Spain, P: 173.

(144) الحميري، الروض المعطار، ص 12 ـ المقري، أزهار الرياض، جـ 1، ص 167.

الإسبان[145].

فأعلن ابن نصر ثورته في عام 629هـ/ 1232م في حصن أرجونة، فدخلت في طاعته وادي أش وبسطة وشريش وجيان وقرطبة وقرمونة. وتسمى ابن نصر على ذلك بأمير المسلمين وخطب للخلافة العباسية منافساً في ذلك لابن هود[146].

أدرك ابن هود مدى خطورة قيام ابن نصر ودخول بعض البلاد في طاعته، فقد اعتبره ابن هود خارجاً عنه من ناحية، ومزاحماً له في حكم الأندلس من ناحية أخرى. فقامت بينهما الحروب وحلت الهزيمة بابن هود ثلاث مرات آخرها في عام 633هـ أو عام 634هـ[147].

بدأت دولة ابن نصر بالاتساع على أثر وفاة ابن هود في عام 635هـ/ 1238م، فأول المدن المهمة التي دخلت في طاعته مدينة غرناطة في هذا العام نفسه[148].

وفي العام نفسه سيطر ابن نصر على مدينة المرية، وفي عام 636هـ/ 1239م أعلنت مدينة مالقة الولاء والطاعة لابن نصر[149].

في عام 637هـ/ 1240م قطع ابن نصر الخطبة للعباسيين، وخطب للموحدين في مراكش، على عهد الخليفة الموحدي الرشيد (629 ـ 640هـ)، ولما توفي الرشيد عام 640هـ/ 1243م قطع ابن نصر الخطبة للموحدين، وخطب للحفصيين في إفريقية[150]. واستمر ابن نصر يدعو للحفصيين حتى عام 647هـ/ 1249م، فقطعها عنهم وهي سنة وفاة الأمير الحفصي أبي زكريا، وتسمى ابن نصر بعدها بأمير المسلمين[151].

لم يستطع ابن نصر الوقوف في وجه الإسبان أو رد غزواتهم المتواصلة على

---

(145) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 278 ـ المقري، نفح الطيب، جـ 2، ص 97، ابن خلدون، العبر، جـ 7، ص 190.

(146) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 182 ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 2، ص 94، 95ـ ينظر، ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 279.

(147) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 279.

(148) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 2، ص 98 ـ 99.

(149) أبو رميلة، علاقات، ص 216.

(150) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 2، ص 95 ـ 97 ـ عنان، المرجع السابق، ص 432.

(151) ابن خلدون، العبر، جـ 7، ص 190 ـ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 36 ـ الإحاطة، جـ 2، ص 99.

الأندلس، فعقد الصلح مع ملك قشتالة فرناندو الثالث في عام 643هـ/ 1246م، وجاء فيه: أن يتنازل ابن نصر لملك قشتالة عن مدينة جيان وأحوازها، وأن يعترف ابن نصر بالولاء والطاعة لملك قشتالة وأن يدفع له مائة وخمسين الف دينار، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي بصفته من الأمراء التابعين للملك الإسباني[152].

(152) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 430 ـ 434 ـ عنان، المرجع السابق ص 433ـ Altamira, op. Cit, P: 173.

جهاد الموحدين للممالك الإسبانية

أشهر الممالك الإسبانية المعاصرة لدولة الموحدين في الأندلس هي:

1 ـ مملكة قشتالة، وأشهر ملوكها حتى قيام مملكة غرناطة.

1 ـ السليطين (ألفونسو السابع) ابن الكونت ريموند البرجوني حكم قشتالة وليون تحت إشراف أمه أوراكة ابنة ألفونسو السادس 520 ـ 552هـ/ 1126 ـ 1157م.

وبعد عصره انقسمت مملكة قشتالة وليون فكان لكل منها حكم مستقل:

أ ـ قشتالة، وأشهر ملوكها بعد السليطين:

1 ـ شانجة الثالث 552 ـ 553هـ/ 1157 ـ 1158م.

2 ـ ألفونسو الثامن (النبيل) 553 ـ 611هـ/ 1158 ـ 1214م.

3 ـ فراندة الثالث 611 ـ 650هـ/ 1214 ـ 1252م حكم قشتالة وأضيفت إليه ليون كذلك.

4 ـ ألفونسو العاشر (العالم) 650 ـ 681هـ/ 1252 ـ 1282م.

ب ـ ليون، وأشهر ملوكها بعد السليطين:

1 ـ فراندة الثاني (الملقب الببوج) 552 ـ 584هـ/ 1157 ـ 1188م.

2 ـ ألفونسو التاسع بن الببوج 584 ـ 628هـ/ 1188 ـ 1230م.

ثم دخلت مملكة ليون تحت سيطرة مملكة قشتالة كما هو موضح أعلاه.

2 ـ مملكة البرتغال:

1 ـ ألفونسو بن الرنك 553 ـ 581هـ/ 1158 ـ 1185م.

2 ـ شانجة الأول 581 ـ 608هـ/ 1185 ـ 1211م.

3 ـ ألفونسو الثاني 608 ـ 620هـ/ 1211 ـ 1223م.

وجاء بعده شانجة الثاني وألفونسو الثالث.

3 ـ مملكة أرغون وبرشلونة:

بعد أن اعتزل ردمير الراهب الحكم عام 531هـ/ 1137م انتقل حكم أرغون إلى رامون برنجي الرابع ملك برشلونة الإسباني 525 ـ 557هـ/ 1162م كما بينا أعلاه ويأتي بعده:

1 ـ ألفونسو الثاني 557 ـ 593هـ/ 1162 ـ 1196م.

2 ـ بطرة الثاني (الكاثوليكي) 593 ـ 610هـ/ 1196 ـ 1213م.

3 ـ جايمش الأول (الغازي) 610 ـ 675هـ/ 1213 ـ 1276م.

جهاد الوحدين للممالك الإسبانية

ورث الموحدون دولة المرابطين في مجاهدة الممالك الإسبانية هذه، وكان أول عمل قام به عبد المؤمن بن علي (المتوفى عام 558هـ/ 1163م) لهذا الغرض هو بناء مدينة الفتح على سفح جبل طارق والتي كمل بناؤها في عام 555هـ/ 1160م لكي تكون معسكراً موحدياً في الأندلس تنطلق منه الجيوش لمجاهدة الإسبان[153].

وبعد أن افتتح عبد المؤمن هذه المدينة رجع إلى المغرب بعد أن وفر حامية قوية من الموحدين والأندلسيين، وجعل غرناطة مركزاً دفاعياً قوياً، كما نقلت العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة سنة 557هـ. ثم بدأ عبد المؤمن يجهز الجيوش لرد عدوان الممالك الإسبانية، وسار بها من مراكش إلى مدينة الرباط (رباط الفتح)، ولكن عبد المؤمن مرض ومات في عام 558هـ كما ذكرنا، وتولى الأمر من بعده أبو يعقوب يوسف (558 ـ 580هـ) الذي أمر هذه الجيوش بالرجوع إلى بلادها حتى يتخذ قراراً جديداً. في عام 560هـ عبرت حملة عسكرية موحدية إلى الأندلس لتعزيز دفاعات بعض المناطق ضد هجمات الممالك الإسبانية، كما حدث صدام مسلح مع محمد بن سعد بن مردنيش في

---

(153) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 147.

مرسية، والذي كانت له صلات ودية مع عدد من ملوك إسبانيا، حيث بلغ عدد المرتزقة الإسبان في جيشه. في لقاء له مع الجيش الوحدي، ما يقارب من (13) ألف مقاتل، وكان النصر في هذا اللقاء للموحدين وعرفت هذه المعركة بفحص الجلاب على بعد 12 كم جنوبي مدينة مرسية، وتوفي ابن مردنيش بعد ذلك[154].

خلال هذه الأحداث كان ملك البرتغال ألفونسو بن الرنك وبعض المغامرين يهددون الحصون الإسلامية في غربي الأندلس، ففي عام 542هـ/ 1147م استطاع ملك البرتغال بالتعاون مع قوات صليبية من الإنجليز والألمان والهولنديين، متجهين نحو المشرق، أن يستولي على مدينة لشبونة، ثم استولى على مدينة شنترين. وفي عام 555هـ/ 1160م استولى على قصر أبي دانس (قصر الفتح)[155].

وفي الوقت نفسه قام مغامر برتغالي يسمى (العلج جراندة الجليقي) فاستولى على بعض مدن غربي الأندلس[156].

عبرت قوات موحدية إلى الأندلس للحد من خطر الممالك الإسبانية، واستطاع الموحدون في الأندلس من عقد معاهدة صلح مع فراندة الثاني (الببوج ـ الأحمق أو الكثير اللعاب) ملك ليون، إلا أنه خرق هذه المعاهدة وهاجم قواعد الأندلس عام 570هـ/ 1174م فردت القوات الموحدية والأندلسية على هذا الأمر بأن هاجمت مدينة لذريق الليوني وتسميها الرواية الإسلامية باسم (السبطاط)[157].

عبر الخليفة الموحدي أبو يعقوب إلى الأندلس عام 566هـ وبقي فيها زهاء خمسة أعوام إلى عام 571هـ يحارب الممالك الإسبانية، إلا أنه لم يجن ثماراً طيبة ولم يحرز النصر الكبير، وبعدها عاد إلى مراكش. فجدد الإسبان هجومهم على الأندلس فقام ملك قشتالة ألفونسو الثامن بمهاجمة الأراضي الأندلسية، فتصدت له القوات الموحدية قرب طلبيرة عام 578هـ[158]. وبعدها عبر الخليفة الموحدي إلى الأندلس في عام 580هـ واتجه صوب مدينة شنترين ونازلها في عدة معارك، إلا أن الخليفة أبا يعقوب أمر

---

(154) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 258 ـ 260 ـ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 272 ـ 273.

(155) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 272 ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 461.

(156) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 274 ـ عنان، المرجع السابق، جـ 2، ص 26 ـ 43.

(157) المراكشي، المعجب، ص 400، ص 453 ـ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 219 ـ 220.

(158) عنان، المرجع السابق، جـ 2، ص 93 ـ 100.

بالانسحاب فجأة قبل افتتاحها، ثم أصيب في المعركة وتوفي بعد قليل في ربيع الآخر من عام 580هـ/ تموز 1184م.

تولى الخلافة ابنه ولقب بالمنصور (580 ـ 595هـ). وبعد أن نظم أمور دولته عبر إلى الأندلس عام 586هـ/ 1185م وذلك لرد اعتداءات ملك البرتغال الجديد شانجة الأول الذي سيطر على مدينة شلب الأندلسية بمعاونة القوات الصليبية وكان ذلك في عام 585هـ/ 1189م(159). استطاع خليفة الموحدين بعد معارك جهادية عنيفة من استرجاع مدينة شلب وقصر الفتح (قصر أبي دانس) وذلك في عام 587هـ/ 1191م، ورجع بعدها إلى عدوة المغرب(160).

في عهد ملك قشتالة ألفونسو الثامن (النبيل) عقد مع الموحدين معاهدة أمدها خمس سنين (586 ـ 591هـ)(161). فلما انتهت مدة المعاهدة بدأ ملك قشتالة بمهاجمة الأراضي الإسلامية، فعبر إليه المنصور الموحدي بجيوش كبيرة فكان اللقاء قرب حصن الارك قرب مدينة قلعة رباح في عام 591هـ/ 1195م فأحرز الموحدون النصر الكبير وافتتحوا حصن الارك ولحقت هزيمة منكرة بالقشتاليين(162). وبعد هذه المعركة عقدت هدنة بين الطرفين ابتداءً من عام 594هـ/ 1198م ولمدة عشر سنوات أو أكثر(163).

في عام 595هـ توفي الخليفة المنصور، فخلفه ابنهُ الناصر لدين الله (595 ـ 610هـ) الذي كانت سنه دون العشرين. بدأ الفونسو الثامن في عام 606هـ/ 1209م ـ قبل انتهاء أجل الهدنة ـ مهاجمة الأراضي الأندلسية، وعاونه في ذلك بطرة الثاني ملك أرغون، فبعث أهل الأندلس صريخهم إلى خليفة الموحدين الذي جهز جيوشه وعبر إلى الأندلس عام 607هـ/ 1211م، فالتقى الناصر بألفونسو الثامن عند حصن العقاب عام 609هـ/ 1212م وكانت تساعده جيوش صليبية تولى البابا (انوصان الثالث) إعدادها، وانتهى اللقاء

---

(159) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 462 ـ 463.

(160) الحلة السيراء، جـ 2، ص 272 ـ 273 ـ الذيل والتكملة، جـ 5، ص 191 ـ المراكشي، المعجب، ص 356.

(161) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ 7، ص 4 ـ الحجي، المرجع السابق، ص 463.

(162) ينظر المراكشي، المعجب، ص 352 وبعدها ـ الحميري، الروض المعطار، ص 12 ـ 13ـ المقري، نفح الطيب، جـ 4، ص 381ـ عنان، المرجع السابق، جـ 2، ص 211 ـ 214ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 484ـ 490.

(163) المراكشي، المعجب، ص 360 ـ المقري، نفح الطيب، جـ 4، ص 382ـ عنان، المرجع السابق، جـ 2، ص 234، ص 288.

بهزيمة جيش الناصر وتشتت قوة الموحدين[164]، ثم عاد الناصر إلى مراكش حيث توفي عام 610هـ/ 1213م، ربما كمداً من نتيجة الهزيمة في معركة العقاب التي عُدت نذيراً بانحلال الدولة الموحدية[165].

خلف الناصر ابنه أبو يعقوب الملقب بالمستنصر بالله (610 ـ 620هـ)، الذي عقد معاهدة سلم مع ملك قشتالة الجديد (فراندة الثالث)، ولكن الأندلس خسرت في هذه المرة بعض المدن، منها قصر الفتح (قصر أبي دانس) التي سيطر عليها ملك البرتغال (ألفونسو الثالث) بمساعدة أساطيل ألمانية وذلك في عام 614هـ[166].

توفي المستنصر فجأة دون عقب عام 620هـ/ 1224م وخلفه أبو محمد عبد الواحد عم أبي المستنصر الذي خلع بعد عدة أشهر، وتمت مبايعة عبد الله الملقب بالعادل (621 ـ 624هـ) ثم تلته بيعة أخيه المأمون (624 ـ 629هـ) ثم بيعة ابنه الرشيد (629 ـ 640هـ)[167]. هذا التبدل السريع في تنصيب الخلفاء تبعه اعتداء ملوك إسبانيا على الأراضي الأندلسية وسيطرتهم على كثير من المدن والحصون، حيث قام ملك قشتالة فردلند الثالث بقسط وافر في هذا المجال، كما أن هذا الأمر أدى إلى ظهور زعامات محلية في عدوة المغرب أهمها:

1 ـ في المغرب الأقصى ظهرت دولة بني مرين وكان المؤسس لهذه الدولة الأمير عبد الحق بن محيو (توفي عام 614هـ). اتخذ ملوكها فاس ومراكش عواصم لهم.

2 ـ في المغرب الأوسط، استقل بنو زيان، أعلن زعيمهم يغمراسن بن زيان الاستقلال في تلمسان عام 633هـ.

3 ـ في المغرب الأدنى استقل بنو حفص بزعامة (عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص) حوالي عام 623هـ[168].

كما أن أخطار هذا الضعف انعكس على الوجود الموحدي في بلد الأندلس، ففي

---

(164) ينظر، المراكشي، المعجب، ص 399ـ الحميري، الروض المعطار ص 137ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 383ـ المقري، نفح الطيب، جـ 4، ص 383ـ عنان، المرجع السابق، جـ 2، ص 313ـ الحجي، المرجع السابق، ص 490ـ 497.

(165) الحجي، المرجع السابق، ص 464.

(166) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 273، ص 295ـ التكملة، جـ 2، ص 596 (رقم 1577).

(167) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 265 ـ 270 ـ الإحاطة، جـ 1، ص 141، ص 409.

(168) ابن خلدون، العبر، جـ 7، ص 154، ص 349ـ الناصري، الاستقصا، جـ 3، ص 6.

عام 627هـ/ 1230م سقطت جزيرة ميورقة بيد ملك أرغون (جايمش بن بطرة) الذي عاونته جيوش أوروبية من إيطاليا وفرنسا[169]. أما جزيرة اليابسة فسقطت بعد أختها الكبرى بسنوات قليلة[170]. ولكن جزيرة منورقة لم تسقط إلا بعد حوالي ستين سنة، أي في عام 686هـ/ 1287م بيد القوات الارغونية[171].

هذا الأمر المضطرب في الأندلس أدى إلى ظهور زعامات محلية أدت إلى قيام مملكة غرناطة بزعامة بني الأحمر، وفي المدة ما بين ضعف الدولة الموحدية وقيام مملكة غرناطة (نحو عام 635هـ أو بعدها) سقطت عدة حواضر أندلسية بيد الممالك الإسبانية[172].

أولى الحواضر المهمة الأندلسية التي سقطت هي مدينة قرطبة وذلك في عام 633هـ/ 1236م حيث دخلتها القوات القشتالية بزعامة ملكها فراندة بن الفنش (فرناندو الثالث)[173]. وخلال الأعوام من 631هـ/ 1233م إلى عام 636هـ/ 1238م تعرضت مدينة بلنسية إلى هجمات ملك أرغون جايمش الأول الملقب بالغازي وساعدته جيوش أوروبية باركها البابا (جريجوري التاسع)، واستطاع حاكم بلنسية أبو جميل زيان أن يقاوم هذا الهجوم الصليبي فترة من الزمن، إلا أن المدينة سقطت أمام شدة الحصار، ولم تنفع استغاثاته لأمراء عدوة المغرب[174].

تلا ذلك سقوط عدد من المدن القريبة مثل: جزيرة شُقر في أواخر عام 639هـ[175]، ومدينة دانية في عام 641هـ[176]، ومدينة جيان في عام 643هـ[177]، ومدينة

---

(169) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 318، التكملة، جـ 1، ص 155 ـ 156 رقم (400) ـ المقري، نفح الطيب، جـ 4، ص 469ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 383.

(170) عنان، المرجع السابق، جـ 2، ص 408.

(171) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 276 ـ 277.

(172) الحجي، المرجع السابق، ص 471 ـ 472.

(173) ابن الخطيب، أعلام الأعلام، ص 332 ـ الإحاطة، جـ 1، ص 551.

(174) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 127، ص 303ـ التكملة، جـ 1، ص 121 ص 900، ص 901ـ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 273 ـ الحجي، المرجع السابق، ص 473ـ 479..

(175) المقري، نفح الطيب، جـ 4، ص 472.

(176) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 303.

(177) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 383، ص 551، جـ 2، ص 99.

شاطبة في عام 644هـ[178]، ومدينة مرسية في عام 664هـ[179]، أما مدينة إشبيلية فسقطت بيد ملك قشتالة (فرناندو الثالث) عام 646هـ/ 1248م وذلك بعد أعمال حربية استمرت لعدة سنوات، وحصار طويل دام حوالي سنة ونصف[180].

هكذا سقطت بيد ملوك الإسبان ومن ساعدهم من الصليبيين عدد من قواعد الأندلس في هذه المدة التي عاصرت نهاية الدولة الموحدية، إلا أن المسلمين في الأندلس استطاعوا الحفاظ على بعض المناطق في جنوبي البلاد، حيث قامت مملكة غرناطة، وبالإمكان تسميتها بالأندلس الصغرى، بعد انهيار الأندلس الكبرى[181].

---

(178) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 303.

(179) أيضاً، جـ 1، ص 63، جـ 2، ص 316 ـ التكملة، جـ 2، ص 652، ص 656ـ ابن خلدون العبر، جـ 4، ص 365.

(180) ينظر، ابن الآبار، التكملة، جـ 2، ص 903 (رقم 2121)، جـ 1، ص 124 (رقم 311) ـ الحميري، الروض المعطار، ص 22 ـ المقري، نفح الطيب، جـ 4، ص 472 ـ 473ـ ابن أبي زرع، الذخيرة، ص 73.

(181) الحجي، المرجع السابق، ص 483.

الفصل الرابع

عصر مملكة غرناطة (الأندلس الصغرى)

635 ـ 897هـ/ 1238 ـ 1492م

الدكتور خليل إبراهيم السامرائي

استمرت الدولة الموحدية في المغرب تواجه القوى الناهضة حتى عام 668هـ/ 1261م حيث ورثتها دولة بني مرين. أما في الأندلس فقد ضعفت القوات الموحدية أمام هجمات الممالك الإسبانية، وسقطت أهم حواضر الأندلس بيد الإسبان، لذا رأى أهل الأندلس أنه لا بد لهم من القيام بعمل دفاعي يحفظ لهم ما بقي من بلدهم، ولهذا ظهرت زعامات محلية أندلسية منها زعامة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر والملقب بالشيخ والغالب بالله، فقامت مملكة غرناطة، التي عمرت ما يزيد على قرنين ونصف، وتوالى على حكمها خلال ذلك ما يربو على عشرين حاكماً (سلطاناً)، وقد تمتع كثير من هؤلاء السلاطين بصفات جيدة وقدرات ممتازة[1].

مؤسس هذه المملكة محمد بن يوسف بن الأحمر (635 ـ 671هـ/ 1238 ـ 1272م)، وقد بينا ظروف قيام إمارته في الفصل السابق. ومملكة غرناطة تشمل ثلاث ولايات كبيرة: ولاية غرناطة في الوسط، وولاية المرية في الشرق، وولاية مالقة في الجنوب[2]. وهذه هي المنطقة التي استطاع بنو الأحمر الاحتفاظ بها ما يقارب قرنين ونصفاً من الزمان. وكان لهذا الصمود أسباب على الرغم من تحالف الممالك الإسبانية وتعاهدها على إسقاط مملكة غرناطة، وفي طليعة هذه الأسباب:

---

(1) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 563 وبعدها.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 115 ـ 119 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 55.

1 ـ بعد مملكة غرناطة عن متناول أيدي الممالك الإسبانية، فهي محصورة في الزاوية الجنوبية لشبه جزيرة الأندلس، كما أن موقعها هذا سهل عليها الاتصال بعدوة المغرب، طالبة العون منهم كلما اشتد عليها الضغط الإسباني، وكانت الدولة المرينية أكبر عون لهذه المملكة الأندلسية.

2 ـ دربت مملكة غرناطة سكانها على حمل السلاح والتهيؤ باستمرار لملاقاة العدو[3]، كما أضيفت إلى هذه القوة، قوة الوافدين إلى مملكة غرناطة، وهم المسلمون الفارون أمام هجمات الممالك الإسبانية، فبعد سقوط الحواضر الأندلسية بيد الإسبان لجأ الكثير من مقاتلة هذه المدن إلى مملكة غرناطة واعتبروها ملاذاً لهم أمام هذه المخاطر فأضافوا قوتهم إلى قوة سكان المملكة المحاربين.

3 ـ لا ينكر دور عامل الجهاد في سبيل الله الذي التزم به سكان هذه المملكة، في صمود هذه المملكة لفترة طويلة أمام هجمات الإسبان، فعامل الجهاد هو الذي فتح الأندلس من قبل، وهو دوماً يحميها من الخطر الإسباني الزاحف[4].

علاقة مملكة غرناطة مع الممالك الإسبانية:

أهم الممالك الإسبانية المعاصرة لمملكة غرناطة هي:

1 ـ مملكة قشتالة:

بعد خلع ألفونسو العاشر (العالم) سنة 681هـ/ 1282م ورثه ابنه:

أ ـ شانجة الرابع الملقب بالباسل، وعقد هذا معاهدة سلام مع مملكة غرناطة (681 ـ 695هـ/ 1282 ـ 1295م).

ب ـ فردلند الرابع (695 ـ 712هـ/ 1295 ـ 1312م).

جـ ـ ألفونسو الحادي عشر وكان طفلاً وضع تحت الوصاية، (712، ـ 751هـ/ 1312 ـ 1350م) وفي عهده حدث اللقاء الهائل بين المسلمين بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء، وبين جند قشتالة وأعوانهم، فهزمت القوات الإسبانية وذلك في عام 718/ 1308م. ولما بلغ ألفونسو الحادي عشر أشده قام بنشاط واسع في مهاجمة الأراضي الإسلامية، وكان منها وقعة طريف عام 741هـ، وهو الذي حاصر جبل طارق

---

(3) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 40.

(4) ينظر، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 519 ـ 523.

وفشل في إسقاطه وفشا الوباء في جيشه فتوفي عام 751هـ.

د ـ بطرة الأول الملقب بالقاسي 751 ـ 769هـ/ 1350 ـ 1369م وعلى بطرة الأول وفد ابن خلدون في إشبيلية سفيراً لملك غرناطة محمد الخامس في عام 765هـ/ 1363م، وبعد مقتله جاء:

هـ ـ هنري الثاني (إنريق) 769 ـ 780هـ/ 1369 ـ 1379م.

و ـ يوحنا الأول 780 ـ 792هـ/ 1379 ـ 1390م.

ز ـ إنريق (هنري الثالث) 792 ـ 809هـ/ 1390 ـ 1406م.

ح ـ يوحنا الثاني 809 ـ 858هـ/ 1406 ـ 1454م.

ط ـ إنريق (هنري الرابع) الملقب بالعاجز 858 ـ 879هـ/ 1454 ـ 1474م.

ي ـ إيزابيل 879 ـ 910هـ/ 1474 ـ 1504م.

وكانت ايزابيل قد تزوجت سنة 874هـ/ 1496م ابن عمها فراندة الذي ورث عرش أرغون باسم فراندة الخامس(5).

2 ـ مملكة أرغون:

لما توفي جايمش الأول عام 675هـ/ 1276م خلفه:

أ ـ بطرة الثالث 675 ـ 684/ 1276 ـ 1285م.

ب ـ ألفونسو الثالث 684 ـ 690هـ/ 1285 ـ 1291م.

جـ ـ جايمش الثاني 690 ـ 727هـ/ 1291 ـ 1327م.

د ـ ألفونسو الرابع 727 ـ 736هـ/ 1327 ـ 1336م.

هـ ـ بطرة الرابع 736 ـ 789هـ/ 1336 ـ 1387م.

و ـ يوحنا الأول 789 ـ 798هـ/ 1387 ـ 1395م.

ز ـ مرتين الأول 798 ـ 813هـ/ 1395 ـ 1410م.

ح ـ فراندة الأول 813 ـ 818هـ/ 1410 ـ 1416م.

ط ـ ألفونس الخامس 818 ـ 846هـ/ 1416 ـ 1442م.

---

(5) ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 335ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 180ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 526، ص 528.

ي ـ يوحنا الثاني 846 ـ 884هـ/ 1442 ـ 1479م.

ك ـ فراندو الخامس 884 ـ 921هـ/ 1479 ـ 1516م.

تزوج ابنة عمه إيزابيل ملكة قشتالة، فبوحدة هذه الممالك الإسبانية تسقط غرناطة عام 898هـ/ 1492م.

كان محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة يحاول تجنب التصادم مع الممالك الإسبانية، وتمادىٰ أحياناً في ذلك إلىٰ درجة مهينة(6).

وفي عام 660هـ/ 1261م قامت مملكة قشتالة بمهاجمة مملكة غرناطة، إلا أن قوات بني الأحمر بمساعدة المجاهدين من المغرب ردت كيد المعتدي، فأثار هذا الأمر حفيظة ملك قشتالة ألفونسو العاشر الذي ضاعف الهجوم فسيطر على عدة حصون، فاستغاث بنو الأحمر بأهل المغرب وتونس، فوصلت بعض الإمدادات إلى طريف(7).

ونظراً لتعاون ألفونس العاشر ملك قشتالة مع جايمش الأول ملك أرغون واللذين سيطرا على مدينة مرسية وحاصرا غرناطة بعد ذلك أولاً، ونظراً للخلافات الأسرية في عائلة بني الأحمر ثانياً، عقد ملك غرناطة الصلح مع ألفونسو العاشر عام 665هـ/ 1276م، وتنازل عن مدينة شريش وعدد من الحصون(9)، هذا الإنهيار الجديد حرك مشاعر أبي البقاء صالح بن شريف الرندي فأطلق قصيدته المشهورة في رثاء الأندلس(10):

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

قبيل وفاة ابن الأحمر عام 671هـ/ 1272م كرر ألفونسو العاشر هجومه على حصون مملكة غرناطة، فطلب ابن الأحمر العون من السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور، لكن النجدة لم تصل إلا بعد وفاة ابن الأحمر، فوصلت أيام محمد الثاني الملقب بالفقيه (671 ـ 701هـ)(11).

---

(6) ينظر، فرحات، غرناطة، ص 26 وبعدها.

(7) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 2، ص 98.

(8) ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 172 ـ فرحات، غرناطة، ص 29 ـ 30.

(9) عنان، نهاية الأندلس، ص 49.

(10) انظر، الذيل والتكملة، جـ 4، ص 136 (رقم 263) ـ المقري، أزهار الرياض، جـ 1، ص 47ـ نفح الطيب، جـ 4، ص 486.

(11) الحجي، المرجع السابق، ص 536.

أرسل السلطان المريني الجيوش التي عبرت إلى جزيرة طريف في شهر ذي الحجة عام 673هـ/ 1275م، ثم لحق بها السلطان في شهر صفر من عام 674هـ، فنظم أمورها وأعدها لملاقاة القشتاليين، فكانت معركة استجة في ربيع الأول عام 674هـ/ 1175م بين الجيوش الأندلسية والمرينية التي يقودها السلطان المريني، وجيوش قشتالة بقيادة الأمير الدون نونيودي لار[12] صهر ملك قشتالة ألفونسو العاشر، فحازت جيوش المسلمين النصر وتشتت الجيش القشتالي وقتل قائده، ثم إن السلطان المريني المنصور ذهب إلى الجزيرة الخضراء للإستراحة ليعود بعدها إلى أراضي قشتالة. كما حاصر مدينة إشبيلية التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم إلى ذلك وعاد إلى الجزيرة الخضراء، ومنها عبر إلى المغرب في أواخر رجب عام 674هـ، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة مملكة غرناطة في رد هجمات مملكة قشتالة[13].

عاد سلطان المرينيين فعبر الأندلس عام 677هـ/ 1278م وتوغل في أراضي مملكة قشتالة، ثم عاد إلى عدوة المغرب. وبعدها بدأ ملك غرناطة يتوجس من السلطان المريني، فتحالف محمد الثاني الفقيه مع ملك قشتالة الفونسو العاشر الذي أنزل قواته في الجزيرة الخضراء[14].

أرسل السلطان المنصور ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول كبير في أوائل عام 678هـ/ 1279م، فاصطدم مع الأسطول القشتالي الذي انهزم واضطرت قواته إلى ترك الجزيرة الخضراء، ثم بعث السلطان المريني إلى ابن الأحمر يطلب منه التفاهم والتعاون لصد الأخطار الإسبانية. فعقد التحالف الذي بموجبه أصبحت مدينة مالقة لبني مرين لتكون قاعدةً للقوات المرينية التي تعبر إلى الأندلس[15].

وقعت خلافات أسرية في مملكة قشتالة بين ألفونسو العاشر وابنه شانجة الرابع، وذلك في عام 681هـ/ 1282م، فعبر السلطان المريني إلى الأندلس للمرة الثالثة مستغلاً

---

(12) تسمية الرواية الإسلامية باسم دنه ـ ذونونة، ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 565ـ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 316، ص 321.

(13) ينظر، ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 370، ص 393 ـ جـ 7، ص 396 وبعدها ـ المقري، نفح الطيب، جـ 1، ص 449ـ جـ 4، ص 385ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 100 ـ فرحات، غرناطة، ص 33ـ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، 148 وما بعدها.

(14) فرحات، غرناطة، ص 34 ـ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 329 وما بعدها.

(15) الحجي، المرجع السابق، ص 539. أيضاً، ص 331، ص 335.

هذه الظروف ومساعداً بعضهم على البعض الآخر[16].

توفي الفونسو العاشر طريداً عام 683هـ/ 1284م فانفرد ابنه شانجة الرابع في حكم قشتالة. وعبر السلطان المريني للمرة الرابعة إلى الأندلس في صفر من عام 684هـ، واشتبك مع جيوش قشتالة في البر والبحر فانتصر عليها، فرغب شانجة الرابع في طلب الصلح، فأرسل وفداً من الاحبار إلى السلطان المريني ووضعت شروط الصلح[17].

كان من نتائج الود والتفاهم بين مملكة غرناطة والمرينيين أن عبرت مجموعة من المجاهدين إلى الأندلس للمرابطة فيها، ليكونوا على أهبة الاستعداد لمجاهدة الممالك الإسبانية، عُرفت هذه المجموعة بـ«مشيخة الغزاة» ورئيسها باسم (شيخ الغزاة) وهي من المناصب العسكرية التي أُنشئت في هذه الفترة، وتولى بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة، وتولى رئاسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد في عام 693هـ، فكانت بعد ذلك لأخيه أبي سعد عثمان بن أبي العلاء[18].

توفي السلطان المريني المنصور عام 685هـ/ 1285م في الأندلس، بعد حياة حافلة بالجهاد، وورث حكم المرينيين ابنه أبو يعقوب يوسف، وكان له دور كبير في مجاهدة الممالك الإسبانية إلى جانب أُمراء مملكة غرناطة وبخاصة إلى جانب محمد الفقيه الذي جنح أحياناً إلى مهادنة ملوك الإسبان، وأحياناً تعاون معهم ضد بني مرين[19].

توفي محمد الفقيه وورثه ابنه السلطان محمد الثالث المخلوع 701 ـ 708هـ/ 1302 ـ 1309م، فبدأ أمره بمصالحة المرينيين أولاً، وبمحاربة مملكة قشتالة ثانياً التي عقدت معه هدنة أمدها ثلاث سنوات[20]، وبعد خلعه تولىٰ أمر غرناطة السلطان نصر بن محمد 708 ـ 713هـ/ 1309 ـ 1314م، فتقرب هذا السلطان إلى المرينيين فأعاد إليهم مدينة سبتة وزوج إحدى شقيقاته إلى أبي الربيع المريني، وفي عهده أرسل فراندة الرابع ملك قشتالة

---

(16) ينظر، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 338، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 333 ـ الإحاطة، جـ 1، ص 564ـ المقري، نفح الطيب، جـ 5، ص 120ـ أزهار الرياض، جـ 1، ص 61ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 81، 105 ـ 107.

(17) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 563 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 393ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 106 ـ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 358 ـ 363.

(18) ابن خلدون، العبر، جـ 7، ص 771 ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 2، ص 16، ص 38ـ المقري، نفح الطيب، جـ 1، ص 453ـ جـ 4، ص 385ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 107.

(19) ينظر، فرحات، غرناطة، ص 36 ـ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 373 ـ 374، ص 380.

(20) ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 228 ـ فرحات، غرناطة، ص 37.

جنده إلى جبل طارق ومدينة المرية بمعاونة ملك أرغون خايمي الثاني، بالرغم من المعاهدة القائمة بينه وبين سلطان غرناطة، وقعت قرب المرية معركة قادها عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة ضد جند أرغون الذين أُصيبوا بهزيمة منكرة، إلا أن جبل طارق بعد الحصار الشديد لها أرغمت على التسليم[21].

أُرغم نصر على التنازل عن عرش غرناطة عام 713هـ ليتولى أمرها إسماعيل الأول 713 ـ 725هـ/ 1314 ـ 1325م الذي اشتهر بالعدل والعفة[22]، واهتم بأمر الجهاد. وحين قام القشتاليون بمهاجمة الأراضي الإسلامية استنجد إسماعيل ببني مرين وسلطانهم أبي سعيد، الذي رفض المساعدة لعدم استجابة إسماعيل لمطاليب معينة[23].

زحف الجيش القشتالي على غرناطة بجيش كبير بقيادة (دون بطرة ودون خوان) الوصيين على ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر، وسارت معهم قوات إنكليزية ذات نزعة صليبية، فوقعت المعركة في ربيع الثاني عام 718هـ/ مايس 1318م قرب مدينة غرناطة وكان قائد الجيش الإسلامي شيخ الغزاة أبا سعيد عثمان بن أبي العلاء الذي أحرز النصر ورد كيد الأعداء[24].

بعد اغتيال إسماعيل الأول عام 725هـ خلفه ولده محمد الرابع 725 ـ 733هـ/ 1325 ـ 1333م، وفي عهده استطاع مسلمو غرناطة بالتعاون مع بني مرين من استعادة جبل طارق عام 733هـ/ 1333م بعد أن سيطر عليه الجيش القشتالي منذ عام 709هـ[25]. أما نهاية محمد الرابع فلم تكن أفضل من نهاية أبيه، فاغتيل أيضاً فخلفه أخوه يوسف الأول 733 ـ 755هـ/ 1333 ـ 1354م الذي كان من أبرع ملوك بني الأحمر، وفي عهده حدثت معركة بحرية في عام 740هـ انهزم فيها المسلمون، واشتركت فيها قوات من قشتالة وأرغون والبرتغال، وبارك البابا هذه الحملة، ودخلت جيوشهم مملكة غرناطة[26].

---

(21) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 75ـ الحجي، المرجع السابق، ص 541.

(22) فرحات، غرناطة، ص 40.

(23) الحجي، المرجع السابق، ص 541.

(24) ينظر، ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 373ـ جـ 7، ص 520ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1 ص 389ـ المقري، نفح الطيب، جـ 1، ص 449ـ 450ـ جـ 5، ص 510 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 118، ص 171ـ فرحات، غرناطة، ص 41.

(25) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 93 ـ 94ـ فرحات، غرناطة، ص 42.

(26) الحجي، المرجع السابق، ص 543.

استنجد سلطان بني الأحمر بالإخوة المرينيين فعبر سلطانهم إلى الأندلس، ووقعت معركة بين الطرفين في جمادى الأولى من عام 741هـ/ تشرين الأول 1340م استعمل المسلمون فيها المدافع التي تقذف النيران[27]. لكن المسلمين خسروا المعركة وعاث الإسبان فساداً في المعسكر الإسلامي وغنموا ما فيه، ووقعت هذه المعركة قرب طريف ولذا عرفت بوقعة طريف[28]. وعلى أثرها عقد السلطان المريني أبو الحسن الصلح مع بطره الأول ملك قشتالة، ووضعا قواعد لافتكاك الأسرى الذين كان من بينهم ابن السلطان (أبو عمر تاشفين)[29].

وفي عام 750هـ/ 1349م سار ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر بقواته وحاصر جبل طارق، ولكن الوباء فشا في جيشه، وذهب ملك الإسبان ضحيته، فاضطر جيشه، بعد قرابة سنة من بدء الحصار، إلى ترك الحصار والانسحاب، فتخلصت مدينة جبل طارق من الخطر[30].

استمرت مملكة قشتالة على سياستها من العبث في أراضي مملكة غرناطة ناقضة العهود، ولكن صلحاً عقد بين مملكة غرناطة وبين ملك أرغون بيدرو الرابع[31].

بعد اغتيال يوسف الأول عام 755هـ/ 1354م مرت مملكة غرناطة بوضع مضطرب توالى على عرشها أمراء ضعاف لم يكونوا بمستوى المسؤولية، قد خلع بعضهم أكثر من مرة. كما وحّدت الممالك الإسبانية جهودها من أجل استصفاء مملكة غرناطة وتوزيع تركتها فيما بينهم، وبارك البابا هذه الخطوة، إلا أنها تعثرت فترة من الزمن. وفي الوقت نفسه عقد صلح بين مملكة غرناطة وبين الممالك الإسبانية أرغون وقشتالة، كالصلح الذي عقده السلطان محمد السادس (الغني بالله) 795 ـ 810هـ/ 1393 ـ 1408م

---

(27) عنان، نهاية الأندلس، ص 127.

(28) ينظر، ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 375 ـ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 106 ـ المقري، نفح الطيب، جـ 1، ص 452 ـ جـ5، ص 14 ـ 15، ص 413ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 128ـ فرحات، غرناطة، ص 44.

(29) التعريف بابن خلدون، ص 50 ـ المقري، نفح الطيب، جـ 5، ص 413.

(30) ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 394، جـ 7، ص 632، ص 776ـ ابن بطوطة، الرحلة، ص 665ـ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 335ـ ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، جـ 1، ص 140.

(31) ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص 103 ـ 105، ص 164 ـ 165ـ الحجي، المرجع السابق، ص 549.

مع ملك قشتالة[32].

وفي عهد يوسف الثالث 810 ـ 820هـ/ 1408 ـ 1407م جدد الهدنة مع مملكة قشتالة لمدة سنتين، وبعدها رفض القشتاليون تجديد الهدنة، فسيطروا على بعض الحصون وأصبح هذا السلطان تابعاً لهم[33].

تبع يوسف الثالث عدة أمراء اختلفت قدراتهم بين القوة والضعف، وفي عهدهم دخلت مملكة غرناطة في حروب جهادية مع مملكة قشتالة الإسبانية خسرت فيها غرناطة بعض القواعد والحصون المهمة.

وكان سقوط مدينة جبل طارق بيد القشتاليين في عام 867هـ/ 1462م على عهد السلطان سعد بن إسماعيل 858 ـ 868هـ/ 1454 ـ 1464م قاصمة الظهر لمسلمي غرناطة، حيث حال هذا الأمر دون وصول الإمدادات من عدوة المغرب إلى الأندلس، هذه الإمدادات التي بدأت بالضعف منذ بداية ضعف الدولة المرينية التي سقطت عام 869هـ/ 1464م، وحلت محلها دولة فتية هي دولة بني وطاس، ولكنها لم تكن في مستوى الدولة المرينية من حيث تقديم الإمدادات إلى الأندلس[34].

اتحدت مملكتا قشتالة وأرغون في عام 884هـ/ 1479م على أثر الزواج الذي تم بين فراندة الخامس ملك أرغون وايزابيلا ملكة قشتالة في عام 874هـ. فبعد هذا الاتحاد بدأت مفاوضاتهم مع مملكة غرناطة حيث طلبا من سلطانها أبي الحسن علي 868 ـ 887هـ/ 1464 ـ 1482م شروطاً ثقيلة، رفضها السلطان الغرناطي، ففتح الباب أمام المناوشات المتبادلة[35]. فهاجم فراندة الخامس ملك أرغون غرناطة، واستولت قواته على مدينة الحمة (الحامة) الواقعة جنوب غربي غرناطة، فأمعنت في أهلها قتلاً، وذلك في المحرم من عام 887هـ/ 1482م، ثم زحف هذا الملك إلى مدينة لوشة وحاصرها، ولكن حاميتها استبسلت في الدفاع عنها وردت الغزاة على أعقابهم[36].

تولى حكم غرناطة أبو عبد الله الصغير ولايته الأولى 887 ـ 888هـ/ 1482 ـ 1483م

---

(32) فرحات، غرناطة، ص 52.

(33) فرحات، غرناطة، ص 52 ـ 53 ـ الحجي، المرجع السابق، ص 549.

(34) فرحات، المرجع السابق، ص 55 ـ 56.

(35) فرحات، المرجع السابق، ص 58.

(36) عنان، نهاية الأندلس، ص 202 ـ الآثار الباقية، ص 335 ـ فرحات، المرجع السابق، ص 60ـ حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 22.

الذي خاض معركة حامية ضد جيوش قشتالة فهزمهم، ثم قاد جيشاً آخر فاتجه نحو قرطبة، وانتصر في عدة معارك، إلا أنه أُسر في معركة عند قلعة اللسانة وأخذ أسيراً، وتولى أمر غرناطة والده أبو الحسن علي 888 ـ 890هـ/ 1483 ـ 1485م. ثم أطلق سراح أبي عبد الله الصغير عام 890هـ/ 1485م بعد توقيع اتفاق لصالح قشتالة. وتولى أمر غرناطة أبو عبد الله الزغل 890 ـ 892هـ/ 1485 ـ 1487م ثم عاد أبو عبد الله الصغير مرة ثانية إلى عرشه 892 ـ 897هـ/ 1487 ـ 1491م. وخلال هذه الأحداث هاجمت القوات القشتالية مدينة لوشة مرة أخرى فدخلتها في عام 891هـ بشروط لصالح قشتالة، ثم قامت حروب أسرية بين العم (الزغل) وابن أخيه (أبي عبد الله الصغير) انتهت بتقسيم مملكة غرناطة[37].

بدأ ملك قشتالة يشدد ضرباته على المدن الأندلسية الباقية ويرهقها بالحصار، وكان يخرب ما حول مدينة غرناطة من أجل التهيؤ لدخولها. وأثناء ذلك عقد الزغل عام 895هـ/ 1489م معاهدة مع ملك قشتالة، فترك الأندلس إلى الجزائر[38].

وبعد سقوط الحصون والمدن الأندلسية بيد الإسبان لم يبق سوى غرناطة، فأرسل الإسبان إلى السلطان أبي عبد الله يطلبون إليه تسليم غرناطة وفقاً لشروط معينة، فجمع السلطان أعوانه وأجمعوا على الرفض[39].

وفي ربيع عام 897هـ/ نيسان 1491م حاصر الملكان الإسبانيان مدينة غرناطة، وأنشأ المحاصرون مخيماً تحول إلى مدينة أسموها (سانتافي / الإيمان المقدس). وقد خرج مقاتلو غرناطة عدة مرات لشل مخططات الإسبان وإفشالها، وكان على رأسهم موسى بن غسان الذي نسجت حوله الأساطير[40]. ودام الحصار سبعة أشهر صمد خلالها الغرناطيون، وفشلت كل محاولات الاقتحام المتكررة. ومع بداية شهر محرم من عام 897هـ/ أواخر عام 1491م ونتيجة اليأس وانتشار الجوع والمرض، اجتمع أعيان المدينة واتفقوا على تسليمها، ما عدا القائد موسى الذي رفض القرار، وخرج من الاجتماع مغاضباً واختفى أثره، ثم أُرسل الوزير أبو القاسم بن عبد الملك للمفاوضة،

---

(37) ينظر، المقري، نفح الطيب، جـ 4، ص 523 ـ 529ـ فرحات، المرجع السابق، ص 62 ـ حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 27، ص 33.

(38) المقري، نفح الطيب، جـ 4، ص 522.

(39) حول حصار غرناطة، ينظر، المقري، نفح الطيب، جـ 4، ص 523 ـ 529.

(40) فرحات، المرجع السابق، ص ص 63 ـ 64.

وتم التوقيع على معاهدة التسليم في 25/ كانون الأول 1491م أي يوم عيد الميلاد ـ أما شروط التسليم فوردت في وثيقة مشهورة وأهم ما جاء فيها: ـ

1 ـ إطلاق الأسرى المسلمين في قشتالة.

2 ـ تأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

3 ـ احتفاظ المسلمين بشرعيتهم وقضائهم ونظمهم بإشراف حاكم إسباني.

4 ـ تأمين حرية الدين والشعائر والحفاظ على المساجد والأوقاف.

5 ـ أن لا يدخل مسيحي في مسجد أو دار مسلم.

6 ـ أن يسير المسلم في ديار الإسبان آمناً لا يحمل علامة مميزة.

7 ـ أن يجتاز إلى أفريقيا من يشاء من المسلمين في سفن ملك الإسبان لمدة ثلاث سنوات من دون مقابل.

8 ـ أن لا يقهر مسلم أو مسلمة على التنصر.

9 ـ أن يعامل الحاكم الإسباني المسلمين بالرفق والعدل.

10 ـ أن يوافق البابا على الوثيقة(41).

أما السلطان أبو عبد الله فقد اتفق أن يغادر المدينة إلى منطقة البشرات، حيث يعطى ضياعاً يعيش فيها، ويكون في طاعة ملك قشتالة، كما اتفق أن تقدم غرناطة خمسمائة من أعيانها ضمانة للطاعة، وقد أقسم الملكان على الوثيقة من أجل أن يطمئن المسلمون بذلك، ولكن تلك العهود نقضت فيما بعد.

فتحت المدينة أبوابها فجر الثاني من كانون الثاني 1492هـ/ ثاني ربيع الأول 897هـ، فدخل نفر من القادة القشتاليين وتسلموا مفتاح المدينة من أبي عبد الله الصغير. وفي الصباح دخل الجند غرناطة يقود طليعتها الكونت (دي تنديلا) الذي عين فيما بعد حاكماً لغرناطة، ورفعوا فوق برج الحمراء صليباً فضياً كبيراً وبقربه علم قشتالة وعلم القديس يعقوب (شنت ياقب)، ثم دخل الملكان الحمراء ظافِرَيْن.

وفي اليوم نفسه غادر السلطان أبو عبد الله قصره ومعه أهله واتجه إلى منطقة البشرات يذرف دموعه حسرة وألماً على الملك الضائع. وبعد مضي أشهر قليلة على

---

(41) فرحات، المرجع السابق، ص 64 ـ 65 ـ حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 55 ـ 56ـ التنصير القسري، ص 19 وبعدها.

إقامته في منطقة البشرات، أدرك أبو عبد الله أن تلك الحياة الذليلة لا تليق به، فغادر الأندلس إلى عدوة المغرب واستقر في مدينة فاس وتوفي عام 940هـ/ 1534م[42].

(42) ينظر، المقري ـ نفح الطيب، جـ 4، ص 529 ـ أزهار الرياض، جـ 1، ص 68ـ عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص 375ـ حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 69ـ 74ـ فرحات المرجع السابق، ص 64 ـ 68ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 257، ص 273، ص 287.

الفصل الخامس

المسلمون بعد سقوط غرناطة (الموريسكيون)

الدكتور خليل إبراهيم السامرائي

لم تنته مصيبة المسلمين في الأندلس بزوال سلطانهم السياسي ورحيل سلطانهم إلى المغرب، بل حلت بهم مصيبة أكبر، حيث نقض الملكان الكاثوليكيان العهد. ووضعا خطة إبادة للمسلمين الباقين في الأندلس لعقيدتهم الدينية، فشكلا محاكم التفتيش التي تتعقب من يؤدي شعائرالإسلام بأية صورة، فكان من جراء ذلك أن أظهر عدد من المسلمين المسيحية وأبطنوا الإسلام، وأطلق على هؤلاء اسم (المورسكيون Los Moriscos) أي المسلمون الصغار. وبقي المسلمون هؤلاء يقاومون الاضطهاد ما يزيد على القرن من الزمان دفاعاً عن عقيدتهم وكيانهم[43].

أول ظاهرة ملفتة للنظر بعد رحيل السلطان أبي عبد الله الصغير إلى عدوة المغرب، بدأ مسلمو الأندلس بالهجرة من الأندلس إلى المغرب كما جاء في شروط التسليم التي سهلت لهم هذه المهمة وهي: إن الملكين الإسبانيين ملزمان بتوفير السفن لنقل مسلمي الأندلس إلى المغرب مجاناً ولمدة ثلاث سنوات، وبعدها يدفع من يريد العبور دوبلاً واحداً عن كل شخص (الدوبل عملة ذهبية إسبانية قديمة تساوي عشر بزيتات) (المادة السابعة من المعاهدة). فأول من هاجر أهل مالقة الذين نزحوا إلى باديس (مدينة ساحلية تقع في شمال المغرب، اندثرت ويقع مقابلها جزيرة صغيرة باسمها)، وخرج أهل المرية ونزلوا مدينة تلمسان، ونزل أهل الجزيرة الخضراء في طنجة، واستقر أهل رندة وبسطة وحصن مرتيل في تطوان وأحوازها. وهاجر أهل دانية إلى تونس والقيروان والجزائر،

(43) الحجي، أندلسيات، جـ 2، ص 168 ـ 169 ـ عنان، «قصة كاتب مورسكي» مجلة العربي، العدد، 131، ص 52ـ عنان، «تستور بلد الموريسكيين» مجلة العربي، العدد 156، ص 138.

وخرج أهل لوشة وبعض سكان غرناطة وأهل مرشانة وسكنوا بين مضارب قبيلة غمارة، ونزل أهل برجة وأندرش ما بين طنجة وتطوان، ونزل أهل مدينة شريش وبليش مدينة سلا، وخرج ما بقي من أهل غرناطة ونزلوا بجاية ووهران وسوسة وسفاقس وقابس، وخرج أهل القلعة إلى مدينة أغادير، وهناك آخرون من سكان الأندلس استقروا في الإسكندرية وغيرها من مدن المشرق[44].

صدرت الأوامر بتعميم مضمون معاهدة التسليم على الأمراء والوزراء والقادة والرهبان والرعية، وأُصدر مرسومٌ يهدد كل من يجرؤ على المساس بما تضمنته هذه المعاهدة. وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع نجلهما الأمير، وحشد كبير من الأمراء وأشراف الدولة وأحبارها. وأدى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا وسائر من حرروا الشروط القسم بدينهم وأعراضهم، أن يصونوا المعاهدة إلى الأبد، وعلى الصورة التي انتهت إليها.

من خلال شروط المعاهدة يتبين لنا بأنها كفلت للمسلمين حريتهم ولغتهم وشعائرهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم، باستثناء حمل الأسلحة.

ولكن الذي يبدو أن الملكين الإسبانيين لم يكونا صادقين فعلاً. حيث بدأ تعصبهم ونقضهم للمواثيق منذ دخولهم غرناطة 2/ كانون الثاني 1492م، إذ صدرت الأوامر بإحراق كميات كبيرة من الكتب العربية، لكي يسهل على الإسبان إبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم ومن ثم القضاء عليهم بسرعة[45].

ومن أول الخطوات التي رسمتها الملكة إيزابيلا المتعصبة من أجل تنفيذ سياسة التنصير القسري للمسلمين، أنها اعتمدت على مجموعة من الأحبار والرهبان، ومنحتهم مناصب في البلاط الملكي، فكان من أخطرهم (الأب خمنيس) مطران طليطلة.

وإذا كانت الممالك الإسبانية قد اضطهدت المدجنيين (المسلمون الذين ظلوا على دينهم) خلال استردادها القواعد الأندلسية قبل سقوط غرناطة، إلا أنه بعد السقوط أصبح الأمر أكثر خطورة فحرموا من حمل السلاح، وفرضت عليهم الضرائب القادمة خلال 1495 ـ 1499م دون غيرهم من السكان.

---

(44) حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص 75 ـ 76 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 311.

(45) حتاملة، التنصير القسري، ص 60 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 316ـ عنان «تراث الأندلس الفكري» مجلة العربي، العدد 99، ص 106.

منذ اللحظة الأولى لدخول الإسبان غرناطة، تم توزيع مساحات شاسعة من الأراضي على النبلاء الاسبان، فأصبح ملاكوها المسلمون أتباعاً للنبلاء هؤلاء. وفي عام 1498م أجريت عملية عزل العناصر الإسلامية عن المجتمع الإسباني، ووضعوا في أماكن معينة، ليسهل السيطرة عليهم والقضاء عليهم في حالة الثورة[46].

كانت هذه السياسة التعسفية التي رافقها إحراق خمنيس للكتب العربية وجعلها أثراً بعد عين أن تأججت نار الثورة بين المسلمين. وفي الوقت نفسه عين الأب خمنيس رئيساً لديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي (محاكم التفتيش)، والتي تأسست في إسبانيا منذ القرن الثالث عشر الميلادي[47]. ولقد أقام الملكان الكاثوليكيان محاكم التفتيش أولاً في إشبيلية عام 1480م وفي جميع المدن الأندلسية التي سيطروا عليها، وكانت هذه المحاكم سلاحاً فتاكاً بيد الكنيسة تسحق به كل من لم يذعن لأوامرها[48]. فكان من نتائج سياسة خمنيس التعسفية قيام عدة ثورات أهمها:

1 ـ ثورة البيازين في غرناطة عام 1499م/ 904هـ:

كانت صدور المسلمين تغلي كالمراجل نتيجة نقض الإسبان لعهودهم ومواثيقهم، وتفجرت ثورتهم عندما اعتدى أحد رجال الشرطة وخادم للأب خمنيس على فتاة مسلمة في حي البيازين في غرناطة، فهاجموا المعتدين، ففر الخادم وقبضوا على رجل الشرطة فقتلوه. ومن ثم سارت جموع الثوار إلى دار الأب خمنيس الواقع قرب قصر الحمراء للقضاء عليه، لعلمهم بأن هذه الحادثة هي من تخطيطه. واختار الثوار أربعين رجلاً منهم يمثلون حكومة موريسكية مستقلة عن الإسبان.

احتمى خمنيس في بيت حاكم مدينة غرناطة الإسباني (الكونت دي تنديا) مستغلاً المحبة والاحترام بين هذا الحاكم والموريسكيين. أغلق الثوار الطرقات أمام الحملات العسكرية التي أرسلتها السلطات ورموها بالحجارة، واستنجدت السلطات بمطران غرناطة (الأب تالا فيرا) الذي يحظى باحترام الموريسكيين فهدأ من ثورة الموريسكيين واقتنعت حكومتهم بأقواله، والتي لا تعدو مجرد الوعود لأن مطران غرناطة وغيره يعملون أولاً وآخراً لصالح المسيحية والممالك الإسبانية.

---

(46) حتاملة، التنصير القسري، ص 65.

(47) عبد العظيم رمضان «محاكم التفتيش» مجلة العربي، العدد 258، ص 48.

(48) حتاملة، التنصير القسري، ص ص 66 ـ 68 ـ عنان، نهاية الأندلس ص 323، ص 329.

حاولت السلطات تهدئة أهالي حي البيازين بأساليب ماكرة، منتظرة الفرصة الملائمة للقضاء عليهم. وفي الوقت نفسه هربت حكومة الموريسكيين (حكومة الأربعين) من غرناطة إلى إقليم البشرات خشية التنكيل بهم أو ملاحقتهم من قبل السلطات.

وبعد إخماد هذه الثورة عام 1499م قرر ملك غرناطة الإسباني تأسيس محاكم التفتيش في غرناطة، والتي تتبعت المسلمين بالتعميد، كما منعت أي موريسكي من الدخول إلى غرناطة حتى لا يختلط بأهلها فيثير فيهم روح الثورة. كما حُرم على المسلمين اللجوء إلى الكنائس لعلها تخفف عنهم عقوبة الإعدام.

ولم يبق أمام هؤلاء الموريسكيين سوى اللجوء إلى المعاقل المنيعة في رؤوس الجبال ومن هناك يشنون الغارات على القوات الإسبانية التي كانت تلاحقهم باستمرار وتبيد مجموعات كبيرة منهم.

إضافة إلى ذلك أصدر الملكان في 20/ تموز/ 1501م أمراً يحرم على الموريسكيين ممارسة أي عمل يمت إلى عقيدتهم ولغتهم بصلة، مما دفع الكثير من الموريسكيين إلى الالتحاق بإخوانهم في رؤوس الجبال[49].

2 ـ ثورة البشرات عام 1501م/ 906هـ:

كان من نتائج ثورة الموريسكيين في محلة البيازين في غرناطة، أن ثار إخوانهم في منطقة البشرات الواقعة في جنوبي غرناطة. فأرسلت الحكومة الإسبانية حملة عسكرية للقضاء على هذه الثورة، قادها (الكونت تنديا) ـ القائد الذي قام بالدور نفسه في ثورة البيازين ـ وغيره، ففي طريقها كانت تمر على القرى فتجدها مقفرة من رجالها الأشداء الذين التحقوا بثوار البشرات، فتحرق القرى بعد قتل النساء والأطفال والشيوخ.

ولحق بهذه الحملة الملك الإسباني فرديناد وبعض قواده، الذين احتلوا بعض القرى والحصون في الطريق مثل (وادي لكوين) ومدينة (لانخرون) و(لوشار) و(قونقه) و(اندرش) ولقيت الحملة الإسبانية مقاومة عنيفة من الموريسكيين الذين دافعوا عن مدنهم ببسالة[50].

---

(49) حتاملة، التنصير القسري، ص 77 ـ 79 ـ الحجي، المرجع السابق، ص 572ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 323.

(50) ينظر، فهمي هويدي، «في بلاد الموريسيك غرباء الأندلس» مجلة العربي، العدد 228، ص 71.

ومن مدينة المرية خرجت حملة إسبانية أخرى تجاه البشرات، فأوقعت هذه الحملات الخسائر الكثيرة بالموريسكيين وأخذت الكثير منهم كرهائن. وفي عام 1502م كانت الثورات قد أُخمدت عموماً في جميع أراضي البشرات وما جاورها، واضطهد الإسبان الموريسكيين اضطهاداً لا نظير له، فنسفوا مساجدهم، وقتلوا نساءهم وأطفالهم وتعرضوا لحرب إبادة مكشوفة، لأن الموريسكيين في نظر الإسبان مجرد عبيد ورقيق. وأخيراً وضع الموريسكييون المغلوبون على أمرهم أمام أحد الخيارين: إما التنصير القسري، أو التهجير خارج إسبانيا، وانسحب هذا الأمر إلى مدجني قشتالة وليون[51].

ونتج عن هذه الأحداث، تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة، وكذلك حول مسجد البيازين إلى كنيسة ومدرسة سميت (كنيسة المخلص). وفي مدينة غرناطة نُصِّر قسراً أكثر من خمسين ألف شخص، كما أجبر مسلمو الأندلس على لبس السراويل والقبعات، وأجبروا على ترك لغتهم وتقاليدهم وأسمائهم العربية، وحملوا على اعتناق المسيحية، واستعمال اللغة والتقاليد والأسماء الإسبانية[52].

وعلى الرغم من كل وسائل العنف والإرهاب التي استعملتها السلطات ومحاكم التفتيش في تنصير الموريسكيين، إلا أنهم استمروا في ممارسة شعائر دينهم بصورة سرية فكانوا يؤدون فروض الصلاة سراً في بيوتهم، وكانوا يغلقون بيوتهم يوم الأحد موهمين السلطات بأنهم ذهبوا إلى الكنيسة، وعندما يتم تعميد أطفالهم في الكنائس يبادرون إلى غسلهم بعد رجوعهم إلى بيوتهم مباشرة، وكانوا يعقدون حفلات الزواج على الطريقة الإسلامية سراً بعد إجراء الاحتفال العلني في الكنيسة. ولهذا أصبحت تعاليم الإسلام وممارساته تقاليد موروثة، يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلاً بعد جيل في حلقات مغلقة، لها صفة المجالس السرية. وقد تعرض بعض هذه الأسر إلى الاضطهاد والإبادة بسبب زلة لسان من صبي يعيش حالة الإزدواجية[53].

وبعد فشل ثورات الموريسكيين في داخل إسبانيا، أرسلوا استغاثتهم إلى إخوانهم المسلمين لعلهم يساندونهم في محنتهم، ومن هذه الصرخات:

1 ـ بعثوا باستغاثتهم إلى عدوة المغرب، لأن المغرب أقرب البلاد الإسلامية لهم، إلا أن الحالة السياسية المفككة للمغرب في هذه الفترة منعته عن إرسال النجدات إلى

---

(51) حتاملة، التنصير القسري، ص 83 ـ 86.

(52) حتاملة، التنصير القسري، ص 86 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 328 وبعدها.

(53) حتاملة، التنصير القسري، ص 111 ـ 112.

الأندلس، كما كان سابقاً.

2 ـ أرسل الموريسكيون إستغاثتهم الأولى إلى السلطان بايزيد الثاني سلطان العثمانيين (1481 ـ 1512م)، واتفق هذا السلطان مع السلطان المملوكي في مصر قايتباي (1468 ـ 1496) على إرسال أسطول بحري لنجدتهم عن طريق صقلية[54]. إلا أن ظروف السلطانين السيئة حالة دون إرسال مثل هذا الأسطول، فاكتفى السلطان بايزيد بإرسال كتاب إلى الملكين الكاثوليكيين، بعد ثورة البيازين عام 1499م، لم يكن له أي أثر يذكر. ومع ذلك استنجد به الموريسكيون مرة أخرى، فكانت استغاثتهم على شكل قصيدة مؤثرة مطلعها[55]:

سلام كريم دائم متجدد أخص به مولاي خير خليفة

ويبدو أن تاريخ هذه الاستغاثة كان بعد عام 1501م، ولم يحرك السلطان العثماني ساكناً، وذهبت الاستغاثة الموريسكية في مهب الريح.

3 ـ أرسل الموريسكيون استغاثتهم إلى الملك الأشرف قانصوه الغوري (1501 ـ 1516م) سلطان دولة المماليك البرجية في مصر، وأوضحوا له ما وصلت إليه حالهم من إكراه على الارتداد، وانتهاك للحرمات. ودعوه ليتوسط لدى الملكين لكي يحترما معاهدات الاستسلام، ويوقفا الأعمال البربرية ضدهم. فأرسل سلطان مصر وفداً لملكي إسبانيا، بأنه سيجبر المسيحيين المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام بالقوة، إذا لم يحترم الملكان الإتفاقيات المعقودة بينهم وبين مسلمي الأندلس.

أرسل الملكان الإسبانيان وفداً إلى مصر في عام 1501م يتزعمه رئيس كاتدرائية غرناطة، والذي استطاع أن يغرر بسلطان مصر ويوحي له بأن الموريسكيين في حالة جيدة، ومعاملتهم حسنة، وأن لهم الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الإسبان.

ولم يتابع سلطان مصر الأمر لأنه كان مشغولاً بحركات السلطان سليم الأول، وذهب قانصوه الغوري ضحية لهجوم سليم الأول على بلاد الشام في معركة مرج دابق عام 1516م[56].

(54) علي محمد حمودة، تاريخ الأندلس السياسي، ص 302 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 324 ـ عنان، «تستور بلد الموريسكيين» مجلة العربي، العدد 156، ص 138.

(55) انظر القصيدة، المقري، أزهار الرياض، جـ 1، ص 109 ـ 115.

(56) حتاملة، التنصير القسري، ص 99 ـ 100.

وعندما خابت الآمال التي كان يعلقها مسلمو الأندلس على إخوانهم في الدين في بلاد المغرب والمشرق، لم يبق أمامهم سوى خيارات ثلاث هي: الموت أو التنصير القسري، أو الهجرة القسرية خارج البلاد.

فضل الكثير منهم البقاء في بلادهم، والقبول بالأمر الواقع، والتنصير القسري ـ ولو بالظاهر ـ حيث صعب عليهم مفارقة الأوطان العزيزة. وهناك فريق آخر أبت عليه عزة الإسلام أن يعيش ذليلاً، أو متنصراً، فترك البلاد وهاجر إلى مصر وبلاد الشام وبلاد عدوة المغرب، وقسم منهم ذهب مع الرحلات الاستكشافية إلى أمريكا الوسطى والجنوبية.

ولم يكتف الملكان الإسبانيان بتنصير وتهجير الموريسكيين. بل لاحقوهم إلى دار هجرتهم وبخاصة بلاد المغرب العربي التي تعرضت مدنه ـ التي سكنها الموريسكيون ـ لغارات الإسبان البحرية[57].

---

(57) حتاملة، التنصير القسري، ص 100 ـ 103 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 384 وبعدها ـ عنان، «تستور بلد الموريسكيين» مجلة العربي، العدد 156، ص 139، ص 141.

الباب الخامس

حضارة العرب في الأندلس

الدكتور
خليل إبراهيم السامرائي

الفصل الأول

تاريخ الفكر العربي في الأندلس

بدأ العرب عملية فتح الأندلس في عام 92هـ، واستكمل فتحها عام 95هـ وبدأ العصر الإسلامي الأول فيها، والذي يعرف باسم عصر الولاة (95 ـ 138هـ). شهد هذا العصر كثيراً من الحملات العسكرية التي سارت إلى الشمال لإخضاع المتمردين الإسبان، أو العبور وراء جبال البرتات لوضع حد لهجوم الفرنجة، أو فتح أراضٍ جديدة وراء هذه الجبال.

وتميز هذا العصر بعدم الاستقرار السياسي بسبب المنازعات القبلية الكثيرة فيه، والذي أدى إلى تعاقب أربعة وعشرين والياً لحكم هذه الولاية[1]، فأدى هذا الأمر إلى عدم استقرار المجتمع الأندلسي في هذا العصر، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن أكثر الداخلين إلى الأندلس في هذه الفترة كانوا جنوداً وحكاماً، اهتموا بالأمور السياسية والعسكرية بالدرجة الأولى.

ومع ذلك فقد عرفت الأندلس في عصر الولاة نوعاً من الثقافة، كانت اللبنة الأولى لبناء صرح حضارة العرب فيها. فقد دخل الأندلس في فترة الولاة مجموعة من الصحابة والتابعين، رافقوا عمليات الفتح أو بعدها[2]، وكان واجبهم الأول بعد الجهاد تفقيه الناس بأمور الدين، وتخطيط المساجد في أمهات المدن الأندلسية المفتوحة، والتركيز على علوم الدين واللغة أولاً[3]. ويبدو لنا أن أماكن التعليم في هذا العصر كانت لا تتجاوز حلقات المساجد أولاً، والكتاتيب التي ورد لها ذكر في أواخر عصر الولاة ثانياً[4].

(1) هيكل، الأدب الأندلسي، ص 58 ـ الحجي، المرجع السابق، ص 207 وما بعدها.

(2) ينظر، المراكشي، المعجب، ص 19 ـ 10 ـ المقري، نفح الطيب، جـ 2، س 51 وما بعدها ـ هيكل، المرجع السابق، ص 60 ـ 61ـ الحجي، المرجع السابق، ص 149 وبعدها.

(3) صاعد، طبقات الأمم، ص 62.

(4) كريم عجيل حسين، الحياة العلمية، ص 208، ص 223.

وفي هذا العصر ظهرت البوادر الأولى للأدب العربي المتمثل في الشعر والنثر والخطابة، فهناك أبيات من الشعر نُسبت إلى فاتح الأندلس الأول طارق بن زياد منها:

ركبنا سفيناً بالمجاز مقيَّرا عسى أن يكون الله منّا قد اشترى[5]

ونسب إليه الخطبة المشهورة: «أيها الناس، أين المفر. . .»، فلو صحت نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد، لقررنا أن هذين النصين كانا أول أدب عربي ظهر في الأندلس خلال عصر الولاة، إلا أن الشك يدور حول نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد، وقد قدم بعض الباحثين دراساتهم في هذا المجال[6].

إلا أن بعض المصادر حفظت لنا بعض الشعراء في عصر الولاة ونماذج من شعرهم، ويأتي في طليعتهم: أبو الأجرب جعونة بن الصمة الذي هجا الصميل بن حاتم زعيم القبائل القيسية ومن ثم مدحه بعد ذلك، وكذلك بكر الكنائي، وقد سأل أبو نواس عباس بن ناصح عندما التقى به في العراق عن هذين الشاعرين وعن نماذج من شعرهما.

ومن شعر جعونة:

ولقد أراني من هواي بمنزل عال ورأسي ذو غدائر أفرعُ
والعيش أغيد ساقط أفنانه والماء أطيبه لنا والمرتع[7]

ومن شعراء هذا العصر أيضاً، الوالي أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي 125 ـ 128هـ/ 743 ـ 746م، والذي كان يلقب بعنترة الأندلس[8]، ومن شعره:

فليت ابن جواس يخبر أنني سعيت به سَعْيَ امرىء غير عاقلِ
قتلتُ به تسعين تحسب أنهم جذوع نخيل صُرِّعت في المسايل
ولو كانت الموتى تباع اشتريته بكفي وما أستثنيت منها أناملي[9]

هذه النماذج البسيطة من الشعر قالها شعراء مشارقة وفدوا إلى الأندلس، فهو

---

(5) المقري، نفح الطيب، جـ، ص 124.

(6) الحجي، المرجع السابق، ص 57 وبعدها ـ هيكل، المرجع السابق، ص 69 وبعدها، السامرائي، «طارق بن زياد بين الخطبة وإحراق السفن» مجلة آفاق جامعية.

(7) ينظر، ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 131 ـ 132 ـ المقري، نفح الطيب، جـ 2، ص 156ـ الضبي، بغية الملتمس، ص 261 (رقم، 626).

(8) الضبي، بغية الملتمس، ص 276 ـ رقم (686)، الحميدي، جذوة المقتبس، ص 200 رقم (402) ـ مجهول، أخبار مجموعة، ص 56 ـ 60.

(9) الحميدي، المصدر السابق، ص 200 ـ 201 ـ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 18 ـ 19.

يتناول المدح والهجاء والفخر والحماسة على غرار شعر المشرق، ولا أثر للأندلس على هذه النماذج التي قيلت، سوى أنها قُرئت في أرض الأندلس ليس إلا.

وبجانب الخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد، فإن ظروف العصر تتطلب الخطب الحماسية أولاً في مجال الحروب الجهادية أو في مجال الحروب القبلية، كما أن دعاة الإسلام في الأندلس يتطلب الأمر منهم إلقاء الخطب الدينية في أيام الجمعة أو أوقات الدعوة ثانياً[10].

والكتابة كانت ضرورية تقتضيها ظروف الفتح وإدارة البلاد، وإعطاء المواثيق وكتابة المعاهدات. ومن أشهر كتابات هذا العصر عهد موسى بن نُصير إلى تُدمير، وعهد بنبلونة، ورسالة يوسف الفهري آخر ولاة الأندلس إلى عبد الرحمٰن الداخل[11]. ومن أشهر كتاب هذا العصر خالد بن يزيد كاتب يوسف الفهري، وكذلك أمية بن زيد الذي دخل الأندلس مع جنود بلج بن بشر، واتصل بخالد بن يزيد فجعله كاتباً معه[12].

وكانت الخصائص الفنية لهذا النثر هي خصائص النثر المشرقي نفسه الذي كان معروفاً في عصر بني أمية، فهو يميل إلى الإيجاز، ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها، ثم خلوه من المقدمات الطويلة[13].

وفي الوقت نفسه لم يتوفر لفاتحي الأندلس التأثر بالثقافة القوطية المحلية، نظراً لضعف هذه الثقافة، وضيق أفقها، واقتصارها على المجال الديني بصورة خاصة. إضافة إلى أن ظروف الأندلس السياسية في عصر الولاة، أوجدت فيها جواً لا يلائم أي تقدم في مضمار الثقافة، لانهماك الناس بالمنازعات الكثيرة التي سيطرت على مسرح الأحداث، لذا اقتصر اقتباس الأندلسيين من الثقافة في هذا العصر على ما هو ضروري من المشرق العربي، لتمشية أمور الحياة وفق أحكام الدين الإسلامي. أما في مجال العلوم الصرفة، فكان أهل الأندلس منذ الفتح حتى بداية عصر الإمارة يعتمدون في الطب على كتاب مترجم من كتب المسيحيين يقال له الإبرشيم (المجموع ـ الجامع)[14].

---

(10) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 34 ـ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 61 ـ هيكل، المرجع السابق، ص 65.

(11) ينظر، الحميري، الروض المعطار، ص 62 ـ 63 ـ العذري، نصوص عن الأندلس، ص 4 ـ 5ـ السامرائي، الثغر الأعلى، ص 86.

(12) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ 2، ص 45 ـ 46.

(13) هيكل، المرجع السابق، ص 66 ـ 67.

(14) أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس، جـ 1، ص 169 ـ 170 ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 207.

من المعروف أن الحضارة الأندلسية لم تنشأ فجأة، بل مرت في أدوار مختلفة، وخضعت لمؤثرات حضارية مشرقية تربطها بالوطن الأم باعتبارها جزءاً منه، كما خضعت أيضاً لمؤثرات حضارية محلية بحكم البيئة التي نشأت فيها[15].

ففي عصر الولاة كانت الأندلس تابعة للسيادة الأموية سواء في بلاد الشام أم في قرطبة، ولهذا كان من الطبيعي أن تتأثر بالمظاهر الحضارية الشامية جميعاً، وهو ما يسمى بالتقليد الشامي:

فمن الناحية الدينية، اعتنق الأندلسيون في هذه الفترة مذهب الإمام الأوزاعي (عبد الرحمٰن بن يحمد الأوزاعي 88 ـ 157هـ)[16]، الذي كان من المجاهدين الذين رابطوا في مدينة بيروت لصد غارات العدو البيزنطي البحرية، ولهذا اهتم مذهبه بالتشريعات الحربية وأحكام الجهاد، وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلسيين في هذه الفترة من حياتهم القائمة على حروب الجهاد، ولهذا اعتنقوا هذا المذهب.

وتختلف الروايات حول العالم الأول الذي نقل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس فترجح بين القاضي الغرناطي أسد بن عبد الرحمٰن (توفى عام 150هـ) وصعصعة بن سلام الشامي الأندلسي (توفى عام 192هـ أو 202هـ)[17] أما الحياة الأدبية في الأندلس في هذا العصر فقد كانت صدى لحياة الشام الأدبية، فالشعر الذي قاله أشهر شعراء هذه الفترة ـ وقد ذكرنا بعضهم ـ كان يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجرير بالمشرق[18].

وإذا أخذنا بالتقسيم السياسي لعصر الإمارة 138 ـ 316هـ حسب منهج الدكتور أحمد بدر[19]، وهو على الترتيب الآتي:

1 ـ عصر التأسيس 138 ـ 172هـ/ 756 ـ 788م (عصر عبد الرحمٰن الداخل).

2 ـ عصر التوطيد 172 ـ 206هـ/ 788 ـ 822م (عصر هشام الأول 172 ـ 180هـ، وعصر الحكم بن هشام 180 ـ 206هـ).

---

(15) العبادي، المرجع السابق، ص 316.

(16) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ 3، ص 127.

(17) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، جـ 1، ص 74 (رقم 239) ـ الذهبي، العبر في خبر من غبر، جـ 1، ص 309.

(18) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 37 ـ 47 ـ السامرائي، «أثر العراق الحضاري على الأندلس»، ص 6.

(19) دراسات في تاريخ الأندلس، جـ 1، ص 72 وما بعدها.

3 ـ عصر الاستقرار والازدهار 206 ـ 273هـ/ 822 ـ 886م وهو عصر عبد الرحمٰن الأوسط 206 ـ 238هـ وعصر ابنه الأمير محمد 238 ـ 273هـ.

4 ـ عصر الحرب الأهلية، 273 ـ 300هـ/ 886 ـ 912م، وهو عصر الأمير المنذر بن محمد 273 ـ 275هـ وعصر الأمير عبد الله بن محمد 275 ـ 300هـ، نرى أن الملامح الشامية للحضارة العربية دخلت الأندلس في عصر الولاة وعصر التأسيس من عصر الإمارة، وأن الملامح الحجازية دخلت في عصر التوطيد من عصر الإمارة، كما أن الملامح العراقية دخلت في عصر الاستقرار والإزدهار من عصر الإمارة وما تلاه من عصور[20].

أما التأثير الحجازي، فبدأ في عصر التوطيد، ولعل السبب الذي أدى إلى ضعف التأثير الشامي على الأندلس هو أن سليمان وعبد الله من أولاد الداخل قد تمردوا على أخيهم الأمير هشام، وكان وراءهما الحزب الشامي في الأندلس، فلما انتصر الأمير هشام على إخوانه، هربوا إلى شمالي أفريقية، وضعف الحزب الشامي بالأندلس، فنتج عن ذلك ضعف شأن التأثير الشامي الذي سيطر على الأندلس، وبذلك نجد الأندلسيين، وبخاصة أميرهم، يبحثون عن آفاق حضارية جديدة غير الشامية، فاهتدوا إلى الملامح الحجازية.

وكان الحجاز في القرن الثاني للهجرة مركزاً حضارياً هاماً للفنون والموسيقى، والعلوم الدينية، ففي مجال الفنون، ظهرت الممارسات الموسيقية الأولى في الحجاز وهي عبارة عن الموسيقى العربية الأصلية الممزوجة بالمؤثرات الفارسية والبيزنطية نتيجة حركة الفتوحات العربية، وكان هناك تنافس بين مكة والمدينة في هذا المجال. وسرعان ما انتقل هذا الفن إلى الأندلس عن طريق الجواري والمغنّين الذين رحلوا إلى الأندلس ونقلوا معهم هذه المظاهر الحضارية. وفي المقدمة تأتي المغنية (عجفاء) التي أثارت إعجاب الأندلسيين في عهد الأمير هشام، ويأتي بعدها الثنائي الغنائي الحجازي (علون وزقون) في عهد الأمير الحكم[21].

أما في مجال العلوم الدينية، فقد كانت المدينة المنورة مركز العلوم الدينية، وقد توج نضوج هذه العلوم وجود الإمام مالك بن أنس فيها (توفي عام 179هـ) صاحب

---

(20) السامرائي، «أثر العراق الحضاري»، ص 2.

(21) المقري، . نفح، جـ 3، ص 130 ـ سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ 2، ص 86.

كتاب الموطأ الذي يعني (السهل الواضح)، وقد ذاعت شهرة الإمام مالك في العالم الإسلامي، فأقبل الأندلسيون على اعتناق مذهبه في عهد الأمير هشام. وشاع هذا المذهب في الأندلس بعد أن استهوى الأمير هشام ومن حوله من الفقهاء ورواد الحديث، تاركين مذهب الأوزاعي. والروايات تعزو هذا التحول إلى الإعجاب المتبادل بين مالك والأمير هشام، هذا الإعجاب الذي جسده الفقهاء الأندلسيون تلاميذ مالك، دون أن يرى أحدهم الآخر(22). بالإضافة إلى التعاطف بين الأمير هشام ومالك الناجم عن عداوة الاثنين للعباسيين، إذ ساند الإمام مالك ثورة محمد ذي النفس الزكية في المدينة عام 145هـ ضد الخليفة العباسي المنصور، وقد افتى مالك بجواز تحلل المسلمين من بيعة المنصور، ولذا لقي كبير عناء من العباسيين(23).

كذلك لا ينسى دور علماء الأندلس الذين رحلوا إلى الحجاز ودرسوا على يد الإمام مالك، فنقلوا مذهبه إلى الأندلس، وفي مقدمتهم أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمٰن اللخمي (توفي عام 204هـ أو قبلها) والملقب بـ(شبطون) الذي أدخل مذهب مالك إلى الأندلس، وأخذه عنه يحيى بن يحيى الليثي (عاقل الأندلس) كما لقبه الإمام مالك. وتذكر الروايات أن يحيى بن يحيى أخذ عن الإمام مالك بالذات وروى عنه الموطأ، وتعتبر روايته من أصح الروايات(24). ويليه عيسى بن دينار الفقيه المشهور، وعبد الملك بن حبيب السلمي الذي أخذ من طبقة أصحاب مالك وعاد إلى الأندلس ليدون كتاب الواضحة(25).

وتعلل الروايات أن الشبه الكبير بين طبيعة أهل المغرب والأندلس وطبيعة أهل الحجاز، من حيث البساطة، كان من أسباب انتشار المذهب المالكي في مغرب العالم الإسلامي. ولهذا إن عقلية أهل المغرب والأندلس كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث، وجانبوا نزعة أهل الرأي والقياس (مذهب أبي حنيفة)(26).

---

(22) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 224 ـ بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس. ص 43.

(23) المسعودي، مروج الذهب، جـ 3، ص 340 ـ ابن الأثير، الكامل، جـ 5، ص 532.

(24) ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ 2، ص 352 ـ عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، ص 40.

(25) ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ 1، ص 260 ـ 271 (رقم 816) ـ جـ 1، ص 203 (رقم 610)، جـ 2، ص 180 (رقم 1556) ـ أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ 3، ص 48 ـ 49ـ أحمد بدر، المرجع السابق، جـ 1، ص 173.

(26) العبادي، المرجع السابق، ص 326 ـ 327 ـ أحمد أمين، المرجع السابق، جـ 3، ص 29.

ولم يقف الأمر عند انتشار المذهب المالكي في الأندلس في هذه الفترة فقط، بل تعداه إلى انتشار قراءة أهل المدينة للقرآن ـ وبالذات قراءة نافع بن عبد الرحمٰن (توفي عام 169هـ)[27] للقرآن (قارىء أهل المدينة) في الأندلس. وينسب إلى الغازي بن قيس إدخال هذه القراءة على عهد الأمير الداخل، وقد امتدح الإمام مالك هذه القراءة. وكذلك قلدت الأندلس الحجاز في تنقيط القرآن وتشكيله[28]. وحاول المذهب الحنفي طرق أبواب الأندلس، إلا أن ولاة الأمر فيها وبخاصة الأمير هشام أغلقوا الأبواب دون دخول هذا المذهب[29].

أما الأدب الأندلسي في فترة التأسيس والتوطيد، فسار على النهج التقليدي المشرقي من فخر وحماسة ومدح، إلا أنه أيضاً ظهرت بوادر أوليات الأدب الأندلسي، فهناك التجديد الموضوعي، وتزعمه الشاعر أبو المخشي عاصم بن زيد العبادي، الذي يتحدث في شعره عن محنته حين فقد بصره، فعبر عن هذه المحنة تعبيراً إيحائياً بسيطاً مؤثراً، وذلك حيث ذكر زوجته وخضوعها للأعداء بسبب فقدان عائلها لنور عينيه، وهذا ما يسمى بالتجويد الفني:

خضعت أم بناتي للعدا إذ قضى الله بأمر فمضى

ثم أخذ الشاعر بجسم محنة فقدان البصر، فيجعل من يصاب بها:

وإذا نال العمى ذا بصر كان حياً مثلُ ميت قد ثوى[30]

أما الأمير عبد الرحمٰن الداخل فكان شاعراً مقلداً، إلا أنه ركز على الجانب العاطفي عند وصفه للنخلة بشعره المعروف[31]. ومن شعراء هذا العصر أيضاً الأمير الحكم بن هشام الذي وصف بالبلاغة والفصاحة وغلب على شعره الجانب الحماسي والعاطفي[32]. أما الشاعر عباس بن ناصح الثقفي فكانت له رحلة مشرقية، وبعد رجوعه إلى الأندلس عينه الأمير الحكم على قضاء الجزيرة الخضراء مع شذونة، واشتهر شاعرنا

(27) عياض، ترتيب المدارك، جـ 3 ـ 4، ص 348 ـ الزبيدي، طبقات النحويين، ص 254ـ حازم غانم، الحياة العلمية، ص 168.

(28) ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ 1، ص 345 (رقم 1015) الحميدي، المصدر السابق، ص 324 (رقم 748) ـ ابن القوطية، تاريخ، ص 25.

(29) العبادي، المرجع السابق، ص 327 ـ 328.

(30) هيكل، المرجع السابق، ص 86 وبعدها.

(31) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 60 ـ المقري ـ نفح، جـ 2، ص 76.

(32) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 79 ـ 80.

هذا بالمدح والفخر وتناول أحياناً الزهد[33].

وحسانة بنت أبي الحسين التميمية، فهي أولى الشواعر الأندلسيات، وشعرها مزيج من الرثاء والشكوى والمدح وطلب العون، فهو شعر يتسم بالتجويد الفني والتركيز العاطفي[34].

واستمر النثر في هذه الفترة يسير على الأسلوب نفسه، الذي سار عليه في عصر الولاة، فمن نماذج النثر: خطب الأمراء يحثون بها أصحابهم وجنودهم على القتال، ووصايا الأمراء لأولادهم، ومن أشهر الكتاب في هذه الفترة فطيس بن عيسى، وخطاب بن زيد، اللذان كانا كاتبين للأمير هشام ثم لابنه الأمير الحكم، وكذلك حجاج العقيلي كاتب الحكم[35].

وإذا كان الشاعر عباس بن ناصح الثقفي ذا شهرةٍ أدبية، فشهرته العلمية تعادل شهرته السابقة، فقد كان بارعاً في الهندسة والفلك والفلسفة[36].

ونبغ في عهد الأمير الحكم أبو القاسم عباس بن فرناس، الذي برع منذ فتوته في الفلسفة والفلك والكيمياء، وهو أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وضع آلة فلكية تعرف بالميقاتة لتعريف الوقت، وحاول الطيران كما هو مشهور[37]. وعاصره أيضاً يحيى بن الحكم الغزال، وبالرغم من اشتهاره بالشعر، إلا أنه كان عالماً بالفلسفة والفلك، وله أرجوزة طويلة في أبواب العلم لم تصلنا[38]، واشتهر هذان العالمان في عصر الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم، أي فترة الإزدهار.

وفي فترة الاستقرار والإزدهار من عصر الإمارة 206 ـ 273هـ هبت رياح التأثير العراقي الذي ازدهر في هذه الفترة لعوامل كثيرة، على الأندلس، وفي الوقت نفسه توفرت في الأندلس عوامل جذب لهذه الحضارة، منها: رغبة الأمير عبد الرحمٰن الأوسط 207 ـ 238هـ في ترك سياسة الإنعزال عن العراق التي سار عليها آباؤه، وأن

---

(33) المقري نفح، جـ 1، ص 161 ـ هيكل، المرجع السابق، ص 105 ـ 106.

(34) أيضاً. جـ 1، ص 488 ـ أيضاً، ص 107 وبعدها ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 170 ـ بالنشا، تاريخ، ص 57.

(35) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 68 ـ هيكل، المرجع نفسه، ص 110 ـ 113.

(36) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 252 ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 161.

(37) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص 296 (رقم 881).

(38) محمد صالح البنداق، يحيى بن الحكم الغزال، ص 28.

يساير حركة الإزدهار الحضاري التي اشتهرت بها بغداد، ففتح أبواب الأندلس أمام التيارات العراقية. بالإضافة إلى بروز مظاهر الترف والرفاه في المجتمع الأندلسي بسبب الإزدهار الاقتصادي الأندلسي، مع الأخذ بنظر الاعتبار إقبال أهل الأندلس على الحياة الفكرية بسبب الاستقرار السياسي وما تبعه من نشاط اقتصادي[39].

ويأتي في مقدمة من اهتموا بالحركة العلمية الأمير عبد الرحمٰن الأوسط الذي كان عالماً بالشريعة والفلسفة، وقد شبه بالمأمون العباسي في طلبه للكتب الفلسفية[40]. وكذلك ابنه الأمير محمد الذي أنشأ نواة مكتبة القصر، كما أنه أقطع أحد العلماء الوافدين من المشرق إقطاعاً، وعنه روى الحديث[41]. وقد ساعد الناس في مسعاهم هذا حصول تطورات ملائمة في عهدهم، منها انتقال صناعة الورق، بعد انتشارها في المشرق، إلى الأندلس وإقامة مراكز لصناعته في مدينة طليطلة وشاطبة[42].

وهناك عوامل عديدة ساعدت على انتقال مظاهر الحضارة العراقية إلى الأندلس في هذه الفترة وهي:

1 ـ الوفود:

تذكر لنا بعض الروايات أن الأمير الحكم أو الأمير عبد الرحمٰن الأوسط أرسل وفداً إلى العراق برئاسة العالم عباس بن ناصح لدراسة الآثار العلمية المنقولة إلى العرب عن اليونان واستنساخها له. وبعد رجوعه الوفد حمل معه كتاب الحساب الهندي المعروف عند العرب باسمه السند هند[43].

وبذلك دخلت الأرقام الهندية الأندلس، ومنها انتقلت إلى أوروبا، ومعنى هذا أن الوفد الأندلسي عرف هذا الكتاب واطلع عليه في العراق. لأن العرب عرفوا في العصر العباسي الأول كتاب السد هانتا في الرياضيات من الهنود، وقد أمر الخليفة المنصور 136 ـ 158هـ بترجمته إلى العربية، فترجمه إبراهيم بن حبيب الفرازي، وعرف هذا الكتاب باسم السند هند، وألف الفرازي على غراره كتاباً عرف باسم السند هند الكبير.

---

(39) السامرائي، «أثر العراق الحضاري»، ص 9 وما بعدها ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 161.

(40) المراكشي، المعجب، ص 48 ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 522.

(41) ابن الآبار، التكملة، جـ 1، ص 8.

(42) أحمد بدر، المرجع السابق، جـ 1، ص 176.

(43) ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 45 ـ بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص 45 ـ السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص 341ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص161.

وفي عصر المأمون 198 ـ 218هـ طلب من العالم محمد بن موسى الخوارزمي تصحيح هذا الكتاب، ويذكر الخوارزمي شكلين للأرقام الهندية كان يكتبهما العرب، بقي أحدهما المعروف بالأرقام الهندية، وهو الذي ساد في مشرق العالم الإسلامي، بينما اندثر الشكل الآخر المعروف بالأرقام الغبارية الذي ساد في مغرب العالم الإسلامي، ومنها انتقل إلى أوروبا، وهو أصل الأرقام العربية الآن[44].

2 ـ الرحلة في طلب العلم:

قام العديد من طلاب العلم الأندلسين بالرحلة إلى العراق للتزود بالعلوم من منابعها، وقد أمضى بعضهم سنوات طويلة تجاوزت العشرين سنة أحياناً من أجل هذه المهمة، أمثال محمد بن عبد السلام الخشني[45]، وأنفق الكثيرون القسم الأكبر من ثرواتهم في شراء الكتب التي ادخلوا منها الكثير إلى الأندلس، بالإضافة إلى أن غيرهم حملوا العلم رواية في الصدور[46].

ومن نماذج هؤلاء العلماء يحيى بن الحكم الغزال الذي رحل إلى بغداد ودرس الشعر العربي في العراق هناك وقلّد أبا نواس في شعره[47]. وكذلك عبد الله بن محمد بن قاسم الذي رحل إلى العراق ودرس فيه المذهب الظاهري ونقل أصوله إلى الأندلس، وعالم الحديث المشهور محمد بن وضاح، رحل إلى المشرق ودرس على أيدي كبار علماء الحديث ومن أشهرهم الإمام أحمد بن حنبل[48].

كذلك اشتهر عبد الله بن مسرة بن نجيح بالفلسفة وعلم الكلام وقام برحلته المشرقية إلى العراق ونزل البصرة في أواخر عصر الإمارة مع أخيه. وقد وُصف عبد الله هذا بكونه أشقر شديد الحمرة مما جعل أحد شيوخه في البصرة يحذره مازحاً «إياك أن يبيعك أهل البصرة يا صقلبي»، ثم رجع إلى الأندلس يبشر بهذه العلوم التي درسها في العراق[49]. وقد ازدهرت مدرسة ابن مسرة الفلسفية في عصر الخلافة.

---

(44) هونكة، شمس العرب، ص 84 ـ أحمد نصيف الجنابي، الرياضيات عند العرب، ص 35 ـ 36 ـ عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 223.

(45) الحميدي، المصدر السابق، ص 68 ـ (رقم 100).

(46) أحمد أمين، المرجع السابق، جـ 3ص 23.

(47) البنداق، المرجع السابق، ص 57 ـ 58، ص 82.

(48) ابن الفرضي. المصدر السابق، جـ 1،ص 219 (رقم 655)، جـ 2، ص 15 (رقم 1136).

(49) صاعد الطليطلي، طبقات، ص 28 ـ 29 ـ ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ 1، ص 217 (رقم 652).

3 ـ دور التجار:

فتحت أبواب الأندلس أمام التجار المشارقة، وبخاصة في عهد الأمير عبد الرحمٰن الأوسط، فبجانب نقل التجار للسلع والبضائع إلى الأندلس، نقلوا معهم بعض الكتب العلمية وباعوها في أسواق الأندلس، حيث اشتراها علماء الأندلس واستفادوا منها في تنمية حركتهم العلمية. وقد كان في مقدمة هؤلاء التجار محمد بن موسى الرازي (توفي عام 273هـ) وهو جد أسرة الرازي التي اشتهرت بكتابة التاريخ في عصر الخلافة[50]. وكذلك دخل كتاب العروض للخليل بن أحمد الفراهيدي إلى الأندلس على يد تاجر أهداه إلى الأمير عبد الرحمٰن الأوسط، وبدا هذا الكتاب عسير الفهم على أهل البلاط، وبعد أن اطلع عليه العالم عباس بن فرناس فسره وسهل فهمه لأهل الأندلس[51].

4 ـ هجرة العلماء إلى الأندلس:

نتيجة الاضطراب السياسي في المشرق، هاجر بعض العلماء إلى الأندلس، فلقوا الترحاب والرعاية في ربوعها، فكان الأمر كما يقول أحمد أمين: «... علماء يضيق بهم الشرق من الفاقة فيرحلون إلى الغرب، وعلماء من الغرب يعوزهم العلم فيرحلون إلى الشرق...»[52]. ومن العلماء الذين رحلوا من المشرق إلى الإندلس في هذه الفترة، محمد بن موسى الرازي وهو من مدينة الري في إيران، ورأس عائلة المؤرخين المشاهير في عصر الخلافة (أحمد بن محمد وابنه عيسى بن أحمد). وكان محمد بن موسى الرازي تاجراً مشرقياً اتصل بالأمير محمد وعمل لديه في التجسس على أوضاع المشرق، وهو الذي ألّف كتاب الرايات في التاريخ[53].

وفي عصر الإزدهار تقدمت العلوم الطبية في الأندلس، وقد ساهم في تقدمها بعض الأطباء المشارقة الذين رحلوا إلى الأندلس، فعلموا أهلها وما وصل إليه أهل العراق في الطب. ويأتي في مقدمتهم إسحاق بن عمران العراقي الأصل الذي رحل إلى الأندلس[54]. وإذا كان رائد الحركة الطبية في الأندلس في هذا العصر أحمد بن إياس

---

(50) ينظر، العبادي، المرجع السابق، ص 34 ـ أحمد بدر، المرجع السابق، جـ 1، ص 177، ص 186.

(51) أحمد بدر، المرجع السابق، جـ 1، ص 184.

(52) ظهر الإسلام، جـ 3، ص 233.

(53) الحميدي، المصدر السابق، جـ 3، ص 104 (رقم: 175) ـ عبد البديع، المرجع السابق، ص 68.

(54) أحمد أمين، المرجع السابق، جـ 3، ص 233.

(حمدين بن أبا) الذي ينسب إليه يسون حمدين (شراب) وهو يتألف من مائة صنف من الأعشاب، فقد كان أستاذه طبيباً عراقياً من حران هاجر إلى الأندلس في فترة الإزدهار، وهذا الطبيب المشرقي هو الذي أدخل للأندلس معجوناً لأوجاع الجوف، كان يبيع السقية منه بخمسين ديناراً، وكان حمدين أحد خمسة أطباء أخذوا العلم منه[55].

وأدت هذه العوامل إلى انتشار بعض العلوم التي تعتبر عراقية النشأة في الأندلس، وقد شهدت فترة الإزدهار من عصر الإمارة دخول النتاج العربي العراقي من علوم اللغة والنحو، فنرى عبد الرحمٰن بن موسى الهواري يدرك الأصمعي في العراق ويأخذ منه علم النحو مباشرة، ولكنه لم يكتف بذلك بل سلك مسلك علماء البصرة بأن داخل الأعراب وتردد في بواديها وحفظ الكثير[56].

وكذلك محمد بن عبد السلام الخشني الذي قضى في العراق خمسة وعشرين عاماً، فأخذ علم اللغة والنحو والشعر الجاهلي من شيوخ يروونها عن طبقة المشاهير في هذا الباب كالأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى وسيبويه، ومن أشهر شيوخه سهل بن محمد السجستاني والعباس بن الفرج الرياشي[57]. كذلك قام جودي بن عثمان النحوي (توفي عام 198هـ) بلقاء الكسائي والفراء وأبي جعفر الرؤاسي أثناء رحلته للمشرق، وهو أول من أدخل للأندلس كتاب الكسائي[58].

ساهم التأثير الحضاري الشرقي في تطوير حضارة العرب في الأندلس، ابتداءً من فترة الازدهار في عصر الإمارة، وما تلاها من عصور، إلا أن هذا التأثير لقي في البداية معارضة شديدة من بعض العلماء ورجال البلاط ضد علماء الأندلس الذين تأثروا بالحضارة العراقية أمثال العالم والأديب المعروف عباس بن فرناس الذي لقي الأمرين من جراء ذلك، ولم يخفف عن هؤلاء العذاب، إلا رعاية الأمير عبد الرحمٰن الأوسط لهم[59]. كما أن التطور الحضاري في الأندلس خلال هذه الفترة زاد وكبر من حجم

---

(55) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص 93 ـ 94 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 114 (حاشية 1) ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 211.

(56) ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ 1، ص 257 ـ 258 (رقم 778).

(57) الحميدي، المصدر السابق، ص 68 (رقم 100) ـ الحموي، معجم الأدباء، جـ 11، ص 113ـ جـ 12، ص 44.

(58) الزبيدي، طبقات، ص 256 ـ عبد البديع، المرجع السابق، ص 73.

(59) ينظر، محمد صالح البنداق، المرجع السابق، ص 37 ـ العبادي، المرجع السابق، ص 364 ـ عبد البديع، المرجع السابق، ص 56 ـ 57.

ظاهرة الاستعراب بالأندلس، أي إقبال الإسبان على تعلم اللغة العربية وآدابها، وتقليد العرب في عاداتهم الإجتماعية. وإزاء هذا الأمر ـ الذي كان للتيار الفكري العراقي تأثير واضح في كل هذه المتغيرات ـ كان لبعض رجال الدين الإسبان المتعصبين موقف معادٍ لهذا التيار. وإذا صحت ظاهرة الاستشهاد (الانتحار الديني) في قرطبة 235 ـ 244هـ/ 850 ـ 859م، ومحورها الطعن بالإسلام ومبادئه وشتم رسول ﷺ علناً في المساجد والساحات العامة أولاً، ومحاولة إعادة بعض من أسلم حديثاً من الإسبان إلى دينه القديم ثانياً، والتي ذكرتها المراجع الأوروبية[60]، فنحن نميل إلى أن هذه الحملة التي قادها الغُلاة تعود إلى ظاهرة التطور الحضاري الأندلسي في هذا العصر بسبب التأثيرات الحضارية المشرقية[61].

ويعد منهج تفسير القرآن بالمأثور، من أبرز المناهج التي اشتهرت في الأندلس، وتزعم هذا المنهج فيها العالم الفقيه بقي بن مخلد (توفي عام 276هـ) في أواخر عصر الإزدهار، وقد ألف كتاباً في تفسير القرآن بلغ فيه درجة من الجودة والإتقان[62]. له رحلة مشرقية، وبعد عودته إلى الأندلس لاقى الأمرين من بعض الفقهاء ولم ينقذه من هذا الوضع الحرج إلا المناظرة المشهورة لأعدائه الفقهاء[63]. واستمرت شهرته في العصور التالية. وعلى الرغم من سوء الأحوال السياسية الداخلية للأندلس التي عَجَّت بالفتن والمنازعات في عصر الحروب الأهلية (273 ـ 300هـ) ـ وهو العصر الأخير من فترة عصر الإمارة ـ، إلا أن هذه الفترة شهدت تقدماً ملحوظاً في الأدب الأندلسي، وبخاصة في مجال الشعر، الذي ظهرت فيه اتجاهات مختلفة، فهناك الاتجاه القومي العربي، إذ وقف بعض الشعراء العرب يمتدحون العروبة ويمدحون العرب ويفاخرون بهم ضد المولدين، كما وقف بعض الشعراء المولدين موقف المعادي للعرب ودعوا إلى الخلاص منهم، وقد تكون هذه الحركة متأثرة بحركة الشعوبية في المشرق، وهذا هو الإتجاه الثاني قال شاعر العرب:

منازلنا معمورة لا بلاقع ... وقلعتنا حصن من الضيم مانع

---

(60) ينظر، بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 485 ـ الحجي، أندلسيات، جـ 2، ص 27 ـ لين پول، المرجع السابق، ص وبعدها ـ بيضون، المرجع السابق، ص 224 ـ 245 ـ .Provencal op. Cit, 1, P: 226.

(61) السامرائي، «أثر العراق الحضاري»، ص 22.

(62) ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس، ص 162 ـ 163.

(63) ابن الفرضي، المصدر السابق، ص 91 رقم 283 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 109 ـ 110.

ورد عليه الشاعر الشعوبي المدجني:

منازلهم منهم قفار بلاقع   تجاري السفى فيها الرياح الزعازع[64]..

وبرز أيضاً الشعر الذي وصف المعارك الحربية، نظراً لكثرة المعارك بين الأمراء الأمويين في هذه الفترة والخارجين عليهم، وللشاعر والعالم عباس بن فرناس شعرٌ في هذا المجال وكذلك الشاعر سعيد بن جودي السعدي[65]. والاتجاه الآخر في الشعر في هذه الفترة، هو نشأة الموشحات في عهد الأمير عبد الله. وكان مخترع الموشحات في عصر هذا الأمير مقدم بن معافى القبري[66]، وكان هذا الأمر استجابة إلى ازدهار الغناء في الأندلس منذ دخول زرياب الأندلس أولاً، ونتيجة لامتزاج العرب بالإسبان ثانياً[67]. والموشح شعر فصيح، وكلمة الموشح مأخوذة من الوشاح، كالقلادة مُرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وجنبيها[68]. ومن أشهر شعراء هذه الفترة ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد، واستمرت شهرته إلى عصر الخلافة[69].

أما النثر فقد تطور في هذه الفترة، وكثر عدد الأدباء المشتغلين به، فكان للأمير عبد الله، الكاتب موسى بن زياد وعبد الله بن محمد بن أبي عبده وعبد الله بن محمد الزجالي[70]، كما أن بعض المسيحيين ذوي الأصول الإسبانية عملوا في الكتابة للأمير محمد بن عبد الرحمٰن الأوسط أمثال (قومس بن أنتنيا) الذي أسلم فيما بعد[71].

وقد كان الجاحظ (توفي 255هـ) ذا شهرة لدى الأندلسيين في هذه الفترة، وقد وصلت بعض كتبه إليهم مثل كتاب البيان والتبيين، كما كان يقصده بعض علماء الأندلس للتلمذة على يديه[72]. وقد وجدت نماذج لبعض الرسائل والمحاورات والتوقيعات في هذا العصر تدل على تقدم النثر الأندلسي في هذه الفترة[73].

---

(64) ابن حيان، المقتبس، جـ 3، ص 62 ـ هيكل، المرجع السابق، ص 143.

(65) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 111 ـ 112 ـ ابن حيان، المقتبس، جـ 3، 29.

(66) ابن خلدون، المقدمة، ص 584 ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 99.

(67) الحجي، تاريخ الموسيقى الأندلسية، ص 38 ـ 39.

(68) جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص 293.

(69) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ 1، ص والمقدمة.

(70) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 120 ـ ابن حيان، جـ 3، ص 6.

(71) ابن القوطية، تاريخ، ص 82 ـ 83 ـ هيكل، المرجع السابق، ص 170.

(72) معجم الأدباء، جـ 16، ص 104.

(73) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 154 ـ حازم عبد الله، النثر الأندلسي، ص 73 ـ 74 ـ عنان، دولة الإسلام، 1/350.

وفي هذه الفترة دخل الأندلس المذهب الشافعي، ويرجع دخوله إلى الفقيه قاسم بن محمد بن سيار القرطبي (توفي عام 278هـ)[74]. ونشطت كذلك مدرسة ابن مسرة في هذه الفترة، وما يليها من عصور، كما سنوضح ذلك. ونشطت العلوم الطبية في هذه الفترة، ومن أشهر الأطباء (ابن ملوكة النصراني) الذي كان يصنع الأدوية بنفسه، ويفصد العروق، وكذلك (إسحاق الطبيب)[75].

أما عصر الخلافة الأندلسية 300 ـ 422هـ، فهو عصر النضوج للعلوم والفكر الأندلسي، ونظراً لطول هذه الفترة أولاً، ولتسهيل دراسة الفكر الأندلسي خلال هذا العصر ثانياً، نقسم هذا العصر إلى ثلاثة أقسام: ـ

1 ـ فترة الخلافة 300 ـ 366هـ وتولى الحكم فيها الخليفة الناصر 300 ـ 350هـ وابنه الحكم المستنصر، 350 ـ 366هـ.

2 ـ فترة الحجابة 366 ـ 399هـ وهي الفترة التي سيطر فيها الحاجب المنصور وأولاده على الخلافة الأندلسية.

3 ـ فترة الفتنة، 399 ـ 422هـ والتي أدت إلى قيام عصر الطوائف.

نهضت الحركة العلمية في فترة الخلافة 300 ـ 366هـ نهضة شاملة، وكان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس واستقلالها. فقد شجع الناصر وابنه الحكم العلماء المشارقة القادمين إلى الأندلس وأغدقا عليهم العطاء. وكانوا قد جلبوا الكتب القيمة، وترجموا الكتب الأجنبية المهمة، وحثوا على التأليف والبحث في مختلف المجالات. فإذا كان الناصر قد أحسن استقبال الوافد أبي علي القالي وجعله مؤدباً لابنه الحكم، فإن الخليفة الحكم اشتهر بحبه للكتب، فقد كانت له مكتبة تضم 400 ألف مجلد، وكان يحرص على اقتناء الكتب من أي مصدر[76]، فلذلك نهضت الأندلس علمياً في شتى الميادين خلال هذه الفترة:

ففي مجال الترجمة، ترجم إلى العربية خلال هذه الفترة أهم كتابين: الأول كتاب هيروشيش المؤلف باللاتينية، والذي يحوي أخبار الروم في العصور القديمة وسير

---

(74) ابن الفرضي، تاريخ، جـ 1، ص 355 ـ 357 (رقم 1049).

(75) ابن جلجل، ص 98 ـ ابن أبي أصيبعة، ص 488.

(76) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص 66 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 180، ص 186.

ملوكهم[77]، وكتاب ديسقوريدس في الطب والصيدلة[78]، وقد استعانت الخلافة الأندلسية بالدولة البيزنطية من أجل ترجمة هذين الكتابين[79].

أما في مجال اللغة، فقد تأسست في هذه الفترة مدرسة للدراسات اللغوية في الأندلس، وذلك بعد قدوم أبي علي القالي، الذي وفد على الأندلس عام 330هـ/ 941م وحمل القالي إلى الأندلس كثيراً من علم المشرق وأدبه، وبالذات دواوين أمرىء القيس وزهير والنابغة والخنساء والأخطل وجرير والفرزدق وغيرهم[80]. هذا بالإضافة إلى كتب الأخبار واللغة. كما ألف كثيراً في الدراسات اللغوية، وأملى على طلبته الأندلسيين كتابه الأمالي[81]. وبالعكس رحل علماء أندلسيون في اللغة إلى بلاد المشرق، أمثال محمد بن يحيى بن عبد السلام (توفي 358هـ)، رحل إلى مصر ولقي فيها ابن النحاس، وأخذ عنه كتاب سيبويه، وعاد إلى الأندلس[82]. ويعني هذا تطور الدراسات اللغوية في الأندلس في هذه الفترة، وبرز علماء أفذاذ في هذا المجال أمثال (أبي بكر الزبيدي) وكان مؤدّباً للأمير هشام بن الحكم المستنصر[83]. وأبي بكر بن القوطية المشهور بعلم التاريخ أيضاً[84].

وفي الحقل التاريخي، أشهر من ظهر في هذه الفترة، أحمد بن محمد بن موسى الرازي (توفي عام 324هـ) ولقب بالتاريخي لكثرة اشتغاله بالتاريخ[85]. وله عدة مؤلفات قد ضاعت. وإذا كان كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) لأبي بكر بن القوطية أشهر مؤرخي هذه الفترة يظهر فيه ميل المؤلف إلى القوط أولاً ويكثر الحديث عن المولدين وحركاتهم ثانياً[86]، فإن كتاب (أخبار مجموعة) لمؤلف مجهول الذي ظهر في هذه الفترة يتعصب

---

(77) ابن خلدون، العبر، جـ 2، ص 88 ـ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص 31.

(78) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 494.

(79) حازم غانم، الحياة العلمية، ص 165 ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 166

(80) ينظر خليل الكبيسي، «أبو علي القالي»، ص 231 وبعدها ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 164.

(81) ينظر، ابن بسام، الذخيرة، 1/ 14 ـ 15 ـ ابن خير، الفهرسة، ص 325 ـ ابن حيان، المقتبس، جـ 5، ص 480 ـ ابن الفرضي، المصدر السابق، جـ 1، ص 69 (رقم 223) ـ الحميدي، المصدر السابق، ص 164 (رقم 303).

(82) الزبيدي، طبقات، ص 310.

(83) ابن الفرضي، المصدر السابق، رقم (1357) ـ ابن خير، الفهرسة، ص 311، ص 345.

(84) الحميدي، المصدر السابق، ص 76 (رقم 111) ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ 1، ص 512.

(85) المقري، نفح، جـ 4، ص 108 ـ طه، نشأة التدوين التاريخي، ص 78.

(86) ينظر، ابن الفرضي، تاريخ، (رقم 1318) ـ ابن خلكان، وفيات، جـ 1، ص 812 ـ المقري ـ نفح، جـ 2، ص 85.

للعرب عامة ولقريش خاصة، وإلى الأمويين بصورة أخص[87]. واشتهر كذلك المؤرخ عريب بن سعيد (توفي عام 369هـ)، وله كتابه المشهور (صلة تاريخ الطبري). وعريب هذا اشتهر بالطب أيضاً[88]. وممن عرفوا بكتابة التراجم في هذه الفترة أبو عبد الله الخُشني (توفي عام 361هـ) صاحب كتاب (تاريخ قضاة قرطبة)[89].

ومع تطور علم التاريخ في هذه الفترة تطور علم الجغرافية أيضاً، فقد كان أحمد بن محمد الرازي مؤرخاً وجغرافياً في آن واحد، وله كتاب باسم (مسالك الأندلس)[90]. ويعاصره الجغرافي محمد بن يوسف الوراق (توفي عام 363هـ) الذي دخل في خدمة الخليفة الحكم وألف كتاباً عن مسالك افريقية[91]. واشتهرت هذه الفترة بالرحلات الجغرافية، ويأتي في مقدمتها رحلة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي (من أهل القرن الرابع الهجري) قام برحلات إلى بلاد أوروبا وقابل خلالها البابا يوحنا الثاني عشر في عام 350هـ، وبعدها التقى بامبراطور ألمانيا أوتو عام 354هـ[92]. وقدم لنا معلومات قيمة خلال هذه الرحلة[93].

أما في مجال العلوم الدينية: فبجانب شيوع المذهب المالكي في الأندلس كما بينا، والذي كان من أقطابه في هذه الفترة، يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثي[94] (توفي عام 367هـ)، وأبو بكر بن القوطية اللغوي والمؤرخ، شاع المذهب الشافعي بعد أن أدخله إلى الأندلس قاسم بن محمد بن سيار (توفي عام 278هـ)، وأصبح من أقطابه في هذه الفترة أسلم بن عبد العزيز بن هاشم[95]، وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس الذي عاصر الحكم المستنصر[96]. وكذلك انتشر المذهب الظاهري وكان من أقطابه المنذر بن

---

(87) هيكل، المرجع السابق، ص 188.
(88) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 206 ـ 207.
(89) الخشني، قضاة قرطبة، المقدمة ـ بالنثيا، المرجع السابق، ص 767 ـ 770.
(90) ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس، ص 156.
(91) الحميدي المصدر السابق، ص 97 (رقم 160) ـ مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص 73.
(92) العذري، نصوص عن الأندلس، ص 7 ـ البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، ص 155ـ
Al - Hajji, Andalusian,P 228 - 271.
(93) حازم غانم، الحياة العلمية، ص 210.
(94) ابن الفرضي، تاريخ، (رقم 1597).
(95) الحميدي، المصدر السابق، (رقم 322).
(96) ابن الفرضي، تاريخ، (رقم 154).

سعيد البلوطي خطيب جامع الزهراء المشهور(97). أما في مجال تفسير القرآن، فاشتهر العالم عثمان بن محمد بن محاسن (توفي عام 356هـ)، وكان له باع طويل في علم التفسير(98)، وكذلك ابن القوطي اللغوي والمؤرخ(99)، واشتهر ابن الحجام يعيش بن سعيد الوراق الذي ألف مسند حديث بأمر الخليفة الحكم المستنصر(100).

أما العلوم العقلية فأخذت مكانها في الفكر الأندلسي خلال هذه الفترة، وكان الطب في مقدمة العلوم التي ازدهرت، ومثل هذا الإزدهار ترجمة بعض الكتب الطبية الأجنبية إلى العربية كما وضحنا، وكذلك شهرة الأطباء ويأتي في مقدمتهم سعيد بن عبد ربه، الذي كانت له طريقة خاصة في معالجة الحميات، وكذلك أحمد بن يونس وأخوه عمر اللذان اشتهرا بتحضير الأدوية وعلاج أمراض العيون(101). واشتهر محمد بن عبدون الجبلي برحلته المشرقية عام 347هـ/ 958م وتزود من علوم البصرة ومصر ثم رجع إلى الأندلس عام 360هـ/ 970م وخدم الخليفة الحكم المستنصر وابنه هشاماً المؤيد بالطب(102). وقد ذاعت شهرة هؤلاء الأطباء وغيرهم، حتى وفد بعض ملوك الإسبان إلى أطباء الأندلس لعلاج ما استعصى من أمراضهم(103). ونتيجة ازدهار الطب والصيدلة في هذه الفترة، أسس الخليفة الحكم المستنصر ديوان الأطباء، يسجل فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة، وإذا ما ارتكب خطأ يتوجب العقاب أسقط اسمه من هذا الديوان(104). وتقدمت الدراسات الرياضية في هذه الفترة وكان من روادها عبد الله بن محمد المعروف بالسري أيام الخليفة الحكم، وكذلك أبو بكر بن عيسى الذي كان يعقد مجالس العلم على أيام الخليفة الحكم أيضاً، وكان مشهوراً بالحساب والهندسة والفلك. وكذلك العالم أبو غالب حباب بن عبادة الفرضي (عاش أيام الخليفة الناصر) الذي اشتهر بالحساب وله تأليف جيد في حساب الفرائض(105). واشتهر أبو

---

(97) المقري، نفح، جـ 1، ص 172 ـ 175، ص 266 ـ 269.

(98) ابن الفرضي، تاريخ، (رقم 901).

(99) أيضاً، رقم 1318.

(100) أيضاً، رقم 1612 ـ الحميدي، جذوة، رقم 916.

(101) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، جـ 2، ص 41، ص 46.

(102) صاعد الأندلسي، طبقات، جـ 81 ـ ابن جلجل، طبقات، 115 ـ ينظر عن أشهر أطباء هذه الفترة، سالم، قرطبة، جـ 2، ص 212 ـ 213.

(103) لين پول، قصة العرب، ص 121.

(104) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 494 ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 208.

(105) صاعد، طبقات، ص 67 ـ 68.

عبيدة مسلم بن أحمد (صاحب القبلة) (توفي عام 304هـ) بالأمور الفلكية، وكان عالماً بالحساب والنجوم وقد عارضه ببعض الأمور ابن عبد ربه الأندلسي[106].

أما الفلسفة، فقد ورث هذا العلم محمد بن عبد الله بن مسرة (269 ـ 319هـ/ 882 ـ 931م) عن أبيه عبد الله بن مسرة (توفي عام 286هـ/ 899م) حيث ذهب الوالد إلى المشرق، وسار على نهجه الابن الذي رحل أواخر عهد الأمير عبد الله (توفي عام 300هـ) إلى المشرق أيضاً، ثم عاد إلى الأندلس في مطلع القرن الرابع الهجري، فأظهر الزهد والورع، إلا أنه أخذ يبث تعاليمه بين تلاميذه، فظهرت المدرسة المسرية التي انتمى لها بعض المفكرين الأندلسيين أمثال: محمد بن مفرج المعافري، وخليل بن عبد الملك القرطبي، وطريف الروطي وغيرهم[107]، إلا أن الفقهاء شنوا حملة شعواء ضد المدرسة المسرية اعتباراً من عام 340هـ/ 951م وساعدتهم السلطات الرسمية[108]، إلا أن رعاية هذه المدرسة رجعت في عهد الخليفة الحكم (350 ـ 366هـ) نظراً لسياسته المتسامحة مع المفكرين[109].

ونهض الأدب الأندلسي في فترة الخلافة نهضة كبيرة، ساعد عليها ما كان من رقي سياسي ونهوض وتفوق اجتماعي. وأخذت هذه النهضة الأدبية عدة مظاهر منها: ظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر. وقد مثله ابن عبد ربه أحسن تمثيل، وكذلك أبو الحزم جهور بن عبد الله بن أبي عبدة من الأسرة المشهورة[110]. وكذلك ظهور الأنواع الجديدة في النثر: فإلى جانب الأسلوب القديم للنثر والذي يسمى النثر الخالص، ظهر نوع جديد من النثر يسمى بالنثر التأليفي ويتألف من فرعين: الفرع الأول يسمى التاريخ الأدبي ويمثله كتاب (أخبار الشعراء بالأندلس) لمؤلفه محمد بن هشام المرواني، وكتاب (شعر الخلفاء من بني أمية) لمؤلفه عبد الله بن محمد بن مغيث، ومن المؤسف أن أكثر هذه المؤلفات قد ضاع[111]، أما الفرع الثاني فهو التأليف الأدبي، ويعني ظهور كتب

---

(106) ينظر، ابن الفرضي، تاريخ، ترجمة رقم 1420 ـ الحميدي، جذوة، ترجمة رقم 822ـ الضبي، بغية، ترجمة رقم 1372ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 209.

(107) ابن الآبار، التكملة، جـ 1، ص 385، ص 309 ـ هيكل، المرجع السابق، ص 191.

(108) ابن حيان، المقتبس، جـ 5، ص 26 ـ 29.

(109) ينظر، حازم غانم، المرجع السابق، ص 244 ـ هيكل، المرجع السابق، ص 191.

(110) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 247 وبعدها ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 304.

(111) ابن بشكوال، الصلة ترجمة رقم 546 ـ الحميدي، جذوة، ترجمة رقم 1959ـ بالنثيا، المرجع السابق، ص 385.

أدبية بمفهوم القرن الثالث والرابع الهجري لكلمة أدب، وأحسن نموذج لكتب هذا الفرع، هو كتاب (العقد الفريد) لمؤلفه ابن عبد ربه الأندلسي. ومن مظاهر النهضة الأدبية الأخرى، تطور الإتجاهات الأدبية القديمة المعروفة، وكذلك وفرة النتاج الأدبي وتنوعه، إضافة إلى شيوع الأدب بين الأندلسيين شيوعاً جعله من أبرز سمات الحضارة الأندلسية في هذه الفترة[112]. ومن أشهر شعراء هذه الفترة بعد ابن عبد ربه الأندلسي، الشاعر أبو الحسن محمد بن هانىء الأزدي (326 ـ 362هـ)[113].

أما فترة الحجابة 366 ـ 399هـ/ وهي فترة حكم الخليفة هشام الثاني، فقد سيطر الحاجب المنصور وأولاده من بعده على أمور الدولة، وهيمنوا على الخلافة الأندلسية، فكان بداية البوار. ووصف هذا العصر بأنه: «عصر القوة التي تحمل الضعف، والانتصار الذي ينطوي على الهزيمة...»[114].

سارت الثقافة الأندلسية في فترة الحجابة، بقوة الدفع التي كانت سائدة في عصر الخلافة. ومن أولى الملاحظات على علوم هذا العصر، أنه لم نر أي تقدم ملحوظ وجدي في أي ميدان من ميادين المعرفة، ولا نرى أعلاماً بارزين في أي فرع من فروع الثقافة، باستثناء تلك البقية الباقية من أعلام فترة الخلافة. وربما كان من عوامل استمرار الدفع للثقافة الأندلسية في هذه الفترة، هو أن الحاجب المنصور كان على صلة قديمة بالثقافة، وقد ارتبط بها منذ نشأته، وأنه كان مصاحباً للعلماء، ويروى عنه: بأنه كان له مجلس علمي يضم كبار علماء عصره، وأن هذا المجلس كان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية يحضره المنصور طيلة إقامته بقرطبة[115]. ولذا نرى نماذج قليلة للعلماء في مجال اختصاصاتهم، ففي العلوم اللسانية (النقلية) نرى استمرار بعض علماء فترة الخلافة إلى فترة الخلافة: ففي علم التفسير نجد محمد بن عبد الله المقري (340 ـ 420هـ)[116]، وفي علم القراءات نرى عبد الله بن محمد القضاعي (توفي عام 378هـ) الذي كان يقرأ على قراءة الإمام ورش (عثمان بن سعيد)[117]. ومن أعلام الحديث في هذه الفترة

---

(112) هيكل، المرجع السابق، ص 194، ص 355 ـ 356.

(113) ينظر، الحميدي، جذوة، ترجمة رقم 157 ـ ابن دحية، المطرب، ص 192 وبعدها ـ ابن الآبار، التكملة، ترجمة رقم 350.

(114) هيكل، المرجع السابق، ص 267.

(115) ابن الآبار، الحلة، جـ 1، ص 268.

(116) السيوطي، طبقات المفسرين، ص 5.

(117) حازم غانم، المرجع السابق، ص 172.

عبد الرحمٰن بن محمد بن عيسى بن فطيس (توفي عام 402هـ)[118]، وألف العالم يحيى بن شراحيل (توفي عام 372هـ) كتاباً في توجيه حديث الموطأ للإمام مالك، واشتهر كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي في هذه الفترة أيضاً[119].

أما في مجال العلوم الصرفة (العقلية) فاشتهر العالم أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (توفي عام 404هـ) وهو صاحب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) وهو كبير جراحي الأندلس في هذه الفترة[120]. أما إمام العلماء في الرياضيات والفلك في هذه الفترة فهو أبو القاسم مسلمة المجريطي (توفي عام 398هـ)، وهو الذي عني بزيج محمد بن موسى الخوارزمي وحوله من السنين الفارسية إلى السنين العربية[121].

وتأتي الملاحظات على علوم هذا العصر هي: خمول الدراسات الفلسفية ويعود سبب ذلك إلى مقاومة الحاجب المنصور لهٰذه الدراسات، من أجل إرضاء عامة الناس، وكسب تأييد الفقهاء. ومن أبرز أعماله في هذا المجال إحراقه لكتب الفلك والمنطق والفلسفة التي كانت تمتلىء بها مكتبة الحكم المستنصر[122]. وبهذا خمدت روح البحث العلمي، وقيدت الحرية الفكرية، وتهيب الناس من دراسة العلوم العقلية، وقد تخفى بعض العلماء، وهرب القسم الآخر نحو المشرق للتخلص من الاضطهاد[123].

وثالث الملاحظات على علوم هذه الفترة، هي ازدهار الدراسات اللغوية، والتي دفعت بعوامل من المشرق الإسلامي وليس بسبب ذاتي، حيث وَصَل في هذه الفترة اللغوي المشرقي الأديب صاعد البغدادي (أبو العلاء صاعد بن أبي الحسن بن عيسى) إلى الأندلس عام 380هـ في أيام الحاجب المنصور، فاستقبله المنصور أحسن استقبال[124]. ولقي صاعد البغدادي الأمرّين في الأندلس، وتصدى له بعض علمائها

(118) ابن بشكوال، الصلة، جـ 1، ص 309 ـ بالنثيا، المرجع السابق، ص 395.
(119) ابن الفرضي، تاريخ ترجمة رقم 1598.
(120) الحجي، الحضارة الإسلامية، ص 58 ـ ابن بشكوال، الصلة، ترجمة رقم 573.
(121) صاعد، طبقات، ص 93 ـ ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص 326 ـ طوقان، تراث العرب العلمي، ص 257ـ حكمت نجيب، دراسات، ص 211ـ الحجي، الحضارة الإسلامية، ص 51ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 210.
(122) سالم، قرطبة، جـ 2، ص 162 ـ بالنثيا، المرجع السابق، ص 65.
(123) ينظر: النباهي، المرقبة العليا، ص 77 ـ 79 ـ هيكل، المرجع السابق، ص 270.
(124) المراكشي، المعجب، ص 19 وما بعدها ـ المقري، نفح، جـ 2، ص 86 وما بعدها ـ ابن خلكان، وفيات، جـ 1، ص 229ـ ابن بسام، الذخيرة، ق 4، م 1، ص 8 وما بعدها.

ودخلوا معه في محاورات علمية انحدرت أحياناً إلى درجة المكائد، إلا أن هذه المحاورات وجهود صاعد اللغوية أدت إلى تنشيط الحركة اللغوية في فترة الحجابة. وكان كتاب الفصوص الذي ألفه صاعد ذا أثر كبير في تغذية الدراسات اللغوية والأدبية في الأندلس(125).

وسار الأدب في فترة الحجابة بقوة الدفع التي كانت في فترة الخلافة، فظل على ما كان عليه من أنواع. بل إن بعض الظواهر الأدبية الجيدة التي أينعت في فترة الخلافة، قد اختفت في فترة الحجابة، وكان ذلك بسبب تأثر الأدب بالظروف السياسية الاستبدادية والأوضاع الثقافية المقيدة. وأهم أنواع الشعر التي نالت حظاً كبيراً في هذه الفترة، هو شعر المجون الذي يعكس حالة المجتمع المتردية، وشعر المديح الذي كان بمثابة أبواق دعاية للحكم الاستبدادي، وشعر الاستعطاف، وشعر النقد السياسي(126). ومن أشهر شعراء الفترة ابن دراج القسطلي، الذي غلب طابع المدح على أغلب شعره(127).

أما النثر، فقد توقف النوع التأليفي، واستمر النثر الخالص، ولكن أهم ما يلاحظ على أسلوب النثر في هذه الفترة، ظهور أثر طريقة ابن العميد (وزير عضد الدولة البويهي توفي عام 360هـ)(128)، تلك الطريقة التي تميل إلى الإطناب، وتعتمد على السجع والجناس، مع ذكر بعض الأمثال أو الإشارات التاريخية، مع تدعيم النثر بالشعر. وليس من شك في أن حياة الترف ومظاهر الفخامة في فترة الحجابة، كانت من أسباب الاستجابة إلى هذه الطريقة من أسلوب النثر خلال هذه الفترة. وكذلك آثار ابن العميد ومن نحوا طريقته كالصاحب بن عباد الفارسي (من وزراء البويهيين أيضاً توفي عام 385هـ ولقب بالصاحب لأنه كان يصحب ابن العميد، وكان إسماعيل بن عباد أديباً بارعاً في فن الترسل وله رسائل منشورة)(129)، قد وصلت إلى الأندلس قبيل فترة

(125) المقري، نفح، جـ 2، ص 77 ـ هيكل، المرجع السابق، ص 271 ـ 272ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 164.

(126) هيكل، المرجع السابق، ص 273 وما بعدها.

(127) ينظر، ابن دحية، المطرب، ص 156 ـ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 466 ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 4، ص 272ـ ديوان ابن دراج، ص 37 وما بعدها ـ الحميدي، جذوة رقم 186ـ ابن بشكوال، الصلة، رقم 75 ـ الضبي، بغية، رقم 342.

(128) العبادي، في التاريخ العباسي، ص 171 ـ 172.

(129) نشرت رسائل الصاحب بن عباد في القاهرة عام 1947 برعاية شوقي ضيف وعبد الوهاب عزام، ينظر، العبادي، في التاريخ العباسي، ص 172.

الحجابة، فيما وصل من تراث المشرق خلال القرن الرابع الهجري، وبخاصة في فترة الخلافة، ولكن أثر هذه الطريقة قد ظهر في فترة الحجابة[130].

أما فترة الفتنة 399 ـ 422هـ، فهي فترة التفكك والانحلال، والتي أدّت إلى سقوط الخلافة الأندلسية وقيام عصر الطوائف[131].

وكان من نتائج هذه الفتنة، أن تعطل النشاط الثقافي وبخاصة في قرطبة، فأغلقت المدارس وانحلت حلقات الدرس، وقتل بعض العلماء وخاصة ابن الفرضي صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) عام 403هـ، وهاجر البعض من قرطبة إلى شرقي الأندلس كابن حزم حيث يلتمس شيئاً من الأمن.

وعلى الرغم من كل ذلك لم تخمد أنفاس الحركة العلمية في الأندلس خلال هذه الفترة، فقد كانت هناك بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا الإزدهار في فترة الخلافة، أو انتفعوا بقوة الدفع في فترة الحجابة، فحفظوا للأندلس كثيراً من علمها وثرائها على الرغم مما كان فيها من فتنة مبيرة كما يقال. ومن أشهر هؤلاء العلماء: أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور وكان أحد شيوخ الحديث[132]، وأبو محمد عبد الله بن يوسف الرهوني وكان مؤدباً محدثاً مجوداً للقرآن[133]. كما كان هناك بعض العلماء ممن وفدوا إلى الأندلس من أقطار مشرقية، وكان لهم فيها حينذاك دور علمي كبير، ومن أشهر الوافدين إلى الأندلس في هذه الفترة أبو القاسم عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي يزيد المصري، وكان أديباً نسابة، حافظاً للحديث عالماً بالأخبار[134]. كذلك كان في بعض الأقاليم الأندلسية البعيدة عن مركز قرطبة، حظ من النشاط العلمي، وقد كان شرقي الأندلس من تلك الأقاليم التي نعمت ببعض الأمن، فعرفت بعض المدن هناك في هذه الفترة بحياة علميّة لا بأس بها[135]. وبرز في الأندلس خلال فترة الفتنة عالمان جليلان لهما دور بارز في ثقافة الأندلس هما: أبو محمد بن حزم (384 ـ 456هـ) وأبو مروان بن حيان (377 ـ 469هـ). فابن حزم انصرف إلى العلم بعد سقوط الخلافة الأندلسية وتجول في ربوع الأندلس وبخاصة في شرقها ناشراً مذهبهُ الظاهري، ولقي

---

(130) هيكل، المرجع السابق، ص 334.

(131) ينظر، السامرائي، علاقات المرابطين، ص 32 وما بعدها.

(132) هيكل، المرجع السابق، ص 350.

(133) ابن بشكوال، الصلة، ترجمة رقم 595.

(134) أيضاً، ترجمة رقم 758.

(135) كريم عجيل، الحياة العلمية، ص 123 ـ تشراكوا، مجاهد العامري، ص 143.

الأمرين من علماء المالكية وبالذات من أبي الوليد الباجي داعية الوحدة في الأندلس. أما ابن حيان فعلى الرغم من توليه بعض المناصب الإدارية في هذه الفترة، إلا أنه انصرف إلى كتابة الأدب والتاريخ، واشتهر بكتابه المقتبس[136]. وتأثر الأدب بأحداث الفتنة تأثراً كبيراً، فنرى أولاً انتشار أدب التلهي والنفاق والتفاهة، أو ما يسمى بأدب الهروب، وثانياً ظهر أدب التأمل والنقد أو ما يسمى بأدب المراجعة. وقد كان الشعر مجال النوع الأول (أدب الهروب) وكان النثر مجال النوع الثاني (أدب المراجعة)، ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر، فظهرت أنواع نثرية جديدة وجادة، أتاح لها انطواء بعض الأدباء وعكوفهم جواً ملائماً فيه تأمل وفيه مراجعة، مما ساعد على التخيل والنقد والتحليل[137].

ومن أشهر شعراء هذه الفترة أبو عامر بن شُهيد (382 ـ 426هـ)[138] وأبو محمد بن حزم الذي سيعاصر الطوائف. وفي مجال النثر، فقد اشتهر هذان العالمان أيضاً، فإبن شُهيد له رسالة التوابع والزوابع وهي قصة خيالية يحكي فيها ابن شُهيد رحلة في عالم الجن[139]. أما أبو محمد بن حزم فأشهر كتاب له في هذا المجال، هو طوق الحمامة في الألفة والألاّف، ويتناول فيه دراسة عاطفة الحب بشكل مفصل واعتمد أسس التجربة والتحليل النفسي في منهجه[140].

أما عصر الطوائف 422 ـ 484هـ، فعلى الرغم من الفرقة السياسية التي ضربت أطنابها ببلد الأندلس خلال هذه الفترة، لكن رافقها نشاط الحركة العلمية والأدبية وذلك لرعاية ملوك الطوائف العلماء والأدباء، ولأن معظمهم كان من رجال الأدب، فبذلك غدت قصورهم منتديات أدبية ومجامع حقة للعلوم والفنون[141].

وبما أن الأندلس لم تكن دولة موحدة في هذه الفترة. ونظراً لتعدد أمرائها وتفاوتهم في رعاية الحركة الأدبية، وسوف نشير إلى أهم ممالك الطوائف التي رعت الحركة الأدبية:

---

(136) ينظر، هيكل، المرجع السابق، ص 351 ـ 363.
(137) هيكل، المرجع السابق، ص 364.
(138) الحميدي، جذوة، رقم 232.
(139) ينظر، أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، ص 48 ـ زكي مبارك، النثر الفني، جـ 1، ص 261 ـ هيكل، المرجع السابق، ص 377 وما بعدها.
(140) ينظر، طوق الحمامة، ص 2 وما بعدها ـ الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم، ص 225.
(141) عنان، دول الطوائف، ص 423.

في المقدمة تأتي مملكة بني عباد في إشبيلية فقد كان المعتضد وابنه المعتمد من رواد الحركة الأدبية ولهم أشعارهم المختارة وعاش في ظلهما أشهر شعراء هذه الفترة أبو بكر بن عمار وابن زيدون صاحب ولادة بنت الخليفة المستكفي (هو محمد بن عبد الله بن الناصر 414 ـ 416هـ)[142]. ويأتي بعدهما شاعران مشهوران هما أبو بكر بن اللبانة وابن حمديس الصقلي[143].

ورعى بلاط المرية الحركة الأدبية[144]، فبالإضافة إلى نبوغ ولاة الأمر فيها بالشعر وهم أسرة بني صمادح، فعاصرهم ومدحهم أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، وأبو الفضل جعفر بن شرف القيرواني، وأبو حفص بن الشهيد وغيرهم[145]. وكان ملوك بطليوس وهم بنو الأفطس من حماة الأدب والشعر، ومن أشهر الشعراء الذين عاشوا في كنفهم، الوزير الشاعر عبد المجيد بن عبدون، الذي اشتهر بمرثيته لبني الأفطس (القصيدة العبدونية) وبنو القبطرنة الثلاثة، ومن أشهر كتابهم أبو بكر بن قزمان[146].

ورعت مملكة سرقسطة الحركة الأدبية والعلمية والفلسفية، وكان في مقدمة الشعراء الذين احتضنتهم هذه المملكة هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلي[147]. ورعى مجاهد العامري أمير مملكة دانية والجزائر الشرقية الحركة الأدبية، وأحاط نفسه بعدد ضخم من الأدباء والشعراء، ومن أشهرهم، أبو عامر أحمد بن شهيد، وأحمد بن رشيق وأبو حفص أحمد بن برد وغيرهم[148] أما الممالك الأخرى فكانت رعايتها للحركة الأدبية أقل مما ذكرنا عن هذه الممالك، وبعضها لم يذكر لها شهرة أدبية[149].

لكن عموماً يمكن القول أن اتجاهات أدبية جديدة ظهرت في هذا العصر ـ وبخاصة في الشعر ـ مثل: شعر الرثاء، مثله عبد المجيد بن عبدون، والشعر الفلسفي الذي مثله

---

(142) ينظر، صلاح خالص، اشبيلية، ص 135 وبعدها.

(143) ينظر، سعد إسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية، ص 335 وبعدها.

(144) أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية، ص 34 وبعدها.

(145) ينظر، ابن بشكوال، الصلة، رقم 298 ـ ابن الآبار، الحلة، جـ 2، ص 92 وبعدها ـ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 71.

(146) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 236 ـ المقري، نفح، جـ 2، ص 136 ـ عنان، دول الطوائف، ص 428 ـ 429.

(147) الضبي، بغية الملتمس، رقم 342.

(148) تشراكوا، مجاهد العامري، ص 231 وما بعدها ـ حازم عبد الله، ابن شهيد الأندلسي، ص 26 وما بعدها.

(149) ينظر، إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 74 وما بعدها.

ابن حزم، وعبد الجليل بن وهبون المرسي، وشعر الزهد يمثله ابن الريوالي الفقيه وأحمد الإقليشي، وأبو بكر العبدري وغيرهم. وشعر الغزل الذي شاع في هذا العصر نظراً لضعف الوازع الديني، والتحلل من القيم الخلقية، ومثل هذا الإتجاه السراج المالقي شاعر بني حمود، وابن الحداد، وابن زيدون وغيرهم، والشعر الشعوبي الذي مثله أبو عامر أحمد بن غرسية الذي عاش في مملكة دانية. وشعر النكبات، والذي صور نكبة بربشتر بصورة خاصة في منطقة الثغر الأعلى عندما احتلها النورمان عام 456هـ وعاثوا فيها فساداً[150].

وبجانب الحركة الأدبية ازدهرت العلوم الدينية وبخاصة في بلاط بني صمادح حيث كان المعتصم بن صمادح وغيره يعقدون مجالس الفقهاء في كل جمعة ويتدارسون كتب التفسير والحديث[151]، ورعت مملكة دانية العلوم القرآنية وكان رائدها شيخ القراء أبا عمرو الداني[152]، وتزعم الدراسات الفقهية العالمان أبو محمد علي بن حزم وأبو الوليد سليمان بن خلف الباجي داعياً توحيد الأندلس في أيام الطوائف[153]، وكان من رواد الدراسات النحوية العلامة اللغوي أبو الحسن علي بن سيده (توفي عام 458هـ) صاحب كتاب (المحكم)[154]. واشتهرت الدراسات التاريخية والجغرافية في الأندلس خلال هذه الفترة، وكان من رواد الحركة التاريخية ابن حيان المعروف بكتاب المقتبس، والعالم ابن حزم صاحب كتاب (جمهرة أنساب العرب) و(كتاب نقط العروس)، والعالم أبو عمر يوسف بن عبد البر الذي ألف كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب)، وكتاب (الدرر في اختصار المغازي والسير). وكان رائد الدراسات الجغرافية في عصر الطوائف أبا عبيد البكري (ت 487هـ) وهو صاحب كتاب (المسالك والممالك) وكتاب (معجم ما استعجم)[156].

---

(150) ينظر، سعد إسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية، ص 308 وما بعدها، ص 425 وما بعدها، ص 438 وما بعدها، ص 502 وما بعدها ـ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 117 ومابعدها ـ محمد مجيد السعيد، الشعر في ظل بني عباد، ص 77 وما بعدها.

(151) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 71 ـ أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية، ص 248.

(152) تشراكوا، مجاهد العامري، ص 239.

(153) السامرائي، «الدعوة إلى توحيد الأندلس في أيام الطوائف»، ص 82 وما بعدها.

(154) عنان، دول الطوائف، ص 434 ـ ينظر، كريم عجيل، الحياة العلمية، ص 401 وما بعدها.

(155) ينظر، الحميدي، جذوة، ترجمة (رقم 874) ـ كريم عجيل، الحياة العلمية، ص 466 وما بعدها ـ عمر فروخ، ابن حزم الكبير، ص 101 وما بعدها.

(156) البكري، جغرافية الأندلس، ص 29 وما بعدها ـ عنان، دول الطوائف، ص 430.

أما العلوم الصرفة فنالت اهتمام أمراء الطوائف، ويأتي في مقدمتهم المقتدر بن هود وولده المؤتمن أمير سرقسطة، حيث كانا من العلماء البارزين في الرياضيات والفلك والفلسفة[157]. وكان العالم أبو الفتوح ثابت بن محمد بن الجرجاني مشرقي المنبت، رحل إلى الأندلس عام 406هـ وعاش في ظلال مملكة دانية، واشترك في عملية فتح سردانية. اشتهر بالفلسفة والفلك والمنطق[158]. واشتهرت بلنسية بطبيبها أبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن الذهبي (توفي عام 456هـ)[159]. وفي مجال الرياضيات وعلم الفلك، فكان من أشهرهم أبو إسحاق بن إبراهيم بن يحيى الزرقالي صاحب الجداول الفلكية الشهيرة (توفي عام 480هـ)، وأبو القاسم أصبغ بن السمح الغرناطي (توفي عام 438هـ) وكان بارعاً في الهندسة والفلك[160]. واشتهر أبو عبد الله بن أحمد السرقسطي (توفي عام 488هـ) بعلم الأعداد والهندسة والنجوم[161]. أما إسحاق بن قسطار، فكان يهودياً يعمل في خدمة مجاهد العامري. فله خبرة جيدة بالطب وبعلم المنطق والفلسفة[162].

ورافق ازدهار الحركة الفكرية في الأندلس في عصر الطوائف، ذيوع المكتبات العامة والخاصة التي شملت أنفس وأجود أنواع الكتب، فقد رعت مملكة إشبيلية هذه الظاهرة وكذلك مملكة المرية، ومملكة بطليوس وطليطلة. وأشهر مكتبة خاصة كانت تعود إلى الوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامري[163]، واشتهرت مكتبة أبي محمد عبد الله بن حيان بن فرحون الأروشي (توفي عام 487هـ) في مدينة بلنسية، وكانت له همة عالية في اقتناء الكتب[164].

ويبدو لنا تطور الحركة الفلسفية في عصر الطوائف، وبخاصة بعد دخول رسائل إخوان الصفا على يد أبي الحكم الكرماني (توفي عام 458هـ) فوجدت في شبه الجزيرة إقبالاً كبيراً[165]. ومن الذين كان لهم حس فلسفي في عصر الطوائف ابن حزم

---

(157) المقري، نفح، جـ 2، ص 126 وما بعدها.

(158) الحميدي، جذوة، ورقم 344.

(159) صاعد، طبقات، ص 109 ـ كريم عجيل، الحياة العلمية، 478.

(160) عنان، دول الطوائف، ص 435.

(161) صاعد، طبقات الأمم، ص 94.

(162) تشراكوا، مجاهد العامري، ص 251.

(163) عنان، دول الطوائف، ص 436 ـ 437.

(164) ابن بشكوال، الصلة، رقم634 ـ الضبي، بغية، رقم 920.

(165) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 17.

الظاهري، الذي أحدث في الأندلس دوياً علمياً هائلاً بمذهبه الظاهري ومناظرته الفقهاء وأهل الأديان، وكان كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه[166].

إلا أن علم الفلسفة كان من العلوم الممقوتة في الأندلس على أيام الطوائف، ولا يستطيع صاحب هذا العلم إظهاره[167]. وقد أحرق المعتضد أمير إشبيلية كتب ابن حزم الظاهري إرضاءً للمالكية وعلى رأسهم أبو الوليد الباجي[168]. وكان لابن حزم تلاميذ عاشوا بعده وورثوا بعض علمه، ومنه الحس الفلسفي، ومن أشهرهم ولده (أبو رافع الفضل)، الذي اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد[169] ويبدو لنا من هذه الرواية أن المعتضد لم يحرق كتب ابن حزم كلها لأن أبا رافع هذا كان من رجال ولده المعتمد واستشهد في معركة الزلاقة عام 479هـ، وإن اضطهاد المعتضد لهذا العالم لم يكن في أغلب الظن علمياً بقدر ما هو اضطهاد سياسي[170]. وهناك من لازم ابن حزم وأكثر الأخذ منه دون أن يتظاهر بذلك أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي (توفي عام 488هـ) صاحب كتاب (جذوة المقتبس)، ومن تلاميذه أيضاً الراضي بن المعتمد الذي أشرف على المذهب الظاهري وبرع في الأصول[171]، ويبدو أن الفتن التي عصفت بملوك الطوائف شغلت ملوك قرطبة عن تعقب الفلاسفة ومحاكمتهم، ومع ذلك فقد بيعت المكتبات العامة والخاصة التي كانت تزين قصور قرطبة بأبخس الأثمان وتناولها الناس وقرأوا منها بعض بحوث الفلسفة. ولما أمن الناس أظهروا ما لديهم في الفلسفة من كتب وأخذوا يهتمون بالعلم الرياضي وصناعة المنطق، وكان المعتمد نفسه يصدق بالتنجيم[172].

ويظهر أن مملكة سرقسطة بالذات كانت مأوى وحامياً للفلسفة والفلاسفة في عهد المقتدر بن هود (438 ـ 873هـ) وابنه يوسف المؤتمن (473 ـ 477هـ)[173] وإلى بلاطهما

(166) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ 12، ص 92 ـ عمر فروخ، ابن حزم، ص 161 وما بعدها.

(167) المقري، نفح، جـ 6، ص 168.

(168) سعد إسماعيل شلبي. البيئة الأندلسية، ص 47 (ح: 8).

(169) ابن خلكان، وفيات، جـ 3، ص 13.

(170) السامرائي، علاقات، ص 426 ـ 427.

(171) ابن الآبار، الحلة، جـ 2، ص 71 ـ معجم الأدباء، جـ 18، ص 282 وما بعدها.

(172) عبد الوهاب عزام، المعتمد بن عباد، ص 277 ـ محمد عبد المنعم خفاجة، قصة الأدب في الأندلس، جـ 1، ص 159 ـ 160.

(173) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 454.

لجأ أبو الحكم الكرماني، وفيها استقر المقام بالفيلسوف ابن باجة، ولقيت رسائل اخوان الصفا إقبالاً كبيراً من أهلها[174].

وأصبحت الأندلس ولاية مرابطية 484 ـ 540هـ، فنتج عن ذلك الانفتاح الفكري الأندلسي على المغرب، حيث انتقلت الثقافات الأندلسية المتنوعة إلى المغرب، كما انتقل أبناء المغرب من قادة ورعية لينهلوا من علوم الأندلس والتزود من معارفها[175].

وعلى الرغم من إشارة بعض الروايات إلى ضمور الحركة الفكرية الأندلسية في ظل دولة المرابطين عما كانت عليه أيام ملوك الطوائف[176]، إلا أن الحركة العلمية والأدبية في الأندلس لبثت خلال العهد المرابطي تحتفظ بكثير مما كان لها أيام الطوائف من قوة وحيوية، كما درس أكثر عمال المرابطين في الأندلس على أيدي أشهر العلماء[177].

واعتمد أمراء المرابطين وولاتهم قادة الفكر الأندلسي في تسيير أعمالهم، فنرى اعتماد يوسف بن تاشفين على الأديب الأندلسي عبد الرحمٰن بن أسباط، ولما توفي عام 487هـ، استعان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالعالم محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي المعروف بابن القصيرة، الذي كان استخدامه في البلاط المرابطي بداية لاحتشاد أعلام الكتابة الأندلسيين للخدمة فيه[178].

واحتشد في البلاط المرابطي إلى جانب ابن القصيرة عدد من أعلام الكتاب وأئمة البلاغة، منهم وزير بني الأفطس وصاحب المرثية المشهورة عبد المجيد بن عبدون الذي كتب ليوسف بن تاشفين وقيل لابنه علي وتوفي عام 520هـ[179] إضافة إلى الكاتب أبي عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الذي كتب لعلي بن يوسف ثم عزله فيما بعد وتوفي عام 540هـ[180] ولا ننسى خدمات الفتح بن خاقان الإشبيلي الذي خدم في قصور أمراء الطوائف، ثم التحق بخدمة أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي قتل

---

(174) سعد شلبي، البيئة الأندلسية ص 49.

(175) كنون، النبوغ المغربي، جـ 3، ص 149 ـ السامرائي، علاقات، ص 410.

(176) كنون، النبوغ المغربي، جـ 1، ص 74.

(177) راجع على سبيل المثال، ابن الآبار، المعجم، ص 8، ص 15، ص 20، ص 281 وغير ذلك.

(178) ابن بشكوال، الصلة، ترجمة (رقم 1253) ـ الفتح بن خاقان، قلائد، ص 5، ص 104 ـ عنان، عصر المرابطين، ق 1، ص 440.

(179) ابن خاقان، قلائد، ص 35 ـ كنون، النبوغ المغربي، جـ 1، ص 87.

(180) ابن بشكوال، الصلة، رقم 1294 ـ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 123.

عام 529هـ بمراكش[181].

ونرى من خلال دراسة ترجمة هؤلاء الكتاب وغيرهم، أنهم كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة في البلاط المرابطي ويحملون لقب (ذو الوزارتين) أمثال أبي بكر بن القصيرة، وأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال الغافقي[182].

وخلال العصر المرابطي ظهر في الأندلس الكثير من أعلام المحدثين والفقهاء، فقسم منهم تعاون مع ولاة المرابطين في الأندلس، وقسم آخر ذهب إلى مراكش ودخل في خدمة المرابطين هناك، ومن أشهرهم: الفقيه أبو محمد عبد الحق بن غالب المحاربي (توفي 542هـ) من أهل غرناطة، ويبدو أنه تعاون مع المرابطين في الأندلس ومدحهم بأشعاره[183]. والفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الرحمٰن الأنصاري من أهل المرية، ودخل في خدمة المرابطين في أواخر أيامهم، ثم انحاز إلى دولة الموحدين إلى أن توفي بمراكش عام 559هـ[184]. ومنهم الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الله النفري المعروف بالمرسي (453 ـ 538هـ) ولد ودرس بمرسية، ثم انتقل إلى مدينة سبتة وتولىٰ الخطابة بجامعها، ورجع إلى الأندلس وتوفي في قرطبة[185].

كما نبغ في العصر المرابطي بعض أئمة اللغة في الأندلس، ومنهم أحمد بن عبد الجليل المعروف بالتدميري، نشأ في المرية، وسكن بجاية في ظل بني حماد ثم توفي في مدينة فاس عام 555هـ[186].

وأما عن العلوم، فقد حظيت الأندلس بنهضة علمية في هذه الفترة، والتي كانت امتداداً للنهضة الفكرية التي ظهرت في عصر الطوائف. وكان في مقدمة العلماء الذين ظهروا في عصر السيطرة المرابطية أبو بكر محمد بن يحيى بن الضائع التجيبي المعروف بابن باجة (توفي عام 533هـ) وأصله من سرقسطة نشأ فيها في أواخر مملكة بني هود، ونبغ في الرياضيات والفلك والفلسفة، ولما ولي الأمير أبو بكر بن إبراهيم المسوفي، وهو ابن عم يوسف بن تاشفين وحكم سرقسطة عام 508هـ، استوزر أبا بكر بن باجة

(181) ابن الآبار، المعجم، ص 313.

(182) السامرائي، علاقات، ص 414.

(183) الضبي، بغية، ترجمة 1103 ـ ابن دحية، المطرب، ص 91.

(184) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 182.

(185) ابن بشكوال، الصلة، ترجمة رقم 650.

(186) ابن الآبار، التكملة، رقم 175.

وأغدق عليه رعايته وعنايته، بالرغم مما كان ينسب إليه من الآراء الفلسفية. ولما سقطت سرقسطة بيد الإسبان عام 512هـ غادرها ابن باجة إلى إشبيلية ثم إلى شاطبة، ومنها نزح إلى المغرب وتوفي في مدينة فاس عام 533هـ(187).

واشتهرت أسرة بني زهر بالطب، وكان عميدها عبد الملك بن محمد بن زهر الإيادي، وخلفه في المهنة ولده زهر بن عبد الملك الذي أصبح عمدة عصره في الطب وتوفي عام 525هـ بقرطبة ودفن في إشبيلية(188). وجاء من بعده ولده عبد الملك بن زهر الذي ذاع صيته في المغرب والأندلس، واتصل بالمرابطين، وصنف للأمير أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين كتابه المعروف (الاقتصاد في صلاح الأجساد)، كما له كتاب في الطب مشهور باسم (التيسير)، توفي في إشبيلية عام 557هـ(189)، وقد كتب وصفاً دقيقاً لبعض الأمراض وبخاصة التهاب غشاء القلب وأعراض السرطان(190).

وأشهر أطباء العصر أيضاً علي بن عبد الرحمٰن الخزرجي، من أهل طليطلة برع بالطب إلى جانب تمكنه في الفقه، ولما استولى الإسبان على طليطلة عام 478هـ، رحل في بلاد الأندلس واستقر أخيراً في قرطبة وتوفي فيها عام 499هـ(191). وشاركهُ في الاهتمام بالطب أيضاً أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت (460 ـ 529هـ) من أهل دانية، إلا أنه قضى معظم حياته متنقلاً بين مصر وأفريقية(192). واشتهر بالزراعة في الأندلس خلال هذه الفترة العلاّمة الزراعي أبو عبد الله محمد بن مالك التغنري من قرية تغنر من أعمال غرناطة، ودرس العلوم الزراعية على يد ابن البصال الطليطلي، وله كتاب (زهر البستان ونزهة الأذهان)(193).

أما النهضة الأدبية في الأندلس فقد ارتفعت فوق مستوى الانحلال الذي شهده

---

(187) القفطي، أخبار العلماء، ص 265 ـ السامرائي، علاقات، ص 416 ـ 417ـ ينظر، السامرائي، دراسات، ص 378 ـ 379ـ سليم طه التكريتي «ابن باجة» مجلة العربي، العدد 166، ص 166 وما بعدها.

(188) عنان، عصر المرابطين، ق 1، ص 473.

(189) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 517.

(190) السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص 324 ـ أنور الرفاعي، الإنسان العربي والحضارة، ص 456ـ عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين، ص 252.

(191) عنان، عصر المرابطين، ق 1، ص 471.

(192) ابن خلكان، وفيات، جـ 2، ص 99، القفطي، أخبار العلماء، ص 57.

(193) عنان، عصر المرابطين، ق 1، ص 474.

عصر الطوائف، لأن دولة المرابطين اعتمدت الدين في كثير من أمورها، وأنها وجهت نشاطها إلى مجاهدة الإسبان، وكذلك مرت الأندلس بفترة من الجد وتركت الحياة التي اعتادت عليها في أيام الطوائف، مما أدى إلى تغير نوعي في مستوى الحياة الأندلسية، وبخاصة الأدبية منها. فلم نر ذلك التحرر والانطلاق في نظم الشعر الذي يمثل التغزل بالطبيعة وجمالها، ووصف جمال المرأة، وبعض مظاهر الحياة الإجتماعية الماجنة[194]. وعلى هذا الأساس وجهت اتهامات إلى المرابطين بعدم الذوق الأدبي، وكسوف شمس الأدب في عهدهم، بل غولي بالأمر إلى حد اتهامهم بعدم معرفة اللسان العربي[195]. إن مثل هذا الاتهام يمثل بعض وجوه العصبية الأندلسية لتبيان حالة أهل المغرب بأنهم أقل حضارة وأقل نصيباً في تقدير الشعر من أهل الأندلس، فالأمر لا يعدو أكثر من نقمة الأندلسيين على المرابطين، بأكثر مما يدل على تغير من حال الأدباء والشعراء. فالشعراء الذين كانوا في ظل أمراء الطوائف أكثرهم أدرك عصر المرابطين وعاش الكثير من أحداثه، وبذلك يمكن نفي مثل هذا الاتهام، والجزم بأن الشعر الأندلسي لم يمت في عصر المرابطين، وأن كل ما حدث: أن الشعر كيَّف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به[196].

لقد كان قدوم المرابطين إلى الأندلس بداية عهد جديد يؤذن بتواري العاهل الأندلسي وقيام عاهل مرابطي لكل منهما ذوقه الأدبي، وموقفه من الشعر والشعراء، فلا ينكر أن طبقة الشعراء أصبحت في الظل على عهد المرابطين وتقدمت عليها طبقة الفقهاء[197]. فنرى نتيجة ذلك أن بعض شعراء الأندلس أمثال ابن خفاجة (توفي عام 533هـ) وابن أخته يحيى بن عطية بن الزقاق (توفي عام 529هـ) لم يتأثروا كثيراً بقدوم المرابطين، كما كان حالهم في عصر الطوائف[198]، وكذلك دفع الأمر بعض أدباء الأندلس إلى جمع تراثهم الأدبي والحفاظ عليه من الضياع فصنف ابن بسام (توفي عام 542هـ) كتابه المشهور (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) وصنف الفتح بن خاقان (توفي عام 535هـ) كتابي قلائد العقيان ومطمح الأنفس. وقد أشار ابن بسام ـ بصورة خاصة ـ

---

(194) حركات، المغرب عبر التاريخ، ص 394 ـ الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم، ص 48 وما بعدها.

(195) محمد عبد المنعم خفاجة، قصة الأدب في الأندلس، جـ 2، ص 338.

(196) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 79.

(197) سعد إسماعيل شلبي، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، ص 153.

(198) سعد شلبي، دراسات أدبية، ص 154.

إلى أن الكساد قد أصاب الشعر في الأندلس بعد انقراض عصر ملوك الطوائف[199]. كما نلاحظ الكثير من شعراء الأندلس في هذا العهد تركوا البلاد وهاجروا إلى الخارج واستقر قسم منهم في الجزائر الشرقية (البليار) وقسم في تونس والجزائر، بعيداً عن سلطان المرابطين أمثال الشاعر ابن اللبانة، والشاعر ابن حمديس الصقلي[200].

وعندما وجد فريق من الشعراء نفسه مضطراً على البقاء في الأندلس، اضطر إلى المداهنة، وإلى توجيه أشعاره إلى الفقهاء والكتاب الأندلسيين الذين تولوا مناصب الوزارة والكتابة للمرابطين. ونظراً لأن هؤلاء لم يكونوا في ثراء ملوك الطوائف أو هيبتهم الأدبية، فقد هبط الشعر الرسمي عن مستواه، وصار سلساً إلى درجة تقرب من الضعف، كما كثر فيه الاستعطاف، والترحيب بالسادة الجدد، والتندر بعيوب ملوك الطوائف[201].

وإذا كان مقدم بن معافى القبري (توفي عام 299هـ) قد ابتكر الموشحات الأندلسية، فإنها تطورت في عصر الطوائف على يد الشاعر أبي بكر عبادة بن ماء السماء (توفي عام 422هـ)[202]، ثم تبعه الشاعر ابن اللبانة والأعمى التطيلي وغيرهما، في عصر المرابطين مما يدل على غلبة ذوق العوام، وإلى التهاون في استعمال اللغة العربية[203]، فمال هؤلاء الشعراء الفحول إلى نظم هذه الموشحات لأنهم كانوا يعيشون في مجتمع يميل إلى كل ما هو شعبي[204].

وقد أدى هذا الأمر إلى ظهور شعر الزجل الذي اشتهر به محمد بن عبد الله بن قزمان (توفي عام 554هـ)[205]، وإذا رأينا الموشح يعتمد نظم القوافي، فالزجل يمثل مظهراً من مظاهر ضعف اللغة العربية وفقدان سلطانها الكامل على الشعراء[206].

---

(199) السامرائي، علاقات، ص 420.

(200) سعد شلبي، دراسات أدبية، ص 155 ـ 156.

(201) راجع، ديوان ابن خفاجة الأندلسي، ص 116، ص 198.

(202) محمد مجيد السعيد، الشعر في ظل بني عباد، ص 267 ـ 268.

(203) محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين الموحدين، ص 395 ـ السامرائي، علاقات، ص 421.

(204) السامرائي، دراسات، ص 405.

(205) ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 100 ـ سام، قرطبة، جـ 2، ص 100.

(206) نماذج من موشحة ابن اللبانة:

للدموع إذ تقطر. في الخد أسطر. تحفظ الهوى ظاهر. منها النواظر

وأشهر نموذج للموشحات، موشحة ابن الخطيب:

=

ولكن مع كل هذا فقد رعت دولة المرابطين الحركة الأدبية، وظللت على رجالها وأدخلهم سلاطينها في خدمتهم، فعلي بن يوسف استعان بالوزير أبي القاسم ابن الجد المعروف بابن الأحدب، وبأبي بكر بن محمد المعروف بابن القبطرنة، كما أن الأديب والفيلسوف ابن باجة خدم أمير سرقسطة المرابطي أبا بكر إبراهيم المعروف بابن تافلويت ونظم له الموشح المعروف بمطلعه:

جـــرر الـــذيـــل أيـــمـــا جـــر   وصـــل الـشـكـر مـنـك بـالـشـكـر

فطرب ابن تافلويت لهذا الموشح الذي ختم بقوله:

عـــقـــد الله رايـــة الـــنـــصـــر   لأمـــيـــر الـــعـــلا أبـــي بـــكـــر[207]

ولأمير سرقسطة قصة معروفة مع هذا الأديب[208]. كما أن الدولة المرابطية شجعت الحركة الأدبية، ودل على ذلك المؤلفات العديدة التي ظهرت في هذه الفترة مثل: قلائد ابن خاقان، وذخيرة ابن بسام، وصلة ابن بشكوال ومسهب الحجازي وغيرها[209].

هذه الرعاية التي حظي بها أدباء الأندلس من قبل أمراء المرابطين، أثرت في الأدب الأندلسي تأثيراً محسوساً، فظهر بمظهر القوة، واختفت منه عناصر الضعف التي كانت سائدة عليه أيام ملوك الطوائف، فانتحى الشعراء في شعرهم مناحي الجد والتوقر بدل ما كانوا منغمسين فيه من المجون والبطالة، وذلك نتيجة ارتفاع معنويات أهل الأندلس عموماً بما أحرزوه من نصر على أعدائهم بفضل جهود المرابطين، بعدما كانوا أذلة أمام

= جـادك الـغـيـث إذا الـغـيـث هـمـى   يـا زمـان الـوصـل بـالأنـدلـس
لـم يـكـن وصـلـك إلا حـلـمـا   في الـكـرى أو خـلـسـة الـمـخـتـلـس

ينظر، السعيد، الشعر في ظل بني عباد، ص 258 ـ السامرائي، دراسات، ص 405 ومن نماذج الزجل.

مـــا أعـــجـــب حـــديـــثـــي   اشـــي هـــذا الـــجـــنـــون
نـــطـــلـــب ونـــديـــر   أمـــراً لا يـــكـــون
وكـــم ذا نـــهـــون   أمـــراً لا يـــهـــون

ينظر، محمد عبد المنعم خفاجة، قصة الأدب في الأندلس، جـ 1، ص 232. كامل كيلاني، نظرات، ص 289 ـ عنان، عصر المرابطين، ق 1، ص 453 ـ 454.

(207) سالم، قرطبة، جـ 2، ص 98، ص 184 وما بعدها.

(208) ابن خاقان، قلائد، ص 3 ـ 4 ـ السامرائي، علاقات، ص 423.

(209) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 211 ـ ابن سعيد، المغرب، جـ 2، ص 108ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 451.

هجمات الإسبان[210]. ومن مميزات الحركة الأدبية في الأندلس في عصر المرابطين ظهور فن المقامات، وأول من تأثر بمقامات الحريري الأديب أبو طاهر محمد التميمي السرقسطي (توفي بقرطبة عام 538هـ) فله كتاب (الخمسين مقامة اللزومية) وهي المعروفة بالمقامات السرقسطية وقد عارض بها مقامات الحريري، كما وضع الأديب محارب بن محمد الوادي آشي مقامة في مدح القاضي عياض بن موسى السبتي (توفي عام 544هـ)، كما أن الأديب أبا عبد الله محمد بن القرطبي وضع مقامة سماها المقامة العياضية الغزلية[211].

ولم تلق الحركة الفلسفية رواجاً وتقدماً في الأندلس في العهد المرابطي وذلك لاعتماد هذه الدولة المذهب المالكي أساساً لكل أمورها، وبذلك لا تميل إلى الخوض في علوم الفلسفة[212]، ولكن مع هذا وجد من درس هذا العلم خلال هذه الفترة، أمثال العالم أبي بكر بن باجة المعروف، والعالم أبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير، من أهل سرقسطة الذي سكن مراكش ومات فيها عام 520هـ[213]. وتوجت دولة المرابطين موقفها من الفكر الفلسفي، بإحراق كتب الإمام الغزالي، وأصدرت أوامرها إلى معظم مدن الأندلس والمغرب في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف، بهذا الأمر، لاعتقاد أهل الفقه بأن كتبه مليئة بآراء المتكلمين ومذاهب الصوفية[214].

كما ذهب ضحية سلوك الفقهاء هذا أبو الحسن علي بن جودي (توفي 530هـ)، وهو تلميذ ابن باجة، حيث اتهم بدينه فلاحقته السلطات، ففر وتحول إلى قاطع طريق مع عصابة تعمل بين الجزيرة الخضراء وقلعة خولان[215].

وأصبحت الأندلس ولاية موحدية 540 ـ 620هـ، فبدأ عصر جديد للحركة الفكرية، فقد أعطى الموحدون الحريات للنشاطات العلمية والأدبية، سوى ما يخالف مبادىء فكرة التوحيد التي يعتمدها محمد بن تومرت[216] فقدروا العلماء، واستدعوهم إلى

---

(210) كنون، النبوغ المغربي، جـ 1، ص 92.

(211) ينظر، إحسان عباس، تاريخ الأدب، ص 195 ـ حازم عبد الله، النثر الأندلسي، ص 324.

(212) المراكشي، المعجب، ص 172 ـ فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب (مطول)، جـ 2، ص 645.

(213) السامرائي، علاقات، ص 429.

(214) ينظر، ابن القطان، نظم الجمان، ص ـ 14 ـ 15 ـ المراكشي، المعجب، ص 173 ـ بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 153 ـ السلاوي، الإستقصا، جـ 2، ص 57 ـ محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص 63، ص 72.

(215) ابن سعيد، المغرب، جـ 2، ص 109 ـ السعيد، الشعر في عهد المرابطين، ص 72.

(216) عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، ص 151 وما بعدها.

قصورهم وأحاطوهم بالرعاية، ومالوا إلى دراسة مختلف العلوم بما فيه الفلسفة، وبذلك امتاز عصرهم بسعة الأفق وحرية الفكر[217].

ومن الملاحظ في هذا العصر أن الحركة الأدبية في الأندلس وبخاصة الشعر والنثر قد تقدمت على العلوم الأخرى، ومما دفعها في هذا المجال النكبات التي لحقت بأهل الأندلس، خلال العصر الموحدي، وعصر الانهيار الذي أدى إلى قيام مملكة غرناطة، فعبرت النفوس الملتاعة بالمراثي البليغة، من الشعر والنثر، ما يدمي القلوب ويحرق النفوس[218].

في أيام الموحدين انكمش سلطان الفقهاء لابتعاد ولاة الأمر عن علم الفروع واهتمامهم بظاهر النصوص من قرآن وحديث نبوي، فنمت بدلهم طبقة من الصالحين الأتقياء، الذين دفعوا العلوم الدينية إلى الأمام.

ودراستنا للعلوم الدينية في الأندلس من خلال تتبع تراجم رواد هذه العلوم يمكن أن نقسم هؤلاء العلماء إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ الأول:

الذين اشتهروا بعلوم القرآن والحديث والفقه: العلامة الحافظ أبو الربيع بن سالم الحميري (شهيد معركة أنيشة عام 634هـ) برع في الحديث والفقه، وهو أستاذ ابن الآبار[219]. والأخوان عبد الله وداود أولاد حوط الله الأنصاري، توفي عبد الله عام 612هـ، وتوفي داود عام 621هـ، اشتهرا بعلم القراءات وعلم الحديث[220].

ومن أشهر علماء الحديث أيضاً عبد الله بن الحسن الأنصاري ويعرف بابن القرطبي (توفي عام 611هـ)[221]. ومن أعظم فقهاء هذا العصر محمد بن عبد الله بن الجد الفهري، الذي اشتهر بدراسة الفقه والحديث (توفي عام586هـ)[222]. أما ابن موجوال فاشتهر بدراسة القراءات والحديث، إلى جانب اشتهاره بالورع والزهد توفي عام 566هـ[223]. وغيرهم كثير.

---

(217) السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص 64 ـ 65.

(218) عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 649.

(219) ابن الآبار، التكملة، ترجمة (رقم 1991).

(220) أيضاً، ترجمة رقم (2099) ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 503.

(221) أيضاً، ترجمة، رقم (2097).

(222) ابن الآبار، التكملة (رقم 1496).

(223) أيضاً، ترجمة (رقم 2050).

2 ـ الثاني:

العلماء الذين مزجوا بين دراسة الفقه والحديث ودراسة الأدب، ومن أشهرهم محمد بن خير بن عمر (502 ـ 575هـ) وهو صاحب كتاب الفهرسة[224]. وعبد الله بن يحيى الحضرمي النحوي ويعرف بابن صاحب الصلاة (517 ـ 578هـ)، ومن شعره:

وعجل شيبي أن ذا الفضل مبتلى   بدهر غدا ذو النقص فيه مؤملا
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   بها الحر يشقى واللئيم ممولا[225]

واشتهر بالشعر أيضاً الفقيه والمحدث مفوز بن طاهر المعارفي (517 ـ 590هـ).

ومن نظمه:

وقفت على الوادي المنعم دوحه   فأرسلت من دمعي هنالك واديا
وغنّت به ورق الحمام عشية   فأذكر أياماً مضت ولياليا[226]

3 ـ الثالث:

العلماء الذين غلبت عليهم صفة التصوف، ويأتي في مقدمتهم المقرىء والزاهد الورع موسى بن حسين بن عمران الميرتلي، (توفي عام 604هـ) ومن شعره في الزهد:

سليخة وحصير   ليت مثلي كثير
وفيه، شكراً لربي   خبز وماء نمير
وفوق جسمي ثوب   من الهواء ستير
قررت عينا بعيشي   فدون حالي الأمير[227]

وقطب هذا القسم محيي الدين بن عربي (560 ـ 638هـ) فبجانب دراسته للحديث، مال إلى التصوف وشغف به حتى ملك عليه كل جوارحه، إضافة إلى هذا كله كان شاعراً مبدعاً له قصائد في الشعر الرقيق الجيد، في العشق الإلهي[228].

---

(224) ابن خير، الفهرسة، ص ي مقدمة الكتاب.
(225) ابن الآبار، التكملة رقم 2066 ـ عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 662.
(226) ابن الآبار، التكملة، ترجمة رقم 1844.
(227) أيضاً، ترجمة رقم 1731 ـ عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 666.
(228) ينظر، عبد اللطيف الطيباوي، محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، ص 230 ـ عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 679 ـ 680 ـ السامرائي، دراسات، ص 287 ـ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 371 وما بعدها.

أما العلوم اللغوية والنحوية، فقد ازدهرت في الأندلس في هذا العصر، ومما يلفت النظر في عصر الموحدين، هو ظهور أعلام كبار في النحو، لهم اجتهادات وآراء جديدة في هذا الميدان[229]. ومن أشهرهم أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمٰن المعروف بابن مضاء القرطبي (توفي عام 592هـ)[230]، وعلي بن محمد بن علي بن خروف الحضرمي (توفي عام 609هـ)[231]، ومن علماء اللغة والنحو في هذا العصر أيضاً ابن أبي ركب، مصعب بن محمد الخشني (توفي عام 604هـ)[232]، وكذلك أبو علي عمر بن محمد الإشبيلي الشلوبيني والذي يعتبر إمام النحويين في هذا العصر (562 ـ 645هـ)[233].

ومن أشهر رواد علم التاريخ وكتابه ورواته في الأندلس خلال هذه الفترة محمد بن أبي خالد المري الإلبيري، من أهل غرناطة (533 ـ 602هـ) فكان عارفاً بتاريخ من نزل بالأندلس قديماً من العرب[234]. أما إمام المؤرخين، وأعظم أقطاب الرواية والتاريخ من هذه الفترة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الآبار (595 ـ 658هـ) فقد عاصر أحداث الأندلس خلال العصر الموحدي وشارك في مجريات أمورها، وترك لنا مؤلفات في غاية الأهمية منها (الحلة السيراء ـ التكملة لكتاب الصلة ـ إعتاب الكتاب) وغيرها[235]. ورعت دولة الموحدين العلوم الصرفة. وفي مقدمتها علوم الطب وتزعمت أسرة آل زهر الأندلسية الإشبيلية حركة الطب في هذه الفترة فكان أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر (توفي عام 525هـ) طبيباً خاصاً لعبد المؤمن بن علي أول حاكم للموحدين، وكان هذا الحاكم يكره الأدوية وقد احتاج إلى مسهل فأعطاه هذا الطبيب ثمار العنب بعد أن سقى شجرة العنب بماء فيه دواء مسهل[236]. ثم

---

(229) السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص 68.

(230) ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ 1، ص 8 ـ 2 (رقم 92) ـ أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ 3، ص 95 ـ 98.

(231) الحموي، معجم الأدباء، جـ 15، ص 75 ـ ابن الزبير، الصلة، ترجمة (رقم 245) ـ المقري، نفح، جـ 3، ص 184.

(232) ابن الآبار، التكملة رقم 1785 ـ عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 684.

(233) ينظر، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ 5، ص 218 ـ المقري، نفح، جـ 3، ص 490ـ جـ 4، ص 9، ص 472.

(234) ابن الآبار، التكملة ترجمة رقم 1530 ـ عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 655.

(235) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، مقدمة المحقق ص 13 وما بعدها ـ ينظر عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 704، ص 705 ـ 708.

(236) عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص 289 ـ جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص 312.

اشتهر من بعده حفيده أبو بكر محمد بن عبد الله بن زهر بن عبد الملك، طبيباً خاصاً للخليفة الموحدي المنصور ومن جاء بعده، ولما توفي عام 595هـ دفن بروضة الأمراء إكراماً له(237).

ومن أشهر العشابين والنباتيين في الأندلس خلال العصر الموحدي أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموري المعروف بالعشاب وبابن الرومية (561 ـ 637هـ)(238)، وخلفه من بعده تلميذه ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي المشهور بابن البيطار (توفي عام 646هـ)(239).

ومن أشهر علماء الرياضيات علي بن خلف الأنصاري الشلبي الذي كان حياً عام 565هـ(240). واشتهر أبو بكر محمد بن أحمد الرقوطي المرسي بالرياضيات والهندسة والطب، ويتقن عدة لغات، وقد بقي في وطنه مرسية بعد تغلب الإسبان عليها عام 664هـ، ولم يغادرها. وبنى له ملك الإسبان (خايمة الأول) مدرسة علم فيها المسلمين والمسيحيين واليهود العلوم التي برع بها، وحاول ملك الإسبان عبثاً أن يُغريه باعتناق المسيحية، ثم غادر مرسية إلى مملكة غرناطة ودخل في خدمتهم يعلم أبناء المسلمين علومه التي تفوق بها، توفي أواخر القرن السابع الهجري(241). أما الفكر الفلسفي، فدخل عصره الذهبي في عهد الموحدين، وتمتع الفلاسفة بمكانة مرموقة في بلاط الموحدين، وأعطيت لهم الحرية المطلقة في عملهم شريطة ألا تنشر هذه التعاليم على العامة، لأن الموحدين كانوا يعتبرون الفلسفة نوعاً من الحقائق الباطنية المحصورة في فئة المتنورين(242).

واشتهر هذا العصر بأعظم فلاسفة الأندلس، ويأتي في مقدمتهم ابن طفيل (أبو بكر

---

(237) ينظر، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، جـ 2، ص 67 ـ المراكشي، المعجب، ص 142 وما بعدها ـ ابن الآبار، التكملة، ترجمة (رقم 1499) ـ المقري، نفح، جـ 2، ص 247 ـ جـ 3، ص 434 ـ جـ 7، ص 9.

(238) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 215 وبعدها ـ ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ 1، ص 191 ترجمة رقم 69 ـ المقري، نفح، جـ 3، ص 185.

(239) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، جـ 2، ص 133.

(240) ابن الزبير، صلة الصلة، ترجمة رقم 201.

(241) عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 718.

(242) أولبري، الفكر العربي، ص 211 ـ 212.

محمد بن عبد الملك توفي عام 581هـ)[243]. مؤلف رواية (حي بن يقظان)، وكان بطلها حي يعيش في جزيرة لا يسكنها أحد من الناس، وليس له علاقة بأحد من أهل الجزائر الأخرى. بحث بعقله بحثاً منطقياً متدرجاً من البسيط إلى المركب حتى وصل إلى الاعتقاد بالله وغرضه من ذلك: أن يبين أن الشرع يتفق مع العقل[244]، والفيلسوف الآخر المشهور أبو الوليد محمد بن أحمد المعروف بابن رشد شيخ الفلاسفة في الأندلس (توفي عام 595هـ)[245]. ودافع ابن رشد عن الفلسفة في كتابه تهافت التهافت، ورد بعنف على الإمام الغزالي (توفي عام 505هـ)، ووضح ابن رشد في كتب أخرى بأن الفلسفة لا تتنافى مع الدين، وألّف كتاباً صغيراً سماه (فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال)[246]. وقد اتهم ابن رشد بالزندقة لكثرة أبحاثه، فأحرقت كتبه الفلسفية جميعها في عهد دولة الموحدين، على عهد الخليفة المنصور، واحتفظ له بالكتب الطبية والرياضية[247]. وكذلك الفيلسوف موسى بن ميمون القرطبي اليهودي الأصل، والذي اعتنق الإسلام ودخل في خدمة الموحدين، وبعدها غادر المغرب إلى مصر ودخل في خدمة البلاط الأيوبي في مصر إلى أن توفي عام 602هـ[248].

أما الحركة الأدبية فقد ازدهرت في الأندلس خلال عصر الموحدين، وذلك بسبب تذوق الخلفاء الموحدين للشعر الجيد، مع تقديرهم لشعر المديح والإشادة. وبلغ الشعر في الأندلس مستوى عالياً من الازدهار والقوة، وأظله الموحدون برعايتهم، وتبارى الشعراء الأندلسيون في مدح الخلافة الموحدية والإشادة بها. حتى إن هذه النهضة الشعرية لم تخبُ في عصر الانهيار، أواخر العهد الموحدي ـ بل زادتها المحنة قوة، فنظم الشعراء قصائد الرثاء والقصائد المبكية، مما يشهد بأن الشعر الأندلسي، قد بلغ

---

(243) المراكشي، المعجب، ص 311 ـ أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 500 ـ محمد عبد المنعم خفاجة ـ قصة الأدب جـ 1، ص 147ـ أولبري، الفكر العربي، ص 212.

(244) السامرائي، دراسات، ص 258 ـ محمد أحمد المليجي «ابن طفيل»، مجلة العربي، العدد 145، ص 127.

(245) النباهي، المرقبة العليا، ص 111 ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 154 ـ أولبري، الفكر العربي، ص 213.

(246) أحمد أمين، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص 158.

(247) أنور الرفاعي، الإنسان العربي والحضارة، ص 516 ـ خودا بخش، حضارة الإسلام، ص 148 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 391 ـ 392.

(248) عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 723 ـ 724.

في تلك الفترة الصعبة من حياة الأندلس، ذروة قوته وروعته.

ولما كانت الرغبة لدى الخلفاء الموحدين في سماع المديح، فظهر في الشعر الأندلسي هذا الفن، فلما عبر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس استدعى الشعراء، وسمع من كثير منهم، وكان ممن أنشده من الأندلسيين الأصم المرواني وابن سيِّد (اللص) والرصافي البلنسي وغيرهم، وكانت له ملاحظات نقدية على قصائدهم تدل على تذوقه للشعر ومعرفته الواسعة به[249]. والخليفة الموحدي المنصور لما انتصر على الإسبان في معركة الارك عام 591هـ اجتمع لديه عدد كبير من الشعراء، فلم يكن الوقت يسمح لإلقاء كل شاعر قصيدته، فالقى كل شاعر بيتين أو ثلاثة من قصيدته[250]. ولكن بعد خلافة الناصر (610هـ) خبا هذا النوع من الشعر لاضطراب أحوال الدولة وعدم تذوق ولاة الأمر شعر المديح[251]. وفي هذا العصر عالج شعراء كثيرون فن الغزل، فمنه الغزل العفيف، كقصيدة الفيلسوف والشاعر ابن طفيل الذي زار محبوبته ليلاً بعد نوم الناس، وعلى الرغم من الشوق والتلهف لم ينسيا العفة والخلق الشريف[252]. وشاركه في هذا الاتجاه الشاعر أبو الروح عيسى بن خليل (توفي عام 629هـ)[253].

ولكن غزل ابن سعيد الأندلسي وغيره، يبتعد عن التحشم والوقار[254]. وظهر في هذا العصر في الأندلس شواعر غزلات أمثال حفصة الركونية التي توفيت عام 586هـ[255]، ويمثل شعرها قصة غرام جريء في مجتمع إسلامي يحرص على سلوك معين وتقاليد وأعراف[256].

وشعر الشكوى ظهر في هذه الفترة، بسبب وقوع الشاعر في الأسر، أو ينفى من بلده لأي سبب. وممن امتحن بالنفي والتغريب عن وطنه الشاعر أبو الحسن سهل بن محمد بن مالك الغرناطي (توفي عام 639هـ)، فيصور حالته البائسة وهو غريب بعيد عن

---

(249) المراكشي، المعجب، ص 282، ص 285، ص 286.
(250) المقري، نفح، جـ 4، ص 172 ـ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 126 ـ 127.
(251) السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص 88.
(252) ينظر المراكشي، المعجب، ص 313.
(253) المقري، نفح، جـ 2، ص 608.
(254) السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص 166.
(255) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 499، ص 227.
(256) السعيد، نفس المرجع، ص 183.

الوطن والأهل[257]. واشتهر الشاعر ابن حزمون (توفي عام 614هـ) بشعر الهجاء حتى وصف بأنه: بذيء اللسان[258]. وهناك بعض الشعراء الذين تميزوا بالهجاء السياسي أمثال (أبي عبد الله محمد بن الصفار القرطبي توفي عام 639هـ) فالبرغم من كونه أعمى مشوّهاً، هجا المستنصر الموحدي، وتخفى في مدن المغرب من خطره[259].

وبرز في الأندلس خلال هذا العصر شعراء الزهد ويمثلهم أبو عمران موسى بن عمر المارتلي الإشبيلي[260]. وكذلك أبو جعفر بن الوكيل (توفي عام 551هـ)، ومن شعره:

أسير الخطايا عند بابك واقف ... له عن طريق الحق قلب مخالف

قديماً عصى عمداً وجهلاً وعزة ... ولم ينهه قلب من الله خائف[261]

وضمن هذا الفن ظهرت القصائد النبوية الطويلة في مدح رسول الله ﷺ، وتعداد معجزاته، والتشوق إلى زيارة ضريحه وإلى غير ذلك، ومن أشهر شعراء هذا الفن ابن الجنان (توفي عام 640هـ) والشاعر علي بن إبراهيم الأنصاري (توفي عام 571هـ)، والشاعرة أم السعد بنت عصام الحميري المعروفة بـ(سعدونة) توفيت (عام 640هـ)[262]. ويعتبر العصر الموحدي في الأندلس عصر بزوغ الشعر الصوفي ونضوجه، وأحسن من يمثله محيي الدين بن عربي (توفي عام 638هـ) المار ذكره[263].

وبرز في الأندلس خلال العصر الموحدي، ونتيجة استرداد الإسبان لمعظم المدن الأندلسية، وما لحق أهلها من الأذى والضرر، نوع من الشعر يسمى رثاء المدن، مع الصريخ إلى نجدتها، وأحسن من مثل ذلك عالمنا الشهير ابن الآبار بقصيدته السينية المشهورة:

---

(257) السعيد، أيضاً، ص 235.

(258) المراكشي ـ المعجب، ص 373 ـ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، جـ 5، ص 240.

(259) السعيد، المرجع السابق، ص 252.

(260) ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 406.

(261) المقري، نفح، جـ 2، ص 599.

(262) ينظر، المقري، نفح، جـ 7، ص 432، ص 440 ـ 470 ـ أزهار الرياض، جـ 3، ص 226 ـ 282ـ ينظر، محسن جمال الدين. احتفالات الموالد النبوية، ص 20 وما بعدها ـ السعيد، المرجع السابق، ص 269 وما بعدها.

(263) ينظر، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 339 ـ أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ 3، ص 72 ـ 73.

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا[264]

ويشاركه في ذلك أبو البقاء الرندي في قصيدته النونية:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان[265]

ومن أشهر كتاب الأندلس في هذا العصر الرحالة ابن جبير البلنسي صاحب كتاب الرحلة المشهور (توفي عام 614هـ)[266]. واشتهرت أسرة بني عياش الأندلسية بالكتابة ودخل أفرادها في خدمة خلفاء الموحدين، أمثال أبي الحسن بن عياش، ومحمد بن عبد العزيز بن عياش وعلي بن عياش[267]. ومن أشهر كتاب الأندلس خلال هذا العصر أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي صاحب الرسائل المشهورة[268].

واشتهرت الأندلس أيضاً بالمكتبات، مما حدا بخلفاء الموحدين أن يجلبوا من الأندلس أشهر الكتب ووضعوها في الخزانة العلمية بمدينة مراكش[269]. وقد نقل الخليفة الموحدي يوسف إحدى المكتبات الخاصة من مدينة إشبيلية إلى مكتبته بقصر الخلافة بمراكش دون علم صاحب المكتبة أو استئذانه[270]. واستخدم الموحدون نساخين وخطاطين من أهل الأندلس لنسخ المؤلفات العلمية، فكان من أشهر هؤلاء أبو العباس بن الصغيرة من أهل المرية، وقد عينه الخليفة يوسف أميناً لمكتبته العلمية[271].

أما عصر مملكة غرناطة 635 ـ 897هـ، فقد اتخذت هذه المملكة العربية الأخيرة في الأندلس مذهب الإمام مالك أساساً لكل أمورها[272]. ولا شك كان للمذهب المالكي دوره الفعال في عملية تنظيم هذه الدولة، وكان لرجال المذهب سلطان قوي في الجانب الفكري والسياسي[273].

---

(264) المقري، نفح، جـ 4، ص 457 ـ أزهار الرياض، جـ 3، ص207.
(265) المقري، نفح، جـ 4، ص 487 ـ أزهار الرياض، جـ 1، ص 47 ـ السعيد، المرجع السابق، ص 322 ـ 323.
(266) رحلة ابن جبير، ص 23.
(267) عنان، عصر الموحدين، ق 2، ص 698.
(268) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ 6، ص 534 ـ 535.
(269) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 184 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 397.
(270) المراكشي، المعجب، ص 238 ـ 239.
(271) أبو رميلة، علاقات، ص 399.
(272) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 38.
(273) فرحات، غرناطة، ص 154.

وكان أبرز علماء المذهب المالكي، الفقيه أبا سعيد فرج بن لب (701 ـ 782هـ) وكان من أشهر أساتذة المدرسة النصرية. ومن تلاميذه: إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي (توفي عام 790هـ) صاحب كتاب (أصول الفقه)، ومحمد بن سراج (توفي عام 848هـ) وعرف بفتاويه المتعددة، وأبو عبد الله محمد بن علي الفخار الإلبيري، والفقيه محمد بن محمد الأنصاري السرقسطي (توفي عام 861هـ) وكانت له شهرة واسعة، وقد شارك السلطان النصري في جنازته لما كان يتمتع به من سمعة وشهرة[274]. وقد أفتى هذا الفقيه السرقسطي: بأن الإسبان لا يحق لهم من حيث المبدأ بيع أراضي المسلمين التي انتزعوها منهم، لأنهم في الأساس ليسوا أصحابها، وإنما هي أرض إسلامية، ولكن أوضاع المسلمين الذين هم تحت رحمة الإسبان (وهم المدجنون) هي أوضاع خاصة، لذا جاز لهم شراء تلك الأراضي تلبية لحاجاتهم المعيشية[275].

وشهد المجتمع النصري حركة زهد قوية في أوساط العامة والخاصة، فكثر الزهاد والمتصوفون. فبالإضافة إلى أوضاع هذه الدولة الخاصة، ساعد على ازدهار حركة الزهد قدوم مهاجرين من الهند وسمرقند وتبريز وخراسان فاستقروا في الأندلس وساهموا في إبراز تيار الزهد، وقد زارهم ابن بطوطة خلال رحلته الأندلسية (751 ـ 752هـ)[276]. ويشير ابن الخطيب إلى وجود رباطات المتصوفين في حي البيازين بغرناطة بإشراف أبي أحمد جعفر الخزاعي الذي كان يجمع المصلين كل ليلة لقراءة القرآن، وعقد حلقات الذكر، وسماع أشعار المتصوفة ولا سيما أشعار الحلاج[277]. واشتهرت الزاهدة عائشة بنت عبد الله الأندلسي، التي أمضت حياتها داخل حجرة صغيرة، منصرفة لعبادتها، حتى اتهمت بالجنون[278]. وترك أبو عبد الله محمد بن المحروق أحد زعماء مدينة غرناطة الطيبات واعتزل في رباط ابن المحروق، وفي رباط العقاب المشهور على سفح جبل مشرف على غرناطة قضى الزاهد ابن سبعين والششتري قسماً من حياتهما[279].

ومن أقطاب التصوف في مملكة غرناطة، أبو الحسن علي بن فرحون القرشي

(274) المقري، نفح، جـ 2، ص 52، ص 699 ـ جـ 3، ص 617 ـ جـ 5، ص 355، ص 429.
(275) فرحات، غرناطة، ص 155.
(276) رحلة ابن بطوطة، جـ 2، ص 769.
(277) الإحاطة، جـ 1، ص 461 ـ 463 ـ فرحات، غرناطة، ص 156.
(278) المقري، نفح، جـ 5، ص 306.
(279) فرحات، غرناطة، ص 157.

القرطبي (توفي عام 751هـ)[280] وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الأنصاري المرسي (توفي عام 751هـ أيضاً) وله كتاب (زهرة الأكمام) في قصة يوسف، وأبو عبد الله محمد الأنصاري المالقي (649 ـ 754هـ) وله كتاب (بغية السالك في أشرف المسالك) في مراتب الصوفية وطرائق المريدين[281].

ومن خلال ما زودتنا به الروايات نفهم أن المراكز الفكرية ودور التعليم المهمة كانت موجودة في المدن الرئيسية كغرناطة ومالقة والمرية ووادي أش، وكانت الكتاتيب منتشرة في القرى والأرياف، وأعظم مدرسة بنيت في هذا العهد المدرسة اليوسفية بغرناطة عام 750هـ/ 1349م بناها السلطان يوسف الأول، كما عرفت باسم المدرسة العلمية والمدرسة النصرية. بدأت أولاً تدرس العلوم الدينية، ثم أصبحت تهتم بأكثر أنواع المعرفة والفكر، وقصدها الطلبة من سائر مناطق مملكة غرناطة، ونالت شهرة واسعة حتى أوفد عليها طلاب العلم من عدوة المغرب، بالإضافة إلى هذا كله وجد المؤدبون الخاصون لأولاد السلاطين[283]. وكتب على باب المدرسة بعض الأبيات:

يا طالب العلم هذا بابه فتحا	فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضحى
واشكر مجيدك من حل ومرتحل	إذ قرب الله من مرماك ما نزحا
وشرفت حضرة الإسلام مدرسة	بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا
أعمال يوسف مولانا ونيته	قد طرزت صحفاً ميزانها رجحا[284]

وكانت المدرسة النصرية تعرض لائحة من الكتب مع أسماء الأساتذة الذين يقومون بتدريسها: فالقرآن الكريم يحتل الصدارة، ثم يأتي بعده كتاب الموطأ للإمام مالك. وبعد ذلك ظهر كتاب (تحفة الحكماء في نقاط العقود والأحكام) للقاضي أبي بكر بن عاصم الغرناطي. واهتمت مدرسة غرناطة بتعليم اللغة والأدب، فاعتمدت كتاب سيبويه وكتاب الأغاني وآثار الجاحظ ومقامات الهمذاني والحريري، كما اعتمدت شعر العرب فكان ديوان الحماسة وديوان المتنبي من الكتب المفضلة. ولا نعرف بالتحديد عدد السنوات التي كان يقضيها الطلاب في هذه المدرسة قبل تخرجهم، إنما المتفوقون منهم

(280) المقري، نفح، جـ 5، ص 226.
(281) عنان، نهاية الأندلس، ص 467.
(282) فرحات، غرناطة، ص 158.
(283) المقري، نفح، جـ 5، ص 268، ـ جـ 7، ص 108، ص 166، ص 282.
(284) المقري، نفح، جـ 5، ص 457 ـ فرحات، غرناطة، ص 160.

كانوا يحصلون على إجازة خطية يمنحون بموجبها حق تدريس مادة معينة أو كتاب معروف[285].

وشهدت مملكة غرناطة نهضة علمية كان من روادها محمد بن الرقاح المرسي الذي اشتهر بالهندسة والرياضيات، ومارس الطب أيضاً، وتوفي عام 715هـ. ونبغ أبو يحيى بن رضوان الوادي أشي وتوفي سنة 757هـ، ووضع قصيدة في علم الفلك بعنوان (المنظوم من علم النجوم) ووضع رسالة في الاسطرلاب[286].

ومن أشهر أطباء هذا العصر محمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف بابن السراج فكان طبيب السلطان محمد الثاني الخاص، وكان يداوي الفقراء مجاناً ويوزع أمواله على المحتاجين. وكذلك الطبيب يحيى بن هذيل التجيبي حكيم غرناطة وفيلسوفها (توفي عام 753هـ) وكان استاذاً لابن الخطيب[287]. وكان محمد الشقوري طبيب دار الإمارة أيام السلطان يوسف الأول وله كتاب (تحفة المتوسل وراحة المتأمل). وفي المرية لمع اسم الطبيب والشاعر والمؤرخ أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري (توفي عام 770هـ) وله كتاب عن الوباء الذي عصف بالأندلس عام 749هـ/ 1348م بعنوان (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد)[288]. ولا ننسى في هذا المجال لسان الدين ابن الخطيب، الذي سنذكره فيما بعد، وكان أيضاً من الأطباء المشهورين وله عدة كتب طبية منها: (رسالة تكوين الجنين) و(مقنعة السائل في المرض الهائل) يصف فيه أعراض الوباء الكبير[289]. ومن الابتكارات الطبية التي توصل إليها أطباء العصر النصري، منها: ما توصل الطبيب المالقي الحسن بن محمد بن الحسن القيسي حيث قدم دواء ضد سموم الحيات إلى السلطان يوسف الأول[290]. واستعان الغرناطيون بحشائش معينة توضع فوق المكان الملتهب فتشفيه وبخاصة مرض النقرس. كما استعملوا الضماد في مداواة عرق النسا. ويؤكد ابن الخطيب في كتابه (مقنعة السائل) أن مرض الطاعون ينتقل بالعدوى ويختفي في ثياب المريض، محاولاً بذلك الإشارة إلى

---

(285) فرحات، غرناطة، ص 160 ـ 161.

(286) فرحات، غرناطة، ص 162.

(287) المقري، نفح، جـ 3، ص 52، ص 258.

(288) أيضاً، جـ 1، ص 24، (حاشية) ـ جـ 6، ص 33 ـ 37.

(289) فرحات، غرناطة، ص 163.

(290) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 467.

وجود الجراثيم مما لم يكن معروفاً في ذلك الوقت(291). ووضع الطبيبان ابن خاتمة وابن الخطيب جملة من الإرشادات والنصائح الطبية، من أجل إبعاد سكان مملكة غرناطة من خطر الوباء الكبير أو الطاعون الأسود. وتوجت مملكة غرناطة جهودها الطبية ببناء المستشفى (البيمارستان) في مدينة غرناطة على أيام السلطان محمد الخامس، وبناء دار للعجزة ومأوى للعميان في عصر السلطان محمد الأول(293).

ونالت الحركة اللغوية تقدماً كبيراً في ظل مملكة غرناطة وكان من أشهر روادها: أبو بكر محمد بن إدريس القضاعي (توفي عام 707هـ) وله كتاب (الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض)، والعالم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم النحوي (626 ـ 708هـ)، وكان عالماً بالقرآن والحديث، وكانت له حظوة عند السلطان أبي عبيد الله محمد بن الأحمر، وله كتاب (صلة الصلة). ومن علماء اللغة كذلك، أبو عبد الله محمد بن علي الفخار الذي كان شيخ النحاة الأندلسيين في عصره، وعليه درس ابن الخطيب وابن زمرك وتوفي بغرناطة عام 754هـ(293). وابن مالك الأندلسي (640 ـ 686هـ) صاحب الألفية المشهورة، من أهل جيان، الذي رحل إلى المشرق تاركاً الأندلس المضطربة(294).

ونالت الدراسات التاريخية حظوة كبيرة في عهد هذه المملكة، ومن الشخصيات المشهورة في حقل التاريخ أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري (توفي عام 770هـ) وله كتاب (مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية). وكذلك القاضي المشهور أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي (713 ـ بعد عام 793هـ) وكان من خصوم ابن الخطيب ومن الساعين إلى هلاكه، وله كتاب (تاريخ قضاة الأندلس) وكتاب (نزهة البصائر والأبصار) في تاريخ الدولة النصرية(295).

وأما كتب لسان الدين ابن الخطيب (713 ـ 776هـ) التاريخية فهي أكثر من أن تُعد، ويأتي في مقدمتها (اللمحة البدرية في الدولة النصرية) وكتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) وكتاب (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام) وكتاب (نفاضة الجراب) وكتاب (كناسة الدكان) وغيرها كثير.

---

(291) فرحات، غرناطة، ص 163.

(292) فرحات، غرناطة، ص 135، ص 164.

(293) المقري، نفح، جـ 5، ص 355.

(294) عبد العال سالم مكرم «ابن مالك الأندلسي» مجلة العربي، العدد 166، ص 131 وبعدها.

(295) المرقبة العليا، ص ط المقدمة.

أما الحركة الأدبية في مجال الشعر والنثر فقد ازدادت في ظل مملكة بني الأحمر وكان روادها لسان الدين ابن الخطيب وابن زمرك، واستمر الإزدهار مرافقاً للوجود العربي حتى سقوط غرناطة، فكأن القلم والسيف تعاهدا على الجهاد ومواصلة الطريق حتى النفس الأخير(296).

والأعلام من الأدباء الذين أوصلوا الحركة الأدبية إلى هذا التفوق في عهد مملكة غرناطة هما:

1 ـ لسان الدين ابن الخطيب (توفي عام 776هـ)، الذي ترك لنا قصائد شعرية في أغراض متنوعة ولا سيما في المدح والسياسة، وله موشحات مشهورة، ومن أهمها:

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالأندلس

ومن خلال مناصبه السياسية التي تقلدها في دولة بني الأحمر، وكان قريباً من الأحداث ومشاركاً فيها، فجاءت كتبه التاريخية مصادر أساسية لكل ما يتعلق بتلك المرحلة من الوجود العربي من الأندلس، وله رسائل مشهورة منها السلطانية ومنها الفلسفية ومنها الاخوانيات(297).

2 ـ أبو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك (733 ـ 797هـ) تلميذ ابن الخطيب، والساعي إلى قتل أستاذه عام 776هـ وقد ترك لنا ابن زمرك مجموعة قصائد في المدح والوصف والغزل، كما برع في الموشحات(298).

ومن الشخصيات الأدبية التي عاصرت ابن الخطيب أبو سعيد فرج بن لب (توفي عام 782هـ)، وكان شاعراً يتسم شعره بالرقة والسهولة(299). ويختتم رواد الحركة الأدبية الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد بن الأحمر (توفي عام 807هـ) صاحب كتاب (نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان) وفيه تناول سير الكتاب والشعراء المشهورين في القرن الثامن للهجرة، كما له كتاب (نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان) وفيه يتحدث عن شعر الملوك من بني الأحمر وبني مرين وبني حفص وبني عبد الواد، وكذلك عن شعر وزراء الأندلس وقضاتها(300).

---

(296) فرحات، غرناطة، ص 168.

(297) عنان، نهاية الأندلس، ص 472 وبعدها ـ فرحات، غرناطة، ص 176 وما بعدها.

(298) أيضاً، ص 482 وبعدها ـ أيضاً، ص 180 وما بعدها.

(299) المقري، نفح، جـ 5، ص 509 ـ 511.

(300) عنان، نهاية الأندلس، ص 485 ـ 486.

الفصل الثاني

النظم السياسية العربية في الأندلس

أهم النظم السياسية التي سنتناول دراستها في الأندلس هي:

1 ـ نظام الخلافة.

2 ـ نظام الحجابة والوزارة.

3 ـ نظام الإدارة.

4 ـ نظام الشرطة.

1 ـ نظام الخلافة:

فتحت الأندلس عام (92 ـ 95هـ) على عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ) فأصبحت ولاية تابعة للخلافة الأموية في بلاد الشام، ولما سقطت الخلافة الأموية بالمشرق عام 132هـ حاول والي الأندلس يوسف الفهري (129 ـ 138هـ) أن يكون أميراً مستقلاً لا يتبع أحداً بعد سقوط خلافة الأمويين. إلا أن وصول عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك الملقب بالداخل، غير الأمور وجعل الأندلس إمارة أموية بدأ فيها عهد جديد يسمى عصر الإمارة الأندلسية 183 ـ 316هـ، وهي إمارة وراثية حكمتها الأسرة الأموية (أسرة عبد الرحمن الداخل) وتولاها الإبن عن والده، أو الأخ عن أخيه، أو الحفيد عن جده كما هو معروف، وعاصرت هذه الإمارة دول إسلامية ذات نظام خلافي، وهي الدولة العباسية 132 ـ 656هـ، ودولة الأدارسة 172 ـ 296هـ ودول الخوارج وهي دولة بني مدرار في سجلماسة 140 ـ 296هـ ودولة بني رستم في تاهرت 144 ـ 296هـ والدولة الفاطمية في المغرب 296 ـ 362هـ.

فالدولة العباسية يحكمها خليفة من سلالة العباس عم الرسول ﷺ وهو الخليفة الشرعي الذي يعترف بخلافته عموم المسلمين، قياساً إلى وحدة الخلافة الإسلامية من الناحية النظرية، وبقيت الإمارة الأموية في الأندلس تقدر وحدة الخلافة الإسلامية، إلى أن قامت الدولة الفاطمية من منطقة المغرب عام 296هـ. وعلى الرغم من أن دول الخوارج ودولة الأدارسة تسمي حاكمها الإمام أولاً، وعلى الرغم من أن بعض أئمة الخوارج من سجلماسة أعلنوا ولاءهم للخلافة العباسية، ثانياً[1]. فإن الإمارة الأموية في الأندلس لم تخرج من التقليد حتى قامت الخلافة الفاطمية في المغرب، التي أسقطت دول الخوارج ودولة الأدارسة ودولة الأغالبة (184 ـ 296هـ) فأصبحت هذه الخلافة وجهاً لوجه مع الإمارة الأموية في الأندلس لا يفصلهما إلا المضيق، ودخلت هاتان الدولتان في صراعات مريرة، من أشهر مظاهرها إعلان الخلافة الأندلسية عام 316هـ من قبل الأمير عبد الرحمن الناصر (300 ـ 350هـ) الذي لقب من هذا العام ولقب الذين جاء من بعده وإلى عام 422هـ بلقب الخليفة الأندلسي ـ وبذلك كسرت قاعدة وحدة الخلافة الإسلامية، وأصبحت للخلافة ثلاثة نظم من العالم الإسلامي، وهي: الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية والخلافة الأندلسية، وبرر الفقهاء تعدد الخلفاء إذا كانت هناك مصلحة تقتضي ذلك، واعترفوا بشرعية خليفتين للمسلمين في آن واحد بشرط أن يكون بينهما مسافة كبيرة ومسافة شاسعة لمنع الاصطدام والفتن بين المسلمين[2].

من الناحية التاريخية الواقعية كانت الإمارة الأموية في الأندلس، إمارة وراثية مستقلة سياسياً عن خلافة المشرق العباسية، ولها علاقات وديّة مع دول الخوارج. إلا أنه من الناحية الروحية فإن الإمارة الأموية في الأندلس لم تعترف بالخلافة العباسية، إلا فترة وجيزة، تراوحت بين عدة أشهر، وعدة سنوات من حكم عبد الرحمن الداخل (138 ـ 172هـ) ثم قطعت الخطبة للخليفة العباسي[3].

ويلاحظ أن أمراء بني أمية الذين حكموا الأندلس قبل الناصر، وإن كانوا قد قطعوا

---

(1) ينظر، ابن خلدون، العبر، جـ 6 ص 130.

(2) ينظر، العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 379.

(3) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 35 ـ 36 ـ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 60 ـ 61 ـ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 42 ـ 43، ص 97. ـ المقري، نفح، جـ 4، ص 59 ـ العبادي، دراسات، ص 57 ـ 58.

الدعاء لبني العباس، إلا أنهم لم يلقبوا أنفسهم بلقب خليفة واكتفوا بلقب الأمير أو بني الخلائف أو الإمام[4].

وهناك روايات تذكر أن عبد الرحمن الداخل لم يخطب للعباسيين طيلة حياته، ولم يخطب الأمراء من بعده كذلك لبني العباس[5].

ويبدو لنا أن الأمير عبد الرحمن الداخل لم يخطب لبني العباس، ولكن في الوقت نفسه، نراه هو والأمراء الذين تولوا الأندلس من بعده لم يلقبوا بلقب خليفة المسلمين، احتراماً للخليفة الشرعي حامي الحرمين الشريفين، وهو الخليفة العباسي[6]. هذا هو الأصل النظري للخلافة الإسلامية، غير أن مجريات الأمور وتغيرات الظروف حتمت كسر هذا الأصل، فقامت الخلافة الأندلسية عام 316هـ وذلك للأسباب الآتية:

1 ـ قيام الدولة الفاطمية في شمال أفريقية عام 296هـ، وهي ذات أطماع مكشوفة تجاه الأندلس.

2 ـ ضعف الخلافة العباسية في المشرق أيام الخليفة المقتدر (295 ـ 320هـ) واستبداد القواد الأتراك بها وعبثهم في شؤون الخلافة.

3 ـ الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون أميرهم خليفة للمسلمين، وبخاصة بعد قضائه على أهم حركات التمرد، فأصبح الأمير بحاجة إلى رفع مكانة الأمير السياسية والدينية[7].

هكذا لقب الناصر نفسه، «الناصر لدين الله أمير المؤمنين» وأصدر منشوراً يتضمن ذلك[8].

وهكذا تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة، واستمر لقب خليفة في ذرية عبد الرحمن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية في الأندلس عام 422هـ[9].

---

(4) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 58، ص 64، ص 65 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 198.

(5) ينظر، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 332 ـ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 42 ـ 43 ـ فريدة الأنصاري، الإمارة الأموية، ص 85.

(6) العبادي، دراسات، ص 58.

(7) ينظر، ابن خلدون، المقدمة، ص 228 ـ العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 380 ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 300.

(8) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 198 ـ سالم، تاريخ المسلمين، ص 319.

(9) العبادي، دراسات، ص 61.

ونظام الخلافة في الأندلس يقوم على أساس التوريث أيضاً، ويستند إلى السياسة أولاً ثم إلى الدين ثانياً، عكس الخلافة الراشدة التي قامت على الشورى والانتخاب. وفي الوقت الذي نجد فيه الخليفة العباسي (يحكم بتفويض من الله) كما قال الخليفة المنصور: «إنما أنا سلطان الله في أرضه»، وإن الخليفة الفاطمي يرى نفسه إماماً معصوماً من الخطأ، ولا يسأل عما يفعل، نرى الخليفة الأندلسي يقدم نفسه للناس بصفة، إنسان عادي يخطيء ويصيب، والناس أحرار في نقده، كما فعل قاضي قرطبة المنذر بن سعيد البلوطي[10]. الذي أخذ ينتقد الخليفة الناصر على الأموال الطائلة التي صرفها في بناء مدينة الزهراء، وهو جالس في مسجد الزهراء، وكان رد فعل الخليفة الأندلسي أنه أقسم أن لا يصلي وراء هذا القاضي، ورفض اقتراح عزله عن الخطبة والقضاء[11].

من هذا نرى أن نشأة الخلافة الأندلسية تخالف نشأة الخلافة في الممالك الإسلامية الأخرى، فهي عبارة عن عقد بين الحاكم والمحكوم، في حين أن الخلافة العباسية تقوم على أساس الميراث عن العباس عم الرسول ﷺ، والخلافة الفاطمية تقوم على الحق الطبيعي الموروث الذي يأتي عن طريق فاطمة الزهراء[12].

استمرت الخلافة الأموية في الأندلس تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية، إلى أن جاء الحاجب المنصور وأولاده من بعده، فانتزعوا منها السلطة الزمنية اعتباراً من عام 366هـ، فاستبدوا بالأمر وأصبح حال الخلافة الأندلسية كحال الخلافة العباسية أيام سيطرة البويهيين (334 ـ 447هـ) وسيطرة السلاجقة (447 ـ 590هـ)، وكحال الخلافة الفاطمية بعد سيطرة الوزراء عليها بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر عام 478هـ.

ومعروف تاريخياً أن فترة الحجابة انتهت عام 399هـ، وبدأت فتنة الخلافة الأندلسية وتسمى الفتنة المبيرة 399 ـ 422هـ، التي كانت مليئة بالفتن والاضطرابات، وتصارعت فيها عناصر البربر والصقالبة وأهل قرطبة، وحكمها عدة خلفاء ضعفاء يتجاوز عددهم 14 خليفة حكم بعضهم أكثر من مرة[13].

وفي سنة 422هـ سقطت الدولة الأموية بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد

(10) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا)، ص 69 ـ 70.
(11) العبادي، دراسات، ص 63.
(12) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 381 ـ 382.
(13) ينظر، الحميدي، جذوة المقتبس، ص 18 وبعدها ـ هيكل، الأدب الأندلسي، ص 342 (هامش 2).

بالله، وإجلاء من تبقى من المروانية عن قرطبة، وأعلن الوزير أبو الحزم بن جهور إلغاء الخلافة وأصبح الأمر شورى فظهرت حكومة الجماعة في قرطبة[14]، ثم قامت دويلات الطوائف في سائر أنحاء الأندلس.

لا ينكر أن معظم ملوك الطوائف كانوا في قرارة أنفسهم يتطلعون إلى الخلافة، فقد كان كل واحد منهم يود أن يصل إليها[15]، وإن تتجمع له الصفات المعنوية التي كان يتمتع بها الخلفاء الأمويون، إلا أنه لم يجرأ أحدهم على ذلك، ولو أنهم تلقبوا بألقاب الخلفاء. فنرى مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية ينصب (أبا عبد الله بن عبد الله بن الوليد ويعرف بالمعيطي وهو من بني أمية)[16]. شبه خليفة، وسماه بأمير المؤمنين المستنصر بالله[17].

كما قام الحاجب إسماعيل بن عباد بإرسال الرسل إلى جميع أنحاء الأندلس يطلب الدخول في طاعة الخليفة المزعوم (هشام المؤيد) الذي اختلفت الروايات في مصيره. وقد استجاب لذلك الكثير من ملوك الطوائف أمثال: مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية، وعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، وأبي الحزم جهور صاحب قرطبة، وبني ذي النون ملوك طليطلة[18].

ولعل هذه الظاهرة التي سمتها بعض المراجع بـ (وهم الخلافة) يقصد بها وجود خليفة يتمتع ظاهرياً بنوع من القوة والنفوذ وذلك إرضاءً لعامة أهل الأندلس الذين ما زالوا يذكرون الأوقات الطيبة عن الخلافة الأموية، هذا إلى جانب المظاهر الروحانية والدينية التي تحيط بالخلافة. فقد كان للخليفة وحده حق الإمامة والزعامة الدينية، لذلك لم يكن من السهل على أكثر أمراء الطوائف أن يحتلوا مكان الخليفة، لأنهم كانوا مجرد حكام صغار لا ينحدرون من سلالات معروفة تتناسب مع وقار الخلافة وهيبتها[19].

وقد وجهت انتقادات لاذعة لأمراء الطوائف الذين اتخذوا ألقاب الخلفاء استكمالاً لمظاهر السلطان والعظمة[20]، وقد أشار إلى ذلك الشاعر (أبو علي الحسن بن رشيق) بقوله:

(14) عنان، دول الطوائف، 22.
(15) السامرائي، علاقات، 40 وما بعدها.
(16) ابن بشكوال، الصلة، جـ 1، ص 269 ترجمة رقم (593).
(17) ابن الأثير، الكامل، جـ 9، ص 280.
(18) ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 278 ـ 279 ـ عنان، دولة الطوائف، ص 99.
(19) تشراكوا، مجاهد العامري، ص 40 ـ السامرائي، علاقات، ص 46 ـ 47.
(20) عنان، دولة الطوائف، ص 14 ـ 15.

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد[21]

إنتهى عصر الطوائف، بدخول الأندلس ضمن أملاك الدولة المرابطية فأصبحت الأندلس ولاية مرابطية يحكمها أمراء مرابطيون تابعون لحكام المرابطين في مراكش، إلا أنه يلاحظ أن الدولة المرابطية أعلنت ولاءها المبكر للخلافة العباسية، وبالذات اعتباراً من عام 450هـ، وأرسل حكام المرابطين السفارات إلى بغداد لهذا الغرض وأشهرها سفارة العالم أبي بكر عبد الله بن محمد المعافري وولده القاضي أبي بكر (485 ـ 493هـ). كما اتخذ المرابطون اللون الأسود شعاراً لهم، ومن المعروف أن هذا اللون هو شعار العباسيين، وضربوا على نقودهم لقب الخليفة العباسي، ولقب حاكم المرابطين إسمه باسم أمير المسلمين[22].

ثم خضعت الأندلس لدولة الموحدين، وحكمها ولاة تابعون لحكام الموحدين في المغرب. ورأى الموحدون أنهم أحق الناس بالخلافة، ولأنهم دون غيرهم الموحدون المؤمنون، فأقاموا لأنفسهم خلافة شرعية خاصة، ولقبوا أنفسهم بأمراء المؤمنين، وعززوا ذلك بانتمائهم إلى بيت رسول الله عن طريق الأدارسة، واتخذوا اللون الأخضر شعاراً لهم[23]. وكان من أهداف الخلفاء الموحدين النزوح نحو المشرق وفرض خلافتهم على مشرق العالم الإسلامي، ومعنى ذلك أن الموحدين لا يعترفون بالخلافة العباسية[24].

ولما ثار محمد بن هود على الموحدين عام 625هـ وأقام إمارة مستقلة له، لقب نفسه بأمير المسلمين مقلداً بذلك أمراء المرابطين، فقطع الخطبة للموحدين وخطب للخليفة العباسي، ونشر الرايات السود[25]. وفي عام 631هـ وصل إلى الأندلس أبو علي حسن بن علي الكردي المقب بالكمال قادماً من بغداد رسولاً من قبل الخليفة

---

(21) ابن الأثير، الكامل، جـ 9، ص 284 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 244 ـ الحموي، معجم الأدباء، جـ 19، ص 37 ـ 38.
(22) ينظر، السامرائي، علاقات، ص 377 وما بعدها.
(23) المراكشي، المعجب، ص 245 ـ ص 255 ـ العبادي، دراسات ص 110 ـ عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، ص 166.
(24) العبادي، دراسات، ص 114، ص 116.
(25) أبو رميلة، علاقات، ص 196.

العباسي المستنصر بالله (623 ـ 640هـ)، حاملاً كتاب تقليد ابن هود ولاية الأندلس، ولقبه المتوكل أمير المسلمين، والراية السوداء، والخلع والهدايا[26]. كذلك لما ثار أبو جميل زيان على الموحدين عام 626هـ، دعى للخليفة العباسي المستنصر بالله أيضاً[27].

ومملكة غرناطة التي حكمتها الأسرة النصرية بالوراثة، فقد أعلن أمراء هذه الأسرة ولاءهم للخلافة العباسية حيناً ولملوك بلاد عدوة المغرب حيناً آخر، ولقب أمراؤهم بلقب السلطان وأمير المسلمين، مع العلم أن ألقاباً أخرى غلبت على بعضهم كالمخلوع والزُغل والزغيبي. وعرف بعض سلاطينهم بالقوة، ووقع البعض الآخر تحت سيطرة الوزراء[28].

2 ـ نظام الحجابة والوزراء:

ا ـ الحجابة:

الحاجب منصب إداري مشرقي، مهمته إدخال الناس على الخليفة حسب مقامهم وأهمية أعمالهم[29]. ولكن هذا المنصب في الأندلس الذي أوجده الأمير عبد الرحمن الداخل (138 ـ 172هـ) وقلده أخلص رجاله، من أمثال: يوسف بن بخت وعبد الواحد ابن مغيث الرومي وغيرهم[30]، هو بمثابة رئيس الوزراء الذي يعتبر حلقة الوصل بين الأمير الأموي وبين وزرائه[31].

واعتمدت الإمارة الأموية على أسر معينة فولت رؤساءها الحجابة مثل أسرة أبي عبدة، وأسرة ابن شُهيد وغيرهما. ففي عهد الأمير هشام 172 ـ 180هـ وتولى الحجابة أبو أمية عبد الغافر بن أبي عبدة، وكان حاجب الأمير الحكم بن هشام 180 ـ 206هـ أخاه أبا عبدة عبد العزيز[32]. ويخبرنا ابن عذاري بأن حجاب الأمير عبد الرحمن الأوسط (206 ـ 238هـ) هما عيسى بن شهيد وابن أبي عبدة[33].

(26) عنان، عصر الموحدين، ص 411 ـ 412.
(27) أبو رميلة، علاقات، ص 208.
(28) فرحات، غرناطة، ص 69 ـ 72 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 215 ـ 216.
(29) حسن إبراهيم حسن وآخر، النظم الإسلامية، ص 186.
(30) إبراهيم الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 230 وما بعدها.
(31) ابن خلدون، المقدمة، ص 240 ـ ظافر القاسمي، نظام الحكم، جـ 1، ص 450 ـ 451.
(32) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 30 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 251.
(33) البيان المغرب، جـ 2، ص 93.

وتولى عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحجابة للأمير محمد (238 ـ 273هـ) بعد وفاة الحاجب عيسى بن شُهيد. ووصفت لنا بعض الروايات بساطة هذا الحاجب وسلامة نيته[34].

وشغل أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن أبي عبدة حاجب الأمير محمد في عهد والده الأمير عبد الله (275 ـ 300هـ). ويبدو لنا أن هذا المنصب الإداري (حاجب أولاد الأمراء) لا يعطي صلاحيات الحاجب نفسها الذي يكون بمثابة رئيس الوزراء. وربما يعني الوزير الخاص للأمير الولد في عهد والده. وقد استغنى الأمير عبد الله عن منصب الحجابة آخر أيامه مكتفياً بوصيفه بدر بن أحمد الصقلبي الذي كان ينظم أموره[35]. وكان بدر مولى الأمير الناصر من أشهر حجاب هذا الأمير (300 ـ 350هـ)، واشتهر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي بتولي هذه الخطة على أيام الخليفة الحكم (350 ـ 366هـ)[36].

وبعد وفاة الحكم عام 366هـ سيطر الحاجب المنصور على مقاليد الأمور وعرفت هذه الفترة 366 ـ 399هـ بفترة الحجابة تولى أمرها الحاجب المنصور وأولاده من بعده وقد أحاط الحاجب المنصور نفسه بهالة من الأبهة والفخامة حتى إن الوزراء وغيرهم كانوا يقبلون يديه، كما أنه حجر على الخليفة هشام وساواه في المراتب[37].

ولما سقطت الخلافة الأندلسية، وقامت على أنقاضها دويلات الطوائف، اتخذ بعضهم لقب الحاجب مثل سابور الفارسي، وهو أول المستقلين في منطقة بطليوس. وباديس بن حبوس صاحب غرناطة، وأحمد بن قاسم أمير البونت[38].

وعندما أصبحت الأندلس ولاية مرابطية، لم نر في نظم المرابطين من حمل إسم الحاجب، وكذلك الحال بالنسبة لدولة الموحدين. إلا أن الوزير أحياناً في دولة الموحدين يقوم مقام الحاجب، أي إختصاصه هنا رئيس تشريفات، فهو الذي يحجب الخليفة عن الخاصة والعامة ويأذن للوفود بالدخول عليه مع تقديم كل فرد بذكر إسمه

---

(34) ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 25 ـ 29.

(35) ابن حيان، المقتبس، جـ 3، ص 4.

(36) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 158، ص 251.

(37) أيضاً، جـ 2، ص 279 ـ العبادي، دراسات، ص 150.

(38) الحميري، الروض المعطار، ص 56 ـ العبادي، دراسات، ص 150 ـ 151.

ونسبه وبلده[39]. ولكن وجد حجاب للمهدي بن تومرت وللخلفاء الموحدين الآخرين، ولكن الذي يبدو أن هؤلاء لم يكونوا بمثابة رئيس وزراء، بل عملهم يقتصر على خدمة الخليفة الموحدي ومرافقته في حله وترحاله[40].

ووجد لقب الحاجب في مملكة غرناطة أي بمعنى رئيس الوزراء، وكان له نفوذ كبير[41]. وكان الحاجب يوجه الهيئة الحاكمة ويتولى رئاسة القصر الملكي، والسلطان محمد الرابع هو أول من أوجد هذا المنصب عام 729هـ/ عندما عين أبا النعيم رضوان حاجباً له وسلمه إدارة المملكة السياسية والعسكرية[42].

ب ـ الوزارة:

وجد نظام الوزارة في الأندلس منذ قيام الإمارة الأموية. وكانت وزارة متعددة المناصب، لها رئيس وزارة يسمى الحاجب، وهو حلقة اتصال بين الوزراء والأمير. وهذا التعدد في عدد الوزراء لا نجده في المشرق، حيث كانت السلطة مركزةً في يد وزير واحد، وقلما وجد وزيران. أما في الأندلس فلكل ناحية من نواحي الإدارة العامة لها وزير يختص بها، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الإمارة[43].

وبعد أن توطدت الأمور للأمير عبد الرحمن الداخل (138 ـ 172هـ)، إستوزر عدة أشخاص من رجاله الأكفاء منهم: أبو عبده حسان بن مالك وابنه عبد الغافر، وشهيد بن عيسى بن شُهيد، وثعلبة بن عبيد الجذامي وغيرهم[44]. وعَدَل الأمير عبد الرحمن الأوسط (206 ـ 238هـ) نظام الوزراء، فقسمها إلى عدة وزارات مختلفة، وألزم وزراءه الحضور يومياً إلى بيت الوزارة الذي خصصه لهم في قصر الإمارة، وذلك من أجل مشاورتهم في جميع أمور الدولة[45]. ومن أشهر وزراء هذا الأمير حسن بن عبد الغافر

---

(39) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 457.

(40) المراكشي، المعجب، ص 338 ـ العبادي، دراسات، ص 158 ـ 159.

(41) العبادي، دراسات، ص 230.

(42) فرحات، غرناطة، ص 74.

(43) ابن خلدون، المقدمة، ص 239 ـ 40 ـ ظافر القاسمي، نظام الحكم، جـ 1، ص 450 ـ العبادي، دراسات، ص 144 ـ 146.

(44) ينظر، مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 76 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 246 ـ 247، جـ 2، ص 30 ـ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ 2، ص 48 ـ إبراهيم الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 236 وبعدها.

(45) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 80 ـ العبادي، دراسات، ص 142 ـ 143.

ابن أبي عبدة[46]. وأقر الأمير محمد بن عبد الرحمن 238 ـ 273هـ حاجب أبيه عيسى ابن شُهيد ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه[47].

كما أن الأمير محمد وضع نظاماً جديداً للوزارة يمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم، وقدم الوزراء الشاميين على الوزراء البلديين وأعلاهم في الجلوس على كراسيهم ببيت الوزارة[48].

وفي عهد الأمير عبد الله (275 ـ 399هـ) ازداد عدد الوزراء، واحتلت أسرة أبي عبدة مكانة في هذا العصر حيث تولى خمسة أفراد منها الوزارة في آن واحد[49]. واستمر الأمير عبد الله على سياسة والده الأمير محمد في تقديم الوزراء الشاميين على الوزراء البلديين. فقد إجتمع في عهده وزير شامي وهو موسى بن حُدير، ووزير بلدي وهو عيسى بن أحمد بن محمد أبي عبدة. وأراد عيسى التقدم على صاحبه معتزاً بمكانة أبيه الوزير القائد أبي العباس صاحب الفضل في إنقاذ الإمارة من الضياع، لكن الأمير عبد الله أثر أن يظل الأمر كما رسمه أبوه للوزارة، أي قرر أن يظل بنو حدير متقدمين على بني أبي عبدة[50].

وفي عهد الخليفة الناصر (300 ـ 350هـ) استمرت أسرة أبي عبدة تتولى المناصب الوزارية وقد اعتمد عليها الناصر اعتماداً كبيراً في الشؤون الإدارية والحربية[51]. وفي عهد هذا الخليفة أطلق لقب (ذو الوزارتين) على بعض الوزراء والحجاب في الأندلس، فقد أطلقه الناصر على وزيره أحمد بن عبد الملك بن شُهيد عام 327هـ[52]، وهو لقب تشريفي مثل لقب (ذو السيفين) الذي منحه الحكم لقائده غالب بن عبد الرحمن، بعد أن قلده سيفين عقب انتصاره على بقايا الأدارسة عام 364هـ[53].

---

(46) ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 29 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 274.

(47) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 290.

(48) ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 137 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 120 ـ 121.

(49) ابن حيان، المقتبس، جـ 3، ص 5 ـ 6 ـ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 104 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 146، ص 245، ص 247.

(50) ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 196 ـ 197 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 120 ـ 121.

(51) ابن حيان، المقتبس، جـ 5، ص 97، ص 210، ص 215، ص 242 ـ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ 2، ص 158، ص 160، ص 164.

(52) المقري، نفح، جـ 1، ص 333 ـ 334.

(53) سالم، دراسات، ص 148 ـ 149 ـ Provençal, op. cit, 3, P: 21-22.

وفي فترة الحجابة 366 ـ 399هـ قلت أهمية الوزير، مما فرض عليه من الخضوع للحاجب وتقبيل يديه، وبذلك ضعفت شخصية الوزير، ومما يدل على ذلك أن زيري ابن عطية زعيم قبيلة مغراوة الزناتية في المغرب احتقر لقب وزير الذي أنعم عليه به الحاجب المنصور، بعد مساعدته في إخماد حركة الحسن بن كنون[54].

ولما سقطت الخلافة الأندلسية وقام عصر الطوائف. انحطت مرتبة الوزير وصار هذا المنصب يمنح للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ القرى. كذلك زاد استعمال الألقاب التشريفية المزدوجة مثل: ذو الوزارتين وذو الرياستين، وذو المجدين وذو السيادتين[55]. ولكن مع هذا وجد وزراء مشهورون في هذه الفترة أمثال أبي بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد، والوزير ابن الحضرمي وزير المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، والوزير ابن الحديدي وزير المأمون بن ذنون صاحب طليطلة. وغيرهم كثير[56].

وأصبحت الأندلس ولاية مرابطية، واحتل الوزير في عهدهم مكاناً مرموقاً، وكان الشخص المقرب من السلطان، وكان يستشيره في كل الأمور[57]. ووجد في دولة المرابطين نوعان من الوزراء:

1 ـ وزراء عسكريون، وهم من قرابة السلطان، ومن قبائل لمتونة وصنهاجة.

2 ـ وزراء كتاب وهم من الفقهاء.

ومن الوزراء الأندلسيين الذين اعتمد عليهم السلطان المرابطي علي بن يوسف، الوزير الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي، وهو الذي أشار على هذا السلطان بقتل محمد ابن تومرت لما استفحل أمره[58]. واشتهر كذلك الوزير أبو بكر بن باجة العالم المشهور[59].

وفي عهد الموحدين، اعتمدوا نظام الوزارة بجانب مشيخة الموحدين وعرفوا بإسم

---

(54) السلاوي، الاستقصاء، جـ 1، ص 211 ـ العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 448.

(55) العبادي، دراسات، ص 151.

(56) ينظر، عنان، دول الطوائف، ص 66، ص 89، ص 98.

(57) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 362 ـ العبادي، دراسات، ص 151.

(58) المراكشي، المعجب، ص 252 ـ 253.

(59) السامرائي، علاقات، ص 417.

العشرة أو أهل الجماعة[60]. وكان منصب الوزير من المناصب المهمة، وقد شغله عدد من أبناء الخلفاء وإخوتهم ولذا سموا بالسادة أو الأسياد، وهؤلاء الوزراء الأسياد يتخذون غالباً وزراء يعاونوهم[61].

ومن الوزراء أصحاب الأصول الأندلسية الذين وزروا للخلفاء الموحدين، أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع وزير الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558 ـ 580هـ)، وكان والده إبراهيم بن جامع من مدينة شريش الأندلسية وكان من أعوان ابن تومرت، وأصبح لأبي العلاء مكانة مرموقة في البلاط الموحدي[62]. وكذلك الوزير أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر الأيادي (توفي عام 595هـ) الذي كان وزيراً للخليفة يعقوب المنصور (580 ـ 595هـ)، وكان دائم التردد بين المغرب والأندلس[63].

وكان وزير الموحدين أحياناً يقوم بمهمة الإشراف على الأندلس وتفقد أحوالها، وبعضهم شارك في معارك الجهاد الأندلسية التي خاضتها القوات الموحدية والأندلسية ضد الممالك الأسبانية، واستشهدوا فيها[64].

ونرى كذلك أن بعض حكام مدن الأندلس الموحدين يُعين لهم وزير يساعده في إدارة الولاية[65].

أما نظام الوزارة في عهد مملكة غرناطة، فكان له مكانة عالية، وكان الوزير دائماً ينوب عن السلطان، وهو الذي يهيمن على شؤون الدولة المدنية والعسكرية، ولذا كثيراً ما كان الوزير الغرناطي يلقب بألقاب تدل على قوة نفوذه مثل: لقب الرئيس وعماد الدولة، وذي الوزارتين وغير ذلك[66]. وتقلد منصب الوزارة في مملكة غرناطة أشخاص من علية القوم، وأشخاص عاديون، وأحياناً من أرقاء الأسبان[67].

---

(60) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ 5، ص 126 ـ علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص 67.
(61) العبادي، دراسات، ص 157.
(62) المراكشي، المعجب، ص 316.
(63) السلاوي، الاستقصا، جـ 2، ص 179 ـ 180.
(64) المراكشي، المعجب، ص 359 ـ العبادي، دراسات، ص 166، ص 168.
(65) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص 67.
(66) ينظر، العبادي، دراسات، ص 230.
(67) ابن الخطيب، اللمحة البدرية. ص 94، ص 115 ـ فرحات، غرناطة، ص 74 ـ 75.

وكان لوزراء بني الأحمر أدوار سياسية مهمة من خلال المهمات التي أوكلت إلى بعضهم، فالوزير ابن الخطيب ذهب سفيراً إلى فاس، ثم أرسل مرة أخرى إلى عدوة المغرب كي يطلب عون المرينيين لصد الخطر الأسباني. والوزير ابن زمرك قام بتسع رحلات إلى بلاد الأسبان من أجل عقد معاهدات صلح، وبعض الوزراء قاد بعض الحملات العسكرية أمثال الوزير أبي النعيم رضوان[68].

واكتفى بعض سلاطين غرناطة بوزير واحد، بينما نجد في عهد السلاطين الآخرين عدة وزراء، ووصل عددهم إلى خمسة وزراء، واشتهرت بعض العائلات بتولي أبنائها مناصب الوزارة مثل عائلة آل الأمين وبني عبد البر وبني سراج وغيرهم[69].

3 ـ النظام الإداري (ولاية الأقاليم):

ترددت الأندلس، في ارتباطها الإداري، بين ولاية الشمال الأفريقي والإشراف المباشر لمركز الخلافة. وعندما تكون الأندلس تابعة لولاية الشمال الأفريقي يقوم والي القيروان بتعيين ولاة الأندلس، مثل الحر بن عبد الرحمن الثقفي (توفي عام 100هـ)، وعنبسة بن سحيم الكلبي (توفي عام 107هـ). ثم اتبعت الأندلس مركز الخلافة الأموية في دمشق أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ) من أجل الإسراع في الإنجاز والإشراف المباشر، فعين السمح بن مالك والياً عليها (توفي عام 102هـ)[70]. لكنها عادت ولاية تابعة لأفريقية في ولاية عنبسة (استشهد عام 107هـ)، ومن جاء بعده[71]. وهكذا ترددت تبعية الأندلس بين الإشراف المباشر للخلافة عليها، وبوساطة ولاية الشمال الإفريقي، حسب مقتضيات الأمور[72].

لكن قد تفرض ظروف الأندلس أحياناً تعيين والٍ بسرعة، فيتفق أهل الأندلس على شخص معين يولونه أمر الأندلس، حتى يأتي غيره، ويؤيد الخليفة أو والي أفريقية هذا. كما حدث بعد مقتل عبد العزيز بن موسى، إذ عين أهل الأندلس الوالي أيوب بن حبيب اللخمي (رجب ـ ذو الحجة 97هـ). كذلك الحال عند استشهاد السمح (عام 102هـ).

---

(68) أيضاً، ص 122 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 7، ص 306.

(69) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 52، ص 63، 71، ص 79 ـ فرحات، غرناطة، ص 77.

(70) ابن عذاري، البيان، جـ 2، 26.

(71) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 29.

(72) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 132، ص 137.

وفي هذه الحال يكتب بالأمر إلى والي الشمال الأفريقي لإقراره أو تعيين غيره[73].

وكانت الأندلس، أغلب فترة الولاة (95 ـ 138هـ) تابعة لولاية أفريقية، وكانت مدينة أشبيلية قاعدة الولاية، ثم انتقلت إلى مدينة قرطبة ذات الموقع المتوسط بين الساحل والداخل[74].

أستفاد عرب الأندلس من النظام الإداري الذي وجدوه بالأندلس، فعدلوا به بعض الشيء، في عصر الولاة (95 ـ 138هـ)، بحسب ما اقتبسوه من النظم الإدارية المشرقية، ومال أهل الأندلس في التنظيم الإداري نحو الأقسام الإدارية الصغيرة تسهيلاً لتوفير الأمن وتنظيم الأمور المالية[75].

ويبدو أن النظام الإداري للأندلس لم تتضح معالمه إلا في أواخر عصر الولاة، وذلك عندما قسم الوالي يوسف الفهري (129 ـ 138هـ) الأندلس إلى خمس ولايات وهي: ولاية الأندلس (ولاية باطقة) وتقع بين نهر وادي يانة والبحر المتوسط، وأشهر مدنها قرطبة، وقرمونة، وإشبيلية، ومالقة، والبيرة، وجيان، وإستجة. وولاية طليطلة (ولاية قرطاجنة القديمة) وتمتد بين جبال قرطبة حتى نهر دويرة، وأشهر مدنها: طليطلة ومرسية ولورقة وشاطبة ودانية وبلنسية ووادي الحجارة وقونقة. وولاية ماردة (ولاية جليقية القديمة ـ لوجدانيا وتمتد فيما وراء نهر وادي يانة شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، وأشهر مدنها: ماردة وباجة وأشبونة وإسترقة وسمورة وشلمنقة. وولاية سرقسطة (ولاية كانتبرية القديمة) وتمتد من ساحل البحر المتوسط عند طركونة وبرشلونة إلى جبال البرنية وبلاد البشكنس، وأشهر مدنها: سرقسطة وطركونة وبرشلونة ولاردة وطرطوشة ووشقة. وولاية أربونة (ولاية الثغر) في الأراضي الفرنسية وتشمل مصب نهر الرون، وأشهر مدنها: أربونة وقرقشونة ونيم وماجلونة[76].

نلاحظ من كل هذا أن الوالي الكبير في قرطبة مسؤول عن الولاة الخمسة لهذا التنظيم الإداري، وكل والٍ فرعي مسؤول عن ولايته، لأن كل ولاية تتبعها مجموعة مدن وهي الكور، وكل كورة يتبعها عدة أقاليم (قرى كبيرة)، وكل إقليم يتبعه عدة أجزاء

---

(73) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 25 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 27، ص 29.

(74) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 132 ـ سالم، قرطبة، جـ 1، ص 30 ـ 31.

(75) مؤنس، فجر الأندلس، ص 554، ص 577.

(76) عنان، دولة الإسلام، جـ1 ص 132 ـ 133.

(أرياف)[77]. وقد أورد لنا العذري الكثير من أسماء الأقاليم والأجزاء التابعة لكورة بلنسية ولكورة سرقسطة، وذكر لنا أقاليم البيرة وأجزاءها، وكذلك أقاليم إشبيلية، وأقاليم قرطبة[78].

في عصر الإمارة (138 ـ 316هـ)، أصبحت الأندلس إمارة مستقلة قاعدتها قرطبة، وتولى أمرها الداخل وذريته من بعده، كما هو معروف. ويبدو لنا خلال هذه الفترة أن النظام الإداري في الأندلس بقي على حاله السابق، واعتمد الداخل والأمراء من بعده في إدارة الثغور والولايات والكور على جماعة مختارة من الأعوان المخلصين، ومن أفراد البيت الحاكم، مع الاعتماد على أسر اشتهرت في الأندلس، مثل أسرة أبي عبدة، وأسرة بني شُهيد وأسرة مغيث الرومي وغيرهم. فمثلاً أعطى عبد الرحمن الداخل ولاية إشبيلية إلى حسان بن مالك (أبو عبدة)، وقضى هذا الوالي على حركات التمرد هناك، وضبط أحوال الولاية، وأصبح لهذه الأسرة (أسرة أبي عبدة) نفوذ كبيرة في هذه الولاية[79].

وخلال عصر الإمارة هذا استجدت عدة ظواهر فيما يتعلق بالنظام الإداري:

1 ـ الظاهرة الأولى:

فقدت الأندلس ولاية أربونة (ولاية الثغر)، حيث استرجعتها فرنسا، كما زحفت عبر جبال البرتات وسيطرت على مدينة برشلونة عام 185هـ/ 801م، وجعلت هذه المدينة قاعدة لولاية فرنسية تسمى بالثغر القوطي أو المارك الأسباني ويتألف من مدن جيرونة وسولسونة وبرشلونة وأربونة وغيرها. وبذلك أصبحت هذه الولاية الفرنسية سداً حاجزاً بين المسلمين في الأندلس وبلاد فرنسا، وحاولت إمارة الأندلس استرجاع هذه المناطق فلم تلق نجاحاً كبيراً، ما عدا حملات عسكرية جهادية تكتفي بالنصر أحياناً على الأعداء دون استرجاع المدن[80].

---

(77) مؤنس، فجر الأندلس، ص 579 وما بعدها.

(78) نصوص عن الأندلس، ص 17، ص 20، ص 24، ص 90، ص 109، ص 124.

(79) ينظر، ابن حيان، المقتبس، جـ 3، ص 68 ـ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص 67 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 146 ـ ابن خلدون، تاريخ ـ جـ 4، ص 135.

(80) ينظر، النويري، نهاية الأدب، جـ 22، ص 21 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 223 السامرائي، الثغر الأعلى ص 241 ـ .Provençal, op, cit, I, 128 ـ رينو، غزوات، ص 165 ـ 166.

2 ـ الظاهرة الثانية:

في أواخر عصر الولاة، وبداية عصر الإمارة بدأت الفلول الإسبانية تجمع نفسها، فأقامت لها إمارات صغيرة في الشمال الإسباني مستغلة سوء الأحوال في الأندلس، فظهر المارك الأسباني، وقامت إمارة النافار، وإمارة أشتوريش (إمارة ليون)[81]. فظهرت إمارات حدودية أندلسية مقابلة لهذه الإمارات الإسبانية، تسمى بالثغور الأندلسية، وهذه الثغور ثلاثة هي:

1 ـ الثغر الأعلى:

ويشمل في الجغرافية الأندلسية ولاية سرقسطة وأعمالها. وتعتبر مدينة سرقسطة قاعدة لهذا الثغر، ويواجه هذا الثغر المارك الإسباني وإمارة النافار.

2 ـ الثغر الأوسط:

يشمل ولاية طليطلة، وكانت قاعدته الأولى مدينة سالم ثم أصبحت مدينة طليطلة، ويواجه هذا الثغر إمارة ليون بالدرجة الأولى.

3 ـ الثغر الأدنى:

ويشمل المنطقة الواقعة بين نهر دويرة ونهر التاجة، ومن أشهر مدن هذا الثغر مدينة قورية ومدينة قلمرية، وكانت مدينة قورية عموماً قاعدة لهذا الثغر. وأصبح مدلول مصطلح الثغور في الجغرافية الأندلسية يعني هذه الثغور الثلاثة[82]. ومن سكنها يطلق عليه لقب ثغري[83].

وتأتي أهمية هذه الثغور من كونها أصبحت المراكز المهمة التي تنطلق منها الجيوش الأندلسية لمجاهدة الإمارات الأسبانية التي ظهرت في الشمال والتي أخذت تسترجع المدن الأندلسية تباعاً. كما أصبحت هذه الثغور مركزاً مهماً لحركات التمرد ضد حكومة الإمارة في قرطبة، وقد أحرجت مركزها في كثير من الأحيان.

---

(81) أرسلان، الحلل السندسية، جـ 2، ص 113 ـ السامرائي، الثغر الأعلى، ص 159.

(82) ينظر: ابن بشكوال، الصلة، جـ 1، ص 14.

(83) السامرائي، الثغر الأعلى، ص 39 وما بعدها.

3 ـ الظاهرة الثالثة:

فتح الجزائر الشرقية عام 290هـ/ 903م بقيادة عصام الخولاني وذلك في عهد الأمير عبد الله (275 ـ 300هـ). وأصبحت هذه الجزائر تابعة إدارياً إلى الأندلس وعين عصام الخولاني أول عامل أندلسي عليها(84).

ويبدو لنا أن النظام الإداري أصيب بالإرتباك خلال عصر الأمير عبد الله، نظراً لقيام حركات التمرد في سائر أنحاء الأندلس، ولم يبق لحكومة الإمارة في قرطبة سلطان حقيقي إلا في منطقة العاصمة وأحوازها(85).

وقد بذل هذا الأمير قصارى جهده من أجل إعادة سلطان قرطبة على الولايات، وكذلك فعل الأمير عبد الرحمن الناصر (300 ـ 316هـ) قبل أن يعلن الخلافة الأندلسية، وقد بدأ عصره بقمع هذه الفتن وسار بنفسه يعاونه خيرة قوّاده في إخماد حركات التمرد، وقد أفلح في ذلك(86). ولعل القضاء على حركات التمرد هذه من الأسباب التي دفعت هذا الأمير إلى إعلان الخلافة(87).

ويبدو خلال عصر الخلافة (316 ـ 422هـ) أن النظام الإداري هو استمرار لهذا النظام منذ عصر الإمارة، ولكن الشيء الجديد الذي استحدث خلال عصر الخلافة، هو إيجاد إمارة الثغور إيجاداً مستقلاً، وأعطيت إمارة الثغر الأعلى أهمية كبيرة(88). وبعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بالخليفة الناصر وجيشه أمام جيوش مملكة ليون الإسبانية عام 327هـ/ 939م في معركة الخندق(89)، اهتم الناصر بأمور الثغور الأندلسية واستمر في إعطاء إدارتها إلى الأسر المتنفذة فيها وهي أسرة بني تُجيب وأسرة بني ذي النون وبني الطويل وبني رزين، وكان يغدق عليهم الصلات والهدايا، وكان يزودهم كل عام بالعدد والسلاح من أجل الاستمرار في مدافعة ممالك الإسبان(90).

---

(84) ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 164 ـ السامرائي، «الجزائر الشرقية»، ص 16.

(85) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 323.

(86) ينظر، نهلة شهاب أحمد «أسرة أبي عبدة ودورها في تاريخ الأندلس» حيث وضح دور هذه الأسرة في قمع الفتن الداخلية خلال عصر الإمارة.

(87) العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 380.

(88) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 315.

(89) المسعودي، مروج، جـ 1، ص 162 ـ مجهول، أخبار مجموعة، ص 156 ـ ابن الأثير، الكامل، جـ 8، ص 358 ـ ابن الخطيب، أعمال، ص 36 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 363.

(90) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 421.

وفي عام 335هـ/ 946م عني الناصر بتجديد مدينة سالم وهي أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية على حدود مملكة ليون، فحصّنها وزودها بالعتاد والرجال، وكانت قد خربت من جرّاء غزوات الإسبان المتكررة[91].

وسار عبد الرحمن الناصر على خطى جده الداخل في الاسترابة من القبائل العربية، وأقصى زعماءها عن مناصب النفوذ والإدارة، فعهد الخليفة الناصر المناصب المهمة إلى الموالي والصقالبة[92]، ولكن في عهد ولده الخليفة الحكم المستنصر (350 ـ 366هـ) اعتمد على خيرة الرجال في الجيش والإدارة، سواء من العرب أو البربر، ويأتي في مقدمتهم الحاجب المنصور والحاجب جعفر بن عثمان المصحفي. وكان القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري والي مدينة سالم من رجالات الحكم المهمين، وهو الذي قلده الخليفة الحكم سيفين مذهبين من ذخائر سيوفه وسماه (ذا السيفين)[93]. واعتمد الحاجب المنصور على نظام إداري متين مما مكنه من مواصلة الجهاد المستمر للممالك الإسبانية والانتصار عليها دائماً، ولذا وصف بمواصلة الحزم والحذر، ودائم السهر، لمراقبة أحوال البلاد[94].

واضطرب النظام الإداري على ضوء اضطراب الأندلس السياسي خلال عصر الفتنة 399 ـ 422هـ، كما هو معروف، وأصبح ولاة المدن في حل من تبعيتهم لقرطبة عاصمة الخلافة، واستقل كل والٍ وحاكم في منطقته وبذلك قام عصر الطوائف. وفي هذا العصر لم يتوفر في الأندلس نظام إداري موحد، بل إن كل مملكة من ممالك الطوائف لها نظامها الإداري، فهناك الأمير المقيم في قاعدة الإمارة، ولديه مجموعة من العمال أو الولاة الذين يعينهم لإدارة المدن والحصون التابعة لإمارته، ومن أجل ضمان السيطرة العسكرية على جميع أنحاء الإمارة الطائفية، نظراً لحرج هذه الإمارات بعضها أمام بعض، وأمام الممالك الإسبانية في الشمال[95].

لذا نرى أن ملوك الطوائف يعهدون إدارة المدن والحصون المهمة إلى إخوانهم وأبنائهم وإلى أعوانهم المخلصين. ولكن حب الزعامة أولاً وبعد العامل عن مراقبة سيده

(91) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 304.
(92) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 450.
(93) ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي، ص 236.
(94) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 58، ص 74 ـ 75.
(95) إمحمد بن عبود، التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية، ص 107.

ثانياً، وضحت لنا ظاهرة تمرد العمال على أسيادهم في عصر الطوائف، كما هو الحال في مملكة غرناطة ومملكة إشبيلية ومملكة سرقسطة ومملكة بطليوس وغيرها[96].

وأصبحت الأندلس ولاية مرابطية تتبع مراكش في عدوة المغرب، وعين لها قائد أعلى وهو الحاكم العام أو أمير الأندلس، وللمدن قادة آخرون خاضعون للقائد العام، ومهمة هؤلاء الإشراف على النواحي العسكرية والإدارية بالدرجة الأولى.

وكانت الأندلس أيام المرابطين مقسمة إلى ست ولايات هي: غرناطة وقرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وسرقسطة (سقطت عام 512هـ قبل انتهاء العصر المرابطي). وكانت مدينة قرطبة عاصمة إمارة المرابطية ثم انتقلت في أوائل عهد علي بن يوسف إلى غرناطة، وفي أواخر عهده أعاد العاصمة إلى قرطبة مرة أخرى[97].

وكانت مناصب الولاية المحلية في الأندلس، وقفاً على الأمراء والقادة المرابطين، ولا سيما أقرباء الحكام، وكان في مقدمة هؤلاء الأمير سيرين أبي بكر اللمتوني والي إشبيلية، ومحمد بن الحاج والي بلنسية وسرقسطة والأمير أبو محمد مزدلي والي قرطبة، والأمير وانور بن بكر والي الجزائر الشرقية[98]. وكان اختيار الوالي يقوم على أساس مكانته وعدالته وعلمه، وإذا أظهر شيئاً من التقصير يعزل أو ينقل إلى مكان آخر. وكان التأكيد والتوصية بحسن السيرة والرفق بالناس أمراً أساسياً، سواء بالنسبة لحاكم الدولة المرابطية أم للولاة والحكام المحليين[99].

وأصبحت الأندلس ولاية موحدية، وكانت قاعدة الحكومة الموحدية في الأندلس مدينة إشبيلية، لأنها كانت أول قاعدة أندلسية نادت بطاعة الموحدين، ولأنها أول مدينة سيطر عليها الموحدون. إلا أن عبد المؤمن بن علي في أواخر أيامه أمر ولده أبا يعقوب يوسف والي إشبيلية، أن ينتقل إلى قرطبة ويتخذها قاعدة الحكم الموحدي في الأندلس لأنها تقع في وسط الأندلس. وبعد فترة قصيرة رجعت إشبيلية قاعدة للحكم طيلة العهد الموحدي[100]. وإذا كانت نظم الحكم المرابطية للأندلس يغلب عليها الطابع العسكري،

---

(96) ينظر، عنان، دول الطوائف، ص 64، ص 88، ص 272.

(97) عنان، عصر المرابطين، ص 60، ص 144، ص 415.

(98) أيضاً، ص 415.

(99) ينظر، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 448 ـ 449.

(100) عنان، عصر الموحدين، ص 618 ـ 619، ص 641.

فإن النظم الموحدية كانت أميل إلى الطابع المدني. وكانت ولاية الأندلس في العهد الموحدي تنقسم إلى عدة ولايات وهي: ولاية الغرب وتشمل شلب ويابره وباجة وماردة وبلطيوس. وولاية إشبيلية وتشمل شريش وشذونة وقرمونة وإستجة وقرطبة وجيان، وولاية غرناطة وتشمل وادي أش والمنكب والمرية ومالقة والجزيرة الخضراء. وولاية بلنسية وتشمل قسطلونة وشاطبة ودانية والجزائر الشرقية. وولاية مرسية وتشتمل على لقنت ولورقة وأريولة[101]. وكان يتولى حكم هذه الولايات عادة أبناء الخليفة الموحدي وإخوته أو أقرباؤه وأصهاره. وكان يتولى منصب الحاكم العام للأندلس على الأغلب واحد من أبناء الخليفة أو إخوته، وكان أول من تولاها من أبناء الخليفة السيد أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وذلك في عام 551هـ. وكان لكل ولاية أندلسية حكومتها المحلية التي تضم إلى جانب الوالي الموحدي، الوزير والكاتب وصاحب الجباية عدا المناصب الدينية[102].

ومملكة غرناطة الواقعة في الطرف الجنوبي من الأندلس، شملت ثلاث ولايات كبيرة: ولاية غرناطة في الوسط وفيها العاصمة غرناطة، وولاية المرية في المشرق، وولاية مالقة في الجنوب والغرب[103]. ومجموع أقاليم هذه المملكة كما يخبرنا ابن الخطيب ثلاثة وثلاثون إقليماً[104]. وكانت هذه الأقاليم خاضعة لسلطة العمال والولاة الذين يختارهم السلطان النصري من ثقات رجاله، فيتخذون الولاة من قصبة المدينة (قلعتها) مقراً لولايتهم. ولكن بعض الولاة كانوا بحكم نفوذهم وقوتهم يفرضون أنفسهم على الأقاليم ويتوارثون حكمها فيقرهم السلطان على مقاطعاتهم بعد أن يظهروا الطاعة ويؤدوا الأموال[105]. ولعب الكثير من حكام الأقاليم دوراً كبيراً في تقرير مصير الحكم خلال هذا العصر، كما حصل خلال حكم السلطان محمد الثاني الفقيه (672 ـ 701هـ) مثلاً[106].

---

(101) عنان، عصر الموحدين، ص 641.

(102) ينظر، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 498، ص 500 ـ عنان، عصر الموحدين، ص 642.

(103) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 115 ـ 119 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 55.

(104) اللمحة البدرية، ص 28.

(105) فرحات، غرناطة، ص 84.

(106) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 58 وبعدها. ينظر، ص 66 ـ 67، ص 75.

4 ـ نظام الشرطة:

بدأت ولاية الشرطة في الأندلس منذ عصر الأمير عبد الرحمن الداخل، (138 ـ 172هـ) بعدما شعر بخطر اليمانية عليه بعد الانتصار في معركة المسارة، وذلك عندما منعهم من نهب قصور قرطبة[107]. وأسند إدارتها إلى عبد الرحمن بن نعيم، ومن بعده للحصين بن الدجن العقيلي[108]. وأول من تولى قيادة الشرطة من أسرة أبي عبدة هو عبد الغافر بن أبي عبدة، حيث تولاها للأمير هشام (172 ـ 180هـ)[109].

والأمير عبد الرحمن الأوسط (206 ـ 238هـ) هو الذي ميز بين ولاية السوق عن أحكام الشرطة المسماة بولاية المدينة، فأفردها وقرر لواليها ثلاثين ديناراً في الشهر، ولوالي المدينة مائة دينار[110]. ويبدو أن صاحب المدينة كان يشرف على الخدمات العامة في العاصمة، إضافة إلى صلاحيات ولاية الشرطة العليا، ويستخدم سلطة جهاز الشرطة أيضاً في التحقيقات المدنية[111]. وقسمت ولاية الشرطة إلى قسمين: ولاية الشرطة العليا (الكبرى) وجعل لصاحبها الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقربائهم من أهل الجاه. وجعل لصاحبها كرسياً بباب دار الإمارة، وفي خدمته عدة رجال ينفذون أوامره. وولاية الشرطة الصغرى. وجعل لصاحبها الحكم على عامة الناس[112]. وأخبرتنا بعض الروايات، أنه في عام 317هـ/ 930م استحدث منصب ولاية الشرطة الوسطى التي أعطيت إلى سعيد بن سعيد ابن حدير[113].

وفي عهد الأمير عبد الله (275 ـ 300هـ) تولى ولاية الشرطة العليا (صاحب المدينة) أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وكذلك أبو عثمان عبيد الله بن محمد الغمر بن أبي عبدة[114]. وفي بداية عهد الأمير عبد الرحمن الناصر (300 ـ

---

(107) إبراهيم الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 251.
(108) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 355.
(109) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 61.
(110) خلاف «صاحب الشرطة» ص 63.
(111) ابن خلدون، المقدمة، ص 251 ـ 252 ـ بدر، دراسات، جـ 1، ص 165.
(112) أيضاً، ص 251 ـ خلاف، «صاحب الشرطة»، ص 64، ومجلة أوراق، ص 73.
(113) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 202.
(114) ابن القوطية، تاريخ، ص 104 ـ ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 146.

350هـ) حصرت ولاية الشرطة العليا في أولاد الوزير القائد أبي العباس أحمد بن محمد، فتولاها أولاده الثلاثة: عباس وعبد الله وعيسى، وتولاها كذلك حفيده أحمد ابن عيسى[115].

ونجد في أحداث القرن الرابع الهجري أن صاحب المدينة كان مستقلاً عن صاحب الشرطة، ونستدل على ذلك بما قاله ابن حيان في أحداث عام 361هـ: «نظر الوزير صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان مع صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر فيما عهد إليه الخليفة المستنصر بالله»[116]. واستمر كذلك أيام الحكم المستنصر (350 ـ 366هـ) الأنواع الثلاثة للشرطة، العليا والوسطى والصغرى[117].

وأعطيت لصاحب الشرطة صلاحيات واسعة في الأندلس، تصل أحياناً إلى تنفيذ حكم الإعدام دون الرجوع إلى الحاكم (الخليفة)[118]. وقد أشار ابن عبدون لهذه الخطة وسمى صاحبها الحاكم، وذكر لنا الصفات الجليلة التي يجب أن تتوفر فيه[119]. ويبدو أن هذه الصفات كانت نظرية، فوجد عملياً من تولى أمر الشرطة من وصف بالتأخر في عقله وعلمه أمثال أمية بن أحمد بن حمزة القرشي الأموي (توفي عام 393هـ)[120]، ومحمد بن يحيى بن قاسم القيسي (توفي عام 411هـ)، وحسن بن محمد بن ذكوان (توفي عام 451هـ)[121].

ووجدت لدينا روايات تشير إلى أن صاحب الشرطة قد كلف بأعمال خارج اختصاصه، فمثلاً نرى صاحب الشرطة أحمد بن نصر شارك مع غيره في تشييد محراب المسجد الجامع على عهد الخليفة الحكم المستنصر[122]. كما كلفه الخليفة المستنصر ـ بعد أن أعطاه ولاية السوق، بتوسيع المحجة العظمى بسوق قرطبة لضيقها وهدم

---

(115) ينظر، ابن حيان، المقتبس، جـ 5، ص 97، ص 107، ص 210، ص 215 ـ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ 2، ص 159 ـ 160، ص 167، ص 193، ص 196 ـ 197.

(116) ابن حيان، المقتبس، تح الحجي، ص 66.

(117) أيضاً، ص 59 ـ خلاف، «صاحب الشرطة» ص 65، ومجلة أوراق، ص 72 ـ 76.

(118) ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 54.

(119) ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، ص 11.

(120) ابن الفرضي، تاريخ، ترجمة رقم 266.

(121) ابن بشكوال، الصلة، ترجمة (312)، ترجمة رقم (1102).

(122) ابن الفرضي، تاريخ، ترجمة رقم 167.

الحوانيت من أجل التوسيع، وكذلك كلفه بنقل دار البرد من غربي قرطبة إلى دار الزوامل التي بالمصارة من طرف قرطبة. وكلف أيضاً بقضاء كورة جيان[123]. وشارك أصحاب الشرطة أيضاً في عصر الحكم المستنصر في عمليات الجهاد حيث خرجوا عام 364هـ مع جيش الصائفة[124]. وكان صاحب الشرطة أحياناً هو قائد الجيش في بعض الولايات الأندلسية، حيث يكلفه الخليفة في بعض المهام، كما هو حال صاحب الشرطة العليا وقائد بلنسية وطرطوشة هشام بن محمد بن عثمان[125]. وفي عام 361هـ أعطى الخليفة الحكم الشرطة الوسطى لمحمد بن أبي عامر وجعله أيضاً قاضي القضاة[126]. وكان الخليفة الحكم يعهد لصاحب الشرطة والسوق بأعمال البر كتوزيع الأموال على الفقراء والمساكين[127].

ومارس صاحب الشرطة بعض المهام الدبلوماسية، ففي عام 360هـ كلف الخليفة الحكم صاحب الشرطة هشام بن محمد بن عثمان وقائد طرطوشة وبلنسية أن يصحب الوفود الإسبانية الوافدة إلى العاصمة، وربما كان ذلك لقرب منطقة عمله من الممالك الإسبانية[128].

وتخبرنا بعض النصوص أن وظيفة صاحب الشرطة وصاحب المدينة كانت تجمع في وظيفة واحدة أحياناً في عهد الخليفة هشام المؤيد، حيث جمعت لمحمد بن أبي عامر[129]، الذي عم في زمنه الأمن في مدينة قرطبة[130]. وتولى خطة الشرطة بعض العلماء والفقهاء في فترة الحجابة أمثال سعيد بن أحمد بن حدير الذي تولى الشرطة في بداية عهد هشام المؤيد[131]. والأديب أحمد بن أبان المتوفى عام (382هـ)[132]، وغيرهم.

---

(123) ابن الفرضي، تاريخ، ترجمة رقم 167 ـ ابن حيان، المقتبس، تح الحجي، ص 66، ص 71.
(124) ابن حيان، المقتبس، تح الحجي، ص 216.
(125) أيضاً، ص 47 ـ 48.
(126) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 247.
(127) ابن حيان، المقتبس، ص 77.
(128) ابن حيان، المقتبس، ص 20 ـ 21 ـ خلاف، «صاحب الشرطة»، ص 70.
(129) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 266 ـ المقري، نفح، جـ 4، ص 88.
(130) أيضاً، جـ 2، ص 266 ـ خلاف، «صاحب الشرطة»، ص 70 ـ 71.
(131) ابن الفرضي، تاريخ، ترجمة رقم 190.
(132) أيضاً ترجمة رقم 531 ـ ابن بشكوال، الصلة، ترجمة رقم 6.

ونرى من خلال تراجم أصحاب الشرطة في عصر الحكم المستنصر والحاجب المنصور، أن صاحب الشرطة قام بأكثر من عمل إداري ودبلوماسي وعمراني وعسكري إلى جانب عمله الرئيس[133]، وذكرت بعض المصادر التاريخية[134]، بتلقب ابن حيان المؤرخ بصاحب الشرطة، ويبدو أن هذا اللقب كان لقباً فخرياً أو تشريفياً ليس إلا[135].

وفي عهد الفتنة 399 ـ 422هـ، تعرض صاحب الشرطة للعزل والقتل نظراً لتعاقب الخلفاء في هذه الفترة، والذي كان كل خليفة جديد يعمل على تعيين صاحب شرطة من رجاله وعزل السابق وربما يقتله، حيث صلب الخليفة محمد بن هشام حاكم المدينة عبد الله بن عمر عندما سيطر على قرطبة عام 399هـ[136]. وفي أيام الخليفة محمد المهدي تولى الفقيه أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن حزم الحكم بالجانب الغربي من قرطبة[137]. ولعل هذه الرواية تدل على أن خلفاء الفتنة ربما قسموا قرطبة إلى مناطق وعينوا على كل منطقة منها صاحب شرطة، أو أن كثرة الحوادث في الجانب الغربي كانت مدعاة لهذا التعيين، أو ربما لأن الجانب الغربي هو الذي تقع فيه بيوت الأغنياء فهي بحاجة إلى حماية[138].

وذكر لنا ابن بشكوال في ترجمته لمحمد بن قاسم بن محمد الأموي (الجالطي) أنه تقلد أحكام الشرطة للخليفة هشام بن الحكم، وكان محموداً في عمله، وقتله البربر يوم دخولهم قرطبة عام 403هـ[139]، وكذلك قتلوا صاحب الشرطة الآخر العالم عبد الله بن حسين (ابن الغربالي)[140].

وممن ولي الشرطة في عهد الفتنة وذكرهم ابن بشكوال دون أن نستطيع تحديد وقت عملهم في هذه الخطة: محمد بن يونس (توفي عام 418هـ)[141]، ومحمد بن

---

(133) خلاف، «صاحب الشرطة»، ص 72.

(134) ابن خير، الفهرسة، ص 326 ـ المقري، نفح، جـ 2، ص 102.

(135) ابن حيان، المقتبس، جـ 2، مقدمة المحقق، ص 44.

(136) ابن عذاري، جـ 3، ص 54 ـ 55.

(137) ابن بشكوال، الصلة ترجمة رقم 86.

(138) خلاف، «صاحب الشرطة»، ص 74 ـ مجلة أوراق، ص 77.

(139) الصلة ـ ترجمة، رقم 1060.

(140) ابن الآبار، التكملة، ترجمة رقم 1277.

(141) الصلة، ترجمة رقم 1109.

يحيى (ابن الخفارية) توفي عام 411هـ[142]. وأحمد بن الحسين[143]، ومحمد بن محمد ابن إبراهيم القبسي[144].

وفي عصر الطوائف اتسمت خطّة الشرطة بالاستقرار، واعتمد كل أمير من أمراء الطوائف على صاحب شرطة، واختاروه من البيوتات الأندلسية المعروفة[145]. ففي مملكة غرناطة في عهد أسرة بني زيري شغل هذه الوظيفة برير صنهاجة، وأيضاً اليهود. وفي قرطبة عهد أبو الوليد بن جهور إلى الفقيه حسن بن محمد بن ذكوان (توفي عام 451هـ) أحكام الشرطة والسوق ثم رفع إلى قاضي الجماعة[146]. وتولى أيضاً في هذا العهد الفقيه عبد الرحمن بن مخلد أحكام الشرطة والسوق حتى وفاته عام 437هـ[147]. وتولاها أيضاً في عهد الجهاورة مضافة إلى خطة السوق الوزير أبو بكر محمد بن الليث ابن حريش، والذي استمر يمارس هذه الوظيفة في عهد الطوائف بعد سقوط إمارة الجهاورة، حيث نراه يمارس أعماله في عام 457هـ وعرضت عليه مجموعة قضايا في مدينة قرطبة، وعندما تختلف عليه الأمور يشاور الفقهاء والقضاة وغيرهم لحل الإشكال[148].

وفي مملكة بني عباد تولى أحكام الشرطة الفقيه محمد بن مكي (توفي عام 474هـ) وجمعت له مع السوق والأحباس وأمانة الجامع[149].

وأصبحت الأندلس ولاية مرابطية، وتزودنا الروايات بأن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن مخلد تولى الأحكام بقرطبة مدة طويلة وتوفي سنة 515هـ[150]. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار رسالة ابن عبدون (توفي عام 520هـ) في الحسبة، وهو من الذين خدموا في بلاط علي بن يوسف، والتي تشير إلى منع طوائف الحشم والعبيد التابعين لولاة

(142) أيضاً ترجمة رقم 1102.
(143) أيضاً ترجمة رقم 127.
(144) أيضاً ترجمة رقم 1142.
(145) خلاف، «صاحب الشرطة»، ص 75.
(146) ابن بشكوال، الصلة، ترجمة رقم 312.
(147) أيضاً، ترجمة رقم 703.
(148) ينظر، خلاف، «صاحب الشرطة في الأندلس»، مجلة أوراق، ص 78 وما بعدها.
(149) أيضاً، ترجمة رقم 1210.
(150) ابن بشكوال، الصلة، ترجمة رقم 746.

الأمر من التلثم ـ وهو شعار المرابطين ـ وأن لا يتلثم إلا صنهاجي أو لمتوني أو لمطي، فهذا يدل على مراقبة المرابطين لأحوال الرعية، وربما كلف بالأمر صاحب الشرطة أو صاحب السوق(151).

وكان منصب صاحب الشرطة من المناصب الإدارية المهمة في الدولة الموحدية، وتبدو أهميته خاصة عند اضطراب الأمور، وكان يشغل هذا المنصب رجال من ذوي المكانة الرفيعة في الدولة ومن أكابر الوزراء.

ويبدو لنا من الرسالة التي وجهها عبد المؤمن بن علي عام 543هـ إلى الأعيان والمشيخة في الأندلس، والتي تنحصر في خمسة أمور هي:

وجوب التزام الدقة في تطبيق الأحكام الشرعية، ووجوب الكف عن أخذ أية مغارم أو مكوس لا تبيحها الشريعة، ولا يجوز الحكم في مواد الحدود بالإعدام أو تنفيذه قبل الرجوع إلى الخليفة، ويجب تحريم الخمور ومطاردتها في سائر أنحاء الدولة، ويجب حماية أموال الدولة وعدم التصرف بها بدون حق(152)، يتبين لنا من هذا كله الإشارة إلى بعض اختصاصات صاحب الشرطة والمدينة والسوق وتحديدها، على الرغم من عدم ورود اسمهم. وقد سار خلفاء الموحدين على هذا النهج فيما بعد كما فعل الخليفة يوسف بإصدار رسالة مشابهة في عام 561هـ موجهة إلى أخيه والي قرطبة(153).

وفي مملكة غرناطة، أعطيت صلاحيات واسعة للقاضي. وكان يعاونه في تصريف القضايا الثانوية قاض مساعد يعرف بصاحب الأحكام، ولعله هو صاحب الشرطة(154). ويعاونه أيضاً صاحب السوق المسؤول عن أمور السوق بصورة عامة، كما أنه مسؤول عن تطبيق فروض الدين، وملاحقة المنكرات(155). ومن أبرز رجال الحسبة والشرطة في مملكة غرناطة القاضي أبو بكر محمد بن فتح الأنصاري الإشبيلي (توفي عام 698هـ)(156). وكان صاحب الشرطة يعرف في مملكة غرناطة باسم متولي الشرطة، وصاحب المدينة وصاحب الليل. وكان يساعده حراس يجوبون الشوارع ويراقبون

(151) عنان، عصر المرابطين، ص 432 ـ 433.

(152) عنان، عصر المرابطين، ص 400 ـ 401.

(153) عنان، عصر الموحدين، ص 619 ـ 620.

(154) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص 5.

(155) فرحات، غرناطة، ص 101 ـ 102.

(156) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص 125 ـ 126.

الطرقات، وقد أطلق عليهم إسم الدرابين الذين كانوا يحملون السلاح وتصحبهم الكلاب(157).

النظم العسكرية:

وندرس فيها الجيش والبحرية:

1 ـ الجيش:

عندما بدأ طارق بن زياد بتنفيذ خطة فتح الأندلس عام 91هـ/ 710م أرسل حملة استطلاعية بقيادة أبي زرعة طريف بن مالك المعافري، وكانت هذه القوة الاستطلاعية تتألف من أربعمائة راجل ومئة فارس(158).

وفي رجب من عام 92هـ/ 711هـ عبر القائد طارق بن زياد على رأس جيش من العرب والبربر قوامه سبعة آلاف رجل، ثم أنجدهم موسى بن نصير بخمسة آلاف مقاتل من العرب والبربر، وضمت الحملة أيضاً سبعمئة رجل من السودان(159).

وفي رمضان عام 93هـ/ 712م عبر موسى بن نصير إلى الأندلس يرافقه جيش عربي قوامه ثمانية عشر ألف رجل، معظم هؤلاء من القبائل اليمانية، وبقية العشائر العربية الأخرى التي كانت موجودة في القيروان، وضمت الحملة أعداداً كبيرة من رجال قريش البارزين، إضافة إلى الإداريين ورجال الدين(160). ومعنى هذا أن الجيش الإسلامي الذي قام بعملية فتح الأندلس يتألف من العرب والبربر وقليل من السودانيين.

فتحت جنوب وسط الأندلس خلال الأعوام 92 ـ 94هـ/ 771 ـ 713م، ودارت معارك عنيفة كمعركة وادي البرباط والمعارك الجانبية التي تم بها فتح قرطبة أو إشبيلية وغيرها من مدن الجنوب والوسط(161)، أما الشمال الإسباني فتم فتحه في فترة لا تتجاوز ثمانية أشهر من عام 95هـ وإذا استعرضنا النصوص المتوفرة لدينا فيما يخص سير

---

(157) فرحات، غرناطة، ص 90.

(158) المقري، نفح، جـ 1، ص 254.

(159) ينظر، مجهول، أخبار مجوعة، ص 7 ـ ابن الأثير، الكامل، جـ 4، ص 561 ـ 563.

(160) ذنون، الفتح، ص 162.

(161) ينظر، مجهول، أخبار مجموعة، ص 15 ـ ابن عذاري، جـ 2، ص 13 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 277.

الجيش في الشمال الإسباني يتبين لنا أن معظمه قد فتح صلحاً، وأن معاقله الحصينة فتحت أبوابها للمسلمين دون مقاومة، ما عدا بعض المدن الواقعة على البحر قاومت الفتح، وارتضوا دفع الجزية وعاشوا بسلام في ظل الحكم العربي، عكس ما رأيناه في جنوبي الأندلس حيث بذل الفاتحون طاقات كبيرة في فتح مدنه، حيث بقي موسى بن نصير أكثر من عام يفتح أو يعيد فتح المدن في جنوبي الأندلس قبل أن يلتقي مع قائده طارق بن زياد قرب طليطلة(162).

كما أن أراضي الشمال الإسباني والتي حددت بالأراضي الواقعة شمالي نهر الوادي الكبير(163)، فقد فتحت صلحاً ورضي أهلها بدفع الجزية والعيش بسلام في ظل حكم العرب كما بيّنا، أما الأراضي الجنوبية فتعتبر أرض عنوة، أي فتحت بالحرب، فوزعت على المحاربين وأعطيت لهم سجلات بتمليكها(164). أما فيما يخص سكن المسلمين في أراضي الشمال الإسباني، أرض الصلح، فقد أشار المقري بقوله: «وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين»(165)، ويعني هذا أنهم استقروا خاصة في المناطق التي تعد غير مأهولة بالسكان، وزاولوا فيها الزراعة، ويبدو أنهم كانوا يؤدون العشر إلى الدولة(166).

ومنذ بداية عصر الولاة 95 ـ 138هـ تدخل الجيش في أمر إدارة الأندلس، عندما قام قادة الجند بقتل والي الأندلس عبد العزيز بن موسى عام 97هـ، وولوا مكانه أيوب ابن حبيب اللخمي(167). الذي لم ينعم بالولاية طويلاً، فاستبدل بالحر بن عبد الرحمن الثقفي (97 ـ 100هـ) الذي وصل إلى قرطبة ومعه أربعمئة رجل، وأول عمل قام به إصلاح الجيش ومطاردة المعتدين من الجند واتبع معهم سياسة شديدة الوطأة(168). ويبدو أن عملية اصطحاب الأتباع كلما يأتي والٍ إلى الأندلس، مع اهتمامه في إصلاح شؤون الجيش أصبحت خطة ثابتة خلال عصر الولاة، لأن بقاء المسلمين في الأندلس

---

(162) السامرائي، الثغر الأعلى، ص 89.
(163) مؤنس، فجر الأندلس، ص 625.
(164) ينظر، نص الرسالة الشريفية، ص 207 ـ 208 ـ الغساني، رحلة الوزير، ص 113.
(165) نفح، جـ 1، ص 276.
(166) مؤنس، فجر الأندلس، ص 628.
(167) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 24.
(168) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 73.

كان متوقفاً على قوة الجيش ومدى مقارعته للأعداء من الإسبان في الشمال، أو المتمردين في داخل الولاية.

وبذلك أصبح الاهتمام بالجيش ـ وهو جيش غير نظامي قائم على إمداد القبائل العربية والبربرية حكومة الوالي بالرجال عند الجهاد ـ وتنظيم رجاله من أولى الأعمال المهمة التي يقوم بها والي الأندلس، فنرى مثلاً اهتمام عبد الرحمن الغافقي في ولايته الثانية بالجيش، وعني بإصلاحه وتنظيمه، وأنشأ فرقاً قوية مختارة من فرسان البربر بإشراف نخبة من ضباط العرب(169). وهذا ما مكنه من قيادة الجيش عبر الأراضي الفرنسية فكانت موقعة بلاط الشهداء المعروفة عام 114هـ.

ومن الأمور الأخرى التي يمكن ملاحظتها خلال عصر الولاة، أن الولاة الذين حكموا الأندلس بعد معركة بلاط الشهداء عام 114هـ، يصطحبون معهم جيش منتخباً من جند أفريقيا لتعزيز حكمهم أولاً، ولإخماد حركات التمرد في الشمال الإسباني ثانياً.

والظاهرة الأخرى التي برزت في عصر الولاة، هي قيام الكور المجندة، وهي الأماكن التي وزع فيها الجيش الشامي (جيش بلج بن بشر القشيري)، بعد أن لعب الوالي بلج دوراً كبيراً في أحداث ولاية الأندلس المعروفة، وفي عهد الوالي أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي (125 ـ 127هـ) فرق الجند الشامي في الكور مقابل أن يؤدوا خدمة عسكرية(170)، وقد حرص الوالي أبو الخطار في هذا التوزيع على أن تكون الكور التي ينزلون بها متشابهة إلى حد كبير للأماكن التي جاءوا منها من المشرق، ولعل ذلك محاولة من هذا الوالي لبعثرة طاقاتهم بعد أن رأى خطرهم يكمن في وجودهم بمنطقة واحدة(171). فأنزل أهل حمص في مدينة إشبيلية، وأهل دمشق أنزلهم غرناطة، وأهل الأردن أنزلهم مالقة، وأهل مصر أنزلهم مرسية (تدمير)، وأهل قنسرين أنزلهم جيان، وفرض على كل قبيلة أن تجبي غلة تلك الناحية التي نزلت فيها، وتأخذ عطاءها منها والزيادة لبيت المال(172). وتعهدت حكومة الولاية بعدم التدخل في شؤونهم أو شؤون الإقليم(173).

وما يلاحظ كذلك في عصر الولاة، أن قادة جيوش الثغور زجوا أنفسهم في

---

(169) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 85.

(170) بدر، دراسات، جـ 1، ص 59.

(171) بيضون، الدولة العربية، ص 125.

(172) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 61 ـ 62 ـ ابن القوطية، تاريخ، ص 45 ـ الحميري، الروض المعطار، ص 181 ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 109.

(173) مؤنس، فجر الأندلس، ص 221، ص 511 ـ 512.

الخلافات الداخلية، بدل أن يصرفوا طاقاتهم لصد خطر الأعداء. فنرى عبد الرحمن بن علقمة عامل أربونة أقصى ثغور الأندلس يشارك بجيشه ضد جيش بلج القشيري والتقى الجيشان في موقع (أقوة بر طوره) من إقليم ولبه، واستطاع عبد الرحمن بن علقمة من إصابة بلج مما أدى إلى موته في اليوم التالي، ولكن خسر عبد الرحمن العدد الكبير من جيشه[174]، فخسرت بذلك قاعدة أربونة خيرة المجاهدين[175].

رجع والي أربونة إلى قاعدته في عهد الوالي أبي الخطار، إلا أن عامل أربونة تمرد مرة ثانية على الوالي يوسف الفهري (129 ـ 138هـ) مما أدى إلى مقتله، ففقدت قاعدة أربونة واليها الشجاع، وأصبحت عرضة لهجمات القوات الفرنسية التي استرجعتها عام 141هـ[176].

أما الجيش في عصر الإمارة 138 ـ 316هـ، فبدأ الأمير الأول الداخل بإنشاء جيش يعتمد عليه في تثبيت حكمه وحشد له المتطوعة والمرتزقة من سائر الطوائف، وبلغت قواته نحو مائة ألف مقاتل، هذا عدا الحرس الخاص الذي يتكون من الموالي والبربر والرقيق الصقالبة، وقد بلغت قواته نحو أربعين ألف[177]. وبدأ الداخل ينظر بعين الريبة إلى الجند العربي فأسقط ألويتهم بعد أن قامت ضده ثورات عربية أشهرها التي قادها العلاء بن مغيث[178]. واعتمد الداخل بالدرجة الأولى على البربر بناءً على مشورة أحد أقربائه، وأحسن استقبال من وفد إليه من بربر العدوة الذين انخرطوا في جيش الداخل. فكانوا يده الحديدية التي يضرب بها أعداءه[179]، كما استعان بعنصر الصقالبة الذين كانوا يشترون بالمال ويدربون على أعمال الفروسية والقتال وعلى الطاعة العمياء للدولة والإخلاص لها[180].

---

(174) ينظر، ابن عبد الحكم، فتوح، ص 100 ـ مجهول، أخبار مجموعة، ص 141 ـ 44 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 33.

(175) مؤنس، فجر الأندلس، ص 287.

(176) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 38 ـ المقري، نفح، جـ 3، ص 26 ـ السامرائي، الثغر الأعلى، ص 149.

(177) ينظر، المقري، نفح، جـ 3، ص 37، جـ 4، ص 36 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 200.

(178) الحميري، الروض، ص 36.

(179) ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 60 ـ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 21.

(180) دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، جـ 1، ص 235 ـ إبراهيم الدوري، عصر عبد الرحمن الداخل، ص 250.

وإذا كان الأمير هشام 172 ـ 180هـ قد اهتم بالجيش، وهيأه لمعارك الجهاد، إلا أنه في الوقت نفسه رتب في ديوان الجند أرزاقاً لأسر الشهداء، كما افتدى أسرى المسلمين ولم يبق في عهده منهم أحد في قبضة العدو[181]. ولكن نرى الأمير الحكم (180 ـ 206هـ) يستكثر الموالي والحشم في الجيش، وأنشأ الحرس الخاص، وفي عهده أكثر من جلب الصقالبة، وكان هؤلاء الصقالبة على الأغلب من الرقيق والخصيان الذين يؤتى بهم من بلاد الفرنج وحوض نهر الدانوب وغيرها، وكان يؤتى بهم أطفالاً من الجنسين ويربون تربية إسلامية، ثم يدربون على أعمال الفروسية والإدارة، وتولوا مناصب مهمة، وبلغ عددهم في عهد الحكم زهاء خمسة آلاف[182]. وكان للحكم فرقة من الحرس الخاصة معظمهم من فيء أربونة ورثهم عن والده هشام، وقد أبلوا في الدفاع عنه يوم الربض أحسن البلاء. وكانت للحكم ألفا فرس من الجياد الصافنات مرتبطة على شاطىء النهر تجاه القصر، ويشرف عليها جماعة من العرفاء الجيدين[183]. ومعنى هذا أن الأمير الحكم أسس فرقاً من الجيش النظامي وخاصة بعد فشل ثورة الربض عام 202هـ التي قام بها الفقهاء ضده، والتي كادت تطيح بعرشه، فكون لنفسه فرقة من الحرس الخاص عرفوا باسم الصقالبة، وسموا أيضاً الخرس لعجمة ألسنتهم[184]. واستمر أمراء الأندلس من إكثار الموالي والصقالبة وجعلهم حرساً خاصاً لهم، فقد اصطفى الأمير عبد الرحمن الأوسط مثلاً خمسة آلاف مملوك، ثلاثة آلاف فارس يرابطون إزاء باب القصر فوق الرصيف، وألفا رجل على أبواب القصر المختلفة[185]. واهتم الأمير محمد بتقوية الجيش وذلك نتيجة الظروف الصعبة التي مرت بها الأندلس في عهده، وتلقي الأرقام عن عدد الفرسان الذين يحشدون في مختلف الكور والمدن لغزوات الصوائف، ضوءاً على مدى قوة الجيش الأندلسي في عهده، فكورة غرناطة (2900)، وجيان (2200)، وقبره (1800)، وباغه (900)، موتاكرنا (269) والجزيرة (290) وأستجة (1200)، وقرمونة (185)، وشذونة (6790)، ورية (2607)، وشريش (342) وفحص البلوط (400)، ومورور (1403)، وتدمير (200)، أما قرطبة

---

(181) مجهول، أخبار مجموعة، ص 120 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 229.

(182) ابن الأثير، الكامل، جـ 6، ص 128 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 159.

(183) مجهول، أخبار مجموعة، ص 129 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 79.

(184) ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 277 ـ السامرائي «التعبئة العسكرية»، ص 40.

(185) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 277.

العاصمة فكانت تختار الرقم قياساً لقدراتها، ويحشد أبناؤها بطريق التطوع خلافاً لأهل النواحي الأخرى. وكانت هذه الفرق تسمى بفرق الفرسان المستنفرين الذين يجري استنفارهم أوقات الصوائف، أو كلما بدرت من العدو حركة اعتداء على أهل الثغور، ويضاف إلى هذه الفرق حشود المتطوعين في سبيل الله. وبذلك ندرك مدى حجم جيش الأندلس خلال هذه الفترة، والذي كان هذا الأمير دائماً يقود الجيش إلى أرض العدو ويمكث فيها أكثر من ستة أشهر[186].

ويلاحظ في عصر الإمارة أنها اعتمدت على قادة عسكريين مشهورين ينتمون إلى أسر أندلسية معروفة، فكان لهم دور كبير في قمع الفتن الداخلية أولاً، ولهم الدور نفسه في محاربة الممالك الإسبانية ثانياً. فمثلاً أسرة ابن أبي عبدة، اشتهر رجالها في إخماد حركات التمرد وبخاصة في عهد الأمير عبد الله (275 ـ 300هـ) التي عجت الأندلس بحركات المتمردين، فتصدّى رجالها لهذه الحركات التي كان من أشهرها حركة عمر بن حفصون وإبراهيم بن حجاج، واشتهر في هذه الأسرة أبو العباس أحمد بن محمد أبي عبدة الوزير وأولاده عباس وعيسى. فقد اعتمد هذا القائد بالدرجة الأولى على نخبة مختارة من رجاله يبلغ عددهم ثلاثمئة فارس يعتمد عليهم في حروبه، من مجموع جيشه الذي استكثر فيه الرجال وشجعان أهل الثغور، وابتاع العبيد حتى بلغ عدد جيشه خمسة آلاف فارس عدا المشاة[187].

كما اشتهرت هذه الأسرة في مجاهدة الممالك الإسبانية، وأحرز أفرادها النصر في كثير من المعارك[188]، واستشهد بعض رجالها في معارك الجهاد أمثال الوزير أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة[189]. كما كان لها دور بارز في صد هجوم النورمان على الأندلس عام 245هـ في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (238 ـ 273هـ)[190].

وأسرة مغيث الرومي أيضاً اشتهرت بحروب الجهاد ضد الممالك الإسبانية واشتهر

---

(186) ينظر، ابن عذاري، جـ 2، ص 111 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 311.

(187) ينظر، ابن القوطية، تاريخ، ص 107 ـ 108 ـ ابن حيان، المقتبس، جـ 3، ص 129.

(188) ينظر، ابن حيان، المقتبس، جـ، ص 319 ـ 320 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 98 ـ 99 ـ النويري، نهاية الأدب، جـ 22، ص 55.

(189) ينظر، ابن حيان، المقتبس، جـ 5، ص 135 ـ 136 ـ السامرائي. الثغر الأعلى، ص 222.

(190) ينظر، ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 308 ـ العذري، نصوص عن الأندلس، ص 118.

من رجالها القائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وبخاصة في عهد الأمير الحكم والأمير عبد الرحمن، وأخيه القائد عبد الملك[191].

كما اعتمدت حكومة الإمارة على أسر عربية ومولدة وبخاصة في مناطق الثغور، وكلفتها مهمة مجاهدة الممالك الإسبانية القريبة من أراضيها، أمثال أسرة بني تُجيب العربية وأسرة بني الطويل وبني عمروس وأسرة بني قسي المولدة في منطقة الثغر الأعلى، وأسرة بني سالم البربرية وأسرة بني ذي النون البربرية في منطقة الثغر الأوسط. وعلى الرغم من وجود علاقات متشابكة بين هذه الأسر أولاً وبينها وبين حكومة قرطبة وصفت أحياناً بالعداء، إلا أن هذه الأسر وبخاصة في عصر الإمارة كان لها دور مشرف في مجاهدة الممالك الإسبانية المجاورة لها أحياناً بمفردها، وأحياناً بالإشتراك مع قوات قرطبة الزاحفة إلى الشمال[192].

ومما يلاحظ أيضاً في عصر الإمارة أن الأمير الأندلسي أحياناً يخرج بنفسه إلى الشمال الإسباني في حملات الصوائف من أجل تأديب الممالك الأسبانية، أو رد اعتدائها على الأراضي الأندلسية، وأحياناً أيضاً يرسل ولي عهده في قيادة الجيش مع صحبة خيرة قواته. فمثلاً الأمير الناصر خرج عام 311هـ إلى بلاد النافار وسميت هذه الغزوة بغزوة بنبلونة، ورجع إلى قرطبة بعد أربعة أشهر، بعد أن دمر أهم مدن وحصون النافار[193]. والأمير عبد الرحمن الأوسط سار بنفسه عام 225هـ إلى مملكة ليون وافتتح الكثير من حصونها[194]. وفي عام 235هـ أرسل الأمير عبد الرحمن الأوسط إبنه المنذر إلى مملكة ليون أيضاً، وأحرز النصر هناك[195]، وهناك عشرات الأمثلة لهذا الأمر.

وبقيت هذه المظاهر العامة نفسها، مستمرة في عصر الخلافة 316 ـ 422هـ. وقد بدأ الخليفة الناصر (300 ـ 350هـ) اهتمامه بالجيش الذي أصبح عماد الدولة وسياج الملك، فسهر على إصلاح الجيش الذي أضناه الكفاح ضد حركات التمرد وضد الممالك الإسبانية، وحشد له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب، واستكثر من

---

(191) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 81 ـ 82 ـ ابن الخطيب، أعمال، ص 19 ـ السامرائي، الثغر الأعلى، ص 166، ص 168، ص 201.

(192) ينظر، السامرائي، الثغر الأعلى، ص 337 وما بعدها.

(193) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 189.

(194) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 85 ـ النويري، نهاية الأدب، جـ 22، ص 46.

(195) ابن الأثير، الكامل، جـ 7، ص 51.

الأسلحة والذخائر. وقد صقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاءة الجيش ودرّبته، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً في الحروب، وكان إقدام الخليفة على تولي قيادة الجيش بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة(196).

واستمر الخليفة الناصر يعتمد على الصقالبة في جيشه وبوّأهم مكانة مرموقة في الجيش والقصر. وكان لهذه السياسة التي أسرف الناصر في اتباعها، أسوأ الأثر في نفوس الزعماء العرب، وفي انحلال قوى الجيش المعنوية. وهذه الأمور من الأسباب التي أدت إلى هزيمة الناصر في معركة الخندق عام 327هـ/ 939م التي خاضها ضد مملكة ليون. والتي نجا منها وقليل من أتباعه بأعجوبة(197). وبعد هذه المعركة لم يخرج الناصر إلى محاربة الأعداء، واكتفى بتزويد الأسر المتنفذة في منطقة الثغر الأعلى والثغر الأوسط بالمال والعتاد والرجال لكي يقوموا بواجب الجهاد سنوياً ضد الممالك الإسبانية المجاورة(198).

واستمر الخليفة الحكم المستنصر 350 ـ 366هـ يعتمد على الصقالبة، وأعطاهم قيادة الجيش وأهم المناصب. وكان في الوقت نفسه يراقب تحركات الممالك الإسبانية بدقة، على الرغم من ميل هذه الممالك إلى المهادنة والسلم مع حكومة قرطبة(199).

ومع هذا كان الخليفة الحكم يقود أحياناً الجيوش بنفسه إلى الشمال الإسباني، كما حصل في عام 352هـ، وأحياناً يعهد قيادة الجيش إلى القائد غالب بن عبد الرحمن، وحيناً آخر يكلف قادة أسرة بني تجيب العربية أمراء سرقسطة بهذه المهمة(200).

وفي فترة الحجابة 366 ـ 399هـ وعندما سيطر الحاجب المنصور على الأمور، قام بتنظيم الجيش، فأنشأ فرقاً جديدة من البربر وبخاصة من زناتة وصنهاجة، ومن الجند الإسبان من ليون والنافار وقشتالة، وبذل لهم الأموال السخية، واجتذب قلوبهم بماله وعدله. وغير الحاجب المنصور أنظمة الجيش القديمة، فقدم رجال البربر، وأخر زعماء العرب وأقصاهم من مناصبهم، وفرق جند القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة، وكانوا

(196) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 446.
(197) ينظر، ابن حيان، المقتبس، جـ 5، ص 435.
(198) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 421.
(199) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 512، ص 514.
(200) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 236، ص 241.

من قبل ينتظمون في صف واحد. وإذا كان الخليفة الناصر قد بدأ بسحق القبائل العربية وإضعاف قوتها، فإن الحاجب المنصور كمّل المهمة نهائياً[201].

كما أنه عمل على تصفية الصقالبة، وخصومه الآخرين، ولما توفي عام 392هـ كان عدد الفرسان المرتزقة عنده، والذين حارب بهم عشرة آلاف وخمسمائة، وفرسان الثغور مقارب من هذا العدد أيضاً[202]. واشتهر الحاجب المنصور بغزواته المتكررة إلى الشمال الإسباني، وزودتنا الروايات بالكثير من أسماء هذه الغزوات التي اعتمد فيها على قوة جيشه المرتزق، والتي لم يهزم في أحدها[203].

وكان عدد الجيش المرابط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة، وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً، وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك، وقد يبلغ المائة ألف أو يزيد. وكان المنصور يقتني الخيول لاستخدامها في الجهاد، ومطايا الركوب، ودواب الأحمال، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأمتعة والأثقال. وأما عن عدة الحرب، فقد كان المنصور يحتفظ بكميات عظيمة من الخيام والسهام والدروع، وعدد من المجانيق وغيرها من آلات الحصار[204]. ومما يؤثر عن علاقة المنصور بجيشه، أنه كان لقوة ذاكرته، يعرف كثيراً من جنده بالإسم، أو يعرف على الأقل كثيراً مما امتاز منهم خلال المعارك بالشجاعة، ويدعوهم إلى مائدته باستمرار عقب كل انتصار[205].

خلال فترة الفتنة 399 ـ 422هـ، وقع الصراع بين جند الأندلس الذين انقسموا إلى فريقين متصارعين، الأندلسيون في جانب، والبربر في جانب آخر. وقد لحق البربر خلال هذه الفترة أذى كبير، إلا أنهم استعادوا قواتهم ودخلوا قرطبة وسيطروا عليها عام 403هـ. وهناك ظاهرة أخرى في هذه الفترة هي استعانة بعض خلفاء هذه الفترة بالجند المرتزقة من نصارى الشمال الإسباني، الذين لعبوا دوراً كبيراً في أحداث هذه الفترة[206].

---

(201) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 531.

(202) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 286، ص 301.

(203) العذري، نصوص عن الأندلس، ص 74 وما بعدها.

(204) ابن الخطيب، أعمال، ص 99، ص 101 ـ 102 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 571.

(205) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 572.

(206) السامرائي، علاقات، ص 34 وما بعدها.

ثم قام عصر الطوائف، وتحولت فيه الأندلس إلى دويلات متنازعة. فهناك دويلات الأندلسيين، ومن أشهرها بنو عباد في إشبيلية وبنو جهور في قرطبة وبنو هود في سرقسطة، وبنو صمادح في المرية والعامريون في بلنسية والمرية، ودويلات الصقالبة، إمارة مجاهد العامري في دانية، وإمارة خيران وزهير في المرية ومرسية ونبيل في طرطوشة، وهناك دويلات البربر، وهم بنو زيري في غرناطة، وبنو برزال في قرمونة، وبنو يفرن في رندة وبنو الأفطس في بطليموس، وبنو ذي النون في طليطلة[207].

امتازت هذه الدويلات بأن كل مجموعة منها اعتمدت على عناصر عسكرية من بني جلدتها. ومن ثم دخلت في حروب داخلية، لأن كل أمير يريد أن يوسع ملكه ويمد سلطانه على حساب جيرانه من أمراء الطوائف سواء بالقوة أو بالحيل السياسية. وهناك ظاهرة أخرى نراها في هذا العصر هي استعانة أكثر أمراء الطوائف بالممالك الإسبانية التي كانت ترسل لهم فرق المرتزقة لكي تعين بعضهم على البعض الآخر، ليس من أجل تحقيق هدف سامي، بل من أجل العمل على تمزيق وحدة الصف العربي في بلد الأندلس وقد نجحوا[208]. وكلنا يعرف الخدمات التي كان يقدمها الكمبيادور الفارس القشتالي لبلاط سرقسطة حتى استأسد على بعض ملوك الطوائف وسيطر على بلنسية وعاث فيها فساداً وما جاورها من الممالك[209]. وتوجت الأحداث هذا العصر بسقوط طليطلة عام 487هـ بأيدي قوات الفونسو السادس ملك قشتالة الإسباني، واتخذها عاصمة لدولته، حينها أدرك أمراء الطوائف خطر التوسع الإسباني، فاستنجدوا بالإخوة المرابطين فكانت معركة الزلاقة عام 479هـ، حيث بدأ دور الجهاد المشترك بين دولة المرابطين وملوك الطوائف ضد الممالك الإسبانية (479 ـ 483هـ) حيث قامت معركتان مهمتان هما معركة الزلاقة عام 479هـ ومعركة حص البيط عام 481هـ[210].

ثم أصبحت الأندلس ولاية مرابطية بعد عزل أمراء الطوائف من قبل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي. وقد اعتمدت الدولة المرابطية على الجيش في تأسيس كيانها أولاً، وفي الجهاد المشترك مع أمراء الطوائف ضد الممالك الإسبانية ثانياً، وفي خلع ملوك الطوائف والانفراد في مجاهدة الإسبان ثالثاً. ولما كان الجهاد أساس وجود

(207) ينظر، تشراكوا، مجاهد، ص 52 ـ 55.

(208) ينظر، السامرائي، علاقات، ص 69 وما بعدها.

(209) ينظر، كريم عجيل، الحياة العلمية، ص 128 وما بعدها.

(210) السامرائي، علاقات، ص 170 وما بعدها.

القوات المرابطية بالأندلس، فقد رابط في الأندلس سبعة عشر ألف فارس مرابطي، سبعة آلاف بإشبيلية وقواعد الغرب، وألف فارس بقرطبة، وألف فارس كذلك بغرناطة، وأربعة آلاف فارس في الأندلس، والأربعة آلاف الباقية موزعة على مختلف القواعد والثغور لرد هجمات الممالك الإسبانية. وكان الفارس المرابطي في الأندلس يتقاضى خمسة دنانير في الشهر، غير نفقته الخاصة وعلف فرسه، ومن أظهر منهم شجاعة وتفوق عهد إليه بولاية موضع ينتفع بفوائده(211).

أما جند أهل الأندلس في الجيش المرابطي داخل الأندلس، فعبارة عن وحدات خاصة، تحمل أعلام المدن التي تنتمي إليها، مثل أشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ومرسية وغيرها. إلا أن القوات الأندلسية لم يكن لها شأن كبير في الجيش المرابطي الذي كان يعتمد على نفسه وقيادته بصورة خاصة(212).

وكان عماد الجيش المرابطي الفرسان الذين بلغوا في عهد يوسف بن تاشفين نحو مئة ألف فارس من مختلف القبائل، هذا غير المشاة من الرماة وغيرهم. وأنشأ يوسف حرسه الأسود الخاص من عبيد الصحراء من غانة ويتألف من نحو ألفي مقاتل، دربوا أحسن تدريب حتى غدوا قوة ضاربة، وأبلوا بلاءً حسناً في معركة الزلاقة، وأنشأ يوسف بن تاشفين قوة كبيرة خاصة من فرسان زناتة ولمطة وجزولة عرفت باسم الحشم، كما أنشأ فرقة خاصة لحرسه من الأسبان، ومعظمهم من المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام، وقد نمت هذه الفرقة في عهد ولده علي، حتى غدت فرقة كبيرة في الجيش المرابطي، ويقودها فارس قشتالة يسمى الربرتير، واشتركت هذه الفرقة (تسمى أيضاً الجند الروم) مع الجيش المرابطي في معارك عديدة(213).

وفي معارك الجهاد التي خاضتها القوات المرابطية ضد الممالك الإسبانية اشتركت معها عناصر من عرب بني هلال ـ الذين جاؤوا إلى إفريقية بالأصل لتدمير مملكة بني مناد الصنهاجية مدفوعة من قبل الدولة الفاطمية، إلا أن هذه القبائل وظفت من قبل المرابطين والموحدين في معارك الجهاد ـ(214) وقد استشهد الكثير منهم وبخاصة في

---

(211) الحلل الموشية، ص 57 وما بعدها ـ عنان، عصر المرابطين، ص 419 ـ 420.

(212) روض القرطاس، ص 89، عنان، عصر المرابطين، ص 419.

(213) عنان، عصر المرابطين، ص 418 ـ السامرائي، علاقات، ص 286 ـ ينظر، محمد ولد داده، مفهوم الملك في المغرب، ص 120.

(214) ينظر، ابن الآبار، الحلة، جـ 2، ص 21 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 13 ـ السامرائي، علاقات، ص 358 وما بعدها.

معركة إقليش عام 501هـ التي انتصر فيها الجيش المرابطي ضد مملكة ليون الإسبانية[215].

وعندما تقوم القوات المرابطية بواجب الجهاد في سبيل الله في الأندلس ينضم إليها صفوف المتطوعة من العلماء ومن عامة الناس، وكان لهؤلاء المتطوعة دور كبير في بعض المعارك[216].

كانت قيادة الجيش المرابطي في الأندلس تعهد إلى خيرة قادة المرابطين، والذين كان معظمهم من أفراد البيت المرابطي، وقد اشتهروا في معارك الجهاد الأندلسية، واستشهد بعضهم. وفي الوقت نفسه يقوم أمير المسلمين المرابطي أو ولي عهده بتفقد القطعات المرابطية في الأندلس ويصلح من أحوالها، وأحياناً يقودها بنفسه في بعض معارك الجهاد. ونظراً لكل هذه الأمور فقد فقدت دولة المرابطين خيرة رجالها الشجعان في بلد الأندلس أثناء قيامها بواجب الجهاد، وهذا من جملة الأسباب التي أدت إلى ضعف أمر هذه الدولة مبكراً[217].

وبعد سقوط دولة المرابطين، وقيام دولة الموحدين، أصبحت الأندلس ولاية موحدية، وورث الموحدون مهمة مجاهدة الممالك الإسبانية ببلد الأندلس. ولذا نرى أن دولة الموحدين تعتمد على قبائل مصمودة أولاً في إعداد الجيش، ومن ثم استعانت بقبائل بني هلال ثانياً والتي استخدموها في معارك الجهاد بالأندلس[218]. وكذلك كانت القوات الأندلسية تؤلف بالجيش الموحدي بالأندلس جناحاً هاماً، وتشترك في سائر الغزوات التي قادتها الجيوش الموحدية ضد الممالك الإسبانية، وكانت هذه القوات الأندلسية تشتهر بشجاعتها وتفانيها في معارك الجهاد في سبيل الله من أجل الدفاع عن بلدها الأندلس، وكانت تقاتل في طليعة الجيوش الموحدية لخبرتها في قتال الإسبان، وكثيراً ما تكون سبباً في إحراز النصر، ونرى كذلك أن القادة الموحدين يستمعون باستمرار إلى مشورة القادة الأندلسيين العسكرية[219].

واستعان الموحدون بفرق عسكرية من المرتزقة الإسبان، وكان من أشهر قادتها

---

(215) ابن القطان، نظم الجمان، ص 9 ـ 10 ـ مؤنس، «الثغر الأعلى»، ص 129.

(216) السامرائي، علاقات، ص 280.

(217) ينظر، السامرائي، علاقات، ص 250 وما بعدها.

(218) عنان، عصر الموحدين، ص 635.

(219) عنان، عصر الموحدين، ص 636.

علي بن الربرتير[220].

وكان الخلفاء الموحدون يعبرون باستمرار إلى الأندلس لتفقد أحوالها العسكرية، وقد بنوا قواعد عسكرية جديدة فيها مثل مدينة الفتح في منطقة جبل طارق، وقاد بعضهم الحملات الجهادية أو عهد بقيادتها إلى أحد أولاده، وكان أفراد البيت الموحدي هم قادة الجيش الموحدي المرابط في الأندلس. فقد رأينا قيادة الخليفة المنصور الموحدي لمعركة الأرك عام 591هـ الذي انتصر فيها على مملكة قشتالة[221]. واشترك الخليفة الموحدي الناصر في معركة العقاب عام 609هـ ضد مملكة قشتالة، فاندحر المسلمون فيها كما هو معروف[222].

ولم تصمد مملكة غرناطة هذه الفترة الطويلة أمام هجمات الإسبان، لو لم يكن لها جيش منظم قوي أولاً، تسانده جموع المتطوعة في سبيل الله التي ترى أن بقاءها مقتصر على حملها للسلاح ثانياً. وقوة هذا الجيش النصري تعتمد على: جودة التحصينات النصرية في مملكة غرناطة التي تتألف من الأبراج والحصون والقلاع وبخاصة أبراج الطلائع وهي أبراج للمراقبة[223].

كان السلطان النصري قائداً للجيش أو يعهد بقيادته إلى أفراد الأسرة الحاكمة، أو أشهر رجالات الدولة، وقد عني السلاطين بهذا الجيش الذي يتوقف عليه بقاء المملكة، وأنشأوا له ديواناً يرعى مصالحه[224].

وبجانب الجيش النصري توجد مشيخة الغزاة: وتتألف من المجاهدين المغاربة الذين أرسلتهم الدولة المرينية إلى مملكة غرناطة لمساعدتها في حروب الجهاد، ولها رئيس من بني مرين يسمى بشيخ الغزاة، وكان لهذه المشيخة دور مشرّفٌ في معارك الجهاد بالأندلس[225]، ومع هذا زجوا أنفسهم في الخلافات الداخلية مع سلاطين بني الأحمر[226]. وفي أواخر العصر النصري وبعد اشتداد الضغط الإسباني على مملكة

---

(220) ابن القطان، نظم الجمان، ص 96 ـ ابن الآبار، الحلة، جـ 2، ص 193.

(221) ينظر، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 490 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 236 وما بعدها.

(222) أبو رميلة، علاقات، ص 255 وما بعدها.

(223) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 115، ص 125.

(224) فرحات، غرناطة، ص 87.

(225) ينظر، ابن خلدون، العبر، جـ 7، ص 771 ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 2، ص 16، ص 38 ـ المقري، نفح، جـ 4، ص 385 ـ عنان، نهاية الأندلس، ص 107.

(226) ينظر، ابن الخطيب، اللمحة البدرية، حيث يذكر شيخ الغزاة عند كلامه عن سلاطين غرناطة.

غرناطة عمد رؤساء الجند إلى إنشاء فرق صغيرة لها تنظيمها الخاص وهي شبه مستقلة عن الجيش النظامي، تباغت معسكرات العدو وتلحق به الدمار(227). وفي أواخر العهد النصري أيضاً ظهر سلاح البارود في مملكة غرناطة، وعند الإسبان، فكانت المدن تختزن منه كميات كبيرة، كما دخلت المدفعية ميادين الحرب في مجال الدفاع عن المدن(228).

التعبئة العسكرية في الأندلس:

فتح المسلمون الأندلس (92 ـ 95هـ) وأفادوا من وديان أنهارها الممتدة على هيئة خطوط مستعرضة بين الشرق والغرب، وجعلوا منها خطوطاً دفاعية لحماية دولتهم من أخطار الدول الإسبانية. فاتخذوا من وادي نهر الأبرو خطاً دفاعياً أول وسموه بالثغر الأعلى، كما اتخذوا من وادي نهر التاجة خطاً دفاعياً ثانياً وسموه بالثغر الأوسط والأدنى(229). وقد كان الثغر الأعلى أسبق الثغور الأندلسية في الظهور، وبخاصة بعد انتهاء موسى بن نصير وطارق بن زياد من إتمام فتح الشمال الإسباني، فظهر الثغر الأعلى مجاوراً لأرض العدو وهي بلاد فرنسا، وامتد هذا الثغر في عصر الولاة (95 ـ 138هـ) إلى مدينة أربونة التي تعتبر أقصى ثغر بالأندلس(230). أما الثغران الأوسط والأدنى فقد ظهر بعد قيام الممالك الإسبانية من الركن الشمال الغربي من إسبانيا وبداية توسعها على حساب أراضي الأندلس وبخاصة عند بداية عصر الإمارة. وبذلك بدأ الصراع المستمر بين المسلمين والإسبان ولهذا اعتبرت الأندلس في نظر المسلمين ثغراً للدولة الإسلامية وأرضاً للجهاد والمرابطة، ولقد فرض هذا الوضع عليها أن تجند أبناءها منذ الصغر ليكونوا على أهبة الاستعداد(231). ولما لم يكن في الأندلس بادىء الأمر جيش نظامي قائم بذاته فقد كانت القبائل العربية والبربرية التي سكنت الأندلس تمد الدولة بالجيوش اللازمة للجهاد. وقد استمر هذا النظام العسكري إلى أيام الأمير الحكم (180 ـ 206هـ)، فقد رأى هذا الأمير أن يؤسس فرقاً من الجيش النظامي وبخاصة بعد فشل حركة الربض عام 202هـ التي قام بها الفقهاء، والتي كادت تطيح بعرشه، فكون

---

(227) فرحات، غرناطة، ص 90.

(228) فرحات، غرناطة، ص 95.

(229) البكري، جغرافية الأندلس، ص 95 (هامش 4).

(230) تقويم البلدان، ص 183.

(231) السامرائي، «التعبئة العسكرية»، ص 40.

لنفسه فرقة من الحرس الخاص عرفوا باسم الصقالبة، وسموا أيضاً الخرس لعجمة ألسنتهم[232].

إن معظم الحملات العسكرية التي خرجت من قرطبة إلى الشمال الإسباني كان لها نظام خاص في التجمع والسير. فكان النفير العام يعلن في جميع أنحاء البلاد للخروج إلى الجهاد، فيتوافد الجنود من مختلف ولايات الأندلس متجهين إلى العاصمة. وفي منطقة في شرقي قرطبة كان يعسكر هذا الحشد الكبير في مكان متسع يسمى (ساحة العرض أو ساحة الحشد أو فحص السرادق)[233]. وبعد أن يكتمل شمل الجنود يخرج إليهم الأمير الأموي من قصره وسط الهتاف والتكبير فيعسكر مع جنده ويستعرض أسلحتهم المختلفة، ويعين قائد الحملة. وقبل الرحيل كان الأمير أو الخليفة وجنوده يقيمون صلاة عامة في المسجد الجامع بقرطبة، يتبعها الدعاء بالنصر، ثم يخرج الجيش براياته وأعلامه إلى الجهة المرسومة له. وخلال سيره ينضم إليه قواد وأمراء الثغور الأندلسية وعمال المدن بجيوشهم وأتباعهم، ثم يتقدم الجميع لملاقاة العدو[234].

ولما كانت المنطقة التي يسير فيها الجيش من مناطق الثغور إلى الممالك الإسبانية، منطقة جبلية وعرة، فكان من العادة أن يتقدم الجيش فرقة استطلاعية لمعرفة أخبار العدو ومعرفة المسالك والممرات الصحيحة بين الجبال الوعرة، ويختار لهذه المهمة الرجال الموثوق بأمانتهم وإخلاصهم لتهيئة المسالك الصالحة لسير الجيش وسط هذه الجبال الوعرة ـ وقد صادف خلال سير العمليات العسكرية إلى الشمال الإسباني، أن الجيش الأندلسي في إحدى حملاته ضل الطريق فأصابه كبير عناء، ومات عدد كبير من أفراده وذلك في عام 178هـ[235].

ويبدو ومن سير العمليات العسكرية أن المسلمين في الأندلس أثناء لقائهم العدو ـ وعلى عادة المسلمين في حروب الجهاد. يرددون شعارات إسلامية معينة تحفزهم على الاستبسال في الجهاد. فتذكر بعض الروايات أن مسلمي الأندلس كانوا يرددون شعار (يا محمد) ﷺ بينما الإسبان يرددون شعار (ياسنتياجو)[236]، وكانوا يتصايحون ويولولون

---

(232) ينظر، ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 277 ـ العبادي، الصقالبة في إسبانيا، ص 7 ـ 11.

(233) ابن حيان، المقتبس، تح الحجي، ص 43 ـ سالم، تاريخ المسلمين، ص 300.

(234) السامرائي، «التعبئة العسكرية»، ص 40.

(235) ابن الأثير، الكامل، جـ 6، ص 144.

(236) العبادي، «صور لحياة الحرب والجهاد»، مجلة البينة، العدد 9، ص 92.

ليضعفوا قلوب المسلمين[237]. وسنتياجو هذا هوالقديس يعقوب أحد أتباع السيد المسيح عيله السلام، الذي اخترع الإسبان وجوده في أقصى شمال غربي إسبانيا لتعزيز مقاومتهم ضد المسلمين، وقامت حول هذا المزار مدينة نمت بسرعة هي مدينة شنت ياقب المقدسة[238]، وغدا هذا المزار من أشهر المزارات الإسبانية. وعندما يفكر الإسباني في سنتياجو فإن قلبه ينبض بالعزة الوطنية وتتملكه الحماسة الدينية[239]. وقد أقسم أكثر من ملك أو قائد إسباني بأنه رأى سنتياجو رأي العين قبل المعركة أو خلالها ممتطياً جواداً أبيض وملوحاً بسيف براق، ثم يأخذ في معاونتهم على قتال المسلمين في المعركة حتى يكتب لهم النصر، ولهذا أطلقوا عليه إسم قاتل المسلمين[240].

وقد زودتنا الروايات بمعلومات جيدة عن تعبئة الجيش الأندلسي عند لقاء العدو، حيث يتقدم الرجالة بدروعهم ورماحهم الطوال، وخلفهم الرماة المهرة، ثم تليهم الخيالة. كما وصفت هذه الروايات التعبئة العسكرية التي يتمسك بها كل قسم من أقسام هذا الجيش، وأشارت إلى وجود مبارزات فردية قبل وقوع المعركة[241]. وقد وضحت صور التعبئة العسكرية الأندلسية عندما أصبحت الأندلس ولاية مرابطية وولاية موحدية.

كان ترتيب المعركة عند المرابطين يقوم على نظام خماسي، فيتقدم الجيش الجند المشاة ووحدات الفرسان الخفيفة وحملة القسي والرماة، ويرتبون في الجناحين. ويتكون القلب من وحدات الفرسان الثقيلة، وهي التي تحسم المعركة عموماً، وكانت قوات المؤخرة يقودها أمير المسلمين ـ إذا كان مصاحباً للجيش ـ أو قائده المكلف، وتتألف من صفوة الجند وقوى الحرس الخاصة، وكان لكل قسم من القوات المقاتلة قائده الخاص[242]. وقد طبق هذا النظام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة. فقسم الجيش إلى مقدمة وعليها المعتمد بن عباد، وميمنة وعليها المتوكل بن الأفطس، وميسرة وعليها أهل شرقي الأندلس ومؤخرة وعليها سائر أهل الأندلس. أما المرابطون فجعلهم في كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء[243]. وقد قضى الليل

---

(237) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 177.
(238) الحميري، الروض المعطار، ص 115.
(239) لودر، إسبانية شعبها وأرضها، ص 61.
(240) السامرائي، «التعبئة العسكرية»، ص 41.
(241) الطرطوشي، سراج الملوك، ص 331 وما بعدها.
(242) عنان، عصر المرابطين، ص 418 ـ 419.
(243) الحلل الموشية، ص 47.

كله يرتب الصفوف ويعد العدة لكل احتمال حتى أنه غير مواضع قواته دون أن يشعر به أحد[244]. وعندما تقدمت طلائع الإسبان بقيادة البرهانس وهاجمت القوات الأندلسية من أجل القضاء عليها لكي تتفرغ لمهاجمة الجيش المرابطي والقضاء عليه[245]. إلا أن يوسف بن تاشفين أنقذ الجيش الأندلسي بإمداده بقوات مرابطية بقيادة داود بن عائشة، وأردفها بأخرى بقيادة سير بن أبي بكر[246]، وعمل يوسف بن تاشفين على تطويل المعركة من أجل إجبار الإسبان على ترك مواقعهم. وبالفعل تركت الجيوش الإسبانية مواقعها وتتبعت قوات أهل الأندلس، فباغت أمير المرابطين معسكر الإسبان من الخلف واستولى عليه وأضرم فيه النار، فاضطرت القوات الإسبانية إلى التراجع لإنقاذ معسكرها. وما كاد جيش أهل الأندلس يعلم بذلك حتى انقلب من الفرار إلى الهجوم وأطبق على الإسبان من الخلف، فأصبحوا بين القوات الأندلسية والقوات المرابطية[247]. وأردف بطل المعركة هذه الخطة، بخطط عسكرية أخرى ألقت الرعب في صفوف الإسبان، فقد نظم يوسف بن تاشفين فرق من المشاة السودان المسلحين بالسهام ودرق اللمط[248]، والذين طعنوا خيول الإسبان بسهامهم فجمحت بركابها وولت الأدبار، كما تتبع بعضهم الفونسو السادس وطعنه في إحدى ركبتيه[249]. كما استعمل يوسف بن تاشفين الجمال التي أرعبت خيول الإسبان، واستعمل الطبول التي كان لها دويّ مرعب تهتز له الأرض، وترتعد له فرائص الفرسان[250].

ومعنى هذا أنه طبق معظم الخطط العسكرية المرابطية في هذه المعركة التي أحرز بها المسلمون النصر المبين على مملكة قشتالة عام 479هـ.

واهتمت الدولة الموحدية بالجيش وأوكلت شؤونه إلى ديوانين، الأول يسمى ديوان العسكر ويشرف على كل ما يتعلق بشؤون الجيش، والثاني ديوان التمييز، وهو جهاز تطهير الخصوم والمتخاذلين وإبعادهم من الجيش. وكان الخليفة الموحدي عندما يعتزم الجهاد يقوم بزيارة قبر مهدي الموحدين، وقبور آبائه في منطقة تينملل، يستمد من هذه

---

(244) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 94.
(245) محمود، قيام دولة المرابطين، ص 277.
(246) ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 138 ـ الحميري، الروض المعطار، ص 92.
(247) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 95 ـ 96 ـ السامرائي، علاقات، ص 178.
(248) ابن خلكان، وفيات، جـ 2، ص 367.
(249) ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 138.
(250) السامرائي، علاقات، ص 179.

الزيارة البركة والتشجيع[251]. واعتمدت الجيوش الموحدية خطة المربع في التعبئة العسكرية وخلاصتها: تصنع دارة مربعة في بسيط المعركة، يقف من جهاتها الأربع صف من الرجال بأيديهم القنا الطوال، ومن ورائهم أصحاب الدروق والحراب صفاً ثانياً، ومن ورائهم أصحاب المخالي المملوءة بالحجارة صفاً ثالثاً، ومن وراء هؤلاء الرماة رابعاً. وفي وسط المربعة ترابط قوى الفرسان. وكانت صفوف الفرسان تخصص لها أمكنة معينة في جميع جوانب المربع، وتفتح لها مخاريج سريعة تستطيع أن تنطلق منها ثم تعود إلى أماكنها الداخلية دون أن تخل بنظام المشاة.

وعند المعركة يقوم بالهجوم الأول قوات المتطوعة المجاهدة، تؤازرها القوات الخفيفة، فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء، وأن يتقدم حتى مواقف الجنود النظامية، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدي الذي لا يخترق، واستقبله الرماة من حملة القسي والنبال بسيل من الحجارة والسهام. وإذا استطاع العدو أن يخترق الصف الأول وهم حملة الحراب استقبله حملة السيوف والدروع، ويبادر الفرسان إلى معاونتهم. وإذا استطاع العدو بعد كل ما تقدم، أن يتغلب على القلب والجناحين، فعندئذ يقوم الجيش الموحدي بالضربة الأخيرة، وتتقدم قوات الضلع الرابع من المربع وهي الاحتياطي المكون من صفوة الجند ولا سيما الحرس الخاص ويقودها الخليفة بنفسه، وهذه القوة الاحتياطية (الساقة) كثيراً ما تحرز النصر للقوات الموحدية، وكانت هذه القوة كثيراً ما تمتنع داخل نطاق من السلاسل الحديدية، تبرز من خلالها الحراب الطويلة، فتتصدى للعدو في حالة الاقتراب منها[252]. وعندما يعبىء الخليفة الموحدي جيشه للقتال تنصب له قبة حمراء يرفع فوقها العلم الموحدي الأبيض، وتحاط بالسلاسل الحديدية الضخمة، وعادة تضرب هذه القبة في مؤخرة الجيش، ويحف بها الحرس الخاص الذين يحملون الرماح الطويلة. وكان الخليفة الموحدي متى ما رأى قواته خلال المعركة في حاجة إلى العون يقود الساقة (المؤخرة) بنفسه ويشد أزر قواته، ويعاونها بذلك على إحراز النصر.

وقد تقع الكارثة فيهلك الخليفة كما حدث لأبي يعقوب يوسف في نكبة شنترين، أو يلجأ إلى الفرار، كما حدث للناصر في موقعة العقاب[253].

واستعملت الطبول في الجيش الموحدي، وكانت تضرب عند الرحيل وعند بدء

---

(251) ينظر، عنان، عصر الموحدين، ص 638.

(252) ينظر، أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 448، عنان، عصر الموحدين، ص 634.

(253) عنان، عصر الموحدين، ص 636 ـ ينظر، روض القرطاس، ص 239.

المعركة(254). واعتمد الجيش الموحدي على نظام التطوع أيضاً، وتسمى جموعهم بالمطوعة(255).

وأهم ما تمتاز به الجيوش الموحدية تفوقها في فن الحصار، ومقدرتها على اقتحام المدن المنيعة، ورأينا لهم أمثلة بارزة في حوادث حصار وهران والمهدية بالمغرب، وحصار طرش وحصن القصر (قصر أبي دانس) وشلب بالأندلس. ومما يلفت النظر أن الموحدين لم يقتصروا على استعمال الآلات القديمة في الحصار، بل استعملوا آلات جديدة قاذفة، تقذف الحجارة والكرات الحديدية الملتهبة. فنراهم في حصار لبلة بالأندلس استخدموا آلات تقذف الحديد والحجارة على القوات الإسبانية، وكان يصحبها دوي كالرعد(256).

وفي مملكة غرناطة، يتألف الجيش النصري من أقسام أو مجاميع. وكل مجموعة تتألف من خمسة آلاف محارب لها أمير، ولها راية كبيرة تميزها، والمجموعة تقسم إلى خمس وحدات، وكل وحدة تتألف من ألف محارب لها قائد، ولها علم أصغر حجماً من الراية. ثم إن كل وحدة تقسم بدورها إلى خمس فرق، وقوام كل فرقة مئتا محارب يقودها نقيب يحمل لواء الفرقة. والفرقة تقسم إلى خمسة أقسام صغيرة، كل قسم يتألف من أربعين رجلاً، وعلى رأس كل قسم عريف يحمل بنداً مميزاً. والقسم يتفرع إلى مجموعات أو زمر تتألف من ثمانية جنود يرأسها نظير، ويربط في رأس رمحه قطعة قماش تسمى العقدة، والتحرك العسكري لهذه الأقسام يجري وفق أوامر تصل من الأعلى إلى الأدنى(257).

ويلتحق بالجيش مجموعة الأدلاء الذين كانوا في الغالب من سكان المناطق الحدودية ذوي الخبرة بمسالك البلاد. كما كان سلاطين غرناطة يبثون العيون داخل الممالك الإسبانية لمعرفة أخبارها وبخاصة العسكرية، ويمنحون عيونهم هؤلاء المكافآت ويعفونهم من الضرائب لأنهم في الغالب ما يكونون من التجار اليهود والإسبان(258). وقد زودتنا بعض الروايات بملابس وأسلحة الجيش النصري وفرسان مشيخة الغزاة(259).

---

(254) الحلل الموشية، ص 115.

(255) عنان، عصر الموحدين، ص 637.

(256) عنان، عصر الموحدين، ص 493، ص 640.

(257) فرحات، غرناطة، ص 91 ـ 92.

(258) أيضاً، ص 91.

(259) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 23 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 223.

وكانت خطة الهجوم التي تعتمدها القوات النصرية هي الغارات السريعة في عمق أرض العدو مع تجنب اللقاء بالجيش النظامي. وفي المعارك النظامية حافظ الفرسان المغاربة على الأساليب التقليدية، فاعتمدوا طريقة الكر والفر والدوران حول العدو ومباغتة نقاط الضعف فيه[260].

البحرية:

لما كان مضيق جبل طارق فاصلاً بين عدوة المغرب وبلاد الأندلس، فإن الحملات الاستطلاعية الأولى التي قادها أبو زرعة طريف بن مالك، وحملات الفتح التي قادها طارق بن زياد وموسى بن نصير، ومن ثم تعاقب الجيوش من وإلى الأندلس، فإن كل هذه الأمور تحتاج إلى أساطيل كبيرة لنقل المجاهدين وخيولهم وعتادهم، ولم يقتصر الأمر في أداء هذه المهمة على مراكب يوليان حاكم سبتة[261]، ولا على مراكب تجار الروم التي كانت تختلف إلى الأندلس[262].

بل كان الاعتماد الأول وقبل كل شيء على الأساطيل العربية التي كانت تحت إمرة موسى بن نصير على طول الساحل المغربي[263]. وقد قدمت دراسات مطولة حول هذا الأمر وحول إحراق طارق بن زياد للسفن، وكل أبدى رأيه[264].

وعندما أكمل المسلمون فتح الأندلس (92 ـ 95هـ) وبدأ عصرالولاة 95 ـ 138هـ أطلت جيوش المسلمين على سواحل أندلسية طويلة، تشرف على البحر المحيط (الأطلسي) وخليج بسكاي، وعلى البحر المتوسط، مما يجعلها عرضة لأي هجوم بحري أوروبي معادي. ولذا اعتمد المسلمون على دور الصناعة القديمة التي وجدوها في طرطوشة وطركونة ودانية وإشبيلية والجزيرة الخضراء، كما استفادوا من خدمات الخشب والحديد اللازمة لبناء السفن، فكان ذلك ولا زال موجوداً في الأندلس[265]. ولدينا خبر يشير إلى توفر وجود السفن أو صناعتها في الأندلس بعد فتحها، مفاده أن

---

(260) ينظر، ابن خلدون، المقدمة، ص 271 ـ فرحات، غرناطة، ص 94.

(261) مجهول، أخبار مجموعة، ص 6 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 238.

(262) ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص 8.

(263) العبادي، دراسات، ص 17.

(264) الحجي، التاريخ الأندلس، ص 62 ـ السامرائي، «طارق بن زياد بين الخطبة وإحراق السفن» مجلة آفاق جامعية عام 1977.

(265) ينظر، الحميري، الروض المعطار، ص 102، ص 110، ص 124.

عياش بن شراحيل «دخل الأندلس وقدم بالسفن منها إلى إفريقية ستة مئة»[266].

وعندما أراد بلج بن بشير القشيري العبور إلى الأندلس، ورفض واليها ذلك صنع بلج قوارب ركبها أتباعه، فهاجموا دار الصناعة بالجزيرة الخضراء، وأخذوا ما فيها من المراكب والسلاح فرجعوا بها إليه، وبعد ذلك استخدمها في عملية العبور إلى الأندلس، كما هو معروف[267].

وخلال عصر الولاة، عندما قررت جيوش الفرنجة استرجاع مدينة أربونة عام 120هـ، وكان عاملها عبد الرحمن بن علقمة القائد المشهور، فلما وصلت هذه الأنباء إلى والي الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي أرسل جيشاً بحرياً لنجدتها بقيدة عامر بن الليث[268]. وقدم هذا الجيش عن طريق البحر نظراً لوجود قبائل البشكنس والقبائل الجبلية الأخرى على طول جبال البرتات والتي تكون حائلاً أو خطراً على الجيش الأندلسي الذاهب إلى فرنسا[269]. فلما عرف جيش الفرنجة بقدوم هذا الجيش هاجموه بغتة وقتلوا القائد وانهزم بعض المسلمين إلى أربونة، والبعض الآخر ركبوا سفنهم وقد تعقبتهم بعض مراكب الفرنجة وأصابوا الكثير منهم[270]. وعلى الرغم من أن الأسطول الأندلسي لم يكن قوياً في هذا العصر، حيث ظهر الاهتمام به في عصر الإمارة، فمن المؤكد أن مدن برشلونة وطركونة البحرية قد ساهمت في إرسال سفن النجدة لفك حصار أربونة، هذا إذا علمنا أن مثل هذه المدن كان يكمن عندها المسلمون عند «طلب الفرصة في الغزو»[271].

وأدرك الوالي يوسف الفهري (129 ـ 138هـ) خطورة وضع المسلمين في أربونة المحاصرة من قبل الجيوش الفرنسية، فأرسل جيشاً بقيادة ابنه عبد الرحمن لضبط المدينة وما يليها[272]. فلم يوفق هذا الجيش في مهمته وذلك بسبب المقاومة الشديدة التي أبدتها القبائل الإسبانية على طول جبال البرتات[273]، ويبدو أن المسلمين لم يستخدموا

---

(266) الحميدي، جذوة، ص 322 (رقم 742) ـ ابن الفرضي، تاريخ، رقم 1014.

(267) ابن القوطية، تاريخ، ص 16.

(268) رينو، غزوات، ص 138 ـ سالم، تاريخ المسلمين، ص 148 ـ مؤنس، فجر الأندلس، ص 283.

(269) السامرائي، الثغر الأعلى، ص 144.

(270) رينو، غزوات، ص 138 ـ مؤنس، فجر الأندلس، ص 283.

(271) الحميري، الروض المعطار، ص 126.

(272) سالم، تاريخ المسلمين، ص 150.

(273) رينو، غزوات، ص 144.

البحر هذه المرة، لأن الفرنسيين سيطروا على مدينة ماجلون التي تعتبر مرسى أميناً للسفن الإسلامية القادمة من إسبانيا[274]، وبعدها سقطت أربونة بيد الفرنسيين عام 141هـ، كما هو معروف.

وفي عصر الإمارة، 138 ـ 316هـ، اهتم الداخل بثغر الجزيرة الخضراء وعهد إدارتها إلى الرماحس بن عبد الرحمن (والي شرطة مروان بن محمد)، واشتهر أفراد هذا البيت بقيادة الأسطول الأندلسي على عهد الأمويين[275]. كما اعتمد الأمويون بالأندلس على اليمنيين القضاعيين في الأمور البحرية في باديء الأمر، وأنزلوهم في المناطق الساحلية الشرقية وعهدوا إليهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ السواحل، وقد سمي هذا الإقليم بـ (أرش اليمن أي أعطيتهم من الأرض) وكانت بجانة أهم قاعدة لهم في هذا الإقليم[276]، ولذا لقب أهلها بالبحريين[277]. وكان بيت بني الأسود من البيوت البحرية المشهورة في مدينة بجانة، وقد ظهر اسم خشخاش ووالده سعيد بن أسود ضمن قادة الأساطيل التي قاتلت النورمان في عهد الأمير محمد الأول، وسوف نذكرهم فيما بعد. وازداد النشاط البحري في عهد الأمير هشام الأول (172 ـ 180هـ) على الساحل الشرقي للأندلس، وكان قوام هذا النشاط حملات بحرية قام بها جماعات من البحارة والمجاهدين، هاجموا فيها بعض الثغور والجزر القريبة[278]. وقد زاد هذا النشاط أيضاً في عهد الأمير الحكم (180 ـ 206هـ) حيث ذكرت بعض الروايات؛ بأن الحكم الأول وجه حملتين إلى الجزائر الشرقية عام 182هـ وعام 200هـ[279]، مع نشاط بحري. هاجم جزر كورسيكا وسردينية وإيطاليا في عام 190هـ، وعام 191هـ، وعام 193هـ[280]. وفي عام 205هـ خرج أسطول أندلسي من ثغر طركونة وسار صوب جزيرة سردينية، فتصدى له أسطول فرنسي، فتغلب عليه الأسطول الأندلسي وأغرق ثمانية مراكب منه وأحرقوا مراكب أخرى[281]. ولما فتح الأغالبة جزيرة صقلية عام

(274) طرخان، المسلمون في أوروبا، ص 163.
(275) العذري، نصوص عن الأندلس، ص 81.
(276) الحميري، الروض المعطار، ص 37 ـ 38 ـ العبادي، دراسات، ص 248.
(277) العذري، نصوص، ص 86.
(278) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 266 ـ السامرائي، «الجزائر الشرقية»، ص 157.
(279) طرخان، المسلمون في أوروبا، ص 103.
(280) محمود إسماعيل، الأغالبة سياستهم الخارجية، ص 154 ـ 155 ـ العدوي، الأساطيل العربية، ص 76.
(281) رينو، غزوات، ص 190 ـ 191.

212هـ، بدأت الأساطيل البيزنطية تهاجم القوات الإسلامية فيها، ففي عام 214هـ وجه الأمير عبد الرحمن الأوسط (206 ـ 238هـ) حملة بحرية خرجت من ميناء طرطوشة إلى صقلية لتعزيز الحامية الإسلامية فيها[282].

وفي عام 221هـ خرج أسطول أندلسي من ثغر طركونة والجزائر الشرقية، وهاجم مرسيلية وما حولها وأثخن فيها، فكانت هذه الحملة مقدمة لحملات أخرى متعاقبة أفلحت في إقامة مراكز عربية في جنوب فرنسا وشمالي إيطاليا[283]. ويبدو لنا أن الجزائر الشرقية (البليار) عقدت عهداً مع حكومة الإمارة، على الأقل فيما يتعلق بشؤون البحر، ودليلنا على ذلك أن الأمير عبد الرحمن الأوسط سير أسطولاً من ثلثمائة مركب عام 234هـ إلى أهل الجزائر الشرقية لنقضهم العهد، وإضرارهم بمن يمر بهم من مراكب المسلمين[284]. ويبدو أنها كانت حملة تأديبية وليست فتحاً منظماً بدليل قدوم رسالة من أهل الجزائر إلى الأمير في عام 235هـ يستعطفون فيها الأمير ويطلبون السماح، فاستجاب لهم[285].

مع كل هذا، فإن البحرية الأندلسية كانت لا تزال محدودة في إمكانياتها ووسائلها، فلم تكن لديها القواعد والمحارس والسفن الكافية لحماية جميع سواحلها ولا سيما الغربية منها، ولهذا عجزت عن حمايتها عندما هاجمتها أساطيل النورمان عام 229هـ وعاثت فساداً في السواحل الغربية، وفي مدينة إشبيلية[286]. ولما كان الأسطول الأندلسي مرابطاً على الساحل الشرقي، فقد اعتمدت حكومة الإمارة في صد خطر النورمان على جيوشها البرية، واستعانت بقوات من الثغر الأعلى المدربة على حرب العصابات[287].

وكان لهذا الهجوم النورماني أثر كبير على الأندلس، حيث أدى إلى الاهتمام بالسواحل الغربية للأندلس وبناء التحصينات فيها، حيث بني سور إشبيلية[288]، كما

---

(282) ابن الأثير، الكامل، جـ 6، ص 238 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص 104 ـ مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط، ص 100.

(283) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 266.

(284) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 1، ص 89 ـ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 18.

(285) ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 4 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 89.

(286) العذري، نصوص عن الأندلس، ص 98 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 87 ـ ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 49 ـ مؤنس، غارات، ص 31.

(287) السامرائي، الثغر الأعلى، ص 273.

(288) البكري، جغرافية الأندلس، ص 112 ـ الحميري، الروض، ص 20.

أنشأوا الرباطات على السواحل وأصبحت مركزاً للجهاد(289)، وكانت النتيجة المهمة هي إنشاء دار صناعة إشبيلية، وإنشاء المراكب، وزودها بالآلات وقوارير النفط، ووسع على رجال البحر المدربين(290).

وفي عهد الأمير محمد الأول (238 ـ 273هـ) عاد النورمان مرة أخرى وهاجموا ساحل الأندلس في (62) مركباً عام 245هـ، فوجدوا هذه السواحل قد حرست بالسفن الحربية، وحاولوا اختراق نهر إشبيلية فلم يفلحوا، ثم واصلوا سيرهم إلى الجزيرة الخضراء وأحرقوا مسجد الرايات فيها، ثم عاثوا فساداً في الساحل الإفريقي، ثم توجهوا صوب الساحل الشرقي للأندلس، فاشتبكوا مع القوات الأندلسية في عدة معارك بحرية وبرية، ثم ساروا إلى بلاد فرنسا، وأمضوا فصل الشتاء هناك، ثم رجعوا إلى الجنوب بمحاذاة الساحل الشرقي للأندلس(291). وأثناء رجوع سفن النورمان هذه هاجمتها الأساطيل الأندلسية عند مدينة شذونة، وأسرت مركبين من مراكبهم(292)، وأحرقت مركبين آخرين، واستشهد جماعة من المسلمين(293). ثم سارت مراكب النورمان شمالاً وهاجمت بنبلونة عاصمة النافار وأسرت ملكها غرسية بن ونقة، والذي افتدى نفسه بالمال(294). ثم ظهر النورمان مرة ثانية في عهد هذا الأمير عام 247هـ قرب شواطىء الأندلس، لكنهم وجدوا هذه السواحل قد حرست بالسفن الحربية، كما أن أمواج البحر دمرت لهم 14 مركباً ولم يظفروا بشيء ورجعوا إلى بلادهم(295).

وفي عهد الأمير عبد الله (275 ـ 300هـ) قام جماعة من المجاهدين الأندلسيين يقدرون بحوالي عشرين شخصاً في عام 276هـ، ونزلوا الساحل الفرنسي، ولجأوا إلى غابة كثيفة، ثم سيطروا على المناطق المجاورة واستقروا بها، ودعوا إخوانهم من الثغور البحرية للقدوم إليهم، وأرسلوا في طلب العون والتأييد من حكومات المغرب

---

(289) مؤنس، غارات، ص 41 ـ العبادي، دراسات، ص 296 وما بعدها.

(290) ابن القوطية، تاريخ، ص 88 ـ العبادي، دراسات، ص 263.

(291) ينظر، العذري، نصوص، ص 119 ـ ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 308 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 97 ـ ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي ـ ص 173 ـ 174.

(292) النويري، نهاية الأرب، جـ 22، ص 54.

(293) ابن الأثير، الكامل، جـ 7، ص 90.

(294) ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 309 ـ العذري، نصوص، ص 119 ـ السامرائي، الثغر الأعلى، ص 280.

(295) ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 311 ـ العذري، نصوص، ص 119.

والأندلس[296]. وعلى مر الزمن أنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون أشهرها قلعة فراكسنتيوم الواقعة شمالي مدينة طولون[297]، والتي يسميها الجغرافيون المسلمون باسم دويلة جبل القلال[298]. واستمرت هذه الدويلة إلى عام 365هـ، وسيطرت على مناطق مهمة من فرنسا وسويسرة وشمالي إيطاليا[299].

وفي عهد هذا الأمير سير قوة بحرية عام 290هـ إلى جزيرة ميورقة بقيادة عصام الخولاني، الخبير بشؤون هذه الجزيرة، فحاصرها أياماً وفتحها، وبذلك أصبحت هذه الجزائر ولاية جديدة تابعة للأندلس وتولى أمرها عصام الخولاني 290 ـ 300هـ[300].

وفي عصر الخلافة 300 ـ 422هـ، نرى أن الإمبراطور البيزنطي بالتعاون مع هوجو ملك إيطاليا وبروفانس، حاولوا استرجاع قلعة جبل القلال عام 331هـ، فهاجموها براً وبحراً، إلا أن الاضطرابات الداخلية في مملكة إيطاليا أجبرت هوجو على الانسحاب ومهادنة المسلمين فيها[301].

ويفهم من رواية العذري أن أسطولاً أندلسياً كبيراً بقيادة محمد بن رماحس ومعه غالب بن عبد الرحمن وسهل بن أسيد خرج من ثغر المرية وغزا سواحل إفرنجة في عام 331هـ، إلا أن عاصفة هوجاء قذفت به بعيداً عن تلك السواحل[302]. ويعتقد أن هذه العمليات البحرية التي قام بها الأسطول الأندلسي، كانت تهدف إلى معاونة قاعدة جبل القلال[303]. وقد جرت مراسلات وسفارات طويلة بين حكومة الناصر بالأندلس وبين أوتو الأكبر إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة حول أمر هذه القاعدة. على أية حال فإن أمر هذه السفارة استمر إلى سنة 344هـ، لحصول مشكلة دبلوماسية[304].

---

(296) ينظر، السامرائي، الثغر الأعلى، ص 263.

(297) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 313.

(298) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 185 ـ الحموي، معجم البلدان، جـ 1، ص 273.

(299) ينظر، رينو، غزوات، ص 208 وما بعدها ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 425 وما بعدها ـ El-Hajji, Andalussian, p: 207-227.

(300) ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 164 ـ السامرائي «الجزائر الشرقية»، ص 162.

(301) العبادي، دراسات، ص 271.

(302) نصوص، ص 81.

(303) العبادي، دراسات، ص 272.

(304) رينو، غزوات، ص 228 وما بعدها ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 415.

وبين الخليفة الناصر للسفير الأوروبي بأن حكومته ليست لها أية علاقة ولا أية سلطة على جبل القلال، وأنها لا تتحمل تبعة أعمالها. وبذلك أعطت خلافة قرطبة للسلطات الألمانية مطلق الحرية في اختيار السبل المناسبة لعلاج هذه المشكلة[305]. وفي عهد الخليفة الناصر تولى عبد الله بن عصام الخولاني حكم الجزائر الشرقية 300 ـ 350هـ[306]. ويبدو أن هناك عمالاً تولوا إمارة الجزائر الشرقية خلال هذه الفترة، ومن أشهرهم، رشيق مولى الناصر (مات غريقاً عام 343هـ)، وكذلك جعفر بن عثمان المصحفي الذي تولى أمر الجزائر عام 333هـ[307].

وأمر الخليفة الناصر عام 344هـ بتأسيس مدينة المرية لتكون القاعدة البحرية المهمة في شرق الأندلس، وأصبحت هي وبجانة بابي الشرق كما يقول ياقوت[308]. ونظم الخليفة الناصر شؤون البحرية فأنشأ عدداً كبيراً من دور الصناعة في مدن الأندلس: المرية ـ طرطوشة ـ الجزيرة الخضراء ـ مالقة وشلب وغيرها[309].

ونجح الأسطول الأندلسي في عصر الخلافة بإحباط محاولات المهدي الفاطمي ودعم حركة عمر بن حفصون عام 301هـ، ثم تمكن الأسطول الأموي من الاستيلاء على مدينة مليلة سنة 314هـ ومدينة سبتة عام 319هـ، وكذلك مدينة طنجة. وكرر هذا الأسطول هجومه البحري على بلاد عدوة المغرب عدة مرات في عام 333هـ وفي عام 345هـ[310].

وفي عهد الخليفة الحكم 350 ـ 366هـ فقد أكد على ناحيتين: الأولى الاحتفاظ بسيطرة الأندلس على مضيق جبل طارق، والثانية صد الخطر النورماندي.

وعندما تمرد الحسن بن كنون (من بقايا الأدارسة) عام 361هـ ضد الخليفة الحكم سير إليه الجيوش بقيادة وزيره محمد بن القاسم بن طلمس، ثم لحقت به الأساطيل الأندلسية بقيادة قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس. وفي البداية أحرزت القوات

---

(305) السامرائي، الثغر الأعلى، ص 264.

(306) ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 164.

(307) ينظر، ابن الآبار، التكملة، جـ 1، ص 13 ترجمة (رقم 16) ـ الحلة السيراء، جـ 1، ص 257 ـ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، جـ 1، ص 116 ترجمة رقم (154).

(308) معجم البلدان، جـ 5، ص 119.

(309) ينظر، أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية، ص 56 ـ 57.

(310) ينظر، العبادي، دراسات، ص 73 ـ أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية، ص 63.

الأندلسية النصر، إلا أن الهزيمة لحقت بها عام 362هـ وقتل الوزير القائد محمد بن القاسم، فاستاء الحكم لذلك فأرسل قوات الثغور إلى المغرب بقيادة الوزير القائد غالب ابن عبد الرحمن، عام 362هـ، ثم كتب إلى قائد أسطوله المرابط في طنجة عبد الرحمن ابن رماحس ومعاونيه سعد وقيصر، وغيرهم من القواد الدخول تحت أمرة القائد غالب. وعندما أبحر غالب بجيوشه من الجزيرة الخضراء هبت عاصفة شديدة فرجع إلى ساحل الجزيرة وبعد أيام تحسن الجو فعبر القائد بالأسطول إلى عدوة المغرب، وفي الوقت نفسه اتجه قائد البحر ابن رماحس بأسطوله من طنجة إلى أصيلا كي يتعاون مع الأسطول الأندلسي المرابط هناك، ولكي يكون قريباً من القائد الأعلى غالب، وقد امتدح الخليفة الحكم هذه الخطة. وبتعاون الجيوش المشتركة فشلت حركة الحسن بن كنون عام 363هـ، واستمرت الأندلس تفرض سيطرتها على مضيق جبل طارق[311].

وفي عهد الحكم المستنصر هاجم النورمان الأندلس عام 355هـ، فعاثوا فساداً في منطقة قصر أبي دانس، ودارت معارك بحرية بين الطرفين قتل فيها الكثير. وبعدها تمكن أسطول إشبيلية من اللحاق بالأسطول النورماندي عند مصب وادي شلب فحطم معظمه، واسترد أسرى المسلمين[312]. أما الغارات النورماندية الأخرى في عام 360هـ وعام 361هـ فيبدو أنها لم تستطع النزول إلى الشواطىء الأندلسية بفضل يقظة الأسطول الأندلسي الذي استطاع أن يبدد شملها بسهولة[313]. وفي سنة 364هـ استرد الفرنجة حصن فراكسنتيوم (جبل القلال)[314].

أما الجزائر الشرقية فتولى أمرها الموفق مولى الخليفة الناصر 350 ـ 359هـ وجاء من بعده كوثر مولى الخليفة الحكم (359 ـ 389هـ) ثم مقاتل مولى الحاجب المنصور 389 ـ 403هـ[315].

اهتم الحاجب المنصور بالأسطول، واستخدمه في تثبيت الحكم الأموي الأندلسي في عدوة المغرب، فبواسطة هذا الأسطول نقل القوات الأندلسية إلى المغرب والتي قضت على حركة الحسن بن كنون عام 375هـ، وعلى حركة الزعيم المغربي زيري بن

---

(311) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 244 ـ العبادي، دراسات، ص 279 وما بعدها.

(312) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 239.

(313) أيضاً، جـ 2، ص 239 ـ ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 314 ـ العبادي، دراسات، ص 286.

(314) العبادي، دراسات، ص 304 ـ 305.

(315) السامرائي، «الجزائر الشرقية»، ص 163.

عطية عام 389هـ. وكانت مدينة سبتة هي القاعدة البحرية الرئيسية للعمليات الحربية الأندلسية في المغرب، فقد اهتم المنصور بتحصينها وتزويدها بالرجال والسلاح(316).

واستخدم الحاجب المنصور بعض وحدات الأسطول في حملاته على ساحل قطلونية عام 374هـ، وفي نقل المشاة من جنوده في المحيط الأطلسي في حملته على جليقية عام 387هـ وهي الحملة التي دمرت مدينة شنت ياقب(317). وفي عام 387هـ أنشأ المنصور أسطولاً كبيراً في الموضع المعروف بقصر أبي دانس وحمل الأقوات والأسلحة إليه وجهزه بالبحارة المشهورين(318). وبعد أن تخلص المنصور من قادة البحر المشهورين عبد الرحمن بن رماحس، وغالب بن عبد الرحمن، لم يتول إمرة البحر من بعدهم ممن يملك كفاءتهم، فبدأ الأسطول الأندلسي بالأفول(319).

وجاء عصر الطوائف، وتقاسم ملوكه ورثة الأسطول الأندلسي واقتصر النشاط البحري على مراكز المرية ودانية والجزائر الشرقية في الشرق، وإشبيلية في الغرب.

استمرت المرية في رعايتها للأسطول سواء في ظل الزعيم الصقلي خيران العامري وأخيه زهير أو في ظل بني صمادح، ولكن هذا الأسطول لم يقم بعمل عسكري بحري كبير كما قام به أسطول دانية والجزائر الشرقية، ما عدا استخدامه للهروب إلى عدوة المغرب من قبل حاكم المرية معز الدولة بن المعتصم بن صمادح عام 484هـ.

استهوى البحر الأمير مجاهد العامري (400 ـ 436هـ)، وقرر أن يمد نفوذه البحري وراء هذه الجزائر، وكان نظره يصبو إلى سردينية. فجدد دار الصناعة القديمة. واستكثر السفن والمعدات الحربية. وبدأ مشروعه عام 406هـ، حيث سار بأسطول مؤلف من 120 مركباً بأحجام مختلفة، وأعطى قياده لأمير البحر (أبي خروب). وكانت المسافة بين دانية والجزائر الشرقية وبين سردينية تستغرق ثمانية أيام(320). وعندما وصل الأسطول الأندلسي لقي مقاومة من أهل الجزيرة، إلا أن القوات الأندلسية استطاعت فتح الجزيرة(321). وتم ذلك في ربيع الثاني عام 406هـ وبدأ مجاهد بتأسيس مدينة فيها،

---

(316) أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية، ص 73.

(317) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 295.

(318) العبادي، دراسات، ص 289.

(319) ينظر، العذري، نصوص، ص 82.

(320) ينظر، ابن الخطيب، أعمال، ص 219 ـ عنان، دول الطوائف، ص 190.

(321) جذوة المقتبس، ص 353.

وانتقل إليها بأهله وولده وبقي مجاهد وجيشه في سردينية ما يقارب سنة[322]. وبعدها بدأ مجاهد العامري بمهاجمة سواحل إيطاليا القريبة، فقررت المدن الإيطالية إحباط هذا المشروع وتحالفت مع البابا لتحقيق الأمر. فسارت الأساطيل الإيطالية والأوروبية فحاصرت الجزيرة. ومما أحرج مركز المسلمين فيها تمرد الجند المرتزقة الإسبان في أسطول مجاهد، مع هبوب العواصف العاتية. فحلت الهزيمة المنكرة بالأسطول الأندلسي عام 407هـ وقتل معظم رجاله، وأسر بعضهم ومنهم ولده علي وأمه (جود) الإسبانية، وأخوه وبعض نسائه[323]، ففشل هذا المشروع الكبير، وذكرت بعض الروايات أن مجاهداً العامري هاجم سردينية في عام 410هـ وعام 441هـ وأنه وقع أسيراً في أيدي الأعداء، وهذه روايات لا سند لها، لأن مجاهد توفي عام (436هـ)، إلا أنها تدل على مقدار الفزع الذي أثاره هذا البحار المغامر في سواحل البحر المتوسط الغربية والشمالية بعد حملة سردينية[324]. ومن الطريف، أن مجاهد العامري كان يحتفل بجزيرة ميورقة في صيف كل عام بعيد المهرجان (عيد العنصرة) في 24 حزيران، فيقوم الأسطول بعرض ومناورات وألعاب يحضرها مجاهد نفسه وأمراء الجزيرة فيما بعد، وقد امتدح الشاعر أبو بكر الداني المعروف بابن اللبانة هذا الاحتفال[325].

في الفترة المبكرة من عهد المرابطين ساهمت الخدمات البحرية التي قدمتها الأندلس وبخاصة إشبيلية إلى يوسف بن تاشفين هي التي مكنته في القضاء على إمارة سقوت البرغواطي صاحب الأسطول القوي. بعد أن تمت سيطرة المرابطين على سبتة وطنجة أفادوا من دور الصناعة القديمة فيها وأصلحوا سفنها[326]. وقبيل عبور المرابطين إلى الأندلس لنجدتها تنازل المعتمد بن عباد عن ميناء الجزيرة الخضراء إلى يوسف بن تاشفين، وبذلك تحكم المرابطون في مضيق جبل طارق[327]. وبعد خلع أمراء الطوائف، أصبحت الأندلس ولاية مرابطية، فأفاد المرابطون من إمكانياتها المادية والبشرية والاستراتيجية في تقوية أسطولهم البحري سواء فيما يتعلق بوجود الموانىء والربط ودور الصناعة والمواد الأولية اللازمة لصناعة السفن، أو توظيف قدرات الأسر

---

(322) السامرائي، «الجزائر الشرقية»، ص 169.

(323) جذوة المقتبس، ص 353 ـ عنان، دول الطوائف، ص 193.

(324) ينظر، عنان، دول الطوائف، ص 194.

(325) المراكشي، المعجب، ص 215 ـ العبادي، دراسات، ص 315 ـ 316.

(326) ينظر، العبادي، دراسات، ص 218 ـ 220.

(327) ابن الخطيب، أعمال، ص 282.

الأندلسية التي كان عالمها المفضل البحر مثل أسرة بني ميمون المشهورة[328].

وعندما ضم يوسف بن تاشفين الأندلس إلى دولته، لم يتعرض بسوء لأمير الجزائر الشرقية (مبشر بن سليمان 486 ـ 508هـ) لأن هذه الإمارة تقف حائلاً أمام هجمات الأساطيل الأوروبية ضد الأندلس.

لم تصمد الجزائر الشرقية طويلاً أمام هجمات الحملة الأوروبية البحرية الكبيرة عام 508هـ، وأثناء الحصار توفي أمير الجزائر مبشر، فتولى أمرها أبو الربيع سليمان بن ليون الذي واصل المقاومة، وحاول مغادرة الجزيرة لطلب العون من المرابطين، إلا أنه وقع أسيراً بأيدي الأعداء، فدخلت القوات الأوروبية الجزائر الشرقية عام 508هـ وعاثت فيها فساداً[329].

إلا أنّ الأسطول المرابطي لم يصل إلى الجزائر الشرقية، إلا بعد سيطرة العدو عليها[330]، وكان الأسطول المرابطي بقيادة أمير البحر (ابن تاقرطاس)، فلما علم الإيطاليون وحلفاؤهم باقتراب هذا الأسطول، انسحبوا من الجزيرة مثقلين بالسبي والغنائم، بعد أن أدركوا أنهم سيخوضون معركة غير مأمونة العواقب، وبعدها دخل المرابطون الجزيرة وشرعوا في تعميرها وذلك من عام 509هـ[331]. وبذلك تصبح الجزائر الشرقية ولاية مرابطية يديرها (وانور بن أبي بكر اللمتوني) الذي حكمها إلى سنة 520هـ، ثم حكمها من بعده بنو غانية وأقاموا فيها إمارة مستقلة[332].

ولما سيطر روجار الأول على صقلية عام 485هـ، أخذ النورمان يشنون هجماتهم البحرية على المهدية قاعدة بني زيري في تونس، فاستنجد الزيريون بأبناء عمومتهم المرابطين، فأرسل إليهم أمير المسلمين علي بن يوسف أسطوله البحري بقيادة أبي عبد الله بن ميمون فهاجم صقلية وفتح بعض المدن فيها وسبى الكثير من نسائها وأطفالها انتقاماً لأبناء جلدته في أفريقية. وكان ملوك النورمان في صقلية يتوجسون خيفة

---

(328) ينظر، المراكشي، المعجب، ص 279 ـ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 123 ـ العبادي، دراسات، ص 321.

(329) ينظر، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 123 ـ الحميري، الروض المعطار، ص 188.

(330) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ 5، ص 257.

(331) السامرائي، «الجزائر الشرقية»، ص 181.

(332) ينظر، ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 165 ـ الحميري، الروض المعطار، ص 188 ـ محمود علي مكي، «وثائق تاريخية جديدة»، ص 161 ـ 162.

من الأسطول المرابطي، ولذا نراهم لم يحتلوا المهدية إلا بعد سنة 543هـ أي بعد سقوط دولة المرابطين بقليل[333].

ورث الموحدون الأندلس من المرابطين، بما في ذلك الأسطول، وقد خضعت الأجزاء الغربية والوسطى للموحدين بسهولة، وبقي شرقي الأندلس يعارض الانضمام إلى المغرب. فقامت فيه إمارات بحرية مستقلة: أولاها إمارة المرية والتي أصبحت قاعدة بحرية لمهاجمة شواطىء إسبانيا الشمالية وإيطاليا وفرنسا، ونظراً لخطورتها هذه سيطرت عليها الأساطيل والجيوش الإسبانية والأوروبية عام 542هـ وأصبحت تحت سيطرة الفونسو السابع (السليطين)، إلا أن الموحدين أعادوا المرية إلى حوزتهم عام 552هـ[334]. وثانيهما إمارة بني غانية المرابطية التي استقلت في الجزائر الشرقية، وبقيت تقاوم الحكم الموحدي في الأندلس وشمالي إفريقية فترة طويلة كما وضحنا ذلك. ومع هذا فكثيراً ما قامت هذه الإمارة بمهاجمة سواحل قطلونية وجنوبي فرنسا، كما كانت تربطهم بمدن جنوه وبيزا علاقات تجارية طيبة، وفي الوقت نفسه كانوا يهادون الموحدين دفعاً لخطرهم، إلى أن خضعت هذه الجزر لسلطة الموحدين عام 599هـ[335].

وعزز الخليفة الموحدي الأول عبد المؤمن بن علي (524 ـ 558هـ) سيطرة أسطوله على مضيق جبل طارق من أجل تأمين عبور أساطيله باستمرار بين المغرب والأندلس، فبنى مدينة الفتح على سفح جبل طارق عام 555هـ[336]. واهتم هذا الخليفة بتدريب شباب المغرب والأندلس على أعمال الفروسية، وتعلم السباحة وخوض المعارك البحرية، وأولى اهتماماً كبيراً بتدريبهم على ركوب السفن وكيفية قيادتها واستخدامها أثناء القتال[337]. واهتم بالأسطول كذلك الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف (558 ـ 580هـ) وأولاه عنايته، واستخدمه في ضرب أوكار القراصنة في غربي الأندلس أولاً، كما شاركت أساطيله في معارك الجهاد ضد مملكة البرتغال الإسبانية وقاد

---

(333) ينظر: ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 68 ـ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 92 ـ العدوي، المجتمع المغربي، ص 284 ـ السامرائي، علاقات، ص 375 ـ 376.

(334) أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ 1، ص 234.

(335) المراكشي، المعجب، ص 344 ـ العبادي، دراسات، ص 321 ـ 322.

(336) المراكشي، المعجب، ص 282 ـ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 129 وما بعدها.

(337) العبادي، دراسات، ص 343.

الأسطول الموحدي غانم بن مردنيش ودمر بعض سفن البرتغاليين وذلك في عام 575هـ. وتبادل الطرفان النصر والهزيمة في حروب البحر، وقد أسر في إحداها غانم وأخوه أبو العلا وأطلقا بفدية كبيرة[338]. وأراد هذا الخليفة أن يقود الجيوش بنفسه لتأديب مملكة البرتغال فعبر إلى الأندلس وحاصر مدينة لشبونة براً وبحراً، ثم حاصر مدينة شنترين، إلا أنه أصيب بهزيمة منكرة، واستشهد على أثرها عام 580هـ[339]. ومن أشهر قادة أساطيله أمير البحر أبو العباس الصقلي، وعلي بن الربرتير اللذان قادا أساطيله في معارك الجهاد هذه[340]. وفي عهد الخليفة يعقوب المنصور (580 ـ 595هـ) بدأ الأسطول البرتغالي بالتعاون مع الأساطيل الصليبية الأخرى الفرنسية والألمانية، بمهاجمة ثغور الأندلس الغربية وبخاصة مدينة شلب فسيطروا عليها عام 585هـ، مما زاد في حراجة أمر الأسطول الموحدي. واستطاع هذا الخليفة الرد على هذا الهجوم الصليبي بأن عبر بقواته إلى الأندلس وهاجم أساطيل البرتغال في غربي الأندلس وانتصر عليها وذلك في عام 586هـ، فاسترد مدينة شلب وقصر أبي دانس[341].

وفي عهد الخليفة الناصر (595 ـ 611هـ) سيطرت الدولة الموحدية على الجزائر الشرقية عام 599هـ بعد إعداد حملة بحرية كبيرة خرجت من دانية بقيادة ابن عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن، والتي أفلحت في هذه المهمة[342]. كما هاجم الأسطول الموحدي مملكة أرغون وأحرز على أساطيلها النصر وذلك عام 607هـ[343].

وبعد هزيمة هذا الخليفة في معركة العقاب عام 609هـ، بدأت المدن الأندلسية تتساقط بأيدي الممالك الإسبانية، وبدأ بعض زعماء الأندلس بالاستقلال أمثال محمد بن يوسف بن هود في مرسية، ومحمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر في أرجونة وغرناطة. وقد اعتمد ابن هود على الأسطول الأندلسي في هذه الفترة، وقد وضحنا كيف سيطر على سبتة ورباط الفتح وسلا في عدوة المغرب بعض الوقت. وبعد اغتيال ابن هود عام 635هـ، بدأت مملكة غرناطة في الظهور على مسرح الأحداث.

أما الممالك الإسبانية فقد سيطرت على قرطبة عام 633هـ، وعلى إشبيلية وقادس

---

(338) ينظر، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 232 ـ العبادي، دراسات، ص 347 وما بعدها.

(339) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 141 ـ أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ 2، ص 74.

(340) ابن القطان، نظم الجمان، ص 96 ـ العبادي، دراسات، ص 354 ـ 355.

(341) المراكشي، المعجب، ص 356 ـ العبادي، دراسات، ص 362 ـ 364.

(342) المراكشي، المعجب، ص 394.

(343) العبادي، دراسات، ص 369.

عام 646هـ، فصار لهم منفذ إلى مضيق جبل طارق، كما سقطت بلنسية عام 636هـ، وجزيرة ميورقة عام 627هـ وجزيرة يابسة عام 633هـ وجزيرة منورقة عام 686هـ(344)، وبقيت مملكة غرناطة فترة من الزمن تجاهد الإسبان إلى أن سقطت.

وملكت مملكة غرناطة ساحلاً طويلاً يمتد من المرية إلى مضيق جبل طارق والجزيرة الخضراء، مما جعلها تعتمد على أسطول قوي في مجاهدة الإسبان، كما جاهدتهم في البر. ومن قادة الأسطول الغرناطي المشهورين أسرة بني الرنداحي، وكذلك القائد الوزير أبو الحسن بن كماشة(345). وفي أعوام 706هـ، 707هـ، 708هـ عمد السلطان محمد الثالث النصري (701 ـ 708هـ) إلى مهاجمة جزر البليار، كما ضربت أساطيله سواحل مملكة أرغون الإسبانية(346). وأولت هذه الدولة رجال الأسطول برعايتها وأعطتهم أجوراً عالية(347). وحرصت مملكة غرناطة باستمرار على أن يكون مضيق جبل طارق مفتوحاً أمام النجدات المغربية، وبعيداً عن سيطرة الإسبان، كي يضل اتصالها بالعدوة المغربية مستمراً. وقد اضطرت غرناطة إزاء هذا الأمر إلى التنازل للمغرب عن بعض قواعدها الجنوبية المطلة على المضيق مثل جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف، ويتولى المغرب مهمة الدفاع عن هذه القواعد. وقد أدركت الممالك الإسبانية أهمية هذا الأمر فحاولت فرض سيطرتها على المضيق واحتلال قواعده كي تحول دون وصول الإمدادات المغربية إلى الأندلس(348).

النظم الاجتماعية:

خلال وبعد إتمام فتح الأندلس هاجرت أعداد كبيرة من المسلمين إليها، وكان أكثرهم من شمال إفريقية واستقروا في سائر أنحاء الأندلس. وليس من الصحيح أن المسلمين العرب استأثروا بأحسن النواحي في الأندلس(349). وإذا وجد بأن بعض مسلمي البربر قد سكنوا بعض النواحي الجبلية، فإن هذا يتناسب مع ما اعتادوا عليه من

---

(344) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 318 ـ 319 ـ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 275 ـ 277 ـ العبادي، دراسات، ص 373 ـ 375.

(345) ابن خلدون، العبر، جـ 7، ص 247 ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 200.

(346) فرحات، غرناطة، ص 96.

(347) العبادي، دراسات، ص 399.

(348) ينظر، فرحات، غرناطة، 96 ـ العبادي، دراسات، ص 400 ـ 401.

(349) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 71 ـ مؤنس، فجر الأندلس، ص 128، 388.

الشمال الإفريقي[350]. مع العلم بأن هناك نواحي سهلة خصبة سكنها مسلمون من البربر[351]، مع غيرهم من المسلمين مثل كورة فحص البلوط الواقعة شمالي قرطبة ومدينتها غافق، وكورة السهلة وحاضرتها شنتمرية (شنتمرية الشرق)، والتي كان بنو رزين البربر من سكانها[352]. وسكنها كذلك قبائل هوارة ومديونة البربرية، وتقع هذه الكورة بين سرقسطة وطليطلة والتي وصفت بالخصب[353]. كما كان من رجالات البربر الداخلين الأندلس في حملة طارق بن زياد ومنهم (رزين البرنسي) كانت له أراضٍ زراعية بجوار قرطبة اشتهرت بزراعة الزيتون، وقد اشتراها عبد الرحمن الداخل من ورثته[354]. هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار أن هناك أراضٍ في الشمال الإسباني كانت توصف بالخصب ووفرة الخيرات[355].

وخلاصة القول: أن سكنى المسلمين في الأندلس من عرب وبربر كانت حسب الرغبة قياساً لنوع الحياة السابقة وطبيعة الأرض التي اعتادوا عليها قبل العبور. فقد كانت الأرض الجبلية تناسب البربر لأنهم يرغبون سكنى الجبال والصحاري[356]. كما يلاحظ أن بعض العرب سكنوا الجبال، وبعض البربر سكنوا السهول. وهذا حسب ما يرغب كل فريق دون إجبار أو إكراه[357]. وسمي المسلمون الأوائل الذين عبروا مع موسى بطالعة موسى أو البلديين، وأغلبهم من القبائل اليمانية أصحاب الميل إلى التعمير والاستقرار، فقويت الصلات بينهم وبين الأرض وأهلها[358]. ثم تبعتهم هجرات عربية أخرى بقيادة بلج بن بشر القشيري ودخلت الأندلس عام 123هـ بما يقارب عشرة آلاف وعرفوا بطالعة بلج أو الشاميين[359]. ثم الطالعة الثانية أو المسماة عسكر العافية التي رافقت الوالي أبا الخطار (125 ـ 127هـ)[360]. وقد وزع هذا الوالي طالعة بلج على

(350) بدر، دراسات، جـ 1، ص 49 ـ 50.

(351) ينظر، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 499 ـ 502.

(352) ابن سعيد، المغرب، جـ 2، ص 427 ـ ابن حزم، جمهرة، ص 500.

(353) ابن الآبار، الحلة، جـ 2، ص 108 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 181.

(354) ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 234 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 446 ـ 468.

(355) مؤنس، رحلة الأندلس، 351.

(356) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 7، ص 23.

(357) مؤنس، فجر الأندلس، ص 370 وما بعدها، ص 387 ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 139.

(358) مؤنس، فجر، ص 215 ـ ذنون، التنظيم الإجتماعي في الأندلس، ص 2.

(359) مجهول، أخبار مجموعة، ص 37 ـ ابن الأثير، الكامل، جـ 5، ص 251.

(360) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 34.

الكور والتي سميت بالكور المجندة[361].

وإذا عرفنا بأن ولاة الأندلس اهتموا بإدارة البلاد وتنظيمها مع حسن السياسة بالرعية، فلا بد أنهم اهتموا بنشر الإسلام والدعوة له بين الإسبان. ويجد الباحث أخباراً لمثل هذا الأمر في عملية فتح الشمال الإفريقي حيث يرسل الدعاة والفقهاء بجانب الجيش الفاتح لشرح مبادىء الإسلام[362]. وربما نستدل من ذلك أن حملة طارق بن زياد إلى الأندلس ضمّت عدداً من الفقهاء مهمتهم تفقيه الجند ونشر الإسلام بين سكان المدن المفتوحة بجانب الجهاد في سبيل الله. ولعل الإثني عشر رجلاً من العرب في جيش طارق بن زياد هم الفقهاء[363]. كما أن جيش موسى الذي عبر به إلى الأندلس بأعداده (18 ألف) مقاتل فيهم صحابي واحد وهو المنيذر الإفريقي، وعدد من التابعين[364]. إن دور هؤلاء الفقهاء من التابعين ـ ما عدا الحربي ـ يدور حول تفقيه الناس أمور الإسلام وشرحه بيسر للإسبان الذين بدأوا يعتنقون الإسلام الذي أزال عنهم الحالة السيئة التي كانوا يعيشون بها قبل الفتح. وبجانب هذا الدور بنيت المساجد، فنرى موسى بن نصير يبني أول مسجد في الجزيرة الخضراء عرف بمسجد الرايات[365]. كما أسس حنش بن عبد الله الضعاني ـ مهندس المساجد في الأندلس ـ مساجد مدن البيرة وقرطبة وسرقسطة وغيرها[366]. ومعروف لدينا في العصر الأول دور المسجد، الذي يتجاوز مراسيم العبادة، إلى دورِه العلمي والثقافي في نشر تعاليم الإسلام قبل ظهور المدارس.

كما وردت إشارة إلى المعلمين في عصر الولاة الذين يعلمون الصبيان قراءة القرآن، مما يدل على اهتمام واسع بنشر الإسلام[367]. وتخبرنا الروايات عن انتشار

(361) ينظر، ابن القوطية، تاريخ، ص 20 ـ مجهول، أخبار مجموعة، ص 46 ـ ابن الآبار، الحلة، جـ 1، ص 61 ـ 62 ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، 102 ـ 104 ذنون، التنظيم الإجتماعي، ص3.

(362) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 145.

(363) المقري، نفح، جـ 1، ص 239.

(364) ينظر، ابن الآبار، التكملة ترجمة رقم 1847 ـ ابن الفرضي، تاريخ، ترجمة رقم 383، رقم 391، رقم 633، رقم 915 ـ ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 49.

(365) العذري، نصوص، ص 118 ـ الحميري، الروض المعطار، ص 75.

(366) ينظر، جذوة المقتبس ترجمة رقم 403 ـ بغية الملتمس ترجمة رقم 687 ـ العذري، نصوص، ص 22 ـ 23 ـ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 92.

(367) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 68.

الإسلام المبكر في الأندلس وكثر اتباعه، فلما رغب الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ) في نقل المسلمين من الأندلس، وشاور بذلك والي الأندلس السمح بن مالك الخولاني، تخلى عن هذه الفكرة عندما عرف بأن المسلمين قد كثروا في الأندلس وأنهم في قوة ومنعة[368]. كما تشير الروايات إلى أن الوالي عقبة بن الحجاج السلولي (116 ـ 121هـ) كان عندما يؤسر الأعداء يعرض عليهم الإسلام، فأسلم على يديه ألفا رجل[369].

ونظراً لسماحة تعاليم الإسلام، وعدالة رجاله، أقبل الإسبان على الدخول في الإسلام، وقد رجحنا إسلام يوليان المبكر حاكم سبتة، كما أن الرواية العربية تشير إلى إسلام قسي الزعيم البشكنسي الذي ذهب إلى الشام وأسلم على يدي الوليد بن عبد الملك[370]. ومهدي بن مسلم، وهو من قدماء قضاة قرطبة، ومن أبناء المسالمة (الإسبان الذين دخلوا الإسلام، وأطلق على أولادهم لقب المولدين) أيام والي الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي، وكان من أهل العلم والورع[371]. كما كان اختلاط الإسبان بالمسلمين بأساليب مختلفة ساعد على نشر الإسلام بين الإسبان، ومن هذه الأساليب: المصاهرات والتي بدأت مبكرة في عصر الولاة، ولدينا بعض الأمثلة تدل على هذه الظاهرة، فتخبرنا الروايات أنه لما اختلفت سارة القوطية بنت المند بن غيطشة (ملك القوط قبل لذريق) مع عمها أرطباس[372]، ذهبت إلى الخليفة هشام بن عبد الملك تشكو ظلامتها من عمها فأنصفها. والظاهر أنها أسلمت ثم تزوجت في الشام من عيسى ابن مزاحم وقدما إلى الأندلس وسكنا مدينة إشبيلية[373]. وقد أنجبت سارة من عيسى: إبراهيم وإسحاق، ولما توفي عيسى عام 138هـ تزوجها عُمير بن سعيد فولدت له حبيب[374] كما تزوج والي الأندلس الأول عبد العزيز بن موسى من أيلة (Egiliona) أرملة لذريق آخر ملوك القوط، وتسميها الرواية العربية أم عاصم[375]. وبعض الروايات

---

(368) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 26 ـ ابن القوطية، تاريخ، ص 39.

(369) أيضاً، جـ 2، ص 29 ـ المقري، نفح، جـ 3، ص 19.

(370) ابن حزم، جمهرة، ص 502 ـ الحجي، أندلسيات، جـ 2، ص 11.

(371) الخشني، قضاة قرطبة، ص 9 ـ النباهي، المرقبة العليا، ص 42.

(372) ينظر، مؤنس، فجر الأندلس، ص 504.

(373) المقري، نفح، جـ 1، ص 267 ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 159 ـ 160.

(374) ابن القوطية، تاريخ، ص 30 ـ 32.

(375) مجهول أخبار مجموعة، ص 20 ـ ابن القوطية، تاريخ، ص 37 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 23 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 281.

تجعلها ابنة لذريق، ويفهم من رواية ابن عذاري أنها بقيت على دينها[376]. ولكن يستبعد أن تبقى أم عاصم غير مسلمة، والأكثر قبولاً - إذا كان أمر هذا الزواج موثوقاً - أن زواجه بأرملة لذريق قد تم بعد إسلامها[377]. كما أشارت الروايات إلى أحد قواد الوالي وهو زياد بن نابغة التميمي تزوج إحدى بنات أمراء الإسبان أيضاً[378]. وربما حصل لكثير من رجالات الأندلس في هذا العصر أمثال هذه المصاهرات، إذا عرفنا أن فاتحي الأندلس دخلوها رجالاً دون نساء على العموم.

وحين بدأ عصر الإمارة عام 138هـ كان الإسلام قد تثبتت أركانه بعد أن دخل الإسبان فيه، كما رأوا من سماحة الإسلام وحسن خلق أهله، ومن بقي على دينه (العجم أو المستعربون من النصارى) ارتضى حكم المسلمين، وقد أشاد الكثير من الباحثين الغربيين بسياسة الفتح العربي لإسبانيا وآثارها الاجتماعية التي حطمت سلطة الأشراف والطبقات العليا، وحسنت أحوال الطبقات الفقيرة[379].

ومعنى هذا أن المجتمع الأندلسي في عصر الولاة أصبح يتألف من العرب (البلديون والشاميون) والبربر، والمسالمة المولدون والموالي (وهم موالي بني أمية من العرب والبربر وغيرهم) العجم أو المستعربون واليهود[380]. وقد عاشت جميع هذه الفئات تحت ظل راية الإسلام وتجمعها سماحة العرب في الحكم والنظم ببلد الأندلس، وساهمت في تطور نظمه الاجتماعية.

ومن الملاحظ أن الهجرات العربية إلى الأندلس انتهت بنهاية عصر الولاة، فلم يفد منهم إلى الأندلس بعد ذلك إلا أفراد أو بيوت أو جماعات قليلة. أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلاً، بحكم الجوار أولاً، وبحكم الجاذبية الخاصة التي كانت للأندلس على بربر الشمال الإفريقي ثانياً، ولأسباب سياسية وعسكرية ثالثاً[381].

---

(376) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 24.
(377) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 159.
(378) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 23.
(379) ينظر، عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 63 وما بعدها ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 171 ـ سالم، تاريخ المسلمين، ص 130.
(380) عن هذه العناصر وتكويناتها ينظر، سالم، تاريخ المسلمين، 119 وما بعدها ـ ذنون، التنظيم الاجتماعي 2 وما بعدها.
(381) مؤنس، فجر الأندلس، ص 379.

أما عصر الإمارة 138 ـ 316هـ، فقد حدثت فيه تطورات اجتماعية مهمة، ففترة التأسيس 138 ـ 172هـ (عصر الداخل) وفترة التوطيد 172 ـ 206هـ (عصر هشام والحكم)، تميزت بعدة ظواهر اجتماعية منها: كسر شوكة الأرستقراطية العربية، التي بدأ بها الأمير الداخل، وأحل محلها وحدة اجتماعية تشمل عصبية القبائل، وقد استخدم أمراء هذه الفترة الموالي بكثرة، واستعانوا بأقوام أعجمية في الجيش وبخاصة الصقالبة الذين أكثر منهم الأمير الحكم كما وضحنا. وفي هذه الفترة أيضاً برزت فئة المولدين وأصبح لها كيانها ومكانتها في المجتمع الأندلسي. ولا شك أن وجود مثل هذه الفئة قد زاد من الأكثرية الملمة بالأندلس، وصبغ الحياة الإسبانية بصبغة أكثر إسلامية وعروبة[382]. ولكن في الوقت نفسه زاد تمرد المولدين في هذه الفترة مما أحرج مركز الإمارة وكلفها الكثير، فتمردوا في مدينة ماردة عام ـ 190هـ وفي مدينة طليطلة عام 181هـ، أي إنهم تمركزوا في مناطق الثغور لمناعتها العسكرية، وقد اجتمعت هذه الحركات على التخلص من حكم قرطبة مع إجماعها على كره العرب[383]، كتيار شعوبي.

ومن مظاهر هذا العصر ظهور شخصية المرأة في مجال الفن، وهذا بداية التأثير الحجازي على الأندلس. فقد استقدم الداخل بعض الجواري المدنيات وأسس لهن بالقصر داراً عرفت بدار المدنيات، لأن أغلبهن كن في المدينة التي اشتهرت بفنون الموسيقى والغناء. وكان من هؤلاء المغنيات المدنيات: فضل وعلم والعجفاء. كما كانت الجارية قلم وأصلها إسبانية من سبي البشكنس، ولكنها أُدبت في المدينة، لها دور مميز في هذه الفترة وعملت في دار المغنيات مع صواحبها[384]. ويأتي بعدهما الثنائي الغنائي الحجازي (علون وزرقون) في عهد الأمير الحكم[385].

وشهدت الأندلس في هذه الفترة بداية الترف الاجتماعي المتمثل في بناء المنيات (قصور ريفية) خارج قرطبة كقصر الرصافة الذي بناه الداخل على سفح جبل قرطبة، وكذلك القصر الذي بناه ابنه عبد الله في مدينة بلنسية وأطلق عليه إسم الرصافة أيضاً[386]. وقد حرص الداخل على جعل قرطبة صورة من دمشق في منازلها البيضاء

---

(382) هيكل، الأدب الأندلسي، ص 76.

(383) بدر، دراسات، جـ 1، ص 130 وما بعدها.

(384) المقري، نفح، جـ 2، ص 118 ـ كحالة، أعلام النساء، جـ 4، ص 219.

(385) أيضاً، جـ 3، ص 130 ـ سالم، قرطبة، جـ 2، ص 86.

(386) بدر، دراسات، جـ 1، ص 158.

ذات الأحواش الداخلية المزينة بالأزهار والورد ونافورات المياه، واشتهر الداخل بأنه كان يرسل بعض رجاله إلى المشرق لجلب أشجار الفاكهة من بلاد الشام[387]. وقد أدى هذا الاستقرار الاجتماعي إلى أن يفتح المجتمع الأندلسي عيونه على بواكير الحضارة المشرقية[388].

وفي فترة الازدهار 206 ـ 273هـ، تقدمت الأندلس في مجال الرقي الاجتماعي والحضاري، وقد ساعد على هذا رغبة أمراء هذه الفترة في الإصلاح والانفتاح أولاً، كما ساعد عليه كذلك ازدهار اقتصاديات الأندلس ثانياً. وقد أدى هذا الازدهار الاقتصادي إلى بروز مظاهر الترف والرفاه في حياة الأمراء وأقرانهم من أثرياء المجتمع الأندلسي على الأقل. ويتمثل هذا الترف في فتح أبواب الأندلس لتجارة العراق، فدخلته البضائع العراقية كالملابس وأدوات الزينة، وتذكر لنا بعض الروايات أن الأمير عبد الرحمن الأوسط اشترى من أحد التجار عقداً كان للسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد بمبلغ عشرة آلاف دينار، وأهداه إلى زوجته[389]. وبالإضافة إلى مظاهر العيش الواسع للأمراء وكبار رجال الدولة الذي وفرته الأموال التي حصل عليها أفراد المجتمع الأندلسي، وانعكس هذا على شراء الجواري المشرقيات الحاذقات بالأدب وفنون الغناء كجواري الأمير عبد الرحمن الأوسط اللواتي جلبهن من بغداد[390]. وانعكس أيضاً على بناء عدة منى (جمع منية) وهي عبارة عن قصر ريفي في ضواحي المدينة ضمن حدائق غناء[391]. كما جاءت هجرة زرياب إلى الأندلس عام 206هـ فأحدث في مجتمعها تغييراً كبيراً بما أدخله من عادات جديدة، وبما أشاعه من تقاليد راقية، وبما بعثه في المجتمع الأندلسي من روح التأنق والتجمل، بالإضافة إلى إشاعة الموسيقى والغناء وتأسيس أول مدرسة أندلسية لهذين الفنين[392].

---

(387) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 37 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 60 ـ العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 318.

(388) هيكل، الأدب الأندلسي، ص 77.

(389) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 91.

(390) المقري، نفح، جـ 1، 136 ـ جـ 4، ص 136.

(391) السامرائي، «أثر العراق الحضاري»، ص 13.

(392) ينظر، ابن حيان، المقتبس، جـ 2، ص 87 ـ المقري، نفح، جـ 4، ص 118 ـ بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص 48 وما بعدها. ـ لين پول، قصة العرب في أسبانيا، ص 79 ـ الحجي، تاريخ الموسيقى الأندلسية، ص 33 وما بعدها.

ولقد كان من نتائج وفود زرياب وانتشار مستحدثاته الاجتماعية والفنية أن شاع في المجتمع الأندلسي حب الترف والتأنق والأخذ بمتع الحياة، كما شاع كذلك الشغف بالموسيقى والتعلق بالغناء، والتورط أحياناً في اللهو والمجون. وقد ساعد على ذلك تحرر بعض الأمراء في هذه الفترة، مع وفرة الأموال، وانتشار الكروم والترخص في عصر الأنبذة وشربها، ثم كثرة القيان من مشرقيات واسبانيات، مع وفرة الغلمان وخاصة من الصقالبة[393]. ومما لا شك فيه أن هذا الأمر قد أدى إلى نوع من التحلل الاجتماعي وبعض الشرور التي أصابت الإمارة في هذه الفترة.

نتيجة الانفتاح الفكري والاجتماعي الأندلسي على المشرق في هذه الفترة، هبت التيارات المشرقية إلى الأندلس وأثرت في عقلية شعبها. ونرى هناك ظاهرة إقبال الإسبان في هذه الفترة على تعلم اللغة العربية وآدابها وتقليد عرب الأندلس في عاداتهم من مأكل وملبس وأمور اجتماعية أخرى. إزاء هذا الأمر كان لبعض رجال الدين الإسبان موقفٌ مُعادٍ لهذا التيار، أطنبت الروايات الغربية في ذكرها. هذا الموقف تصفه هذه الروايات بظاهرة الاستشهاد أو الانتحار الديني، وانحصرت أهداف هذه الظاهرة التي قامت منذ عام 235هـ وإلى عام 244هـ في محورين: الأول ـ محاولة إعادة بعض من أسلم حديثاً إلى دينه القديم من جديد، والثاني: الطعن بالإسلام ومبادئه وشتم رسول الله علناً في المساجد والساحات العامة. وقد عالجت حكومة قرطبة هذه الظاهرة بحكمة وحنكة فزال خطرها بعد حين[394].

وفي فترة الحرب الأهلية 275 ـ 300هـ، ساد المجتمع الأندلسي نوع من الاضطراب بسبب اشتعال نواحي الأندلس بحركات التمرد والتي قاد معظمها المولدون ـ الذي يحملون عناصر الكره للعرب باستمرار، وكان زعيمهم عمر بن حفصون ـ وغيرهم، والذين تعاونوا مع الممالك الإسبانية من أجل إسقاط الحكم العربي بالأندلس، فظهرت في المجتمع الأندلسي خلال هذه الفترة ظاهرة الزهد، وتزعمها بعض العلماء والفقهاء وحتى بعض أفراد البيت الأموي أمثال الزاهد أحمد بن معاوية الملقب بالقط، فرابطوا في الثغور احتجاجاً على روح التحلل والفساد التي سادت

---

(393) هيكل، الأدب الأندلسي، ص 121 ـ 122 ـ ينظر، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (منشورات الجامعة الليبية)، ص 221 وما بعدها.

(394) ينظر، لين پول، العرب في إسبانيا، ص 28 وما بعدها ـ بيضون، الدولة العربية، ص 244 وما بعدها ـ سالم، تاريخ المسلمين، ص 241 ـ 239.242 Provençal, op. cit, P: 255-239.242 ..

المجتمع الأندلسي[395]. كما أن حالة الفوضى التي عمت بلد الأندلس خلال هذه الفترة دفعت بعض النفوس إلى طلب الطمأنينة والبحث عن الأنس في مجلس غناء أو حلقة سماع أو جماعة ندمان، هروباً من الحالة المتردية التي يعيشها المجتمع الأندلسي[396]. بالإضافة إلى أن حالة التحضر الاجتماعي بقيت مستمرة في المجتمع الأندلسي خلال هذه الفترة، حتى في حالة اضطراب الحالة السياسية. وكان من المظاهر الاجتماعية لهذه الفترة تمزق المجتمع الأندلسي وانفصام عرى الوحدة بين أبنائه فنرى تكتل العرب في جهة، والإسبان تكتلوا أيضاً وكذلك البربر والمولدون، فبرزت فيهم زعامات تؤيد الفرقة وتذكي نار العنصرية[397].

إلا أن هذا الأمر حسم في عصر الخلافة 300 ـ 422هـ فقد استطاع عبد الرحمن الناصر أن يعيد إلى العرب في الأندلس وحدتهم، فقضى على كل الزعامات، وبرزت بصورة واضحة ظاهرة القومية الأندلسية.

فإذن الظاهرة الاجتماعية الأولى التي يمكن ملاحظتها هي وحدة المجتمع العربي في الأندلس، ومن ثم انصراف سكانه إلى العمل بجد ونشاط، فتكاثرت الأموال سواء للدولة أو للأفراد. مما أدى إلى أن يتأنق الأندلسيون حكاماً وشعباً في البناء. فبنى الناصر مدينة الزهراء ومدينة المرية وغيرها، وقد أطنبت الروايات التاريخية في وصف هذه المدن[398]. كما وصلت العاصمة قرطبة في هذه الفترة إلى أوج جمالها وأناقتها فازدحمت بالقصور والحدائق الغناء والنافورات الكثيرة والحمامات الوفيرة وغيرها[399].

ومما يشير إلى الرخاء الاقتصادي في عصر الخلافة، تلك الهدايا الثمينة التي قدمها الوزراء إلى الناصر والحكم المستنصر، فهدية الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد عام 327هـ إلى الخليفة الناصر وهدية الحاجب جعفر المصحفي إلى الخليفة الحكم المستنصر، تعتبران من أشهر الحوادث الاجتماعية في هذا العصر، وتدلان على رفاء المجتمع الأندلسي أيضاً[400]، على الرغم من وضوح ظاهرة الاستغلال في جمعها.

---

(395) ينظر، بدر، دراسات، جـ 1، ص 262 ـ 263.

(396) ينظر، ابن حيان، المقتبس، جـ 3، الخاص بعصر الأمير عبد الله، ففيه نماذج بمثل هذه الأمور.

(397) هيكل، الأدب الأندلسي، ص 122، 181 ـ 182.

(398) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 231 ـ نجلة العزي، مدينة الزهراء.

(399) سالم، قرطبة، جـ 2، ص 19 وما بعدها ـ سالم، تاريخ المسلمين، ص 292 وما بعدها.

(400) ينظر، ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 138، ص 144 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 460، ص 512.

ويلاحظ في فترة الخلافة أيضاً علاقات المصاهرة مع الإسبان ويروى أن الخليفة الناصر كان حفيد سيدة نافارية، وكان هو نفسه ابن جارية إسبانية تسمى مزنة[401]. وأطرف ما في الأمر أن طوطة (Toda) الملكة الوصية على عرش النافار (توفيت عام 349هـ) كانت عمة الناصر من جهة الأمومة كما تذكر بعض الروايات اللاتينية[402]. والخليفة الحكم المستنصر تزوج من امرأة نافارية وهي صبح (أم الخليفة هشام المؤيد)، وهي التي ساعدت الحاجب المنصور على تمكنه من السلطة من الأندلس[403].

كما كانت هناك علاقات مصاهرة بين أسرة بني قسي المولدة حكام الثغر الأعلى وبين حكام النافار في الشمال الإسباني[404]. وبطبيعة الحال فإن الأمر ينعكس على عامة الشعب، وبخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار حالة الجهاد المستمرة في هذه الفترة مع الممالك الإسبانية فيقع الكثير من الأسرى بيد المسلمين.

وفي فترة الحجابة تزوج الحاجب المنصور من تريسا إبنة برمودة الثاني ملك ليون[405]. ومن ثم تزوج من إبنة شانجة الثاني بن غرسية ملك النافار والمسماة عبدة، وكانت من خيرة نسائه ديناً وجمالاً وكان ولده عبد الرحمن (شنجول) لقب على هذا الأساس تصغيراً لإسم جده لأمه شانجة[406].

وحفل عصر الحجابة بالمنشآت العمرانية كمدينة الزاهرة ذات القصور المنيفة والحدائق الغناء. ومن ثم ابتنى إلى جانبها مدينة جميلة ذات قصر وحدائق رائعة وكان يرتادها للنزهة وسماها العامرية، كما اشتهر ببناء القناطر وغيرها[407].

كما عرف عصره بمجالس الأنس والراحة، وكان للحاجب المنصور مثل هذه المجالس، وكان يشاركه وزرائه في رحلات أنس في نهر الوادي الكبير[408]. ووصف

---

(401) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 156.
(402) الحجي، أندلسيات، جـ 1، ص 83 ـ 84 ـ Provençal, op. cit, I, P 392
(403) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 253 ـ ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 194.
(404) ينظر، السامرائي، الثغر الأعلى، ص 340 وما بعدها.
(405) الحجي، أندلسيات، جـ 1، ص 79.
(406) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 38 ـ ابن الخطيب، أعمال، ص 66، ص 73 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 583.
(407) ينظر، البيان، جـ 2، ص 287 ـ 288، ص 299 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 575.
(408) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 299.

بمعاقرة الخمر، ولازمته هذه الصفة طوال حياته[409]. وربما نميل إلى أنها من التهم التي ألصقت به. وبسبب حملات الجهاد الكثيرة التي قادها الحاجب المنصور والتي تكلل معظمها بالنصر، فقد امتلأت الأندلس في عصره بالغنائم والسبي من بنات الإسبان، فأقبل الناس على الزواج من الإسبانيات تاركين بنات الأحرار، فكان الرجل صاحب البنت يغالي في تجهيز بنته من أجل الإقبال على الزواج منها[410].

وهكذا عادت إلى المجتمع الأندلسي في فترة الحجابة بعض الأمراض الاجتماعية التي كان قد برىء منها في عصر الخلافة. فقد أدى استخدام الحاجب المنصور للمرتزقة من البربر والصقالبة ومسيحيي الإسبان، إلى نوع من الانفصال بين الشعب والجيش، وأحياناً إلى وجود الكراهية بينهما. كما إن سلوك الحاجب المنصور في الوصول إلى السلطة، قد أدى إلى تفشي روح الطمع، وشيوع التطلع إلى الغلبة، هذا بالإضافة إلى مجالس اللهو والشرب التي ولع بها الحاجب المنصور مع ظهوره بمظهر المتعصب للدين والحامي لمبادئه[411].

وازداد تفكك المجتمع الأندلسي خلال فترة الفتنة 399 ـ 422هـ، وساد الاضطراب والقلق عامة الناس بسبب الصراعات السياسية المريرة، واختلف الناس في مشاربهم من أجل التخلص من هذا الوضع المضطرب، فمنهم من غرق في الملذات أمثال محمد بن هشام بن عبد الجبار الذي وصف بالخلاعة والمجون[412].

ومنهم من يميل إلى العزلة، ومنهم من جارى الأحداث ودخل في معترك الفتنة وذاق خيرها وشرها[413].

ثم سقطت الخلافة الأندلسية عام 422هـ وقام بالأندلس عصر الطوائف فاهتز المجتمع الأندلسي المتعدد الأجناس والذي يتألف من العرب والبربر والصقالبة والمستعربين وغيرهم. فمع انتشار القلق الاجتماعي وشيوع الاضطراب والعنف، تشكلت التكتلات العرقية فأصبحت الوسيلة الوحيدة للحصول على الأمن، فقامت

---

(409) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 578 ـ هيكل، الأدب الأندلسي ـ ص 268.
(410) ينظر، المراكشي، المعجب، ص 84.
(411) ينظر، هيكل، الأدب الأندلسي، ص 268 ـ 269.
(412) ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 79 ـ 80.
(413) ينظر، هيكل، الأدب الأندلسي، ص 348 ـ 349.

إمارات الطوائف المعروفة. وامتاز هذا العصر بالحروب المستمرة بين أمراء الطوائف، وحتى بين الإمارات ذات الأصل الواحد[414]. وكان الجشع الفردي والحرص على الكسب وإيثار المصلحة الشخصية عوامل تطغى أحياناً على جميع الاعتبارات الأخرى في هذه الفترة، وأحياناً داخل الإمارة نفسها[415].

وأفرز هذا الوضع السياسي للأندلس، وجود طبقة الخاصة التي كبرت وتنوعت في كل بلاط من بلاطات أمراء الطوائف، وهناك الطبقة العامة. وتخلل هذا العصر وجود طبقة واعية أدركت مصير الأندلس وما وصل إليه من تفكك، فجابت بلاد الأندلس تدعو إلى الوحدة ولم الشمل ومن أبرز زعماء هذه الطبقة ابن حزم وأبو الوليد الباجي[416].

وقد قاسى الشعب الأندلسي في ظل حكم أمراء الطوائف الآمرين. فبجانب الفتن الداخلية، قاسى الشعب من جشع ملوك الطوائف الذين جعلوا من إماراتهم ضياعاً خاصة وجعلوا رعاياهم عبيداً، ينهبون أموالهم، وثمار كدهم، إرضاءً لشهواتهم في إنشاء القصور الباذخة، واقتناء الجواري والعبيد، والانهماك في حياة الترف، هذا بالإضافة إلى دفع الإتاوات إلى ملوك الإسبان والارتماء في أحضانهم من أجل البقاء والمحافظة على كرسي مهزوز، فأصيب الشعب بخيبة أمل مريرة[417]، وساد التمزق النفسي في المجتمع الأندلسي وعلت أصوات الرحيل عن الأندلس، وبخاصة بعد سيطرة النورمان على مدينة بربشتر عام 456هـ، وسيطرة ألفونسو السادس على طليطلة عام 478هـ[418]. وبرزت في هذا العصر عصابات الأشرار التي قادها الكمبيادور وغيره والتي عاثت في بلد الأندلس فساداً، كما ظهرت مجموعة من الشخصيات القلقة المغامرة التي قدمت خدماتها لأي أمير تلقى عنده العون والتأييد، أمثال شخصية الشاعر ابن عمار وزير المعتمد بن عباد، وبعض الفقهاء الذين أوقع عليهم بعض المؤرخين مسؤولية تضييع الأندلس[419].

وكان أكثر ملوك الطوائف يتسمون بضعف الإيمان والعقيدة، والاستهتار بأحكام

---

(414) ينظر، محمد بن عبود، التاريخ السياسي، ص 30.
(415) ينظر، كتاب التبيان، ص 90، ص 95، ص 106 وما بعدها.
(416) ينظر، السامرائي «الدعوة إلى توحيد الأندلس»، ص 82 وما بعدها.
(417) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 39، ص 41.
(418) ينظر، السامرائي، علاقات، ص 47 ـ 48.
(419) إحسان عباس، الأدب الأندلسي، ص 34، ص 37.

الدين، وهو ما سجله عليهم ابن حزم في كتاباته، وكانت قصورهم المترفة الأنيقة تزدان بمجالس الشعر والأدب، وتحفل في الوقت نفسه بمجالس الأنس والطرب، والنساء والغلمان والخمر[420]، وهذه أمور شغلت حيزاً كبيراً في آداب هذا العصر وشعره. وكانت مجتمعات الطوائف المرهقة المنحلة تتأثر بهذه الروح الإباحية، وتميل إلى اقتناء المتعة المادية واللذة الحسية بمختلف ضروبها، وكان هذا الانحلال الشامل يجتاح يومئذ سائر طبقات المجتمع الأندلسي[421]. ومع كل هذا فقد احتلت المرأة الأندلسية مكانة محترمة في عصر الطوائف، وألف فيها الأندلسيون الكتب مثل كتاب (طوق الحمامة في الألفة والألّاف) لابن حزم[422]. كما نالت نصيبها الوافر من العلوم والفنون والآداب[423]، كولادة بنت الخليفة المستكفي مثلاً[424].

وتمتعت الأندلس منذ انضوائها تحت سيادة المرابطين باستقرار سياسي وهدوء إجتماعي، فتحررت في ظل هذا العهد من كثير من المكوس والمغارم الظالمة التي فرضها ملوك الطوائف لإرضاء جشع ملوك الإسبان من جانب، وللإنفاق على قصورهم المترفة التي شهدت أنواع البذخ والإسراف[425].

وقد شعر عامة الشعب الأندلسي في هذا العهد بنوع من التحسن المادي في حياته لأنهم انصرفوا إلى الأعمال السلمية، وإلى تحصيل أقواتهم في هدوء وسلام بينما حمل المرابطون مسؤولية الجهاد بالدرجة الأولى، وبذلك عم الرخاء والعيش الرغيد بلد الأندلس في عهد يوسف وإبنه علي[426].

وليس من السهل بمكان تصور المكانة الاجتماعية للمرأة الأندلسية في العصر المرابطي، إذ أن الروايات التي أشارت لهذا الموضوع اهتمت فقط بمنزلة المرأة المصمودية والتي تمتعت بنصيب كبير من الحرية سمح لها بالتدخل في مناحي الحياة

---

(420) ينظر ابن عبدون، في القضاء والحسبة، ص 47.

(421) عنان، عصر الطوائف، ص 424.

(422) ينظر، الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص 224 وما بعدها.

(423) سعد شلبي، البيئة الأندلسية، ص 58.

(424) المقري، نفح، جـ 5، ص 336 وما بعدها ـ السامرائي، علاقات، ص 459.

(425) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، جـ 5، ص 159 ـ 161 ـ سعد شلبي، البيئة الأندلسية، ص 54 ـ 55.

(426) ينظر، الحلل الموشية، ص 59.

المختلفة[427]. وليس في هذه الروايات ما يوضح مقدار انعكاس ذلك على المرأة الأندلسية، فانتقال التقاليد والقيم الاجتماعية لا يتم بصورة سريعة، وإنما يتطلب وقتاً طويلاً لتقبل تلك الأمور واستساغتها[428]. ولكن يمكننا أن نستنتج من هذه الروايات منزلة المرأة وقيمتها الاجتماعية في الأندلس خلال هذه الفترة، فالقصائد المدبجة بمدحهن أو رثائهن تشير بلا شك إلى ما يكنه الرجل إتجاههن من ود واحترام، وتدل على ما كان لهن من سلطة واسعة في الحياة الإدارية[429]. ثم نحس بارتفاع صوتها الأدبي وحريتها في التعبير عن مشاعرها بصراحة في مجالس تعقدها مع شعراء العصر كالمجالس التي ذكرتها المصادر للشاعرة (نزهون الكلاعية) مع الشاعر الأعمى المخزومي[430].

وكان الأندلسيون يحترمون المرأة ويقدرونها، سواء كانت زوجة أو جارية. فنستدل من تشددهم في بيع الجواري ـ بحيث يتطلب شرائهن حضور كاتب العقود وتبيان الأسباب المقنعة التي تطلب الجارية من أجلها بكل دقة[431]، على مدى تقديرهم للمرأة، وقد قوى المرابطون في الأندلس الشعور باحترام المرأة ربة الدار ومحاربة الكثير من وسائل اللهو والمجون التي سادت في عصر الطوائف، وذلك طبقاً لما يقتضيه المثل الأعلى البربري الذي ظل متعلقاً بنظام إجتماعي أولي يقوم على الأمومة أولاً، وتشدد المرابطون في تطبيق مبادئ الإسلام ثانياً[432].

كما أن بعض الأحداث السياسية دفعت يوسف بن تاشفين أن يتبع سياسة مشددة ضد اليهود في الأندلس، وبخاصة يهود اليسانه[433]، ولكن هذا لم يمنع من استخدام اليهود في أعمال الكتابة في الأندلس. فتشير بعض المصادر إلى أن والي غرناطة المرابطي (أبو عمر ينالة اللمتوني) كان له كاتب يهودي[434]. كما وجدت طائفة من اليهود في المغرب تزاول أعمالها نهاراً في المدن المغربية، وقد حرم عليهم أمير

(427) بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 299.

(428) السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص 49.

(429) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 31.

(430) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 424 ـ 326.

(431) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، جـ 4، ص 643.

(432) السامرائي، علاقات، ص 461.

(433) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص 482.

(434) ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 77.

المسلمين علي بن يوسف المبيت فيها ليلاً، وذلك كإجراء وقائي من خطر اليهود[435]. كما شهدت منطقة المغرب العربي في ظل المرابطين وفود طائفة جديدة من النصارى المعاهدين الذين غربوا من الأندلس عام 520هـ، وذلك نتيجة تعاون هؤلاء مع ألفونسو الأول المحارب ملك أرغون أثناء حملته المدمرة على الأندلس 519هـ، وقد أفتى قاضي الجماعة أبو الوليد محمد بن رشد بتغريبهم ونفيهم إلى المغرب[436].

ولا ينكر أن هذا التغريب لم يشمل جميع المعاهدين، كما أن أمراء المرابطين حرصوا على حسن الرعاية لهؤلاء سواء في الأندلس أو المغرب. فقد حصل أن معاهدي غرناطة رفعوا عريضة إلى علي بن يوسف ضد عاملها المرابطي (أبو عمر حفيد يوسف بن تاشفين) يحتجون فيها على سوء سيرته معهم، فاستدعاه علي إلى مراكش وأحاله إلى جلسة تحقيقية انتهت بالحكم عليه بالسجن[437].

إزاء هذه الأحداث، أشارت بعض المراجع إلى أن أهل الذمة عاشوا مضطهدين في دولة المرابطين[438]. ولكن الأمر لا يعدو، وكما بيناه أعلاه، إلا احتياطات ضرورية للأمن، إضافة إلى أنّ اليهود والمسيحيين عملوا في جباية الأموال في ظل دولة المرابطين[439].

ثم مال المرابطون إلى ألوان الترف بعد اختلاطهم بالأندلسيين واطلاعهم على أساليب الحياة في المدن الأندلسية، وبخاصة وأن عهد الطوائف عرف صوراً كثيرة من المجون والخلاعة[440]، مما جعلهم يتأثرون بحياة الرفاهية والمتعة التي كان يحياها أبناء الأندلس[441]. وقد استنكر محمد بن تومرت هذه الأحوال على المرابطين وحاربها بشتى الوسائل[442].

ولما كان اللثام شعار المرابطين، فقد اتخذ بعض العامة وبخاصة في الأندلس اللثام

---

(435) عبد العواد، الحياة الإدارية، ص 414.
(436) ابن الآبار، المعجم، ص 160 ـ سالم، قرطبة، جـ 1، ص 144.
(437) ميراندة، «علي بن يوسف»، ص 174 ـ 175.
(438) ينظر، حتي، تاريخ العرب، جـ 2، ص 646 ـ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، جـ 2، ص 188 ـ عبد البديع، الإسلام في إسبانية، ص 34 ـ 35.
(439) أشباخ، تاريخ الأندلس، جـ 2، ص 238.
(440) أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، ص 43.
(441) حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 422 ـ 423.
(442) السامرائي، علاقات، ص 464.

زياً لهم تطاولاً على الناس وترفعاً[443]، ومن هنا حتم ابن عبدون بأن اللثام لا بد أن يكون خاصاً بالصنهاجي أو اللمتوني أو اللمطي بالأندلس[444].

وخلال الحكم المرابطي للأندلس تلوح لنا ظاهرة اجتماعية جديرة بالإشارة وهي ظاهرة المدجنين، أي الأندلسيين الذين بقوا في مدنهم تحت سيطرة الممالك الإسبانية. هذه الممالك التي بدأت تسيطر على أهم قواعد الأندلس إعتباراً من عام 478هـ حيث سيطر ألفونسو السادس على مدينة طليطلة واتخذها عاصمة لمملكته. وتلا هذا التاريخ سيطرة الإسبان على قواعد أندلسية خلال الحكم المرابطي. وقد تعرض هؤلاء المدجنون إلى الاضطهاد والتنصير والإفناء بعد انتصار المرابطين في معركة الزلاقة عام 479هـ. وبمرور الزمن تعرضت هذه الجماعات إلى الانحلال والانقراض بتوالي الأجيال، وانقطاع الصلة بمواطن العروبة والإسلام، فأخذوا يفقدون الكثير من أخلاقهم وتقاليدهم ولغتهم. ومع ذلك فقد ظلت بقايا قليلة منهم، رغم الإرهاب، محتفظة بعروبتها حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادي[445].

وانضوت الأندلس تحت الحكم الموحدي القائم على الدين أيضاً، فسادت حياة الجهاد والخشونة على البلاد في البداية، وكرس خلفاء الموحدين جهودهم في إشاعة الأمن والاستقرار في ولاياتهم. ولما بلغ الخليفة عبد المؤمن عودة بعض الناس إلى مجالس الغناء والطرب أصدر مرسوماً عام 556هـ إلى ولاته بمطاردة هؤلاء وإزالة المنكرات[446]. وسار على نهجه ولده أبو يعقوب يوسف (558 ـ 580هـ) فنعمت الأندلس في عهده بالاستقرار والهدوء، ووصف هذا الخليفة بالتدين ورغبته في الجهاد[447]، وتوفي متأثراً بجراحه كما هو معروف. وفي عهد الخليفة المنصور (580 ـ 595هـ) جاهر بالمذهب الظاهري وجعله المذهب الرسمي. وطارد علم الفروع، وحارب المذهب المالكي وعمل على إزالته من المغرب والأندلس[448]. وهذا الأمر رغم كونه عقائدياً، إلا أن له صفة إجتماعية تتعلق بمعتقدات الناس اليومية.

كما نشط هذا الخليفة بمطاردة مظاهر الفساد والفجور حتى أنه منع صنع الثياب

---

(443) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 46.

(444) ثلاث رسائل أندلسية، ص 28.

(445) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 507 وما بعدها.

(446) أبو رميلة، علاقات، ص 430.

(447) السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص 31.

(448) المراكشي، المعجب، ص 354 ـ 355.

الحريرية[449]. وقد نال هذا الخليفة إعجاب عامة الناس وأنزلوه منزلة الأولياء وحاكوا حوله الأساطير، التي تعبر عن خيال العامة التي ازداد تعلقها بهذا الخليفة[450]. وبعد موت هذا الخليفة أخذت دولة الموحدين بالأفول، ولا سيما بعد معركة العقاب عام 609هـ. وتولى بعد الناصر ملوك ضعفاء لعبت بهم الأهواء وتجاسرت عليهم العامة، فأوجدت هذه الحالة نوعاً من القلق والتمزق النفسي في بلد الأندلس، فأكثر الشعراء من الشكوى، الشكوى من الدهر ومن الظلم ومن الفقر ومن الفساد[451]. هذا بالإضافة إلى ميل ولاة الأمر إلى شراء الجواري وتعليمهن الغناء، فقد كان لدى (أبو علي بن يبقى) والي مالقة جارية علمها الغناء فطلبها منه أبو العلاء المأمون فلم يستجب لطلبه، فلما تولي المأمون الخلافة عام 626هـ أحضر إليه أبا علي وضرب عنقه في إشبيلية[452].

وكان للمرأة مكانة مرموقة بالأندلس في عصر الموحدين، وهو استمرار للعصر السابق، ونستدل من آراء ابن رشد فيلسوف الموحدين علو المكانة التي وصلت إليها المرأة. فإبن رشد يرى أنه لا اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع وإنما هو اختلاف في الكم، أي أن طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال، ولكن النساء أضعف من الرجال في الأعمال. فطالب بإفساح المجال للنساء بالعمل وإعطائهن حرية التفكير[453]. ولعل هذه النظرة هي التي شجعت الشعراء على رثاء زوجاتهم دون أي خجل، وخير مثال رثاء ابن جبير زوجته أم المجد بديوان شعر كامل[454]. وفي عصر الموحدين يلمع إسم الشاعرة حفصة الركونية، وأخريات غيرها[455]، كن يقلن غزلاً صريحاً دون حرج أو خوف من عرف إجتماعي[456].

وتزوج الخلفاء الموحدون من سبايا الإسبان، واعتباراً من عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف، ولهذا كان بعض أولاده وأولاد أولاده من هؤلاء الإسبانيات[457]. وتميز هذا

---

(449) عنان، عصر الموحدين، ص 142 ـ ينظر، أبو رميلة، علاقات، ص 431.

(450) المقري، نفح، جـ 4، ص 382 ـ السعيد، الشعر في عهد المرابطين، ص 33.

(451) السعيد، الشعر، ص 217 وما بعدها.

(452) أبو رميلة ـ علاقات، ص 431.

(453) أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ 3، ص 257.

(454) عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة، جـ 5، ص 608.

(455) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 491 وما بعدها ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 292.

(456) السعيد، الشعر، ص 51.

(457) المراكشي، المعجب، ص 336، ص 404.

العصر أيضاً بإسلام بعض أمراء الإسبان، وبخاصة من مملكة قشتالة، حيث لجأ إلى الموحدين وأعلن إسلامه وتسمى باسم (أبو زكريا) وأصبح قائداً في الجيش الموحدي. ووجد بالمقابل أن أحد أمراء الموحدين اعتنق المسيحية[458]. واضطهد خلفاء الموحدين يهود الأندلس، وخيرهم عبد المؤمن بن علي بين الموت أو الهجرة إلى الشمال الإسباني أو الإسلام. فأسلم منهم طائفة ولحقت أخرى بدار الحرب (الشمال الإسباني)، وشمل الأمر المسيحيين كذلك[459]. وهذا يدل على سياسة متعصبة تنافي سماحة تعاليم الإسلام وموقفه من أهل الذمة. كما أجبر الخليفة أبو يوسف يعقوب (580 ـ 595هـ) يهود المغرب على التحلي بزي خاص، يميزهم عن غيرهم[460]. ومن الطبيعي أن ينسحب هذا الأمر على ولاية الأندلس الموحدية.

وعلى كل حال فإن النصارى في الأندلس كانوا أكثر حرية من اليهود، فلم يميزوا بلباس معين، كما أن الشعب الأندلسي يحس تجاههم بروابط عريقة لا يمكن أن يقارن بموقفه من اليهود[461].

وفي عصر مملكة غرناطة، فإن العناصر السكانية في المجتمع النصري تتألف من العرب والبربر وبعض الجاليات الإسلامية التي وصلت الأندلس قادمة من الهند وخراسان وإيران وسكنت ضواحي غرناطة[462]. وهذه العناصر تشكل طائفة المسلمين بالمملكة. وسادت في هذه المملكة موجة الاعتزاز بالعروبة وبالانتماء إلى قبائلها وخصائصها[463].

وحظي المسيحيون برعاية هذه المملكة وحمت الكثير من سكان الشمال الإسباني الذين لجأوا إليها واعتنق قسمٌ منهم الإسلام. كما سهلت هذه المملكة للمسيحيين الإسبان حرية التجارة[464]. وبالإضافة إلى هؤلاء وجد الأسرى الذين كثر وجودهم في مملكة غرناطة بسبب حروب الجهاد. وقسم من هؤلاء الأسرى اعتنق الإسلام فعرف هؤلاء بالمرتدين، وقد لاقوا الأمرين بعد سيطرة الإسبان على مدن هذه الدولة[465].

---

(458) أبو رميلة، علاقات، ص 463 ـ 464.

(459) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 5، ص 281.

(460) المراكشي، المعجب، ص 383.

(461) السعيد، الشعر، ص 53، ص 58.

(462) ينظر، ابن بطوطة، الرحلة، جـ 2، ص 769.

(463) ينظر، المقري، نفح، جـ 1، ص 447 ـ جـ 5، ص 7، ص 16، ص 479.

(464) فرحات، غرناطة، ص 108، ص 110.

(465) أيضاً، ص 112.

ووجدت طائفة في مملكة غرناطة تسمى (الفكاكين) ومهمتها تسهيل تبادل الأسرى بين مملكة غرناطة والممالك الإسبانية، وقد عرف الفكاكون بالاستقامة والصدق وتمتعوا بثقة الطرفين، ونالوا أجوراً عالية بدل أتعابهم[466].

وفي الوقت الذي استقبل فيه السلطان محمد الخامس عام 766هـ ثلاث مائة عائلة يهودية هربت من اضطهاد القشتالين، مع لجوء يهود البليار وقطلونية إلى مملكة بني الأحمر، إلا أن بعض سلاطين بني الأحمر أجبروا اليهود على وضع شارة تميزهم عن المسلمين، ومنعوا من ركوب الجياد[467]، ولقي هؤلاء اليهود الاضطهاد عندما سقطت مملكة غرناطة بيد الإسبان.

وكانت للمرأة مركز جيد في مجتمع غرناطة، وقد عرف هذا المجتمع عدداً منهن اشتهرن في ميادين الأدب والعلم والسياسة، ومثال على ذلك: مريم أم إسماعيل التي كانت محظية لدى يوسف الأول، وكان لها الدور البارز في خلع محمد الخامس. وتزعمت الصراع على السلطة عائشة الحرة زوجة أبي الحسن علي بن الأحمر وخليلته ثريا، وهذا ما دفع بملك بني الأحمر إلى الهاوية. ومن النساء اللواتي اشتهرن في اللغة والأدب حمدونة بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونية، وأم الحسن بنت أبي جعفر الطنجالي التي لمع إسمها في حقلي الطب والأدب[468].

وعلى الرغم من عدم الاستقرار السياسي في هذه المملكة فقد ظهرت فيها مجالس اللهو والترف حيث الشراب والرقص والغناء. ومعنى هذا أن المجتمع الغرناطي لم ينس حياة المرح حتى في أيام المحن، ولم تغمره الكآبة إلا عندما دق الإسبان أبواب غرناطة[469].

وكان الطاعون الأسود الذي انطلق من آسيا الوسطى عام 735هـ ووصل إلى أوروبا ماراً ببلاد إيطاليا وفرنسا ومنها إلى إسكندنافيا في عام 748هـ، وصلت رياحه إلى البليار وبرشلونة وبلنسية والمرية في عام 749هـ، ثم انتقل إلى مالقة، فحصد آلاف الناس من سكان مملكة غرناطة، وبخاصة مدن غرناطة وبلش ومالقة. كما عرف المجتمع النصري

(466) فرحات، غرناطة، ص 113 ـ 114.

(467) ينظر، ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 84 ـ المقري، نفح، جـ 1، ص 223 ـ فرحات، غرناطة، ص 115 ـ 116.

(468) ينظر، المقري، نفح، جـ 4، ص 318 ـ فرحات، غرناطة، ص 122.

(469) فرحات، غرناطة، ص 138 ـ 139.

الاهتمام بالصحة العامة، واشتهر المارستان في غرناطة والذي بني في عهد السلطان محمد الخامس، وكان هذا البناء مؤلفاً من جناحين واحد للرجال وآخر للنساء وكل جناح يتألف من طبقتين. بينهما بهو كبير في وسطه بركة ماء تصب فيها النافورات[470]. كما كانت رياضة الصيد وسباق الخيل ورمي الجريد من أهم أعمال التسلية في المجتمع النصري، ولعلها تمارين عسكرية مبسطة يتدرب عليها أفراد المجتمع الذي تتطلب ظروفه اليقظة والحذر والبسالة على الدوام[471].

النظم القضائية:

تعتبر خطة القضاء بالأندلس من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة وذلك لتعلقها بأمور الدين، مع احترام ولاة الأمر فيها لهذه الخطة وتطبيقها على أنفسهم وحاشيتهم إذا اقتضى الأمر ذلك[472].

وخلال عصر الولاة 95 ـ 138هـ كانت الأندلس في فترة قلقة تعتمد الجهاد في سبيل الله في الشمال الإسباني أو وراء جبال البرتات، بالإضافة إلى بعض الصراعات الداخلية. ومعنى هذا أن صفة الجندية كانت غالبة على أهلها. ولهذا سمي القاضي في هذه الفترة بقاضي الجند[473]. وهذا تقليد قضائي موجود في شمال إفريقية خلال هذه الفترة[474].

وأشهر قضاة الجند المسلمين في الأندلس خلال عصر الولاة ثلاثة هم: القاضي مهدي بن أسلم، وهو من أبناء المسالمة، والقاضي عنترة بن فلاح والقاضي يحيى بن زيد التجيبي[475]. ومن خلال تراجم هؤلاء القضاة يتبين لنا ما يلي:

1 ـ إن بعضهم، القاضي يحيى بن زيد، على رواية إنه تولى قضاء الأندلس بأمر من الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ)[476]. وفي رواية أخرى إن والي

---

(470) ينظر، فرحات، غرناطة، ص 134 ـ 135.

(471) ينظر، ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 90 ـ المقري، نفح، جـ 7، ص 174.

(472) ينظر، المقري، نفح، جـ 1، ص 217 ـ الحجي، القضاء، 211.

(473) الخشني، قضاة قرطبة، ص 14.

(474) ينظر، المالكي، رياض النفوس، جـ 1، ص 57 ـ الدباغ، معالم الإيمان، جـ 1، ص 202.

(475) ينظر، الخشني، قضاة قرطبة، ص 8 ـ 14 ـ النباهي، المرقبة العليا، ص 42 ـ 43 ـ ابن الآبار، التكملة، جـ 2، ص 731.

(476) النباهي، المرقبة العليا، ص 43 ـ الخشني، قضاة قرطبة، ص 14.

إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي إلى الأندلس الوالي أبو الخطار حسان بن ضرار الكلبي (125 ـ 128هـ) ووجه معه يحيى بن يزيد التجيبي قاضياً[477].

2 ـ والي الأندلس هو الذي يعين قاضي الجند، كما هو حال القاضي مهدي بن أسلم الذي ولاه هذا المنصب والي الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي (116 ـ 121هـ)[478].

3 ـ وصف جميع هؤلاء القضاة بالورع والتقوى، مع تميزهم بالتحري عن الحق، وإرجاعه إلى أهله، مع براعتهم في البلاغة والخطابة[479].

4 ـ كان هؤلاء القضاة يتقبلون النقد من الناس، ويصلحون أمورهم على ضوء هذا النقد، لأن القاضي يجب أن يكون صافي السريرة كورعه وتقواه في الظاهر، كما حصل للقاضي عنترة بن فلاح[480].

5 ـ وجد تقليد قضائي أندلسي خلال هذه الفترة بكتابة عهد تولية القاضي من قبل الوالي، ووجد أيضاً من باب إكرام القاضي أن القاضي نفسه كتب عهد التولية لنفسه كما حصل للقاضي مهدي بن أسلم[481]. ومن خلال هذا العهد نرى:

أ ـ التلطف مع الخصوم والاستماع لكل ما يقولون، وهذا تقليد إسلامي منذ فجر الإسلام.

ب ـ تعقد مجالس القضاء في المسجد.

جـ ـ وردت في العهد وظائف تابعة لمنصب القضاء وهي:

1 ـ وظيفة الفتيا والمشورة وأعوان القاضي (المعينون).

2 ـ الشهود والمزكون (الذين يزكون حجج الخصوم).

3 ـ الاستعانة بالقاضي إبراهيم بن حرب. ولا توجد لدينا معلومات عن هذا القاضي[482]، لكن يبدو لنا أن هذا القاضي كان قاضي الجماعة في قرطبة، وأن مهدي

---

(477) الخشني، قضاة قرطبة، ص 14.

(478) النباهي، المرقبة العليا، ص 42.

(479) الخشني، قضاة قرطبة، ص 9 ـ النباهي، المرقبة العليا، ص 43.

(480) أيضاً، ص 13.

(481) ينظر، الخشني، ص 9 وما بعدها.

(482) مؤنس، فجر الأندلس، ص 648.

ابن أسلم والقضاة الآخرين كانوا قضاة الجند الذين يفصلون في أمر الجند في العاصمة أو عندما يخرجوا معهم في معارك الجهاد، ودليلنا على ذلك، أنه على الرغم من وضوح منصب قاضي الجماعة بقرطبة في عصر الإمارة[483]، لكن بقي منصب قاضي الجند بقرطبة وتولاه محمد بن بشير (توفي عام 198هـ)[484].

6 ـ واحترم الحكم العربي في الأندلس خلال هذه الفترة أهل الذمة من اليهود والمسيحيين، وجعل لهم الحرية الكاملة في اختيار قضائهم وفض المنازعات التي تقع بينهم بموجب قوانينهم الخاصة ولا تتدخل الدولة في أمورهم، ولهذا وجد اسم قاضي العجم أو القومس. وفي الحالات التي يقع فيها الخصام بين مسلم وذمي يقوم القاضي المسلم بفض المنازعات، ولذا يجلس هذا القاضي في رحبة المسجد لكي يتمكن أهل الذمة الوصول إليه بيسر[485].

وفي عصر الإمارة 138 ـ 316هـ، استقرت الدولة العربية في الأندلس وبدأت نظمها تظهر أكثر وضوحاً مما كانت عليه في عصر الولاة. ولذا نرى في هذا العصر الاهتمام بنظم القضاء، وقد سار عبد الرحمن الداخل وأولادهُ وأحفادهُ الذين حكموا الأندلس من بعده على اختيار القضاة الجيدين الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم. ولهذا نرى من خلال كتب التاريخ التي تترجم حياة كل أمير أموي تشير إلى أهم قضاته[486]، ونرى من خلال الكتب الأندلسية التي اهتمت بالقضاء أنها تروي حياة القاضي مشيرة إلى اسم الأمير الذي ولاه القضاء[487].

ولنظام القضاء في هذا العصر عدة مميزات أهمها:

1 ـ قاضي العاصمة قرطبة يسمى قاضي القضاة أو قاضي الجماعة وكانت سلطته لا تتجاوز حدود الإقليم أو المدينة نفسها. وكان للمدن والأقاليم الأندلسية الأخرى قضاة لا علاقة لهم بقاضي الجماعة، ولكن أحياناً كان الأمير يستشير قاضي الجماعة في تعيين

(483) الخشني، قضاة قرطبة (المقدمة ز).
(484) النباهي، المرقبة العليا، ص 21.
(485) ينظر، مؤنس، فجر الأندلس، ص 447، ص 526 ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 141، ص 158.
(486) ينظر، ابن عذاري، جـ 2، ص 48 وما بعدها ـ الخشني، قضاة قرطبة، ص 15 وما بعدها.
(487) ينظر، النباهي، المرقبة العليا، ص 43 وما بعدها ـ الخشني، قضاة قرطبة، ص 15 وما بعدها.

قضاة الأقاليم، وأحياناً يقوم بمهمة التحقيق مع قضاة الإقليم عندما يكلفه الأمير بذلك[488].

وقاضي الجماعة يقيم في العاصمة، وبقي منصب قاضي الجند الذي يرافق الجيوش في حلها وترحالها، وربما جمع المنصبان في شخص واحد كالقاضي يحيى بن زيد التجيبي فإنه كان قاضي الجماعة وقاضي العسكر لخروجه مع الأمير في الغزوات[489].

2 ـ ومن خلال دراسة نظام القضاء في عصر الإمارة، نرى إحجام عدد كبير من الفقهاء والعلماء على تولي خطة القضاء، وقد تذرعوا بحجج كثيرة للتخلص من تولي هذا المنصب، فمنهم من هرب بعد إجباره على تولي القضاء، ومنهم من تعرض للخطر بسبب امتناعه، لأن هذا الامتناع كان يغضب الأمير الأموي، الذي يوشك أن يفتك بهذا الرجل، ومنهم من مد عنقه لضربه بالسيف تحدياً لسلطة الأمير وامتناعاً عن قبول هذا المنصب. وأكثر الأحيان يخضع الأمير الأموي لرغبة الممتنع، ولكن يترجاه أن يشير عليه بمن يصلح أن يتولى هذا الأمر[490].

3 ـ من المعروف أن للقاضي راتباً حددته له الدولة من بيت المال[491]، ولكن نرى في الأندلس أن بعض القضاة أمثال محمد بن أسحاق بن السليم كان يصيد السمك في نهر قرطبة ويقتات من ثمنها ولا يؤخذ رزقاً من الدولة[492]. ووجد من قضاة الأندلس من امتنع عن أخذ الأجور عن يوم العطل والجمع، وعن الأيام التي لم ينظر فيها للقضاء بسبب انشغاله بأمور أخرى أمثال القاضي سليمان بن أسود الغافقي، وعمر بن شراحيل المعافري وغيرهم، ومنهم من بقي على حاله لم يغيره المنصب أمثال القاضي محمد بن سلمة الذي بقي يسكن داراً للإيجار[493].

4 ـ وجد في نظام القضاء الأندلسي خلال عصر الإمارة، نظام المناوبة على منصب

---

(488) الخشني، قضاة قرطبة، المقدمة ح.

(489) مؤنس، فجر الأندلس، ص 645 ـ إبراهيم الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 244.

(490) ينظر، النباهي، المرقبة العليا، ص 12 وما بعدها.

(491) ظافر القاسمي، نظام الحكم، جـ 1، ص 218.

(492) ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 214 (هذا نموذج في عصر الخلافة ضربناه مثلاً للتدليل).

(493) ينظر، الخشني، قضاة قرطبة، ص 22 ـ 73، ص 95.

قاضي الجماعة بقرطبة، فيعطى عاماً لقاضي، وعاماً لقاضي آخر، وقد تناوب على هذا المنصب القاضي معاوية بن صالح الحضرمي والقاضي عمر بن شراحيل المعافري، وإذا نسي الأمير (وبخاصة في عصر الداخل) عملية المناوبة يذكره القاضي صاحب الدور بهذا الأمر[494].

5 ـ وعهد إلى القاضي بجانب منصبه الرسمي أعمالاً أخرى، فالأمير عبد الرحمن الداخل كلف القاضي معاوية بن صالح الحضرمي بأن يذهب إلى بلاد الشام لجلب أخته أم الأصبغ، وهو الذي جلب للأندلس بعض تحف أهل الشام منها الرمان والذي عرف فيما بعد بالرمان السفري[495].

وبجانب القضاء تولى هذا القاضي أيضاً الصلاة في المسجد الجامع وكذلك الخروج في الجيش للجهاد في سبيل الله، حيث خرج هذا القاضي مع الأمير الداخل في غزوة سرقسطة التي حارب بها ابن الأعرابي. والقاضي الفرج بن كنانة الذي خرج مع القائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى الشمال الإسباني يمارس الجهاد ورابط هناك[496].

6 ـ ونرى من خلال دراستنا لنظام القضاء الأندلسي في عصر الإمارة، تميز القضاة بصفة الورع والتقوى والصلابة التي تصل أحياناً إلى تحدي الأمير وحاشيته. فنرى مثلاً القاضي نصر بن طريف اليحصبي يقف بصلابة أمام الأمير عبد الرحمن الداخل حول قضية حبيب القرشي[497]. وكذلك القاضي المصعب بن عمران قاضي الأمير الحكم الذي حكم عدلاً في قضية ضيعة أحد أهالي جيان متحدياً الأمير وقريبه العباس بن عبد الملك الذي اغتصب هذه الضيعة[498]. وكذلك القاضي محمد بن بشير المعافري الذي تولى القضاء للأمير الحكم على شروط منها: أن أحكامه تطبق على الجميع من الأمير إلى حارس السوق. وبالفعل نفذ أحكامه على الأمير الحكم حول رحى القنطرة، ورفض كذلك شهادة الأمير الحكم في قضية سعيد الخير بن الأمير عبد الرحمن الداخل (عم

---

(494) أيضاً، ص 22.

(495) أيضاً، ص 17.

(496) ينظر، الخشني، قضاة قرطبة، ص 17 ـ 18، ص 91 ـ المرقبة العليا، ص 54.

(497) النباهي، المرقبة العليا، ص 44.

(498) أيضاً، ص 46 ـ الخشني، قضاة قرطبة، ص 26.

الأمير الحكم)[499].

وكان الموقف الصلب الذي وقفه القاضي سليمان بن الأسود الغافقي في وجه الأمير محمد والي ماردة، في عهد أبيه الأمير عبد الرحمن، في قضية الجارية التي تعود لليهودي، هذا الموقف هو الذي دفع الأمير محمد عندما تولى الحكم أن يعين هذا القاضي، قاضياً للجماعة بقرطبة[500].

7 ـ كان قضاة الأندلس، وبالذات قاضي الجماعة، إذا أشكل عليهم أمرٌ قضائي أو فقهي، استعانوا برأي زملائهم قضاة المشرق، وهذا يدل بوضوح على الصلات الفكرية المتصلة التي تتجاوز الخلافات السياسية. فنرى القاضي يحيى بن معمر قاضي الأمير عبد الرحمن الداخل إذا أشكل عليه أمرٌ كتب به إلى القاضي أصبغ بن الفرج وزملائه في مصر. وكذلك القاضي محمد بن بشير المعافري قاضي الأمير الحكم إذا أشكل عليه الأمر كتب إلى القاضي عبد الرحمن بن القاسم. هذا بالإضافة إلى رحلة بعضهم إلى المشرق بنفسه كرحلة القاضي عامر بن معاوية قاضي الأمير المنذر[501].

8 ـ من المعروف لدينا، أن علماء الأندلس عموماً كانوا يشدون الرحال إلى المشرق للتزود بالعلوم ومن ثم الرجوع إلى الأندلس لينشروها في ربوع بلادهم. ولكن وجد لدينا ومن خلال دراسة نظام القضاء في عصر الإمارة، ونظراً للمكانة الجليلة التي وصل إليها قاضي الجماعة في قرطبة، أن علماء من المشرق رحلوا على الأندلس، وأخذوا منه العلم، أمثال القاضي معاوية بن صالح الحضرمي الذي رحل إليه زيد بن الحباب من الكوفة فسمع منه بالأندلس حديثاً كثيراً[502].

9 ـ وجد خلال دراستنا للقضاء في هذا العصر تهاون بعض القضاة في أحكامهم مما دفع الأمراء إلى عزلهم والاستغناء عن خدماتهم، وهذا التهاون تراوح بين الاستعجال في الأحكام مثل القاضي معاذ بن عثمان الشعباني[503]، أو التهاون في إقامة حد شرعي، كتهاون القاضي محمد بن زياد اللخمي في سفك دم ابن أخ عجب حظية

---

(499) النباهي، المرقبة العليا، ص 48 ـ 49 ـ الخشني، قضاة قرطبة، ص 29.

(500) ينظر، أيضاً، ص 56 ـ 57 ـ أيضاً، ص 73.

(501) ينظر، النباهي، المرقبة العليا، ص 45، ص 48 ـ الخشني، قضاة قرطبة، ص 35، ص 90.

(502) النباهي، المرقبة العليا، ص 43.

(503) النباهي، المرقبة العليا، ص 55.

الأمير الحكم الذي اتهم بالزندقة[504].

10 ـ ويبدو كذلك، أن نظام القضاء في الأندلس واعتباراً من عصر الإمارة كان مكتمل الجوانب، فهناك مجلس الشورى أو المشاورة الذي يجمعه الأمير في أمر جلل، ويشمل قاضي الجماعة وفقهاء الأندلس وسمي هذا المجلس بالأندلس بـ (مجلس النشمة)، هذا المجلس هو الذي نظر في قضية ابن أخ عجب المارة الذكر[505]. وكان كذلك للقاضي أعوان يسمون بـ (أعوان القاضي) وهم الذين يستدعون الخصوم إلى مجلس القضاء في المسجد الجامع[506].

وهم الذين يسمون أيضاً بـ (القَوَمة)، وهناك الأمناء الذين يعتمد عليهم القاضي وهم الذين يشرفون على التركات والودائع[507]. كما كان للقاضي كاتب، كما وجد السجن لمعاقبة المخالفين. وهناك صاحب الوثائق الذي يقدم وثائق الدعاوى لكي ينظر فيها القاضي[508].

وفي عصر الخلافة 316 ـ 422هـ، استمرت هذه القواعد العامة للقضاء ثابتة الأركان، تنمو وتزدهر تحت رعاية خلفاء قدروا أهمية القضاء فاختاروا لهذا المنصب أفقه الناس وأكثرهم علماً وتديناً. فنرى القاضي الصلب الذي لا يخشى في الحق لومة لائم أمثال المنذر بن سعيد البلوطي الذي تعرض للناصر علناً وانتقده على إسرافه في بناء مدينة الزهراء، وكان رد فعل الناصر إنه أقسم أن لا يصلي وراءه في مسجد الزهراء. وكان يذهب إلى قرطبة ويصلي في مسجدها[509]. ونجد كذلك الصلاحيات الواسعة التي أعطيت للقاضي، فكان الناصر إذا خرج من العاصمة استخلف على قصره القاضي أسلم ابن عبد العزيز، بالإضافة إلى تكليف القاضي بمهمات أخرى مثل السفارات إلى كبار الأمراء، والإشراف على الثغور، وقيادة الجيوش إلى الشمال الإسباني أمثال القاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، والقاضي الحسن بن عبد الله الجذامي[510].

---

(504) الخشني، قضاة قرطبة، ص 59 وما بعدها.
(505) ينظر، الخشني، قضاة قرطبة، ص 59، ص 92، ص 101.
(506) النباهي، المرقبة العليا، ص 57 ـ الخشني، قضاة، ص 108.
(507) ينظر ظافر القاسمي، نظام الحكم، جـ 2، ص 417، ص ـ 42 ـ الخشني، قضاة، ص 110.
(508) الخشني، قضاة، ص 114 ـ 115.
(509) النباهي، المرقبة العليا، ص 66 وما بعدها ـ ص 83.
(510) أيضاً، ص 60 ـ ظافر القاسمي، نظام الحكم، جـ 2، ص 294.

من المميزات المهمة التي ظهرت في النظام القضائي خلال عصر الخلافة هي:

1 ـ أسرف بعض القضاة أمثال القاضي أسلم بن عبد العزيز في ضرب الجناة والمخالفين بالسياط[511]، ويبدو أن هذه الظاهرة أصبحت مكروهة لدى القضاة الآخرين، فلهذا نرى القاضي أحمد بن بقي بن مخلد والقاضي محمد بن يبقى بن زُرب، لم يضربا أحداً بالسياط، إلا من استحق ذلك من الفسقة والمارقين[512].

2 ـ تولى القاضي مهمات جديدة خلال هذه الفترة، وهي مطاردة المذاهب الفلسفية بالأندلس، وبخاصة مطاردة أتباع مدرسة ابن مسرة الفلسفية المشهورة، فتولى هذه المهمة القاضي محمد بن يبقى بن زرب بمطاردة أتباع هذه المدرسة، ومقارعتها فكرياً كذلك بوضع كتاب يرد فيه على آراء ابن مسرة[513]. كما تولى بعض قضاة قرطبة محاربة الملاهي ومجالس الطرب، ويأمر أتباعه بكسر أدواتهم[514].

3 ـ في عصر الخلافة وبالذات في فترة الحجابة، سمي قاضي الجماعة بقرطبة بقاضي القضاة وأول من تسمى به القاضي أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان، وهو الذي شارك المنصور في معظم غزواته، وأفرد له بيتاً خاصاً داخل القصر لكي يكون قريباً من الحاجب المنصور حتى يشاوره في معظم الأمور[515].

4 ـ ضمت إلى قاضي القضاة مناصب أخرى مهمة كمنصب الوزارة الذي أضيف إلى ابن ذكوان[516]، وصاحب المظالم (ولاية المظالم) التي أعطيت إلى القاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس، مع خطة الوزارة أيضاً والصلاة[517]، وهي صلاحيات واسعة جداً كما نرى.

وخلال فترة الفتنة 399 ـ 422هـ نرى أن نظام القضاء أصابه الخلل الذي عم سائر نظم الأندلس، ومن المميزات الجديدة التي ظهرت في هذه الفترة:

---

(511) الخشني، قضاة قرطبة، ص 108 ـ ص 113.
(512) النباهي، المرقبة العليا، ص 63، ص 78 ـ الديباج المذهب، جـ 2، ص.
(513) أيضاً، ص 78.
(514) الخشني، قضاة قرطبة، ص 119.
(515) النباهي، المرقبة العليا، ص 84.
(516) أيضاً، ص 86.
(517) أيضاً، ص 87 ـ ظافر القاسمي، نظام الحكم، جـ 2، ص 577.

1 ـ انتهاك حرمة القضاء، وإهانة القاضي الذي أصبح أضحوكة وألعوبة بيد الغوغاء، كما حصل للقاضي يحيى بن وافد اللخمي الذي تخلص من الصلب بأعجوبة، إلا أنه سجن ومات في سجنه عام 404هـ(518).

2 ـ تعطيل خطة القضاء أكثر من ثلاث سنوات خلال هذه الفترة وبالذات في عهد حكم سليمان بن الحكم (المستعين 403 ـ 407هـ) وقد أعادها بنو حمود مرة أخرى وعهدوا بها إلى القاضي عبد الرحمن بن بشر(519).

ولما سقطت الخلافة الاندلسية عام 422هـ كان للقضاة نصيب وافر من تركتها، فأبو الحزم بن جهور قاضي الجماعة في قرطبة أسس دولة الجهاورة فيها(520). والقاضي إسماعيل بن عباد قاضي إشبيلية، أسس بها إمارته فقامت إمارة بني عباد فيها(521). والقاضي محمد بن الحسن الجذامي النباهي الوزير القاضي في إمارة بلقين بن باديس في غرناطة ومالقة، حيث تولى خطة القضاء والوزارة في جميع كورة رية(522) ونرى خلال عصر الطوائف عدة مظاهر فيما يتعلق بالقضاء:

1 ـ جرف تيار الفتنة بعض القضاة، وركضوا وراء أهوائهم فأيدوا الفرقة والانقسام، وكانوا أكبر عضد لأمراء الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم وتزكية تصرفاتهم(523).

2 ـ تزعم صالح العلماء وخيرة القضاة الدعوة الى توحيد الأندلس في أيام الطوائف، مدفوعين للقيام بهذا العمل سواءً حسبة لله تعالى، أو بتكليف من بعض أمراء الأندلس ويأتي في مقدمة هؤلاء القضاة الصالحين: القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي(524). وشاركه في هذه المهمة ابن حزم الأندلسي من خلال نقده اللاذع لملوك الطوائف، وكذلك ابن حيان(525).

---

(518) النباهي، المرقبة العليا، ص 88 ـ 89.

(519) أيضاً، ص 89.

(520) عنان، دولة الطوائف، ص 21 وما بعدها.

(521) محمد ابن عبود، التاريخ السياسي، ص 44 وما بعدها.

(522) النباهي، المرقبة العليا، ص 92.

(523) ينظر، عنان، دولة الطوائف، ص 420 ـ 421.

(524) السامرائي، «الدعوة إلى توحيد الأندلس»، ص 82 وما بعدها.

(525) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 254 ـ المقري، نفح، جـ 4، ص 453 ـ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 345.

3 ـ تزعم بعض القضاة ثورة بعض المدن الأندلسية ضد حكامها الخاضعين لملوك الإسبان. وتأتي في مقدمة هذه المدن، مدينة بلنسية التي ثار أهلها على حاكمها القادر ابن ذي النون بقيادة قاضيها أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري، فقتلوه عام 485هـ، وتولى أمرها هذا القاضي[526].

حاصر الكمبيادور بلنسية على أثر هذه الثورة واستمر حصاره لها من عام 485هـ إلى عام 487هـ فدخلها غاضباً، وأهان أهلها، وأحرق علمائها، وأول من وقع عليه الحرق قاضيها ابن جحاف المعافري وذلك في عام 488هـ[527].

4 ـ ساهم الفقهاء والعلماء والقضاة في تهيئة الأمور لعبور المرابطين إلى الأندلس خلال عصر الطوائف. سواء أولئك الفقهاء الذين عبروا إلى عدوة المغرب يطلبون العون من أمير المرابطين، أم أولئك القضاة الذين أرسلهم بعض أمراء الطوائف إلى المغرب وهم: قاضي بطليوس أبو إسحاق بن مقنا، وقاضي غرناطة القليعي، وقاضي إشبيلية أبو بكر بن أدهم، إلى يوسف بن تاشفين للاتفاق معه على خطة العبور إلى الأندلس[528].

وأصبحت الأندلس ولاية مرابطية، واعتمدت الدولة المرابطية الدين في جميع أحكامها واعتمدت كثيراً على العلماء والفقهاء. ومن مميزات قضاء الأندلس خلال هذه الفترة:

1 ـ اشتراك القضاة في حروب الجهاد ضد الممالك الإسبانية التي دخلت حرباً ضروساً ضد المرابطين في الأندلس. فلما انهزمت القوات المرابطية أمام قوات ألفونسو الأول المحارب ملك أرغون عام 514هـ في معركة قتندة، استشهد كثير من المسلمين في هذه المعركة ومن بينهم العديد من العلماء والفقهاء منهم القاضي أبو علي الصدفي (452 ـ 514هـ) والقاضي أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن الفراء قاضي المرية[529]. وممن حضر هذه المعركة أيضاً القاضي الإشبيلي أبو بكر بن العربي[530].

---

(526) ينظر، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 103 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 31 ـ 32 ـ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 179، ص 182، ص 203 ـ The cid and his Spain, P: 295-300.

(527) ينظر، كريم عجيل، الحياة العلمية، ص 135 وما بعدها.

(528) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 98 ـ 99 ـ السامرائي ـ علاقات، ص 157، ص 167 ـ 168.

(529) ينظر، ابن بشكوال، الصلة، ترجمة (رقم 330) وترجمة رقم (1261) ـ المقري، نفح، جـ 2، ص 90 ـ 93 ـ أزهار الرياض، جـ 3، ص 153 ـ 154.

(530) المقري، نفح، جـ 4، ص 461 ـ أزهار الرياض، جـ 3، ص 154.

2 ـ مشاركة القضاة في هذا العصر في أحداثه السياسية المهمة، وأفتوا بأمور خطيرة أقرتها دولة المرابطين. يتمثل هذا بدور قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد الذي عبر إلى الأندلس وقابل أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وشرح له أحوال الأندلس، وما أصابها من حملة ألفونسو المحارب المدمرة عام 519هـ بسبب استدعاء المعاهدين له، فأفتى بتغريبهم وإجلائهم من أوطانهم عقاباً لهم على هذا التآمر[531].

أخذ علي بن يوسف بهذه الفتوى، وصدر عهده إلى جميع بلاد الأندلس بتغريب المعاهدين إلى عدوة المغرب، فنفيت منهم جموع غفيرة في رمضان عام 521هـ[532].

3 ـ في عام 503هـ صدرت أوامر علي بن يوسف بحرق كتب الغزالي وبخاصة كتاب إحياء علوم الدين، فتم إحراقها في المغرب والأندلس، واستمرت دولة المرابطين في سياستها هذه إلى آخر عهدها، حيث وجهت رسالة في عام 538هـ من قبل تاشفين ابن علي إلى أهل بلنسية، يحدد فيها مناط الفتيا ومصدر الأحكام وهو مذهب مالك، ومحاربة البدع وكتبها وبخاصة كتب الغزالي[533]. وقد استند الفقهاء في تبرير ذلك إلى احتواء كتاب الإحياء على علم الكلام والفلسفة. وهذا الأمر يدل على أن الدولة كانت خاضعة لسلطة الفقهاء، ويدل أيضاً على أن المذهب المالكي كانت له السيطرة على الجميع[534]. وربما كان ذلك بسبب ما وجد في كتاب الإحياء من هجوم على طبقة العلماء والفقهاء الذين يتخذون من العلم والدين مطية لتحقيق أطماع دنيوية من ثراء وجاه. وقد عارض بعض قضاة الأندلس عملية الإحراق هذه، ويأتي في مقدمتهم قاضي المرية أبو الحسن البرجي[535].

4 ـ كلفت الدولة المرابطية بعض قضاة الأندلس بمهمات سياسية ودبلوماسية كبيرة. فقد أرسل أميرُ المسلمين يوسف بن تاشفين عبدَ الله بن محمد العربي المعافري

---

(531) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 4، ص 72 ـ 73 ـ النباهي، المرقبة العليا، ص 98 ـ 99 ـ ابن فرحون، الديباج المذهب، جـ 2، ص 248 ترجمة (رقم 72).
(532) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 114.
(533) ابن القطان، نظم الجمان، ص 14 ـ 15 ـ السامرائي، علاقات، ص 430 ـ 431.
(534) كنون، النبوغ المغربي، جـ 1، ص 76.
(535) السامرائي، علاقات، ص 431.

وولده محمد الملقب أبو بكر قاضي إشبيلية في سفارة إلى بغداد (485 ـ 493هـ) من أجل إحضار تفويض الخلافة العباسية بصحة ولاية يوسف بن تاشفين، ووجوب طاعته، وإحضار فتوى من الإمام الغزالي بهذا المعنى[536]. وقد أفلحت هذه السفارة في مهمتها[537].

5 ـ تزعم الفقهاء والقضاة ثورة أهل الأندلس على المرابطين في السنوات الأخيرة من الحكم المرابطي بالأندلس. وكان من الزعماء الفقيه محمد بن المنذر الذي سيطر على مدينة باجة[538]. وكذلك القاضي حمدين بن محمد بن حمدين التغلبي الذي سيطر على قرطبة ولقبوه أمير المسلمين المنصور بالله[539]. وتزعم قاضي غرناطة الثورة ضد المرابطين وهو (أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى)[540]. وفي مدينة مالقة ثار قاضيها (أبو الحكم بن حسون) على المرابطين ودعا لنفسه وحاصر المرابطين في المدينة حتى أخرجهم منها[541]. وكذلك ثار في جيان قاضيها يوسف بن عبد الرحمن بن جزي وأنشأ بها حكومة مستقلة[542]. وفي بلنسية تجمع الثوار تحت زعامة قاضيها أبي عبد الملك مروان بن عبد العزيز الذي قبل الأمر مكرهاً[543].

ومن الملاحظ أن أكثر ثوار الأندلس ضد المرابطين هم من الفقهاء والقضاة وأعلام الأدب، وهذا يعود إلى المركز والنفوذ الذي تمتعوا به في ظل دولة المرابطين حتى تركزت فيهم عناصر الزعامة المحلية، فلما بدأ سلطان المرابطين بالأفول قام هؤلاء الفقهاء والقضاة بزعامة مدنهم من أجل استرداد سلطانهم القومي. إلا أن معظم هذه الثورات تم القضاء عليها إما بواسطة القوات المرابطية المتواجدة في ولاية الأندلس، أو بانضواء قادتها تحت لواء الدولة الموحدية الجديدة[544].

---

(536) ينظر، النباهي، المرقبة العليا، ص 105 وما بعدها.
(537) ينظر، السامرائي، علاقات، ص 389 وما بعدها.
(538) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، جـ 203.
(539) النباهي، المرقبة العليا، ص 103 ـ علام، الدولة الموحدية، ص 154.
(540) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 211 ـ 212.
(541) السامرائي، علاقات، ص 331 ـ 332.
(542) ابن الخطيب، أعمال، ص 259 ـ عنان، عصر المرابطين، ص 321.
(543) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 2، ص 219 ـ علام، الدولة الموحدية، ص 166.
(544) عنان، عصر المرابطين، ص 318 ـ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، 39.

ثم أصبحت الأندلس ولاية موحدية، وتميز النظام القضائي فيها بعدة مميزات وأهمها:

1 ـ يقوم الخليفة الموحدي بتعيين قضاة الجماعة في سائر المدن الكبرى، دون تدخل ولاة هذه المدن. وشمل هذا الإجراء الأندلس التي يعين لها قضاة من أبنائها، إلا أن الدولة الموحدية أحياناً تولي القضاء ببعض المدن الأندلسية بعض المشهورين من قضاة المغرب، ومثال على ذلك أن أبا عبد الله محمد بن يخلفتين التلمساني ولي قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة، وأن ابن جبل الهمداني من أهل وهران ولي قضاء إشبيلية عام 592هـ[545]. وفي الوقت نفسه كان الخليفة الموحدي يختار لقضاء الجماعة بمراكش بعض القضاة البارزين من أهل الأندلس أمثال أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد ابن بقي بن مخلد قاضي القضاة بالمغرب وهو من أهل قرطبة، وغيره[546]. وهذا يعود إلى تفوق القضاة الأندلسيين في الفقه المالكي، وفي ممارسة الأحكام وتطبيقها[547].

2 ـ عانت الأندلس خلال حكم الموحدين من خطر الممالك الإسبانية، ودارت رحى الحرب بين الطرفين على أراضيها، وقد شارك الكثير من قضاة الأندلس خلال هذه الفترة في معارك الجهاد أمثال القاضي محمد بن حسن صاحب الصلاة الذي استشهد في وقعة العقاب عام 609هـ، وكذلك القاضي إبراهيم بن أحمد الأنصاري الذي استشهد في جزيرة ميورقة عام 627هـ عندما هاجمتها الأساطيل الأوروبية والإسبانية، والقاضي أبو الربيع سليمان بن موسى الحميري الكلاعي الذي استشهد عام 634 هـ في معركة أنيشة قرب بلنسية[548].

3 ـ في هذه الفترة التي شهدت ثورات ابن هود وابن غانية على الموحدين. فإن هؤلاء الأمراء اهتموا بالقضاء وولوه خيرة القضاة في مناطق نفوذهم. فالأمير محمد بن يوسف بن هود عهد بقضاء مالقة إلى القاضي محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن النباهي، وكذلك ولّى قضاء قرطبة للقاضي ربيع بن عبد الرحمن الأشعري[549] أما الأمير

(545) ينظر، ابن الآبار، التكملة، ترجمة رقم 1616، ورقم 1719.

(546) النباهي، المرقبة العليا، ص 117.

(547) عنان، عصر الموحدين، جـ 628.

(548) ينظر، النباهي، المرقبة العليا، ص 115، ص 117، ص 119.

(549) النباهي، المرقبة العليا، ص 112، ص 118.

إسحق بن محمد بن غانية أمير ميورقة، فعهد بقضاء الجزيرة إلى إبراهيم بن أحمد الأنصاري الشهيد[550].

4 ـ أعطيت صلاحيات واسعة لبعض قضاة بالأندلس، فأضيفت إلى أعمالهم أيضاً النظر في الحسبة والنظر في أمر الشرطة وغيرها من الأعمال. ومن القضاة الذين تولوا مثل هذه الأمور القاضي عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي الملقب بابن الفرس (524 ـ 597هـ)[551].

وفي عصر مملكة غرناطة كان يطلق على رئيس القضاة اسم قاضي الجماعة وقاضي الحضرة وقاضي غرناطة. ويليه مرتبة قضاة مالقة والمرية ووادي أش ورندة وبسطة وسواها من المدن الكبرى في المملكة، ولقاضي الجماعة سلطة على سائر القضاة فيشرف على أعمالهم ويرشدهم، ويراقب سلوكهم، ويتأكد من صحة الأحكام التي تصدر عنهم. إلا أن تلك السلطة كانت مبدئية لأن السلطان النصري كان يصدر مرسوماً يعرف باسم (ظهير ملكي) يعين بموجبه قضاة الأقاليم دون الرجوع إلى قاضي الجماعة[552].

ومن أشهر قضاة الجماعة بغرناطة في هذه الفترة القاضي يحيى بن عبد الرحمن الأشعري (توفي عام 639هـ)، والقاضي أبو بكر محمد الأشبرون، الذي تولى أيضاً السوق والشرطة (توفي عام 671هـ)[553]. ومن أشهر قضاة المملكة والذين تولوا القضاء في مدينة مالقة القاضي الحسن بن محمد بن الحسن الجذامي النباهي، وكان صلباً في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان لا يقبل شهادة من يأكل الحرام[554].

وشارك القضاة في معارك الجهاد التي خاضتها مملكة غرناطة ضد الممالك الإسبانية التي كانت تهدف إلى ابتلاع هذه المملكة. ففي عهد السلطان محمد الرابع (725 ـ 733هـ) تولى منصب قاضي الجماعة الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الأشعري المالقي والذي استشهد في عهد السلطان يوسف الأول (733 ـ 755هـ) في معركة طريف[555].

---

(550) أيضاً، ص 116 ـ 117.

(551) أيضاً، ص 110.

(552) فرحات، غرناطة، ص 97.

(553) ينظر، النباهي، المرقبة العليا، ص 124، ص 125.

(554) أيضاً، ص 128.

(555) ينظر، ابن الخطيب، اللمحة البدرية (سيرة أمراء بني نصر).

وقام قاضي الجماعة في مملكة غرناطة بمهام دبلوماسية، فالسلطان محمد الخامس أرسل القاضي أبا البركات الحاج إلى بلاط فاس في مهمة سياسية. وعندما كانت المملكة في آخر أيامها انتقل قاضي الجماعة ابن الأزرق إلى مصر ليطلب النجدة من المماليك في عهد السلطان قايتباي، وكذلك بعثة القاضي أبي بكر يحيى بن مسعود المحاربي إلى المغرب[556].

النظم الاقتصادية:

عندما تم لقاء موسى بن نصير وطارق بن زياد عام 94هـ/ 713م، وسارا سوية صوب طليطلة ينتظران انتهاء فصل الشتاء، من أجل استكمال فتح الشمال الإسباني، ضرب موسى بن نصير أول عملة ذهبية ليدفع منها رواتب جنده. ومعروف أن ضرب العملة كان من حق الخليفة نفسه، لكن الذي يبدو أن موسى قد خول بهذا الأمر من قبل الخليفة، سواء في أفريقية أو في الأندلس. وقد كان المسلمون يتعاملون خلال عام 92 وإلى عام 94هـ بإسبانيا بالعملة الإفريقية التي ضربها موسى في عام 90هـ. وقد رسمت هذه الدنانيرالأندلسية الجديدة على هيئة العملة الإفريقية وكانت لاتينية عربية، ففي ناحية منها كتب (محمد رسول الله) يحيط به نص لاتيني على هيئة دائرة، وفي الناحية الأخرى نجمة ذات ثمان أذرع حولها كتابات لاتينية، ويلي ذلك تاريخ سكها وهو عام 97هـ، وكذلك ضرب موسى عملة برونزية صغيرة لاتينية الكتابة[557]. ولعلنا لا نميل إلى وجود الكتابة اللاتينية على النقود لأن الدولة الأموية عربت نقودها زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (65 ـ 86هـ)[558]. وقد وضحت لنا بعض الدراسات، بأن موسى ضرب أول النقود الإسلامية في الأندلس، وكانت نسخاً لشكل نقود البلاد القديمة سواء من ناحية النوعية أو من ناحية الكتابة عليها بأحرف لاتينية والاحتفاظ بالرسوم التي كانت عليها قبلاً. والشيء الجديد فيها استبدال التعابير المسيحية بأخرى إسلامية ووضع التاريخ الهجري عليها[559].

وإذا استثنينا وجود والٍ للأندلس، وقاضٍ إلى جانبه يسمى قاضي الجند، نجد

---

(556) ينظر، النباهي، المرقبة العليا، ص 140 ـ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 95 ـ فرحات، غرناطة، ص 100.

(557) مؤنس، فجر الأندلس، ص 101.

(558) ينظر، حسن إبراهيم حسن وأخر، النظم الإسلامية، ص 221.

(559) ينظر، بدر، دراسات، جـ 1، ص 26.

بعض الوظائف التي يمكن أن نعتبرها وظائف مالية، مثل: صاحب أزمة الأرض والخراج، وصاحب الغنائم[560]. إلا إننا لم نعثر على إشارة تدل على إرسال أموال من هذا البلد الغني سواء إلى والي إفريقية أو إلى خليفة دمشق[561]. ما عدا الغنائم التي أخذها موسى وطارق عند رجوعهما إلى الشام. فالغالب أن عامل الأندلس كان ينفق أموال الأندلس على الجند والحملات العسكرية والمرافق العامة[562].

جاء في نص الرسالة التشريفية: «وأما سائر النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة، والجبال الشامخة، فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال، لأنهم صالحوا على جزاء منها مع أداء الجزية...»[563]. كما جاء في النص أيضاً: «... وإنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلا أذعنوا إلى الصلح. ولذلك بقي الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم»[564]. كما يذكر لنا المقري بعد وصول موسى إلى الشمال الإسباني فيقول: «... وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية»[565]. ومعنى هذا إن أراضي الشمال الإسباني التي ذكرتها هذه المصادر، والتي حددت بالأراضي الواقعة شمالي نهر الوادي الكبير[566]، قد فتحت صلحاً ورضي أهلها بدفع الجزية والعيش بسلام في ظل الحكم العربي الإسلامي. أما الأراضي الجنوبية، أي التي تقع جنوبي نهر الوادي الكبير، فتعتبر أرض عنوة أي فتحت بقوة السيف فوزعت على المحاربين وأعطيت لهم سجلات بتمليكها[567]. وقد خمس السمح هذه الأرض، أي مسحها وقرر عليها الخراج بنسبة الخمس[568].

وكانت مصادر الأموال: الغنائم عن طريق الجهاد، والجزية التي يدفعها أهل الذمة

---

(560) مؤنس، فجر الأندلس، ص 638 ـ 639.
(561) بدر، دراسات، جـ 1، ص 34.
(562) مؤنس، فجر الأندلس، ص 610.
(563) الرسالة الشريفية، ص 205 ـ ينظر ملحق رقم 1، Dozy, L, h, vol, P: 71-111.
(564) أيضاً، ص 206 ـ الغساني، رحلة الوزير، ص 113.
(565) نفح، جـ 1، ص 273، ص 276.
(566) مؤنس، فجر الأندلس، ص 625.
(567) ينظر، نص الرسالة الشريفية، ص 207 ـ 208 ـ الغساني، رحلة الوزير، ص 113 ـ محمود علي مكي، «رواد الثقافة الدينية الأولى بالأندلس» مجلة البينة، عدد 6 (الرباط: 1962)، ص 56 ـ ملحق رقم Dozy, I, h. 1.
(568) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 74.

بواسطة القومس[569]، والموارد التي يدفعها أهل البلاد بموجب معاهدات الصلح، وموارد الزراعة من قبل الفاتحين العرب بأراضيهم التي تملكوها وسكنوها، كما كان المزارعون القوط الذين يشتغلون بزرع الأرض، يدفعون للمالك أو للقبيلة المالكة ثلثي أو ثلاثة أخماس المحصول. فكان من أثر ذلك أن تحسنت أحوال المزارعين، كما أدى في الوقت نفسه إلى تقسيم الملكية وتمزيق الملكيات الكبيرة، كذلك تحسنت حال العبيد لأن المسلمين كانوا يعاملونهم بأفضل مما كان القوط يعاملونهم[570]، هذا بالإضافة إلى موارد الزكاة التي يدفعها أغنياء المسلمين بالأندلس. فتح المسلمون أرض الأندلس بأشكال مختلفة، فبعضها فتح عنوة (أرض الجنوب) وبعضها وجده المسلمون خالياً فاستوطنوه، وبعضها نزل أهله على الصلح فاحتفظوا بأراضيهم وجرى التعامل بينهم وبين الفاتحين بموجب شروط معاهدة معقودة بين الطرفين. وهذه الشروط بصورة عامة شملت أمرين: الأول أن يدفع هؤلاء جزية على رؤوسهم، والثاني خراجاً على أراضيهم، وكان على الأغلب جزءاً من غلة الأرض يعادل الثلث أحياناً والربع حيناً آخر حسب طيب الأرض وغلتها[571]. وما عدا ذلك، فإن جميع الأراضي الأخرى التي وقعت بيد المسلمين سواء منها المفتوحة عنوة، أو الخالية التي هرب منها أصحابها من النبلاء ورجال الكنيسة. فتقاسمه الفاتحون على أساس نزول كل قوم فيما طاب له من الأرض[572].

أما حق بيت المال في هذه الأراضي، فلم يحاول موسى بن نصير أن يقتطعه من الأراضي كلٌ حسب طريقة فتحها، أي أن يعامل قسماً منها كفيء، ويعامل القسم الآخر كغنيمة، بل عاملها كلها معاملة الغنيمة، ولم يحاول موسى أن يأخذ من الأراضي والسبي إلا الخمس، وبعد أن أخذ من خمس السبي ما اختاره لحمله إلى دمشق وترك بقيته (أي السبي) على أرض الخمس كي يثلث مال المسلمين، وعرف هؤلاء باسم الأخماس وأطلق على أبنائها بنو الأخماس (أولاد الأخماس)[573]. ونظراً لضيق الوقت وسرعة استدعاء موسى إلى الشام بقيت بعض الأراضي دون تخميس، وقد تعلل

---

(569) مؤنس، فجر الأندلس، ص 597.

(570) صلاح خالص، إشبيلية، ص 47 وما بعدها ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 75.

(571) ينظر، رواية الرازي في الرسالة الشريفية، افتتاح الأندلس، ص 211 ـ بدر، دراسات، جـ 1، ص 41.

(572) المقري، نفح، جـ 1، ص 258.

(573) نص الرسالة الشريفية، افتتاح الأندلس، ص 204 ـ 205 ـ مؤنس، فجر الأندلس، ص 624.

الفاتحون برغبتهم بالعودة إلى المشرق، فأرضاهم الخليفة الوليد بإقرارهم على ما بأيديهم من الأراضي، معتبراً هذه الأراضي ثغراً، وتوجد دلائل على قيامه بإقطاع أراضي لغيرهم تشجيعاً على الإقامة في الأندلس[574].

وفي عهد الوالي السمح بن مالك الخولاني الذي كلف بإكمال التخميس وتمييز أرض العنوة عن أرض الصلح ليصح التخميس. ومن هذا نستدل بأن الخليفة عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ) كان يرى أن بعض أراضي الأخماس كانت في أيدي الفاتحين، كما أن بعض أراضي الخراج ـ أي أراضي الصلح، اختلطت بغيرها وربما اشتراها الفاتحون من أصحابها فانقلبت من أرض خراجية تدفع نسبة عالية من الضرائب (مثالثة أو مرابعة) إلى أرض عشرية، وقد منع عمر بن عبد العزيز هذا العمل في المشرق، وربما أراد أن يطبقه في المغرب. وفي كلا الحالتين ما يعرض مصالح النازلين في الأندلس، فأعلنوا عن رغبتهم بالرجوع إلى المشرق، فأقرهم عمر على ما بأيديهم وعلى ما سجله لهم الوليد وموسى وأمر واليه السمح بأن يقر القرى بأيدي أصحابها. وأن يقطع الجند المرافقين له (عددهم ما يقارب 500 رجل) من أراضي الأخماس[575].

وهذه الطريقة في تقسيم أراضي الأندلس جعلت بعض الفقهاء يعتبرون أن أرض الأندلس لم تقسم تقسيماً شرعياً، ونجد هذا الرأي عند ابن حزم القرطبي وغيره، وبلغ من شيوع فكرة اللاشرعية من تملك أرض الأندلس أن أحد الباحثين في الفلاحة علل خصب أراضي تدمير (مرسية) وطيب ثمرها لأن أهلها صالحوا موسى فلم يملك منها شيء إلا عن حق[576]، ومعنى هذا أن كثيرين كانوا يرون أن تقسيم أرض الأندلس تحكمت فيه الغلبة وليس الشرع، ومن الطبيعي أن يحصل النزاع حول ملكيتها، وأن تحاول الأطراف المختلفة من عناصر وقبائل الفاتحين أن تقتطع أكبر قسم منها، وبهذا كانت قضية توزيع الأراضي عاملاً في كل نزاع بين فاتحي الأندلس[577].

عرفت الأندلس بالغنى وخصبة الأرض ووفرة الموارد الاقتصادية حتى وصفت بجنة

(574) نص الرسالة الشريفية، ص 206 ـ 207.
(575) بدر، دراسات، جـ 1، ص 42 ـ 43.
(576) ينظر، الزهري، كتاب الجغرافية، ص 100 ـ 101.
(577) بدر، دراسات، جـ 1، ص 44.

الخلد حيث قال الشاعر ابن خفاجة:

يا أهل أندلس! لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذي كنت أختار[578]

ولهذا نرى بلج وجماعته الشاميين رغبوا ببلاد الأندلس عندما دخلوها واستطيبوا مواردها، فأحدثوا الفتن المعروفة والتي ذهب بلج ضحيتها، فوزع الوالي الجديد أبو الخطار أتباع بلج على الكور فأنزلهم على ثلث أموال أهل الذمة مقابل أن يؤدوا الخدمة العسكرية، فسميت هذه الكور بالكور المجندة[579].

وكان من أغراض التقسيم الإداري في الأندلس، ضبط الضرائب، ويعني ذلك أن الإقليم يعتبر وحدة مالية في نظر الدولة، وكل إقليم يضم عدداً من القرى. فهناك قرى تدفع العشور، وهي قرى الحبوب والزراعات، وقرى تؤدي جبايات تحدد بحسب طبيعة إنتاجها وهي نواحي الثمار والأشجار والزيتون والغابات. وأحسن مثال لذلك أقاليم سرقسطة عند العذري[580]، حيث يتضح منها بأنها تحديدات زراعية تعنى بالري والأنهار والعيون وما تسقيه. والتقسيم الزراعي في أساسه مالي، لأن الذين يرسمونه ينظرون إلى ما يغله كل قسم وما يؤديه من جباية[581].

وقد عمل الوالي يوسف الفهري 129 ـ 138هـ على تعديل نظام الضرائب فاقتضى ثلث الدخل من كل ولاية، ولكنه أمر بمراجعة السجلات القديمة، واستبعاد الأموات منها، وكانت الضرائب ما تزال تجبى طبقاً للأحصاء القديم، فكان في ذلك إرهاق للسكان، فقرر يوسف أن تجبى الضرائب من الأحياء فقط، وأسقطها عمن توفوا، واكتسب بذلك عطف كثير من الأسبان المسيحيين بصورة خاصة[582].

كما كانت بعض الدلائل تشير إلى غنى بعض ولاة الأندلس وكبار زعمائها، فكان الصميل بن حاتم يمتلك داراً كبيرة وتقع خلف هذا الدار عقدة الزيتون المشهورة التي تضم مائة ألف شجرة، وكانت أمواله كثيرة[583]. وهناك قناة عامر المنسوبة إلى عامر بن

---

(578) ديوان ابن خفاجة، ص 86.
(579) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 61 ـ 62.
(580) نصوص عن الأندلس، ص 23 ـ 24.
(581) مؤنس، فجر الأندلس، ص 585.
(582) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 132.
(583) ابن القوطية، افتتاح، ص 29.

عدي من أشراف بني عبد الدار بالأندلس وتقع غربي قرطبة[584]. وكان لبني غافق قرية كاملة بشرق إشبيلية وهي مرنيانة (مرجانة الغافقيين)[585]. وهناك الضياع الواسعة التي تضم القصور الكبيرة والتي تسمى بالبلاط مثل: بلاط مغيث الرومي وبلاط الحر[586]. وكان أبو عثمان شيخ موالي بني أمية يمتلك إقطاعاً كبيراً بقرية طُرش من كورة قرطبة[587]. وهناك أملاك أرطباس الواسعة التي وزع بعضها على زعماء الأندلس أمثال الصميل (عقدة الزيتون بالمدور) وأبي عثمان (طُرش) وعبد الله بن خالد (الفنتين قرب لوشة). وأبي عبدة (حسان بن مالك) غربي الأندلس (منطقة إشبلية)[588].

وفي عصر الإمارة 138 ـ 316هـ

حرص أمراء الأندلس على تنمية المواد الزراعية، وذلك بالاهتمام ببعض الثمار والبذور. فنرى الأمير الداخل يحرص على جعل قرطبة صورة من دمشق في منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية المزينة بالأزهار والورد ونافورات المياه. واشتهر الأمير الداخل بأنه كان يرسل بعض رجاله إلى المشرق لجلب أشجار الفاكهة من بلاد الشام، فنسمع عن أحد رجاله المدعو سفر بن عبيد الكلابي والذي تنسب إليه أسماء بعض الفواكه التي غرسها في جنانه بكوره رية وأثمرت مثل التين السفري والرمان السفري، ثم اهتم بها الأمير الداخل وغرسها في منيته، وانتشرت بذلك زراعتها في سائر أنحاء الأندلس[589]. وبلغ من اهتمام الأندلسيين بالزراعة أنه عندما حل المذهب المالكي بالأندلس محل مذهب الأوزاعي ـ هذا المذهب الجديد لا يقر زراعة الأشجار بالمساجد عكس مذهب الأوزاعي ـ بقي أهل الأندلس مقلدين مذهب الأوزاعي في مجال الزراعة[590]. عدا هذه الإشارات تعوزنا المعلومات الدالة بدقة على مدى التقدم الزراعي في الأندلس حتى عهد عبد الرحمن الأوسط. إنما تكثر لدينا الشواهد نسبياً عن قيام

---

(584) مجهول، أخبار مجموعة، ص 63.

(585) ذنون، الفتح، ص 219 ـ 220.

(586) ينظر، مؤنس، فجر الأندلس، ص 633.

(587) مجهول، أخبار مجموعة، ص 24.

(588) ينظر، ابن القوطية، افتتاح، ص 28 ـ 30 ـ المقري، نفح، جـ 3، ص 267 ـ 269 ـ ذنون، الفتح، ص 417.

(589) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 37 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 60 ـ العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 318 ـ بدر، دراسات، جـ 1، ص 148.

(590) الحميدي، المصدر السابق، ص 244 (ترجمة رقم 510).

نشاط تجاري واسع النطاق، وعن ازدياد في الثروة وعن تضاعف في واردات الدولة زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط دون فرض ضرائب جديدة[591]. حيث فتح هذا الأمير أبواب الأندلس للتجار المشارقة والبضائع المشرقية كالملابس وأدوات الزينة التي سرعان ما انتشرت بين أفراد المجتمع الأندلسي[592]. وبما أن الزراعة في هذه الفترة كانت أهم منبع للثروة، ونظراً لاستحالة قيام نشاط تجاري واسع في تلك الأيام دون الاعتماد على زراعة مزدهرة، لذلك يمكن القول: بأن الزراعة في الأندلس استمرت في الازدهار منذ بداية عهد الإمارة، وأنها وصلت إلى مرحلة متقدمة خلال فترة الازدهار. كما أنه يستنتج من بعض الأعمال التي قام بها عبد الرحمن الأوسط، أن الصناعة كانت متقدمة إلى الحد الذي تم فيه إنشاء دارٍ خاصة للطراز تصنع فيها ملابس خاصة لرجال الدولة[593].

وبدا على أهل الأندلس الاهتمام بالأسطول، وازداد هذا الاهتمام في عصر الإمارة وبخاصة بعد هجوم النورمان على الأندلس، فكان من نتيجة قيام هذا الأسطول أنه شارك بصورة فعالة في معارك الجهاد ضد الممالك الإسبانية، وقام بفتح بعض المناطق الجديدة (البليار). وتركزت فعاليات الأسطول الأندلسي في سواحل البحر المتوسط حتى أنه ساعد الأسطول الأغلبي في إتمام فتح صقلية، أما النشاط التجاري للأندلس في عصر الإمارة فكان مقتصراً على العموم مع العالم الإسلامي، لأن الغارات البحرية الأندلسية المتبادلة مع الشواطىء الإيطالية والفرنسية كانت تسود هذه الفترة. ومعنى هذا كان مركز النشاط التجاري الأندلسي يشمل جزءًا من الشاطىء الشرقي للأندلس وهو الجزء الممتد من قرطاجنة شمالاً إلى الجزيرة الخضراء جنوباً. وهذا الجزء يقابل الشاطىء الأفريقي الممتد من سبتة غرباً إلى بجاية شرقاً[594].

وقامت على هذا الساحل الشرقي الأندلسي موانىء مهمة تقوم فيها دور الصناعة مثل دانية ولقنت[595]، والمرية مركز جماعة البحريين الذين امتهنوا التجارة أولاً ومهاجمة السواحل الأوروبية ثانياً[596]. وكان الأندلسيون يحملون إلى بلاد المغرب منتجاتهم

---

(591) ينظر، ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 46.
(592) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 91 ـ العبادي، في التاريخ، ص 340.
(593) بدر، دراسات، جـ 1، ص 149.
(594) ينظر، بدر، دراسات، جـ 1، ص 152 ـ 153.
(595) الحميري، الروض المعطار، ص 76، ص 170.
(596) أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية، ص 38 وما بعدها.

الصناعية الراقية بالإضافة إلى منتجاتهم الزراعية التي لا توجد بالمغرب، وكذلك ما يرد من الأندلس إلى المشرق كان يصرف عموماً في الأسواق الأفريقية، ويحمل من ثم إلى هناك، كما هو حال بضاعة العبيد البيض (الصقالبة) الذين يشير إليهم ابن حوقل بقوله: «وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس»[597]. أما أهم الأشياء التي كانت تأتي من المغرب إلى الأندلس هي الحبوب والفستق (من مدينة قفصة) وكذلك العبيد السود يؤتى بهم إلى الأندلس وإلى سائر بلاد الإسلام، لأن سوق تجمعهم كان في مدينة زويلة أقصى جنوب ليبيا[598].

وكانت حركة النقل التجارية ناشطة جداً بين الأندلس وشواطىء المغرب، وبصورة خاصة شواطىء المغرب الأوسط والأقصى الممتدة من بجاية حتى سبتة لأنها مقابلة للمراسي الأندلسية. وكانت دول الخوارج في المغرب تُنظم حركة التجارة مع الأندلس خلال هذه الفترة، وبالذات الدولة الرستمية في الجزائر، والدولة المدرارية في سجلماسة[599]. ونظراً لهذا النشاط التجاري وجدت جاليات أندلسية أقامت في مدن المغرب الساحلية إما بصورة مؤقتة، كما هو الحال في مدينة أصيلة، حيث كانت تقام سوق جامعة ثلاث مرات في السنة: في عاشوراء والعيدين، أو بصورة دائمة ويختلطون مع سكان المغرب وكانوا يلتمسون حمايتهم مقابل حصة معينة من الأرباح أو كمية من المال، كما هو الحال في مدينة مليلة[600].

وكثيراً ما تقوم الجاليات الأندلسية ببناء مدن جديدة بالاشتراك مع غيرها حيناً كما هو الحال في مدينة أصيلة، أو وحدها حيناً آخر كما هو الحال في مدن تنس (بين وهران والجزائر) التي أنشأها أهل البيرة وتدمير عام 262هـ ومدينة وهران التي أنشأها الأندلسيون البحريون عام 290هـ[601].

ويلاحظ أن غالبية المراكز الأندلسية، أقيمت على شواطىء المغرب الأوسط، وهو أمر يعود إلى قرب سواحله من الأندلس، وإلى الحماية التي وفرتها لهم الدولة الرستمية

---

(597) صورة الأرض، ص 106.

(598) ينظر، البكري، ص 11 ـ بدر، دراسات، جـ 1، ص 154.

(599) ينظر، محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي.

(600) البكري، المصدر السابق، ص 88 ـ ينظر، ليلى أحمد نجار، العلاقات بين المغرب والأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر، ص 49.

(601) ينظر، ابن حوقل، صورة الأرض، ص 79 ـ البكري، المصدر السابق، ص 62، ص 112.

بسبب علاقتها الودية مع الإمارة الأموية بالأندلس[602]. أدى النشاط الاقتصادي الذي ذكرناه إلى بروز مظاهر الترف والرفاه في المجتمع الأندلسي، فانعكس ذلك على ازدياد الواردات التي وصلت إلى مليون دينار أحياناً فظهرت مظاهر الترف في بلاطات الأمراء وقصور الطبقة العليا، متمثلاً في بناء القصور (المنية) وفي اقتناء الجواري والعبيد البيض (الصقالبة)، وفي منح الهدايا والهبات للشعراء والمغنين، فمثلاً كان المغني المشرقي زرياب يقبض مخصصات شهرية قدرها مائتا دينار، كما أن كلاً من أبنائه الأربعة كان يأخذ عشرين دينار شهرياً، وقد تسلم زرياب في إحدى المناسبات هدية قدرها ثلاثة آلاف دينار[603].

وانعكس هذا الرخاء أيضاً في الأعمال العمرانية التي قام بها الأمراء، المتمثلة في بناء المساجد الجديدة أو توسيع المساجد القديمة، وفي بناء الأسوار، وفي بناء مدن الثغور وغيرها.

كما أحدث النشاط الاقتصادي تطوراً إدارياً وعسكرياً في الأندلس، ففي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط أسس دار السكة ونتيجة لذلك تضاعف عدد النقود المتداولة وبخاصة ذات القيم المتوسطة والدنيا، ويلاحظ من بقايا النقود الباقية تحسن مفاجىء ابتداء من عام 229هـ في إتقان الضرب[604]. وانعكس هذا الأمر أيضاً على وزراء الدولة وكبار رجالها سواء من حيث طبقاتهم أو من حيث أرزاقهم، حيث وصل راتب الوزير إلى 350 دينار شهرياً[605].

وكان من نتائج التطور الاقتصادي توسع مدينة قرطبة التي غصت بسكانها، حتى أخذ الناس يبنون خارجها وتجاوزوا على المقابر، مما جعل قاضي قرطبة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى إصدار حكم يثبت فيه حدود مقبرة الربض[606]. واضطر الأمير الأوسط لمواجهة المشاكل الناجمة عن هذا التضخم إلى إسناد مهمة مراقبة الموازين والمكاييل والمبيعات إلى المحتسب، والخدمات العامة تركت إلى صاحب المدينة، ومشكلات الأمن عهد بها إلى صاحب الشرطة[607].

---

(602) ينظر، بدر، دراسات، جـ 1، ص 156.

(603) ينظر، صلاح خالص، إشبيلية، ص 58 ـ 59.

(604) ينظر، بدر، دراسات، جـ 1، ص 158 ـ 159، ص 163.

(605) ينظر، ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 123 ـ 124.

(606) ينظر، سالم، قرطبة، جـ 1، ص 163 ـ 168 ـ بدر، دراسات، جـ 1، ص 165.

(607) ابن سعيد، المغرب، جـ 1، ص 46 ـ بدر، دراسات، جـ 1، ص 165.

كما أدت زيادة واردات الدولة بسبب هذا النشاط الاقتصادي إلى الإكثار من شراء العبيد السود والبيض، فأكثر الأمير الحكم من شرائهم وزاد عليه الأمير عبد الرحمن الأوسط حتى وصل عددهم في حرسه الخاص إلى خمسة آلاف شخص. كما أن عدد أفراد الجيش النظامي زاد لقدرة الأمير على استخدام عنصر جديد هو عنصر المرتزقة الذين يخدمون مقابل رزق معين ويحترفون الخدمة العسكرية[608].

اعتباراً من عصر الإمارة وما بعده، وجدت ظاهرة جديدة لها علاقة بالاقتصاد الأندلسي، وهي ظاهرة إحراق المزارع من قبل الإسبان عندما يغيرون على الأراضي الإسلامية، أو من قبل المتمردين على حكومة الإمارة والذين زاد أمرهم في فترة الحروب الأهلية. وبالمقابل تقوم جيوش الإمارة بحرق زروع المتمردين عندما تحاصرهم كوسيلة من وسائل إضعاف مقاومتهم وإجبارهم على الطاعة[609].

ووجدت في عصر الإمارة ظاهرة فرض الضرائب المرهقة على الشعب من قبل بعض الأمراء، مع حصول المجاعات وسنوات القحط في الأندلس، فالأمير الحكم سخطت عليه العامة بسبب ما فرضه هذا الأمير من عشور مرهقة على المواد الغذائية، وكان العامة يجاهرون بذم الأمير والطعن في سيرته، مما مهد قيام حركة الربض المشهورة[610].

ومن عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن فقد أبدى تشدداً في جمع العشور وقد نصحه الوزير عبد الرحمن بن غانم صاحب المدينة بأن يسقط العشور متى عدمت الغلات، لأن العشور تفرض على الغلات إذا وهبها الله، وإذا لم يزرع بذر ولم يستغل زرع وجب إسقاطها، فلم يستمع الأمير لنصحه فعزله، وعين مكانه حمدون بن بسيل وكان ظلوماً فاشتط في جمع العشور فأرهق الشعب وتذمروا فوصل تذمرهم إلى الأمير، وتوالت أيضاً في نفس الوقت أعوام القحط والجدب، فاضطر الأمير أن يسقط عن الشعب جزءاً من العشور حتى يستطيعوا مواجهة أعباء الحياة ومواصلة نشاطهم العمراني، فلهج الناس والشعراء مدحاً للأمير. وكان الأمير محمد بارعاً في الأمور المالية، دقيقاً في مراجعة الدخل والخرج، وقد ساعده ذلك في ضبط شؤون الخزانة

---

(608) بدر، دراسات، جـ 1، ص 165.

(609) ينظر على سبيل المثال: ابن حيان، المقتبس، جـ 3، ص 143 ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 143 ـ صلاح خالص، إشبيلية، ص 48.

(610) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 243.

العامة[611]. وفي عهده أصيبت الأندلس بالقحط والمجاعة في الأعوام 251هـ ـ 255هـ ـ 260هـ وكان قحطاً شديداً استمر بضعة أعوام، وكثر بسببه الغلاء والموت، ولكن الأندلس استطاعت أن تصمد للمحنة وأن تتغلب عليها[612].

وفي عهد الأمير عبد الله، عصر الحرب الأهلية، تمردت معظم مدن الأندلس على حكومة قرطبة، وصار الأمير في البداية يكتفي بأي شكل من أشكال الخضوع لحكومة قرطبة حتى ولو كان إسمياً. ولعل أقصى تعبير عن الطاعة طمح له الأمير عبد الله أن يؤدي له أولئك المتمردون بمقاطعاتهم قطيعاً معيناً من العشور (أي كمية من المال يتم الاتفاق عليها) ولهذا اشتهر في عهده ديوان يسمى ديوان القطع[613]. كما أن الحملات الكثيرة والمستمرة التي أرسلها الأمير عبد الله لإخضاع المتمردين أدت إلى نضوب موارد الدولة.

وفي عصر الخلافة 316 ـ 422هـ، بلغت الأندلس مبلغاً كبيراً من الرخاء، وتضاعفت مواردها من الدخل القومي، فبلغت حصيلة الجباية من المكوس وحدها زهاء مليون دينار في السنة، وبلغت في عهد الخليفة الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، وبلغت من المستخلص (وهي الأملاك السلطانية) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار. وعندما مات الناصر عام 350هـ خلف في بيت المال عشرين مليون دينار من الذهب. وفي أيام الحاجب المنصور حققت موارد الدخل زيادة عظيمة، ووصل محصل الجباية وحده إلى أربعة ملايين دينار سوى رسوم المواريث وسوى مال السبي والغنائم، واستمرت هذه الزيادة في عهد ولده الحاجب عبد الملك[614]. فانعكس هذا الرخاء في الأندلس في هذه الفترة على:

1 ـ بناء المدن الملوكية وصرف الملايين في بنائها، وأشهرها مدينة الزهراء التي بناها الخليفة الناصر، ويبدو لنا كمية الأموال الطائلة التي صرفت على هذه المدينة، إذا عرفنا أن مقدار النفقة السنوية عليها 300 ألف دينار طوال عهد الناصر (325هـ بدأ البناء، ومات الناصر عام 350هـ) أي مدى خمسة وعشرين عاماً، هذا عدا ما أنفق عليها في

---

(611) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 107.
(612) عنان، دولة الإسلام، جـ 1، ص 312.
(613) بدر، دراسات، جـ 1، ص 251.
(614) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 690، ص 574.

عهد ولده الحكم[615]. وهذا الإسراف هو الذي حدى بالقاضي منذر بن سعيد البلوطي أن ينتقد الناصر ويتصدى لهذا التبذير[616]. وبناء مدينة الزاهرة في عهد الحاجب المنصور حيث بدأ العمل بها عام 368هـ ولمدة عامين. ثم ابتنى إلى جانبها مدينة جميلة ذات قصر وحدائق للراحة سماها العامرية[617].

2 ـ الاهتمام بالحركة العلمية والإغداق على العلماء وشراء نفائس الكتب بأثمان عالية، وقد اهتم الخليفة الحكم المستنصر بهذا الأمر حيث كان يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر بالصلات الجزيلة، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم، فتراه يرسل إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب ليحصل على نسخة كتابه الأغاني، قبل أن يحصل عليه أحد في العراق. كما أرسل إليه الأصفهاني كتاباً ألفه في أنساب بني أمية فجدد له الحكم الصلات والهدايا[618]. وفعل الحكم كذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي، إذ بعث إليه بمبلغ كبير ليحصل على النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم. وأسبغ الحكم رعايته على اللغوي أبي علي القالي الذي وفد من العراق على أبيه الناصر كما هو معروف. وأهدى إليه أبو عبد الله الخشني بعض كتبه ومنها كتاب قضاة قرطبة[619]. وأهدى إليه مطرف بن عيسى الغساني كتابه المعروف أخبار كورة رية. وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد الإسلامية ينقبون له عن الكتب ويحصلون منها على النفيس والنادر. كما كانت له في بلاطه طائفة من البارعين في نسخ الكتب وتحقيقها وتجليدها، وبذل لهم الأموال الكبيرة[620]. كما شغف الحاجب المنصور في جمع الكتب مقلداً بذلك الخليفة الحكم المستنصر ومن ذلك أن صاعداً البغدادي أهدى إليه كتاب الفصوص فأثابه الحاجب المنصور بخمسة آلاف دينار[621]، وعين له راتباً شهرياً قدره ثلاثون دينار.

3 ـ كما أن هذا الرخاء شجع الأندلس على اتباع سياسة أفريقية جديدة وبخاصة منذ

---

(615) ينظر، المقري، نفح، جـ 1، ص 265.
(616) ينظر، النباهي، المرقبة العليا، ص 69 ـ 70.
(617) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 535، ص 575.
(618) ابن الآبار، الحلة السيراء، جـ 1، ص 201 ـ 202.
(619) الخشني، قضاة قرطبة (المقدمة)، ص 1 ـ 2.
(620) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 505 ـ 506.
(621) ابن بشكوال، الصلة، ص 238 (ترجمة رقم 541).

إعلان الخلافة الأندلسية عام 316هـ للتصدي للدولة الفاطمية في شمال أفريقية وأعوانها وبدأت من هذا العصر سياسة أندلسية جديدة للتدخل في إثارة بعض الحركات ضد الفاطميين، إلى جانب السيطرة على بعض مدن الساحل الإفريقي، وإلى إخماد بعض الفتن المغربية أمثال حركة الحسن بن كنون الذي يمثل بقايا الأدارسة. فكان هذا الأمر يتطلب أموال طائلة لإخماد مثل هذه الحركات، إضافة إلى بذل الأموال من أجل استمالة بعض القبائل المغربية(622).

وشهدت الأندلس خلال عصر الخلافة مجاعات متعددة أصابت الأندلس بالقحط والمجاعات، ففي عهد الخليفة الناصر (300 ـ 350هـ)، حل قحط شديد بالأندلس عام 302 ـ 303هـ فنقصت الأقوات وارتفعت الأسعار وبلغ قفيز القمح في قرطبة بثلاثة دنانير، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً، وانتشر الوباء مع القحط، وكثر الموت، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء. قام الخليفة الناصر ببذل الأموال وتوزيع المؤن لشعبه وشاركهُ في الأمر كثير من رجالات الدولة، فكان لمجهودهم أثر كبير في التخفيف من آثار هذه المحنة(623). وفي عام 317هـ حلت مجاعة جديدة بالأندلس نتيجة احتباس المطر، فغلت الأسعار على نحو ما حدث في عام 303هـ، فخرجت كتب الخليفة الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بصلاة الاستسقاء، وفي عام 324هـ وقع محل جديد بالأندلس فاحتبس المطر وجفت الزروع، وبذل الناصر الأموال لمعالجة الأزمة وبذلك قال الشاعر:

نعم الشفيع إلى الرحمن في المطر   مستنزل الغيث بالأعذار والنذر(624)

وعاد المحل والقحط يعصف بالأندلس عام 329هـ فعم الجفاف البلاد. وأصيب النظام الاقتصادي وبخاصة التجاري في قرطبة بهبوط كبير نتيجة الحريق الكبير الذي دمر أسواق قرطبة في عام 324هـ(625). وفي عهد الحكم المستنصر (350 ـ 366هـ) وقعت

---

(622) ينظر التفاصيل، العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 393 ـ ص 398 وما بعدها ـ ص 423 وما بعدها ـ ص 444 وما بعدها ـ ليلى أحمد نجار، العلاقات بين المغرب والأندلس، ص 54 وما بعدها.

(623) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 166.

(624) ينظر، ابن حيان، المقتبس، جـ 5 الخاص بعض الخليفة عبد الرحمن الناصر ـ ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 199.

(625) عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 425.

بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين في سائر أرباض قرطبة والزهراء من الأموال ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم[626]. وبجانب ثراء الدولة الذي تمثل في البناء والهيئات، نرى ثراء كبار رجالات الدولة، الذي اخترع بعضهم تقديم الهدايا الكبيرة والثمينة إلى خلفاء هذا العصر، في الوقت الذي كان فيه عامة الناس في عوز شديد بسبب احتباس المطر وظهور المجاعات المستمر وبسبب غلاء الأسعار وقلة الأجور للعامل البسيط. فتذكر بعض الروايات أن أجور العمال الذين كانوا يشتغلون في بناء مدينة الزهراء كانت تتراوح بين الدرهم والنصف وثلاثة دراهم تبعاً لمقدرتهم الحرفية، في حين كان راتب أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر خمسمائة دينار في الشهر، وقد رفعه الخليفة إلى ألف دينار فيما بعد، هذا مع العلم أن الدينار كان يعادل على العموم عشرة دارهم[627]. وأول من ابتدع تقديم الهدايا إلى الخليفة الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب، ومائتا أوقية من المسك والعنبر، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب، ومائة فرس مسرجة، وعشرون بغلاً عالية الركاب، وأربعون وصيفاً، وعشرون جارية، وغيرها، وذلك في عام 327هـ، وهذا مما يدل على مدى ثراء الوزراء ورجالات الدولة الأموية بالأندلس[628]. كما أهدى الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفي هديته الكبيرة إلى الخليفة الحكم المستنصر مقلداً بها هدية ابن شهيد للخليفة الناصر[629]. كما كانت بداية حياة الحاجب المنصور الوظيفية الإشراف على عبد الرحمن وهشام أولاد الخليفة الحكم ثم تولى إدارة الخزانة العامة وأمانة دار السكة. فاستغل هذه المناصب المالية، فقدم هديته المشهورة إلى الأميرة صبح زوجة الخليفة الحكم وأم الخليفة هشام الثاني، فبدد أموال الخزينة فاتهمه الخليفة الحكم بالتبذير، فسد الحاجب المنصور هذا العجز بالاستدانة من صديقه الوزير ابن حُدير[630].

وفي هذا العصر أمر الخليفة الناصر بتنظيم العملة وتثبيتها. فأمر في عام 316هـ باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب الدنانير والدراهم، وولى أمرها أحمد بن محمد بن حُدير الذي بذل جهده في الاحتراس من المدلسين وكان لهذا أثره في تثبيت

---

(626) ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 236.

(627) ينظر، صلاح خالص، إشبيلية، ص 55 ـ ص 58.

(628) ابن خلدون، العبر، جـ 4، ص 138.

(629) أيضاً، جـ 4، ص 144 ـ عنان، دولة الإسلام، جـ 2، ص 511 ـ 512.

(630) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 251 ـ 252.

العملة واستقرار التعامل[631]. ومن هذا التاريخ وما بعد أصبحت ولاية السكة من الوظائف المالية المهمة في الدولة يعهد بإدارتها إلى خالص الرجال[632]، إلى جانب ولاية السوق وولاية الخزانة والضياع[633]. وقد ساعد الاستقرار السياسي عموماً في عصر الخلافة على تنشيط حركة الصناعة والتجارة، وقد اشتهرت موانئ الأندلس الشرقية بموانئها التجارية وبخاصة بعد بناء مدينة المرية قاعدة الأسطول الأندلسي في عام 344هـ، والتي أصبحت مدينة تجارية وصناعية مهمة. وأصبحت مركزاً للحط والإقلاع[634]. وبدأت الأوضاع الاقتصادية في الاضطراب عندما بدأ عصر الفتنة 399 ـ 422هـ، فمرت بلاد الأندلس في فترة الحروب الأهلية أدت إلى إلغاء الخلافة وقيام عصر الطوائف.

عرفت الأندلس بوفرة خصبها وكثرة مواردها الزراعية والتي كانت مناطق الأرياف أهم مصادر هذه الثروة المتمثلة في الزيتون واللوز والرمان والتين والحبوب. وأما المعادن فهي من أهم الثروات الطبيعية التي جاءت بها أرض الأندلس، وبتنوعها تعددت مناطق استخراجها، وبخاصة اشتهرت الأندلس بالرخام والذهب[635]. كما اشتهرت الصناعات في مختلف أنحاء الأندلس حيث تخصصت كل ناحية في إنتاج صناعة معينة. فعلى سبيل المثال تخصصت مرسية في صناعة الطرز الذهبية والأساور المذهبة والسكاكين والأسلحة، أما المرية ومالقة فقد اشتهرتا بصناعة الخزف والأواني الزجاجية والأقمشة. واشتهرت غرناطة بصناعة البلد وهو ثوب حريري ملون. ومن إشبيلية شاعت صناعة الأقواس والرماح والسهام بالإضافة إلى صناعة السرج المزينة وغيرها[636].

إن الوصف العام للحياة الاقتصادية في الأندلس كما أورده ابن سعيد ونقله المقري، جاء في مصادر متأخرة عن القرن الخامس الهجري/ عصر الطوائف، إلا أن هذا الوصف يطابق أحوال هذا القرن وذلك:

1 ـ إن النباتات والحيوانات التي وجدت في الأندلس خلال هذه الفترة كانت

(631) ابن حيان، المقتبس، جـ 5 عصر الناصر.
(632) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 2، ص 208.
(633) أيضاً، جـ 2، ص 199، ص 205.
(634) ينظر، الحميري، الروض المعطار، ص 183 ـ سالم، تاريخ مدينة المرية، ص 18 ـ عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص 265.
(635) ينظر، المقري، نفح، جـ 1، ص 187.
(636) المقري، نفح، جـ 1، ص 188.

معروفة في البلاد منذ أربعة قرون، وذلك أن أحوال المناخ لم تتغير، كما إن البلاد لم تشهد أية ظاهرة طبيعية كبرى، ما عدا سنوات القحط والمجاعة والتي سرعان ما تزول.

2 ـ إن المعادن والمنتوجات الصناعية الأخرى المذكورة في هذا المصدر كانت تستغل على نطاق واسع خلال فترة الطوائف وقبلها أي في عهد الإمارة والخلافة الأموية. وبالإضافة إلى ذلك شهد عصر الطوائف تشييد أفخم القصور وأجمل المنشآت، والتي كانت تتطلب استهلاك قسط وفير من الذهب والفضة والمواد الأخرى المستعملة في التزيين والزخرفة(637).

ومع ذلك فقد اختص عصر الطوائف بازدهار الزراعة حيث شغف ملوك الطوائف بإنشاء الحدائق والبساتين. وقد ظهر في هذا العصر عدة من علماء النبات والزراعة ولا سيما في طليطلة وإشبيلية حيث كانت حدائق بني ذي النون وحدائق بني عباد تشغل مساحات واسعة وتتطلب عناية الخبراء. وكان من أشهر علماء النبات والفلاحة في طليطلة ابن وافد الذي أشرف على حدائق بني ذنون. وكذلك العالم أبو عبد الله بن بصال المشهور بتجاربه العلمية الناجحة من توليد الغراس، ومكافحة الآفات الزراعية، وخلف لنا كتابه المشهور الفلاحة. وعالم إشبيلية الزراعي أبو عمر أحمد بن محمد بن حجاج صاحب كتاب (المقنع)، وكذلك أبو عبد الله محمد بن مالك الطغنري من أهل غرناطة وتلميذ ابن بصال وصاحب كتاب (زهرْ البستان ونزهة الأذهان)(638). وأما عن الصناعات في عصر الطوائف فقد كانت رائجة، ومن أشهرها صناعة الحديد والنحاس والزجاج والنسيج، وكانت صناعة النسيج على الأخص من أهم الصناعات في أيام الطوائف، وكان بمدينة المرية وحدها خمسة آلاف منسج، تنتج أفخم وأجمل أنواع الأقمشة(639). وكانت دول الطوائف ذات الثغور مثل إشبيلية والمرية وبلنسية ودانية وسرقسطة تجني من التجارة الخارجية أرباحاً كبيرة(640).

ومما يدلل على وفرة خيرات الأندلس ونشاط تجارتها خلال هذه الفترة أن أمير دانية والجزائر الشرقية علي بن مجاهد العامري بعث مركباً كبيراً محملاً بالمؤن والأطعمة

---

(637) محمد بن عبود، التاريخ السياسي، ص 166 ـ 167.

(638) ينظر، عنان، دول الطوائف، ص 441 ـ 442.

(639) ينظر أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية، ص 209 وما بعدها.

(640) عنان، دولة الطوائف، ص 442.

عام 447هـ وأرسله إلى الإسكندرية مغيثاً أهل مصر التي كانت تمر بأزمة اقتصادية وهي أيام الشدة العظمى[641]. ولكن في الوقت نفسه في عام 448هـ حصلت مجاعة كبرى في إشبيلية لدرجة اضطر فيها الناس إلى دفن كل ثلاثة أو أربعة أشخاص في قبر واحد، وأن المساجد خلت من المصلين. كما إن قفيز الحنطة (ثلاثين كيلوغراماً) وصلت قيمته في قرطبة في إحدى فترات القحط ثلاثة دنانير[642].

كان معظم أمراء الطوائف يمثلون أصحاب النفوذ والأموال الكثيرة، وقد أدى استقلالهم في مدنهم إلى زيادة ثرواتهم. فمثلاً كان بنو عباد حكام إشبيلية ـ قبل توليهم الحكم ـ يمتلكون ثلث كورة إشبيلية، وإن بني طاهر الذين تولوا حكم مدينة مرسية كانوا يمتلكون نصف المدينة، وإن أبا الحزم بن جهور الذي تولى أمر قرطبة فقد كان من أغنى أهلها وأفحشهم ثراء. وينطبق الأمر كذلك على أمراء بني الأفطس في بطليوس وأمراء بني ذنون في طليطلة، وأمراء بني هود في سرقسطة وغيرهم[643].

وعندما تسلط هؤلاء الأمراء بدأوا بشتى السبل في زيادة أموالهم وثرواتهم وذلك عن طريق: مصادرة ممتلكات منافسيهم من أغنياء المدينة الكبار بعد اتهامهم بشتى التهم، كما فعل بنو عباد أمراء إشبيلية[644]. وكذلك عن طريق مصادرة أراضي الملاكين الصغار، وإرهاق كاهل المزارعين بالضرائب العالية، كما فعل مظفر ومبارك العامريان حكام بلنسية بالفلاحين حتى أنهم لبسوا الجلود والحصر وأكلوا الحشيش، وفر أكثر الفلاحين من قراهم[645]. والأسلوب الآخر الذي اتبعه ملوك الطوائف في جمع الثروة، هو أثقال كاهل الشعب بالضرائب الباهظة أو توسيع رقعة الإمارة بالوسائل العسكرية، فاشتط جامعو الضرائب في ظلم الناس[646].

وهذه الأموال الطائلة التي جمعها الأمراء لم ينفقوها في سبيل الشعب ورفاهيته بل استغلت في بناء القصور والمنتزهات، والصرف على مجالس الطرب واللهو، وشراء الجواري، فمثلاً أمير السهلة ابن رزين يدفع ثلاثة آلاف دينار ليشتري مغنية حسناء[647].

---

(641) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 228 ـ ابن الخطيب، أعمال، ص 221.

(642) صلاح خالص، إشبيلية، ص 54.

(643) ينظر، ابن بسام، الذخيرة، قسم 2، مجلد 1، ص 7 ـ صلاح خالص، إشبيلية، ص 42 ـ 43.

(644) ينظر، عنان، دول الطوائف، ص 34 ـ 35.

(645) ينظر، ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 162.

(646) ابن عبدون، رسالة في الحسبة، ص 169.

(647) ابن عذاري، البيان، جـ 3، ص 308.

بالإضافة إلى دفع الإتاوات إلى ملوك الإسبان من أجل الحفاظ على عروشهم المهزوزة[648].

وبالرغم من القوة الاقتصادية التي كانت تتمتع بها بلاد الأندلس فإن عدم الاستقرار السياسي الذي تميز به عصر الطوائف كان له أثر سيء على الأوضاع الاقتصادية وذلك في مجالين:

1 ـ إن التقسيمات السياسية عرقلت التعاون الاقتصادي، كما أن عمق وحدة النزاع السياسي بين دول الطوائف زاد من اضطراب الأوضاع. هذا مع العلم أن كل إمارة استقلت اقتصادياً عن أخرى ولها وسائلها في جمع الأموال واستغلالها، فمعنى ذلك ظهور التمزق الاقتصادي لبلد الأندلس إلى جانب التمزق السياسي.

2 ـ استغل ألفونسو السادس بصورة خاصة الأوضاع السياسية المتدهورة ببلد الأندلس ففرض شروطهُ المالية على أمرائها من أجل الاستحواذ بثمار الأندلس الاقتصادية والعمل على إضعافها وبالتالي بالسيطرة عليها بالتدريج، ولذا رأينا الغرامات الباهظة التي فرضها على أمراء الطوائف[649]. فمثلاً طلب ألفونسو من الأمير عبد الله بن بلقين عشرين ألف مثقال. كما وعد ابن عمار وزير المعتمد بن عباد بتسليم ألفونسو السادس خمسين ألف مثقال مقابل مساعدته العسكرية ضد الأمير عبد الله حاكم غرناطة[650]، كما فرض ألفونسو السادس على ابن ذي النون مبلغ مائة وخمسين ألف مثقال تضاف إليها خسمائة أوقية من القمح تدفع لعساكره مقابل أن يعيده إلى حكم طليطلة[651].

وأصبحت الأندلس ولاية مرابطية، وكانت نقطة الانطلاق في السياسة المالية المرابطية تتمثل في محاولة تطبيق الكتاب والسنة في ميدان السياسة الجبائية، وهي الاعتماد على موارد الزكاة والأعشار والجزية وأخماس غنائم المشركين. ومع هذا وجد في بيت مال يوسف بن تاشفين بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من دنانير الذهب المطبوعة[652]. ولكن توسع الدولة وازدياد مسؤولياتها

---

(648) ينظر، صلاح خالص، إشبيلية، ص 43 ـ 46.

(649) ينظر، محمد بن عبود، التاريخ السياسي، ص 167 ـ 168.

(650) المقري، نفح، جـ 1، ص 69.

(651) أيضاً، جـ 1، ص 77 ـ محمد بن عبود، المرجع السابق، ص 175.

(652) ينظر، الحبيب الجنحاني، «السياسة المالية للدولة المرابطية»، مجلة المؤرخ العربي، العدد 13، ص 15.

العسكرية دفعت ولاة الأمر إلى فرض الإتاوات على أهل المغرب والأندلس، فنرى يوسف بن تاشفين يفرض أموالاً كثيرة على يهود اليسانة بالأندلس[653]، ولجأ علي بن يوسف إلى فرض الإتاوات على مختلف الصنائع والسلع وبخاصة على الصابون والعطور والنحاس والمغازل، كما أنه استخدم المسيحيين الإسبان في تحصيل الجبايات[654].

ازدهرت الصناعة في بلاد المغرب في ظل المرابطين بعد أن أصبحت الأندلس ولاية تابعة لها، وذلك لأن ولاة الأمر المرابطين استفادوا من خبرات أهل الأندلس في الصناعة[655]. فزيادة على استعانة ولاة الأمر من المرابطين بصناع ومهرة الأندلس، كانت السفن تسير في قوافل منتظمة تحمل البضائع المختلفة بين المغرب والأندلس. وكان المغرب يمد الأندلس بالغلات وأنواع الطعام المختلفة في العصور السابقة لعهد المرابطين[656]، وقد استمر هذا الأمر عندما أصبحت الأندلس ولاية مرابطية. ومن ناحية أخرى، فإن الأندلس كان يصدر إلى المغرب كثيراً من البضائع ومنها الفواكه، وكذلك القطن الجيد المزروع بأرض إشبيلية[657]، وكان معدن الزئبق أيضاً ممّا يصدرهُ الأندلس إلى المغرب[658]، أما الحصى الملون فإن الأمراء بمراكش كانوا يستوردونه من المرية ليزينوا به بعض أدوات الطعام[659]. وقد وصف الإدريسي مدينة المرية في عهد المرابطين بازدهار الصناعات الحريرية والمنسوجات الأخرى[660]. وكانت الأندلس كذلك تصدر الأدوات الخشبية إلى المغرب، وكذلك المنسوجات التي اشتهرت بها مدينة بلنسية[661].

تميز عهد المرابطين سواء في المغرب أو في الأندلس برفاهٍ اقتصادي في ميداني الزراعة والصناعة، إضافة إلى أنهم كانوا يسيطرون على سجلماسة وهي نهاية طريق مهم للقوافل التي تتاجر بذهب بلاد السنغال. وقد استمر فيضان الذهب عبر هذا الطريق بعد

(653) عنان، عصر المرابطين، ص 421.
(654) ابن الأثير، الكامل، جـ 8، ص 296 ـ النويري، نهاية الأدب، جـ 22، ص 85.
(655) السامرائي، علاقات، ص 479.
(656) ينظر ابن حوقل، صورة الأرض، ص 82.
(657) الحميري، الروض المعطار، ص 21.
(658) المراكشي، المعجب، ص 448.
(659) المقري، نفح، جـ 4، ص 206.
(660) وصف المغرب والأندلس، ص 197 ـ مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ص 419.
(661) الحميري، الروض المعطار، ص 165 ـ المقري، نفح، جـ 4، ص 207.

أن انقطع وروده عن طريق المسالك الصحراوية الغربية، وظل الدينار المرابطي الذهبي الذي يزن أربع غرامات ونصف[662]، مستخدماً لعدة قرون كأهم عملة ذهبية في المغرب[663].

وقد عثر على كميات كبيرة من الدنانير المرابطية في شمال البلاد الإسبانية وفي غرب فرنسا، مما يدل على نشاط التجارة بين ممتلكات المرابطين وبين سائر بلاد أوروبا[664]، وحتى يروى أن هذه العملة وصلت إلى القسطنطينية[665].

ونظراً لضراوة معارك الجهاد التي خاضتها دولة المرابطين ضد الممالك الإسبانية، فقد كثرت غنائم المرابطين من سلاح وحيوانات وأموال وأسرى. وأدى ذلك إلى نشاط تجارة هذه المواد في أسواق الأندلس والمغرب، ولا سيما تجارة الرقيق بالذات[666].

وعموماً وصف النظام الاقتصادي في الأندلس والمغرب في ظل المرابطين بالرفاء والاستقرار ورخص الأسعار، إلا أن هذا الأمر تبدل في أواخر عهد المرابطين، عندما اضطربت الأوضاع بظهور حركة المهدي بن تومرت، وبتمرد أهل الأندلس على الحكم المرابطي[667].

وأصبحت الأندلس ولاية موحدية، واتبعت الحكومة الموحدية في شؤون الجباية، سياسة الالتزام بأحكام الشرع على ما يجيزه من الزكاة والعشر. فقد نوهت رسالة عبد المؤمن التي وجهها إلى الطلبة والمشيخة والأعيان بالأندلس في عام 543هـ إلى المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها من المظالم، ووجوب القضاء عليها وإجراء العدل في شأنها[668]. إلا أن هذه الموارد لم تكن كافية لسد متطلبات الدولة الموحدية التي تحملت أسر الجهاد في الأندلس، فاضطرت هذه الدولة إلى البحث عن

---

(662) حركات، المغرب عبر التاريخ، ص 203 ـ عبد العزيز بن عبد الله، مظاهر الحياة المغربية، جـ 1، ص 75.

(663) أرشيبالد، القوى البحرية، ص 387.

(664) الحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص 20.

(665) حركات، المرجع السابق، ص 231 ـ Barbour, Morocco P. 59.

(666) الصديق بن العربي، طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب، ص 155 ـ السامرائي، علاقات، ص 484.

(667) عنان، عصر المرابطين، ص 437.

(668) عنان، عصر الموحدين، ص 624 ـ 625.

وجوه جديدة لجمع الأموال. فقام عبد المؤمن عام 554هـ بمسح بلاد المغرب من برقة إلى السوس الأقصى، وأسقط مقدار الثلث من مساحتها ـ مقابل الجبال والأنهار والطرقات ـ وفرض الخراج على الأراضي الصالحة للزرع، وألزم كل قبيلة أن تؤدي قسطها من الزرع والمال[669]. ومن جهة أخرى، فإن الدولة الموحدية كانت إلى جانب ما يدخل خزائنها من غنائم وأموال المصادرات، إلا أنها لم تحجم عن فرض الضرائب والمكوس على مختلف أنواع المعاملات من البيع والشراء، والصادر والوارد، إضافة إلى ما كانت تستولي عليه من أموال اليهود والمسيحيين الذين بقوا في أراضي الدولة، ولا سيما خلال حركات الاضطهاد والمطاردة[670].

وكان من الإجراءات المالية الهامة التي قامت بها الخلافة الموحدية مضاعفة وزن الدينار الموحدي، وكان له أثره في تحسين الأمور الاقتصادية وتوفير الثقة في التعامل الاقتصادي[671].

واستمرت العلاقات الاقتصادية بين المغرب والأندلس قائمة، وقد تمثل ذلك في نشاط التبادل التجاري. فقد اشتهرت المرية وقرطبة بأسواقها وتصدر إلى المغرب الأخشاب والحبوب والمصنوعات والكتان. كما حملت المراكب من المغرب إلى الأندلس أنواع الغلات والحبوب والطعام وتعود بالتين والعنب والقطن وزيت الزيتون. أما المنسوجات فكان أهل مراكش يستوردونها من بلنسية، ومما ساعد على النشاط التجاري، قيام المغرب الأقصى بدور الوسيط بين إقليم السودان في الجنوب والأندلس في الشمال، فكان التجار يحملون الذهب والصمغ إلى الأندلس، ثم يعودون بالمحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية إلى بلاد السودان[672].

ومن مظاهر عناية الموحدين بالزراعة في الأندلس هو تنفيذ أوامر الخليفة عبد المؤمن باستصلاح أراضي جبل طارق، وغرسها بمختلف أنواع الفاكهة كالتين والعنب والتفاح والسفرجل والمشمش وغيرها. كذلك تم استصلاح أراضٍ واسعة في مدينة إشبيلية بناءً على أوامر الخليفة أبي يعقوب يوسف ثم غرسها بأشجار الزيتون، ثم عني

---

(669) روض القرطاس، ص 129 ـ وطبعة أخرى، ص 198 ـ 199 ـ محمد ولد دادة، مفهوم الملك في المغرب، ص 167 ـ 168.

(670) عنان، عصر الموحدين، ص 626.

(671) جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، جـ 2، ص 160.

(672) أبو رميلة، علاقات، ص 474.

بجلب الماء إليها من الوادي بواسطة قنوات تحت الأرض[673].

واستمرت الأندلس تنعم بالرخاء والاستقرار الاقتصادي منذ عهد عبد المؤمن إلى أواخر عهد المنصور، شأنها شأن المغرب. فإذا عكر صفو الأمن في بلاد المغرب هجمات القبائل العربية، وهجمات أمراء بني غانية، فإن الأندلس اضطربت سياسياً واقتصادياً بسبب فتن وحركات ابن هود وابن مردنيش وما جرى بينهم من حروب مدمرة أولاً وبسبب هجمات الممالك الإسبانية على المدن الأندلسية التي أسقطت كثيراً من هذه المدن بيد الإسبان بسبب الحصار الاقتصادي وأوشك أهلها على الموت جوعاً ثانياً. فحلت بذلك المحن والنوائب ببلد الأندلس، وقامت الأزمات الاقتصادية وشاع القحط والمجاعة وعم الغلاء[674].

ومن الجانب الآخر، فإن المعاهدات التجارية التي عقدتها دولة الموحدين مع جمهورية جنوة وبيزا ومع صقلية، سمحت لسفن هذه الدول التردد بأمان في موانىء الأندلس، وبالذات في ميناء المرية، وموانىء المغرب، فنشطت بذلك التجارة بين الطرفين[675]. ويصعب على الباحث إيجاد دراسة كاملة عن التنظيم المالي في مملكة غرناطة، إلا أنه يمكن تحديد أسس النظم المالية فيها كما يلي:

1 ـ كان هناك وظيفة المشرف على ممتلكات السلطان الخاصة، وقد أطلق عليه إسم الوكيل. فمحمد بن المحروق كان وكيلاً على ممتلكات السلطان إسماعيل الأول قبل تسلمه منصب الوزارة[676].

2 ـ أبعد سلاطين غرناطة اليهود والمسيحيين عن وظيفة الجباية، عكس دولة المرابطين وغيرها التي اعتمدت عليهم[677].

3 ـ كان سلاطين غرناطة يدفعون الأموال الكثيرة إلى ملوك الإسبان فيروى أن السلطان محمد الأول كان يدفع ربع ما في بيت ماله وقيل بأنه كان يدفع نصف ما موجود في بيت المال، وفي عام 709هـ رفع فرديناند الرابع الحصار عن الجزيرة

---

(673) ينظر، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 133 ـ أبو رميلة، علاقات، ص 480.

(674) ينظر، عنان، عصر الموحدين، ص 627.

(675) محمد ولد دادة، مفهوم الملك في المغرب، ص 174 ـ 176.

(676) ينظر، ابن خلدون، المقدمة، ص 242 ـ فرحات، غرناطة، ص 79.

(677) فرحات، غرناطة، ص 79.

الخضراء مقابل خمسين ألف قطعة ذهبية دفعها السلطان أبو الجيوش نصر من بيت المال، كما أن ألفونسو العاشر الحكيم فرض على ابن الأحمر مبلغ خمسين ألف قطعة ذهبية أي ما يعادل سدس ما حوته خزينة الدولة النصرية[678].

4 ـ كانت أهم واردات بيت المال في الدولة النصرية، الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة، وصدقات المسلمين وهي الزكاة والعشور على الماشية والمحصولات الزراعية، والضرائب على التجارة، أما ضريبة التجارة البحرية والصيد فمقصورة على ميناء مالقة ومربلة[679]. ومن موارد بيت المال ضريبة المواريث وغنائم الحروب[680].

5 ـ كانت نقود بني الأحمر في غرناطة من الصنف الممتاز، وكانت نقودهم من أفضل النقود[681]. ومما يذكر في هذا المجال أن فريقاً من مسيحيي أرغون عمدوا أيام ملكهم بطرة الرابع إلى ضرب عملة مزيفة شبيهة بنقود المسلمين وتاجروا بها مدة مع الغرناطيين، إلا أن هذه النقود المزيفة قد اكتشفت[682]. وكانت دنانيرهم تتألف من الذهب والفضة والنحاس، وكان الدينار الذهبي يساوي عشرة دراهم فضية، وهناك عملة القيراط وهي نصف الدرهم[683].

6 ـ ازدهرت الزراعة في مملكة غرناطة، وساعد على هذا الازدهار طبيعة الأرض وما حوته الأنهار والوديان والسهول الخصبة واهتموا بقنوات الري. وأهم المحاصيل الزراعية، الكروم الذي يعصرونه في عيد اشتهرت به مملكة غرناطة[684]، وكذلك الزيتون والبرتقال والحبوب على أنواعها[685].

واشتهرت مملكة غرناطة بصناعة الأسلحة كالسيوف والخناجر والدروع والرماح وهذا أمر يتطلبه وضعهم الجهادي ضد الممالك الإسبانية. بالإضافة إلى شهرتهم في

(678) ينظر، ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 74 ـ فرحات، غرناطة، ص 80.
(679) ينظر، أيضاً، ص 40 ـ أيضاً، ص 81.
(680) فرحات، غرناطة، ص 81.
(681) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 40.
(682) فرحات، غرناطة، ص 81.
(683) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ 1، ص 137 ـ 138.
(684) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 40.
(685) ينظر، فرحات، غرناطة، ص 141 وما بعدها.

صناعة الصوف والحرير والأقمشة الملونة، كما أتقن الغرناطيون صناعة الخزف وغيرها[686].

أما تجارة الدولة فكانت نشطة مع مصر وبلاد الشام وشمالي أفريقية، وكذلك مع مملكتي قشتالة وأرغون وبعض جمهوريات إيطاليا وبخاصة مع جمهورية جنوة[687]، وساعدها على ذلك موقعها البحري. وتشير الروايات إلى رخص الأسعار في مملكة غرناطة، فرطل اللحم يباع بدرهم[688]، وثمانية أرطال من العنب بدرهم أو بدرهمين. وكانت المواد الغذائية في العاصمة غرناطة أغلى من سائر المناطق، ويعود ذلك إلى ازدياد عدد سكانها بعد نزوح أبناء المدن والقرى التي وقعت في أيدي الإسبان إليها[689].

---

(686) المقري، نفح، جـ 1، ص 163 ـ فرحات، غرناطة، ص 144 ـ 146.

(687) فرحات، غرناطة، ص 150 ـ 151.

(688) المقري، نفح، جـ 1، ص 143 ـ 144 ـ ص 211، ص 218.

(689) ينظر، ابن خلدون، المقدمة، ص 364 ـ فرحات، غرناطة، ص 146.

الفصل الثالث

أثر الحضارة العربية في الأندلس على أوروبا

لسنا بحاجة إلى ذكر التفاصيل من أجل التدليل على عصر التخلف الذي ساد أوروبا عندما كانت أمة العرب والإسلام في عصر ازدهارها الفكري، فقد يكفينا في هذا المجال شهادة بعض العلماء الأوروبيين الذين كتبوا عن حضارة العرب وأثرها في تكوين الفكر الأروبي[1].

بدأ تأثير الحضارة الأندلسية في أوروبا منذ القرن الثامن الميلادي، ولقد اتخذ هذا التأثير صوراً وأشكالاً متعددة نظراً للحالة التي كانت عليها أوروبا حينئذ. ويمكن تمييز ثلاث مراحل لأثر الحضارة الأندلسية في أوروبا ابتداءً من بدايتها الأولى وحتى عصر النهضة وهما:

1 ـ عصر التاثير غير المباشر:

استقر العرب في الأندلس ما يقارب ثمانية قرون بلغت فيها الحضارة العربية الذروة، وكانت هذه الحضارة تشع من حواضر قرطبة وغرناطة وإشبيلية وسرقسطة وطليطلة وغيرها. وكان محبو العلم في أوروبا يهرعون إلى مراكز الحضارة الأندلسية ويقضون السنوات الطوال في الدراسة والتتبع، والاطلاع على كتب العرب فيها. وفي مقدمة هؤلاء الراهب الفرنسي (جربرت دي أورياك) الذي وفد إلى الأندلس على عصر الحكم المستنصر (350 ـ 366هـ)، واهتم بصورة خاصة بدراسة العلوم الرياضية وبرع

---

(1) ينظر، هونكة، شمس العرب، ص 359 وما بعدها، لويس يونغ، العرب وأوروبا، ص 11 ـ لوبون، حضارة العرب، ص 675 وما بعدها.

فيها حتى خيل لعامة فرنسا ـ بعد رجوعه ـ آنذاك بأنه ساحر[2]، وأصبح فيما بعد بابا روما باسم البابا سلفستر الثاني (390 ـ 394هـ) وله دوره البارز في نشر علوم العرب في أوروبا[3].

كما وجدت نسخة لاتينية من حكم بقراط كانت تستخدم في التدريس في مدينة شارتر بفرنسا عام 382هـ/ 991م، فعللت هذه الظاهرة بوجود نفوذ عربي مبكر في فرنسا، لأن هذه النسخة كانت عن أصل عربي، ذلك لأن الغرب اللاتيني كان يجهل في هذا العصر جهلاً تاماً أي شيء من الأصول اليونانية لأعمال اليونان القدماء[4].

ونستنتج افتراضاً من ظروف هرمان الكسيح (1013 ـ 1054م) وهو ابن أمير دالماسيا من أصل سويسري وقد كتب في الرياضيات والتنجيم عن تأثير الحضارة العربية الأندلسية. فهذا الأمير لظروفه المرضية لم يزر الأندلس، إلا أنه استفاد أولاً من ترجمات لأعمال عربية كالتي وجدت في شارتر أو التي عملت لجربرت، واستفاد ثانياً من الطلاب الأوروبيين العائدين من الأندلس والذين كانوا يمرون بدير (ريخناو) الذي يقيم به هرمان ويقضون فيه فترة قبل رجوعهم إلى بلادهم. وعن هؤلاء نقل هرمان كل ما جلبوه من الآلات الفلكية العربية وفي مقدمتها الاسطرلاب[5].

وإذا كانت هذه الظواهر جهوداً فردية قام بها بعض الأفراد أو بعض الأديرة، فإن بعثات علمية أرسلت إلى الأندلس ذات طابع رسمي من قبل حكومات بعض الدول الأروبية.

أخذت البعثات الأوروبية تتوالى تترى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى حتى بلغت سنة 312هـ في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة. وكانت إحدى هذه البعثات من فرنسا برئاسة الأميرة (اليزابث) ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا. وبعث فيليب ملك بافاريا إلى الخليفة هشام الثاني (توفي حوالي عام

---

(2) ينظر، جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص 396 وما بعدها ـ عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ص 5 ـ 6 ـ رينو، غزوات العرب، ص 296.

(3) حيدر بامات، دور المسلمين في بناء المدنية الغربية، ص 33 ـ السامرائي، الثغر الأعلى، ص 8 ـ دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص 385.

(4) جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص 501 ـ 502.

(5) هونكه، شمس العرب، ص 140 ـ سليم طه التكريتي: «أوروبا ترسل بعثاتها إلى الأندلس» مجلة الوعي الإسلامي، العدد 37 (الكويت: 1968)، ص 92.

403هـ) بكتاب يطلب إليه أن يأذن له بإرسال بعثة من بلاده إلى الأندلس للاطلاع على مظاهر التقدم الحضاري فيها والاستفادة منها. فوافق الخليفة هشام، وجاءت بعثة هذا الملك برئاسة وزيره المدعو (ويلمبين)، الذي يسميه العرب (وليم الأمين)[6].

وسار ملوك آخرون من أوروبا على هذا النهج، فقد أوفد ملك ويلز بعثة برئاسة ابنة أخيه كانت تضم ثماني عشرة فتاة من بنات الأشراف والأعيان، وقد وصلت هذه البعثة مدينة إشبيلية برفقة النبيل (سفيلك) رئيس موظفي القصر في ويلز الذي حمل رسالة من ملكه إلى الخليفة هشام الثالث (ويبدو أنه هشام المعتد بالله الذي خلع عام 422هـ)، وكان هدف هذه البعثة كما تقول الرسالة: «فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا ولأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان...»[7]. وقد استقبل خليفة الأندلس البعثة أحسن استقبال، ورد على رسالة ملك ويلز، وقد حظيت هذه البعثة باهتمام رجال الدولة الذين قرروا أن يتم الإنفاق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين[8].

وقد كانت بعثة ملك بافاريا التي ترأسها وليم الأمين تتألف من (215) طالباً وطالبة وزعوا على جميع معاهد الأندلس لينهلوا من مواردها الثقافية. وتخبرنا الروايات بأن ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الدين الإسلامي ومكثوا في الأندلس ورفضوا العودة إلى بلادهم. ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بمشاهير من رجال الأندلس في ذلك الوقت وأنجبن عدداً من العلماء كان منهم عباس بن مرداس الفلكي[9].

وفي الوقت نفسه عمد بعض ملوك أوروبا إلى استقدام علماء الأندلس لتأسيس المدارس ونشر ألوية العلم والعمران. ففي خلال القرن التاسع الميلادي وما بعده وقعت حكومات هولنده وسكسونيا وإنكلترا على عقود مع حوالي تسعين من الأساتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم، وقد اختير هؤلاء من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين الإسبانية واللاتينية إلى جانب اللغة العربية، ووقعت تلك الحكومات

---

(6) السامرائي، دراسات، ص 386.

(7) سليم طه التكريتي: «أوروبا ترسل بعثاتها إلى الأندلس»، ص 90.

(8) السامرائي، دراسات، ص 386 ـ 387.

(9) سليم طه التكريتي: «أوروبا ترسل بعثاتها إلى الأندلس»، ص 90 وما بعدها.

عقوداً أخرى مع حوالي مائتي خبير عربي في مختلف الصناعات ولا سيما إنشاء السفن وصناعة النسيج والزجاج والبناء وفنون الزراعة. ولقد أقام بعض المهندسين العرب أكبر جسر على نهر التايمس في بريطانية عرف باسم (جسر هليشم Helichem) وهذه الكلمة تحريف لكلمة هشام خليفة الأندلس الذي أطلق الإنكليز إسمه على هذا الجسر عرفاناً بفضله لأن أرسل إليهم أولئك المهندسين العرب. وكذلك كان المهندسون العرب هم الذين شيدوا قباب الكنائس في بافاريا، ولا تزال توجد بإحدى المدن الألمانية (شتوتغارت) حتى اليوم سقاية ماء تدعى (أميديو Amedeo) وهو تحريف لكلمة أحمد المهندس العربي الذي بناها[10].

واستمرت عملية التأثير غير المباشر زهاء ثلاثة قرون، وقد عملت على وضع أول خطوة في طريق تغير العقلية الأوروبية.

2 ـ عصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية:

يبدأ هذا العصر من منتصف القرن الحادي عشر الميلادي إلى أواخر القرن الثالث عشر، وأول ما اهتم به المترجمون، هو ترجمة العلوم العربية المنقولة عن العلوم اليونانية أولاً، ومن ثم ترجمة العلوم العربية الإسلامية ثانياً.

بعد أن استرد الإسبان مدينة طليطلة عام 478هـ/ 1085م أصبحت على الحدود بين دولة العرب في الأندلس وبين الممالك الإسبانية وأوروبا. ولقد امتازت هذه المدينة بكثرة مكتباتها خصوصاً وقد انتقل إليها آلاف المجلدات من المشرق، وبقيت الثقافة العربية فيها حتى بعد سقوطها بيد الإسبان. وقامت فيها حركة ترجمة من قبل هيئة من المترجمين نقلوا فيها كتب العرب إلى اللاتينية.

وفي عهد مطران طليطلة (ريموندو 1126 ـ 1152م) أسس معهداً للترجمة وعهد برئاسته إلى (دومنجو غنصالفة) الذي برز نشاطه ما بين عام 1130 وإلى عام 1180م، والذي يعد أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية عن طريق الإسبانية العامية[11]. فقد كانت الطريقة في الترجمة أن يقوم يهودي مستعرب ـ ومن أشهرهم في معهد الترجمة بطليطلة إبراهام بن عزرا ـ بترجمة النص العربي شفوياً إلى اللغة الإسبانية العامية، ثم يتولى (غنصالفة) الترجمة إلى اللاتينية. ومن بين ما ترجمه

---

(10) ينظر، السامرائي، دراسات، ص 387 ـ سليم طه التكريتي: «أوروبا ترسل بعثاتها إلى الأندلس»، ص 90 وما بعدها.

(11) السامرائي، دراسات، ص 389.

غنصالفة على هذا النحو مؤلفات الفارابي وابن سينا والغزالي. وشاركه في الترجمة أحياناً (خوان بن داوود) إذ اشتركا سوية في ترجمة كتاب (في النفس) لابن سينا، وشاركه أيضاً المترجمان الإنكليزان (روبرت الكيتوني وأدلارد الباثي). واشتهر أدلارد الباثي بترجمة جداول في علم الفلك لمسلمة المجريطي عام 1126م[12].

واستمرت حركة الترجمة في مدينة طليطلة في القرن الثالث عشر، ووفد إليها علماء أوروبا أمثال (ميخائيل سكوت) الذي ترجم كتباً لابن سينا. ومن كبار المترجمين في طليطلة (ماركوس) شماس طليطلة الذي ترجم بعض مؤلفات جالينوس الطبية - المترجمة إلى العربية أصلاً - كما ترجم القرآن الكريم وبعض كتب علم التوحيد، كما ترجم (هرمانوس المانوس) شرح ابن رشد على كتاب الأخلاق لأرسطو عام 1240م. ويلاحظ من أعمال ماركوس أن هناك دافعاً دينياً وراء اهتمام الأوروبيين في هذا القرن باللغة العربية، فقد أرادت الكنيسة الكاثوليكية أن تحول المسلمين إلى المسيحية، وأن تربط الكنائس الشرقية بروما بعد توحيدها. ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف، لا بد من تعلم العربية، وقد أثمر هذا الاهتمام أولاً بترجمة القرآن إلى اللاتينية تنفيذاً لفكرة بطرس الجليل (رئيس دير كلوني) الذي زار إسبانيا عام 1141م في مهمة دينية، فأتيحت له فرصة مراقبة بدايات الصراع بين الأندلس والممالك الإسبانية، وكان ذلك أثناء حكم دولة الموحدين[13]، وقد توصل إلى أن القوة المسلحة لا تجدي نفعاً في محاربة الإسلام، وإنما ينبغي اللجوء إلى المنطق، وذلك بفهم الخصم أولاً، والإصغاء إلى جدله وحججه ثانياً، وبما أن القرآن هو المرجع الأول لدى المسلمين فقد وجب على الأوروبيين فهمه. ولتحقيق هذه الغاية قام بطرس الجليل بتكليف الراهب الإنكليزي (روبرت الكيتوني) الذي كان يدرس آنذاك الفلك العربي والرياضيات في إسبانيا، أن يترجم القرآن إلى اللاتينية وأجزل له العطاء، وقد لقيت ترجمته رواجاً واسعاً[14].

ومن الذين اهتموا بالدراسات العربية بدافع ديني هو (رامون لل) من أهل ميورقة الذي برز بعد استرجاع الجزائر الشرقية من يد المسلمين عام 627هـ/ 1230م، فقد درس اللغة العربية تسع سنوات على يد أسير مسلم، ثم نجح في تأسيس معهد لتدريس

---

(12) ينظر، أوليري، الفكر العربي، ص 234 - جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص 523 - لويس يونغ، العرب وأوروبا، ص 12، ص 120.

(13) ينظر، السامرائي، دراسات، ص 390.

(14) ينظر، لويون، حضارة العرب، ص 677 - لويس يونغ، العرب وأوروبا، ص 12 - 13 - عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 10.

العربية، وكان يؤمن بالحوار مع المسلمين مع الاعتقاد سلفاً بتفوق الدين المسيحي. ولتحقيق هذا الغرض أبحر في عام 1291م إلى تونس من أجل إجراء مناقشة علنية مع علماء المدينة حول أوجه الخلاف بين المسيحية والإسلام، وقد أدت المناقشة إلى طرده فعاد إلى أوروبا، ثم كرر العودة إلى تونس فثار عليه العوام وقتلوه عام 1316م(15). وفي عهد ألفونسو الحكيم انتشرت حركة الترجمة من العربية إلى الإسبانية، فترجمت كتب كليلة ودمنة، وعشرات من كتب الفلك فكان لهذا أثره في قيام اللغة الإسبانية أولاً، ومن ثم تقدم الدراسات العلمية في إسبانيا وانتقالها إلى أوروبا ثانياً. وأنشأ ألفونسو الحكيم عام 1254م جامعة إشبيلية وخصصها لدراسة العربية واللاتينية(16).

3 ـ عصر الاستعراب ـ قمة التأثير العربي:

ويمتد هذا العصر من منتصف القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن الخامس عشر. وقد اتصف هذا العصر بالقبول الأعمى لكل ما هو عربي، والنظر إليه باعتباره الحجة النهائية.

في هذه الفترة نستعرض أثر العلوم العربية المختلفة في تكوين الفكر الأوروبي في مختلف ميادينه:

ففي مجال الفكر الفلسفي، عرفت أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن طريق الأندلس مؤلفات أرسطو، وأجزاء من فلسفة أفلوطين وأبرقلس، ومعالم من فلسفة أفلاطون وذلك بواسطة معاهد الترجمة في مدينة طليطلة، إذ قام المترجمون بترجمة كتاب البرهان من منطق أرسطو (أور جانون أرسطو) أي مؤلفات أرسطو المنطقية مثل (التحليلات الثانية ـ السماء والعالم ـ الكون والفساد)، كما ترجموا كتاب (الخير المحض) المنسوب إلى أرسطو. فكان لهذه الحركة أثر فعال في إخصاب الفكر الأوروبي الذي سرعان ما خضع لفلسفة أرسطو(17).

كما أثر الفلاسفة العرب في أوروبا عندما ترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية وبعض

(15) لويس يونغ، العرب وأوروبا، ص 14.

(16) جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص 524 ـ هونكه، شمس العرب، ص 136 وما بعدها ـ عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 10.

(17) ينظر، عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 30 ـ أرنست بنتس، «الثقافة الإسلامية تنقل الفلسفة اليونانية إلى أوروبا» ترجمة سليم طه التكريتي، مجلة المورد العدد 4 (بغداد: 1981)، ص 466 وما بعدها.

اللغات الأوروبية الحديثة. فترجم يوحنا الإسباني منطق ابن سينا، وترجم غنصالفة بمساعدة يوحنا الإسباني قسم الطبيعيات وقسم النفس وقسم الإلهيات من كتاب الشفاء لابن سينا أيضاً، كما ترجموا كتاب مقاصد الفلاسفة للإمام الغزالي وكتاب ينبوع الحياة لابن جبرول (توفي عام 450هـ)[18]. وقد تأثر شيخ المترجمين الأوروبيين غنصالفة بآراء فلاسفة الإسلام، فألف كتاباً نجد فيه آثار الفلسفة الإسلامية، ومن أشهر كتبه التي بدا فيها تأثير ابن سينا وابن جبرول هو كتاب (صدور العالم ـ في خلود النفس ـ في التوحيد)، وعندما بدأ الأوروبيون قراءة كتب فلاسفة الإسلام بدأت النهضة الحقيقية للفكر الفلسفي الأوروبي[19].

وأول من أدخل فلسفة ابن رشد إلى أوروبا ميخائيل سكوت عام 1230م، ولم يأت منتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جميع كتب هذا الفيلسوف قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية[20]. ورسالة حي بن يقظان لمؤلفها أبي بكر بن طفيل، ترجمت إلى العبرية في القرن الرابع عشر الميلادي، وإلى اللاتينية في القرن الخامس الميلادي، وبتوالي السنون ظهرت ترجمات بلغات مختلفة لهذه الرسالة[21].

أما أثر التصوف الإسلامي في نشأة التصوف الأوروبي، فقد أثرت آراء الصوفي الأندلسي ابن عباد الرندي (توفي عام 792هـ) على آراء الصوفي الإسباني يوحنا الصليبي. ومن المعروف أن ابن عباد الرندي كان صوفياً على الطريقة الشاذلية ـ سبق يوحنا الصليبي بمائتي سنة، ويبدو أن التوافق بين آراء العالمين جاء نتيجة، أن الطريقة الشاذلية كانت واسعة الانتشار في المغرب والأندلس في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادي، ولا بد أنها ظلت عميقة التأثير والانتشار بين المسلمين الذين غلبوا على أمرهم وبقوا في إسبانيا بعد إخراج العرب منها عام 1492م، وعن هؤلاء تلقى يوحنا الصليبي علمه بالطريقة الشاذلية[22].

---

(18) شاخت وبوز ورث، تراث الإسلام، جـ 2، ص 264 ـ 265 ـ عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 30 ـ 31.

(19) عبد الرحمن بدوي، دور العرب، 31.

(20) حسني أحمد، الحضارة العربية، ص 97 ـ 98.

(21) ضياء أولكن، «أثر الفكر العربي الإسلامي في الفلسفة الغربية» ترجمة عبد الصاحب السعدي، مجلة المورد، العدد 4، ص 410 ـ ينظر شاخت وبوز ورث، تراث الإسلام، جـ 2، ص 273.

(22) عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 25 ـ 27.

وفي مجال التصوف فقد أثر الغزالي في فكر العالم الفرنسي المشهور (ب صاحب الحجة المشهورة في إثبات وجود الآخرة والتي تسمى رهان بسكال، حيث حاول إقناع المنكرين للآخرة الإيمان بوجودها، وهذه الحجة ذكرها الغزالي في معظم كتبه[23]. أما تفسير الاتفاق بين آراء الغزالي وآراء بسكال حول هذه الحجة، فإن بسكال عرف كلام الغزالي إما عن طريق مستشرق معاصر لبسكال، أو أنه عرف آراء الغزالي أثناء إطلاعه على كتاب (خنجر الإيمان) لريموندو مارتين، والذي ثبت أن بسكال استفاد منه وهو يكتب دفاعه عن الدين[24]. هذا مع العلم أن الإمام الغزالي عرف في أوروبا بأنه صاحب كتاب مقاصد الفلاسفة، لا صاحب كتاب الإحياء[25].

كما كان لمحيي الدين بن عربي الأندلسي أثر كبير على عقول النساك الأوروبيين، والذين حببه إليهم أنه دعى إلى وحدة الأديان.

ومن المعروف أن أول الفلاسفة الصوفيين من أهل الغرب هو (جوهان أوكهارت) الإلماني الذي عاش في القرن التالي لعصر محيي الدين بن عربي (القرن الثالث عشر) ودرس في جامعة باريس التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم[26]. وأثر محيي الدين بن عربي في دانته الشاعر الإيطالي المشهور الذي استمد مادة غزيرة لكتابه (الكوميديا الإلهية) من التصورات الأخروية الإسلامية، وبخاصة ما ورد منها عند ابن عربي[27].

أما في مجال الفكر العلمي فتأثير الأندلس كبير جداً، فكانت مدارس الطب الأوروبية تستخدم الكتب الطبية العربية المترجمة إلى اللاتينية وبخاصة كتب الرازي وابن سينا[28]. فكتاب الحاوي للرازي كان أحد الكتب التسعة التي تتكون منها مكتبة الكلية الطبية في باريس عام 1395م، وعندما أراد الملك لويس الحادي عشر استنساخه اضطر

---

(23) ينظر، إحياء علوم الدين، جـ، ص 365 ـ 366.

(24) عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 27 ـ 28 ـ ضياء أولكن، «أثر الفكر العربي الإسلامي»، ص 412 ـ 413.

(25) السامرائي، دراسات، ص 394.

(26) حسني أحمد، الحضارة العربية، ص 97 ـ عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص 97.

(27) عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 49 وما بعدها.

(28) لويس يونغ، العرب وأوروبا، ص 128.

إلى دفع مبلغ كبير من الذهب والفضة مقابل استعارته. وطبع هذا الكتاب مرات عديدة في أوروبا بترجمته اللاتينية. أما كتابه المنصوري فقد ترجم إلى اللاتينية عام 1489[29].

أما كتاب التصريف لخلف بن عباس الزهراوي (توفي عام 427هـ) فقد استمر مدة خمسة قرون العمدة في الأمور الجراحية في أوروبا، وقد ترجم إلى اللاتينية والعبرية عدة مرات. وكتاب القانون في الطب لابن سينا، فقد ترجم إلى اللاتينية وطبع عشرات المرات خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين[30].

وكان كتاب في العقاقير لماسويه المارديني (توفي عام 406هـ) الكتاب المدرسي في الصيدلية في أوروبا لعدة قرون، كما كان كتاب الأدوية المفردة لابن وافد (توفي عام 467هـ) من أهم كتب الصيدلة التي اعتمدت عليها أوروبا في القرون الوسطى[31].

- وفي مجال الكيمياء فقد ترجم كتاب غاية الحكيم للعالم أحمد بن مسلمة المجريطي الأندلسي (توفي عام 398هـ) إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر، وبذلك عرف الأوروبيون من العرب تقسيم المواد الكيمياوية إلى نباتية وحيوانية ومعدنية، وما زالت المعدات العربية في مجال الكيمياء، والتي انتقلت إلى الكيمياء الحديثة، تحمل أسماءها العربية الأصيلة[32].

- أما في مجال الرياضيات، فقد أخذ العرب الأرقام الحسابية من الهند، وعن طريقهم انتقلت الأعداد الغبارية إلى الأندلس، ومنها إلى أوروبا. وأول من أخذ بالأرقام العربية من الأوروبيين جربرت الذي عرف فيما بعد بالبابا سلفستر الثاني، الذي درس في الأندلس وبعدها ألف كتاباً شرح فيه كيفية استخدام الأرقام العربية. إلا أن أوروبا لم تلق بالاً إلى هذا النظام الجديد في البداية، بل كان ينظر إلى جربرت بعين الشك، وأنه ساحر، كما رويت عنه الأساطير الشعبية[33]. وبعد فترة من الزمن تبنت أوروبا الأرقام العربية نتيجة أعمال (ليوناردو دي بيزا) الذي توفي عام 1240م والذي درس الرياضيات

---

(29) لوبون، حضارة العرب، ص 589 ـ فرات فائق، أبو بكر الرازي، ص 69 وما بعدها.

(30) حكمت نجيب عبد الرحمن، دراسات، ص 55 ـ 56، ص 60 ـ حسني أحمد، الحضارة العربية، ص 89 ـ عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 22.

(31) جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص 352.

(32) حسني أحمد، الحضارة العربية، ص 91 ـ العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص 43 ـ حكمت نجيب، دراسات، ص 276.

(33) ينظر، السامرائي، الثغر الأعلى، ص 7 ـ 8.

على يد معلم عربي في شمال أفريقية، وأصدر كتاباً يشرح فيه نظام الأرقام العربية عام 1202م وكان ذلك بداية تبني أوروبا للأرقام العربية[34]. وترجمت كذلك كتب الخوارزمي (كتاب الجبر والمقابلة) وكتاب أقليدس في الهندسة (الترجمة العربية) إلى اللغة اللاتينية واستفادت منها أوروبا كثيراً[35].

وفي مجال علم الفلك، فقد قام مجموعة من المترجمين الأوروبيين بنقل كتب علم الفلك العربية إلى اللغة اللاتينية، ومثال على ذلك، ترجمة زيج (الجداول) البتاني (توفي عام 317هـ) إلى الإسبانية بناء على رغبة الملك ألفونسو العاشر ملك قشتالة (1252 ـ 1284م) وسمي هذا الزيج (بالجداول الألفنسية) الذي شاع استعماله في أوروبا لعدة قرون[36].

أما الألواح الفلكية للخوارزمي، فقد ترجمها إلى اللاتينية أدلارد الباثي عام 1126م، ومؤلفات أبي معشر البلخي (توفي عام 886هـ) نقلها إلى اللاتينية (خوان الإشبيلي)، ومن خلالها نقل إلى الأوروبيين تفسيراً لظاهرة المد والجزر وارتباطها بالقمر[37].

ونتيجة اهتمامات العرب الفلكية عرفوا موقع النجم الثابت في الجنوب (سهيل) ويسمى أيضاً غيوم ماجلان، حيث استعان به ماجلان أثناء رحلته حول العالم (1519 ـ 1522). ومن علماء العرب في الفلك الذين ذكروا هذا النجم عبد الرحمن الصوفي (توفي عام 376هـ) في كتابه الكواكب الثابتة، وبهذا قدموا خدمة كبيرة لأوروبا في مجال الاستكشافات الجغرافية[38]. وإذا كان وصول العرب إلى القارة الأمريكية قبل كولمبس أمراً غير مقطوع به، فمن المحقق أنهم وصلوا في المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) إلى أمد بعيد وانتهوا إلى بعض جزائره. أما الأمر الذي لا شك فيه أن الفكرة التي نهضت بكولمبس مكتشف القارة الأمريكية (1492 ـ 1493م) إنما هي فكرة عملية مستمدة من المؤلفات العربية وبخاصة كتب الجغرافية والفلك. فلولا اقتناع كولمبس باستدارة الأرض لما خطر له أن يصل إلى الهند من طريق الغرب، ولم تكن في أوروبا

---

(34) لويس يونغ، العرب وأوروبا، ص 125.

(35) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين، ص 168، ص 177.

(36) جلا مظهر، حضارة الإسلام، ص 530 ـ لويس يونغ، العرب وأوروبا، ص 126 ـ حسني أحمد، الحضارة العربية، ص 93.

(37) عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 19.

(38) السامرائي، دراسات، ص 5403.

يومئذ مؤلفات تشرح هذه الفكرة غير المؤلفات العربية[39].

وإلى جانب كل هذا تأثرت الجامعات الأوروبية ببعض تقاليد الجامعات العربية وبخاصة التي كانت موجودة بالأندلس. فقد قلدتها في لبس الأردية الخاصة بالأساتذة، وقلدتها في تخصيص أروقة للطلاب حسب جنسياتهم تسهيلاً لاستيعابهم في الجامعة، وقلدتها في منح الإجازات (إجازة التدريس). وقد أكد بعض علماء أوروبا أن كلمة (بكالوريوس اللاتينية) ليست إلا تحريفاً للعبارة العربية (بحق الرواية) والتي تعني الحق في التعليم بإذن من الأستاذ. ولا تزال جامعة كمبردج تحتفظ بإجازة جامعية عربية مبكرة تعود إلى عام 1147م فيها عبارة بحق الرواية، بينما لم تظهر كلمة بكالوريوس في الإجازات الأوروبية قبل عام 1221م[40].

أما في مجال الأدب، فقد كان للأدب الأندلسي، وبخاصة الشعر، أثر كبير في نشأة الشعر الأوروبي الحديث في إسبانيا وجنوبي فرنسا، ويأتي تأثير الزجل والموشح بالدرجة الأولى، كما يروي المستشرق الإسباني (خليان ريبيرا) الذي درس موسيقى الأغاني الإسبانية ودواوين شعراء التروبادور، وهم الشعراء الجوالة في العصور الوسطى بأوروبا، والمنيسنجر، وهم شعراء الغرام. كما أثبت انتقال بحور الشعر الأندلسي فضلاً عن الموسيقى العربية إلى أوروبا[41]. وشعر التروبادور يعود إلى أصل عربي، وذلك لوجود أوجه شبه لفظية موسيقية بين ما شاع بأوروبا، وبين ما عرف عن الزجل الأندلسي، وكذلك من حيث المضمون حيث شاع في هذا النوع من الشعر بعض مضامين الشعر العربي وهي التي يطلق عليها حب المروءة الذي شاع في أوروبا، وانتشر في إسبانيا بفضل ابن حزم عن طريق كتابه (طوق الحمامة)[42]. وقد انتفع شعراء جنوبي فرنسا في القرن الحادي عشر الميلادي من الشعر الأندلسي، حيث وجد شبهٌ بين شعراء التروبادور وبين ابن قزمان الشاعر الأندلسي. وأما سبب ظهور هذا النوع من الشعر في فرنسا قبل إسبانيا فيعود إلى أن جيوم التاسع أحد رواد التروبادور ودوق أكيتانيا تعلم

---

(39) ينظر: زكريا هاشم، فضل الحضارة الإسلامية، ص 545 ـ عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 288 ـ العقاد، «نصيب العرب من حضارة العالم» مجلة العربي العدد 4 (الكويت: 1958)، ص 33.

(40) لويس يونغ، العرب وأوروبا، ص 131 ـ 132 ـ ينظر، غازي محمد الحاجم، «دور المسلمين في تقدم الطب» مجلة التربية الإسلامية، العدد الأول لسنة 1977، ص 37.

(41) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، جـ 1، ص 246 ـ عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 14.

(42) ينظر، حيدر بامات، مجالي الإسلام، ص 304 ـ سعد شلبي، دراسات أدبية، ص 115.

العربية عندما اشترك في حملة صليبية بالمشرق عام (495 ـ 496هـ) وأقام مدة بالشام، كما اشترك مع ألفونسو المحارب في معركة قتندة في الأندلس عام 514هـ، ويعد هذا أول شاعر في اللغات الأوروبية الحديثة، وقد بقي من شعره إحدى عشرة قصيدة(43). كما أن سقوط طليطلة بيد الإسبان عام 478هـ هيأ لكثير من الفرنسيين الاتصال بمسلمي الأندلس والتأثر بهم، كما لم ينقطع في الوقت نفسه تدفق البعوث الدينية وقوافل التجار بين طليطلة والمقاطعات الفرنسية، كل هذه الأسباب جعلت التروبادور الفرنسي أسبق ظهوراً من قرينه الإسباني(44). كما أن فكرة الحب النبيل التي تسود الغزل في الشعر البروفنسالي، تعود بالأصل إلى ابن حزم الذي عرضها في كتابه طوق الحمامة في الألفة والألاف، وهو ما يسمى بالحب العذري(45).

كذلك نجد تأثير القصص العربية على نشأة الأدب القصصي في أوروبا، ولقد قام (بدرو ألفونسو) بترجمة ثلاثين قصة من العربية إلى اللاتينية تحت عنوان (تعليم العلماء) ذكر فيها قصة المرأة التي خانت زوجها الغائب، والذي عاد فجأة فأنقذتها أمها من هذه الورطة بأسلوب ماكر، وقد انتشرت هذه القصة في الأدب الأوروبي(46). ومن ناحية أخرى أثرت كليلة ودمنة في الأدب بعد أن ترجمت في عصر ألفونسو الحكم حوالي عام 1250م إلى الإسبانية، كما ترجمت بعض القصص التي تسربت من ألف ليلة وليلة إلى الأندلس، ومنها حكاية (الجارية تودد) التي ترجمت إلى الإسبانية في القرن الثالث عشر، وأثرت بعد ذلك في إنتاجات كبار أدباء المسرح الإسباني. وبذلك احتل كتاب ألف ليلة وليلة مكانة مهمة في تاريخ الأدب الأوروبي بما يصوره عن الشرق الغامض والساحر، الشرق الذي يزخر بالسحرة والجن، والذي يزخر بالكنوز الرائعة والمغامرات المذهلة، وبذلك أصبحت الصورة نصف الخيالية عن الشرق كما أظهرها الكتاب مجسمة إلى حد كبير في الأدب الأوروبي(47). وضمن هذا المجال، نرى دخول كلمات عربية إلى اللغات الأوروبية المختلفة، فقد دخل بعض هذه الكلمات مباشرة من العربية، ودخل بعضها عن طريق اللغة الإسبانية أو اللاتينية التي كانت لغة العلم والأدب في تلك

---

(43) السامرائي، علاقات، ص 441 ـ عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 14.
(44) بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 206، ص 302 ـ سعد شلبي، دراسات أدبية، ص 118.
(45) عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 15 ـ 16.
(46) السامرائي، دراسات، ص 406.
(47) لويس يونغ، العرب وأوروبا، ص 127 ـ 138 ـ عبد الرحمن بدوي، دور العرب، ص 16.

العصور. فمثلما نجد أثر اللغة العربية في اللغة العلمية لأوروبا، نجدها في الحياة المعيشية أيضاً، وهذا يدل على مدى تغلغل الحضارة العربية في شؤون المعيشة اليومية التي تلازم المرء في داره، وفي موطن عمله، كما تلازمه في جده ولهوه[48].

وبعد ذلك بدأ في أوروبا عصر الاستقلال الفكري والانطلاق الأوروبي في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وذلك بظهور طائفة من العلماء اللاتين استطاعت ابتكاراتهم العلمية أن تبدأ عصراً علمياً جديداً في أوروبا طابعه الابتكار والتجديد، أمثال (كوبرنيكوس) و(ليوناردو دافنشي) و(باراسيلوس) وغيرهم[49].

ومن الملاحظ أن أوروبا في بداية عصر النهضة اتخذت موقفاً معادياً لعلوم العرب، وبدأت تظهر بواكير حركة لهجر مؤلفاتهم. إلا أنها عادت مرة ثانية في بداية القرن الثامن عشر إلى علوم العرب بعد أن أدركت خطأ رجوعها إلى علوم اليونان، أو استقلالها العلمي، ولكن بطريقة استقلالية لتكمل النقص الذي لا زالت ثغراته في حاجة إلى سدها من علوم العرب[50].

لا ينكر أن دخول الأندلس وصقلية وجنوبي إيطاليا ضمن العالم الإسلامي جعلها مراكز حضارية راقية للفكر العربي. فعن طريقها خلال العصر الإسلامي وبعده، أثر الفكر العربي بالفكر الأوروبي، وذلك للقرب الجغرافي بين هذه المناطق وأوروبا. حيث لا يفصل الأندلس عن بقية أوروبا سوى جبال البرتات، مع العلم أن المسلمين عبروا هذه الجبال وفتحوا مناطق في فرنسا كانت ضمن دولة العرب في الأندلس لفترة من الزمن، كما أن صقلية وجنوبي إيطاليا مرتبطة ارتباطاً مباشراً ببقية شبه الجزيرة الإيطالية. إضافة إلى الاتصال والاحتكاك العسكري والحضاري الذي كان سائداً بين بلاد أوروبا وبين هذه الواحات الفكرية العربية القريبة منها، أو اتصالها بالمشرق الإسلامي عن طريق الحروب الصليبية. وهذا مع العلم بأن أوروبا كانت جادة بأنها إذا أرادت التقدم والتطور عليها أن تتصل بمراكز الفكر والحضارة العربية، ولهذا كان أثر الفكر العربي في الفكر الأوروبي واضحاً[51].

---

(48) ينظر، جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص 533 ـ لوبون، حضارة العرب، ص 534 ـ عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين، ص 103، ص 128.

(49) السامرائي، دراسات، ص 408 ـ 409.

(50) أوليري، الفكر العربي، ص 249 ـ جلال مظهر، حضارة الإسلام، ص 533.

(51) السامرائي، دراسات، ص 409.

قائمة المصادر والمراجع

1 ـ المصادر

ابن الآبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (توفي: 658هـ)

- التكملة لكتاب الصلة، نشر وتصحيح عزت العطار الحسيني (القاهرة: 1956)، وطبعة أخرى نشر الفريد بل وابن أبي شنب (الجزائر: 1919) وأخرى نشر: الأركون وكونثاليث بالنشيا؛ (مدريد 1915).
- الحلة السيراء، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، جزءان (القاهرة: 1963).
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي (القاهرة: 1967) وطبعة أخرى (مدريد: 1885م).

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم (توفي: 677هـ).

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (بيروت: 1965).

ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني.

- المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق وتعليق، محمد شمام (تونس: 1967).

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي الفاسي (كان حياً قبل عام 726هـ).

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (أو بسالة: 1843)، وطبعة أخرى (الرباط: 1973).
- الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية (الرباط: 1972).

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري (توفي 630هـ).

- الكامل في التاريخ، (بيروت: 1965 ـ 1967) الأجزاء 5 ـ 9 ـ 10 ـ 11.

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (توفي 560هـ).

- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، نشر دوزي ودي خويه، (أمستردام: 1969)، وطبعة أخرى (ليدن: 1866).

ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني (توفي 542هـ).

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس (بيروت: 1979) ـ والقسم الثاني ـ المجلد الأول تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع (القاهرة: 1975).

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأنصاري (توفي 578هـ).

- كتاب الصلة، قسمان، (القاهرة: 1966).

ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي (توفي 874هـ).

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ 4، جـ 6، (القاهرة: 1963).

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي (توفي 770هـ).

- رحلة ابن بطوطة، تحقيق ونشر الدكتور علي المنتصر الكتاني، جزءان، (بيروت: 1979).

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسي (توفي 614هـ).

- رحلة ابن جبير، (دار الكتاب اللبناني: مجهول سنة الطبع).

ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان (توفي بعد عام 384هـ).

- طبقات الأطباء، تحقيق، فؤاد السيد، (القاهرة: 1955).

ابن حبيب، عبد الملك بن حبيب الألبيري (توفي 238هـ).

- استفتاح الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، جـ 5، 1957.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، (توفي 456هـ).

- رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس (القاهرة: 1954).
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: 1962).
- طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق حسن كامل الصيرفي (القاهرة: 1964).
- نقط العروس، تحقيق شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة 133، جـ 2، 1951م.

ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (توفي 367هـ).
- صورة الأرض (بيروت: 1979).

ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (توفي 469هـ).
- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، جـ 3، تحقيق الدكتور محمود علي مكي (بيروت: 1973).
- المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، جـ 2 نشر ملشور، م. أنطونية، (باريس: 1937).
- المقتبس، جـ 5، نشر، ب. شالميا، (مدريد: 1979).
- المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، (بيروت: 1965).

ابن خرداذبة
- المسالك والممالك، طبعة ليدن.

ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد التلمساني (توفي 776هـ).
- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، (القاهرة: 1973 ـ 1977) أربعة أجزاء، وطبعة أخرى (القاهرة: 1955).
- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، (بيروت: 1956).
- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتابي، (الدار البيضاء: 1964).
- (المنسوب) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، (توفي: 1329هـ).
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان جـ 1 (القاهرة: 1980).
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، (بيروت: 1978).

ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم الأندلسي (توفي 533هـ).
- ديوان ابن خفاجة، تحقيق، مصطفى غازي (الإسكندرية: 1960).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (توفي 808هـ).
- التعريف بابن خلدون، (دار الكتاب اللبناني: 1979).
- كتاب العبر، (بيروت: 1958) وطبعة أخرى، (بيروت: 1979) سبعة أجزاء.

- مقدمة ابن خلدون، (بيروت: 1978).

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (توفي 681هـ).

- وفيات الأعيان، تحقيق محيي الدين عبد الحميد (مكتبة النهضة: 1945) وطبعة أخرى (بيروت: 1968).

ابن خير، أبو بكر محمد بن خير بن عمر الإشبيلي (توفي 575هـ).

- فهرسة ما رواه عن شيوخه، (بيروت: 1979).

ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن الحسن (توفي 633هـ).

- المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون (القاهرة: 1945).

ابن الزبير، أبو جعفر أحمد (توفي 708هـ).

- صلة الصلة، تحقيق ليفي بروفنسال، (الرباط: 1937).

ابن سعيد الأندلسي وأسرته.

- المغرب في حلى المغرب، جزءان، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، (القاهرة: 1955) وطبعة أخرى (القاهرة: 1964).

ابن الشباط: محمد بن علي.

- صلة السمط وسمة المرط، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، العدد: 14، 1967 ـ 1968.

ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد الباجي (توفي بعد 594هـ).

- تاريخ المن بالإمامة، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، (بيروت: 1964) وطبعة أخرى (بغداد: 1979).

ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (توفي 257هـ).

- فتوح مصر والمغرب (القاهرة: 1961).
- فتوح مصر وأخبارها، نشر شارلس توري، 1922.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (توفي 328هـ).

- العقد الفريد. جـ 1، (بيروت: 1965).

ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري (توفي 703هـ).

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة جـ 1، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة (بيروت: المكتبة الأندلسية) جـ 4، جـ 5، جـ 6، تحقيق الدكتور إحسان عباس (بيروت: 1964، 1965، 1973).

ابن عبدون التجيبي.

- في القضاء والحسبة، ضمن مجموعة ثلاثة رسائل أندلسية من الحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال، (القاهرة: 1955).

ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (توفي بعد 712هـ).

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ 2، تحقيق كولان وبروفنسال (بريل: 1951).
- البيان المغرب، جـ 3، تحقيق، ليفي بروفنسال (بيروت: مجهول تاريخ الطبع).
- البيان المغرب، جـ 4، تحقيق إحسان عباس (بيروت: 1967) خاص بالمرابطين.
- البيان المغرب/القسم الثالث، تحقيق ميرندة وآخرون، (تطوان: 1960) خاص بالموحدين فسميناه البيان الموحدي.

ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي (توفي 799هـ).

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، جزءان (القاهرة: 1974).

ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد، (توفي 403هـ)

- تاريخ علماء الاندلس (القاهرة: 1966).

ابن الفقيه.

- مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن.

ابن قتيبة (المنسوب).

- الإمامة والسياسة، الجزء الخامس بالأندلس، منشور ضمن كتاب افتتاح الأندلس، لابن القوطية، مدريد 1926.

ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الكتامي (توفي 628هـ).

- نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، (تطوان: 1965).

ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر القرطبي، (توفي 367هـ).
- تاريخ افتتاح الأندلس (مدريد: 1868) مطبعة 1926، وطبعة أخرى (بيروت: 1958).

ابن كثير، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل (توفي 774هـ).
- البداية والنهاية في التاريخ، جـ 12 (القاهرة، مطبعة السعادة).

ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزري (من علماء القرن السادس الهجري).
- الاكتفاء في أخبار الخلفاء (تاريخ الأندلس)، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، (مدريد: 1971).

أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (توفي 732هـ).
- تقويم البلدان (باريس: 1840).

البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز (توفي 487هـ).
- جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي، (بيروت: 1968).
- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تحقيق دي سلان، (باريس: 1911)، وطبعة أخرى (الجزائر: 1957).

البلاذري، أحمد بن يحيى (توفي سنة 279هـ).
- فتوح البلدان، نشر: دي غويه، ليدن 1866.

الحموي، ياقوت الرومي (توفي 626هـ).
- معجم الأدباء، (طبع دار المأمون 1936 والعام التالي).
- معجم البلدان، (بيروت: 1956 ـ 1957) وطبعة أخرى (وستنفيلد).

الحميدي، محمد بن أبي نصر (توفي 488هـ).
- جذوة المقتبس، (القاهرة: 1966).

الحميري، عبد المنعم السبتي (توفي حوالي 710هـ).
- صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر ليفي بروفنسال، (القاهرة: 1937).

الخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث (توفي 361هـ).
- قضاة قرطبة (القاهرة: 1966).

الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن (توفي 696هـ).
- معالم الإيمان جـ 1 تحقيق إبراهيم شبوح (القاهرة: 1968).

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (توفي 748هـ).
- العبر في خبر من غبر، جـ 1، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (الكويت: 1960).

الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم (توفي بعد سنة 417هـ).
- تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس، 1968.

الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (توفي 379هـ).
- طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: 1954).

الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (توفي: 1289هـ).
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية.

الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (توفي بعد 545هـ).
- كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مجلة الدراسات الشرقية مجلد 21، (دمشق 1968).

السراج، الوزير محمد بن محمد الأندلسي (توفي 1149هـ).
- الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق الهيلة (تونس: 1970).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (توفي 911هـ).
- تاريخ الخلفاء، تحقيق محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: 1964).

صاعد الأندلسي، أبو القاسم (توفي 462هـ).
- طبقات الأمم، نشر لويس اليسوعي، (بيروت: 1912) وطبعة أخرى (النجف: 1967).

الضبي، أحمد بن يحيى (توفي 599هـ).
- بغية الملتمس (القاهرة: 1967) وطبعة (مدريد: 1884).

الطبري، محمد بن جرير (توفي 310هـ).

- تاريخ الرسل والملوك، لندن 1879 ـ 1901.

الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد (توفي 520هـ).

- سراج الملوك، (القاهرة: 1289هـ).

عبد الله بن بلقين (توفي 483هـ).

- التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة (مذكرات الأمير عبد الله)، تحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة: 1955).

العذري، أبو العباس أحمد بن عمر الدلائي (توفي 478هـ).

- نصوص عن الأندلس، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني (مدريد: 1965).

عياض، القاضي بن موسى بن عياض (توفي 544هـ).

- ترتيب المدارك، جـ 3، تحقيق أحمد بكير محمود (بيروت: 1965).

الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد (توفي 714هـ).

- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض (بيروت: 1969).

الغساني، محمد بن عبد الوهاب (توفي 119هـ).

- رحلة الوزير في افتكاك الأسير (تطوان: 1939) والنسخة المخطوطة المحفوظة في المكتبة الوطنية، مدريد رقم (5304).

الغزالي، أبو حامد (توفي 505هـ).

- إحياء علوم الدين (القاهرة: 1939).

الفتح بن خاقان، أبو نصر، (توفي 529هـ أو 535هـ).

- قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تصحيح محمد العناني (تونس 1966)، وطبعة أخرى (المكتبة العتيقة 1968).

القلقشندي، أحمد بن عبد الله (توفي 821هـ).

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ 5 (القاهرة: 1963).

المالكي، أبو بكر عبد الله.

- رياض النفوس، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، (القاهرة: 1951).

مؤلف مجهول.
- أخبار مجموعة (مدريد: 1867م).
مؤلف مجهول.
- فتح الأندلس، نشر، كونثاليث (الجزائر 1889).
مؤلف مجهول.
- مفاخر البربر، نشر بروفنسال، (الرباط، 1937).
مؤلف مجهول.
- ذكر بلاد الأندلس، مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (85ج).
المراكشي، محي الدين عبد الواحد بن علي (توفي 647هـ).
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان (القاهرة: 1963) وطبعة (أمستردام، 1968).
المسعودي، علي بن الحسين (توفي 346هـ).
- التنبيه والإشراف (بيروت: 1965).
- مروج الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (القاهرة: 1958).
المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (توفي 1041هـ).
- أزهار الرياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون (القاهرة: 1939 ـ 1940).
- نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: 1968).
النباهي، أبو الحسن عبد الله (توفي 793هـ).
- تاريخ قضاة الأندلس (كتاب المرقبة العليا) (بيروت: لا تاريخ للطبع).
النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (توفي 733هـ).
- نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ 22 (غرناطة 1917) خاص بالأندلس.
الهذيل، علي بن عبد الرحمن.
- تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخطوط المكتبة الوطنية، مدريد رقم (5095).

2 ـ المراجع العربية

ابن عبود، محمد.

ـ التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، (تطوان: 1983).

أبو رميلة، هشام سليم.

ـ علاقات الموحدين بالممالك النصرانية وبالدول الإسلامية في الأندلس/ رسالة دكتوراه غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة 1979.

أبو الفضل، محمد أحمد.

ـ تاريخ مدينة المرية الأندلسية، (الإسكندرية 1981).

أحمد، حسني.

ـ الحضارة العربية.

أدهم، علي.

ـ المعتمد بن عباد (بيروت: لا تاريخ للطبع).

أرسلان، شكيب.

ـ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، (القاهرة: 1936).

ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا... (القاهرة: 1352هـ).

آرنولد، سيرتوماس.

ـ الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، (القاهرة: 1971).

إسماعيل، محمود.

ـ الأغالبة (184 ـ 296هـ) سياستهم الخارجية (القاهرة: 1972).

ـ الخوارج في المغرب الإسلامي، (بيروت: 1976).

أشباخ، يوسف.

ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، (القاهرة: 1940) وطبعة أخرى (القاهرة: 1958).

أمين، أحمد.

ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية، مع كتاب مبادىء الفلسفة، (القاهرة: 1964).

ـ ظهر الإسلام، جـ 3، (القاهرة: 1962).

الأنصاري، فريدة رؤوف.

- الإمارة الأموية في الأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل/ رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد، 1976.

أوليري، دي لاسي.

- الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، (بيروت: 1972).

بالنثيا، أنخل جنثالث.

- تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، (القاهرة: 1955).

بامات، حيدر.

- دور المسلمين في بناء المدينة الغربية، (جنيف: لا تاريخ للطبع).
- مجالي الإسلام، ترجمة عادل زعيتر، (القاهرة: 1956).

بدر، أحمد.

- دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، (دمشق: 1972).
- تاريخ الأندلس «عصر الخلافة»، (دمشق: 1974).

بدوي، عبد الرحمن.

- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، (بيروت: 1979).

بروفنسال، ليڤي.

- الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم وأخر، (القاهرة: 1956).
- حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، (بيروت: لا تاريخ للطبع).

البنداق، محمد صالح.

- يحيى بن الحكم الغزال، (بيروت: 1979).

بروكلمان، كارل.

- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أحمد فارس وآخرون، (بيروت: 1965).

بن عبد الله، عبد العزيز.

- مظاهر الحضارة المغربية، (الدار البيضاء 1957 ـ 1958).

بول، ستانلي لين.

- قصة العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم، (القاهرة: 1947).

بيضون، إبراهيم.

- الدولة العربية في إسبانيا، (بيروت: 1978).

تشراكوا، كيليا سار نللي.

- مجاهد بن عبد الله العامري، (القاهرة: 1961).

الجنابي، أحمد نصيف.

- الرياضيات عند العرب/ الموسوعة الصغيرة العدد 64 (بغداد: 1980).

جمال الدين، محسن.

- احتفالات الموالد النبوية (بغداد: 1967).

جوليان، شارل أندريه.

- تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي وآخر، جـ 3، (الدار التونسية للنشر: 1978) وطبعة أخرى 1958.

حتاملة، محمد عبده.

- التنصير القسري لمسلمي الأندلس، (عمان: 1980).
- محنة مسلمي الأندلس، (عمان: 1977).

حتي، فيليب وآخرون.

- تاريخ العرب، مطول، (دار الكشاف 1965).

الحجّي، عبد الرحمن.

- التاريخ الأندلسي، (دمشق: 1976).
- تاريخ الموسيقى الأندلسية، (بيروت: 1969).
- الحضارة الإسلامية في الأندلس، (بيروت: 1969).
- أندلسيات، جـ 2، (بيروت: 1969).

حركات، إبراهيم.

- المغرب عبر التاريخ، (الدار البيضاء، 1965).

حسن، حسن إبراهيم.
- تاريخ الإسلام السياسي، (القاهرة: 1948).
- النظم الإسلامية (القاهرة: 1939) مع أخر.

حسين، كريم عجيل.
- الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية، (بيروت: 1976).

حسين، حازم غانم.
- الحياة العلمية والثقافية في الأندلس/ رسالة ماجستير ـ (الموصل: 1983).

حمادة، محمد ماهر.
- الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال أفريقيا، الطبعة الأولى، (1980).

حمودة، علي محمد.
- تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، (القاهرة: 1957).

خالص، صلاح.
- إشبيلية في القرن الخامس للهجرة، (بيروت: 1965).

خطاب، فرات فائق.
- أبو بكر الرازي، (بغداد: 1973).

خفاجة، محمد عبد المنعم.
- قصة الأدب في الأندلس، جزءان (بيروت: 1962).

خودابخش.
- حضارة الإسلام، ترجمة علي حسين الخربوطلي، (القاهرة: 1960).

داداه، محمد ولد.
- مفهوم الملك في المغرب، (دار الكتاب اللبناني والمصري 1977).

الدوري، إبراهيم ياس.
- عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، (بغداد: 1982).

دوزي، رينهارت.
- تاريخ مسلمي إسبانيا، جـ 1، ترجمة حسن حبشي وآخرون، (القاهرة: 1963).
- ملوك الطوائف، ترجمة كامل كيلاني، (القاهرة: 1933).

ديفز، كارلس.
- شارلمان، ترجمة الباز العريني، (القاهرة: 1959).

الرفاعي، أنور.
- الإنسان العربي والحضارة.

الركابي، جودت.
- في الأدب الأندلسي، (القاهرة: 1966).

رينو، جوزيف.
- تاريخ غزوات العرب، ترجمة شكيب أرسلان، (بيروت: 1966).

زيدان، جرجي.
- تاريخ التمدن الإسلامي، جـ 5، راجعه وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس، (القاهرة: 1955).

سالم، السيد عبد العزيز.
- تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، (بيروت: 1969).
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، (بيروت: 1962) وطبعة أخرى (بيروت: 1981).
- تاريخ مدينة المرية الإسلامية، (بيروت: 1969).
- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، جـ 1، جـ 2، (بيروت: 1971 ـ 1972).

السامرائي، خليل إبراهيم.
- الثغر الأعلى الأندلسي، (بغداد: 1976).
- دراسات في تاريخ الفكر العربي، (الموصل: 1983).
- علاقات المرابطين بالممالك النصرانية بالأندلس وبالدول الإسلامية/ رسالة دكتوراه غير منشورة ـ كلية الآداب جامعة القاهرة 1979. نشرت عام 1985.

السعيد، محمد مجيد.
- الشعر في ظل بني عباد (النجف: 1972).
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، (بغداد: 1980).

السلاوي، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، (الدار البيضاء: 1954).

شاخت وبوز ورث.

- تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس وآخرون، (الكويت: 1978).

شلبي، سعد إسماعيل.

- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، (القاهرة: 1978).
- دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، (القاهرة: 1973).

الصوفي، خالد.

- تاريخ العرب في الأندلس، منشورات الجامعة الليبية/ كلية الآداب.

ضيف، أحمد.

- بلاغة العرب في الأندلس، (القاهرة: 1924).

طرخان، إبراهيم علي.

- المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، (القاهرة: 1966).
- دولة القوط الغربيين، (القاهرة: 1958)

طه، عبد الواحد ذنون.

- الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، (ميلانو 1982) نشر دار الرشيد، بغداد.

طوقان، قدري حافظ.

- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، (دار الشروق: 1963).

الطيباوي، عبد اللطيف.

- محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، (دار الأندلس: 1979).

العبادي، أحمد مختار.

- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، (الاسكندرية 1968).
- في تاريخ المغرب والأندلس، (بيروت: 1978).
- الصقالبة في إسبانيا، (مدريد: 1953).
- في التاريخ العباسي والأندلسي، (بيروت: 1972).

عباس، إحسان.

- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، (بيروت: 1962).

عبد العواد، حسن علي حسن.
- الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس من الهجرة/ رسالة دكتوراه غير منشورة ـ جامعة القاهرة، 1973.

عبد البديع، لطفي.
- الإسلام في إسبانيا، (القاهرة: 1969).

عبد الرحمن، حكمت نجيب.
- دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، (الموصل: 1977).

عبد الله، حازم.
- ابن شهيد الأندلسي، (بغداد: 1984).
- النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، (بغداد: 1980).

العدوي، إبراهيم أحمد.
- المجتمع المغربي مقوماته الإسلامية والعربية، (القاهرة: 1970).

العزي، نجلة العزي.
- قصر الزهراء في الأندلس، (بغداد: 1977).

علام، عبد الله.
- الدعوة الموحدية بالمغرب، (دار المعرفة، القاهرة: 1964).
- الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، (دار المعارف بمصر: 1971).

علي، محمد كرد.
- الإسلام والحضارة العربية، جـ 1، (القاهرة: 1968).

عنان، محمد عبد الله.
- دولة الاسلام في الأندلس/ القسم الأول (القاهرة: 1969) (القسم الثاني 1969).
- دول الطوائف، (القاهرة: 1969).
- عصر المرابطين، (القاهرة: 1964).
- عصر الموحدين، (القاهرة: 1964).
- نهاية الأندلس، (القاهرة: 1966).
- الآثار الأندلسية الباقية، (القاهرة: 1961).

الغناي، مراجع.
- قيام دولة الموحدين، (بنغازي: 1971).
غنيم إسمت.
- الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، (جدة 1977).
فراج، عز الدين.
- فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، (دار الفكر العربي، 1978).
فرحات، يوسف شكري.
- غرناطة في ظل بني الأحمر، (بيروت: 1982).
فروخ، عمر.
- تاريخ العلوم عند العرب، (بيروت: 1970).
- ابن حزم الكبير، (بيروت: 1980).
ـ القاسمي، ظافر.
- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ، جزءان (بيروت: 1982).
كحالة، عمر رضا.
- أعلام النساء، جـ 4، (بيروت: 1977).
الكعاك، عثمان.
- موجز التاريخ العام للجزائر، (تونس: 1925).
كنون، عبد الله.
- النبوغ المغربي في الأدب العربي، جـ 2 (بيروت: 1975).
كيلاني، كامل.
- نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، (بيروت: 1924).
لوبون، غوستاف.
- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، (بيروت: 1979).
لودر، دروثي.
- إسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة طارق فودة، (القاهرة: 1965).
لويس، أرشيبالد.
- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى (القاهرة: 1960).

ماجد، عبد المنعم.
- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، (القاهرة: 1978).

مطلوب، ناطق صالح.
- فهارس شيوخ العلماء في المغرب والأندلس/ رسالة دكتوراه غير منشورة ـ القاهرة، جامعة عين شمس 1978.

محمود، حسن أحمد.
- قيام دولة المرابطين، (القاهرة: 1975).

المرزوقي، محمد.
- قابس، (تونس: 1962).

مكي، الطاهر أحمد.
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، (القاهرة: 1977).

مورينو، مانويل جوميث.
- الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع وآخر، (الدار المصرية للتأليف والترجمة، لا تاريخ للطبع).

مظهر، جلال.
- حضارة الإسلام.

مؤنس، حسين.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، (مدريد: 1967).
- غارات النورمانديين على الأندلس، (القاهرة: 1949).
- فجر الأندلس، (القاهرة: 1959).
- رحلة الأندلس، (القاهرة: 1963).

نجار، ليلى أحمد.
- العلاقات بين المغرب والأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر/ رسالة ماجستير غير منشورة ـ مكة المكرمة، 1973.

هاشم، زكريا.
- فضل الحضارة الإسلامية.

هونكة، زيغريد.
- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وآخر، (بيروت: 1969).

هيكل، أحمد.
- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، (القاهرة: 1979).

يونغ، لويس.
- العرب وأوروبا، ترجمة ميشيل أزرق، (بيروت: 1979)

3 ـ الدوريات

ابن العربي، الصديق.
- «طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب» مجلة تطوان، العدد الأول، 1956.

أولكن، ضياء.
- «أثر الفكر العربي الإسلامي في الفسلفة الغربية»، ترجمة عبد الصاحب السعدي، مجلة المورد، العدد 4، بغداد 1981.

بتسر أرنست.
- «الثقافة الإسلامية تنقل الفلسفة اليونانية إلى أوروبا» ترجمه طه التكريتي، مجلة المورد، العدد 4، بغداد 1981.

التكريتي، سليم طه.
- «ابن باجة» مجلة العربي، العدد 166.
- «أوروبا ترسل بعثاتها إلى الأندلس» مجلة الوعي الإسلامي العدد 37، (الكويت: 1968).

الجنحاني، الحبيب.
- «السياسة المالية للدولة المرابطية» مجلة المؤرخ العربي، العدد 13.

الحاجم، غازي محمد.
- «دور المسلمين في تقدم الطب» مجلة التربية الإسلامية، العدد الأول، بغداد 1977.

الحجي، عبد الرحمن.
- «القضاء ودراسته في الأندلس» مجلة كلية الإمام الأعظم، العدد الأول 1972.

خلاف، محمد عبد الوهاب.

- «صاحب الشرطة في الأندلس» مجلة المؤرخ العربي، العدد 13، ومجلة أوراق العدد 3 لسنة 1980 يصدرها المعهد الإسباني العربي للثقافة.

رمضان، عبد العظيم.

- «محاكم التفتيش» مجلة العربي، العدد 258.

السامرائي، خليل إبراهيم.

- «جهاد المسلمين وراء جبال البرتات»، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد 2 بغداد 1980.
- «طارق بن زياد بين الخطبة وإحراق السفن» مجلة آفاق جامعية، جامعة السليمانية 1978.
- «أثر العراق الحضاري على الأندلس» مجلة المؤرخ العربي، العدد 2.
- «علاقات المرابطين مع إمارات المغرب الأقصى» مجلة زانكو، جامعة السليمانية، مجلد 6، العدد 2 لسنة 1980.
- «الجزائر الشرقية ـ البليار ـ في أيام الطوائف» مجلة التربية والعلم، العدد 2.
- «إمارة كريت الإسلامية»، مجلة جامعة الموصل، أيلول، 1978.
- «التعبئة العسكرية الإسلامية في الأندلس» مجلة مكتبة زانكو، العدد 2، جامعة السليمانية لسنة 1977.
- «الدعوة إلى توحيد الأندلس في أيام الطوائف» مجلة زانكو، نيسان 1977.

طه، عبد الواحد ذنون.

- «استقرار القبائل البربرية في الأندلس»، مجلة أوراق، مدريد، العدد: 4، 1980.
- «التنظيم الاجتماعي في الأندلس خلال عصر الولاة» ندوة مكتب التربية العربي، في أبو ظبي لعام 1984.
- «نشأة التدوين التاريخي في الأندلس» مجلة دراسات، العلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية العدد، حزيران 1980.

الطيبي، أمين توفيق.

- «واقعة الزلاقة المجيدة 479هـ مقدماتها ونتائجها» مجلة كلية التربية، جامعة الفاتح، العدد السادس لسنة 1976 ـ 1977 ـ ليبيا.

العبادي، أحمد مختار.

- «صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس» مجلة البينة جـ 9، (الرباط:

1962 ـ 1963).

عبد الحميد، سعد زغلول.

ـ «العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي والمنصور الموحدي» مجلة كلية الآداب، الإسكندرية، جـ 6 ـ 7 (1952 ـ 1953).

العقاد، عباس محمود.

ـ «نصيب العرب من حضارة العالم» مجلة العربي، العدد 4.

عنان، محمد عبد الله.

ـ «تستور بلد الموريسكيين» مجلة العربي، العدد 156.

ـ «تراث الأندلس الفكري» مجلة العربي، العدد 299.

ـ «قصة كاتب مورسكي» مجلة العربي، العدد 131.

الكبيسي، خليل إبراهيم.

ـ «أبو علي القالي البغدادي وأثره بالفكر الأندلسي» مجلة المؤرخ العربي، العدد 25.

مطلوب، ناطق صالح.

ـ «كتاب الصلة لابن بشكوال، دراسة في منهجه وقيمته العلمية»، مجلة المؤرخين العرب العدد 27.

المليجي، محمد أحمد.

ـ «ابن طفيل» مجلة العربي، العدد 145.

مكرم، عبد العال سالم.

ـ «ابن مالك الأندلسي» مجلة العربي، العدد 166.

مكي، محمود علي.

ـ «رواد الثقافة الدينية الأولى بالأندلس» مجلة البينة، العدد 6 (الرباط: 1962).

ـ «وثائق مرابطية جديدة عن عصر المرابطين» صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد 7 ـ 8 (مدريد 1959 ـ 1960).

مؤنس، حسين.

ـ «الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين..» مجلة كلية الآداب مجلد 11، جـ 2، (القاهرة: 1949).

ـ «رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس»، صحيفة معهد الدراسات مدريد 18/

.1975 ـ 74

- «المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية» المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الأول (القاهرة: 1951).
- «بلاي وميلاد أشتوريس» مجلة كلية الآداب، القاهرة م 11 ج 1، 1949.

المياح، علي.

- «العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا»، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، م 5 بغداد 1969.

ميراندة، أمبروزيو أويثي.

- «علي بن يوسف وأعماله في الأندلس» مجلة تطوان، العدد الثالث والرابع (1958 ـ 1959).

هويدي، فهمي.

- «في بلاد الموريسيك غرباء الأندلس» مجلة العربي، العدد 228.

4 ـ المراجع الأجنبية

Abadaly Vinyals, Ramon,

* «El paso de Septimania del donin. godo alfranco a traves de la invasion sarracena (720-768)» Cuadernos de Historia de Espana XIX, 1953, 5-54.

Albornoz Sanchez,

* «Otra vez Gudalete y Covadoga» Cuadernos de Historia de Espana, I-II, 1944.

Amador de los Rio,

* Historia social, politica y religiosa de los judios de Espana y Portugal, Madrid, 1875-76. VOL. I.

Altamira, Rafael,

* A History of Spain From the Beginings to the present day, translated from the Spanish by: Muna Lee, Toronto, Canada, 1949.

Baer, Yitzhak,

* A History of the Jews in Christian Spain, VOL. I, translated from the Hebrew by Louis Schoffman, philadelphia, 1971.

Ballestros y Beretta, Antonio,

* Historia de Espana y su influencia en la historia, universal, VOL. I. Barcelona, 1918.

Barbour, N.

* Moroco, London, 1965.

Bell, F.

* Les Benou chanya, paris, 1903.

Casiri, A.

* Bebliotheca Arabico-Hispana Lusiatania Escurialensis, Madrid, 1770, VOL. II.

Carcia Domingues. Jose.

* «Invasao e conquista de Lusiatania por Muca Ben Nocair e seu filho «Abdalaziz», Congreso de Estudios Arabes e Islamicos, Actas, held, Cordoba, 1964.

* The Cambridage Medieval History, VOL. II, planned by: J.B. Bury, ed: H.M. Gwatking and J.P. Whitney, Cambridge, 1964.

* **Chronicon Albeldense, or the Chronicle of Albeda,**
(ملحق رقم 3 لكتاب أخبار مجموعة طبعة مدريد 1867 ص 163 ـ 1665).

* **Chronicon Moissiacense, or the Chronicle of Moissac,**
(ملحق رقم 4 لكتاب أخبار مجموعة، طبعة مدريد 1867 ص 165 ـ 165).

Creasey, Edward.

* Fifteen Decisive Battles of the World, London, 1762.

Dozy, R

* L'Histoire et la litterature des Arabes de Espagne, VOL. I, II, Amsterdam, 1965, reprint of Leiden edition, 1881.

El-Hajji, A.A,

* Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe During the Umayyad Period, Beirut, 1970.

Gayangos, Pascual.

* The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, New-York, London, 1964, reprint of London edition, 1843.

* Isidoro Pacence, or the Chronicle of 754.

(ملحق رقم 2 لكتاب أخبار مجموعة، طبعة مدريد 1867 ص 163 ـ 165).

Isidoro of Seville,

* History of the Goths, Vandals, and Suevi, translated from the Latin, by: Guido Donini and Gordon B. Ford, Jr. 2nd edition, Leiden, 1970.

Katz, Solomon,

* The Jews in the Visigothic and Frankish Kigdom of Spain and Gaul, New-York, 1970.

Livermore, H.V.

* The Origins of Spain and Portugal, London, 1971.

Modoz, Pascual,

* Diccionario geografico-estadisico-historico de Espana y sus Posesiones de Ultramar, Madrid, 1848-1850.

O'Callaghan, Joseph.

* A History of Medieval Spain, New-York and London, 1975.

* Paulus Diaconus, ex lib. vi or Paul the Deacon, book 6.

(ملحق رقم 6 لكتاب أخبار مجموعة، طبعة مدريد 1867 ص 167).

Pidal, R.M,

* The Cid and his Spain, translated from the Spanish by: Harold Sunderland, London, 1934.

Provençal, Levi,

* Histoire de L'Espagne Musulmane, Paris, 1950.

Rinaud, M.

* Incursions of the Muslims into France Piedmont, and Switzerland, translated from the French by: Harun Khan Sherwani, Islamic Culture, IV, 1930.

Saavedra, Eduardo,

* Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana, Madrid, 1892.

Scott, S.P.

* A History of the Morish Empier in Europe, VOL. II, London, 1904.

Shaw, R.D.

* «The Fall of the Visigothic Power in Spain,» The English Historical Review, XXI, 1906.

Simonet, F.J.

* Glosario de voces ibericas y Latinas usandas entre los mozarabes, Amsterdam, 1967, reprint of Madrid edition, 1888.

Thompson, E.A.

* The Goths in Spain, Oxford, 1969.

Watt, M.

* A History of Islamic Spain, Islamic Surreys 4, Edinburgh, 1967.

فهرس

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

Imprimé au LIBAN par
Chemaly & Chemaly
Printing Press
JISR AL - BACHA

تاريخ العرب
وحضارتهم في الأندلس

يمثل كتابة التاريخ العربي في مساراته المختلفة، وجهات نظر متعددة، ومختلفة كلياً - لما لها من إرتباط وثيق بجملة من الشروط التاريخية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية- ولكن طريقة كتابة فتح العرب لإسبانيا، والتاريخ الأندلسي، يحتاج إلى عدد وفير من الباحثين العرب، ليقدموا دراسات مستنيرة وموضوعية في آن. بحيث إمتد الوجود العربي في إسبانيا قرابة الثمانية قرون. ومن خلال هذا «الأرابيسك» الزمني، تبدلت سياسات وآفاق معرفية، وهاجرت عرقيات وإثنيات مختلفة، إلى أن وصل أخيراً تحت أقدام محاكم التفتيش الموغلة في الظلامية والتعصب الديني والمذهبي، وأصبحت تلاحق وتتعقب كل من يؤدي شعائر الإسلام بأية صورة، فكان من جراء ذلك أنه أظهر عدداً من المسلمين «المسيحية» وأبطنوا الإسلام، وأطلقوا على هؤلاء إسم الموريسكيون LOS MORISCOS أي المسلمون الصغار.

وهذا الكتاب يمثل إضافة مهمّة في حقل الدراسات الأندلسية، والتاريخ الأندلسي لما له من أهمية في إستنطاق النصوص العربية القديمة والحديثة على قلّتها، أو النصوص اللاتينية، وتداعياتها، وما تحمله من وجهة نظر محمّلة بعبء أيديولوجي يُدين الوجود العربي في إسبانيا.

دار الكتاب الجديد المتحدة
أوتوستراد شاتيلا - الطيونة - شارع هادي نصر الله - بناية فرحات وحجيج - طابق 5
خليوي: 03-933989 هاتف وفاكس: 542778-1-961+

توزيع: دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني السوق الأخضر هاتف: 3338571 • 4449903 • 4448750-21-218+
فاكس: 4442758-21-218+ ص.ب: 13498 طرابلس - الجماهيرية العظمى

ISBN 9959-29-015-8